الكتاب رقم
(٢٣)

موسوعة تعظيم علَّام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

الرّضا بالله تعالى

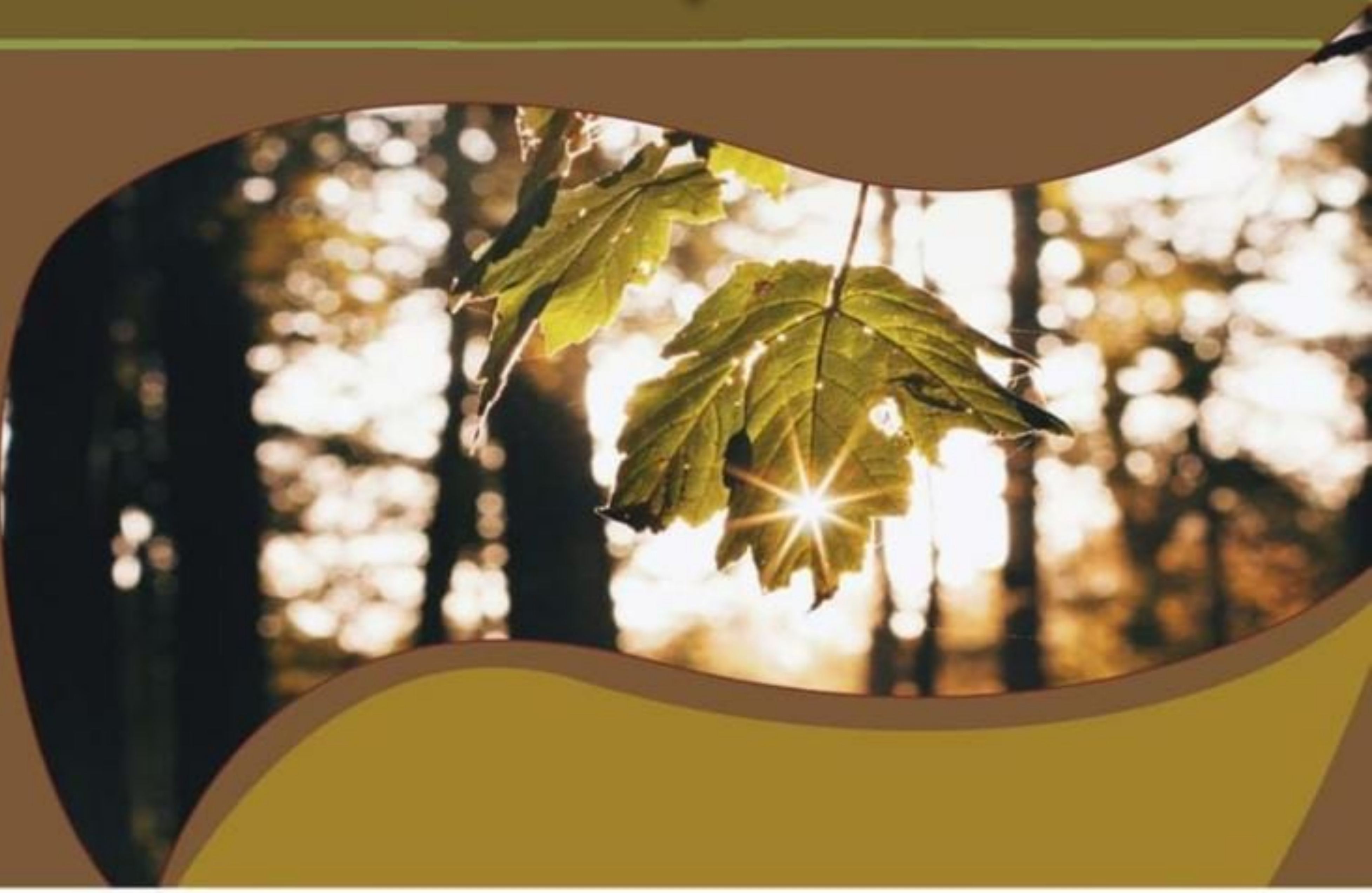

تأليف
إبراهيم بن عبد الرحمن التميمي
غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين

موسوعة:

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

الكتاب رقم (٢٣)

الرِّضَا باللَّه تعالى

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميجي

غفر الله له ولوالديه والمسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

فِهرِس المحتَوَيات

التعريف ١٢
الرِّضا مِنْ صفات الله تبارك وتعالى ١٨
الفرقُ بين الرِّضا بالله والرِّضا عنه سبحانه ٢٩
علاقةُ الرِّضا بأعمال القلوب الأخرى ٣١
فضلُ الرِّضا بالله تعالى ومنزلتُه ٤١
درجاتُ الرِّضا بالله تعالى ٧٨
عمومُ الرِّضَا بالزمان والمكان واللون والجنس والنسب والزوج والولد والرزق وسائر أحوال الدنيا ٨٢
حكمُ الرِّضا ٩٨
القَدَرُ والشَّرْعُ ١٣٦
القَدَرُ والعَقْلُ ١٧٩
من السلامةِ تركُ التعمّق في بحث تفاصيل القدر ١٩٢
متى يُشرع البحث في تفاصيل القَدَر؟ ٢٠٧
جفَّ القلمُ بما هو كائنٌ ٢٦١
هل كلُّ القضاء خيرٌ للمؤمن؟ ٢٩٥
كيف يريدُ الله تعالى أمرًا لا يرضاه؟ ٣١١

«فحجّ آدمُ موسى» ٣٤١
شروطُ الرِّضا بالله تعالى ٣٦٤
العزمُ على الرِّضا لا يستلزم الرِّضا ٤١٩
الرضا بالله ربًّا وإلهًا ٤٢٤
الرضا بالإسلام دينًا ٤٥١
الرضا بمحمد ﷺ رسولًا ٤٨٢
الرضا بعلم السلف والاكتفاء به في أمور الشرع ٤٨٥
آدابُ الرّضا بالله تعالى ٥٣٣
إيثارُ رضا الله تعالى على رضا غيره ٥٦٧
علاماتُ ومظاهرُ الراضين بالله تعالى ٥٨٢
الرضا والبلاء ٦٨٠
أحكامُ تَمَنِّي الموت خشيةَ الفتنةِ أو غيرها ٧٣٤
ثمارُ الرّضا بالله تعالى ٧٦١
الرضا بالله تعالى والتفاؤل ٧٨٥
علوُّ الهِمَّة بالرّضا ٧٩٩
طرقُ تحصيلِ الرضا بالله تعالى ٨١٣
هل الأفضل الدعاء برفع بلاء الدنيا، أم الرضا والتسليم؟ ٨٦٣
هل الدعاء على الظالم فضيلة؟ ٨٨٥

الدعاءُ لرفع نازلة الدَّين ٩٠٣
حكمُ التداوي، وهل يقدحُ في الرضا؟ ٩٣٤
هل الرضا بالله تعالى موهبيٌّ أم كسبيٌّ؟ ٩٥١
هل للسنّ علاقة بطيب الرضا؟ ٩٥٥
هل عدمُ الألم شرطٌ للرِّضا بالله تعالى؟ ٩٥٨
هل ينافي الرضا البكاء على الميّت؟ ٩٧١
﴿وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا﴾ ٩٧٧
عوائقُ الرِّضا ٩٧٩
أخطاء في فهم الرضا أو تطبيقه ١٠٤٦
انفساخُ العَزَائِم وانتقاضُ الدَّعَائِم ١١٠٠
كيف تتخطّى مرحلة الـ(لو) ١١٣٣
﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ ١١٥٧
﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ﴾ ١١٧٥
والنفسُ ذاتُ إقبالٍ وإدبارٍ ١١٨٨
من أخبار الراضين بالله رب العالمين ١١٩٠
قالوا عن الرِّضَا بالله تعالى ١٢٩٤
حمدٌ وتسبيحٌ وابتهال ١٣٠٨

تمهيد

الحمد لله كثيرًا كما ينبغي له وهو الحميد الغفور الجميل الودود، تبارك وتعالى ربُّنا معبودُ الأفئدة وقِبْلَةُ القلوب، كلُّ شيء يُحَبُّ لغيره إلا هو وحده فهو لِذَاتِه المحبوب، ذو الرضا العظيم الكبير المرغوب، والحمدِ التامِّ والجمالِ الكامل والجلالِ المرهوب، يعفو ويغفر سيئاتِ الخطايا ومهلكاتِ الذنوب، يملي ويمهلُ كرمًا ورحمةً لعلّ العاصي يتوب والخاطئ يؤوب، يرحَمُ ويرفُقُ ويلطُفُ بعبده الجاهلِ المَسلوبِ، يُكرِمُ ويُعطي جودًا وطيبًا ويجيبُ المطلوب، يُطعمُ ويَسقي ويُنعمُ ويشفي ويسترُ العيوب، يُغني ويكفي ويعصمُ ويُؤوي ويكشفُ الكروب.

أحمده تبارك وتعالى حمدًا كثيرًا طيّبًا مباركًا عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته وكما ينبغي لعظيم جلاله وجماله ورحمته وكرمه ولطفه وألوهيته وربوبيته وكماله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، خلق السماوات والأرض في ستة أيام وما مسّه من لُغوب، يُضلُّ من يشاء، ويهدي من يشاء، ويُقلّب الأبصار والبصائر والنيّات والقلوب، يَسمعُ النداءَ ويُجيب الدعاءَ وما لعطاياه من تأخُّرٍ ولا قِلّة ولا عبثٍ ولا نضوب.

السعيدُ من رَضِيَهُ فأرضاه، وأحبَّه وقرّبه وأدناه، فسعد سعادة أبدِ الأبَدِ، فهو في نعيم الرضوان مكتوب، والشقي من سخطه ومقته وقَلَاهُ، فهو بالخذلان والحرمان والعذاب مضروب.

إليــكَ، وإلّا لا تُشــدُّ الركائــبُ ومنــكَ، وإلّا فالمؤمِّــلُ خائــبُ
وفيــكَ، وإلّا فالزَّمــانُ مُضــيَّعٌ وعنـكَ، وإلّا فالمُحَـدِّثُ كـاذبٌ
لـديكَ، وإلّا لا قـرارَ يطيـبُ لي إليـكَ، وإلّا لا تسـيلُ السـواكبُ

وأشهد أن نبيّنا محمدًا عبدُه ونبيّه ورسولُه، الخليلُ الكليمُ الكريمُ المحبوبُ، مَن خُلُقُه مكارمُ الأخلاق، ونورُ شرعه أضاء الآفاق، خيرُ البريّة، ومصطفى البشريّة، جاء من عند الله تعالى بشريعة هي نور الأرجاء وضياء الدروب ، مَن أطاعه فقد أطاع الله، ومن تبع نهجه فقد أرضاه، له لواءُ الحمد والشفاعةُ العظمى والحوضُ المورود، اللّهم صلِّ وسلِّم وبارك عليه عدد الرمال والحصى، وكلما أطاعه عبد أو غفل أو عصى، ونوِّرْ بصلاتنا عليه بصائرَنا والقلوب، ربّنا ثبّتنا على ملّته، ووفقنا لشرعته، واهدنا سنّتَه، وألهمنا حجّته، وابعثنا على محجّته، واحشرنا في زمرته، واجمعنا تحت لواء حمده، وأوردنا حوضه، وارزقنا شفاعته، وأدخلنا ووالدينا والمسلمين معه جناتك جنات النعيم في الفردوس الأعلى بلا حساب ولا عذاب، واجزه عنّا خير ما جزيت نبيًّا عن أمته، يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام. اللّهم توفيقك وعصمتك وحفظك ومعونتك وعفوك ومغفرتك ورحمتك وكرمك ورضاك والجنة، إله الحق آمين.

أسيرُ خلفَ الرِّكاب النُّجبِ ذا عَرَجٍ مؤملًا غير الذي يُفضي به عَرَجِي
فإن لحقتُ بهم من بعد ما سبقوا فكم لربِّ السَّما في ذاك من فرجِ
وإن بقيتُ بظهرِ الأرض منقطعًا فما على أعرجٍ في ذاكَ من حرجِ

أمّا بعد: فإنّ الرضا بالله ربًّا مدبرًا عليمًا قديرًا مالكًا برًّا حكيمًا رحيمًا وإلهًا قريبًا شهيدًا حسيبًا محيطًا هو الأمن التام والطمأنينة الوارفة والسكينة الطيبة والسعادة الأبدية والكفاية الكاملة بكل صنوف الكفاية.

إن الرضا بالله تعالى هو شعار المؤمنين به، ودِثار المسلمين له، ولا يستقيم الدين إلا بالرضا عن الله تعالى ربًّا وإلهًا ومُقدّرا ومدبّرًا، ولا جَرَم أنّ المؤمن في كل صبح وعشية يهتف بقلبه من وراء لسانه ثلاثًا: رضيت بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا وهاديًا وخليلًا، صلى الله وسلم وبارك عليه عدد خلق الخلاق العظيم(١).

إنّ الرضا بالله هو البحر الدافئُ الذي تنغمس فيه كل صنوف البلايا، وتتلاشى فيه كل أجناس الرزايا، فلا يبقى في صدر الراضي بربه حرارة غضب، أو جمرة قهر، أو برد خوف، أو جليد فزع، أو ضغط مُلِمّة، أو تشعّب شتات، أو طعنة ندم، أو كَسرة أسى، أو عصفة حزن، أو لوعة فراق، ذلك أنه بحرٌ عذبٌ فراتٌ محيطٌ بقلب المرء السعيد من جميع جهاته الست وسابعها جوف الفؤاد فيغمره سكينةً وطمأنينةً وشوقًا وإيمانًا، فهو محضُ رحمة الرحيم

---

(١) قال رسول الله ﷺ: **«ما من عبد مسلم يقول حين يُصبح وحين يُمسي ثلاث مرات: رضيت بالله ربًا وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا، إلا كان حقًا على الله أن يرضيه يوم القيامة»**. رواه أحمد (١٨٩٦٧) (٤/٣٣٧) من حديث أنس، وفيه سابق بن ناجية لم يوثقه غير ابن حبان. وقال محققو المسند: صحيح لغيره. وجود سنده النووي في الأذكار، وحسّنه ابن باز في تحفة الأخيار. وله شاهد من حديث أبي سعيد الخدري عند أحمد (١١١٠٢) وهو حديث صحيح.

الرحمن، ورقيقةٌ من لطائف الملك الرفيق المنان، وهو الكريم الوهاب لمن شاء أن يغمس فيه من عباده المُوفَّقين وأوليائه المحبين، فلا يُبقِي ذلك الرضا العجيب في الصدر والقلب والروح مكانًا لأي ألمٍ أو حزنٍ أو عَنَتٍ أو ندمٍ ليقينه وثقته وتعلقه بحسن تدبير ربه، ولطف إلهه، ورحمة سيده، وقرب مولاه، ورسوخ يقينه بلقائه، ولمحبته التامة ورجائه الكامل لمن لا يأتي الخير إلا من قِبَلِه، كيف لا يكون كذلك وهو يذوق لذائذ وحلاوة طعم الإيمان بلسان قلبه التقيّ النقيّ الطاهر، فعن العباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: **«ذَاقَ طَعمَ الْإِيمَانِ مَن رَضِيَ بِالله رَبًّا، وَبِالإِسلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا»**.[1]

وتأمّل تعجّب أبي سعيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ من عظمة وجزالة العطية الإلهية والمنحة الربانية للمؤمنين حين قال رسول الله ﷺ: **«من رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمدٍ رسولًا وجبت له الجنة»**. فعجب لها أبو سعيدٍ فقال: أعدها عليّ يا رسول الله، فأعادها عليه، ثم قال: **«وأخرى يرفع الله بها العبد مئة درجةٍ في الجنة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض» قال: وما هي يا رسول الله؟ قال: «الجهاد في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله»**.[2] وعن ابن عباس رضي الله عنهما في حديث الحفظ الشهير: أنّ رسول الله ﷺ أوصاه بقوله: **«احفظ الله يحفظك...»** إلى أن قال: **«فإن استطعت أن تعمل لله بالرضا واليقين فافعل، وإن لم تستطع فإنّ في الصبر على ما تكرهُ خيرًا**

---

(١) رواه مسلم (٣٤)، والترمذي (٢٦٢٣).

(٢) مسلم (١٨٨٤)، والنسائي (٦/ ١٩ – ٢٠).

كثيرًا، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا»(١).

حَيَّا الحَيَا تِلكَ المَنازِلَ والرُّبَى ... وسَقَى الوَلِيُّ مَواطِنَ الآلاءِ

واعلم أن الرضا من حيث الترتيب الزمني للواردات على القلب عند الحوادث ـ محبوبة كانت أو غير ذلك ـ هو الثاني، فأولهن انتصابًا للمقادير: الصبر، ثم الرضا، ثم الحمد والشكر. وبعضهنّ مرتّب على بعض، فلا وصول للرضا إلا على راحلة الصبر، ولا بلوغ للحمد والشكر إلا على مركبي الصبر والرضا، فالرضا هو المرتبة التالية للصبر، والسابقة للحمد والشكر. أما من حيث الأفضلية وعلوّ المرتبة فالرضا فوق الصبر ودون الحمد والشكر، والله أعلم. جعلنا الله جميعًا من أهل رضوانه ورحمته وكرامته.

إلهِي لَقَدْ أحْسَنْتَ رَغْمَ إساءَتِي ... إليكَ فَلَم يَنهَض بإحسانِكَ الشُّكرُ

فَمَن كانَ مُعْتَذِرًا إليكَ بحُجَّةٍ ... فَعُذرِيَ إقْرارِي بأنْ ليسَ لي عُذْرُ

(١) الترمذي (٢٥١٦) وأحمد (٢٨٧/٤) وصححه أحمد شاكر، والأرناؤوط (٢٨٠٣) وقال: «حديث صحيح، وهذا الحديث رواه أحمد عن شيخه أبي عبد الرحمن عبد الله بن يزيد المقرئ بثلاثة أسانيد، الأخير منها متصل، والأول والثاني فيهما انقطاع». وصححه القرطبي في التفسير (٣٣٥/٨) وقال ابن رجب في الجامع (٤٥٩/١): حسن جيد. وضعفه الألباني في السلسلة (٥١٠٧) وقال ابن تيمية في التوسل (٥٢): «حديث معروف مشهور».

أَلَا وإنّ أعظم جُرعةٍ مُسكّن للألم على وجه الأرض بإطلاق هي جُرعةٌ في القلب من الرضا بالله تعالى، فلا أجلدَ مِن عيش الصابرين، ولا أطيبَ من عيش الراضين، ولا أهنأَ من عيش الحامدين، ولا أسعدَ من حياة الشاكرين.

وإنّ الرضا بالله جُنَّةٌ مُحكَمة ودرعٌ سابغٌ وحصنٌ حصين من تخبّطات الشيطان الرجيم بالجُهَّال الساخطين، والحمد لله رب العالمين.

وهذه ـ أخي في الله تعالى ـ حروف يسّرها الله تعالى في بيان هذا الباب وحدوده وفضله وأطرافه ودلائله وطرق تحصيله وموانعه ومتعلّقاته وأحوال أهله وبعض أخبارهم، فعن غير مدحِ الله تعالى وما يُحِبّه فلْتُحرق الكواغِدُ ولْتُهْرَق الأَمِدَّةُ ولْتُكْسَر الأقلامُ! سائلًا ربيَ الأعزَّ الأجلَّ الملكَ العلّامَ العونَ والتوفيق والقبول والتسديد والإلهام، لائذًا به في كلِّ أمري، عائذًا به من كلامٍ عن هوى، وخوض في غَيٍّ، إن ربي قريبٌ ودودٌ مُجيبٌ سميعُ الدعاء.

كَلَمَ السُّهادُ جُفونَهُ فتَبادَرَتْ ... عَبراتُهُ مَمزوجَةً بِدِماءِ
أَهدى لَنا أَرواحَ نَجدٍ عَرْفُهُ ... فَالجَوُّ مِنهُ مُعَنبَرُ الأَرجاءِ
وَرَوَى أَحاديثَ الأَحِبَّةِ مُسنِدًا ... عَن إِذخِرٍ بِأَذاخِرٍ وَسِخاءِ

والحمد لله الذي لم يتخذ ولدًا، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له وليٌّ من الذل، والله أكبر كبيرًا، وصلى الله وسلم وبارك على محمد وآله.

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميجي
١/ ٦/ ١٤٤١
aldumaiji@gmail.com
٠٥٠٥١١٩٦٤٥

التعريف

الرضا: هو طيب إحساس القلب نحو غيره، وشعوره بقبوله والاطمئنان إليه، وعدم سُخطه والنفور منه. وإذا كمُل فهو امتلاء القلب به.

والرضا: مصدر رضي يرضى، وهو مأخوذ من مادة (ر ض و) التي تدل على خلاف السخط. وقال النبي ﷺ: **«إن عِظم الجزاء مع عظم البلاء، وإنّ الله تعالى إذا أحبَّ قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السّخط»**.[(١)]

وقيل في حده كذلك: هو سرور القلب بمُرّ القضاء. وقيل: الرضا: ارتفاع الجزع في أي حكم كان، وقيل: الرضا هو صحة العلم الواصل إلى القلب، فإذا باشر القلب حقيقة العلم أداه إلى الرضا.

وقيل: استقبال الأحكام بالفرح. وقيل: سكون القلب تحت مجاري الأحكام. وقيل: نظر القلب إلى قديم اختيار الله للعبد فإنه اختار له الأفضل، وهو ترك السخط. وقال المناوي: «الرضا طيب نفسيٌّ للإنسان بما يصيبه أو يفوته مع عدم التغيّر، وقول الفقهاء: «يشهد على رضاها»، أي: إذنها، فجعلوا الإذن رضا لدلالته عليه».[(٢)]

---

(١) البخاري ١٠٩/٧ (٥٤٧٠)، ومسلم ١٧٤/٦ (٢١٤٤) (٢٣).

(٢) التعريفات للجرجاني (١١١)، مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ١٨٥)، التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي (١٧٨) نضرة النعيم (٦ / ٢١٠٣)

والرضوان: هو الرضا الكثير، ولما وصف الله ما أعدّه لأوليائه في الجنة نبّه إلى رضوانه ـ أو أنَّ جزءًا من رضوانه[١] ـ أعظمُ من الجنة وما فيها، فالجنة كلّها جزء من رضوان الله عز وجل؛ لأنها ثمرةُ رضاهُ عن أوليائه، وتدبر قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التَّوْبَة: ٧٢]، وتأمل تأكيد الفوز بـ«هو». نسأل الله الكريم من فضله.

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربَّنا وسعديك، والخيرُ في يديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: وأيُّ شيءٍ أفضل من ذلك؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخطُ عليكم**

---

(١) كما قرره الإمام الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي جدّد وجاهد في زمانه حتى دفع الله به غربة فئام من أهل السنة والمتسنّنة في بقاع من القطر اليماني العزيز، بل في كثير من سواد أركان الأرض، قال في شأنه الشيخ المحقق حماد الأنصاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الشوكاني صاحب علم وسياسة، استطاع أن يسلك بالزيدية طريق السنة». ثم قال: «الشوكاني المحدث الكبير الذي خدم الحديث خدمة لا مثيل لها في ذلك الزمن». رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المدارج (٢/٢٠٨) في هذا المعنى العزيز: «إن رضا الله عن العبد أكبر من الجنة وما فيها، لأن الرضا صفة الله والجنة خلقه، قال الله تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التَّوْبَة: ٧٢] بعد قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التَّوْبَة: ٧٢]».

بعده أبدًا». متفق عليه.[١] ولعل هذا سبب تخصيص الصحابة بالدعاء بالرضا وغيرهم بالرحمة؛ لأن الرضا أرفع وأكمل، ففيه تضمُّنٌ للحُبّ والقبول، ولا يُشترط ذلك في حَدّ الرحمة؛ لأنها إنالة المقصود والحفظ من المخوف، فهي ـ وإن تضمّنت حبًّا وقبولًا ـ لكنها ليست بذلك الظهور والكثرة في الرضا، والله أعلم.

أما عن إملائها؛ فإنَ الأقعد والأشبه في كتابة الرضا أن تكتب بالألف الطويلة (رضا) وليس (رضى) لأنّ أصل هذه الألف هو الواو وليس الياء، فتقول: رضيَ يرضى رضًا ورضوانًا. وتثنيةُ رضا: رِضَوَان إذ أنّ أصلها واو (رضو). وفي الأمر سعة بحمد الله، فكلاهما صحيح ولا مشاحّة في ذلك،[٢] فهي من الأفعال الواوية واليائية التي تكتب ألفها ممدودة ومقصورة، وقد قال الفرّاء في كتاب المنقوص والممدود: «الحما والرضا يكتبان بالألف والياء، لأن الكسائي سمع العرب تقول: حِمَوَان ورِضَوَان، وحِمَيان ورِضَيان».[٣] أي في تثنية الرِّضا، فمِن العرب من يقولها بالياء على الأَصل، والواو أكثر. قال ابن قتيبة: «وإذا ورد عليك حرف قد ثُنِّيَ بالياء وبالواو عملت على الأكثر الأعمّ، نحو رَحَى؛ لأن من العرب من يقول (رَحَوْت الرَّحَا) ومنهم من يقول (رَحَيْت الرَّحى)، وأن تكتبها بالياء كان أحبّ إليَّ؛ لأنها اللغة العالية، وكذلك

---

(١) البخاري ٨/١٤٢ (٦٥٤٩)، ومسلم ٨/١٤٤ (٢٨٢٩) (٩).

(٢) ولا بأس بالترخص بدليله في اللغة نحوًا وصرفًا ودلالة تسهيلًا للناس، خاصة مع انتشار العُجمة.

(٣) انظر: لسان العرب (١٤/ ٣٢٣).

(الرِّضَا) من العرب من يثنيه (رِضَيَانِ) ومنهم من يثنيه (رِضَوَانِ) وأن تكتبه بالألف أحَبُّ إلَيَّ لأن الواو فيه أكثر وهو من (الرِّضْوَانِ)».[(١)] إذن فكلاهما عربيّةٌ صحيحة على الجادة، فلا تثريب.

فإن كانت على سياق المصدر راضا رضاءً بمعنى المراضاة فتكتب (رضاء). وقال ابن فارس: «(رضي) الراء والضاد والحرف المعتلّ أصلٌ واحد يدلُّ على خلاف السُّخْط. تقول: رضِي يرضَى رِضًى. وهو راضٍ، ويقال: إنّ أصله الواو؛ لأنّه يقال منه رِضوَان. قال أبو عبيد: راضانِي فلانٌ فرَضَوْتُه».[(٢)]

وقال الأزهري: «قال الليث: رَضِي فلان يَرضَى رِضًى. والرَّضِيُّ: المَرْضِيُّ، والرِّضى مقصورٌ. قلت: وإذا جعلت الرِّضا مصدر راضيته رِضاءً ومُراضاةً فهو ممدود، وإذا جعلته مصدر رَضِي يَرضَى رِضًى فهو مقصور. والقرَّاء كلهم قرأوا الرِّضوان ـ بكسر الراء ـ إلا ما روى عن عاصم أنه قال: رُضوَان، وهما لغتان. ويقال: فلان مَرْضِيٌّ، ومن العرب من يقول: مَرْضُوٌّ، لأنه من بنات الواو، والله أعلم».[(٣)] ونقل ابن سِيده عن ابن جِنّي: «والرِّضَاء مصدر راضَيْته رِضَاءً، وأنشد:

لم نُرَحِّب بما سَخِطتَ ولكنْ مَرْحبًا بالرِّضاءِ منك وأهْلًا

---

(١) أدب الكاتب (١ / ٢٠٥).

(٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٢/ ٤٠٢).

(٣) تهذيب اللغة (٤/ ١٦٧).

وإنما لم يُعادَل به الرِّضَى المقْصور لقِلَّة مدّ الرِّضى».[١] وقال ابن دريد: «والرِّضى: ضد الغضب. والرِّضاء، ممدود: مصدر راضيتُه مراضاةً ورِضاءً».[٢]

أما ابن خلدون فقد بسطه كعادته فمما قال: «الرِّضا مقصورٌ ضدُّ السَّخَطِ، وفي حديث الدعاء: «**اللّهم إني أعوذُ برضاكَ من سَخَطِك، وبمُعافاتِك من عُقوبَتِك، وأعوذُ بك منك، لا أُحْصي ثَناءً عليك، أَنت كما أَثْنَيْتَ على نفسك**».[٣] ورَضيتُ عنك وعَلَيْكَ[٤] رِضًى مقصورٌ مصدرٌ مَحْضٌ، والاسمُ الرِّضاءُ ممدودٌ. عن الأَخفش قال القُحَيْفُ العُقَيْلي:

إذا رَضِيَتْ عَلَيَّ بَنو قُشَيْرٍ لَعَمْرُ اللهِ أَعْجَبَني رِضاها

ولا تَنْبو سُيوفُ بَني قُشَيْرٍ ولا تَمْضي الأَسِنَّةُ في صَفاها

عدّاه بـ «عَلى» لأَنَّها إذا رَضِيَتْ عنه أَحَبَّته وأَقْبَلَت عليه، فلذلك اسْتَعْمل على بمعنى عَنْ. قال ابن جني: وكان أَبو عَلِيٍّ يستحسن قول الكسائي في هذا

---

(١) المخصص (٤/ ١٠٤).

(٢) جمهرة اللغة (٢/ ١٠٠).

(٣) مسلم ٢/٥١ (٤٨٥) قال ابن الأَثير: «فإنما قدم الاستعاذة بالرِّضا على السَّخَط لأَنَّ المُعافاة من العُقوبة تحصل بحصول الرضا، وإنما ذكرها لأَنّ دلالة الأُولى عليها دلالة تضمن، فأَراد أن يدلّ عليها دلالة مطابقة؛ فكنّى عنها أَولًا ثم صرح بها ثانيًا، ولأَن الراضِيَ قد يعاقِب للمصلحة أَو لاستيفاء حقِّ الغير».

(٤) والثانية مشهورة على ألسنة العامة وهي كما ترى صحيحة، لأن لفظ الرضا يتعدَّى بعن وبعلى، فتقول: رضي الله عنك، ورضي عليك.

لأنه لمَّا كان رَضيتُ ضِدَّ سَخِطْت عَدَّى رَضيتُ بعَلى حملًا للشيء على نقيضه كما يُحْمَلُ على نَظيره.

وأَرْضاهُ: أَعْطاهُ ما يَرْضى به. وتَرَضّاهُ: طَلَب رِضاه. والرَّضِيُّ المَرْضِيُّ. ورَضيتُ الشيءَ وارْتَضَيْتُه فهو مَرْضيٌّ. وقيل: ﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾ [القارِعَة: ٧]: أَي مَرْضِيَّة، أَي ذات رضًى».[١]

وهناك كلمات تأتي بمعنى الرضا أو تقاربه، مثل القناعة، فالقانع: هو الراضي باليسير. وأقنعه: أرضاه. وكذلك الركون وهو السكون برضى، كما في قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١١٣] أي لا ترضوا أعمالهم. وقد يأتي الحمد بمعنى الرضا، كقولك: بلوته فحمدته، أي: اختبرته فرضيته، وإن كان في الحمد مزيد إظهار للمَمادح وتنويه بها. وبالله التوفيق وعليه المعوّل.

---

(١) لسان العرب (١٤/ ٣٢٣) مختصرًا.

الرِّضا مِنْ صفات الله تبارك وتعالى

شرفُ كل علم بمتعلّقه، لذلك فعلم الأسماء والصفات لله تعالى هو أشرف العلوم بإطلاق، لتعلقه بأسماء الله تعالى وصفاته المقدّسة، والقرآن العظيم من كلام الله تعالى، وأعظم الهُدى هو هُدى الله عبده إليه، فيعلم العبدُ أسماءَ ربه وصفاته وأفعاله، وحقوقَه التي هي الدين الذي خلقه لإقامته ووعده معونته إن صدق معه. وعليه فالضلال في هذا الباب خذلان عظيم وخيبة كبيرة؛ لأنه لم يهتد لأعظم أمر وهو أسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله وحقوقه. وقد خاب من أولاد آدم من ضلَّ عن معرفة ربه الأجلّ!

فَلَـو أنّهـا نَفْـسٌ تَمُـوتُ جَمِيعَـةً وَلَكِنّهـا نَفْـسٌ تَسـاقَطُ أنفُسَـا

والقرآن العظيم والسنة المطهرة مليئان بذكر تفاصيل هذا الباب الشريف، فالأسماء والصفات والأفعال متعلقة بحُسن التصوّر وسلامة الاعتقاد من العبد لربه تعالى ابتداء، أما الحقوق فمتعلّقها مع صحّة الاعتقاد حُسن التعبّد لله جل جلاله.

ولما كان حُسن المعتقد وسلامته هو أصل الأصول فقد دارت في ميدانه رحى الحرب بين أولياء الرحمن وجند الشيطان، فأخذ العدو الرجيم يفتل قلائد كيده حول أعناق قلوب أهل الإيمان، ويعقد عُقد شبهه وأباطيله في صدورهم، وينفث فيها بكل شبهة وشهوة وجهل وخرافة وقرمطة وسفسطة؛ فراجت أباطيله على فئام من المسلمين كُثُر، إذ فتحوا عقولهم للشبهات، ولم

يستضيئوا بنور الوحي المنزل، ولم يكتفوا بما فيه من علم وعصمة، وغناء للقلب والعقل والروح. فإن عرضت لهم شبهة عرضوها على أصولٍ خائبة ليست من الوحي المعصوم في شيء، فانهارت بهم أصولهم لقعر الضلالة وحَوبة الغواية! وتدبر قول العليم الحكيم: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العَنكَبُوت: ٥١] العنكبوت: ٥١، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾﴾ [النِّسَاء: ٨٨]، ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾ [الأَنْعَام: ٣٩] ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأَنْعَام: ١٤٩]، ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ [الأَعْرَاف: ١٧٨]، ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فُصِّلَت: ٥٣]. بلى وَعِزَّةِ ربي!

أما أهل العلم والإيمان والفطر السليمة فقد كفروا بالطاغوت وآمنوا بالله واستمسكوا بالعروة الوثقى لا انفصام لها، فحفظَهُم ربُّهم لـمّا حفظوا أسباب هدايتهم له، وآثروا صفاء وحيه على ضلالات آراء البشر. فآمنوا بالكتاب كله ولم يضربوا بعضه ببعض، وردُّوا متشابهه لمحكمه، واعتصموا بهدايته عن أوهام العقول وأخطاء العلوم وزلّات الأفهام، قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عِمْرَان: ٧ - ٨]

والعلمُ زينةُ أهلهِ بين الورى   سيَّانَ فيه أخو الغنى والمعدمُ

وعليه؛ فزمانُ التكليفِ حالكُ الظُّلمةِ، خَطِرُ المسارب، مفتوح على كلّ سابلةٍ لا تبلغ غايتَها بصائرُ المُكلَّفين، بيد أنّ الربَّ كريمٌ في عظمته، رحيمٌ في تكليفه، حكيمٌ في تشريعه، قشع غَينَ الضلال بوحيه، وفقأ عَينَ فتنة الشيطان بذكره، وأضاء ظلام الزمان بقرآنه وسنة نبيه ﷺ.

أهبط الإنسان للميدان الذي منه تعرج سامية مضيئةً أعمالُ أوليائه منهم، وتصعد منه أرواحهم لمقعد الصدق الأبدي السعيد، وتتحطم في ساحها أكثرُ أحلام بني آدم، ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ۝١٠٣﴾ [يُوسُف: ١٠٣]، ممن خُذِلُوا وتُركوا لجهلهم وظلمهم وشؤم حَوبتهم، إذ خذلتهم أمانيهم، وكَذَبهم من ظنُّوه حليفَ صدقٍ وناصرَ هدى، كما كان أقسم فاجرًا لأبويهم الصالحين: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢١﴾ [الأَعۡرَاف: ٢١].

إنّ زماننا ينوءُ بأمواجِ فتنِ شبهاتٍ وشهواتٍ أعشت بصائرَ من كانوا حكماء، وفلّتْ عزائمَ من كانوا أقوياء، ونكّبَتْ سُبُلَ من كانوا أسوياء، قد احتار فيها الحلماء، وقلَقَ من أجلها العلماء، وفزعت من لأواءِ كيدها وهسيسِ همْسِها ودَخنِ نفَسِها قلوبُ قُوّامِ الليالي الظلماء! عَمَّ شرُّها وطار شررُها.. بيد أنها لم تكن ببدعٍ من اختلاف خلائق الأمم واحتدام مدافعة الفريقين، ﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾ [الشُّورَى: ٧]. ورحمة الله تعالى ولطفه وحكمته وعدله من وراء ذلك كله، ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ۝١٧﴾ [الإِسۡرَاء: ١٧] ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا ۝٣١﴾ [الفُرۡقَان: ٣١]. والسعيدُ مَن هَدى اللهُ، ﴿يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ [الزُّمَر: ٣٧].

مَرَّ زمانٌ قد حسحست نار الجهل أركان البسيطة، واصطلمت حنادسُ الظُلَمِ بقاع المعمورة؛ فلم تَذَرْ لراجِ الهُدى دربًا للسلامة إلا أوحادًا أوحادًا على بقايا آثار أنبياءٍ ضاعت في بِيدِ السنين رسالاتهم، حتى أَذِنَ الحكيم الرحيم بالفجر الصادق والشعاع المضيء أركانَ المعمورة وسقائفَ المرفوعة؛ فبعث عبده ورسوله محمدًا ﷺ للمرسلين خاتمًا وسيّدًا وإمامًا مبينًا، وللعالمين ناصحًا مُبلّغًا وسراجًا منيرًا، ولأسباب سعادتهم مبشّرًا، وعن سُبُلِ شِقوتهم نذيرًا، وإلى سبيل ربه داعيًا، فَأَضحى على الثقلين شاهدًا، ولربه شهيدًا، صلوات الله وسلامه وبركاته ونعماؤه عليه وآله ما دامت الخلائق، وازدانت بذكر الله الخوافق.

فكان من أراد قبسًا من هُدى في طريق سيره لتحقيق عِلّة الخليقة رَشف بروحه وقلبه وعلمه من معين وحي التنزيل كتابًا وسنة، فانبلجت لِعَينِ بصيرته يقينات العلم فرسخ فيه وانتفع، فكان ـ بإذن ربه ـ شمسًا تجلو دياجير ظلام الجهل، وتطهّر البقاع من أدناس الخطيئات ونجاسات الجهالات، ومن أعرض عنه أعرضت عنه أمداد التوفيق، وانقطعت عنه أسباب الهدى، وضاع عن سَنَنِ الفلاح، ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ۝٤٣﴾ [فَاطِر: ٤٣].

وشاء العليم الحكيم إقامة ناموسه الأعظم على سُنّة الدفع بين الحق الهادي والباطل الهاذي، وجعل الأيام دولًا بين عدوّه ووليّه. وَعَدَ مطيعه بالرضا والجنان، وأوعد عاصيه بغضبه والنيران، وجعل من دلائل حسن عبادته تعظيم شرعه وإجلال وحيه، ومن براهين ذلك في نفوس الصادقين: الثقة

الكاملة بالوحي، فهو دينٌ كامل لا نقص فيه، ووعدٌ صدق لا خُلف فيه، وعلمٌ مُترعٌ صحيحٌ كافٍ لا جهل معه ولا ضلال، ويقينٌ راسخٌ ثبوتًا ودلالة لا ظنٌّ متزعزعُ وحيرةٌ واضطرابٌ، وحقيقةٌ صريحةٌ لا مجازٌ وتعطيلٌ، وإشباعٌ تامٌّ منسجم متكاملٍ لرغائب الروح وحاجات النفس وغرائز الجسد وجَوْعَة العقل، لا تناقض فيه البتة، ولا يحتاج أهلُه لمائدةٍ سواه، ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ [النِّسَاء: ٨٢] ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا ٦٤﴾ [مَرْيَم: ٦٤]. وكتب ربنا جل وعلا أنّ قواعد دينه ومباني شريعته محفوظة محروسة بمن اصطفى تعالى من صالحي عباده وصادقي أوليائه، ﴿فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ٢٣﴾ [الأَحْزَاب: ٢٣]

ومن رحمته تعالى بعباده أن كتب ألا يجمع الأمة على ضلالة أبدًا، فسارت الأمة على ذلك المنهاج القويم، وهي موعودة بالوصول عبر لُجج بحر الابتلاء لبرِّ الأمان وفي الآخرة دار السلام، مهما تساقط من سفينة فلاحها من شاء الله تبارك وتعالى. والموفق من هداه الله تعالى، والعقل الصحيح السليم وزيرُ خير وناصحُ هدى، قال الشعبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نِعْمَ وزير العلم العقل»، والنفس الطيبة حقيقةٌ بفوز الدنيا والآخرة.

والأصل النافع في ذلك والخط الدافع فيما هنالك هو منهجُ أهل السنة القويمُ الأصيل، ونبعُ مشربهم النقيّ النَّميرِ العميم، دون كَدَرِ ونَجَسِ مشارِبِ الدَّعِيِّ الدخيل، وأهويةِ الضَّيَاعِ في سُبُلِهِ، ومهالِكِ طرقه، ومراقدِ فتنه، مهما تزيّفَ بشمع علمٍ، أو تلفّع بحجاب حكمة، سواء كان غابرًا من الأقدمين أو

طارقًا من المُحدَثِين، ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٦١﴾ [الأنعام: ١٦١].

وإذا طَلَبتَ العلم فاعلمْ أنَّهُ ... حِمْلٌ فَأَبْصِرْ أيَّ شَيْءٍ تَحمِلُ

وإذا علِمْتَ بِأنَّهُ مُتَفَاضِلٌ ... فاشغَلْ فُؤادَكَ بالذي هو أفضَلُ

ومذهب أهل السنة والجماعة ـ وهم الصحابة ومن تبعهم بإحسان ـ في باب الأسماء والصفات: هو إثبات ما أثبته الله تعالى لنفسه، أو أثبته له رسوله ﷺ، ونفي ما نفاه الله تعالى عن نفسه، أو نفاه عنه رسوله ﷺ، بلا تمثيل ولا تكييف ولا تعطيل ولا تحريف.

فلا يمثلون الله بغيره ولا يمثلون غيره به، ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى: ١١] ولا يكيفون صفاته، أي أنهم ينفون العلم بالكيفيّة، أما أصل معنى الصفة فمعلوم، وهو المعنى الأوّلي المتبادر للذهن حيالها، كالوجه واليد والرحمة والغضب والاستواء والنزول ونحو ذلك، ولكن كيفيّتها مجهولة، كما قال إمام دار الهجرة مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما سئل عن الاستواء: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»(١). أي السؤال عن الكيف وليس المعنى. فأضحت هذه القاعدة المالكية جامعة مانعة مباركة فاذَّة. رضي الله عن مالكٍ ومن نحا نحو مالكٍ، إله الحق آمين.

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (٣/٣٩٨)، والأسماء والصفات للبيهقي (٤٠٨-٤٠٩)، وشرح السنة للبغوي (١/١٧١)

وعلى هذه الطريقة والنهج حَذَوا وأعمَلَوا جميع صفات ربنا تبارك وتعالى الذاتية والفعلية والسمعية النقلية والعقلية الفطرية بلا استثناءٍ ولا تَشَوُّشٍ ولا تَحَيُّرٍ ولا تَرَدُّدٍ، فلم يُمثّلوا ولم يُعطّلوا ولم يُكيّفوا ولم يحرّفوا، بل أثبتوا لله تعالى ما أثبته الله تعالى لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ، ونفوا عن الله تعالى ما نفاه عن نفسه ونفاه عنه رسوله ﷺ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشُّورَى : ١١].

فأهل السنة يثبتون الصفات الثابتة بالوحي، قاعدتهم: إثباتٌ بلا تمثيل، وتنزيهٌ بلا تعطيل. فهم ينزّهون الله تعالى عما لا يليق بجلاله وعظمته، كما ورد عنه تبارك وتعالى، وليس كما تخيّله واخترعه بعض الناس من نفيهم لأسمائه وصفاته ظنًّا منهم أنهم ينزّهونه وهم في الحقيقة ينفون عنه صفات كماله التي أثبتها في كتابه فعطّلوها، ثم سَمَّوا نفيَهم تأويلًا وتنزيهًا، وهو في حقيقته إلحادٌ فيها وتحريف لها! ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الرَّعْد : ٣٣]، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النُّور : ٤٠]

واعلم أنّ صفاتِ الله تعالى تنقسم إلى قسمين: صفات ذات وصفات فعل. فالصفات الذاتية: هي التي لا تنفكّ عن ذات الله تعالى، وهي على نوعين: صفات قائمة بنفسها؛ كالوجه واليد والإصبع والقدم ونحو ذلك مما جاء في الوحي، وصفات معانٍ قائمة بالذات؛ كالحياة، والعلم، والقدرة، والسمع، والبصر.

أما الصفات الفعلية: فهي المتعلّقة بمشيئته سبحانه إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل؛ كالحب والبغض والرضا والغضب والعداوة والولاية والضحك ونحو ذلك مما ورد.

وقد تكون الصفة ذاتيّة فِعليّة؛ كالكلام، فهي صفة ذاتٍ من جهة أصل الصفة، مرتبطة بذات الله تعالى غير منفكّة عنه، وصفة فعل من جهة ارتباطها بمشيئته جل وعلا، فإن شاء تكلّم وإن شاء لم يتكلم، جلّ وعزّ، فما أثبته الله في كتابه وسنة رسوله أثبتناه، وما نفاه نفيناه، وعلى هذا؛ فمن صفاته تبارك وتعالى التي نطق بها كتابه وسنّةُ رسوله ﷺ صفةُ الرضا. فهي صفة ثابتة لله تعالى، قال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [المَائِدَة: ١١٩]، وقال الله سبحانه: ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفَتْح: ١٨].

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربَّنا وسعديك، والخيرُ في يديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: وأيُّ شيءٍ أفضل من ذلك؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخطُ عليكم بعده أبدًا»**.[1] وقال ﷺ: **«إن الله ليرضى عن العبدِ يأكل الأَكْلَةَ فيحمَده عليها، ويشرب الشَّربةَ فيحمَده عليها»**.[2]

---

(١) البخاري ٨/١٤٢ (٦٥٤٩)، ومسلم ٨/١٤٤ (٢٨٢٩) (٩)

(٢) مسلم (٢٧٣٤)

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن في فتح المجيد على قوله ﷺ: **«فمن رضي فله الرضا»**،(١) «أي: من الله تعالى، والرضا قد وصف الله تعالى به نفسه في مواضع من كتابه، كقول الله تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ٨﴾ [البَيِّنَة : ٨]، ومذهب السلف وأتباعهم من أهل السنة إثبات الصفات التي وصف الله بها نفسه، ووصفه بها رسوله ﷺ، على ما يليق بجلاله وعظمته، إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل، فإذا رضي الله تعالى عنه حصل له كل خير، وسلم من كل شر»(٢). قال الشيخ الغنيمان حفظه الله معلِّقًا: «أي: أنه لا يجوز أن تُفسّر صفة الله جل وعلا بلازمها ولا بأثرها، لا بأثر الصفة ولا بلازم الصفة. بل يجب أن يوصف الله جل وعلا بها، فإذا أخبر أنه يسخط فيثبت هذا له، فإنه يسخط على من يشاء من أهل المعاصي والكفر، وليس سخطه هذا ظلمًا، وكذلك ليس سخطه المصائب التي يصاب بها الإنسان، وكذلك الرضا، فإنه جل وعلا يرضى عمن يشاء من عباده. ورضاه صفة له، ولا يجوز أن يفسر الرضا بأثره أو بلازمه من محبة الطاعة أو الإثابة، فإن كونه يثيب هذا من لازم صفة الرضا، وكذلك الطاعة سبب من أسباب رضا الله جل وعلا.

فيجب أن تثبت الصفات لله جل وعلا كما جاءت من غير تحريف ولا تعطيل، والتحريف: يقصد به التأويل الباطل الذي يفعله أهل الكلام

---

(١) البخاري ١٠٩/٧ (٥٤٧٠) ومسلم ١٧٤/٦ (٢١٤٤) (٢٣)

(٢) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد (٣٦٧/١)

كالأشاعرة ونحوهم، أنهم يحرفون تحريفًا يذهب بالمراد نهائيًا، الله جل وعلا يخبر أنه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى: ١١]، فلا يجوز للإنسان إذا قيل له: إن الله يسخط، وإن الله يرضى ويغضب ويضحك ويفرح ويعجب أن يجعل هذا من جنس الشيء الذي يعرفه من نفسه، لا يجوز ذلك؛ لأن الله جل وعلا يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى: ١١]، في ذاته تعالى، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، ولا في حقوقه، الحق الذي له لا يجوز أن يكون مثله للمخلوق، وقوله وفعله لا يجوز أن يكون مثل قول المخلوق وفعله ووصفه، كما أن نفسه تعالى وتقدس ليست كالمخلوقين: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى: ١١].

فيجب أن تكون هذه قاعدة نسير عليها، وهذا الذي كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم، وكان عليه أتباعهم إلى اليوم على هذا الشيء، ومن خالف في هذا فهو ضال قد ضل في دينه».[1]

النُّور في قلبي وبينَ جوانحي فَعَلامَ أخشى السَّيرَ في الظلماءِ

قال العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ويستفاد من حديث: «**إنّ عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإنّ الله تعالى إذا أحبّ قوما ابتلاهم، فمن رضي فله الرّضا، ومن سخط فله السخط**»[2]. إثبات المحبة والسخط والرضا لله عز وجل، وهي من الصفات الفعلية لتعلقها بمشيئة الله تعالى؛ لأن «**إذا**» في قوله: «**إذا أحبّ**

---

(١) شرح فتح المجيد للغنيمان (٩٤ / ١)

(٢) الترمذي (٢٣٩٦) وقال: هذا حديث حسن غريب. وصححه الألباني.

الله قومًا» للمستقبل، فالحب يحدث، فهو من الصفات الفعلية. والله تعالى يحب العبد عند وجود سبب المحبة، ويبغضه عند وجود سبب البغض، وعلى هذا؛ فقد يكون هذا الشخص في يوم من الأيام محبوبًا إلى الله وفي أخر مبغضًا إلى الله، لأنّ الحكم يدور مع علّته.

وأما الأعمال؛ فلم يزل الله يحب الخير والعدل والإحسان ونحوها، وأهل التأويل ينكرون هذه الصفات، فيؤولون المحبة والرضا بالثواب أو إرادته، والسخط بالعقوبة أو إرادتها، قالوا: لأن إثبات هذه الصفات يقتضي النقص ومشابهة المخلوقين، والصواب ثبوتها لله عز وجل على الوجه اللائق به كسائر الصفات التي يثبتها من يقول بالتأويل. ويجب في كل صفة أثبتها لنفسه أمران: إثباتها على حقيقتها وظاهرها. والحذر من التمثيل أو التكييف».[1] وبالله التوفيق.

---

(١) القول المفيد على كتاب التوحيد (٢ / ٧٩)

الفرقُ بين الرِّضا بالله والرِّضا عنه سبحانه

أكثر النصوص إنما تذكر الرضا بالله تعالى، فهو الأصل، فإذا رضي العبد بالله اندرج الرضا عنه في الرضا به، ولهذا اكتفي بذكره في الأغلب. ولابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعليل لطيف وتفريق جميل، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الرضا بالله ربًّا متعلّق بذاته وصفاته وأسمائه وربوبيته العامة والخاصة. فهو الرضا به خالقًا ومدبّرًا وآمرًا وناهيًا وملكًا ومعطيًا ومانعًا وحكمًا ووكيلًا ووليًّا وناصرًا ومعينًا وكافيًا وحسيبًا ورقيبًا ومبتليًا ومعافيًا وقابضًا وباسطًا.. إلى غير ذلك من صفات ربوبيته.

وأما الرضا عنه: فهو رضا العبد بما يفعله به ويعطيه إياه. ولهذا إنّما يجيء في الثواب والجزاء، كقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨﴾ [الفجر: ٢٧ - ٢٨]، فهذا برضاها عنه لما حصل لها من كرامته، كقوله تعالى: ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١١٩﴾ [المائدة: ١١٩]. والرضا به أصل الرضا عنه، والرضا عنه ثمرة الرضا به. وسرُّ المسألة: أنّ الرضا به متعلق بأسمائه وصفاته، والرضا عنه متعلق بثوابه وجزائه».[١]

«وقال ابن عطاء: الرضا سكون القلب إلى قديم اختيار الله للعبد أنه اختار له الأفضل فيرضى به. قلت: وهذا رضا بما منه، وأما الرضا به فأعلى من

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ١٨٦)

هذا وأفضل. ففرق بين من هو راض بمحبوبه، وبين من هو راض بما يناله من محبوبه من حظوظ نفسه. والله أعلم».[(١)]

(١) مدارج السالكين (٢ / ١٧٥)

علاقةُ الرِّضا بأعمال القلوب الأخرى

أعمال القلوب بينها ترابط شديد، وتناسق بديع، وتشابك مدهش، وبناء كلّي، فيغذّي ويقوّي وينمّي بعضها بعضًا بحسب مرتبتها في الدين وقوّتها في القلب، فكلٌّ منها لبنة بحسب قدرها، منها ما ينهدّ البناء لفقده، ومنها ما ينقص كماله، ومنها أعمدة وأركان تقوم عليها قوى اللبنات حتى يصبح البناء الإيماني في القلب تامًّا.

وقد نستطيع تشبيهها بعروق الدم، فمنها الودجان والوتين والأخدع والنّياط والأبهر والأكحل، ومنها أصغر من ذلك، ومنها شعب دموية رقيقة جدًّا لا تُرى إلا بالمجهر، ومجمعها جميعًا وعاء القلب، فمنه تصدر وإليه تَرِدُ، ومنها ما يتلف البدن بتلفه، ومنها ما ليس كذلك.

كما أنها تشبه الشجرة العظيمة، فلها عروق ترسخ قرارها، وساق تقوم به، وجذوع تدعمها وأغصان وأوراق، وثمرة تنضج عند أوانها، فالشمس والتراب والسماد والماء والهواء أغذيتها، والتقليم وإزالة العوالق ومتسلقات الحشائش وحراستها من القطع ونحو ذلك حماية لها.. كذلك شجرة الإيمان وتكوينها وغذاؤها وطعامها وثمرتها واختلاف أهمية كل جزء منها عن غيره، وتكامل تعاونها فيما بينها من الأجزاء، مثلًا بمثل.

فكذلك الحال لأعمال القلوب، فمنها ما يزول الإيمان بزوالها، ومنها ما ينقص تقصًا شديدًا، ومنها دون ذلك. وإن كان لا يتصوّر زوال شيء منها

بالكلية لأنها متصلة بقاعدة واحدة وأصل واحد هو الإيمان، ولكنها قد تضعف حتى لا تكاد تُرى.

وإنّ من رحمة الله تعالى وكرمه وجوده وإحسانه ولطفه ورفقه وبِرّه أن جعل أعمال القلوب ملازمةً لصاحبها على الدوام، فالتاجر الصالح مثلًا تراه في البيعة الواحدة يصعد له عدّة أعمال لقلبه حتى وإن لم يستشعر كيفية ذلك، كالصدق والورع والخشية والإخلاص والتوكل والتعلق والزهد والرغبة في الآخرة ونصح الناس ومحبة الخير لهم ورحمتهم وترك الغش والظلم والحرام ديانة، كذلك الفلاح تجري على قلبه ينابيع أعمال القلب الطيّبة كالتوكل والتفكر واليقين والصبر والرضا والشكر والحمد وغيرها كثير، وكذا الوالدان مع ذريتهما، وتأمل كمّية أعمال القلوب المصاحبة لحسن تربية الأطفال، وكيف تثور في قلبيهما صالحات الأعمال كالرحمة بهم والشفقة عليهم وحب خالقهم المنعم بهم وشكره وحمده والاستعانة به على إصلاحهم ودعائه لهم والخوف عليهم من عذاب أرحم الراحمين، ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ [مَرۡيَم: ٤٥] فمن عذبه أرحم الراحمين فليس بمستحق لأدنى رحمة!

وكذلك حسن الظن بالله تعالى والثقة به والتوكل عليه في حسن رعايتهم وجلب رزقهم ونحو ذلك. واعتبر ذلك مع المعلم وطالب العلم والأجير والمجاهد وسائر الناس، حتى للمرء مع نفسه، فثَمّ أعمال بر قلبية غزيرة دائمة وثمرات قلبية حلوة هانئة.

وبالجملة؛ فأعمال القلب لا تكاد تتوقف عن القلب إلا في حال النوم أو الغفلة أو ركوب المعصية، بل حتى حال المعصية قد لا تغيب بالكلية فترتفع

عنه مع إيمانه كالظُّلَّةِ بقدر العصيان، لكن يبقى لها ظلٌّ وجذور في أصل الفؤاد، فثمّ وازعُ الخشية والقلق والمحبة والخوف واليقين بالبعث والحياء من الله والشفقة من لقائه بمعصية وغير ذلك، ويظهر هذا من نفور نفسه اللوامة من دَرَنِ المعصية، ووزْع عقلِه وروحِهِ من تمام استلذاذه بها، وتأنيب ضميره إيّاه من جرّائها، وتكدّر مزاجه بسبب ركوبها مهما حاول دفن ذلك أو تناسيه أو أغفاله عن خاطره، وهذا من بقية الخير في قلبه.

فدَع عنك سوءات الأمور فإنّها   حرامٌ على نفس التقيِّ ارتكابُها

أما مع ممارسة الحياة المعتادة، بلْه العبادات المحضة؛ فإن كنوز البرّ من سحائب أعمال القلوب لا تزال تسحّ الخير والبرّ دِيمًا وهُطّلًا على صحيفة المؤمن الصالح! فيالَه من دين ويالَهَا من نعمة، ويالَه من ربٍّ عظيم لم نعبده حقّ عبادته، ولم نشكره حقّ شكره، سبحانه وبحمده، وتدبّر: ﴿يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾﴾ [الفجر: ٢٤]، إذن؛ فحياتنا هذه ليست بالحياة التي تستحق، والله المستعان!

فإلى شيء من بيان ذلك الترابط بين الرضا وغيره من أعمال وأقوال القلوب:

الرِّضا والصّبر

الصبر أساس الرضا ومنبعه، والرضا من ثماره مع غيره، وبينهما فروق.
قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والفرق بين الرضا والصبر: أنَّ الصَّبر: كفُّ النَّفس وحبسُها عن التسخّط مع وجود الألم، وتمنِّي زوال ذلك، وكفُّ الجوارح عن العمل بمقتضى الجزع، والرضا: انشراح الصدر وسعته بالقضاء، وترك تمنِّي زوال ذلك المؤلم، وإنْ وجدَ الإحساس بالألم، لكن الرضا يخفِّفُه لما يباشر القلبَ من رَوح اليقين والمعرفة[1] وإذا قوي الرِّضا، فقد يزيل الإحساس بالألم بالكلية كما سبق».[2]

الرِّضا واليقينُ والثقةُ

لا رضا إلا بيقين، ولا يقين إلا بعد الثقة، فالراضي إنما استشعر حلاوة الرضا لمّا أيقن بالخير، إما بذات المرضيِّ أو بحسن الخلف عنه. وكل ذلك ثقة وإيمانًا بربه تعالى.

الرِّضا والغِنَى

الرضا بحدّ ذاته استغناء، فغنى الراضي إنما جاءه من جهة غناه بمن افتقر إليه وهو الغني الكريم سبحانه وبحمده. ومن استغنى عن شيء غني عنه. قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

---

(١) المعرفة عندهم هي العلم بالله تعالى، وظهور آثار العلم على صاحبه من المحبة والرجاء والخشية والحياء ونحو ذلك.

(٢) جامع العلوم والحكم (٢١/ ٣٥)

غنيٌّ بلا مالٍ عن الناس كلّهم   وليس الغنى إلا عن الشيء لا بِهِ

الرِّضا والعلم

العلم قول القلب لا عمله، وهو القول المؤثر مباشرة في جميع أعماله، فلا يُتصوّر عمل قلب بلا علم، ومن هنا فالرضا بكل مراتبه مفتقر إلى علم، ومن هنا أيضًا تتضح أهمية صفاء العلم ونقاء المعلومات وصحّة التصورات، فأكثر الانحرافات منبعها علمٌ مدخول، وهذا المنبع كدر مشوب بأخلاط رديئة وبعضها سمّ ناقع!

لذا شددت الشريعة في شأن الإحداث في الدين؛ لأنه مُبدِّلٌ لصحة العلم والعمل، كما أنها رفعت شأن العلم بما لا مزيد عليه؛ لأنه النبع الوحيد والنور الفريد المصحح لصحة التصور ونقاء مصدر التلقي، فالعلم الصافي النقي مضمون المحتوى من قِبَلِ العليم سبحانه، لأن مصدره الوحي بشقيه الكتاب والسنة، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحِجر: ٩]. أما آراء الخلق فتبقى علوم خلق.

الرضا والتعلّق

بما أن الرضا اكتفاء، فهذا المُكتَفَى به وهو الله تعالى قد صَمَدَ إليه وجهُ وقلب الراضي وتعلّق به، فلمّا تعلق به رضي به دون ما سواه، فكفاه ربه وهو الشكور الحميد سبحانه. والراضي دائم التعلّق بمن رضي به تبارك وتعالى.

الرضا والإيمان بالقَدَر

بينهما علاقة واضحة حتى ربما اشتبها ببعضهما لشدة لصوق أحدهما بالآخر، بيد أن العلاقة بينهما هي علاقة الكل بالجزء، فالرضا بالقدر يأتي بعد الإيمان به، ومن بعد ذلك فالرضا بالقضاء والقدر هو جزء من منظومة الرضا بالله تعالى وبدينه. فالرضا بالله ينظم أطراف شجرة الرضا ومنها الرضا بالإسلام والرضا بالرسول ﷺ والرضا بالقضاء والقدر.. وهكذا.

الرضا والحمد والشكر

الحمد والشكر أرفع مرتبة من الرضا، وكلها مقامات شريفة سنيّة، ذلك أن الصبر يورث الرضا، والرضا يورث الحمد والشكر، فهما الغاية وهو الوسيلة إليها، وإن كان هو في نفسه رغيبة شريفة وقِمّة فاضلة منيفة في الغاية من السموّ والرفعة، كما تقدم في بيان فضله.

فالرضا كالدرج العالي المنيف الموصل إلى مرتبة الحمد والشكر، والشكر ينتظم الرضا تمامًا، ذلك أنه لا يكون القلب حامدًا شاكرًا إلا بعد امتلائه بالرضا.[١]

قال صاحب البصائر: «واعلم أَنَّ الشكر أَعلى منازل السّالكين، وفوق منزلة الرّضا، فإِنَّه يتضمّن الرّضا وزيادةً، والرّضا مندرِج في الشكر؛ إِذ يستحيل وجود الشكر بدونه. وهو نصف الإِيمان. وقد أَمر الله به، ونَهَى عن ضدّه، وأَثنى على أَهله، ووصف به خواصّ خَلْقه، وجعله غاية خَلْقه وأَمره،

(١) وللحمد والشكر كتابان فيما يُستقبل إن شاء الله تعالى.

ووعَد أَهله بأَحسن جزائه، وجعله سببًا للمزيد من فضله، وحارسًا وحافظًا لنعمته».[(١)] وبالله تعالى التوفيق.

الرضا والمحبة

لا رضا إلا بمحبة، والرضا من ثمار المحبة، فالحبة مَيلٌ وتوجّه، والرضا اكتفاء بما مال إليه وأحبَّه. قيل: هما نظيران، وإنما يظهر الفرق بضديهما، فالمحبة ضدها البغض، والرضا: ضده السخط.[(٢)]

الرضا والفرحُ بالله تعالى

أجملُ أعمال القلوب وأحلاها وأبهجها هما محبة الله تعالى والفرح به، وهما الغاية ـ على التحقيق ـ التي ليس وراءها غاية، والمطلب الذي ليس فوقه مطلب، والرغيبة التي من حصّلها فقد فاز الفوز الأعظم وحاز المرتبة الأعلى.

فالرضا بالله سبحانه وتعالى سببٌ للفرح به، والفرح بالله جل جلاله معراج لتمام الرضا وغيثٌ لكماله، فالفرح أعلى رتبة من الرضا وموصل للمزيد والمزيد منه، والرضا داخل في الفرح. فمن فرح بالله ـ وقد صح معتقده وحسن عمله ـ فقد وصل، وتدبر: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ۝٥٨﴾ [يونس: ٥٨]، إي وربي!

---

(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين الفيروز آبادى (١ / ٩٥٥)

(٢) انظر: المفردات: الرضا (٢٨٦)، المحبة (١٥١)، التعريفات: الرضا: (١١٦).

الرضا والزهد والقناعة

القناعة هي العتبة الموصلة للرضا بإذن الله تعالى، فلا رضًا بدون قناعة. فالقناعة غنًى للقلب يثمر الرضا بالله تعالى. فالقناعة تفضي لأوَّلِ الرضا، والرضا يثمر كمال القناعة، فبينهما تكامل وتعاون وتداخل وبركة اجتماع وتفرّع واستمرار.

كما أن الزهد والقناعة من ثمار أعمال القلوب، والرضا بعد الصبر هو الموصل لهما بإذن الله، فالصبرُ ابتداءً لأن لهما مشقة شديدة في فطم النفس وكبح جماحها عمّا لا يَجْمل من غريزتها ومشتهياتها، والرضا انتهاء بعد التفكر في الحال واجتياز تجربة الصبر معهما. وحين يصل الزاهد للرضا فقد ارتاح، ومن عرف الناس والدنيا استراح. ومما أثِر عن الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في القناعة:

رَأَيــتُ القَناعَــةَ رَأسُ الغِنــى ... فَصِــرتُ بِأَذيالِــها مُتَمَسِّــكْ

فَــلا ذا يَــراني عَــلى بابِــهِ ... وَلا ذا يَــراني بِــهِ مُنهَمِــكْ

فَصِــرتُ غَنِــيّاً بِـلا دِرهَـمٍ ... أَمُــرُّ عَــلى النـاسِ شِـبهَ المَلِـكْ

والسعيد هو من لم تطغه الدنيا ولم تشغله عن الآخرة التي هي الحيوان لو كنا نعقل، ومن جميل وصايا الصالحين: ستمكثون تحت الأرض زمنًا لا يعلم مداه إلا الله! لن تتمكنوا فيه من أي عمل تنتفعون به ولو تسبيحة، فخذوا من حياتكم لموتكم. واعلموا أنّ بينكم عبادًا لله بسطاء يعيشون معكم على الأرض، لا مال ولا جاه ولا منصب في هذه الدنيا الفانية. ولكن أملاكهم في

السماء عظيمة، قصورهم تبنى وبساتينهم تزرع. فأكثروا من خبايا العمل الصالح، فكل خبيئة صالحة من وراء صاحبها يوم القيامة، والخبايا للخبايا!

تقنّعْ بِما يكفيك واستعمل الرِّضا فإنك لا تدري أتصبح أم تمسي

الرضا والتوكل

بما أن التوكل تفويض فأعلى درجات التفويض الرضا بما يقضيه المُفوَّضُ الأمر إليه تبارك وتعالى، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الرضا أعلى درجات التوكل، بل هو باب الله الأعظم، كما قيل، وجنة الدنيا، ومستراح العابدين ونعيمهم، وحياة المخبتين، وقرة عيون المشتاقين»[1]. فالرضا ثمرة التوكل، والتوكل نصف الإيمان، وهما من أعلى مقامات الإحسان التي هي أعلى المندوبات.

وقد قيل: «إن حقيقة التوكل: الرضا؛ لأنه لما كان ثمرتُه ومُوجِبُه، استُدِلّ له عليه استدلالًا بالأثر على المؤثِّر، وبالمعلول على العلّة، لا أن التوكل هو الرضا، أو الرضا التوكل».[2]

وتدبر قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝٥٩﴾ [التَّوْبَة: ٥٩]. وكيف قرن الرضا بالتوكل، فبينهما تضمّن ولزوم. وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

---

(١) المدارج (٢/١٧٢)

(٢) طريق الهجرتين (١ / ٥٠٠)

«والرضا والتوكل يكتنفان المقدور، فالتوكل قبل وقوعه، والرضا بعد وقوعه».[1] وبالله التوفيق.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠ / ٣٧)

فضلُ الرِّضا بالله تعالى ومنزلتُه

فقلتُ للفكر لـمّا صار مضطربًا ... وخانني الصبرُ والتفكيرُ والجَلَدُ
دَعْهَا سماوية تجري على قَدَرٍ ... لا تعترضْها بأمرٍ منك تنفسِدُ
فحَفّني بخفيّ اللطفِ خالقُنا ... نعم الوكيلُ ونعم العونُ والمَدَدُ

إنّ الرضا بالله تعالى هو البحر الهائل الذي ينغمر فيه كل ألم، وتضمحل فيه كل مشقة، وتذوب فيه كل كريهة. ذلك أن الرضا التام بالله تعالى يثمر سربال الصبر وثلج اليقين وبرْد الحمد، فمهما هبَّت على القلب رياح الألم، وادلهمّت على النفس كبار الخطوب، وتصاكّت على الصدر ألوية الهموم والغموم؛ فإن الرضا بالله تعالى ربًّا وليًّا مدبرًا حافظًا ناصرًا رازقًا هاديًا، والرضا به إلهًا معبودًا؛ يصيّر تلك الأمور الصاخبة المزعجة لأحوال أخرى طيبة ساكنة وادعة مريحة، فحال المؤمن الموفق في الجملة هو حال ذلك العبد الصالح عليه الصلاة والبركات والسلام: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٤٤﴾ [غَافِر: ٤٤]، ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا ٣١﴾ [الفُرْقَان: ٣١].

وعليه؛ فنستطيع اختصار موضوع الرضا بكلمة واحدة تنتظم أطراف الرّضا وهي: السَّلَام.

فالراضي بربه يعلم علم يقين أنه بيد من هو أرحم به من والديه ومن نفسه التي بين جنبيه، فحينها لا يأتيه شغل القلب وكدره وهمه وبلاؤه إلا حين يغفو القلب هنيهات ويغفل الفؤاد لحظات عن هذه المعاني الهائلة الجميلة، فهو حال لطيف تستلذه نفوس العلماء بربهم وإن قلّ علمهم بأحكام شرعه

ودلائله، ومعنًى جميلٌ تميل النفوس بأعماقها إليه، وتلقي القلوب بأزمّتها عليه، سلكنا الله جميعًا ووالدينا وأحبابنا والمسلمين في سلك من رضي عنهم ورضوا عنه، إله الحق آمين.

والرضا بالله تعالى سهل يسير بحمد الله جلّ وعز، فهو يقين وثبات وقرارٌ ورسوخ وسكينة وطمأنينة. وقد يظنّ بعض العُبّاد مشقّته في ابتداء الأمر، فما هو إلا أن يسيروا في أفيائه قليلًا قليلًا حتى تتكشّف لهم سهولة الجادّة وجمال الطريق، ثمّ لا تلبث حقيقته الناصحة الرضيّة السهلة أن تلوح في بصائرهم مشرقة ناصعة بيّنة، فيرتشف رحيق الرضا وينهله ويتعلّله في سيره لمن رضيه ربًّا وإلهًا.

فشَـــرِبْنا غيرَ شـرْبٍ واغِـلٍ وشَرِبْنـــا عَلَـــلًا بعـــدَ نَهَـــلْ

إنّ الرضا بالله تعالى يشدُّ ما وَهى من أعمدة بنيان الإيمان، ويبنى ما انهدّ من جدران الثقة، ويحرس أرجاء بيضة اليقين، ويا رب هل إلا عليك المعوّلُ. ولقد أحسن أيّما إحسان من سمّى الرضا: حسن الخلق مع الله.

خليليّ روحـا راشـدَين فقـد أتـتْ ضريّــةُ مــن دون الحبيــبِ ونِيرُهــا

وقد تذهبُ الحاجات يطلبُها الفتى شَعَاعًا وتخشى النفس ما لا يضيرُها

فالقلب يبحرُ في بحر الرضا حاملًا معه علمَه التام ويقينه الراسخ بأن اختيار الله له خير له من اختياره لنفسه، فلا خير في الوجود إلا منه، ولا شرّ مدفوع إلا من لدنه، وحينها يباشرُ الإيمانُ شغاف قلبه، ويجلّلُ الإحسانُ أرجاء روحه وأركان ذاته وجميع نفسه، فيملؤها سعادة وسكينة وسرورًا، وطمأنينة

وراحة وحبورًا، مصداقًا لقول الصادق المصدوق ﷺ: **«ذَاقَ طَعمَ الْإِيمَانِ مَن رَضِيَ بِالله رَبًّا، وَبِالْإِسلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا»**.(١) فكيف يقلق وربُّه الطيّب الرفيق الرحيم الكريم اللطيف ينسج له قدره، ويصنع له مستقبله، ويدبّر له أمره، وهو أعلم وأرحم به من نفسه ووالديه، فلا إله إلا الله اللطيف الكريم، العليم الحكيم، الحق المبين.

وتدبّر كيف وعد الله رسوله ﷺ بالرضا لا بغيره لأنه غاية وصول المؤمنين فقال جل وعلا: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضُّحَى: ٥]. ومن أرضى الله أرضاه الله، قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ۝٢٠٧﴾ [البَقَرَة: ٢٠٧]، وتدبر شرط الآية الكريمة إخلاص العمل لمرضاة الله لا غيره، فالعبد يبتغي وجه الله ورضوانه معرضًا عن كل ما يشوّش نيته ويكدّر إخلاصه، حريصًا كل الحرص على عبادة الرضا بالله تعالى ابتغاء رضوانه، قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتًا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢٦٥﴾ [البَقَرَة: ٢٦٥] فمرضاة الله غاية السابقين، قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتًا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢٦٥﴾ [البَقَرَة: ٢٦٥] ﴿۞لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ۝١١٤﴾ [النِّسَاء: ١١٤]

---

(١) مسلم (٣٤)، والترمذي (٢٦٢٣)

قال التابعي الصالح أبي قلابة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا أحدث الله لك علمًا؛ فأحدث لله عبادة، ولا يكن همّك أن تُحدِّثَ به الناس».(١) ونعمة العلم بالله تعالى والرضا به مُستحِقّتان على العبد أعلى مراتب الشكر لربه تعالى.

ألا وإن الله تعالى قد امتن علينا بأتم نعمة وأعظم منّة وأكبر كرامة وهي الإسلام العظيم، قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [المائدة: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥]، فيا لَسعادة وفوز وكرامة أهل الإسلام الذين اعتنقوا ورضوا ما رضيه ربهم لهم سُلَّمًا لمرضاته تبارك وتعالى.

ومن تطلّبَ مرضاة ربه فهو المهديّ حقًا والفائز صدقًا، قال الله تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٦]

وكيف لا يكون الرضوان هو غاية الغايات ومنتهى المطالب بعد رؤية وجهه تبارك وتعالى في الجنة، فمن رضي الله عنه فلا تسل عن سعادته وفلاحه وحبوره وسروره ونعيمه، فعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله

(١) فتح المغيث (٣/ ٢٩٤)

ﷺ قال: «**إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: وأيّ شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أُحلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا**».(١) قد ابيضت وجوههم لما رأوا محبوبهم، ونَظِرت أبشارُهم لـمّا نَظَرت أبصارُهم، فيا لله كم هذا النعيم!

لا تَسـأَلِ المَـرءَ عَــن خَلائِقِــهِ في وَجهِــهِ شـاهِدٌ عَــنِ الخَــبَرِ

ويا خيبة من لم يكُ عن ربه راضيًا ولا له مُرضيًا، فتعجّلَ الحطام الخسيس وباع الباقي النفيس: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [التَّوْبَة: ٦٢] فأين تعزب عقولهم عن إدراك وتيقّن واعتقاد أن الله تعالى هو الأحق أن يرضوه، ومرضاة رسوله تبع لمرضاته، قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا كان معنى فعل الاثنين واحد جاز أن يذكر أحدهما ويكون المعنى لهما، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [التَّوْبَة: ٦٢]، وقوله: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾ [طه: ١١٧]»(٢)

وقال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [التَّوْبَة: ٦٢]، ولم يقل: (يرضوهما) لأن رضا الرسول داخل في

---

(١) البخاري ٨/١٤٢ (٦٥٤٩)، ومسلم ٨/١٤٤ (٢٨٢٩)

(٢) زاد المسير (١ / ٧٠)

رضا الله تعالى».[١] وهذا من دقائق التوحيد؛ لأن مرضاة الرسول ﷺ إنما شرعت لمرضاة الله تعالى استقلالًا، فمرضاة الله تعالى هي المقصودة، أما مرضاة الرسول ﷺ فتبع لها، وهي مقصودة كذلك، فما لا يرضاه الرسول لا يكون مرضيًّا لله تعالى. ورسول الله ﷺ عبدٌ لا يُعبد، ورسول لا يُكذّب، بل يطاع ويتبع، ولا يوصَلُ إلى مرضاة الله تعالى ـ بعد بعثته ـ إلا عن طريقه، فما جاء به فهو الهُدى الموصل إلى الرضوان، وما لم يأتِ به فهو الضلال المبين والخسران المقيم، وتأمل قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [آل عِمْرَان : ١٢٨]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [المَائـِدَة : ٦٧].

والمقصود أن مرضاة رسول الله ﷺ دين وشرع وعبادة لله تعالى ومطلوبة من كل مؤمن، وهي عينها مرضاة لله تعالى، لأنّ الله تعالى ـ وهو المقصود بالإرضاء ـ قد عصم رسوله أن يرضيه ما لا يرضي الله تعالى، فعاد الأمر كله إلى إرضاء الله تعالى، وكل مرضاة لرسوله ﷺ فهي عائدة إلى مرضاة الله جل جلاله.

والدين المرضيُّ لله العليِّ أُسُّهُ ثابت، وأصله عتيق، وقواعده راسخه، أما غيره من الأديان فسبيلُ الشقوة والخسران، وطريق الضيعةِ والهوان، قال ربنا تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ

(١) تفسير البغوي (١ / ٨٩)

بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [التَّوبَة : ١٠٩]. وقال سبحانه: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾﴾ [آل عِمرَان : ١٦٢].

والصادق حقًّا هو من أسلم وجهه لله ابتغاء مرضاته وفضله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [الحَشر : ٨] ومن رضي الله عنه فلا عليه ما فاته من حطام الدنيا وما عليها من ظل زائل ومتاع فانٍ، وقد بيّن حالها من خلقها فقال جل وعزّ في تنزيله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عِمرَان : ١٨٥]، ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التَّوبَة:٣٨].

واستمع بقلبك لهذا النبأ العظيم من لدن العزيز العليم: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾ [آل عِمرَان : ١٥] فليس وراء رضوان الله لأولي الألباب غاية!

فإن سألتَ من هو المتّبع رضوان الله؛ فهو المُقدِّم مرضاة ربه على رغائب ورهائب الخلق؛ نفسه ومَن وما بعدها، ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عِمرَان : ١٧٢ - ١٧٤] فتلمّحْ وتَسمَّعْ وتبَصّرْ شأنهم عند ربهم بالأمس والآن وغدًا، نسأل الله الكريم من واسع فضله وكريم نواله

وجزيل عطائه، فلم يُرَ مِثلُ الوليِّ إذا حلّ بالكريم، قال الله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ [المَائـِدَة: ١١٩]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [التَّوْبَة: ٢٠ - ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التَّوْبَة: ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التَّوْبَة: ٧٢]. فلا أكبرَ من رضوان الله تبارك وتعالى وتقدّس.

وقال سبحانه: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾ [طه: ١٣٠]، ولعلّ وعسى من الله موجبتان نافذتان بفضل الكريم تبارك وتعالى،

فهما تفيدان التحقيق فضلًا من الله ونعمة، «قال سيبويه: لعل وعسى حرفا ترجٍّ، وهما من الله واجب»(١). فحرفُ القرآن مفيد بهما للإيجاب والتحقيق.

---

(١) تفسير البغوي (١ / ٧٢) وقال بدر الدين الزركشي في البرهان في علوم القرآن (٢٨٨/٤): وروى البيهقي في سُننه عن ابن عباس قال: «كُلُّ عَسى فِي القُرْآنِ فهي واجبة»، وقال الشافعي: «يُقالُ: عَسى مِنَ اللَّهِ واجِبَةٌ».
وقد فرق السُّهَيْلِيُّ بين الترجي في كلام الله تعالى بـ «بلعل» و«عسى»، فقال في الروض الأُنُف (٢٢٩/٦): «إن الترجي بعسى واجب الوقوع وبلعلّ ليس كذلك، ونصه عند الكلام على آية: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٠٢﴾ [التَّوۡبَة: ١٠٢] في توبة أبي لُبابة في غزوة بني قُرَيْظة. فإن قيل: إن القرآن نزل بلسان العرب، وليست عسى في كلام العرب بخبر، ولا تقتضي وجوبًا، فكيف تكون واجبةً في القرآن، وليس بخارج عن كلام العرب؟ وأيضًا فإن لعل تعطي معنى الترجي، وليست من الله واجبة، فقد قال: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبۡرَاهِيم: ٣٧]، فلم يشكروا وقال: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ٤٤﴾ [طه: ٤٤]، فلم يتذكر ولم يخش، فما الفرق بين لعل وعسى حتى صارت عسى واجبة؟! قلنا: لعل تعطي الترجّي، وذلك الترجّي مصروف إلى الخلق، وعسى مثلها في الترجي، وتزيد عليها بالمقاربة، ولذلك قال: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾ [الإسۡرَاء: ٧٩]، ومعنى الترجّي مع الخبر القرب، كأنه قال: قَرُبَ أن يبعثك ربك، فالترجّي مصروف إلى العبد كما في لعلّ، والخبر عن القرب والمقاربة مصروف إلى الله تعالى، وخبره حق، ووعده حَتْمٌ، فما تضمنته من الخبر فهو الواجب، دون الترجي الذي هو محال على الله تعالى، ومصروف إلى العبد، وليس في لعل من تضمن الخبر مثل ما في عسى، فمِن ثَمَّ كانت عسى واجبةَ الوقوع إذا تكلم بها، ولم تكن لعل كذلك».
وقد علّق محمد الخضر الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كوثر المعاني (١٩/١) على كلام السهيلي بقوله: «وهو كلام تُشَدُّ له الرحال، مبيّن عدم الإطلاق الوارد عن العلماء في كون
=

ولك أن تتأمّل نعيم الصالحين الراضين من عباد الله تعالى، فحيثما وجّهت وجهك رأيت نعيمًا وفضلًا من الله عليهم عظيمًا، فمنهم المهاجر الصالح فهو موعود بالرضا سواء استشهد أو مات على فراشه، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٥٨ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ٥٩﴾ [الحج: ٥٨ - ٥٩]

والسكينة لمن رضي الله عنه فوز مُعجّل وغنيمة باردة وأُعطيةٌ طيّبة، قال سبحانه: ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ١٨﴾ [الفتح: ١٨]

= الترجّي في كلام الله تعالى للوقوع، فإنه بين اختصاص ذلك بعسى دون لعل، وأظهر الفرق الواضح».

قلت: والمسألة فيها سعة إن شاء الله، والراجح: أن «عسى» و«لعلّ» تفيدان التحقيق في القرآن الكريم إما على الفور لفظًا وإما على الغاية سياقًا، والأقوال في المسألة آيلة إلى معانٍ متقاربة، فمن قال بعدم اضطراد الوجوب والتحقيق؛ فقد علل ذلك بآيات لم يقع موجِبُهُنّ، وقد أجيب عن ذلك الإيراد بأنهن معلّقات بشروط لم تقع. كما في قوله تعالى عن يهود: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡ﴾ [الإسراء: ٨] ولم يرحمهم، قيل: لأنه علق الرحمة على شرط لم يوفوه، فهو قد قال: ﴿وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَا﴾ [الإسراء: ٨]، وكذلك آية التحريم: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ﴾ [التحريم: ٥]، ولم يبدله، فالجواب: أنه معلق على شرطِ فراقهن، والشرط لم يقع، فلم يفارقهن ﷺ.

ولعل مقصودهم بأنها واجبة أنّ فيها معنى الوعد، والله لا يخلف الميعاد. والله أعلم.

وذو الرأي الراجح والحكمة الواسعة والتدبير الحسن والمتلمّح للعاقبة هو من بسط الدارين في عقله، وقارن بين الخزف الفاني الحُطام والذهب الباقي مع الرضوان، وقد رسم الله تعالى ذينك السبيلين أمامنا وأمرنا بإطلاق عقولنا في تأملها حالًا ومآلًا فقال جل اسمه: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠﴾ [الحديد: ٢٠]

إن تغفــــر اللّهم تغفــــرْ جمًّـــا وأيُّ عبــــدٍ لــــك لا ألمَّــــا

وأهل الولاء والبراء قد نص ربهم تبارك وتعالى على رضوانه عنهم وإرضائه لهم، فلَنِعم العقبى عقباهم، ولَنعم الدار دارُهم، ولَنعم الاختيار اختيارهم، ولنعم المولى مولاهم، قال سبحانه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٢٢﴾ [المجادلة: ٢٢]

وأهل الرضا عيشتهم غدًا راغدة مَرْضية: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ٢٠ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ٢١﴾ [الحاقة: ١٩ - ٢١]، قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: مرضية».[1] وقال جلال

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/ ٢١٤)

الدين: «في الجنة، أي ذات رضى بأن يرضاها، أي مرضية له».[(١)] ووجوه المؤمنين المرضيين يومئذ ناعمة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠﴾ [الغاشية: ٨ - ١٠] فإنه لمّا اطمأنّت نفوسهم بالإيمان ورضيت بالرحمن أرضاها البر المجيب العلّام وشَكَرَهَا الشكورُ الحميد المنان: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ۝٣٠﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠]

لك الحمدُ والنّعماءُ والخيرُ كلّه ... لك الحمدُ يا ربًّا عظيمًا نوالُهُ

ومَن أخلص الدين لله فقد أرضى الله، وهو موعود بإرضاء الله له في دار الرضوان المقيم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾ [البينة: ٧ - ٨]، فهي ثواب رضوان الله عن وليّه الصالح، فالجنة دار الرضوان، وخازنها اسمه رضوان كما جاء في حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: بينا نحن حول رسول الله ﷺ إذ قال: **«أتاني جبريل في يده كالمرآة البيضاء، في وسطها كالنكتة السوداء، قلت يا جبريل: ما هذا؟ قال: هذا يوم الجمعة يعرضه عليك ربك ليكون عيدًا لك ولأمتك من بعدك، قلت يا جبريل: فما هذه النكتة السوداء؟ قال: هذه الساعة تقوم يوم الجمعة، وهو سيد أيام الدنيا، ونحن ندعوه يوم المزيد، قلت يا جبريل: ولم تدعونه يوم المزيد؟ قال: لأن الله تبارك وتعالى اتخذ في الجنة واديًا أفيح من مسك أبيض، فإذا كان يوم الجمعة نزل ربنا تبارك وتعالى على كرسيه**

---

(١) تفسير الجلالين (١ / ٨١٩)

إلى ذلك الوادي، وقد حُفَّ الكرسي بمنابر من ذهب مكللة بالجوهر، وقد حفت تلك المنابر بكراسي من نور.

ثم يؤذن لأهل الغُرفات فيقبلون يخوضون كثبان المسك إلى الركب، عليهم أسورة الذهب والفضة وثياب الحرير حتى يتناهوا إلى ذلك الوادي، فإذا اطمأنوا فيه جلوسًا؛ بعث الله إليهم ريحًا يقال لها: المُثيرة، فثارت(١) ينابيع المسك الأبيض في وجوههم وجباههم وثيابهم، وهم يومئذ جُرْدٌ(٢) مُكَحَّلُون(٣) أبناء ثلاث وثلاثين، على صورة آدم عليه السلام يوم خلقه الله عز وجل، فينادي ربُّ العزة رضوان ـ وهو خازن الجنة ـ فيقول: يا رضوان، ارفع الحجب بيني وبين عبادي. فإذا رفع الحجب بينه وبينهم فرأوا بهاءه ونوره هبّوا سجودًا، فيناديهم بصوته: ارفعوا رءوسكم، فإنما كانت العبادة لي في الدنيا وأنتم اليوم في دار الجزاء والخلود، سلوني ما شئتم، فأنا ربُّكم الذي صدقتكم وعدي وأتممت عليكم نعمتي، فهذا محل كرامتي فسلوني ما شئتم!

فيقولون: ربنا، وأيّ خير لم تفعله بنا؟ ألستَ الذي أعنتنا على سكرات الموت، وآنست بنا الوحشة في ظلمة القبر، وبعثتنا بعد البلاء بحسن وجمال، وأمّنت روعتنا عند النفخة في الصور؟ ألست أقلت عثرتنا، وسترت علينا القبيح في أمورنا، وثبَّتَّ على جسر جهنم أقدامنا؟ ألست الذي أدنيتنا من

---

(١) ثار: هاج وظهر، أو انتشر. وثارت الريح: إذا هبّت.

(٢) الأجرد: الذي لا شعر على جسده.

(٣) الكَحَل: سَواد في أجفان العَيْن خِلْقة.

جوارك، وأسمعتنا من لذاذة منطقك، وتجلّيت لنا بنورك، فأيُّ خير لم تفعله بنا؟

فيعود فيناديهم بصوته فيقول: أنا ربكم الذي صدقتكم وعدي، وأتممت عليكم نعمتي، فهذا محلُّ كرامتي فسلوني، فيسألونه حتى تنتهي أنفسهم، ثم يسألونه حتى تنتهي مسألتهم، ثم يقول: سلوني، فيسألونه حتى تنتهي رغبتهم، ثم يسألونه، ثم يقول: سلوني. فيقولون: رضينا ربنا، وسلَّمنا.

فيزيدهم من مزيد فضله وكرامته، ومزيد زهرة الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فيكونون على ذلك مقدار منصرفهم، قال: كقدر الجمعة إلى الجمعة. ثم يحمل عرش ربنا تبارك وتعالى، معهم الملائكة والنبيون، ثم يؤذن لأهل الغرفات فيعودون ويرجعون إلى غُرَفِهِم وهما: غُرْفَتان من زمرّدتين خضراوين، وليسوا إلى شيء أشوق منهم إلى يوم الجمعة لينظروا إلى ربهم وليزيدهم من فضله وكرامته». قال أنس: فهذا الحديث سمعته من رسول الله ﷺ ليس بيني وبينه أحد.(١)

---

(١) ابن أبي شيبة (٥٥٦٠) والحارث في المسند (١٩٦) وأبو يعلى (٤٢٢٨) قال ابن كثير في النهاية في الفتن والملاحم (١ / ٢٦١): «قال البزار: لا نعلم أحدًا رواه عن أنس عن عثمان بن عمير - أبو اليقظان - وعثمان بن صالح، هكذا قال. وقد رويناه: من طريق زياد بن خيثمة، عن عثمان بن سلم، عن أنس: فذكر الحديث بطوله مثل هذا السياق أو نحوه. وتقدم في رواية الشافعي عن عبد الله بن عبيد بن عمير، عنه فقد اختلف الرواة فيه، وكان بعضهم يدلسه لئلا يعلم أمره، وذلك لما يتوهم من ضعفه، والله أعلم. وقد رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده: عن شيبان بن فروخ، عن الصعق بن حزن، =

هذا، وإن رضا الله عز وجل هو أعلى مطلب للنبيين وأتباعهم، فهذا زكريا عليه السلام يدعو الله لولده قبل خلقه بأن يجعله راضيًا عنه: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ [مَرْيَم: ٦]، وإسماعيل عليه السلام قد شرّفه ربه برضوانه عنه فقال سبحانه: ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ۝٥٥﴾ [مَرْيَم: ٥٥]

وموسى عليه السلام يسارع لمرضاة ربه تبارك وتعالى قائلًا بكل إيمان وتقوى وشوق: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ۝٨٤﴾ [طه: ٨٤] فقد عجل ليُرضيَ ربه.

=

عن علي بن الحكم البناني، عن أنس، وذكر الحديث وهذه طرق جيدة عن أنس، شاهدة لرواية عثمان بن عمير. وقد اعتنى بهذا الحديث الحافظ أبو حسن والدارقطني فأورداه من طرق. قال الحافظ الضياء: وقد روي من طريق جيد: عن أنس بن مالك، ورواه الطبراني، عن أحمد بن زهير، عن محمد بن عثمان بن كرامة، عن خالد بن مخلد القطواني، عن عبد السلام بن حفص، عن أبي عمران الجوني، عن أنس، فذكره. وقد رواه غير أنس من الصحابة». وقال شعيب الأرناؤوط في تخريج العواصم من القواصم: «روي بإسناد ضعيف، وروي من طريق آخر فيه محمد بن خالد بن خلي، صدوق، ومن فوقه من رجال الصحيح». أهـ.

وقد أخرجه الطبراني في الأوسط (٤٨٧٩)، ٨/ ١٥٤، (٩٤٤) مختصرًا، (٢/ ١٩٧) وقال المنذري في الترغيب والترهيب: «رواه الطبراني في الأوسط بإسناد جيد»، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١/ ٤٣٥): «حسن صحيح»، وقال في موضع آخر في صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ٥٢٥): «حسن لغيره».

وسليمان عليه السلام يلهج بدعاء الله تعالى بأن يوفّقه للصالحات المقربة لمرضاته جل وعلا: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩﴾ [النَّمل: ١٩].

ونوّه سبحانه بشأن كل مؤمن صالح يدعو ربه بعد إبلاغه أربعين ربيعًا أن يلهمه العمل الذي يرضاه سبحانه وأن يعينه عليه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ١٥﴾ [الأحقاف: ١٥] وصحابة محمد ﷺ ورضي عنهم جلّلهم ربُّهم تبارك وتعالى مديحته العظيمة بوصفهم بالعمل الصالح ابتغاء الرضوان، فجمعوا قوةَ النية الصالحة وجلالَ العمل القويم: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ٢٩﴾ [الفتح: ٢٩].

ورضا الله تعالى عن المشفوع له أحد شرطي قبول الشفاعة فيه، قال سبحانه وبحمده: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ١٠٩﴾ [طه: ١٠٩]، وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ٢٧ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ٢٨﴾ [الأنبياء: ٢٦ - ٢٨]، وقال: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ٢٦﴾ [النَّجم: ٢٦]

هذا وإن آخر أهل الجنة دخولًا ينتظره نعيم هائل وسرور مقيم، فيرضيه الله تعالى حتى يرى أنه أنعم الناس طُرًّا، فعن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**آخر من يدخل الجنة رجل فهو يمشي مرّة ويكبو[1] مرة. وتسفعه[2] النار مرة. فإذا ما جاوزها التفت إليها. فقال: تبارك الذي نجّاني منك. لقد أعطاني الله شيئًا ما أعطاه أحدًا من الأولين والآخرين!**

فتُرفع له شجرة. فيقول: أي ربي، أدنني من هذه الشجرة، فلأستظل بظلها وأشرب من مائها. فيقول الله عز وجل: يا بن آدم، لعلي إن أعطيتُكَها سألتني غيرها؟ فيقول: لا يا رب، ويعاهده ألا يسأله غيرها. وربه يعذره، لأنه يرى ما لا صبر له عليه[3] فيدنيه منها، فيستظل بظلها ويشرب من مائها.

ثم ترفع له شجرة هي أحسن من الأولى. فيقول: أي رب، أدنني من هذه لأشرب من مائها وأستظل بظلها لا أسألك غيرها. فيقول: يا بن آدم، ألم تعاهدني ألا تسألني غيرها؟ فيقول[4] : لعلي إن أدنيتك منها تسألني غيرها؟، فيعاهده ألا يسأله غيرها. وربه يعذره، لأنه يرى ما لا صبر له عليه. فيدنيه منها فيستظل بظلها ويشرب من مائها.

---

(١) يكبو: أي يسقط على وجهه.

(٢) تسفعه: تضرب وجهه وتسوّده وتؤثر فيه أثرًا، وفي التنزيل: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥﴾ [العَلَق: ١٥]

(٣) أي: لا صبر له على ترك تناولها لضعفه البشريّ.

(٤) القائل هنا هو المولى عز وجل، وفي الكلام إيجاز بحذف قول ابن آدم: «بلى: يا رب».
عن: نضرة النعيم (٦ / ٢١١٥)

ثم ترفع له شجرة عند باب الجنة هي أحسن من الأولين، فيقول: أي رب، أدنني من هذه لأستظل بظلها وأشرب من مائها، لا أسألك غيرها، فيقول: يا بن آدم، ألم تعاهدني ألا تسألني غيرها؟ قال: بلى يا رب، هذه لا أسألك غيرها. وربه يعذره لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها.

فإذا أدناه منها سمع أصوات أهل الجنة، فيقول: أي رب، أدخلنيها، فيقول: يا بن آدم ما يَصْرِيني منك؟[١] أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها؟ قال: يا رب، أتستهزئُ مني وأنت رب العالمين». فضحك ابن مسعود فقال: ألا تسألوني مم أضحك؟ فقالوا: مم تضحك؟ قال: هكذا ضحك رسول الله ﷺ. فقالوا: مم تضحك يا رسول الله؟ قال: «**من ضحك رب العالمين حين قال: أتستهزئُ مني وأنت رب العالمين؟ فيقول: إني لا أستهزئ منك، ولكني على ما أشاء قادر**».[٢] والضحك صفة ثابتة لله تعالى على ما يليق بجلاله وعظمته، نُثْبِتُه ونعتقده ونؤمن به، ولا نؤوله ولا نمثِّله ولا نكيِّفه، ليس كمثله شيء تبارك وتعالى.

وعن المغيرة بن شعبة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يرفعه؛ قال: سأل موسى ربه: «**ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يجيء بعد ما أُدخل أهلُ الجنةِ الجنةَ. فيقال له: ادخل الجنة. فيقول: أي رب، كيف؟ وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا**

---

(١) أي: ما الذي يرضيك ويقطع مسألتك؟ وأصل التصرية: القطع والجمع، ومنه: الشاة المصرَّاة، وهي التي جُمع لبنُها في ضرعها بسبب تأخّر حلبها عن المعتاد.

(٢) مسلم (١٨٧)

أخذاتهم؟[١] فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل مُلْكِ مَلِكٍ من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت رب. فيقول: لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله. فقال في الخامسة: رضيت رب، فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله. ولك ما اشتهت نفسك ولذَّتْ عينُك. فيقول: رضيت رب.

قال: رب، فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردتُ[٢]، غَرَسْتُ كرامتهم بيدي، وختمتُ عليها، فلم ترَ عينٌ ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر.[٣] قال: ومصداقه في كتاب الله عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٧﴾ [السَّجدَة: ١٧].[٤]

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال لنا رسول الله ﷺ: «**أما ترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟**». قال: فكبرنا، ثم قال: «**أما ترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟**». قال: فكبرنا، ثم قال: «**إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة، وسأخبركم عن ذلك؛ ما المسلمون في الكفار إلا كشعرة بيضاء في ثور أسود، أو كشعرة سوداء في ثور أبيض**».[٥]

---

(١) وأخذوا أخذاتهم: هو ما أخذوه من كرامة مولاهم.

(٢) أردت: اخترت واصطفيت.

(٣) أي: لم يخطر على قلب بشر ما أكرمتهم به وأعددته لهم، فهو نعيم جديد تمامًا، وليس من جنس نعيم الدنيا المُذكِّر بنعيم الآخرة، حتى لو من جهة اسمه، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء».

(٤) مسلم (١٨٩)

(٥) مسلم (٢٢١)

وقد أرضى الله نبيه ﷺ بأن يصلي عشرًا على من صلى عليه واحدة من أمته المحظوظة باتباعه، والسلام كذلك، فعن أبي طلحة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم والبشرى في وجهه فقلنا: إنا لنرى البشرى في وجهك. فقال: **«إنه أتاني الملك فقال: يا محمد؛ إن ربك يقول: أما يرضيك أنه لا يصلي عليك أحد إلا صليت عليه عشرًا، ولا يسلم عليك أحد إلا سلمت عليه عشرًا»**.(١) فلله الحمد كثيرًا كثيرًا.

والمؤمن يتقلّب في نعيم الرضا مهما تقلبت أحواله، فعن سعد بن أبي وقاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«عجبت من قضاء الله عز وجل للمؤمن، إن أصابه خير حمد ربه وشكر، وإن أصابته مصيبة حمد ربه وصبر. المؤمن يؤجر في كل شيء حتى في اللقمة يرفعها إلى فيّ امرأته»**.(٢)

وعن صهيب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراءُ شكر فكان خيرًا**

---

(١) النسائي (٣/ ٤٤)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٢٠) وصححه ووافقه الذهبي. وقال محقق جامع الأصول (٤/ ٤٠٥): وللحديث شواهد يرتقي بها إلى درجة الحسن أو الصحيح.

(٢) أحمد (١/ ١٧٣، ١٧٧، ١٧٨) وشرح السنة (١٥٤٠) وقال مخرجه: إسناده حسن والبيهقي في السنن (٣/ ٣٧٥، ٣٧٦) والهيثمي في المجمع (٧/ ٢٠٩) وقال: رواه أحمد بأسانيد ورجالها كلها رجال الصحيح.

له، وإن أصابته ضراءُ صبر فكان خيرًا له».[١] وتأمل خصوصية المؤمن بذلك. وكل هذا من بركات الرضا بالله تعالى.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد كلامه عن تفويض الأمر إلى الله تعالى: «فإذا وضع قدمه في هذه الدرجة؛ انتقل منها إلى درجة الرضا، وهي ثمرة التوكل، ومن فسر التوكل بها فإنما فسّره بأجلى ثمراته وأعظم فوائده، فإنه إذا توكل حق التوكل رضي بما يفعله وكيله.

وكان شيخنا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[٢] يقول: المقدور يكتنفه أمران: التوكل قبله، والرضا بعده. فمن توكل على الله قبل الفعل ورضي بالمقضي له بعد الفعل فقد قام بالعبودية، أو معنى هذا. قلت: وهذا معنى قول النبي ﷺ في دعاء الاستخارة: **«اللَّهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم»**. فهذا توكل وتفويض، ثم قال: **«فإنك تعلم ولا أعلم، وتقدر ولا أقدر، وأنت علّام الغيوب»**. فهذا تبرؤ إلى الله من العلم والحول والقوة، وتوسل إليه سبحانه بصفاته التي هي أحب ما توسل إليه بها المتوسلون، ثم سأل ربه أن يقضي له ذلك الأمر إن كان فيه مصلحته عاجلًا أو آجلًا، وأن يصرفه عنه إن كان فيه مضرته عاجلًا أو آجلًا، فهذه هي حاجته التي سألها.

---

(١) مسلم (٢٩٩٩)

(٢) إذا أطلق ابن القيم شيخه فهو ابن تيمية رحمهما الله تعالى.

فلم يبق عليه إلا الرضا بما يقضيه له فقال: **«واقدُرْ لي الخير حيث كان، ثم رَضِّنِي به»**.[(١)]

فقد اشتمل هذا الدعاء على هذه المعارف الإلهية والحقائق الإيمانية التي من جملتها التوكل والتفويض قبل وقوع المقدور، والرضا بعده، وهو ثمرة التوكل والتفويض وعلامة صحته، فإن لم يرض بما قضى له؛ فتفويضه معلول فاسد!

وهذا معنى قول بشر الحافي: «يقول أحدهم: توكلت على الله. يكذب على الله، لو توكل على الله لرضي بما يفعله الله به». وقول يحيى بن معاذ وقد سئل: متى يكون الرجل متوكلًا؟ فقال: «إذا رضي بالله وكيلًا».[(٢)]

وما كان أمرٌ قبلَ أمرِ إلهنا ... فإنْ أذكرِ المقدورَ زالَ حذارِيا

وقد اشتمل دعاء الاستخارة هذا على خزائن رضًا عميم، وتأمل كيف أبدل الله حال الناس بالإسلام خيرًا، فخيرٌ لهم لو أسلموا دينهم كله لله رب العالمين، «فعوّض رسول الله ﷺ أمته بهذا الدعاء عمّا كان عليه أهل الجاهلية من زجر الطير والاستقسام بالأزلام الذي نظيره هذه القرعة التي كان يفعلها إخوان المشركين يطلبون بها علم ما قُسم لهم في الغيب، ولهذا سُمّي ذلك استقسامًا، وهو استفعال من القَسْم، والسين فيه للطلب، وعوّضهم بهذا الدعاء الذي هو توحيد وافتقار وعبودية وتوكّل وسؤال لمن بيده الخير كله،

---

(١) البخاري ٢/٧٠ (١١٦٢).

(٢) مدارج السالكين (٢ / ١٢٤) باختصار.

الذي لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يصرف السيئات إلا هو، الذي إذا فتح لعبده رحمة لم يستطع أحد حبسها عنه، وإذا أمسكها لم يستطع أحد إرسالها إليه من التطير والتنجيم واختيار الطالع ونحوه.

فهذا الدعاء هو الطالع الميمون السعيد،[١] طالعُ أهل السعادة والتوفيق الذين سبقت لهم من الله الحسنى، لا طالع أهل الشرك والشقاء والخذلان الذين يجعلون مع الله إلهًا آخر فسوف يعلمون.

---

(١) هذا الضرب من الحروف هو من قبيل الوجوه والمشتركات اللفظية، بمعنى: اتحاد اللفظ واختلاف المعنى بحسب السياق، ومراد الشيخ بلفظ الطالع سليم، وقد وضحه في سياقه وبسطه في سباقه، وأنه ـ وإن اشترك لفظًا ـ فإنه ليس بالمعنى المذموم الذي يفهمه أهل الشرك والكهانة. ولعل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد قصد بذلك قرعَ الألباب بالتنبيه إلى خطورة اعتقاد معنى الطالع الشركي وتأثيره على أصل معتقد أهل الإيمان والحنيفية.

ولِعَمَلِه هذا نظائر قد ارتآها، منها الموافق في سياقه دون إفراده: كاستخدامه لفظ الطريقة المحمدية ردًّا على مُحسِّنِي التلقّب بالطرق الصوفية، فلهذا اللقب أساس شرعي بمعنى الطريق والسبيل، والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يذكره في معرض دحضه لشبههم بتأسيسهم لألقاب ما أنزل الله بها من سلطان، ثم يُركّبون عليها التحزّب لغير سنة رسول الله ﷺ.

ومنها ما فيه نظر من حيث اللفظ لا المعنى: كقوله بالفناء الشرعي عما سوى مرضاة الله تعالى نفيًا للمعاني الأخرى الباطلة أو غير المحمودة أو ما سوى المطلوبة، وغير ذلك مما ارتضاه أمثالًا.. وهذا الضرب نافع جدًّا في بابه حوارًا ومناظرة وبيانًا لمن يُحسِنُ إيرادَه عند من يفهمه كما أراد واضعُه، وهو باب من البيان عزيز، وفائدته إثبات أن تزيين المعنى الشَّيْن باللفظ الزَّيْن لا يغني من الحق ذرّةً ولا يغيّر من الحقيقة شيئًا.

=

=
وبالجملة؛ ففي ألفاظ الشرع كفاية ومقنع ونهاية وكمال لا مزيد عليه، ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ۝٦٤﴾ [مريم: ٦٤]. وعلى قدر تجاوز لفظ الشرع يكون الخطأ بقدره، وقد يكون صوابًا إن جاء بضوابطه وقت حاجته. فالشريعة قد أباحت للمحتاج البيان ممن يحسن أداء المعنى ولو بخلاف اللفظ إلا ما استُثني. وللغة الشرع حرمتُها الكافّة الفاذّة المانعة، فهي اللغة المرتضاة ممن أنزل الوحي بها، واختيارُ اللفظ المُحدَّدِ فيها ليقوم بحمل المعنى المراد بها له اعتبارُه وعظمته وحرمته.

بيان ذلك: أن المعنى الذي جاء الشرع بقَولَبته في لفظه لا ينبغي أن نتجاوزه لغيره إلا لحاجةٍ خارج البيان الأصلي؛ كتصحيحِ فهمٍ مَا قد تواطأت فئةٌ ما عليه، أو ترجمةِ المعنى للغة أخرى، أو الإلزامِ في المناظرات وقدحِ فروقِ المعاني في المُتقابلات وغيرِ ذلك من القُصُودِ الشريفة بالطرائق المشروعة، ولعل هذا المعنى الثالث هو ما أراده شيخنا ابن القيم رحمنا الله تعالى جميعًا وإياه.

وعلى كل حال؛ فلو أنّ الشيخ اجتنب كلمة «طالع» بالكليّة لكان خيرًا، دفعًا لتوهّم من لم يفقه مراده، ففيها شيء - ولو من طرف خفيّ - من مشابهة أهل الجهل ولو بالمسمّى واللقب، ذلك أنهم يقصدون به طالع النجم الذي يتلمّسون عنه خبرًا أو تدبيرًا! ولا زال بعض الناس عن غفلةٍ أو جهلٍ يذكرون كلمة الطالع بمعناها الجاهليّ فيقولون: من يُمْنِ الطالع اليوم أن حصل كذا وكذا، وفلان ميمون الطلعة، بمعنى وُلِد في وقتِ نجمٍ أو برجٍ مبارك.. ونحو ذلك من الضلال. وعليه؛ فلو استبدلت بكلمة «سبب» أو نحوها مما يؤدي الغرض ولا محذور معه.

ولغة القرآن بحمد الله ثريّة غنيّة بكل ما يعبّر عن مكنون الضمير ويترجم عينَ قصد القلب، كيف لا وقد تكلم بها الرحمن جل جلاله!

فتضمن هذا الدعاء الإقرار بوجوده سبحانه، والإقرار بصفات كماله من كمال العلم والقدرة والإرادة، والإقرار بربوبيته، وتفويض الأمر إليه، والاستعانة به، والتوكل عليه، والخروج من عهدة نفسه والتبري من الحول والقوة إلا به، واعتراف العبد بعجزه عن علمه بمصلحة نفسه وقدرته عليها، وإرادته لها، وأن ذلك كلّه بيد وليِّه وفاطره وإلهه الحق».(١) وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠]، قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «إذا توفى العبد المؤمن؛ أرسل الله إليه ملكين، وأرسل إليه بتحفة من الجنة، فيقال: اخرجي أيتها النفس المطمئنة، اخرجي إلى رَوح وريحان، ورب عنك راض». وفي وقت هذه المقالة ثلاثة أقوال للسلف:

أحدها: أنه عند الموت. وهو الأشهر، قال الحسن: «إذا أراد قبضها اطمأنت إلى ربها ورضيت عن الله فيرضى الله عنها». وقال آخرون: إنما يقال لها ذلك عند البعث. هذا قول عكرمة، وعطاء، والضحاك، وجماعة. وقال آخرون: الكلمة الأولى وهي: ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨﴾ [الفجر: ٢٨] تقال لها عند الموت، والكلمة الثانية وهي: ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠﴾ [الفجر: ٢٩ - ٣٠] تقال لها يوم القيامة. قاله أبو صالح.

والصواب: أن هذا القول يقال لها عند الخروج من الدنيا ويوم القيامة. فإن أول بعثها عند مفارقتها الدنيا وحينئذ فهي في الرفيق الأعلى إن كانت

(١) زاد المعاد (٢/ ٤٠٤)

مطمئنة إلى الله وفي جنته، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة، فإذا كان يوم القيامة قيل لها ذلك، وحينئذ يكون تمام الرجوع إلى الله ودخول الجنة، فأوّل ذلك عند الموت، وتمامه ونهايته يوم القيامة.(١)

ومَن فَقهَ حقيقة الرضا أحسنَ عمله به، فاستسهل من العمل ما كان على غيره كؤودًا، وارتقى من معالي المقامات الشريفة ما كان على سواه منيعًا، و«إنّ بلوغ مقام الرضا لا يكون بالتحلّي ولا بالتمنّي، وليس بالادعاء والكبرياء، كما في قصة قارون لمّا وعظه قومُه بشأن ماله، فقال لهم: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٧٨﴾ [القَصَص: ٧٨]. فليس المال وكثرته هو الذي يبلغ به العبد درجة الرضا، فكم ملك قارون؟ وما أغنى عنه شيئًا، وما رضي عن الله، ولا بقضائه.

لقد تمنّى من تمنّى ممن رأى قارون في زينته، وماله، وجبروته، أن يحصلوا على ما حصل عليه فقالوا: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ۝٧٩﴾ [القَصَص: ٧٩] وظنّوا أنّه بلغ مقام الرضا، ولكن الله أخبر أن المال ليس بدليل على رضا الله عن صاحبه، فإنّ الله يعطي ويمنع، ويُضيّق ويُوسّع، ويخفض ويرفع، وله الحكمة التامة سبحانه، والحجة البالغة».(٢)

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ١٧٩)

(٢) أخرج أحمد في مسنده (٣٦٧٢) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإنّ الله عزّ وجل يعطي الدنيا من يحبّ ومن لا يحبّ، ولا يعطي الدِّين إلا من أحبّ، فمن أعطاه**
=

ولهذا لما أدرك المتمنّون ما حصل لقارون، وأنه بعيد كل البعد عن رضا الله أولًا، والرضا بما أعطاه قالوا: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [القَصَص: ٨٢]، فلولا لطفُ الله بنا وإحسانه إلينا لخسف بنا كما خسف به!

والرضا حال من أحوال أهل الجَنَّة، لا يفارق صاحبه المتحلّي به في الدنيا ما دام مع أمر الله، راضيًا بقضائه في الدنيا وفي الآخرة. فالرضا بالقضاء من تمام الإيمان بالقضاء والقدر، وهو لباس قلوب أهله وبستان صدورهم ونعيم أرواحهم وجُنَّةُ دينهم من حين نزولهم لدار الابتلاء إلى قرارهم في دار البقاء.

والرضا غاية يسعى لها المؤمن الصادق، فهو من مقامات الإحسان التي هي من أعلى المندوبات، ومرتبة الإحسان هي أعلى مراتب الدين، كما في حديث جبريل عليه السلام المشهور. وروي أنّ أبا الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال:

=

الدين فقد أحبَّه، والذي نفسي بيده لا يُسلم عبدٌ حتى يُسلمَ قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جارُه بوائقه». قالوا: وما بوائقه يا نبي الله؟ قال: **«غَشْمه وظلمه. ولا يكسِبُ عبد مالًا من حرام فينفقُ منه فيبارَك له فيه، ولا يتصدّقُ به فيُقبل منه، ولا يتركُهُ خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار. إنّ الله عز وجل لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكن يمحو السيئ بالحسن، إن الخبيث لا يمحو بالخبيث».** ورواه الحاكم في المستدرك (٢/٤٤٧)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وضعّفه محققو المسند والألباني، ورجّح الدارقطني في العلل (٥/٢٧١) وقفه.

«ذروة الإيمان أربع خلال: الصبر للحكم، والرضا بالقدر، والإخلاص للتوكل، والاستسلام للرب».

ومقام الرضا أعلى من مقام الصبر. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمقامات الإيمان لا تعدم بالتنقّل فيها، بل تندرج وينطوي الأدنى في الأعلى، كما يندرج الإيمان في الإحسان، وكما يندرج الصبر في مقامات الرضا، لا أن الصبر يزول، ويندرج الرضا في التفويض، ويندرج الخوف والرجاء في الحب، لا أنّهما يزولان».[(١)]

ثُمَّ إن الرّضا من المقامات التي توصل للطمأنينة؛ لأنها مقام جامع للإنابة والتوكل والرضا والتسليم، فهي معنى ملتئم من هذه الأمور، إذا اجتمعت صار صاحبها صاحب طمأنينة، وما نقص من هذه الأمور نقص من الطمأنينة. وكم يتمنى العبد الحصول على الطمأنينة، فالرضا من الأمور التي تسبّب في وصول العبد إليها، فهو باب الله الأعظم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولذلك كان الرضا باب الله الأعظم، وجنّة الدنيا، ومستراح العارفين، وحياة المحبّين، ونعيم العابدين، وقرّة عيون المشتاقين».[(٢)]وقال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الرّضا عن الله درجة المقرّبين، ليس بينهم وبين الله تعالى إلّا رَوح وريحان». وقال ذو النون: «ثلاثة من أعلام الرضا: ترك الاختيار قبل القضاء، وفقدان المرارة بعد القضاء،

---

(١) عدة الصابرين (١ / ١٢٤)

(٢) مدارج السالكين (٢ / ١٧٤)

وهيجان الحب في حشو البلاء». وقيل للحسين بن علي رضي الله عنهما: إن أبا ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول: الفقر أحبُّ إليّ من الغنى، والسقم أحب إلي من الصحة. فقال: «رحم الله أبا ذر، أما أنا فأقول: من اتّكل على حسن اختيار الله له؛ لم يتمنّ غير ما اختار الله له». وقال الفضيل بن عياض لبشر الحافي: «الرضا أفضل من الزهد في الدنيا، لأن الراضي لا يتمنّى فوق منزلته».

هذا، وإنّ مرتبة الرضا فوق الصبر ودون الشكر ـ كما مر ـ علمًا بأن كل مرتبة لا تقوم إلا على ما قبلها، فلا رضا بدون صبر، ولا شكر بدون رضا. قال العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقد سئل عمّن يتسخط إذا نزلت به مصيبة؟ فأجاب: «الناس حال المصيبة على مراتب أربع:

المرتبة الأولى: التسخّط وهو على أنواع:

النوع الأول: أن يكون بالقلب كأن يتسخط على ربه يغتاظ مما قدره الله عليه، فهذا حرام، وقد يؤدي إلى الكفر قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَ﴾ [الحج: ١١].

النوع الثاني: أن يكون التسخط باللسان كالدعاء بالويل والثبور وما أشبه ذلك، وهذا حرام.

النوع الثالث: أن يكون التسخط بالجوارح كلطم الخدود، وشق الجيوب، ونتف الشعور وما أشبه ذلك وكل هذا حرام منافٍ للصبر الواجب.

المرتبة الثانية: الصبر، وهو كما قال الشاعر:

والصبرُ مثل اسمه مرٌّ مذاقتُه لكنْ عواقبُه أحلى من العسلِ

فيرى أن هذا الشيء ثقيل عليه لكنه يتحمله، وهو يكره وقوعه ولكن يحميه من السخط، فليس وقوعه وعدمه سواء عنده، وهذا واجب لأن الله تعالى أمر بالصبر فقال: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾ [الأنفال: ٤٦].

المرتبة الثالثة: الرضا، بأن يرضى الإنسان بالمصيبة بحيث يكون وجودها وعدمها سواء، فلا يشق عليه وجودها، ولا يتحمل لها حملًا ثقيلًا، وهذه مستحبة وليست بواجبة على القول الراجح، والفرق بينها وبين المرتبة التي قبلها ظاهر، لأن المصيبة وعدمها سواء في الرضا عند هذا، أما التي قبلها فالمصيبة صعبة عليه لكن صبر عليها.

المرتبة الرابعة: الشكر: وهو أعلى المراتب، وذلك بأن يشكر الله على ما أصابه من مصيبة حيث عرف أن هذه المصيبة سبب لتكفير سيئاته، وربما لزيادة حسناته، قال ﷺ: **«ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفَّر الله بها حتى الشوكة يشاكها».**»(١).

ومن الكلام الحسن في فضل الرضا وبيان منزلته، ما روي عن الفاروق عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه كتب إلى أبي موسى الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «أمَّا بعد، فإن الخير كله في الرضا، فإن استطعت أن ترضى وإلّا فاصبر». وعن الفضيل بن عياض رَحِمَهُٱللَّهُ: «الرضا أفضل من الزهد في الدنيا؛ لأنّ الراضي لا

(١) مجموع فتاوى ابن عثيمين (٢/١٠٩) والحديث رواه أحمد (٣٠٨٥) وأصله في الصحيحين كما عند البخاري ٧/١٤٨ (٥٦٤١) ومسلم ٨/١٦ (٢٥٧٣)

يتمنّى فوق منزلته». وسئل أبو سهل محمد بن سليمان عن الشكر والصبر أيهما أفضل؟ فقال: «هما في محل الاستواء، فالشكر مطيّة السرّاء، والصبر فريضة الضرّاء». قال: «وقيل: الصبر أسنى الأمرين؛ لأن الشكر استجلاب واستدعاء، والصبر استكفاء وارتضاء، وموضع الرضا يفضل موضع الدعاء».

وممَّا قيل في فضل الرضا بالقضاء:

وما ليَ من عبدٍ ولا من وليدةٍ وإنّي لَفي فضلٍ من الله واسعُ
ومن يجعل الرحمنُ في قلبه الرضا يعشْ في غنًى من طيّب العيش راتعُ

ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئًا، قال سبحانه: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ۝٢١﴾ [القيَامَة: ٢٠ - ٢١]، وقال: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ۝٢٧﴾ [الإنسَان: ٢٧]، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا يحصل لكلّ أحد، فإنّ الإنسان مدنيّ بالطبع، لا بدّ له أن يعيش مع الناس، والناس لهم إرادات وتصوّرات، فيطلبون منه أن يوافقهم عليها، فإن لم يوافقهم آذوه وعذّبوه، وإن حصل له الأذى والعذاب تارة منهم وتارة من غيرهم، كمن عنده دِين وتقى حلّ بين قوم فُجّار ظلمة، ولا يتمكّنون من فجورهم وظلمهم إلا بموافقته لهم أو سكوته عنهم، فإن وافقهم أو سكت عنهم سلم من شرّهم في الابتداء، ثم يتسلّطون عليه بالإهانة والأذى أضعاف ما كان يخافه ابتداء لو أنكر عليهم وخالفهم، وإن سلم منهم فلا بدّ أن يُهان ويعاقب على يد غيرهم.

فالحزم كلّ الحزم في الأخذ بما قالت عائشة أم المؤمنين لمعاوية: «من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله

لم يغنوا عنه من الله شيئًا»[(١)] ومن تأمل أحوال العالم رأى هذا كثيرًا فيمن يعين الرؤساء على أغراضهم الفاسدة، وفيمن يعين أهل البدع على بدعهم هربًا من عقوبتهم، فمن هداه الله وألهمه رشده ووقاه شرّ نفسه امتنع من الموافقة على فعل المحرّم، وصبر على عدوانهم، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة كما كانت للرسل وأتباعهم كالمهاجرين والأنصار ومن ابتلي من العلماء والعباد وصالحي الولاة والتجار وغيرهم»[(٢)].

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «السعادة في معاملة الخلق: أن تعاملهم لله، فترجو الله فيهم ولا ترجوهم في الله، وتخافه فيهم ولا تخافهم في الله، وتحسن إليهم رجاء ثواب الله لا لمكافأتهم، وتكفّ عن ظلمهم خوفًا من الله لا منهم. كما جاء في الأثر: «ارجُ الله في الناس، ولا ترج الناس في الله، وخفِ الله في الناس، ولا تخف الناس في الله». أي: لا تفعل شيئًا من أنواع العبادات والقُرَب لأجلهم لا رجاء مدحهم ولا خوفًا من ذمّهم، بل ارجُ الله ولا تخفهم في الله فيما تأتي وما تذر، بل افعل ما أُمرتَ به وإن كرهوه.

وفي الحديث: **«إنّ من ضعف اليقين أن تُرضي الناس بسخط الله، أو تذمّهم على ما لم يؤتك الله»**.[(٣)] فإنّ اليقين يتضمّن اليقين في القيام بأمر الله وما وعد الله أهل طاعته، ويتضمّن اليقين بقدر الله وخلْقِه وتدبيره، فإذا أرضيتهم

---

(١) الترمذي (٢/ ٦٧) وصححه الألباني في الصحيحة (٢٣١١) بنحوه.

(٢) الزاد (٣/ ١٦-١٧)

(٣) شعب الإيمان (١/١٧٦) والحلية (٣/١٢٢) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٢٠٠٩)

بسخط الله لم تكن موقنًا لا بوعده ولا برزقه، فإنّه إنما يحمل الإنسان على ذلك إمّا ميل إلى ما في أيديهم من الدنيا، فيترك القيام فيهم بأمر الله لِما يرجوه منهم، وإما ضعف تصديق بها وعد الله أهل طاعته من النصر والتأييد والثواب في الدنيا والآخرة، فإنك إذا أرضيت الله نصرَك ورزقك وكفاك مؤنتهم، فإرضاؤهم بسخطه إنما يكون خوفًا منهم ورجاء لهم، وذلك من ضعف اليقين.

وإذا لم يُقدّر لك ما تظن أنهم يفعلونه معك فالأمر في ذلك إلى الله لا لهم، فإنّه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فإذا ذممتهم على ما لم يقدّر؛ كان ذلك من ضعف يقينك، فلا تَخفهم ولا ترجهم ولا تذمّهم من جهة نفسك وهواك، لكن من حمده الله ورسوله ﷺ فهو المحمود، ومن ذمه الله ورسوله ﷺ فهو المذموم. ولما قال بعض وفد بني تميم: يا محمد، أعطني، فإنّ حمدي زَيْنٌ وإنّ ذمّي شَيْنٌ. قال رسول الله ﷺ: **«ذاك الله عز وجل»**.[١] وكتبت عائشة إلى معاوية وروي أنها رفعته إلى النبي ﷺ: **«من أرضى الله بسخط الناس كفاه مؤنة الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئًا»**.[٢] هذا لفظ المرفوع، ولفظ الموقوف: «من أرضى الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله عاد حامده من الناس

---

(١) الترمذي (٣٢٦٧) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وضعفه أيمن صالح. ورواه أحمد (١٥٩٩١) وقال محققوه: إسناده ضعيف لانقطاعه، أبو سلمة بن عبد الرحمن -وهو ابن عوف القرشي- لم يثبت سماعه من الأقرع بن حابس.

(٢) الترمذي (٢/ ٦٧) وصححه الألباني في الصحيحة (٢٣١١) بنحوه.

له ذامًّا»، هذا لفظ المأثور عنها، وهذا من أعظم الفقه في الدين. والمرفوع أحقّ وأصدق، فإنّ من أرضى الله بسخطهم كان قد اتقاه، وكان عبده الصالح، والله يتولى الصالحين، وهو كاف عبده، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ [الطَّلَاق: ٢ - ٣]. فالله يكفيه مؤنة الناس بلا ريب، وأما كون الناس كلهم يرضون عنه؛ فقد لا يحصل ذلك، لكن يرضون عنه إذا سلموا من الأغراض، وإذا تبيّنت لهم العاقبة.

ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئًا، كالظالم الذي يعضّ على يده يقول: ﴿يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ۝٢٧ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ۝٢٨﴾ [الفُرۡقَان: ٢٧ - ٢٨]، وأما كون حامده ينقلب ذامًّا: فهذا يقع كثيرًا ويحصل في العاقبة، فإن العاقبة للتقوى، لا يحصل ابتداء عند أهوائهم، وهو سبحانه أعلم».(١)

وأعجز الناس وأجهلهم هو من أعطى الدنيا أكثر من حقّها وأكبر من حجمها رغبةً واهتمامًا ورضًا وسخطًا، فضع الدنيا ـ رحمك الله ـ حيث وضعها الله، وارفعِ الآخرةَ إذْ رفعها الله تعالى. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الزاد في تعزية الله عباده المؤمنين بأن الحياة الدنيا قصيرة: «ولما كان الألم لا محيص منه البتّة؛ عزّى الله سبحانه من اختار الألم اليسير المنقطع على الألم العظيم المستمر بقوله: ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٥﴾ [العَنكَبُوت: ٥] فضرب لمدة هذا الألم أجلًا لا بدّ أن يأتي، وهو يوم لقائه، فيلتذُّ

(١) مجموع الفتاوى (١ / ٥٢)

العبد أعظم اللذة بما تحمّل من أجله وفي مرضاته، وتكون لذته وسروره وابتهاجه بقدر ما تحمّل من الألم في الله ولله.

وأكّدَ هذا العزاء والتسلية برجاء لقائه، ليحمل العبدَ اشتياقُه إلى لقاء ربه ووليّه على تحمل مشقة الألم العاجل، بل ربما غيّبه الشوق إلى لقائه عن شهود الألم والإحساس به! ولهذا سأل النبي ﷺ ربّه الشوقَ إلى لقائه فقال في الدعاء الذي رواه أحمد وابن حبان: «**اللّٰهم إني أسألك بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني إذا كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي، وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحقّ في الغضب والرّضا، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيمًا لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء، وأسألك برْدَ العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، وأسألك الشوق إلى لقائك في غير ضرّاء مضرّة، ولا فتنة مضلة[(١)] اللّٰهم زيّنا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين**».[(٢)]

فالشوق يحمل المشتاق على الجِدِّ في السير إلى محبوبه، ويقرّب عليه الطريق، ويطوي له البعيد، ويهوّن عليه الآلام والمشاق، وهو من أعظم نعمة

---

(١) أي أنه سأل الله أن يجعل سبب شوقه إلى لقائه هو محض الشوق إليه، والإيمان به، وحسن الظن به، وعظيم الرجاء، وصادق المحبة، وهذا هو الشوق الصادق الجميل، لا هربًا من مشقّة الدنيا أو فتنة الدِّين.

(٢) أحمد (١٨٣٥١) والنسائي (١٣٠٥) وصححه الألباني في الكلم الطيب (١٠٦) ولفظ النسائي: «**اللّٰهم بعلمك الغيب**.. الحديث».

أنعم الله بها على عبده، ولكن لهذه النعمة أقوالٌ وأعمال هما السبب الذي تنال به، والله سبحانه سميع لتلك الأقوال عليم بتلك الأفعال، وهو عليم بمن يصلح لهذه النعمة ويشكرها ويعرف قدرها ويحب المنعم عليه، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ٥٣﴾ [الأنعام: ٥٣]

فإذا فاتت العبد نعمة من نعم ربه فليقرأ على نفسه: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ٥٣﴾ [الأنعام: ٥٣] ثمّ عزّاهم تعالى بعزاء آخر؛ وهو أن جهادهم فيه إنما هو لأنفسهم وثمرته عائدة عليهم، وأنه غنيّ عن العالمين، ومصلحة هذا الجهاد ترجع إليهم لا إليه سبحانه، ثم أخبر أنه يدخلهم بجهادهم وإيمانهم في زمرة الصالحين.

ثم أخبر عن حال الداخل في الإيمان بلا بصيرة، وأنه إذا أوذي في الله جعل فتنة الناس له كعذاب الله، وهي أذاهم له ونيلهم إياه بالمكروه والألم الذي لا بد أن يناله الرسل وأتباعهم ممن خالفهم، جعل ذلك في فراره منهم، وتركه السبب الذي ناله، كعذاب الله الذي فرّ منه المؤمنون بالإيمان!

فالمؤمنون لكمال بصيرتهم فرّوا من ألم عذاب الله إلى الإيمان، وتحمّلوا ما فيه من الألم الزائل المفارق عن قريب، وهذا لضعف بصيرته فرّ من ألم عذاب أعداء الرسل إلى موافقتهم ومتابعتهم، ففرّ من ألم عذابهم إلى ألم عذاب الله! فجعل ألم فتنة الناس في الفرار منه بمنزلة ألم عذاب الله، وغُبن كلّ الغبن؛ إذ استجار من الرمضاء بالنار، وفرّ من ألم ساعة إلى ألم الأبد، وإذا نصر الله جنده وأولياءه قال: إني كنت معكم، والله عليم بما انطوى عليه صدره من النفاق.

والمقصود؛ أن الله سبحانه اقتضت حكمته أنه لا بد أن يَمتحن النفوس ويبتليها، فيظهر بالامتحان طيبها من خبيثها، ومن يصلح لموالاته وكراماته ومن لا يصلح، وليمحّص النفوس التي تصلح له ويخلّصها بكَير الامتحان، كالذهب الذي لا يخلص ولا يصفو مِنْ غشّه إلا بالامتحان، إذ النفس في الأصل جاهلة ظالمة، وقد حصل لها بالجهل والظلم من الخبث ما يحتاج خروجه إلى السبك والتصفية، فإن خرج في هذه الدار وإلا ففي كَيْر جهنم، فإذا هُذّب العبد ونُقّي أذن له في دخول الجنة»[١].

ألا ما أجمل الرضا، وأحلى مذاقه، وأرق أوقاته، وأينع ثماره، اللّهم رفقةَ الراضين بك والراضيات، إله الحق.

فَلا تَجزَع وَإِن أَعسَرتَ يَومًا ... فَقَد أَيسَرتَ في الزَمَنِ الطَويل
وَلا تَيأَس فَإِنَّ اليَأسَ كُفرٌ ... لَعَلَّ اللهَ يُغني عَن قَليل
وَلا تَظنُن بِرَبِّكَ ظَنَّ سَوءٍ ... فَإِنَّ اللهَ أَولى بِالجَميل
ولا تظنن بنفسك قطّ خيرًا ... فكيف بظالم جانٍ جهولٍ
وظنّ بنفسك السّوءى تجدها ... كذلك خيرها كالمستحيل
وما بك من تقى فيها وخير ... فتلك مواهبُ الرّبِّ الجليل
وليس لها ولا منها ولكن ... مِنَ الرّحمنِ فاشكرْ للدّليل

٭٭٭

(١) الزاد (٣/ ١٦-١٧) باختصار.

درجاتُ الرِّضا بالله تعالى

الرضا بحر واسع، ودرجاته متفاوتة باعتبارات عدّة، فمن حيث أنواعه؛ فأجلُّها: الرضا بالله ربًّا وإلهًا لا شريك له، فهو راضٍ بربِّه لذاته المقدّسة، وكماله المطلق، وفضله الذي لا يُحصر، ولا يستحق العبادة سواه.

ومن أنواع الرضا: الرضا بدينه الذي شرعه وأنزله ورضيه طريقة للتعبد به إليه، ويتبع ذلك الرضا بمشقّات الطاعات ومرارات اجتناب المحرمات المشتهاة، حتى تترقّى النفس للرضا التام والتّلذّذ الوافر بذلك، لوصول النفس حينها لدرجة النفس المطمئنة.

ومن أنواعه: الرضا بالمقادير الكونية المؤلمة، فمنها السهل المتيسّر، ومنها الصعب الشديد المُمِضُّ.. وهكذا. وكلها جارية على العبد لا محالة، ومن تائية ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فما شاء مولانا الإلهُ فإنّه يكون، وما لا، لا يكون بحيلة

قال الشيخ المنجّد: «الرضا مقاماتٌ؛ فمنها: الرضا بما قسم الله وأعطاه من الرزق، وهذا ممكنٌ يجيده بعض العوامّ. والمرتبة الأعلى: الرضا بما قدّره الله وقضاه. ومرتبةٌ أعلى من هذه وهي أن يرضى بالله بدلًا من كل ما سواه.

هذه منازل قد يأتي البعض بواحدةٍ ولا يقدر على الأخرى، وقد يأتي البعض بجزءٍ من الدرجة ولا يحقق كل الدرجة. قد يرضى عن الله فيما قسم له من الزوجة ولا يرضى بما قسم له في الراتب مثلًا، وقد يصبر على سرقة المال ولا يصبر على فقد الولد، وأما أن الإنسان يرضى بالله عن كل ما سواه، معنى

ذلك أن يهجر كل شيءٍ لا يؤدِّي إلى الله (ملاهٍ ـ ألعاب ـ أمورٌ مباحةٌ لا تقود إلى الله) فالمشتغل بها لا يعتبر أنه رضي بالله عن كل ما سواه. فهذه حالةٌ خاصةٌ لشخصٍ مع الله دائمًا، كل شيءٍ أي عملٍ أي حركةٍ أي سكنةٍ كلها طريقٌ إلى الله تؤدي إلى مرضاة الله.

وللرضا درجات: منها الرضا بالله ربًّا وتسخُّطُ عبادةِ ما دون الله، وهذا قطب رحا الإسلام لا بد منه، أن ترضى بالله ولا ترضى بأي إلهٍ آخر (بوذا.. ما يعبده المشركون.. اليهود.. النصارى) لم يتخذ غير الله ربًّا يسكن إليه في تدبيره، وينزل به حوائجه. وهذا محرومٌ منه غلاة الصوفية المشركون عبّاد القبور، فيُنزلون حوائجهم بالأولياء والأقطاب، ويسألونهم ويستغيثون بهم ويتوكّلون عليهم ويرجون منهم ما لا يقدر عليه إلا الله!

لو آمنوا بالله حقًّا لطلبوا المدد من الله ولم يذهبوا إلى المخلوقين في قبورهم، يقولون: يا فلان المدد، يا فلان أغثنا! ثم يأتي الصوفية ويقولون: نحن متخصّصون بالقلوب وقد ضيّعوا الأساس! ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «يعني سيّدًا وإلهًا، فكيف أطلب ربًّا غيره وهو ربُّ كل شيءٍ؟!».

﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ﴾ [الأنعام: ١٤]، وليًّا من الموالاة التي تتضمّن الحب والطاعة، يعني: أغير الله أتخذ معبودًا وناصرًا ومُعينًا وملجأً؟! ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ﴾ [الأنعام: ١١٤]، هل أرضى بحَكَمٍ آخر يحكم بيني وبينكم غير الله بكتابه وسنّة نبيه ﷺ؟! فلو قال أحدهم: أنا أرضى بالقانون الوضعيّ يحكم بيننا. هذا لا

يمكن أن ينطبق عليه أنه يؤمن بالله ربًّا. إذًا هناك أناسٌ يدّعون الرضا بالله ثم يخالفون في تعاملاتهم قاعدةً وأساسًا من أعظم الأسس، فإذا رضيت بالله ربًّا يجب أن ترضى به حَكَمًا، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام : ٥٧]، ومن خصائصه سبحانه أن التحكيم والحُكْمَ له سبحانه وحده.

ثم إذا تأملتَ هذه الأمور عرفتَ أن كثيرًا من الناس يدّعون الرضا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمدٍ ﷺ نبيًّا، ثم هنا يخالفون حكم الله ويرضون بحكم غيره، ويخالفون السنّة، وهناك يميلون ويوالون أصحاب دياناتٍ أخرى، فأين هم من هذه الثلاثة؟!

والقرآن مليءٌ بوصف المشركين أنهم اتخذوا من دون الله أولياء، فإنّ من تمام الإيمان صحة الموالاة. ومدار الإسلام على أن يرضى العبد بعبادة الله وحده ويسخط عبادة غيره.

والفرق بين الرضا بالله والرضا عن الله (١): الرضا بالله بأنه الله وأنه المعبود فقط لا غيره، وأن الحكم له فقط لا لغيره، وأن نرضى بما شرع. ولا يمكن أن يدخل فيه المؤمن والكافر معًا، لا يكون إلا للمؤمن. أما الرضا عن الله: فهو أن ترضى بما قضى وقدّر. تكون راضيًا عن ربك فيما أحدث لك وخلَق من المقادير. ويدخل فيه المؤمن والكافر.

---

(١) الأظهر أن الرضا بالله يتضمّن الرضا عن الله، لأن من رضي بالله فقد استكمل أطراف الرضا بالله تعالى دون غيره، فقد رضي به ربًّا خالقًا مالكًا مدبّرًا مقدِّرًا وإلهًا معبودًا، وبدينه دون ما سواه، وبنبيه دون غيره، وعليه؛ فمن رضي بالله حقًّا فقد وصل.

فلا بد من اجتماع الأمرين معًا: الرضا بالله والرضا عن الله، والرضا بالله أعلى شأنًا وأرفع قدرًا؛ لأنها مختصّةٌ بالمؤمنين. والرضا عن الله مشتركةٌ بين المؤمن والكافر؛ لأن الرضا بالقضاء قد يصح من المؤمن والكافر، فقد تجد تصرّف كافرٍ فتقول: هذا راضٍ بالقضاء ومسلّم ولا اعتراض عنده، لكنه لم يرضَ بالله ربًّا.

فالرضا بالله ربًّا آكدُ الفروض باتفاق الأمّة، فمن لا يرضى بالله ربًّا لا يصح له إسلامٌ ولا عملٌ».(١)

❁❁❁❁❁❁

(١) أعمال القلوب، محمد المنجد (٢٨) باختصار يسير

عمومُ الرِّضَا بالزمان والمكان واللون والجنس والنسب والزوج والولد والرزق وسائر أحوال الدنيا

الله تعالى أرحم بعبده من نفسه، وأعلم بما يصلحه في دينه ودنياه، فهو وكيله وربه وسيده ومولاه ورازقه وخالقه ومالكه ومدبّر أمره، فلا خير واصل للعبد إلا من ربه، ولا شر مدفوع إلا بفضله، فله الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه نرجع، ولو وكل الله عبده لنفسه لباءت بالخسران، ورجعت بالخيبة، وانقلبت بالفشل والضيعة.

فعلى العبد العاقل الموفق الحازم أن يرضى بكل تفاصيل حياته المقدّرة من الله تعالى له، فيرضى بالزمان والمكان واللون والجنس والنسب والزوج والولد والرزق وسائر أحواله، فهو إنما صلح على هذه الأمور في دينه ودنياه، ولو وكله ربُّه إلى نفسه أو إلى خلقه لانقطعت عنه أسباب السلامة والعافية ورفعت عنه حبال التوفيق والسعادة، فلو كان في زمان غير زمانه، أو أُوجِد في مكان أو بلد غير ما خُلق فيه، أو زوج وولد وأقارب وجيرة وزملاء وأحباب غير من اختيروا له واختير لهم، أو كان ماله زائدًا أو ناقصًا عمّا لديه، أو لونه أو جسده أو جنسه أو نسبه مغايرًا، أو أنه قد جُنّبَ ذلك المرض أو السجن أو الظلم ونحو ذلك؛ لربّما أفضى به ذلك إلى معاطب لم يتخيّلها، وسار به ذلك الحال المخالف لمهالك لم تكن لتقع لو أنه كان على تلك الحال التي اختارها مولاه له، ورُبَّ أمرٍ يتمنّاه العبد وفيه شؤمه.

فليرض كل عبد بقسم الله له، فلربّما لو سار به قدرُ الله في غير مساره الذي مشاه لكان حاله في أدرك بؤس وأعنت عيش وأشقى مصير!

وبما أنّ الأمر الذي يتمنّى لو كان عليه لم يحدث أصلًا فهو غيب وعدم، والله وحده يعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون، كما قال سبحانه في المتخلّفين عن تبوك: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ﴾ [التَّوْبَة: ٤٧]، وقال في أهل النار حين يتمنّون العود للدنيا: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأَنْعَام: ٢٨]، فعلمه تبارك وتعالى قد أحاط بكل شيء ووسع كل شيء، وقد جعل سبحانه قَدَرَه سرًّا من أسرار خلقه، فالقدر هو عِمادُ خلق الله تعالى لأنه متعلّق بعلمه وكتابته ومشيئته وخلقِه جل جلاله، فقد قدّر الله تعالى مقادير كلَّ الخلائق بكل تفاصيلها قبل خلقها، ورتّب الأمور على بعضها تدبيرًا محكمًا لا تشوبه أدنى شائبه ولا ينقصه شيء، وأمورُ خلقِه مرتّبة على بعضها بإتقان وإحكام كامل، وكل أمر مرتب على سبب قبله، وهو سبب لغيره، فبينَ المقادير تسلسلٌ وترابط شديد التعقيد كامل الإحكام، وقد يُرَتَّب على حدثِ اليوم أمرًا سيكون بعد ألف سنة، ولو اختلف مساره قليلًا لتغيّرت أمور لا تحصى متعلقة ببشرٍ لا يحصون!

فلو أن فلانًا ـ مثلًا ـ لم يلتق بفلان في ذلك الزمان والمكان؛ ما صارت بينهما معرفة وصحبة، وما تمّ بينهما مصاهرة، وهي التي سيكون منها ذرية من نسلٍ يتكاثر في بيئة كذا ومجتمع كذا ومتعلق بكذا وكذا من أمور حياة فئامٍ كثيرة من الناس، فينشأ أحد ذريته بين أخواله أو أعمامه، وبعدها يكون لحفيده شأن في الناس، فيكون إمام هدى أو داعية ضلال، مجدِّدٌ للأمة أو من فراعنتها،

وربما حكمت هذه الأسرة بقاعًا من الدنيا فأقام الله بها شرعه وأنهض برجالاتها دينه، وربما كانت من شياطين حزب عدوّه.

وليس الأمر في هذه الأمور الكبار فقط، بل حتى في أدنى التفاصيل، فلو أن فلانًا تأخّر عن مكان كذا بثانية أو ثانيتين ما حصل ذلك الحادث، ولو أنه ما التفت ببصره لكذا لم يحدث كذا، ولو أن فلانًا ما وقع منه القلم ما صار كذا وكذا، فربّ حدث يسير جدًّا ترتبت عليه أمور كبار جدًّا، ولهذا نهينا عن كلمة «لو» إن كانت من باب التحسّر أو الاعتراض، لأنها فتحُ بابٍ للتحسّر على أمر قد كتبه الله تعالى وجعله من ضمن ناموسه الكوني الذي لا يتغيّر ولا يتبدل بعدما كُتب في اللوح المحفوظ، فالنظر فيه تحسّرًا أو اعتراضًا فيه منازعة للمُقدِّر تبارك وتعالى في قضائه وقدره، في كتابته ومشيئته وخلقه، فالله تعالى عالمٌ بكل شيء قبل وقوعه وقد كتبه وشاءه وخلقه، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ٤٩﴾ [القَمَر: ٤٩]، وفيها كذلك فتحُ بوابة القلبِ للشيطان الرجيم، فيلجه فيعيث في مدينته فسادًا وخرابًا وظلمةً وألمًا وشرورًا وسوء ظنٍّ بمن كلّ الخير منه وحده. فشريعة الله الكاملة قد سدّت منافذ الشيطان وحسمت مواد فساده وأغلقت ذرائع مكره، فمن خالف وعصى فقد فتح على نفسه الوساوس والشكوك والضيق والعنت والاعتراض على الله رب العالمين.

وعلى ذلك؛ فبما أنّ مسارك الذي تتمنّى أنك أُوجِدتَّ فيه غيبٌ لا يعلمه إلا الله، وعدمٌ لم يخلقه الله، وأن الله تعالى ـ الذي هو أرحم وأعلم بك من نفسك ـ قد اختار لك هذا الزمان والمكان واللون والجنس والنسب والزوج والولد والرزق وغير ذلك مما تقوم به حياتُك وابتلاؤك؛ فاعلم علمَ يقينٍ

راسخٍ لا شك فيه أنّ الله سبحانه قد اختار لك ما هو أفضل لك من اختيارك لنفسك، أمّا الذين تتمنّى أن تكون كحالهم فقد خلقهم الله تعالى في حالٍ لعلّك إن أُعطيتَهُ شقيت شقاء الأبد، ولو أنّهم أُعطوا حالك لم يسعدوا، وكلٌّ مُيسّرٌ لما خُلق له، فهل عَسَيْتَ إن أعطاك الله نعمة ألحَحْتَ في طلبها ألّا تَفِي ببعض حقِّها من الشكر، وقد تنقلبُ بكَ في ثاني حالك وبَالًا في دينك! فانغمِسْ بكلّ قلبك في بحر الرضا وثلج اليقين وبرْد الحمْد وأنهار الشكر.

وكَمْ رُمْتُ أمْرًا خِرْتَ لي في انْصرافِهِ   ومـا زِلـتَ بي مِنِّـي أبَـرَّ وأرحَمَـا

والشرع بحمد الله لم يُغفل شيئًا، ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ٣٨﴾ [الأنعام: ٣٨]، لذا كان السلف الصالح يحتملون كبار الأمور عند ورودها، ويحسنون استقبالها بالعمل والتوكل وحسن الظن، حتى إذا خرجت من أيديهم إما بإتمامها ونجاحها أو وقوعها دون الرغبة المتوقعة أو انحرافها أو فشلها سلّموا لله بها، فيحتملونها عند الورود ويسلّمون بها عند الصدور، فلا هم بمتواكلين وكسالى عند ابتداء الشدائد، بل يعملون بجوارحهم ويتوكلون بقلوبهم، ولا جزعين عند وقوعها، بل يصبرون ويرضون ويحمدون ويشكرون.

وهذا هو المنهج الإسلامي الرباني الصحيح، حتى عند ما يسمى بعلم النفس الحديث، فأصله من التوكل وحسن الظن والتسليم والصبر والرضا والحمد، وتمامه العلم والإيمان.

ومن مصالح الرضا بالله وأقداره أن المرء يستريح من عَنَتِ الترقّب وكآبة المقارنة وقلق الأماني وسوداوية النظر للحال، فيعيش متأدّبًا مع جناب ربه،

متصالحًا مع نفسه، متعايشًا مع حاله، رضيَّ المُحَيَّا حسنَ الأخلاق مع الناس، فلا شيء من الدنيا في نظر الراضي بالله يستحق العناء، والدنيا بحذافيرها مُغَيّاةٌ بالابتلاء، والآخرة مكتنزة بالكرم والرحمة والعدل وحكمةِ الجزاء.

ولنقف عند مثال شديد الوضوح لأغلى أمنية زمانية عند أكثر المؤمنين، وهي صحبة خاتم المرسلين صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، ولنرَ توجيه الصحابي الجليل المقداد بن الأسود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ(١) حيال ذلك؛ فقد روى أحمد في مسنده والبخاري في الأدب المفرد(٢) عن جبير بن نفير قال: جلسنا إلى المقداد بن الأسود يومًا، فمرّ به رجل، فقال: طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ، واللهِ، لوددنا أنّا رأينا ما رأيت، وشهدنا ما شهدت، فاستغضَبَ، فجعلتُ أعجب، ما قال إلا خيرًا!

ثم أقبل عليه فقال: «ما يحمل الرجل على أن يتمنّى محضرًا غيّبه الله عنه؟ لا يدري لو شهده كيف يكون فيه؟ والله، لقد حضر رسولَ الله ﷺ أقوامٌ

---

(١) هو المقداد بن عمرو الكندي، واشتهر بالمقداد بن الأسود، لأنه قدم إلى مكة وحالف الأسود بن عبد يغوث الزهري، فتبنّاهُ الأسود، فصار يقال له المقداد بن الأسود، تزوج ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب ابنة عم النبي ﷺ، هاجر الهجرتين، وشهد بدرًا والمشاهد بعدها، قال عنه عاصم بن زرّ: أوّل من قاتل على فرس في سبيل الله المقداد بن الأسود. مات المقداد في خلافة عثمان سنة ثلاث وثلاثين من الهجرة، وهو ابن سبعين سنة، رضي الله عنه وأرضاه. وانظر: الإصابة في تمييز الصحابة للحافظ بن حجر (٦/ ٢٠٢-٢٠٣)

(٢) المسند (٢٣٨١٠) والأدب المفرد (٨٧) وصححه الألباني.

كبّهم الله على مناخرهم في جهنّم؛ لم يجيبوه ولم يصدّقوه. أوَلَا تحمدون الله عز وجل إذ أخرجكم لا تعرفون إلا ربَّكم، فتُصدِّقون بما جاء به نبيكم ﷺ، قد كُفيتم البلاء بغيركم.

والله لقد بُعث النبي ﷺ على أشدِّ حالٍ بُعث عليها نبيٌّ قطّ، في فترة وجاهلية، ما يرون أن دينًا أفضل من عبادة الأوثان، فجاء بفرقان فرّق به بين الحق والباطل، وفرّق به بين الوالد وولده، حتى إن كان الرجل ليرى والده أو ولده أو أخاه كافرًا، وقد فتح الله قُفْلَ قلبِه بالإيمان، ويعلم أنه إن هلك دخل النار، فلا تقرّ عينه، وهو يعلم أن حبيبه في النار، وأنها لَلتي قال الله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [الفُرْقَان: ٧٤]. فلله الحمد كثيرًا الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، لقد جاءت رسل ربنا بالحق.

وتدبر قول الله تعالى في بيان أحوال بعض خلقه ممن تمنّوا أشياء ولم يعلموا أنّ الله قد حفظهم عنها رحمة بهم: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [القَصَص: ٧٩ - ٨٢]، وتدبّر رحمة الله تعالى بمن يبكي لفراق شخص كان ذهابه خيرًا لهما من بقائه: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الكَهْف: ٨٠]

واعلم ـ رحمني الله وإياك ـ أنّ الألم الذي يحتوي فؤادك ـ أيًّا كان ـ إنّما هو محض ابتلاء يُمحّص دينك وينقّي صحيفتك ويرفع درجتك ويُعلي مقامك عند ربك إن أحسنت استقباله وأكرمت بالحمد وِفَادَته، فاشكره واحمده وارض به وبقضائه، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: **«أشدّ الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل»**،(١) والأمثل هو الأشرف والأعلى رتبةً في الدين.

ولك في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، فقد أخرج الشيخان (٢) عن عائشة رضي الله عنها قالت: «إن كنّا لننظر إلى الهلال ثلاثة أهلّة، وما أوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نار».(٣) فقلت: ما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان التمر والماء». وهو أكرم الخلق على الله تعالى.

واعلم أنّ الله تعالى يعطي ويمنع عبده بما يصلحه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشورى: ٢٧]. وتدبر قول الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [التوبة: ٧٥ - ٧٧] وذكر الحافظ ابن

(١) أحمد (١٤٩٤) وحسنه محققوه من أجل عاصم بن بهدله. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٩٦).

(٢) البخاري ٢٠١/٣ (٢٥٦٧)، ومسلم ٢١٨/٨ (٢٩٧٢) (٢٨).

(٣) أي تمرُّ عليهم ثلاثة أشهر وهم لا يطبخون شيئًا.

رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح حديث الوليّ[١] عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ، عن جبريل عليه السلام، عن ربه تعالى وتقدس قال: «.. **وإنَّ من عِبادي المؤمنينَ لَمَن يَسألني البَابَ مِنَ العِبادةِ فَأَكُفُّهُ عَنهُ، وَلو أَعطيتهُ إياهُ لَدَاخلهُ العُجبُ وَأَفسدهُ ذلِكَ، وَإِنَّ مِن عِبادي المُؤمنينَ لَمَن لاَ يَصلحُ لهُ إلا الغِنىَ وَلو أفقرتهُ لأفسدهُ ذلِكَ، وَإِنَّ مِن عِبادي المؤمنينَ لَمَن لاَ يَصلحُ لهُ إلا الفَقرُ، ولو أَغنيتهُ لأَفسدهُ ذلكَ، وإِنَّ مِن عِباديَ المُؤمنينَ لَمَنْ لاَ يُصلحهُ إلا الصحةُ وَلو أَسقمتهُ لأفسدهُ ذلِكَ، وإِنَّ منْ عِباديَ المؤمِنينَ لَمَن لاَ يَصلحُ لَهُ إلاَّ السُّقمُ وَلو أصححتهُ لأَفسدهُ ذلِكَ. إِني أُدبِّرُ عِبادي بِعلمِي بِقلُوبِهِم، إِني عَليمٌ خَبيرٌ»**. وفي رواية: «**أتاني جبريل، فقال: يا محمد، ربُّك يقرأُ عليك السلام، ويقول: إنّ من عبادي من لا يصلُحُ إيمانُه إلا بالغنى ولو أفقرته لكفر، وإن من عبادي من لا يُصلحُ إيمانَه إلا القِلّة ولو أغنيتُه لكفر، وإن من عبادي من لا يَصلحُ إيمانه إلا بالسقم ولو أصححتُه لكفر، وإن من عبادي من لا يصحُّ إيمانُه إلا بالصحة ولو أسقمته لكفر**».[٢]

---

(١) (١ / ٩٤)

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا مطولًا في أول كتابه الأولياء (١)، وأبو نعيم في الحلية (٨/٣١٩)، والكلاباذي في المعاني (٣٧٧/ ١) والبغوي في شرح السنة (٢١/ ٥) والطبراني (٨/٢٦٤) وابن عساكر (٧/٩٥) وأخرجه الخطيب (٦/١٤) وقال ابن الجوزي في العلل المتناهية (١/٣١): لا يصح. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١/٧٥). والرواية الثانية أخرجها الخطيب في تاريخ بغداد (٥٠٣/ ٦) ومدارها على يحيى بن عيسى الرملي وهو ضعيف، فالحديث ضعيف. وللحديث ألفاظ متقاربة، ولم أقف على
=

فليس معيار التفضيل رخاء الحال أو رقته، ولا طول الجسد أو لونه أو شكله أو قوّته أو جنسه أو ذكاؤه أو سلالته أو زمانه أو مكانه أو مجتمعه، والأرض لا تقدُّس أحدًا والعصر لا يزكّيه، إنما يزكيه ويرفعه ويكرمه إيمانه وتقواه، قال سبحانه: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحُجرَات: ١٣]، وقال سبحانه: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦﴾ [الفَجر: ١٥-١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ [سَبَإ: ٣٧] وقد علّق الكلاباذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ على الحديث، بقوله: «وقوله: **«إن من عبادي المؤمنين من لا يصلح إيمانه إلا الغنى، لو أفقرته لأفسده ذلك»**، هذا من نصيحته له، وذلك أن الله تعالى إنما أحبّ المؤمن لإيمانه؛ لأنه لمّا أحبّه كتب في قلبه الإيمان، وحبّبه إليه، وكرّه إليه الكفر والفسوق والعصيان، فهو سبحانه يصرفه عمّا يخلّ بإيمانه؛ لئلا يَخْرُجَ في حبّه إياهُ شيء.

وقد خلق الله عباده على طبائع مختلفة وأوصاف متفاوتة، فمنهم القوي، ومنهم الضعيف، ومنهم الرقيق، ومنهم الكثيف، ومنهم الوضيع، ومنهم الشريف. فمن علم الله تعالى من قلبه ضعفًا لا يحتمل الفقر أغناه، إذ لو أفقره

=

شيء منها صحيح خلا بعض ألفاظه، وإن كانت معانيها صحيحة، وهي صالحة للاعتبار، وقد استشهد بها الأئمة، كالبغوي وابن تيمية وابن القيم وابن رجب وابن كثير وغيرهم.

إياه فهو سبحانه يغنيه، فيقرّبه بذلك منه، ويدنيه، فيصونه بغناه من أن ينصرف بحاجته إلى سواه... فإذا كان الفقر لبعض الناس مُنسيًا، صرف الحق عمن عرف ذلك منه الفقر؛ لأنه لا يحب أن ينساه حبيبه، وكذلك من علم أن لا يُصلح إيمانَه إلا الفقرُ أفقرَه؛ لأنه تعالى يعلم أن الغنى يطغيه، وأن الفقر لا ينسيه، بل يشغل لسانه بذكره، والثناء عليه، وقلبه بالتوكل عليه، والالتجاء إليه.[١] وقال العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذلك: «فالغَنيُّ ربَّما يَطغى بغِناه ويستكثِر، والفقير ربما يَقنَط من رحمة الله ويستَحسِر ويَستَبعِد الفَرَج، فيَكون الأوَّلُ فاسِدًا بطُغيانه، والثاني فاسِدًا بيَأْسه وقُنوطه».[٢]

وتأمل دعاءه ﷺ وتسليمه لربه ورضاه به في قوله: **«ماضٍ فيَّ حكمُك، عدلٌ فيَّ قضاؤك».**[٣] قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإذا عُرِف أن كل واحد من الابتلاء بالسرّاء والضرّاء قد يكون في باطن الأمرِ مصلحةً للعبد أو مفسدةً له، وأنه إن أطاع الله فذلك كان مصلحةً له، وإن عصاه كان مفسدةً له؛ تبيَّن أن الناس أربعة أقسام:

منهم من يكون صلاحُه على السَّراء، ومنهم من يكون صلاحُه على الضرّاء، ومنهم من يصلح على هذا وهذا، ومنهم من لا يصلح على أحدٍ منها. والإنسان الواحد قد يجتمع له هذه الأحوال الأربعة في أوقاتٍ أو وقتٍ واحدٍ،

(١) بحر الفوائد المشهور بمعاني الأخبار (٣٨٢- ٣٨٣)
(٢) تفسير العثيمين، سورة سبأ (١/ ٢٢٧)
(٣) أحمد (٤٣١٨) وابن حبان (٩٧٢) وصححه الأرناؤوط.

باعتبار أنواع يُبتلَى بها».[١] وتأمل كذلك دعاء الاستخارة وما تضمّن من معاني الخيرة الإلهية لعبده كما مرّ.

هذا؛ وقد بيّن النبي ﷺ المعيار الصحيح للمفاضلة عند الله كما في المسند[٢] من حديث أبي نضرة، حدثني من سمع خطبة رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق فقال: **«يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر، إلا بالتقوى».**

قال ابن رجب في تفسيره: «قال ابنُ عباسٍ في قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝٢٤﴾ [الأنفال: ٢٤] قال: يحولُ بين المؤمنِ وبين المعصيةِ التي تجرّهُ إلى النارِ. وقال الحسنُ ـ وذكرَ أهلَ المعاصِي ـ: هانُوا عليهِ، فعَصوْه، ولو عزُّوا عليه لعصمَهُم. وقال ابنُ مسعودٍ: إنّ العبدَ ليهمُّ بالأمرِ من التجارةِ والإمارةِ حتى يُيسّر لهُ. فينظرُ اللهُ إليه فيقولُ للملائكةِ: اصرفوه عنهُ، فإنهُ إن يسّرتُهُ له أدخلتُه النارَ، فيصرفه اللَّهُ عنهُ، فيظلُّ يتطيَّرُ يقولُ: سبقنِي فلانٌ دهانِي فلان، وما هو إلا فضلُ اللَّهِ عز وجلّ».[٣]

تجري الأمورُ على حُكم القَضاءِ وَفي ... طَيِّ الحوادثِ محبوبٌ ومكروهُ
ورُبَّما سَرَّني ما كنتُ أحذَرُهُ ... ورُبَّما ساءني ما كنتُ أرجوهُ

---

(١) قاعدة في المحبة (١ / ١٧٠)

(٢) المسند (٢٣٤٨٩) وصححه محققوه.

(٣) تفسير ابن رجب (٢/٣١٤)

وتأمل نعم الله العديدة عليك حتى لا تقع في سوء ظن به عز وجل، واعلم أنك مهما اجتهدت في عدّها فلن تستطيع إحصائها كما قال سبحانه: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨﴾ [النَّحل: ١٨].

واعلم أن الخيرة كلها إنما هي فيما اختاره الله عز وجل لك، وأنك إن ابتليت بما به تألّمت أو ضاق له صدرك أو نفرت عنه نفسك فهو خير لك وإن جهلتَ العاقبة، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [البَقَرَةِ: ٢١٦] صدق الله؛ فالله يعلم ونحن لا نعلم. لا نعلم ما يصلحنا على التفصيل، ولا نعلم ما يترتب على أفعالنا وأحوالنا في قابِلِ الأيام وعقابل الزمان.

ما مسَّني قدرٌ بكُرْهٍ أو رِضًى　　إلّا اهتديتُ به إليكَ طريقًا

ففي المال مثلًا ـ وهو غالب مَحَطِّ الأمنيات العاجلة لأكثر بني الإنسان ـ لا يعلم المرء أين الخير فيه بالضبط، فلربما زاد فأفضى إلى البطر والأشر والمعاصي والطغيان، ولربما نقص فطرح صاحبه على ساحل القنوط وسَوْءَات الظن بالحكيم الرحيم المنان، وتدبر بقلبك قوله الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٢٧﴾ [الشُّورَى: ٢٧]، قال العلامة ابن سعدي مفسرًا هذه الآية الكريمة: «أي لغفلوا عن طاعته، وأقبلوا على التمتع بشهوات الدنيا، فأوجبت لهم الانكباب على ما تشتهيه نفوسهم، ولو كان معصية وظلمًا».(١)

---

(١) تفسير السعدي (١ / ٧٥٨)

ومما قاله مجرب خبير: «المال يشتري السرير ولا يشتري النوم، المال يشتري الساعة ولا يشتري الوقت، المال يشتري الدواء ولا يشتري الشفاء، المال يشتري الكتب ولا يشتري العلم والمعرفة، المال يشتري الطعام ولا يشتري الشهية، المال يشتري منزلًا ولا يشتري أُسرة، المال يشتري المنصب ولا يشتري الاحترام، المال يشتري مرافقين ولا يشتري الأصدقاء. بل ربما أحيانًا لا يجلب المال السعادة، ولكن الإيمان والرضا والمودة والرحمة والإحسان هي من تجلب السعادة، والعبرة إنما هي بتوفيق الله سبحانه وتعالى».

واعلم ـ رضي الله عنّي وعنك ـ أنّ المتعة ليست هي السعادة، فالمتعة منشؤها الحسّ، ومنه المال والطعام والشراب والنكاح وبقية شهوات الأنفس، أما السعادة فمصدرها القلب والصدر، فالسعادة إحساس نفساني جميل بالسرور والفرح والراحة والطمأنينة وحصول المأمول ونحو ذلك، فهي معنوية نفسانية، لا تُرى، بل يُشعر بها، وهي في الحقيقة هي الغاية والمعنى الذي يطلبه عامّة بني الإنسان، ولكنهم عن أسبابها غافلون، إلا من رحم الرحمن.

هذا؛ وإنّ أطول أُحبولةٍ لإبليس لصيد بني آدم هي المتعة الوقتية السريعة الزائلة الفانية، سواء مُتَع الشهوة أو الغضب أو الرئاسة، أما السعادة فمع أهل التقوى والرضا والإيمان.

ولا نعني بذلك أن مُتَع الحسِّ مرذولة، كلا، بل قد جعلها الحكيم العليم سبحانه سببًا لبقاء نوع بني الإنسان لصلاح ذواتهم ونسلهم ونحو ذلك مما

تقوم به حياتهم، ولكنها مقرّرة ميسّرة وفق ناموس شرعي لتكون سببًا لتحصيل سعادتهم العظمى بتحصيل رضوان الله تعالى في الدار الآخرة، لا نُهبَةً بخطيئةٍ لشهوةِ حرامٍ سريعةِ الزوال، تذهب مُتعتها ولذّتها، ويبقى وزرُها وتَبِعَتها.

بل إنّ من نعيمِ أنفُسِ المؤمنين استمتاعهم بمتع الدنيا على هُدى من الله تعالى، فنومهم لهم صدقة، وأكلهم وشربهم لهم حسنة، وتناولهم النكاح لهم أجر، واستمتاعهم بالدنيا تقوّيًا على أزواد الآخرة لهم ذخر، وسائر متع الدنيا المباحة التي تركوا حرامها هي لهم رفعة وفضيلة وكرامة.

بل ـ والذي نفسي بيده ـ إن مُتع الدنيا بحذافيرها لا تحلو ولا تصفو ولا تطيب ولا تزين إلا ما كانت على هَدي من شرع الله تعالى، وإلّا فتنغيصها وضيقها ونكدها وتبعتها وحشرتها وحسرتها لا تنفكّ عنها، مهما زعم راكبها، وأعنق راكضها، واستغفل ملتحفها. أبى الله تعالى إلا أن يُذلّ من عصاه، ويُؤدّب من خالف أمره، ويَعِظ بالرفق من غفل عنه، ويزجر عن دار الفناء قلائص الساكنين. فتبارك الله أرحم الراحمين. ورضي الله عن أبي الدرداء إذ قال:

يريـد المـرءُ أن يُـؤتى منـاهُ ... ويـأبى اللهُ إلّا مـا أرادا

يقـول المـرءُ فائـدتي ومـالي ... وتقـوى الله أفضـل مـا استفادا

وتدبَّرْ مُسدَّدًا قول ربك الأعلى في شأن الذين يرون ظواهرَ الأمور دون حقائقِهَا، وعواجِلَها دون عواقِبِهَا، وبداياتها دون نهاياتها، قال تبارك وتعالى

مرشدًا للرضا بأمره الشرعي والقدري، منوِّهًا بأهل العلم والإيمان، مُظهِرًا الحقَّ العيان حتى صار شاهِدًا للعَيان في شأن الناس مع قارون، وكم بيننا مِن قارون ومغرورٍ بقارون!: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [القَصَص: ٧٩ - ٨٤] فبعد أن اختار الله الرحيم الحكيم لهم النجاة والعافية خلاف ما كانوا يستعجلون من الأماني قالوا: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾ [القَصَص: ٨٢].

فارض بالله تعالى وبتدبيره كلّ الرضا، فهو أرحم بك من نفسك، وكم قد زَوَى عنك حبلَ حتفِكَ، وفيه لو أُجِبْتَ هلاكك، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البَقَرَة: ٢١٦].

وأجمِل بردِّ عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ على من بكّته بأنه قد أفقر ولده من بعده: فعن هاشم قال: «لما كانت الصَّرعة التي هلك فيها عمر، دخل عليه مَسلَمة بن عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين؛ إنك أفقرت أفواه ولدك من هذا المال، وتركتهم عَيْلَةً لا شيء لهم، فلو وصّيت بهم إليَّ، وإلى نظرائي من أهل

بيتك. قال: فقال: أسندوني، ثم قال: أمّا قولك إني أفقرت أفواه ولدي من هذا المال، فو الله إني ما منعتهم حقًا هو لهم، ولم أعطهم ما ليس لهم، وأما قولك: لو أوصيت بهم، فإنّ وصيّي ووليّي فيهم الله الذي نزّل الكتاب، وهو يتولى الصالحين. بَنيَّ أحد الرجلين، إما رجل يتقي الله، فسيجعل الله له مخرجًا، وإما رجل مكبّ على المعاصي، فإني لم أكن أقوّيه على معاصي الله.

ثم بعث إليهم، وهم بضعة عشر ذكرًا، قال: فنظر إليهم فذرفت عيناه، ثم قال: بنفسي الفتية الذين تركتهم عيلةً لا شيء لهم، فإني بحمد الله قد تركتهم بخير، أي بَنيّ؛ إن أباكم مُثِّلَ بين أمرين: بين أن تستغنوا، ويدخل أبوكم النار، أو تفتقروا ويدخل أبوكم الجنة، فكان أن تفتقروا، ويدخل الجنة أحبَّ إليه من أن تستغنوا ويدخل النار. قوموا عصمكم الله».[(١)]

ضع الكفَّ في كفّي إلى اللهِ سيرُنا   فليسَ لنا فيها سوى اللهِ مَطْمعُ
نسيرُ معًا والله يحفظُ سيرنا   وحفظُكَ يا رحمنُ أقوى وأمنعُ
إذا ما تفرقنا ففي الله نلتقي   وإن عزّت اللُّقيا ففي الخُلدِ مجمعُ

(١) حلية الأولياء (٥/ ٣٣٣)، وصفة الصفوة (٢/ ٧١)

حكمُ الرِّضا

الرضا أنواع: فمنها الرضا بالله ربًّا ومعبودًا. وهذا أساس الإيمان، ولا يصح دين المرء بدونه، ومن توابع ذلك: الرضا بالإسلام، وبالرسول ﷺ، وبالقرآن، ونحو ذلك مما جاء عن الله تعالى. ومن ذلك: الرضا بقضاء الله وقدره. وهو منقسم لنوعين:

أحدهما: الرضا بالقضاء، وهذا تابع للنوع الأول؛ فهو واجب وفريضة وهو أحد أركان الإيمان التي لا يصح إلا بها.

الثاني: الرضا بالمَقضِيّ، أي مفعولات الله تعالى بعبده، فليس المراد هنا فعل الله أنما مفعوله، أي ليس هو صفة الله التي هي الخلق والتقدير، إنما هو مخلوقُ الله تعالى الذي هو نفسُ المصيبة، مثاله: المرض، فالمرض يكتنفه جانبان: الأول: من جهة أن الله هو الذي قدّره؛ فهذا هو النوع الأول، وهو القضاء. والثاني: من جهة ذات المرض والإحساس به والتألّم منه، فهذا هو المراد هنا، وهو المقضيّ.

وهذا النوع ـ أي الرضا بالمقضيّ ـ قد اختلف العلماء في حكمه بين الوجوب إلحاقًا بالنوع الأول، لأنها في النهاية راجعة إلى قضاء الله تعالى، والاستحباب ـ وهو الراجح ـ لانفكاك جهته تصوُّرًا في الذهن، لأنه مخلوق من جملة المخلوقات، وليس هو ذات القضاء والقدر، وأيضًا لمشقة احتمال هذا النوع على أكثر الناس، وربما يكون فيه نوع حرج على كثير منهم، والشريعة لا تأتي بالحرج، قال الله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن

يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٦﴾ [المَائِدَة: ٦]، وقال سبحانه: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البَقَرَة: ٢٨٦]

ومما تلزم معرفته في الدين؛ أن الله تعالى قد اقتضى كماله وحكمته ألّا يخلق شرًّا محضًا لا خير فيه بوجه من الوجوه، فهو منزه عن ذلك جل وعلا، أما الشيء الذي فيه جانبان أحدهما شرّ من جهة المخلوق وخير من جهة حكمة الخالق فهو ليس بشرٍّ محض، فما فيه من إمضاء حكمة الله وحُسن تدبيره وتقديره فهو خير، وما فيه من قطع مدد الخير عنه فهو شر.

واعلم أنه لا يوجد في المخلوقات البتّة شرٌّ محض، بل لا شرّ إلا وفي ثناياه خير عَلِمَه وعلم بعض حكمته من عَلِمَه، وجَهلَه من جهله، ولتوضيح ذلك: فأصل الشرور والذنوب والمعاصي والخبائث في هذا الكون هو إبليس أعاذنا الله منه، ولا شر في الوجود أشرّ منه، ومع هذا ففي خلقِ الله له حكم سامية وخير كثير، ومن أعظم ذلك إقامة الدين على سنّة التكليف والابتلاء، فبثّ الله الإنس والجن وأمدّ من شاء منهم بفضله وهداه وتوفيقه فعملوا بطاعته فنالوا مرضاته، وخذل من شاء منهم فتحركت نفوسهم الخالية المحرومة من توفيق الله للشر.

والمقصود؛ أن كل شرّ فإنه يقصُر دون شرّ إبليس الرجيم، ومع هذا ففي خلق الله له جهةُ خيرٍ ومنافع ما كانت لتكون بأمر الله لو لم يوجد هذا الشرّ الإبليسي، وبهذا فلا يوجد في الوجود شرٌّ محض.

وبهذا يتبين لنا معنى حديث رسول الله ﷺ: «**والشرُّ ليس إليك**»،(١) فالشر داخل في جملة مخلوقات الله تعالى، فينسب إليه في جملة عموم خلقه، ولا يُضاف إليه إفرادًا وقصدًا لاستقلال اللفظ، فلا يقال: الله خالق الشر، ومقدّر الشر، وإن كان هو الخالق والمقدر لهما جميعًا، كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الزُّمَر: ٦٢]، بل يُؤتى بصيغة المبنيّ لما لم يُسمَّ فاعله، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الجِن: ١٠]، وكقوله: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ [الفَلَق: ٢]، فأضاف الشرّ إلى الخلق، ولم يضفه إلى الله تنزيهًا له، مع أنّ كلها من جملة مخلوقاته سبحانه وتعالى، ومن ذلك قوله ﷺ: «**أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق**»،(٢) ولم يقل: من الشر الذي خلقه الله.

وعليه؛ فالشر داخل في عموم مخلوقات الله تعالى، لكنه لا يُنسب إلى الله تعالى لأمرين:

الأول: الأدب مع جناب الله تبارك وتعالى، كما جاء في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى على لسان الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ۝١٠﴾ [الجِن: ١٠]، فأسند الخير إلى الله، وأبهم إرادة الشر. ومنه وقوله تبارك وتعالى في فاتحة الكتاب: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفَاتِحَة: ٧].

---

(١) مسلم ٢/٨٥ (٧٧١) (٢٠١)

(٢) مسلم ٨/٧٦ (٢٧٠٩)

وانظر لأدب الخليل عليه السلام حينما قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٠]، فنسب المرض إلى نفسه، وأضاف الشفاء إلى ربه، وإن كان الجميع منه سبحانه وبحمده. وتدبر أيضًا حسن الوصف في خبر الخضر عليه السلام بإضافة إرادة التعييب إلى نفسه والرحمة إلى ربه، فقال فيما أخبر الله تعالى عنه: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكَهْف: ٧٩]، ولما ذكر إرادة الخير والرحمة باليتيمين أضاف ذلك إلى الله تعالى فقال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكَهْف: ٨٢].

الثاني: عدم وجود الشرِّ المحض أصلًا في المخلوقات، والشر المحض هو الذي لا حكمة في تقديره، فكيف تنسب شيئًا لله تعالى وهو غير موجود على الإطلاق؟! فما من شر في الخلق إلا وفيه جانب خير اقتضته حكمة الخلاق العليم الخبير الحكيم سبحانه.

وبهذا يتبين أنّ الشرّ أمرٌ نسبيّ، أما حقيقة فعل الله تعالى وقضائه وقدره فإنه ليس بشرّ، لأن فيه خير باعتبار آثاره الحميدة. والشرور الموجودة في دار التكليف هي شرور بالنسبة للعبد، فالكفر والنفاق والشرك والمعاصي هي شرّ نسبيّ بالنسبة إلى العبد الذي فعلها، لكنّ هذا الشرّ بالنسبة إلى الله تعالى فإنه يضاف إليه إضافة خلق، بمعنى أنها من جملة مخلوقات الله تعالى، فالله خالق كل شيء، وما من شيء ألا والله وحده خالقه تبارك وتعالى، فالله تعالى قد قدّر الكفر والشرك لحكمة، فهي بالنسبة إلى الله خير؛ لما ترتب عليها من حكم عظيمة؛ كانقسام الخلائق إلى سعداء وأشقياء، وقيام سوق الجنة والنار، وقيام

ساق الابتلاء والمجاهدة، وظهور آثار صفات الجلال والكمال لله تعالى كالعزة والغضب والانتقام من أعدائه، ونفاذ كمال القدرة وجمال الخليقة وإحكام الحكمة وإعجاز التقدير بخلق المتضادات والمختلفات والمتقابلات، وغير ذلك كثير.

ومن هذا الباب جاء الأمر بالإيمان بالقدر خيره وشرِّه، والمراد بالشر في القدر هنا هو شر المقدور، أي المخلوق والمقضيّ، فالشرّ فيه إنما هو باعتبار المفعول لا باعتبار الفعل، وكذلك القضاء فمن حيث هو فعل الله فكله خير محض، ومن حيث هو المَقضِيّ ففيه جهتان منفكتان:

الأولى: جهةُ خيرٍ للحكم الحميدة المترتبة عليه أيًّا كان، فكل فعل الله خير، **والثانية:** قد يكون فيه خير لإمداد الله له بالخير، وقد يكون فيه شرّ بسبب قطع أسباب الخير من الله عنه. ومن ذلك دعاء رسول الله ﷺ: **«وقنا شر ما قضيت»**(١)، فالقضاء هنا هو القدري الكوني،(٢) وهو المقضيّ، فمِن حيث هو قضاء الله فهو خير، ومن حيث هو المقضي ففيه شرٌّ غير متمحّض، فالعبد يسأل ربه أن يقيه ذلك الشر.

---

(١) أحمد (١/١٩٩) وأبو داود (١٤٢٥) والترمذي (٢/٣٢٨) وصححه الألباني.

(٢) القضاء الشرعي خير كله، أما القضاء الكوني فإن القضاء الذي هو فعل الله فخير كله، أما القضاء بمعنى المقضيّ - أي ذات المقدور المخلوق - فقد يكون خيرًا محضًا، وقد يكون له جهتان: جهة شرّ بذاتها لقطع أسباب الخير وأمداد التوفيق عنها، وجهة خير لما تُفضي إليه من خير وآثار حميدة.

هذا؛ وإن من المهمات جدًّا في هذا الباب الشائك معرفة أن قدَر الله تعالى ليس متعلق بالمستقبل فقط، بل هو أيضًا هذا الحاضر الذي عليه تُبنى أمور المستقبل بتدبير الله الحكيم سبحانه، فالماضي قَدَرٌ، والحاضرُ قَدَرٌ، والمستقبلُ قَدَرٌ، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾ [القَمَر: ٤٩ - ٥٠]

وإنّ من أنواع الرضا عند التقسيم الذهني: الرضا بالمعاصي والفساد. وهو النوع يحرم الرضا به، فلا يُشرع الرضا ولا يحلّ إلا بما رضيه الله تعالى، حتى وإن كان داخلًا في عموم خلقه له. ولا يَرِدُ علينا أن الله تعالى أراده، ذلك أن إرادة الله تعالى منقسمة لقسمين:

أحداهما: إرادة دينية شرعية. وهي مرتبطة بالأمر لا بالقدر، كالصلاة والصيام والذكر والدعاء، فهي محبوبة شرعًا وقدَرًا، وحكم الرضا بها واجب.

والثانية: إرادة كونية قدرية. وهي مرتبطة بالقدر لا بالأمر، فقد يُقدِّرُ الله تعالى شيئًا وهو لا يحبّه شرعًا، ككفر أبي جهل مثلًا، وقد يقدّر الله شيئًا وهو يحبه شرعًا، كإسلام أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والحكم: أن نرضى بما يحبه الله تعالى، ونسخطَ ما يكرهه سبحانه. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ ـ وتأمل كيف أخرج الرضا بالمعاصي من التقسيم العام لأنه قصد إلى الرضا المشروع دون الممنوع وهو جادة مطروقة ـ: «الرضا نوعان: **أحدهما:** الرضا بفعل ما أمر الله به وترك ما نهي عنه. ويتناول ما أباحه الله من غير تعدّ محظور. وهذا الرضا واجب، كما قال: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٦٢﴾ [التَّوْبَة: ٦٢]، ولهذا ذم من تركه بقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا

رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝٥٨ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝٥٩﴾ [التَّوْبَة: ٥٨ - ٥٩]

والنوع الثاني: الرضا بالمصائب: كالفقر والمرض والذل. فهذا رضا مستحب في أحد قولي العلماء، وليس بواجب، وقد قيل: إنه واجب. والصحيح أن الواجب هو الصبر. كما قال الحسن: «الرضا عزيز، ولكن الصبر معوّل المؤمن»(١). وقد روي في حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: **«إن استطعت أن تعمل بالرضا مع اليقين فافعل، فإن لم تستطع فإنّ في الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا»**.(٢)

وأما الرضا بالكفر والفسوق والعصيان: فالذي عليه أئمة الدين أنه لا يرضى بذلك، فإن الله لا يرضاه كما قال: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزُّمَر: ٧] ﴿ٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ۝٢٠٥﴾ [البَقَرَة: ٢٠٥]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٩٦﴾ [التَّوْبَة: ٩٦]».(٣) وقال أيضًا: «أكثر العلماء على أن الرضا بالمصائب مستحب وليس بواجب؛ لأن الله أثنى على أهل الرضا

---

(١) ورويت كذلك عن عمر بن العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهما قرينان رحمهما الله، فلعل أحدهما قد أفادها من صاحبه.

(٢) أحمد (٢٨٠٣) وصححه محققوه. والزهد لهناد (١/ ٣٠٤/ ٥٣٦)، وشعب البيهقي (٧/ ٢٠٣/ ١٠٠٠٠) والطبراني في الكبير (٣/ ١٢٦/ ٢) وصححه الألباني في السلسلة (١٠٧٦)

(٣) مجموع الفتاوى (١٠ / ٦٨٢)

بقوله: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [البَيِّنَة: ٨] وإنما أوجب الله الصبر، فإنه أمر به في غير آية، ولم يأمر بالرضا بالمقدور، ولكن أمر بالرضا بالمشروع، فالمأمور به يجب الرضا به».[(١)] «وأما الرضا بما أمر الله به فأصله واجب، وهو من الإيمان، وهو من توابع المحبة».[(٢)]

وههنا ملحظ دقيق جدًّا بخصوص مشروعية الرضا بالمعاصي من جهة كونها خلقًا وقدرًا لله تعالى، دون كونها في ذاتها معصية له مسخوطة منه ومن أوليائه سبحانه وتعالى، ولكن لا يُحسن فهمَ هذا كلُّ أحد، وعليه؛ فقد لا يحسن إيراد هذا على ما يخشى عليهم عدم فقهه، أو حمله على غير محمله، أو توسيع مُضيّقه، أو تجاوز ضوابطه، حتى لا يكون لهم فتنة. نعوذ بالله من فتن العلم والعمل.[(٣)] فيَضِلُّون بالرضا بالمعاصي لذاتها، فيركبونها مع زُمَر الضَّلّالِ، زعمًا

(١) منهاج السنة النبوية (٣ / ١٢٠)

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٤٠)

(٣) إن مما يميّز منهج السلف الصالح للأمة حسن تقديرهم لأمور التربية والتعليم وتأتّيهم للحكمة في عرض المسائل، فما كل ما يُعلم يقال، وما كل ما يقال حضَرَ أهلُه، فمن العلم ما يكون فتنة لمن لم يحمله على ما وضع له. قال ابن مسعود رضي الله عنه: «ما أنت بمحدِّثٍ قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم؛ إلا كان لبعضهم فتنة». رواه مسلم في مقدمته (٥). قال ابن وهب رَحِمَهُ ٱللَّهُ على ذلك: «وذلك أن يتأولوه غير تأويله، ويحملوه على غير وجهه». ذكره الشاطبي في الاعتصام (١ / ٤٨٩).
وقد ترجم البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: باب من خصّ بالعلم قومًا دون قوم كراهية ألّا يفهموا.
وقال علي رضي الله عنه: «حدّثوا الناس بما يعرفون، أتحبّون أن يُكذّبَ الله ورسولُه».
وفي رواية: «ودعوا ما يُنكِرون». أي: من المشتبهات التي لا يفهمونها على وجهها أو لا
=

=
تحملها علومهم أو فهومهم. ومثله قول ابن مسعود رضي الله عنه: «ما أنت بمُحدِّثٍ قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة». رواه مسلم (١ / ٩). قال الحافظ في الفتح (١/ ٢٢٤): «وممن كره التحديث ببعضٍ دون بعض أحمد في الأحاديث التي ظاهرها الخروج على السلطان، ومالك في أحاديث الصفات، و أبو يوسف في الغرائب. ومن قبلهم أبو هريرة كما تقدم عنه في الجِرابين، وأن المراد: ما يقع من الفتن، ونحوه عن حذيفة. وعن الحسن أنه أنكر تحديث أنس للحجاج بقصة العرنيين لأنه اتخذها وسيلة إلى ما كان يعتمده من المبالغة في سفك الدماء بتأويله الواهي. وضابط ذلك أن يكون ظاهر الحديث يقوّي البدعة، وظاهره في الأصل غير مراد. فالإمساك عنه عند من يُخشى عليه الأخذ بظاهره مطلوب». أهـ.

والمقصود أن المعلم والمربّي والمفتي والواعظ يجب عليهم أن يراعوا أحوال الناس واختلاف أفهامهم، فلا يُلقي عليهم غرائب المسائل التي لا يعرفها إلّا الراسخون في العلم، كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال لرجل سأله عن تفسير آية: «وما يؤمنك أنّي لو أخبرتُك بتفسيرها كفرتَ به؟» أي جَحَدته، وأنكرته، وكَفَرت به. ذكره ابن كثير في تفسيره (٤/ ٣٨٦) وابن القيم في إعلام الموقعين (٦/ ٤٣) وروى البخاري (٦٨٣٠) أن عمر رضي الله عنه قام فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد؛ فإني قائل لكم مقالة قد قُدّر لي أن أقولها، لا أدري لعلها بين يدي أجلي، فمن عَقَلَها ووعاها فليحدِّث بها حيث انتهت به راحلته، ومن خشي ألا يعقلها فلا أحل لأحد أن يكذب عليّ..» الحديث. وذكر ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في جامع بيان العلم وفضله (١/٥٣٩) عن هشام بن عروة عن أبيه قال: «ما حدثتَ أحدًا بشيء من العلم قط لم يبلغه علمه؛ إلا كان ضلالًا عليه». فمن العلم ما يكون فتنة. وهذا إذا نُقص من معناه، أو أُوّل على غير وجهه.
=

منهم بالجري معها رضًا بإرادة الله الكونية حتى وإن سخطها الله تعالى شرعًا ودينًا!

وقد حرّر الألمعي اللوذعي ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذلك بقوله الدقيق وفقهه العميق: «أما المعاصي فتُرضى من جهة كونها مضافة الى الله خلْقًا وتُسخط من جهة كونها الى العبد فعلًا وكسبًا. وهو سبحانه إنما قدّر الأشياء لحكمة، فهي باعتبار تلك الحكمة محبوبة مرضية، وقد تكون في نفسها مكروهة ومسخوطة، إذ الشيء الواحد يجتمع فيه وصفان يُحبُّ من أحدهما ويُكره من الآخر».(1) «وفرقٌ بين ما يُحَب لنفسه، وما يُراد لإفضائه إلى المحبوب مع كونه مبغضًا من

=

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مجموع الفتاوى (٦ / ٥٩): «لمّا دعت الحاجة إلى تفريع الأعمال وكثرة فروعها، وذلك مستلزم لوقوع النزاع .. اطمأنت القلوب فيها إلى النزاع؛ بخلاف الأمور الخبرية؛ فإن الاتفاق قد وقع فيها على الجُمل؛ فإذا فُصلت بلا نزاع فحسن؛ وإن وقع التنازع في تفصيلها فهو مفسدة من غير حاجة داعية إلى ذلك.. ومما يتصل بذلك: أن المسائل الخبرية العلميّة قد تكون واجبة الاعتقاد، وقد تجب في حال دون حال، وعلى قوم دون قوم، وقد تكون مستحبة غير واجبة، وقد تستحب لطائفة أو في حال كالأعمال سواء. وقد تكون معرفتها مُضِرَّة لبعض الناس؛ فلا يجوز تعريفهم بها». وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره (٤/٥٠٠) عند قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾ [الأعلى: ٩]: «ذكّر حيث تنفع التذكرة، ومن هنا الأدب في نشر العلم، فلا يضعه عند غير أهله». وقد استنبط الإمام المجدد في كتاب التوحيد على حديث معاذ: «أفلا أبشر الناس..» جواز كتمان العلم للمصلحة. وبالله التوفيق.

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٤٣) بتصرف يسير.

جهة أخرى، فإن الأمر الواحد يُراد من وجه ويكره من وجه آخر؛ كالمريض الذي يتناول الدواء الكريه، فإنه يبغض الدواء ويكرهه، وهو مع هذا يريد استعماله لإفضائه إلى المحبوب، لا لأنه في نفسه محبوب. وفى الحديث الصحيح يقول الله تعالى: **«وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته، ولا بدّ له منه»**.[1] فهو سبحانه لما كره مساءة عبده المؤمن الذي يكره الموت؛ كان هذا مقتضيًا أن يكره إماتته، مع أنه يريد إماتته لما له في ذلك من الحكمة سبحانه وتعالى.

فالأمور التي يبغضها الله تعالى وينهى عنها لا تُحب ولا تُرضى، لكن نرضى بما يرضى الله به حيث خلقها لما له في ذلك من الحكمة، فكذلك الأفعال التي لا يحبها ولا يبغضها؛ لا ينبغي أن تُحب ولا تُرضى، كما لا ينبغي أن تُبغض.

والرضا الثابت بالنص هو أن يرضى بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًّا. وأما بالنسبة إلى القدر فيرضى عن الله، إذ له الحمد على كل حال، ويرضى بما يرضاه من الحكمة التي خَلَق لأجلها ما خلق، وإن كنا نُبغض ما يبغضه من المخلوقات. فحيث انتفى الأمر الشرعي، أو خفي الأمر الشرعي؛ لا يكون الامتثال والرضا والمحبة كما يكون في الأمر الشرعي، وإن كان ذلك مقدورًا.

---

(١) البخاري (٤ / ٢٣١)

وهذا موضع يغلط فيه كثير من خاصة السالكين وشيوخهم فضلًا عن عامتهم. ويتفاوتون في ذلك بحسب معرفتهم بالأمر الشرعي وطاعتهم له، فمنهم من هو أعرف من غيره بالأمر الشرعي وأطوع له؛ فهذا تكون حاله أحسن ممن يقصر عنه في المعرفة بالأمر الشرعي والطاعة له. ومنهم من يبعد عن الأمر الشرعي ويسترسل حتى ينسلخ من الإسلام بالكلية، ويبقى واقفًا مع هواه والقدر. ومن هؤلاء من يموت كافرًا، ومنهم من يتوب الله عليه، ومنهم من يموت فاسقًا، ومنهم من يتوب الله عليه.

وهؤلاء ينظرون إلى الحقيقة القدرية، معرضين عن الأمر الشرعي، ولا بد مع ذلك من اتباع أمرٍ ونهيٍ غير الأمر الشرعي، إما من أنفسهم، وأما من غير الله ورسوله، إذ الاسترسال مع القدر مطلقًا ممتنع لذاته، لِمَا تقدم من أن العبد مفطور على محبة أشياء وبغض أشياء.

وقول من قال: أن العبد يكون مع الله كالميت مع الغاسل لا يصح ولا يسوغ على الإطلاق عن أحد من المسلمين، وإنما يقال ذلك في بعض المواضع، ومع هذا فإنما ذلك لخفاء أمر الله عليه، وإلا فإذا علم ما أمر الله به وأحبه فلا بد أن يحب ما أحبه الله ويبغض ما أبغضه».(١)

والله سبحانه وتعالى لا يُسأل عما يفعل، وله الحكمة التامة في أفعاله حتى وإن خفيت عنا، وقد يقضي بالأمر الذي لا يحبه شرعًا لِمَا يترتّب عليه من خير

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٤٨٤ - ٤٨٥)

عظيم يعلمُه ولا نعلمه، فله الخلق والأمر سبحانه. قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن قيل: فكيف يكون الله ساخطًا مبغِضًا لِمَا قدّره وقضاه؟!

قيل: نعم، فالله سبحانه وتعالى يفعل ما يفعله لما له في ذلك من الحكمة، وأن ما يضر الناس من المعاصي والعقوبات يخلقها لما له في ذلك من الحكمة. والإنسان قد يفعل ما يكرهه كشربه الدواء الكريه لما له فيه من الحكمة التي يحبها كالصحة والعافية، فشرب الدواء مكروه من وجهٍ محبوب من وجه.

فالعبد يوافق ربه فيكره الذنوب ويمقتها ويبغضها لأن الله يبغضها ويمقتها، ويرضى بالحكمة التي خلقها الله لأجلها، فهي من جهة فعل العبد لها مكروهة مسخوطة، ومن جهة خلق الرب لها محبوبة مرضية؛ لأن الله خلقها لما له في ذلك من الحكمة. والعبد فعلها وهي ضارّة له موجبة له العذاب، فنحن ننكرها ونكرهها وننهى عنها كما أمرنا الله بذلك، إذْ كان هو أيضًا سبحانه يسخطها ويبغضها، ونعلم أن الله أحدثها لما له في ذلك من الحكمة، فنرضى بقضائه وقدره، فمتى لحظنا أن الله قضاها وقدّرها رضينا عن الله وسلّمنا لحُكمه، وأما من جهة كون العبد يفعلها فلا بد أن نكره ذلك وننهى عنه ونجتهد في دفعه بحسب إمكاننا، فإنّ هذا هو الذي يحبه الله منّا.[(١)]

والله تعالى إذا أرسل الكافرين على المسلمين فعلينا أن نرضى بقضاء الله في إرسالهم، وعلينا أن نجتهد في دفعهم وقتالهم. وأحدُ الأمرين لا ينافي

---

(١) وهذا من دقيق العلم وعميق الفقه ونِعَمِ التوفيق.

الآخر.[١] وهو سبحانه خلق الفأرة والحيّة والكلب العقور وأمرنا بقتل ذلك، فنحن نرضى عن الله إذ خلق ذلك، ونعلم أن له في ذلك حكمة، ونقتلهم كما أمرنا، فإنّ الله يحب ذلك ويرضاه».[٢] وهذه الحروف النفيسة مما يُسافر لتحصيلها، فرحم الله ابن تيمية.

غايَـةٌ مِضْـمارُها الغَـوْصُ عَـلى ... دُرُرِ العِلْــمِ بِفِكْــرِ الألْمَعِــيِّ
فاطْلُـبِ الحِكْمَـةَ ما عِشْـتَ ودع ... زُخْـرُفَ الـدُّنْيا لِغُمْـرٍ أوْ غَبِـيٍّ

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين: منزلة الرضا. وقد أجمع العلماء على أنه مستحب مؤكّد استحبابه، واختلفوا في وجوبه على قولين، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يحكيهما قولين لأصحاب أحمد، وكان يذهب إلى القول باستحبابه، قال: ولم يجيء الأمر به كما جاء الأمر بالصبر، وإنما جاء الثناء على أصحابه ومدحهم. قال: وأما ما يروي من الأثر: «من لم يصبر على بلائي ولم يرض بقضائي فليتخذ ربًّا سواي».[٣]

---

(١) وهذا واضح عند التأمل، وبفهمه ينكشف سر المسألة، فمن جهة خلق الله لها وإفضائها لغاية حكيمة لله تعالى فهي مرضية، ومن جهة سخطه سبحانه لها ونهيه عنها وعدم رضاه شرعًا بها فهي مسخوطة لنا.

(٢) منهاج السنة النبوية (٣/ ٢٠٤-٢٠٩) مختصرًا.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٢/ ٣٢٠) (٨٠٧)، وانظر المجروحين (١/ ٣٢٧)، والمجمع (٧/ ٢٠٧)، ولسان الميزان (٤/ ١٦٧)، وقال زين الدين العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (١/١٧١٢): إسناده ضَعِيف. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٠٥٤)، وقال في الضعيفة (٥٠٥): ضعيف جدًّا.

فهذا أثر إسرائيلي ليس يصح عن النبي ﷺ. قلت: ولا سيما عند من يرى أنه من جملة الأحوال التي ليست بمكتسبة، بل هو موهبة محضة، فكيف يؤمر به وليس مقدورًا عليه.

وهذه مسألة اختلف فيها أرباب السلوك على ثلاث طرق فالخراسانيون قالوا: الرضا من جملة المقامات، وهو نهاية التوكل، فعلى هذا يمكن أن يتوصل إليه العبد باكتسابه. والعراقيون قالوا: هو من جملة الأحوال وليس كسبيًّا للعبد، بل هو نازلةٌ تحل بالقلب كسائر الأحوال. والفرق بين المقامات والأحوال: أن المقامات عندهم من المكاسب، والأحوال مجرد المواهب.(١) وحكمت فرقة ثالثة بين الطائفتين فقالوا: يمكن الجمع بينهما بأن يقال: بداية الرضا مكتسبة للعبد وهي من جملة المقامات، ونهايته من جملة الأحوال وليست مكتسبة، فأوّله مَقامٌ ونهايته حال.

واحتج من جعله من جملة المقامات بأن الله مدح أهله وأثنى عليهم وندبهم إليه، فدل ذلك على أنه مقدور لهم، وقال النبي ﷺ: **«ذَاقَ طَعمَ الْإِيمَانِ مَن رَضِيَ بِالله رَبًّا، وَبِالإِسلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا»**.(٢) وقال: **«من**

---

(١) أي أن المقام يكتسب عن طريق الرياضة والدُّربة والاجتهاد في العبادة حتى يكون مَلَكَةً لصاحبة. أما الحال فهو موهبة ربّانية قد تولد مع صاحبها كالغريزة كسائر خِلَالِه وصفاته، وقد توهب لصاحبها أثناء عمره لطفًا من الله تعالى بلا قصدِ تحصيلِها بالمجاهدة، فالمقام كسبي والحال موهبي.

(٢) مسلم (٣٤)، والترمذي (٢٦٢٣)

قال حين يسمع النداء: رضيتُ بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولًا؛ غُفرت له ذنوبه».(١)

وهذان الحديثان عليهما مدار مقامات الدين، وإليهما ينتهي، وقد تضمّنا الرضا بربوبيته سبحانه وألوهيته، والرضا برسوله والانقياد له، والرضا بدينه والتسليم له. ومن اجتمعت له هذه الأربعة؛ فهو الصدّيق حقًّا. وهي سهلة بالدعوى واللسان، وهي من أصعب الأمور عند الحقيقة والامتحان، ولا سيما إذا جاء ما يخالف هوى النفس ومرادها.

والتحقيق في المسألة: أن الرضا كسبيّ باعتبار سببه، موهبيّ باعتبار حقيقته. فيمكن أن يقال بالكسب لأسبابه، فإذا تمكن في أسبابه وغرس شجرته؛ اجتنى منها ثمرة الرضا، فإنّ الرضا آخِرُ التوكل، فمن رسخ قدمه في التوكل والتسليم والتفويض؛ حصل له الرضا ولا بد.

ولكن لعزّته وعدم إجابة أكثر النفوس له وصعوبته عليها لم يوجبه الله على خلقه رحمة بهم وتخفيفًا عنهم، لكن ندبهم إليه، وأثنى على أهله، وأخبر أن ثوابه رضاه عنهم الذي هو أعظم وأكبر وأجلّ من الجنان وما فيها، فمن رضي عن ربه رضي الله عنه، بل رضا العبد عن الله من نتائج رضا الله عنه، فهو محفوف بنوعين من رضاه عن عبده: رضًا قبله أوجب له أن يرضى عنه، ورضًا بعده هو ثمرة رضاه عنه، ولذلك كان الرضا باب الله الأعظم، وجنّة الدنيا،

---

(١) البخاري ١/١٥٩ (٦١٤)

ومستراح العارفين، وحياة المحبين، ونعيم العابدين، وقرة عيون المشتاقين».(١)

قلت: وقد يستقيم القول بعكس ما قرره الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ وإن كان له وجه وجيه، فأقول: إن ابتداء الرضا موهبي وأوساطه ونهايته مكتسب، بمعنى أن ابتداءه محض إنعامٍ بلا تطلّب من العبد، حتى إذا ذاقه وأحبه تطلّب موارده وازداد من اكتسابه مستعينًا بربه حتى يرقّيه معارج علوّه شيئًا فشيئًا، وكلٌّ من عند الله.

ولا بدّ أن يُعلم أن الفعل غير المفعول والقضاء غير المقضي - كما مرّ معنا - وأنه لا تلازم بين الإرادتين الشرعية والقدرية، فالشرعية تابعة للمحبة، والقدرية تابعة للمشيئة، وكلاهما لحِكمٍ حميدة. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والذي يكشف هذه الغمّة ويبصّر من هذه العماية وينجي من هذه الورطة؛ إنما هو التفريق بين ما فرّق الله بينه وهو المشيئة والمحبة، فإنهما ليسا واحدًا ولا هما متلازمين، بل قد يشاء ما لا يحبه، ويحب ما لا يشاء كونه.

فالأول: كمشيئته لوجود إبليس وجنوده، ومشيئته العامة لجميع ما في الكون مع بغضه لبعضه. والثاني: كمحبته إيمان الكفار وطاعات الفجار وعدل الظالمين وتوبة الفاسقين، ولو شاء ذلك لوُجد كلّه وكان جميعه، فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ١٧٢-١٧٤) باختصار.

فإذا تقرر هذا الأصل وأن الفعل غير المفعول، والقضاء غير المقضيّ، وأن الله سبحانه لم يأمر عباده بالرضا بكل ما خلقه وشاءه؛ زالت الشبهات وانحلّت الإشكالات ولله الحمد، ولم يبق بين شرع الرب وقَدَرِه تناقض بحيث يظن إبطال أحدهما للآخر، بل القدر ينصر الشرع والشرع يصدّق القدر، وكل منهما يحقق الآخر.

إذا عرف هذا؛ فالرضا بالقضاء الديني الشرعي واجب، وهو أساس الإسلام وقاعدة الإيمان، فيجب على العبد أن يكون راضيًا به بلا حرج ولا منازعة ولا معارضة ولا اعتراض، قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النِّسَاء: ٦٥]، فأقسم أنهم لا يؤمنون حتى يحكّموا رسوله ﷺ، وحتى يرتفع الحرج من نفوسهم من حُكْمِه، وحتى يسلّموا لحُكمه تسليمًا. وهذا حقيقة الرضا بحكمه، فالتحكيم في مقام الإسلام، وانتفاء الحرج في مقام الإيمان، والتسليم في مقام الإحسان.

ومتى خالط القلب بشاشة الإيمان[١] واكتحلت بصيرته بحقيقة اليقين، وحَيِيَ بروح الوحي، وتمهّدت طبيعته، وانقلبت النفس الأمارة مطمئنة راضية

---

(١) للإيمان بشاشة وللقلب بشاشة، والبشاشة هي الانشراح والطلاقة والفرح، فيصح أن تقول خالط الإيمان بشاشة القلب، ويصح أن تقول: خالط القلب بشاشة الإيمان. وقال أبو العباس القرطبي في المُفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٣/٦٠٥) عند حديث أبي سفيان وهرقل في مسلم (١٢٨٩): «وقوله: «وكذلك الإيمان حين يخالط بشاشة القلوب»؛ هكذا وقعت هذه الرواية هنا، وفي البخاري: «حين تخالط بشاشته =

وادعة، وتلقّى أحكام الرب تعالى بصدر واسع منشرح مسلم؛ فقد رضي كل الرضا بهذا القضاء الديني المحبوب لله ولرسوله ﷺ.

والرضا بالقضاء الكوني القدري الموافق لمحبة العبد وإرادته ورضاه من الصحة والغنى والعافية واللذة أمر لازم بمقتضى الطبيعة، لأنه ملائم للعبد محبوب له، فليس في الرضا به عبودية، بل العبودية في مقابلته بالشكر والاعتراف بالمنّة ووضع النعمة مواضعها التي يحب الله أن توضع فيها، وألا يُعصى المنعمُ بها، وأن يرى التقصير في جميع ذلك.

والرضا بالقضاء الكوني القدري الجاري على خلاف مراد العبد ومحبته مما لا يلائمه ولا يدخل تحت اختياره مستحب، وهو من مقامات أهل الإيمان. وفي وجوبه قولان، وهذا كالمرض والفقر وأذى الخلق له والحرّ والبرد والآلام ونحو ذلك.

والرضا بالقدر الجاري عليه باختياره مما يكرهه الله ويسخطه وينهى عنه كأنواع الظلم والفسوق والعصيان حرام يعاقب عليه، وهو مخالفة لربه تعالى، فإن الله لا يرضى بذلك ولا يحبه. فكيف تتفق المحبة ورضا ما يسخطه الحبيب

=

القلوب»، وهي أوضح. وأصل البشاشة: التلطف والتأنس عند اللقاء. يقال: بش به، وبشبش. ومعنى هذا: أن القلوب المنشرحة إذا سمعت الإيمان، وأصغت إليه بشّت له، ورحّبت بلقائه، كما يفعل بالغائب عن اللقاء، ثم إذا حلّ الإيمان في القلب انكشفت له محاسنه، وتوالت عليه أنواره، حتى يكره أن يعود في الكفر، كما يكره أن يقذف في النار».

ويبغضه، فعليك بهذا التفصيل في مسألة الرضا بالقضاء».[١] وقوله: «باختياره» أي: باختيار العبد للمعصية.

وبهذا تتضح عقدة المسألة وينكشف خيطها، ويتمكن المرء حينها من التفريق بين مشاعره من الداخل تجاه الفعل الواحد وهو المعصية، وكيف يرضاه من جهة الخلق ويكرهه من جهة عصيان الأمر، فلا تناقض وإبطال، ولكن تناغم وإيمان، فيرضى بخلق ربه وتقديره وحكمته، ويسخط فسق نفسه ومعصيته، ويؤمن بالكتاب كله.

ولذلك قالوا: «مِن المقضيّ ما يُرضى به، ومنه ما يُسخط ويُمقت، ولتوضيح ذلك: لقد لعن الله سُبْحَانَهُ وتعالى الكافرين، ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ ١٥٩﴾ [البَقَرَة: ١٥٩] وذمهم في مواضع كثيرة، والمؤمن في ذاته ليس ملعونًا، وليس مغضوبًا عليه في ذاته، فقد يفعل من الأفعال ما هو ملعون أو مغضوب عليه، أو غير مرضي لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سواءً في الأفعال أو في الذوات أو في الأعيان، منها ما يبغضه الله ولا يرضاه، ونحن إذًا لا يجوز لنا أن نرضى بكل شيء.

فهناك فرق بين القضاء والمقضيّ، وهذا الموضوع فيه دِقّة، وقد اختلف أهْل السنةِ والجَماعَةِ مع الأشعرية، فالأشعريّة جبريّة جهميّة، لكنهم لم يقولوا: إن الإِنسَان كريشة في مهب الريح، ولم يستطيعوا أن يصرحوا بالجبر.[١]

---

(١) المدارج (٢/١٨٩)

وقد اختلف أهل السُّنّةِ والجَمَاعَة مع الأشعرية في مسألة أفعال الله سبحانه، فَقَال أهل السُّنّةِ وَالْجَمَاعَةِ كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهو قول سلف الأمة وجمهورها: إن القضاء غير المقضيّ، وهذا معروف بالبديهة، فلو فكّرت لوجدت أن القضاء غير المقضي، فقضاء الله فعلُه، والمقضيُّ أثر القضاء، وآثار قضائه يدركها العقل والفطرة فَيَقُولُ: «قول سلف الأمة وجمهورها: إن القضاء غير المقضي، فالقضاء فعله ومشيئته، وما قام به بذاته واتصف به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأما المقضي فمفعوله المباين له المنفصل عنه، وهو المشتمل عَلَى الخير والشر، فقضاؤه كله حق، والمقضي منه حق، ومنه باطل».[٢]

فمن حيث إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خلق إبليس، وخلق الكفر، وخلق الشر، وأن الله قضى ذلك فهذا حق، لكن من حيث إن هذه الأعيان أو هذه

=

(١) وهروبًا من ذلك قالوا بالكسب وهو آيل للجبر، غير منفكّ عنه. هذا إذا تنزّلنا لمقصوده، وإلا فليس تحت قوله حقيقة على التحقيق، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في النبوات (١٤٣): «رأسُ الجبرية يقول ليس للعبد فعل البتة، والأشعري يوافقه على أن العبد ليس بفاعل ولا له قدرة مؤثرة في الفعل، ولكن يقول: هو كاسب، وجهم لا يثبت له شيئًا. لكن هذا الكسب يقول أكثر الناس: إنه لا يُعقل فرق بين الفعل الذي نفاه والكسب الذي أثبته. وأنشدوا:

مِمّا يقال ولا حقيقة عنده ... معقولةٌ تدنو إلى الأفهامِ
الكسبُ عند الأشعري والحالُ ... عند البهشميِّ وطَفْرةُ النَّظَّامِ»

(٢) مدارج السالكين (٢ / ٤٩٩)

الأفعال مذمومةٌ أو ملعونة شرعًا فهذه من جهة الشرع فيها الحق وفيها الباطل، ومنها ما يحمد ومنها ما يُذم، ومنها ما نرضى به ومنها ما نكرهه، لكن من حيث اتصاف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأنه هو الذي يقضي، وله القضاء، وله الأمر فهذا حق، فالقضاء كله حق، لكن المقضي هو أثر القضاء أعيانًا أو أعمالًا، فمنها ما يُرضى ومنها ما يُسخط، ومنها ما هو حق ومنها ما هو باطل، بميزان الأمر والشرع. فهُنا قال السلف هذا القول، فجاء الأشعرية وَقَالُوا: القضاء هو عين المقضي، والفعل هو عين المفعول، ولهذا وقعوا في الجبر، أو لم يستطيعوا أن يدفعوا عن أنفسهم هذا السؤال، ومنهم أبا بكر الباقلاني، شيخهم وإمامهم الأكبر.

وقول القائل: إذا كَانَ الكفر بقضاء الله وقدره، ونحن مأمورون أن نرضى بقضاء الله، فكيف ننكره ونكرههُ؟ فهذا عجز، لأن القائل لا يفرق بين القضاء وبين المقضي، لكن أهل السُّنّة والجَمَاعَة يفرّقون، ولهذا يقولون: نَحْنُ نؤمن بالقضاء، ونحب قضاء الله، لكن نكره المقضي الذي هو الكفر، فهُنا أمران: قضاء الله، وهو: فعل قائم بذات الله. ومقضيٌّ وهو: المفعول المنفصل عنه. فالقضاء كله خير وعدل وحِكَمة نرضى به كله. والمقضي قسمان: منه ما يرضى. والقضاء الذي قضاه الله له وجهان:

أحدهما: تعلقه بالرب تَعَالَى ونسبته إليه فمن هذا الوجه يُرضى به.

والوجه الثاني: تعلقه بالعبد ونسبته إليه، فمن هذا الوجه ينقسم إِلَى ما يُرضى به، وإلى ما لا يُرضى به. ولهذا قال الله تَعَالَى لنبيه ﷺ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فَاطِر: ٨].

ومن هنا أُمر النبي ﷺ بأن يصبر من جهة أن الله يدخل من يشاء ويهدي من يشاء، ولا يعني ذلك أن يرضى بكفرهم، فلم يأمره ربه بذلك وحاشاه ﷺ، بل هو الذي جاهدهم واستمر في جهادهم، لكن مع المجاهدة لم يؤمنوا؟ لأن الهداية والضلالة بيد الله تعالى، فقد كتب عليهم الشقاوة فليكونوا كذلك، فعليك أن تسلّم بما كتب الله، ولهذا جَاءَ في سورة الأنعام ما هو أشد من ذلك، قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ٣٥] فلا يستطيع ذلك ولن يفعل.

وإنما هذا زيادة في تثبيت النبي ﷺ عَلَى عدم اليأس والتحسّر، وإنما عليه البلاغ وهذا له مقام آخر، وذكر المُصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ مثالًا على ذلك فقَال: لو قتل إنسانٌ نفسًا. القتل له اعتباران: من حيث قدَّره الله وقضاه وكتبه وشاءه وجعله أجلًا للمقتول ونهاية لعمره يرضى به، وهذا أمر كتبه الله وقدَّره قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، فلا مبدل لقدر الله ولا معقب لحكمه، فنرضى به من هذه الجهة، لكن لا نرضى عن القاتل، ولا نرضى عن فعله، فيُقَال: من حيث إن القاتل صدر منه القتل وباشره وكسبه وأقدم عليه باختياره وعصى الله بفعله؛ نسخطه ولا نرضى به».[1]

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية للحوالي (١ / ١٥٥٤-١٥٥٨) باختصار وتصرف. وانظر نص كلام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مدارج السالكين (١/ ٢٥٧)

هذا؛ واعلم أنّ لله تعالى حِكمًا يستحق الحمد التام عليها في كل أمر قدّره مهما تقاصرت أفهامنا عن إدراك بعضها، وقد ندرك طرفًا منها عند التفكّر فضلًا من الله، قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «رأيت جمهور العلماء يشغلهم طلبهم للعلم في زمن الصبا عن المعاش، فيحتاجون إلى ما لا بد منه، فلا يصلهم من بيت المال شيء، ولا من صلات الإخوان ما يكفي، فيحتاجون إلى التعرض للإذلال، فلم أر في ذلك من الحكمة إلا سببين: أحدهما: قمع إعجابهم بهذا الإذلال، والثاني: نفع أولئك بثوابهم.

ثم أمعنت الفكر فتلمّحت نكتة لطيفة، وهو أن النفس الأبية إذا رأت حال الدنيا كذلك؛ لم تساكنها بالقلب، ونبَتْ عنها بالعزم، ورأت أقرب الأشياء شبهًا بها مزبلة عليها الكلاب، أو غائطًا يؤتى لضرورة. فإذا نزل الموت بالرحلة عن مثل هذه الدار لم يكن للقلب بها متعلّق متمكّن؛ فتهون حينئذ».(١)

وقال الشيخ الغنيمان حفظه الله عن الرضا بالمصائب: «الإلزام بهذه المنزلة صعب، أي: كون الإنسان يرضى بالشيء الذي وقع له من المصائب؛ لأن الرضا معناه أن يغتبط بهذا الشيء ويفرح به، فهذا لا يستطيعه إلا الأفذاذ، ولكن الواجب هو الصبر وعدم الاعتراض، أما الرضا فإذا وصل إليه الإنسان فهو فضل عظيم، وإن لم يصل إليه فلا يكلّفُ به. قال شيخ الإسلام: «ولم يجئ الأمر به كما جاء الأمر بالصبر، وإنما جاء ثناؤه على أصحابه». وقال: «وأعلى

---

(١) صيد الخاطر (١ / ٣٠)

من ذلك ـ أي: من الرضا ـ أن يشكر الله على المصيبة؛ لما يرى من إنعام الله عليه بها».[(١)] قال د. سالم القرني: «والصحيح أن المصائب هي قضاء الله ومنسوبة إليه على وجهين:

الأول: كونها فعل الله القائم بذاته تعالى، فهذا يجب الرضا به، والتصديق والتسليم له، ومن ذلك عدل الله، وحكمته، وقدرته، وعلمه سبحانه وخلقه، فالرضا بالمصائب من هذا الوجه واجب لا شك في ذلك.

الثاني: المقضي المنفصل عن الله، المفعول له، فهذا قسمان: مصائب ومعائب[(٢)] فالمعايب لا شك أنه يحرم الرضا بها.

وأمَّا ما يصيب الإنسان فقسمان ـ أيضًا ـ: فما كان من صحة وغنى ولذة وغيرها من النعم، وهذا القسم يجب الرضا به، وأنه فضل وإحسان من الله يحمد عليه ويشكر. وأمَّا ما يصيب العبد المؤمن من فقر، ومرض، وجوع، وأذى، وحر وبرد، وغير ذلك مِمَّا يكرهه ويبغضه العبد، فيستحب الرضا به، ولو عمل الأسباب لتغييره إلى ما هو أحسن[(٣)].. أما الرضا بالمعاصي فمحرم. والمعاصي والمنكرات أمور مضرة للعاصي ولغيره، ومع ذلك يبقى بعض

---

(١) شرح فتح المجيد للغنيمان (٩٤ / ٦)

(٢) المصائب: أي البلاءات المقدرة على الإنسان المؤلمة له بغير اختياره، أما المعائب فهي المعاصي والذنوب. ومن ذلك الاحتجاج بالقدر، فيُشرع عند المصائب ويحرم عند الذنوب والمعائب.

(٣) أي يدافع قدرَ الله بقدر الله سبحانه.

الناس معها ومع طبعه وذوقه، وينسلخ عن دين الله، ورُبَّما دخل في الشرك الأكبر.

وبعض الناس يبرّر ما هو عليه من معاصٍ بادعاء أن الإيمان في القلب. ومنهم من يتعبد الله بما حرمه الله عليه، ويعتقد أنه طاعة وقربة، ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأعراف: ٢٨]، وحاله في ذلك شرٌّ من حال مَنْ يعتقد ذلك معصية وإثْمًا. وقد تتمكن المعصية من القلب فيرضى بها صاحبها، بل ويغلو في ذلك، وذلك على حساب دينه وصحته وعقله.

وإيواء أهل المعاصي هو رضًا بالمعصية، وتعاونًا عليها، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة: ٢] فمن نصر جانيًا وآواه وأجاره من خصمه وحال بينه وبين أن يقتصّ منه؛ فقد رضي بفعله. فالإيواء فيه الرضا به والصبر عليه.

وإذا رضي أحد بالبدعة، وأقرّ فاعلها، ولم ينكرها، فقد آواه، وخالف بذلك أمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ. فعن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**إنه يُستعمل عليكم أمراء، فتعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برئ، ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع**». قالوا: يا رسول الله، ألا نقاتلهم؟ قال: «**لا، ما أقاموا فيكم الصلاة**».(١) معناه: من كره بقلبه ولم يستطع إنكارًا بيد ولا لسان فقد برئ من الإثم، وأدّى وظيفته، ومن أنكر بحسب

---

(١) مسلم ٦/٢٣ (١٨٥٤) (٦٣)

طاقته فقد سلم من هذه المعصية،[(١)] ومن رضي بفعلهم وتابعهم فهو العاصي. فقوله: «**ولكن من رضي وتابع**» دليل على وجوب ترك الإيواء أو الرضا بالمعصية.

وقريب من هذا معاشرة أهل البدع، وأهل الفسق والعصيان، ومنادمتهم، وتقريبهم، وإقصاء أهل الإيمان، وأهل الطاعة، وهذه تسمى مداهنة. وعلى المسلم ألا يداهن أهل العصيان، ويرضى بما هم عليه من الفسوق، ويسكت سكوت راض بما هم فيه من غير إنكار.

صحيح أن مداراة الناس، وخفض الجناح لهم، ولين الكلمة، وترك الإغلاظ لهم في القول، من أقوى أسباب الألفة، وقبول الحق، وهي مندوبة، كما في النصوص الشرعية الموضحة لذلك، كقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عِمْرَان: ١٥٩] وقوله: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤﴾ [فُصِّلَت: ٣٤].

فالرفق بالجاهل في التعليم، وبالفاسق في النهي عن فعله، وترك الإغلاظ عليه حيث لا يُظهر ما هو فيه، والإنكار عليه بلطف القول والفعل، ولاسيما إذا احتيج إلى تألّفه ونحو ذلك؛ أمر مطلوب مستحب.

---

(١) والإنكار أرفع من مجرد الكراهية، لأن فيه مدافعة لها بحسب الإمكان، فجوزي بالسلامة التي هي أرفع، وكأنّ فيها إيماء لوعده بدار السلام، فالسلامة التامة إنما هي بدخول الجنة، ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ٢٥﴾ [يُونُس: ٢٥]، نسأل الله الكريم من فضله، والله أعلم.

أمَّا الرضا بوقوع المعصية من العبد، والسكوت على ذلك، وتأييده ولو بغير تصريح، فإن هذا من الرضا بمعصية الله، وهذا مخالف لأمر الله، وأمر رسوله ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «**إذا عُملت الخطيئة في الأرض؛ كان من شهدها فكرهها؛** ـ وقال مرة: **فأنكرها ـ؛ كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيها؛ كان كمن شهدها**».[(١)]

وهذه مسألة عظمى؛ لأن الرضا بالمعصية معصية، فقد جاء رجل إلى الشعبي فحسّن عنده مقتل عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فقال الشعبي: «شركت في دمه». فجعل الرضا بالقتل قتلًا. وقال الله تعالى: ﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ١٤٠﴾ [النِّسَاء: ١٤٠]. فهذا دليل على وجوب اجتناب أهل المعاصي إذا ظهر منهم منكر، وهذا عدم الرضا بالمعصية؛ لأن من لم يجتنبهم فقد رضي فعلهم، والرضا بالكفر كفر، كما دل عليه قوله: ﴿إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡ﴾ [النِّسَاء: ١٤٠] فكل من جلس في معصية ولم ينكرها يكون مع أهلها في وزرهم، فينبغي أن ينكر عليهم إذا تكلموا بالمعصية، أو عملوها، فإن لم يستطع الإنكار، فينبغي أن يقوم عنهم حتى لا يكون من أهل هذه الآية.

يروى أن عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُٱللَّهُ أخذ قومًا يشربون الخمر، فقيل له عن أحد الحاضرين: إنه صائم، فحمل عليه الأدب،[(٢)] وقرأ هذه الآية:

---

(١) سنن أبي داود (٤٣٤٥) وحسنه الألباني في المشكاة (٥١٤١)

(٢) أي: عاقبه تعزيرًا له.

﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النِّسَاء: ١٤٠] (١) أي: إن الرضا بالمعصية معصية. ولهذا يؤاخذ الفاعل والراضي بعقوبة المعاصي حتى يهلكوا بأجمعهم.(٢) ولا شك أن هذه المماثلة ليست في جميع الصفات، لكن إلزام شبه بحكم الظاهر من المقارنة. فتجنب أهل الأهواء والبدع واجب لغير الناصح والمعلم لهم، وليس مثلهم في الأهواء والبدع، لقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الأَنْعَام: ٦٩].

فعلى المسلم أن لا يرضى بالكفر والفسوق والعصيان؛ لأن الله لا يرضاه، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزُّمَر: ٧]. ومن المعلوم أن أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله، وقد أمرنا الله أن نأمر بالمعروف ونحبه ونرضاه ونحب أهله، ونهى عن المنكر، وأمرنا أن ننهى عنه ونبغضه

---

(١) تفسير القرطبي (٥/ ٤١٨)

(٢) وقد ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقعد على مائدة يدار عليها الخمر**»، رواه أحمد (١ / ٢٠) وغيره وجود سنده ابن حجر في الفتح (٩/٢٥٠)، وصححه الألباني في الإرواء (٧ / ٦). وقال الإمام الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا تدخل وليمةً فيها طبل ولا معزاف». رواه أبو الحسن الحربي في الفوائد المنتقاة (١/٣/٤) بسند صحيح عنه. وقال ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المغني (٧/ ٢٧٩): «إذا دعي إلى وليمة فيها معصية كالخمر والزمر والعود ونحوه وأمكنه الإنكار وإزالة المنكر؛ لزمه الحضور والإنكار، لأنه يؤدي فرضين؛ إجابة أخيه المسلم وإزالة المنكر. وإن لم يقدر على الإنكار لم يحضر. وإن لم يعلم بالمنكر حتى حضر أزاله، فإن لم يقدر انصرف».

ونسخطه ونبغض أهله، ونجاهدهم بأيدينا وألسنتنا وقلوبنا، فكيف نتوهم أنه ليس في المخلوقات ما نبغضه ونكرهه، وقد قال الله تعالى لما ذكر من المنهيات: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا ٣٨﴾ [الإسراء: ٣٨]، فإذا كان الله يكرهها وهو المُقدِّر لها فكيف لا يكرهها ويبغضها العبد المأمور بذلك؟ وقال الله تعالى: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧﴾ [الحجرات: ٧]، وقال سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ﴾ [النور: ٥٥] فبين أنه يرضى الدين الذي أمر به، فلو كان يرضى كل شيء لما كان له خصيصة.

وبهذا التفصيل يتبين الصواب ويزول اللبس في هذه المسألة العظيمة التي هي مفرق طرق بين الناس».[1]

هذا؛ ولا بد من التفريق بين إرادة الله الشرعية المستلزمة للرضا على الدوام وبين مشيئته الكونية التي في الرضا بها تفصيل، حتى ننزّل الرضا منزلته. قال د. الحوالي: «أما الرضا بالقدر على المصائب فله تفصيل. لأن الرضا بالدين معروف، لكن هناك أقدار قضاها الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ. فإذا وقع القدر وكان مما لا يرضينا أو مما نكره، فالذي أُمِرنا به هو الصبر، ولو أُمِرنا بالرضا لكان في ذلك مشقة علينا.

(١) الرضا بالقضاء. د. سالم القرني عن: مجلة جامعة أم القرى (٥ / ٤١٥ - ٤١٩) مختصرًا.

لكن الذي أمرنا به فضلًا من الله تَعَالَى هو الصبر، فالكره: أمرٌ جبلي خلقي طبعي لا نستطيع أن نتخلص منه. لكن أن نسخط أو أن نقنط فهذا مما لا يجوز: والعبد يستطيع أن يصبر، كما فعل ذلك النبي ﷺ عندما رفع إليه الصبي ونفسه تقعقع كأنها في شنّة[1] ففاضت عيناه، فقال له سعد: ما هذا يا رسول الله؟ قال: **«هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»**.[2] فليس هناك أحد أكثر رضًا بالقدر من النبي ﷺ أو أعلى منه منزلةً، وهل هذا الصبر منعه من أن تدمع عينه لمّا مات ابنه إبراهيم وقال: **«إن القلب ليحزن، وإن العين لتدمع، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا»**.[3] فهذا هو حال المؤمن، وليس معنى ذلك أن يغيّر طبيعته كما فعل ذلك بعض المتصوفة عندما مات ابن له فحلق لحيته، وأخذ يضحك أمام النَّاس، ويقول: «أُراغِم نفسي وأرضى بقدر الله وقضاءه» فهذا عصى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وجعل من

---

(١) أي قربة بالية، والمراد خشخشة الروح في صدر الصبي إيذانًا بخروجها.

(٢) البخاري ٢/١٠٠ (١٢٨٤) ومسلم ٣/٣٩ (٩٢٣).

(٣) صححه الألباني في تلخيص أحكام الجنائز (١ / ١٥) عن أنس، وقد روي بلفظ آخر عند أحمد وأبي داوود وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٩٣١) قال: **«تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي الرب، والله إنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»**.
أما لفظ الصحيحين فهو: **«إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون»**. رواه البخاري ٢/١٠٥ (١٣٠٣) ومسلم ٧/٧٦ (٢٣١٥)(٦٢)

نفسه أمثولة؛ لأنه إلى ما قبل القرن العشرين كانَ حلق اللحية مُثلة، عقوبة يُعاقب بها، فإذا أُريد أن يعاقب أحد حتى في الدول الكافرة تحلق لحيته.

وكانت بعض الأمم الممسوخة ـ كما كَانَ بعض المجوس ـ يفعلونه، ومنهم الذين قدموا على النبي ﷺ، وهذا مسخ للفطرة، ولهذا أنكره النبي ﷺ، والشاهد أن هذا الصوفي لما فعل ذلك جعل نفسه مُثلة، وأضحك النَّاس عليه، وهو بزعمه يظن أنه يراغم النفس ويرضي الله؛ لأن ابنه قد مات، والنبي ﷺ أكمل النَّاس يقول: **«إني لأعلمكم بالله، وأتقاكم له»**.[1] فهو ﷺ أعلم النَّاس بالله وأتقاهم له، ومع ذلك حزن قلبه، ودمعت عينه، فنحن مأمورون بالصبر».[2]

وقال تقي الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما يقع في الوجود من المنكرات هي مرادة لله إرادة كونية داخلة في كلماته التي لا يجاوزهن برٌّ ولا فاجر، وهو سبحانه مع ذلك لم يردها إرادة دينية، ولا هي موافقة لكلماته الدينية، ولا يرضى لعباده الكفر، ولا يأمر بالفحشاء، فصارت له من وجه مكروهة[3] ولكن هذه ليست بمنزلة قبض المؤمن فإن ذلك يكرهه؛[4] والكراهة مساءة المؤمن، وهو يريده

(١) البخاري (٢٠) بنحوه وأحمد (٢٤٩٥٦) بلفظ: **«والله إني لأعلمكم بالله عز وجل، وأخشاكم له»**. قال الشيخ شعيب الأرناؤوط: «إسناده صحيح على شرط مسلم».

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (١ / ١٥٥٣)

(٣) أي مكروهة لله تعالى من جهة أنه شاءها كَوْنًا وقدرًا لحكمته، ولم يردْها ولم يحبّها شرعًا.

(٤) ويعني بذاك حديث الوليّ الذي يرويه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله قال: من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إلى عبدي بشيء**

=

لما سبق في قضائه له بالموت فلا بد منه، وإرادته لعبده المؤمن خير له ورحمة به؛ فإنه قد ثبت في الصحيح: «**إن الله تعالى لا يقضي للمؤمن قضاء إلا كان خيرًا له، إن أصابته سراءُ شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراءُ صبر فكان خيرًا له**»[١].

وأما المنكرات فإنه يبغضها ويكرهها؛ فليس لها عاقبة محمودة من هذه الجهة إلا أن يتوبوا منها فيُرحموا بالتوبة، وإن كانت التوبة لا بد أن تكون مسبوقة بمعصية[٢] ولهذا يجاب عن قضاء المعاصي على المؤمن بجوابين:

أحدهما: أن هذا الحديث لم يتناولها وإنما تناول المصائب.

والثاني: أنه إذا تاب منها كان ما تُعقِبه التوبةُ خيرًا، فإن التوبة حسنة، وهي من أحبّ الحسنات إلى الله، والله يفرح بتوبة عبده إذا تاب إليه أشد ما يمكن أن يكون من الفرح. وأما المعاصي التي لا يُتابُ منها فهي شرّ على صاحبها. والله سبحانه قدّر كل شيء وقضاه؛ لما له في ذلك من الحكمة، كما

=

أحبّ إليّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أُحبّه، فإذا أحببته؛ كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنّه. وما ترددت عن شيء أنا فاعله تردّدي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته». رواه البخاري ١٣١/٨(٦٥٠٢).

(١) مسلم (٢٩٩٩)

(٢) والتقصير في الطاعة من قبيل المعاصي.

قال: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النَّمل: ٨٨] وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السَّجدَة: ٧] فما من مخلوق إلا ولله فيه حكمة. والمقصود: التنبيه على أن الشيء المعيّن يكون محبوبًا من وجه، مكروهًا من وجه، وأنّ هذا حقيقة التردّد، وكما أن هذا في الأفعال فهو في الأشخاص. والله أعلم».(١)

وبالجملة؛ فحكم الرضا بالقضاء والقدر واجب وفرض لأنه فعل الله تعالى، أما حكم الرضا بالمقضيّ والمقدور فهو فضيلة مستحبة على الراجح، ولكن لا يحلّ النزول فيها عن الصبر إلى ما دونه من التسخّط، أما الرضا بالمعاصي فمحرّم، بل تُبغض وتسخط من جهة فعل العباد لها لا من جهة تقدير الله تعالى، وبالله التوفيق.

وبعدُ؛ فتأمل ـ رحمني الله وإياك ـ عمق مذهب السلف، وكيف حاز الكيف والكمّ والكمال من الحق، فمذهبهم بحمد الله تعالى متّسقٌ في كل المسائل، متكامل في سائر الشؤون، لأنه باختصار عينُ مذهب الرسول ﷺ وصحابته رضي الله عنهم، فهو المنهج النقيُّ الصافي من كدرِ وأغلاطِ وانحرافِ مذاهبِ الأممِ الضالةِ من أهلِ الشرقِ والغربِ وعُبّادِ الهوى والشيطان، فهم في ضلالاتهم طرائق قِدَدًا، ومذاهب مختلفة، وضلالات منوّعة، أما منهج الرسول ﷺ فهو وحده الصراط المستقيم والنور المبين، وكلُّ خطأ يقع فيه منتسبٌ إلى السنة فخطؤه مردود عليه، والسنة بريئة من

(١) مجموع الفتاوى (١٨ / ١٣٤)

خطئه مهما علا شأنه وطار صيته وعظم في الناس شأوه، والمنصف الخبير ـ حتى من المخالفين ـ يعلم صدق ذلك.

وبحمد الله تعالى فالعامة الذين لم يتلوّثوا ببدع أهل الأهواء هم من أهل السنة والجماعة في الجملة، وكل من وافق الكتاب والسنة فهو على منهج السلف الصالح بقدر موافقته، وبعيد عنه بقدر مباعدته، فهو الميزان وهو البرهان وهو الصراط المستقيم والنور المبين. ومن وافق ذلك فهو السُّنّي حقًّا والسّلفيّ صدقًا حتى وإن لم يتلقب بذلك، ومن ناقضه فليس منها في شيء، فالألقاب لا تُزكّي أحدًا ولا تغني من الحق شيئًا، ولكن ما جعله الشرع لقبًا كالإسلام والإيمان والسُّنّة ونحو ذلك فهو مُعظَّمٌ وفاضل، وفيه كفايةٌ وغنًى ومقنعٌ عما سواه من الألقاب المُحدَثة.

ولنعتبر ذلك بهذه المسألة المُعَقّدة الشائكة التي اختلفت فيها أنظار النظّار من مختلف الفرق، وقد ظهر توفيق الله لأهل السنة فيها كما في سائر المسائل من بين فرث ودم لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين، وكما أن الأمة وسط بين الأمم فأهل السنة والجماعة وسط بين الفرق، فمذهبهم قد استوعب مسائل القدر بأطرافها فآمنوا بالكتاب كله، بالقضاء والقدر الشرعي والكوني والإرادة والمشيئة والقضاء والمقضي وخلق الخير والشر وتعلق ذلك بأسماء الله تعالى الحسنى وصفاته العلى.. وغير ذلك، فلم يرُدُّوا من الوحي شيئًا، ولم يضربوا مسائله ببعض، ولم يبطلوا شيئًا منها أو يتأولوها على غير محلها، ولم يتحيّروا ويتهوّكوا، ولم يفترضوا التناقض فيها، ولم يمسكوا بطرف دون آخر، بل قد ألهمهم الله تعالى الإيمان بها جميعًا، لا على التقليد؛ بل على الاقتناع بالبراهين

الشرعية والأدلة العقلية والسلطان الفطري، فكل مسألة حَدُّوا لها أبعادها اللائقة بها، وضمّوا أمثالها ونظائرها، وفرّقوا بين حقائق مختلفاتها، وقسّموا أنواعها، وأقاموها في نفوسهم وعلومهم ودعوتهم مقامها اللائق بها، وتمكّنوا ـ بفضلٍ من الله وحده ـ أن يصلوا لمرحلةِ الشمولية إجمالًا وتفصيلًا عبر إمكان الرؤية الصحيحة للأمر الواحد من أكثر من جانب، فينظرون للمسألة من جانبها هذا ويقررون مسائلها وحدودها بالبراهين الواضحة، ثم نراهم في ذات المسألة عينها ينظرون لها من جانب آخر فيُلبسونها ما يناسبها بأدلتها الراسخة ويحررونها ويقررون ما فيها بحسب حقيقتها، ثم ينظرون لها من جهة ثالثة فيوضحون أطرافها ويكشفون غوامضها ويحلّون عُقَدَها ويحررون مسائلها ويستدلون بالوحي في كل تفصيل لها خاصًّا كان أو عامًا، مطلقًا أو مقيدًا، فيتمكن القارئ والسامع والمتدبر من فهمها من جميع جوانبها، فلا تشتبه عنده حينها، بل تغدو مشتبهاتُها في بصيرته كالمحكمات، ومحكماتُها كَجَارِ العادات، قد استضاء طريقه على نور من الشرع ساطع، واستبانت مَحَجَّتُه على ضياء حُجَّتِه المبينة، فسار ـ بعون ربه ـ واثقًا مهديًّا.

بخلاف غيرهم من الفرق المخالفة التي ضربت كتاب ربها ببعض، وتمسكت بطرفٍ ونفت طرفًا لعجزها عن استيعاب الكل بجمع ما تفرّق من أجزائه، أو استعجام فرعٍ عن إلحاقه بأصله، فبتروا ذلك النصّ، ولَوَوا عنقَ الآخر، وضعّفوا ما صحّ، وصحّحوا ما ضعف، وقالوا بالنسخ في غير محلّه، وبالردّ بغير برهانه، وبالتحريف الباطل الذي سمّوه تأويلًا، والتجهيل الذي

لقبوه تفويضًا، وخالفوا إجماع السلف، وهكذا الأمر إذا وسّد غير أهله، لا جرم فهذا شأن البدع.

حتى إن صحّت النيّة في بحث المسألة؛ فالصواب مفتقرٌ لأَثَارَةِ الوحي الإلهي الذي جاء به الرسول ﷺ، فعدمُ الإخلاصِ شركٌ، وعدمُ الاتباعِ ابتداعٌ، ذلك أن الله تعالى قد حكَمَ: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠﴾ [الكهف: ١١٠] وقضى: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ١٢٦﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٦]، والله المستعان.[(١)]

أخيرًا تأمل كلام الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي حُقَّ له أن يكتب بمداد العيون: «إذا ظفرت برجل واحد من أولي العلم، طالب للدليل، مُحكِّم له، متّبع للحق حيث كان، وأين كان، ومع من كان؛ زالت الوحشة، وحصلت الأُلفة. ولو خالفك فإنه يخالفك ويعذرك، والجاهل الظالم يخالفك بلا حجة، ويكفّرك أو يُبدّعك بلا حجة، وذنبك رغبتك عن طريقته الوخيمة وسيرته الذميمة. فلا تغترّ بكثرة هذا الضرب، فإنّ الآلاف المؤلّفة منهم لا يُعدلون بشخص واحد من أهل العلم، والواحد من أهل العلم يُعدل بملء الأرض منهم!

---

(١) وانظر بسط ذلك في رسالة «ويكون الدين كله لله» للمؤلف.

واعلم أن الإجماع والحجة والسواد الأعظم هو العالم صاحب الحق، وإن كان وحده، وإن خالفه أهل الأرض».[١] وممّا يعين العالِمِ زهده في الثناء والمال والجاه وسائر المتع الزائلة، ومَنْ تحسّى مَرَقَةَ السلطان أحرقتْ شفتيه.

ومن جميل النظم ودقيق العلم وفائق الفقه وعظيم الحمد لله تعالى في القَدَرِ ما ذكره الربيع بن سليمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سُئِلَ الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن القَدَرِ، فأنشأ يقولُ:

مـا شِـئتَ كـانَ وإنْ لَمْ أشَـأْ ... ومـا شِـئتُ إنْ لَمْ تَشَـأْ لَمْ يَكُـنْ
خَلَقْتَ العِبـادَ عَلى ما عَلِمتَ ... فَفِي العِلمِ يَجرِي الفَتى والمُسِنْ
عـلى ذا مَنَنْـتَ وهَـذا خَـذَلْتَ ... وهَــذا أعَنْـتَ وذا لَم تُعِـنْ
فَمِـنهُم شَـقِيٌّ ومِـنهُم سَـعِيدٌ ... ومِنهُم قَبِيحٌ ومِنهُم حَسَنْ[٢]

❊❊❊❊

(١) إعلام الموقعين (١/ ٣٠٨).

(٢) السنن الكبرى للبيهقي (١٠/٣٤٨)، واعتقاد أهل السنة للّالكائي (١٣٠٤).

القَدَرُ والشَّرْعُ

القدر هو تقدير الله تعالى للأشياء، والشرع هو دينه الذي ارتضاه. فمن أطاع الله تعالى وعبده فقد اجتمع في حقه الأمران القدر والشرع، وهو مستحق للأجر والمثوبة. ومن عصاه فقد تحقّق فيه القدر دون الشرع، وهو مستحق للسخط والعقوبة. وقد ضل بعض الناس في هذا الباب إذ ظنوا أن القدر ملازم للشرع على الدوام، وهذا باطل، فإن الكفر داخل في جملة مقادير الله تعالى، وقد قال في كتابه: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزُّمَر: ٧]، وسرُّ المسألة؛ أن لله تعالى حِكَمًا عظيمة جليلة في الابتلاء الذي لا يكون إلا بوجود الصراع والدفع بين الخير والشر، والحق والباطل، والهدى والضلال، فلو لم يوجد شرّ في المخلوقات لم تظهر خيريّة الخير، وتعطّلت كثير من الأمور التي يحبها الله تعالى كالتناهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله والقيام لله تعالى في شديدات الأمور ونحو ذلك، فالضدّ يظهر حسنه الضد، قال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البَقَرَةِ: ٢٥١].

والشرّ ليس إلى الله تعالى، بل هو راجع إلى نقص المخلوق وخذلان الله له من جهةِ قطعِ إمدادِ الخير عنه. قال ﷺ: **«والشرُّ ليس إليك»**.(١) فأفعال الله تعالى لا توصف أبدًا بالشرّ؛ لأنها عدل أو إحسانٌ، وكلاهما خير، وأفعال

---

(١) أحمد في المسند (٨٠٣) ومسلم (١ / ٢١٥)

الله كلّ غاياتها طيبة محمودة؛ أما ما يُضَافُ للعبد فإنه قد يكون شرًّا بالنسبة له؛ أما بالنسبة لقدر الله فهو خير. قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رسالته النفيسة «العبودية» وفي ظني أنه لم يُكتب على نسيجها مثلها حتى من الشيخ نفسه في بقية مؤلفاته، قال: «عنوان التوحيد لا إله إلا الله، والإله: الذي يألهه القلب بكمال الحب والإجلال. وهذه العبادة متعلقة بإلهيته تعالى، ولهذا كان عنوان التوحيد لا إله إلا الله، بخلاف من يقرّ بربوبيته ولا يعبده، أو يعبد معه إلهًا آخر. فالإله الذي يألهه القلب بكمال الحب والتعظيم والإجلال والإكرام والخوف والرجاء ونحو ذلك. وهذه العبادة هي التي يحبها الله ويرضاها، وبها وصف المصطفَين من عباده، وبها بعث رسله. وأما العبد بمعنى المُعَبَّد سواء أقرّ بذلك أو أنكره؛ فتلك يشترك فيها المؤمن والكافر.

وبالفرق بين هذين النوعين يُعرف الفرق بين الحقائق الدينية الداخلة في عبادة الله ودينه وأمره الشرعي، التي يحبها ويرضاها، ويوالي أهلها ويكرمهم بحسبها، وبين الحقائق الكونية التي يشترك فيها المؤمن والكافر والبرّ والفاجر، فالذي اكتفى بها ولم يتبع الحقائق الدينية كان من أتباع إبليس اللعين والكافرين برب العالمين، ومن اكتفى بها في بعض الأمور دون بعض أو في مقام أو حال؛ نقص في إيمانه وولايته لله بحسب ما نقص من الحقائق الدينية.

وهذا مقام عظيم فيه غلط الغالطون، وكثر فيه الاشتباه على السالكين، حتى زلق فيه من أكابر الشيوخ المنتسبين إلى التحقيق والتوحيد والعرفان ما لا يحصيهم إلا الله الذي يعلم السرّ والإعلان. وإلى هذا أشار الشيخ عبد القادر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيما ذكر عنه: «بأن كثيرًا من الرجال إذا وصلوا إلى القضاء

والقدر أمسكوا، إلّا أنا فإني انفتحت لي فيه رَوْزَنة[(١)] فنازعتُ أقدارَ الحقِّ بالحقِّ للحقِّ».[(٢)] والرجل مَن يكون منازعًا[(٣)] لا من يكون موافقًا للقدر.

---

(١) الرَّوْزَنَة: الكُوّة والنافذة، سواء كانت في الجدار أو في السقف، والثاني أكثر استعمالًا.

(٢) الحق: هو الله تعالى. بالحق: أي بالصواب المبني على دلائل الوحي. للحق: أي مخلصًا في ذلك لله تعالى. ومنه قول ابن القيم في نونيته:

فَلِواحِدٍ كُن واحدًا في واحدٍ ... أعني طريقَ الحقِّ والإيمانِ

فلواحدٍ: أي أخلص عملك للواحد وهو الله تعالى. واحدًا: أي لا يضرك قلة السالكين لسبيل الرسل ولو كنت وحدك كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النَّحل : ١٢٠]. في واحد: هو الصراط المستقيم خلافًا لطرائق الضلال وسبل الزيغ.

(٣) ولا يقصد بالنزاع اللفظ الموحش بالمحاربة، بل قصد رَحِمَهُ ٱللَّهُ مدافعة القدرِ الذي لا يوافق الشرع بقدرٍ موافق للشرع، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البَقَرَةِ : ٢٥١]، فيدفع الله تعالى بأهل الصلاح والاستقامة أهلَ الفساد والزيغ والاعوجاج. ومثاله في النفس: لو أن معصية عرضت له واشتهتها نفسه؛ فهذا قَدَرٌ مقبل عليه ـ وإن كان لا يعلم غايته، فقد يكون أو لا يكون ـ فيدفع هذا القدر المظنون بالقدر الذي يُرضي الله تعالى، فيردع نفسه عن الحرام، فإن وفّق لذلك فقد وافق قدرُه شرعَ ربه، وإن خُذل عن بلوغه فقد تخلّفت نفسه عن وارد الشرع فعصت واستحقت عقوبة المذنبين، والله المستعان، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القَمَر : ٤٩].

وقد قصد الشيخ عبد القادر بهذا الرد على الذين قالوا: لا نردّ القدر، بل نماشيه ونركب ما اتفق لنا منه طاعة كانت أو معصية، جريانًا معه وشهودًا له!

فردّهم إلى وجوب التفريق بينهما، وأن كلًّا بقدر الله، وأن المعصية إذا لم يفعلها الإنسان فهي غير مقدّرة عليه أصلًا لأنها لم تقع، فكيف يحتجون بأمر لم يقع بعد، فإن وقع الذنب فلا

=

والذي ذكره الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو الذي أمر الله به ورسوله، لكن كثيرًا من الرجال غلطوا، فإنهم قد يشهدون ما يقدّر على أحدهم من المعاصي والذنوب، أو ما يقدّر على الناس من ذلك، بل من الكفر، ويشهدون أن هذا جار بمشيئة الله وقضائه وقدره داخل في حكم ربوبيته ومقتضى مشيئته، فيظنون أن الاستسلام لذلك وموافقته والرضا به ونحو ذلك دينًا وطريقًا وعباده، فيضاهون المشركين الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقالوا: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾ [يس: ٤٧] وقالوا: ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الزُّخْرُف: ٢٠].

ولو هُدُوا لعلموا أن القدر الذي أُمِرْنا أن نرضى به، ونصبر على موجبه إنما هو في المصائب التي تصيبنا كالفقر والمرض والخوف، قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التَّغَابُن: ١١]، قال بعض السلف: هو الرجل تصيبه فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم. وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ﴾ [الحَدِيد: ٢٢ - ٢٣].

=

حجة في القدر معه؛ لأن العبد قد علم من نفسه القُدرة التي حباه الله تعالى بها لمدافعته ابتداء لو أراد، فوقوعه في الذنب دليل على تخلّف الإرادة منه لأنه مكلّف، والله لا يكلفه سوى طاقته ووسعه، قال سبحانه: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وأما الذنوب فليس للعبد أن يذنب، وإذا أذنب فعليه أن يستغفر الله ويتوب من صنوف المعايب، ويصبر على المصائب، قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: ٥٥]، وقال: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٨٦]: وقال يوسف: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يُوسُف: ٩٠].

وكذلك ذنوب العباد يجب على العبد فيها أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بحسب قدرته، ويجاهد في سبيل الله الكفار والمنافقين، ويوالي أولياء الله ويعادي أعداء الله، ويحب في الله ويبغض في الله، تعالى كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [المُمْتَحَنَة: ١] إلى قوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [المُمْتَحَنَة: ٤]، وقال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المُجَادلَة: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [القَلَم: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجَاثِيَة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَـٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا

ﭐلۡأَمۡوَٰتُ﴾ [فَاطِر: ١٩ - ٢٢]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠﴾ [الحَشر: ٢٠]».[1]

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والله تعالى له الخلق والأمر، قال سبحانه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ﴾ [الأَعۡرَاف: ٥٤] ومن المعلوم أنه يجب الايمان بخلق الله وأمره، بقضائه وشرعه.

وأهل الضلال الخائضون في القدر انقسموا إلى ثلاث فرق: مجوسيّة، ومُشركيّة وإبليسيّة.

فالمجوسيّة: هم الذين كذّبوا بقدر الله وإن آمنوا بأمره ونهيه، فغلاتهم أنكروا العلم والكتابة،[2] ومقتصدوهم أنكروا عموم مشيئته وخلقه وقدرته، وهؤلاء هم المعتزلة ومن وافقهم.

والفرقة الثانية: المُشركِيَّة: وهم الذين أقرّوا بالقضاء والقدر، وأنكروا الأمر والنهي، قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ١٤٨﴾ [الأَنۡعَام: ١٤٨]، فمن احتج على تعطيل الأمر والنهي بالقدر فهو من هؤلاء. وهذا قد كثر فيمن يدّعي الحقيقة من المتصوفة.

---

(١) العبودية (٨ –١٣) باختصار.

(٢) وهُم القدرية الأولى الذين تبرأ منهم ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم.

والفرقة الثالثة: الابليسيّة: وهم الذين أقرّوا بالأمرين، لكن جعلوا هذا تناقضًا من الرب سبحانه وتعالى، وطعنوا في حكمته وعدله، كما يذكر ذلك عن إبليس مُقدّمهم، كما نقله أهل المقالات ونقل عن أهل الكتاب.(١)

والمقصود؛ أن هذا مما يقوله أهل الضلال، وأما أهل الهدى والفلاح فيؤمنون بهذا وهذا، ويؤمنون بأن الله خالق كل شيء وربّه ومليكه، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وهو على كل شيء قدير، وأحاط بكل شيء علمًا، وكل شيء أحصاه في إمام مبين. ويتضمن هذا الأصل من إثبات علم الله وقدرته ومشيئته ووحدانيته وربوبيته، وأنه خالق كل شيء وربُّه ومليكُه ما هو من أصول الإيمان.

---

(١) كما ذكروا عن أبي العلاء المعرّي أنه قال مُتأبْلِسًا مُعترضًا على قطع يد السارق مع كون ديتها نصف دية إنسان:

يـدٌ بخمـسِ مئـينٍ عَسْـجَدٍ وُدِيـتْ ... مـا بالُهـا قُطعـتْ في ربـع دينـارِ
تنـاقضٌ مـا لنـا إلا السـكوت لـه ... ونسـتعيذُ بمولانـا مـن النـارِ

وما التناقض إلا في عقله وقلبه، وقد ردّ عليه الشيخ عبد الوهاب المالكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله:

قـل للمَعـرِّي عـارٌ أيُّـمَا عـارٍ ... جهلُ الفتى وهو عن ثوب التقى عاري
عِـزُّ الأمانـةِ أغلاهـا، وأرخصَـها ... ذِلُّ الخيانـة فـافهم حكمـةَ البـاري
لا تقدحنَّ بنودَ الشـرعِ عن شُـبَهٍ ... شرائـعُ الـدين لم تُقـدح بأشـعارِ

ومع هذا فلا ينكرون ما خلقه الله من الأسباب التي يخلق بها المُسبَّبات، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٥٧﴾ [الأعراف: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٦]، وقال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗا﴾ [البقرة: ٢٦]، فأخبر أنه يفعل بالأسباب.

والمقصود؛ أنه لا بد من الإيمان بالقدر، فإن الإيمان بالقدر من تمام التوحيد، كما قال ابن عباس: «هو نظام التوحيد»، فمن وحّد الله وآمن بالقدر تم توحيده، ومن وحّد الله وكذب بالقدر نقض توحيده.

ولا بد من الإيمان بالشرع، وهو الإيمان بالأمر والنهي والوعد والوعيد، كما بعث الله بذلك رسله وأنزل كتبه. والإنسان مضطر إلى شرع في حياته الدنيا، فإنه لا بد له من حركة يجلب بها منفعته، وحركة يدفع بها مضرته، والشرع هو الذي يميّز بين الأفعال التي تنفعه والأفعال التي تضره، وهو عدلُ الله في خلقه، ونوره بين عباده، فلا يمكن الآدميين أن يعيشوا بلا شرع يميّزون به بين ما يفعلونه ويتركونه.

وليس المراد بالشرع مجرد العدل بين الناس في معاملاتهم، بل الإنسان المنفرد لا بدّ له من فعل وترك، فإن الإنسان همّام حارث، كما قال النبي ﷺ: **«أصدق الأسماء حارثٌ وهمام»**.[1] وهو معنى قولهم: متحرِّك بالإرادات. فإذا

(١) أبو داود (١٠٥٤) وصححه الألباني.

كان له إرادة فهو متحرّك بها، ولا بد أن يعرف ما يريده هل هو نافع له أو ضار، وهل يصلحه أو يفسده. وهذا قد يعرف بعضه الناس بفطرتهم كما يعرفون انتفاعهم بالأكل والشرب، وكما يعرفون ما يعرفون من العلوم الضرورية بفطرتهم، وبعضهم يعرفونه بالاستدلال الذي يهتدون به بعقولهم، وبعضه لا يعرفونه إلا بتعريف الرسل وبيانهم لهم وهدايتهم لهم.[1]

وفي هذا المقام تكلم الناس في أن الأفعال هل يُعرف حسنها وقبحها بالعقل؟ أم ليس لها حسن ولا قبح يعرف بالعقل؟ وقد اتفقوا على أن كون الفعل يلائم الفاعل أو ينافره يعلم بالعقل، وهو أن يكون الفعل سببًا لما يحبه الفاعل ويلتذّ به، وسببًا لما يبغضه ويؤذيه.

وهذا القدْر يُعلم بالعقل تارة، وبالشرع أخرى، وبهما جميعًا أخرى. لكن معرفة ذلك على وجه التفصيل ومعرفة الغاية التي تكون عاقبة الأفعال من السعادة والشقاوة في الدار الآخرة لا تعرف إلا بالشرع. فما أخبرت به الرسل من تفاصيل اليوم الآخر وأمرت به من تفاصيل الشرائع لا يعلمه الناس بعقولهم، كما أن ما أخبرت به الرسل من تفصيل أسماء الله وصفاته لا يعلمه الناس بعقولهم، وإن كانوا قد يعلمون بعقولهم جمل ذلك[2]. وهذا التفصيل الذي يحصل به الإيمان وجاء به الكتاب، وهو ما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن

---

(١) فمصادر العلوم ثلاثة: فطريّ غريزيّ، وتجريبيٌّ كسبي، وموقوفٌ على الوحي الإلهي.

(٢) أي: يعرفون بفِطَرِهم وعقولهم أن للكون ربًّا خالقًا مالكًا مدبرًا قديرًا مألوهًا مستحقًّا للعبادة دون سواه. أما تفاصيل أسمائه وصفاته وأفعاله فموقوفة على السمع.

جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢﴾ [الشُّورَى: ٥٢]، وقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ ۝٥٠﴾ [سَبَإ: ٥٠]، وقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ﴾ [الأَنبِيَاء: ٤٥]» (١).

وبهذا يتبين لنا أن العبد الموفق هو من آمن بالشرع والقدر، وعقد قلبه عليهما، ولم يُلغِ شرعًا ولم يُبطلْ قدَرًا، ويدفع ما يخافه من الأقدار بما يلائمه منها على وفق شرع الله رب العالمين، ويفوّض كل أمره إلى الله عز وجل، قال ابن القيم رحمنا الله وإياه: «إذا وقف العبد على حسن تدبير الله تعالى، واستغنى القلب به؛ لم يتم له الاستغناء بمجرد هذا الوقوف إن لم ينضم إليه المسالمة للحكم، وهو الانقياد له، فإن المنازعة للحكم إلى حكم آخر دليل على وجود رعونة الاختيار، وذلك دالّ على فقر صاحب الاختيار إلى ذلك الشيء المختار، ومن كان فقيرًا إلى شيء لم يرده الله؛ لم يطلق عليه اسم الغني بتدبير الله، فلا يتم الغِنى بتدبير الله سبحانه لعبده إلا بالمسالمة لحكمه بعد الوقوف على حسن تدبيره.

ثم يبقى عليه الخلاص من معنى آخر وهو مخاصمة الخلق بعد الخلاص من منازعة الرب سبحانه، فإن منازعة الخلق دليل على فقره إلى الأمر الذي وقعت فيه الخصومة من الحظوظ العاجلة، ومن كان فقيرًا إلى حظٍّ من الحظوظ

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ١١١-١١٥) مختصرًا.

يسخط لفوته ويخاصم الخلق عليه؛ لا يطلق عليه اسم الغنيّ حتى يَسلمَ الخلقُ من خصومته بكمال تفويضه إلى وليّه وقيّومه ومتولّي تدبيره.

فمتى سلِم العبدُ من علّة فقره إلى السبب، ومن علّة منازعته لأحكام الله سبحانه، ومن علّة مخاصمته للخلق على حظوظه؛ استحق أن يكون غنيًّا بتدبير مولاه، مفوّضًا إليه، لا يفتقر قلبه إلى غيره، ولا يسخط شيئًا من أحكامه، ولا يخاصم عباده إلا في حقوق ربه. فتكون مخاصمته لله وبالله، ومحاكمته إلى الله، كما كان النبي ﷺ يقول في استفتاح صلاة الليل: **«اللّهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت»**[(١)]. فتكون مخاصمة هذا العبد لله لا لهواه وحظه، ومحاكمته خصمه إلى أمر الله وشرعه لا إلى شيء سواه[(٢)]، فمن خاصم لنفسه فهو ممن اتبع هواه وانتصر لنفسه، وقد قالت عائشة رضي الله عنها: «ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه

---

(١) البخاري ٢/ ٦٠ (١١٢٠)، ومسلم ٢/ ١٨٤ (٧٦٩) (١٩٩) وتمامه: «.. فاغفر لي ما قدّمت، وما أخّرت، وما أسررت، وما أعلنت، أنت المُقَدِّم، وأنت المُؤَخِّرُ، لا إله إلا أنت».

(٢) كما ذُكر عن عليٍّ رضي الله عنه أنه صرع رجلًا من المشركين وطرحه وبرك عليه ليقتله، فبصق الرجل عليه فقام عنه وتركه، ولمّا سئل عن ذلك قال: «إنّه لما بصق في وجهي اغتظت منه فخفت إن قتلته أن يكون للغضب والغيظ نصيب في قتله، وما كنت أن أقتله إلّا خالصًا لوجه الله تعالى». وانظر: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية لابن الطقطقي (١/ ٤٩).

قط»[١]. فهذا صبر الرسول ﷺ على ما يؤذي، وهذا غيرته وانتقامه لمحارم الله، وهذا لتكميل عبوديته.

ومن حاكم خصمه إلى غير الله ورسوله فقد حاكم إلى الطاغوت، وقد أُمر أن يكفر به. ولا يكفر العبد بالطاغوت حتى يجعل الحُكْمَ لله وحده، كما هو كذلك في نفس الأمر. والحكم نوعان: حكم كوني قدري، وحكم أمري ديني، بل الأحكام ثلاثة[٢]:

حكم شرعي ديني، فهذا حقّه أن يُتلقّى بالمسالمة والتسليم وترك المنازعة، بل بالانقياد المحض، وهذا تسليم العبودية المحضة، فلا يعارض بذوق ولا وجد ولا سياسة ولا قياس ولا تقليد، ولا يَرى إلى خلافه سبيلًا البتة، وإنما هو الانقياد المحض والتسليم والإذعان والقبول.

فإذا تلقى بهذا التسليم والمسالمة إقرارًا وتصديقًا بقي هناك انقياد آخر وتسليم آخر له، إرادةً وتنفيذًا وعملًا، فلا تكون له شهوة تنازع مراد الله من تنفيذ حكمه، كما لم تكن له شبهة تعارض إيمانه وإقراره، وهذا حقيقة القلب السليم الذي سلم من شبهة تعارض الحق وشهوة تعارض الأمر، فلا استمتع

---

(١) البخاري (٦٨٥٣) ومسلم (٢٣٢٧) بلفظ: «ما انتقمَ رسول الله ﷺ قطُّ لنفسه، إلا أن تُنتَهك محارمُ الله، فإذا انتُهِكت محارم الله لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله».

(٢) قصد بذلك تقسيم الحكم القدري الكوني إلى قسمين: الأول: ما كان باختيار العبد، والثاني ما كان بغير اختياره، فهما راجعان إلى القسم الأول.

بخَلَاقِه[١] كما استمتع به الذين يتبعون الشهوات، ولا خاض في الباطل خوض الذين يتبعون الشبهات، بل اندرج خَلاقُه تحت الأمر، واضمحل خوضه في معرفته بالحق، فاطمأنّ إلى الله معرفةً به ومحبة له وعلمًا بأمره وإرادة لمرضاته، فهذا حق الحكم الديني.

الحكم الثاني: الحكم الكوني القدري الذي للعبد فيه كسب واختيار وإرادة، والذي إذا حكم به يسخطه ويبغضه ويذمّ عليه، فهذا حقه أن يُنازَع ويدافع بكل ممكن، ولا يسالم البتة، بل ينازع بالحكم الكوني أيضًا، فينازع حكم الحق بالحق للحق، فيدافع به وله، كما قال شيخ العارفين في وقته عبد القادر الجِيلي[٢]:«الناس إذا دخلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا، وأنا انفتحت لي رَوْزَنَة، فنازعت أقدار الحق بالحق للحق. والعارف من يكون منازعًا للقدر، لا واقفًا مع القدر». فإن ضاق ذرعك عن هذا الكلام وفهمه؛ فتأمل قول عمر بن الخطاب وقد عوتب على فراره من الطاعون فقيل له: أتفرّ من قدر الله؟ فقال: «نفرّ من قدر الله إلى قدره».

ثم كيف ينكر هذا الكلام من لا بقاء له في هذا العالم إلا به، ولا تتم له مصلحة إلا بموجبه، فإنه إذا جاءه قدَر من الجوع والعطش أو البرد نازعه وترك الانقياد له ومسالمته، ودفعه بقدَر آخر من الأكل والشرب واللباس، فقد دفع قدر الله بقدره، وهكذا إذا وقع الحريق في داره فهو بقدر الله، فما باله لا

---

(١) الخَلاق: النصيب. ومراده: أنه لم يصرف نعم الله في معاصيه. قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ﴾ [التَّوْبَة: ٦٩]

(٢) ويقال كذلك: الجيلاني، والكيلاني، وكلها صحيحة.

يستسلم له ويسالمه ويتلقاه بالإذعان، بل ينازعه ويدافعه بالماء والتراب وغيره حتى يطفئ قدر الله بقدر الله، وما خرج في ذلك عن قدر الله، وهكذا إذا أصابه مرض بقدر الله دافع هذا القدر ونازعه بقدر آخر يستعمل فيه الأدوية الدافعة للمرض.

فحقُّ هذا الحكم الكوني أن يحرص العبد على مدافعته ومنازعته بكل ما يمكنه، فإن غلبه وقهره حرص على دفع آثاره وموجباته بالأسباب التي نصبها الله لذلك، فيكون قد دفع القدر بالقدر، ونازع الحكم بالحكم. وبهذا أُمِرَ، بل هذا حقيقة الشرع والقدر، ومن لم يستبصر في هذه المسألة ويعطها حقها لزمه التعطيل للقدر أو الشرع شاء أو أبى، فما للعبد ينازع أقدار الرب بأقداره في حظوظه وأسباب معاشه ومصالحه الدنيوية؛ ولا ينازع أقداره في حق مولاه وأوامره ودينه؟! وهل هذا إلا خروج عن العبودية ونقص في العلم بالله وصفاته وأحكامه.

ولو أن عدوًّا للإسلام قصده لكان هذا بقدَر الله، ويجب على كل مسلم دفع هذا القدَر بقدر يحبه الله وهو الجهاد باليد أو المال أو القلب دفعًا لقدر الله بقدره. فما للاستسلام والمسالمة هنا مدخل في العبودية، اللّهم إلا إذا بذل العبد جهده في المدافعة والمنازعة وخرج الأمر عن يده؛ فحينئذ يبقى من أهل الحكم الثالث:

وهو الحكم القدري الكوني الذي يجري على العبد بغير اختياره، ولا طاقة له بدفعه، ولا حيلة له في منازعته. فهذا حقُّه أن يُتلقى بالاستسلام والمسالمة وترك المخاصمة، وأن يكون فيه كالميت بين يدي الغاسل، وكمن انكسر به

المركب في لُجَّةِ البحر، وعجز عن السباحة وعن سبب يدنيه من النجاة؛ فههنا يحسن الاستسلام والمسالمة، مع أن عليه في هذا الحكم عبوديات أخر سوى التسليم والمسالمة، وهي أن يشهد عزّة الحاكم في حكمه، وعدله في قضائه، وحكمته في جريانه عليه، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وإن الكتاب الأول سبق بذلك قبل بدء الخليقة، فقد جفّ القلم بما يلقاه كل عبد، فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط، ويشهد أن القدر ما أصابه إلا لحكمة اقتضاها اسم الحكيم جل جلاله وصفته الحكمة، وأن القدر قد أصاب مواقعه وحلّ في المحل الذي ينبغي له أن ينزل به، وأن ذلك أوجبه عدلُ الله وحكمتُه وعزّتُه وعلمُه وملكُه العادل، فهو مُوجَبُ أسمائه الحسنى وصفاته العلى[١]، فله عليه أكملُ حمد وأتمُّه، كما له الحمد على جميع أفعاله وأوامره.

وإن كان حظ العبد من هذا القدر الذمّ؛ فحق الرب تعالى منه الحمد والمدح[٢]؛ لأنه مُوجَبُ كماله وأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وهو مُوجَبُ

---

(١) أي: أن كمال أسماء الله تعالى وصفاته يقتضي حدوث آثارها، ومن ذلك اسم الحكيم وصفته الحكمة، فمن آثار الحكمة تقدير ذلك الأمر المُعيّن على عبده، فهذا المقدور هو مُوجَبُ حكمة الله تعالى التي نزلت منزلتها اللائقة بها فيه.

(٢) بين المدح والحمد قدْرٌ مشترك، فيجمعها الثناء. وقد يكونان بمعنى واحد على الدوام، وأن الفرق مجرد تقديم حرف على حرف، ومن أمثال ذلك قولهم: صاعقة وصاقعة، وأطيب وأيطب ونحو ذلك. والله تعالى أهلٌ أن يُمدح ويُحمد، وعند مسلم (٦٠٧٤)
=

نقص العبد وجهله وظلمه وتفريطه، فاقتسم الرب والعبد الحظين في هذا القدر، وكان للرب سبحانه فيه الحمد والنعمة والفضل والثناء الحسن، والعبد حظه الذم واللوم والإساءة واستحقاق العقوبة.

استأثر اللهُ بالمحامد والفضلِ ووَلّى الملامةَ الرّجُلا

=

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ليس أحد أحبَّ إليه المدحُ من الله، من أجل ذلك مدح نفسه»**.

ولبعض أهل العلم رأي آخر في التفريق بينهما، فمن ذلك ما نقله الطيبي في حاشيته على الكشاف (١/٧١٧) قال: «المدح أعمّ من الحمد؛ لأن المدح يحصل للعاقل وغيره، والحمد لا يحصل إلا للفاعل المختار على ما يصدر منه من الإحسان والفضائل». وقال الراغب في المفردات (١٣١): «كل شكر حمد، وليس كل حمد شكرًا، وكل حمد مدح، وليس كل مدح حمدًا». أهـ. وعليه؛ فالحمد: أخصّ من المدح وأعمّ من الشّكر؛ فإنّ المدح يقال فيما يكون من الإنسان باختياره، وممّا يكون منه وفيه بغير اختياره كالتّسخير وأصل الخلقة. فقد يُمدح الإنسان بطول قامته وصباحة وجهه، كما يُمدح ببذل ماله وسخائه وعلمه، والمدح يكون في الثّاني دون الأوّل، والشّكر لا يقال إلّا في مقابلة نعمة: فكلّ شكر حمد وليس كلّ حمد شكرا، وكلّ حمد مدح وليس كلّ مدح حمدًا. وانظر: نضرة النعيم (٥/١٧٥٤). وزاد ابن القيم اشتراط محبة المُثنى عليه ليكون حمدًا فقال في بدائع الفوائد (٢/٩٣): «الفرق بين الحمد والمدح أن يُقال: الإخبار عن محاسن الغير إما أن يكون إخبارًا مجرّدًا من حبٍّ وإرادة أو مقرونًا بحبّه وإرادته، فإن كان الأول فهو المدح، وإن كان الثاني فهو الحمد، فالحمد إخبارٌ عن محاسن الممدوح مع حبِّه وإجلاله وتعظيمه». والله أعلم.

ويتبين هذا المقام في أربع آيات: إحداها: قوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النِّساء: ٧٩]، والثانية: قوله: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٦٥]، والثالثة: قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشُّورَى: ٣٠]، والرابعة: قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يُونس:٢١].

فمن نزّل هذه الآيات على هذا الحكم علمًا ومعرفة، وقام بموجبها إرادة وعزمًا وتوبة واستغفارًا؛ فقد أدى عبودية الله في هذا الحكم، وهذا قدْرٌ زائد على مجرد التسليم والمسالمة. والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[(١)]. وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنّ ورثة الرسل وخلفاءهم لكمال ميراثهم لنبيهم آمنوا بالقضاء والقدر والحِكَم والغايات المحمودة في أفعال الرب وأوامره، وقاموا مع ذلك بالأمر والنهي، وصدّقوا بالوعد والوعيد.

فآمنوا بالخلق الذي من تمام الإيمان به إثبات القدر والحكمة، وبالأمر الذي من تمام الإيمان به الإيمان بالوعد والوعيد وحشر الأجساد والثواب والعقاب. فصدّقوا بالخلق والأمر ولم ينفوهما بنفي لوازمهما، كما فعلت القدرية المجوسية والقدرية المعارضة للأمر بالقدر. وكانوا أسعد الناس وأقربهم

(١) طريق الهجرتين (١/٦٣ – ٧٠) مختصرًا.

عصبة في هذا الميراث النبوي، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

واعلم أن الإيمان بحقيقة القدر والشرع والحكمة لا يجتمع إلا في قلوب خواص الخلق ولُبِّ العالَم، وليس الشأن في الإيمان بألفاظ هذه المسمّيات وجحد حقائقها، كما يفعل كثير من طوائف الضلال.

والمقصود؛ أنه لم يؤمن بالقضاء والقدر والحكمة والأمر والنهي والوعد والوعيد حقيقة الإيمان إلا أتباع الرسل وورثتهم. والقضاء والقدر منشؤه عن علم الرب وقدرته، ولهذا قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القدَرُ قُدْرَةُ الله». واستحسن ابن عقيل هذا الكلام من أحمد غاية الاستحسان، وقال: «إنه شفى بهذه الكلمة، وأفصح بها عن حقيقة القدر».

فارتباط الخلق بقدرته التامة يقتضي ألا يخرج موجود عن قدرته، وارتباطه بعلمه التام يقتضي إحاطته به وتقدّمه عليه، وارتباطه بحكمته يقتضي وقوعه على أكمل الوجوه وأحسنها، واشتماله على الغاية المحمودة المطلوبة للرب سبحانه، وكذلك أمره بعلمه وحكمته وعزته، فهو عليم بخلقه وأمره، ولهذا كان الحكيم من أسمائه الحسنى، والحكمة من صفاته العُلى.

والشريعة الصادرة عن أمره مبناها على الحكمة، والرسول المبعوث بها مبعوث بالكتاب والحكمة. والحكمة: هي سنة الرسول ﷺ، وهي تتضمّن العلم بالحق والعمل به والخبر عنه والأمر به، فكل هذا يسمى حكمة. وفي

الأثر: «الحكمة ضالَّةُ المؤمن»[١]. وفي الحديث: **«إن من الشعر حكمة»**[٢]. فكما لا يخرج مقدور عن علمه وقدرته ومشيئته؛ فهكذا لا يخرج عن حكمته وحمده، وهو محمود على جميع ما في الكون من خير وشرٍّ حمدًا استحقه لذاته، وصدر عنه خلقه وأمره، فمصدر ذلك كله عن الحكمة، فإنكار الحكمة إنكار لحمده في الحقيقة. والله أعلم»[٣]. «فإن قيل: فكيف تصنعون بما يُشاهَدُ من أنواع الابتلاء والامتحان والآلام للأطفال والحيوانات، ومَن هو خارج عن التكليف، ومَن لا ثواب ولا عقاب عليه؟ وما تقولون في الأسماء الدالة على ذلك من المنتقم والقابض والخافض ونحوها؟

قيل: قد علمت أن جميع أسماء الرب سبحانه حسنى، وصفاته كمال، وأفعاله حكمة ومصلحة، وله كل ثناء وكل حمد ومِدحة. وكل خير فمنه وله وبيده، والشرّ ليس إليه بوجه من الوجوه لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ولا في أسمائه، وإن كان في مفعولاته فهو خير بإضافته إليه، وشرّ بإضافته إلى من صدر عنه ووقع به. فتمسّك بهذا الأصل ولا تفارقه في كل دقيق وجليل، وحكّمْهُ على كل ما يَرِد عليك، وحاكم إليه، واجعله آخيتك[٤] التي ترجع إليها، وتعتمد عليها.

---

(١) روي مرفوعًا ولا يصح. فهو عند الترمذي (٥ / ٥١) (٢٦٨٧) وضعفه الألباني.

(٢) البخاري (٨ / ٣٤) (٦١٤٥).

(٣) طريق الهجرتين (١ / ٨٨- ٩٣) مختصرًا.

(٤) الآخية، واحدة الأواخي: عمود ينصب وتربط فيه الدابة، فمهما اتَّجَهتْ فعَوْدُها إليه ودورانها عليه. وهو أيضًا عود يعرض في الحائط ويدفن طرفاه فيه ويصير وسطه =

واعلم أن لله خصائص في خلقه ورحمة وفضلًا يختص به من يشاء، وذلك مُوجَبُ ربوبيته وإلهيته وحمده وحكمته، فإياك ثم إياك أن تصغي إلى وسوسة شياطين الإنس والجن والنفس الجاهلة الظالمة: إنّه هلّا سوى بين عباده في تلك الخصائص، وقسمها بينهم على السواء؟ فإنّ هذا عين الجهل والسفه من المعترض به، وقد بيّنا فيما تقدم أن حكمته تأبى ذلك وتمنع منه. ولكن اعلم أن الأمر قسمةٌ بين فضله وعدله، فيختص برحمته من يشاء، ويقصد بعذابه من يشاء، وهو المحمود على هذا.

فالطيبون من خلقه مخصوصون بفضله ورحمته، والخبيثون مقصودون بعذابه، ولكل واحد قسطه من الحكمة والابتلاء والامتحان، وكلٌّ مستَعملٌ فيما هو له مُهيّأٌ وله مخلوق، وكل ذلك خير ونفع ورحمة للمؤمنين، فإنه تعالى خلقهم للخيرات فهم لها عاملون، واستعملهم فيها فلم يدركوا ذلك إلا به، ولا استحقوه إلا بما سبق لهم من مشيئته وقسمته؛ فكذلك لا تضرهم الأدواء ولا السموم، بل متى وسوس لهم العدو واغتالهم بشيء من كيده أو مسهم بشيء من طيفه تذكّروا فإذا هم مبصرون، وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون.

=

كالعروة تشد إليه الدابة. انظر: لسان العرب (٣٢/١) وتاج العروس (١٠/١٠) ولشيخ الإسلام عبارة مشهورة في ذلك وهي قوله: «التورّق آخيّة الربا». وهي من المسائل التي خالفه فيها تلميذه ابن القيم عليهما رحمة الله تعالى.

وإذا وقعوا في معصية صغيرة أو كبيرة عاد ذلك عليهم رحمةً[(١)]، وانقلب في حقهم دواء، وبُدِّل حَسنةً بالتوبة النصوح والحسنات الماحية، لأنه سبحانه عرّفهم بنفسه وبفضله، وبأن قلوبهم بيده، وعصمتهم إليه، حيث نقض عزماتهم وقد عزموا ألّا يعصوه، وأراهم عزّته في قضائه، وبرّه وإحسانه في عفوه ومغفرته، وأشهدهم نفوسهم وما فيها من النقص والظلم والجهل، وأشهدهم حاجتهم إليه وافتقارهم وذلهم، وأنه إن لم يعف عنهم ويغفر لهم فليس لهم سبيل إلى النجاة أبدًا، فإنهم لمّا أَعطوا من أنفسهم العزم ألّا يعصوه، وعقدوا عليه قلوبهم، ثم عصوه بمشيئته وقدرته؛ عرفوا بذلك عظيم اقتداره، وجميل ستره إياهم، وكريم حلمه عنهم، وسعة مغفرته لهم، وبَرْد عفوه وحنانه وعطفه ورأفته، وأنه حليم ذو أناة، ورحيم سبقت رحمتُه غضبَه، وأنهم متى رجعوا إليه بالتوبة وجدوه غفورًا رحيمًا حليمًا كريمًا، يغفر لهم السيئات، ويقيلهم العثرات، ويودّهم بعد التوبة ويحبهم. فتضرّعوا إليه حينئذ بالدعاء، وتوسّلوا إليه بحسن إجابته وجميل عطفه وحسن امتنانه في أن ألهمهم دعاءه، ويسّرهم للتوبة والإنابة، وأقبلوا بقلوبهم إليه بعد إعراضها عنه، ولم تمنعه

---

(١) وهذا الكلام التالي للإمام ابن القيم معدود من أنفس ما سطّره أهل العلم بإطلاق، وحقيق أن يَسجُدَ لله شكرًا من وفّقه الله للوقوف عليه وفهمه وصبّ سلسبيله على نياط قلبه القريح من خوف العاقبة، ففيه من مفاتيح أبواب الرجاء للتائبين ما لا يُحاط به، فرحمة الله وسلامه ورضوانه على ابن القيم ووالديه وأحبابه وشيوخه والمسلمين جزاءَ ما قام لله تعالى بتلك المقامات العلمية السنية الشريفة.

معاصيهم وجناياتهم من عطفه عليهم وبرّه لهم وإحسانه إليهم، فتاب عليهم قبل أن يتوبوا إليه، وأعطاهم قبل أن يسألوه.

فلما تابوا إليه واستغفروه وأنابوا إليه؛ تعرّف إليهم تعرّفا آخر فعرّفهم رحمته وحسن عائدته وسعة مغفرته وكريم عفوه وجميل صفحه وبرّه وامتنانه وكرمه وشرعه، ومبادرته قبولهم بعد أن كان منهم ما كان من طول الشرور وشدة النفور والإيضاع(١) في طرق معاصيه، وأشهدهم مع ذلك حمده العظيم وبره العميم وكرمه في أن خلّى بينهم وبين المعصية فنالوها بنِعَمِه(٢) وإعانته، ثم لم يُخَلِّ بينهم وبين ما توجبه من الهلاك والفساد الذي لا يرجى معه فلاح، بل تداركهم بالدواء الثاني الشافي، فاستخرج منهم داءً لو استمر معهم لأفضى إلى الهلاك.

ثم تداركهم برَوْح الرجاء فقذفه في قلوبهم، وأخبر أنه عند ظنونهم به، ولو أشهدهم عظم الجناية وقبح المعصية وغضبه ومقته على من عصاه فقط؛ لأورثهم ذلك المرض القاتل والداء العضال من اليأس من رَوْحه والقنوط من رحمته، وكان ذلك عين هلاكهم، ولكن رحمهم قبل البلاء، وجعل تلك الآثار التي تُوجِبُها المعصية من المحن والبلاء والشدائد رحمةً لهم وسببًا إلى علوّ درجاتهم ونيل الزلفى والكرامة عنده.

---

(١) الإيضاع: الإسراع.

(٢) فالجوارح من نِعَمِه، وكذلك القدرة، والإرادة، وهجوم الخواطر الصالحة والمحابّ المُستحسنة، وتهيئة الأسباب، وردّ الموانع ونحو ذلك، فهي بحدّ ذاتها نِعَم، ولكن العبد الجاهل يعصي ربَّه بنِعم ربه! فما أوسع حلم الله، وما أرحمه وأبرّه وألطفه وأجمله!

فأشهدهم بالجناية عزّة الربوبية وذلّ العبودية، ورقّاهم بآثارها إلى منازل قُربه ونيل كرامته، فهم على كل حال يربحون عليه، ويتقلّبون في كرمه وإحسانه. وكل قضاء يقضيه للمؤمن فهو خير، به يسوقه إلى كرامته وثوابه، وكذلك عطاياه الدنيوية نِعَمٌ منه عليهم، فإذا استرجعها أيضًا وسلبهم إياها انقلبت من عطايا الآخرة، كما قيل: «إن الله ينعم على عباده بالعطايا الفاخرة، فإذا استرجعها كانت عطايا الآخرة».

والرب سبحانه قد تجلّى لقلوب المؤمنين العارفين، وظهر لها بقدرته وجلاله وكبريائه ومضيِّ مشيئته وعظيم سلطانه وعلوِّ شأنه وكرمه وبرّه وإحسانه وسعة مغفرته ورحمته، وما ألقاه في قلوبهم من الإيمان بأسمائه وصفاته إلى حيث احتملته القوى البشرية، ووراءه مما لم تحتمله قواهم ولا يخطر ببال ولا يدخل في خَلَدٍ[1] مما لا نسبةَ لما عرفوه إليه!

فاعلم أن الذين كان قِسمُهم أنواع المعاصي والفجور وفنون الكفر والشرك والتقلّب في غضبه وسخطه، وقلوبهم وأرواحهم شاهدة عليهم بالمعاصي والكفر، مقرّة بأن له الحجة عليهم، وأنّ حقّه قبلهم، ولا يذكر أحد منهم النار إلا وهو شاهد بذلك مقرّ به معترف اعتراف طائع لا مكره مضطهد، فهذه شهادتهم على أنفسهم وشهادة أوليائه عليهم، والمؤمنون يشهدون فيهم بشهادة أخرى لا يشهد بها أعداؤه، ولو شهدوا بها وباؤوا بها

---

(١) خَلَد مفرد، ومعناه: البال والنفس والقلب. وجمعه أخلاد. أما الخُلْد فهو طول الإقامة. وانظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، لأحمد مختار عمر (١/ ٦٧٦)

لكانت رحمته أقرب إليهم من عقوبته، فيشهدون أنهم عبيده وملكه، وأنه أوجدهم ليُظهر بهم مجده، ويُنفذ فيهم حكمه، ويُمضي فيهم عدله، ويُحقّ عليهم كلمته، ويُصدِقُ فيهم وعيده، ويُبيّن فيهم سابق علمه، ويُعمر بهم ديارهم ومساكنهم التي هي محل عدله وحكمته.

وشهد أولياؤه عظيم ملكه، وعزّ سلطانه، وصدق رسله، وكمال حكمته، وتمام نعمته عليهم، وقدْرَ ما اختصهم به، ومن أيّ شيء حماهم وصانهم، وأيّ شيء صرف عنهم، وأنه لم يكن لهم إليه وسيلة قبل وجودهم يتوسلون بها إليه ألّا يجعلهم من أصحاب الشمال وأن يجعلهم من أصحاب اليمين، وشهدوا له سبحانه بأنّ ما كان منه إليهم وفيهم مما يقتضيه إتمام كلماته من الصدق والعدل والقول وتحقّقِ مقتضى أسمائه فهو محض حقّه، وكلُّ ذلك منه حسن جميل، له عليه أتمّ حمد وأكمله وأفضله، وهو حُكْمٌ عدل وقضاءٌ فصل، وأنه المحمود على ذلك كله، فلا يلحقه منه ظلم ولا جور ولا عبث، بل ذلك عين الحكمة ومحض الحمد، وكمالٌ أظهره في حقّه، وعزٌّ أبداه، ومُلك أعلنه، ومراد له أنفذه، كما فعل بالبُدْنِ وضروب الأنعام أتمّ بها مناسك أوليائه وقرابين عباده، وإن كان ذلك بالنسبة إلى الأنعام هلاكًا وإتلافًا، فأعداؤه الكفار المشركون به الجاحدون أولى أن تكون دماؤهم قرابين أوليائه وضحايا المجاهدين في سبيله[1]، كما قال حسان بن ثابت:

---

(١) كما قيل:

لـئن قَـرَّبَ العُبّـادُ لله أنعُـمًا ... وضَـحَّوا لمـولاهم بعـيرًا فـما ليَـا

=

يتطهّـــرون يرونـــه قربـــانُهم[(١)] بـدماء مــن علقــوا مــن الكفــارِ

وكذلك لما ضحى خالد بن عبد الله القَسْرِي[(٢)] بشيخ المُعطّلة الفرعونية جعد بن درهم، فإنه خطبهم في يوم أضحى، فلما أكمل خطبته قال: «أيها الناس، ضحوا تقبل الله ضحاياكم فإني مضح بالجعد بن درهم[(٣)]، إنه زعم أن

=

فيــا ربِّ فاقبلهــا قــرابينَ راحتــي فئامًــا مــن الكفــارَ أضــحتْ بواليًــا

(١) وفي رواية مشهورة: يتطهّرون كأنه نُسُكٌ لهم.

(٢) الأمير خالد بن عبد الله القسري، والي الكوفة، ونائب الخليفة هشام بن عبد الملك فيها. وكان يُلقّب: قصّاب الزنادقة. والزندقة: هي النفاق. وما أكثر زنادقة اليوم المحتاجة رقابهم لقَصْب، نسأل الله تعالى أن يعزّ دينه وأن يُعلي كلمته وأن ينصر عباده المؤمنين، وأن يبرم لهذه الأمة أمرًا رشدًا.

(٣) الجعد بن درهم، قال ابن كثير في البداية والنهاية (١٣/ ١٤٨): «هو أول من قال بخلق القرآن، سكن دمشق، وكان من أهل خرسان من ترمذ، وكان صاحب خصومات. ضال مبتدع.. وكان يتردّد على وهب بن منبه رَحِمَهُ اللَّهُ.. وكان يكثر المسائل في الصفات، فنهاه وهب وقال له: «ويلك يا جعد أقصر المسألة، إنِّي لأضنك من الهالكين. لو لم يخبرنا الله في كتابه أن له يدًا ما قلنا ذلك، وأن له عينًا ما قلنا ذلك».. تطلّبه بنو أميّة، فهرب منهم فسكن الكوفة، فلقيه الجهم بن صفون، فتقلّد هذا القول. ـ قلت يعني القول بخلق القرآن ـ ثمَّ قتله خالد بن عبد الله القسري يوم عيد الأضحى، بالكوفة، وذلك أن خالدًا خطب الناس فقال في خطبته تلك: «أيها الناس، ضحّوا تقبَّل الله ضحاياكم فإنِّي مضحٍّ بالجعد بن درهم؛ إنه زعم أن الله لم يتّخذ إبراهيم خليلًا، ولم يكِّلم موسى تكليمًا، تعالى الله عمّا يقول الجعد علوًّا كبيرًا». ثمَّ نزل فذبحه في أصل المنبر بيده.

=

الله لم يكلّم موسى تكليمًا، ولم يتخذ إبراهيم خليلًا، تعالى عما يقول الجعد علوًّا كبيرًا». ثم نزل فذبحه، فكان ضَحِيّته.

وذكر ذلك البخاري في كتاب «خلق الأفعال». فهذا شهود أوليائه من شأن أعدائه، ولكن أعداءه في غفلة عن هذا لا يشهدونه ولا يُقرّون به. ولو شهدوه وأقرّوا به لأدركهم حنانه ورحمته، ولكن لما حُجبوا عن معرفته ومحبته وتوحيده وإثبات أسمائه الحسنى وصفاته العليا ووصفه بما يليق به وتنزيهه عما لا يليق به؛ صاروا أسوأ حالًا من الأنعام، وضُربوا بالحجاب، وأبعدوا عنه بأقصى البعد، وأخرجوا من نوره إلى الظلمات، وغُيّبت قلوبهم في الجهل به

=

أثابه الله تعالى، وذلك في أيام هشام بن عبد الملك، وقد كان هشام طلبه بدمشق حين أظهر ما أظهر، ثم إنه هرب بعد ذلك، فكتب إلى نائبه خالد بن عبد الله القسري أن يقتله فقتله». أهـ. وقد شكره ابن القيم في نونيته بقوله:

شَكَرَ الضَّحيَّةَ كلُّ صاحبِ سنّةٍ　　　لله درّك من أخي قربانِ

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الصواعق المرسلة (٣/ ١٠٧١): «إنّما نفق أمره عند الناس بعض الشيء لأنه كان مُعلّم مروان بن محمد وشيخه، ولهذا كان يسمى مروان الجعدي». أهـ. ومروان بن محمد هذا آخر خلفاء بني أمية، ويلقّب بمروان الحمار لقوّة جَلَده وصبره في حروبه. وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «إن الله لَيَزَعُ بالسلطان ما لا يزع بالقرآن».

وما هو إلا الوحيُ أو حدُّ مُرهفٍ　　　تُزيلُ ضُباهُ أخدَعي كلَّ مائلِ

فهذا شفاءٌ للقلوبِ من العَمَى　　　وهذا شفاءُ العِيِّ من كلِّ جاهلِ

وبكماله وجلاله وعظمته في غيابات، ليتمّ عليهم أمره، وينفذ فيهم حكمه، والله عليم حكيم»[(١)].

ومن لطف الله تعال بعباده أنه يزعجهم عن رغبة القرار في الدنيا ليرغبوا إلى الآخرة ويعملون لها عملها، فجعل الدنيا مستمتعَ مسافر، وزادَ راكب، وميدان امتحان، وتكليفَ تشريف، فلم يكتب لها الخلد ولم يجعل لها السلامة من الآفات، فحلالها منغّص فكيف بحرامها، فإن غفل وليّه بحلالها وقسى قلبه بالانغماس فيها لسعَ الحكيمُ قلبَه بحرمان أو آفة أو مرض أو خوف أو مصيبة تقرع قلبه الغافل لينتبه من غفلته لعقله، ويَثِبَ من سقطته لصَهْوَةِ عزمه، ويقوم من رقدته لفلاح آخرته، فيسعى للدرجات العلى من الجنة والرضوان المقيم. هذا في شأن المنغمس في المباح، أما العاصي فيُزعجُ قلبه بسوط أشدّ، فيفسد عليه ما عصى به ربَّه، لعلّه يفهم الرسالة، ويتدارك الفوات، ويلحق بركب التوابين، فإن لم يفعل فسد قلبه وعلاه الرّان، ولا إله إلا الله، والله المستعان. وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ قاعدة مطردة في ذلك فقال: «وهذه القاعدة مطّردة في كل شيء عُصي الربُّ به، فإنه يُفسده على صاحبه، فمن عصاه بماله أفسده عليه، ومن عصاه بجاهه أفسده عليه، ومن عصاه بلسانه أو قلبه أو عضو من أعضائه أفسده عليه وإن لم يشعر بفساده.

فأيّ فساد أعظم من فساد قلب خرب من محبة الله وخوفه ورجائه والتوكل عليه والإنابة إليه والطمأنينة بذكره والأنس به والفرح بالإقبال عليه،

---

(١) طريق الهجرتين (١/ ١٣٥- ١٤٠) باختصار.

وهل هذا القلب إلا قلبٌ قد استحكم فساده والمصاب لا يشعر، وأيّ فساد أعظم من فساد لسان تعطّل عن ذكره وما جاء به وتلاوة كلامه ونصيحة عباده وإرشادهم ودعوتهم إلى الله، وأيّ فساد أعظم من فساد جوارح عطّلت عن عبودية فاطرها وخالقها وخدمته والمبادرة إلى مرضاته. وبالجملة؛ فما عُصيَ اللهُ بشيء إلا أفسده على صاحبه.

ومن أعظم معصية العقل إعراضه عن كتابه ووحيه الذي هدى به رسوله وأتباعه والمعارضة بينه وبين كلام غيره، فأيّ فساد أعظم من فساد هذا العقل؟! وقد أرى الله سبحانه أتباع رسوله من فساد عقل هؤلاء ما هو من أقوى أسباب زيادة إيمانهم بالرسول وبما جاء به، وموجِبًا لشدة تمسّكهم به»[1].

والمؤمن يعلم أنّ لعقله مدًى ينتهي إليه فلا يزيغ بعُجب، ولا يطغى بكبر. وقد أحسن المعلمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في توصيفه عجز العقل، وأن له حافّة ينتهي إليها مهما بلغت حدّته ونبوغه: «وليعلم العاقل أن عقله قوّةٌ من قواه المخلوقة له، كالسمع والبصر والشمِّ والذوق وغيرها. فكما أن كلَّ قوَّةٍ من هذه لها حدٌّ لا تتجاوزه، فكذلك العقل. وكما أن للحواسِّ أغلاطًا معروفةً كرؤية الواحد اثنين والصغير كبيرًا وعكسه، وتَوَهُّمِ بعض الناس أنه يسمع كلامًا في حال أن الذين بجنبه لا يسمعون شيئًا، واستطابة الروائح الكريهة في بعض الأمراض، وطعم الماء العذب مرًّا في بعضها وطعمه كأنما مُزِجَ بالسكر بعد تناول بعض الأدوية المُرَّة؛ فكذلك للعقل أغلاطٌ أدقُّ وأخفى. وقد روي عن الإمام

---

(١) الصواعق المرسلة (١/٥٢٥)

الشافعيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: إنّ للعقل حدًّا ينتهي إليه كما أن للبصر حدًّا ينتهي إليه»(١) (٢).

---

(١) توالي التأسيس في معالي ابن إدريس ص: (٧٢) وانظر: مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ١٨٧)

(٢) آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيي المعلمي اليماني (٢/٣٠٧) وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رسالة في حقيقة التأويل (١/٧٤-٧٦): «وقد جرّبنا أنّ من كلّف بصره إدراك ما لا يستطيع إدراكه يُخيّل إليه أنه يدرك ذلك، فكم مرة تراءى الناس الهلال فتراءيتُه معهم، فإذا حدّقت وأمعنت في النظر يخيّل إلي أني قد رأيته، ولكنها خطفة لا تثبت، ثم أيأس من ذلك الموضع، فأنظر إلى موضع آخر، فيخيل إلي مثل ذلك؛ فعلمت أن تلك الخطفة هي صورة خيالية لِما أتخيله تبرز إلى العيان؛ لقوة التخيل وكدّ البصر.

فكثيرًا ما يعرض للعقل مثل هذا إذا كُلّف إدراك ما لا يُدرك، والفرق أنّ خطأ البصر ينتبه له العقل، ولا يكاد ينتبه لخطأ نفسه.

لو بغيرِ الماءِ حلقي شَرِق ... كنت كالغَصَّان بالماء اعتصاري

وكثيرًا ما يدرك العقل خطأ ما تصوره، ولكنه لا ييأس، فلا يزال في أخذٍ وردٍّ إلى أن يكلّ ويملّ؛ يسمع بذهاب تعبه سدى فيقنع بالشبهة التي وقف عندها، ومثله مثل مسافر يأبى أن ينزل ليستريح إلا في موضع حسن جميل، وليس أمامه موضع كذلك، فلا يزال كلما أتى على موضع لم يره على الشرط حتى يعقله التعب والإعياء؛ فينزل ويسلّي نفسه ويغالطها، يزعم أن ذلك الموضع حسن وجميل.

وأنت إذا كنت قد وقفت على بعض الكتب المطولة في الفلسفة وتدبرتها تحققت هذا المعنى، ولا تكاد تجد شبهة عقلية قد قررها أحدهم على أنها برهان قاطع إلا وجدت غيره قد نقضها، ثم يجيء ثالث فيدفع هذا النقض، فيجيء رابع فيرد ذلك الدفع، وهكذا.

=

وقد كان الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «العقل مع نصف العلم، خير من نصف العقل مع العلم». وهذا فقه عظيم من هذا الإمام، لأن آلة الإدراك هي العقل، فقليل العلم ينتفع به العقل لأنه يُحسن الاغتذاء به، لمعرفته حدود العلم والفهم، ومهارته في استخراج كنوز المعارف من جواهر العلوم، واقتباس أنوار الهدى من مشكاة العلم الصحيح، فهو يميّز ويقارن ويقيس ويمزج ويحلّل، فيأخذ زبدة العلم بصفائه وحِدّته. ولكن إنْ ضعُفَ العقل فقد تكون علومه ضارّة، لأنه سيضعها في غير محلّها، ويفهمها على غير وجهها، فينقلب العلم جهلًا، وخير له لو لم يعلم، فإذا انضاف لذلك عُجب وكبر فهي الفاقرة! والله الحافظ العاصم الموفِّق.

ويشهد لذلك ما ذكره أبو حيّان التوحيدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١) قال: «قال أبو العباس: الناس في العلم على ثلاث درجات، فواحد يُلهَمُ فيُعلّم فيصير مبدأ، والآخر يتعلّم ولا يُلهَم فهو يؤدّي ما قد حفظ، والآخر يُجمع له بين أن يُلهم وأن يتعلم. فيكون بقليل ما يتعلّم مُكثرًا بقوّة ما يُلهم.. وقال سولون (٢):

=

حجـجٌ تهافـتْ كالزجـاج تخالهـا حقًّـا وكـلُّ كـاسرٌ مكسـورُ».

(١) الإمتاع والمؤانسة، للتوحيدي (١/١٨٦)

(٢) سولون أو صولون Solon (٥٦٠ - ٦٤٠ ق.م. تقريبًا)، مفكّر وسياسي ومشرّع وشاعر ورجل قانون يوناني، له حِكَمٌ ذائعة. قام بسنّ مجموعة من القوانين الإصلاحية التي تعارضت مع نظام الدولة المتّبع آنذاك. وقد عُرف سولون بلقب مؤسس الديمقراطية. وقد انتُخب رئيسًا للقضاة في أثينا، ثم حاكمًا على أثينا. وقد قام بعد تولّيه

=

العلم صغير في الكمّيّة، كبير في الكيفيّة. قال أبو سليمان: يعني أن القليل منه إذا استعملته على وجهه كان له إتاءٌ ونفعٌ فائض، ودرّ سائح، وغاية محمودة، وأثرٌ باق. وهذه كلّها كيفيّات من تلك الكمّيّة».

ولشيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ وصية نافعة في التعامل مع الشبهات فقال: «لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السِّفِنْجة فيتشرّبها، فلا ينضح إلا بها، ولكن اجعله كالزجاجة المُصمتة، تمرّ الشبهات بظاهرها ولا تستقرّ فيها، فيراها بصفائه، ويدفعها بصلابته. وإلا فإذا أشربت قلبك كل شبهة تمرّ عليك؛ صار مقرًّا للشبهات» وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ معلّقًا على ذلك: «فما أعلم أني انتفعت بوصية في دفع الشبهات كانتفاعي بذلك»[(١)].

وقال الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبيّنًا أن الرضا بالله تعالى إنما هو الرضا بمحابّه سبحانه دون مكروهاته، وأنه لا يجوز الرضا بالمعاصي، وأن الدعاء وإنكار المنكرات غير مناقض للرضا: «اعلم أن الرضا ثمرة من ثمار المحبة، وهو من أعلى مقامات المقرّبين، وحقيقته غامضة على الأكثرين، وما يدخل عليه من التشابه والإبهام غير منكشف إلا لمن علّمه الله تعالى التأويل وفهّمه وفقهه في الدين، فقد أنكر منكرون تصوّر الرضا بما يخالف الهوى، ثم قالوا: إن أمكن الرضا بكل شيء لأنه فِعْلُ الله فينبغي أن يرضى بالكفر والمعاصي! وانخدع

=
الحكم بوضع أحكام عرفت باسم «قانون صولون»، وكان الهدف منها أن تكون دستورًا يحكم به البلاد.

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٤٤٣)

بذلك قوم فرأوا الرضا بالفجور والفسوق وترك الاعتراض والإنكار من باب التسليم لقضاء الله تعالى.

واعلم أن من قال: ليس فيما يخالف الهوى وأنواع البلاء إلا الصبر، فأما الرضا فلا يتصور؟ فإنما أُتي من ناحية إنكار المحبة. فأما إذا ثبت تصور الحب لله تعالى واستغراق الهمّ به؛ فلا يخفى أن الحب يورث الرضا بأفعال الحبيب، ويكون ذلك من وجهين:

أحدهما: أن يبطل الإحساس بالألم حتى يجري عليه المؤلم ولا يحس، وتصيبه جراحة ولا يدرك ألمها، ومثاله: الرجل المحارب فإنه حال غضبه أو في حال خوفه قد تصيبه جراحة وهو لا يحس بألم ذلك لشغل قلبه. بل الذي يَحجِمُ رأسه بحديدة كآلة يتألم به، فإن كان مشغول القلب بمهمٍّ من مهماته فرغ الحجام وهو لا يشعر به. وكل ذلك لأن القلب إذا صار مستغرقًا بأمر من الأمور لم يدرك ما عداه، فكذلك العاشق المستغرق الهمّ بمشاهدة معشوقه أو بحبّه قد يصيبه ما كان يتألم به أو يغتم له لولا عشقه، ثم لا يدرك غمّه وألمه لفرط استيلاء الحب على قلبه. هذا إذا أصابه من غير حبيبه، فكيف إذا أصابه من حبيبه؟!

وشُغْلُ القلب بالحب من أعظم الشواغل، وإذا تصور هذا في ألم يسير بسبب حب خفيف؛ تُصوِّرَ في الألم العظيم بالحب العظيم، فإن الحب أيضًا يُتصوَّرُ تضاعفه في القوة كما يتصوّر تضاعف الألم، وكما يقوى حبّ الصور الجميلة المدركة بحاسّة البصر فكذا يقوى حبّ الصور الجميلة الباطنة المدركة بنور البصيرة.

وجمال حضرة الربوبية وجلالها لا يقاس به جمال ولا جلال، فمن ينكشف له شيء منه؛ فقد يبهره بحيث يدهش فلا يحس بما يجري عليه. وكان سهل رَحِمَهُ ٱللَّهُ به عِلَّةٌ يعالج غيره منها ولا يعالج نفسه، فقيل له في ذلك فقال: يا دوست[١]، ضَرْبُ الحبيب لا يُوجع.

وأما الوجه الثاني: فهو أن يحسّ به ويدرك ألمه، ولكن يكون راضيًا به، بل راغبًا فيه، مريدًا له ـ أعني بعقله ـ وإن كان كارهًا بطبعه، كالذي يلتمس من الفصاد الفصد والحجامة، فإنه يدرك ألم ذلك إلا أنه راض به، وراغب فيه، ومتقلّد من الفَصَّاد به مِنَّةً بفعله، فهذا حال الراضي بما يجري عليه من الألم. وكذلك المسافر في طلب الربح؛ يدرك مشقّة السفر، ولكن حبه لثمرة سفره طَيَّبَ عنده مشقة السفر، وجعله راضيًا بها. ومهما أصابته بليّة من الله تعالى وكان له يقين بأن ثوابه الذي ادخر له فوق ما فاته؛ رضي به ورغب فيه وأحبه وشكر الله عليه[٢]. هذا إن كان يلاحظ الثواب والإحسان الذي يجازى به عليه، ويجوز أن يغلب الحب بحيث يكون حظ المحب في مراد محبوبه ورضاه لا لمعنى آخر وراءه، فيكون مراد حبيبه ورضاه محبوبًا عنده ومطلوبًا.

وكل ذلك موجود في المشاهدات في حب الخلق، وقد تَواصَفَها المُتواصفون في نظمهم ونثرهم، ولا معنى له إلا ملاحظة جمال الصورة

---

(١) الدوست: الحبيب، بلسان فارس.

(٢) شُكْرُ الله تعالى وحمدُه على المصائب غايةُ المقرّبين السابقين، وهي مرتبة فوق الصبر والرضا، ولا تُنال إلا بعدهما.

الظاهرة بالبصر، فإن نظر إلى الجمال فما هو إلا جلد ولحم ودم مشحون بالأقذار والأخباث، بدايته من نطفة مذرة، ونهايته جيفة قذرة، وهو فيما بين ذلك يحمل العذرة، وإن نظر إلى المُدرِكِ للجمال فهي العين الخسيسة التي تغلط فيما ترى كثيرًا، فترى الصغير كبيرًا والكبير صغيرًا، والبعيد قريبًا والقبيح جميلًا! فإذا تصور استيلاء هذا الحب؛ فمن أين يستحيل ذلك في حب الجمال الأزلي الأبدي الذي لا منتهى لكماله، المدرَكِ بعين البصيرة التي لا يعتريها الغلط[1]، ولا يدور بها الموت، بل تبقى بعد الموت؟ حيّة عند الله، فرحة برزق الله تعالى، مستفيدة بالموت.

فهذا أمر واضح من حيث النظر بعين الاعتبار، ويشهد لذلك الوجود وحكايات أحوال المحبين وأقوالهم.

وقال يحيى بن معاذ الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا نظر أهل الجنة إلى الله تعالى ذهبت عيونهم في قلوبهم من لذة النظر إلى الله تعالى لا ترجع إليهم، فما ظنك بقلوب وقعت بين جماله وجلاله؟ إذا لاحظت جلاله هابت، وإذا لاحظت جماله تاهت»!

وقال مسروق: كان رجل بالبادية له كلب وحمار وديك، فالديك يوقظهم للصلاة، والحمار ينقلون عليه الماء ويحمل لهم خباءهم، والكلب يحرسهم، قال: فجاء الثعلب فأخذ الديك، فحزنوا له وكان الرجل صالحًا فقال: عسى

(١) لأنها بصيرة العلم المعتصمة بالوحي الذي لا يأتيه الباطل من بين ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

أن يكون خيرًا، ثم جاء ذئب فخرق بطن الحمار فقتله، فحزنوا عليه فقال الرجل: عسى أن يكون خيرًا، ثم أصيب الكلب بعد ذلك فقال: عسى أن يكون خيرًا، ثم أصبحوا ذات يوم فنظروا فإذا قد سُبي من حولهم وبقوا هم. قال: وإنما أُخِذَ أولئك لِمَا كان عندهم من أصوات الكلاب والحمير والديكة، فكانت الخيرة لهؤلاء في هلاك هذه الحيوانات كما قدّره الله تعالى[١]. فإذن من عرف خفيّ لطف الله تعالى رضي بفعله على كل حال.

وقطع عروة بن الزبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ رجله من ركبته، من آكلةٍ خرجت بها، ثم قال: «الحمد لله الذي أخذ مني واحدة. وايْمُكَ[٢] لئن كنتَ أخذتَ لقد أبقيت، ولئن كنتَ ابتليتَ فقد عافيت»، ثم لم يدع وِرْدَهُ تلك الليلة.

---

(١) ويشبه هذا ما حكي لنا من أن نفرًا مسافرين، وكان بصحبتهم رجل صالح لا يترك قول: «لعل في الأمر خيرًا»، كلما نابه أمر فيه كراهة له أو لهم. ثم إنهم اتّفقوا على أن يُخفوا راحلته في شعب من الشعاب لمّا كانوا يستريحون من عناء الطريق. فلما فعلوا أتاه بعضهم ليوهمه بفقدها لوحدها عن سائر رواحل أصحابه؛ فقال بثقة المؤمن بربه: «لعل في الأمر خيرًا من الله». فكان كما قال؛ إذ هجم عليهم قوم فاجتاحوا رواحلهم، ولم يتركوا لهم سوى بعض زاد يحملونه فوق ظهورهم، فعرّفوا صاحبهم بفعلهم وأنه كان اختبارًا منهم له، فعاد تأديبًا من الله لهم وإظهارًا لكرامة من توكّل عليه ووثق به، وهالتهم خيرة الله لصاحبهم، فحملوا متاعهم على راحلة ذلك الواثق بربه، والله المستعان.

(٢) أي: قَسَمًا بك يا الله.

وكان ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يقول: «الفقر والغنى مطيّتان ما أبالي أيتهما ركبت، إن كان الفقر فإنّ فيه الصبر، وإن كان الغنى فإنّ فيه البذل».

وقد كان عمران بن الحصين رضي الله عنهما قد استسقى بطنه، فبقي ملقًى على ظهره ثلاثين سنة، لا يقوم ولا يقعد ـ قد نُقب له في سرير من جريد كان عليه موضع لقضاء حاجته ـ فدخل عليه مطرّف وأخوه العلاء فجعل يبكي لما يراه من حاله، فقال: لماذا تبكي؟ قال: لأني أراك على هذه الحالة العظيمة! قال: «لا تبك فإن أحبَّه إلى الله تعالى أحبُّه إلي».

ولما قدم سعد بن أبي وقاص إلى مكة ـ وقد كان كُفَّ بصرُه ـ جاءه الناس يُهرعون إليه، كل واحد يسأله أن يدعو له، فيدعوا لهذا ولهذا ـ وكان مجاب الدعوة ـ قال عبد الله بن السائب: فأتيته وأنا غلام فتعرّفتُ عليه فعرفني وقال: أنت قارئ أهل مكة؟ قلت: نعم، فذكر قصة قال في آخرها: فقلت له: يا عمّ أنت تدعو للناس فلو دعوت لنفسك فردّ الله عليك بصرَك. فتبسم وقال: «يا بني، قضاء الله سبحانه عندي أحسن من بصري».

وقال بعض السلف: «لو قُرِّضَ جسمي بالمقاريض لكان أحب إلي من أن أقول لشيء قضاه الله تعالى سبحانه: ليته لم يقضه».

فإذا تأملت هذه الحكايات عرفت ـ قطعًا ـ أن الرضا بما يخالف الهوى ليس مستحيلًا، بل هو مقام عظيم من مقامات أهل الدين. ومهما كان ذلك ممكنًا في حب الخلق وحظوظهم؛ كان ممكنًا في حق حب الله تعالى وحظوظ الآخرة قطعًا.

وإمكانه من وجهين:

أحدهما: الرضا بالألم لما يتوقع من الثواب الموجود، كالرضا بالفصد والحجامة وشرب الدواء انتظارًا للشفاء.

والثاني: الرضا به لا لحظٍّ وراءَه، بل لكونه مراد المحبوب ورضًا له، فقد يغلب الحب بحيث ينغمر مراد الحب في مراد المحبوب، فيكون ألذّ الأشياء عنده رضا محبوبه ونفوذ إرادته ولو في هلاك روحه. كما قيل: فما لِجُرحٍ إذا أرضاكمُ ألم.

وهذا ممكن مع الإحساس بالألم، وقد يستولي الحب بحيث يُدهَشُ عن إدراك الألم، فالقياس والتجربة والمشاهدة دالة على وجوده، فلا ينبغي أن ينكره من فقده من نفسه، لأنه إنما فقده لفقد سببه وهو فرط حبه، ومن لم يذق طعم الحب لم يعرف عجائبه، فللمحبين عجائب أعظم مما وصفناه. وحُكي عن محمد بن عبد الله البغدادي قال: رأيت بالبصرة شابًّا على سطح مرتفع، وقد أشرف على الناس وهو يقول:

مـن مـات عشـقًا فليمـتْ هكـذا لا خـيرَ في عشـقٍ بــلا مــوتِ

ثم رمى بنفسه الأرض، فحملوه ميتًا[1]. فهذا وأمثاله قد يصدق به في حب المخلوق، والتصديق به في حب الخالق أولى، لأن البصيرة الباطنة أصدق

---

(١) نعوذ بالله تعالى من مصارع السوء، وسيئات الخواتيم. والحب الحقيقي النافع هو حبُّ الله تعالى وحبُّ دينه ورسله وأوليائه، وركنا العبادة هما الحب والتذلّل، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نونيته العظيمة:

=

من البصر الظاهر، وجمال الحضرة الربانية أوفى من كل جمال، بل كل جمال في العالم فهو حسنة من حسنات ذلك الجمال. نعم، الذي فقد البصر ينكر جمال الصور، والذي فقد السمع ينكر لذة الألحان والنغمات الموزونة، فالذي فقد القلب لا بد وأن ينكر أيضًا هذه اللذات التي لا مظنّة لها سوى القلب(١)!

واعلم أن الدعاء غيرُ مناقض للرضا، ولا يخرج صاحبه عن مقام الرضا، وكذلك كراهة المعاصي ومقت أهلها ومقت أسبابها والسعي في إزالتها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يناقضه أيضًا. وقد غلط في ذلك بعض البطّالين المغترّين، وزعم أن المعاصي والفجور والكفر من قضاء الله وقدره عز وجل فيجب الرضا به، وهذا جهل بالتأويل وغفلة عن أسرار الشرع.

فأما الدعاء؛ فقد تعبّدنا به، وكثرت دعوات رسول الله ﷺ وسائر الأنبياء عليهم السلام ـ على ما نقلناه في كتاب الدعوات ـ تدل عليه. ولقد كان رسول الله ﷺ في أعلى المقامات من الرضا. وقد أثنى الله تعالى على بعض عباده بقوله: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبيَاء: ٩٠].

=

وعبادةُ الرحمنِ غايةُ حبِّه	مع ذلِّ عابِدِه هما قطبانِ
وعليهما فَلَكُ العبادة دائرٌ	ما دار حتى دارت القطبانِ
ومداره بالأمر أمرِ رسوله	لا بالهوى والنفس والشيطانِ

(١) وهذه حروف عزيزة وجليلة جدًّا.

وأما إنكار المعاصي وكراهتها وعدم الرضا بها؛ فقد تعبّد الله به عباده وذمّهم على الرضا به فقال: ﴿وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا﴾ [يُونس: ٧]، وقال تعالى: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ [التَّوبَة: ٨٧].

وعن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إن العبد ليغيب عن المنكر ويكون عليه مثل وزر صاحبه! قيل: وكيف ذلك؟ قال: يبلغه فيرضى به».

وقد أمر الله تعالى بالمنافسة في الخيرات وتوقّي الشرور فقال تعالى: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦﴾ [المُطفِّفِين: ٢٦]. وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: **«لا حسد إلا في اثنتين؛ رجل آتاه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل والنهار، فسمعه جار له، فقال: ليتني أوتيتُ مثل ما أوتي فلان فعملت مثل ما يعمل، ورجل آتاه الله مالًا فهو ينفقه في حقّه، فقال رجل: ليتني أوتيتُ مثل ما أوتي فلان، فعملت مثل ما يعمل»**(١).

وأما بغض الكفار والإنكار عليهم ومقتهم فما ورد فيه من شواهد القرآن والأخبار لا يحصى مثل قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آل عِمرَان: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ [المَائدة: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا﴾ [الأنعَام: ١٢٩] الأنعام: ١٢٩. وقال ﷺ: **«المرءُ مع من أحبَّ»**(٢).

---

(١) البخاري (٦/٢٣٦)

(٢) البخاري (٨/٤٨) ومسلم (٨/٤٣)

فإن قلت: فقد وردت الآيات والأخبار بالرضا بقضاء الله تعالى، فإن كانت المعاصي بغير قضاء الله تعالى فهو مُحالٌ وهو قادح في التوحيد، وإن كانت بقضاء الله تعالى فكراهتها ومقتها كراهة لقضاء الله تعالى، وكيف السبيل إلى الجمع وهو متناقض على هذا الوجه، وكيف يمكن الجمع بين الرضا والكراهة في شيء واحد؟

فاعلم أن هذا مما يلتبس على الضعفاء القاصرين عن الوقوف على أسرار العلوم، وقد التبس على قوم حتى رأوا السكوت عن المنكر مقامًا من مقامات الرضا، وسمّوه حُسْنَ الخُلُق، وهو جهل محض.

بل نقول: الرضا والكراهة يتضادّان إذا تواردا على شيء واحد من جهة واحدة على وجه واحد، فليس من التضاد في شيء واحد أن يكرهه من وجه ويرضى به من وجه؛ إذ قد يموت عدوّك الذي هو أيضًا عدوّ بعض أعدائك وساعٍ في إهلاكه، فتكره موته من حيث إنه مات عدوّ عدوّك، وترضاه من حيث إنه مات عدوك. وكذلك المعصية لها وجهان: وجهٌ إلى الله تعالى من حيث إنه اختياره وإرادته، فيرضى به من هذا الوجه تسليمًا لذلك المُلك إلى مالك الملك، ورضا بما يفعله فيه، ووجهٌ إلى العبد من حيث إنه كسبه ووصفه، وعلامة كونه ممقوتًا عند الله وبغيضًا عنده حيث سلّط عليه أسباب البعد والمقت، فهو من هذا الوجه منكر ومذموم. ولا ينكشف هذا لك إلا بمثال:

فلنفرض محبوبًا من الخلق قال بين يدي محبيه: إني أريد أن أميّز بين من يحبني ويبغضني، وأنصب فيه معيارًا صادقًا وميزانًا ناطقًا، وهو أني أقصد إلى فلان فأؤذيه وأضربه ضربًا يضطره ذلك إلى الشتم لي. حتى إذا شتمني أبغضته

واتخذته عدوًّا لي، فكل من أحبَّه أعلمُ أيضًا أنه عدوي، وكل من أبغَضَه أعلم أنه صديقي ومحبي. ثم فعل ذلك وحصل مراده من الشتم الذي هو سبب البغض، وحصل البغض الذي هو سبب العداوة. فحقٌّ على كل من هو صادق في محبته وعالم بشروط المحبة أن يقول: أما تدبيرك في إيذاء هذا الشخص وضربه وإبعاده وتعريضك إياه للبغض والعداوة؛ فأنا محب له وراض به فإنه رأيك وتدبيرك وفعلك وإرادتك، وأما شتمه إياك فإنه عدوان من جهته إذ كان حقّه أن يصبر ولا يشتم، ولكنه كان مرادك منه؛ فإنك قصدت بضربه استنطاقه بالشتم الموجب للمقت، فهو من حيث إنه حصل على وفق مرادك وتدبيرك الذي دبّرته فأنا راض به، ولو لم يحصل لكان ذلك نقصانًا في تدبيرك وتعويقًا في مرادك، وأنا كاره لفوات مرادك، ولكنه من حيث إنه وَصفٌ لهذا الشخص وكسب له وعدوان وتهجّم منه عليك على خلاف ما يقتضيه جمالك ـ إذ كان ذلك يقتضي أن يحتمل منك الضرب ولا يقابل بالشتم ـ فأنا كاره له من حيث نسبته إليه، ومن حيث هو وصف له، لا من حيث هو مرادك ومقتضى تدبيرك.

وأما بغضك له بسبب شتمك فأنا راض به ومحب له لأنه مرادك، وأنا على موافقتك أيضًا مبغض له، لأن شرط المحب أن يكون لحبيب المحبوب حبيبًا ولعدوه عدوًّا.

وأما بغضه لك فإني أرضاه من حيث إنك أردت أن يبغضك إذ أبعدته عن نفسك وسلّطت عليه دواعي البغض، ولكني أبغضه من حيث إنه وصف ذلك المبغض وكسبه وفعله وأمقته لذلك، فهو ممقوت عندي لمقته إياك،

وبغضه ومقته لك أيضًا عندي مكروه من حيث إنه وصفه، وكل ذلك من حيث إنه مرادك فهو مرْضيّ.

وإنما التناقض أن يقول: هو من حيث إنه مرادك مرضي، ومن حيث إنه مرادك مكروه، وأما إذا كان مكروهًا لا من حيث إنه فعله ومراده، بل من حيث إنه وصف غيره وكسبه؛ فهذا لا تناقض فيه، ويشهد لذلك كل ما يُكره من وجه ويُرضى به من وجه، ونظائر ذلك لا تحصى، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النّحل:٦٠].

فواجب على كل عبد محب لله أن يبغض من أبغضه الله، ويمقت من مقته الله، ويعادي من أبعده الله عن حضرته، فإنه بعيد مطرود ملعون عن الحضرة.

وبهذا يُعرف أيضًا أن الدعاء بالمغفرة والعصمة من المعاصي وسائر الأسباب المعينة على الدين غير مناقض للرضا بقضاء الله تعالى، فإن الله تعبّد العباد بالدعاء ليستخرج الدعاء منهم صفاء الذكر وخشوع القلب ورقّة التضرع، ويكون ذلك جلاء للقلب وسببًا لتواتر مزايا اللطف»[1]. ومن جميل كلام ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا رَأيْت سِربال الدُّنْيا قد تقلّص عنك؛ فاعْلَم أنه قد لُطِفَ بك؛ لِأن المُنعِم لم يقلّصه عليك بخلًا أن يتمزّق، لَكِن رفقًا بالماشي أن يتعثّر، أحرم عَن الحَرام بِنَزْع مخيط الهوى لَعَلَّ جذب التوفيق يقارن ضعفَ كسبك»[2].

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٤٣٥- ٤٤٥) بانتقاء واختصار وتصرف.

(٢) المدهش (١/ ٤٥٣) بتصرف يسير.

وبما أن الدعاء الخالص هو أعظم الأسباب في تحصيل الخير ودفع الشرّ فينبغي على الداعي أن يراعي جهة العبوديّة بدعائه، وأنّه يتقرّب إلى ربه بعبادة يحبها الله تعالى، قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وينبغي لمن دعا ربه في حصول مطلوب، أو دفع مرهوب، أن لا يقتصر في قصده ونيته في حصول مطلوبه الذي دعا لأجله، بل يقصد بدعائه التقرب إلى الله بالدعاء وعبادته التي هي أعلى الغايات، فيكون على يقين من نفع دعائه، وأن الدعاء مخّ العبادة وخُلاصتها، فإنه يجذب القلب إلى الله، وتلجئه حاجته للخضوع والتضرع لله الذي هو المقصود الأعظم في العبادة، ومن كان قصده في دعائه التقرب إلى الله بالدعاء، وحصول مطلوبه، فهو أكمل بكثير ممن لا يقصد إلا حصول مطلوبه فقط، كحال أكثر الناس، فإن هذا نقص وحرمان لهذا الفضل العظيم، ولمثل هذا فليتنافس المتنافسون. وهذا من ثمرات العلم النافع، فإن الجهل منع الخلق الكثير من مقاصد جليلة ووسائل جميلة لو عرفوها لقصدوها، ولو شعروا بها لتوسّلوا إليها، والله الموفق»(١). والله المستعان.

مَـن يسـألِ النـاسَ يَحرِمُـوهُ ... وسـائلُ اللهِ لا يخيـبُ

❁❁❁❁

(١) مجموعُ الفوائِد واقتناص الأوابِد، عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص:٧٤).

القَدَرُ والعقلُ

جعل الحكيم القدير سبحانه للعقل البشري سُورَه الذي يحمي له سلامته، وحَدَّهُ الذي يستحيل عليه اجتيازه، وسقفه الذي يعجز مهما قويت حدّته وَذَكَتْ قريحته من اختراقه، ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾ [الطَّلَاق : ٣]. فالمُدركاتُ أكثر وأعظم وأخفى وأوسع من أن يحيط بها ذيّاك العقل الإنساني، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٥﴾ [الإِسْرَاء : ٨٥]، رحمةً من الله تعالى لذلك العقل العظيم إن هو آمن بربه واتّبع هديه ولم يكن من الكافرين الذين سخفت عقولهم وصغرت أحلامهم وانقلب إدراكهم فأهوى بهم للدركات. ومع ذلك فلا يزال غرور كثير من الناس يكابر في ذلك، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧﴾ [الانفطار: ٦ - ٧].

فأعظمُ ما في الإنسان عقلُهُ وقلبُهُ، فالعقلُ جوهرةٌ في الغايةِ من النفاسة، والنهايةِ في الإعجاز، والقلب سيّدٌ مُختارٌ، يتلقّى من عقله ما يُعينه على مراده، بهما عَلِمَ المرءُ وكُلّف وعَمِلَ وحرَث وجرَى في دار ابتلائه بما جرَتْ به مقاديره. وَهَبهُ ربُّه عقلًا يُميِّزُ به الطريقين، وقلبًا يختار به أيّ السبيلين، وقدَرًا يحُوطه في الدارين، قد نُسجت حياتُه على منواله، وخُبِّئَتْ قابِلُ أعمالِه تحت ستار غيبه، إرادتُه في خِيَارِيه تامّة، ومشيئته في طريقيه مكتوبة، وهو بكلِّ ذلك تحت مظلّة قَدَرِه، يُيسَّرُ لإدراكه، ويعملُ مُختارًا بموجبه، ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ

إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ ﴿٨٨﴾ [النَّمل: ٨٨]. و«**كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ لَهُ**»(١). ويُلهَمُ للتقوى أو يُخذل لفجوره، ﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ [الشَّمس: ٨]، ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [اللَّيل: ٥-١٠]. فقدر الله تعالى سابق، وعمل عبده لاحِقٌ، وحُجّته على عبده قائمة، فلا يعذِّب أحدًا إلا بعمله لا بمجرد قَدَرِه، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فُصِّلَت: ٤٦].

إن دراسة مباحث علم القضاء والقدر لا بد فيها من مزيد حذر وتحفّظ وتحرّز واحتراس، فهو مَزلّة أقدامٍ لأقوامٍ لم يتأدبوا بأدب التواضع لجهلهم الطبيعي بمساربه وغموضه وحدوده التي لا يُرام ما وراءها، ولا تنكشف أستار أطرافها إلا على نور الشرع لا غير. لأن القدر سرُّ الله تعالى، وقد أذن لنا سبحانه بأن بيّن لنا قدْرَ ما نحتاجه من هذا العلم المقدس الشريف، وقلنا بشرفه وقدسيّته لتعلقه بأسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله كالعلم والخلق والحكمة والمشيئة والإحاطة والرحمة والعدل واللطف والبر والرزق وغيرها، بل قد جعله الله تعالى ركنًا سادسًا للإيمان لا ينعقد دين المرء ولا يصح إسلامه إلا بالإيمان به.

فمِن رحمة الله تعالى بنا أن بيّن لنا قدْر ما نحتاجه من هذا العلم دون ما لا حاجة لنا به في هذه الدار، ويكفينا فيه: معرفته، وحسن التصوّر لمراتبه الأربع العلم والكتابة والمشيئة والخلق، وما يستتبع ذلك من مباحث كتلمّس بعض

---

(١) مسلم (٦٨٣٠)

الحكم الربانية في المقادير، وقضية عدم وجود الشرّ المطلق في العالم، ورحمة الله السابقة غضبه، وعدله المطلق، وملكه التام، وخلقه كل شيء، ونحو تلك المباحث والحواشي دون التعمّق الممنوع في أنفاق علومٍ لم يأذن سبحانه لنا بها، مع ما يتبع مُخالفَ ذلك من عقابيل عقلية، ومهالك فكرية، ومزالق إيمانية، فالله تعالى أرحم بنا من أنفسنا الأمارة.

وإذا أغلق الله تعالى عنّا بابًا فليس مردّ ذلك حرماننا من شيء يقرّبنا إليه، بل حقيقتُه حشوُ كرامةٍ ربانيّة عَلِمَها وقضى بها مَنْ خَلَقَنا وحَدَّدَ مداركنا وقُوَانا، فَحَرَسَنا بذلك وحفِظَنَا من مزالق لا تقوى على الثبات فيها عقولنا ولا أفئدتنا.

وليست علوم القدر بمعزل عن غيرها من علوم كثيرة يستحيل على العقل البشري احتمالها؛ إما لأنها تفوق قدرة مدارك العقل الإنساني، أو أنها متعلقة بعالَم غير عالمنا وإن تعلق بعضها بعالمنا ونحو ذلك. واعتبر ذلك بما هو أشرف من هذا كله ألا وهو احتجاب الله تعالى عنا في الدنيا لعدم قدرتنا على احتمال رؤية وجهه تبارك وتعالى في الحياة الدنيا حتى لا تحرقنا سُبُحاتُ وجهه الجميل الجليل تبارك وتعالى وجلّ وتقدّس، ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: «**إن الله لا ينامُ، ولا ينبغي له أن ينامَ، يَخْفِض القِسْطَ ويرفَعُه، يُرْفَع إليه عملُ الليل قَبْلَ عَمَلِ النَّهار، وعملُ**

النَّهار قَبْل عمل الليل، حِجَابُه النُّورُ، لو كَشَفَهُ لأحْرَقتْ سُبُحَاتُ وجهه ما انتهى إليه بصرُه من خلقه» (١).

وعن قتادة عن عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبي ذر: لو رأيتُ رسولَ الله ﷺ لسألته. فقال: عن أي شيء كنتَ تسأله؟ قال: كنتُ أسأله: هل رأيت ربك؟ قال أبو ذر: قد سألتُ فقال: **«رأيتُ نورًا»** (٢). أي نور الحجاب. أما في

---

(١) مسلم (١/ ١١١)

(٢) مسلم (١/ ١٧٨) وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الزاد (٣/ ٣٦ – ٣٨): «واختلف الصّحابة هل رأى ربه تلك اللَّيلة أم لا؟ فصح عن ابن عبّاس أنّه رأى ربه، وصح عنه أنّه قال: رآه بفؤاده. وصح عن عائشة وابن مسعود إنكار ذلك، وقالا: إن قوله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤﴾ [النَّجم: ١٣ - ١٤] إنّما هو جبريل.

وصح عن أبي ذر أنّه سأله: هل رأيت ربك؟ فقال: **«نورٌ أنّى أراه»**، أي: حال بيني وبين رؤيته نور، كما قال في لفظ آخر: **«رأيت نورًا»**. وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي اتفاق الصّحابة على أنّه لم يره».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه: «وليس قول ابن عبّاس: «إنّه رآه» مناقضًا لهذا، ولا قوله: «رآه بفؤاده»، وقد صح عنه أنّه قال: **«رأيت ربي تبارك وتعالى»**، ولكن لم يكن هذا في الإسراءِ، ولكن كان في المدينة لما احتبس عنهم في صلاة الصُّبح، ثمّ أخبرهم عن رؤية ربه تبارك وتعالى تلك اللَّيلة في منامه، وعلى هذا بنى الإمام أحمد رحمه الله تعالى وقال: نعم رآه حقًّا؛ فإنّ رؤيا الأنبياء حقّ ولا بد. ولكن لم يقل أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنّه رآه بعيني رأسه يقظة. ومن حكى عنه ذلك فقد وهم عليه، ولكن قال مرّة: رآه، ومرة قال: رآه بفؤاده. فحكيت عنه روايتان، وحكيت عنه الثّالثة من تصرف بعض أصحابه: أنّه رآه بعيني رأسه. وهذه نصوص أحمد موجودة ليس فيها ذلك. وأمّا قول =

الآخرة فإن أعظم نعيم الجنة هو التّمتّع والتلذّذ برؤية الله تبارك وتعالى، فعن جرير بن عبد الله البجلي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: كنا عند النبي ﷺ، فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: **«إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تُضَامُون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاةٍ قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا»**(١).

وعن صهيب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا دخل أهل الجنة الجنة؛ يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئًا أزيدُكم؟ فيقولون: ألم تبيّض وجوهَنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتنجِّنا من النار؟ فيَكشِفُ الحجاب، فما أُعطوا شيئًا أحبّ إليهم من النظر إلى ربهم»**(٢). نسأل الله الكريم من فضله.

ومن فروع هذا الباب الشريف معرفة أن فهمه يكون بأداةِ التفكّر فيه وهي العقل الذكي المتحفّظ الملتزم بحدوده التي بيّنها له الوحي فلا يقول فيها

=

ابن عبّاس: إنّه رآه بفؤاده مرتين، فإن كان استناده إلى قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ⑪﴾ [النّجم : ١١]، ثمّ قال: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ⑬﴾ [النّجم : ١٣]، والظاهر أنه مستنده، فقد صح عنه ﷺ أن هذا المرئي جبريل، رآه مرتين في صورته الّتي خُلِقَ عليها، وقول ابن عباس هذا هو مستند الإمام أحمد في قوله: رآه بفؤاده، والله أعلم».

وانظر: «مجموع الفتاوى» (٦/ ٥٠٩) و«منهاج السنة» (٥/ ٣٨٤ - ٣٨٧) و«مسألة في رؤية النبي ﷺ ربّه» ضمن «جامع المسائل» (١/ ١٠٣ - ١٠٨).

(١) البخاري ١/١٤٥ (٥٥٤)، ومسلم ٢/١١٣ (٦٣٣) (٢١١)

(٢) مسلم ١/١١٢ (١٨١) (٢٩٧)

بهوى، ولا يخوض فيها بِغَيٍّ؛ فيزيغ عنها فيهلك، لأن موارد العقل اثنان لا غير:

الأول: المَكَنَةُ والجوهر والآلة الإدراكية المميزة لحدود التصورات، وإحسان المقارنات، وهضم المعلومات، وكشف المجهولات، بالعلم بحقائقها وحدودها ونحو ذلك.

الثاني: حقيقة الأمر كما فهو، وحقائق الأمور سواء أكانت معنوية أم مادية لا تكون مُتيَقّنة إلا ما أذن الشرع بإدراكها بالحواس إما على سبيل التجربة والتأمل والاختبار والاستمرار، أو عن طريق الإخبار الشرعي ابتداءًا. فمهما علا كعب العقل واشتدّ في حدّته وتاه في غروره واتّسع في مداركه فهو يَظَلُّ في كثير من الأمور - ولا بدّ - طفوليًّا ساذجًا جاهلًا بتفاصيل ومآلات الحقائق المادية المعنوية الدنيوية، بلْه الحقائق الغيبية والأخروية، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥].

ويُلحق بذلك معرفة العقل الذي توزن به الأمور في الشرع، فهل هو عقلُ فلان أو عقل فلان، أم هو العقل المنتظم لدى العقلاء الذي لا يختلفون على تقريراته، ولا يتنازعون في أحكامه؟

هو الثاني بلا ريب، لأن عقل الإنسان الواحد يعتريه الضعف، ويلحقه النقص، ويدركه العجز، ويعترض له الوهم، ويمكر به الهوى، ويغطّيه النسيان، وغير ذلك من نواقصه ونواقضه! بل يعتريه تبدّل الآراء في ثاني الحال، فيجد أن ما قرّره اليوم هو عين ما نفاه غدًا، وما ظنّه يومًا واجب التصديق بوزن المناطقة - البعيد عن عصمة الوحي المُنزّل - إذ به يرى خللًا فيه

ينزله عن رتبة الواجب للجائز، وقد ينزل بأَخَرَةٍ للمستحيل! ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النِّسَاء: ٢٨]، ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإِسْرَاء: ٣٧].

لله في الآفــاقِ آيــاتٌ لعـلّ ... أقلّهــا هــو مــا إليــه هــداكَ
والكـونُ مشـحونٌ بـأسرارٍ إذا ... حاولـتَ تفسـيرًا لهـا أعيـاكَ
ربي لـك الحمـدُ العظيم لـذاتِكَ ... حمـدًا لـكَ، لـيس لواحـدٍ إلّاكَ
إن لم تكـن عينـي تـراكَ فـإنّني ... في كـلِّ شيءٍ اسـتبينُ عُـلاكَ
يـا أيّها الإنسـانُ مهـلًا مـا الـذي ... بـالله جـل جلالُـه أغـراكَ

إنّ مشكلة العقل الكبرى ومعضلته العظمى أنه كائنٌ معنوي لا حسّي، فالحاسّة مادة تُحسّ وتدرك بأمثالها ومتقابلاتها من الحواس، ولئن كان ميزان الحسّيات ماديًّا فإن الاتفاق على حدوده سهل يسير، لذا فقد جعل البشر مكاييل وموازين وأطوال ومقادير حسّيّة لكل مادة بحسبها منها الثقيل كالصخر والحديد والرمل، ومنه الخفيف كالمعادن النفيسة والجواهر الغالية ونحوها، فصار لكل مادّة محسوسة إجمالًا ميزانًا واضحًا متفقًا عليه في الجملة.

ولكن الأمر ليس كذلك في المعنويات، فميزانها ليس بوضوح موازين الحسّ لصعوبة ضبط حدودها، لأنها مجرّد معنًى في الذهن لا في خارجه من الحسّ المادّي، لذلك تقاس المعنويات بأمثالها أو أشباهها من المعنويات، فالصبر والاحتمال والحب والبغض والتوكل والإيمان والفرح والذكاء والرأي والحفظ والأمل والذكرى والألم واللذة والطموح والكسل والرغبة والجوع

والحنين والخوف والغبطة والرحمة والأسى ونحو ذلك مما لا يكاد يتناهى تنوعًا واختلافًا وتباعدًا واقترابًا، فليس ثَمَّ ضابط محدد يضمن اتحاد ذهنين فأكثر على تقدير معنًى ما، لأنها غير منضبطة حِسًّا من جهة، ولدخول الخيال والوهم فيها من جهة أخرى.

مع التنبيه إلى أن الإحكام في حسن التصور في الفطريات وما يتبعها كالإيمان بالله وربوبيته ووحدانيته أوضح وأحكم وأتمّ من موازين الحسّ طُرًّا، لأن الوهم والخيال والتداخل والخطأ والخداع والنسيان والاشتباه والخداع ونحو ذلك يدخل فيها ما لا يدخل في هذه الإيمانيات اليقينية القاطعة، ما لم تُشَبْ بخلل عقدي يتنكّب بها عن سابلة الحق وطريق الهدى ونهج السعادة والفلاح، فيقينيّات كهذه أوضح وأصدق وأجلى وأثبتُ من يقينيات الحسّ عند جملة العقلاء الذين أوتوا حظًّا من إيمان متيقّن بالله واليوم الآخر، والله المستعان.

إذا تقرّر ذلك؛ فما هو العقل، أو القواعد، أو الحدود، أو الميزان الذي يصح أن يكون ميزانًا يُتَحاكم إليه عند اختلاف العقول؟

والجواب: أن العقل بمفهومه العام منقسم إلى عقلين:

فالعقل الأول: هو العقل الخاص بالفرد الواحد، وهو العقل الذي عليه مناط التكليف الشرعي، فيقال: فلان عاقل وفلان غير عاقل.

والعقل الثاني: هو الأحكام العقلية التي اجتمع عليها جملة العقلاء. فالعقل الذي يرجع إليه العقلاء عند اجتماعهم أو اختلافهم، ويشيرون إليه

بالأمور التي يقبلها ويقرّها العقل الصحيح أو يردّها ويحيلها ونحو ذلك: فهو العقل المنتظم لمجمل آراء العقلاء، وهو القانون الذي انتظم عقولهم إجماعًا أو أغلبيًا ساحقًا، فهو كالقواعد والموازين والحدود والقوانين التي اجتمعت عليها عقول عامّة العقلاء، أو سوادهم الأعظم في بعض الأمور، فإن خالفها أحدٌ يومًا قالوا: قد خالف العقل وشذّ بالرأي.

وبهذا سار الناموس الرباني على بني الإنسان، فلم يتركهم هملًا ولم يخلقهم سُدى، ولم يجعلهم أفرادًا منعزلين لكل منهم نظامه وقانونه ومزاجه وطيشه وبهيميّته وشهوته في كل شيء، بل قد جمع قرائحهم وألّف عقولهم على جملة من الأمور التي تنتظم أمورهم الكبار التي لا يقوم معاشهم إلا بها، فاصطلحوا وتواطؤوا وتوافقوا ـ عفويًّا ـ بأمر ربهم الكوني وتقديره الإلهي ورحمته الأزليّة السرمديّة على حدودٍ عقليّة ومدارك معرفيّة بها يفقهون الحدّ الأدنى من الأمور الحياتية والمعاشية والمصيرية تسهيلًا لحياتهم الدنيا إذ المعرفة أساس حياة العقلاء. ولعل من أسباب مراعاة الشريعةِ العرفَ العام السليمَ غير المُتعدّي حدود الشرع هو من هذا الباب، ولو من وجه.

واعلم أنّ من ثبت منهم على حدّ العقل الصحيح فلم ينفلت ـ بإذن الله تعالى ـ عِقَالُ عقله؛ فإنه ولا بدّ سينتظم له أمور حياته الأبدية الأخرويّة أيضًا، لذا كرّر الله تعالى توبيخ من لا يُعمل عقله فيما ينفعه في آخرته بقوله: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٤٤﴾ [البَقَرَة: ٤٤]، وإنما يكون العقل وسيلة هدى لصاحبه إن عامل عقله بإنصاف فلم يتبع عنه هواه، ويتضح ذلك بأمرين:

أولاهما: أنها تدله ضرورة على أمور الفطرة الأولى التي لم تنحرف بسيول ضلالات الآخرين. فلا زال في باطن كل عقلٍ علمٌ كامنٌ يقتضي اعترافه وإيمانه بربوبية وإلهية الله تعالى ما لم ينحرف بمؤثر خارجي يُنجّس علمه ويعكّر فهمه ويُظلِمُ معرفتَه.

إضافة إلى أن ذلك الحد الأدنى من الحاجة المعرفية من الكلام والعلم والحياة والتدين والحرث والانتفاع بخير الأرض والسماء بإذن الله تعالى للاستخلاف الآدمي في الأرض هو موجود معهم من حينهم، لأن الله تعالى قد علّم آدم أسماء كل شيء، ويسّر له أسباب المعاش في الأرض له ولذريته، فتعاقب نسله على قبول أحكام ما اجتمعت بداهتهم عليه وعلى ما أثَرُوه عمن سبقهم من آبائهم.

وعليه؛ فهذا التوافق والتواطؤ العقلي والحضاري على كبريات ومحتّمات ومسلّمات أمور الحياة الدنيا والأخرى لم يبدأ صدفة، بل ابتدأ بتعليم الله تعالى لآدم الذي نقلها لخلَفِه فسارت في الأجيال حافظة لهم أسباب اجتماعهم وتفاهمهم وتعاونهم، ثم نُسي بعضها وبقي بعضها، وتراكمت خبراتهم وتجاربهم في كل جهة من جهات الحس والمعنى مما يطيقون.

والمقصود أن العقل الصحيح إن سلم من مؤثر من خارج فهو يرجع بصاحبه إلى الفطرة الصحيحة والعقيدة النقية الأولى، ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الرُّوم: ٣٠].

وثانيهما: أنها تلزمه الاكتفاء بنبع الهدى الوحيد المتمثل بما جاء به المرسلون. وهذا جليّ ظاهر لا يتردد فيه إلا جاهل أو مكابر، برهان ذلك: أن العاقل كلما قوي عقله واتسعت مداركه أيقن أن ما يجهله أكثر مما يعلمه، وأن وراء هذا الكون المشهود والخلق البديع والجمال الباهر والتناسق المعجز والدقة العجيبة والعظمة الهائلة أن وراء ذلك كله ربًّا قديرًا وإلها يستحق توحيده بالتألّه والعبادة، وأن العبد مهما وصل من قوة أو إرادة أو علم فهو فقير بكلّيته لعون وتربية وحفظ وهداية سيده ومولاه مهما شطّت به ظعائن الهوى، وندّت منه كبائر الجحود، وهجمت عليه خواطر الشيطان، فإذا تدبر حاله ذلك علم أن محدوديّة عقله مهما بلغت حدّته وسعته فإنها تُلزمه الاكتفاء بما جاء من المصدر الوحيد الموثوق، الذي لا تنتهي أطرافه في هذه الدار الدنيا من علوم الشرع المنزل، وهو العلم المحكم الكامل الفاذّ الجامع المانع، فإن بَحَثَ بجدٍّ وإخلاص للحقيقة وَجَدَ أن العهد السماوي الأخير هو عهد الشريعة المحمدية الخاتمة، وأن الإسلام هو الدين الوحيد اللائق بعهد الله تعالى للبشر، لما فيه من براهين عقلية ودلالات فطرية ولوازم معرفية تقوده للإيمان بالرسول محمد ﷺ الذي جاء بالهدى من الله تعالى، فإذا كان كذلك سلّم معاقد التسليم وأزمّة الانقياد للشرع الإلهي الحنيف، ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧١﴾ [الأنعام: ٧١].

واعلم ـ رحمني الله وإياك ـ أنّ المعيار الضابط لهذا العقل العام هو الشرع المطهر المصون، فما قرّره الشرع صريحًا صحيحًا عِلمنا أن العقل العام للعقلاء

يقبله، وما نفاه الشرع أو منع منعه ونحو ذلك فحينها نعلم يقينًا أنه مخالف للعقل الصحيح، ومحصّلة هذا أمران:

الأول: أنه لا تعارض البتة بين النص الصحيح الصريح وبين العقل الصحيح، فإن ظهر تعارض فالأمر عائد إما لعدم صحة النص (الكتاب والسنة) وإما لعدم صراحته، وبالتالي الخطأ في فهمه، وإما لخطأ التقرير العقلي أصلًا، فإن كان النص صحيحًا صريحًا كنصوص الإيمان والصفات واليوم الآخر والقدر والنبوات ونحو ذلك؛ فحينها يكون الخلل في التصور العقلي للشخص الذي ظنّ وجود تعارض، إذ لا تعارض البتة بين ما قاله الله تعالى وبين ما خَلَقَه، فالعقلُ خَلْقُه والشرعُ أمرُه، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤].

الثاني: أنّ معيار العقل السليم ومسبار الإدراك العميق هو الشرع الصحيح، ومن زعم التعارض بين دلائل الشرع وموارد العقل فعليه أن يراجع ميزان دلائل وتصورات عقله مع ذلك العقل المنتظم للعقلاء، وهو ما تبيّنه الشريعة الغراء، فإن هذا العقل الصحيح يستحيل أن يخالف الشرع، ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل: ٨٨] ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾﴾ [الملك: ٣].

وبالجملة؛ فالعقل العاقل هو ذلك العقل المستضيء بالعلمِ المعصومِ من الزيغ، أما العقل المنفلت من عقاله فهو ما نقص إدراكه بجهل، أو تعكّر تصوّره بكبر، أو تساقطت قوّته بفساد قصد، أو انحرفت معرفته بتنكّب الوحي لما سواه، ففساد الماء بالمَيَّاحِ، وفساد الجدول بتلوّث ينبوعه، وفساد

القصد ملوّث للبصيرة، فكما أن صلاح القلب له تأثير مباشر على سلامة التصوّر وذكاء القريحة فالضدُّ بالضدِّ، فالزكاء مورد الذكاء، وتدبر راشدًا مُسدّدًا مهديًّا قول الله عز وجل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ٥٦﴾ [الرُّوم: ٥٦]، فاللهم غُفْرًا إله الحق.

من السلامةِ تركُ التعمّق في بحث تفاصيل القدر

مسائل القدر العميقة شديدة الوعورة، كثيرة الاشتباه، خطيرة الفهم على غير هدى من الله، أما ابتدائياته وأصوله ومحكماته فيسيرة واضحة بحمد الله تعالى، وهي كافية شافية لكل مؤمن، فيكفي المؤمن حسن التصوّر لمراتب القدر الأربع: العلم والكتابة وعموم المشيئة وعموم الخلق، وأن الله تعالى يخلق كل شيء لحكمة بديعة تتقاصر وتعجز عن إدراكها عقول البشر مهما بلغت حدّتها وصفت قريحتها، وأن الله تعالى قد وسع كل شيء رحمة وعلمًا، وأن رحمة الله قد سبقت غضبه، وأنه يحب أولياءه ويثيبهم، ويبغض أعداءه ومعاصيهم ويتوعدهم، وأنه على كل شيء قدير، ونحو ذلك من الأصول المعروفة التي اهتم بتفصيلها أئمة أهل السنة.

وأما ما زاد عن ذلك من مسائل لم يرد في الشرع بيانُها، إنما وقع في التعمّق فيها بعض المُتهوِّكة والحيارى والجهلة ـ مهما أوتوا من ظاهر علم ـ من المبتدعة القدرية والجبرية ومن تأثر بهم؛ فضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وأساءوا الأدب معه تبارك وتعالى، وانتهى بعضهم للشك وبعضهم للإلحاد المطلق! فعلى المؤمن الإمساك عنها حفظًا لإيمانه ويقينه، فلم يشرع الله تعالى سلوك ذلك الطريق والتعمّق في بحثه على غير هدى من الله.

ويُدعى خصومُ الله يوم معادِهم إلى النار طُرًّا معشرَ القدريةِ

وروي عن علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه قال لمن نازعه في القَدَرْ: «القدر سرُّ الله فلا تكشفه»[(١)]. أي لا تبحث عنه ولا تحاول كشفه، فلا يعلمه غير الله. فالقدر مبني على علم الله وحكمته ومشيئته وربوبيته، والعبد ـ مهما كان حاله ـ عاجز عن إدراك ذلك.

وتأمل قصة موسى والخضر عليهما السلام ففيها ثلاث مسارات للقدر في قصة واحدة، وكلها خير ورحمة، فقَدَرٌ قد يُظَنُّ لأول وهلة أنه شرّ، ثم لا تلبث خيريّته أن تنكشف في ثاني الحال، كما في قصة أصحاب السفينة. وقَدَرٌ تبقى طوال عمرك لا تعلم حقيقة تفاصيلِ خيريّته وهو خير ورحمة من الله تعالى، وينجلي هذا في خبر قتل الغلام، فأفراطُ المسلمين في الجنة بإذن الله تعالى، ولو بقي الغلام إلى سنّ التكليف لأرهق حياة والديه بطغيانه وكفره، ثم صار في المآل من أصحاب الجحيم، لذا كان قتله خيرًا له أوّلًا ليكون فَرَطًا بإذن الله تعالى، وخيرًا لوالديه ليشفع لهما، وليكون سببًا لأجرهما، وليُبدلهما ربهما خيرًا منه إيمانًا وأوصل رحمًا، مع هذا كله فلعلهما قضيا عمرهما حزنًا على الفقيد الذي كان فقده خيرًا للجميع! فهذا هو المسار الثاني العجيب لقدر الله الحكيم العليم البر الرحيم.

أما الثالث ـ وهو العجب العجاب ـ: فهو مسار قدر الخير الذي لا ولن تعلم عنه شيئًا ما حييت، ولم ولن تنتبه لوجوده أصلًا، وهو محيط بك من جميع جوانبك عن طريق صرف الأمور السيئة عنك وسوق الأشياء الجميلة إليك

---

(١) الطحاوية (٩٣)

سوقًا رقيقًا رفيقًا لطيفًا جميلًا خفيًّا بدون علمك، وهذا من معاني أسماء الله اللطيف والمحيط والوليّ والحميد والبرّ والرفيق والرحيم والكريم، ويُمثِّل هذا القَدَر المدهش خبر جدار اليتيمين، فلم يعلما تدبير اللطيف سبحانه بذلك الجدار، ولله الحكمة البالغة وهو اللطيف الخبير.

فقدَرُ الله تعالى صادر عن علمه وحكمته وقدرته سبحانه، وحكمته صفة من صفات جلاله وجماله، فكيف للعبد أن يدرك إلا ما أذن الله تعالى له به. وعليه أن يتدبر قول الحكيم العليم الرحيم: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البَقَرَة: ٢١٦]. فعلى المؤمن - الناصح لنفسه - أن ينكمش على علمه الذي أذن الله له بمعرفته، وأن يقنع به ولا يحاول تجاوزه حتى لا يكله الله تعالى إلى نفسه العاجزة الجاهلة القاصرة، فيضل ويعطب ويهلك.

ولقد نصحنا ورفق بنا ورحمنا من نهانا عن ذلك ﷺ، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في القدر، فغضب حتى احمرَّ وجهه، حتى كأنّما فُقِئ في وجنتيه الرّمان، فقال: **«أبهذا أُمرتم، أم بهذا أرسلت إليكم؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر، عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه»**[(١)]. وتدبّر تعيينه ﷺ لسبب هلاك

(١) الترمذي (٢١٣٣) وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢/٢٢٣)

السابقين في تنازعهم في هذا الأمر تحديدًا وهو القَدَر! وسيأتي بسط ذلك في فصل قادم إن شاء الله تعالى.

والمقصود؛ أن للعقل الإنساني حَدُّه ومنتهاه الذي لا يُسمح له شرعًا ولا قدرًا بتعديه مهما كابر وظن أنه كذلك. قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من السنة اللازمة: الإيمان بالقدر خيره وشرّه، والتصديق بالأحاديث فيه، والإيمان بها، لا يقال: لِمَ؟ ولا كيف؟ إنما هو التصديق بها والإيمان بها. ومن لم يعرف تفسير الحديث، ولم يبلغه عقله، فقد كُفي ذلك، وأُحكم له، فعليه الإيمان به، والتسليم له، مثل حديث الصادق المصدوق[1]، وما كان مثله في القدر»[1].

---

(١) يعني حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: **«إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك، فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد. فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب؛ فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب؛ فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»**. رواه البخاري ١٦٥/٩ (٧٤٥٤) ومسلم ٤٤/٨ (٢٦٤٣) قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المنهاج (١٩٢/١٦) معلقًا على هذا الحديث الجليل بكلام مبشّر مفرح: «هذا قد يقع في نادرٍ من الناس، لا أنه غالب فيهم، وذلك من لطف الله وسعة رحمته، فإن انقلاب الناس من الشرّ إلى الخير كثير، وأما انقلابهم من الخير إلى الشرّ ففي غاية الندور، ولله الحمد والمنة على ذلك». أهـ. فالله شكور سميع الدعاء ورحمته سبقت غضبه، والعفو أحب إليه من العقوبة وهو اللطيف الخبير تبارك وتعالى.

وقال أبو المُظَفَّر السمْعَاني: «سبيل المعرفة في هذا الباب التوقيف من الكتاب والسنة، دون محض القياس والعقل، فمن عدل عن التوقيف فيه ضلَّ وتاه في بحار الحيرة، ولم يبلغ شفاء العين، ولا ما يطمئن به القلب، لأن القدر سِرٌّ من أسرار الله تعالى، اختص العليم الخبير به، وضرب دونه الأستار، وحجبه عن عقول الخلق ومعارفهم لما علمه من الحكمة، فلم يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب»(٢). وقال الآجُرِّيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه العظيم «الشريعة»: «لا يحسن بالمسلمين التنقير والبحث في القدر، لأن القدر سرّ من أسرار الله عز وجل، بل الإيمان بما جرت به المقادير من خير أو شر واجب على العباد أن يؤمنوا به، ثم لا يأمَن العبد أن يبحث عن القدر فيكذّب بمقادير الله الجارية على العباد، فيضل عن طريق الحق»(٣).

وقال الطحاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في عقيدته المشهورة: «وأصل القدر سرّ الله تعالى في خلقه، لم يُطلع على ذلك ملك مقرب، ولا نبيّ مرسل، والتعمق في ذلك ذريعة الخذلان، وسلّم الحرمان، ودرجة الطغيان، فالحذر الحذر من ذلك نظرًا وفكرًا ووسوسة، فإن الله طوى علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مرامه، كما قال تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣]»(٤). ولقد تناول

=

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (١٥٧)

(٢) نقله عنه الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١١/ ٤٧٧)

(٣) الشريعة للآجري (١٤٩)

(٤) الطحاوية (٩٢)

العلماء عقيدة الطحاوي رَحِمَهُٱللَّهُ بالشرح والتعليق والتعقّب، لما فيها من مهمات المعتقد ومحكماته.

قال الشيخ صالح آل الشيخ على كلام الطحاوي رَحِمَهُٱللَّهُ الآنف: «وَأَصْلُ الْقَدَرِ سِرُّ اللَّهِ تَعَالَى فِي خَلقِهِ..»: «هذه الجمل من كلام العلامة الطحاوي رَحِمَهُٱللَّهُ فيها إشارة إلى القَدَر، مع عدم ذِكرِ معتقد أهل السنة والجماعة على وجه التفصيل فيه.

ويعني بقوله: «أَصلُ الْقَدَرِ سِرُّ» أنَّ القَدَر من الأسرار في كمال درجاته ومراتبه، فإنّ الله سبحانه وتعالى لم يكشف قَدَرَهُ على وجه التفصيل لأحَد؛ بل هذا عِلمُهُ عند الله عز وجل. لهذا قال بعدها «لَم يَطَّلِع عَلَى ذَلِكَ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلَا نَبِيٌّ مُرسَلٌ» وإذا كان ملائكة الله المُقَرَّبُون لم يطَّلعوا على القَدَر على وجه التفصيل، وكذلك الأنبياء المرسلون الذين هم صفوة عباد الله لم يطَّلعوا على ذلك على وجه التفصيل؛ فإنّ التعمّق والنظر في ذلك ذريعة للخذلان.

وذريعة الخذلان يعني وسيلة من وسائل سلب التوفيق؛ لأنَّ الله منع العباد عن ذلك ولم يأمرهم بالبحث في هذا ولا بالتعمّق فيه. وإذا كان الصفوة لم يُطْلَعُوا على ذلك ولم يَطَّلِعُوا عليه فإذًا الباب مغلق، وإذًا لا تحاول كشفًا للقدر. ومعنى كشف القدر ما ذكره في جُمَلِهِ بأن يحذر المسلم من التفكير في تقدير الله عز وجل للأشياء نَظَرًا في العلل وفِكْرًا في الحكم ووسوسةً في لم فعل ذلك؟ ولم حصل؟ ولم قُدِّرَ كذا؟ ولم وفّق هذا، ولم خذل ذلك؟ ولم حصل كيت وكيت؟ فإنَّ الله سبحانه طوى علم القدر عن أنامه، ولذلك نهاهم عن تطلُّبه قال: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣].

فإذا تبين ذلك؛ فإيماننا بقدر الله عز وجل إيمانٌ بما جاء في النصوص من تفصيل ما يجب علينا أن نؤمن به. ثُمَّ إيمان إجمالي وهو ركن الإيمان؛ لأنّ كل شيء فإنه بتقدير الله عز وجل، لأنَّ من أركان الإيمان، الإيمان بالقدر خيره وشره. يعني أن نؤمن بأنَّ ما حصل من الخير والشر بالنسبة إلينا فإنه بتقدير الله عز وجل.

يعني لَمْ تَحصُل الأشياء ابتداءً دون تقدير من الله وعلمٍ وكِتابةٍ ومشيئةٍ وخلقٍ لله عز وجل، بل الله الذي عَلِمَهَا وكَتَبَهَا وقَدَّرَهَا وشَاءَهَا، فلم يحصل شيء ولا يحصل شيء إلا بتقدير الله عز وجل وإذنه الكوني.

إذا تبين ذلك؛ فإنَّ الإيمان الإجمالي لما ذكرت هو ركن الإيمان، لا يصح إيمان أحد حتى يؤمن بهذا القَدْر، وهو أنَّ كل شيء بِقَدَر، وأَنَّ الأشياء يُقَدِّرُهَا الله عز وجل فيما سبق.

ثُمَّ الإيمان التفصيلي بما عِلِمَ تفصيلًا من نصوص الكتاب والسّنة بما يدخل في بحث القَدَر. فإذا جاءه الدليل أنَّ مِنَ القدر عِلْمُ الله السابق فإنه يؤمن بذلك، وإذا جاءه الدليل أنَّ الله خالق كل شيء فيؤمن بهذا العموم؛ عموم خَلْقِ الله عز وجل للأشياء بما في ذلك طاعة المطيع ومعصية العاصي، إذا عَلِمَ عموم مشيئة الله عز وجل وأنَّ مشيئة العبد لا تستقل بإحداث الأشياء، بل لا بد من مشيئة الله عز وجل آمن بذلك على وجه التفصيل، فيكون ذلك من الإيمان الواجب لأنه عَلِمَ الدليل الذي يجب عليه الإيقان به»[1].

(١) شرح العقيدة الطحاوية، صالح آل الشيخ (١ / ٢٣٧)

ولا بدّ للقلب من قوّة إيمان تحمله على تسليم كل أمره لربه تعالى، فكلما ورد واردٌ سلّمه لِمَنْ أمَرَه بذلك، فلا يزال العبدُ بخير ما دام على ذلك، و«المطلوب من العبد أن يؤمن بالغيب، وأن يؤمن بكل ما أخبر الله به، وأن يسلِّم، وأن يقوِّي ذلك الإيمان بكل ما يستطيع أن يقويه به من الأدلة وبالحجج القرآنية وآثارها، ونعني بها الحجج الكونية العقلية النفسيّة، وأن ينظر بتدبّر في ملكوت السماوات والأرض، ويتفكر في أحوال النَّاس، وفي تدبير الله سبحانه له وتصريفه لهذا الكون وتدبيره للخلق، فيزداد إيمانًا ويقينًا، ويدفع عن نفسه الشبهات إذا وردت، لأن دفع الشبهات يكون بالاعتصام بالله والاستعاذة من الشيطان الرجيم، والإعراض عن الشبهة، فإن تمكّنت في قلبه فليدفعها بسؤال أهل العلم لتُكشف عنه تلك الشبهة ويندفع عنه البلاء.

وأمرُ هذا الدين مبنيّ عَلَى الاستسلام، وإنما يثبت الإسلام عَلَى قدم الاستسلام لما أخبر به الله ورسوله ﷺ، لكن من قُدِّر له أن أعطاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى العلم، ومكّنه من الرسوخ فيه، ومقاومة الشبهات، والذبّ عن هذا الدين، فهذا كطبيب يتعمق في معرفة الأمراض لا حرصًا منه عَلَى معرفه المرض، ولكن لكي يعالج النَّاس، أو يتعمّق في معرفة الأدويّة ليداوي نفسه ويداوي غيره.

وكل إنسانٍ يأخذ من هذا الدين ومن أمر اليقين بقدر ما يوفّقه الله ويؤهّله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولو أراد أحد أن يتجاوز قدره لسقط ولهلك، فالتعمق والنظر في أمور القدر الخفيّة الدقيقة من إنسان لا يعرف الأدلة، ولا يعرف كلام أهل العلم ولا يستطيع أن يفقه في المسألة هذا ذريعة الخذلان.

وينبغي علينا أن نكفّ العوام عن الخوض في القدر، فإن كَانَ ولا بد إذا وجدنا من أحدهم شبهة راسخة كشفناها بالدليل، ولكن لا يعني ذلك أن نَعرض تعاريف القدر عَلَى العامة، أو نرضى أن يخوض العامة في تفصيلات القدر وغير ذلك من أمور الإيمان؛ لأن الخوض في ذلك مَزلّة الأقدام، فهو بحر لا يستطيعون أن يبحروا فيه، لكن من كَانَ لديه استعداد للفهم من الكتاب والسنة وكلام العلماء فينبغي له أن يزداد علمًا، لأنه بذلك يزداد إيمانًا ويزداد فهمًا، وعندما ترد عليه شبهة سرعان ما يدفعها لما لديه من علم؛ وينبغي أن يقيد بهذا كلام الطحاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأن نعرف المقصود من كلامه، ولهذا قال المُصّنِفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمعنى أن المبالغة في طلب القدر والغوص في الكلام فيه ذريعة الخذلان». فهذا هو الذي يجب أن يُفهم.

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: جَاءَ ناس من أصحاب النبي ﷺ إِلَى رَسُول الله ﷺ فسألوه: «إنّا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به». فشكَوا ذلك إلى النبي ﷺ شكوى مجملة، فَقَال ﷺ: **«أو قد وجدتموه؟»** وجواب النبي هذا يدل عَلَى أنه كان منتظرًا منهم هذا السؤال، وهذه بشرى لحديثي العهد بالتمسّك[1]، وفي رواية أخرى قالوا: «لأن يصبح أحدنا حُمَمَة محترقة»، كيف يكون حال هذا الإِنسَان الذي يود لو أصبح فحمة محترقة ولم يتكلم بهذه الشكوك والخواطر، هذا قويّ الإيمان، فلهذا يقول ﷺ:

(١) لأن الغالب أن أكثر تسلّط الوساوس إنما هي على حديث العهد بالاستقامة والجدية في التديّن، أو حديث العهد بالإسلام. وتزول مع الوقت مع الاستعاذة بالله من الشيطان وحسن الظن بالرحمن وعدم الالتفات لها.

«ذلك صريح الإيمان»[١]. وفي رواية ابن مسعود: **«ذلك محض الإيمان[٢]»**[٣].

ومعنى حديث أَبِي هريرة وسوسة النفس أو مدافعتها، أي أن الحديثين هما في الحقيقة وَرَدَا في موضع واحد أنه سئل عن الوسوسة. فيقول المصنف: «فإنّ وسوسة النفس أو مدافعة وسواسها بمنزلة المحادثة الكائنة بين الاثنين، فمدافعة الوسوسة الشيطانية واستعظامها صريح الإيمان ومحض الإيمان»، ويمكن أن يحمل الحديث عَلَى أحد الأمرين:

الأمر الأول: أن يكون المشار إليه بأنه الموصوف **«محض الإيمان»** هو المدافعة، أي أنكم ما دمتم تدافعونها فهذا دليل عَلَى قوة إيمانكم، فلا تيأسوا. وهذه بشرى وخير لكم وليس شرًّا كما تظنون، والمدافعة والمجاهدة هذه هي محض الإيمان لأنها مترتبة عليه وناشئة عنه.

الأمر الثاني: أن يكون محض الإيمان هو وجود الوسوسة، لأنك في حالةٍ قبل الاهتداء لم تكن تجد شيئًا، فلمّا اهتدت وجدت، فوجودها دليل على وجود الإيمان، وإذا وُجد الإيمان أراد الشيطان أن يبارزه في الشكوك، إذًا أنت في هذه الحالة والحَمد لِلَّهِ على خير، وهذا يدل على أن الإيمان قد نما في قلبك عندما تجد

---

(١) مسلم (١٣٢) (٢١٠) أحمد (٩١٤٥)

(٢) أي أن صريح الإيمان ومحضه هو الذي يَمنعكم من قبول ما يلقيه الشيطان في أنفسكم من الوساوس، فلا تتمكن في قلوبكم. وليس معناه: أن الوسوسة نفسها صريح الإيمان، لأنها من فعل الشيطان ونفثه.

(٣) مسلم (١/٨٣) وأحمد (٩٦٩٤)

تلك الوساوس، ولذلك يقول الرَّسُول ﷺ: **«ذلك محض الإيمان»** أو **«ذلك صريح الإيمان»**.»[(١)].

واعلم ـ رحمني الله تعالى وإياك ـ أن من فروع ذلك؛ ألا يذيع علمًا عند من لا يفقهه كي لا يحمله على غير وجهه، فلربّما افتتن الناس بعلم لم يفهموه، وبكلام لم يتبينوه، وبمعنى لم يُقصد إليه، لذا فمن المتحتّم اللازم عدم إلقاء جوهر العلم الدقيق إلا لمطيقيه من أهل جودة الأفهام وقوّة القرائح وزكاء الأنفس، فكما أن من الطعام صعب الهضم للمعدة فكذلك من العلم ما هو صعب الهضم للعقل، فمن العلوم ما لا يهضمها ولا يستوعبها إلا أهل القرائح المتوقّدة الحادّة، ومن ذلك بعض مسائل القدر المحيّرة لبعض الأذهان التي لم تستوعب كامل معانيه، ولم تتبين حدود مراميه ونهايات مسموحات معلوماته، ولم تتضح لها تفاصيله، ولا يعني هذا أن من الناس من تُكْشَفُ له أمور من علوم الشرع على غير هدي من الوحي المنزل كخرافات بعض المتصوفة والباطنية الذين يتوهمون أن لهم أسرارًا وعلومًا استقوها من غير مشكاة النبوة لا يطّلع عليها غيرهم إما بمنام أو كشفٍ أو هاتفٍ أو غيره.. فجرّهم الشيطان بوساوسه إلى مباءات ضلال ومراقد فتن حتى دفنهم في أتون جهلها ووحول خيبتها!

إنما المقصود أنّ من العلوم غوامض لا يفقهها كل أحد، ومعانٍ تكون باعتبارات مشروطة لفهمها على وجهها، فلا يحسن عرضها لكل أحد حتى لا

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية للحوالي (١/ ١٥٦٢- ١٥٦٤) باختصار.

يحملها على غير وجهها، فهي من باب: «حدّثوا الناس بما يعرفون..»، وانظر كيف استمرأ بعض الناس الأمنَ من مكر الله تعالى لأحاديث لم يفهموها على سياقها، وخيرٌ لهم لو لم تبلغهم، فمن العلم ما يكون فتنة! وقد مر التنبيه لذلك، وقد قال الغزالي في ذلك وهي تحتمل المعنيين، وقد أشار في إحيائه إشارات غير موفّقة إلى معانٍ لها باطلة، ولكن نحسن في الشيخ أبي حامد الظن:

تَرَكتُ هَوَى سُعدى وَلَيلى بِمَعزلٍ وَعُدتُ إِلَى مَصحُوبِ أَوَّلِ مَنزِلِ

غَزَلتُ لَهُم غَزلًا رَقِيقًا فَلَم أَجِد لِغَزلِيَ نَسَّاجًا فَكَسَّرتُ

قال الشيخ صالح آل الشيخ: «العلم لا يوضع إلاَّ في مواضعه، فإذا خيف من إلقاء المسائل على بعض الناس محذور أكبر، فإنها تُكتم عنهم بعض المسائل من أجل الشفقة بهم، ورحمتهم من الوقوع في المحذور، فإن النبي ﷺ أمر بكتمان هذا النوع من العلم عن عامة الناس، وأخبر به معاذًا(١)، لأن معاذًا من الجهابذة، ومن خواص العلماء، فدلَّ على أنه يجوز كتمان العلم للمصلحة، إذا

(١) يعني حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: كنت ردف النبي ﷺ على حمار، فقال: **«يا معاذ، هل تدري ما حق الله على عباده؟ وما حق العباد على الله؟»** قلت: الله ورسوله أعلم. قال: **«فإن حق الله على العباد أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئًا»** فقلت: يا رسول الله، أفلا أبشر الناس؟ قال: **«لا تبشرهم فيتّكلوا»**. رواه البخاري ٣٥/٤ (٢٨٥٦) ومسلم ٤٣/١ (٣٠) (٤٩)

كان يترتب على إيضاح بعض المسائل للناس محذور: بأن يفهموا خطأً، أو يَتَّكِلوا على ما سمعوا، فإنهم لا يُخبَرون بذلك، وإنما تلقى هذه المسائل على خواص العلماء الذين لا يُخشى منهم الوقوع في المحذور[1]، فأخذ العلماء من هذا الحديث جواز كتمان العلم للمصلحة.

وإنما أخبر معاذ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بهذا الحديث عند وفاته، خشية أن يموت وعنده شيء من الأحاديث لم يبلِّغه للناس، كما في حديث علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «حدِّثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يُكذَّب الله ورسوله»[2]، يعني: لا يُلقى على كل الناس بعض المسائل التي فيها أمور يَخفى عليهم معناها، أو تشوِّش عليهم، وإنما يُلقى على الناس ما يفهمونه، ويستفيدون منه، أما نوادر المسائل، وخواص المسائل، فهذه تُلقى على طلبة العلم، والمتفقّهين المتمكِّنين، وهذا من الحكمة ووضع الشيء في موضعه، فإنك إذا كنت أمام عُصاة يشربون الخمور، ويزنون، ويسرقون، فقلت: الله غفور رحيم، الله قريب مجيب، الله سبحانه وتعالى يغفر ويسمح، فإنهم سيزيدون في الشرور، لكن حين تقول لهم: اتقوا الله، الله سبحانه وتعالى توعّد الزناة بالعذاب وتوعّد على السرقة وعلى المعاصي بالعذاب الشديد، فتذكر لهم نصوص الوعيد، من أجل التوبة. ولو أتيت عند متمسِّكين وطيبين فذكرت لهم آيات الوعيد، فهذا ربما يزيدهم وسواسًا، أو تشدّدًا، فأنت تذكر لهم آيات التيسير، وأحاديث التيسير،

(١) ومن هؤلاء المبشرون بالجنة، فقد أخبرهم لعظيم إيمانهم الذي لن تزيده هذه البشارة إلى إيمانًا بالله تعالى وإقبالًا على طاعته وزهدًا في الدنيا، والله أعلم.

(٢) البخاري (١٢٧).

والتسهيل، والرحمة، والفرَج، إلى غير ذلك، من أجل ألّا يزيدوا ويشتدّوا ويغلُوا، فكل مقام له مقال، وتوضع الأمور في مواضعها، هذا هو الميزان الصحيح. والناس ليسوا على حد سواء، كل يخاطب بما يستفيد منه ولا يتضرر به، فلا تأتي بآيات الوعد والرجاء عند المتساهلين، ولا تأتي بآيات الوعيد عند المتشددّين، بل تكون كالطبيب تضع الدواء في موضعه المناسب، هكذا يكون طالب العلم.

إذا كانت هناك أمور غامضة، لا يعرفها العوام، ولا تتسع لها عقولهم من المسائل العلمية، فلا تُلقى على العوام، وإنما تُلقى على طلبة العلم، وعلى الناس الذين يستوعبونها، ولهذا يقول ابن مسعود: «ما أنت بمحدث قومًا بحديث لا تبلغه عقولهم إلاَّ كان لبعضهم فتنة»(١)، وقال علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «حدّثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يُكذّب الله ورسوله»(٢).

فالحاصل؛ أن طالب العلم والواعظ والمعلم يجب عليه أن يراعي أحوال الحاضرين وأحوال الناس، ويعطيهم ما يحتاجون إليه من المسائل، ولا يُلقى عليهم المسائل الغريبة التي لم يتوصلوا إليها، فلو أتيت عند طلبة علم مبتدئين، فلا تلق عليهم غرائب المسائل التي لا يعرفها إلاَّ الراسخون في العلم، بل تعلمهم مبادئ مبسطة سهلة يتدرّجون بها شيئًا فشيئًا، لا تطلب من طالب مبتدئ أن يقرأ في صحيح البخاري، لأنه لم يصل إلى هذا الحد لكن لَقِّنه

---

(١) مسلم في مقدمته (٥)

(٢) البخاري (١٢٧).

الأربعين النووية، والأحاديث القريبة، وشروط الصلاة، وأحكام الطهارة، إلى آخره، وإنسان مبتدئ بعلم العربية، لا تأمره بقراءة كتاب سيبويه، لكن تأمره بقراءة الآجرُّوميَّة، ومسائل مبسطة، يدخل بها على اللغة العربية والنحو شيئًا فشيئًا، ولذلك ألف العلماء المختصرات والمتوسطات والمطوّلات، من أجل إن طالب العلم يمشي مراحل، شيئًا فشيئًا، الحاصل: أن كل شيء له شيء، وكل مقام له مقال»[1].

نسأل الله تعالى الفقه والدين، والعصمة من الشيطان الرجيم، وبلوغ رضوانه في جنات النعيم، فالسعيد من ولد آدم من رضي عنه الله تعالى، فهداه سبيله، وأنار طريقه، وجنّبه موارد سخطه، وعلّمه وأعمله بما علم، وهو المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا به.

فَالعَيشُ نَومٌ وَالمَنِيَّةُ يَقظَةٌ وَالمَرءُ بَينَهُما خَيالٍ ساري

وَالنَفسُ إِن رَضِيَت بِذَلِكَ أَو أَبَت مُنقادة بِأَزِمَّةِ الأَقدارِ

فِاقضوا مآرِبكم عُجالًا إِنَّما أَعمارُكُم سِفرٌ مِنَ الأَسفارِ

❊❊❊❊

(١) إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد (٥٠ – ٥٣).

متى يُشرع البحث في تفاصيل القَدَر؟

إنّ علم القضاء والقدر علم شريفٌ، وركنٌ إيمانيٌّ مُنِيفٌ، أَمَرَ اللهُ تعالى بمعرفته واعتقاده والإيمان به، وجَعَلَ ذلك ركنًا للإيمان لا يصحُّ إلا به، فعلم القَدَرِ كسائر علوم الشريعة التي أمرنا الله تعالى بالعلم والإيمان بها وعَقْدِ القلب عليها، لذلك جاء التأكيدُ عليه وتكرارُ الإخبار به في القرآن العظيم وتعليمُنَا إيّاه في حديث جبرائيل الشهير الذي جعله ركنًا لا يصحّ عَقْدُ الإيمان إلا به، ولا زال العلماء يُقرّرون مباحثه، ويبيّنون مراتبه، ويكشفون غوامضه، ويُقِيمون معانيه من أدلّته في قلوب الأمة، ويبيّنون لها آداب واحترازات طَلَبه؛ من عدم المنازعة والجدال فيه، وترك الخوض فيما لم يُؤذن لنا فيه مما طوى اللهُ علمَه عنّا لِحِكَمٍ ربّانية عظيمة يستحقّ عليها ربّنا كل حمد وشكر.

فعلم القضاء والقدر هو علم كغيره من علوم الشرع، ولكن لمّا كان هذا العلم مرتبطًا مباشرة بحياة الناس بالكليّة، مُحيطًا بمصائرهم في الدنيا والآخرة، مع ما جُبِلَ عليه البشرُ من القلقِ والترقّب والضّجر حيال ما يمسّ أحوالهم مباشرة، وكذا هَوَسِهِم بإلقاء اللوم على غيرهم حين نزول الضرر بهم أو فوات الخير عنهم، وَهْنًا في العزم، وعَيْلًا في الصبر، ونَقْصًا في العلم، وضَعْفًا في الإدراك، وأيضًا عجَلَتِهم في كلّ قضاء يخصّهم، فيخاصموا وينازعوا فيما يعنيهم وما لا يعنيهم، وما يدركونه وما لا يدركونه، إضافة إلى رغبتِهم الكامنة في معرفة المستقبل واختراق حواجز الغيب الموصد أمامهم، إلا من رحم الله

تعالى، مع ضميمة ارتباط القدَر بأسماء وصفات وأفعال الله تعالى كالعلم والخلق والحكمة والرحمة ونحوها.

فلأجل هذه الغرائز الأربع في جُملة البشر: القلق، وإلقاء اللائمة، والعجلة، ورغبة كشف الغد، مع ارتباط العلم والإيمان به بصفات الربوبية ـ والله أعلم ـ؛ كان لمسائل القدر خاصّيّة عن غيرها، لذا وجب أخذها بحذر، وتعاطيها بتؤدة، وتناولها بإتقان، لأنّ الزيغ فيها مفضٍ لعطب سريع وهلاك عظيم، فالانحراف فيه يؤدي لسوء الأدب مع رب العالمين، لأن القدر مرتبط بصفات الربوبية، فالقدرُ أمرُه الكوني الربّاني. وهذه الغرائز الأربع مردُّها لاثنتين: الكفر والجهل، ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۝٧٢﴾ [الأحزاب: ٧٢]، ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧﴾ [عبس: ١٧]. فيكفر نعم ربه تعالى جهلًا وجَهَالَةً، ومتى سَلِمَ الإنسانُ منهما أفلح وأنجح بإذن ربه تبارك وتعالى.

فباب القدر على شَرَفِهِ خطير جدًّا، وسعيدٌ مِن أهل الإسلام من لم تزغ قدمُه فيه، وبحمد الله تعالى فعامّةُ عقائد العوامّ فيه سليمة كسائر عقائد الإيمان، لأنها باقيةٌ على الفطرة، ولأنها تعتقد ظواهر الآيات والأحاديث التي تمرّ بها بلا تكلّف ولا تعقيد ولا تحريف، فتؤمن بها كما يتبادر للذهن من معانيها، فتسمع القرآن وتفهم بسليقتها معناه المباشر بلا قيود كلاميّة ولا قوانين فلسفية، فهو قد نزل بحروف عربية واضحة مبينة، فما تبادر للذهن من معاني الكتاب والسنة فهو الحقّ الذي نزل لإقامته في القلوب، فهي تؤمن بظواهر تلك المعاني المباشرة مع قطع طمعها عن الإدراك والإحاطة والتكييف، وهذا مضطرد في أفعال الله تعالى وصفاته، فعقيدة العامة في باب

القضاء والقدر على الجادّة السليمة ما دامت سالمةً من قُطّاعِ الطريق إلى الله تعالى صافٍ مشربها من كَدَرٍ وَلَوثِ أهل الأهواء.

ومن آتاه الله علمًا مُفَصّلًا فيه فهو على خير وهدى ورفعة في الآخرة، وبحمد الله تعالى فالقَدْرُ المبسوط منه في القرآن والسنة نافعٌ كافٍ، فهو علم ظاهر واضح، وليس بعلمِ أسرارٍ مخفيّة، ولا أمور مُغَيّبَة، ولا حبالٍ مُقطّعة، خلا ما كان خارج نطاق العلم والإدراك المأذون لنا فيه، فالمؤمن يتوقّف عنده حين تنتهي به أطراف الأدلة الشرعية وأدوات المعرفة الإنسانية، ويَسَعه ما وَسِع سلفَهُ الصالح، فيؤمن بما لديه ويُسلّم ما طُوي عنه لربه علّام الغيوب تبارك وتعالى.

ولكن الخطر يجري على مَنْ تَنَاوَله بنقصٍ في آلَةِ العلم أو زيغ في قصد القلب! فينشأ عن ذينِك أو أحدِهما تساهلٌ أو تجاوزٌ في تعاطي مُعضِلات هذا العلم. فإلى تلك الخَتْلَاتِ جَرَتِ الإشاراتُ إلى سدِّ بابه عمّن لم يتأهّلوا له. فقد ذهَبَتْ لُبني فما أنت صانعُ؟!

وكلّ إنسان بحكم قيام حياته على المقادير لا بدّ أن ترد عليه خواطر إيمانية أو شيطانية فيه بحسب مَسَاقِي قلبِه علمًا وإيمانًا وتوفيقًا وهدى وسعادة، أم جهلًا وكفرًا وخذلانًا وضلالًا وخيبة.

وكل البشر باختلاف نحلهم لهم معتقد في هذا الباب، إما بالإقرار به على اختلاف معتقداتهم فيه، أو بإنكاره كليًّا أو جزئيًّا، ولكن الجميع يتفق على ذلك الشيء المنتظم للحياة وجودًا أو عدمًا، ومتّفقون على أن الحياة في الغاية من

الاتّساق والانتظام حتى وإن اتّسمت نظراتهم بسوداوية، أو سوء ظنٍّ، أو قولًا بتناقضٍ، أو كفرٍ بالله عظيم.

وغالب اتجاه إنكار القدر أنه يكون من جهة الإحساس بالشقاء والحرمان والظلم ونحو ذلك، لهذا كانت الضرورة ملحّة جدًّا للعلم بالمعتقد الحقّ في القضاء والقدر، فإنّ معتقد أهل السنة فيه هو في الغاية من الإحكام الشرعي والاتّزان العقلي والاتساق الروحي والسلام النفسي والحركة المباركة ضربًا في الأرض وعملًا ليوم العرض، ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٥﴾ [يونس: ٢٥].

فليس للناس سكينة لقلوبهم وسلامة لتصوراتهم وراحة لعقولهم إلا بالعلم اليقيني أن حياتهم كلها ومصيرهم مرتبط بعلم الله الرحيم تعالى وكتابته وعموم مشيئته وخلقه، ولولا ذلك لم تقم لدينهم قائمة، فحتى الأديان المحرفة نجد أن نظام القدر فيها قائم سامق حاضر في أذهانهم مع غبشٍ غير قليلٍ في تصوّرهم له، وأن أمرهم كله متعلق بقدر الله تعالى واختياره وقضائه. لأن الإيمان بالقدر سلوى وعزاء وأمل ورجاء، واتّكاء على ركن شديد من لأواء الحياة. لذا قال بعض مفكريهم الشكوكيّين: لو لم يوجد مفهوم القدر لدينا لأوجدناه ضرورة!

فالإيمان بالقدر مرتبط بالدنيا والآخرة، ومنتظم لكل أمر الدين والدنيا، لهذا وصفه ابن عباس رضي الله عنهما بنظام التوحيد، فقال: «القَدَرُ نظام

التوحيد، فمن وحّدَ الله وكذّب بالقدر؛ نقضَ تكذيبُهُ توحيدَه»[(١)]. فكيف يقوم توحيد الأمرِ ـ أي: العقيدة والشريعة علمًا وعملًا ـ لدى من يُكذّب بتوحيد الخلق؟! فمشكاتهما واحدة، ومَعِينهما واحد، وتوحيد الربوبية ومنه القَدَر أساسٌ لتوحيد العبادة وهو اتّباع الأمر، فمن كذّب بالقدر فقد كذّب بالعلم والكتابة والمشيئة والخلق والحكمة والإرادة وغير ذلك مما يقتضي بطلان توحيد الإلهية ونقض الأمر لديه، فالإيمان بالقدَر هو سلك نظام عقائد التوحيد، فمن كذّب بالقدر انتقض دينه.

فمعنى كلام ابن عباس رض الله عنهما: أنّ الإيمان بالقدر مرتبط بأصول الدين وعِلْمِيّاته وعَمَلِيَّاته وبشعب الإيمان وأمور الشريعة كلها مثل ما ينتظم السلك خرزات السّبحة، فمن كذّب بالقدر انتقضت معتقداته وتناقضت تصوراته وتناثرت في بيداء الضياع حظوظه وأمنياته، لأنه قد قطع السلك الناظم لها وهو إيمانه بالقدر. لذلك كانت النعمة من الله تعالى عظيمة جدًّا بتعليمنا القدر الكافي من القَدَر، ولك أن تتخيل ضدَّ ذلك حتى تعلمَ قدْرَ النعمة الربّانية عليك بمعرفته والعلم به والإيمان به، والضِّدُّ يُظهِرُ حُسْنَه الضِّدُ، وإنّما يعرف قدر النعمة مَنْ فقدها، فلله الحمد كلّه كما ينبغي له.

---

(١) اللالكائي في شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة ٢/٦٨٩ (١١١٢، و١٢٢٤)، وعبد الله ابن أحمد في كتاب السنة ٢/٤٢٢ (٩٢٥، ٩٢٨)، والآجري في الشريعة ص: (٢١٥).

إنّ علم القضاء والقدر[1] علمٌ فاضل شريف كسائر علوم الشريعة، بَيْدَ أنّ مُتنَاوِلَه يلزمه العناية الشديدة احترازًا وحذرًا من أمرين: الضلال العلمي والزيغ السلوكي الأخلاقي.

فالأول: الضلال العلمي في القَدَر: وهو منقسم لنوعين، ضرب الكتاب ببعضه، ورجم بالغيب، وتفصيلهما كالتالي:

الأول: الإيمان ببعض الكتاب دون بعض، أو الانحراف عن مفهوم الأدلة فيه، ومن ذلك الكلام في القدر بالهوى والرأي المجرد معارضة للدليل. كما أنه ينشأُ عن الإيمان ببعض الكتاب دون بعض تنكّبُ مُؤدَّى الأدلةِ الشرعية

---

(١) قال العلامة العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الفرق بين القضاء والقدر: «هاتان الكلمتان مترادفتان إن تفرّقتا، ومتباينتان إن اجتمعتا. فإذا قيل: القضاء بدون أن يقترن به القدر كان شاملًا للقضاء والقدر، وإذا قيل: القدر دون أن يقترن به القضاء كان شاملًا للقضاء والقدر أيضًا. وهذا كثير في اللغة العربية: أن تكون الكلمة لها معنى عام عند الانفراد، ومعنى خاص عند الاقتران. فإذا قيل: القضاء والقدر جميعًا صار القضاء: ما يقضي به الله تعالى من أفعاله أو أفعال الخلق، والقدر: ما قدّر الله تعالى في الأزل وكتبه في اللوح المحفوظ، وذلك لأن المقدور سبقه تقدير في الأزل، أي: كتابة بأنه سيقع، وقضاء من الله تعالى بوقوعه فعلًا. وإن شئت فقل: الكتابة قَدَرٌ والمشيئة قضاء، والله تعالى يكتب الشيء، بل كتب الشيء في اللوح المحفوظ، ثم يشاؤُهُ سبحانه وتعالى في الوقت الذي تقتضي فيه حكمته وجوده فيه، الثاني قضاء والأول قدر. فصارت هاتان الكلمتان إن انفردت إحداهما عن الأخرى شملت معنى الأخرى، وإن اجتمعتا صار لكل واحدة منهما معنى». فتاوى نور على الدرب للعثيمين (٢/٤).

التي جاءت بالعلم التامّ والبيان الكامل والحق الكافي صافيًا نقيًّا كما هو، فحدّدتْ مراتب القدر وفصّلتها، وأظهرت أحوال أهل الإيمان بالقضاء والقدر على الإجمال والتفصيل. فمَن قَصَرَ مَشْرَبَه عليها سَلِم بإذن الله تعالى من كَدَرِ مشارِبِ الأهواء.

وتأمل كيف ضلّ في هذا الباب القدرية والجبرية ومن لحقهما، فإنهم ضربوا الكتاب ببعضه، فآمنوا ببعض وكذّبوا بعضًا، ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البَقَرَة: ٨٥]، فكل فرقة أخذت بجانبٍ فيه، وقبضت عليه، وكفرت بجانبٍ آخر منه، فكانَ أنْ قبضوا على الريح، جزاءً وِفَاقًا! فكمالُ الحقِّ في مجموعه لا في تفريقه، والضلالُ فيه بإنكار جزءٍ منه، ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ۝٧٨﴾ [النِّسَاء: ٧٨].

فالقدرية أنكرت بعض علم الرب تعالى وكتابته وعموم مشيئته وعموم خلقه، على اختلاف بينهم كثير، فمنهم من أشبه الدهرية، ومنهم الغلاة، ومنهم ما دون ذلك بأن أقرّ ببعض المراتب كالعلم والكتابة دون بعض. أما الجبرية فآمنوا بقدَر الله تعالى إيمانًا مُشوّهًا بأن نفوا مشيئة الإنسان التي ذكرها الله في محكم القرآن، وإن أسماها بعضهم بالكَسْبِ ونحو ذلك، وهذا من خَتْلِ الفكر وخَطَلِ العلم لأنها آيلة لإنكار ما جاء صريحًا في القرآن العظيم وبداهة العقول من إعطاء الله تعالى عبده إرادة يحاسبه عليها، فهو ميسّر لما خُلق له، ولله الأمر من قبل ومن بعد، ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشَّمس: ٨]، ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البَلَد: ١٠]، ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ

ﭐلۡأٓخِرَةَ﴾ [آل عِمۡرَان: ١٥٢] ١٥٢، ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩﴾ [التَّكۡوِير: ٢٨ - ٢٩].

ومن أسباب ضلالهم في باب القدر تسويتهم بين مشيئة الله تعالى ومحبته، وعدم تفريقهم بين الإرادة الشرعية والإرادة الكونية، ومما تفرّع عن ذلك الضلال العلمي الرضا بالمعاصي، وهذه ضلالةٌ للدينِ فاقِرَةٌ، وأمثلتُها في المنسلخين من الأمر تطول، ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٣﴾ [الرَّعۡد: ٣٣].

ولاحِظ أنّ هذا الضلال العلمي ناشئٌ عن الزيغ المسلكيّ كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ [الصَّف: ٥]، وأنّ الذنب سبب لتسلّط العدوّ الرجيم، قال الله جل شأنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ﴾ [آل عِمۡرَان: ١٥٥]، وقال سبحانه وبحمده: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المَائـِدَة: ٤٩]،﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾ [النِّسَاء: ٧٩]، والذنوبُ جِرَاحَاتٌ، ورُبَّ جرحٍ وقع في مقتل، فخُطَا الخطايا سلاسلُ لحتوف الأديان.

فلو أنهم تأدّبوا مع كتاب الله تعالى وأجلّوه وعظّموه، وآمنوا بالكتاب كله بالفعل والتطبيق لا بمجرد التلفظ والدعوى؛ لهداهم سبلهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «تكفّلَ الله لمن قرأ القرآن، وعمل بما فيه ألّا يضلَّ في الدنيا ولا يشقى في الآخرة. ثم قرأ هذه الآية: ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣﴾ [طه: ١٢٣]»(١)، فعلى قدْرِ الإعراض يكون الضلال.

---

(١) الحاكم في المستدرك (٢/٣٨١)، وصححه، ووافقه الذهبي.

وقال سبحانه مبيّنًا أن الهدى ـ كلّ الهدى ـ في كتابه العظيم: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النِّساء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩]، وقال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [مُحَمَّد: ٢٤]، فأقفال القلوب تفتح بالتدبر المخلص الصادق المتّبع، والقرآن العظيم يستجيشُ القلوب الى الإيمان، ويضيءُ لها عمودَ النور في عتَماتِ الفتن، فيقفو أثر الرسول ﷺ إلى رياض رضوان الملك العلام. قال ابن أبي العزِّ الحنفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وينبغي أن يُعرف أنّ عامة من ضلّ في هذا الباب، أو عجز فيه عن معرفة الحق؛ فإنما هو لتفريطه في اتباع ما جاء به الرسول، وترك النظر والاستدلال الموصل إلى معرفته، فلما أعرضوا عن كتاب الله ضلُّوا»(١).

النوع الثاني من الضلال العلمي: الكلام في باب القدر بلا علم، والرجم فيه بالغيب، وذلك بأن يتطاول بذهنه إلى ما ليس له، ولم يؤذن له فيه، لأن بعض علوم القدر مطويّة عنّا، إما بطي الخبر الغيبي أو بالعجز عن إدراكه، فهي من الغيب الذي استأثر الله تعالى به أو بمن أذن له، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٧٩]، ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (١١).

وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣]، ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [الجن: ٢٦ - ٢٧].

ويلحق بهذا النوع ما زاد من العلوم عن حدِّه المُقَدَّرِ لنا أن نطّلعَ عليه، فمن ذلك علاقة القَدَرِ المُعلّقِ بالقَدَرِ المُبْرَمِ، ومن أمثلته ما صحّ في السنّة من دفع البلاء بالدعاء، وإطالة العمر بالبرّ والصلة ونحو ذلك مما استفاضت به الأحاديث، فالله تعالى قدْ قدّرَ الأقدارَ، وجعل منها قدَرًا مُحكمًا مقضِيًّا مُبرمًا لا يدخله تغيير البتّة، وهو ما كتَبَهُ في اللوح المحفوظ فهو قضاءٌ مُبْرَمٌ، وكلّ الأقدار راجعة إليه في النهاية.

وجعل هناك أقدارًا معلّقةً بأسبابها لحكمة بالغة، فهذه يدخلها التغيير بأمر الله تعالى، كالتقدير العُمْرِيِّ عند نفخ الروح في الجنين، والتقدير السنوي عند ليلة القدر، والتقدير اليومي، ونحو ذلك مما في صحف الملائكة، فهي أقدارٌ تتغيّر مع وجود أسبابها كالدعاء والبرّ، وهذه الأقدار المُعلّقة تجري مجرى الحياة العامة وكدح الناس وأعمال برّهم وفجورهم، وتعلّقها بمصائرهم، فالله تعالى قد جعل الإيمان والعمل الصالح سببًا لرضوانه والجنة، وجعل الكفر سببًا لسخطه والنار، فالخلق يسعون ويعملون، وكلٌّ ميسّر لما خُلق له، فكما أن العمل الصالح سبب فكذلك الدعاء سبب والصلة سبب، وإن كان للدعاء والبرّ مزيدُ خصيصة اهتمام لتخصيص ذكرهما في هذا الباب، لكنهما كسائر الأسباب المُعلّقة بها أقدار الله تعالى، فإن وُجدت أسبابها وقعت مُسبّباتها بإذن الله، وإن تخلّفت لم تقع بإذن الله، والذي سيكون هو المطابق أزلًا لما سُطِرَ من القدَرَ المُبرم في اللوح المحفوظ.

فهناك أقدار ماضية مُبرمة لا تتغيّر، وهناك أقدارٌ مُعلّقة بأسباب مرتّبة عليها. فالأعمال الحسنة والأفعال السيئة لهما أثرٌ بإذن الله تعالى في الأقدار المُعلّقة، ولعلّ هذا من حِكَمِ التكاليف الشرعية والابتلاء الربّاني لبني الإنسان بأن أعطاه قُدرةً حقيقية، وإرادةً حرّةً، واختيارًا واضحًا، يستحق بحسَبِهِ الجزاء يوم المعاد، ومهما كان ذلك الخيار فهو داخلٌ في دائرة القدر المُبرم المحتوم، يُساقُ إليه عن طريق التيسير، فهو مُيَسَّرٌ لما خُلق له. وهذا من آيات الله تعالى الباهرة، وقدرتِه الهائلة، ومشيئتِه النافذة، وحكمتِه الكاملة، وغِنَاهُ التّام، وعدلِه المبين، ورحمتِه التي وسعت كل شيء، وخَلْقِه المُحْكَمِ، وقَدَرِه المُتّسق، ودِينِه الشافي الكافي. ومن اتضح له ذلك انكشفت له المسألة بإذن الله تعالى. فإلى هنا ينتهي علمنا بهذا القدْر من القدَر، أمّا ما وراءه فهي أسرارٌ ربّانيّة في القدَر قد طوى الله علمَها عن أنامه، وتعبّدهم بالتسليم له بها، والإقرار بشمول علمه وعموم مشيئته وعظيم حكمته وعدله ولطفه وبرّه ورحمته.

والمقصود؛ أنّ العلم بكيفيّة وتفاصيل رجوع القدَرِ المُعلّق للمُبرم، وأنه وإن أُمِرْنَا بالسعي فيه لأنّ له أثرًا لا نُحيط به، ومع هذا فهو لا يختلف عمّا في اللوح في النهاية، فهو وإن كان من جهة التّيسير ابتداءً فنهاياته وغاياته مما لم نُحِطْ به خُبْرًا، فهو ممّا استأثر الله تعالى بعلمه، فمِنْ ظُلْمِ النفسِ إقحامُها فيها ورَائِيّاتِه، فالغيوب يبقى علمها لعلّامِها تبارك وتعالى، فَمَا لنا فيها إذنٌ ولا علمٌ، والله المستعان.

وإنّ مِن القدر الغَيبي علمُ الله تعالى بالأمور الغيبية في الأزل والحاضر والمستقبل، وهذا غيبٌ محض، فالخوض في أمور القَدَر بلا أَثَارَةٍ من الوحي

قولٌ بالظنِّ، ورجمٌ بالغيب، وخيبةٌ للرجاءِ، واتّباعٌ لسَنَنِ الأمم الضالة، ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾ [التَّوْبَة: ٦٩].

ومن توابع ذلك الضلال العلمي قياس أفعال الله تعالى بأفعال المخلوقين، فيُحسّنون ويُقبحون بآرائهم، وهذا من أكبر أسباب الضلال. ومن فروعه الأثيمة القدْحُ في حكمة الله تعالى، وهذا ضلال وزيغ وسوء أدب مع جنابِ من لا يأتي الخير إلا منه، ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأَنْعَام: ٩١]، ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لُقْمَان: ٢٠]، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النَّحْل: ٥٣]، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ۝٤٥﴾ [فَاطِر: ٤٥].

ومن الضلال العلمي تطبيق مقاييس البَشَر القاصرة ومفاهيمهم الناقصة على قضاء الله وقَدَرِه الرباني الإلهي، وهذا من أكبر ضلال من ضل في هذا الباب، وهو من أسباب اعتراض المخذولين على الأقدار والأرزاق ونحوها، ولهذا قال الزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القَدَرُ رياضُ الزندقة؛ فمن دخل فيه هَمْلَجَ»[1]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦﴾ [الانفطار: ٦].

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٢/٧٨٤) والهَمْلَجة: السير في سرعة وبخترة، ويقال: شاة هملاج أي: لا مُخّ فيها. انظر: لسان العرب (٣/٨٣١).

الثاني: الزيغ المسلكي في باب القضاء والقدر: وهو كثير في الناس، وأنواعه طويلة الذيول، مختلفة المسارب، ويجمعها عدم التسليم لله تعالى.

ومن ذلك أن يعتقد الأمر ثم يبحث عن دليل يلوي عنقه إليه، أو أن يتنازع فيه نزاع المراء والعلوّ في الأرض لا التواضع للحق، ومن ذلك تناول مسائل القدر بالجَدَلِ المُفضي إلى إثارة الشبهة دون إقامة الحجة، وكذلك الخوض في مسائل لا يزيد العلم بها ولا يضرّ الجهل بها، بل قد يصل الأمر بالخائض فيها بلا بصيرة لانتكاسٍ إيماني وارتكاسٍ علمي وحيرة فكرية، فالإيمان بالقدر مبنيٌّ على علم يقينيٍّ راسخٍ، لا على شكٍّ وارتيابٍ ونفاق، فالأيمانُ يقينٌ والنفاقُ رِيبةٌ. وقد يُخذل من دخل بابًا لم يُؤمر به ولم يؤذن له به فتعلق بقلبه شبهاتٌ تُزعزعُ يقينه وتقوّضُ ثباته فيلقى اللهَ شاكًّا في بعض أمره عياذًا بالله تعالى، ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٧]، لكن متى استقرّ الإيمان في الأخلاد والضمائر؛ أثمرت شجرته جنى البرّ وخير الذخائر.

وتدبر قول الله تبارك وتعالى في شأن الغافلين المُعرضين: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ

مُشۡتَرِكُونَ ۝٣٩ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٤٠﴾ [الزُّخْرُف: ٣٦ - ٤٠].

فخواطر السوء ليست مجرد أفكار نفسية ذاتية شريرة، بل بعضها وسوسة حقيقية من مخلوق حقيقيّ مكلّف شرير، له القدرة بإذن الله على الوسوسة والأزّ في طريق الشرّ تسليطًا وابتلاء، ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا ۝٨٣﴾ [مَريَم: ٨٣]، وهذا مِن مقابلة الغافل بما فعل وفرّط وأعرض واستغنى، فلو أنه أقبل على ربه لأمدّه بملائكة كرام بررة، يربطون على قلبه، ويَهدُونه لفلاحه بإذن الله تعالى.

فالله تعالى قد يسّر لعبده أمورَ سَدَادٍ منها القرين الملائكي في مقابل القرين الشيطاني، فعليه أن يُحسن سياستهما بحُسْنِ وفادة الملَك الكريم والاستعاذة من الشيطان الرجيم، ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧﴾ [الفَتْح: ٧]. ولهذا تَعَيَّنَ على المؤمن أمران: كثرة الاستعاذة، ودوام الذكر واليقظة.

والجدلُ الباطلُ علامةُ خذلان فعن أبي أُمامَة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: قال رسول اللهِ ﷺ: «**ما ضَلَّ قومٌ بَعْدَ هُدًى كانُوا عليهِ إلّا أُوتُوا الجَدَلَ**»، ثُمَّ تَلا رسول اللهِ ﷺ هذه الآيَةَ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨﴾ [الزُّخْرُف: ٥٨][1].

---

(١) المسند (٥/٢٥٦) والترمذي (٣٢٥٣) وابن ماجه (٤٨) وتفسير الطبري (٢٥/٥٣) وحسنه الألباني.

ولكن الجَدَلَ بالهدى والحقِّ لإقامة الحقِّ محمودٌ مشكور من الله الحقِّ، كما قال تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النَّحل: ١٢٥]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العَنكَبُوت: ٤٦].

ولا يدخل في التَّنازع المذموم منازعةُ ومجاهدةُ الفرق الضَّالة من المشركين وأهل القبلة ومجادلتهم بالحقِّ؛ بل هو من الجهاد العالي، وهو جهاد اللسان والبيان، وهو جهاد المرسلين، والله تعالى قد أُمرنا به، ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ٥٢﴾ [الفُرقان: ٥٢]، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٦٢﴾ [الحَج: ٦٢].

ومن الزيغ السلوكي في هذا الباب أيضًا: أسئلة التعنّت في القدر، والله تعالى يقول: ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ٢٣﴾ [الأنبِيَاء: ٢٣]، ﴿وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ١٣﴾ [الرَّعۡد: ١٣].

ومنه أيضًا: الاحتجاج بالقدر على المعصية كقولهم: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا﴾ [الأنۡعَام: ١٤٨].

ومن الزيغ السلوكي في باب القدر أيضًا: الاعتراض على القضاء والقدر واللّدَدُ والمخاصمة والمُماراة كفعل المشركين، ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [الزُّخرُف: ٣١-٣٢].

وأوّل من خاصم ربه في القدر إبليس أعاذنا الله منه، فإنه قال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾ [الحِجۡر: ٣٩]، فمن خاصم في القدر فشيخه أبو مرَّة الرجيم، ﴿كَذَٰلِكَ

﴿يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ١٦٧﴾ [البَقَرَة: ١٦٧].

قال معاذ العنبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سمعت عمرو بنَ عبيد يقول ـ وذكر حديث الصادق المصدوق ـ: «لو سمعتُ الأعمش يقول هذا لكذَّبْته، ولو سمعت زيدَ بن وهب يقول هذا ما أجبتُه، ولو سمعتُ عبدالله بنَ مسعود يقول هذا ما قَبِلْتُه، ولو سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول هذا لرددتُه، ولو سمعت الله تعالى يقول هذا لقلت له: ليس على هذا أخذتَ ميثاقَنا!»[1] تعالى الله عمّا يقول الظالمون علوًّا كبيرًا، عائذًا بربي من الاغترارِ بحلم جلّ جلاله وكرمه، ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأَنعَام: ٩١]، ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ٣٢ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٣٣﴾ [يُونس: ٣٢ - ٣٣]، ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ٤٥﴾ [ق: ٤٥]، ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ٣٠﴾ [الأَعرَاف: ٣٠]،

---

(١) تاريخ بغداد (١٢/١٧٠) للخطيب البغدادي، وتهذيب التهذيب (٢٤/٧١) لابن حجر، وميزان الاعتدال (٣/٢٧٨)، وقال عبد الله بن سلمة الحضرمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سمعت عمرو بن عبيد يقول: لو شهد عندي عليٌّ، وطلحة، والزبير، وعثمان، على شِراك نعلٍ؛ ما أجزتُ شهادتهم». ميزان الاعتدال (٣/٢٧٥). وعن عمرو بن النضر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «سئل عمرو عن مسألة وأنا عنده فأجاب، فقلت: ليس هكذا يقول أصحابنا، قال: ومن أصحابك لا أبا لك؟! فقلت: أيوب، ويونس، وابن عون، وسليمان التيمي، قال: أولئك أرجاسٌ أنجاسٌ، أمواتٌ غير أحياء». نعوذ بالله من العُجبِ والضلال، والشرُّ من معدنه لا يُستغرب. وانظر: الكامل في ضعفاء الرجال (٥/٩٩) لابن عدي، وتاريخ الإسلام (٣/٨٤).

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأعراف: ١٤٦ - ١٤٧].

هذا؛ وإنّ من المخالفات المسلكية في هذا الباب الأُغلوطات، ولقد كان السلف يزجرون عن الأُغلوطات ومعناها: السؤال عن عُضَلِ المسائل والمشكلات على وجه التعجيز لا الاستهداء، فيُغالَط بها العُلماء ليَزِلُّوا فيها، وكذلك المسائل التي لم تقع بعْدُ، كذلك ما لا يُحتاج إليه من كيف وكيف. فجامع الأغلوطات: السؤال على غير نيّة الهداية، والله المستعان(١).

(١) وقد روى أحمد (٢٣٦٨٨) وأبو داود (٣٠٦٦) عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ: «**نهى عن الغلُوطات**» وضعفه الألباني والأرناؤوط. لجهالة عبد الله بن سعد الصنابحي. وقال الساجي: ضعّفه أهل الشام. والغَلُوطَاتُ: بفتح الغين: غَلوط، كشاة حَلوب، وناقة رَكوب، ثم يجعل اسمًا بزيادة التاء، فيقال: غَلوطة، وهي المسألة التي يُغلَّطُ بها العالم، فيستزلُ بها، وقيل: الصواب بضم الغين، والأصل فيها الأُغلُوطَات، فطرحت الهمزة وألقيت حركتها على الغين. ومن رواها الأغلوطات فهو الأصل.

قال أبو عبيد الهرويُّ: «الغُلُوطات الأصل فيه الأغلوطات، ثم تركت الهمزة. كَما تَقُولُ: جاءَ الأَحْمَر وجاء الحمرُ بِطَرح الهَمْزَة». وفي نسخة: «جاءَ لَحْمَرُ». الغريبين في القرآن والحديث ١٣٨٢/٤. والنهاية في غريب الحديث والأثر ٣٧٨/٣. قلت: ولا تزال لغة

=

قال الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنّ اللهَ إذا أراد أن يَحرم عبدَهُ بركَةَ العِلم؛ ألقى على لسانه المَغَاليط، فلقد رأيتُهم أقلّ الناس عِلمًا»(١).

ولما سأل رجل أبيّ بن كعب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن مسألة فيها غموض، قال له: «هل كان هذا بعد؟»، قال: لا، قال: «أَمهلني إلى أن يكون»(٢).

وعن أمير المؤمنين عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «سَلُوني»، فسأله ابن الكواء، فقال: «ويلك سَلْ تفقُّهًا، ولا تَسَلْ تعنُّتًا»، وفي موضع آخر قال له: «إنك لَذَهَّابٌ في التِّيه، سل عمّا ينفعك أو يعنيك»(٣).

وعن الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «شِرَارُ عباد الله ينتقون شرار المسائل يُعَمُّون بها عبادَ الله»(٤).

وإذا تأملت غَلُوطَات الناس تجد أن سوادها التعنّت في القدر لغموض بعض مسائله واتّصالها بحياة العامة.

=

إسقاط الهمزة في بعض السياقات معمولًا بها في نجد، فيقولون: أحَمَر وحَمَر، وأخضر وخضَر.

(١) الفقيه والمتفقه للخطيب (٢/ ٢٠، ٣٠٣)، والشريعة للآجري (١/ ٤٨٦).

(٢) معالم السنن (٤/ ١٧٢).

(٣) جامع بيان العلم (٧٢٦).

(٤) جامع بيان العلم (٢٠٨٤).

وبالجملة؛ فالعلم بالقَدَر ضروري للإيمان، وركن فيه، إذ هو من أصول الإيمان التي يجب تعلّمها، فمن مسائل القَدَر ما يكون العلم والإيمان به ركنًا للإيمان، ومنها ما يكون العلم والإيمان به كمالًا للإيمان لتعلّقه بعلم الشريعة وأفعال الرحمن، ومنه مسائل لا فائدة علميّة ولا عبادة عمليّة ولا تزكيةً إيمانيّة تُرجى من خوضها وبحثها؛ فالأصل عدم الدخول فيها إلا للحاجة كردِّ شبهةٍ ونحو ذلك.

أمّا القدْرُ المنهيُّ عنه في مسائل القَدَر فهو على نوعين:

أولاهما: غيب لا يعلمه الا الله تعالى، فالخوض في ذلك رجم بالغيب وتكلّفُ مالا علم لنا به.

والثاني: التنازع والمِرَاء وضرب النصوص ببعضها. فمتى سَلِمَ المرءُ من تناول هذين المحذورين؛ شُرِع له بحث مسائل القضاء والقدر، وساغ له الكلام فيه بإيمان وعلم وأدب.

هذا؛ وإن مراعاة هذين الأمرين وإن كانت مضطردة في سائر مسائل الشريعة إلا أنها في باب القضاء والقدر أشدّ حضورًا لتعلّقها المباشر بحياة وفكر ومصائب ورغائب ومصائر الناس من جهة، وارتباطها الوثيق بأمور الدين كلها من جهة أخرى، فبذلك تمّ ربطُ الدنيا بالآخرة، والعلم بالعمل، والتكليف بالمصير، والابتلاء بالديانة، وحرثِ العبدِ بأمرِ الربِّ؛ فمِن هنا كان نزاعُ الناس فيها كثيرًا، واضطرابُهم حيالَها عظيمًا، لذلك جاء التشديد في الخوض والتنازع والمخاصمة فيها ما لم يأت في غيرها، والله أعلم.

هذا؛ وقد يكون بحث بعض نوازل مسائل القدر الحادثة فرضًا على بعض الأعيان إذا قام سبب ذلك. وقلنا بمشروعيته في عويص مسائل القدر الحادثة لمن كان من أهل العلم حين وجود سببه؛ لأنّه من جهاد الدفع العلمي الكِفائي عبر توضيح الحدود الشرعية الحقيقية للمسألة بأدلتها وشواهدها، وصدِّ شبهات الضَّلالة، وردِّ إيرادات العَمَاية، ودفع الصيال العادية، من الشبهات الخاطفة والأهواء الضالّة والنوازل الحاضرة عن الأمة، وهي شبهاتٌ يثيرُها فئامٌ قد تقلّدوها عمّن غَبَرَ من أهل الأهواء المُضلّة، فلكلِّ بدعةٍ وارثٌ.

واعلمَنْ يا مُحِبُّ ـ رحمني الله وإياك ـ أنّ طريقة دفع عامَّة الشُّبَه في تلك المسائل الحادثة في باب القدر وغيرها إنما يكون بتوضيح حقيقتها وإزالة ما التبس من تمويهها، فالحق يبقى حقًّا، والدين ليس في حاجة لعلم جديد مستأنف، فهو كاملٌ تامٌّ مَرْضِيٌّ لا يشادّه أحدٌ إلا غلبه.

فالمقصود ـ وهذا مهم جدًّا ـ هو أنّ بيان ضلال المسائل في هذا الباب عبر بحث المسائل ليس لتثويرِ علمٍ جديدٍ فيها، فلا جديد في علم الشرع؛ إنما الغرض منه إفراد الدخيل عن الأصيل، وتمييز الحقِّ المَكِينِ من الباطل المُدَّعَى، فمتى رُدَّتِ المسألة النازلة لأصلها الشرعي وحدودها وحقيقة معناها وكشف أغلاطِ مناطاتها فإنها تسقط تلقائيًّا، فالحق في القرآن العظيم واضح بحمد الله تعالى، ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ١٤٧﴾ [البَقَرَة: ١٤٧].

فالحقُّ شمسٌ والعيونُ نواظرٌ ... لكنّها تخفى على العميانِ

ولتقريب المعنى؛ فلو أنّ مسألة ما قد بُنيت على حديث باطل؛ فإنّ بيان بطلان سنده كافٍ عن بحث متعلّقات المسألة في معناه، لأن ما بُني على باطل فهو باطل.

وكذلك لو أنها بنيت على نصّ صحيح لكنها فُسّرت على فهمٍ مغلوطٍ لا يحتمله النص؛ فإنّ إثبات عدم احتمال المعنى المُحدَث لذلك النص كافٍ في إسقاطها.

وكذلك لو كانت الشبهة مبنية على أغلوطة فكرية أو مظنونة عقلية ثم سيقت للناس على أنها قطعية عقلية، فيسوّقُ الوهمُ بصورة يقين، وأشياء أقلّ ما يقال فيها أنها ظنية لا قطعية؛ فدفع ذلك يكون عبر تمييز الحدود الفاصلة القطعيّة لليقينيّةِ العقلية عنها، فإذا ظهرت الحقيقة اليقينية واتّضحت سقطَ ما أُلصق فيها من أوهام واضمحلَّ ما خالَطها من خاطِئ الإرادات وغالِطِ الأفهام، وانماعَ شمعُ الزيف عبر نارِ تحقيقِ المناط وتحريره وتنقيحه، وانقشع بحمد الله غينُ الهوى بشمسِ الهدى، ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ٣٢﴾ [يونس: ٣٢]. وهذا ما يسمّى عند الأصوليين بتنقيح المناط، أي: تنقية الأمر المعيّن وتخليصه من غيره، فيُنزع عنه ما ليس منه، وذلك بأن ينص الشارع على حكمٍ عقيب أوصافٍ معينة، فتُلغى الأوصاف غير المؤثرة في الحكم، ثم يعلق الحكم على ما بقي مما هو معتبر لها، وهذا مرادنا هنا، لأن الباطل يسقط بنفسه حين كشف حقيقته، فيذوب حينها ثلجُ الضَّلال ويستبين فوقه مَرْجُ الحقِّ، فإيراده مردودًا بالبراهين الشرعية يهتك ستار تدليسه ويكشف قناع تلبيسه عن وجه الحقيقة الأبلج الناصع المبين.

والشبهة إذا زالت فإن الإيمان يدفع ما بعدها بإذن الله تعالى. فإن ساعد على ذلك صلاحُ ذي الأمر وقوّته اجتمع خيرهما بإذن الله تعالى، كما قال أبو تمّام:

فَما هو إلَّا الوَحيُ أو حَدُّ مُرْهَفٍ   تُمِيلُ ظُباهُ أخْدعَيْ كُلّ مائِل
فهذا دواءُ الدّاءِ من كُلِّ عالِمٍ   وهَذا دَواءُ الدّاءِ من كلّ جاهِلِ[1]

والحاصل؛ أن بحث هذه المسائل الشائكة إنما يكون في الغالب بهذه الطريقة، وهي كما ترى مفتقرة إلى معرفة الحدود الشرعية للمسألة الواحدة بفهمها السليم أوَّلًا حتى لا يُدخل فيها ما ليس منها، أو يُنفي عنها ما كان منها، ثم استيعاب أدلتها، وربط معانيها بها، واحترازاتها، ثم يلي ذلك دفع إيراداتها، وإبطال توهّماتها.

---

(١) الوحي: أي القرآن المجيد، وبيان الرسول ﷺ. حَدُّ مُرْهَفٍ: أي: حدُّ سيفٍ مرهف. والمرهف المَسْنُون ذو الشفرة الرقيقة. ظُباهُ: الظُّبَةُ حَدُّ السيف والسِّنان والخنجَرِ ونَحوها وجَمعُها ظُبًا وظُباة وظُبُون. أخْدَعَيْ كُلّ مائل: الأخْدَعُ أحد عرقَينِ في جانِبَي العُنُق، وهما الأخدعان. وانظر: المثل السائر ٢/٢٩٥ وروي:

فهذا شفاءٌ للقلوبِ من العَمَى   وهذا شفاءُ العيّ من كلّ جاهلِ

والمقصود؛ أن من الناس من يكون ضلالة لشبهة انقدحت له، فكشفها يكون بالوحي قرآنًا وسنّة، ومنهم من يكون متكبّرًا على الحق راغبًا فيما سواه؛ فيُرَدّ إليه راغمًا بالسيف، فالأول أُتِيَ من جَهْله، والثاني من جَهَالته، وإنّ الله لَيَزَعُ بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، كما قاله عثمان رضي الله عنه.

فبتحرير محلّ المخالفة فيها عبر بيانِ الحقِّ المُذْهِبِ لما يُظنّ من ضلالَةٍ شِيبَ بها حقٌّ، فيميز الحق حينها من الباطل، حتى يبقى الباطلُ عاريًا واضحَ الضلال، فيسقط من عيون الخلق وتنفره قلوبهم، وبهذا يسقط أساسُ الباطل وينهار بناؤه بفضل الله تعالى، فالباطل مهما تلوّن وانتشر فهو ضعيف في نفسه ينهار تحت معاول الحق، لذلك فلم يُصب من منع من ذلك بإطلاق، أو فتح بحثه بإطلاق، فليس في الأمر مع التحرّز والحذر والتؤدة إبطالٌ لحقٍّ أو تمريرٌ لباطل أو تضييعٌ لفاضل، والمؤمن كيّسٌ فطن، وكلٌّ ميسّرٌ لما خُلِقَ له.

وإذا علمـــت بأنـــه متفاضـــلٌ فاشـغلْ فـؤادك بالـذي هـو أفضـلُ

وكم من نجاسة فكرية رُوِّجت على العقول حتى أَلِفَتْهَا، وضلالةٍ كُرِّرتْ على النفوس حتى صدّقتْ بها، وفتنةِ علمٍ تساهل بها صاحبُها حتى أَوْبَقته، ولو أنها كشفت ابتداءً لسقطت كالسِّقط التالف.

ومن فروع ذلك؛ بيان أنّ الضلالة الفتّانةَ لا تكون ضلالًا محضًا وإلا لم تُغْرِ مؤمنًا، لكنها تتزين ببعض الحقِّ تسويقًا لباطلٍ خلفَه. فمكمَنُ خطر الضلالة وسبب انتشارها هو أنّها ضلالة بُنيتْ على شيء من حقّ، ثم غُيِّرَتْ وجهته واستُرسِل في لوازم ليست له، وأُحيل معناه الجميل الصحيح لباطل قبيح. ولو كان الباطل خالصًا لم يَرُج في سوق أفكار البشر، ولكنه كالسارق الذي يلبس ثوب صاحب المنزل، وكمن يبيع العنب لمن يعصره خمرًا، ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٧٨﴾ [آل عِمْرَان: ٧٨].

ولو تأمّلت مذاهب أهل الأهواء قاطبة لوجدتها لا تخلو من حق يقلّ أو يكثر. وكلما كان حيّز الحق والهدى أكثر كلما راجت شبهتهم واشتد كَلَبُها في الناس، فالخير في الناس يسوقهم لطلب الهُدى حيث كان.

لذا كان من شريف الجهاد العلمي دحرُ هؤلاء عن حياض العلوم نصحًا للأمة من غَشش القول وغَيايات البدع، ﴿وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٍ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ١١٥﴾ [آل عِمرَان: ١١٥].

ومن هذا الباب فإن بحث مسائل القدر التي شاع بين الناس الكلام فيها بفهمٍ على غير حقيقتها، وفقهٍ على غير هُداها، حتى زَلْزَلَتْ قلوبَ بعض المتقين، وغَبّشتْ بصائرَ قومٍ مؤمنين، وكدّرت صفاء آخرين، وخِيف من ضلالهم فيها أن تستريبَ قلوبُهم وتستشكَّ أفئدتُهم ويتزعزع بالله تعالى يقينُهم؛ فحينئذٍ يكون فتحُ ذرائع بحثها مشروعًا لا ممنوعًا، ولكن على قدْرِ الحاجة بلا مزيدِ خوضٍ فيما لا طائل منه، فالقلوبُ ضعيفةٌ والشُّبَهُ خَطّافة، والعملُ كثير والعمرُ قصير، والسلامةُ مطلبٌ والعافية لا يعدلها شيء.

وعليه؛ فمن خاف على دينه من شبهةٍ ففرضُه الإعراض عنها، أو سؤال أهل العلم عمّا أشكل عليه مِنْ فهمِها، أما إعناقه في حبائلها وخوضه في مشتبهها فُضُولًا وحُبَّ استطلاعٍ؛ فهو مغامرةٌ بالدين واقتحامٌ للمهلكة ورحلةٌ للعَطَبِ، كساعٍ إلى الهيجا بغير سلاحِ.

ولكن من كان من أهل العلم والتخصص، وأخلص الوجه لله تعالى، واعتصم بالوحي؛ فلن تزل بإذن الله قدَمُه، وسيُشكَرُ بإذن ربه سعيُه، ولكلِّ

حالٍ لَبُوسٌ، ولكل مقامٍ مقالٌ، ولكلّ لواءٍ أهلُه. ومَنْ طَرَقَ الأمورَ من أبوابها أوشَكَ أن يُفتح له، ومن عزَمَ في الجَوَادِّ وَصَل.

إذا لم يكــن إلا الأســنّةَ مركبًـا فـما حيلـةُ المضـطرِّ إلا ركوبُهـا

وعليه؛ فقد يكون بحثُ آحادٍ بعض المسائل النازلة فرضًا على بعض الأعيان، كما قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لو أنّ الناس كلما استصعبوا أمرًا تركوه ما قام للناس دينٌ ولا دنيا»[(١)].

وحراسة ثغور العلم والإيمان أولى من حراسة ثغور الأرض والبلدان، وكلما جَدَّدَ أعداءُ الله بدعةً أقام الله لهم من يهدمها بأمره، ولا يزال في الأمة قائمين لله بالحجة والبرهان، وبالسيف والسِّنان.

إذا كـانَ حِلْـمُ المَـرْءِ عَـونُ عَـدُوِّهِ عَلَيْـهِ فَـإنَّ الحَـزْمَ أغْنَـى وأنفـعُ

فلم يزَلِ الله تعالى بحمده وفضله ومنّته يستغرسُ في الأمّة من يقوم له بالحُجّة تِبيانًا للمحَجَّة، منافحًا عن قواعد الملة، حارسًا لحياضها، مجاهدًا لله فيها، ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [مُحَمَّد: ٤].

ومن هذا الباب الحارس الحامي بإذن الله تعالى تكلّم الأئمة في مسائل أُحدثت في زمانهم، فأَنْعِمِ النّظرَ فيما كتبه الإمام أحمد وطبقته ومن سبقهم في مسائل لم تكُ فيمن قبلهم، ثم استجدّت نوازل لِمَن بعدهم من أئمة الأُمة،

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ٤/ ٨٨

وكان شيخ الإسلام يكتب ويذكر أنه لو لم تكن الحاجة لمثل هذا وأن أهل الباطل نازعوا فيه ما كتب فيه، ونحو ذلك.

وبالجملة؛ فمسائل القَدر سهلة يسيرة وواضحة مُبِينَة في الجملة، وهي كافية للإيمان، ومن آمن بها أغنته وكَفته وصحّ بها معتقده، وهي مبثوثةٌ في ثنايا القرآن والسنة، مُعزّزةٌ بالعقل والفطرة، وهي نَزْرَة قليلة تامّة كافية شافية لولا تشقيق الناس لمسائل أبعدوا فيها عن نُجعة السلامة والهدى، بيدَ أنّ بعض أبواب القَدَر ـ وهي زائدة عما ذكرنا ـ شائكةٌ عسيرة، ولها حدود وأطراف في الغاية من العُمق والدِّقّة، وتشتبه على كثير من الناس، وإنما يفهمها الراسخون، الذين يُنزلون علمَها منزلته اللائقة ومكانه الصحيح.

ثم مِن بعدها أطرافٌ من علم القدَرِ لا يعلَمُها بَشَرٌ، لأنها فوق استيعابهم وإدراكهم وأفهَامهم، وأوسع جدًّا من أن تحيطها علومُهم، فالإقدام عليها عَطَبٌ للعقل، وضياعٌ للدين، واستفراغٌ لجهدٍ كان الواجب أن يُبذل فيما سواه، فلم يأذن الله تعالى بأن تكون معلومة لنا في هذه الدار رحمة وحكمة وابتلاء، وحتى يَمِيزَ اللهُ المؤمنَ المُوقن المُسَلّمَ من المُتهوّكِ المُرتابِ المُكذّبِ، فهي مسائل تُحيّرُ العقولَ ولا تُحيلُها، فالعقول تقبلها وتقول بإمكانها ولكن لا تفهم أطرافها على التفصيل، بل أحيانًا حتى على الإجمال، لأنه بعدَ مرْمَى إدراكها وفوقَ إطاقةِ قوّتها.

وكلّ هذا راجعٌ لحكمة الله تعالى وربوبيّته وأسرار خلقه ورحمته ولطفه وابتلائه لعباده، لذلك كان حتمًا على المؤمن الوقوف دون أسوارها، وعدم الاقتراب بفكره من أرْبَاضِها، والنزوع عن التلصُّص بوهمه في مساربها

وأنقابها، حتى لا يزيغ فهمه، ولا يضلّ علمه، ولا يخيب سعيه، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧﴾ [آل عِمْرَان: ٧].

وعليه فاعلم ـ رحمني الله وإياك ـ أنّ **مسائل القدر على أربعة أَضْرُب:**

الأول: مسائل جاءت الشريعة بها وبأدلتها على الإجمال والتفصيل، وهذا الضرب فيه علوم لا يقوم الإيمان إلا بها، كالإيمان بعلم الله تعالى، وكتابته، وعمومِ مشيئته لكل شيء حتى طاعة المطيع ومعصية العاصي، وخلقه للأشياء كلّها ومنها أفعال العباد. وحكمته ورحمته وعدله وإرادته وابتلائه ونحو ذلك من المسائل، وهي العلوم الضرورية في باب القضاء والقدر.

الثاني: علوم جاءت بها الشريعة في باب القضاء والقدر على وجه التكميل، فهي قدْرٌ زائد عن العلوم التي لا يقوم الدين إلا بالعلم بها واعتقادها، وهي أشبه ما تكون بتفصيل ما أُجمل في الضرب الأول، والعلم بها شرَفٌ مندوبٌ مستحبٌّ محمودٌ، وحالها كحال بقيّة مباحث علوم الشريعة الأخرى التي يعلو عند الله تعالى من كان بها أعلم: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المُجَادلَة: ١١]، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزُّمَر: ٩] وهذا هو باب المسابقة إلى الله تعالى عن طريق طلب العلم من أبوابه التي أشرعتها الشريعة، ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البَقَرَة: ١٤٨].

الثالث: علوم نهى الشرع عن بحثها، وزَجَرَ عن الخوض فيها، وهي سياقات بحوثِ القَدَر التي ليس تحتها عمل، ولا تنتهي لعلم متعلّق بدليل، بل هي افتراضات وتحكُّمات متعلّقة بعلم الغيب، فلا تُدرك إلا بالخبر من الله تعالى، وإذ لم يوجد الخبر، فمعناه أن هذا العلم مغلق عنّا، وهذا نابع عن إيماننا التام بكمال الشرع، وعدم نقصه بأيّ وجه من الوجوه، كما قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال سبحانه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، وقال ﷺ: **«تَركتُكُمْ عَلى البَيضاءِ لَيلُها كَنَهارِها لا يَزِيغُ عَنها بَعدِي إلّا هالِكٌ»**(١)، وقال ﷺ: **«ما تَركتُ شَيئًا يُقرِّبُكُمْ إلى الجَنَّةِ إلّا وقَد حَدَّثتُكُمْ بِهِ، ولا شَيئًا يُبعِدُكُم مِن النّارِ إلّا وقد حَدَّثتُكُم بِهِ»**(٢).

فلمّا كان الشرع كاملًا أوّلًا، ثم لم يورِدِ الشرعُ هذه المسألةَ بعينها ثانيًا؛ دلّ هذا على أنّ هذه المسألة هي خارجُ سياقِ الشرع والدين.

وإذا كانت كذلك فلا خير في بحثها، ولا حاجة لنا بها، لأنها لو كانت مغنمًا لأبداها الشرع لنا، كما أنّ معرفتَها على التحقيق مُحالةٌ علينا، لأن طريق العلم اليقيني بها محصورٌ بخبر الشرع لا غير. ومن ذلك علم سرِّ القدر،

---

(١) أحمد (١٧١٤٢) وابن ماجه (٤٣) وصححه الألباني والأرناؤوط.

(٢) الحاكم (٢/٥) وابن أبي شيبة (٧/ ٧٩)، وابن راهويه كما في إتحاف الخيرة (٢٧٢٢)، وهناد في الزهد (٤٩٤)، والبيهقي في الشعب (٧/ ٢٩٩)، والبغوي في شرح السنة (٤١١١، ٤١١٣)، وغيرهم. وصححه ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١١ / ٦٢٢) والألباني في الصحيحة (١٨٠٣).

ومعرفة العلل الغائية له على التفصيل والتحقيق، ولماذا خلقَ الله تعالى كذا وكذا، وعلامَ أفقرَ فلانًا وأغنى فلانًا، وأصحّ هذا دون ذاك، وأمات هذا وأحيا ذاك، وأضلّ وهدى، وشاء واختار.. ونحو ذلك، ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٦٨ وَرَبُّكَ يَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ۝٦٩ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٧٠﴾ [القَصَص: ٦٨ - ٧٠].

لذلك فالإقرار بالجهل بسرّ القَدَر يقطع وارد النزاع والشقاق والاحتجاج بالقدر على المعاصي، ويورثُ العقلَ الراحةَ من مُشاغبةِ الأفكارِ الغَبيّة في الأمور الغيبيّة، ويحقن في القلب التسليم لله تعالى في الشأن كله، ﴿وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧١﴾ [الأنعام: ٧١].

وقال ربنا جل جلاله: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝٣٥﴾ [الأنعام: ٣٥]، فلا يكن حالك حال أهل الجهل بربهم تعالى، فلا تطلب للقَدَرِ سرًّا قد طُوي عنك مَرامه، فلله تعالى في غوايتهم حِكَمٌ لم يخبرك بها، فسَلّمْ أمْرَكَ لعلّام الغيوب، ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ۝٦١﴾ [يونس: ٦١].

وثمَّةَ أمور من القَدر فيها دقّةٌ وعمقٌ لا يفقهها ولا يستوعبها كلّ أحد، وإن كانت واضحةً لأهل العلم، ولا يحسُن إيرادها خشية الإلباس، وثمّة أمور قدريّة غير مكشوفة للخلق أصلًا ولا تدركها عقولُهم ولا تُطيقها أفهامُهم، قد حُجبَتْ عنهم لحِكَمٍ ربانية لا نعلمُها والله يعلمُها، ومع ذلك نؤمن أنّ الله تعالى لا يظلم الناس شيئًا، وأنهم بين فضله وعدله، وأنه حكيم في أفعاله، وأنّ

رحمتَه سبقت غضبه، وعفوه سبق مؤاخذته، وأنه محمودٌ حمدًا كاملًا على كل أقداره وأوصافه وأفعاله، وأنّه قد وسع كل شيء رحمة وحكمة وعلمًا.

والمؤمن المُتدبّر لآيات الله الشرعية والكونية حقيق بخشوع قلبه لجلال رب العالمين، فالملك كله لله وحده، فهو الملك الحق المبين، يفعل ما يشاء، يعذب من يشاء، ويلقي من يشاء في النار ولا يُبالي، ويرحم من يشاء، ويخلق للجنة خلقًا لم يعملوا خيرًا قط، ولا يسأل عما يفعل، فله الملك والملكوت والعزّ والجبروت والغنى والعلم والحكمة والقهر والتدبير، فهو ذو القوة التامّة المتين. فمن أنت يا بُنَيّ آدم حتى ترى أن لك الحقّ في معرفة ما لم يأذن لك فيه، أو أن تستدرك عليه، أو أن تتعنّتَ وتجادلَ وتخاصمَ، ألَا ما أحلم الله!

قال رب العزة والجلال تبارك وتعالى: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴿٥١﴾﴾ [الكهف: ٥١]، وقال سبحانه: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: ١-٣]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴿٦﴾﴾ [الانفطار: ٦].

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: **«لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ، حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا قَدَمَهُ، فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى**

بَعْضٍ وَتَقُولُ: قَطْ قَطْ، بِعِزَّتِكَ وَكَرَمِكَ، وَلَا يَزَالُ فِي الْجَنَّةِ فَضْلٌ حَتَّى يُنْشِئَ اللهُ لَهَا خَلْقًا، فَيُسْكِنَهُمْ فَضْلَ الْجَنَّةِ»(١).

وقد نُهينا عن التكلّف، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ۝٨٦﴾ [ص: ٨٦]، وعن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: كُنَّا عند عُمَرَ فقال: «نُهِينَا عَنِ التَّكَلُّفِ»(٢).

وعن أبي ثعلبة الخُشني رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن النبي ﷺ قال: **«إنَّ الله فَرَضَ فرائِضَ، فَلا تُضَيِّعُوها، وحَدَّ حُدُودًا فلا تَعْتَدوها، وحَرَّمَ أَشْياءَ، فلا تَنتهكوها، وسَكَتَ عنْ أشياءَ رَحْمَةً لكُم غيْرَ نِسيانٍ، فلا تَبحَثوا عَنْها»**(٣).

قال عبيد بن عمير رَحِمَهُٱللَّهُ: «إن الله عز وجل أحلّ حلالًا، وحرّم حرامًا، وما أحلّ فهو حلال، وما حرّم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عَفْوٌ؛ فحديث أبي ثعلبة قسم فيه أحكام الله أربعة أقسام: فرائض، ومحارم، وحدود، ومسكوت عنه، وذلك يجمع أحكام الدين كلها»(٤).

---

(١) البخاري (٧٣٨٤) ومسلم (٢٨٤٨) واللفظ له.

(٢) البخاري (٧٢٩٣).

(٣) الدارقطني في سننه (٤٣٩٦) وحسنه النووي في رياض الصالحين (٥١١)، وحسنه ابن حجر في المطالب العالية (١٢/٤١٦) وحسنه ابن باز في شرح رياض الصالحين (٥٧٤)، وحسنه الألباني في الإيمان (ص: ٤٤) وضعفه في المشكاة (١٩٧).

(٤) جامع العلوم والحكم (٢/ ٧٠) الحلية لأبي نعيم (٣/ ٢٦٨).

وقال الإمام أبو بكر بن السَّمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا الحديثُ أصلٌ كبيرٌ من أصولِ الدِّين.. وحُكي عن بعضهم أنّه قال: ليس في أحاديث رسولِ الله ﷺ حديثٌ واحدٌ أجمع بانفراده لأصولِ العلم وفروعه من حديث أبي ثعلبة.. فمن عمِلَ بهذا الحديث، فقد حاز الثَّواب، وأمِنَ العقابَ؛ لأنَّ من أدَّى الفرائضَ، واجتنب المحارم، ووقف عندَ الحدودِ، وترك البحث عمَّا غاب عنه، فقد استوفى أقسامَ الفضل، وأوفى حقوق الدِّين؛ لأنَّ الشرائع لا تخرُج عن هذه الأنواع المذكورة في هذا الحديث»[1].

وبعدُ؛ فأنْعِمِ النَّظَرَ، وأمْعِنِ الفكر، وأَطِلِ التدبّر، واستنطِقِ القلبَ، واستحلِبِ الذهن، واستنزِحِ المعاني العجيبة من قول الله تعالى في هذا الباب الهائل الغامض المدهش: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾ [آل عِمْرَان: ١٧٩].

وإذا كانت مدارك الناس تختلف بحسب علومهم وأفهامهم؛ فكيف بعلم الله تعالى؟! ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النَّحل: ٦٠]. قال ابن الوزير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العادة قد استمرت على وجوب الاختِلاف في الأحكام عند التَّفاضُل في العلم والحكمَة، وذلكَ يُوجب استقباح الجاهِل لبَعض أفعال الأعلم على قدر ما بَينهما من التَّفاوُت، فأولى وأحرى أن يُوجب استقباح الجاهِل لبَعض أفعال الأعلم.

(١) جامع العلوم والحكم (٢/٨١٩).

ولما كانَ التَّفاوُت بين علم المخلوقين وعلم خالقهم سبحانه لا يُقدَّرُ بِمِقدار، ولا يتَوَهَّم بِقِياس؛ وَجَبَ أن يكون بَينهم فِي التحسين والتقبيح لتفاصيل الأحكام أعظم الِاختلاف وجوبًا عاديًّا يَسْتَحِيل خِلافه... فَلمّا جاءَ السّمع بالمتشابه عَليهِم على القاعدَة المألوفة والعادَة المعروفَة في أن الأعلم إذا تميّز شَيئا قلِيلًا عن أجناسه وأشباهه لم يكن بُدٌّ من أن يأْتِي بما لا يعرفونَ، ويفعل ما لا يقولون، ويستحسن بعض ما يستقبحون، حَتّى قيلت في هذا الأشعار وضُربت فيه الأمثال، وحتى قيل: إنّ الاجتِماع في الخفيّات محال مثلما أنّ الاختلاف في الجليّات محالٌ. وقد أجاد في هذا المعنى من قال:

تسـلَّ عَـن الوِفـاق فَربُّنـا قـد ... حكـى بـين المَلائِكَـة الخِصـامَا
كذا الخَضِـر المُكَـرّم والوجيه ... المُكلّـم إذْ ألَمَّ بِـهِ لمامًـا
تكـدّر صـفوُ جَمعِهـا مِـرارًا ... وعجّلَ صاحبُ السِّرِّ الصَّرَامَا
ففارَقَـهُ الكلـيمُ كلـيمَ قلـبِ ... وقد ثَنَّى على الخَضِرِ المَلامَا
فَـدلَّ عـلى اتّسـاع الأمـرِ فِـيما ... الكِـرام فِيـهِ خالَفـت الكرامَـا
وما سَبَبُ الخلافِ سوى اختِلافِ ... العُلُـوم هُنـاكَ بَعْضًـا أو تَمامًـا
فَكـانَ مـن اللـوازم أن يكـون ... الإلهُ مُخالِفًـا فِيهـا الأنامَـا
فلـو لم نجهـل الأسرارَ عَنْهـا ... بلغنـا مثلـه فِيهـا المَرَامَـا
فَصـارَ تشـابه الأحكـام مِنـهُ ... عَلَيْـهِ شـاهدًا ولنـا لِزَامَـا

فَــلا تجْهَــل لَهــا قــدْرًا وخُــذْها شــكُورًا للَّــذي يُحيـى العِظامَـا»(١)

ويُلحق بهذا النوع من المسائل في القَدَر المنهي عن الخوض فيها: التنازع والخصام والمراء والمجادلة بالباطل فيه، وكذلك ضرب الكتاب ببعض بالتعنّت اللدود، والتشقيق الرديء، والتنقير الجهول، وحمله على أهواء المبتدعة، ونقص اليقين بأنه حقٌّ مطلقٌ ونحو ذلك. وعلى هذا يُحمل الأمر الوارد بالإمساك عن القَدَر، والعَزْمَةَ النبويّة الشريفة بعدم التنازع فيه، ﴿فَإِنْ

(١) إيثار الحق على الخلق، لابن الوزير محمد بن إبراهيم اليماني (١/١٩٩) ويعني بالخصام بين الملائكة ما جاء في قصة آدم وفي حديث اختصام الملأ الأعلى وغير ذلك. وقوله: «الوجيه المكلّم» هو موسى عليه السلام. وقوله: «تكدّر صفوُ جمعِهما مِرارًا» أي: باعتراضات موسى عليه السلام الثلاث المذكورة في سورة الكهف. فلمّا لم يفِ موسى عليه السلام بالشرط بينهما عجّل صاحب السّرّ وهو الخضر. ويعني بالسرّ: مقاصد أفعاله المُستغربة لأن وراءها أسرارًا معلّلة ذكرها في آخر الخبر. والصَّرام هو الفراق من الصَّرم أي: القطع. ففارقه الكليم عليه السلام وقد «ثنّى» أي: كرّر الاعتراض. وقوله: «وما سَبَبُ الخلافِ سوى اختِلافِ العُلُومِ» أي: من نظر إلى الأمر من جهة واحدة لا يرى غيرها فسيختلف مع من يراه من جميع جهاته وسوابقه ولواحقه ولوازمه وتوابعه ومكملاته ومناقضاته.. إلخ، فليسلِّم مَنْ جَهِلَ شيئًا لَمِن عَلِمَه، ولله المثل الأعلى.

وهذا البيت هو مقصود المنظومة، أي: أن الله تعالى عِلْمًا وحكمة في الأقدار التي لا نرى إلا طرفًا صغيرًا من غايتها. وعليه؛ فمن لوازم الربوبية أن تكون أقدار الإله سبحانه وتعالى غير مُحاطة بعلم المخلوقين وأنها أحيانًا تكون مخالفة لما اعتادوه، فهذا من براهين الربوبية للإله الحق المبين سبحانه، الذي وسع كل شيء حكمة وعلمًا.

ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ [البَقَرَة: ١٣٧].

هذا؛ وإنّ من جدير التنبيه حول مسألة أسرار الأقدار، أنّ الطُّرُقيّة وأهل الخرافة كثيرًا ما يدورون على لفظ السرّ، ويُحَوِّرُون دلالته لتتماشى مع اعتقاداتهم الباطلة في شيوخهم ومُقدّميهم بأنّ لهم أسْرَارًا وكشْفًا وعِلمًا لدُنِّيًّا خاصًّا، ووصولًا للحقيقة واليقين بطريقٍ غير شريعة الرسول ﷺ، لهذا نرى بعض المتصوفة كثيرًا ما يردّدون مصطلح السرّ؛ لأنه يدعم أقوالًا لهم بلا برهان.

ونقول: إنّ القدر سرُّ الله في خلقه، فهو خاصّ بالله سبحانه، وقد أخبرَنَا ربُّنا جلّ جلاله أنّ الدين المُرتضى الوحيد للسعادة والفلاح والفوز عنده هو الإسلام الذي ابتعث به نبيّه محمدًا ﷺ، فقال سبحانه حاسمًا كلَّ نزاع وقاطعًا كلّ جدل ومُبطِلًا كلّ خطّة: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عِمرَان: ٨٥]، والإسلام هو الشريعة المحمدية لا السبل الأخرى المُدَّعاة، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعَام: ١٥٣]، ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةًۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [البَقَرَة: ١٣٨].

وعليه؛ فمن ادّعى علمًا بالله تعالى من غير جهة الرسول ﷺ فعلمُه جهلٌ، وأمرُهُ إلى تبابٍ، فلا علم على التحقيق إلا ما جاء من مشكاة الوحي،

كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النَّحل: ٨٩]، وقال ﷺ: **«وقد تركتُ فيكم ما لن تضلّوا بعده إن اعتصمتم به؛ كتاب الله»** (١).

ومن توابع الضلال في مسألة كشف الأسرار الربانية لأحدٍ بطريق غير طريق الشريعة قول بعضهم: «حدّثني قلبي عن ربي». أي: أنه ليس بحاجة للكتاب والسنة اكتفاء بالكشف اللّدُنِّي بزعمه. وكذلك قول الآخر في قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحِجر: ٩٩]، فيزعم أنّ معناها: «اعبد ربك حتى يحصل لك العلم والمعرفة، فإذا حصل ذلك سقطت عنك العبادة». فهذا ضلال محض وكفر مبين. وكذلك قول الآخر بلوثة جبريّة: «مَن نظر إلى الخلق بعين الشريعة مَقَتَهم، ومن نظر لهم بعين الحقيقة عَذَرَهم، فالعارف مستبصر بسرّ الله في خلقه». فهذا باطل وضلال، لأن فيه إبطال للشرع والتماس العذر للمنحلّين من الدين، فليس للعباد عُذْرٌ بالمعاصي بعد البلاغ، ولا حُجَّة لأحد بعد الرُّسل، ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وكل ما سقتُ لك من أمثلة فآخِيَّةُ الضلالِ فيها قولُهُم بحصول كشفٍ لخاصَّتِهم من الأسرار الربّانية دون الوحي الإلهي للرسول ﷺ، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الرَّعد: ٣٣].

---

(١) مسلم (١٢١٨).

والمقصود؛ أنّ مِن القدر أسرار ربانية لم يأذن الله تعالى بكشفها لا شرْعًا ولا كونًا لحكمة ربانية لا ندرك أطرافها، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣].

الرابع: مسائلُ في القَدَرِ فهِمَهَا بعض الناس على غير حقيقتها التي جاء بها الشرع، فحرّفوا معناها فضلّوا وأضلّوا، وفي ظني أنّ أكثر الانحراف في الأمة من قديم فبابُه الانحراف عن المفهوم الصحيح للقَدَر، فكشفُ باطلِ هؤلاء فرضٌ على الكفاية على من وهبه الله قدرة عليه، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يَبْقَ عالمٌ اتَّخذ الناس رؤوسًا**[١] **جُهّالًا، فسُئلوا فأفتوا بغير علمٍ، فضَلُّوا وأضَلُّوا**»[٢].

---

(١) رؤوس: جمع رأس، وفيه التحذير من اتخاذ الجهال رؤساء. شرح النووي على صحيح مسلم، (١٦/ ٤٦٥).

(٢) البخاري (١٠٠، ٧٣٠٧) ومسلم (١٣، ٢٦٧٣). قال المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في فيض القدير (٢/٢٧٣): قوله ﷺ: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه**» أي محوًا من الصدور. «**ولكن يقبض العلم بقبض العلماء**» أي: بموتهم فيقبض العلم بتضييع التعلّم، فلا يوجد فيمن بقي من يخلف من مضى. «**حتى إذا لم يبق عالم**»، عبّر بـ«**إذا**» دون «إن» إيماء إلى أنه كائنٌ لا محالة بالتدريج. «**اتخذ الناس رؤوسًا جُهّالًا**» جهلًا بسيطًا أو مركبًا، «**فسئلوا فأفتوا بغير علم**»، وفي رواية: «**برأيهم**» أي: استكبارًا وأنفةً عن أن يقولوا لا نعلم، «**فضلّوا**» في أنفسهم، «**وأضلّوا**» من أفتوه.

=

فهذا الضرب من المسائل وأشباهها هو محلُّ بركةِ البحث والاحتساب والجهاد بالبيان فيها، وقَمِنٌ بإذن الله أن يُفتح فيها لمن بَحَثَهَا رجاءَ الهدى له وللناس لا إرادةَ العلوِّ في الأرض، و يُثابَ ويُؤجَر لأنه لم يَرُمْ خوضَ بحثها ابتداء، إنما ساقه الواجبُ، وأَلْجَأَهُ إليها من خفّ حلمُه من طُلّاب الشُّبه ومثيري فتن العلم والجهل، ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ۝٥٢﴾ [الفُرْقَان: ٥٢].

فالعلماء كالنجوم في الظلماء زينة للعالَم طُرًّا، وعلامات يُهتدى بها في التِّيه بَرًّا وجَوًّا وبَحْرًا، ورجومًا للمُبطلين احتسابًا للدين وبِرًّا.

ولقد حذر السلف من الكلام في الدين بالباطل، أو بلا علم، كما كرهوا الجدل والمراء فيه، وحثُّوا على الحميّة للحق احتسابًا، قال ابن عبد البر معلِّقًا على كلام الإمام مالك رحمهما الله تعالى حين قال: «الكلام في الدين أكرهه، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه وينهون عنه؛ نحو الكلام في رأي جهم والقدر، وكل ما أشبه ذلك، ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل، فأما الكلام في دين الله، وفي الله عز وجل، فالسكوت أحبّ إلي؛ لأني رأيت أهل بلدنا ينهون عن الكلام في الدين إلا فيما تحته عمل»، قال أبو عمر ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قد بيّن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّ الكلام فيما تحته عمل هو المباح عنده وعند أهل بلده؛ يعني العلماء منهم رضي الله عنهم، وأخبر أنّ الكلام في الدين نحو القول في صفات

=

وهذا تحذير نبوي شريف من ترئيس الجهلة، وأنّ الفتوى هي الرئاسة الحقيقية، وذمّ من يُقدِم عليها بلا علم. وأن قبض العلم موت حملته لا محوه منهم.

الله وأسمائه، وضرب مثلًا فقال نحو قول جهم والقدر، والذي قاله مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ عليه جماعة الفقهاء والعلماء قديمًا وحديثًا من أهل الحديث والفتوى، وإنما خالف ذلك أهل البدع: المعتزلة وسائر الفرق، وأما الجماعة، فعلى ما قال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلّا أن يُضطرَّ أحدٌ إلى الكلام فلا يسعه السكوت إذا طمع بردِّ الباطل، وصرف صاحبَه عن مذهبِه، أو خشي ضلالَ عامَّةٍ، أو نحو هذا»[1].

ولمّا كانت هذه المسائل من الغموض والصعوبة والاشتباه بمكان؛ كان كثير من العلماء يجتنبون بحثها ديانةً ووَرعًا وخوفًا أن تزيغ بهم عن سواءِ السبيل، ولكن كان الواحد بعد الواحد منهم مَن يأخذ الله تعالى بقلبه ويهديه للبحث فيها جهادًا بعلمه، وغزوًا للشيطان بِمِدادِه، فيستفرغ وسعَه ويقوّي عزمه ويجدّد إخلاصه ويجرّد توكّله على ربه فيُفتح له فيه، حتى يُوقِفَ الناس على حدود الشبهة وحقيقتها، ويهتك سترها، ويكشف بإذن الله تعالى لهم ضلالها، ويبيّن حدَّ الشرع فيها، وحقيقةَ العلم الصحيح بها، فيمتاز الحق فيها من الضلال،﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنفال: ٣٧]، ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/٩٥) ولابن تيمية كلام في هذا الباب نفيس انظره في: درء تعارض العقل والنقل (١/٤٦ – ٤٨).

ﭐلۡأَمۡثَالَ ﴿١٧﴾ [الرَّعد: ١٧]. ويقوم ذلك المبارك حيالها بفرض الكفاية عن الأمة. وهذا أصل في الشرع محفوظ.

والناسُ ألْفٌ منهمُ كواحدٍ ... وواحدُ كالألفِ إن أمرٌ عَنا

واعتبر ذلك بمباحث وجود الشرِّ في الخلق ومسألة التعليل ومسألة التحسين والتقبيح العقلي للإمام القيم ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فهي مسائل واضحة في الأصل، غير محتاجة لخوض بعض تفاصيلها، ولكن لما تنازعتها أقلامُ أهلِ الأهواء واعتورتها منابر أهل الضلالة؛ استعان رَحِمَهُ ٱللَّهُ بربه فَسَلَّ يَرَاعَةَ العلمِ المبينِ لنسف شُبَهِ المبتدعين، فأثمرت تلك المقامات السَّنِيّة السُّنِّيّة حروفًا في الغاية من الشرف والمتانة والعُمق والنفاسة، فإذا قرأها العامّي فضلًا عن طالب العلم ازداد في الحقّ بصيرة وإيمانًا، فلم يزد ابن القيم فيها علمًا من لَدُنْه، إنما كشف حقيقة المسائل، وَحَدَّ أبعادها، وأقامَ تصوّرَ بنائها، وأزال الباطل الملتبس بها عن الحق الأصيل فيها، وردّ مشتبهاتها لمحكماتها، فاستقامت جادة حروفه فيها على مهيع الهدى والسنة بحمد الله تعالى، وعلى هذا فَقِسْ هذا الأمر واعتبر بذلك الأثر.

فمن للقوافي بعد حسّان وابنه ... ومن للمثاني بعد زيد بن ثابتِ

ومن هذا الباب كانت أكثر مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ كالاستقامة ونقض التأسيس ونقد المنطق والعقل والنقل ومنهاج السنة وشرح الأصفهانية وغير ذلك، قال العلامة البزار عن شيخه ابن تيمية رحمهما الله تعالى ومؤلفاته النافعة في هذا الباب وغيره: «ولقَد وجب على كل من وقف

عَليها وفهم ما لَديها أن يحمد الله تَعالى على حسن توفيقه هذا الإمام لنصر الحق بالبراهين الواضِحَة العِظام.

حدثني غير واحد من العلماء الفُضَلاء النبلاء المُمعنين بالخوض في أقاويل المُتَكَلِّمين لإصابة الثَّواب وتمييز القشر من اللّباب أنّ كلًّا مِنهُم لم يزل حائرًا فِي تجاذب أقوال الأصوليين[١] ومعقولاتهم وأنه لم يستَقرّ فِي قلبه منها قَول، ولم يبن لهُ من مضمونها حق، بل رَآها كلها مُوقعة في الحيرَة والتضليل، وجُلّها ممعن بتكلف الأدلة والتَّعلِيل، وأنه كانَ خائفًا على نَفسه من الوُقُوع بِسَبَبِها فِي التشكيك والتعطيل، حَتّى منّ الله تَعالى عَلَيهِ بمطالعته مؤلفات هذا الإمام أحمد بن تيمية شيخ الإسلام، وما أورده من النقليات والعقليات فِي هَذا النظام، فَما هُوَ إلّا أن وقف عليها وفهِمَها فرآها مُوافقَة لِلعَقلِ السَّليم، وعلِمَها حَتّى انجلى ما كانَ قد غشيه من أقوال المُتَكَلِّمين من الظلام، وزالَ عَنهُ ما خافَ أن يَقع فِيهِ من الشَّك وظفر بالمرام.

ولَقَد أكثر رَحِمَهُ ٱللَّهُ من التصنيف فِي الأصول فضلًا عن غَيره من بَقِيَّة العلوم، فسألته عن سَبَب ذلِك، والتمست مِنهُ تأليف نَصٍّ فِي الفِقه يجمع اختياراته وترجيحاته ليَكُون عُمدة فِي الإفتاء فَقال لي ما معناهُ:

---

(١) أي: المتكلمة في أصول الدين والمعتقد والعلميّات، لا أصول الفقه التي تُعنى بالعمليّات.

الفُرُوع أمرها قريب، ومتى قلّد المُسلم فِيها أحدَ العلماء المقلَّدين جازَ لَهُ العَمَل بقوله ما لم يتيَقَّن خطأه، وأما الأصول[١] فَإنِّي رأيت أهل البدع والضلالات والأهواء كالمتفلسفة والباطنية والملاحدة والقائلين بوحدة الوُجُود والدهرية والقدرية والنصيرية والجهمية والحلولية والمعطلة والمجسمة والمشبهة والراوندية والكُلّابية والسلمية وغيرهم من أهل البدع قد تجاذبوا فِيها بأزِمَّة الضلال، وبَانَ لي أن كثيرًا مِنهُم إنما قصد إبطال الشَّرِيعَة المقدسة المحمدية الظّاهِرَة العلية على كل دين، وأن جمهورهم أوقع النّاس فِي التشكيك فِي أصول دينهم، ولِهَذا قلَّ أن سَمِعت أو رأيت معرضًا عَن الكتاب والسّنة مُقبلًا على مقالاتهم إلا وقد تزندق أو صار على غير يَقِين فِي دينه واعتقاده.

فَلَمّا رَأيتُ الأمر على ذَلِك؛ بَانَ لي أنه يجب على كلّ من يقدر على دفع شبههم وأباطيلهم وقطع حجتهم وأضاليلهم أن يبذل جهده ليكشف رذائلهم، ويزيّف[٢] دلائلهم ذبًّا عَن المِلّة الحنيفية والسّنة الصَّحِيحَة الجلية.

ولا والله ما رأيت فيهم أحدًا مِمَّن صنف فِي هَذا الشَّأْن وادّعى علوّ المقام؛ إلّا وقد ساعد بمضمون كَلامه في هدم قواعد دين الإسلام! وسبب ذلك إعراضه عن الحق الواضح، وعما جاءت به الرسل الكرام عن رب العالمين، واتّباعه طرق الفلسفة في الاصطلاحات التي سمّوها بزعمهم حُكميات وعقليّات، وإنما هي جهالات وضلالات، وكونه التزمها معرضًا عن غيرها

(١) أي: أصول المعتقد من الإيمانيات.

(٢) أي: يكشف الزيف، فإذا كشفه صار زائفًا.

أصلًا ورأسًا، فغلبتْ عليه حتى غطّت على عقله السليم، فتخبّط حتى خبط فيها خبط عَشْوَاء، ولم يفرّق بين الحق والباطل، وإلا فالله أعظم لطفًا بعباده من ألّا يجعل لهم عقلًا يقبل الحق ويُثْبته، ويبطل الباطل وينفيه. ولكن عدم التوفيق وغلبة الهوى أوقع من أوقع في الضلال.

وقد جعل الله تعالى العقل السليم من الشوائب ميزانًا يزن به العبد الواردات، فيفرق به بين ما هو من قبيل الحق، وما هو من قبيل الباطل. ولم يبعث الله الرسل إلا إلى ذوي العقل، ولم يقع التكليف إلا مع وجوده، فكيف يقال: إنه مخالف لبعض ما جاءت به الرسل الكرام عن الله تعالى؟! هذا باطل قطعًا يشهد له كل عقل سليم، لكن ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٤٠].

فهذا ونحوه هو الذي أوجب أنّي صرفت جُلَّ همي إلى الأصول، وألزمني أن أوردت مقالاتهم، وأجبت عنها بما أنعم الله تعالى به من الأجوبة العقلية والنقلية»[١].

وهكذا يفعلُ الأبطالُ إنْ غضبوا وهكذا يعصِفُ التوحيدُ بالوثنِ

والمقصود؛ أنّ دراسة بعض نوازل المسائل المُحدثة للقدر لِمَنْ آتاه الله علمًا وعقلًا واحترازًا ممَّا يُحترزُ فيه ومِنْه، من بعض عويصِ مباحثه ومتشابه مسائله ومجهولات علومه، مشروعةٌ من جهة قصد دفع الشبه القائمة، وليس رغبة

---

(١) الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، للبزار. (٣٥-٣٦).

استكشاف المباحث غير المطروقة فيه، فهي لا تُبحث ابتداء إنما يُجرّ إليها أهلُها على النُّدرة دفعًا لجهالةٍ، وردًّا لشبهة، وكفًّا لعادِيَةٍ، فهي من جملة جهاد الدفع العلمي، فأبوابُ القدر التي لم يأتِ فيها علم من الشرع هي مغلقةٌ بأمر الشرع، فالواجب أن تبقى موصدة، اتّباعًا لأمر الرسول ﷺ، نصحًا للأمة من أمورٍ لا تطيقها أفهامُهُم، وعلومٍ لم يُتّعبدوا بطلبها، فيبقى بابُ الفكرِ فيها مُغلقًا دون مهاوي مسائل تَفتحُ على الناس أفكارًا كانوا سالمين من حتوفها، ومعاطب من مزالق فكرية يزيّنها الشيطان في عقولٍ لم تنضج بعلومِ الوحيِ السالمِ من كل خطأ، الحافظِ بإذن الله لمن اعتصم به من كل زيغ. وعلى ذلك؛ فما في تثويرِ هذه المسائل من خير يُرجى، ولو كان كذلك لم يتركه أئمة الأُمة على مرّ العصور، وقد رَوى الآجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّ ابن عمر رضي الله عنهما سُئل عن القدر، فقال: «شيءٌ أراد الله عز وجل ألا يُطلعَكُم عليه، فلا تُريدوا من الله عز وجل ما أبى عليكم»[(١)].

ولا يعني ذلك إغلاق باب التعلم في مسائل القضاء والقدر، ليس الأمر كذلك، فالإيمان بالقدر من أصول الملة، والإيمان بالقضاء والقدر فَرْعٌ عن العلم به، فلا إيمان إلا بعد علم، والله تعالى قد بيّن ذلك في محكم تنزيله، فمن ذلك قوله سبحانه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ [القَمَر: ٤٩]، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ۝٣٨﴾ [الأحزَاب: ٣٨]، وقوله سبحانه: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝١١﴾

---

(١) الشريعة (٢٣٥).

[التَّغَابُن: ١١]، وقوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣].

وبلّغَ ﷺ عن ربه أمور القدر لنعلمها ونعتقدها ونؤمن بها، فمن ذلك قوله ﷺ: **«لا يؤمنُ عبدٌ حتى يؤمن بالقدر خيره وشرّه من الله، حتى يعلم أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأنّ ما أخطأه لم يكن ليصيبه»**(١). وقال ﷺ: **«لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله بعثني بالحق، ويؤمن بالموت، وبالبعث، ويؤمن بالقَدَر»**(٢)، وقال ﷺ: **«كلُّ شيء بقَدَر؛ حتى العَجْزَ والكَيْس»**(٣).

كما كان الصحابة يسألون رسول الله ﷺ عن القَدَر استرشادًا وتعلُّمًا لا اعتراضًا وخصومة، فمن ذلك أن سراقة بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول اللَّهِ، بَيِّن لَنا دِيننا كَأنّا خُلِقنا الآنَ، فِيمَ العَمَلُ اليَومَ؛ أفِيما جَفَّت بِهِ الأقلامُ، وجَرَت بِهِ المَقادِيرُ، أم فِيما يستَقبلُ؟ قال: **«لا، بَل فِيما جَفَّت بِهِ الأقلامُ، وجَرَت بِهِ المَقادِيرُ»**. قال: فَفِيمَ العَمَلُ؟ فقال: **«اعمَلُوا فكُلٌّ مُيَسَّرٌ»**،

---

(١) الترمذي (٢١٤٤)، وصححه الألباني.

(٢) الترمذي (٢١٤٥)، وابن ماجه (٨١) وصححه الألباني.

(٣) مسلم، (٢٦٥٥). قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «الكيسُ ضدُّ العجز، وهو النشاط، والحِذْق بالأمور، ومعناه: أنّ العاجز قد قُدِّر عجزه، والكيس قد قُدِّر كيسه». إكمال المعلم (٨/ ١٤٣).

وفي رواية: **«كلُّ عامِلٍ مُيَسَّرٌ لِعَمِلِه»**(١)، وعن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال: قيل: يا رسول اللَّهِ، أيُعْرَفُ أهْلُ الجَنَّةِ مِن أهْلِ النّارِ؟ قال: **«نَعَم»**. قال: فَلِمَ يَعمَلُ العامِلونَ؟ قال: **«كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ لَهُ»**(٢).

وكان الصحابة يعلّمون من جاء بعدهم مسائل القدر، ويمتحنون فهم حُذّاقِهم لها، فهن أبي الأسود الدِّيلِيِّ، قال: قال لي عمرانُ بْنُ الحُصَيْنِ، أرَأيْتَ ما يَعمَلُ النّاسُ اليَومَ ويَكدَحُونَ فِيهِ(٣)، أشَيْءٌ قُضِيَ عليهم ومضى عليهم مِن قَدَرِ ما سَبَقَ؟ أو فِيما يُستَقبَلونَ به مِمّا أتاهم بِهِ نَبِيُّهُم، وثَبَتَتِ الحُجَّةُ عَلَيهِم؟ فقلت: بل شيء قُضي عليهم، ومَضى عَليهِم، قال: فقال: أفَلا يَكُونُ ظلمًا؟ قال: فَفَزِعتُ من ذَلِكَ فَزَعًا شَدِيدًا، وقلتُ: كُلُّ شَيءٍ خَلْقُ اللهِ وملكُ يَدِهِ، فلا يُسألُ عَمّا يفعلُ وهم يُسألون، فقال لِي: يَرحَمُكَ اللهُ، إنِّي لم أُرِدْ بِما سَألتُكَ إلّا لِأحْزِرَ عَقلَكَ(٤). إنَّ رجُلينِ مِن مُزَينَةَ أتَيا رسول اللهِ ﷺ فقالا: يا رسول اللهِ؛ أرَأيتَ ما يَعمَلُ النّاسُ اليومَ، ويَكْدَحُون فيه، أشَيْءٌ قُضِيَ عليهم ومَضى فِيهِم من قَدَرٍ قَد سَبَقَ، أو فيما يُستَقبَلونَ بِهِ مِمّا أتاهُم بِهِ نَبِيُّهُم، وثَبَتَتِ الحُجَّةُ عَلَيهِم؟ فقال: **«لا، بَل شَيءٌ قُضِيَ عَلَيهِم ومَضى فِيهِم. وتَصديقُ ذلكَ في كتابِ اللهِ تعالى:** ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۞﴾ [الشَّمس: ٧ - ٨]

---

(١) أحمد (٣/ ٢٩٢)، ومسلم (٢٦٤٨) (٨).

(٢) البخاري (٦٥٩٦) ومسلم (٢٦٤).

(٣) الكدح: هو السعي في العمل سواء أكان للآخرة أم للدنيا، وفي التنزيل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۞﴾ [الانشقاق: ٦].

(٤) أي: لأختبر عقلك وأمتحن فهمك ومعرفتك، وأتأكّد أنَّك تفهم القضية فهمًا صحيحًا.

»[١]. قال د. محمد العلي: «ومما يؤكّد أهمية تعلم مسائل القضاء والقدر: ارتباط هذا الركن العظيم بالكون كله؛ فحين ننظر إلى هذا الكون ونشأته وخلق الكائنات فيه نجد أن كل ذلك مرتبط بالإيمان بالقدر؛ قال ﷺ: **«أوّل ما خلق الله القلم قال له: اكتب، قال: ربّ وماذا أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة»**[٢]. ولو غفل الناس عن تعلّم مسائل القدر، مع الحاجة الشديدة إليه؛ لجهلوه، وتخبّطوا في دياجير الظلام؛ إذ تعجز العقول عن معرفة ذلك إلا بالاهتداء بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، وبتلك الغفلة عن تعلّمه ينفتح الباب لأهل الأهواء والبدع لينصروا مذاهبهم ويشوِّشوا على المسلمين عقيدتهم»[٣].

فعلى المؤمن أن يتعلم من أمور دينه ما يدفعُ جَهْلَهُ ويرفعُ قَدْرَهُ عند ربه تعالى، مع التأدّب بأدب العلم، ومنه التسليم التام لله تعالى امتثالًا لأمره وتصديقًا لخبره، وترك الخصومات والنزاع والمراء، والحذر من ضرب الكتاب ببعضه، ويشتدّ الأمر إن كانت بخصوص القدر، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في القدر[٤]، فغضب حتى احمرَّ

(١) مسلم (٢٦٥٠).

(٢) أبو داود (٤٧٠٠) وصححه الألباني.

(٣) ضرورة تعلم مسائل القدر والنهي عن الخوض فيه. د. العلي (٢٧).

(٤) أي: نتحدَّثُ في أمرِ القَضاءِ والقدَرِ ونَختَلِفُ فيه على وجه المنازعة.

وجهه، حتى كأنّما فُقِئ في وجنتيه الرّمان[1]، فقال: **«أبهذا أُمرتم، أم بهذا أرسلت إليكم؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر، عَزَمْتُ عليكم ألّا تنازعوا فيه»**[2]. أي: أوجبتُ عليكم وأكَّدتُ عليكم ألّا تنازعوا في القدر، لأن الشيطان قد استجرّ مَن قبلكم للتنازع فيه حتى هلكوا، وهذا من شفقته ﷺ بأمته كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التَّوْبَة: ١٢٨].

وهذا النهي إنما هو في المنازعة والمخاصمة والمُماراة، أما النقاش العلمي المؤدَّب لتعلّم مسائلِ القَدرِ وكيفيَّةِ الإيمانِ الصَّحيحِ به؛ والتصنيف فيه كما فعل أئمة السَّلف رحمهم الله فليس داخلًا في هذا النَّهي، بل هو من العِلمِ المأمورِ بتَعلُّمِه وتَعليمِه، فهو من أصول الدين وأركان الإيمان، وقد علّمه الرسولان الكريمان رسول الله ﷺ وجبريل عليه السلام الأمةَ عن طريق السؤال والجواب كما هو مشهور معلوم في حديثٍ من أعظم أحاديث الإسلام[3].

فالجدالُ والمنازعةُ بغير علمٍ بابُ ضلالةٍ، وحفرةُ نارٍ، ودهليزُ خذلان، وحمولةُ خيبة، قال تبارك وتعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ

---

(١) أي: أنه غضب حتى ظهرت علامات الغضَبِ في وجهِه الشريف ﷺ، حتَّى كأنَّما فُقِعَ ونُثِر في أعلى خَدَّيه حَبُّ الرُّمَّانِ الأحمر، وهي كناية عن احمرار وجهه من شدة الغضب شفقة على أمته ﷺ من أن يتنازعوا في القدر فيهلكوا كما هلك من قبلهم.

(٢) الترمذي (٢١٣٣) وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢/٢٢٣).

(٣) وهو حديث جبريل المشهور رواه مسلم ١/٢٨ (٨).

﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾ [الحج: ٣-٤]، وقال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٩﴾ [الحج: ٨-٩].

ولا بد للمؤمن من أطرٍ لنفسه على الجدِّ والعمل والتفاؤل والإيجابية، دون الهزل والكسل والسوداوية والسلبية، وإشغالها بما يعنيها من كريم الأمر، ففيه ملءٌ لوقتها لو عَقَلَتْ، فيحسن إسلامُها ويزكو دينُها، أما الخصومات والمراء فليست بسبيلٍ لمؤمن، والانتهاض لمجرد الاعتراض من سيء الأمراض. وكم من متساهلٍ في بوادرِ المِرَاء وهبّاتِ الخصامِ، حتى ربضت في قلبه الفتنةُ، وانسحب واعظُ الله من قلبه، وقحطت عيناه، فكان من الغافلين.

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه وهم يختصمون في القدر، فكأنما يُفقأُ في وجهه حبُّ الرُّمان من الغضب، فقال: **«بهذا أُمرْتُم؟! أو لهذا خُلِقْتُم؟! تضربون القرآن بعضه ببعض، بهذا هَلَكَتِ الأمم قبلكم»**. قال: فقال عبد الله بن عمرو: «ما غبطت نفسي بمجلس تخلّفتُ فيه عن رسول الله ﷺ ما غبطت نفسي بذلك المجلس وتخلُّفي عنه»[(١)].

وعلى المؤمن أن يحذر من أن يستجريَه الشيطان بحبائل الشّبه الفكريّة، وما أكثرها في هذا الزمان، خاصة مع تسهيل تواصل الأفكار بين الأمم

(١) ابن ماجه (٨٥) وقال الألباني: حسن صحيح.

والطوائف والملل، والشيطانُ لا يملّ من خديعة ابن آدم، ولا يكلُّ من محاولات إضلاله، حتى لو أتاه بصورة شيخ ناصح، فعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«يَأْتِي الشَّيطانُ أحَدَكُم فيقولُ: مَن خَلَقَ كَذا؟ مَن خَلَقَ كَذا؟ حَتّى يَقُولَ: مَن خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإذا بَلَغَهُ فَلْيَستَعِذْ بِاللَّهِ ولْيَنتَهِ»**[(١)]، وقال ﷺ: **«إنَّ الشَّيطانَ يَأْتِي أحَدَكُمْ، فَيَقُولُ: مَن خَلَقَ السَّماءَ؟ فَيَقُولُ: اللَّهُ، فَيَقُولُ: مَن خَلَقَ الأرْضَ؟ فَيَقُولُ: اللَّهُ، فَيَقُولُ: مَن خَلَقَ اللَّهَ؟ فَإذا أحَسَّ أحَدُكُمْ بِشَيْءٍ مِن ذَلِكَ، فَلْيَقُلْ: آمَنتُ بِاللَّهِ وبِرُسُلِهِ»**[(٢)]، وقال ﷺ منبّهًا الأمة إلى أنّ للشيطانِ طُرُقًا خفية وحِيَلًا خادعة لفتنتهم فقال: **«قُولُوا بِقَولِكُم، أو بَعضِ قولِكُمْ، ولا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطانُ»**[(٣)]. أي: يتخذكم جريًا له يعني: مطايًا، يركبكم ويؤزّكم إلى ما يريده منكم ويأمركم به[(٤)].

فعلى المؤمن الحذر الشديد من كل ما كان من طرق الشيطان، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [البَقَرَة: ١٦٨ - ١٦٩].

---

(١) البخاري (٣٢٧٦) ومسلم (١٣٤،٢١٤).

(٢) أحمد (٨٣٧٦) وصححه الألباني.

(٣) أبو داود (٤٨٠٦)، وأحمد (٢٥/٤) بهذا اللفظ وأيضًا بلفظ: **«لا يستهوينّكم»**. وصححه الألباني.

(٤) وقال الخطابي رَحِمَهُٱللَّهُ في غريب الحديث (٢٦٤/٣): معناه: لا يتخذنكم الشيطان جَرِيًّا، والجَرِيُّ: الأجير أو الوكيل، ويروى أيضًا: **«لا يستَجِرَّنَّكم»**.

ولا جَرَمَ، فقد أقسم الرجيم لأبوينا كذبًا وزورًا ومكرًا وخديعة، فكان مِنْ أمرِهِمَا ما كان، ولله الأمر من قبل ومن بعد: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢١ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٢ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٢٤﴾ [الأعراف: ٢١ - ٢٤].

فيا أيها الإنسان: ﴿كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب۩ ١٩﴾ [العلق: ١٩]

واعلَمْ بأنّك عَبدٌ لا فِكَاكَ لـه ... والعبدُ ليسَ على مَولاهُ يَعتَرِضُ

قال الإمام الطحاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأصلُ القدر سرُّ الله تعالى في خلقه، لم يطلع على ذلك ملك مقرّب، ولا نبيّ مرسل»(١). وقال ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وجملة القدر أنه سرُّ الله لا يُدرك بجدال، ولا نظر، ولا تشفي منه خصومة، ولا احتجاج، وحسب المؤمن من القَدَر أن يعلم أن الله لا يكون شيء دون إرادته، ولا يكون شيء إلا بمشيئته، ﴿ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، لا شريك له، نظام ذلك قوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، وقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ٤٩﴾ [القمر: ٤٩].

وحسب المؤمن من القدر أن يعلم أن الله لا يظلم مثقال ذرة، ولا يكلف نفسًا إلا وسعها، وهو الرحمن الرحيم، وقد تظاهرت الآثار في التسليم بالقدر،

(١) شرح الطحاوية (١/٢٤٩).

والنهي عن الجدل فيه، والاستسلام له، والإقرار بخيره وشره، والعلم بعدل مُقَدِّرِه وحكمته»(١).

وجملة ما ذكرنا من محاذير المُتكلِّمةِ في القدر هي ما قصد إليها السلف بمنعهم من الخوض فيه، قال أبو محمد البربهاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «والكلام والجدل والخصومة في القدر خاصة منهي عنه عند جميع الفرق؛ لأنّ القدر سرّ الله، ونهى الرب جل اسمه الأنبياء عن الكلام في القدر، ونهى النبي ﷺ عن الخصومة في القدر، وكرهه أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون، وكرهه العلماء وأهل الورع، ونهوا عن الجدال في القدر، فعليك التسليم والإقرار والإيمان، واعتقاد ما قال رسول الله ﷺ في جملة الأشياء، واسكت عما سوى ذلك»(٢).

وقال الإمام ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ في مسألة الخوض في القضاء والقدر: «هذا باب خاضه الأولون وغلط فيه من غلط، والواجب الحذر، فعلى كل مؤمن وكل مؤمنة التسليم لله، والإيمان بقدره سبحانه، والحرص على الأخذ بالأسباب النافعة الطيبة، والبعد عن الأسباب الضارة كما علم الله عباده، وكما جعل لهم قدرة على ذلك بما أعطاهم من العقول والأدوات التي يستعينون بها على طاعته وترك معصيته. وينبغي عدم الخوض في هذا الباب، والإيمان بأن الله قدّر الأشياء وعلِمَها وأحصاها، وأنّ ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن،

---

(١) التمهيد (٣/١٤٠).

(٢) شرح السنة. ص: (٣٦).

وأنه الخلاق العظيم القادر على كل شيء، وأن جميع الموجودات بخلقه وتقديره سبحانه، وأنّ الله أعطى للعبد عقلًا وأسبابًا وقدرة على الخير والشر كما يأكل ويشرب ويلبس وينكح ويسافر ويقيم وينام ويقوم إلى غير ذلك يطيع ويعصي.. وعلى كل مسلم أن يؤمن بالقدر، وأن يحذر الخوض في ذلك بغير علم كما خاض المبتدعة فضلُّوا، وإنما الواجب على كل مسلم أن يؤمن بالقدر، وأن يُسلّم لله بذلك، ويعلم بأن الله قدَّرَ الأشياء وعلمها وأحصاها، وأن العبد له إرادة وله مشيئة وله اختيار، لكنه لا يخرج بذلك عما قدره الله تعالى»[١].

ونختم الكلام في هذا بأمرٍ في غاية الأهمية: وهو من أعظم أسباب تسهيلِ التسليم بحكمة الله تعالى في أقداره، والاستسلام لعظيم اقتدَارِه، والاطمئنان به، والسكينة إليه، والأمن التام به، والفرح المطلق بالفوز بمعرفته والإيمان به. وهذا الأمر إذا عَقَلَهُ المرءُ فلن تبق حَسَكَةٌ في قلبه، ولا كَعَّةٌ في عقله، ولا تردُّدٌ في صدره، ولا اضطرابٌ في نفْسِه، حِيال أيّ شيء من أمر سرِّ القدر الرباني، وحكمةِ الله تعالى فيه، وذلك الأمرُ العظيم هو أن يتذكّر العبد أنّ كيفية صفات الله تعالى غائبة عنه، وإن كانت معانيها معلومة لديه، لكن حقائق الكيفية مُحْتبسٌ علمها عن علومنا، فإذا تقرر ذلك؛ فإنّ سِرَّ القدر يجرى مجرى بقية صفات الله تعالى التي لا ندركها مهما أوتينا من قوة وطاقة وعلم، وأنّى لنا ذلك!

---

(١) مجموع فتاوى ومقالات الشيخ ابن باز ٢٨/٣٧٣).

فسرُّ القدر متعلّق بعلمِ الله الذي لا يمكن لنا تخيّل كيفيته، وكذلك الكتابة الهائلة في اللوح العظيم التي لا نُدرِكُ كَنْهَهَا ولا كَنْهَهُ، وكذا المشيئة المتعلقة بالربوبية والقهر والعلوّ والحكمة والإرادة والقدرة وغير ذلك كثير، وكذا صفة الخلق المتعلقة بأشياء غائبة عنّا، وكثير منها خارجٌ عن هذا العالم المحدود الصغير المقيّد، إلى آخر تلك الأمور التي من تدبّرها تذكّرَ وادّكَرَ، واتَّعَظَ وسلّم، وآمن واطمأنّ، وسجد بقلبه وقالبه لله رب العالمين، الذي قضى وقدّر وهو العليم الحكيم، ووَعَدَ وأنذرَ وهو الغفور الرحيم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على من بعثه الله رحمة للعالمين، ومنارًا للسالكين، وحجة على الناس أجمعين، اللَّهُمَّ رَبَّ جِبرائيلَ ومِيكائيلَ وإسرافيلَ، فاطِرَ السَّمَواتِ والأرضِ، عالِمَ الغَيبِ والشَّهادَةِ، أنتَ تَحكُمُ بين عِبادِكَ فِيما كانُوا فِيهِ يَختلفونَ، اهدِنَا لِما اختُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بإذنكَ، إنّكَ تَهدِي مَن تَشاءُ إلى صِراطٍ مُستَقِيمٍ[(١)].

(١) روت هذا الدعاء العظيم عن رسول الله ﷺ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها. وقد خرّجه الإمام مسلم (١/ ٥٣٤) (٧٧٠).

جفَّ القلمُ بما هو كائنٌ

من المعلوم أن الركن السادس من أركان الإيمان هو الإيمان بالقضاء والقدر، وهو أصل عظيم به افترق المؤمنون عن الكفار، ومن جمال الإيمان بالقدر أن الكفار المؤمنين بالقدر ـ مع شركهم وكفرهم وتشويش مفهوم القدر في قلوبهم ـ هم أطيب عيشًا وأهنأ حياة وأجلد صبرًا من غير المؤمنين به، فالإيمان بالقدر سلوان للنفوس وعزاء للقلوب وريحان للأرواح، بل إنه مورث للشجاعة مُوقدٌ للإقدام.

حتى إن مُنظّري فكرهم ينادون بأهميّة ذلك الإيمان حتى وأن لم يكن تحته حقيقة ـ تعالى الله عما يقولون ـ وذلك لرؤيتهم أثره في الحياة، من احتمال الرزايا واقتحام الشدائد، قال المفكر الفرنسي الشهير فولتير: «لو لم يكن الدين موجودًا فمن الضروري أن نخترعه، وإذا لم يكن في صدور الناس دين؛ فلا بدّ أن نصنعه لهم، فلا غناء لهم عنه»، ولديورانت في قصة الحضارة كلام كثير في نفع هذا لهم، ومنها قوله هو عن نفسه: «أفضلُ عقار مُسكّن في الطبيعة جرعةٌ مما هو فوق الطبيعة»(١).

فإذا كان هذا أثره الطيّب في حياتهم؛ فكيف يكون مع أهل الإسلام والإيمان والإحسان والملّة المحمّدية المهديّة، فبالإيمان بقضاء وقدَرِ الله اتّسعت صدورهم وقرّت عيونهم وانقطعت عنهم واردات آلام فوائت

---

(١) انظر: نافذة على قصة الحضارة (١٥، ٥٧) للمؤلف.

الرغائب، وسواد غموم حلول المصائب، وأقدموا على الكريهات والمَخوفات إقدام الكماة البواسل، لا يخشون إلا الله، ولا يرجون سواه، ولا يتوكلون إلا عليه، ويعلمون أنّه المدبّر القاضي للأمور: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ۝٥٣﴾ [الشُّورَى: ٥٣]، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٢١٠﴾ [البَقَرَة: ٢١٠]، ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝٤٢﴾ [النَّجْم: ٤٢]، وذلك لعقد قلوبهم على الإيمان بأن ما قضاه الله كان وما لم يقضه لن يكون، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ [القَمَر: ٤٩]، وتأمّل أثره في جسارة عليٍّ بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إذْ قال:

أَيَّ يَومَيَّ مِنَ المَوتِ أَفِرُّ ... يومَ لا يُقْدَرُ أو يومٌ قُدِر

يومَ لا يُقْدَرُ لا أَحذَرُهُ ... وَمِنَ المَقدُورِ لا يُغني الحَذَر

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت رديف رسول الله ﷺ، فقال: **«يا غلام، ألا أعلّمك كلمات ينفعك الله بهن؟»** فقلت: بلى. فقال: **«احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرّف إليه في الرخاء يعرفْك في الشدة، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، قد جفّ القلم بما هو كائن، فلو أن الخلق كلهم جميعًا أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه، وإن أرادوا أن يضرّوك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه، واعلم أنّ في الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا»**[(١)]، ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾ [الطَّلَاق: ٧].

---

(١) أحمد (٢٨٠٣) وصححه محققوه. وصححه الألباني في السلسلة (١٠٧٦)

عَسَـى فَـرَجٌ يَـأْتِي بِـهِ اللهُ إِنَّـهُ لَـهُ كُـلَّ يَـوْمٍ فِي خَلِيقَتِـهِ أَمْـرُ

قال الإمام الطحاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ونؤمن باللوح والقلم، وبجميع ما فيه قد رقم، فلو اجتمع الخلق كلهم على شيء كتبه الله تعالى فيه أنه كائن؛ ليجعلوه غير كائن لم يقدروا عليه، ولو اجتمعوا كلهم على شيء لم يكتبه الله تعالى فيه؛ ليجعلوه كائنًا لم يقدروا عليه، جفّ القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة، وما أخطأ العبد لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه.

وعلى العبد أن يعلم أنّ الله قد سبق علمه في كل كائن من خلقه، فقدّر ذلك تقديرًا محكمًا مبرمًا، ليس فيه ناقض ولا معقّب، ولا مزيل ولا مغيّر، ولا ناقص ولا زائد من خلقه في سماواته وأرضه، وذلك من عَقْدِ الإيمان، وأصول المعرفة، والاعتراف بتوحيد الله تعالى وبربوبيته، كما قال تعالى في كتابه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ [الفُرْقَان: ٢]، وقال تعالى: ﴿كَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ۝٣٨﴾ [الأَحْزَاب: ٣٨]. فويل لمن صار لله تعالى في القدر خصيمًا، وأحضر للنظر فيه قلبًا سقيمًا»[1].

فكـــل شيء قضـــاه الله في أزلٍ طُرًّا وفي لوحِهِ المحفوظِ قد سُطِرَا

قال شيخنا العلامة صالح آل الشيخ حفظه الله: «هذه الجُمَلُ من كلام الطحاوي بَسَطَ فيها جُمَلًا من آداب الإيمان بِقَدَرِ الله، والقدر سِرُّ الله تعالى

---

(١) العقيدة الطحاوية، مع تخريج الألباني (١/ ٥٣)

وغيبه الذي لم يُطْلِعْ عليه مَلَكٌ مقرب ولا نبي مرسل. ولهذا أمر نبيُّنا ﷺ بأنه إذا ذُكِرَ القَدَرْ أمسكنا، فقال ﷺ: **«وإذا ذكر القَدَرْ فأمسكوا»**(١).

قال الطحاوي: «فعِلْمُ القَدَر نوعان: علم في الخلق موجود، وعلم في الخلق مفقود». أراد أنَّ العلم بالقَدَر على نوعين:

علم في الخلق موجود: وهو ما عَلَّمَنَا الله تعالى إياه في كتابه وما علمنا رسوله ﷺ، وهذا كما قال: «فَإِنْكَارُ العِلمِ الْمَوجُودِ كُفْرٌ»، إذا تبين أَنَّهُ من عند الله تعالى وليس ثَمَّ شبهة ولا تأويل؛ فإنّ إنكار العلم الموجود كفر؛ لأنه تكذيب لله تعالى ولرسوله ﷺ. والعلم الموجود في القَدَرْ كما رأيت مما جاء في الكتاب والسنة يعلَمُهُ الراسخون في العلم، وأما من ليس بذي رُسُوخٍ في العلم فإنه في مسائل القَدَر لا يزال على اشتباه وعلى عدم وضوح.

فالواجب على من لم يكن من الراسخين في العلم من عامة أهل الإيمان أن يقول: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عِمْرَان : ٧]، كما وصف الله تعالى الراسخين، مع علمهم أنهم قالوا ذلك ليقْتَدِيَ بهم الناس فيما لم يعلموا، قال سبحانه: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عِمْرَان : ٧]، يعني آمنا بالمُحْكَمْ وآمنّا بالمتشابه كلّ من عند الله تعالى، لا نفرق بين كلام

---

(١) الطبراني في معجمه الكبير (١٤٢٧) عن ثوبان عن النبي ﷺ قال: **«إذا ذكر أصحابي فأمسكوا، وإذا ذُكرت النجوم فأمسكوا، وإذا ذُكر القدر فأمسكوا»**. قال الألباني في تخريج الطحاوية (١ / ٥٠): «وهو حديث صحيح، روي عن جمع من الصحابة، وقد خرجته في الصحيحة (٣٤) يعني: أمسكوا عن الخوض فيه بما لم تُوقَفُوا فيه على علم».

الله. ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عِمْرَان : ٧]، هم أهل الثُّبُوت والقوة في العلم الموروث عن النبي ﷺ، لأنَّ الرسوخ هو الثبات والاستقرار والقوة والتمكّن. فهؤلاء يعلمون لأنَّ وصْفهم بكونهم راسخين يقتضي أنهم يعلمون؛ لأنَّ الذي لا يعلم لا يُوصَف بالرسوخ في العلم، وهم متميزون عن غيرهم بالعلم والإيمان. والرُّسُوخُ في العلم هو الرُّسُوخُ في أنواع العلم الثلاثة: العلم بالتوحيد، والعلم بالفقه، والعلم باليوم الآخر والغيبيّات[1].

فهؤلاء هم الراسخون في العلم، وقد يكون الرُّسُوخُ في العلم يتنوع أيضًا، ولكن من لم يصحّ علمه بالتوحيد فإنه ليس بذي رسوخ في العلم مهما كان، لأنَّ أصل الأصول هو الاعتقاد، أصل الأصول هو التوحيد الذي معه يصحُّ الفقه، يصحّ العمل، تصحّ العبادة، يصحّ الحكم والإفتاء إلى آخره. فإذًا أهل الرسوخ في العلم يعلمون أنَّ العلم ـ ممّا في القَدَر ـ علمان: علم في الخلق

(١) قال ابن القيم في النونية:

والجهـــلُ داءٌ قاتـــلٌ وشـــفاؤُه ... أمـــران في التركيـــب متّفقـــانِ
نـــصٌّ مـــن القـــرآن أو مـــن سُـــنّةٍ ... وطبيـــبُ ذاك العـــالمُ الربـــاني
والعلـــم أقســـام ثـــلاث مالهـــا ... مـــن رابـــعٍ والحـــق ذو تبيـــان
علـــمٌ بأوصـــاف الإله وفعلِـــهِ ... وكـــذلك الأســـماء للـــرحمنِ
والأمـــر والنهـــي الـــذي هـــو دينُـــه ... وجـــزاؤُه يـــوم المعـــادِ الثـــاني
والكـــلُّ في القـــرآن والســـنن التـــي ... جـــاءت عـــن المبعـــوث بالفرقـــانِ
واللهِ مـــا قـــال امـــرؤٌ مُتحـــذْلِقٌ ... بســـواهُما إلّا مـــن الهـــذيانِ

موجود، يعني جعله الله موجودًا في الخلق بما أنزل في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ، وشيء كثير من مسائل القَدَر حجبها الله تعالى. لهذا فإنَّ أهل الرسوخ في العلم يبسطون من مسائل القَدَر بما جاء في الأدلة، ويطوون من مسائل القَدَر ما لم يأتِ في الأدلة.

ولذلك كل ما لم يكن مبسوطًا عند أهل العلم الراسخين من أهل الحديث والسنة والجماعة، فإنَّ هذا العلم - يعني الذي تكلم فيه الآخرون - ينبغي ألا يتكلم فيه كل أحد. لأنَّ ما طوى الله تعالى عنّا عِلْمَهُ فإنَّ الخير في ألا نبحث فيه، لهذا قال المصنف: «وَالتَّعَمُّقُ وَالنَّظَرُ فِي ذَلِكَ» يعني في النوع الذي هو من العلم المفقود «ذَرِيعَةُ الخذلَانِ، وَسُلَّمُ الْحِرْمَانِ، وَدَرَجَةُ الطُّغْيَانِ، فَالْحَذَرَ كُلَّ الْحَذَرِ مِنْ ذَلِكَ نَظَرًا وَفِكْرًا وَوَسْوَسَةً، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى طَوَى عِلْمَ الْقَدَرِ عَنْ أَنَامِهِ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَرَامِهِ».

وقوله: «وَادِّعَاءُ الْعِلْمِ الْمَفْقُودِ كُفْرٌ»، لأنه غيبي، ومن ادَّعَى الغيب الذي اختصَّ الله به فإنه كافر، وذلك لقوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ۝٢٧ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ۝٢٨﴾ [الجن: ٢٦ - ٢٨]، وقال سبحانه: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ۝٣٤﴾ [لقمان: ٣٤]. فهذه الخمس اختصّ الله تعالى بها. لهذا علم

القَدَر من علم الغيب، وعلم الغيب عام يشمل القَدَر ويشمل غيره. لهذا قال: «وَلَا يَثْبُتُ الْإِيمَانُ إِلَّا بِقَبُولِ الْعِلْمِ الْمَوْجُودِ، وَتَرْكِ طَلَبِ الْعِلْمِ الْمَفْقُودِ».

وقال: «وَنُؤْمِنُ بِاللَّوْحِ وَالْقَلَمِ، وَبِجَمِيعِ مَا فِيهِ قَدْ رُقِمَ». اللوح والقلم تَعَلَّقَ بالقَدَر من جهة أنَّ القَدَر من مراتب الإيمان به الكتابة. والكتابة كانت بالقلم في اللوح، ولهذا لا يتم الإيمان بالكتابة إلا بالإيمان باللوح والقلم. والله تعالى أقسم بالقلم فقال سبحانه: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾ [القَلَم: ١]. هذا هو القلم الذي كُتِبَ به القضاء، كُتِبَ به القَدَر في أحد وجهي التفسير. واللوح ذكره الله تعالى في كتابه في غير ما آية كقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ۝٢٢﴾ [البُرُوج: ٢١ - ٢٢]. وسمّاه سبحانه كتابًا مكنونًا فقال تعالى: ﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩﴾ [الوَاقِعَة: ٧٨ - ٧٩]. وسمّاه أم الكتاب فقال سبحانه: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ۝٣٩﴾ [الرَّعْد: ٣٩]. وسُمِّيَ لوحًا لما فيه من البهاء والنور والإضاءة لأنه يَلُوحُ بمعنى أنه يظهر ويبين لما فيه من النور. فالإيمان باللوح والقلم من الإيمان بكتابة الله تعالى. إذا تبيّن هذا ففي مسألة اللوح والقلم عدة مسائل:

المسألة الأولى: أنَّ اللوح جاء وصْفُهُ في حديث حَسَّنَهُ طائفة من أهل العلم ويحتاج في بحث إسناده إلى مزيد نظر فيه، وقد جاء في الحديث: **«خلق الله اللوح من دُرَّةٍ بيضاء»**(١). ووصفه بأنَّ حافّتيه الدّرّ والياقوت؛ يعني غطاء

---

(١) يعني حديث ابن عباس رضي الله عنهما موقوفًا، قال: «إنّ الله خلق لوحًا محفوظًا من درّة بيضاء، دفّتاه من ياقوتةٍ حمراء، قلمه نور، وكتابه نورٌ، عرضه ما بين السّماء =

هذا اللوح أو دفّتا هذا اللوح من دُرٍّ وياقوت، وصفحات هذا اللوح حمراء. جعل الله تعالى هذا اللوح كما وصفه بعض السلف على يمين العرش، وهو بين جبين إسرافيل لا يَنْظُرُ فيه. وجاء أيضًا: أنَّ الله خَلَقَ القلم وجعله من نور،

=

والأرض، ينظر فيه كلّ يومٍ ثلاثمئةٍ وستين نظرة، ففي كلِّ نظرةٍ منها يخلق ويرزق ويحيي ويميت ويعز ويذل ويفعل ما يشاء، فذلك قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ٢٩﴾ [الرَّحۡمَٰن: ٢٩]». رواه الحاكم في المستدرك (٣٧٧١) والطبراني في المعجم الكبير (١٠٦٠٥) وأبو نعيم في حلية الأولياء (١/٣٢٥). وقال الشيخ محمد أبو شهبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «دفاع عن السنة ورد شبه المستشرقين» (١/٢٠٦) في ذلك: «لم يصح عن النَّبيِّ ﷺ في تفصيل ذلك حديث مرفوع، وإنما هي آثار عن بعض الصحابة والتابعين، والواجب أن نؤمن بوجود اللوح المحفوظ، وأن الله دَوَّنَ فيه كل ما كان وما يكون. أما ما وراء ذلك مِمّا ورد في وصفه وكيفيته والقلم الذي كتب به فلا، والأقرب فيما ورد عن ابن عباس وغيره في هذا أنه من الإسرائيليات التي أُخذت عن أهل الكتاب، ورُويت لغرابتها، ولا سيّما وأنه ليس في القرآن ما يصدّقها ولا ما يكذّبها، فبقيت روايتها على أصل الإباحة».

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما ذكر هذه الأحاديث وما في معناها: «فهذا تقديرٌ يوميّ، والذي قبله تقدير حولي، والذي قبله تقدير عمرِي عند تعلقِ النفس به، والذي قبله كذلك عند أوّل تخليقِهِ وكونِهِ مضغة، والذي قبله تقدير سابق على وجوده لكن بعد خلق السماوات والأرض، والذي قبله تقدير سابق على خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكلّ واحدٍ من هذه المقادير كالتفصيل من التقدير السّابقِ.

وفي ذلك دليلٌ على كمال علم الرّبِّ وقدرته وحِكمتِهِ، وزيادة تعرِيفِهِ الملائِكة وعباده المؤمنين بنفسه وأسمائه». أهـ. شفاء العليل (١ / ٦١-٧٤)

وأنَّ طوله ما بين السماء والأرض، وأنَّ اللوح المحفوظ طوله ما بين السماء والأرض، وعرضه كما بين المشرق والمغرب[١].

وهذا كما ذكرتُ لك يحتاج إلى مزيد بحث، لكن يذكره العلماء من أهل السنة وتتابعوا عليه في حديث رواه - يعني في أصل وصف اللوح والقلم - رواه الطبراني وغيره وحُسِّنَ إسناده كما ذكرت لك، وقد ساقه أو ذكر الحديث شارح الطحاوية وغيره.

المسألة الثانية: أنَّ القلم الذي كَتَبَ الله تعالى به القَدَر كُتِبَ به ما يتعلق بهذا العالم. يعني كُتِبَ به القَدَر إلى قيام الساعة، كما جاء في الحديث الصحيح حديث عبد الله بن عمرو أنّ النبي صلى ا الله عليه وسلم قال: **«قدّر اللهُ مقادير الخلائق[٢] قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»**[٣]. فالقلم متعلقة كتابتُه في اللوح المحفوظ بما هو كائن إلى قيام الساعة.

المسألة الثالثة: أنّ القلم لمَّا خَلَقَهُ الله تعالى أمره أن يكتب، فجَرَى بما هو كائِنٌ إلى قيام الساعة، كما جاء ذلك في حديث عُبادة بن الصامت الذي رواه أبو داوود والترمذي والإمام أحمد وجماعة بألفاظ متقاربة، وفيه أنَّ النبي ﷺ

(١) مثل هذا التفاصيل التي ليس عليها دليل ثابت فإنها تُذكر أحيانًا من باب العلم بأنها قيلت، ولكن لا يُعقد الإيمان بها في القلب إلا بعد ثبوتها عن رسول الله ﷺ.

(٢) أي: كتب أقدار الخلائق.

(٣) مسلم (٢٦٥٣)

قال: «**إنّ أوّلَ ما خلق الله القلم، فقال له: أكتب، فجرى بما هو كائن إلى قيام الساعة**». وهذا لفظ أبو داوود[١] وغيره. وجاء أيضا بلفظ: «**أوّلُ ما خلق الله القلم قال له: أكتب. فجرى بما هو كائن إلى قيام الساعة**»[٢]. ولهذا اختلف العلماء هنا في هل هذا الحديث على ظاهره في أنَّ أول المخلوقات القلم؟ أو أنَّ هذا الحديث له معنىً آخر؟ وجعلوا هذا الحديث وحديث عبد الله بن عمرو من الأحاديث التي ينبغي الجمع بينها، وهذا هو المسألة الرابعة وهو الجمع ما بين الحديثين.

المسألة الرابعة: تلحَظُ أَنَّ حديث عبد الله بن عمرو فيه قال: «**قدّر الله مقادير الخلائق**». ولما قَدَّر - يعني كتب - كان عرشه على الماء. وفي حديث عبادة قال: «**إنّ الله أوّلَ ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب**»، فيقتضي حديث عبادة أنَّ الأمر بالكتابة كان مُرَتَّبًا على ابتداء خلق القلم. وتقدير القَدَر كان قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، والعرش على الماء.

فدل حديث عبد الله بن عمرو على وجود تقديرٍ، وعلى وجود العرش - خلق العرش - وعلى خلق الماء. ودلَّ حديث عبادة على أنَّ خَلْق القلم تَبِعَهُ قول الله تعالى للقلم: «**اكتب، فجرى بما هو كائن إلى قيام الساعة**». وهذا الترتيب جاء في حرف الفاء الذي يدل في مثل هذا السياق على أنَّ هذا بعد هذا دون تراخٍ زمني.

---

(١) أبو داود (٤٧٠٠) وبنحوه عند الترمذي (٣٣١٩) وصححه الألباني.

(٢) المسند (٢٢٧٥٩) وصححه محققوه، مصنف ابن أبي شيبة (٣٥٩٢٢)

ولهذا اختلف العلماء في هذه المسألة في الجمع بين هذين الحديثين هل القلم هو أوّل المخلوقات؟ أم العرش(١) خُلِقَ قبله؟ على قولين للسلف فمن بعدهم:

القول الأول: إنَّ العرش قبل القلم، وكذلك الماء قبل القلم. وهذا قول جمهور السلف، كما نسب ذلك إليهم شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره.

القول الثاني: أنَّ القلم هو أوّل المخلوقات، والعرش والماء بعد ذلك، وهو قول طائفة من أهل العلم.

والترجيح ما بين هذين القولين: هو أنَّ الأحاديث يجب الجمع بينها وعدم تعارضها. وحديث عبادة بن الصامت في قوله ﷺ: **«إنّ أول ما خلق الله القلم، فقال له: أكتب»**، يقتضي أنَّ الكتابة كانت بعد خلقه. وحديث عبد الله بن عمرو يقتضي تقدّم وجود العرش والماء على حصول الكتابة. فدلّ هذان الحديثان على أنَّ العرش والماء موجودان قبل، وأنَّ خلق القلم تبعته الكتابة.

ولهذا نسبه شيخ الإسلام إلى جمهور السلف بأنَّ القلم موجود بعد العرش والماء. وهذا تدل عليه رواية **«أَوّلَ ما خلق الله القلم قال له أكتب»**، يعني حين. فـ**«أَوّلَ»** هنا بمعنى حين. أي حين خَلَقَهُ قال له: أكتب. وهذا هو معنى

---

(١) قال الضحاك، عن ابن عباس: «إنّما سُمّي عرشًا لارتفاعه». تفسير ابن كثير (٥ / ٤٨٩)

«إنّ أَوَّلَ ما خلقه الله القلم، فقال له: أكتب»[١]، لأنَّ الجمع بين الروايات أولى من تعارضها.

(١) فحملوا هذه الرواية على التي قبلها وفسروها بها، فصار معناها: حين خلق الله القلم قال له.. فـ«**أوّل**» هنا بمعنى الحينية وليست بمعنى الأوّلية، وهذا شائع في كلامهم فتقول لصاحبك: أوّل ما رأيتك تذكرت فلانًا، بمعنى حينما رأيتك تذكرته.

والراجح هو قول الجمهور، وبه تجتمع الأدلة، وإن مما يساعد على تصوّر هذه المسألة والترجيح فيها العلمُ بأن الله خلّاق، كما قال تعالى: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨١﴾ [يس: ٨١]، والخلاق مبالغة من الخلق وأنه يخلق ما يشاء، فهو قادر على خلق شيء بعد شيء سبحانه وتعالى، وأسماء الحسنى تقتضي آثارها، وتستلزمها استلزام المقتضى الموجب لموجبه ومقتضاه، فلا بد أن تظهر آثارها في الوجود، والله تعالى ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦﴾ [البُرُوج: ١٦]، ففيه صفة المبالغة بالفعل بعد الفعل، وهكذا.

والشرع لم يمنع أن يكون لله تعالى مخلوقات قبل السماوات والأرض وما فيهن، ولم يمنع أن يخلق الله مخلوقات أخرى وعوالم أخرى بعد نهاية الدنيا واستقرار أهل الآخرة في دورهم الخالدة، والله على كل شيء قدير، ولم يمنع أن يكون هذا الكون المشهود الذي انتهى إليه علمنا إنما هو جزء يسير جدًّا من مخلوقات الله تعالى، قد سبقه مخلوقات لله تعالى لا تتصوّرُ عقول البشر ولا تستوعب كثرتها وعددها وبُعد زمنها وتفاصيل أخبارها، ولم يمنع أن يلحق هذا الكون مخلوقات لله تعالى ومخلوقات لا يعلمها إلا الله تعالى.

وإن هذه السماوات والأرض وما بينهم وما فيهن ليست بشيء عند عظمة وحجم العرش العظيم الكريم المجيد الذي هو أكبر مخلوقات الله المشهودة لدينا، فنسبتها إليه كنسبة حلقة ألقيت في فلاة!

=

وخلاصة البحث هو ما ذكرت لك من التقدير، فإن قوله: **«إنّ أَوَلَ ما خلق اللهُ القلمُ»**، هنا برفع القلم يكون خبر **«إنَّ»**. يعني: إنَّ أَوَلَ الذي خلق الله، إنّ أَوَلَ المخلوقات القلمُ، فقال له: اكتب. وإذا كان أَوَّل المخلوقات؛ فكيف يُفَسَّرْ مع حديث: **«وكان عرشه على الماء»**؟ فقوله: إنَّ أَوَّلَ المخلوقات، أو أَوَّلَ ما خلق الله أو أَوَّلَ الذي خلقه الله، يُفهم على أنَّ القلم جرى بما هو كائن إلى قيام الساعة قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.

فالقلم متعلّق بما كُتِبَ في اللوح المحفوظ، مُتَعَلِّقًا بما يحدث في هذا العالم المخصوص، لا في مطلق الأشياء، ولهذا عُلِّق بأنه إلى قيام الساعة.

فإذًا يُفهم لمَّا كان تعلق الكتابة بهذا العالم الذي جرى التقدير عليه إلى قيام الساعة، يُفهم أنَّ القلم لمَّا تَعَلَّقَ بهذا العالم كتابةً لِتَقْدِيرِهِ ولِقَدَرِهِ ولآجاله إلى آخره؛ فإنه من هذا العالَم؛ لأنّ العوالم أجناس، والله تعالى جعل لمخلوقاته أقدارًا وأجناسًا[1].

=
والمقصود؛ أنّ كتابة القلم لها بداية، كما أنّ لها أمدٌ ينتهي بقيام الساعة، ولا يعني هذا نهاية مخلوقات الله تعالى التي لا نعلم عنها شيئًا. وبالله التوفيق.

(١) أي على تقدير صحة القول بأولية القلم على سائر المخلوقات؛ يكون المعنى حينها: أنّ لله تعالى عوالم مخلوقة متعددة، وأنّ منها عالمنا هذا المشهود بما فيه من السماوات والأرض، وأنّ أول مخلوقات عالمنا هذا القلم. أما العرش والماء فهي من عالم آخر غير عالمنا هذا.

فإذًا يُفهم قوله: **«إن أَوَّلَ ما خلق الله القلم»**، يعني من هذا العالم. فالقلم قبل السماوات وقبل الأرض وقبل الدخان المتعلِّق الذي خُلِقَت منه السماوات والأرض وكل ما يتصل بهذا العالم المرئي المُشاهَدْ، فالقلم هو أول المخلوقات، أما العرش والماء فليسا مُتَعَلِّقَينِ بهذا العالم(١).

---

(١) ظنّ بعض الفضلاء أن القول بأوّليّة العرش أو القلم يهدم قول أهل السنة في إثبات حوادث لا أول لها، وأن التسلسل يكون في الماضي والمستقبل، وأن الله تعالى يفعل ما يشاء كما هو واضح من كلام الإمام أحمد والدارمي وغيرهما من الأئمة، وقد بسطها شيخ الإسلام أكثر ممن قبله لكثرة المخالفين فيها في زمنه، ولاشتباه الهدى بالضلال فيها عند كثير ممن خاض فيها في وقته- وهي مسألة التسلسل المشهورة- فظن بعض الأفاضل أن القول بأوّلِية العرش أو القلم ينقض ذلك، وهذا ليس بصواب، لأنّ أهل السنّة قالوا: إنّ أوّلية المخلوقات في هذه الأحاديث إنّما يراد بها مخلوقات هذا العالم المشهود، أي المخلوقات المعلومة المخصوصة التي علِمْناها وحَدَّثنا الوحيُ عنها، وإلّا فليس في الأحاديث أنّها أوّل مخلوقات الله مطلقًا. وانظر: الصفدية (١ / ١٧) (٢ / ٢٢٤) والرسالة العرشية (١ / ٨) ومجموع الفتاوى (١٨ / ٢١٠-٢٤٣).
ثم تدبر قوله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩]. فإنه تعالى لمّا ذكر الأرض، ثم السماوات، ثم العرش، وهي المخلوقات المشهودة مع الجنة والنار، ثم ذكر أن بيده ملكوت كل شيء وهي المِلْكيّة المطلقة لكل شيء، فإمّا أنّه أراد الجنة والنار، أو أنه قصد التأكيد لملكيّته ما سبق ممّا ذكر، أو أنّه أومأ لمخلوقاته الأخرى غير المعلومة لدينا وأنها مُلكُه، سواء قبل خلق هذا العالم أو بعد دخول أهل الجنة والنار منازلهم، فقد
=

فإذًا إعمال الحديثين مع ما يتّفق مع عقيدة أهل السنة والجماعة واضح لا إشكال فيه، فيكون ذلك هو تقرير هذه المسألة. وقد لخّص ابن القيم المسألة في نونيّته وبحثها مفصلًا في كتابه التبيان في أقسام القرآن، وفي غيره فقال في النونية:

والناسُ مختلفون فى القلم الذى كُتِبَ القضاءُ به من الدَّيانِ
هل كان قبل العرش أو هو بعده قولان عند أبى العلا الهمدانى
والحقُّ أنّ العرش قبلُ لأنّه عند الكتابة كان ذا أركانِ

وهذا القول كما ترى من تقريره مع دليله هو الصحيح، وهو الموافق لفقه النصّ وفقه خلق العالم وآثار فعل الله تعالى في ملكوته، ومتّفق مع القول بأن الله تعالى فعَّالٌ لما يريد، وأن قَبْلَ هذا العالم ثَمَّ عوالم أخرى، والله تعالى يخلق ما يشاء ويختار، وأنّه ثَم أشياء أخرى بعد قيام الساعة، والقلم مُتَقَيِّدٌ بما خلقه الله تعالى له، والله سبحانه له الأمر كله يقضي ما يشاء ويحكم ما يريد.

المسألة الخامسة: جاء في حديث أنس الذي رواه البخاري وغيره في قصة الإسراء أنَّ النبي ﷺ ذَكَرَ عروجه إلى الله تعالى ليلة المعراج، ثم قال في

=

ذكرها تعالى بترتيب أولويّ من الأقل للأكثر، وهو الخلاق العظيم سبحانه وبحمده. والله أعلم.

وصف ارتفاعه: «**ثم إنِّي رُفِعْتُ لمستوًى أسمع فيه صريفَ**[١] **الأقلام**»[٢]. وهذه الأقلام غير القلم الذي كُتِبَ به القَدَرْ، فإنَّ ذلك القلم من نور كُتِبَ به القَدَر في اللوح المحفوظ. وأما هذه الأقلام فهي التي بأيدي الملائكة، وهي أقلامٌ يُكْتَبُ بها وحي الله تبارك وتعالى إلى ملائكته مما يُوَكَّلُونَ به من الأشياء. فهم يكتبون أَمْرَ الله تعالى، وله سبحانه وتعالى كلمات لا تنقضي كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٧﴾ [لقمان: ٢٧] فالله تعالى كلماته الكونية لا تنفد، يأمر وينهى في ملكوته والملائكة تكتب، فهذه الأقلام نوع آخر. ولك أن تقول: هذا هو النوع الثاني، وهي أقلام الوحي التي بأيدي الملائكة يكتبون ما يوحي الله به في سَمائه.

قال بعد ذلك: «**فَلَوِ اجْتَمَعَ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ عَلَى شَيْءٍ كَتَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ - يعني في اللوح - أَنَّهُ كَائِنٌ؛ لِيَجْعَلُوهُ غَيْرَ كَائِنٍ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا كُلُّهُمْ عَلَى شَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ؛ لِيَجْعَلُوهُ كَائِنًا لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَا أَخْطَأَ الْعَبْدَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ، وَمَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ**». وهذه العقيدة هي حقيقة الإيمان بالقضاء والقَدَرْ. هي أنْ يعلم العبد أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأنَّ ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأنه لو فَعَلَ ما فَعَلْ

---

(١) الصريف في اللغة: هو صوت احتكاك أَسَلَةِ القلم بالورقة حين الكتابة. ويقال صرير أيضًا.

(٢) البخاري (٣٤٩) مسلم (١٦٣)

فإنه لن يَحْجِبَ قضاء الله تعالى وقدَرَه، لأنه لا يمكن أن يفعل خلاف ما قدَّرَ الله، لهذا وجب التسليم لله تعالى في أمره، ووجب في أَمْرِ المصائب التي لا اختيار للعبد فيها أن يُسَلِّمَ لله تعالى ذلك، وأن يؤمن بقضاء الله تعالى الذي يقضيه.

قال: «وَعَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ سَبَقَ عِلْمُهُ فِي كُلِّ كَائِنٍ مِنْ خَلْقِهِ، فَقَدَّرَ ذَلِكَ تَقْدِيرًا مُحْكَمًا مُبْرَمًا، لَيْسَ فِيهِ نَاقِضٌ وَلَا مُعَقِّبٌ»، يعني ليس له ناقض ولا معقّب. «وَلَا مُزِيلٌ وَلَا مُغَيِّرٌ، وَلَا نَاقِصٌ وَلَا زَائِدٌ مِنْ خَلْقِهِ فِي سَمَاوَاتِهِ وَأَرْضِهِ، وَذَلِكَ مِنْ عَقْدِ الْإِيمَانِ»، يعني مما يجب أن يُعْقَدَ عليه القلب إيمانًا به، وقال: «عَقْدِ الْإِيمَانِ»، يعني مما يجب في الإيمان يكون عقيدة يُؤْمِنُ به.

«وَالِاعْتِرَافِ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى وَرُبُوبِيَّتِهِ»، يريد بتوحيد الله تعالى في هذا الموطن توحيد الله تعالى في تَصَرُّفِهِ في مُلْكِهِ وفي عبادته، فإنَّ العبد إذا اعترف بأنَّ الله هو المتَصَرِّفْ في ملكه، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنَّهُ هو المدبر وهو الرب فإنّه يُوَحِّدُ الله في قَدَرِهِ، ويُوَحِّدُ الله تعالى في أفعاله كما يُوَحِّدْ الله تعالى في ربوبيته بعامة.

ففي الحقيقة من تأمّل توحيد الربوبية وآمَنَ حَقًّا بربوبية الله تعالى فإنه يؤمن بالقَدَر؛ لأنَّ الإيمان بالقدر من ثمرات الإيمان التام بربوبية الله تعالى، فإنَّ المؤمن بالربوبية، بأنَّ الله تعالى هو الرب المتصرف في ملكه، هو السيد المطاع، هو الذي لا معقّب لحكمه ولا رادّ لأمره، هو الذي ما شاء كان، هو الذي لا يُغالَب في ملكه، هو الذي يعطي ويمنع ويخلق ويرزق ويميت ويحيي، من آمن

بالربوبية على تفاصيلها؛ فإنّه لن يجادل في القدر؛ لأنه يعلم أنه مربوب مستسلم لله تعالى(١).

ولا شكّ أنَّ الإيمان بالعرش والكرسي حقٌّ على ما جاء في ظاهر الأدلّة. ومعتقد أهل السنة والجماعة أنَّ العرش غير الكرسي، فالعرش شيء والكرسي شيء آخر، وكلاهما حقٌّ.

فالعرش حق لأنَّ الله تعالى ذكره في كتابه في آيات كثيرة فقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ووَصَفَ العرش بأنه عظيم، فقال: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾ [النمل: ٢٦] ووصف عرشه بأنه مجيد، وبأنه يُحْمَل فقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ ﴿٧﴾﴾ غافر: ٧، ووصف عرشه أيضًا بأنَّهُ يستوي عليه، وأنَّ عرشه موصوف بصفات العظمة التي فاق بها سائر العروش. وجاء في السنة مزيد في وصفه بأنَّ العرش له قوائم تحمله الملائكة، كما قال ﷺ **«يُصعق الناس فأكون أول من يُفيق، فإذا بموسى باطشٌ - أو قال آخذٌ - بقائمة من قوائم العرش»**(٢).

---

(١) فشجرة الإيمان في قلب المؤمن تثمر اليقين بالقدر، وتنفي حرج النفس عند ثوران الوساوس، وتدفع وَحَر الصدر عند نزول أقضية الرب تعالى شرعية كانت أو كونية، ولا يزال مِن يقينٍ إلى يقين حتى يلقى ربه حق اليقين، قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المؤمنون هم العجّاجون بالليل والنهار، والله ما زالوا يقولون: ربنا ربنا؛ حتى استجيب لهم».

(٢) البخاري (١٨٧/٤، ٧٤/٦و١٦/٩و١٥٤)

فالعرش إذًا مخلوق من مخلوقات الله تعالى العظيمة، ومن عِظَمِه أنه قال فيه: «**مثل السماوات السبع للعرش كمثل حلقة ألقيت في فلاة، ومثل الكرسي للعرش كذلك**»(١). يعني كحلقة ألقيت في فلاة، وهذا الحديث صححه وقواه

---

(١) ابن حبان (٣٦١) وصححه الألباني في الصحيحة (١٠٩) بلفظ: قال أبو ذر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما الكرسيّ في العرش إلا كحلْقَةٍ من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض**». ورواه المستدرك (٢/ ٢٨٢) موقوفًا، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. وقال شيخنا الجبرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح العقيدة الطحاوية (٢ / ١٧٩): «قال الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأما الكرسي فقال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [البَقَرَة : ٢٥٥] وقد قيل: هو العرش، والصحيح أنه غيره، نقل ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره، روى ابن أبي شيبة في كتابه صفة العرش والحاكم في مستدركه وقال: إنه على شرط الشيخين ولم يخرجاه، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [البَقَرَة : ٢٥٥] أنه قال: «الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر قدره إلا الله تعالى»، وقد روي مرفوعًا، والصواب أنه موقوف على ابن عباس. وقال السُّدِّي: «السماوات والأرض في جوف الكرسي، والكرسي بين يدي العرش». وقال ابن جرير: قال أبو ذر رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما الكرسي في العرش إلا كحلْقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض**». وقيل: كرسيّه علمُه، وينسب إلى ابن عباس، والمحفوظ عنه ما رواه ابن أبي شيبة كما تقدم، ومن قال غير ذلك فليس له دليل إلا مجرد الظن، والظاهر أنه من جراب الكلام المذموم، كما قيل في العرش.

وإنما هو كما قال غير واحد من السلف: «بين يدي العرش كالمرقاة إليه». هذا الكلام على الكرسي الذي ذكر الله أنه وسع السماوات والأرض، وهو كالمرقاة بين يدي العرش، أو أن الكرسي موضع القدمين، وبكل حال فهو مخلوق، وقد ذكر الله أنه وسع =

جمع من أهل العلم، وروي من طرق كما ذكر الإمام ابن تيمية، والبحث يقتضي ذلك.

وصْفُ العرش في النص جاء بأنه مجيد؛ يعني أنه ذو سَعَة، وأنه ذو جمال، وجاء بأنه عظيم؛ يعني أنه أعظم من غيره، وجاء في وصف العرش أنه كريم؛ يعني أنه فاق جنس العروش والمخلوقات في البهاء والحُسْنِ والعظمة؛ لأنَّ لفظ كريم في اللغة تعني أنه فاق غيره في الأوصاف التي يُحْمَدُ فيها، فقول العرب للإنسان الجواد الذي يبذل الندى ويبذل الطعام للأضياف أنه كريم داخلٌ في قاعدةٍ كبيرة في معنى كلمة كريم في لغة العرب. ولهذا من فاق غيره في الأوصاف فإنه كريم، ومن أسماء الله تعالى الكريم الذي بلغ المنتهى في علو صفاته وحُسْنِ أسمائه بحيث لا يشابهه ولا يماثله شيء فيما وُصِفَ به.

=

السماوات بأكملها: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥]، فإذا كان الكرسي قد وسع السماوات والأرض؛ فكيف بالعرش؟ هذا هو القول الصحيح: وهو أن الكرسي مخلوق، وأنه غير العرش. وهناك قول بأن الكرسي هو العرش، والصحيح أنه غيره؛ هذا هو المشهور، فالكرسي مقدمة العرش أو مرقاة بين يديه.

وهناك قول ثالث، ولكنه ضعيف: وهو أن الكرسي هو العلم، ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ أي: علمه، وهذا القول ـ وإن روي عن ابن عباس ـ فإنه لا يثبت عنه، والصحيح القول الأول عنه، ولعل هذا من أقوال بعض المبتدعة الذين يريدون أن يُأوّلوا الأشياء بغير ظواهرها، فلما أوّلوا العرش بأنه الملك، أوّلوا الكرسي بأنه العلم؛ حتى يبطلوا الصفات التي وردت في النصوص، والتي تتعلق بالعرش والكرسي، والتي الإيمان بها من الإيمان بالغيب».

فهذا عرش الرحمن، ووُصِفَ في الأدلة في الكتاب والسنة بهذه الأوصاف، وأنَّ العرش يُحْمَل، وأنَّ له قوائم، وأنه يُدَار[١] حوله من الملائكة، وأنه مُقَبَّبٌ كالقبة فوق السماوات، كما جاء في الحديث الذي في السنن واعتمد ما دلَّ عليه في جهة العرش أهل العلم لما جاء عن الصحابة في تقوية ذلك بأنَّ **«عرشه على سماواته لهكذا»** وأشار بيديه مثل القُبّة[٢][١].

---

(١) أي: يُطاف حوله كالكعبة.

(٢) أبوداود (٤٧٢٦) عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: أَتَى رسولَ اللَّهِ ﷺ أَعْرَابِيٌّ فقال: يا رسولَ اللَّهِ، جَهِدَتِ الأنفُسُ، وَضَاعَتِ العِيَالُ، وَنُهِكَتِ الأمْوالُ، وَهَلَكَتِ الأنْعَامُ، فَاسْتَسْقِ اللَّهَ لَنَا، فَإِنَّا نَستَشْفِعُ بِكَ على اللَّهِ، ونَستَشْفِعُ باللهِ عَلَيكَ، قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: **«وَيْحَكَ، أَتَدْرِي ما تَقُولُ؟»** وسَبَّحَ رسولُ اللَّهِ ﷺ، فَمَا زالَ يُسَبِّحُ، حَتى عُرِفَ ذلك في وجوه أصحابِهِ، ثم قال: **«إنّه لا يُستَشْفَعُ بالله على أحدٍ من خلقه، شَأْنُ الله أَعْظَمُ من ذلك، ويحك، أتدري مَا اللَّهُ؟ إنّ عَرشَهُ على سَمَاوَاتِهِ لَهَكَذَا»**، وقال بِأصبعِهِ مثل القُبْةِ عليه **«وإِنَّهُ لَيَئِطُّ أَطِيطَ الرَّحلِ بالرَّاكِبِ»**. وضعفه الألباني في تخريج الطحاوية (٣١٠) من جهة تدليس ابن إسحاق، وقد عنعن.

ولكن وإن ضعف هذا الحديث فيغني عنه حديث أبي هريرة رضي الله عنه في صحيح البخاري (٧٤٢٣) أن رسول الله ﷺ قال: **«فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس، فإنّه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجّر أنهار الجنة»**. قال شيخ الإسلام مبيّنًا ذلك: «والأوسط لا يكون الأعلى إلا في المستدير... وقال إياس بن معاوية: السَّماءُ عَلَى الْأَرْضِ مِثْلُ الْقُبَّةِ». الرسالة العرشية لابن تيمية (١ / ١٣) وانظرها في مجموع الفتاوى (٦ / ٥٥٦)

فقال أهل العلم: إن العرش مُقَبَّب. وكونه مُقَبَّب لا يعني أنه أصغر كما يدل عليه النظر العقلي، مثل تقبيب سطح الأرض على مستوى النصف فيها فإنه مُقَبَب عليها وهو أعظم منها فكيف بالعرش(٢).

=

(١) نقل الدكتور محمد عمارة عن الشيخ محمد عبده أنه قال عن ابن تيمية: إنه أعلم الناس بالسنة، وأشدهم غيرة على الدين. وأنه هو الذي أشار بطبع كتابه درء التعارض ومنهاج السنة. وختم د. محمد عمارة مقالته القيمة بقوله: «إبداعاته هي لباب الشريعة الإسلامية، ولقد عاش شاهدًا ومات شهيدًا، وكان نجمًا ساطعًا وشمسًا مشرقة في سماء الإسلام».

د. محمد عمارة: لماذا الهجوم على شيخ الإسلام؟ مقالة في صحيفة هوية بريس ١١ نوفمبر ٢٠١٦ .

(٢) قال العلامة أحمد شاكر في شرح العقيدة الطحاوية (١ / ١٨١): وفي صحيح البخاري (٢٨/٤) عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن**». يروى «**وفوقه**» بالنصب على الظرفية، وبالرفع على الابتداء، أي: وسقفه.

وذهب طائفة من أهل الكلام إلى أن العرش فلك مستدير من جميع جوانبه محيط بالعالم من كل جهة، وربما سمّوه: الفلك الأطلس، والفلك التاسع! وهذا ليس بصحيح؛ لأنه قد ثبت في الشرع أن له قوائم تحمله الملائكة، كما قال ﷺ: «**فإن الناس يصعقون، فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور**». البخاري (١٨٧/٤) (٣٢١٧)

والعرش في اللغة: عبارة عن السرير الذي للملك، كما قال تعالى عن بلقيس: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النَّمل: ٢٣]، وليس هو فلكًا، ولا تفهم منه العرب ذلك، والقرآن إنما

=

وللإيمان بالعرش والكرسي أثر عظيم، فالمؤمن إذا آمن بأنَّ عرش الله تعالى حق، وأنَّ هذه التي ذُكرت هي صفة العرش، وأنَّ عرش الله عظيم جدًّا، وأنه مجيد وأنه كريم، وأنَّ النبي ﷺ حَدَّثَ عن أحد حملة العرش بأنَّ مسيرةَ ما بين عاتقه إلى شحمة أذنه مسيرة خمسمئة عام(١)، وأنَّ السموات بالنسبة للكرسي

=
نزل بلغة العرب، فهو: سرير ذو قوائم تحمله الملائكة، وهو كالقبّة على العالم، وهو سقف المخلوقات. فمن شعر أمية بن أبي الصلت:

مجّدُوا الله فهو للمجد أهلٌ ... ربّنا في السماء أمسى كبيرًا
بالبناء العالي الذي بهر الناس ... وسوّى فوق السماء سريرًا
شَرْجَعًا لا ينالُهُ بصرُ العين ... ترى حوله الملائك صورًا

والصّور هنا: جمع «أصور»، وهو: المائل العنق لنظره إلى العلو. والشرجع: هو العالي المنيف. والسرير: هو العرش في اللغة. ومن شعر عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، الذي عرّض به عن القراءة لامرأته حين اتهمته بجاريته:

شهدتُّ بأنّ وعد الله حقٌّ ... وأنّ النار مثوى الكافرينا
وأن العرش فوق الماء طافٍ ... وفوق العرش ربُّ العالمينا
وتحمله ملائكة شدادٌ ... ملائكةُ الإله مُسوّمينا

(١) الذي في السنن سبع مئة عام، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: **«أُذِنَ لي أن أُحدِّث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش، إنّ ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمئة عام»**. رواه أبو داود (٤٧٢٧) وسكت عنه. وصحح سنده الذهبي في العلو (٩٧) وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٦٦٥): إسناده على شرط الصحيح، وصححه الألباني.

كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض، وأنَّ الكرسي بالنسبة إلى العرش كذلك، وأنَّ الكرسي موضع قدمي الرحمن، فلا شك أنَّ هذا يَؤُولُ بالمؤمن الحق إلى اعتقاد عظمة الله تعالى، وإلى أنَّ الله سبحانه تتناهى المخلوقات عنده في الصِّغَر، وأنه سبحانه كما وصف نفسه بقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزُّمَر: ٦٧]، وجاء في الأثر في تفسير ذلك أنه يرمي بها يوم القيامة كما يرمي الصغير بالكرة فيقول: «**أنا الله الواحد أنا الملك**.. إلى آخره»[(١)].

---

(١) قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يجب أن يُعلم أن العالم العلوي والسفلي بالنسبة إلى الخالق تعالى في غاية الصغر، كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزُّمَر: ٦٧].
وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**يقبض الله تبارك وتعالى الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟**». وفي الصحيحين واللفظ لمسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقبض الله تبارك وتعالى الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟**».

وفي الصحيحين واللفظ لمسلم عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**يطوي الله السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول: أنا الملك؛ أين الجبارون؛ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله ثم يقول: أنا الملك؛ أين الجبارون؛ أين المتكبرون؟**». وفي لفظ في الصحيح عن عبد الله بن مقسم أنه نظر إلى عبد الله بن عمر كيف يحكي أن النبي ﷺ قال: «**يأخذ الله سماواته وأرضه بيده، ويقول: أنا الملك**»، ويقبض أصابعه ويبسطها: «**أنا الملك**»، حتى نظرت إلى المنبر يتحرّك من أسفل شيء منه =

=

حتى إنّي أقول: أساقط هو برسول الله ﷺ؟ وفي لفظ قال: رأيت رسول الله ﷺ على المنبر وهو يقول: «**يأخذ الجبار سماواته وأرضه**». وقبض بيده وجعل يقبضها ويبسطها ويقول: «**أنا الرحمن، أنا الملك، أنا القدوس، أنا السلام، أنا المؤمن، أنا المهيمن، أنا العزيز، أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الذي بدأت الدنيا ولم تكن شيئًا، أنا الذي أعدتُّها. أين المتكبرون؟ أين الجبارون**». وفي لفظ: «**أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟**»، ويميل رسول الله ﷺ على يمينه وعلى شماله حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه، حتى إني لأقول: أساقط هو برسول الله ﷺ؟ والحديث مروي في الصحيح والمسانيد وغيرها بألفاظ يصدّق بعضها بعضًا. وفي بعض ألفاظه قال: قرأ على المنبر: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الزُّمَر: ٦٧] الآية، قال: «**مطويّة في كفّه يرمي بها كما يرمي الغلام بالكُرَةِ**» وفي لفظ: «**يأخذ الجبار سماواته وأرضه بيده، فيجعلها في كفّه، ثم يقول بهما هكذا كما تقول الصبيان بالكُرَة: أنا الله الواحد**». وقال ابن عباس: «يقبض الله عليهما فما ترى طرفاهما بيده» وفي لفظ عنه: «**ما السماوات السبع والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن في يد الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم**». وهذه الآثار معروفة في كتب الحديث.

وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ من اليهود فقال: يا محمد؛ إن الله يجعل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والجبال على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيهزّهنّ، فيقول: أنا الملك، أنا الملك، قال: فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقًا لقول الحبر، ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٧﴾ [الزُّمَر: ٦٧] الآية.

ففي هذه الآية والأحاديث الصحيحة المفسرة لها المستفيضة التي اتفق أهل العلم على صحتها وتلقيها بالقبول ما يبيّن أن السماوات والأرض وما بينهما بالنسبة إلى عظمة الله

=

فمعرفة صفة الكرسي وصفة العرش، ويبتدئ المرء من نفسه التي يُعَظِّمُهَا، وكيف هو على هذه الأرض العظيمة جدًّا وهو صغير جدًّا جدًّا، هذه الأرض، حتى إنَّ المدن الكبار إذا صعدت بالطائرة تراها صغيرة جدًّا وهي تحوي ملايين الناس، فكيف بالفرد؟! والأرض هذه بالنسبة للسماوات صغيرة، والسماوات السبع على سعتها وعِظم ما فيها من الأفلاك والنجوم والسيارات بالنسبة للكرسي صغيرة كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض، والكرسي بالنسبة إلى العرش كذلك، والله تعالى فوق العرش مستغن عن العرش، وكل شيء محتاج إليه، والله سبحانه محيط بكل شيء إحاطة سعةٍ وقدرةٍ وذاتٍ وشمولٍ، جلّت صفاته وتقدّست أسماؤه، فإنَّ المرء ولا شك يصيبه بل يحصل له في قلبه نوعٌ عظيم من الذل لله تعالى، ونوع عظيم من احتقار النفس ومعرفة قدر الإنسان كيف هو، وأنه شُرِّفَ أعظم تشريف أَنْ جعله الله تعالى عبدًا له سبحانه، ولهذا ينظر المرء إلى عِظَم المخلوقات هذه ويؤمن بها فيُعَظِّم الله تعالى.

حقيقةً الإيمان بأسماء الله تعالى وصفاته يُثْمِرُ ثمراتٍ عملية في القلب من وَجَلِ القلوب، من إجلال الله تعالى، وحبّ القلوب لجمال الله تعالى، وأنواع ما يحدث في القلب من الإيمان، ومدارج الإيمان التي تتصل بالإيمان بالأسماء

=

تعالى أصغر من أن تكون مع قبضه لها إلا كالشيء الصغير في يد أحدنا حتى يدحوها كما تُدحَى الكُرَة». مجموع الفتاوى (٦ / ٥٥٩- ٥٦٠)

والصفات، كذلك الإيمان بالجنة والنار، كذلك الإيمان بالعرش والكرسي لمن تأمّله فإنه يجعل القلب خاضعًا لربّنا ويجعل القلب مُخْبِتًا مُنِيبًا لله تعالى، فإنْ غَفَلَ جاءه تعظيمه وإيمانه وعقيدته بالإنابة السريعة بالاستغفار الحقّ.

إذًا حين نبحث هذه المباحث في العقيدة ليست كما يبحثها أهل الكلام المذموم في كونها أشياء لا ثَمَرَةَ لها على الإيمان والعمل الصالح وتَعَبُّد المرء لله تعالى، فإنَّ كل شيء وَصَفَهُ الله تعالى لنا من الأمور الغيبية لم يُقْصَد إيماننا به واعتقادنا له من جهة الوجود دون جهة الإيمان وما يُثْمِرُ منه؛ بل قُصِدَ الإيمان به ـ يعني بوجوده وأثر الإيمان الذي يُحْدِثُهُ في النفس ـ لأنَّ المقصود إصلاح القلوب.

وهذا يجعل المرء على الحقيقة يتصور كيف هذه المخلوقات جميعًا، والأرض هذه الكبيرة وما فيها، ثُمَّ السماوات، ثم الكرسي بعد ذلك، ثم العرش، ثم الملائكة الحافّين من حول العرش؛ لا شك يُحْدِث له أنواعًا من الإيمان والوجل والخوف وحبّ الله تعالى وتعظيمه والإنابة إليه، وهذا لا شك كلّه من المقاصد الشرعية. فإذًا؛ الإيمان بهذه يحتاج منك إلى تأمل وتدبر في أن تُعْمِلَ في قلبك هذه الأشياء وتتذكر عظمة الله تعالى»[١].

قلت: وسوقُ هذه المباحث في كتاب الرضا راجعٌ لتأثيرها المباشر على حال العبد من قبوله ورضاه وتسليمه بربه وأقداره، وحمده على كل حال، وشكره كل حين، فهي أمور في الغاية من العظمة والمهابة والجلال، فإذا عقلها

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية، صالح آل الشيخ (١ / ٢٥٧- ٢٦٤ مختصرًا.

العبد؛ صارت زادًا لإيمانه، وضياءً لمعرفته، وحاديةً لعزمه، وصاحبةً لسفره، فعظمةُ الخلق من عظمة خالقه جل وعلا، فكيف لا يرضى العبدُ المربوبُ الضعيفُ الظلومُ الجهولُ الفاني بالربِّ الخلّاقِ العظيمِ الحكيمِ الرحيمِ الباقي، سبحانه وبحمده.

إنّ الحديث عن عظمة الله تبارك وتعالى من خلال بيان عظمة مخلوقاته يصُبُّ في القلب المهابة والإجلال وتمام الرضا بالله ربًّا خالقًا مالكًا مدبّرًا وإلهًا مفردًا بالعبادة، فإذا انعقد القلب على ذلك امتلأ بالتعظيم والإجلال والمهابة والحياء والزهد فيما سوى الله والدار الآخرة، حينها لا تسل عن رضاه التام وراحته الكبرى وسعادته السابغة بتدبير مولاه الحق مهما نهنهت نفسه ببعض لوازم ضعفها الإنساني، ومهما تعثّر في حياته بالمشاقّ، وطُرِحَت في دربه العقبات؛ فمسيره لربّه ثابت ساكنٌ مطمئن بالإيمان، ذلك أنّه يُحَدِّث قلبه على الدوام أنّ هذه الدنيا بأسرها محض ابتلاء وتمحيص، فما دامت المصائب قد تخطّت دينه فإنّه لا يعدّها مصائب، بل رحمات وألطاف، فهي بين درجة ترفعه وخطيئة تكفّرها وحسنةِ صبر يُحصّلها، ويعلم أن الجنة هي ميعاد المحبين المؤمنين.

قال الشنقيطي حفظه الله: «وقد كان بعض الصحابة رضوان الله عليهم، وبعض السلف لما مرض بالطاعون يقول: «اطعنِّي، فوعزّتك وجلالك إني لأتلذذ بما يصيبني منك»، وهذه هي منزلة الرضا عن الله عز وجل»[(١)]. وقال

(١) شرح زاد المستقنع (١١/ ٣٤٨)

الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ على حديث أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**إنَّ لكلِّ شيءٍ حقيقةً، وما بلغ عبدٌ حقيقةَ الإيمان حتى يعلمَ أنَّ ما أصابه لم يكُنْ ليخطئَهُ، وأنَّ ما أخطأه لم يكن ليصيبَه**»[1]. : «إنَّ العبد إذا علم أنَّه لن يُصيبَه إلا ما كتبَ الله له مِنْ خير وشرٍّ، ونفعٍ وضرٍّ، وأنَّ اجتهادَ الخلق كلِّهم على خلاف المقدور غيرُ مفيد البتة؛ علم حينئذٍ أنَّ الله وحده هو الضَّارُّ النَّافعُ، المعطي المانع، فأوجبَ ذلك للعبدِ توحيدَ ربِّه عز وجل، وإفرادَه بالطاعة، وحفظَ حدوده، فإنَّ المعبود إنَّما يُقصد بعبادته جلبَ المنافع ودفع المضار، ولهذا ذمَّ الله من يعبدُ من لا ينفعُ ولا يضرُّ، ولا يُغني عن عابدِهِ شيئًا، فمن علم أنَّه لا ينفعُ ولا يضرُّ، ولا يُعطي ولا يمنعُ غيرُ الله، أوجبَ له ذلك إفراده بالخوف والرجاء والمحبة والسؤال والتضرُّع والدعاء، وتقديم طاعته على طاعةِ الخلق جميعًا، وأنْ يتّقي سخطه، ولو كان فيه سخطُ الخلق جميعًا، وإفراده بالاستعانة به، والسؤال له، وإخلاص الدعاء له في حال الشدَّة وحال الرَّخاء، بخلاف ما كان المشركون عليه من إخلاص الدعاء له عندَ الشدائد، ونسيانه في الرخاء، ودعاء من يرجون نفعَه مِنْ دُونِه، قال الله عز وجل: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزُّمَر: ٣٨].

(١) أحمد (٦ / ٤٤١) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢١٥٠)

وقوله ﷺ: **«واعلم أنَّ في الصَّبر على ما تكره خيراً كثيرًا»**، يعني: أنَّ ما أصاب العبدَ مِنَ المصائب المؤلمةِ المكتوبة عليه إذا صبر عليها، كان له في الصبر خيرٌ كثير. وفي رواية عمر مولى غُفرة وغيره عن ابن عباس زيادة أخرى قبل هذا الكلام، وهي: **«فإنِ استطعتَ أنْ تعمل لله بالرِّضا في اليقين فافعل، وإنْ لم تستطع، فإنَّ في الصَّبر على ما تكره خيرًا كثيرًا»**(١).

ومعنى هذا أنَّ حصول اليقين للقلب بالقضاء السابق والتقدير الماضي يُعين العبد على أنْ ترضى نفسُه بما أصابه، فمن استطاع أنْ يعمل في اليقين بالقضاء والقدر على الرّضا بالمقدور فليفعل، فإنْ لم يستطع الرِّضا، فإنَّ في الصَّبر على المكروه خيرًا كثيرًا.

فهاتان درجتان للمؤمن بالقضاء والقدر في المصائب:

إحداهما: أنْ يرضى بذلك، وهذه درجةٌ عاليةٌ رفيعة جدًّا، قال الله عز وجل: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [التَّغَابُن: ١١]. قال علقمة: «هي المصيبة تصيبُ الرَّجلَ، فيعلم أنَّها من عند الله، فيسلِّمُ لها ويرضى». وقال النبي ﷺ: **«إن عِظم الجزاء مع عظم البلاء، وإنَّ الله تعالى إذا أحبَّ قومًا**

(١) أحمد (٢٨٠٣) وصححه محققوه. وصححه الألباني في السلسلة (١٠٧٦)

ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السّخط»(١). وكان النَّبيُّ ﷺ يقول في دعائه: **«أسألُكَ الرِّضا بعد القضاء»**(٢).

وممَّا يدعو المؤمن إلى الرِّضا بالقضاء تحقيقُ إيمانه بمعنى قول النَّبيِّ ﷺ: **«لا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلا كان خيرًا له؛ إنْ أصابته سرَّاءُ شكر كان خيرًا له، وإنْ أصابته ضرَّاءُ صبر كان خيرًا له، وليس ذلك إلا للمؤمن»**(٣). وجاء رجلٌ إلى النَّبيِّ ﷺ، فسأله أنْ يُوصيه وصيَّةً جامعةً موجَزةً، فقال: **«لا تتَّهم الله في قضائه»**(٤).

قال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنَّ الله إذا قضى قضاءً أحبَّ أنْ يُرضى به»، وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنَّ الله بقسطه وعدله جعلَ الرَّوحَ والفرح في اليقين والرضا، وجعل الهمّ والحزن في الشكِّ والسخط»، كذا رُوِيَ عَن عمر وابنِ مسعود وغيرهما(٥). وقال عمر بن عبد العزيز: «أصبحت ومالي سرورٌ

(١) البخاري ٧/١٠٩ (٥٤٧٠)، ومسلم ٦/١٧٤ (٢١٤٤) (٢٣)

(٢) ابن أبي شيبة (٢٩٤٦) وابن أبي عاصم في السنة (١٢٨) (٣٧٨) والبزار في البحر الزخار (١٣٩٢) والطبراني في الدعاء (٦٢٥) والحاكم (١/٥٢٤-٥٢٥) وصححه الحويني في الفتاوى (١ / ٢٦٢)

(٣) مسلم (٢٩٩٩)

(٤) خلق أفعال العباد (١٦٣)، والجهاد لابن أبي عاصم (٢٥) وضعفه محقق جامع العلوم. وبنحوه عند أحمد (٥/ ٣١٨) بسند صححه ابن كثير في جامع المسانيد والسنن.

(٥) شعب الإيمان (٢٠٧) عن أبي سعيد الخدري به، وزاد في أوله: «إن من ضعف اليقين أن تُرضي الناس بسخط الله، وأن تحمَدَهُم على رزق الله».

إلا في مواضع القضاء والقدر». فمن وصل إلى هذه الدرجة، كان عيشُه كلُّه في نعيمٍ وسرورٍ، قال الله تعالى: ﴿عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]. قال بعض السَّلف: «الحياة الطيبة: هي الرضا والقناعة»[(١)]. وقال عبد الواحد بن زيد: «الرضا باب الله الأعظم، وجنّة الدنيا، ومُستراح العابدين»[(٢)].

وأهل الرضا تارةً يلاحظون حكمة المُبتَلِي وخيرته لعبده في البلاء، وأنَّه غير متَّهم في قضائه، وتارةً يُلاحظون ثوابَ الرِّضا بالقضاء، فيُنسيهم ألم المقتضي به، وتارةً يُلاحظون عظمةَ المُبتَلِي وجلالَه وكمالَه، فيستغرقون في مشاهدة ذلك، حتى لا يشعرون بالألم، وهذا يصلُ إليه خواصُّ أهل المعرفة والمحبَّةِ، حتى ربَّما تلذَّذوا بها أصابهم لملاحظتهم صدوره عن حبيبهم، كما قال بعضهم: «أوجَدَ لهم في عذابه عُذوبة».

وسئل بعضُ التابعينَ عن حاله في مرضه، فقال: «أحبُّه إليه أحبُّه إليَّ»[(٣)].

وسُئلَ السّريّ: هل يجد المحبُّ ألم البلاء؟ فقالَ: لا. وقال بعضهم:

عذابُـــــه فيـــــكَ عَـــــذْبٌ وبُعْـــــدُهُ فيـــــكَ قُـــــرْبٌ

(١) أُثرت عن علي رضي الله عنه، كما عند الطبري في تفسيره (١٦٥٢٦) كذلك رواهما عن ابن عباس والحسن.

(٢) الحلية (٦/١٥٦)

(٣) وهي كلمة شريفة قالها الصحابي عمران بن حصين رضي الله عنهما لمّا سأله التابعي الجليل مطرف بن عبد الله عن حاله في مرضه. وانظر الطبراني في الكبير (١٨/ ١٩٣)

وأَنْــــتَ عِنـــدي كرُوحـــي ... بـــل أَنْـــتَ مِنهـــا أَحَـــبُّ
حسْــبي مِـــنَ الحُـــبِّ أنّي ... لِمَـــا تُحِـــبُّ أُحِـــبُّ

والدرجة الثانية: أنْ يصبرَ على البلاء، وهذه لمن لم يستطع الرِّضا بالقضاء، فالرِّضا فضلٌ مندوبٌ إليه مستحب، والصبرُ واجبٌ على المؤمن حتمٌ، وفي الصَّبر خيرٌ كثيرٌ، فإنَّ الله أمرَ به، ووعدَ عليه جزيلَ الأجر. قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزُّمَر: ١٠] وقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ۝١٥٧﴾ [البَقَرَة: ١٥٥ - ١٥٧]. قال الحسن: «الرِّضا عزيزٌ، ولكن الصبر معوَّلُ المؤمن».[1].

ثم تأمل ـ رحمني الله وإياك ـ عاقبة تسخّط نعم الله تعالى في قصة سبأ، ذلك أنهم كانوا في نعيمٍ رغيد وأمنٍ سابلة وتقاربِ بلاد وإدرارِ أرزاق وعيشةٍ رخيّة؛ فبدّلوا رضاهم سخطًا وشكرهم كفرًا؛ فأبدل الله حالهم، وقلب عليهم زمانهم، وجزاهم بكفر نعمته عذابًا، جزاء وِفاقًا، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٥٣﴾ [الأنفال: ٥٣]، فقال تبارك وتعالى في شان سبأ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝١٥ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ۝١٦ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ١٩١- ١٩٥) مختصرًا.

ٱلۡكَفُورَ ۝١٧ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ۝١٨ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ۝١٩﴾ [سبأ: ١٥ - ١٩]. والله المسؤول أن يعصمنا من مضلات الفتن ومصارع السوء وخواتيم الهلاك، إله الحق آمين.

وَلَرُبَّ نعمةٍ في ثوب محنة، وكم من كرامةٍ في شكل بلاء، ولطفٍ خفيٍّ عن الناظرين، ولكن أين الموفّقون المُبصرون بنور قلوبهم مواطن قطرِ النِّعم! وهل يخيب سعيُ من رضي بر به على اختلاف الأحوال؟ اللّهم كَلَّا.

ولمحمود الوراق رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبيّنًا غرور الإنسان، ونسيانه نعم المنّان:

تَعصي الإِلَهَ وَأَنتَ تُظهِرُ حُبَّه ... هَذا مُحالٌ في القِياسِ بَديعُ
لَو كانَ حُبُّكَ صادِقاً لأَطَعتَهُ ... إِنَّ المُحِبَّ لِمَن يُحِبُّ مُطيعُ
في كُلِّ يَومٍ يَبتَليكَ بِنِعمَةٍ ... مِنهُ وَأَنتَ لِشُكرِ ذاكَ مُضيعُ

هل كلُّ القضاء خيرٌ للمؤمن؟

أقضية الله تعالى كلها حكمة، وكلها خير من جهة الله تعالى، والله لا يخلق شرًّا محضًا(١)، أما من جهة العبد فكلها خير إلا ما كان معصيةً لله تعالى

(١) ومن هنا بطلت نسبة الشر إليه سبحانه، فالشر ليس إليه، لأن الشر المطلق غير موجود في مخلوقاته، فما من شر إلا فيه خير إما في ذاته أو بما يفضي إليه من حكم غائية خيرية.
وقال شيخنا عبد الرحمن بن ناصر البراك حفظه الله تعالى: «الأشياء المخلوقة فيها خير وشر، والله خالق الخير والشر، أما فعل الرب سبحانه: حكمه وقضاؤه وتقديره؛ فكله خير، ليس فيه شر، والشر لا يضاف إلى الله اسمًا، ولا صفةً، ولا فعلًا. فالشر لا يكون في أسمائه فكلها حسنى، ولا في صفاته فكلها صفات كمال وحمد، ولا في أفعاله فكلها أفعال عدل وحكمة، وإنما يكون في مفعولاته، أي: مخلوقاته، وهذا ما فُسر به قول النبي ﷺ: **«والشرّ ليس إليك»**.
فالله تعالى لا يخلق شرًّا محضا؛ بل كل الشر الذي في المخلوقات شرّ نسبيّ ليس شرًّا محضًا، وهذا يرجع إلى الإيمان بحكمته سبحانه وتعالى، وأنه حكيم، ما خلق شيئًا عبثًا، لم يخلق شيئًا إلا لمصالحَ وحكمٍ يعلمها سبحانه، وليس من شرط ذلك أن تكون عائدة للعبد، بل قد يكون فيها شر لبعض الناس، وهو شر جزئي إضافي، فأما شر كلي، أو شر مطلق؛ فالله تعالى منزه عنه». أهـ. شرح العقيدة الطحاوية (٢٤٧).
فالمعصية في ذاتها شرّ كلها، ورجس كلها إلا ما أفضت بصاحبها لأمور محمودة شرعًا، والمقصود أن الخير قد يلحق بها إن وفق الله مجترحها لتوبة نصوح، فهنا سرّ المسألة ومقصودها، وليس في هذا تزيين لها أو تسهيل أو تصغير.

خَلا إن أفضت في ثاني الحال لمصالح في دينه كالتوبة والإنابة والانكسار والاستغفار وكسر العجب وإكثار الحسنات الماحية ونحو ذلك(١).

فلا بدّ للمؤمن من حسن التصوّر لمفهوم القضاء والقدر في الإسلام، فلقد وصل الحال ببعضهم لانحرافهم عن المفهوم الشرعي الصحيح للقدر وضلالهم عنه إلى دهاليز جهلٍ وضلال لا تخطر على بال موحّد، ومن ذلك ما ذكره ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال واصفًا بعض أحوالهم الشنيعة، التي تنبو عنها فطر المؤمنين، وتستقذرها نفوس الشرفاء الحنفاء: «صعد رجل يومًا على سطح دار له فأشرف على غلام له يفجر بجاريته، فنزل وأخذهما ليعاقبهما، فقال الغلام: إن القضاء والقدر لم يدعانا حتى فعلنا ذلك! فقال: لَعلمُك بالقضاء والقدر أحبّ إليّ من كل شيء، أنت حرّ لوجه الله!

---

(١) ولقد استجرى الشيطان فئامًا من الناس فظنوا أن الإيمان بالقدَر يستلزم الرضا بالمعاصي، وهذا ضلال مبين. فلا يجوز الرضا بما يُسخط الله تعالى وينهى عنه إلا من جهة ما يفضي به للعبد لأمور صالحة وأحوال فاضلة - إن كانت - كالتوبة وتوابعها، ومن جهة الشرع لأحكام عادلة أو مراحم إلهية. وقد سأل ابن القيم شيخه رحمهما الله تعال عن حديث رسول الله ﷺ: **«والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاء الا كان خيرًا له، وليس ذلك إلا للمؤمن»**. رواه مسلم (٢٩٩٩) قال: «فسألت شيخنا - أي ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ - هل يدخل في ذلك قضاء الذنب؟ فقال: نعم بشرطه. فأجمَلَ في لفظة بشرطه ما يترتب على الذنب من الآثار المحبوبة لله من التوبة والانكسار والندم والخضوع والذل والبكاء وغير ذلك». الفوائد (١ / ٩٤)

ورأى آخر يفجر بامرأته؛ فبادر ليأخذه فهرب، فأقبل يضرب المرأة وهي تقول: القضاء والقدر! فقال: يا عدوّة الله؛ أتزنين، وتعتذرين بمثل هذا؟ فقالت: أوَ تركت السنة وأخذت بمذهب ابن عباس؟! فتنبّه ورمى بالسوط من يده، واعتذر إليها وقال: لولاكِ لضللتُ! ورأى آخر رجلًا آخر يفجر بامرأته، فقال: ما هذا؟ فقالت: هذا قضاء الله وقدره. فقال: الخيرة فيما قضى الله!

وجرى عند بعض هؤلاء ذكر إبليس وإبائه وامتناعه من السجود لآدم، فأخذ الجماعة يلعنونه ويذمونه، فقال: إلى متى هذا اللوم، ولو خُلّيَ لسجد، ولكن مُنع. وأخذ يقيم عذره. فقال بعض الحاضرين: تبًّا لك سائر اليوم؛ أتذب عن الشيطان وتلوم الرحمن؟! قال شيخ الإسلام ابن تيمية في تائيته:

ويُدعى خصومُ اللهِ يومَ معادِهم ... إلى النّـــارِ طُـــرًّا معشرَ القدريةِ

سواء نفوه، أو سعوا ليخاصموا ... به الله، أو ماروا به للشـــريعةِ

وسمعته يقول: القدرية المذمومون في السنة على لسان السلف هم هؤلاء الفرق الثلاث: نفاته، وهم القدرية المجوسية، والمعارضون به للشريعة، الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وهم القدرية المشركية، والمخاصمون به الرب سبحانه، وهم أعداء الله وخصومه، وهم القدرية الإبليسية، وشيخهم إبليس، وهو أول من احتج على الله بالقدر، فقال: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ [الحِجر: ٣٩]، ولم يعترف بالذنب ويبوء به كما اعترف به آدم. فمن أقرّ

بالذنب وباء به ونزّه ربه فقد أشبه أباه آدم، ومن أشبه أباه فما ظلم، ومن برّأ نفسه واحتج على ربه بالقدر فقد أشبه إبليس»[(١)].

فالمعصية في ذاتها شرٌّ، ولكن قد يترتب على ارتكابها حسنات أكبر منها، وتأمل حال أبينا آدم عليه السلام فقد كان حاله بعد التوبة من الخطيئة أفضل من حاله قبل الخطيئة، وذلك لأن حسنة التوبة وما بعدها قد رجحت على الخطيئة، ولم يستحق وصف التائب إلا بعد توبته. وكما قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن العبد ليعمل الحسنة فيدخل بها النار، وإن العبد ليعمل السيئة فيدخل بها الجنة؛ وذلك أنه يعمل الحسنة فتكون نُصبَ عينه ويعجب بها، ويعمل السيئة فتكون نصب عينه فيستغفر الله ويتوب إليه منها».

وعلى ذلك؛ فقضاء الله لعبده كله خير من جهة الله تعالى، وكلها خير من جهة أقضيته الشرعية، وكله خير من جهة أقضيته الكونية القدرية إن أفضى بالعبد إلى خير، أما إن أفضى لشر؛ فشرّه من ذات العبد لا من جهة فعل ربه، لأنه الله تعالى إنما قطع عنه مدد توفيقه ووكله إلى نفسه الظالمة الجاهلة. والله تعالى محمودًا في كل أقضيته وأقداره، فهي من جهته تبارك وتعالى خير موافق لِحكمه سبحانه، والشرّ ليس إلى الله تعالى. أما من جهة العبد؛ فالعاقبة الحسنة هي ميزان الخيرية له. بيان ذلك: أن قضاء الله تعالى قسمين:

---

(١) طريق الهجرتين (١/١٥٣- ١٥٧) باختصار.

الأول: قضاء شرعيّ أمْرِيّ، وهي الأوامر والنواهي التي جاءت بها الشريعة ونطق بها الوحي؛ فهذا خير كله، وأمره واضح.

الثاني: قضاء كونيّ قدريّ، وهي ما تسمى بالأقدار، حسنة كانت أو غير ذلك، فالعبرة في خيريتها ليست في ملذوذات النفوس ومشتهيات القلوب ومستراح الأرواح منها، بل العبرة بحقيقتها في ذاتها - أوّلًا - من حيث إنها محبوبة لله تعالى، فما كان لله محبوبًا فهو الخير، حتى وإن كانت بداياته أو مظاهره ليست كذلك لبعض البشر. ومن أمثلتها: طاعات العبد لربه، فهي جارية على القدر وموافقة للشرع؛ فهذا خير محض، فهي نعمة في حقيقتها.

ثم العبرة - ثانيًا - بما أفضت إليه وآلت، فقد يبارك الله تعالى في النعمة فيثبتّها لعبده ويزيدها له ويتقبلها منه فتكون نعمة مفضية إلى نعمة أخرى؛ فهذا خير محض أيضًا. أما إن أفضت لعُجب، أو كبر، أو تعاظم، أو تألٍّ على الله تعالى، أو رؤية العمل، أو الإزراء بالناس، أو لحقها محبط من محبطات الأعمال، أو كانت عاقبتها ومآلها مكروهة لله تعالى، فهذه ليست بخير غائيّ، أي ليست بخير من جهة غايتها وعاقبتها. هذا في جانب الأقضية المسمّاة بالنعم الدينية.

أما النعم الدنيوية: كالمال أو المنصب أو القوة في الجسد أو برِّ الولد به أو التوفيق لزوجٍ صالحٍ ومسكن واسع ومركب هنيءٍ ونحو ذلك؛ فهذه لا يحكم بخيريتها في ذاتها - وإن كانت نعمة من الله تستحق الشكر له ويستحق عليها الحمد - وإنما يحكم بخيرتها بحسب ما آلت إليه؛ فإن أفضت إلى شكر وأعانت

على طاعة فهي خير، أما إن آلت لطغيان وغفلة ومعصية وركون للدنيا ونسيان الآخرة واستغناءٍ عن المغني سبحانه؛ فهي ليست بخير في عاقبتها.

وكذلك الحال في مصائب الدين والدنيا، فإن أفضت مصيبة الدين ـ كعجز عن القيام بالعبادة كالصيام أو صلاة الجماعة أو تلاوة القرآن ونحو ذلك ـ إلى طاعة كزيادة في العبادة أو إحسان لما استطاع منها أو عوّض نقصها بذكر ودعاء وانكسار لله وافتقار وتعلق ونحو ذلك فهي خير، أما إن أفضت لجزع وتسخّط أو قنوط أو تحسّر أو فتور عن الذكر والعبادة ونحو ذلك فهي ليست كذلك ـ أي: من جهة العبد لا جهة الرب ـ.

وإن أفضت مصيبة الدنيا؛ كموت حبيب أو جائحة في المال أو مرض في البدن أو ظلم من الناس له ونحو ذلك؛ فإن أفضت لخير كصبر وتسليم وتفويض وتوكل ورضًا وشكر وحمد ومزيد عبادة وذكر وإنابة وتوبة فهي خير، والله تعالى يقول: ﴿وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ١٦٨﴾ [الأعراف: ١٦٨].

وتدبر يا من أُصبت في دنياك قرْعًا لقلبك لتنفتح بصيرة عيناه في أحوال أُخراك، وتلمّح ـ رحمك مولاك ـ فائدة التوبة، وعظيم النعمة بها، ووافر جزاء أهلها: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ٨﴾ [التحريم: ٨].

قَد يُنعِمُ اللهُ بِالبَلوَى وَإن عَظُمَت ... وَيَبتَلِي اللهُ بعضَ القَومِ بالنِّعَمِ

أما إن أفضت المصيبة لجزع وتسخّط وتلوّم وترك عبادة ونحو هذا من أمور يكرهها الله تعالى فهي ليست كذلك ـ كما سبق ـ.

وبالجملة؛ فأمر المؤمن كله خير، لأن باستطاعته توجيه أموره كلها لأن تكون خيرًا له، وذلك بتوجيهها على ضوء الشرع ونور الوحي، وطاعة الحي القيوم تبارك وتعالى، والدوران بها مع أمر الله، فهنا نقول: إن أمره كله خير ـ بلا مثنويّة ـ لأنها تُفضي به لساحل إرضاء المولى عز وجل الذي كل أسمائه وصفاته وأفعاله خير.

واختيار الله تعالى لعبده وهو العليم الحكيم الرحيم خير من اختيار العبد لنفسه الظالمة الجاهلة العجلى. والنعمُ والمصائب كلاهما خير للمؤمن؛ فعن أبي يحيى صهيب بن سنان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سرّاءُ شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيرًا له»**(١). وأكثر النعم مستورة بخِمَارِ جهلنا بها، حتى إذا فقدناها رأيناها، كما قال الكاساني رَحِمَهُٱللَّهُ: «النِّعَمُ مجهُولة، فإذا فُقِدَتْ عُرِفَتْ».

قال ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ: «أخبر النبي ﷺ أن كل قضاء يقضيه الله للمؤمن الذي يصبر على البلاء ويشكر على السراء فهو خير له. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥﴾ [إبراهيم: ٥]، وذكرهما في أربعة مواضع من

(١) مسلم ٨/٢٢٧ (٢٩٩٩)

كتابه. فأما من لا يصبر على البلاء ولا يشكر على الرخاء فلا يلزم أن يكون القضاء خيرًا له. ولهذا أجيب من أورد هذا على ما يُقضَى على المؤمن من المعاصي بجوابين:

أحدهما: أن هذا إنما يتناول ما أصاب العبد، لا ما فعله العبد، كما في قوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النِّسَاء: ٧٩] أي من سراء ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النِّسَاء: ٧٩] أي من ضراء. وكقوله تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ١٦٨﴾ [الأَعْرَاف: ١٦٨] أي بالسراء والضراء، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ٣٥﴾ [الأنبِيَاء: ٣٥] وقال تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟﴾ [آل عِمْرَان: ١٢٠] فالحسنات والسيئات يراد بها المسارّ والمضارّ، ويراد بها الطاعات والمعاصي.

والجواب الثاني: أن هذا في حق المؤمن الصبّار الشكور. والذنوب تنقص الإيمان، فإذا تاب العبد أحبه الله، وقد ترتفع درجته بالتوبة. قال بعض السلف: كان داود بعد التوبة خيرًا منه قبل الخطيئة(١). فمن قُضي له بالتوبة كان كما قال سعيد بن جبير(٢): إن العبد ليعمل الحسنة فيدخل بها النار، وإن العبد ليعمل السيئة فيدخل بها الجنة؛ وذلك أنه يعمل الحسنة فتكون نصب عينه ويعجب بها، ويعمل السيئة فتكون نصب عينه فيستغفر الله ويتوب إليه منها.

---

(١) وكذلك آدم عليه السلام، فحاله ودرجته بعد توبته أفضل منهما قبل خطيئته.

(٢) وجاءت كذلك عن الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: **«الأعمال بالخواتيم»**(١).

والمؤمن إذا فعل سيئة فإن عقوبتها تندفع عنه بعشرة أسباب:

أن يتوب فيتوب الله عليه، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، أو يستغفر فيغفر له، أو يعمل حسنات تمحوها، فإنّ الحسنات يذهبن السيئات، أو يدعو له إخوانه المؤمنون ويستغفرون له حيًّا وميتًا، أو يهدون له من ثواب أعمالهم ما ينفعه الله به، أو يشفع فيه نبيه محمد ﷺ(٢)، أو يبتليه الله تعالى في الدنيا بمصائب تكفر عنه، أو يبتليه في البرزخ بالصعقة(٣) فيكفر بها عنه، أو

---

(١) البخاري (٦٤٩٣) و(٦٦٠٧) ومسلم (١/٧٤ و٨/٤٩)

(٢) كذلك غيره ﷺ من الشفعاء كالشهداء والأفراط والأصحاب والملائكة وغيرهم مما جاءت به السنة.

(٣) لعله قصد عذاب القبر في الجملة، أو أنها مصحّفة عن ضغطة ـ أي ضغطة القبر ـ لأن الصعقة هي نفخة الصور. وقد صح الحديث بذكر الضغطة والضمة. فعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: **«إِنَّ لِلْقَبْرِ ضَغْطَةً وَلَوْ كَانَ أَحَدٌ نَاجِيًا مِنْهَا نَجَا مِنْهَا سَعْدُ بْنُ مُعَاذ»**. رواه أحمد (٦/٥٥، ٩٨) وجود سنده العراقي في تخريج الإحياء (٥/٢٥٩) وصححه محققو المسند، وصححه الألباني في الصحيحة (١٦٩٥) وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال عن سعد بن معاذ رضي الله عنه حين توفي: **«هذَا الَّذِي تَحَرَّكَ لَهُ الْعَرْشُ، وَفُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَشَهِدَهُ سَبْعُونَ أَلْفًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ. لَقَدْ ضُمَّ ضَمَّةً ثُمَّ فُرِّجَ عَنْهُ»**. رواه النسائي في السنن (٢٠٥٥) (٤/١٠٠) وسكت عنه، وبوب عليه بقوله: **«ضمة القبر وضغطته»**، وصححه الألباني في صحيح النسائي. وعن أبي أيوب رضي الله عنه: أن صبيًّا دُفِنَ، فقال ﷺ: **«لَوْ أَفْلَتَ أَحَدٌ مِنْ ضَمَّةِ القَبْرِ**

=

يبتليه في عرصات القيامة من أهوالها بما يكفر عنه، أو يرحمه أرحم الراحمين[1].

=

لَأَفْلَتَ هَذَا الصَّبِيُّ». رواه الطبراني في الكبير (١٢١/٤) وصححه الهيثمي في المجمع (٤٧/٣) والألباني في الصحيحة (٢١٦٤).

وهذه الضمة والضغطة هي من آخر شِدّات المؤمن، وهي تُخَفَّفُ عليه وتُهوّن، ويليها أمور أخرى كفزع القيامة والحشر وإدناء الشمس والموازين وتطاير الصحف وورود جهنم على الصراط، ونحو ذلك، فالراحة التامة والسعادة الكاملة والأمان كله إنما هو عند دخول الجنة.

والله تعالى يرفق ويلطف ويرحم ويهوّن وييسّر على عبده المؤمن ابتداءً من سكرات الموت حتى دخوله الجنة. فيُخفِّف ضمّة القبر ويزيل وحشته على عبادة بحسب رحمته لهم وولايتهم له، ويؤمّنهم حال الفزع الأكبر لغيرهم، ويرفق بهم حين الشدة على من خالفهم، ويرحمهم وقت عذاب أعدائه، ومن ذلك أن زمان الموقف يوم القيامة طويل على الناس فمقدار اليوم خمسين ألف سنة، لكنه يخفف على المؤمنين بقدر ما بين صلاتي الظهر والعصر، وكذلك إظلال الله تعالى من شاء من المؤمنين في ظل عرشه، وورودهم حوض نبيهم ﷺ ليشربوا من نهر الكوثر، ونحو ذلك من الألطاف الربانية والرحمات الإلهية، فلله الحمد والشكر والثناء الحسن، إن ربي رحيم لطيف رفيق ودود.

(١) كما جاء في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وغيره في خبر الجهنّمين الطويل المخرّج في الصحيحين، وفيه أن رسول الله ﷺ قال: «**... حتى إذا خلص المؤمنون من النار؛ فوالذي نفسي بيده ما منكم من أحد بأشدّ مناشدة لله في استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار. وفي رواية: فما أنتم بأشد مناشدة في الحق قد تبيّن لكم من المؤمنين يومئذ للجبار، إذا رأوا أنهم قد نجوا في إخوانهم يقولون:**

=

=
ربنا؛ كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون! فيقال لهم: أخرجوا من عرفتم. فتحرم صورهم على النار، فيُخرجون خلقًا كثيرًا قد أخذت النار إلى نصف ساقية وإلى ركبتيه، ثم يقولون: ربنا؛ ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به. فيقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه. فيُخرجون خلقًا كثيرًا، ثم يقولون: ربنا؛ لم نذر فيها أحدًا ممن أمرتنا. ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه. فيُخرجون خلقًا كثيرًا، ثم يقولون: ربنا؛ لم نذر فيها ممن أمرتنا أحدًا. ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه. فيُخرجون خلقًا كثيرًا، ثم يقولون: ربنا؛ لم نذر فيها خيرًا». وكان أبو سعيد الخدري يقول «إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقرءوا إن شئتم: **﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾﴾** [النِّسَاء : ٤٠]، **فيقول الله عز وجل: شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين. فيقبض قبضة من النار فيُخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط، قد عادوا حُمَمًا** - أي فحمًا من حرق النار لهم عياذًا بالله تعالى - **فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة، فيخرجون كما تخرج الحِبَّةُ في حميل السيل، ألا ترونها تكون إلى الحجر أو إلى الشجر ما يكون إلى الشمس أصيفر وأخيضر، وما يكون منها إلى الظل يكون أبيض؟** فقالوا: يا رسول الله، كأنك كنت ترعى بالبادية! **قال: فيخرجون كاللؤلؤ، في رقابهم الخواتم، يعرفهم أهل الجنة، هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدّموه** - أي بعد التوحيد والإيمان إعمالًا لبقية النصوص - **ثم يقول: ادخلوا الجنة، فما رأيتموه فهو لكم. فيقولون: ربنا؛ أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من العالمين! فيقول: لكم عندي أفضل من هذا! فيقولون: يا ربنا؛ أي شيء أفضل من هذا؟ فيقول: رضاي فلا أسخط عليكم بعده أبدا»**. رواه البخاري (٧٤٣٩) ومسلم (١٨٣) واللفظ له. نسأل الله الكريم من فضله العظيم، ونسأله رضوانه والجنة، ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ [التَّوۡبَة : ٧٢].

فمن أخطأته هذه العشرة فلا يلومن إلا نفسه كما قال تعالى فيما يروي عنه رسوله ﷺ: **«يا عبادي؛ إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إيّاها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»**(١).

فإذا كان المؤمن يعلم أن القضاء خير له إذا كان صبّارًا شكورًا، أو كان قد استخار الله وعلم أن من سعادة ابن آدم استخارته لله ورضاه بما قسم الله له؛ كان قد رضي بما هو خير له. وفى الحديث الصحيح عن علي رضى الله عنه قال: «إن الله يقضي بالقضاء، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السّخط». ففي هذا الحديث الرضا والاستخارة، فالرضا بعد القضاء والاستخارة قبل القضاء، وهذا أكمل من الضراء والصبر، فلهذا ذكر في ذاك الرضا وفى هذا الصبر.

ثم إذا كان القضاء مع الصبر خيرًا له؛ فكيف مع الرضا؟! ولهذا جاء في الحديث: «المصاب من حرم الثواب» في الأثر الذي رواه الشافعي في مسنده: أن النبي ﷺ لما مات سمعوا قائلًا يقول: «يا آل بيت رسول الله؛ إنّ في الله عزاءً من كل مصيبة، وخلفًا من كل هالك، ودَرْكا من كل فائت. فبالله فثِقوا، وإياه فارجوا، فإنّ المُصاب من حرم الثواب». ولهذا لم يُؤمر بالحزن المنافي للرضا قط، مع أنه لا فائدة فيه، فقد يكون فيه مضرّة، لكنه عُفي عنه إذا لم يقترن به ما يكرهه الله.

---

(١) مسلم ١٧/٨ (٢٥٧٧) (٥٥)

وقد ظن طائفة من المصنفين في هذا الباب أن الرضا عن الله من توابع المحبة له، وهذا إنما يتوجه على المأخذ الأول وهو: الرضا عنه لاستحقاقه ذلك بنفسه، مع قطع العبد النظر عن حظّه، بخلاف المأخذ الثاني وهو: الرضا لعلمه بأن المقضيّ خير له.

ثم إن المحبة متعلقة به، والرضا متعلق بقضائه، لكن قد يقال: إن المحبة لله نوعان: محبة له نفسه، ومحبة له لما فيه من الإحسان. وكذلك الحمد له نوعان: حمدٌ له على ما يستحقه نفسه، وحمد على إحسانه الى عبده. فالنوعان للرضا كالنوعين للمحبة.

وأما الرضا به وبدينه وبرسوله فذلك من حظ المحبة، ولهذا ذكر النبي ﷺ ذوق طعم الإيمان كما ذكر في المحبة وجود حلاوة الايمان، وهذان الحديثان الصحيحان هما أصلٌ فيما يُذكر من الوَجْد والذوق الإيماني الشرعي دون الضلالي البدعي، ففي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: **«ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد نبيًّا»**[(١)]. وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: **«ثلاثٌ من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان؛ أن يكون اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يُلقى في النار»**[(٢)].»[(١)]

---

(١) مسلم (٦٠)

(٢) البخاري ١/١٠ (١٦) ومسلم ١/٤٨ (٤٣) (٦٧)

وبالجملة؛ فكلُّ قضاءِ اللهِ خيرٌ للمؤمن المُسَدَّد، فمن جهة أنه قضاء الله وفعله فهو خير، ومن جهة ما يترتب عليه ويفضي به إلى مراضي الله تعالى من الصبر والرضا والشكر والحمد عند البلاء والتوبة والإنابة من الذنوب ونحو ذلك فهو خير أيضًا، فكل قضاء الله خير.

وبعد؛ فتدبّر قول ربنا تبارك وتعالى في آية تسكب على القلب ماء السكينة، وتُروي ظمأَ الرُّوح بكؤوس الطمأنينة، وتَهمي على النفس العطشى غيوث الشوق لمدارج الرجاء ومدارك اليقين: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢﴾ [الأنعام: ١٢]، فتدبر كيف عطف جمعنا يوم القيامة على كتابته الرحمة على نفسه! فمَن أخطأتْهُ ألطافُ هذه الرحمة الهائلة وأعطافُ هذه المرحمة الإلهية العظيمة؛ فهو أخسر الخلق طُرًّا، ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾، لماذا؟ والجواب: ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢﴾، هذا حالُهم ومآلهم. ربنا آمنا بما أنزلت واتّبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين.

وأنعِمْ نَظَرَكَ طويلًا في قوله تبارك وتعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦﴾ [آل عمران: ٢٦]، فختمَ تعالى القول بعد ذكر الملك وإيتائه ونزعه وإعزازه وإذلاله بقوله الأجلِّ: ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، ولم يقل بيدك الشر، وهو من ذكر العام بعد الخاص؛ إشارة إلى أنّ الشرَّ هو

=

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٤٢ - ٤٨) باختصار.

الحرمان من الخير الذي هو بيد الله وحده، ثم ختمها ببيان قدرته الشاملة المحيطة بكل شيء.

فمَن فاته خير ربه فلا فلاح له، ونفسه بظلمها وجهلها حقيقة بالشرّ لانقطاعها عن أسباب ضدِّه من الخير الذي هو بيدِ الله وحده لا شريك، فاجعل المُرادَ واحدًا، والرجاءَ واحدًا، والقصدَ واحدًا، والوجهةَ واحدة، وكُنْ ساقطَ الهِمَّةِ إلا في معالي الآخرة، وأبشر فثمَّ كل خير لمن هدى الله تعالى.

فيا ربّ هلْ إلّا بكَ الفوز يُرتَجى ويـا ربّ هـلْ إلّا عليـكَ المُعَـوَّلُ

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ [آل عِمْرَان: ٢٦] أي: الخير كلّه منك، ولا يأتي بالحسنات والخيرات إلا الله، وأما الشر، فإنه لا يُضاف إلى الله تعالى، لا وصفًا، ولا اسمًا، ولا فعلًا، ولكنه يدخل في مفعولاته، ويندرج في قضائه وقدره.

فالخير والشرّ كله داخل في القضاء والقدر، فلا يقع في ملكه إلا ما شاءه، ولكن الشر لا يضاف إلى الله، فلا يقال: «بيدك الخير والشر»، بل يقال: «بيدك الخير» كما قاله الله، وقاله رسوله. وأما استدراك بعض المفسرين حيث قال: «وكذلك الشر بيد الله» فإنه وهمٌ محضٌ، ملحظهم، حيث ظنوا أن تخصيص الخير بالذكر، ينافي قضاءه وقدره العام، وجوابه ما فصّلنا»[1].

---

(١) تفسير السعدي (١ / ٩٦٥)

فإن آمنت أن الخير كله من الله وحده، وليس إليه شرّ البتّة، وأن قضاءه للمؤمن خيرٌ كلّه؛ فعَلامَ الهمّ والغمّ؟! والحمد لله رب العالمين، وبالله التوفيق.

كيف يريدُ الله تعالى أمرًا لا يرضاه؟

بمعرفة إجابة هذا السؤال الكبير تزول أكبر إشكالات هذا الباب، ذلك أن كثيرًا من الناس يجعلون باب الإرادة الشرعية والإرادة القدرية واحدًا، فيلتزمون بلازمٍ باطل لهذا الفهم الباطل ـ وما بني على باطل فهو باطل ـ فيقولون: إن كل ما خلقه الله تعالى قد رضيه وأحبّه، وهذا ضلال بيّن، فالمحبة إنما تتبع الإرادة الشرعية لا المشيئة الكونية، فالله يحب الإيمان والمؤمنين، ويكره الكفر والكافرين، والقائل تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ۝٤٩﴾ [القَمَر: ٤٩] هو ذاته الذي قال: ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَ﴾ [الزُّمَر: ٧]. وهو حكيم في كل أفعاله، ويستحق عليها تمام الحمد.

فالله تعالى لا يقدّر أمرًا إلا لما فيه من الخير ذاتًا أو غاية، أي لما في الأمر من خيرية في ذاته، أو لما يفضي به إلى الخير، فالله تعالى لا يخلق شرًّا محضًا، إذِ الشر العَدَمِيّ معدوم في مخلوقاته، فخلقه إما خيرٌ محض، أو خير من بعض الوجوه لِحِكَمٍ في الخلق والأمر والتكليف عظيمة، أو شرٌّ مترتب عليه خير في العاقبة. وعليه؛ فقد يكون الخير متمحّضًا في الشيء، وقد يكون شرًّا يترتّب عليه خير يحبه الله تعالى، ومن هنا انتفت نسبة الشر إلى الله تبارك وتعالى.

وبهاتين الإرادتين ـ الشرعية والقدرية ـ قام التكليفُ، وانتهض الابتلاء، واستقام الأمر والنهي، واكتمل امتحان القلوب في ميدان الإيمان والكفر ومجاهدة النفسِ والخلقِ في ذات الله تعالى، وعلا سوق الجهاد باللسان والسِّنان، ودُعي إلى سبيل الله تعالى، وأُمر بالمعروف ونُهي عن المنكر، وقام

سوق الجنة والنار. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن قلت: كيف يريد الله سبحانه أمرًا لا يرضاه ولا يحبه، وكيف يشاؤه ويكوّنُه، وكيف تجتمع إرادة الله له وبغضه وكراهيته؟

قيل: هذا السؤال هو الذي افترق الناس لأجله فِرَقًا، وتباينت عنده طرقهم وأقوالهم. فاعلم أن المراد نوعان: مراد لنفسه، ومراد لغيره.

فالمراد لنفسه مطلوب محبوب لذاته، ولما فيه من الخير، فهو مرادٌ إرادة الغايات والمقاصد. والمراد لغيره قد لا يكون في نفسه مقصودًا للمُريد، ولا فيه مصلحة له بالنظر إلى ذاته، وإن كان وسيلة إلى مقصوده ومراده، فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته، مراد له من حيث إفضاؤه وإيصاله إلى مراده، فيجتمع فيه الأمران: بغضه وإرادته، ولا يتنافيان لاختلاف متعلّقهما، وهذا كالدواء المتناهي في الكراهة إذا علم متناوله أن فيه شفاءه، وكقطع العضو المتآكل إذا علم أن في قطعه بقاء جسده، وكقطع المسافة الشاقة جدًّا إذا علم أنها توصله إلى مراده ومحبوبه. بل العاقل يكتفي في إيثار هذا المكروه وإرادته بالظن الغالب وإن خفيت عنه عاقبته وطويت عنه مغبته، فكيف بمن لا تخفى عليه العواقب؟! فهو سبحانه وتعالى يكره الشيء ويبغضه في ذاته، ولا ينافي ذلك إرادته لغيره وكونه سببًا إلى ما هو أحب إليه من فوته.

مثاله: أن الله سبحانه خلق إبليس[1] الذي هو مادّةٌ فساد الأديان والأعمال والاعتقادات والإرادات، وهو سبب شقاوة العبيد وعملهم بما

---

(١) وهذا المثال هو أوضح أمثلة مسألة خلق الشرّ.

يغضب الرب تبارك وتعالى، وهو الساعي في وقوع خلاف ما يحبه الله ويرضاه بكل طريق وكل حيلة، فهو مبغوض للرب سبحانه وتعالى، مسخوط له، لعنه الله ومقته وغضب عليه، ومع هذا فهو وسيلة إلى محابٍّ كثيرة للرب تعالى ترتبت على خلقه، وجودُها أحبّ إليه من عدمها(١).

منها: أن تظهر للعباد قدرة الرب تعالى على خلق المتضادات المتقابلات، فخلق هذه الذات التي هي أخبث الذوات وشرّها، وهي سبب كل شر، في مقابلة ذات جبريل التي هي أشرف الذوات وأطهرها وأزكاها، وهي مادة كل خير(٢)، فتبارك الله خالق هذا وهذا.

---

(١) فوجود الطاعات الإيمانية الناشئة عن المجاهدة أحب إلى الله تعالى من عدم أصل الشرّ إبليس، وبهذا علمنا أن الله تعالى لا يخلق شرًّا محضًا، وأنّ الشر المحض الذي لا يترتب عليه خير معدوم في الخلائق، ولله الحكمة البالغة تبارك وتعالى.

(٢) لعله يقصد أن المادة الملكية هي الطاعة المطلقة بلا عصيان لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التَّحريم: ٦]، وهذه هي مادة كل خير على الحقيقة. ولو قال «من أشرف الذوات المخلوقة» لكان حسنًا، تعظيمًا لجناب رب العالمين، وحسنًا للأدب معه تبارك وتعالى، كما أنه بذلك يخرج من الخلاف القائم في تشريف جبريل على محمد ﷺ أو العكس أو تساويهما.

والراجح تفضيلُ رسولنا محمد ﷺ على رسولنا الملكي جبرائيل عليه السلام، وهذا مذهب ابن القيم نفسه كما نص عليه. ومن شواهد الترجيح: أنه قد ارتفع وبلغ ليلة المعراج مدًى لم يبلغه جبريل عليهما الصلاة والسلام، ورفعةُ الذاتِ من دلائل تفضيل المعنى، كما أنّ الله تعالى قد اتخذه خليلًا، وغير ذلك من الفضائل الهائلة الجليلة. قال الناظم:

=

=

وأفضـــلُ الخلـــق عـــلى الإطـــلاق   نبيُّنـــــا فمِـــلْ عـــن الشّـــــقاقِ

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المنهاج (١٥/ ٣٧) في شرحه لحديث مسلم (٤٢٢٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أنا سيّد ولد آدم يوم القيامة..»** الحديث. قال: «وهذا الحديث دليل لتفضيله ﷺ على الخلق كلهم، لأنّ مذهب أهل السنة أن الآدميين أفضل من الملائكة، وهو ﷺ أفضل الآدميين وغيرهم».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مجموع الفتاوى (١ / ١٤٥): «وقد اتفق المسلمون على أنه ﷺ أعظم الخلق جاهًا عند الله، لا جاه لمخلوق أعظم من جاهه، ولا شفاعة أعظم من شفاعته».

وقد توارد أهل العلم على وصف النبي ﷺ بأنه أفضل الخلق كالشافعي والنووي وابن تيمية وابن القيم وابن حجر وابن عاشور والسعدي والشنقيطي وابن باز وغيرهم كثير في المتقدمين والمحدثين. وبذلك أفتت اللجنة الدائمة للإفتاء كما جاء في فتاوى اللجنة (٣٥/٢٦): «جاء في نصوص كثيرة من الكتاب والسنة بيان عظم قدر نبينا محمد ﷺ ورفعة مكانته عند ربه تعالى من خلال الفضائل الجليلة والخصائص الكريمة التي خصه الله بها، مما يدل على أنه أفضل الخلق وأكرمهم على الله وأعظمهم جاهًا عنده سبحانه... فمما ذُكر وغيره يتبين أن نبيّنا محمدًا ﷺ هو أفضل الأنبياء، بل وأفضل الخلق، وأعظمهم منزلة عند الله تعالى، ولكن مع هذه الفضائل والخصائص العظيمة فإنه ﷺ لا يرقى عن درجة البشرية، فلا يجوز دعاؤه والاستغاثة به من دون الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠]، وبالله التوفيق».

=

=
وقد رجّح بعض أهل العلم تفضيل جبريل بناء على قولهم بتفضيل جنس الملائكة، والخلاف في المسألة قديم، وتوقف آخرون، وممن توقف العلامة العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في لقاءات الباب المفتوح (١١/٥٣) بحجة أنه لم يرد نص أن النبي ﷺ أفضل الخلق مطلقًا في كل شيء.
ومسألة التفضيل بين جنس الملائكة وصالحي البشر مشهورة، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الصواعق (٣/ ١٠٠٢): «إنّ الله سبحانه يخلق من المادة المفضولة ما هو أفضل من المخلوق من غيرها، وهذا من كمال قدرته سبحانه، ولهذا كان محمد وإبراهيم وموسى وعيسى ونوح والرسل عليهم الصلاة والسلام أفضل من الملائكة، ومذهب أهل السنة أن صالحي البشر أفضل من الملائكة، وإن كانت مادتهم نورًا، ومادة البشر ترابًا»، وقال ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في فتاوى نور على الدرب (٨/ ٦): «المفاضلة بين الملائكة وبين الصالحين من البشر محل خلاف بين أهل العلم.. والقول الراجح: إن الصالحين من البشر أفضل من الملائكة باعتبار النهاية، فإن الله سبحانه وتعالى يؤدّي لهم من الثواب ما لا يحصل مثله للملائكة فيما نعلم، بل إن الملائكة في مقرهم يدخلون عليهم من كل باب يهنئونهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾ [الرَّعد: ٢٤]، أما باعتبار البداية فإن الملائكة أفضل؛ لأنهم خلقوا من نور، وجبلوا على طاعة الله عز وجل والقوة عليها، كما قال الله تعالى في الملائكة ملائكة النار: ﴿عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ [التَّحريم: ٦]، وقال عز وجل: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ٢٠﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٠] هذا هو القول الفصل في هذه المسألة».
ولقد أحسن ابن أبي العز رَحِمَهُ ٱللَّهُ حينما ذكر ذلك النص بزيادة «من» في نقله عن ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرحه للطحاوية ـ وقد شرح أكثر أبوابها من كتب ابن تيمية وابن القيم مع إبهام اسميهما حتى يروج علمها في وقت كانت كتبهما تحرق وتُحارَب، وهذا من
=

=
فقهه ونصحه رَحِمَهُ ٱللَّهُ. فقال في (١ / ١٦٧): «من أشرف الذوات». ولعلها كانت في الأصل المخطوط لابن القيم فأسقط الناسخ «من». والله أعلم. وقال الحوالي في شرحه للطحاوية (١ / ١٤٩٤-١٤٩٦): «فجبريل عَلَيهِ السَّلام مادة كل خير من جهة أنه رسول الله تَبَارَكَ وتعَالى الملكي إِلى رسله من البشر، ولهذا كانَ التمثيل بجبريل عَلَيه السَّلام، ولم يكن التمثيل بمحَمَّد ﷺ؛ لأن جبريل هو الذي بلّغ الوحي إِلَى مُحَمَّد ﷺ، وكذلك بلغه إِلَى موسى وإِلى عيسى وإِلى من قبله.

حتى إن ورقة بن نوفل لما جاءته خديجة وأخبرته بشأن النبي ﷺ قال: «هذا هو الناموس الذي كَانَ ينزل عَلَى موسى» ولهذا قال اليهود: إن عدوهم هو جبريل، قالوا: يا مُحَمَّد من الذي يتنزل عليك بالوحي؟ قال: **«جبريل عَلَيْهِ السَّلام»** قالوا: ذاك عدوّنا من الملائكة. (حديث حسن، رواه أحمد (٢٥١٤) والنسائي (٩٠٢٤) وغيرهما.) ـ عياذًا بالله ـ ولهذا قال الله تَعَالَى فيهم في سورة البقرة: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ ٩٨﴾ [البَقَرَة: ٩٨]، فهذا يدل عَلَى أن اليهود من جنس إبليس عياذًا بالله، من نفس المادة ـ مادة الشرّ ـ بل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى سمّى اليهود شياطين، كما سمى الشيطان شيطانًا، قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ﴾ [البَقَرَة: ١٤]، أي: إذا خلى المنافقون إِلَى اليهود قالوا: إنا معكم، فهم شياطينهم؛ لأن الشيطان يمد الإِنسَان بالشهوات والشبهات، واليهود أيضًا يمدون الإِنسَانية بالشهوات والشبهات، فانتشار القمار، والزنا، والربا في كل مكان وفي كل عصر عَلَى أيدي هَؤُلاءِ.

فكانوا يأتون إِلَى المنافقين ويقولون: نبيكم مُحَمَّد فيه كذا وكذا؛ لأنهم يعتبرون أن عندهم علم من الكتاب وأولئك أميون، فالمنافقون إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وإذا خلوا إِلَى اليهود، أي: ﴿إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤﴾ [البَقَرَة: ١٤].
=

=

فالغرض من ذلك هو دقة تعبير المُصَنِّفرَحِمَهُ ٱللَّهُ لما قال: «التي هي من أشرف الذوات» فلم يقل: «جبريل أشرف الذوات»، حتى لا يُفهم أنه يقول: إن ذات جبريل أفضل من ذات مُحَمَّد ﷺ، لأن العلماء اختلفوا، هل هذا أفضل أو هذا أو هما سواء، وليس هذا مراد المُصَنِّف هنا، وإنما مراده أن يخرج من الخلاف. فيقول لك: إن أصل مادة الشر هو إبليس، وأصل مادة كل خير هو جبريل عَلَيْهِ السَّلام؛ لأن ما جَاءَ إِلَى مُحَمَّد ﷺ من الخير والرسالة هو عن طريق جبريل، وكذلك كل ما أتى جميع الأَنبياء هو عن طريق جبريل عَلَيْهِ السَّلام، قال: «فتبارك خالق هذا وهذا»، فتبارك الله الذي خلق أصل كل شرّ وخلق أصل كل خير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هكذا اقتضت حكمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

ثُمَّ يقول: «كما ظهرت قدرته في خلق الليل والنهار» كيف تكون حياتنا لو جعل الله علينا النهار سرمدًا إِلَى يَومِ القِيَامَةِ، وكيف تكون حياتنا لو جعل الله علينا الليل سرمدًا إِلَى يَومِ القِيَامَةِ؟ لا تصلح الحياة، لكن الله جعل الليل وجعل النهار، فاستقامت الحياة والمصالح، وانتظمت أمور العباد، وهذا دليل عَلَى حكمته تَبَارَكَ وَتَعَالَى في خلق هذين الضدين الدواء والداء. فلو كانت الدنيا كلها أدواء لما صلحت الحياة، ولو كانت كلها دواء، أو لا مرض فيها ولا داء، فإنها تفوت حكم عظيمة، لكن حكمة الله عَزَّ وَجَلَّ أنها أدواء ومعها الدواء، ولذلك انتظمت مصالح ومعايش كثيرة لأناس كثر، فمرض هذا نفع لذلك، فإن كَانَ الذي مرض بالداء شرّيرًا، استراح الخلق من شره، وأما إذا كَانَ المريض طيبًا، فيستفيد الأطباء من ذلك، وأيضًا مساعدة هذا المريض والإحسان إليه يحصل بسبب ذلك الأجر من الله تعالى.

وكمثال آخر: أن الله يبتلي بعض عباده بالفقر مع أنه مكروه لذاته ـ فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يكره أن يفقر عبده الصالح ـ لكن هناك حكم كثيرة وراء ذلك، فيبتليه ليرفع درجته، وكذلك الإحسان إليه يكون سببًا في تحصيل الأجر من الله.

=

=

وهكذا أمور كثيرة نجد أن لها حكمًا عظيمة، يعجز العقل البشري عن حصرها، فتظهر بوجود هذه المتضادات المتقابلات، والله تَعَالَى هو العليم بكل شيء. قوله: «والحياة والموت»، وأيضًا الموت له حكم عظيمة، فإما أن يموت شرير فيستريح الخلق من شره، كما قال النبي ﷺ: **«مستريحٌ ومستراحٌ منه»**، رواه البخاري (٦٥١٣) ومسلم (٩٥٠) فلو كَانَ فرعون وماركس وغيرهما ـ عياذًا بالله ـ أحياء لما وجد النَّاس راحة في حياتهم، فيكفي أن الأمم والشعوب عانت من شرهم مدة حياتهم، فلما ماتوا استراح النَّاس من شرهم.

وكذلك موت الأخيار أيضًا فيه حكمة. فأفضل خلق الله مُحَمَّد ﷺ، فلله عَزَّ وَجَلَّ حكمة في موت النبي ﷺ. ومنها: أنه بشر فلا يُعبد من دون الله ولا يؤلّه، وليقوم النَّاس من بعده بالدين، وليعلموا أن مسؤولية هذا الدين عليهم. ولهذا أعلنها الصديق رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنه فقَال: «من كَانَ يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كَانَ يعبد الله فإن الله حيٌ لا يموت». وارتد من ارتد من العرب، وتبقى الصفوة المختارة المؤمنة لتردّ النَّاس إِلَى الدين، وهذه حكمة عظيمة جدًّا، عرفنا بها أنّ ديننا من مسؤوليتنا وأن نشره يكون عَلَى أيدينا، فالله تَعَالَى لو شاء لجعل النَّاس أمة واحدة، لكن حكمة الله اقتضت أن نبذل الجهد، فكم خرج من المسلِمِينَ، وكم قتل منهم في معارك الفرس والروم، وكم فُتح من البلاد، وأسلم بسبب ذلك أناس كثيرون. فكان في ذلك كثير من الحكم والمصالح، ومع ذلك فإن موته ﷺ مصيبة، فأعظم مصيبة حصلت في هذه الأمة فقده ﷺ، ولا تعدلها أي مصيبة عَلَى الإطلاق، ومع ذلك فيها حكمة، بل حِكم مما نعلم وما لا نعلم وهكذا». أهـ. وعلى ذكر موت الأخيار فقد روى الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في تاريخ الإسلام (٢/٨٣١) عن سعيد بن المسيّب رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «عَرضتْ عائشة على أبيها رؤيا ـ وكان من أعبر الناس ـ قالت: رأيت ثلاثة أقمار وقعن في حجرتي. فقال: إن صدقت

=

كما ظهرت لهم قدرته التامة في خلق الليل والنهار، والضياء والظلام، والداء والدواء، والحياة والموت، والحر والبرد، والحسن والقبيح، والأرض والسماء، والذكر والأنثى، والماء والنار، والخير والشر، وذلك من أدل الدلائل على كمال قدرته وعزته وسلطانه وملكه، فإنه خلق هذه المتضادات، وقابَلَ بعضها ببعض، وسلّط بعضها على بعض، وجعلها محالّ تصرّفه وتدبيره وحكمته، فخلوّ الوجود عن بعضها بالكليّة تعطيل لحكمته وكمال تصرفه وتدبير مملكته.

ومنها: ظهور آثار أسمائه القهرية مثل القهار والمنتقم والعدل والضار[1] وشديد العقاب وسريع الحساب وذي البطش الشديد والخافض والمذل، فإن

=

رؤياك دُفن في بيتك من خير أهل الأرض ثلاثة. فلما قُبض النبي ﷺ، قال: يا عائشة، هذا خيرُ أقمارِكِ». صلى الله عليه وآله وسلم وبارك ورضي وأنعم.

(١) أسماء الله تعالى توقيفية، فلا يثبت منها شيء إلا بالدليل الصحيح من الكتاب والسنة. علمًا أن باب الإخبار عن الله تعالى أوسع من باب الأسماء والصفات، فإذا لم يثبت الاسم وكان معناه صحيحًا فيجوز حينها الإخبار به عن الله تعالى، وعلى ذلك فلا يُعبّد بهذا الاسم، فلا يقال: عبد النافع وعبد الضار ونحوهما لأن التسمية بهما لم تثبت، والمنع من التسمية بعبد النافع ونحوه لا لأنه يوهم نقصًا، ولكن لأنه لم يثبت بالنصّ أنّه من الأسماء الحسنى، أما التسمي بعبد الضار فلا يجوز بحال، وفيه سوء أدب مع الله تعالى وسوء ظن به عز وجل.

=

=
ولمـّا كان الإخبار عن الله تعالى بأنه الضار فإنه قد يوهم نقصًا، فقد نص أهل العلم على أنه لا يُذكر إلا مقرونًا بالإخبار عنه بأنه النافع، كما هو الحال في القابض الباسط والخافض الرافع والمعزّ المذل ونحوها.
وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مجموع الفتاوى (١ / ٩٣) في تعليقه على حديث ابن عباس عند الترمذي (٢٥١٦) مرفوعًا: **«واعلم أنّ الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء؛ لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك..»**، الحديث. قال: «فهذا يدل على أنه لا ينفع في الحقيقة إلا الله ولا يضر غيره». وقال شيخنا العلامة عبد الرحمن بن ناصر البراك حفظه الله تعالى: «الضار ليس من أسماء الله تعالى، بل من أسمائه التي ورد ذكرها في بعض الروايات **«النافع الضار»**، يعني الكلمتان اسم واحد، فهو سبحانه النافع الضار؛ لأنه سبحانه هو خالق كل شيء، خالق الخير والشر». أهـ. ضمن جواب لسؤال في موقع طريق الإسلام. وقصد بالاسم الواحد الازدواج والتقابل، فهو اسم مركب من لفظين، فاسم الضار يكمّله اسم النافع، واسم المانع يكمله اسم المعطي وهكذا، وهذا في الإخبار عن أفعاله تعالى، ويستقيم كذلك عند من صحّحوا الحديث في سرد الأسماء. وبنحوه قال شيخنا العثيمين كذلك في لقاءات الباب المفتوح، اللقاء رقم: (٦).
قلت: والحديث الذي عدّ النافع والضار من أسماء الله الحسنى رواه أبو هريرة رضي الله عنه وأخرجه الترمذي (٣٥٠٧) وضعفه الألباني وآخرون من جهة رفع الأسماء الحسنى المسرودة. وقد ذهب جماعة من الحفاظ كابن كثير وابن حجر إلى أن سرد الأسماء الحسنى فيه مدرج في الحديث.
وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تأصيلًا نافعًا في هذا الباب فقال في بدائع الفوائد (١ / ١٧٧): «أسماء الله تعالى منها ما يطلق عليه مفردًا ومقترنًا بغيره، وهو غالب الأسماء، كالقدير والسميع والبصير والعزيز والحكيم، وهذا يسوغ أن يُدعى به مفردًا ومقترنًا
=

هذه الأسماء والأفعال كمال، فلا بد من وجود متعلّقها. ولو كان الخلق كلهم على طبيعة المَلَكِ لم يظهر أثر هذه الأسماء والأفعال.

ومنها: ظهور آثار أسمائه المتضمّنة لحلمه وعفوه ومغفرته وستره وتجاوزه عن حقه وعتقه لمن شاء من عبيده، فلولا خلق ما يكره من الأسباب المفضية إلى ظهور آثار هذه الأسماء؛ لتعطلت هذه الحكم والفوائد. وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا بقوله: **«لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم»**(١).

=
بغيره، فتقول: يا عزيز، يا حليم، يا غفور، يا رحيم. وأن يفرد كل اسم. وكذلك في الثناء عليه والخبر عنه بما يسوغ لك الإفراد والجمع.

ومنها ما لا يطلق عليه بمفرده، بل مقرونًا بمقابِلِه كالمانع والضار والمنتقم، فلا يجوز أن يفرد هذا عن مقابله، فإنه مقرون بالمعطي والنافع والعفوّ، فهو المعطي المانع الضار النافع المنتقم العفوّ المعزّ المذل، لأن الكمال في اقتران كل اسم من هذه بما يقابله؛ لأنه يراد به أنه المنفرد بالربوبية وتدبير الخلق والتصرف فيهم عطاءً ومنعًا، ونفعًا وضرًّا، وعفوًا وانتقامًا.

وأما أن يُثنى عليه بمجرد المنع والانتقام والإضرار فلا يسوغ، فهذه الأسماء المزدوجة تجري الأسماء منها مجرى الاسم الواحد الذي يمتنع فصل بعض حروفه عن بعض، فهي وإن تعددت جارية مجرى الاسم الواحد، ولذلك لم تجيء مفردة، ولم تطلق عليه إلا مقترنة، فاعلمْه. فلو قلت: يا مذلّ يا ضارّ يا مانع، وأخبرت بذلك؛ لم تكن مثنيًا عليه ولا حامدًا له حتى تذكر مقابلها».

(١) مسلم ٨/٩٤ (٢٧٤٩) (١١)

ومنها: ظهور آثار أسماء الحكمة والخبرة، فإنه سبحانه الحكيم الخبير الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها اللائقة بها، فلا يضع الشيء في غير موضعه، ولا ينزله غير منزلته التي يقتضيها كمال علمه وحكمته وخبرته، فلا يضع الحرمان والمنع موضع العطاء والفضل، ولا الفضل والعطاء موضع الحرمان والمنع، ولا الثواب موضع العقاب، ولا العقاب موضع الثواب، ولا الخفض موضع الرفع، ولا الرفع موضع الخفض، ولا العز مكان الذل، ولا الذل مكان العز، ولا يأمر بما ينبغي النهي عنه، ولا ينهى عما ينبغي الأمر به. فهو أعلم حيث يجعل رسالته، وأعلمُ بمن يصلح لقبولها ويشكره على انتهائها إليه ووصولها، وأعلم بمن لا يصلح لذلك ولا يستأهله، وأحكم من أن يمنعها أهلها وأن يضعها عند غير أهلها.

فلو قدّر عدم الأسباب المكروهة البغيضة له؛ لتعطلت هذه الآثار، ولم تظهر لخلقه، ولفاتت الحكم والمصالح المترتبة عليها، وفواتها شرٌّ من حصول تلك الأسباب. فلو عطلت تلك الأسباب لما فيها من الشر؛ لتعطل الخير الذي هو أعظم من الشر الذي في تلك الأسباب. وهذا كالشمس والمطر والرياح التي فيها من المصالح ما هو أضعافُ أضعافِ ما يحصل بها من الشر والضرر، فلو قدر تعطيلها لئلا يحصل منها ذلك الشر الجزئي لتعطل من الخير ما هو أعظم من ذلك الشر بما لا نسبة بينه وبينه.

ومنها: حصول العبودية المتنوعة التي لولا خلق إبليس لما حصلت، ولكان الحاصل بعضها لا كلها. فإن عبودية الجهاد من أحب أنواع العبودية إليه سبحانه، ولو كان الناس كلهم مؤمنين؛ لتعطلت هذه العبودية وتوابعها

من الموالاة فيه سبحانه، والمعاداة فيه، والحب فيه، والبغض فيه، وبذل النفس له في محاربة عدوه، وعبودية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعبودية الصبر، ومخالفة الهوى، وإيثار محاب الرب على محاب النفس.

ومنها: عبودية التوبة والرجوع إليه واستغفاره، فإنه سبحانه يحب التوابين ويحب توبتهم، فلو عُطّلت الأسباب التي يُتاب منها؛ لتعطلت عبودية التوبة والاستغفار منها[1].

ومنها: عبودية مخالفة عدوّه، ومراغمته في الله، وإغاظته فيه، وهي من أحب أنواع العبودية إليه، فإنه سبحانه يحبُّ مِن وليِّه أن يغيظَ عدوَّه ويراغمَه ويسوءَه، وهذه عبودية لا يتفطن لها إلا الأكياس[2].

---

(١) لا يخلو مؤمن من الحاجة للاستغفار على الدوام، وسيّدُ المستغفرين صلى الله عليهم وسلم كان دائم الاستغفار، وهو من قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. وفي المسند (٤٧٢٦) بسند على شرط الشيخين عن ابن عمر رضي الله عنهما: إنْ كنّا لنعدُّ لرسول الله ﷺ في المجلس يقول: «**ربِّ اغفر لي وتب علي، إنك أنت التواب الغفور**» مئة مرّة. فالاستغفار مرهم للروح، وتنظيف للصحيفة، وحفظ للعهد مع الله تعالى. فلكل مؤمن فاقة وحاجة دائمة للاستغفار والتوبة، لأنه لا يخلو من تقصير في واجب أو زلة لمحرّم.
وكثير من الناس يتحرّز من كبائر ذنوب الجوارح ويغفل عن كبائر ذنوب القلب، كالكبر والحسد ونحو ذلك، والله تعالى يقول: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ [الأنعام: ١٢٠]، والله المستعان.

(٢) الأكياس جمع كيِّس، والكَيْس: هو العقل والحزم.

ومنها: أن يتعبد له بالاستعاذة به من عدوه، وسؤاله أن يُجيره منه، ويعصمه من كيده وأذاه.

ومنها: أن عبيده يشتد خوفهم وحذرهم إذا رأوا ما حل بعدوه بمخالفته وسقوطه من المرتبة المَلَكيّة إلى المرتبة الشيطانية، فلا يخلدون إلى غرور الأمل بعد ذلك.

ومنها: أنهم ينالون ثواب مخالفته ومعاداته الذي حصوله مشروط بالمعاداة والمخالفة، فأكثر عبادات القلوب والجوارح مرتّبة على مخالفته[1].

ومنها: أن نفس اتخاذه عدوًّا من أكبر أنواع العبودية وأجلّها، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ﴾ [فَاطِر: ٦]، فاتخاذه عدوًّا أنفع شيء للعبد، وهو محبوب للرب.

ومنها: أن الطبيعة البشرية مشتملة على الخير والشر والطيب والخبيث، وذلك كامن فيها كمون النار في الزناد، فخَلَقَ الشيطانَ مستخرجًا لما في طبائع أهل الشر من القوّة إلى الفعل، وأُرسلت الرسل تستخرج ما في طبيعة أهل الخير من القوة إلى الفعل[2]، فاستخرج أحكم الحاكمين ما في قوى هؤلاء من

---

(١) أي: مخالفة الشيطان لمتابعة رضا الرحمن.

(٢) القوّة: أي: الغريزة أو الصفة الخُلُقية، وهي كامنة في معدن المكلَّف، واستخراجها هو الفعل، فهي لا تكفي للثواب أو المؤاخذة مالم تخرج إلى الفعل قولًا أو عملًا أو نيّة. فأصل وجودها هو القوّة، وحركتها هو الفعل.

=

الخير الكامن فيها لتترتّب عليه آثاره، وما في قوى أولئك من الشر لتترتب عليه آثاره، وتظهر حكمته في الفريقين، وينفذ حكمه فيهما، ويظهر ما كان معلومًا له مطابقًا لعلمه السابق(١).

=
والمقصود؛ أن غريزة الشر كانت موجودة في نفوسهم، فكان الشيطان سببًا لأن تتحرك هذه الغريزة الشريرة فتستيقظ من سباتها وتتحرك من سكونها بمباشرة أسباب شرها فتظهر على القلب واللسان والجوارح بعدما كانت مجرد غريزة كامنة ساكنة، كمثل الكبريت الذي يشتعل بحكه بمادة مهيجة له.

وكذلك الحال في ضد ذلك من الخير ونُقلته من السكون والكمون إلى الحركة من الاعتقاد الحسن والقول الكريم والفعل الجميل، ومن هنا جاء الأدب الشرعي بصون النفس عن ذرائع الخطايا ومقدمات الذنوب، والحذر خطوات الشيطان، والبعد عن كل سبب يورد مهلكة في الدين وعطبًا في الامتثال، فلا يزال المرء في عافية حتى مع أزيز خواطره وحسيس أفكاره وخسيس شهواته - ما لم يتكلم أو يفعل أو يعزم ما دام مجاهدًا نفسه لله تعالى في دفعها - ومِن حزْمِ المؤمن وفطنته وتوفيقه ابتعاده عن مواطن الفتن حفظًا لسلامة دينة من لوث شبهة أو نَجَس شهوة محرمة، والله المستعان.

(١) فعِلْمُ الله شامل للماضي والحاضر والمستقبل، فإذا وقع الأمر في الحاضر صار مُصدِّقًا لعلمه الماضي، كما أن ما أخبر به في الماضي عن المستقبل يُصدِّقُه ما يحدث في الحاضر. فعلمه محيط بكل شيء، بما كان وما يكون وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، لا تخفى عليه خافيه، تبارك وتعالى وتقدّس، وقد أحسنَ حملةُ العرش ومن حوله إذ قالوا: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ [غَافِر: ٧].

وإنّ من محبة الله تعالى للعذر أنه لم يكتف بعلمه السابق الغيبي ليعذب أعداءه، ولو عذبهم اكتفاء بسابق علمه بهم لعذّبهم وهو غير ظالم لهم، ولكن الحَكَمَ العدل سبحانه
=

وهذا هو السؤال الذي سألته ملائكته حين قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البَقَرَةِ: ٣٠] فظنت الملائكة أن وجود من يسبح بحمده ويطيعه ويعبده أولى من وجود من يعصيه ويخالفه، فأجابهم سبحانه بأنه يعلم من الحِكَم والمصالح والغايات المحمودة في خلق هذا النوع ما لا تعلمه الملائكة.

ومنها: أن ظهور كثير من آياته وعجائب صنعه حصل بسبب وقوع الكفر والشرّ من النفوس الكافرة الظالمة، كآية الطوفان، وآية الريح، وآية

=

أقام عليهم الحجة وبين لهم المحجة، حتى إذا خالفوا أمره في الشهادة جعلهم حينها مستحقين لعذابه، فالله تعالى يحبّ العذر، بل لا أحد أحب إليه العذر منه، كما روى مسلم (٦٨٢١) رَحِمَهُ ٱللَّهُ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**ولَيسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيهِ العُذْرُ مِنَ اللهِ، مِن أَجلِ ذَلِكَ أنزلَ الكتابَ وأرْسَلَ الرُّسُلَ**»، وقال الله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النِّسَاء: ١٦٥].

وعن ابن الديلمي، قال: لقيت أبيّ بن كعب، فقلت: يا أبا المنذر، إنه قد وقع في نفسي شيء من هذا القدر، فحدثني بشيء، لعله يذهب من قلبي. قال: «لو أنّ الله عذّب أهل سماواته وأهل أرضه، لعذّبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته لهم خيرًا من أعمالهم، ولو أنفقت جبل أحد ذهبًا في سبيل الله، ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو متّ على غير ذلك، لدخلت النار». قال: فأتيت حذيفة، فقال لي مثل ذلك، وأتيت ابن مسعود، فقال لي مثل ذلك، وأتيت زيد بن ثابت، فحدثني عن النبي ﷺ مثل ذلك. رواه أحمد (٢١٥٨٩) وقوى سنده محققوه، وأبو داود (٤٧٠١) وصححه الألباني.

إهلاك ثمود وقوم لوط، وآية انقلاب النار على إبراهيم بردًا وسلامًا، والآيات التي أجراها الله تعالى على يد موسى، وغير ذلك من آياته التي يقول سبحانه عقيب ذكر كل آية منها في سورة الشعراء: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٩﴾ [الشُّعَرَاء: ٨ - ٩] فلولا كفر الكافرين وعناد الجاحدين لما ظهرت هذه الآيات الباهرة التي يتحدث بها الناس جيلًا بعد جيل إلى الأبد.

ومنها: أن خلق الأسباب المتقابلة التي يقهر بعضها بعضًا، ويكسر بعضها بعضًا، هو مِن شأنِ كمالِ الربوبية والقدرة النافذة والحكمة التامة والملك الكامل، وإن كان شأن الربوبية كاملًا في نفسه ولو لم تخلق هذه الأسباب، لكن خلْقها من لوازم كماله وملكه وقدرته وحكمته، فظهور تأثيرها وأحكامها في عالم الشهادة تحقيقٌ لذلك الكمال وموجب من موجباته، فتعمير مراتب الغيب والشهادة بأحكام الصفات من آثار الكمال الإلهي المطلق بجميع وجوهه وأقسامه وغاياته.

وبالجملة؛ فالعبودية والآيات والعجائب التي ترتّبت على خلق ما لا يحبه ولا يرضاه وتقديره ومشيئته أحب إليه سبحانه وتعالى من فواتها وتعطيلها بتعطيل أسبابها.

فإن قلت: **فهل كان يمكن وجود تلك الحكم بدون هذه الأسباب؟**

قلت: هذا سؤال باطل، إذ هو فرضُ وجود الملزوم بدون لازمه[١]، كفرض وجود الابن بدون الأب، والحركة بدون المتحرك، والتوبة بدون التائب.

فإن قلت: **فإذا كانت هذه الأسباب مرادة لما تُفضي إليه من الحكم؛ فهل تكون مرضيّة محبوبة من هذا الوجه، أم هي مسخوطة من جميع الوجوه؟**

قلت: هذا السؤال يورَد على وجهين أحدهما: من جهة الرب سبحانه وتعالى، وهل يكون مُحِبًّا لها من جهة إفضائها إلى محبوبه وإن كان يبغضها لذاتها، والثاني: من جهة العبد، وهو أنه هل يسوغ له الرضا بها من تلك الجهة أيضًا. فهذا سؤال له شأن.

فاعلم أن الشرّ كله يرجع إلى العَدَمِ[٢]، أعني عدم الخير وأسبابه المفضية إليه، وهو من هذه الجهة شرّ، وأما من جهة وجوده المحض فلا شر فيه، مثاله: أن النفوس الشريرة وجودها خير من حيث هي موجودة، وإنما حصل لها الشرّ بقطع مادة الخير عنها، فإنها خلقت في الأصل متحركة لا تسكن، فإن أُعينت

---

(١) الملزوم هو النتيجة، واللازم هو الوسيلة، من باب: الموجود المفعول والمُوجِد الفاعل. وبنحوه القضاء والمقضي وهكذا.

(٢) وتأمل هذه الأحرف النفيسة، فإن فيها كشفٌ لكثير من مشكلات المعضلات، وثلجُ يقين يبدّد تساؤلات النفوس، وضياءُ علمٍ لظلامِ حيرَتِها في قضايا القدر والحِكم والتعليل والخير والشرّ، وقد بسط ابن القيم ذلك وشفى وكفى في سفره السّمين الثمين الماتع الرائع «شفاء العليل».

بالعلم وإلهام الخير[١] تحرّكت، وإن تُركت[٢] تحرّكت بطبعها إلى خلافه. وحَرَكَتُها من حيث هي حركةٌ خير، وإنما تكون شرًّا بالإضافة لا من حيث هي حركة[٣].

والشر كله ظلم، وهو وضع الشيء في غير موضعه، فلو وضع في موضعه لم يكن شرًّا، فعُلم أن جهة الشر فيه نسبة إضافية. ولهذا كانت العقوبات الموضوعات في محالّها خيرًا في نفسها وإن كانت شرًّا بالنسبة إلى المحل الذي

(١) أي: العلم الذي يدفع الجهل، أما إلهام الخير فهو إرادته والعزم الجازم لتحصيله.

(٢) وهذا من الأدب مع الله تعالى، وهذا شأن العلماء الربانيين الراسخين، ومنه قوله تعالى على لسان الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ١٠﴾ [الجن: ١٠]، فأسند الخير إلى الله، وأبهم إرادة الشر، وتدبر فاتحة الكتاب: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ [الفَاتِحَة: ٧]، حيث أسند النعمة إليه مباشرة بخلاف غيرها، وتأمل الأدب الإبراهيمي مع ربنا سبحانه في قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ٨٠﴾ [الشُّعَرَاء: ٧٨-٨٠] فنسب الهداية والإطعام لله، ولم ينسب المرض أدبًا وإجلالًا وتوقيرًا.

(٣) معنى كلام المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّ خلق إبليس ـ وغيره من الكفرة ـ ليس شرًّا في الأصل، لكن لـمّا قُطع عنه المدد الإلهي بإلهام الخير تحرّك بطبعه للشرّ، ومن هنا نُسب الشرّ له ولطبعه الشرير، لأن قطع مادة الخير عنه عدمٌ لا وجود له، والعدم ليس بشيء، وهو غير موجود أصلًا؛ فلا يُنسب للرحمن، مع أن إرادته وفعله وحركته ومعصيته كلها داخله في خلق الله تعالى وكتابته ومشيئته وتقديره وحكمته وعلمه. هذا من جهة شره هو، أما من جهة خلق الله تعالى له وقطع مادة الخير عنه وجعله سببًا للمعاصي فهو خير بالنسبة لفعل الله وحكمته لـما أفضى ذلك لحكم كبيرة كثيرة، والله أعلم.

حلّت به لِمَا أحدثت فيه من الألم الذي كانت الطبيعة قابلة لضده من اللذة مستعدة له، فصار ذلك الألم شرًّا بالنسبة إليها، وهو خير بالنسبة إلى الفاعل حيث وضعه موضعه.

فإنه سبحانه لا يخلق شرًّا محضًا من جميع الوجوه والاعتبارات، فإنّ حكمته تأبى ذلك، بل قد يكون ذلك المخلوق شرًّا ومفسدة ببعض الاعتبارات، وفي خلقه مصالح وحكم باعتبارات أخر أرجح من اعتبارات مفاسده، بل الواقع منحصر في ذلك، فلا يمكن في جناب الحق جل جلاله أن يريد شيئًا يكون فسادًا من كل وجه بكل اعتبار لا مصلحة في خلقه بوجه ما، هذا من أبين المحال، فإنه سبحانه بيده الخير، والشرّ ليس إليه، بل كل ما إليه فخير، والشرّ إنما حصل لعدم هذه الإضافة والنسبة إليه، فلو كان إليه لم يكن شرًّا، فتأمّله. فانقطاع نسبته إليه هو الذي صيّره شرًّا[1].

---

(١) أي: أنّا إذا نظرنا للشر المعيّن كالمعصية مثلًا كشرب الخمر أو قتل النفس المعصومة ونحو ذلك فينبغي أن يكون لنظرنا جهتان: الأولى: من جهة أن هذا الأمر مقدّر بقدر الله فهو خير، فالله لا يُقَدّر إلا لحكمة إلهية ربانية فلله تعالى فيه حكمة، سواء علمناها أو لم نعلمها. والثانية: من جهة أن العبد عصى الله تعالى وانتهك حرمته وخالف أمره فهو شر. وبالجملة فأقدار الله خير، ومعاصي العبيد شر.

واعلم أنّ الفعل غير المفعول، فالفعل راجع إلى الله فهو كالصفة له، أما المفعول فهو الأثر عن الفعل، فخلق السماء مثلًا له جهتان: فعل ومفعول، فالفعل هو خلق الله تعالى لها وإيجادها، أما المفعول فهي السماء ذاتها، فلله تعالى أفعال ومفعولات فليس هذا هو ذاك، وقِس على ذلك كالقضاء والمقضي، فالقضاء أمرُه وقدَره، والمقضيُّ هو الأثر لذلك

=

فإن قلت: **لم تنقطعْ نسبتُه إليه خلقًا ومشيئة؟**

قلت: هو من هذه الجهة ليس بشرٍّ، فإنّ وجوده هو المنسوب إليه، فهو من هذه الجهة ليس بشرّ، والشرّ الذي فيه من عدم إمداده بالخير وأسبابه، والعدم ليس بشيء حتى ينسب إلى من بيده الخير.

فإن أردت مزيد إيضاح لذلك فاعلم أن أسباب الخير ثلاثة: الإيجاد والإعداد والإمداد. فهذه هي الخيرات وأسبابها، فإيجاد السبب خير وهو إلى الله، وإعداده خير وهو إليه أيضًا، وإمداده خير وهو إليه أيضًا. فإذا لم يحدث فيه إعداد ولا إمداد حصل فيه الشرّ[1] بسبب هذا العدم الذي ليس إلى الفاعل وإنما إليه ضده.

فإن قلت: **فهلّا أمدّه إذ أوجده؟**

قلت: ما اقتضت الحكمة إيجاده وإمداده فإنه سبحانه يوجده ويمدّه، وما اقتضت الحكمة إيجاده وترك إمداده أوجده بحكمته ولم يمدّه بحكمته. فإيجاده خير، والشر وقع من عدم إمداده.

=

القضاء ملائمًا كان أو غير ملائم، فيجب أن ترضى بالقضاء لأنه أمره ويستحب أن ترضى بالمقضي لأنه خلقه. وبالله التوفيق.

(١) أي: خلّى الله بينه وبين الشر إذْ لم يمدّه بالخير ويوفّقه له.

فإن قلت: **فهلّا أمدّ الموجودات كلها؟**

قلت: فهذا سؤال فاسد، يظن مُورِدُه أن التسوية بين الموجودات أبلغ في الحكمة، وهذا عين الجهل، بل الحكمة كل الحكمة في هذا التفاوت العظيم الواقع بينها، وليس في خلق كل نوع منها تفاوت، فكل نوع منها ليس في خلقه من تفاوت[١]، والتفاوت إنما وقع بأمور عدمية لم يتعلق بها الخلق، وإلا فليس في الخلق من تفاوت. فإن اعتاص ذلك عليك ولم تفهمه حق الفهم فراجع قول القائل:

إذا لم تســـتطعْ شـــيئًا فدعْــــهُ ... وجـــاوزه إلى مــــا تســــتطيعُ

كما ذُكر أن الأصمعي اجتمع بالخليل بن أحمد وحرص على فهم العروض منه فأعياه ذلك، فقال له الخليل يومًا: قطّعْ لي هذا البيت وأنشده: إذا لم تستطع شيئًا.. البيت. ففهم ما أراد[٢]، فأمسك عنه ولم يشتغل به.

---

(١) التفاوت: هو التباين وعدم التناسب. ومقصود المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الحكمة أنها تكون في تناسب الاختلاف، وليس اتّحاد الموجودات على نمط واحد مكرور، فمخلوقات اللهِ تعالى متناسبة متّسقة، واختلافها فيما بينها هو عين الحكمة؛ ليحصل التدافع والتمايز والتكامل والانفعال فيما بينها ونحو ذلك، فكل خلق الله تعالى تامّ كامل لا قصور فيه ولا نقص في أصل الخلقة، وهذا هو الإيجاد، أما تفاوتها فيما بينها ما بين كمال ونقص فهو عائد إلى عدم إمداده بالتوفيق، وهذا العدم عدم، والعدم ليس بشيء، ولا ينسب لأحد، لأنه عدمٌ لا وجود.

(٢) وهذا من لباقة الخليل بن أحمد وحسن خلقه ولطف تأتّيه ولوذعيّة قريحته. مع التنبيه إلى أن الأصمعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ إمام في علومٍ كثيرة منها اللسان والأدب والشعر، ولكنَّ شأن =

وسرّ المسألة: أن الرضا بالله يستلزم الرضا بصفاته وأفعاله وأسمائه وأحكامه، ولا يستلزم الرضا بمفعولاته كلها. بل حقيقة العبودية: أن يوافقه عبده في رضاه وسخطه، فيرضى منها بما يَرضى به، ويسخط منها ما سخطه.

فإن قيل: **فهو سبحانه يرضى عقوبة من يستحق العقوبة، فكيف يمكن العبد أن يرضى بعقوبته له؟**

قيل: لو وافقه في رضاه بعقوبته؛ لانقلبت لذّة وسرورًا، ولكن لا يقع منه ذلك، فإنه لم يوافقه في محبته وطاعته التي هي سرور النفس وقرة العين وحياة القلب، فكيف يوافقه في محبته للعقوبة التي هي أكره شيء إليه وأشق شيء عليه؟! فإنّه لمّا كان كارهًا لما يحبه من طاعته وتوحيده فلن يكون راضيًا بما يختاره من عقوبته.

=

تيسير بعض العلوم لأنواع العقول مدهش عجيب، وسبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم. وقد ذكروا أنّ أبا سعيد الضرير قال لأبي تمام: يا أبا تمام، لم لا تقول ما يُفهم؟ فقال له: يا أبا سعيد، لم لا تفهم ما يُقال؟ وقد نظم المتنبي نحو هذا المعنى فقال:

وكم من عائبٍ قولًا صحيحًا ... وآفته من الفهم السقيمِ

ولكن تأخذ الآذانُ منه ... على قدر القرائحِ والعلومِ

فإن قلت: **فكيف يجتمع الرضا بالقضاء الذي يكرهه العبد من المرض والفقر والألم مع كراهته؟**

قلت: لا تنافي في ذلك، فإنه يرضى به من جهة إفضائه إلى ما يحب، ويكرهه من جهة تألّمه به، كالدواء الكريه الذي يعلم أن فيه شفاءه، فإنه يجتمع فيه رضاه به وكراهته له.

فإن قلت: **كيف يرضى لعبده شيئًا ولا يعينه عليه؟**

قلت: لأن إعانته عليه قد تستلزم فوات محبوب له أعظم من حصول تلك الطاعة التي رضيها له، وقد يكون وقوع تلك الطاعة منه يتضمن مفسدة هي أكرهُ إليه سبحانه من محبته لتلك الطاعة، بحيث يكون وقوعها منه مستلزمًا لمفسدة راجحة ومفوّتًا لمصلحة راجحة[1].

---

(١) ذكر ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن رجلًا من الصالحين كان يلحّ على الله تعالى زمنًا أن يجعله غازيًا في سبيله، ولا يرى إجابة! فبات ليلة مهمومًا وأتاه آتٍ في منامه وقال له: «أي فلان؛ إنك إن غزوت أُسرت، وإن أُسرتَ تنصّرت!». أهـ. صيد الخاطر (١/ ١٧١)

وفي موسوعة ابن أبي الدنيا (١/ ٤٣٣) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «إنّ الرجل ليُشرف على الأمر من التجارة أو الإمارة، حتى يرى أنه قد قَدَرَ عليه، ذكره الله فوق سبع سماوات، فيقول للملك: **«اذهب فاصرف عن عبدي هذا، فإنّي إن أيسِّره له أُدخله جهنّم»**، فيجيءُ الملك فيعوقه فيُصرف عنه، فيظلّ يتطيّر بجيرانه إنّه دهاني فلان، سبقني فلان، وما صَرَفَه عنه إلا الله». وقال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «استخيروا الله ولا تَخَيَّروا عليه، فكم من عبد تخيّر لنفسه أمرًا كان هلاكه فيه! أما رأيتموه سأل ربّه طَرَسُوسَ، فأُعطِيَها فأُسِرَ فصار نَصْرانيًا». ذكره في عيون الأخبار (٢/ ٧٣١).

=

وقد أشار تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [التَّوْبَة: ٤٦ - ٤٧].

فأخبر سبحانه أنه كره انبعاثهم مع رسوله للغزو وهو طاعة وقربة وقد أمرهم به، فلمّا كرهه منهم ثبّطهم عنه، ثم ذكر سبحانه بعض المفاسد التي كانت ستترتب على خروجهم لو خرجوا مع رسول الله ﷺ فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي فسادًا وشرًّا ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ﴾ أي: سعوا فيما بينكم بالفساد والشر، ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾

=

وطرسوس: بلد بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم، وكان المجاهدون والزهاد والصالحون يقصدونه للمرابطة في سبيل الله تعالى لأنه من ثغور المسلمين.

وربَّ مُلِحٍّ على بُغيةٍ ... وفيها مَنِيَّتُه لو شَعَرْ

فالله أرحم بعبده وأعلم وأحكم وأبرُّ وألطف وأرفق سبحانه وبحمده. وفي مسألة الإجابة ثَمّ قضية غاية في الأهمية: وهي أن إجابة الدعاء غير تحقيق الطلب وتحقيق عين السؤال. فالله وكيل على عبده وليس وكيلًا عنه، وبينهما فرق، فالوكيل عنك هو من ينفّذ طلبك كما طلبته، أما الوكيل عليك فهو القائم عليك بما يُصلحك، فإن طلبته وسألته نظر لمصلحتك أوّلًا، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾ [هُود: ١٢] وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البَقَرَة: ٢١٦]. بل تدبر قوله تعالى في المصيبة: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾ [التَّوْبَة: ٥١]، فقال: ﴿لَنَا﴾ ولم يقل: (علينا) لأن مصائب الدنيا في حقيقتها نعم لنا لا علينا لو كنا نعقل، والله المستعان.

[التَّوْبَة : ٤٧] أي: قابلون منهم مستجيبون لهم، فيتولد من بين سعي هؤلاء بالفساد وقبول أولئك منهم من الشرّ ما هو أعظم من مصلحة خروجهم؛ فاقتضت الحكمة والرحمة أن مَنَعَهَم من الخروج وأقعدهم عنه. فاجعل هذا المثال أصلًا لهذا الباب وقس عليه.

فإن قلت: **قد يتصور لي هذا في رضا الرب تعالى لبعض ما يخلقه من وجه وكراهته من وجه آخر، فكيف لي بأن يجتمع الأمران في حقي بالنسبة إلى المعاصي والفسوق؟**

قلت: وهو متصوّر ممكن، بل واقع، فإن العبد يسخط ذلك ويبغضه ويكرهه من حيث هو فعل له بسببه وواقع بكسبه وإرادته واختياره، ويرضى بعلم الله وكتابته ومشيئته وإذنه الكوني فيه، فيرضى بما مِنَ الله ويسخط ما هو منه[1]، فهذا مسلك طائفة من أهل العرفان[2]، وطائفة أخرى رأوا كراهة ذلك مطلقًا وعدم الرضا به من كل وجه. وهؤلاء في الحقيقة لا يخالفون أولئك، فإن العبد إذا كرهها مطلقًا؛ فإن الكراهة إنما تقع على الاعتبار المكروه منها، وهؤلاء لم يكرهوا علم الرب وكتابته ومشيئته وإلزامه حكمه الكوني، وأولئك لم يرضوا بها من الوجه الذي سخطها الرب وأبغضها لأجله. وسرّ المسألة: أن الذي إلى الرب منها غير مكروه، والذي إلى العبد منها هو المكروه والمسخوط.

---

(١) أي: من نفس العبد.

(٢) أي: أهل المعرفة ممن اهتمّوا باستقامة السلوك وصفاء النفوس، واعتنوا كثيرًا بأعمال القلوب حتى عرفوا بذلك.

فإن قلت: **ليس إلى العبد شيء منها.**

قلت: هذا هو الجبر[1] الباطل الذي لا يمكن صاحبه التخلص من هذا المقام الضيّق. والقدري أقرب إلى التخلص منه من الجبري. وأهل السنة المتوسطون بين القدرية والجبرية هم أسعد بالتخلص منه من الفريقين.

فإن قلت: **كيف يتأتّى الندم والتوبة مع شهود الحكمة في التقدير، ومع شهود القيّوميّة والمشيئة النافذة؟**

قلت: هذا الذي أوقع من عميت بصيرته في شهود الأمر على خلاف ما هو عليه، فرأى تلك الأفعال طاعات لموافقته فيها المشيئة والقدر، وقال: إن عصيت أمره فقد أطعت إرادته في ذلك! وقيل:

---

(١) الجبري: هو الذي يزعم أن العبد لا اختيار له البتة في أفعاله وأقواله وإراداته، بل هو كالريشة في مهب الريح، وعلى هذا المذهب الباطل فالعبد عندهم غير مؤاخذ؛ لأنه في النهاية ليس بفعله على الحقيقة.
ويقابله القدري: وهو الذي يزعم أن العبد يخلق فعل نفسه، فيضع نفسه خالقًا مع الله - تعالى الله وتقدس - لذلك وُصفوا بأنهم مجوس الأمة؛ لقولهم بالخالِقَين.
وكلاهما مذهب خبيث باطل، والحق أن الله خالق كل شيء، وأنه لا شيء يخرج عن قدر الله تعالى، وأن الله تعالى قد أعطى العبد قُدرة ومشيئة واختيارًا يحسّه من نفسه ويطيقه بقدرته ويفهمه بعقله، وهذا الاختيار الإرادي للعبد كافٍ وافٍ لأن يحاسبه ربه به على أفعاله وأعماله ومقاصده حسنة كانت أو سيئة، وهو لا يخرج بحال عن قدر الله تعالى.
قال سبحانه: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩﴾ [التَّكوير: ٢٨ - ٢٩].

أصـبحتُ مـنفعلًا لمـا تختـارُه ... منّـى ففعـلى كلـه طاعـات

وهؤلاء أعمى الخلق بصائر، وأجهلهم بالله وأحكامه الدينية والكونية، فإن الطاعة هي موافقة الأمر لا موافقة القدر والمشيئة، ولو كانت موافقة القدر طاعة لله لكان إبليس من أعظم المطيعين لله، وكان قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم فرعون كلهم مطيعين له! فيكون قد عذبهم أشدّ العذاب على طاعته، وانتقم منهم لأجلها، وهذا غاية الجهل بالله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله.

فإن قلت: **ومع ذلك فاجمع لي بين الندم والتوبة، وبين مشهد القيومية والحكمة.**

قلت: العبد إذا شهد عجز نفسه ونفوذ الأقدار فيه وكمال فقره إلى ربه وعدم استغنائه عن عصمته وحفظه طرفة عين؛ كان بالله في هذه الحال لا بنفسه. فوقوع الذنب منه لا يتأتّى في هذه الحال البتّة، فإنّ عليه حصنًا حصينًا من: «**فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي**»[(١)].

---

(١) حديث الولي: «**من عادى لي وليًّا..**» الحديث. رواه البخاري (٦٥٠٢) أما زيادة: «**فبي يسمع..**» الحديث. فليست في البخاري، وقد ذكرها الحافظ في الفتح (١١ / ٣٤٤) نقلًا عن الطوفي، ولم يعزها لأحد. وقد ذكر ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ الحديث بزيادته في الفتاوى (١٨ / ١٢٩ - ١٣١) ولعله وهم في الزيادة، أو أنه قد وقف على رواية أخرى، ثم قال: «هذا حديث شريف، وهو أشرف حديث روي في صفة الأولياء».

فلا يتصور منه الذنب في هذه الحال. فإذا حُجب عن هذا المشهد وسقط إلى وجوده الطبيعي وبقي بنفسه؛ استولى عليه حكم النفس والطبع والهوى، وهذا الوجود الطبيعي قد نصبت فيه الشباك والأشراك، وأرسلت عليه الصيادون، فلابد أن يقع في شبكة من تلك الشباك وشَرَك من تلك الأشراك، وهذا الوجود هو حجاب بينه وبين ربه، فعند ذلك يقع الحجاب ويقوى المُقتضي ويضعف المانع وتشتد الظلمة وتضعف القوى، فأنّى له بالخلاص من تلك الأشراك والشِّبَاك. فإذا انقشع ضباب ذلك الوجود الطبيعي، وإنجاب ظلامه، وزال قتامه، وصرت بربك ذاهبًا عن نفسك وطبعك:

بـدا لـك سرٌّ طـالَ عنـكَ اكتتامُـهُ ... ولاحَ صـبـاحٌ كـان منـك ظلامُـهُ
فـإن غبـتَ عنـه حـلَّ فيـه وطنَّبَـتْ ... على منكِبِ الكشفِ المصونِ خيامُهُ
فأنتَ حجابُ القلب عن سرِّ غَيبِهِ ... ولـولاكَ لم يُطبـعْ عليـه خِتَامُـهُ
وجـاء حـديثٌ لا يُمَـلُّ سـماعُهُ ... شـهيٌّ إلينـا نثـرُهُ ونظامُـهُ
إذا ذَكَرَتْـهُ الـنفسُ زال عناؤهـا ... وزالَ عـن القلـبِ المُعنَّى قتامُـهُ[1]

(١) الأبيات لأبي حامد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقيل: إنها للحلاج وقيل: غيرهما، وقد نسبها العماد الأصبهاني في خريدة القصر وجريدة العصر (٢/ ٤٣٦) للقاضي المرتضى الشهرزوري. ومقصود الأبيات أنه مع العلم النافع الذي يصفّي النفس من كدر الدنيا ومتعلقاتها وشهواتها وشبهاتها؛ تنكشف للقلب معانٍ جميلة من الأنس بالله تعالى =

فهنالك يحضره الندم والتوبة والإنابة، فإنه كان في المعصية بنفسه محجوبًا فيها عن ربه وعن طاعته، فلما فارق ذلك الوجود وصار في وجود آخر بقي بربه لا بنفسه. وإذا عرف هذا فالتوبة والندم يكونان في هذا الوجود الذي هو فيه بربه، وذلك لا ينافي مشهد الحكمة والقيومية، بل يجامعه ويستمد منه، وبالله التوفيق»(١).

وهذه الأحرف من ابن القيم كافية شافية في هذا الباب الشائك والمَورد الشديد والمعترك الصعب والميدان المزدحم، ومجملها ـ بحمد الله تعالى ـ معلوم ظاهر لمن تدبر القرآن العظيم والسنة الشريفة، وسَلِمَ من شبه المتفلسفة والمتكلمة والمتصوفة، والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فَتَذَكَّرُوا الأحبابَ عندَ دُعَائِكُم ... فالحُبُّ بينَ الصَّادِقينَ دُعَاءُ

=
والشوق إليه والتعلق به والاكتفاء به عما سواه، وأشرقت في نواحي نفسه وجوانح قلبه تلك المعاني الطاهرة الجميلة النافعة.

(١) مدارج السالكين (٢ / ١٩١-٢٠٤) باختصار.

«فحجّ آدمُ موسى»

الراضي بالله تعالى لا يتردّد في قبول ماء الوحي الطهور، فيغسل به قلبه، ويشرح به صدره، ويستضيء بنوره، ويسترشد بهُداه، ويُحكِمُ به عقله. هذه جادّة أهل الإيمان والتوفيق والسداد.

وقد يُبتلى المؤمن بطائف من وسواس شيطاني يُعكّر عليه شيئًا من صفائه، ويشوّش عليه بعضًا من جمعيّة قلبه على ربه، ومن بركات الوحي الشريف أن يذهب هذا الوسواس، فما إن يقترب من حِمَى الصدر حتى يضمحلّ ويتبخّر دون أسوار العلم المبنيّة بالدلائل المرفوعة بالبراهين المحروسة بتوفيقِ مَن وَعَدَ - ووعده الحق -: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ١٢٣﴾ [طه: ١٢٣]، لا يضل هنا ولا يشقى هناك، فله الحمد كما ينبغي له.

ومن ذلك ما قد يختلج في قلوب بعض الأخيار من تردُّدٍ في فهم المحاجّة الشهيرة بين النبيّين الكريمين آدم وموسى عليهما السلام، مع أنها واضحة كالشمس لمن تأملها سالمًا من لوثات أهل البدع ابتداءً. قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تعليقه على تلك القصة من احتجاج آدم وموسى عليهما السلام، الذي رواه أبو هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لقي آدم موسى، فقال: أنت آدم الذي خلقك الله بيده، وأسكنك جنته، وأسجد لك ملائكته، ثم صنعت ما صنعت! فقال آدم لموسى: أنت الذي كلّمك الله، وأنزل عليك التوراة؟ قال: نعم، قال: فهل تجده مكتوبًا عليَّ قبل أن أُخلق؟**

قال: نعم، قال: فحجَّ آدمُ موسى، عليهما السلام»(١):«ولكن وجه الحديث أن موسى عليه السلام لم يلم أباه إلا لأجل المصيبة التي لحقتهم من أجل أكله من الشجرة، فقال له: لم أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ لم يلمه لمجرد كونه أذنب ذنبًا وتاب منه، فإن موسى يعلم أن التائب من الذنب لا يُلام وقد تاب منه أيضًا، ولو كان آدم يعتقد رفع الملام عنه لأجل القدر لم يقل: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٣].

والمؤمن مأمور عند المصائب أن يصبر ويسلِّم، وعند الذنوب أن يستغفر ويتوب؛ قال الله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: ٥٥]، فأمره بالصبر على المصائب، والاستغفار من المعائب.

وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١]، قال ابن مسعود: هو الرجل تصيبه المصيبة يعلم أنها من عند الله فيرضى ويُسلِّم(٢).

فالمؤمنون إذا أصابتهم مصيبة مثل المرض والفقر والذل؛ صبروا لحكم الله وإن كان ذلك بسبب ذنب غيرهم، كمن أنفق أبوه ماله في المعاصي؛ فافتقر أولاده لذلك، فعليهم أن يصبروا لما أصابهم، وإذا لاموا الأب لحظوظهم؛ ذَكَرَ لهم القدر»(٣).

---

(١) البخاري ٦/١٢٠(٤٧٣٦) ومسلم ٨/٥١ (٦٨٤١).

(٢) وروي هذا الحرف عن علقمة وهو من خاصة ابن مسعود، وفيما يظهر أنه أخذه منه.

(٣) أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (١ / ٧٨)

ومقصده رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنه يحقّ لوالدهم أن يحتج بالقدر على مصيبة الفقر، وليس له أن يحتج بالقدر على ذنبه، بناء على قصة احتجاج النبيَّين الكريمين عليهما السلام، كما أن ولد هذا الفقير إن لاموه وقد تاب فإنه لا يُشرع لهم لومه على ذنب قد تاب منه، وظهرت أمارات صدق توبته، ولكن قد يكون لهم بعض ملام على المصيبة التي تسبب بها باختياره وإضاعته وفعله وتفريطه وهي الفقر، وإن كان الأفضل لهم ترك ذلك الملام لأنه القدر، وقدر الله ماض، وقضاؤه نافذ، ومن الضياع مدافعة قدر قد مضى وانقضى.

ولم يكن رسول الله ﷺ يلوم على الأقدار، وقال عنه خادمه أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ بعد ذكر خدمته له ـ: «فما قال لي لشيء فعلتُه: لم فعلتَ كذا وكذا، وما قال لي لشيء لم أفعله: ألا فعلت كذا وكذا»(١).

وإنما تُشرع مدافعة القدر في المستقبل ـ وإن كان هذا لا يغيّر ما في اللوح المحفوظ، ولكن مما دُوْنَه كصحف الملائكة ونحوها، والذي يقعُ آخرًا هو ما دوّن في اللوح المحفوظ ـ فدفْعُ القدر بالقدر شريعة ماضية، وجادّة رسوليّة، فمَن قدّرَ الأقدار هو من شرع لنا دفعها بأقدار مقابلة، وقد أتاح لنا مدافعتها وفق شرعه، فتبطشُ الجوارحُ بالأسباب المانعة والرافعة والجالبة بإذن مسببها تبارك وتعالى، ويتعلّق القلب بالله تعالى وحده ويتوكّل عليه ويرضا به وبأقداره حيثما توجّهت به، وأحاطت به، ونزلت عليه، فإن وُفّق لدَرْكِ مقصوده حَمِدَ الله وشكر وصبر على أداء حق شكره قدر طاقته، وإن كانت

(١) أحمد (١٢٧٨٤) والبُخارِي ١٧/٨ (٦٠٣٨) ومسلم ٧٣/٧ (٦٠٧٧).

الأخرى صبر ورضي وحمد وشكر كذلك، لأن الله لا يختار لعبده الصادق إلا ما فيه خيرتُه وصلاحه في عاقبته، وكل قضاء الله تعالى لعبده خير. فعن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«عجبًا للمؤمن لا يقضي الله له شيئًا إلا كان خيرًا له»**(١).

وعن صهيب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«عجبًا لأمر المؤمن، إنّ أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن. إن أصابته سراءُ شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»**(٢).

وقال عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «ما أُبالي على أي حال أصحبت، على ما أحب، أو على ما أكره، لأني لا أدري الخير فيما أُحِبُّ أو فيما أكره»(٣).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما ـ وتأمّل هذا الحرف ـ قال: «إن الرجل ليستخير الله فيختار له، فيتسخّطُ على ربه، فلا يلبث أن ينظر في العاقبة، فإذا هو خير له»(٤).

وكلُّ قدر يكرهه العبد ولا يُلائمه لا يخلو من أمرين: إما أن يكون عقوبة على الذنب، فهو دواء لمرض لولا تدارك الحكيم إياه بالدواء لترامى به المرض

---

(١) أحمد في مسنده (٥ / ٢٤) وجوّد سنده شعيب الأرناؤوط رَحِمَهُٱللَّهُ.

(٢) مسلم (٢٩٩٩).

(٣) موسوعة ابن أبي الدنيا (١/ ٤١٤).

(٤) موسوعة ابن أبي الدنيا ١/ ٤٣٢). وفي رواية: «فإذا هو قد خَارَ له». أي: اختار له ما يصلحه.

إلى الهلاك وأفضى به للعطب. وإما أن يكون سببًا لنعمة لا تُنال إلا بذلك المكروه[١].

والرضا يُفرِّغُ قلب العبد، ويُقلل همّه وغمّه، فيتفرّغ لعبادة ربه بقلب خفيف من أثقال الدنيا، خليّ من همومها، سالٍ عن غمومها[٢].

ومن أمثلة مدافعة القدر بالقدر قصة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع أبي عبيدة والصحابة رضي الله عنهم مع طاعون عمواس[٣] في الشام وهم على مشارِفِه، وقد اختلفوا هل يعودون للمدينة أم يدخلوا الشام، فنادى عمر في الناس بعد المشاورة: إني مُصبحٌ على ظهر، فأصبحوا عليه، فقال أبو عبيدة بن

---

(١) وانظر: حياة السلف، للطيار (١/٤٥٧)

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٥٠٧ – ٥١١) بتصرّف.

(٣) قال الزبيدي في تاج العروس (١٦/ ٢٨٦): عمواس: هكذا قيده غير واحد، وهو بسكون الميم، وأورده الجوهري في «عمس» وقال: طاعون عمواس أول طاعون كان في الإسلام بالشام، ولم يزد على ذلك، وفي «العباب» عمواس: كورة من فلسطين، وأصحاب الحديث يحركون الميم، وإليه ينسب الطاعون، ويضاف فيقال: طاعون عمواس، وكان هذا الطاعون في خلافة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، سنة ثماني عشرة، ومات فيه جماعة من الصحابة، قال: وقرأت في «الروض» للسهيلي عن أبي إسحاق أن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مات في طاعون عمواس، قال: هكذا مقيد في النسخة بسكون الميم، وقال البكري في كتاب «المعجم»: من أسماء البقاع «عمواس» محركة، وهي قرية بالشام، عرف الطاعون بها، لأنه منها بدأ، وقيل: إنما سمي طاعون عمواس لأنه عمّ وآس، أي جعل بعض الناس أسوة بعض. وانظر: معجم البلدان لياقوت (٤/ ١٥٧)، ولسان العرب مادة: «عمس» (٤/ ٣١٠٦).

الجراح: أفرارًا من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها أبو عبيدة! ـ وكان عمر يكره خلافه ـ نعم نَفِرُّ من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت لو كانت لك إبل، فهبطت واديًا له عَدْوتان[1]: إحداهما خصبة، والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟ قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف ـ وكان متغيبًا في بعض حاجاته ـ فقال: إن عندي من هذا علمًا، سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إذا سمعتم به بأرض؛ فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها؛ فلا تخرجوا فرارًا»**، قال: فحمد الله عمر بن الخطاب، ثم انصرف[2].

كذلك ما ورد في شأن فضل الدعاء، وأنه لا يردّ القضاء إلا الدعاء، وأن البلاء والدعاء يعتلجان بين السماء والأرض، وكذلك ما ورد في فضل صلة الرحم من زيادة الرزق والأجل وغير ذلك، والله أعلم.

وقال شيخ الإسلام أيضًا في قصة المحاجّة بين آدم وموسى عليه السلام: «الصواب في قصة آدم وموسى: أن موسى لم يلم آدم إلا من جهة المصيبة التي أصابته وذريته بما فعل، لا لأجل أنّ تارك الأمر مذنب عاص، ولهذا قال: «لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة»؟ ولم يقل: لماذا خالفت الأمر، ولماذا عصيت؟

(١) العَدْوة: جانب الوادي.

(٢) البخاري ٤/٢١٢ (٣٤٧٣)، ومسلم ٧/٢٦ (٢٢١٨) (٩٢).

والناس مأمورون عند المصائب التي تصيبهم بأفعال الناس أو بغير أفعالهم بالتسليم للقدر وشهود الربوبية، كما قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١].. فليس للعباد أنفع من طاعة الله ورسوله وأمره إذا أصابته مصيبة مقدّرة ألا ينظر إلى القدر، ولا يتحسّر بتقدير لا يفيد، ويقول: قدر الله وما شاء فعل. ولا يقول: لو أني فعلت لكان كذا، فيقدّر ما لم يقع يتمنّى أن لو كان وقع! فإن ذلك إنما يورث حسرة وحزنًا لا يفيد. والتسليم للقدر هو الذي ينفعه[١]، كما قال بعضهم: الأمر أمران: أمر فيه حيلة فلا تعجز عنه، وأمر لا حيلة فيه فلا تجزع منه. وما زال أئمة الهدى من الشيوخ وغيرهم يوصون الإنسان بأن يفعل المأمور ويترك المحظور ويصبر على المقدور، وإن كانت تلك المصيبة بسبب فعل آدمي.

فلو أن رجلًا أنفق ماله في المعاصي حتى مات ولم يُخلّف لولده مالًا، أو ظَلَمَ الناس بظلم صاروا لأجله يبغضون أولاده ويحرمونهم ما يعطونه لأمثالهم؛ لكان هذا مصيبة في حق الأولاد حصلت بسبب فعل الأب. فإذا قال أحدهم لأبيه: أنت فعلت بنا هذا. قيل للابن: هذا كان مقدورًا عليكم، وأنتم مأمورون بالصبر على ما يصيبكم، والأب عاص لله فيما فعله من الظلم والتبذير، ملوم على ذلك لا يرتفع عنه ذمّ الله وعقابه بالقدَر السابق؛ فإن كان الأب قد تاب توبة نصوحًا وتاب الله عليه وغفر له [٢] لم يجز ذمّه ولا لومه

---

(١) قال الإمام إبراهيم الحربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أجمع عقلاء كل أمة أنّ من لم يَجرِ مع القدر لم يتهنّ بعيشه». البداية والنهاية لابن كثير (١١ / ٧٩).

(٢) ووجه الشاهد بالعلم بتوبة الله هنا أن الله تعالى أخبرنا بتوبته على آدم عليه السلام.

بحال، لا من جهة حقّ الله؛ فإنّ الله قد غفر له، ولا من جهة المصيبة التي حصلت لغيره بفعله، إذ لم يكن هو ظالمًا لأولئك، فإن تلك كانت مقدّرة عليهم.

وهذا مثال قصة آدم: فإن آدم لم يظلم أولاده، بل إنما وُلدوا بعد هبوطه من الجنة، وإنما هبط آدم وحواء ولم يكن معهما ولد حتى يقال: إن ذنبهما تعدّى إلى ولدهما[1]. ثم بعد هبوطهما إلى الأرض جاءت الأولاد، فلم يكن آدم قد

---

(١) وهذه المُسَلَّمَة الواضحة واليقينية القطعية قد عكسها النصارى الضالون فبنوا عقيدتهم عليها، فقالوا بالخطيئة الأزلية والفداء الإلهي، ويعنون أن آدم عصى ربه فكتب الهلاك عليه وعلى ذريته كلهم، وأن كل ذريته خطاةٌ هالكون بسبب خطيئة والدهم الأزلية! لكن الرب (ويسمونه الأب والآب تعالى وتقدس سبحانه) ويزعمون أن لله تعالى ابنًا بزعمهم وظلمهم وشناعتهم وضلالتهم، تعالى الله أن يكون له صاحبة ولا ولد ولا شريك، وأنه افتدا خطيئة آدم الأزلية بإهباط ابنه ووحيده عيسى (ويسمونه الابن ويسوع وجيسس) وأنه سلّمه لأعدائه اليهود الذين صلبوه على الخشبة، وطعنوه بالرمح، وتركه لهم ليقتلوه، فهو بزعمهم قد قتل ابنه شفقة على بني آدم، فافتدى من ليس لهم ذنب بمن ليس له ذنب على ذنب قد تاب منه صاحبه!

ويعتقدون أنّ من آمن بهذا المعتقد (الوثني الضال) فهو مع الإله الابن في ملكوت الجنة، ومن كفر به كان من الكافرين الهالكين. وقالوا بالتثليث وهو ما يسمونه بالأقانيم الثلاثة: الآب والابن والروح القدس، وأن كل واحد منها إله مستقل بذاته وفي نفس الوقت فكلها مظاهر إله واحد! تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا. إلى آخر استجرار الشيطان لهم، فصار الضلال طابعهم إلى يوم الدين، حتى ينزل المسيح عليه السلام فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ولا يقبل إلا الإسلام، ويبرأ لله تعالى من كل =

ظلم أولاده ظلمًا يستحقون به ملامه. وكونهم صاروا في الدنيا دون الجنة أمرٌ كان مقدّرًا عليهم لا يستحقون به لوم آدم، وذنب آدم كان قد تاب منه، قال الله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه: ١٢١ - ١٢٢]، وقال: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البَقَرَة: ٣٧] فلم يبق مستحقًّا لذمّ ولا عقاب.

وموسى كان أعلم من أن يلومه لحقّ الله على ذنب قد علم أنه تاب منه، فموسى أيضًا قد تاب من ذنب عمله، وقد قال موسى: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأعراف: ١٥٥]، وآدم أعلم من أن يحتج بالقدر على أن المذنب لا ملام عليه، فكيف وقد علم أن إبليس قد لعنه الله بسبب ذنبه، وهو أيضًا كان مقدّرًا عليه، وآدم قد تاب من الذنب واستغفر، فلو كان الاحتجاج بالقدر نافعًا له عند ربه لاحتج ولم يتب ويستغفر.

وأيضًا فلو كان الاحتجاج بالقدر نافعًا له؛ فلماذا أخرج من الجنة وأهبط إلى الأرض؟ فإن قيل: هو قد تاب، فلماذا بعد التوبة أهبط إلى الأرض؟ قيل: التوبة قد يكون من تمامها عملٌ صالح يعمله فيُبتلى بعد التوبة ليُنظَرَ دوام طاعته، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ

=

من عبده وأشركه مع الله تعالى. والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت سل ربنا بالحق. ﴿هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ١ - ٤]. وللمزيد انظر سلسلة: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾ للمؤلف.

رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ [آل عِمۡرَان: ٨٩]، في التائب من الردة، وقال في كاتم العلم: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ [البَقَرَة: ١٦٠] وقال: ﴿أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٤﴾﴾ [الأَنۡعَام: ٥٤] وقال في القذف: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٨٩﴾﴾ [آل عِمۡرَان: ٨٩].

ولـمّا تاب كعب بن مالك وصاحباه أمر رسو ل الله ﷺ المسلمين بهجرهم حتى نسائهم ثمانين ليلة، وقال النبي ﷺ في الغامدية لـمّا رجمها: **«لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له، وهل وَجَدَتْ أفضل من أن جادت بنفسها لله»** (١). وقد أخبر الله عن توبته على بني إسرائيل حيث قال لهم موسى: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ﴾ [البَقَرَة: ٥٤].

وإذا كان الله تعالى قد يبتلي العبد بالحسنات والسيئات والسرّاء والضرّاء بما يحصل معه شكره وصبره، أم كفره وجزعه، وطاعته أم معصيته؛ فالتائب أحق بالابتلاء. فآدم أهبط إلى الأرض ابتلاء له، ووفقه الله في هبوطه لطاعته، فكان حاله بعد الهبوط خيرًا من حاله قبل الهبوط، وهذا بخلاف ما لو كان الاحتجاج بالقدر نافعًا له، فإنه لا يكون عليه ملام البتّة، ولا هناك توبة تقتضي أن يُبتلى صاحبُها ببلاء.

---

(١) مسلم (١٦٩٦).

وأيضًا؛ فإن الله قد أخبر في كتابه بعقوبات الكفار مثل قوم نوح وهود وصالح وقوم لوط وأصحاب مدين وفرعون وقومه ما يعرف بكل واحدة من هذه الوقائع ألّا حُجّة لأحد في القدر. وأيضًا؛ فقد شرع الله من عقوبة المحاربين من الكفار وأهل القبلة وقتل المرتد وعقوبة الزاني والسارق والشارب ما فصّل.

فقد تبين أن آدم حجّ موسى لمّا قصد موسى أن يلوم من كان سببًا في مصيبتهم. وبهذا جاء الكتاب والسنة، قال الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التَّغَابُن: ١١]، وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الحَدِيد: ٢٢].

وسواء في ذلك المصائب السمائية والمصائب التي تحصل بأفعال الآدميين، قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾﴾ [المُزَّمِّل: ١٠]، ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأَنْعَام: ٣٤]، وقال في سورة الطور بعد قوله: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الطُّور: ٢٩ - ٣١]، إلى قوله: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾ [الطُّور: ٤٨]، وقال تعالى في سورة (ن): ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [القَلَم: ٤٦ - ٤٨]. وقد قيل في معناه:

اصبر لما يُحكَمُ به عليك، وقيل: أصبر على أذاهم لقضاء ربك الذي هو آت، والأول أصح.

وحكم الله نوعان: خلق وأمر: فالأول: ما يقدّره من المصائب، والثاني: ما يأمر به وينهى عنه. والعبد مأمور بالصبر على هذا وعلى هذا، فعليه أن يصبر لِمَا أُمر به ولِمَا نُهي عنه، فيفعل المأمور ويترك المحظور، وعليه أن يصبر لِمَا قدّره الله عليه»[(١)]. وجماعُ ذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ١٤٩﴾ [الأنعام: ١٤٩].

والعبد لا يخلو من ابتلاء وفتنة تُظهر خبيئته وتجلو إيمانه، والسعيد هو من عافاه الله وسلّمه وحفظه، ولم يخذله بأن يكله لنفسه أو خلقه، فقد روى أبو داود[(٢)] عن المقداد بن الأسود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: وأيم الله لقد سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«إنّ السعيد لَمَن جُنِّبَ الفتن، إنّ السعيد لمن جنّب الفتن، إنّ السعيد لمن جنّب الفتن، ولمن ابتُلي فصبر فواها»**.

وتأمل هذا الكلام المخيف لشيخ الإسلام، فقد بيّن أنّ على المؤمن ألا يأمن مكر الله تعالى وأن يسأله الهدى والسلامة والحفظ والعافية، وألّا يكله إلى نفسه طرفة عين، وأن العافية لا يعدلها شيء، وأن ضعيف الإيمان خير له ألا يُبتلى حتى لا يذهب دينه فيهلك، وأنه لو عوفي من الامتحان لكان على سبيل نجاة، لكن الامتحان صار سببًا لهلاكه نسأل الله السلامة والعافية، قال

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٣٠٣- ٣٢٥) بانتقاء واختصار.

(٢) السنن (٤ / ١٦٤) (٤٢٦٥) وصححه الألباني.

رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «عامّة الناس إذا أسلموا بعد كفر أو ولدوا على الإسلام والتزموا شرائعه وكانوا من أهل الطاعة لله ورسوله فهم مسلمون، ومعهم إيمان مجمل. ولكن دخول حقيقة الإيمان إلى قلوبهم إنما يحصل شيئًا فشيئًا إن أعطاهم الله ذلك، وإلا فكثير من الناس لا يصِلُون لا إلى اليقين، ولا إلى الجهاد، ولو شُكِّكُوا لشكوا! ولو أُمِرُوا بالجهاد لما جاهدوا! وليسوا كفارًا ولا منافقين، بل ليس عندهم من علم القلب ومعرفته ويقينه ما يدرأ الريب، ولا عندهم من قوة الحب لله ولرسوله ما يقدمونه على الأهل والمال.

وهؤلاء إن عوفوا من المحنة وماتوا دخلوا الجنة. وإن ابتلوا بمن يورد عليهم شبهات توجب ريبهم؛ فإن لم ينعم الله عليهم بما يزيل الريب؛ وإلا صاروا مرتابين، وانتقلوا إلى نوع من النفاق. وكذلك إذا تعيّن عليهم الجهاد ولم يجاهدوا كانوا من أهل الوعيد.

ولهذا لما قدم النبي ﷺ المدينة أسلم عامّة أهلها، فلما جاءت المحنة والابتلاء نافق من نافق. فلو مات هؤلاء قبل الامتحان لماتوا على الإسلام ودخلوا الجنة، ولم يكونوا من المؤمنين حقًّا الذين ابتلوا فظهر صدقهم، قالَ تَعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العَنكَبُوت: ١-٣] وقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عِمرَان: ١٧٩] وقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ

حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [الحج: ١١]».(١)

فلا تكن ـ حرسك الله ـ ممن يعبد الله على حرف، كحال ذلك الأعرابي الذي يقيس صلاح الدين بصلاح دنياه، فإن نَتَجَتْ ناقتُه وفرسه وصحّ بدنُهُ فالدين عنده خير، وإلّا ارتدّ على عقبيه كفقراءِ يَهُود، خَسِرَ الدنيا والآخرة.

وعلى العبد الراضي ألا يغفل عن سلاح المؤمن بحالٍ وهو الدُّعاء، وبخاصة في مواطن الفتن والبلاء، فالمؤمن مع الذكر والدعاء كالسمكة في الماء، والله تعالى يقول: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غَافِر: ٦٠]، فهلمّ املأ يديك من عطايا ومواهب الكريم الوهاب الرزاق سبحانه، واستدفعْ بلاءات الدين الدنيا بدعائه تبارك وتعالى، فعن سلمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللهِ ﷺ: **«لا يَرُدُّ القَضاءَ إلّا الدُّعاءُ، ولا يَزِيدُ فِي العُمْرِ إلّا البِرُّ»**.(٢)

فالقضاء والقدر على قسمين:

الأول: المُبرَمُ، وهو الذي قد فُرِغ منه، فهذا لا يتغيّر، وهو المكتوب في اللوح المحفوظ، فلا يَعلمه أحد إلّا الله تعالى، والذي لا يتغيَّر ولا يتبدَّل.

---

(١) الإيمان لابن تيمية (١/٢١٣).

(٢) أحمد (٢٢٣٨٦) والترمذي (٢١٣٩) وابن ماجه (٩٠) وقال الألباني: حسن. وقال الأرناؤوط: حسن لغيره. وقال ابن باز: لا بأس به. وروي وعند أحمد وابن ماجه بزيادة ضعفها الألباني والأرناؤوط: **«وإنَّ العَبْدَ لَيُحرَمُ الرِّزقَ بالذَّنبِ يُصِيبُه»**.

والثاني: المعلَّق، وهو الذي في صُحف الملائكة التي تَنزل بالأقدار، وهو الذي يتغيَّر ويتبدَّل ويُمحى بإذن الله تعالى وحكمته، قال سبحانه: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ٣٩﴾ [الرَّعْد : ٣٩]. فقضاء معلّق على أسباب، والدعاء من أعظم الأسباب لجلب الخير ودفع الشر.

والقَدَرُ المكتوب في اللوح المحفوظ هو قضاء مُبرمٌ لا يتغيّر بحال، أمّا ما سواه ممّا في صحف الملائكة وليلة القدر والتقدير العمري والسنوي واليومي ونحوه فهذه مقادير معلّقة يدخلها التغيير عند وجود أسبابها التي قضاها الله تعالى كالدعاء والبرّ وصلة الرحم ونحو ذلك ممّا ثبت في القرآن والسنة من المحو والإثبات وزيادة العمر والرزق ونحو ذلك.

ووراء هذا القَدَر المُعلّق حكم هائلة يقوم عليها ناموس الكون والتكليف، فكل الأسباب المذكورة من كونها مؤثرة بإذن الله تعالى في المقادير المُعلّقة هي من قبيل التكاليف الشرعية المحبوبة إلى الله تعالى، فعاد الأمر بالأوامر الشرعية إلى تأثيرها في الأقدار الكونية غير المبرمة من جهة، وإلى وجودها أصلًا في القدر المُبرم المحفوظ، فالله تعالى يعلم ما سيكون مما سيختاره عبده المكلّف الذي هداه النجدين.

فما عُلّق به سببٌ فحقيقته لن تتغيّر أصلًا؛ لأنه قد كُتب في المحفوظ وجود ذلك السبب أو عدمه، ومن ثمّ حصول المُسَبَّب الذي عُلّق بالسبب وجودًا وعدمًا.

فالأمر كما تشاهد مرتبط ببعضه، وإذا فهمته فهمت على أثره كتابة مصير الإنسان في اللوح المحفوظ، ثمّ تعليق ذلك المصير بأفعال الإنسان المستأنفة في

حياته التي تطابق ما كُتب في اللوح المحفوظ، فهو يسعى في الحياة بإرادته واختياره موافقًا للقَدَر المُبرم في اللوح، فأعماله الصالحة ـ ومنها الدعاء والصلة ـ وكذلك السيئة هي أسباب عُلّق بها مصيره. فيظهر حينها علمُ الله تعالى في الشهادة مطابقًا لعلمه في الغيب، وهذا العلم الشهودي هو الذي أقام الله تعالى به حجته على عباده، فهو لا يعذب أحدًا حتى تقوم عليه الحجة الرسالية ويعمل الخطيئة عالمًا مختارًا، ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ٤٢﴾ [الأنفال: ٤٢].

وهذا من رحمته تبارك وتعالى، ولو عذّبه على ما سبق من علمه لم يكُ ظالمًا، ولكن الله تعالى يحبّ العذر، بل لا أحد أحب إليه العذر منه، كما روى مسلم(١) رَحِمَهُ ٱللَّهُ من حديث ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال: **«وليسَ أحَدٌ أحَبَّ إليهِ العُذْرُ مِنَ اللهِ، مِن أجلِ ذَلِكَ أنزلَ الكتابَ وأرْسَلَ الرُّسُلَ»**، وقال الله تعالى: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٦٥﴾ [النِّسَاء: ١٦٥].

وما سوى ذلك من هذا الباب فهو من أسرار القدر المطويّة عنا، فليسَ لأحدٍ على الله حُجَّة، ومن خَاصَمَ غُلِب، وليغْلَبَنَّ مُغالِبُ الغَلَّاب، ﴿وَكُلّٗا ضَرَبۡنَا لَهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَۖ وَكُلّٗا تَبَّرۡنَا تَتۡبِيرٗا ٣٩﴾ [الفُرْقَان: ٣٩]. وبالله التوفيق.

(١) مسلم (٦٨٢١).

وقال ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حديث: **«لا يزيد في العمر إلا البر، ولا يرد القدر إلا الدعاء»**(١): «الحديث لا بأس به، ومعناه أن الدعاء من أسباب عدم وقوع المكروه، والله تعالى قدّر الأقدار، وجعل لها أسبابًا، فهناك أقدار ماضية لا حيلة فيها، كالموت، والهرم، ونحو ذلك. وهناك أقدارٌ لها أسباب مرتّبة معلّقة عليها، فهذا معلّق موته بالسفر إلى كذا، وهذا معلّق موته بمرض كذا، وهذا معلّق موته بأكل كذا، وهذا معلّق موته بكذا وكذا، لها أسباب معلقة، وهذا معلّق موته بأنه إذا دعا بكذا؛ سلم من كذا، وإذا دعا بكذا؛ سلم من كذا، فلهذا جاء في الحديث أنه: **«لا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر، وأن العبد يحرم الرزق بالذنب يصيبه»**، كل هذا جاءت به الأحاديث عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».(٢)

وقال العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قول السائل: هل الدعاء يرد القضاء؟ فجوابه: أنّ الدعاء من الأسباب التي يحصل بها المدعوّ، وهو في الواقع يردّ القضاء ولا يردّ القضاء؛ يعني له جهتان، فمثلًا هذا المريض قد يدعو الله تعالى بالشفاء فيُشفى، فهنا لولا هذا الدعاء لبقي مريضًا، لكن بالدعاء شُفي، إلا أننا نقول: إن الله سبحانه وتعالى قد قضى بأن هذا المرض يُشفى منه المريض بواسطة الدعاء، فهذا هو المكتوب، فصار الدعاءُ يرد القدرَ ظاهريًّا، حيث إن الإنسان يظن أنه لولا الدعاء لبقي المرض، ولكنه في الحقيقة لا يردّ القضاء؛ لأن

---

(١) ابن ماجه في السنن (٤٠٢٢) وحسنه السيوطي وابن باز والألباني والأرناؤوط.
(٢) انظر: فتاوى نور على الدرب لابن باز (٤/٢٥٥).

الأصل أنّ الدعاء مكتوب، وأنّ الشفاء سيكون بهذا الدعاء، هذا هو القدر الأصلي الذي كتب في الأزل، وهكذا كل شيء مقرون بسبب فإنّ هذا السبب جعله الله تعالى سببًا يحصل به الشيء، وقد كتب ذلك في الأزل من قبل أن يحدث». أهـ.[1]

فعلى المؤمن ألا يترك الدعاء النافع بخير دينه ودنياه، وأن يلحّ على ربه بصلاح العقبى وسلامة المنقلب وحسن الختام، فعن أبي عثمان النهدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنّ عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ كانَ يَطُوفُ بِالبَيتِ وهُوَ يَبكِي، ويقول: «اللَّهُمَّ إنْ كُنْتَ كَتَبْتَني فِي أهْلِ السَّعادَةِ فَأَثْبِتْنِي بها، وإنْ كُنْتَ كَتَبْتَني فِي أهْلِ الشَّقاوَةِ والذَّنْبِ فامْحُنِي وأَثْبِتْنِي فِي أهْلِ السَّعادَةِ والمَغْفِرَةِ؛ فَإِنَّكَ تَمْحُو ما تَشاءُ وتُثْبِتُ وعِنْدَكَ أُمُّ الكِتابِ»[2].

وكان ابنُ مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ يقولُ: «اللَّهُمَّ إنْ كُنْتَ كَتَبْتَني فِي السُّعَداءِ فَأَثْبِتْنِي فِيهِمْ، وإنْ كُنْتَ كَتَبْتَنِي فِي الأشْقِياءِ فامْحُنِي مِنَ الأشْقِياءِ واكْتُبْنِي فِي السُّعَداءِ؛ فَإِنَّكَ تَمْحُو ما تَشاءُ وتُثْبِتُ»[3].

وقد سئل شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًاۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ ۝٢﴾ [الأنعام: ٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ

(١) مجموع فتاوي ورسائل العثيمين (٢/ ٩٣).

(٢) تفسير الطبري (١٣/ ٥٦٤)، وصححه الألباني في الضعيفة (١١/ ٧٦٤) بالمتابعة.

(٣) تفسير الطبري (١٣/ ٥٦٤)، وصححه الألباني في الضعيفة (١١/ ٧٦٤) بمجموع طرقه.

﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ [فَاطِر: ١١]، وقوله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ٣٩﴾ [الرَّعْد: ٣٩]. هل المَحْوُ والإثبات في اللوح المحفوظ والكتاب الذي جاء في الصحيح: «**إنَّ الله تعالى كَتب كتابًا فهو عنده على عرشه**.. الحديث»[(١)]. وقد جاء: «**جفَّ القلمُ**»[(٢)].فما معنى ذلك في المحو والإثبات؟ وهل شُرِع في الدعاء أن يقول: اللّهم إن كنت كتبتني كذا؛ فامحني واكتبني كذا، فإنك قلت: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرَّعْد: ٣٩]؟ وهل صحّ أنّ عمر كان يدعو بمثل هذا؟ وهل الصحيح عندكم أنّ العُمرَ يزيد بصلة الرحم كما جاء في الحديث؟ أفتونا مأجورين.

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الحمد لله رب العالمين، أما قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ [الأَنْعَام: ٢]، فالأجلُ الأوّلُ: هو أجَلُ كلِّ عبد الذي ينقضي به عمره، والأجلُ المُسّمّى عنده هو: أجلُ القيامة العامة. ولهذا قال: ﴿مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾. فإنّ وقت الساعة لا يعلمه ملك مقرّبٌ ولا نبيٌّ مرسل، كما قال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأَعْرَاف: ١٨٧]، بخلاف ما إذا قال: ﴿مُّسَمًّى﴾ كقوله: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [البَقَرَة: ٢٨٢]، إذْ لم يقيّد بأنه مسمّى عنده، فقد يعرفه العباد. وأمّا أجلُ الموت فهذا تعرفه الملائكة الذين يكتبون رزق العبد وأجله وعمله

---

(١) البخاري (١٣/٥٢٢) (٧٥٥٤) ومسلم (٤/٢١٠٧) (٢٧٥١) بلفظ: «**إنّ الله كتب كتابًا قبل أن يخلق الخلق: إنّ رحمتي سبقت غضبي، فهو مكتوب عنده فوق العرش**».

(٢) أحمد (٢/١٧٦) (٦٦٤٤) والحاكم (١ / ٣٠) وقال: صحيح. ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في الصحيحة (١٠٧٦).

وشقيّ أو سعيد. كما قال في الصحيحين عن ابن مسعود قال: حدّثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «**إنّ أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون عَلَقَةً مثل ذلك، ثم يكون مُضْغَةً مثل ذلك، ثم يُبعثُ إليه الملَك، فيُؤمرُ بأربع كلمات فيقال: اكتب رزقه وأجله وعمله وشقيّ أو سعيد. ثم ينفخ فيه الروح**»(١). فهذا الأجل الذي هو أجل الموت قد يُعلمه الله لمن شاء من عباده. وأما أجل القيامة المسمى عنده فلا يعلمه إلا هو.

وأما قوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ [فَاطِر: ١١]، فقد قيل: إنّ المراد الجنس، أي: ما يُعمّر من عمر إنسان ولا ينقص من عمر إنسان. ثم التعمير والتقصير يُرادُ به شيئان: أحدهما: أنّ هذا يطول عمره وهذا يقصر عمره، فيكون تقصيره نقصًا له بالنسبة إلى غيره، كما أنّ التعمير زيادة بالنسبة إلى آخر. وقد يُراد بالنقص: النقص من العمر المكتوب، كما يراد بالزيادة: الزيادة في العمر المكتوب. وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَن سرَّهُ أن يُبسَطَ له في رزقه، ويُنْسَأ له في أثره؛ فليصِلْ رحمَهُ**»(٢). وقد قال بعض الناس: إنّ المراد به: البركةُ في العمر، بأن يعمل في الزمن القصير ما لا يعمله غيره إلا في الكثير. قالوا: لأنّ الرزق والأجل مقدّران مكتوبان. فيُقال لهؤلاء: تلك البركة، وهي الزيادة في العمل والنفع هي أيضًا مُقدّرةٌ مكتوبة، وتتناول لجميع الأشياء.

---

(١) البخاري ٩/١٦٥ (٧٤٥٤) ومسلم ٨/٤٤ (٢٦٤٣).

(٢) البخاري ٣/٧٣ (٢٠٦٧)، ومسلم ٨/٨ (٢٥٥٧) (٢١).

والجواب المُحقّق: أنّ الله يكتب للعبد أجلًا في صحف الملائكة، فإذا وَصَلَ رحمه زاد في ذلك المكتوب، وإن عمل ما يوجب النقص نُقِصَ من ذلك المكتوب. ونظيرُ هذا ما في الترمذي وغيره عن النبي ﷺ **«أنّ آدم لما طلب من الله أن يريه صورة الأنبياء من ذريته، فأراهُ إيّاهم. فرأى فيهم رجلًا له بصيصٌ، فقال: من هذا يا رب؟ فقال: ابنك داود. قال: فكم عمره؟ قال: أربعون سنة. قال: وكم عمري؟ قال: ألف سنة. قال: فقد وهبتُ له من عمري ستين سنة. فكتب عليه كتابًا وشهدت عليه الملائكة. فلما حضرته الوفاةُ قال: قد بقي من عمري ستون سنة. قالوا: وهبتَهَا لابنك داود. فأنكر ذلك، فأخرَجُوا الكتاب. قال النبي ﷺ: فنسيَ آدمُ فنسيت ذريته، وجحد آدم فجحدت ذريته»**[1]. وروي أنه كمل لآدم عمره، ولداود عمره[1]. فهذا داود

---

(١) الترمذي (٣٠٧٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني. وأخرجه أبو يعلى (٦٦٥٤) وصححه حسين سليم أسد. ولفظ الترمذي: **«لما خلق الله آدم مَسَحَ ظهرَهُ؛ فسقط من ظهره كلُّ نسمة هو خالقُها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كلِّ إنسان منهم وَبِيصًا من نور. ثم عرَضَهم على آدم. فقال: أيْ ربِّ؛ مَن هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك. فرأى رجلًا منهم فأعجبَهُ وبيصُ ما بين عينيه. فقال: أي رب؛ مَن هذا؟ فقال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود. فقال: ربِّ؛ كم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة. قال: أي ربِّ؛ زده من عمري أربعين سنة. فلمّا قضي عمر آدم جاءه ملك الموت. فقال: أوَلَمْ يبقَ من عمري أربعون سنة؟ قال: أولم تعطِهَا ابنك داود؟! قال: فجحد آدم؛ فجحدت ذريته، ونسي آدم؛ فنسيت ذريته، وخطِئ آدم؛ فخطئت ذريته»**. قال أبو عيسى: «هذا حديث حسن صحيح، وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ».

كان عمره المكتوب أربعين سنة ثم جعله ستين. وهذا معنى ما رُوي عن عمر أنه قال: «اللّهم إن كنتَ كتبتني شقيًّا فامحُنِي واكتبني سعيدًا، فإنك تمحو ما تشاء وتثبتُ». والله سبحانه عالم بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون؛ فهو يعلم ما كتبه له، وما يزيده إياه بعد ذلك، والملائكة لا علم لهم إلا ما علّمهم الله، والله يعلم الأشياء قبل كونها وبعد كونها.

فلهذا قال العلماء: إنّ المَحْوَ والإثباتَ في صحف الملائكة، وأمّا علم الله سبحانه فلا يَختلف، ولا يبدو له ما لم يكن عالمًا به، فلا محو فيه ولا إثبات. وأمّا اللوح المحفوظ فهل فيه محو وإثبات على قولين. والله سبحانه وتعالى أعلم»[٢]. وبالله التوفيق.

لَجَاجَةُ قلبٍ ما يُفيق غُرورُها ... وحاجةُ نفسٍ ليس يُقضَى يسيرُها

وعينٌ إلى الأطلالِ تُزجِي سحابَها ... إذا لوعةُ الأحشاءِ هبَّ زفيرُها

=

(١) هذه الرواية في مسند أحمد (١/ ٢٩٨) (٢٧١٣) ومصنف ابن أبي شيبة (١٧/٧) والسنن الكبرى للبيهقي (٢٤٧/١٠)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النّبِي ﷺ قال: **«كانَ عُمْرُ آدَمَ أَلْفَ سَنَةٍ، وكانَ عُمْرُ داوُدَ سِتِّينَ سَنَةً، فَقالَ آدَمُ: أَيْ رَبِّ زِدْهُ مِن عُمْرِي أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَأَكْمَلَ لِآدَمَ أَلْفَ سَنَةٍ وأَكْمَلَ لِداوُدَ مِئَةَ سَنَةٍ»**. قال الهيثمي (٢٠٦/٨): «رواه أحمد والطبراني. وفيه علي بن زيد. وضعفه الجمهور، وبقية رجاله ثقات».

(٢) مجموع الفتاوى (١٤ / ٤٨٩-٤٩٢).

أكلّفها هطلًا على كلِّ منزلٍ ... فلو أنها أرضٌ لغارت بُحورُها

وما تجمع العينُ التوسُّمَ والبكا ... فهل تعرفانِ مقلةً أستعيرُها

وقفنا صفوفًا في الديار كأنها ... صحائفُ ملقاةٌ ونحن سطورُها

اللّهم اجعلنا جميعا من الصابرين الراضين الشاكرين الحامدين، إله الحق آمين.

شروطُ الرِّضا بالله تعالى

لا يكون الرضا مشكورًا إلا بعد استيفاء شروطه، فليست الأماني والدعاوى كافية في تحصيله، بل لا بد من مكابدته واحتماله وتقبّله حتى يكون رضًا صادقًا، وحينها تكون ثمرته اليانعة التلذّذ به وذوق حلاوة الإيمان به.

وإن الشرط العام بإطلاق للعبادات هو الإخلاص، لأنه داخل في كل عبادة قلبيّة كانت أو جارحيّة أو ماليّة، فقل لمن لا يخلص: لا تتعب. أما الشرط العام للرضا فهو أن يكون القلب ساكنًا مطمئنًّا لتدبير الله له، وكل ما عداه من الشروط فهي منبثقة منه وعائدة إليه.

وقد اجتهد بعض أهل العلم في تحديد الشروط بعد تأملهم هذه العبادة القلبية الجليلة، وقد قصدوا بالشروط: أن الرضا لا يكون رضًا في الحقيقة إلا إذا استوفاها، فعادت الشروط التي قيدوها راجعة لتصوّرهم حقيقة الرضا، وهذا في حقيقته الحدّ والتعريف، بمعنى أن من قام في قلبه الرضا فهو راضٍ، وعلى قدر تحصيله يكون وجوده، ومِن ثمّ ثمرته وثوابه. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرحه لكلام الهروي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شروط الرضا وقوله: «ويصح بثلاثة شرائط: باستواء الحالات عند العبد، وسقوط الخصومة مع الخلق، والخلاص من المسألة والإلحاح». قال: «يعني أن الرضا عن الله إنما يتحقق بهذه الأمور الثلاثة، فإن الراضي الموافق تستوي عنده الحالات من النعمة والبليّة في رضاه بحسن اختيار الله له، وليس المراد استواؤها عنده في ملاءمته ومنافرته، فإن

هذا خلاف الطبع البشري، بل خلاف الطبع الحيواني[1]. وليس المراد أيضًا استواء الحالات عنده في الطاعة والمعصية، فإن هذا مناف للعبودية من كل وجه، وإنما تستوي النعمة والبليّة عنده في الرضا بهما لوجوه:

أحدها: أنه مُفوِّض، والمفوض راض بكل ما اختاره له مَن فوّض إليه، ولا سيما إذا علم كمال حكمته ورحمته ولطفه وحسن اختياره له.

الثاني: أنه جازم بأنه لا تبديل لكلمات الله، ولا راد لحكمه، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. فهو يعلم أن كلًّا من البلية والنعمة بقضاء سابق وقدر حتم.

الثالث: أنه عبد محض، والعبد المحض لا يسخط جريان أحكام سيده المشفق البار الناصح المحسن، بل يتلقاها كلها بالرضا به وعنه.

الرابع: أنه محب، والمحب الصادق هو من رضي بما يعامله به حبيبه.

الخامس: أنه جاهل بعواقب الأمور وسيّدُه أعلم بمصلحته وبما ينفعه.

السادس: أنه لا يريد مصلحة نفسه من كل وجه، ولو عرف أسبابها فهو جاهل ظالم، وربه تعالى يريد مصلحته ويسوق إليه أسبابها، ومن أعظم أسبابها: ما يكرهه العبد، فإن مصلحته فيما يكره أضعافُ أضعافِ مصلحته فيما يحب، قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا

---

(١) لاشتراك الإنسان مع أمم الحيوان في الإحساس المريح بالملائم المُسعد وبالكريه للمنافر المؤلم.

وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البَقَرَة: ٢١٦]. وقال تعالى: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النِّسَاء: ١٩].

السابع: أنه مُسْلِم، والمسلم من قد سَلَّم نفسه لله، ولم يعترض عليه في جريان أحكامه عليه، ولم يسخط ذلك.

الثامن: أنه عارفٌ بربه، حَسَنُ الظن به، لا يتّهمه فيما يجريه عليه من أقضيته وأقداره. فحُسن ظنه به يوجب له استواء الحالات عنده، ورضاه بما يختاره له سيده سبحانه.

التاسع: أنه يعلم أن حظه من المقدور ما يتلقاه به من رضا وسخط فلا بد له منه، فإن رضي فله الرضا وإن سخط فله السخط.

العاشر: علمه بأنه إذا رضي انقلب في حقه نعمة ومنحة، وخفّ عليه حمله، وأُعين عليه، وإذا سخطه تضاعف عليه ثقله وكَلُّه، ولم يزدد إلا شدة، فلو أن السخط يجدي عليه شيئًا لكان له فيه راحة أنفع له من الرضا به.

ونكتة المسألة: إيمانه بأن قضاء الرب تعالى خير له، كما قال النبي ﷺ: **«والذي نفسي بيده؛ لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرًا له، إن أصابته سراءُ شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وليس ذلك إلا للمؤمن»**(١).

(١) صححه الألباني في تخريج شرح الطحاوية لابن أبي العز (١ / ١٦٣) (١٦٣) والصحيحة (١٤٧). وأصله في صحيح مسلم (٨/ ٢٢٧) (٢٩٩٩) وأحمد (٤/ =

الحادي عشر: أن يعلم أن تمام عبوديته في جريان ما يكرهه من الأحكام عليه، ولو لم يجر عليه منها إلا ما يحب لكان أبعد شيء عن عبودية ربه، فلا تتم له عبوديته من الصبر والتوكل والرضا والتضرع والافتقار والذل والخضوع وغيرها إلا بجريان القدر له بما يكرهه. وليس الشأن في الرضا بالقضاء الملائم للطبيعة، إنما الشأن في القضاء المؤلم المنافر للطبع.

الثاني عشر: أن يعلم أن رضاه عن ربه سبحانه وتعالى في جميع الحالات يثمر رضا ربه عنه، فإذا رضي عنه بالقليل من الرزق رضي ربه عنه بالقليل من العمل، وإذا رضي عنه في جميع الحالات واستوت عنده وجده أسرع شيء إلى رضاه إذا ترضّاه وتملّقه.

الثالث عشر: أن يعلم أن أعظم راحته وسروره ونعيمه في الرضا عن ربه تعالى وتقدس في جميع الحالات، فإن الرضا باب الله الأعظم ومستراح العارفين وجنة الدنيا، فجدير بمن نصح نفسه أن تشتد رغبته فيه، وألا يستبدل بغيره منه.

=

٣٣٢، ٣٣٣، ٦/ ١٥): **«عجبًا لأمر المؤمن، إنّ أمره كله خير، وليس ذلك لأحد...»** الحديث. وفي رواية لأحمد: بينما رسول الله ﷺ مع أصحابه إذ ضحك فقال: **«ألا تسألوني مِمَّ أضحك؟»** قالوا: يا رسول الله ومم تضحك؟ قال: **«عجبتُ لأمر المؤمن...»** الحديث، (١٨٩٣٩) وسنده على شرط مسلم.

الرابع عشر: أن السخط باب الهم والغم والحزن وشتات القلب وكسف البال وسوء الحال والظن بالله خلاف ما هو أهله، والرضا يخلّصه من ذلك كله، ويفتح له باب جنة الدنيا قبل جنة الآخرة.

الخامس عشر: أن الرضا يوجب له الطمأنينة وبرْد القلب وسكونه وقراره، والسخط يوجب اضطراب قلبه وريبته وانزعاجه وعدم قراره.

السادس عشر: أن الرضا ينزل عليه السكينة التي لا أنفع له منها، ومتى نزلت عليه السكينة استقام وصلحت أحواله وصلح باله، والسخط يبعده منها بحسب قلّته وكثرته. وإذا ترحّلت عنه السكينة ترحّل عنه السرور والأمن والدعة والراحة وطيب العيش. فمِن أعظم نعم الله على عبده تنزُّل السكينة عليه، ومن أعظم أسبابها الرضا عنه في جميع الحالات.

السابع عشر: أن الرضا يفتح له باب السلامة، فيجعل قلبه سليمًا نقيًّا من الغش والدغل والغل[1]، ولا ينجو من عذاب الله إلا من أتى الله بقلب سليم. كذلك وتستحيل سلامة القلب مع السخط وعدم الرضا، وكلما كان العبد أشدّ رضًا كان قلبه أسلم، فالخَبَث والدغل والغش قرين السخط، وسلامة القلب وبِرّه ونصحه قرين الرضا. وكذلك الحسد هو من ثمرات السخط، وسلامة القلب منه من ثمرات الرضا.

---

(١) قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من أعظم خبث القلوب أن يكون في قلب العبد غلٌّ لخيار المؤمنين». منهاج السنة (١/ ٢٢)

الثامن عشر: أن السخط يوجب تلوّن العبد وعدم ثباته مع الله، فإنه لا يرضى إلا بما يلائم طبعه ونفسه، والمقادير تجري دائمًا بما يلائمه وبما لا يلائمه، وكلّما جرى عليه منها ما لا يلائمه أسخطه، فلا تثبت له قدم على العبودية، فإذا رضي عن ربه في جميع الحالات استقرّت قدمه في مقام العبودية، فلا يُزيل التلوّن عن العبد شيء مثل الرضا.

التاسع عشر: أن السخط يفتح عليه باب الشك في الله وقضائه وقدره وحكمته وعلمه، فقلَّ أن يسلمَ الساخطُ من شكّ يداخل قلبه ويتغلغل فيه وإن كان لا يشعر به، فلو فتّش نفسه غاية التفتيش لوجد يقينه معلولًا مدخولًا، فإن الرضا واليقين أَخَوان مصطحبان، والشك والسخط قرينان، وهذا معنى الحديث الذي في الترمذي أو غيره: «**إن استطعت أن تعمل بالرضا مع اليقين فافعل، فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكرهُ خيرًا كثيرًا**»[1].

العشرون: أن الرضا بالمقدور من سعادة ابن آدم، وسخطه من شقاوته، كما في المسند والترمذي من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مِن سعادة ابن آدم استخارة الله عز وجل، ومن سعادة ابن**

---

(١) الترمذي (٢٥١٦) وأحمد (٢٨٧/٤) وصححه أحمد شاكر. والأرناؤوط (٢٨٠٣) وقال: «حديث صحيح، وهذا الحديث رواه أحمد عن شيخه أبي عبد الرحمن عبد الله بن يزيد المقرئ بثلاثة أسانيد، الأخير منها متصل، والأول والثاني فيهما انقطاع». وصححه القرطبي في التفسير (٣٣٥/٨) وقال ابن رجب في الجامع (٤٥٩/١): حسن جيد. وقال ابن تيمية في التوسل (٥٢): «حديث معروف مشهور».

آدم رضاه بما قضى الله، ومن شقوة ابن آدم سخطه بما قضى الله، ومن شقاوة ابن آدم ترك استخارة الله»[(١)].

الحادي والعشرون: أن الرضا يوجب له ألا يأسى على ما فاته ولا يفرح بما آتاه، وذلك من أفضل الإيمان، أما عدم أساه على الفائت فظاهر، وأما عدم فرحه بما آتاه فلأنه يعلم أن المصيبة فيه مكتوبة من قبل حصوله، فكيف يفرح بشيء يعلم أن له فيه مصيبة منتظرة ولا بد[(٢)].

---

(١) أحمد (١٤٤٤) والترمذي (٢١٥١) وضعفه محققو المسند والألباني في السلسلة (١٩٠٦) لأنه من طريق محمد بن أبي حميد إبراهيم الأنصاري الزرقي، متفق على ضعفه. ومعنى الحديث صحيح.

(٢) ربما قصد الشيخ أنه ما من شيء من متاع الدنيا إلا وهو زائل، وما من حبيب إلا ومفارق، وليس مقصوده تقديم أَلَم المصيبة قبلها، ولو بعدم سروره بنعمة الله تعالى عليه، فليس هذا من شكر المُنعم، ولأن فيه نوعٌ من سوء الظن وقَدْرٌ من سوداوية، فالمقصود بالذم هنا ـ والله أعلم ـ هو فرح البطر، إما من جهة نفسه فيكون فرحًا كثيرًا زائدًا بدنيا مزاحمة للآخرة، أو من جهة ثمرته فيكون فرحًا غير مصحوب بشكر الله. قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره (٨ / ٢٧) عند قول الله تعالى: ﴿لَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ [الحديد: ٢٣]: «أي: لا تفخروا على الناس بما أنعم الله به عليكم، فإن ذلك ليس بسعيكم ولا كدّكم، وإنما هو عن قدر الله ورزقه لكم، فلا تتخذوا نعم الله أشرًا وبطرًا، تفخرون بها على الناس؛ ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ٢٣﴾ [الحديد: ٢٣] أي: مختال في نفسه متكبر فخور، أي: على غيره. وقال عكرمة: ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن، ولكن اجعلوا الفَرَح شكرًا والحزن صبرًا».

الثاني والعشرون: أن من ملأ قلبه من الرضا بالقدر؛ ملأ الله صدره غنًى وأمنًا وقناعة، وفرّغ قلبه لمحبته والإنابة إليه والتوكل عليه، ومن فاته حظّه من الرضا؛ امتلأ قلبه بضد ذلك، واشتغل عما فيه سعادته وفلاحه. فالرضا يفرّغ القلب لله، والسخط يفرغ القلب من الله.

الثالث والعشرون: أن الرضا يثمر الشكر الذي هو من أعلى مقامات الإيمان، بل هو حقيقة الإيمان، والسخط يثمر ضده وهو كفر النعم، وربما أثمر له كفر المُنعِم، فإذا رضي العبد عن ربه في جميع الحالات أوجب له ذلك شكره، فيكون من الراضين الشاكرين، وإذا فاته الرضا كان من الساخطين، وسلك سبيل الكافرين.

الرابع والعشرون: أن الرضا ينفي عنه آفات الحرص والكَلَبَ(١) على الدنيا، وذلك رأس كل خطيئة وأصل كل بلية وأساس كل رزية، فرضاه عن ربه في جميع الحالات ينفي عنه مادة هذه الآفات.

الخامس والعشرون: أن الشيطان إنما يظفر بالإنسان غالبًا عند السخط والشهوة، فهناك يصطاده، ولا سيّما إذا استحكم سخطه فإنه يقول ما لا يرضي الرب ويفعل ما لا يرضيه وينوي ما لا يرضيه، ولهذا قال النبي ﷺ عند موت ابنه إبراهيم: «**إنّ العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون**»(٢).

---

(١) من التكالب، وهو المنازعة بشدة لتحصيل الشيء.

(٢) البخاري ١٠٥/٢ (١٣٠٣)، ومسلم ٧٦/٧ (٢٣١٥) (٦٢)

فإن موت البنين من العوارض التي توجب للعبد السخط على القدر، فأخبر النبي ﷺ أنه لا يقول في مثل هذا المقام الذي يسخطه أكثر الناس، فيتكلمون بما لا يرضي الله ويفعلون مالا يرضيه إلا ما يرضي ربه تبارك وتعالى، ولهذا لما مات ابن الفضيل بن عياض رؤي في الجنازة ضاحكًا فقيل له: أتضحك وقد مات ابنك؟ فقال: إن الله قضى بقضاء فأحببت أن أرضى بقضائه. فأنكرتْ طائفة هذه المقالة على الفضيل وقالوا: رسول الله ﷺ بكى يوم مات ابنه، وأخبر أن القلب يحزن والعين تدمع وهو في أعلى مقامات الرضا، فكيف يعدّ هذا من مناقب الفضيل؟

والتحقيق: أن قلب رسول الله ﷺ اتسع لتكميل جميع المراتب من الرضا عن الله والبكاء رحمة للصبي، فكان له مقام الرضا ومقام الرحمة ورقّة القلب، والفضيل لم يتسع قلبه لمقام الرضا ومقام الرحمة، فلم يجتمع له الأمران، والناس في ذلك على أربع مراتب:

أحدها: من اجتمع له الرضا بالقضاء ورحمة الطفل، فدمعت عيناه رحمة والقلب راض.

الثاني: من غيّبه الرضا عن الرحمة، فلم يتّسع للأمرين، بل غيّبه أحدهما عن الآخر.

الثالث: من غيّبته الرحمة والرقّة عن الرضا فلم يشهده، بل فني عن الرضا[١].

الرابع: من لا رضا عنده ولا رحمة، وإنما يكون حزنه لفوات حظّه من الميت، وهذا حال أكثر الخلق! فلا إحسان ولا رضًا عن الرحمن، والله المستعان.

فالأول في أعلى مراتب الرضا، والثاني دونه، والثالث دون الثاني، والرابع هو الساخط[٢].

السادس والعشرون: أن الرضا هو اختيار ما اختاره الله لعبده، والسخط كراهة ما اختاره الله له، وهذا نوع محادّة فلا يتخلص منه إلا بالرضا عن الله في جميع الحالات.

السابع والعشرون: أن الرضا يُخرج الهوى من القلب، فالراضي هواه تبع لمراد ربه منه، أعني المراد الذي يحبه ربه ويرضاه، فلا يجتمع الرضا واتّباع الهوى في القلب أبدًا، وإن كان معه شعبة من هذا وشعبة من هذا فهو للغالب عليه منهما.

---

(١) ولا يعني هذا تسخّطه، ولكنه لم يستحضر رضًا ولا سخطًا لاستيلاء مشهد الرحمة على قلبه، فلم يتسع لغيرها.

(٢) وقال ابن القيم أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المدارج (٢ / ١٧٨): «الرضا ثلاثة أقسام: رضا العوام بما قسمه الله وأعطاه، ورضا الخواص بما قدّره وقضاه، ورضا خواص الخواص به بدلًا من كل ما سواه».

الثامن والعشرون: أن الرضا عن الله في جميع الحالات يثمر للعبد رضا الله عنه كما تقدم بيانه في الرضا به، فإن الجزاء من جنس العمل وفي أثر إسرائيلي: أن موسى سأل ربه عز وجل: ما يدني من رضاه؟ فقال: «إن رضايَ في رضاك بقضائي»[1].

التاسع والعشرون: أن الرضا بالقضاء أشقّ شيء على النفس، بل هو ذبحها في الحقيقة، فإنه مخالفةُ هواها وطبعها وإرادتها، ولا تصير مطمئنة قط حتى ترضى بالقضاء، فحينئذ تستحق أن يقال لها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرۡضِيَّةً ٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠﴾ [الفَجر: ٢٧ - ٣٠].

الثلاثون: أنّ الراضي متلقٍّ أوامر ربه الدينية والقدرية بالانشراح والتسليم وطيب النفس والاستسلام، والساخط يتلقّاها بضد ذلك إلا ما وافق طبعه وإرادته منها، وقد بينّا أن الرضا بذلك لا ينفعه ولا يثاب عليه؛ فإنه لم يرض به لكون الله قدّره وقضاه وأمر به، وإنما رضي به لموافقته هواه وطبعه، فهو إنّما رضي لنفسه وعن نفسه لا بربه عن ربه.

الحادي والثلاثون: أن المخالفات كلها أصلها من عدم الرضا، والطاعات كلها أصلها من الرضا، وهذا إنما يعرفه حق المعرفة من عرف صفات نفسه وما يتولد عنها من الطاعات والمعاصي.

---

(١) ذكره الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الإحياء (٦ / ٤٣١)

الثاني والثلاثون: أن عدم الرضا يفتح باب البدعة، والرضا يغلق عنه ذلك الباب، ولو تأمّلتَ بدع الروافض والنواصب والخوارج لرأيتها ناشئة من عدم الرضا بالحكم الكوني أو الديني أو كليهما.

الثالث والثلاثون: أن الرضا معْقِدُ نظام الدين ظاهره وباطنه، فإن القضايا لا تخلو من خمسة أنواع: فتنقسم قسمين: دينية وكونية، وهي مأمورات ومنهيات ومباحات، ونعمٌ مُلَذَّةٌ وبلايا مؤلمة، فإذا استعمل العبد الرضا في ذلك كله فقد أخذ بالحظ الوافر من الإسلام، وفاز بالقدح المُعَلَّى.

الرابع والثلاثون: أن الرضا يُخلّص العبد من مخاصمة الرب تعالى في أحكامه وأقضيته، فإن السخط عليه مخاصمة له فيما لم يرض به العبد. وأصل مخاصمة إبليس لربه من عدم رضاه بأقضيته وأحكامه الدينية والكونية، فلو رضي لم يُمسخ من الحقيقة الملَكيّة إلى الحقيقة الشيطانية الإبليسية[١].

الخامس والثلاثون: أن جميع ما في الكون أوجبته مشيئة الله وحكمته وملكه، فهو مُوجَبُ أسمائه وصفاته، فمن لم يرض بما رضي به ربُّه؛ لم يرض بأسمائه وصفاته؛ فلم يرض به ربًّا.

السادس والثلاثون: أن كل قدر يكرهه العبد ولا يلائمه لا يخلو: إما أن يكون عقوبة على الذنب، فهو دواء لمرض لولا تدارك الحكيم إيّاه بالدواء لترامي به المرض إلى الهلاك، أو يكون سببًا لنعمة لا تُنال إلا بذلك المكروه، فالمكروه ينقطع ويتلاشى، وما يترتب عليه من النعمة دائم لا ينقطع، فإذا

---

(١) فقد رجع الرجيم لأصله الشيطاني لمّا ابتُلي.

شهد العبد هذين الأمرين انفتح له باب الرضا عن ربه في كل ما يقضيه له ويقدّره.

السابع والثلاثون: أن حُكْمَ الرب تعالى ماضٍ في عبده وقضاؤه عدل فيه، كما في الحديث: **«ماضٍ فيّ حُكمك، عدلٌ فيّ قضاؤك»**(١).

ومن لم يرض بالعدل فهو من أهل الظلم والجور، وقوله: **«عدل في قضاؤك»** يعم قضاء الذنب وقضاء أثره وعقوبته، فإن الأمرين من قضائه عز وجل، وهو أعدل العادلين في قضائه بالذنب وفي قضائه بعقوبته.

أما عدله في العقوبة فظاهر، وأما عدله في قضائه بالذنب فلأن الذنب عقوبة على غفلته عن ربه وإعراض قلبه عنه، فإنه إذا غفل قلبه عن ربه ووليّه ونقص إخلاصه استحق أن يُضرب بهذه العقوبة، لأن قلوب الغافلين معدن الذنوب، والعقوبات واردة عليها من كل جهة، وإلا فمع كمال الإخلاص والذكر والإقبال على الله سبحانه وتعالى وذكره يستحيل صدور الذنب كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤﴾ [يُوسُف: ٢٤].

---

(١) أحمد (٣٧١٢) وضعفه محققوه من جهة الجهالة بأبي سلمة الجهني، وأنه راوٍ آخر غير أبي موسى الجهني. وصححه أحمد شاكر، وكان الأرناؤوط قد صححه في تخريج ابن حبان ثم تراجع عنه هنا، وصححه ابن القيم في إعلام الموقعين (١/ ١٥٠) وصححه الألباني في الصحيحة (١٩٩) وقال: «ليس في الرواة من اسمه موسى الجهني إلا موسى بن عبد الله الجهني، وهو الذي يكنى بأبي سلمة، وهو ثقة من رجال مسلم».

فإن قلت: **قضاؤه على عبده بإعراضه عنه ونسيانه إياه وعدم إخلاصه عقوبة على ماذا؟**

قلت: هذا طبع النفس وشأنها، فهو سبحانه إذا لم يُرد الخير بعبده خلّى بينه وبين نفسه وطبعه وهواه، وذلك يقتضي أثرها من الغفلة والنسيان وعدم الإخلاص واتّباع الهوى(١)، وهذه الأسباب تقتضي آثارها من الآلام وفوات الخيرات واللذات كاقتضاء سائر الأسباب لمسبباتها وآثارها.

---

(١) هناك ملحظ دقيق خطير، لا بد أن يتنبه له كل من يُعنى بالحديث في هذا الموضوع، لأنه يشتبه بمسألة خلق أفعال العباد، فمعنى كلام المصنف وشيخه هنا وهناك بأنّ الشرّ طبع النفس وشأنها وأنّ الشرّ ليس إلى الله تعالى كما في الحديث، وإنّما الخير هو بإمداد الله لها به؛ فكلّ هذا لا يعني بحال أنّ النفس تخلق صفاتها، بل إنّ الله تعالى هو الذي خلقها بهذه الصفة، ثم جعلها مفتقرة للخير، فإن شاء ربُّها أمدَّها به، وإن شاء خذلها وتركها نهبًا لطبعها الظالم الجاهل كما قال سبحانه: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ٧٢﴾ [الأَحْزَاب: ٧٢]، فهي في الأصل قالَبٌ فارغٌ له معدنٌ كامن، فإن أمدَّهُ خالقُهُ بلطفه ومعونته وهداه استضاء وصلح وسعد، فإن تركه على أصل طبعه تناهبته معادن الشرِّ الكامنة فيه من الجهل والظلم، ويجمعهما عدم الخير أو نقصه بقدر نقص الإمداد، فالنفس كالأرض اليباب التي إن أغاثها الله بوابل مبارك حَيَت وازدانت كلأً وعشبًا وزهرًا وخيرًا، وإن تركها بقيت كاسدة ميتة لا خير فيها.

وكل شيء خلقٌ لله تعالى كما قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرَّعْد: ١٦]، وهذا منسحبٌ على كل شرّ في الوجود، ويتّضح لك ذلك بتأمل خلق الله تعالى لإبليس، فهو مَنْ خلقه للنار أصلًا، ثم ركّب فيه أدوات التكليف من العلم والإرادة والقدرة، ثم خذله، وكذلك الحال في الكفرة الفجرة، فعُدَّهُمْ في نهاية الأمر كصخرةٍ في النار كلّفها =

فإن قلت: **فهلّا خلقه على غير تلك الصفة؟**

قلت: هذا سؤال فاسد، ومضمونه: هلّا خلقه مَلَكًا لا إنسانًا؟

=

لحكمته البالغة، وكتب نهايتها في النار عدلًا تامًّا، فقد خلق الله للجنة أهلها وللنار أهلها، وأعطى كلّا منهما علمًا وإرادة وقدرة، ثم كلّفهم بما يطيقون من العلوم والأعمال، وجعل لهم مشيئة خاصة بهم، يُحسُّون ويشعرون بها، وينفعلون ويفعلون بها، ويتحرّكون بها، وهي تحت مظلّة مشيئة الله تعالى وقضائه وقدَره لا تخرج عن ذلك، فلا إله إلا الله ما أعزّه وأعظمه وأكبره وأغناه وأقْدَره، وما أشدَّ خوف العالِمِين به، وما أعظم فَرَقهم منه وخشيتهم له وحياءهم منه، ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فَاطِر : ٢٨]، وحق لهم ذلك، فإنه مالك الملك ومدبر الأمر وله العزة والبطش والقهر، ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ٢٣﴾ [الأَنبِيَاء : ٢٣].

ويكفيك أن تعلم أنّ أعلم الناس به وأحبّهم إليه وأعلمهم بصفات رحمته وعفوه ومغفرته ولطفه ورفقه كان أخوف الناس منه وأشدّهم خشية له وحياء منه؛ لأنه كان أعلمهم به وبصفات جلاله وجبروته وسطوته وعزّته وغضبه وعقابه وانتقامه، قال ﷺ: **«والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله عز وجل، وأعلمكم بما أتقّي»**. رواه مسلم (١١١٠) فنسأل الله تعالى برحمته التي وسعت كل شيء أن يرحمنا، فإن رحمته أرجى من أعمالنا، ومغفرته أوسع من ذنوبنا، ونستغفره ونتوب إليه فهو أهل التقوى وأهل المغفرة، وهو الغفور الرحيم.

فإن التبس عليك الأمر يومًا؛ فسلّم لحكمته وعلمه ورحمته ومشيئته، فالخلق خلقُه والحكم حكمُه والأمرُ أمره، واهتف لنفسك: ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ٢٣﴾ [الأَنبِيَاء : ٢٣].

فإن قلت: **فهلّا أعطاه التوفيق الذي يتخلّص به من شرّ نفسه وظلمةِ طبعه؟**

قلت: مضمون هذا السؤال: هلّا سوّى بين جميع خلقه؟ ولِمَ خلق المتضادات والمختلفات؟ وهذا من أفسد الأسئلة، وقد تقدم بيان اقتضاء حكمته وربوبيته وملكه لخلق ذلك.

الثامن والثلاثون: أن عدم الرضا إما أن يكون لفوات ما أخطأه مما يحبه ويريده، وإما لإصابة ما يكرهه ويسخطه، فإذا تيقّن أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه وما أصابه لم يكن ليخطئه فلا فائدة في سخطه بعد ذلك إلا فوات ما ينفعه وحصول ما يضره.

التاسع والثلاثون: أن الرضا من أعمال القلوب نظير الجهاد من أعمال الجوارح، فإن كل واحد منهما ذروة سنام الإيمان، قال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ذروة سنام الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر».

الأربعون: أن أول معصية عُصي الله بها في هذا العالم إنما نشأت من عدم الرضا، فإبليس لم يرض بحكم الله الذي حكم به كونًا من تفضيل آدم وتكريمه، ولا بحكمه الديني من أمره بالسجود لآدم، وآدم لم يرض بما أبيح له من الجنة حتى ضمّ إليه الأكل من شجرة الحِمَى، ثم ترتبت معاصي الذرية على عدم الصبر وعدم الرضا.

الحادي والأربعون: أن الراضي واقف مع اختيار الله له، معرِضٌ عن اختياره لنفسه، وهذا من قوة معرفته بربه تعالى ومعرفته بنفسه.

وقد اجتمع وهيب بن الورد وسفيان الثوري ويوسف بن أسباط فقال الثوري: قد كنت أكره موت الفجاءة قبل اليوم، وأما اليوم فوددت أني ميت! فقال له يوسف بن أسباط: ولم؟ فقال: لِمَا أتخوّف من الفتنة(١).

فقال يوسف: لكني لا أكره طول البقاء، فقال الثوري: ولم تكره الموت؟ قال: لعلّي أصادف يومًا أتوب فيه وأعمل صالحًا. فقيل لوهيب: أي شيء تقول أنت؟ فقال: أنا لا أختار شيئًا، أَحَبُّ ذلك إليّ أحبُّه إلى الله. فقبّل الثوري بين عينيه وقال: روحانية ورب الكعبة(٢)! فهذا حال عبد قد استوت عنده حالة الحياة والموت، وقف مع اختيار الله له منهما، وقد كان وهيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ له المقام العالي من الرضا وغيره(٣).

---

(١) فللخوف من الفتنة شأنه وأحكامه.

(٢) لعله قصد بالروحانية أنها من صفات أهل الرَّوْح والريحان من المقربين لله تعالى المبشرين برضوانه، كما في آخر سورة الواقعة، أو من صفاء الروح بدوام الطاعة والذكر والفكر ونقائها قدر طاقتها من لوث الخطايا ورجس المعاصي وكدر الغفلات.

(٣) وهيب بن الورد بن أبي الورد القرشي، أبو عثمان، ويقال: أبو أمية المكي، مولى بني مخزوم، واسمه عبد الوهاب، ووهيب لقب. وكان ابن المبارك يقول: ما جلست إلى رجل أنفع مجالسة من وهيب بن الورد. وعن سفيان بن عيينة عن وهيب بن الورد قال: بينا أنا واقف في بطن الوادي إذا أنا برجل قد اخذ بمنكبي فقال يا وهيب خف الله لقدرته عليك واستحيي منه لقربه منك قال فالتفت فلم أر أحدًا.

وعن زهير بن عباد قال: كان فضيل بن عياض ووهيب بن الورد وعبد الله بن المبارك جلوسًا فذكروا الرطب، فقال وهيب: أو قد جاء الرطب؟ فقال عبد الله بن المبارك: رحمك الله، هذا آخره، أَوَ لم تأكله؟ قال: لا، قال: ولم؟ قال وهيب: بلغني أن عامة أجنّةِ

=

الثاني والأربعون: أن يعلم أن منع الله سبحانه وتعالى لعبده المؤمن المحب عطاء وابتلاءه إياه عافية. قال سفيان الثوري[(١)]: «منعه عطاء، وذلك أنه لم يمنع عن بخل ولا عدم، وإنما نظر في خير عبده المؤمن فمنعه اختيارًا وحسن نظر». وهذا كما قال، فإنه سبحانه لا يقضي لعبده المؤمن قضاء إلا كان خيرًا له، ساءه ذلك القضاء أو سرّه، فقضاؤه لعبده المؤمن المنعَ عطاءٌ وإن كان في

=

مكة ـ أي: جنانها وهي البساتين ـ من الصوافي والقطائع فكرهتُها ـ أي: أنه لا يستحلّ الأكل من ثمار بساتينها الصوافي، وهي: الأراضي التي أخذت من الكفار فاستصفاها الخليفة له، وقد يضعها في بيت المال، وتسمّى كذلك: القطائع وتسمى الآن الإقطاعات؛ لأن الخليفة كان يوزع بعضها إقطاعات على من يشاء من المقربين له ـ فقال عبد الله بن المبارك: يرحمك الله؛ أوليس قد رخّص في الشراء من السوق إذا لم تعرف الصوافي والقطائع منه، وإلا ضاق على الناس خبزهم، أو ليس عامّة ما يأتي من قمح مصر إنما هو من الصوافي والقطائع، ولا أحسبك تستغني عن القمح، فسهِّلْ عليك! قال: فصُعق. قال فضيل لعبد الله: ما صنعت بالرجل؟ فقال ابن المبارك: ما علمتُ أن كل هذا الخوف قد أعطيَه! ـ ولاحظ كيف اختار الإمام لفظ العطاء، لعلمهم أن الخوف من الله تعالى هو محض الكرامة الإلهية واللطف الرباني والنعمة الجليلة ـ.

قال: فلما أفاق وهيب قال: يا ابن المبارك، دعني من ترخيصك، لا جرم لا آكل من القمح إلا كما يأكل المضطر من الميتة. فزعموا انه نحل جسمه حتى مات هزلًا. وكان سفيان الثوري إذا جاء الناس في المسجد الحرام وفرغ قال: قوموا إلى الطبيب. يعني وهيبًا. وانظر: صفة الصفوة لابن الجوزي (١/ ٤٢٠).

(١) الأشهر أنها لشيبان الراعي، وهو عابد معاصر لسفيان، وقد روي أنه قد وجه هذا الكلام لسفيان، رحمهما الله، فربّما نقله عنه سفيان فنُسبت له لشهرته.

صورة المنعِ، ونعمة وإن كانت في صورة محنة، وبلاؤه عافية وإن كان في صورة بليّة، ولكن لجهل العبد وظلمه لا يعدُّ العطاء والنعمة والعافية إلا ما التذّ به في العاجل وكان ملائمًا لطبعه، ولو رزق من المعرفة حظًّا وافرًا لعدّ المنعَ نعمةً والبلاءَ رحمةً، وتلذذ بالبلاء أكثر من لذته بالعافية، وتلذذ بالفقر أكثر من لذته بالغنى، وكان في حال القلّة أعظم شكرًا من حال الكثرة، وهذه كانت حال السلف.

فالعاقل الراضي من يعدّ البلاء عافية والمنع نعمة والفقر غنى. وأوحى الله إلى بعض أنبيائه: «إذا رأيتَ الفقر مقبلًا فقل: مرحبًا بشعار الصالحين، وإذا رأيت الغنى مقبلًا فقل: ذنبٌ عجّلت عقوبته»(١).

فالراضي: هو الذي يعدّ نعم الله عليه فيما يكرهه أكثر وأعظم من نعمه عليه فيما يحبه، كما قال بعض العارفين: «يا ابن آدم؛ نعمة الله عليك فيما تكره أعظم من نعمته عليك فيما تحب».

وقد قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البَقَرَةِ: ٢١٦]، وقد قال بعض العارفين: «ارض عن الله في جميع ما يفعله بك، فإنه ما منعك

---

(١) ذكره في المغني عن حمل الأسفار (٢ / ١٠٨٦) عن أبي منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية مكحول عن أبي الدرداء مرفوعًا ولم يسمع منه، ورواه أبو نعيم في الحلية من قول كعب الأحبار غير مرفوع بإسناد ضعيف. وهو في كنز العمال (١٦٦٥١/٦) وعلى كل حال فهو من أحاديث بني إسرائيل التي يستأنس بها اعتبارًا واتّعاظًا لا تصديقًا ولا تكذيبًا.

إلا ليعطيك، ولا ابتلاك إلا ليعافيك، ولا أمرضك إلا ليشفيك، ولا أماتك إلا ليحييك، فإيّاك أن تفارق الرضا عنه طرفة عين فتسقط من عينه».

الثالث والأربعون: أن يعلم أنه سبحانه هو الأول قبل كل شيء، والآخر بعد كل شيء، والمظهر لكل شيء، والمالك لكل شيء، وهو الذي يخلق ما يشاء ويختار، وليس للعبد أن يختار عليه، وليس لأحد معه اختيار، ولا يُشرك في حكمه أحدًا، والعبد لم يكن شيئًا مذكورًا، فهو سبحانه الذي اختار وجودَه، واختار أن يكون كما قدّره له وقضاه من عافية وبلاء وغنى وفقر وعز وذل ونباهة وخمول، فكما تفرّد سبحانه بالخلق تفرد بالاختيار والتدبير، وليس للعبد شيء من ذلك، فإن الأمر كله لله، وقد قال تعالى لنبيه: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾ [آل عِمۡرَان: ١٢٨] فإذا تيقّن العبد أن الأمر كله لله، وليس له من الأمر قليل ولا كثير؛ لم يكن له معوَّلٌ بعد ذلك غير الرضا بمواقع الأقدار، وما يَجري به من ربه الاختيار.

الرابع والأربعون: أن رضا الله عن العبد أكبر من الجنة وما فيها، لأن الرضا صفة الله والجنة خلقه، قال الله تعالى: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ [التَّوۡبَة: ٧٢] بعد قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٧٢﴾ [التَّوۡبَة: ٧٢] وهذا الرضا جزاء على رضاهم عنه في الدنيا، ولما كان هذا الجزاء أفضل الجزاء كان سببه أفضل الأعمال.

الخامس والأربعون: أن العبد إذا رضي به وعنه في جميع الحالات لم يتخيّر عليه المسائل، وأغناه رضاه بما يقسمه له ويقدره ويفعله به عن ذلك، وجعل

ذكره في محل سؤاله، بل يكون من سؤاله له الإعانة على ذكره وبلوغ رضاه، فهذا يُعطَى أفضل ما يعطاه سائل، كما جاء في الحديث: **«من شغله ذكرى عن مسألتي؛ أعطيتُه أفضلَ ما أعطي السائلين»**[١]. فإن السائلين سألوه فأعطاهم الفضل الذي سألوه، والراضون رضوا عنه فأعطاهم رضاه عنهم. ولا يمنع الرضا سؤاله أسباب الرضا، بل أصحابه ملحّون في سؤاله ذلك.

السادس والأربعون: أن النبي ﷺ كان يندب إلى أعلى المقامات، فإن عجز العبد عنه حطّه إلى المقام الوسط، كما قال: **«اعبد الله كأنك تراه»**[٢]. فهذا مقام المراقبة الجامع لمقامات الإسلام والإيمان والإحسان، ثم قال: **«فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**، فحطّه عند العجز عن المقام عن المقام الأول إلى المقام الثاني وهو العلم باطلاع الله عليه ورؤيته له ومشاهدته لعبده في الملأ والخلاء، وكذا الحديث الآخر: **«إن استطعت أن تعمل لله بالرضا مع اليقين فافعل، فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا»**[٣]. فرفعه إلى أعلى المقامات،

---

(١) البخاري في خلق أفعال العباد (٦٩) وفي التاريخ أيضًا، والبزار في المسند، والبيهقي في الشعب، ونقل السيوطي في اللآلئ المصنوعة (٢ / ٢٨٨) تحسين الحافظ ابن حجر للحديث في أماليه. وقد ليّنه في فتح الباري (١١/١٣٤)

(٢) البخاري (١/١٩) مسلم (١/٣٠)

(٣) الترمذي (٢٥١٦) وأحمد (٤/٢٨٧) وصححه أحمد شاكر، والأرناؤوط (٢٨٠٣) وقال: «حديث صحيح، وهذا الحديث رواه أحمد عن شيخه أبي عبد الرحمن عبد الله بن يزيد المقرئ بثلاثة أسانيد، الأخير منها متصل، والأول والثاني فيهما انقطاع». وصححه

=

ثم ردّه إلى أوسطها إن لم يستطع الأعلى، فالأول: مقام الإحسان، والذي حطّه إليه: مقام الإيمان، وليس دون ذلك إلا مقام الخسران.

السابع والأربعون: أنه أثنى على الراضين بمُرّ القضاء بالحكم والعلم والفقه والقرب من درجة النبوّة(١).

الثامن والأربعون: أن الرضا آخذ بزمام مقامات الدين كلّها، وهو روحها وحياتها، فإنه روح التوكل وحقيقته، وروح اليقين، وروح المحبة، وصحّة المحب، ودليل صدق المحبة، وروح الشكر ودليله، قال الربيع بن أنس: «علامة حب الله كثرة ذكره، فإنك لا تحب شيئًا إلا أكثرت من ذكره، وعلامة الدين الإخلاص لله في السر والعلانية، وعلامة الشكر الرضا بقدر الله والتسليم لقضائه». وقال أحمد بن أبي الحواري: ذاكرتُ أبا سليمان في الخبر

=
القرطبي في التفسير (٨/٣٣٥) وقال ابن رجب في الجامع (١/٤٥٩): حسن جيد. وقال ابن تيمية في التوسل (٥٢): «حديث معروف مشهور».

(١) وقد استدل المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ على ذلك بحديث لا يثبت، وهو حديث الوفد الذين قدموا على رسول الله ﷺ فقال: **«ما أنتم؟»** فقالوا: مؤمنون. فقال: **«ما علامة إيمانكم؟»** فقالوا: الصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، والرضا بمرّ القضاء، والصدق في مواطن اللقاء، وترك الشماتة بالأعداء. فقال: **«حكماء علماء، كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء»**. ذكره الغزالي في حلية الأولياء (٩/٢٩١) وضعفه العراقي في تخريج الإحياء (١/٥٣) وقال الألباني في الضعيفة (٢٦١٤): «منكر».

المروي: «**أوّل من يُدعى إلى الجنة الحمّادون**»(١). فقال: ويحك! ليس هو أن تحمده على المصيبة وقلبك يتعصّى عليك، إذا كنت كذلك فارجع إلى الصابرين، إنما الحمد أن تحمده وقلبك مسلّمٌ راضٍ(٢). فصار الرضا كالرُّوح لهذه المقامات والأساس الذي تنبني عليه، ولا يصح شيء منها بدونه البتة، والله أعلم.

التاسع والأربعون: أن الرضا يقوم مقام كثير من التعبّدات التي تشقّ على البدن، فيكون رضاه أسهل عليه وألذّ له وأرفع في درجته، وقد ذُكر في أثر إسرائيلي: «إن عابدًا عبد الله دهرًا طويلًا فأُري في المنام: أن فلانة الراعية رفيقتك في الجنة. فسأل عنها إلى أن وجدها، فاستضافها ثلاثًا لينظر إلى عملها(٣)، فكان يبيت قائمًا وتبيت نائمة، ويظلّ صائمًا وتظلّ مفطرة، فقال لها:

---

(١) تمامه: «**فتقوم زمرة فيُنصب لهم لواء فيدخلون الجنة**» قيل: ومن الحمّادون؟ قال: «**الذين يشكرون الله تعالى على كل حال**»، وفي لفظ آخر: «**الذين يشكرون الله على السراء والضراء**». قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٨ / ١٨٦) (٣٦٨٦): «أخرجه الطبراني وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس، وفيه قيس بن الربيع ضعفه الجمهور».

(٢) وهذا تحكّم وتشديد بلا دليل، وفضل الله - بحمد الله - واسع، فمن حَمِدَ الله بلسانه ولم يجزع فهو من الحامدين حتى وإن تألّم قلبه، أما إن كظم جزعه ولم يحمد فهو من الصابرين، والله أعلم.

(٣) وليس في الخبر أنّ بينهما خلوة، أو أنه كان ينظر لها مباشرة، فلعله استضافها ووكّل إحدى محارمه تنظر إلى عملها، أو أنه كان مباحًا في شريعتهم.. مع أن الأثر إسرائيلي، فليس له ثبوت، والمقصود من ذكره الاعتبار بحال العابدة مع الرضا بأقدار الله تعالى.

أما لك عمل غير ما رأيت؟ قالت: ما هو والله إلّا ما رأيت، لا أعرفُ غيره. فلم يزل يقول لها: تذكّري، حتى قالت: خُصيلةٌ واحدة هي فيّ، وذلك: أني إن كنت في شدّة لم أتمنّ أني في رخاء، وإن كنتُ في مرض لم أتمنّ أنّى في صحّة، وإن كنت في الشمس لم أتمنّ أنّي في الظل. قال: فوضع العابد يده على رأسه وقال: أهذه خُصيلة! هذه والله خَصلةٌ عظيمة يعجز عنها العباد»[1].

الخمسون: أنّ الرضا يفتح باب حسن الخلق مع الله تعالى ومع الناس، فإن حسن الخلق من الرضا، وسوء الخلق من السخط، وحسن الخلق يبلغ بصاحبه درجة الصائم القائم، وسوء الخلق يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.

الحادي والخمسون: أن الرضا يثمر سرور القلب بالمقدور في جميع الأمور، وطيب النفس وسكونها في كل حال، وطمأنينة القلب عند كل مفزع مهلع من أمور الدنيا، وبرد القناعة، واغتباط العبد بقسمه من ربه، وفرحه بقيام مولاه عليه، واستسلامه لمولاه في كل شيء، ورضاه منه بما يجريه عليه، وتسليمه له الأحكام والقضايا، واعتقاد حسن تدبيره وكمال حكمته، ويذهب عنه شكوى ربه إلى غيره وتبرمه بأقضيته.

---

(١) ذكره في إحياء علوم الدين (٦ / ٤٣٤)

ولهذا سمّى بعض العارفين الرضا: «حسن الخلق مع الله»[(١)] فإنه يوجب ترك الاعتراض عليه في ملكه، وحذف فضول الكلام التي تقدح في حسن خلقه، فلا يقول: ما أحوج الناس إلى مطر، ولا يقول: هذا يوم شديد الحر أو شديد البرد، ولا يقول: الفقر بلاء والعيال همّ وغمّ، ولا يُسمّي شيئًا قضاه الله وقدّره باسم مذموم، إذا لم يذمه الله سبحانه وتعالى، فإنّ هذا كله ينافي رضاه.

وقال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أصبحتُ ومالي سرور إلّا في مواقع القدر». وقال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «الفقر والغنى مطيّتان، ما أبالي أيهما ركبت، إن كان الفقر فإن فيه الصبر، وإن كان الغنى فإن فيه البذل». وقال ابن أبي الحواري أو قيل له: إنّ فلانًا قال: وددتُّ أن الليل أطول مما هو. فقال: «قد أحسن، وقد أساء. أحسن حيث تمنّى طوله للعبادة والمناجاة، وأساء حيث تمنّى ما لم يرده الله، أَحَبَّ ما لم يُحبّه الله». وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «ما أبالي على أي حال أصبحت وأمسيت من شدّة أو رخاء». وقال يومًا لامرأته عاتكة أخت سعيد بن زيد وقد غضب عليها: والله لأسوأنّك! فقالت: أتستطيع أن تصرفني عن الإسلام بعد إذ هداني الله له؟ قال: لا، فقالت: فأيُّ شيء تسوءني به إذًا؟! تريد أنها راضية بمواقع القدر لا يسوءها منه شيء إلّا صرْفها عن الإسلام، ولا سبيل له إليه.

---

(١) وهذا الوصف الجميل للرضا في الغاية من نفاسة العلم وجودة الفقه وحسن الأدب مع الله تعالى.

وقيل: «أكثر الناس همًّا بالدنيا أكثرهم همًّا في الآخرة، وأقلّهم همًّا بالدنيا أقلّهم همًّا في الآخرة». فالإيمان بالقدر والرضا به يُذهب عن العبد الهمّ والغمّ والحزن.

الثاني والخمسون: أن أفضل الأحوال الرغبة في الله ولوازمها، وذلك لا يتمّ إلا باليقين والرضا عن الله. ولهذا قال سهل: «حظ الخلق من اليقين على قدر حظهم من الرضا، وحظّهم من الرضا على قدر رغبتهم في الله».

الثالث والخمسون: أن الرضا يخلّصه من عيب ما لم يعبه الله، ومن ذمِّ ما لم يذمّه الله، فإن العبد إذا لم يرض بالشيء عابه بأنواع المعايب وذمّه بأنواع المذام، وذلك منه قلة حياء من الله، وذمٌّ لما ليس له ذنب، وعيب لخلقه، وذلك يسقط العبد من عين ربه، ولو أن رجلًا صنع لك طعامًا وقدّمه إليك فعبته وذممته؛ لكنت متعرّضًا لمقته وإهانته، ومستدعيًا منه أن يقطع ذلك عنك. وقد قال بعض العارفين: «إن ذم المصنوع وعيبه إذا لم يذمّه صانعه غيبة له وقدح فيه».

الرابع والخمسون: أن النبي ﷺ سأل الله الرضا بالقضاء، كما في المسند والسنن: **«اللّهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني إذا كانت الحياة خيرًا لي، وتوفّني إذا كانت الوفاة خيرًا لي، وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيمًا لا ينفد، وأسألك قرّة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء، وأسألك برْد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك**

الكريم، وأسألك الشوق إلى لقائك[١]**، في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة، اللَّهم زينّا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين»**[٢]. فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه[٣] يقول: «سأله الرضا بعد القضاء؛ لأنه حينئذ تبيّن حقيقة الرضا، وأما الرضا قبله فإنما هو عزم على أنه يرضى إذا أصابه، وإنما يتحقق الرضا بعده»[٤]. قال البيهقي: وروينا في دعاء النبي ﷺ: **«اللَّهم إني أسألك الصحة والعفّة والأمانة وحسن الخلق والرضا بالقدر»**[٥].

الخامس والخمسون: أن الرضا بالقدر يخلّص العبد من أن يُرضي الناس بسخط الله، وأن يذمّهم على ما لم يؤته الله، وأن يحمدهم على ما هو عين فضل الله، فيكون ظالمًا لهم في الأوّل وهو رضاهم وذمّهم، مشركًا بهم في الثاني وهو حمدهم، فإذا رضي بالقضاء تخلّص من ذمّهم وحمدهم، فخلّصه الرضا من ذلك كله. وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن**

---

(١) أي: أسألك شوقًا إليك لِذات الشوق والمحبة والرجاء، لا تخلّصًا من مضرّة ولا هربًا من فتنة، والله أعلم.

(٢) أحمد (٤/ ٢٦٤) والنسائي (٣/ ٥٤) وصححه الألباني.

(٣) قدّس الله روحه: أي طهرها من الذنوب، وهو بمعنى غفر الله له. أما الممنوع فهو قول: قدّس الله سرّه، لأنهم يقصدون بذلك أنّ له سرًّا يتصرّف به في تدبير الكون! وإن كان كثير من العامّة لا يقصدون ذلك المعنى الشركي، ولكن يُمنع حسمًا للمادة، وسدًّا للذريعة، وحُسنًا للأدب، وحفظًا لمقام ألفاظ الشرع.

(٤) الاستقامة (٢ / ٨٧)

(٥) شعب الإيمان (٨١٨١) والأدب المفرد (٣٠٧) وضعفه الألباني.

من ضعف اليقين: أن تُرضي الناس بسخط الله، وأن تحمدهم على رزق الله، وأن تذمّهم على ما لم يؤتك الله. إن رزق الله لا يجرّه حرص حريص، ولا يردّه كره كاره. وإن الله بحكمته جعل الرَّوح والفرح في الرضا واليقين، وجعل الهمّ والحزن في الشكّ والسخط»(١).

السادس والخمسون: أن الرضا يفرّغ قلب العبد ويقلّل همّه وغمّه، فيتفرّغ لعبادة ربه بقلب خفيف من أثقال الدنيا وهمومها وغمومها. قال بشر بن بشار المجاشعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ـ وكان من العلماء ـ قال: قلت لعابد: أوصني، قال: «أَلْقِ نفسك مع القدر حيث ألقاك، فهو أحرى أن يفرّغ قلبك ويقلّل همّك، وإياك أن تسخط ذلك؛ فيحلّ بك السخط وأنت عنه في غفلة لا تشعر به، فيلقيك مع الذين سخط الله عليهم».

وقال بعض السلف: «ذروا التدبير والاختيار تكونوا في طيبٍ من العيش، فإن التدبير والاختيار يكدّر على الناس عيشهم». وقال أبو العباس بن عطاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الفرح في تدبير الله لنا، والشقاء كله في تدبيرنا». وقال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من لم يصلح على تقدير الله؛ لم يصلح على تقديره نفسه». وقال أبو العباس الطوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من ترك التدبير عاش في راحة». وقال بعضهم: «لا تجد السلامة حتى تكون في التدبير كأهل القبور». وقال: «الرضا ترك الخلاف على الرب فيما يجريه على العبد».

---

(١) شعب الإيمان (١/١٧٦) والحلية (٣/١٢٢) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٢٠٠٩)

وقال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لقد تركتني هؤلاء الدعوات وما لي في شيء من الأمور كلها إرْبٌ[(١)] إلا في مواقع قدر الله». وكان كثيرًا ما يدعو: «اللّهم رَضِّني بقضائك، وبارك لي في قَدَرك، حتى لا أحب تعجيل شيء أخّرته، ولا تأخير شيء عجّلته». وقال: «ما أصبح لي هوى في شيء سوى ما قضى الله عز وجل». وقال يونس بن عبيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما تمنّيت شيئًا قط»[(٢)].

وقال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الراضي لا يتمنّى فوق منزلته». وقال ذو النون رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ثلاثة من أعلام التسليم: مقابلة القضاء بالرضا، والصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء. وثلاثة من أعلام التفويض: تعطيل إرادتك لمراده، والنظر إلى ما يقع من تدبيره لك، وترك الاعتراض على الحكم. وثلاثة من أعلام التوحيد: رؤية كل شيء من الله، وقبول كل شيء عنه، وإضافة كل شيء إليه». وقال بعض العارفين: «أصل العبادة ثلاثة: لا تردّ من أحكامه شيئًا، ولا تسأل غيره حاجة، ولا تدّخر عنه شيئًا».

وسئل ابن شمعون عن الرضا فقال: «أن ترضى به مُدبِّرًا ومُختارًا، وترضى عنه قاسمًا ومعطيًا ومانعًا، وترضاه إلهًا ومعبودًا وربًّا». وقال بعض العارفين: «الرضا ترك الاختيار، وسرور القلب بمرّ القضاء، وإسقاط التدبير من النفس

---

(١) بكسر الهمزة، أي: حاجة ورغبة، وفي التنزيل: ﴿غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ [النور: ٣١]، وفي حديث عائشة رضي الله عنها عند الترمذي (٧٢٩) وغيره: «أنه كان يباشرني وهو صائم، وكان أملككم لإِرْبِه».

(٢) أي أنه لم يتكلم برغبته في أمر دنيا.

حتى يحكم الله لها أو عليها». وقيل: «الراضي من لم يندم على فائت من الدنيا، ولم يتأسّف عليها». ولله در القائل:

العبدُ ذو ضجر والربُّ ذو قَدَر والدهرُ ذو دول والرزقُ مقسومُ

والخيرُ أجمعُ فيما اختار خالقُنا وفي اختيار سواه اللومُ والشومُ[١]

السابع والخمسون: أنه إذا لم يرض بالقدر وقع في لوم المقادير إما بقالبه وإما بقلبه وحاله، ولوم المقادير لومٌ لمُقدِّرِها، وكذلك يقع في لوم الخلق، واللهُ والناسُ يلومونه، فلا يزال لائمًا ملومًا، وهذا مناف للعبودية.

قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: خدمتُ رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي لشيء فعلتَه: **«لم فعلتَه»؟** ولا لشيء لم أفعله: **«ألا فعلته»؟** ولا قال لي لشيء كان: **«ليته لم يكن»،** ولا لشيء لم يكن: **«ليته كان».** وكان بعض أهله إذا لامني يقول: **«دعوه، فلو قُضي شيء لكان»**[٢]. وقوله: **«لو قضى شيء لكان»،** يتناول أمرين، أحدهما: مالم يوجد من مراد العبد، والثاني: ما وجد مما يكرهه، وهو يتناول فوات المحبوب وحصول المكروه، فلو قُضي الأول لكان، ولو قضي خلاف الآخر لكان، فإذا استوت الحالتان بالنسبة إلى القضاء؛ فعبودية العبد أن يستوي عنده الحالتان بالنسبة إلى رضاه. وهذا موجب العبودية ومقتضاها. يوضحه:

---

(١) مسهّلة عن الشؤم لضرورة الوزن.

(٢) أحمد (١٣٠٣٤) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وهو في مصنف عبد الرزاق (١٧٩٤٦)

الثامن والخمسون: أنه إذا استوى الأمران بالنسبة إلى رضا الرب تعالى؛ فهذا رضيه لعبده فقدَّره، وهذا لم يرضه له فلم يقدّره؛ فكمال الموافقة أن يستويا بالنسبة إلى العبد، فيرضى ما رضيه له ربُّه في الحالين.

التاسع والخمسون: أن الله تعالى نهى عن التقدّم بين يديه ويدي رسوله في حكمه الديني الشرعي، وذلك عبودية هذا الأمر، فعبودية أمره الكوني القدري ألا يتقدّم بين يديه إلا حيث كانت المصلحة الراجحة في ذلك، فيكون التقدّم أيضًا بأمره الكوني والديني. فإذا كان فرضه الصبر أو ندبه، أو فرضه الرضا، حتى ترك ذلك؛ فقد تقدّم بين يدي شرعه وقدَره.

الستون: أن المحبة والإخلاص والإنابة لا تقوم إلا على ساق الرضا، فالمحب راض عن حبيبه في كل حاله، وقد كان عمران بن حصين رضى الله عنه استسقى بطنه فبقي ملقى على ظهره مدّة طويلة لا يقوم ولا يقعد، وقد نقب له في سريره موضع لحاجته، فدخل عليه مُطَرّفُ بن عبد الله الشِّخِّير فجعل يبكي لِمَا رأى من حاله! فقال له عمران: لِمَ تبكي؟ فقال: لأنّي أراك على هذه الحال الفظيعة، فقال: لا تبك، فإنّ أحبَّه إليّ أحبُّه إليه![1]

وقال: أخبرك بشيء لعلّ الله أن ينفعك به، واكتم عليّ حتى أموت، إنّ الملائكة تزورني فآنسُ بها، وتُسلّم عليّ فأسمع تسليمها[2].

---

(١) وهذا توحيد عظيم وإيمان هائل له رضي الله عنه، وهو الذي كانت تسلّم عليه الملائكة حتى اكتوى فتركت سلامه، فلمّا ترك الكيَّ عادت إليه بالسلام، عليها وعليه السلام.

(٢) نقله في الإحياء (٦ / ٤٣٩)

ولما قدم سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه إلى مكة وقد كفّ بصره، جعل الناس يُهرعون إليه ليدعو لهم، فجعل يدعو لهم، قال عبد الله بن السائب: «فأتيتُه وأنا غلام فتعرّفتُ إليه فعرفني، فقلت: يا عم؛ أنت تدعو للناس فيُشفون، فلو دعوت لنفسك لردّ الله عليك بصرك، فتبسّم ثم قال: يا بني؛ قضاءُ الله أحبُّ إليَّ من بصري!»[1] [2].

وقال بعض العارفين: «ذنبٌ أذنبته أنا أبكي عليه ثلاثين سنة! قيل: وما هو؟ قال: قلت لشيء قضاه الله: ليته لم يكن». وقال بعض السلف: «لو قُرِّضَ لحمي بالمقاريض كان أحبّ إليّ من أن أقول لشيء قضاه الله: ليته لم يقضه». وقيل لعبد الواحد بن زيد: «هٰهنا رجل قد تعبّد خمسين سنة[3]. فقصده فقال له: حبيبي؛ أخبرني عنك، هل قنعتَ به[4]؟ قال: لا، قال: فهل أَنِسْتَ به؟ قال:

---

(١) جامع العلوم والحكم (١ / ٣٦٩)

(٢) لا إله إلا الله، ما أعظم دينهم وأجود تحقيقهم! رضوان الله عليهم.

(٣) أي: أنّه اجتهد في العبادة منذ خمسين سنة، ولا يعني ذلك الرهبانية بحال، فلا رهبانية في الإسلام. وقد كانوا ولا زالوا يحرصون على لقيا الصالحين من أهل العلم والعبادة، لترق قلوبهم وتزيد علومهم ويقتربوا لربهم بمجالسة أهل الاجتهاد في طلب ولايته، فمن الناس من إذا رأيتَ سَمْتَه وأبصرت هدْيه رَقّ قلبُك ولانت عريكة نفسك وزهدت في حطام الفانية كأنما ترى ببصيرتك الدار الآخرة، فذكرت الله تعالى وازددت إيمانًا.

(٤) أي: بالله تعالى، واكتفيت به عن خلقه.

لا، قال: فهل رضيتَ عنه؟ قال: لا، قال: فإنّما مزيدك منه الصوم والصلاة[١]؟ قال: نعم، قال: لولا أني أستحي منك لأخبرتك: أن معاملتك خمسين سنة مدخولة!»[٢]. يعني أنه لم يقرّبه فيجعله في مقام المقربين فيوجدَهُ مواجيد العارفين[٣]، بحيث يكون مزيده لديه أعمال القلوب التي يستعمل بها كل محبوب مطلوب. لأن القناعة حال الموفّق، والأُنسُ به مقام المحب، والرضا وصف المتوكل. وقوله: «إن معاملته مدخولة» يحتمل وجهين: أحدهما: أنها ناقصة عن معاملة المقربين التي أوجبت لهم هذه الأحوال، الثاني: أنها لو كانت صحيحة سالمة لا علّة فيها ولا غشّ لأثمرت له الأنس والرضا والمحبة والأحوال العلية، فإن الربّ تعالى شكور، إذا وصل إليه عملُ عبدِه جمّلَ به ظاهرَه وباطنَه، وأثابه عليه من حقائق المعرفة والإيمان بحسب عمله، فحيث لم يجد له أثرًا في قلبه من الأنس والرضا والمحبة؛ استدل على أنه مدخول غير سالم من الآفات.

---

(١) أي: أنه ليس معك إلا الهياكل الظاهرة للعبادة دون جوهرها وروحها ولبّها، ولم تجد آثارها على قلبك.

(٢) الإحياء (٦ / ٤٤٠) قال الغزالي: «ومعناه: أنك لم يُفتح لك باب القلب فتترقّى إلى درجات القرب بأعمال القلب، وإنما أنت تُعَدُّ في طبقات أصحاب اليمين، لأن مزيدك منه في أعمال الجوارح التي هي مزيد أهل العموم».

(٣) أي: يعطيه ويتفضّل عليه بألطاف المواهب الربانية لقلوب أوليائه من المحبة والشوق والأنس ونحوها.

الحادي والستون: أن أعمال الجوارح تُضاعف إلى حد معلوم محسوب، وأما أعمال القلوب فلا ينتهي تضعيفها. وذلك لأن أعمال الجوارح لها حدّ تنتهي إليه وتقف عنده، فيكون جزاؤها بحسب حدّها[١]، وأما أعمال القلوب فهي دائمة متصلة، وإن توارى شهود العبد لها.

مثاله: أن المحبة والرضا حال المحب الراضي لا تفارقه أصلًا وإن توارى حكمها، فصاحبها في مزيد متّصل، فمزيد المحب الراضي متصل بدوام هذه الحال له، فهو في مزيد ولو فترت جوارحه، بل قد يكون مزيده في حال سكونه وفتوره أكثر من مزيد كثيرٍ من أهل النوافل بما لا نسبة بينهما، ويبلغ ذلك بصاحبه إلى أن يكون مزيده في حال نومه أكثر من مزيد كثير من أهل القيام، وأكله أكثر من مزيد كثير من أهل الصيام والجوع[٢].

---

(١) أي: بقدْرها.

(٢) كما قيل: ربَّ قائم محروم، ونائم مرحوم! وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: «عليكم بالسبيل والسنة، فإنه ليس من عبد على سبيل وسنة ذكر الرحمن ففاضت عيناه من خشية الله فتمسّه النار، وليس من عبد على سبيل وسنة ذكر الرحمن فاقشعرّ جلدُه من خشية الله إلا كان مثله مثل شجرة يبس ورقها، فبينما هي كذلك إذ أصابتها الريح فتحاتّ عنها ورقها، إلا تحاتّت عنه ذنوبه كما تحاتّ عن هذه الشجرة ورقها، وإن اقتصادًا في سبيل وسنة خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة».

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «يا حبّذا نوم الأكياس وإفطارهم، كيف يغبنون سهر الحمقى وصومهم! ولَمثقال ذرة من برّ مع تقوى ويقين، أعظم وأفضل وأرجح من أمثال الجبال من عبادة المغترّين». وانظر: حلية الأولياء (١/ ٢١١).

فإن أنكرت هذا فتأمل مزيدَ[(١)] نائمٍ بالله، وقيام غافل عن الله. فالله سبحانه إنما ينظر إلى القلوب والهمم والعزائم، لا إلى صور الأعمال. وقيمة العبد همّته وإرادته، فمن لا يرضيه غير الله ولو أعطي الدنيا بحذافيرها له شأنٌ، ومن يرضيه أدنى حظ من حظوظها له شأنٌ، وإن كانت أعمالهما في الصورة واحدة، وقد تكون أعمال الملتفت إلى الحظوظ أكثر وأشقّ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وقد اختلف أرباب هذا الشأن[(٢)] في مسألة، وهي: هل للرضا حدٌّ ينتهي إليه؟

فقال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ثلاث مقامات لا حدّ لها: الزهد والورع والرضا. وخالفه سليمان ابنه ـ وكان عارفًا حتى إن من الناس من كان يقدّمه على أبيه ـ فقال: بل من تورّع في كل شيء فقد بلغ حدّ الورع، ومن زهد في غير الله فقد بلغ حدّ الزهد، ومن رضي عن الله في كل شيء فقد بلغ حدّ الرضا[(٣)].

---

(١) أي: أنّ الله تعالى يزيده من فضله أعمالَ قلب صالحة وأجرًا مذخورًا.

(٢) أي: المهتمّين بالسلوك والاجتهاد في التعبّد وأعمال القلوب تنظيرًا وتطبيقًا.

(٣) من دقائق الزهد عدم التوسع في المباح لأمور؛ منها الخوف من تعجيل الطيبات، وكان الصحابة هم سادة الزاهدين الورعين الراضين الصالحين، وقد أخرج ابن أبي شيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٤٥٢٤) أنّ عمر رأى جابر بن عبد الله رضي الله عنهم وبيده لحم قد اشتراه قال: ما هذا؟ قال: اشتريتُه بدرهم. فقال: «أوَ كلما قام أحدكم اشترى بدرهم لحمًا»! وفي رواية: «كلّما اشتهيت اشتريت! أما سمعت الله يقول: ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ =

وقد اختلفوا في مسألة تتعلق بذلك وهي: أهل مقامات ثلاثة[١]، أحدهم: يحبّ الموت شوقًا إلى الله ولقائه، والثاني: يحب البقاء للخدمة والتقرب[٢]، وقال الثالث: لا أختارُ، بل أرضى بما يختار لي مولاي، إن شاء أحياني وإن شاء أماتني. فتحاكموا إلى بعض العارفين[٣] فقال: صاحب الرضا أفضلهم؛ لأنه أقلهم فضولًا، وأقربهم إلى السلامة.

= ٱلدُّنْيَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]، أما تخافون أن تكونوا منهم»؟ وانظر أيضًا: تفسير السمعاني (٥ / ١٥٧)

(١) «الفرق بين الحال والمقام: أنّ الحال معنًى يرد على القلب من غير اجتلاب له ولا اكتساب ولا تعمّد، والمقام يتوصّل إليه بنوع كسب وطلب. فالأحوال عندهم مواهب، والمقامات مكاسب، فالمقام يحصل ببذل المجهود، وأما الحال فمِن عين الجُود». مدارج السالكين (٢ / ٤٤٧)

ولاحظ أنهم جعلوا للمقام معنى القيام، وفيه تكلّف القيام، فهو بجهد واكتساب، أما الحال فهو طبيعة وجبلة، ومحضُ فضلٍ ديني من اللطيف سبحانه، فليس فيه معنى الاكتساب. وتدبر، وأطرِبْ قلبَك، وأَرْقِلْ رجاءَك، وأزْجِ رغيبتك، وأَنْشِ رُوحك بقول الحقِّ الأعزِّ الأكرم: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٠٠﴾ [يوسف: ١٠٠]. اللّهم رحمتك ولطفك وكرمك وجودك إله الحق.

(٢) لو قال: «للعبادة»، فهي أسلم من جهة لفظها شرعًا ومعنًى.

(٣) أي: أهل المعرفة بالله، ويعنون بذلك العلم بالله تعالى. والأمر في هذه التسمية واسع إن شاء الله لسلامة لفظها ومعناها، وفي التنزيل: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٦٩﴾ [المؤمنون: ٦٩]، فالمعرفة هي العلم، ولفظ العلم أشرف لأن الله تعالى =

=
يوصف بالعلم ومن أسمائه العليم، وقد جاء الثناء في الشرع على العلماء، والعلماء في لسان الشرع هم أهل العلم بعلم الآخرة القرآن والسنة، لا علوم أهل الدنيا.
وقد جاء النص بلفظ المعرفة عند الشيخين في حديث إرساله معاذًا إلى اليمن ـ إن صحّ هذا اللفظ بحروفه دون معناه، لأن أكثر الرواة رووه بألفاظ أخرى ـ كما في البخاري (١٤٥٨) ومسلم (١٩): «**فليكن أوّل ما تدعوهم إليه: عبادة الله عز وجل، فإذا عرفوا الله؛ فأخبرهم: أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات..**» الحديث. قال الحافظ في الفتح (١٣ / ٣٥٤): «الاحتجاج به يتوقّفُ على الجزم بأنه ﷺ نطق بهذه اللفظة، وفيه نظر، لأن القصة واحدة، ورواة هذا الحديث اختلفوا هل ورد الحديث بهذا اللفظ أو بغيره، فلم يقل ﷺ إلا بلفظ منها، ومع احتمال أن يكون هذا اللفظ من تصرف الرواة لا يتم الاستدلال. وقد بينت في أواخر كتاب الزكاة أن الأكثر رووه بلفظ: «**فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإن هم اطاعوا لك بذلك..**» ومنهم من رواه بلفظ: «**فادعهم إلى أن يوحّدوا الله، فإذا عرفوا ذلك..**» ومنهم من رواه بلفظ: «**فادعهم إلى عبادة الله، فإذا عرفوا الله..**».
ووجه الجمع بينها: أن المراد بالعبادة التوحيد، والمراد بالتوحيد الإقرار بالشهادتين، والإشارة بقوله ذلك إلى التوحيد، وقوله: «**فإذا عرفوا الله**»، أي عرفوا توحيد الله، والمراد بالمعرفة الإقرار والطواعية، فبذلك يجمع بين هذه الألفاظ المختلفة في القصة الواحدة، وبالله التوفيق». أهـ.
وهم قد أرادوا بقولهم: «العارف» أن يخصوه بمن له إحسان تعبّدٍ لله تعالى ومزيد تألّهٍ وتعلّقٍ وعلم بالله تعالى، فيقولون: إنّ العارف هو العالم بالله، أما العالم فهو العالم بشرع الله. ولا يقصدون بذلك أن العالم بالشرع ليس عالمًا بالله تعالى، ولكن يقصدون أن من علماء الشريعة من ليس لهم كبير اهتمام بالعلم بالله تعالى وصفاته والتقرب إليه بخفي العبادة والتفكّر والزهد والمناجاة والأنس به والشوق إلى لقائه ونحو ذلك من أعمال
=

ولا ريب أن مقام الرضا فوق مقام الشوق والزهد في الدنيا، بقي النظر في مقامي الآخَرَين أيهما أعلى؟ فرجّحت طائفة مقام من أحب الموت؛ لأنه في مقام الشوق إلى لقاء الله ومحبة لقائه، ومَن أحبَّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه، ورجّحت طائفة مقام مريد البقاء لتنفيذ أوامر الرب تعالى، واحتجوا بأن الأول محبٌّ لحظّه من الله، وهذا محب لمراد الله منه، لم يشبع منه ولم يقض منه وطرًا.

قالوا: وهذا حال موسى صلوات الله وسلامه عليه حين لطم وجه ملك الموت ففقأ عينه، لا محبةً للدنيا، ولكن لينفذ أوامر ربه ومراضيه في الناس، فكأنّه قال: أنت عبده وأنا عبده، وأنت في طاعته وأنا في طاعته وتنفيذ أوامره.

وحينئذ فنقول في الوجه:

=
القلوب الزاكية المُزكّية، وأنه يوجد من الناس من قلّ علمه بالعلم بتفاصيل العبادات والمعاملات في الشريعة لكنه قريب من الله بقلبه وقالبه دائم القنوت له والتقرب لمرضاته فسموه لذلك: العارف، وواهًا لمن جمعهما.

ولا منافاة في الحقيقة بينهما، فقد يفتح الله تعالى لعبده من هذا أو هذا، وقد يجمعها له، فأحق الناس بالعلم بالله هم العالمون بشرعه، فهم يأخذون علمهم من معدن الوحي الكتاب والسنة، وهما فقط سبيل العلم بالله تعالى، ومع كثرة طرق نصوص الوحي للقلب فإنها تثمر الإيمان وزيادته ويقينه وثماره وتزكيته وتلك هي عين مرادهم من المعرفة. وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قلت لأبي: هل كان مع معروف الكرخي شيء من العلم؟ فقال لي: «يا بني؛ كان معه رأس العلم، خشية الله تعالى». ذكره عنه ابن مفلح في الآداب الشرعية والمنح المرعية (٢/٢٣٦).

الثاني والستين: إن حال الراضي المسلّم ينتظم حاليهما جميعًا مع زيادة التسليم وترك الاختيار، فإنه قد غاب بمراد ربه منه من إحيائه وإماتته عن مراده هو من هذين الأمرين، وكلُّ محبّ فهو مشتاق إلى لقاء حبيبه، مؤثِرٌ لمراضيه. فقد أخذ بزمام كل من المقامين واتصف بالحالين، وقال: «أَحَبُّ ذلك إليَّ أحبُّهُ إليه، لا أتمنى غير رضاه، ولا أتخيّر عليه إلا ما يحبّه ويرضاه».

ثم ساق ابن القيم كلام الهروي في منازل السائرين في بيانه لشروط الرضا وشرحها فقال: «قال[1]: الثاني: سقوط الخصومة عن الخلق. يعني أن الرضا إنما يصح بسقوط الخصومة مع الخلق، فإن الخصومة تنافي حال الرضا، وتنافي نسبة الأشياء كلها إلى من بيده أزِمَّة القضاء والقدر، ففي الخصومة آفات:

أحدها: المنازعة التي تضادُّ الرضا.

الثاني: نقص التوحيد بنسبة ما يُخاصِمُ فيه إلى عبدٍ دون الخالقِ لكل شيء.

الثالث: نسيان المُوجِبِ والسبب الذى جرّ إلى الخصومة، فلو رجع العبد إلى السبب والموجِب؛ لكان اشتغاله بدفعه أجدى عليه وأنفع له من خصومة من جرى على يديه، فإنه وإن كان ظالمًا فهو الذي سلّطه على نفسه بظلمه، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥﴾ [آل عِمْرَان: ١٦٥]، فأخبر أنّ أذى عدوّهم لهم وغلبتهم لهم إنما هو بسبب ظلمهم، وقال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾ [الشُّورَى: ٣٠].

---

(١) أي: الهروي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فإذا اجتمعت بصيرة العبد على مشاهد القدر والتوحيد والحكمة والعدل؛ انسدّ عنه باب خصومة الخلق إلا فيما كان حقًّا لله ورسوله، فالراضي لا يُخاصم ولا يُعاتب إلا فيما يتعلق بحق الله، وهذه كانت حال رسول الله ﷺ، فإنه لم يكن يخاصم أحدًا ولا يعاتبه إلا فيما يتعلّق بحق الله، كما أنه كان لا يغضب لنفسه، فإذا انتهكت محارم الله لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله، فالمخاصمة لحظّ النفس تطفئ نور الرضا، وتذهب بهجته، وتبدل بالمرارة حلاوته، وتكدّر صفوه.

قال: الشرط الثالث: الخلاص من المسألة للخلق والإلحاح[1]. وذلك لأن المسألة فيها ضرب من الخصومة والمنازعة والمحاربة، والرجوع عن مالك الضرّ والنفع إلى من لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا إلا بربّه، وفيها الغَيبةُ عن المعطي المانع.

والإلحاح ينافي حال الرضا ووصفه، وقد أثنى الله سبحانه على الذين لا يسألون الناس إلحافًا فقال تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البَقَرَة: ٢٧٣] فقالت طائفة: يسألون الناس ما تدعو حاجتهم إلى سؤاله، ولكن لا يُلحفون[2] فنفى الله عنهم سؤال الإلحاف لا مطلق السؤال.

---

(١) أي: الإلحاح عليهم بقضاء حوائجه.

(٢) الإلحاف هو الإلحاح والإصرار والتقصّي في الطلب.

قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «إذا كان عنده غداء لم يسأل عشاء، وإذا كان عنده عشاء لم يسأل غداء». وقالت طائفة منهم الزجاج والفراء وغيرهما: بل الآية اقتضت ترك السؤال مطلقًا، لأنهم وُصفوا بالتعفف والمعرفة بسيماهم دون الإفصاح بالمسألة، لأنهم لو أفصحوا بالسؤال لم يحسبهم الجاهل أغنياء. ثم اختلفوا في وجه قوله تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البَقَرَةِ: ٢٧٣] فقال الزجاج: المعنى لا يكون منهم سؤال فيقع إلحاف، كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المُدَّثِّر: ٤٨]، أي لا تكون شفاعة فتنفع، وكما في قوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البَقَرَةِ: ١٢٣]، أي لا يكون عدل فيُقبل، ونظائره قال امرئ القيس: «على لاحبٍ لا يَهتدي بمنارِهِ»(١). قال ابن الأنباري: وتأويل الآية: لا يسألون البتة فيخرجهم السؤال في بعض الأوقات إلى الإلحاف، فيجري هذا مجرى قولك: فلان لا يرجى خيره، أي ليس له خير فيُرجَى. وقال أبو علي: لم يثبت في هذه الآية مسألة منهم، لأن المعنى: ليس منهم مسألة فيكون منهم إلحاف، قال: ومثل ذلك قول الشاعر:

---

(١) تمامه: إذا سافَهُ العَوْدُ النباطيّ جَرْجَرَا.

واللاحب: هو الجادّة، أي: الطريق الواضح الذي لحبته الحوافر حتى أثّرت فيه فاتضح للسائر، وهو فاعل بمعنى مفعول أي ملحوب. والمنار: علامات الطريق التي يضعها الناس، ومعنى سافَهُ: أي شمّه، والعَوْد: هو الجمل المُسِنّ، ولا زالت دارجة في إطلاقها على البشر، والأنثى عَوْدَة وهي فصيحة. والنَّباطي هو الضخم أو المنسوب للنبط وهم عجم الشام، وجرجر: رغا البعير وضجّ. والمراد: أي ليس له منارٌ يهتدي به، فليس فيه علم ولا منار.

لا تُفــزِعُ الأرنــبَ أهوالُهــا ولا تـرى الضَّــبَّ بهـا ينجَحِـر

أي ليس بها أرنب فتفزع لهولها ولا ضبّ فينجحر، وقال الفراء: نفى الإلحاف عنهم وهو يريد نفي جميع السؤال.

والمسألة في الأصل حرام، وإنما أبيحت للحاجة والضرورة لأنها ظلم في حقّ الربوبية، وظلم في حق المسؤول، وظلم في حق السائل، أما الأول: فلأنّه بذلُ سؤاله وفقره وذلّه واستعطاءه لغير الله، وذلك نوع عبودية، فوضع المسألة في غير موضعها وأنزلها بغير أهلها، وظلم توحيده وإخلاصه وفقره إلى الله وتوكله عليه ورضاه بقسمه، واستغنى بسؤال الناس عن مسألة رب الناس، وذلك كله يهضم من حق التوحيد ويطفئُ نوره ويضعف قوّته.

وأما ظلمه للمسؤول: فلأنّه سأله ما ليس عنده، فأوجب له بسؤاله عليه حقًّا لم يكن له عليه، وعرّضه لمشقّة البذل، أو لوم المنع، فإن أعطاه أعطاه على كراهة، وإن منعه منعه على استحياء وإغماض، هذا إذا سأله ما ليس عليه، وأما إذا سأله حقًّا هو له عنده فلم يدخل في ذلك ولم يظلمه بسؤاله.

وأما ظلمه لنفسه: فإنه أراق ماء وجهه، وذلّ لغير خالقه، وأنزل نفسه أدنى المنزلتين، ورضي لها بأبخس الحالتين، ورضي بإسقاط شرَف نفسه وعزّة تعففه وراحة قناعته[(١)]، وباع صبره ورضاه وتوكله وقناعته بما قُسم له

---

(١)

وقــد تــترك الأســدُ الــبلادَ تنزُّهًــا إذا مــا كــلابُ الحــيّ لــجَّ هريرُهــا

واستغناءه عن الناس بسؤالهم، وهذا عين ظلمه لنفسه، إذْ وضعها في غير موضعها، وأخمل شرفها، ووضع قدرها، وأذهب عزّها وصغّرها وحقّرها، ورضي أن تكون نفسه تحت نفس المسؤول، ويده تحت يده، ولولا الضرورة لم يبح ذلك في الشرع.

وقد ثبت في الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما يزال الرجل يسأل الناس؛ حتى يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مُزْعَةُ لحم»**[(١)]. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من سأل الناس أموالهم تكثُّرًا؛ فإنّما يسأل جمرًا فليستقلّ أو ليستكثر»**[(٢)]. وفي الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أن رسول الله ﷺ قال: **«لَأَنْ يحتطب أحدكم حزمة على ظهره، خيرٌ له من أن يسأل أحدًا فيعطيه أو يمنعه»**[(٣)].

وقال رسول الله ﷺ: **«لأن يغدو أحدكم فيحتطب على ظهره فيتصدق به ويستغني به عن الناس؛ خير له من أن يسأل رجلًا، أعطاه أو منعه، ذلك بأن اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول»**[(٤)].

---

(١) البخاري ٢/١٥٣ (١٤٧٤) ومسلم ٣/٩٦ (١٠٤٠) (١٠٣)

(٢) البخاري ٢/١٥٣ (١٤٧٤) ومسلم ٣/٩٦ (١٠٤٠) (١٠٣)

(٣) البخاري ٢/١٥٢ (١٤٧٠) ومسلم ٣/٩٧ (١٠٤٢) (١٠٧)

(٤) البخاري (١٤٧٠)

وفى الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه: أنّ ناسًا من الأنصار(١) سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، ثم سألوه

---

(١) رجال الأنصار الذين اصطفاهم الله على الناس لنصرة نبيّه، واحتضان دعوته، وحرب الأحمر والأسود دونه، لهم حق عظيم على الأمة، ولهم سابقة جليلة لا يُلحقون إليها، وهم شعار رسول الله ﷺ إذ كان الناس دثاره، وهم من أتقى الناس، وأشجع الناس، وأكرم الناس، وأصدق الناس، وأوفى الناس، وأطيب الناس، قال ابن عباس رضي الله عنهما في الأنصار رضي الله عنهم: «ما استلّت السيوف، ولا زحفت الزحوف، ولا أقيمت الصفوف، حتى أسلم ابنا قَيْلَة». يعني الأوس والخزرج. ذكره في غرر الخصائص الواضحة (١ / ١٧٦).

والأوس والخزرج من بني عمرو بن عامر، من الأزد. وهم من وُصفوا بأنهم يكثُرون عند الفزع، ويقلّون عند الطمع. قال كعب بن زهير يمدحهم، وصدق رضي الله عنه وعنهم:

مــن سرَّه كَــرَمُ الحياة فــلا يــزلْ ... في مِقْنَــبٍ مـــن صــالحِ الأنصـــارِ
تَــزِنُ الجِبــالَ رَزانَــةً أحلامُهُـــم ... وَأَكُفُّهـــم خَلَــفٌ مِــنَ الأمطـــارِ
البـــاذلين نفوسَـــهم لنبـــيّهم ... يـــوم الهيـــاج وســـطوةِ الجبّـــارِ
وَالنـــاظِرينَ بِـــأَعيُنٍ مُحَمَـــرَّةٍ ... كَـــالجَمرِ غَـــيرِ كَليلَـــةِ الإِبصـــارِ
والمُكـــرِهينَ السَـــمهَريِّ بِـــأَذرُعٍ ... كَصَـــواقِلِ الهِنـــدِيِّ غَـــيرِ قِصـــارِ
يتطهّـــرون كأنّـــه نســـكٌ لهـــم ... بـــدماءِ مـــن علقـــوا مـــن الكفـــارِ
والذائـــدين النـــاس عـــن أديـــانهم ... بالمَشْـــرَفيّ وبالقَنـــا الخطّـــارِ
والبـــاعثين نفوســـهم لنبـــيّهم ... للمـــوت يـــوم تعـــانقٍ وكـــرارِ
وإذا حلَلْـــتَ ليمنعـــوك إلـــيهمُ ... أصـــبحت عنـــد معاقـــل الأعقـــارِ

=

فأعطاهم، حتى نفد ما عنده، فقال لهم حين أنفق كل شيء بيده: «**ما يكونُ عندي من خير فلن أدّخره عنكم، ومن يستعفف يُعفّه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبّر يُصبّره الله، وما أُعطي أحدٌ عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر**» (١).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال وهو على المنبر وذكر الصدقة والتعفّف والمسألة: «**اليدُ العليا خير من اليد السفلى، فاليد العليا هي المُنفقة، واليد السفلى هي السائلة**» (٢).

وعن حكيم بن حزام رضى الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال: «**يا حَكِيم، إنّ هذا المال خَضِرَةٌ حُلْوَة،**

=

وَهُمُ إذا خَوَتِ النُجومُ فَإنّهُم ... لِلطائِفينَ السائِلينَ مَقاري

وَهُمُ إذا انقَلَبوا كَأَنَّ ثِيابَهُم ... مِنها تَضَوّعُ فَأرَةَ العَطّارِ

وَالمُطعِمونَ الضَيفَ حينَ يَنوبُهُم ... مِن لَحمِ كومٍ كَالهِضابِ عِشارِ

وَالمُنعِمون المُفضِلونَ إذا شَتَوا ... وَالضارِبون عِلاوَةَ الجَبّارِ

ورثوا المكارم كابرًا عن كابرٍ ... إنّ الكِرامَ هُمُ بنو الأخيارِ

والمشرفية: نسبة إلى مشارف من أرض العرب، والخطّار: الرمح حين يهتز لارتفاعه وانخفاضه. والمعقل: الملجأ. والأعقار: الأسد. وفأرة العطار: حويصلة غزال المسك التي يستخرج منها المسك بعد خلطه بمواد أخرى.

(١) البخاري ٢/١٥١ (١٤٦٩) ومسلم ٣/١٠٢ (١٠٥٣) (١٢٤)

(٢) البخاري ٢/١٣٩-١٤٠ (١٤٢٩) ومسلم ٣/٩٤ (١٠٣٣) (٩٤)

فمن أخذه بسَخَاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يُبارَك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى». قال حكيم: فقلت يا رسول الله، والذي بعثك بالحق لا أرْزَأُ أحدًا بعدك شيئًا حتى أفارق الدنيا، وكان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يدعو حكيمًا إلى العطاء فيأبى أن يقبله منه، ثم إن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دعاه ليعطيه فأبى أن يقبل منه شيئًا، فقال عمر: إنّي أشهدكم يا معشر المسلمين على حكيم: أنّي أعرض عليه حقّه من هذا الفيء فيأبى أن يأخذه. فلم يرزأ حكيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أحدًا من الناس بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى توفي[(١)].

وعن عوف بن مالك الأشجعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنّا عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال: **«ألا تبايعون رسول الله؟»**. وكنا حديثي عهد ببيعته، فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال: **«ألا تبايعون رسول الله؟»** فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال: **«ألا تبايعون رسول الله؟»** قال: فبسطنا أيدينا وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله فعلام نبايعك قال: **«أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، والصلوات الخمس، وتطيعوا الله»**، وأَسرَّ كلمة

---

(١) البخاري ٢/١٥٢ (١٤٧٢) ومسلم ٣/٩٤ (١٠٣٥) (٩٦) ومعنى يرْزأ: أي لم يأخذ من أحد شيئًا، وأصل الرزء: النقصان، أي: لم ينقص أحدًا شيئًا بالأخذ منه، وإشراف النفس: تطلّعها وطمعها بالشيء. وسخاوة النفس: أي: عدم الإشراف إلى الشيء والطمع فيه والمبالاة به والشَّرَه.

خفيّة: **«ولا تسألوا الناس شيئًا»**. فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحدًا يناوله إياه[١].

وعن سمرة بن جندب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن المسألة كَدٌّ يكدّ بها الرجل وجهه، إلّا أن يسأل الرجل سلطانًا أو في أمرٍ لا بدَّ منه»**[٢].

وعن ثوبان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من يتقبّل لي بواحدة، وأتقبّلُ له بالجنة؟»** قال: قلت: أنا، قال: **«لا تسأل الناس شيئًا»**. فكان ثوبان يقع سوطه وهو راكب فلا يقول لأحد: ناولنيه، حتى ينزل هو فيتناوله[٣].

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من أصابته فاقةٌ فأنزلها بالناس لم تُسدَّ فاقته، ومن أنزلها بالله فيوشك الله له[٤] برزق عاجل أو آجل»**[٥].

وعن سهل بن الحنظلية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قدم على رسول الله عيينة ابن حصن والأقرع بن حابس فسألاه، فأمر لهما بما سألاه، وأمر معاوية فكتب لهما بما سألا، فأمّا الأقرع فأخذ كتابه فلفّه في عمامته وانطلق، وأما عيينة فأخذ كتابه

---

(١) مسلم ٣/٩٧ (١٠٤٣) (١٠٨)

(٢) الترمذي (٦٨١) وقال: حسن صحيح. وصححه الألباني.

(٣) أحمد (٢٢٤٠٥) وصححه محققوه.

(٤) أي: أسرع له.

(٥) أبو داود (١٦٤٥)، والترمذي (٢٣٢٦) وقال: حديث حسن صحيح غريب. وأحمد (٣٨٦٩) وحسنه محققوه.

فقال: أراني حاملًا إلى قومي كتابًا لا أدري ما فيه، كصحيفة المُتَلَمِّس![1] فأخبر معاوية بقوله رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: **«من سأل وعنده ما يغنيه فإنّما يستكثر من النار»**، وفي لفظ: **«من جمر جهنم»** قالوا: يا رسول الله؛ وما يغنيه؟ وفي لفظ: وما الغنى الذي لا تنبغي معه المسألة؟ قال: **«قدر ما يغدّيه وما يعشّيه»**[2]. وفي لفظ: **«أن يكون له شِبَعُ يومٍ وليلة»**[3].

---

(١) صحيفة المتلمّس: لها قصة مشهورة عند العرب، والمُتَلَمِّس شاعر جاهلي، كان قدم هو وطَرَفَةُ ابن العبد الشاعر على الملك عمرو بن المنذر، فأقاما عنده، فنقم عليهما أمرًا إذ هجاه طَرَفه، فكتب لهما كتابين إلى عامله بهَجَر، يأمره بقتلهما، وقال لهما: إني قد كتبت لكما بِصِلَةٍ، فاجتازوا بالحيرة، فأعطى المتلمّس صحيفته صبيًّا فقرأها فإذا فيها يأمر عامله بقتله، فألقاها في الماء، وذهب وقال لطرفه: افعل مثل فعلي؛ فإن صحيفتك مثل صحيفتي، فأبي عليه، ومضى بها إلى عامل الملك، فأمضى فيه حكمه وقتله. وانظر خبرهما مفصلًا في: وقد يجمع الله الشتيتين. للمؤلف.

(٢) قوله: «ما يُغدّيه وما يعشّيه» قال البغوي في شرح السنة (٦/٨٦): قال بعضهم: من وجد غداء يومه وعشاءه لم تحلّ له المسألة، على ظاهر الحديث، وقال بعضهم: إنّما هو فيمن وجد غداءه وعشاءه على دائم الأوقات، وقال بعضهم: هذا منسوخ بأحاديث كحديث ابن مسعود عند أحمد (٣٦٧٥) وحسنه محققوه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من سأل وله ما يغنيه؛ جاءت يوم القيامة خدوشًا، أو كدوشًا في وجهه»**، قالوا: يا رسول الله، وما غناه؟ قال: **«خمسون درهمًا، أو حسابها من الذهب»**.

(٣) أحمد (٧٦٣٥) وصححه محققوه، وأبو داود (١٦٢٩) وصححه الألباني، وعند أحمد أن الذي ذكر صحيفة المتلمس هو الأقرع.

وعن قبيصة بن مخارق الهلالي قال: تحمّلتُ حَمَالَة(١) فأتيت النبي ﷺ أسأله فقال: «**أقم حتى تأتينا الصدقة، فآمر لك بها**» ثم قال: «**يا قبيصة، إن المسألة لا تحلّ إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمّل حمالة فحلّت له المسألة حتى يصيبَها ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلّت له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش، ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوي الحِجَى(٢) من قومه: لقد أصابت فلانًا فاقة. فحلّت له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش. فما سواهنّ من المسألة يا قبيصة سُحْتٌ يأكلها صاحبها سحتًا**»(٣).

وعن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال: سرّحتني أمي إلى رسول الله أسألُه، فأتيتُه فقعدت قال: فاستقبلني فقال: «**من استغنى أغناه الله، ومن استعفّ أعفّه الله، ومن استكفى كفاه الله، ومن سأل وله قيمة أوقيّة فقد ألحف**». فقلت: ناقتي هي خير من أوقية، ولم أسأله(٤).

وعن خالد بن عدي الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ قال: «**من جاءه من أخيه معروفٌ من غير إشراف ولا مسألة فليقبلْه ولا يردّه، فإنّما هو رزق ساقه الله إليه**»(٥). فهذا أحد المعنيين في قوله: إن من شرط الرضا: ترك

---

(١) أي: تحمّل دَينًا في سبيل الإصلاح بين المتخاصمين، ديةً أو سِوَاها.

(٢) أي: من ذوي الألباب ممن عُرفوا برجاحة العقول من قومه العارفين بشأنه.

(٣) مسلم ٣/٩٨ (١٠٤٤) (١٠٩)

(٤) أبو داود (١٦٣٠) وحسنه الألباني. ومعنى ألحف: ألحّ وأسرف من غير ضرورة.

(٥) أحمد (١٧٩٣٦) وصححه محققوه.

الإلحاح في المسألة، وهو أليق المعنيين وأولاهما، لأنه قرَنه بترك الخصومة مع الخلق، فلا يخاصمهم في حقّه، ولا يطلب منهم حقوقه. والمعنى الثاني: أنه لا يلحّ في الدعاء ولا يبالغ فيه، فإن ذلك يقدح في رضاه، وهذا يصح في وجه دون وجه، فيصح إذا كان الداعي يلح في الدعاء بأغراضه وحظوظه العاجلة، وأما إذا ألحّ على الله في سؤاله بما فيه رضاه والقرب منه فإن ذلك لا يقدح في مقام الرضا أصلًا. وفي الأثر: **«إن الله يحب المُلِحِّين في الدعاء»**[1].

---

(١) قال في كشف الخفاء (١ / ٢٤٦): «رواه الطبراني وأبو الشيخ والقضاعي عن عائشة مرفوعًا». وقال الحافظ في الفتح (١١ / ٩٥): «بسند رجاله ثقات، إلا أن فيه عنعنة بقيّة عن عائشة مرفوعًا». أهـ. وقد قالوا: عنعة بقيّة غير نقيّة! وحكم عليه الألباني في إرواء الغليل (٣ / ١٤٣) (١٦١) بالوضع. والمؤلف لم يرفعه، بل ذكره أثرًا، ومعناه صحيح.

قلت: والأظهر أنّ الإلحاح على الله تعالى حتى بحظوظ المرء العاجلة المباحة لا ينافي الرضا ولا يُنقصه ما دام محرِّكًا قلبه بأن الخِيرة فيما اختاره الله وأنه راض بالله وبما قسم الله، لأنّ الدعاء بذاته عباده، والله يحب المُلِحِّين بالدعاء المُلِظِّين بالابتهال، فهذا الدعاء بأمر دنيا ـ وإن كان دون دعائه بمعالي الآخرة ـ إلا أنه عبادة، كما أنه وسيلة لتفرّغ القلب عن شغله الذي تلبّسه من حاجةٍ شوّشتْ عليه جمعيته، أو بليّة بلبلتْ باله، أو رغيبة يراها موصلة لمرضاة الله، أو دافعة لذريعة سخطه، ونحو ذلك. فما دام قلبه راضٍ بربه في دعائه فهو على خير عظيم حتى وإن كان يدعوه في جلب ملح طعامه أو رتق قربته أو شفاء جرحه أو تيسير دراسته وعمله ونحو ذلك، مع استحضار ألّا يكون الديدن إلحاحًا في أمورِ الدنيا دو الدين والآخرة فهذا حرمانٌ وخسران ومَيلُ ميزان، فالدنيا كلها وسيلة لا غاية، فكيف يلحّ في الوسيلة ويُجمل في الغاية، إنّ هذا لهو الحرمانُ المبين والخذلان العظيم والخيبة المخوفة والغبن الفاحش والصفقة الخاسرة، فالموفق من ولد
=

وقال أبو بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يوم بدر للنبي ﷺ: «يا رسول الله، قد ألححتَ على ربك، كفاك بعض مناشدتك لربك» فهذا الإلحاح عين العبودية. وفي سنن ابن ماجه من حديث أبي صالح عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من لم يسأل الله يغضب عليه»**(١). فإذا كان سؤاله يرضيه لم يكن الإلحاح فيه منافيا لرضاه.

وحقيقة الرضا: موافقته سبحانه في رضاه، بل الذي ينافي الرضا أن يلحّ عليه متحكّمًا عليه متخيّرًا عليه ما لم يعلم: هل يرضيه أم لا؟ كمن يلحّ على ربّه في ولاية شخص أو إغنائه أو قضاء حاجته، فهذا ينافي الرضا لأنه ليس على يقين أن مرضاة الرب في ذلك.

=
آدم مَن رفع عماد الآخرة في قلبه إذْ رفعها الله تعالى ووضع الدنيا حيث وضعها الله تعالى، فهذه هي جامعة الوصايا للسالكين.

كما أنّ القول بذلك قد يُغلق دون الناس بابًا قد شرعه لهم مولاهم ليدْعُوه ويسألوه، فهم خلقه ومماليكه ومحاويجه ومواليه وعبيده وضعفاؤه ومساكينه وفقراؤه ومربوبوه ومرحوموه، وهو خالقهم ومالكهم وسيدهم ومولاهم وربهم ومُربِّيهم ومُنعِمهم ومُكرِمهم وواهبهم وراحمهم وحافظهم ورازقهم وكافلهم وصمدهم وقيومهم تبارك وتعالى، فمِن نقصان المرء استحسارُه عن الدعاء.

وبالجملة؛ فمهما كان الإلحاح فهو فرع عن الدعاء، فإن قبِلتَ الأصل؛ فلتقبلْ فرعه ما دام القلب مطمئنًّا بالرضا عن ربه وبه. وسيأتي بسط ذلك فيما يُستقبل إن شاء الله تعالى.

(١) أحمد (٢/٤٤٢) والبخاري في الأدب المفرد (٦٥٨) والترمذي (٥ / ٤٥٦) (٣٣٧٣) وحسنه الألباني.

فإن قيل: فقد يكون للعبد حاجة يُباح له سؤاله إياها، فيلحّ على ربه في طلبها حتى يفتح له من لذيذ مناجاته وسؤاله والذلّ بين يديه وتملّقه والتوسّل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده وتفريغ القلب له وعدم تعلّقه في حاجته بغيره ما لم يحصل له بدون الإلحاح، فهل يكره له هذا الإلحاح وإن كان المطلوب حظًّا من حظوظه؟ قيل: ها هنا ثلاثة أمور:

أحدها: أن يفنى بمطلوبه وحاجته عن مراده ورضاه[1]، ويجعل الرب تعالى وسيلة إلى مطلوبه، بحيث يكون أهمّ إليه منه، فهذا ينافي كمال الرضا به وعنه.

الثاني: أن يفتح على قلبه حال السؤال من معرفة الله ومحبته والذلّ له والخضوع والتملّق ما ينسيه حاجته، ويكون ما فُتح له من ذلك أحبّ إليه من حاجته، بحيث يحب أن تدوم له تلك الحال، وتكون آثر عنده من حاجته، وفرحه بها أعظم من فرحه بحاجته لو عُجّلت له وفاته ذلك، فهذا لا ينافي رضاه[2].

---

(١) أي: أن يَغِيبَ أو يضعف شهودُ معيّة الله ومناجاته وقربه عن قلبه بسبب انسداده بشرَهِهِ لدَرك حاجته الدنيوية.

(٢) فوسيلته أحبّ إليه وألذّ وأنفع وأطيب من غايته، كما قيل: «يا ابن آدم، لقد بورك لك في حاجة أكثرت فيها من قرع باب سيدك». وقيل: «يا ابن آدم، البلاء يجمع بينك وبين الله، والعافية تجمع بينك وبين نفسك».

وقيل: «كلّ كسرٍ ألجأك إلى الله فهو جبر وإن أوجعك». فالرجوع بالقلب إلى الله إقبالًا على مرضاته هو الهدف، ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ١٦٨﴾ [الأعراف: ١٦٨]

=

وقال بعض العارفين: «إنه لتكون لي حاجة إلى الله، فأسأله إياها، فيفتح عليّ من مناجاته ومعرفته والتذلّل له والتملّق بين يديه ما أحبّ معه أن يؤخر عنّي قضاءها، وتدوم لي تلك الحال». وفي أثر: «إن العبد ليدعو ربه عز وجل، فيقول الله عز وجل لملائكته: اقضوا حاجة عبدي وأخّروها، فإنّي أحبّ أن أسمع دعاءه. ويدعوه آخر فيقول الله لملائكته: اقضوا حاجته وعجّلوها، فإني أكره صوته[1]»[2].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من سرّه أن يستجيب الله له عند الشدائد فليكثر من الدعاء في الرخاء»**[3]. وروى أيضا من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: **«ليسأل أحدكم ربه حاجته، حتى يسأله الملح، وحتى يسأله شسع نعله إذا انقطع»**[4]. وفيه أيضا

=

وكل نعمة لا تقربك إلى الله فهي نقمة، وكل مصيبة قرّبتك إلى الله فهي نعمة، ومن استشعر موازين الآخرة تغيّرت نظرته للنعم والمصائب، واعتدلت له الموازين.

(١) أي: دعاءه.

(٢) الدعاء للطبراني (٨٧) والمعجم الأوسط (٨٤٤٢) بنحوه. وضعفه الألباني في السلسلة (٥ / ٣٢١) (٢٢٩٦)

(٣) الترمذي (٥ / ٤٦٢) (٣٣٨٢) وحسنه الألباني.

(٤) الترمذي (٢٢٥٢) وحسنه الألباني في المشكاة وضعفه في الجامع. وقال الحافظ ابن حجر في الزوائد: (٣٠٥): «إسناده حسن». وصوّب أيمن صالح شعبان في تخريج جامع الأصول (٤ / ١٦٦) إرساله. وقد جاء بنحوه عند أبي يعلى (٣٤٠٣) بدون ذكر

=

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما سُئل اللهُ شيئًا أحبّ إليه من أن يُسأل العافية، وإن الدعاء لينفع مما نزل ومما لم ينزل، فعليكم عباد الله بالدعاء»** (١). وإذا كانت هذه محبة الرب تعالى للدعاء فلا ينافي الإلحاح فيه الرضا(٢).

الثالث: أن ينقطع طمعه من الخلق، ويتعلق بربه في طلب حاجته، وقد أفرده بالطلب، ولا يلوي على ما وراء ذلك. فهذا قد تنشأ له المصلحة من نفس الطلب وإفراد الرب بالقصد، والفرق بينه وبين الذي قبله: أن ذلك قد فتح عليه بما هو أحبّ إليه من حاجته، فهو لا يبالي بفواتها بعد ظفره بما فتح عليه. وبالله التوفيق»(٣).

واعلم يا مُحِبّ ـ رحمني الله وإياك ـ أنّك لن تبلغ حقيقة الرضا حتى تكون مع نفسك كنوحٍ مع سفينته التي أطلقها في اللُّجَّةِ مُسَلِّمًا راضيًا وبالله فرِحًا مستبشرًا؛ فاهتف معه: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآ﴾ [هود: ٤١]، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦﴾ [هود: ٥٦]، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ٥٧﴾ [هود: ٥٧]، ﴿إِنَّ

=

الملح، وقال عنه حسين سليم أسد: إسناده صحيح، على شرط مسلم، وكذلك صححه سليمان آل الشيخ في تيسير العزيز الحميد (١ / ١٨٤).

(١) الترمذي (٣ / ١٧٧) (٢٨١٣) وصححه الألباني.

(٢) الإلحاح بالدعاء عبادة، والعبادة وسيلة الرضا، فالإلحاح إلى الله تعالى بدعائه هو من وسائل الرضا وأسبابه.

(٣) مدارج السالكين (٢ / ٢٠٥ - ٢٤٠) باختصار.

رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ [هود: ٦١]، ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود: ٨٨].

أيَا صَاح فَاسمعْ مِن وَصَايَايَ عِبْرَةً ... وكُنْ ثَابتًا في الدِّينِ كالطَّوْدِ رَاسِيا
وادعُ إلهَ الحقِّ يُعطِيكَ مِيتَةً ... بكبدِ الوَغى شَعْثًا صَرِيعَ العَوَادِيا
بعيدًا ونَائيْ الدارِ في أرضِ غُرْبَةٍ ... خرَجْتَ سليمَ القلبِ تتلو المَثَانِيا
فمَنْ يَطلب العُلْيا يبيتُ مُسَهَّدًا ... وليسَ بِمَيْتِ القلبِ لِلَّهْوِ سَارِيا
ويُصبحُ صَوَّامًا كَثيرًا دُعَاؤهُ ... إلى الله يَمضِي وهو لِلشَّرِّ قَالِيَا
يحُنُّ تُرَابُ الأرضِ مِن صِدقِ دَمْعِهِ ... ويُشبهُ حينَ الوِترِ إحدى السَّوَارِيا
سَخِيًّا بِذِي الدُّنيا ضَنِينًا بدينِهِ ... سَحَابًا كما الأطْوَادِ سُودًا غَوَادِيا
ولَا تَكْسَلَنْ حِبِّي عَن العلم سَاعةً ... وما فَاتَ وَلَّى في ليالٍ خَوَالِيا
وسَارِعْ إلى القرآنِ حِفظًا وفِكْرَةً ... ومِنْ ثَمَّ فاعكفْ للأحاديثِ جَاثِيَا
واسْأَلْ إلهَ العرشِ يُحْييكَ عالِمًا ... فمَنْ ذَاقَ شَهْدَ العِلْم عَافَ الغَوَانِيا

العزمُ على الرِّضا لا يستلزم الرِّضا

زمن العزم متقدم على زمن الرضا، فالعزم سابق ماضٍ والرضا آنٍ حاضر، لذا فقد يعزم الإنسان على أمر من الأمور كالرضا أو غيره فيعرض له عارضُ عجزٍ أو ملال أو تغيّر قناعة أو نسيان أو استغناء أو طروء أمر جدَّ له فتنفسخ عزيمته وتبرد إرادته خاصة مع طول المدى وامتداد الزمن، لذلك كان القليل الدائم خير من الكثير المنقطع، والدِّيَمُ خيرٌ من القَاشِعِ، وعلامةُ صدق العزيمة ثباتها، وبرهانُ صدق الرغبة ديمومة حضورها، والثبات والاستمرار على العمل الصالح محض توفيق الرب الرحيم سبحانه، فأنت ترغب وتريد والله يفعل ما يريد، والمُوفّقُ من عباد الله هو مَنْ أثبتَ الصالحات كيما تعتادها نفسُه ويألفها طبعُه وتكون جزءًا من شخصيته وتكوينه، وبالمقابل يقتلع رغبات المُحرمات من جذورها حتى لا تستحكم فيصعب جهادها، وتثقل التوبة عنها، فيُثبتُ الصالحات بالمداومة عليها، ويُنحّي عن صحيفته ومنهاجه الخطيئات قدر وسعه وطاقته. والسعيد من ثبّته هاديهِ على هداه.

فبما أنّ القلبَ قُلَّبٌ والنفسَ حرونٌ والرُّوحَ شرودٌ؛ فقد يعزم المرء على الرضا حتى إذا نزلت به النازلة عجز عن احتمال ورودها فخارت عزيمته ونقض ما كان أبرمه من عزمه على الرضا، فكسرت المصيبةُ ساقَ عزمه المُبتَغى، وفلّت البليةُ رضاه المظنون، وانتقض مِن هِمّته ما رَامه في ابتداء، وانفسخ عن قلبه ما كان يرجو من وفاء، والله المستعان. قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الرضا والتوكل يكتنفان المقدور، فالتوكل قبل وقوعه

والرضاء بعد وقوعه، ولهذا كان النبي ﷺ يقول في الصلاة: «**اللَّهم بعلمك الغيب وبقدرتك على الخلق؛ أحيني ما علمت الحياة خيرًا لي، وتوفَّني إذا كانت الوفاة خيرًا لي. اللَّهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيمًا لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، اللَّهم إني أسألك الرضا بعد القضاء، وأسألك بَرْدَ العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك، من غير ضراء مضرّة، ولا فتنة مضلة، اللَّهم زيِّنّا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين**»[(١)].

وأما ما يكون قبل القضاء فهو عزم على الرضا لا حقيقة الرضا، ولهذا كان طائفة من المشايخ يعزمون على الرضا قبل وقوع البلاء، فإذا وقع انفسخت عزائمهم، كما يقع نحو ذلك في الصبر وغيره، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝١٤٣﴾ [آل عمران: ١٤٣]، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف: ٢-٣] نزلت هذه الآية لمّا قالوا: «لو علمنا أي الأعمال أحبّ إلى الله لعملناه»، فأنزل الله آية الجهاد، فكرهه من كرهه.

ولهذا كُره للمرء أن يتعرّض للبلاء بأن يوجب على نفسه مالا يوجبه الشارع عليه بالعهد والنذر ونحو ذلك، أو يطلب ولاية، أو يقدم على بلد فيه

(١) أحمد (١٨٣٥١) والنسائي (١٣٠٥) وصححه الألباني في الكلم الطيب (١٠٦)

طاعون، كما ثبت في الصحيحين من غير وجه عن النبي ﷺ أنه: **«نهى عن النذر، وقال: إنه لا يأتي بخير، وإنما يستخرج به من البخيل»**(١).

وثبت عنه في الصحيحين أنه قال لعبد الرحمن بن سمرة: **«لا تسأل الإمارة، فإنك إن أُعطيتها عن مسألة وُكِلْتَ إليها، وإن أُعطيتَها من غير مسألة أُعنتَ عليها، وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرًا منها فأت الذي هو خير وكفّر عن يمينك»**(٢).

وثبت عنه في الصحيحين أنه قال في الطاعون: **«إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها»**(٣).

وثبت في الصحيحين أنه قال: **«لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، ولكن إذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»**(١).

---

(١) البخاري (١٧٦/٨) مسلم (٧٧/٥ و٧٨)

(٢) البخاري ٧٩/٩ (٧١٤٦)، ومسلم ٨٦/٥ (١٦٥٢) (١٩)

(٣) البخاري ٢١٢/٤ (٣٤٧٣) ومسلم ٢٦/٧ (٢٢١٨) (٩٢) قال العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال بعض أهل العلم: إنه نوع خاص من الوباء، وإنه عبارة عن تقرحات في البدن تصيب الإنسان وتجري جريان السيل حتى تقضي عليه، وقيل: إن الطاعون وخزٌ في البطن يصيب الإنسان فيموت، وقيل: إن الطاعون اسم لكل وباء عام ينتشر بسرعة، كالكوليرا وغيرها، وهذا أقرب». شرح رياض الصالحين (٣٥٥/٤)

وقد ذكر ديورانت في قصة الحضارة أنّ الطاعون كان يُطلق في أوروبا على كل وباء مُعْدِي إلى عام (١٥٠٠ م) وبعدها فصلوا الأمراض الوبائية القاتلة كالجدري والحصبة والتيفوئيد.

وانظر: نافذة على قصة الحضارة (١٨) للمؤلف.

وأمثال ذلك مما يقتضي أن الإنسان لا ينبغي له أن يسعى فيما يوجب عليه أشياء فيبخل بالوفاء، كما يفعل كثير ممن يعاهد الله عهودًا على أمور، وغالب هؤلاء يُبتلون بنقض العهود.

وينبغي أن الإنسان إذا ابتُلي فعليه أن يصبر ويثبت، ولا يكلّ، حتى يكون من الرجال المُوفين القائمين بالواجبات»[٢]. «وما أكثر انفساخ العزائم، خصوصًا عزائم الصوفية، ولهذا قيل لبعضهم: بماذا عرفت ربك؟ قال: بفسخ العزائم ونقض الهمم»[٣].

ومن حسنت نيته وعظمت همته وصدق حاله؛ فإن الله تعالى لا يخيّبه في إراداته وعزائمه، فهو على خير وإلى خير بإذن الله تعالى، ولكن خبث المعدن وسوء الطوية وضَعَة الهمة أسباب لرفع المعونة الربانية عنه.

=

(١) تمامه: ثم قال النبي ﷺ: **«اللّهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم»**. رواه البخاري ٤/٦٢ (٢٩٦٦) ومسلم ٥/١٤٣ (١٧٤٢) قال العثيمين: «في الحديث: ألا يتمنى الإنسان لقاء العدو، وهذا غير تمنّي الشهادة، تمني الشهادة جائز بل قد يكون مأمورًا به. وفيه أن يسأل الله العافية والسلامة، وإذا لقيت العدو فاصبر، وينبغي لأمير الجيش أن يرفق بهم ويختار الوقت المناسب من الناحية اليومية والفصلية، وفيه الدعاء على الأعداء بالهزيمة». شرح رياض الصالحين (١/١٣١)

(٢) أمراض القلوب (١ / ٥٣-٥٤) مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٧-٣٩)

(٣) مجموع الفتاوى (١٠ / ٦٨٩) وانظر: انفساخُ العَزَائِمِ وانتقاضُ الدَّعَائِمِ. للمؤلف.

والله تعالى عند ظن عبده به، فمن ظن به خيرًا وجدَّ له وَجَده، ومن ظن به سوءًا فهو وما ظنّه، وقد أفلح محسنو الظن بمن لا يأتي الخير إلا منه، ولا يدفع الشر إلا هو، تبارك وتعالى ربنا الأعلى العظيم.

مَـن ظَـنَّ بِـاللهِ خَـيرًا جـادَ مُبتَـدِئًا وَالبُخلُ مِن سوءِ ظَنِّ المَرءِ بِاللهِ

الرضا بالله ربًّا وإلهًا

للإيمان بالله خُلِقنا، ولأجل تحقيق عبادته أُوجِدْنا، ومعيار الفوز والخسار يوم الدين على وفق ذلك، ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذَّارِيَات: ٥٦]، ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ۝١٨٥﴾ [آل عِمْرَان: ١٨٥].

والرضا بالله متأكد أكثر من الرضا عن الله؛ لأنه مُصحِّحُ الإيمان، ولا يصدر إلا من مؤمن، فقد يرضى الكافر بالقضاء، ولكن لا يرضى بالله إلا مؤمن موحد، ومن رضي بالله لزم أن يرضى عن الله، فاستحقّ أن يرضى عنه الله كرمًا من الله تعالى.

ألَا وإنّ للإيمان حلاوة وطلاوة ونعيمًا وسعادة وراحة ولذة لا تشبه سواها من لذائذ العقل ومشتهيات الجسد ومتع الروح، يجدها من ذاقها، فنَهَلَ وعَبَّ مِن بحر الرضا بالله وبدينه وبرسوله ﷺ، فواهًا لتيك المنازل!

وإنّ رضا العبد بربّه موصل لرضا ربه عنه سبحانه، فمن رضي بالله ربًّا أذاقه الله تعالى إيمانًا يجد حلاوته في قلبه. قال رسول ﷺ: **«ذَاقَ طَعمَ الْإِيمَانِ مَن رَضِيَ بِالله رَبًّا، وَبِالإِسلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا»** (١). قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالرضا بإلهيته: يتضمن الرضا بمحبته وحده وخوفه ورجائه

(١) رواه مسلم (٣٤)، والترمذي (٢٦٢٣)

والإنابة إليه والتبتل إليه وانجذاب قوى الإرادة والحب كلها إليه فعل الراضي بمحبوبه كل الرضا، وذلك يتضمن عبادته والإخلاص له.

والرضا بربوبيته: يتضمن الرضا بتدبيره لعبده، ويتضمن إفراده بالتوكل عليه والاستعانة به والثقة به والاعتماد عليه، وأن يكون راضيًا بكل ما يفعل به. فالأول: يتضمن رضاه بما يُؤمر به، والثاني: يتضمن رضاه بما يُقدِّر عليه.

وأما الرضا بنبيّه رسولًا: فيتضمن كمال الانقياد له والتسليم المطلق إليه، بحيث يكون أولى به من نفسه، فلا يتلقّى الهدى إلا من مواقع كلماته، ولا يحاكِمُ إلا إليه، ولا يُحَكِّمُ عليه غيرَه، ولا يرضى بحكم غيره البتة، لا في شيء من أسماء الرب وصفاته وأفعاله، ولا في شيء من أذواق حقائق الإيمان ومقاماته، ولا في شيء من أحكام ظاهره وباطنه. لا يرضى في ذلك بحكم غيره، ولا يرضى إلا بحكمه، فإن عجز عنه كان تحكيمه غيره من باب غذاء المضطر إذا لم يجد ما يقيته إلا من الميتة والدم، وأحسن أحواله أن يكون من باب التراب الذي إنما يتيمم به عند العجز عن استعمال الماء الطهور.

وأما الرضا بدينه: فإذا قال أو حكم أو أمر أو نهى: رضي كل الرضا ولم يبق في قلبه حرج من حكمه، وسلّم له تسليمًا، ولو كان مخالفًا لمراد نفسه أو هواها أو قول مقلّده وشيخه وطائفته.

وههنا يوحشك الناس كلهم إلا الغرباء في العالم، فإيّاك أن تستوحش من الاغتراب والتفرّد، فإنّه والله عينُ العزّة والصحبة مع الله ورسوله، وروح الأنس به والرضا به ربًّا وبمحمد رسولًا وبالإسلام دينًا.

بل الصادق كلّما وجد مسّ الاغتراب وذاق حلاوته وتنسّم روحه قال: اللّهم زدني اغترابًا ووحشة من العالم وأنسًا بك. وكلّما ذاق حلاوة هذا الاغتراب وهذا التفرّد؛ رأى الوحشةَ عينَ الأنسِ بالناس، والذلَّ عينَ العزّ بهم، والجهلَ عينَ الوقوف مع آرائهم وزبالة أذهانهم، والانقطاع عينَ التقيّد برسومهم وأوضاعهم.

فلم يؤثر بنصيبه من الله أحدًا من الخلق، ولم يبع حظه من الله بموافقتهم فيما لا يجدي عليه إلا الحرمان، وغايته: مودة بينهم في الحياة الدنيا، فإذا انقطعت الأسباب وحقّت الحقائق وبُعثر ما في القبور وحصّل ما في الصدور وبُلِيت السرائر ولم يجد من دون مولاه الحق من قوة ولا ناصر؛ تبيّن له حينئذ مواقع الربح والخسران، وما الذي يخفّ أو يرجح به الميزان، والله المستعان وعليه التكلان.

والرّضا بالله ربًّا: أن لا يتّخذ ربًّا غير الله تعالى يسكن إلى تدبيره وينزل به حوائجه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، قال ابن عباس رضى الله عنهما: «سيدًا وإلهًا». يعني فكيف أطلب ربًّا غيره وهو ربّ كل شيء.

وقال في أول السورة: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الأنعام: ١٤] يعني معبودًا وناصرًا ومعينًا وملجأً، وهو من الموالاة التي تتضمّن الحب والطاعة. وقال في وسطها: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤] أي: أفغيرَ الله أبتغي من يحكم بيني

وبينكم فنتحاكم إليه فيما اختلفنا فيه وهذا كتابه سيد الحُكّام، فكيف نتحاكم إلى غير كتابه وقد أنزله مفصلًا مبيّنًا كافيًا شافيًا؟!

وأنت إذا تأملت هذه الآيات الثلاث حقّ التأمل؛ رأيتها هي نفس الرضا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولًا، ورأيت الحديث يترجم عنها ومشتق منها، فكثير من الناس يرضى بالله ربًّا ولا يبغي ربًّا سواه لكنه لا يرضى به وحده وليًّا وناصرًا، بل يوالي مِن دونه أولياء ظنًّا منه أنهم يقرّبونه إلى الله، وأنّ موالاتهم كموالاة خواص الملك، وهذا عين الشرك! بل التوحيد ألا يتخذ من دونه أولياء.

والقرآن مملوء من وصف المشركين بأنهم اتخذوا من دونه أولياء. وهذا غير موالاة أنبيائه ورسله وعباده المؤمنين فيه، فإنّ هذا من تمام الإيمان، ومن تمام موالاته. فموالاة أوليائه لونٌ واتخاذ الوليّ من دونه لون. ومن لم يفهم الفرقان بينهما فليطلب التوحيد من أساسه، فإنّ هذه المسألة أصل التوحيد وأساسه.

وكثير من الناس يبتغي غيره حكمًا يتحاكم إليه ويخاصم إليه ويرضى بحكمه، وهذه المقامات الثلاث هي أركان التوحيد: ألا يتخذ سواه ربًّا ولا إلهًا ولا غيره حكمًا.

وتفسير الرضا بالله ربًّا: أن يسخط عبادة ما دونه[1]. هذا هو الرضا بالله إلهًا، وهو من تمام الرضا بالله ربًّا، فمن أعطى الرضا به ربًّا حَقُّه سخط عبادةَ ما

(١) دونه: أي غيره وسواه.

دونه قطعًا؛ لأن الرضا بتجريد ربوبيته يستلزم تجريد عبادته، كما أن العلم بتوحيد الربوبية يستلزم العلم بتوحيد الإلهية.

ولا بدّ أن يكون الله عز وجل أحبَّ شيء إلى العبد. وهذه تُعرف بثلاثة أشياء:

أحدها: أن تسبق محبته إلى القلب كل محبة، فتتقدم محبته المحابَّ كلها.

الثاني: أن تقهر محبته كل محبة فتكون محبته إلى القلب سابقة قاهرة، ومحبة غيره متخلفة مقهورة مغلوبة منطوية في محبته.

الثالث: أن تكون محبة غيره تابعة لمحبته، فيكون هو المحبوب بالذات والقصد الأول، وغيره محبوبًا تبعًا لحبه، كما يطاع تبعًا لطاعته، فهو في الحقيقة المطاع المحبوب. وهذه الثلاثة في كونه أَولَى الأشياء بالتعظيم والطاعة أيضًا.

فالحاصل: أن يكون الله وحده المحبوب المُعظَّم المطاع، فمن لم يحبه ولم يطعه ولم يعظمه فهو متكبر عليه. ومتى أحبّ معه سواه وعظم معه سواه وأطاع معه سواه فهو مشرك، ومتى أفرده وحده بالحب والتعظيم والطاعة فهو عبد موحّد.

والرضا بالله آكدُ من الرضا عن الله؛ فإن الرضا بالقضاء يصحّ من المؤمن والكافر، وغايته التسليم لقضاء الله وقدره، فأين هذا من الرضا به ربًّا وإلهًا ومعبودًا؟!

وأيضًا فالرضا به ربًّا فرض، بل هو من آكد الفروض باتفاق الأمة، فمن لم يرض به ربًّا لم يصح له إسلام ولا عمل ولا حال، وأما الرضا بقضائه فأكثر

الناس على أنه مستحب وليس بواجب، وقيل: بل هو واجب، وهما قولان في مذهب أحمد.

فالفرق بين الدرجتين فرقُ ما بين الفرض والندب، وفي الحديث الإلهي[(١)] الصحيح: يقول الله عز وجل: **«ما تقرّبَ إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ مما افترضت عليه»**[(٢)]. فدل على أن التقرب إليه سبحانه بأداء فرائضه أفضل وأعلى من التقرب إليه بالنوافل.

وأيضًا فإن الرضا به ربًّا يتضمن الرضا عنه ويستلزمه، فإن الرضا بربوبيته هو رضا العبد بما يأمره به وينهاه عنه ويقسمه له ويقدّره عليه ويعطيه إياه ويمنعه منه، فمتى لم يرض بذلك كله لم يكن قد رضي به ربًّا من جميع الوجوه، وإن كان راضيًا به ربًّا من بعضها، فالرضا به ربًّا من كل وجه يستلزم الرضا عنه ويتضمّنه بلا ريب.

وأيضًا فإنّ النبي ﷺ علّق ذوق طعم الإيمان بمن رضي بالله ربًّا، ولم يعلقه بمن رضي عنه، كما قال: **«ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولًا»**[(٣)]. فجعل الرضا به قرين الرضا بدينه ونبيّه، وهذه الثلاثة هي أصول الإسلام التي لا يقوم إلا بها وعليها.

---

(١) يسمّى حديث إلهي وقدسي وربّاني لإضافته إلى الله تبارك وتعالى.

(٢) البخاري ٨/١٣١ (٦٥٠٢) وهو حديث الولي المشهور، وللحافظ ابن رجب فيه رسالة لطيفة.

(٣) مسلم (٣٤)، والترمذي (٢٦٢٣)

وأيضًا فالرضا به ربًّا يتضمّن توحيده وعبادته والإنابة إليه والتوكل عليه وخوفه ورجاءه ومحبته والصبر له وبه، والشكر على نعمه يتضمّن رؤيةَ كلّ ما منه نعمة وإحسانًا وإن ساء عبده، فالرضا به يتضمن شهادة أن لا إله إلا الله والرضا بمحمد ﷺ رسولًا يتضمّن شهادة أن محمدًا رسول الله، والرضا بالإسلام دينًا يتضمن التزام عبوديته وطاعته وطاعة رسوله، فجمعت هذه الثلاثة الدين كله.

وأيضًا فالرضا به ربًّا يتضمّن اتخاذه معبودًا دون ما سواه واتخاذه وليًّا ومعبودًا وإبطال عبادة كل ما سواه، وقد قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾ [الأنعام: ١١٤] وقال: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَ﴾ [الأنعام: ١٤] وقال: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤] فهذا هو عين الرضا به ربًّا.

وأيضًا فإنه جعل حقيقة الرضا به ربًّا أن يسخط عبادة ما دونه، فمتى سخط العبد عبادة ما سوى الله من الآلهة الباطلة حبًّا وخوفًا ورجاء وتعظيمًا وإجلالًا فقد تحقق بالرضا به ربًّا الذي هو قطب رحى الإسلام.

وإنما كان قطب رحى الدين لأن جميع العقائد والأعمال والأحوال إنّما تُبني على توحيد الله عز وجل في العبادة وسخط عبادة ما سواه، فمن لم يكن له هذا القطب لم يكن له رَحًى تدور عليه، ومن حصل له هذا القطب ثبتت له الرَّحَى ودارت على ذلك القطب، فيخرج حينئذ من دائرة الشرك إلى دائرة الإسلام، فتدور رحى إسلامه وإيمانه على قطبها الثابت اللازم.

وأيضًا فإنه جعل حصول هذه الدرجة من الرضا موقوفًا على كون المرضيِّ به ربًّا سبحانه أحبّ إلى العبد من كل شيء وأَولى الأشياء بالتعظيم

وأحق الأشياء بالطاعة، ومعلوم أن هذا يجمع قواعد العبودية وينتظم فروعها وشعبها.

ولما كانت المحبة التامة ميل القلب بكليته إلى المحبوب؛ كان ذلك الميل حاملًا على طاعته وتعظيمه، وكلما كان الميل أقوى كانت الطاعة أتمّ والتعظيم أوفر، وهذا الميل يلازم الإيمان، بل هو روح الإيمان ولُبُّه، فأيّ شيء يكون أعلى من أمر يتضمن أن يكون الله سبحانه أحب الأشياء إلى العبد وأولى الأشياء بالتعظيم وأحق الأشياء بالطاعة.

وبهذا يجد العبد حلاوة الإيمان كما في الصحيح عنه أنه قال: **«ثلاثٌ من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان؛ أن يكون اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يُلقى في النار»**(١).

فعلّق ذوق الإيمان بالرضا بالله ربًّا، وعلّق وجود حلاوته بما هو موقوف عليه ولا يتمّ إلا به، وهو كونه سبحانه أحبّ الأشياء إلى العبد هو ورسوله ﷺ.

ولما كان هذا الحبّ التام والإخلاص الذي هو ثمرته أعلى من مجرد الرضا بربوبيته سبحانه؛ كانت ثمرته أعلى وهي وَجْد حلاوة الإيمان، وثمرة الرضا ذوق طعم الإيمان، فهذا وجد حلاوة، وذلك ذوق طعم، والله المستعان.

---

(١) البخاري ١/١٠ (١٦) ومسلم ١/٤٨ (٤٣) (٦٧)

وإنما ترتب هذا وهذا على الرضا به وحده ربًّا والبراءة من عبودية ما سواه وميل القلب بكليته إليه وانجذاب قوى المحب كلها إليه. ورضاه عن ربه تابع لهذا الرضا به، فمن رضي بالله ربًّا رضيه الله له عبدًا، ومن رضي عنه في عطائه ومنعه وبلائه وعافيته لم ينل بذلك درجة رضا الرب عنه إن لم يرض به ربًّا وبنبيّه رسولًا وبالإسلام دينًا، فإن العبد قد يرضى عن الله ربه فيما أعطاه وفيما منعه، ولكن لا يرضى به وحده معبودًا وإلهًا، ولهذا إنّما ضمن رضا العبد يوم القيامة لمن رضيَ به ربًّا كما قال النبي ﷺ: **«مَنْ قالَ إذا أصبَحَ وإذَا أمسى: رَضِيتُ باللهِ رَبًّا، وبالإسلامِ دينًا، وبمُحَمَّدٍ رسولا، كانَ حَقًّا على اللهِ أنْ يُرْضِيَهُ يومَ القِيامَةِ»**(١).

وقال الله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ [المَائِدَة: ١١٩]، وقال تعالى في آخر سورة المجادلة: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المُجَادلَة: ٢٢]، وقال في آخر سورة «لم يكن»: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [البَيِّنَة: ٨].

(١) أحمد (١٨٩٦٧) (٤/٣٣٧) من حديث أنس، وفيه سابق بن ناجية لم يوثقه غير ابن حبان. وقال محققو المسند: صحيح لغيره. وجود سنده النووي في الأذكار، وحسّنه ابن باز في تحفة الأخيار. وله شاهد من حديث أبي سعيد الخدري عند أحمد (١١١٠٢) وهو حديث صحيح.

فتضمّنت هذه الآيات جزاءهم على صدقهم وإيمانهم وأعمالهم الصالحة ومجاهدة أعدائه وعدم ولايتهم؛ بأن رضي الله عنهم فأرضاهم فرضوا عنه، وإنما حصل لهم هذا بعد الرضا به ربًّا وبمحمد نبيًّا وبالإسلام دينًا»(١).

ومن أراد الغنى فليرض عن قِسمة ربّه له مهما تصرّفت به الأحوال، وكم من عاقبة حميدة اجتلبها بلاءٌ شاقّ، وإنّ العبد إذا اتّخذ اللهَ ربًّا له ومعبودًا لا شريك له؛ فإنّ ربّه يشكره ويغنيه، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من يأخذ عنّي هؤلاء الكلمات، فيعمل بهن، أو يُعلّم من يعمل بهن»**. فقال أبو هريرة: فقلت: أنا يا رسول الله. فأخذ بيدي فعدّ خمسًا، وقال: **«اتق المحارم تكن أعبدَ الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمنًا، وأحبَّ للناس ما تحب لنفسك تكن مسلمًا، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب»**(٢).

وإنّ الرضا بالله ربًّا يقتضي التسليم لأمره، فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبي سيف القين(٣) وكان ظئرًا(٤) لإبراهيم عليه السلام، فأخذ رسول الله ﷺ إبراهيم فقبّله وشمّه. ثم دخلنا عليه بعد ذلك ـ وإبراهيم يجود بنفسه ـ فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان. فقال له

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ١٧٢-٢٤٢) مختصرًا.

(٢) أحمد في المسند (٢/ ٣١٠)، والترمذي (٢٣٠٥) واللفظ له وحسنه الألباني. وقال محقق جامع الأصول (١١/ ٦٨٧): حديث حسن.

(٣) القين: الحداد.

(٤) الظئر: المرضعة ولد غيرها واللفظ له. وزوجها ظئر لذلك الرضيع.

عبد الرحمن بن عوف رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: وأنت يا رسول الله. فقال: **«يا ابن عوف إنّها رحمة»**. ثم أتبعها بأخرى. فقال ﷺ: **«إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا. وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»**[(١)].

وليس الذي يجري من العين ماؤُها ... ولكنّها روحٌ تذوب فتقطرُ

والرضا بالله تعالى حقيقته تسليمُ مطمئنٍّ له ساكن إليه واثق به مستسلم له فرح به مهما تصرّفت أحواله، قال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ: «القلب الصحيح: هو الذي همُّه كله في الله، وحبُّه كله له، وقصده له، وبدنه له، وأعماله له، ونومه له، ويقظته له، وحديثه والحديث عنه أشهى إليه من كل حديث، وأفكاره تحوم على مراضيه ومحابّه، والخلوة به آثَرُ عنده من الخُلْطَة؛ إلا حيث تكون الخلطة أحبَّ إليه وأرضى له، قُرّةُ عينه به، وطمأنينته وسكونه إليه، فهو كما وجد من نفسه التفاتًا إلى غيره تلا عليها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨﴾ [الفجر: ٢٧ - ٢٨]، فهو يُردِّد عليها الخطاب بذلك ليسمعه من ربه يوم لقائه؛ فينصبغ القلب بين يدي إلهه ومعبوده الحق بصبغة العبودية، فتصير العبودية صفة وذوقًا لا تكلّفًا، فيأتي بها تودُّدًا وتحببًا وتقربًا، كما يأتي المحب المتيَّم في محبة محبوبه بخدمته وقضاء أشغاله.

فكلما عَرَضَ له أمر من ربه أو نهي أحسَّ من قلبه ناطقًا ينطق: لبيْكَ وسَعْديْك، إني سامع مطيع ممتثل، ولك عليّ المِنّة في ذلك، والحمد فيه عائد إليك.

---

(١) البخاري، الفتح ٣ (١٣٠٣) واللفظ له، ومسلم (٢٣١٥)

وإذا أصابه قَدَر وجد من قلبه ناطقًا يقول: أنا عبدك ومسكينك وفقيرك، وأنا عبدك الفقير العاجز الضعيف المسكين، وأنت ربي العزيز الرحيم، لا صبر لي إن لم تُصبِّرني، ولا قوة لي إن لم تحمِلني وتُقوِّني، لا ملجأ لي منك إلا إليك، ولا مستعان لي إلا بك، ولا انصرافَ لي عن بابك، ولا مذهب لي عنك.

فينطرح بمجموعه بين يديه، ويعتمد بكلِّيَّته عليه، فإن أصابه بما يكره قال: رحمةٌ أُهدِيَتْ إليّ، ودواءٌ نافع من طبيب مشفق، وإن صُرِفَ عنه ما يحب قال: شرٌّ صُرف عني:

وكَمْ رُمْتُ أمْرًا خِرْتَ لِي في انصرافِهِ ... ومـا زِلـتَ بي مِنِّـي أبَـرَّ وأرْحَمـا

فكل ما مسّه به من السراء والضراء اهتدى بها طريقًا إليه، وانفتح له منه باب يدخل منه عليه، كما قيل:

مـا مَسّـنِي قـدَرٌ بِكُـرْهٍ أوْ رِضًـا ... إلّا اهْتَـدَيْتُ بِـهِ إليـكَ طَرِيقـا

أمْضِ القَضاءَ على الرِّضا مِنِّي بِهِ ... إنِّي وجَـدْتُكَ في الـبَلاءِ رَفِيقـا

فلله هاتيك القلوبُ وما انطوت عليه من الضمائر، وماذا أُودِعَتْهُ من الكنوز والذخائر، ولِلهِ طِيبُ أسرارها، ولا سيّما يوم تُبْلَى السرائر!

سَـيَبْدُو لهـا طِيـبٌ ونُـورٌ وبَهْجَـةٌ ... وحُسْـنُ ثَنـاءٍ يَوْمَ تُبْلَى السّـرَائِرُ

تالله لقد رُفع لها عَلَمٌ عظيم فشمَّرتْ إليه، واستبان لها صراط مستقيم فاستقامت عليه، ودعاها ما دون مطلوبها الأعلى؛ فلم تستجب له، واختارته على ما سواه وآثرت ما لديه»[(١)].

وإن من تمام الرضا تمام التسليم وحسن التعبّد، وثمرة العلم العمل، والعلم بالله يقرب البعيد ويزهد في الدنيا ويوصل إلى الله، قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال أحمد بن حنبل: «وهل يُراد بالعلم إلا ما وصل إليه معروف؟».

تأملت حالًا عجيبة، وهي أن الله سبحانه وتعالى قد بنى هذه الأجسام متقنة على قانون الحكمة. فدل بذلك المصنوع على كمال قدرته، ولطيف حكمته. ثم عاد فنقضها فتحيّرت العقول بعد إذعانها له بالحكمة في سرّ ذلك الفعل. فأُعلمت أنها ستُعاد للمعاد، وأن هذه البنية لم تُخلق إلا لتجوز في مجاز المعرفة، وتتّجِر في موسم المعاملة، فسكنت العقول لذلك.

ثم رأت أشياء من هذا الجنس أظرف منه، مثل اخترام شاب ما بلغ بعض المقصود بنيانه. وأعجب من ذلك أخذ طفل من أكف أبويه يتململان. ولا يظهر سرُّ سلْبِه، والله الغني عن أخذه، وهما أشد الخلق فقرًا إلى بقائه. وأظرف منه إبقاء هَرِمٍ لا يدري معنى البقاء، وليس له فيه إلا مجرد أذى. ومن هذا

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ١٢٢).

الجنس تقتير الرزق على المؤمن الحكيم، وتوسعته على الكافر الأحمق. وفي نظائر لهذه المذكورات يتحيّر العقل في تعليلها، فيبقى مبهوتًا![1]

فلم أزل أتلمّح جُملة التكاليف، فإذا عجزت قُوى العقل عن الاطّلاع على حكمة ذلك وقد ثبت لها حكمة الفاعل، علمَتْ قصورها عن درك جميع المطلوب، فأذعنت مُقرّة بالعجز. وبذلك تؤدّي مفروض تكليفها.

ثمّ هتف بي هاتف من باطني: دعني من شرح الصبر على الأقدار، فإني قد اكتفيت بأنموذج ما شرحْتَ، وصِفْ حال الرضا، فإني أجد نسيمًا من ذكره فيه روح للروح.

فقلت: أيها الهاتف اسمع الجواب، وافهم الصواب: إن الرضا من جملة ثمرات المعرفة، فإذا عرفته رضيت بقضائه، وقد يجري في ضمن القضاء مرارات يجد بعض طعمها الراضي. أما العارف فتقلّ عنده المرارات لقوّة حلاوة المعرفة. فإذا ترقّى بالمعرفة إلى المحبة، صارت مرارة الأقدار حلاوة، كما قال القائل:

عذابُـــــهُ فيــــــك عَــــــذْبٌ وبُعْــــــدُهُ فيــــــك قُـــــرْبٌ

---

(١) وتأمل قول الله تعالى في الحض على الرضا بالمعاش والرزق والحظ: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾ [الأَحْزَاب: ٥١]، فقُرّةُ العيون وشفاء المحزون في الرضا بقضاء الحكيم العليم البر الرحيم.

وأنـــتَ عنـــدي كروحـــي   بـــل أنـــتَ منهـــا أَحـــبُّ
حســـبي مـــن الحـــب أنِّي   لمـــا تُحـــبُّ أحِـــبُّ

وقال بعض المحبين في هذا المعنى:

ويقبحُ مِن سواكَ الفعلُ عندي   فتفعلـه فيحســنُ منـكَ ذاكَ

فصاح بي الهاتف: حدثني بماذا أرضى؟ هب أني أرضى في أقداره بالمرض والفقر، أفأرضى بالكسل عن عبادته، والبعد عن أهل محبته؟ فبيّن لي ما الذي يدخل تحت الرضا مما لا يدخل.

فقلت له: نِعْمَ ما سألت، فاسمع الفرق سماع من ألقى السمع وهو شهيد: ارضَ بما كان منه، فأما الكسل والتخلّف فذاك منسوب إليك، فلا ترض به من فعلك. وكن مستوفيًا حقّه عليك، مناقشًا نفسك فيما يقرّبك منه، غير راض منها بالتواني في المجاهدة.

فأما ما يصدر من أقضيته المجردة التي لا كسب لك فيها؛ فكن راضيًا بها، كما قالت رابعة رحمة الله عليها[(١)] وقد ذكر عندها رجل من العُبّاد يلتقط من

(١) أم عمرو رابعة بنت إسماعيل العدوية البصرية، الزاهدة، العابدة، الخاشعة. ولاؤها للعتكيين. ولها سيرة في جزء لابن الجوزي.
قال خالد بن خداش: سمعَت رابعة صالحًا المرّي يذكر الدنيا في قصصه، فنادته: «يا صالح، من أحب شيئًا أكثر من ذكره». وعن حماد، قال: دخلت أنا وسلام بن أبي مطيع على رابعة، فأخذ سلام في ذكر الدنيا، فقالت: «إنما يذكر شيئًا هو شيء، أما شيء ليس بشيء فلا». ومن كلامها: «اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم». وعن جعفر بن
=

مزبلة فيأكل، فقيل: هلّا سأل الله تعالى أن يجعل رزقه من غير هذا؟ فقالت: «إن الراضي لا يتخيّر». ومن ذاق طعم المعرفة؛ وجد فيه طعم المحبة، فوقع الرضا عنده ضرورة.

=

سليمان قال: سمعت رابعة تقول لسفيان الثوري: «إنما أنت أيام معدودة، فإذا ذهب يوم ذهب بعضك، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل وأنت تعلم، فاعمل». وعن عبدة بنت أبي شوال، وكانت تخدم رابعة العدوية، قالت: كانت رابعة تصلي الليل كله، فإذا طلع الفجر، هجعت هجعة حتى يسفر الفجر، فكنت أسمعها تقول: «يا نفس كم تنامين، وإلى كم تقومين، يوشك أن تنامي نومة لا تقومين منها إلا ليوم النشور».

وقد اشتهرت بالصلاح والزهد والعبادة ونُطْقِ الحكمة على لسانها. كما نقل عنها شطحات لا توافق عليها، وقد لا تصح نسبتها إليها. قال أبو سعيد بن الأعرابي: أما رابعة، فقد حمل الناس عنها حكمة كثيرة، وحكى عنها سفيان وشعبة وغيرهما ما يدل على بطلان ما قيل عنها. قيل: عاشت ثمانين سنة. وتوفيت سنة ثمانين ومئة. وانظر: (سير أعلام النبلاء (٨ / ٢٤٣) وفيات الأعيان (٣ / ٢١٥)، شذرات الذهب (١ / ١٩٣)

وقال ابن مهرويه: «دخلت على عبد الرحمن بن أبي حاتم، وهو يقرأ على الناس كتاب «الجرح والتعديل» فحدثته بقول يحيى بن معين: إنا لنطعن على أقوام، لعلهم قد حطوا رحالهم في الجنة من أكثر من مئة سنة. فبكى، وارتعدت يداه، حتى سقط الكتاب، وجعل يبكي، ويستعيدني الحكاية». وقال الذهبي معلقًا: «أصابه على طريق الوجل وخوف العاقبة، وإلا فكلام الناقد الورع في الضعفاء من النصح لدين الله، والذب عن السنة». سير أعلام النبلاء (١٣/٢٦٨).

فينبغي الاجتهاد في طلب المعرفة بالأدلة، ثم العمل بمقتضى المعرفة بالجد في العبادة، لعل ذلك يورث المحبة. فقد قال سبحانه وتعالى: **«وما تقرّب إلى عبدي بشيء أحبّ إليّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أُحبّه، فإذا أحببته؛ كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به»**[(١)]. فذلك الغنى الأكبر.. ووافقراه!»[(٢)].

ولشيخنا محمد المختار الشنقيطي وصايا نافعة في الرضا عن الله تعالى عند نزول المصائب، قال حفظه الله تعالى: «الوصية الأولى: الرضا عن الله.

أول وصية أوصيك بها إذا فُجعت في نفسك أو أهلك وولدك أن ترضى عن الله، فوالله ما رضي عبد عن الله إلا أرضاه الله، ولذلك قال النبي ﷺ: **«إنّ عِظَم الجزاء مع عظم البلاء، وإنّ الله تعالى إذا أحبّ قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السَّخط»**[(٣)]. فمن رضي عن الله أرضاه الله في دنياه وأخراه.

كتب عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يوصيه ويذكر له تلك الوصية النافعة؛ فاستفتح كتابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقوله: «أما بعد: فاعلم أن الخير كله في الرضا عن الله»، إن الخير كله أن ترضى عن الله.

---

(١) البخاري ٨/١٣١(٦٥٠٢)

(٢) صيد الخاطر (١ / ١٢، ٣٠) بتصرف يسير.

(٣) البخاري ٧/١٠٩ (٥٤٧٠)، ومسلم ٦/١٧٤ (٢١٤٤) (٢٣)

اعلم أخي في الله؛ أنه إذا أصابك البلاء فرضيت عن الله أرضاك الله في الدنيا والآخرة، وأقرّ الله عينك وأثلج صدرك، فكم من مصيبة عادت نعمة على العبد إذا رضي عن الله تبارك وتعالى، وكم من بلايا رضي أصحابها فزادتهم من الله قربًا ومن الله رضًا وحبًّا.

أول وصية: أن ترضى عن الله تبارك وتعالى، ولهذا الرضا دلائل: أولها: طيب الكلام، وحسن الظن بالله تبارك وتعالى، ومن ثمّ قال العلماء: «إن العبد إذا رضي عن الله وهبه اليقين في مصيبته»، قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [التغابن: ١١]، قال رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١]: أن يهبه اليقين فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه». فإذا كان الإنسان راضيًا عن الله تبارك وتعالى، وعنده الإيمان واليقين الذي ربّى النبي ﷺ عليه أصحابه، ثبّت الله جنانه، ولذلك كان بعض السلف إذا أصيب بالمصيبة أظهر الرضا لله.

قام أحدهم بين أناس فجالت يده فقطعت فضحك، قالوا: سبحان الله! تصاب في يدك فتضحك، قال: «إني ذكرت ثوابي عند الله عز وجل فضحكت».

وسار الفضيل رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في جنازة ابنه، فلما سار معهم تبسّم رَحِمَهُٱللَّهُ، قالوا: لم تبسمت رحمك الله؟! قال: احتسبت مصيبتي عند الله، فذكرت ما لي عند الله فسلوت وضحكت[١].

فكلما كان اليقين في قلب العبد وجدته أثبت جنانًا، وأشرح لله عز وجل صدرًا، والله ما رضي عبد عن الله إلا جعل له من كل همٍ فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا.

الوصية الثانية: العلم بأنه لا يدفع البلاء إلا الله. فإذا حصل الرضا فإن بعد الرضا أمرٌ مهم لا بد من وجوده؛ وهو علمك بأنه لا يدفع البلاء إلا الله، وأنه لا يدفع هذا العناء الذي تجده إلا الله.

كان النبي ﷺ يوصي أصحابه؛ فأوصى البراء بن عازب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ إذا أوى إلى فراشه أن يقول: «**إذا أويت إلى فراشك فقل: اللّٰهم أسلمت نفسي إليك، ووجّهت وجهي إليك، وفوّضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي**

---

(١) وعلق على ذلك شيخ الإسلام بما مؤداه: أن حال النبي ﷺ حينما دمعت عيناه عند موت ابن ابنته هو الكمال، لأن قلبه قد اتّسع للرضا عن الله تعالى مع الرحمة والإشفاق على الصبي.

أنزلت، ونبيّك الذي أرسلت. فإنك إن متّ من ليلتك متّ على الفطرة، وإن أصبحت أصبت خيرًا»[(١)].

أول ما يحسّ الإنسان بالبلاء إذا أراد أن يفرج الله كربه وهمه، أن يحسّ من أعماق قلبه أنه لا ينجيه أحد من هذا البلاء إلا الله عز وجل.

الوصية الثالثة: تذكّر جزاء الضارعين إلى الله عند البلاء.

قال بعض العلماء: ما أصاب الكرب والخطب عبدًا فضرع إلى الله تبارك وتعالى إلّا أعطاه تفريج الكرب، ومع تفريج الكرب زيادة فضلٍ من الله؛ ولذلك تجد بعض الناس يُفجع بأهله ويفجع بولده، فيعوّضه الله حلاوة إيمانٍ تبقى معه إلى لقاء الله عز وجل.

أصيب رجل بولده، وكان ذلك الرجل من أفجر خلق الله والعياذ بالله، تاركًا للصلاة منتهكًا للحدود والمحارم، أقسى ما يكون قلبًا والعياذ بالله، فشاء الله يومًا من الأيام بعد صلاة العشاء، جاءه ابنه يضحك ويسلو، وشاء الله تبارك وتعالى أن يودّعه ذلك الابن فتكون آخر عهده بذلك الابن، فخرج الابن وما هي إلا لحظات حتى جاءه الخبر بأن ذلك الابن انتقل إلى جوار الله.

---

(١) البخاري ١/٧١ (٢٤٧) و٩/١٧٤ (٧٤٨٨)، ومسلم ٨/٧٨ (٢٧١٠) (٥٧) و(٥٨) وفي رواية في الصحيحين: **«واجعلهنّ آخرَ ما تقول»**. قال النووي: «في الحديث ثلاث سنن مهمة مستحبة، ليست بواجبة: الوضوء عند إرادة النوم، والنوم على الشق الأيمن، وذكر الله تعالى؛ ليكون خاتمة عمله». شرح صحيح مسلم ٩/٣١ (٢٧١٠)

وهذه حال الدنيا، تتمتع بالنظر إلى الابن في الصباح فإذا بك تفجع به في المساء، وتتمتع بالنظر إلى الأب في المساء فإذا بك تفجع به مع بزوغ الصباح، وسبحان من هذا ملكه! وسبحان من هذا أمره! فلما فجع بذلك الابن طاش عنه عقله وعزب عنه رشده، فشاء الله تبارك وتعالى أن يقيّض له طالب علم موفق، فذكّره بالله بالكلمة تلو الكلمة حتى شرح الله صدره، وآنس الله قلبه، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ثم شاء الله تبارك وتعالى أن يخشع يومًا فيومًا، حتى سمعتُه ذات يوم يقول: والله إني أصبت بابني وإنها نعمة من الله عليَّ إذ ابتلاني بذلك الابن، عرفت الله وكنت له منكرًا، واقتربت من الله وكنت منه بعيدًا، وآويت إلى الله وكنت منه طريدًا، في كلام هذا معناه، مصيبةٌ قربتني من الله تبارك وتعالى.

فالله منه العوض، ما رجاه أحد فخاب، ولا أيقن عبد بربه فخسف الله به الأرض من تحت قدمه أبدًا. ولذلك قال بعض العلماء: «إذا أراد الله أن يجمع للعبد بين المصيبتين؛ ابتلاه وسلبه اليقين فيه» والعياذ بالله، إذا ابتلى الله العبد ولم يلتجئ إلى الله بعد البلاء فاعلم أنه والعياذ بالله مُستدرَج، ولذلك البلاء كل البلاء على الكافر الذي إذا أصابته المصيبة لا يدري أين يذهب، ولا يدري أين يتجه، ولكن المؤمن له باب يقرعه ورب لا يخيب من يرجوه. فلذلك أحبتي؛ كان من لوازم البلاء اليقين في الله عز وجل.

أصيب بعض السلف بمصيبة وعظمت عليه هذه المصيبة وكانت آفةً في جسده، وما زال يعرض نفسه على الناس رجلًا بعد رجل حتى يأس من علاج هذا الداء، وقنط أن يشفى من ذلك البلاء، فدخل يومًا من الأيام فإذا رجل

يتلو كتاب الله فسمعه يتلو قول الله عز وجل: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢] فقال: اللّهم إني مضطر وأنت مجيب، فما قام من ساعته إلا وهو معافى!

إذا دخل اليقين إلى قلب العبد لا يمكن أن يبرح وحاجته في قلبه، بل إن بعض الناس يمسي المساء وحاجته تضايقه، وكربته تؤلمه فيتضرع إلى الله بالدعوة الصادقة حتى يعزّ على الله أن يصبح وحاجته في قلبه فيفرج عليه قبل أن يصبح؛ وهذا من عظيم لطف الله بالعباد.

الوصية الرابعة: حسن الظن بالله أهمّ باعث لليقين بالله.

ومن الأمور التي تبعث باليقين[1] حسن الظن بالله تبارك وتعالى، والله ما أحسن عبد ظنه بربه إلا كان الله عند حسن ظنه، إذا أصابتك المصيبة فأحسن الظن بالله، وقل: إنا لله وإنا إليه راجعون، الحمد لله على كل حال، وأعوذ بالله من حال أهل النار، من قالها فقد أوجب الرضا من الله تبارك وتعالى، ولذلك أَحرصُ ما يكون الشيطانُ في بداية المصيبة أن يسيء ظنك بالله عز وجل، ولذلك إذا جاءت المصيبة في النفس، أو جاءت في المال، أو جاءت في الولد، جاءك الشيطان فقال لك: لو كان الله يحبك ما ابتلاك! ولو كان الله يحبك ما أصابك بابنك فلذة كبدك! ولو كان الله يحبك ما أفقدك مالك على كبر سنك! ولو كان الله ولو كان الله.. فهو أحرص ما يكون على أن تكون على سوء ظن بالله عز وجل.

---

(١) ولليقين كتاب سابق مستقل.

فالله الله أن يسوء ظنك بالله عز وجل، بل قل: الحمد الله، وليكن قلبك مطمئنًا بالفرج من الله تبارك وتعالى، فمن اتقى الله جعل له من كل همٍّ فرجًا ومن كل ضيقٍ مخرجًا.

أخي؛ المُلْك لمن؟ والكون لمن؟ والتدبير لمن؟ من الذي يجير ولا يجار عليه؟ ومن الذي يغيث ولا مغيث سواه؟ والله لو علم المكروب سعة رحمة الله عز وجل ما تألّم من كربه، ولو أيقن المكروب بحلم الله به لا يمكن أن يصيبه بلاء في نفسه.

وأضرب لك مثلًا يسيرًا: لو أنك يومًا من الأيام سئلت عن أرحم الناس بك وأحلمهم عليك؟! لقلت: أبي وأمي، ولكان في قلبك يقين أن لا أرحم في الناس من أبيك وأمك، والله ثم والله لرحمةُ والديك بك لا تأتي مثقال ذرة في رحمة الله عز وجل بك، ولَلُطف الله عز وجل وحنانه وحلمه ورحمته وأنت تقاسي الآلام وتكابد الأسقام، أشدّ من رحمة والديك بك، ولكن يريد أن يرفع درجتك، ويحط عنك خطيئتك، ويريد أن تخرج من هذه الدنيا وأنت صفر اليدين من السيئات والخطايا، حتى إذا وافيته وافيته بوجه أبيض مشرقٍ من تلك البلايا، وإنَّ من عباد الله من هو والله حبيب لله، لا يبتليه الله عز وجل إلا لكي يدنو منه، يبتليه لكي يسمع صوته: يا رب، يا رب، إلهي سيدي مولاي، يسمع إخباته وإنابته، فتكون أصدق شاهدٍ على توحيده لله تبارك وتعالى.

الوصية الخامسة: تفكّر في سرّ ابتلاء الله تعالى لعباده.

هذه البلايا وهذه الفتن والرزايا بُسِطَتْ لك لكي تكون سلّمًا إلى رحمة الله عز وجل، شعرت أو لم تشعر، وكان بعض السلف إذا نزلت به المصيبة ووهبه الله اليقين عليها والصبر عليها تسلّى بالدعاء، حتى أُثر عن بعضهم أنه كان يكثر الدعاء ويلحّ في المسألة حتى يقول: يا ليت أن الله لا يفرج عني كربي حتى تستديم هذه الحلاوة لمناجاته ومناداته.

فإذا دخل اليقين إلى القلوب هانت عليها البلايا والخطوب، إذا دخل اليقين إلى الأفئدة تعلقت بالله وحده لا شريك له، ما ابتلاك الله لكي تفزع إلى زيد وعمرو لا والله، وما ابتلاك بالأسقام حتى تتعلق بغيره سبحانه وتعالى، فوالله لو صُبّت البلايا على العبد لا يمكن أن يجد الفرج والمخرج إلا بالله سبحانه وتعالى، فلذلك يكون الإنسان على يقين بالله تعالى، فلا ملجأ ولا منجى من الله تبارك وتعالى إلا إليه.

وقع أحد الناس في ضائقة واشتدت عليه هذه الضائقة، كان مبتلى بمسّ، وكان هذا المسّ يقلقه ويزعجه ويؤلمه واشتد عليه ذلك الخطب، وفي يوم من الأيام جاء إلى أحد طلاب العلم واشتكى إليه مما يجده، وقال: والله يا شيخ قد عظم علي البلاء وإني أصبحت مضطرًا أفلا يجوز لي أن أذهب إلى إنسان يفكّ عني هذا البلاءَ الذي أجدُه؟! ألا تُرخّص لي في ساحرٍ أو كاهنٍ يعلم ما أصابني فيكشف عني ما أصابني؟! يقول ذلك وهو في حرقة وألم وشدة وشجن لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى، فوفّق الله طالب العلم فقال له كلمات ثبّتَ الله بها جَنان ذلك المؤمن، وقال له كلمات شرح بها صدر ذلك العبد

المبتلى فقال له في آخر الكلام: إني لأرجو من الله عز وجل إن استعنت بأمرين أن يفرج عنك الكرب والبلاء: أحدهما الصبر والثاني الصلاة.

يقول الرجل ـ وهو أيضًا من طلاب العلم ـ: فقمت من عنده بيقين قوي في الله عز وجل فصليت ركعتين أحسست أني مكروب، وأنه قد أحاطت بي الخطوب، فاستعذت بالله واستجرت، وإذا بي في سجودي أحس بحرارة شديدة في قدمي ما إن سلمت إلا وكأنه لم يك بي من بأس.

أخي في الله؛ هل الساحر يغيثك من دون الله؟! هل الكاهن يجيرك من دون الله؟! الأمر أمره، والقدر قدره، خطّ عليك هذا البلاء قبل أن تكون وقبل أن توجد، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٤٩ - ٥٠]. كتب الله البلايا قبل أن يخلق العباد، قال النبي ﷺ: **«أوّل ما خلق الله القلم قال: اكتب. قال: يا رب؛ ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن وما يكون إلى قيام الساعة، فجرى القلم بما هو كائن وما يكون إلى قيام الساعة»**(١).

ولقد ركب عبد الله بن عباس مع النبي ﷺ ذات يوم، فأراد النبي ﷺ أن يهديه هدية، وأن يمنحه تلك العطية فقال ﷺ: **«يا غلام؛ ألا أعلمك كلمات؟ احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تُجاهَك، إذا استعنت فاستعن بالله، وإذا سألت فاسأل الله، واعلم أن الخلق لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، واعلم أن الخلق لو اجتمعوا على أن**

---

(١) أبو داود (٤٧٠٠) وصححه الألباني.

يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفّت الصحف»(١).

فمَن هذا الساحر ومن هذا الكاهن الذي يستطيع أن يتخطى أمر الله عز وجل؟ ومن هذا العبد الذي يستطيع أن يقضي الوطر لنفسه قبل أن يقضيه لغيره من خلق الله عز وجل؟ فاللهَ الله أن ينظر الله عز وجل عليك في البلاء، وقد رفعت كفك إلى غير الله. الله الله أن ينظر الله إليك في البلاء وقد تعلقت بغيره جل في علاه. الله الله أن ينظر الله إليك في البلاء وقد صرفت شعبةً من شعب قلبك تعتقد فيها في أحدٍ سواه. الله الله أن ينظر الله إليك في البلاء وقد تعلّقت بغيره وعُذت بأحد سواه. وكم من أقوام استعاذوا واستجاروا بغير الله ففرّج الله عنهم الكربات امتحانًا واختبارًا، واستدرجهم منه علمًا وحكمةً واقتدارًا، ثم ابتلاهم بالبلاء الذي هو نهايتهم من حيث لا يحتسبون!

ذكروا عن رجل أنه كان يقرِّبُ ساحرًا، وكان يثق بهذا الساحر ثقةً عمياء، وكان هذا الساحر بزعم ذلك المبتلى يفرّج همه، وينفّس كربه، واللهُ يستدرجه اليومَ تلو اليوم، حتى قوي اعتقاد ذلك الرجل في ذلك الساحر ـ والعياذ بالله ـ وقوي اعتقاده في ذلك الكاهن من دون الله ـ نسأل الله السلامة والعافية ـ فشاء

---

(١) الترمذي (٢٥١٦) وصححه الألباني. ومعنى «**رفعت الأقلام وجفّت الصحف**»: أي فُرغ من الأمر وجفّت كتابته، كناية عن تقدم كتابة المقادير كلها والفراغ منها من أمد بعيد. ذكره في دليل الفالحين (١/٢٨٨)

الله عز وجل لمّا عظُم يقينُ هذا العبد أن يسلّط عليه الساحر فيؤذيه والعياذ بالله بسحره.

فلذلك أحبتي في الله؛ من وثق بالله، وأيقن بالله تبارك وتعالى، أحسّ في قرارة قلبه أن لا ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه، إن فقدت الأموال فإنك لم تفقد ربَّها، وإن فقدت الأبناء والبنات فإنك لم تفقد مَن أوجدها ومن خلقها، وإن فقدت الآباء والأمهات فإنك لم تفقد من جَبَل قلوبهم إلى الحنان فأحسنوا إليك ووهبوا يد المعروف إليك. فالله الله أن يَخِيب ظنُّك في رجائه، أو تكون من عباده الذين ضلّ سعيهم بالرجاء في غيره»[١]. وبالله التوفيق، ومنه العون، وإليه المرجع والمصير.

---

(١) دروس للشيخ محمد المختار الشنقيطي (٤٩ / ٩،٤) باختصار وتصرف يسير.

الرضا بالإسلام دينًا

أعظم نعمة بإطلاق هي نعمة الإسلام، فلا تضاهيها منّة ولا تقاربها نعمة، فهي أفضل الآلاء وأجمل الهبات من لدن الولي الحميد سبحانه، فقد تفضّل الله علينا وأتمّ النعمة به، بل قد رضيه سُلّمًا لمرضاته، ودَرَجًا لمحبته، ومنهاجًا للفوز لديه، وطريقًا وحيدًا للفلاح والفرح والسعادة عند لقائه، قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المَائِدَة: ٣]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٤﴾ [يُونُس: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٨﴾ [الحَدِيد: ٢٨]، فلله الحمد كله أوّلًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا كما ينبغي لجلال وجهه وعزّته وعظمته وكماله وجماله وجلاله.

إنّ على المؤمن الناصح لنفسه المبتغي الدرجات العلى والنعيم المقيم والجوار الكريم أن يُصلح ما وَهَنَ من دينه، ويرفع ما وَهَى من تقواه، ويرفأ شقوق ثوب إيمانه، ويشدّ حبله الوثيق مع ربه بالعلم واليقين وخالص العبادة وصادق الدعاء. ويزداد الأمر ضرورة حين يغلب الفسادُ أكثرَ الناس، وتشتد غربة الدين، وتتقوّض بعض مُسلّمات الملّة لدى سواد الجمِّ الغفير، ويصبح صاحب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر منفورًا مطرودًا شريدًا غريبًا غير

مرغوب لدى أكثر ناسه، والعابد القانت نادرًا غريبًا مستوحشًا لا يكاد يجِد من الناس من يعينه ويؤنسه ويقوّيه ويؤازره، ولكن لا ضيعةَ مع الله ولا وحشة ولا هزيمة ولا انقطاع ولا ندم! فمَن كان الله معه فلا عليه من الخلائق مهما التفّوا وتعصّبوا وتقلقلوا، فمن كان مع الله؛ فمعه القوة التي لا تُغلب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضل من استهدى به، فهو الركن الشديد، والرب العظيم، والإله الحق المبين، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾ [النِّسَاء: ٨٧]، ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبْرَاهِيم: ١٠].

وتأمّل هذا الحديث الصحيح ويدك على قلبك، واسأل ربك العفو والعافية، فعن مرداس الأسلمي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: **«يذهب الصالحون الأوّل فالأوّل، ويبقى حُثَالةٌ كحثالة الشعير أو التمر، لا يباليهم الله بَالَةً»**(١).

---

(١) البخاري (٦٤٣٤) قال البخاري عقب تخريجه الحديث: «يقال: حُفالة وحُثالة». وفي رواية: **«لا يباليهم الله بالًا»**.

وأزمنة الفتن فرصة لحصد أجور لا تتأتّى في غيرها، فأزمنة الفتن ليست شرًّا محضًا، ففيها للعابدين الصابرين الثابتين والدعاة المخلصين المُتّبعين خيرًا كثيرًا، والعابد المُحسن في زمن الفتن له أجر خمسين من الصحابة المرضيين.

قال البغوي في شرح السنة (١٤ / ٣٩٣): «حفالة التمر: رذالته، ومثلها الحثالة، والفاء والثاء يتعاقبان، كقولهم: ثوم وفوم، وجدث وجدف. وقوله: «لا يباليهم الله بالة» أي: لا يرفع لهم قدرًا، ولا يقيم لهم وزنًا، يقال: باليت بالشيء مبالاة وبالية وبالة، يقال: ليس هذا من بالي، أي: مما أباليه». وبنحوه في النهاية في غريب الأثر (١ / ٤١١)

وثمَّ رسالة نفيسة جِدُّ نفيسة بعنوان: «فضل الإسلام» للإمام المجدد لمعالم الحنيفية محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وسأنتخب منها ما ألحّ إيراده فكلها قيّمة نافعة، مع ذكر بعض تعليقات شيخنا العلّامة ابن باز عليها:

وفي الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: **«مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ؛ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ أُجَرَاءَ، فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ غُدْوَة إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتْ الْيَهُودُ. ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ عَلَى قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتْ النَّصَارَى. ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ الْعَصْرِ إِلَى أَنْ تَغِيبَ الشَّمْسُ عَلَى قِيرَاطَيْنِ؟ فَأَنْتُمْ هُمْ.**

فَغَضِبَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى فَقَالُوا: مَا لَنَا أَكْثَرَ عَمَلًا وَأَقَلَّ عَطَاءً؟! قَالَ: هَلْ نَقَصْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ؟ قَالُوا: لَا. قَالَ: فَذَلِكَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ» (١).

وفيه أيضًا عن أبي هريرة قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: **«أَضَلَّ اللَّهُ عَنْ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا، فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ، وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمُ الْأَحَدِ، فَجَاءَ اللَّهُ بِنَا فَهَدَانَا اللَّهُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ. فَجَعَلَ الْجُمُعَةَ وَالسَّبْتَ وَالْأَحَدَ، وَكَذَلِكَ هُمْ تَبَعٌ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَحْنُ الْآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»** (٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قيل لرسول الله ﷺ: أيّ الأديان أحبُّ إلى الله؟ قال: **«الحنيفيَّةُ السَّمْحَة»** (٣).

---

(١) البخاري (٢٢٦٨)

(٢) مسلم (٨٥٦)

(٣) أحمد (٢١٠٧) وقال محققو المسند: صحيح لغيره.

وعن أبي بن كعب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «عليكم بالسبيل والسنة، فإنه ليس من عبد على سبيل وسنة ذكر الرحمن ففاضت عيناه من خشية الله فتمسّه النار، وليس من عبد على سبيل وسنة ذكر الرحمن فاقشعرّ جلدُه من خشية الله إلا كان مثله مثل شجرة يبس ورقها، فبينما هي كذلك إذ أصابتها الريح فتحاتّ عنها ورقها، إلا تحاتّت عنه ذنوبه كما تحاتّ عن هذه الشجرة ورقها، وإنّ اقتصادًا في سبيل وسنة خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنّة».

وعن أبي الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «يا حبّذا نوم الأكياس[1] وإفطارهم، كيف يغبنون سهر الحمقى وصومهم! ولمثقال ذرةٍ من برٍّ مع تقوى ويقين، أعظم وأفضل وأرجح من أمثال الجبال من عبادة المغترّين».

وجوب الدخول في الإسلام

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥﴾ [آل عِمۡرَان: ٨٥] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عِمۡرَان: ١٩] وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأَنۡعَام: ١٥٣]. قال مجاهد: «السُّبُل: البدع والشبهات». وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»** أخرجاه، وفي لفظ: **«مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»**[2].

---

(١) الأكياس: جمع كيّس، وهو العاقل الفطن الحازم.

(٢) البخاري (٣/٢٤١) مسلم (٥/١٣٢)

وللبخاري عن أبي هريرة رضي الله قال: قال رَسُولَ اللّهِ ﷺ: **«كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى!»** قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ يَأْبَى؟! قَالَ: **«مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى»**(١).

وفي الصحيح عن ابنِ عباسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: **«أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ ثَلَاثَةٌ: مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ، وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ»**(٢). قال ابن تيمية: «قوله **«سنّة الجاهلية»**: يندرج فيها كل جاهلية مطلقة أو مقيّدة، أي: في شخص دون شخص، كتابية أو وثنية، أو غيرهما من كل مخالفة لما جاء به المرسلون»(٣).

وفي الصحيح عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ اسْتَقِيمُوا فَقَدْ سَبَقْتُمْ سَبْقًا بَعِيدًا، فَإِنْ أَخَذْتُمْ يَمِينًا وَشِمَالًا لَقَدْ ضَلَلْتُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا»(٤). وعن محمد بن وضاح أنه كان يدخل المسجد فيقف على الحِلَق فيقول: فذكره.

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ليس عامٌ إلا والذي بعده شرّ منه، لا أقول عام أمطر من عام، ولا عام أخصب من عام، ولا أمير خير من أمير، لكن ذهاب علمائكم وخياركم، ثم يَحْدُثُ أقوامٌ يقيسون الأمور بآرائهم؛ فيُهدم الإسلام ويُثلم».

---

(١) البخاري (٩/١١٤) (٧٢٨٠)
(٢) البخاري (٦٤٨٨)
(٣) اقتضاء الصراط (١ / ٧٩)
(٤) البخاري (٦٨٥٣)

تفسير الإسلام

قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران: ٢٠]، وفي الصحيح عن عُمَرَ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قال: **«الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»**(١).

وفيه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: **«الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»**(٢).

وقال الله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٨٥﴾ [آل عمران: ٨٥]

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: **«تَجِيءُ الْأَعْمَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ فَتَجِيءُ الصَّلَاةُ فَتَقُولُ: يَا رَبِّ؛ أَنَا الصَّلَاةُ، فَيَقُولُ: إِنَّكِ عَلَى خَيْرٍ، فَتَجِيءُ الصَّدَقَةُ فَتَقُولُ: يَا رَبِّ؛ أَنَا الصَّدَقَةُ، فَيَقُولُ: إِنَّكِ عَلَى خَيْرٍ، ثُمَّ يَجِيءُ الصِّيَامُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ؛ أَنَا الصِّيَامُ، فَيَقُولُ: إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ، ثُمَّ تَجِيءُ الْأَعْمَالُ عَلَى ذَلِكَ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ، ثُمَّ يَجِيءُ الْإِسْلَامُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ؛ أَنْتَ السَّلَامُ وَأَنَا الْإِسْلَامُ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّكَ عَلَى خَيْرٍ، بِكَ الْيَوْمَ آخُذُ**

---

(١) مسلم ١/٢٨ (٨) (١)

(٢) البخاري (١٠)

وَبِكَ أُعْطِي»(١). فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٨٥﴾ [آل عِمران: ٨٥]

الاستغناء بمتابعة كتاب الله تعالى عن كل ما سواه

قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النَّحل: ٨٩]. ورأى النبي ﷺ في يد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ورقة من التوراة فقال: «**أمتهوِّكون**(٢) **يا ابن الخطاب؟ لقد جئتكم بها بيضاء نقيّة، ولو كان موسى حيًّا واتبعتموه وتركتموني ضللتم**». وفي رواية: «**ولو كان موسى حيًّا ما وسعه إلا اتّباعي**». فقال عمر: «رضيت بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولًا»(٣).

الخروج عن دعوى الإسلام

قال تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا﴾ [الحج: ٧٨] وعن الحارث الأشعريّ حدّثه عن النَّبيِّ ﷺ: «**وَأَنَا آمُرُكُمْ بِخَمْسٍ اللَّهُ أَمَرَنِي بِهِنَّ: السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ، وَالْجِهَادُ، وَالْهِجْرَةُ، وَالْجَمَاعَةُ، فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ؛**

---

(١) أحمد (٢/٣٦٢) (٨٧٢٧) قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: عباد بن راشد ثقة، ولكن الحسن لم يسمع من أبي هريرة. وقال الهيثمي في المجمع (١٠/٣٤٨): فيه عباد بن راشد، وثّقه أبو حاتم وغيره وضعفه جماعة، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح. وصححه أحمد شاكر في المسند (١٦/٣٠٢) وضعفه الألباني في السلسلة (٥٧٨٠) والأرناؤوط في المسند (٨٧٤٢)

(٢) التهوّك: الشك والتردّد والحيرة.

(٣) أحمد (١٥١٥٦) قال محققو المسند: إسناده ضعيف لضعف مجالد. وحسّنه الألباني في مشكاة المصابيح (١ / ٣٨)

فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ، وَمَنْ ادَّعَى دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ مِنْ جُثَا جَهَنَّم» فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ؟ قَالَ: **«وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ، فَادْعُوا بِدَعْوَى اللهِ الَّذِي سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللَّهِ»**[(١) (٢)].

وفي الصحيح: **«مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ فَمِيتَةٌ جَاهِلِيَّةٌ»**[(٣)]. وفيه: **«أَبِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟»**[(٤)]. قال أبو العباس[(١)]: «كل ما خرج

---

(١) مسند أبي يعلى (٣ / ١٤٠) (١٥٧١) قال حسين سليم أسد: إسناده صحيح. والترمذي وحسنه (٢٨٦٣) وصححه الألباني في المشكاة (٣٦٩٤) والتعليق الرغيب (١ / ١٨٩ - ١٩٠)

(٢) قال ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح كتاب فضل الإسلام (١ / ٢٢): «وهذا تحذير من دعوى الجاهلية يا آل فلان، يا آل فلان. لا، يا أهل التوحيد يا أهل الإيمان، كلهم إخوة، إذا جاء الحرب لا يتنسبون: يا آل فلان، يا قحطان، يا بني كذا يا بني كذا، لا، هم شيء واحد، فالمسلمون شيء واحد، ولا يحتجّون بدعوى الجاهلية. ولهذا لما قال: يا للمهاجرين، وقال الآخر: يا للأنصار، قال ﷺ: **«أَبِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُم»**. رواه البخاري (٤٩٠٧) ومسلم (٢٥٨٤) فالواجب الدعوى بالإسلام، أيها الإخوة، أيها المسلمون هكذا، عند الاستغاثة والحث يحثهم على القتال باسم الإسلام، وباسم الإيمان».

(٣) مسلم (١٨٤٩، ١٨٥١)

(٤) رواه الطبري من طريق ابن إسحاق عن شيخ مبهم لم يسمه، والواحدي من مرسل عكرمة. ولكن صحَّ بنحوه من حديث جابر رضي الله عنه المتفق عليه قال: كسع رجل من المهاجرين رجلًا من الأنصار، فاجتمع قوم ذا، وقوم ذا، وقال هؤلاء: يا للمهاجرين! وقال هؤلاء: يا للأنصار! فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: **«دعوها، فإنها**
=

عن دعوى الإسلام والقرآن من نسب، أو بلد، أو جنس، أو مذهب، أو طريقة فهو من عزاء الجاهلية. بل لما اختصم مهاجري وأنصاري فقال المهاجري: يا للمهاجرين! وقال الأنصاري: يا للأنصار! قال ﷺ: **«أَبِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟»** وغضب لذلك غضبًا شديدًا».(٢)(٣)(١)

= **مُنْتِنَةٌ»** ثم قال: **«ألا ما بالُ دعوى أهل الجاهلية؟! ألا ما بالُ دعوى أهل الجاهلية؟!»** رواه البخاري (٣٥١٩) ومسلم (٢٥٨٤) (٦٤)

(١) هو ابن تيمية.

(٢) السياسة الشرعية لابن تيمية (١ / ١١٣)

(٣) سبب نهيه وغضبه ﷺ مع أن هذه النسبة المهاجرين والأنصار قد ذكرها الله تعالى في القرآن في معرض المدح: أنها قد رفعت مضاهاة لأخوة الإسلام، فشابهت دعاوى الجاهلية بالتعصب والتحزب لجماعة ـ مهما كان مسمّاها ـ لا للدين، فالعبرة بالحقائق والمعاني لا المسميات والألفاظ والمباني، ولا أشرف من الانتساب للإسلام والإيمان، ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا﴾ [الحج: ٧٨].

النّاسُ مِنْ جِهَةِ التِّمْثالِ أكفاءُ ... أبوهمُ آدم والأُمُّ حوّاءُ
نَفسٌ كَنفسٍ وَأَرواحٌ مُشاكَلَةٌ ... وَأعظُمٍ خُلِقَت فيها وَأَعضاءُ
فَإِن يَكُن لَهُمُ مِن أَصلِهِم شَرَفٌ ... يُفاخِرونَ بِهِ فَالطينُ وَالماءُ
ما الفَضلُ إِلا لِأَهلِ العِلمِ إِنَّهُمُ ... عَلى الهُدى لِمَنِ اِستَهدى أَدِلّاءُ
وَقَدرُ كُلِّ اِمرِئٍ ما كانَ يُحسِنُهُ ... وَلِلرِجالِ عَلى الأَفعالِ اسماءُ
وَضِدُّ كُلِّ اِمرِئٍ ما كانَ يَجهَلُهُ ... وَالجاهِلونَ لِأَهلِ العِلمِ أَعداءُ
فَفُز بِعِلمٍ وَلا تَطلُب بِهِ بَدَلًا ... فَالناسُ مَوتى وَأَهلُ العِلمِ أَحياءُ

وجوب الدخول في الإسلام كله وترك ما سواه(٢)

قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البَقَرَة: ٢٠٨]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [النِّسَاء: ٦٠] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ [الأَنْعَام: ١٥٩] قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ

=

(١) قال ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمقصود أن الدعاوى التي بغير الإسلام؛ يا أهل مكة، يا أهل الطائف، يا أهل نجد، يا أهل ... هذا من دعوى الجاهلية. بل يقول: أيها المؤمنون، أيها الإخوة، يا أنصار الله، يا عباد الله هكذا. هذا هو الواجب وهذا الذي يحثهم يحرك القلوب، فعند لقاء العدو يحثهم على اللقاء والصبر بدعوى الإيمان وبدعوى الإسلام، أيها المسلمون، يا جند الله، يا عباد الله، أيها المسلمون، يا أنصار الله، هكذا يشجعهم ويحثهم بالاسم العام».

(٢) قال ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا هو الواجب الدخول في الإسلام كله وليس ببعضه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البَقَرَة: ٢٠٨]: يعني في الإسلام، ويقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ [الأَنْعَام: ١٥٩]، ويقول جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾﴾ [النِّسَاء: ١٥٠]. فالواجب هو الدخول في الإسلام كله. يعني: الواجب أن يلتزم المسلم في الإسلام كله صلاة وزكاة وصيامًا وحجًّا وجهادًا، ما يقول: بس أنا أصلي ولا أزكي، أزكي ولا أصوم، لا، يجب أن يلتزم بالإسلام كله».

وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عِمْرَان: ١٠٦]: «تبيضُّ وجوه أهل السنة والائتلاف، وتسود وجوه أهل البدع والاختلاف».

وعن عبدِ الله بنِ عمرٍو رضي الله عنهما قال: قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ، حَتَّى إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَى أُمَّهُ عَلَانِيَةً؛ لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ!**

وَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً». قَالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: **«مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»** [(١)].

وليتأمل المؤمن الذي يرجو لقاء الله، كلام الصادق المصدوق[(٢)] في هذا المقام خصوصًا قوله: **«مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»**. يا لها من موعظة لو وافقت من القلوب حياة! والحديث رواه الترمذي، ورواه أيضًا من حديث أبي هريرة وصححه، ولكن ليس فيه ذكر النار، وهو في حديث معاوية عند أحمد وأبي

---

(١) الترمذي (٢٦٤١) واستغربه، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢١٢٩) والتحقيق الثاني للصحيحة (١٣٤٨) وضعفه أيمن صالح شعبان في جامع الأصول (٧٤٩١) من جهة عبد الرحمن بن زياد الإفريقي.

(٢) قال ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يعني: «ليلزم الحق ويستقيم على ما سار عليه الصحابة وأتباعهم بإحسان، وأن يحذر أقوال أهل البدع والفُرقة والاختلاف: **«ثنتان وسبعون فرقة كلها في النار»**، ما بين كافر وما بين مبتدع وفاسق، لكن أهل السنة والجماعة هم الذين ساروا على نهج الصحابة واستقاموا على الدين، فهؤلاء لهم الجنة والكرامة. أما بقية الفرق فيهم الكافر والمبتدع، وفيهم المخالف للشرع الذي لم يلتزم بالحق».

داود وفيه: «**أَنَّهُ سَيَخْرُجُ فِي أُمَّتِي أَقْوَامٌ تَجَارَى بِهِمْ تِلْكَ الْأَهْوَاءُ كَمَا يَتَجَارَى الْكَلَبُ بِصَاحِبِهِ لَا يَبْقَى مِنْهُ عِرْقٌ وَلَا مَفْصِلٌ إِلَّا دَخَلَهُ**»(١). وتقدم قوله: «**وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ**»(٢)

البدعة أشد من الكبائر(٣) (١)

---

(١) أحمد (١٦٩٣٧) قال محققو المسند: إسناده حسن، وحديث افتراق الأمة منه صحيح بشواهده. وأخرجه أبو داود (٤٥٩٧) وغيره. قال ابن باز: أسانيده مجتمعة تصل إلى درجة الحسن.

(٢) البخاري (٦٤٨٨)

(٣) قسّم الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه الاعتصام (١/٣٦٧) البدعة إلى قسمين: حقيقية، وإضافية. فالحقيقية: هي ما لم يدل عليها دليل شرعي، لا من كتاب، ولا من سنة، ولا من إجماع، ولا استدلال معتبر عند أهل العلم، كتحريم الحلال، أو تحليل الحرام، اعتمادًا على شبه باطلة وبلا دليل شرعي.

أما البدعة الإضافية فهي ما لها شائبتان:

إحداهما: ما كان لها من الأدلة متعلّق، فلا تكون من تلك الجهة بدعة.

والأخرى: ما ليس لها متعلّق إلا مثل ما للبدعة الحقيقية، أي أنها بالنسبة لإحدى الجهتين سُنّة لاستنادها إلى دليل، وبالنسبة للجهة الأخرى تكون بدعة، لأنها مستندة إلى شبهة لا إلى دليل، أو لأنها غير مستندة إلى شيء. وسميت إضافية لأنها لم تخلص لأحد الطرفين، لا بالمخالفة الصريحة، ولا بالموافقة الصريحة.

والفرق بين البدعة الحقيقية والإضافية من جهة المعنى أن الدليل على الإضافية من جهة الأصل قائم، ومن جهة الكيفيات، أو الأحوال، أو التفاصيل لم يقم عليها، مع أنها محتاجة إليه، لأن الغالب وقوعها في التعبديات، لا في العاديات المحضة.

=

=
ومن أمثلتها: ذكر الله تبارك وتعالى على هيئة الاجتماع بصوت واحد، فالذكر مشروع، بل يكون واجبًا ومستحبًّا، لكن أداءه على هذه الكيفية غير مشروع، بل هو بدعة مخالفة للسنة، وعليه يحمل قول ابن مسعود رضي الله عنه للجماعة الذين كانوا يجتمعون في المسجد وفي أيديهم حصى، فيسبحون ويكبرون بأعداد معينة حيث قال لهم: «والله لقد جئتم ببدعة ظلمًا، أو فضلّتم أصحاب نبيكم علمًا».

ومن أمثلته أيضًا: تخصيص يوم النصف من شعبان بصيام، وليلته بقيام، وإفراد شهر رجب بالصوم أو عبادة أخرى. فهذه العبادات مشروعة، ومنها الصوم، لكن يأتي الابتداع من تخصيص الزمان، أو المكان، إذا لم يأت تخصيص ذلك في كتاب الله تعالى، أو سنة رسوله ﷺ.

والبدعة الإضافية أشد خطورة من الحقيقية من حيث الشُّبه التي يستند إليها المبتدع في فعلها، فإنك إذا سألته عن دليل ذلك قال: إنه يذكر الله، ويصوم لله، فهل الذكر والصيام محرمان؟ ومن ثم يستمرِئُها، ويداوم عليها، وقد لا يتوب منها في الغالب، ذلك أن الشبهات أخطر الأمور على الدين، فهي أخطر من الشهوات وإن كان الجميع خطيرًا، لأن إبليس لما يئس من تضليل المسلمين بالمعاصي دخل عليهم من باب العبادة، فزين لهم البدع بحجة التقرب إلى الله. وهنا مكمن الخطر. وانظر: البدعة الإضافية، للشيخ فهد العماري.

(١) قال ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمعنى: أن البدعة أكبر من الكبائر لأنها تَنَقُّصٌ للإسلام، وإحداث في الإسلام واتهام للإسلام بالنقص، فلهذا يبتدع ويزيد. وأما المعاصي فهي اتّباع للهوى وطاعة للشيطان، فهي أسهل من البدعة وصاحبها قد يتوب ويسارع ويتّعض، أما صاحب البدعة فيرى أنه مصيب وأنه مجتهد فيستمر بالبدعة نعوذ بالله، ويرى الدين ناقص فهو بحاجة إلى بدعته. ولهذا صار أمر البدعة أشد وأخطر من المعصية. قال تعالى في أهل المعاصي: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النِّسَاء: ٤٨]. فأهل
=

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النِّسَاء: ٤٨]. وقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأَنْعَام: ١٤٤]. وقوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النَّحْل: ٢٥].(١)

وفي الصحيح أنه ﷺ قال في الخوارج: **«أينما لقيتموهم فاقتلوهم، لئن لقيتُهم لأقتلنَّهم قتلَ عاد»**(٢). وفيه أنه: **«نهى عن قتال أمراء الجور»**(١) (٢).

=

المعاصي تحت المشيئة، وأما أهل البدع فذنبهم عظيم وخطرهم شديد، لأن بدعتهم معناها التنقص للإسلام وأنه محتاج لهذه البدعة، ويرى صاحبها أنه محق، ويستمر عليها، ويبقى عليها، ويجادل عنها. نسأل الله العافية».

(١) قال ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ [النَّحْل: ٢٥] «يعني: عليه مثل أوزار من تبعه في بدعته، نسأل الله العافية».

(٢) البخاري (٦٩٣٠)، ومسلم (١٠٦٦) وقال ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوله: **«لئن لقيتهم لأقتلنّهم قتل عاد»** لعظم بدعتهم، لأنهم شبّهوا على الناس، فاجتهدوا في القراءة والصلاة حتى قال النبي ﷺ: **«يحقرُ أحدُكم صلاتَه مع صلاتهم وقراءته مع قراءتهم»**. رواه البخاري (٦١٦٣) ومسلم (١٠٦٤) (١٤٨) ثم حملوا على المسلمين وقتلوهم، هذا من جرأتهم الخبيثة، وقاتلوا عليًّا، وقتلوا عمرو بن خارجة، وقتلوا جمعًا غفيرًا، كله بسبب بدعتهم وضلالهم، حتى أعان الله عليًّا عليهم فقتلهم. فالخوارج شرهم عظيم لأنهم يرون أنهم مصيبون في قتلهم للعصاة من الأمراء وغير الأمراء. وهذا من جهلهم وضلالهم، ولهذا قال فيهم ﷺ: **«أينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجرًا لمن قتلهم»**. رواه البخاري (٦٩٣٠) ومسلم (١٠٦٦) وقال: **«لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد»**. رواه البخاري (٧٤٣٢) ومسلم (١٠٦٤) (١٤٣)

=

وعن جرير بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رجلًا تصدق بصدقة ثم تتابع الناس فقال رسول الله ﷺ: **«مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ**

=

وسئل الشيخ رَحِمَهُٱللَّهُ: هل البدعة تدخل تحت المشيئة إذا لم تكن مكفّرة؟

فأجاب سماحته: «ما تدخل في الذنوب، لأنه متوعّد عليها في النار والعياذ بالله، إلا أن يتوب نسأل الله العافية، ولكن إن كانت دون الشرك يرجى لصاحبها، لأنها تدخل في المعنى من جهة المعاصي، لكنها غير داخلة في قوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النِّسَاء: ٤٨] في الجملة. لكن إذا كان المبتدع بدعته دون الشرك فهي لها حكم المعاصي من جهة أنه لا يخلد في النار إن دخل النار». أهـ.

(١) ومن ذلك ما جاء عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«إنه ستكون أمراء تعرفون وتنكرون، فمن أنكر فقد برئ، ومن كره فقد سَلِمَ، ولكن من رضي وتابع»** قالوا: يا رسول الله، أفلا نقاتلهم؟ قال: **«لا، ما صلّوا لكم الخمس»**. رواه مسلم (١٨٥٤) (٦٤)

وعن عوف بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«خياركم وخيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتُصلّون عليهم ويُصلّون عليكم، وشراركم وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم!»** قالوا: يا رسول الله، أفلا نقاتلهم؟ قال: **«لا، ما صلوا لكم الخمس، ألا وَمَنْ عليه والٍ، فرآه يأتي شيئًا من معاصي الله، فليكره ما أتى، ولا تنزعوا يدًا من طاعته»**. رواه أحمد (٢٣٩٩٩) وجوّد الحديث محققو المسند.

(٢) قال ابن باز رَحِمَهُٱللَّهُ: «يعني: الأمراء وإن جاروا وظلموا ما داموا ملتزمين بالإسلام، لا يجوز جهادهم، ولكن ينصحون، أما إذا أتوا كفرًا بواحًا وجب جهادهم على من قدر إذا كان هناك قوة تقدر».

بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ» (١) (٢). وله مثله من حديث أبي هريرة ولفظه: **«مَنْ دعا إلى هُدى كان له من الأجرِ مِثْلُ أجور مَنْ تَبِعَهُ، لا ينقصُ ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضَلالَة كان عليه من الإثمِ مِثْلُ آثام من تَبِعَهُ، لا يَنْقُص ذلك من أوزارهم شيئًا»**(٣).

---

(١) مسلم (٣/٨٦، ٨/٦٢)

(٢) قال ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذا معناه: أحياها وأظهرها، ليس المراد به البدعة، وإنما المراد هنا: إحياء السنة وإظهارها لأنه ﷺ رأى قومًا فقراء، فلما رأى فقرهم خطب الناس وحثهم على الصدقة، ورغبهم فيها، وقال: **«تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ مِنْ دِرْهَمِهِ مِنْ ثَوْبِهِ مِنْ صَاعِ بُرِّهِ مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ»** حَتَّى قَالَ: **«وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»** قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا، بَلْ قَدْ عَجَزَتْ. قَالَ: ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ، حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً؛ فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً؛ كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»**.

وسئل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عن الذي يُثني على أهل البدع ويمدحهم هل يلحق بهم؟

فأجاب سماحته: «نعم، ما فيه شك، من أثنى عليهم ومدحهم وهو داع إليهم، هو من دعاتهم، نسأل الله العافية».

(٣) البخاري (١/١٦٨) و(٨/١٢٥) ومسلم (٣/٩٣).

احتجاز التوبة عن صاحب البدعة(١)

(١) قال ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المقصود بيان خطر البدعة، وأن مِن أخطار البدعة: أن صاحبها لا يوفق للتوبة، يرى أنه مصيب ويستمر على الباطل هذا من أخطارها وبلائها، فالواجب الحذر من البدع لأنها شر عظيم، لاحول ولا قوة إلا بالله».

وسئل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عن صحة الحديث: «**إن الله احتجز التوبة عن كل صاحب بدعة**»؟ فأجاب سماحته: الحديث يحتاج إلى تأمل ونظر في سنده. لكن إنما يخشى عليهم، وذلك أن الغالب عليهم أنهم يستحسنون آرائهم ويبقون عليها. نسأل الله العافية. وإلا فإن كثيرًا من أهل البدع تابوا وتاب الله عليهم. وإن صحّ الحديث فهو من باب الوعيد والتحذير نسأل الله العافية. مثل ما قال ﷺ في المدينة: «**مَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا أَوْ آوَى مُحْدِثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا**». رواه مسلم ٦/ ٨٤ (١٩٧٨) (٤٣) هذا من باب الوعيد، وإلا من تاب تاب الله عليه.

وهذا هو الحق: أن الله احتجب التوبة عن صاحب البدعة، ومعناها: أنه يستحسنها ويرى أنه مصيب، ولهذا فالغالب أنه يموت عليها والعياذ بالله، لأنه يرى أنه مصيب. بخلاف صاحب المعصية الذي يعرف أنه عاص وأنه مجرم وأنه مخطئ، فيتوب وقد يتوب الله عليه، لكن صاحب البدعة على خطر لأنه يستحسنها ويتبع هواه، ولهذا فهو على خطر فيحجب عن التوبة لاستحسانه للبدعة، وظنه أنه على هدى واعتقاد أنه على حق.

أما إذا هداه الله وتبصر وتاب تاب الله عليه، وجميع الذنوب إذا تاب منها العبد تاب الله عليه حتى الشرك الذي هو أكبر من البدعة، فالكفر بالله إذا تاب منه العبد تاب الله عليه، والكفار من قريش وغيرهم لما تابوا تاب الله عليهم، وهكذا سحرة فرعون لما =

وقال الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الرُّوم: ٣٠] وقال تعالى ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البَقَرَة: ١٣٢]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النَّحل: ١٢٣].

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ وُلَاةً مِنْ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ وَلِيِّي مِنْهُمْ أَبِي إِبْرَاهِيم وَخَلِيلُ رَبِّي**»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عِمرَان: ٦٨] (١)

=

تابوا تاب الله عليهم، وهكذا صاحب البدعة إذا بصّره الله وتاب منها تاب الله عليه، فهو من باب الوعيد.

وذكر ابن وضاح عن أيوب قال: «كان عندنا رجل يرى رأيًا فتركه، فأتيت محمد بن سيرين فقلت: أشعرت أن فلانًا ترك رأيه؟ قال: انظر إلى ماذا يتحوّل؟ إن آخر الحديث أشدّ عليهم من أوله. «**يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرميّة، ثم لا يعودون إليه**». والمرفوع رواه مسلم (١٠٦٧) وسئل أحمد بن حنبل عن معنى ذلك فقال: «لا يُوّفقون للتوبة». أهـ». قلت: وحديث: «**إن الله احتجز التوبة عن صاحب كل بدعة**» قد صححه الألباني في السلسلة (١٦٢٠).

(١) أحمد (٣٨٠٠) والترمذي (٢٩٩٥) وصححه أحمد شاكر بناء على تصحيحه لزيادة الثقة، وكذلك صححه الألباني. وضعفه محققو المسند من جهة انقطاعه، قالوا: أبو

=

ولهما عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: **«وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا»** قَالُوا: أَوَلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: **«أَنْتُمْ أَصْحَابِي، وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ»** فَقَالُوا: كَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِنْ أُمَّتِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: **«أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ رَجُلًا لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بَيْنَ ظَهْرَيْ خَيْلٍ دُهْمٍ، بُهْمٍ أَلَا يَعْرِفُ خَيْلَهُ؟»** قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: **«فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنَ الْوُضُوءِ، وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ، أَلَا لَيُذَادَنَّ رِجَالٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ حَوْضِي كَمَا يُذَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ، أُنَادِيهِمْ أَلَا هَلُمَّ فَيُقَالُ: إِنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقًا سُحْقًا»** (١) (٢).

وللبخاري: **«بَيْنَا أَنَا قَائِمٌ إِذَا زُمْرَةٌ، حَتَّى إِذَا عَرَفْتُهُمْ خَرَجَ رَجُلٌ مِنْ بَيْنِي وَبَيْنِهِمْ فَقَالَ: هَلُمَّ. فَقُلْتُ: أَيْنَ؟ قَالَ: إِلَى النَّارِ وَاللَّهِ! قُلْتُ: وَمَا شَأْنُهُمْ؟ قَالَ: إِنَّهُمُ ارْتَدُّوا بَعْدَكَ عَلَى أَدْبَارِهِمُ الْقَهْقَرَى. ثُمَّ إِذَا زُمْرَةٌ** - فذكر مثله - **قال: فَلَا أُرَاهُ يَخْلُصُ مِنْهُمْ إِلَّا مِثْلُ هَمَلِ النَّعَمِ»** (٣).

=

الضحى - وهو مسلم بن صبيح - لم يدرك ابن مسعود، وبقية رجاله ثقات. والذين رووه منقطعًا أثبت في سفيان من غيرهم وأكثر، ولذا رجح أبو زرعة وأبو حاتم والترمذي الرواية انقطاعه.

(١) البخاري (٩/١٤٨) (٦٥٨٣، ٦٥٨٤). مسلم (٧/٦٥) (٦٠٣٢، ٦٠٣٣)

(٢) علق ابن باز رَحِمَهُٱللَّهُ على ذلك بقوله: «الله أكبر، الله أكبر!، أي: بُعدًا بُعدًا لمن بدَّل بعدي، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وهذه علامة أمته غرًّا محجّلين من آثار الوضوء، أمة محمد المستجيبين له عليه الصلاة والسلام».

(٣) البخاري (٨/١٥٠) (٦٥٨٧)

ولهما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «**فأقول كما قال العبد الصالح**»: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المَائِدَة: ١١٧].(١) (٢)

---

(١) البخاري (٤/١٦٩) (٣٣٤٩) ومسلم (٨/١٥٧) (٢٨٦٠) (٥٨)

(٢) وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الفاسق: هل يرد الحوض؟

فأجاب: «ظاهر الحديث يعمّه لأنه ليس بمرتد، لكن عليه خطر، جاء في بعض الروايات بالوعيد، فينبغي الحذر. الوعيد إنما هو في المرتدين أنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم، أما العاصي فليس بمرتد، هو ناقص الإيمان ضعيف الإيمان فيخشى عليه فينبغي له الحذر».

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن أهل البدع، هل هم ممن يُذادون عن الحوض؟

فأجاب: «أهل البدع فيهم تفصيل، فيهم كافر وفيهم مسلم، أما المبتدع الكافر لا يرد نسأل الله العافية».

وسئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الرافضة، هل هم من الاثنين والسبعين فرقة؟

فأجاب: «هم داخلون فيهم، لكن فيهم الكافر وفيهم المسلم، فالرافضة عُبَّاد غير الله كَفَرَة، والرافضة الذين يفضلون عليًّا على عثمان أو على الصديق فهؤلاء ليسوا بكفار لكنهم مبتدعون، أما من دعا عليًّا أو أهل البيت وغلا فيهم، فإنه يكون كافرًا، أو قال: إن النبوة لعلي لكن خان جبرائيل هذا كافر مرتد، نسأل الله العافية.

والثنتان والسبعون فرقة فيهم الكافر وفيهم العاصي، وفيهم المبتدع الضال والمبتدع الذي ليس بكافر، لكنهم كلهم يجتمعون في إجابة النبي ﷺ، فهم من أمة الإجابة. أما أمة الدعوة كثيرون اليهود والنصارى من أمة الدعوة لا قيمة لهم، فهم من أهل النار. لكن هذه الثلاث والسبعون الذين استجابوا، الذين زعموا أنهم من أتباع النبي ﷺ، زعموا أنهم أجابوا دعوته؛ الناجي منهم السالم: الفرقة الناجية الذين تابعوا النبي ﷺ

=

وعن حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنْ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: **«نَعَمْ»**، قُلْتُ: وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: **«نَعَمْ وَفِيهِ دَخَنٌ»**، قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ: **«قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ»**، قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قال: **«نَعَمْ، فِتْنَةٌ عَمْيَاء، وَدُعَاةٌ إِلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا»**.

قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ صِفْهُمْ لَنَا، فَقَالَ: **«هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا»**، قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: **«تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ»**، قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ؟ قَالَ: **«فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ»**.

=

وساروا على نهجه، وأما الثنتان والسبعون ففيهم الضال وفيهم الكافر وفيهم العاصي، وفيهم المبتدع الضال، على درجات متوعدون بالنار كلهم نسأل الله العافية».

وسئل عن الرافضة في العذر بالجهل؟

فأجاب: «من دعا غير الله واستغاث بغير الله كافر مطلقًا، لأنهم بين المسلمين وقد بلغهم القرآن وبلغتهم السنة، الله جعل القرآن نذارة وبلاغ: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٥٢]، ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]. فمن كفر مع وجوده بين المسلمين واستغاث بغير الله أو عبد البدوي أو غيره، سواء من الرافضة له حكم الكفار، نسأل الله العافية».

أخرجاه[1]. وزاد مسلم: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: **«ثُمَّ يَخْرُجُ الدَّجَّالُ مَعَهُ نَهْرٌ وَنَارٌ، فَمَنْ وَقَعَ فِي نَارِهِ وَجَبَ أَجْرُهُ وَحُطَّ وِزْرُهُ، وَمَنْ وَقَعَ فِي نَهْرِهِ وَجَبَ وِزْرُهُ وَحُطَّ أَجْرُهُ»**، قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ مَاذَا؟، قَالَ: **«ثُمَّ هِيَ قِيَامُ السَّاعَةِ»**.

قال أبو العالية: «تعلّموا الإسلام، فإذا تعلمتموه فلا ترغبوا عنه، وعليكم بالصراط المستقيم فإنه الإسلام، ولا تنحرفوا عن الصراط يمينًا ولا شمالًا، وعليكم بسنة نبيكم، وإياكم وهذه الأهواء»[2].

تأمل كلام أبي العالية رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا، ما أجلّه، واعرف زمانه الذي يحذر فيه من الأهواء التي من اتبعها فقد رغب عن الإسلام، وتفسير الإسلام بالسنة، وخوفه على أعلام التابعين وعلمائهم من الخروج عن السنة والكتاب، يتبين لك معنى قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡ﴾ [البَقَرَةِ: ١٣١]. وقوله: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢﴾ [البَقَرَةِ: ١٣٢] وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥ﴾ [البَقَرَةِ: ١٣٠]، وأشباه هذه الأصول الكبار التي هي أصل الأصول والناس عنها في غفلة، وبمعرفتها يتبين معنى الأحاديث في هذا الباب وأمثالها، وأما الإنسان الذي يقرأها وأشباهها وهو آمن مطمئن أنها لا تناله ويظن أنها في قوم كانوا فبادوا، ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩٩﴾ [الأَعۡرَاف: ٩٩]. وعن ابن مسعودٍ قال: خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

(١) البخاري (٤/٢٤٢) ومسلم (٦/٢٠)

(٢) قال ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يعني: ابتعد عن الأهواء، والأهواء هي البدع احذروها، والزموا الطريق».

يَوْمًا خطًّا، ثُمَّ قَالَ: **«هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ»**، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ ثُمَّ قَالَ: **«هَذِهِ سُبُلٌ، عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ»**، ثُمَّ تَلَا: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣] (١) (٢)

---

(١) أحمد (٤١٤٢) قال محققوه: إسناده حسن، من أجل عاصم بن أبي النجود، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين. قال الهيثمي: عاصم ثقة وفيه ضعف. والحاكم (٣١٨/٢) ووافقه الذهبي.

(٢) قال ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا يبين أن الواجب على المؤمن الحذر وألا يغتر بالكثرة، وأن يعتني بالسنة والدليل، وأن يخاف على نفسه ولا يأمن لأن الله تعالى يقول: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٩]، يعمل ويجتهد في الطاعة وهو خائف وجل غير مطمئن، بل يَحْذَر البدع ويحذر المعاصي ويتبع أهل الحق ويسير معهم ويبتعد عن أهل الباطل وصحبتهم، هكذا المؤمن دائمًا على حذر. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [البينة: ٧ - ٨]، وقال جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ [الملك: ١٢]، وقال سبحانه: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦]، فيجب الحذر وعدم الطمأنينة لرأي فلان ورأي فلان حتى تعلم الدليل من الكتاب والسنة».

غربة الإسلام، وفضل الغرباء

قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هود: ١١٦]، وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مرفوعًا: **«بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ»**[(١)]. وفيه: مَنِ الغرباء؟ قال: **«النُّزَّاعُ مِنَ القَبَائِلِ»**[(٢)]. وفي رواية: **«الْغُرَبَاءُ الَّذِينَ يَصْلُحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ»**[(٣)]. وللترمذي من حديث كَثِير بن

---

(١) مسلم (١٤٥)

(٢) وهذه الزيادة عند أحمد (١/٣٩٨) قال محققوه: إسناد أحمد صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير أبي الأحوص - وهو عوف بن مالك بن نضلة الجشمي - فمن رجال مسلم.

قال البيهقي: «النُّزَّاعُ: جمع نزيع ونازع، وهو الغريب الذي نزع من أهله وعشيرته، وأراد بقوله: **«طوبى للغرباء»** المهاجرين الذين هجروا أوطانهم في الله عز وجل». قلت: والأظهر أنّه عامٌّ لكل غربة في الله تعالى حتى وإن كان في وطنه، بل قد تكون لبعض الناس أشدّ من الهجرة بالبدن، فالغربة غربة الدين بانفراد صاحبه بأمر قام لله فيه وخالفه من حوله، وتزيد غربته إن آذوه لدينه، لذلك فالمهاجر لله داخل في معنى الغربة دخولًا أوليًّا، وبالله التوفيق.

(٣) أبو عمرو الداني في السنن الواردة في الفتن (٢٥ / ١) وصححه الألباني في الصحيحة (١٢٧٣)

عبد الله عن أبيه عن جده: «**طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنْ سُنَّتِي**»(١).

وعن أبي أُميَّةَ قال سألتُ أبا ثعلبَةَ فقلتُ له: يا أبا ثعلبَة؛ كَيفَ تَقُولُ في هذهِ الآيَةِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾ [المائدة: ١٠٥]؟ فقال: أَمَا وَاللهِ لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْهَا خَبِيرًا، سَأَلْتُ عَنْهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فقال: «**بَلْ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتُمْ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ؛ فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ، وَدَعْ عَنْكَ الْعَوَامَّ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا الصَّابِرُ فِيهِنَّ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ**». قلنا: «مِنَّا أَمْ مِنْهُمْ؟»، قَالَ: «**بَلْ مِنْكُمْ**».(٢) (١)

---

(١) الترمذي (٢٦٣٠) وقال: هذا حديث حسن صحيح. وقال الألباني في سنن الترمذي (٥ / ١٨): ضعيف جدًّا.

(٢) البخاري في خلق أفعال العباد (١٥٥) وأبو داود (٤٣٤١) والترمذي (٤/ ٩٩) قال الألباني في السلسلة (٣ / ٩٤) (١٠٢٥): وقال الترمذي: حديث حسن غريب. كذا قال، وفيه عندي نظر، فإن عمرو بن جارية وأبا أمية لم يوثقهما أحد من الأئمة المتقدمين غير ابن حبان، وهو متساهل في التوثيق كما هو معروف عند أهل العلم، ولذلك لم يوثقهما الحافظ في «التقريب»، وإنما قال في كل منهما: «مقبول» يعني عند المتابعة، وإلا فليّن الحديث كما نص عليه في «المقدمة» من «التقريب».

ثم إن عتبة بن أبي حكيم فيه خلاف من قبل حفظه، وقال الحافظ فيه: صدوق يخطئ كثيرًا، فلا تطمئن النفس لتحسين إسناد هذا الحديث، لا سيما والمعروف في تفسير الآية =

التحذير من البدع

=
يخالفه في الظاهر، وهو ما أخرجه أصحاب السنن وأحمد وابن حبان في صحيحه (١٨٣٧) وغيرهم بسند صحيح عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قام فحمد الله، ثم قال: يا أيها الناس؛ إنكم تقرأون هذه الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾ [المَائدة: ١٠٥]، وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إنّ الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه يوشك أن يعمهم بعقابه»**. وقد خرجته في الصحيحة (١٥٦٤). لكن لجملة **«أيام الصبر»** شواهد خرجتها في الصحيحة أيضًا، فانظر تحت الحديثين (٤٩٤ و٩٥٧)

(١) قال ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا فيه الحث على الاستقامة في الغربة، وأنه ينبغي للمؤمن أن يستقيم ويحرص على الاستقامة عند غربة الناس، ولا يغتر بكثرة الهالكين، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح لما تلا الصديق هذه الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾ [المَائدة: ١٠٥] قال: يقول النبي ﷺ: **«إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُنْكِرُوهُ؛ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمْ اللَّهُ بِعِقَابِهِ»**. (قلت: رواه أحمد (١ / ١٧٧) وغيره، وهو أول حديث في مسند الصديق عند أحمد، وصححه الألباني).
وقوله: **«لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ»**: من الهداية، الأمر بالمعروف، ولا يضر الناس من ضل إذا استقاموا وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، بعض الناس يظن أنه إذا اهتدى يعني: إذا أدى الطاعات الخاصة، وهذا غلط، فمن الهداية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. هؤلاء هم الغرباء الذين يَصلحون عند فساد الناس ويُصلحون ما أفسد الناس، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويتمسكون بالقرآن حينما يتركه الناس، فالغرباء هم: أهل الصلاح والاستقامة وتنفيذ الأوامر والدعوة إلى الله عند فساد الزمان وتغيّر أهله».

عن العِرباضِ بن سَارِيَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يومًا موعِظَةً بليغَةً، ذَرَفَتْ مِنها العُيُونُ، وَوَجِلَتْ منهَا القلوبُ، قُلنا: يا رسول الله؛ كَأَنَّهَا موعظة مودّعٍ فأوصنا، قال: «**أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ، وَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»(١) (٢).

وعن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كلُّ عبادةٍ لا يتعبَّدها أصحابُ محمدٍ فلا تتعبّدوها، فإنّ الأوّلَ لم يدع للآخر مقالًا، فاتقوا الله يا معشر القراء، وخذوا طريق من كان قبلكم». وعن عمر بن يحيى قال: سمعت أبي يحدث عن أبيه قال: «كنا نجلس على باب عبد الله بن مسعود رضي الله قبل صلاة الغداة، فإذا خرج مشينا معه إلى المسجد، فجاءنا أبو موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: أَخَرَجَ إليكم أبو عبد الرحمن بعد؟ قلنا: لا. فجلس معنا حتى خرج، فلما خرج قمنا إليه جميعًا، فقال له أبو موسى: يا أبا عبد الرحمن؛ إني رأيت في المسجد آنفًا

---

(١) أبو داود (٤٦٠٧) وابن حبان (١ / ١٧٨) وصححه الأرناؤوط.

(٢) قال ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا فيه التحذير من البدع، وأن الواجب على أهل الإسلام الحذر منها، ولهذا حذَّر منها النبي ﷺ لما وعظهم المَوْعِظَةً البَلِيغَةً. فالواجب على أهل الإسلام أن يتمسكوا بما شرعه الله من العبادة، وأن يحذروا ما أحدثه الناس من البدع، ولهذا قال لهم حذيفة: «كل عبادة لا يتعبدها أصحاب محمد فلا تتعبدوها، فإن الأول لم يدع للآخر مقالًا»، لأن الصحابة قد بينوا، وسألوا نبيهم عن كل شيء، فعليكم بالتأسّي بهم والسير على منهاجهم».

أمرًا أنكرتُه، ولم أرَ - والحمد لله - إلا خيرًا، قال: فما هو؟ فقال: إن عشت فستراه، قال: رأيت في المسجد قومًا حِلَقًا جلوسًا، ينتظرون الصلاة، في كل حلقة رجل، وفي أيديهم حصى فيقول: كبّروا مئة، فيكبرون مئة، فيقول: هلّلوا مئة، فيقول: سبّحوا مئة، فيسبحون مئة، قال: فماذا قلتَ لهم؟ قال: ما قلت لهم شيئًا انتظار رأيك أو انتظار أمرك، قال: أفلا أمرتهم أن يعدّوا سيئاتهم، وضمنتَ لهم ألا يضيع من حسناتهم شيء؟

ثم مضى، ومضينا معه، حتى أتى حلقة من تلك الحلق، فوقف عليهم فقال: ما هذا الذي أراكم تصنعون؟ فقالوا: يا أبا عبد الرحمن؛ حصى نعدّ بها التكبير والتهليل والتسبيح، فقال: فعُدُّوا سيئاتكم، فأنا ضامن ألا يضيع من حسناتكم شيء، ويحكم يا أمة محمد ما أسرع هلكتكم! هؤلاء صحابة محمد ﷺ متوافرون، وهذه ثيابه لم تُبل، وآنيته لم تُكسر. والذي نفسي بيده إنكم لعلى ملّة هي أهدى من ملة محمد، أو مفتتحو باب ضلالة!

قالوا: والله يا أبا عبد الرحمن؛ ما أردنا إلا الخير، قال: وكم من مريد للخير لن يصيبه، إن رسول الله ﷺ حدثنا أن قومًا يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم؛ وأيم الله لعل أكثرهم منكم، ثم تولى عنهم، فقال عمرو بن سلمة:

رأينا عامّة أولئك الحِلَق يطاعنوننا يوم النهروان مع الخوارج» (١) (٢) (٣).

---

(١) من آفة الاندفاع بلا علم ولا حكمة - وبخاصة في أزمنة الفتن - أنّ المنفعل ببعض أحكام نَصٍّ وعدٍ أو وعيدٍ نراه في العادة يستعجل تطبيق فهمه لفحوى النص على من حوله، وتضيق نفسه عن دفع زمن مضمونه، فيصرّ على تطبيقه في واقع مَن حوله بالرمي بالفسق والابتداع والخروج عن السنة أولًا، ثم يخرج على أمة محمد ﷺ فيضرب وجوههم بالسيف آخرًا بعدما رماهم بالطعن في ديانتهم ابتداءً. وحينما يذودهم عالمٌ بالله وبدينه عن غيّهم يبتدئون به، فينهرون دمه على عرضه المثلوم بدنايا كذبهم، وينحرون دينه المطعون بحراب إفكهم، ولا يكاد شرهم ينكفئ إلا بقوة سلطان، أما القرآن فقد ألقوا أحكامه خلف ظهرانيهم، وإن عكفوا على تلاوته بألسن بلا فقه ولا علم ولا ورع، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا به.

(٢) الدارمي (٢٠٤) وصححه الألباني في الصحيحة (٢٠٠٥)

(٣) قال ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا من البدع في كونهم يتفرقون أحزابًا، كل واحد يقول: افعل كذا وكذا، وإنما الواجب النصيحة والتذكير بالله، قال الله وقال رسوله هذا هو الواجب، أما أن يجعلوا حلقًا ويقولون: عدّوا حسناتكم، خذوا الحصى، عدّ يا فلان! هذا مما أحدثه الناس من البدع، ولهذا يقول ﷺ في خطبته: **«أما بعد؛ فإن خير الكلام كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشرّ الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»**. رواه مسلم (٨٦٢) (٣٥) فما أحدثه الناس من القربات هو من البدع، والبدع تكون بالقُرَبِ، فما تقرب به الناس مما لم يشرع، هذا من البدع، فالواجب الحذر منها، وليس فيها تفصيل، بل كل بدعة ضلالة.

وأما قول بعض الناس: إن البدعة تنقسم إلى خمسة أقسام، فهو قول غلط ممن قاله، والصواب: أن كل بدعة ضلالة، والبدعة هي القربة التي يتقرب بها الناس ولم يشرعها الله تعالى، مثل ما فعل هؤلاء في عهد ابن مسعود، ومثل بدعة الموالد، ومثل بدعة البناء

=

فلا خوف على حسناتك من ضياع أو نسيان، فربك حافظها لك ما دمت بعهده قائمًا، ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ۝٣٥﴾ [مُحَمَّد: ٣٥].

ونعوذ بالله من الضلال ومن حال أهل النار، وإن أعظم الخيبات أن يركض المرء فيما يُبعدُه عن مقصده لجريِهِ خلافَ جهته، وهكذا الحال في كلّ بدعة وضلالة ودين مُبدّل، قال سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤﴾ [الكَهْف: ١٠٣ - ١٠٤].

وتدبر قول الله تعالى وقارن حال الخوارج بها وستراهم يدخلون فيها دخولًا أوّليًّا، نسأل الله العافية والسلامة، قال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ۝٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ۝٢٠٥ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝٢٠٦﴾ [البَقَرَة: ٢٠٤ - ٢٠٦]، وهي ليست خاصة بالخوارج، بل بكل ما انطبق عليه وصفها الغليظ من المنتسبين للإسلام والخارجين عنه، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا به.

=

على القبور، وتجصيص القبور والكتابة عليها، كل هذا مما أحدثه الناس من البدع، فالواجب الحذر من ذلك، وأن يتقيد المؤمن بما شرع الله وما درج عليه أصحاب النبي ﷺ في العبادات، وأن يحذر أن يزيد شيئًا فيما شرعه الله جل وعلا، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المَائِدَة: ٣] فالله أكمل الدين، فليس لأحد أن يزيد فيه».

فالحمد لله كما ينبغي له على أن هدانا للإسلام والسنة، ونسأله تبارك وتعالى أن يحيينا ويميتنا على ما امتنّ به علينا مِن هُدانا، إنه سميع قريب مجيب.

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾ [محمد: ١٩]

الرضا بمحمد ﷺ رسولًا

الفرح برسول الله ﷺ قطب رحى محبته، وعمود التدين بالشهادة له، ومن تأمل جميل صفاته، وكمال سجاياه، وشرف أخلاقه، ورضيِّ سماته، وموفور أدبه ورحمته وشفقته وحلمه وجلالة أعماله، وعظمة الدين الذي بعثه الله به، وشديد المشاقّ التي احتملها ليصلنا الدين كما أمره ربه؛ عَلِمَ عِلْمَ اليقين أنّه الإنسان الذي لا تُضاهي محبته إنسان لا نفسًا ولا ولدًا ولا والدًا، ولَفرح الفرح المطلق به وبدينه، وهو الفرح المثمر لكمال الرضا به نبيًّا رسولًا.

وتأمّل فوز أنصار الله به في هذا الخبر، فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن أناسًا من الأنصار قالوا يوم حنين، حين أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء. فطفق رسول الله ﷺ يعطي رجالًا من قريش المئة من الإبل. فقالوا: يغفر الله لرسول الله. يعطي قريشًا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم! قال أنس بن مالك: فحُدِّثَ ذلك رسول الله ﷺ من قولهم. فأرسل إلى الأنصار. فجمعهم في قبّة من أُدْمٍ[1] فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله ﷺ فقال: **«ما حديثٌ بلغني عنكم؟»**.

فقال له فقهاء الأنصار: أما ذوو رأينا، يا رسول الله فلم يقولوا شيئًا. وأما أناس منّا حديثة أسنانهم، قالوا: يغفر الله لرسوله، يعطي قريشًا ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم، فقال رسول الله ﷺ: **«إني أعطي رجالًا حديث**

---

(١) قبة من أدم: هي القبة من الخيام: وهي بيت صغير مستدير. وهو من بيوت العرب. والأدم هي الجلود. وهو جمع أديم بمعنى الجلد المدبوغ. ويجمع أيضًا على آدام.

عهد بكفر أتألّفهم[١] **أفلا ترضون أن يذهب الناس بالأموال، وترجعون إلى رحالكم**[٢] **برسول الله؟! فو الله، لَمَا تنقلبون به خير مما ينقلبون به»**[٣] فقالوا: بلى. يا رسول الله، قد رضينا. قال: **«فإنكم ستجدون أثرة شديدة**[٤] **فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله. فإني على الحوض»** قالوا: سنصبر[٥].

ونبي الله صلوات الله وسلامه وبركاته عليه هو سيد الراضين بالله وعن الله ودين الله تعالى، فعن مالك بن صعصعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن نبي الله ﷺ حدّثه عن ليلة أسري به قال: **«بينما أنا في الحطيم -** وربما قال: **في الحِجْرِ - مضطجعًا، إذ أتاني آتٍ فشقَّ ما بين هذه إلى هذه»**. فقلت للجارود وهو إلى جنبي: ما يعني به؟ قال: من ثغرةِ نحره إلى شِعرته ... الحديث. وفيه: **«ثم أُتيت بإناء من خمرٍ وإناء من لبن وإناء من عسل، فأخذت اللبن، فقال: هي الفطرة التي أنت عليها وأمتك. ثم فرضت عليّ الصلاة خمسين صلاة كل يوم، فرجعت فمررت على موسى، فقال: بم أُمرت؟**

---

(١) أتألّفهم: أي: أستميل قلوبهم بالإحسان ليثبتوا على الإسلام، رغبة في المال، وهم من المؤلفة قلوبهم الذين يعطون من الزكاة.

(٢) أي: منازلكم وبيوتكم.

(٣) وصدق بأبي وأمي وولدي ونفسي وما أملك.

(٤) أي: سيأتي من يستأثر عليكم بالمال والسلطان، ويُفضّل عليكم غيركم بغير حق، وهذا من دلائل نبوته ﷺ، فقد وقع ما قال.

(٥) البخاري (٣٧٩٣)، مسلم (١٠٥٩) واللفظ له.

قال: أمرت بخمسين صلاة كل يوم. قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإني والله قد جرّبت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشدّ المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فرجعت، فوضع عني عشرًا، فرجعت إلى موسى فقال مثله. فرجعت فوضع عني عشرًا، فرجعت إلى موسى فقال مثله. فرجعت فوضع عني عشرًا، فرجعت إلى موسى فقال مثله. فرجعت فأُمرت بعشر صلوات كل يوم، فرجعت فقال مثله. فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ قلت: أمرت بخمس صلوات كل يوم. قال: إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم، وإني قد جربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك. قال: سألت ربي حتى استحييت، ولكن أرضى وأسلّم. قال: فلما جاوزتُ نادى منادٍ: أمضيتُ فريضتي، وخفّفتُ عن عبادي»[1].

ففي هذا الخبر الجليل تمام رضا النبي ﷺ عن ربه، وبركة الرضا بالتخفيف عن أمته، وكرامة الله تعالى له، وكرامة أمته به إكرامًا له، وعظيم حظّهم منه ببركته، وفيه أيضًا عظيم نصح موسى كليم الرحمن بهذه الأمة، وحرصه على تيسير الله تعالى لهم عبادتهم. والحمد لله رب العالمين.

---

(١) البخاري، الفتح ٧ (٣٨٨٧) واللفظ له، ومسلم (١٦٤)

الرضا بعلم السلف والاكتفاء به في أمور الشرع

الكلام عن الرضا بمذهب السلف الصالح وعلمهم وعملهم هو خلاصة الكلام عن الرضا بالإسلام دينًا، ذلك أن علم السلف هو خلاصة الإسلام ولُبَابُ الشريعة، وطريقة السلف أعلم وأسلم وأحكم وأتقى وأورع. فهي المَهْيَعُ القويم، والجادة المستقيمة، والسُّنَّة المرضيّة، والسبيل الأمثل لدرك الحق وتحقيق العلم.. طلعَ الصباح فأطفئوا القنديلا.

وكثير من الناس يظنون أن عبارة «مذهب السلف» أن لهم بذلك طريقة خاصة بهم غير طريقة عامة المسلمين، وأن لهم أوضاعًا وتراتيب مشابهة لتراتيب الطرقية ونحوها، وهذا باطل، فطريقة السّلف هي محض الإسلام وزبدة الرسالة وخلاصة الملّة الحنيفية، فمن عمل بالقرآن والسنة فهو سلفي صميم وسنّي مستقيم، فهو لا ينتسب سوى للإسلام ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨]، وكانت الأمة جمعاء على ذلك الطريق حتى حدثت البدع وخرج فئام من الناس عن جادّة سلفهم الصالح من الصحابة والتابعين، فأقاموا لهم قواعد وتراتيب وأنماط ومناهج على غير سنة النبي ﷺ، بل بقعوا بمفاهيم وتصورات محدثة غريبة مستوردة من هَلْكَى أممِ الأوثان لم يأت بها رسول الله ﷺ الذي لم يرحل للرفيق الأعلى حتى أكمل الله به الدين وأتمّ به النعمة وارتضى به الإسلام.

وكان صلوات الله وسلامه وبركاته عليه قد أكّد مرارًا على خطورة الإحداث والابتداع في دين الله تعالى، وحذّر مخالفته سنته بزيادة أو نقص، لأن

جوهرَ البدع تبديلُ الدين إمّا جملةً وإما شيئًا، فعن عائشَة رضي الله عنها قالت: قال رسول اللَّهِ ﷺ: **«مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»** أخرجاه، وفي لفظ: **«مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»** (١). أي مردود على صاحبه، فالدين دين جماعة لا شذوذ عنها بالمحدثات، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. قال مجاهد: «السُّبُل: البدع والشبهات».

ومذهب السلف هو شرع رسول الله ﷺ المُتلقّى من الوحي المعصوم كتابًا وسنّة، ومذهبهم هو عين وصية رسول الله ﷺ، لأنه قد علم أن الناس سيختلفون من بعده، فأرشدهم إلى خيرِ سبيلٍ، وأزكى نهجٍ، وأقومِ طريقةٍ وهي السنةُ الرّساليّة والمَحَجَّةُ المحمديةُ التي مشى على أثَرِها السلف الصالح قولًا وعملًا واعتقادًا وسَمْتًا وخُلُقًا وديانةً، فعن أبي نجيح العرباض بن سارية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: وَعَظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة وَجِلَتْ منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله، كأنّها موعظة مودّع فأوصنا، قال: **«أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة وإن تأمّر عليكم عبد حبشي، وإنّه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة**

---

(١) البخاري (٣/٢٤١) مسلم (٥/١٣٢)

الخلفاء الراشدين المهديين، عَضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل بدعة ضلالة» (١).

والتمسّك بالسّنة خيرٌ كلّه، وصحّة المعتقد رافعة للدرجة عند الله تعالى، فأول خطوة في القبول سلامة التصوّر واستقامة العلم. والضلال كل الضلال في اعتقاد ما يخالف اعتقاد رسول الله ﷺ الذي جاء بالدين من عند الله أبيضَ نقيًّا صافيًا واضحًا لا غبش فيه ولا خفاء ولا شكّ ولا غموض. قال ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تبارك وتعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المَائـِدَة: ٣]: «أخبر الله نبيّه ﷺ والمؤمنين أنه قد أكمل لهم الإيمان، فلا يحتاجون إلى زيادة أبدًا، وقد أتمّه الله عزّ ذكره فلا ينقصه أبدًا، وقد رضيه الله فلا يسخطه أبدًا» (٢).

وهذه الحروف العبدليّة عليها من ضياء النبوة إشراقة، ولا جَرَمَ؛ فهي نِتاجُ بركةِ دعوة الرسول ﷺ له بالفقه في الدين وعلمِ التأويل. فاستقم يا عبد الله على صراط الله كما أُمِرْتَ، لا كما اشتهيت ورغبتَ، وأبشر بحُسْنِ العُقْبَى وفوزِ المُنْقَلَبِ إنْ تقبّلَكَ مولاكَ في الصالحين.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أهلُ السنة إن قعدت بهم أعمالهم قامت بهم عقائدهم، وأهل البدع إذا قامت بهم أعمالهم قعدت بهم عقائدهم». وقال:

---

(١) حديث ثابت مشهور، رواه أحمد (٤/١٢٦) وأبو داود (٤٦٠٧) والترمذي (٢٦٧٦) وقال: حديث حسن صحيح. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٧٣٥) والنواجذ: الأنياب، وقيل: الأضراس. والمراد الحض على شدّة الاستمساك بالسنة.

(٢) تفسير الطبري (٩ / ٥١٨) (١١٠٨٠)

وهذه النعمة المطلقة هي التي يُفرح بها في الحقيقة، والفرح بها مما يحبّه الله ويرضاه، وهو لا يحبّ الفرحين، قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ [يُونُس: ٥٨]، وقد دارت أقوال السلف على أن فضل الله ورحمته الإسلام والسنّة. وعلى حسب حياة القلب يكون فرحه بهما، وكلما كان أرسخ فيهما كان قبله أشدّ فرحًا، حتى إن القلب إذا باشر روح السنة ليرقص فرحًا أحزن ما يكون الناس.

فإن السنة حصن الله الحصين الذي من دخله كان من الآمنين، وبابه الأعظم الذي من دخله كان إليه من الواصلين، تقوم بأهلها وإن قعدت بهم أعمالهم، ويسعى نورها بين أيديهم إذا طفئت لأهل البدع والنفاق أنوارهم، وأهل السنة هم المبيضَّةُ وجوههم إذا اسودّت وجوه أهل البدعة. قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عِمْرَان: ١٠٦] قال ابن عباس: «تبيضّ وجوه أهل السنة والائتلاف، وتسودّ وجوه أهل البدعة والتفرّق».

وهي الحياة والنور اللذان بهما سعادة العبد وهداه وفوزه، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأَنْعَام: ١٢٢].

فصاحب السنة حيُّ القلب مستنيره، وصاحب البدعة ميت القلب مظلمُه، وقد ذكر الله سبحانه هذين الأصلين في كتابه في غير موضع، وجعلهما صفة أهل الايمان، وجعل ضدهما صفة من خرج عن الإيمان. فإن القلب الحيّ المستنير هو الذي عقل عن الله وفهم عنه وأذعن وانقاد لتوحيده ومتابعة ما بعث به رسوله ﷺ وآله.

والقلب الميت المظلم الذي لم يعقل عن الله ولا انقاد لما بعث به رسول الله ﷺ، ولهذا يصف سبحانه هذا الضرب من الناس بأنهم أموات غير أحياء، وبأنهم في الظلمات لا يخرجون منها، ولهذا كانت الظلمة مستولية عليهم في جميع جهاتهم، فقلوبهم مظلمة ترى الحق في صورة الباطل، والباطل في صورة الحق، وأعمالهم مظلمة، وأقوالهم مظلمة، وأحوالهم كلها مظلمة، وقبورهم ممتلئة عليهم ظلمة، وإذا قسمت الأنوار دون الجسر للعبور عليه بقوا في الظلمات، ومدخلهم في النار مظلم.

وهذه الظلمة هي التي خُلق فيها الخلق أولًا، فمن أراد الله سبحانه وتعالى به السعادة أخرجه منها إلى النور، ومن أراد به الشقاوة تركه فيها، كما روى الإمام أحمد وابن حبان في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: **«إنّ الله خلق خلقه في ظُلْمَةٍ، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضلّ، فلذلك أقول: جفّ القلم على علم الله»** (١) (٢).

---

(١) أحمد (٢/١٧٦) (٦٦٤٤) والحاكم (١ / ٣٠) وقال: صحيح. ووافقه الذهبي. وصححه الألباني في الصحيحة (١٠٧٦)

(٢) ودل ربط جفاف القلم على علم الله تعالى أن المكتوب في اللوح المحفوظ لا يتغير أبدًا، ولا يدخله نسخ.

فائدة: دل قوله ﷺ: **«ومن أخطأه ضلّ»** على جواز وصف العامة البقعة التي لم تُغث بالمطر: «أخطأها المطر.. ونحوه». فهذا الحديث أصل الجواز، والمعنى: أنه أصاب غيرها ولم يصبها.

وكان النبي يسأل الله تعالى أن يجعل له نورًا في قلبه وسمعه وبصره وشَعره وبشَره ولحمه وعظامه ودمه ومن فوقه ومن تحته وعن يمينه وعن شماله وخلفه وأمامه، وأن يجعل ذاته نورًا، فطلب النور لذاته ولأبعاضه ولحواسه الظاهرة والباطنة ولجهاته الست.

وقال أبي بن كعب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «المؤمن مدخله من نور، ومخرجه من نور، وقوله نور، وعمله نور». وهذا النور بحسَب قوّته وضعفه، كما يمشي الرجل بالسراج المضيء في الليلة الظلماء، فهو يرى أهل الظلمة في ظلامهم وهم لا يرونه، كالبصير الذي يمشي بين العميان.

والخارجون عن طاعة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ومتابعتهم يتقلبون في عشر ظلمات: ظلمة الطبع، وظلمة الجهل، وظلمة الهوى، وظلمة القول، وظلمة العمل، وظلمة المدخل، وظلمة المخرج، وظلمة القبر، وظلمة القيامة، وظلمة دار القرار. فالظلمة لازمة لهم في دورهم الثلاثة!

وأتباع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم يتقلّبون في عشرة أنوار، ولهذه الأمة من النور ما ليس لأمة غيرها، ولنبيها ﷺ من النور ما ليس لنبي غيره.

والله سبحانه وتعالى سمّى نفسه نورًا، وجعل كتابه نورًا، ورسوله نورًا، ودينه نورًا، واحتجب عن خلقه بالنور، وجعل دار أوليائه نورًا يتلألأ، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [النور: ٣٥]. وقد

فسر قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بكونه منوِّر السماوات والأرض، وهادي أهل السماوات والأرض، فبنوره اهتدى أهل السماوات والأرض، وهذا إنما هو فعله، وإلا فالنور الذي هو من أوصافه قائمٌ به، ومنه اشتقّ له اسم النور الذي هو أحد الأسماء الحسنى.

والنور يضاف إليه سبحانه على أحد وجهين: أضافة صفة إلى موصوفها، وإضافة مفعول إلى فاعله. فالأول كقوله عز وجل: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزُّمَر: ٦٩]، فهذا إشراقها يوم القيامة بنوره تعالى إذا جاء لفصل القضاء، وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور السماوات والأرض من نور وجهه».

وهذا الذي قاله ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أقرب إلى تفسير الآية من قول من فسرها بأنه هادي أهل السماوات والأرض، وأما من فسرها بأنه منوّر السماوات والأرض فلا تنافي بينه وبين قول ابن مسعود، والحقّ: أنه نور السماوات والأرض بهذه الاعتبارات كلها.

وفي صحيح مسلم[(١)] من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: «**إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سُبُحَاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**».

---

(١) مسلم (١٧٩)

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال سألت رسول الله هل رأيت ربك قال: «**نورٌ أنّى أراه**»(١). فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ يقول: «معناه: كان ثَمَّ نورٌ، وحال دون رؤيته نور، فأنَّى أراه». قال: ويدل عليه أنّ في بعض الألفاظ الصحيحة: هل رأيت ربك؟ فقال: «**رأيت نورًا**»(٢).

قال شيخ الإسلام: «مذهب أهل السنة والجماعة مذهب قديم معروف قبل أن يخلق الله أبا حنيفة ومالكًا والشافعي وأحمد، فإنه مذهب الصحابة الذين تلقوه عن نبيهم، ومن خالف ذلك كان مبتدعًا عند أهل السنّة والجماعة، فإنهم متفقون على أن إجماع الصحابة حجة، ومتنازعون في إجماع من بعدهم»(٣).

إنّ مذهب السلف جليل طيّب مُحكم واضح، فهو ما توافقه الفطرة، ويرتضيه العقل، ويزكو به القلب، وتسمو به الروح، ويسعد به الجسد، به اجتماع الناس، وعليه افتراقهم، فهو امتحانٌ لإسلام المرءِ الدين لله رب العالمين. وإن من أعلام الأمة الكبار رجل صالح وإمام مجاهد وعابد قانت ولا أزكي على الله أحدًا، ذاكم هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني الدمشقي، شيخ الإسلام، وقد صار امتحانًا وكيرًا وعلمًا في بيان منهج

---

(١) مسلم (١٧٨)
(٢) مسلم (١٧٨)
(٣) منهاج السنة (٢/ ٦٠١)

السلف الصالح والذب عنه، لذلك كان غصة في حلوق المبتدعة، فحاولوا بكل طريق صد الناس عن علمه ودعوته، ويأبى الله!

فَـأَنْتُمْ عَـلَى أكبـادِ قـومٍ حَـرَارَةٌ   وبـــردٌ عـــلى أكبادِنَـــا وَسَـــلَامُ

ألا وإنَّ العلمَ رَحِمٌ بين أهله، ولا يعرفُ الفضلَ لأهلِ الفضلِ إلا ذوو الفضل، والمؤمنُ أخو المؤمن، والسعيدُ مِنْ وَلَدِ آدم هو من اصطفاه الله تعالى بإيمانٍ يُقرِّبُه إليه، وعِلمٍ يرفعه لديه، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ [الرُّوم: ٥٦]، فإنْ لَمْ يكُ عالمًا فليكُن طالبَ علمٍ، فإن قَصُرَ عن ذلك فليكن لأهلِ الدينِ والعبادةِ والعلمِ مُحِبًّا، فالمرءُ مع مَن أحبَّ.

وتدبر قوله تعالى في بيانِ ثَبَاتِ أهلِ العلم والإيمان حتى في أعظمِ الأفزاع، وهو فزع يوم البعث: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ٥٦﴾ [الرُّوم: ٥٦]، يُقيمون على الناس حجة الله في الآخرة وبرهان صدق وعده كما أقاموها في الدنيا، فاسْأَلِ اللهَ تعالى أنْ يسلك بك سبيلهم، فإنهم ورثةُ الأنبياء، وأكرم بميراث النبوة عند الله فضلًا وكرامةً ورفعةً، فاكشف بالعلم بصيرتك وبالإيمان حُجَّتَك قبل أن يحِقَّ العذاب بأهل التَّباب، ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ﴾ [النَّمل: ٦٦]، ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ٢٢﴾ [ق: ٢٢]، فهي بصيرةٌ ليست في إبّانها، فقد فات أوانُها، ﴿فَنَقَّبُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ٣٦﴾ [ق: ٣٦]، ولكن لا تحين مناص. وَجَادَتْ بَوَصْلٍ حِينَ لا ينفعُ الوَصْلُ!

ألا وإنّ أبا العباس ابن تيمية عَلَمٌ من أعلام أمةِ أحمد ﷺ وبارك، وإمامٌ من أئمة المسلمين، ومجاهدٌ كبيرٌ تشهدُ له ميادينُ الوَغَى، ومنابرُ المساجدِ، وساحات المناظرات، وطروسِ العلم، ودواوينِ السلاطين بقولِهِ الحقَّ لا تأخذهُ فيه لومةُ لائمٍ، ولا إشفاقُ عاذلٍ، ولا تهديدُ كاشحٍ، وتشهدُ لإمَامته حِلَقُ الدّرْسِ، وقلوبُ أهلِ السُّنَّةِ العتيقةِ، والفطرةِ السليمةِ، والقرائحِ القويمةِ، الناطقةُ بحُبِّهِ، الّلاهِجَةِ بالدعاءِ له، المثنيةُ عليهِ، الشاهدةُ له بالخيرِ والهدى، المُسَبِّحَةُ بحمد الله تعالى للُطْفِهِ وكرمِهِ وهِبَاته ورفقهِ وأَلطافِهِ، المُتَعَبِّدَةُ الله تعالى بحبِّهِ وأمثالِه من نجومِ العلمِ والعملِ والجهادِ والهُدَى والتقوى والإحسانِ، ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ١٠٥﴾ [البَقَرَة: ١٠٥]، ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤﴾ [المَائدَة: ٥٤]، ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ١٧٤﴾ [آل عِمرَان: ١٧٤]. تِلْكَ الْمَكَارِمُ لاَ قَعْبَانِ مِنْ لَبَنٍ.

إنّ مِن مِنَنِ الله تعالى العظيمة وآلائه الكبرى على الأمّة أن قيّض لها أئمةً يدعون إليه بعلمهم وعملهم وحُسْنِ سَمْتَهم، فما أحسن أَثَرَهَمْ على الناس!

أوّاهُ مـا أروعَ الأبطـالِ إذْ حَمَلُـوا ... هَـمَّ الدِّيانَـةِ إنْ خَـافُوا وإنْ سَـغِبُوا

مَا قالَ واحدُهُمْ هَمِّي الحُطَام فقدْ ... صَـاغَتْ مبـادِئُهُمْ طه فـمَا انقَلَبُـوا

تَنَـاثَرَ العلـمُ شَـهْدًا مِـن ثُغُـورِهمُ ... أكـرمْ بـهِ مَنْبَعًـا للـدينِ يَنْسَـكِبُ

أنّها نعمٌ ربّانيةٌ تستحقُّ الشكرَ، وتستنطقُ الحمدَ، وتستنزلُ المزيدَ العظيم من فضل الله الكريم، ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم: ٧].

ولقد أجرى الله تعالى للأُمَّةِ على يَدِ ابن تيمية خيرًا كثيرًا، فجمع الله تعالى فيه ما تفرّقَ في كثيرٍ من الأئمة بعمله وقوله لسانًا وبَنَانًا، فهو ممن اتفق البعيد والقريب على أَلْمَعِيَّتِهِ، وتَفَرّدِه، وجهاده، وواسعِ علمِهِ، وثباتِ مبادئه، ووضوحِ مُسَلَّمَاتِهِ، وعلوِّ مقاماتِه في شَتَّى ميادين العملِ لله تعالى، فآياتُ التنزيل تجري على يراعته يقتبسُ هُداها، وأحاديثُ وأخبارُ البشيرِ النذيرِ ﷺ بين عينيه يقتطفُ جَنَاهَا، مَنْ صَحِبَهُ أَحَبّهُ لله ديانةً، ومَن عاداهُ أَجَلَّهُ مهابةً، ومَن طالعَ سيرته وضع يده على قلبه شُكرًا لله الكريم الذي جعل في الأمة مثلَهُ، ولا نزكيه على الله تعالى، وإنْ كان سَدَادُ الفحلِ الجهبذِ والبحر الزَّخَّار والسيل الجرَار ابنِ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ على يديه بفضل الله؛ فما ظنّكم بمن سواه؟!

تِلْـــكَ آثارُنـــا تَـــدُلُّ عَلَيْنـــا ... فـــانْظُرُوا بَعْـــدَنا إلى الآثـــارِ

ولا يضرُّه من أشار إليه بسوء، ولا يُشينُهُ من طعَن عليه مُعتَقَدَهُ، أو طارد قالاتِ البهتان إليه، أو همَزَهُ أو لَمَزَهُ أو غَمزهُ؛ فلم يسلَمْ أنبياءُ الله تعالى قبلَهُ، ولا الصالحين بعدَهُ، فخصومات شياطين الإنس والجن مَهْيَعُ المرسلين، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۝١١٢﴾ [الأنعام: ١١٢]. ناموسُ العليمِ الحكيم واقتداره، وشريعتُه ولُطْفُهُ وابتلاؤه، ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ۝٧٧﴾ [الإسراء: ٧٧]

لَوْ كنتَ تعلمُ ما أقُولُ عَذَرْتَنِي أوْ كُنتُ أعلمُ مَا تقول عَذَلْتُكَا

لَكِنْ جهلتَ مَقالَتي فَعَذَلْتَنِي وعلِمْتُ أنّكَ جاهِلٌ فعَذَرْتُكَا

ولقد كتب الشيخُ وناظر وحَاجَجَ، وقامَ وركبَ، وحَلّ وارتحل، وأوذي وامتُحن، وطُرِدَ وسُجِنَ وعُذِّبَ، وحاولوا غيلته مِرارًا، وراموُا قتلَهُ جهَارًا، وهو في كلِّ ذلك يَصبِرُ للهِ بالله تعالى ويُصابر، ويقوم له مجاهِدًا ويُرابط، لأجل العلم النافع ونشره والعمل به، والدعوة الحُسنى، وإضاءةِ ما يسْطِيعُ مِن بِقَاعٍ تَقَلَّصَ عنها شيءٌ من نورِ الوحي العظيم، واندرَسَتْ في مَهَامِهِهَا بعضُ آثار الرسول الكريم عليه الصلوات والبركات والتسليم، وهذه مُهِمّةُ أهلِ العلم كافَّة في كلِّ زمان ومكان، ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾ [آل عِمْرَان: ١٨٧]. فهَل مِنْ ناقمٍ عليه بحقٍّ.. اللّهم كلَّا!

وَلَمَ تَزَل قِلّةُ الإنصافِ قاطِعَةً بَينَ الرجالِ وَلَو كانوا ذَوي رَحِمِ

وإنَّ مشكلةَ بعض من انحرف عن هذا الإمام، أو هجم عليه، أو ضلَّلَهُ؛ راجعة إمّا إلى ثقةِ المخذولِ في مُقَدَّمِي طائفته الذين حالوا بينه وبين هدايات الله تعالى بعلوم ذلك العالم الرباني، فالتقليدُ الأعمى بلا بصيرةٍ آفةٌ قديمة لدى الجُهّال أو المتعصبة أو الكسالى.

وإما أن يكون راجعًا إلى سوء الهضم العقليّ المعرفيّ لبعض ما حوته خزائنُ حروف شيخ الإسلام من نوادر الذخائر العلمية المتينة، وإما لسوءِ المعتقد أو خبثِ الطويّة التي لم تَغِبْ عن علم ربِّ البرية، ﴿أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ

وَنَسُوهُ﴾ [المُجَادلَة: ٦]، فما دهاهُ حتى حلَّ عِقَالَ عقلِهِ! وإلى العقابيل تُرْمَى شِرَارُ الأفئدة، وكُلُّ حَيٍّ هالِكٌ وابنُ هالكٍ.. فلْيَهْنِهِمْ صيْدهُم ولنا العَزَاءُ!

فاظْلِمْ كما شئتَ لا أرجوكَ مَرْحَمَةً إنّا إلى اللهِ يومَ الحشرِ نحتكِمُ

وبالتتبّع؛ فجُلّ مَن عابَ دقائق تحريراته لم يأتِ بشيءٍ، بل تجد أنّ كلامه يأتي مُرسَلًا محلول العِقَالِ بلا ضابطٍ ولا برهانٍ ولا دليل، ولا إنصافٍ ولا إحكام ولا إحسانِ تعليل، ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النِّسَاء: ٥٨]، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المَائدَة: ٨]. ومن جهل شيئًا عَابَهُ، ومَتَى اسْتَرَابَهُ عَادَاهُ.

قَدْ تُنْكِرُ العينُ ضوءَ الشَّمْسِ مِن رَمَدٍ ويُنكِرُ الفَمُ طعمَ الماءِ مِن سَقَمِ

فليته قنع بالسكوت إذ وَسِعَهُ إن كان جاهلًا، أو تذكّر لقاءَ الدَّيّانِ أن كان عالمًا، وقد قال إبراهيم بن بشّار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اجتمَعنا ذات يومٍ في مسجدٍ، فما منّا أحَدٌ إلّا تكلَّمَ، إلّا إبراهيم بن أدهم، فإنَّهُ ساكِتٌ، فقلتُ: لِمَ لا تتكلَّمُ، فقال: الكلامُ يُظْهِرُ حُمْقَ الأحمَقِ، وعقَلَ العاقِلِ»(١).

وأبلغ من ذلك قول رسول الله أحمدٍ(٢) ﷺ: **«وَهَلْ يَكُبُّ الناسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»**(١). وربُّ العِزَّةِ يقول: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ

(١) حلية الأولياء (٨/ ٢٠).

(٢) من أسمائه صلى الله عليه وسلم أحمد، ولا بأس أن تسميه بذلك بنسبة النبوة والرسالة له إذا أُمن اللبس، فإنّ الله تعالى سماه في القرآن العظيم أحمد، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦] وقال ﷺ: **«إِنَّ لِي أَسْمَاءً، أَنَا مُحَمَّدٌ،**

=

إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ [ق: ١٨]، ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ [الإسراء: ٣٦]. ولقد أتتك بحائن رِجْلاه، ومن صادق مقول أبي العلاء المعري:

أُولو الفَضلِ في أَوطانِهِم غُرَباءُ تَشِذُّ وَتَنأى عَنهُمُ القُرَباءُ

قال الحافظ ابن الزّملكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لم يأت قبل ابن تيمية بخمسمئة سنة مثله». أي: بعد الإمام أحمد المتوفى سنة ٢٤١هـ. قال الإمام ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ مُعلِّقًا: «ولا نعلم إلى عصرنا هذا من قد أتى مثله، رَحِمَهُ ٱللَّهُ». قلت: فمنذ ١٢٠٠ سنة لم يأت أحد كهذا الإمام المجدد الصدّيق، ومع هذا فليس بمعصوم، فهل يُلام من أحبه ووثق بنصحه وعلمه. ونقول فيه كما قال ابن عمر رضي الله عنهما في ابنه سالم:

يَلُومُونَنِي فِي سَالِمٍ وَأَلُومُهُمْ وَجِلْدَةُ بَيْنَ الْعَيْنِ وَالأَنْفِ سَالِمُ

ومن طعن في الإمامين ابن تيمية أو ابن عبد الوهاب فاتّهمه على الإسلام، كما قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا رأيت الرجل يَغْمِزُ حماد بن سلمة؛ فاتَّهِمْهُ

= **وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا المَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِيَ الكُفْرَ، وَأَنَا الحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي، وَأَنَا العَاقِبُ**»، رواه البخاري (٤٨٩٦) ومسلم (٢٣٥٤) وزاد: «**وَالْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ**». ﷺ.

(١) الترمذي (٢٦١٦) وقال: حسن صحيح. وصححه الألباني.

على الإسلام، فإنه كان شديدًا على المبتدعة»[(١)]. فإنهما قد قاما للدين حق القيام، وجدّد الله بهما ما اندرس من معالم الإسلام. قال العلامة عبد الكريم الخضير حفظه الله تعالى في شرحه لبلوغ المرام كتاب الصلاة: «وقد سئل الشيخ محمد رشيد رضا عن شيخ الإسلام ابن تيمية؛ هل هو أعلم من الأئمة الأربعة، أم هم أعلم منه؟ فأجاب بجواب موفق فيما أحسب، قال: باعتبار أن شيخ الإسلام تخرّج على كتب الأئمة الأربعة، وكتب أتباعهم فلهم الفضل عليه من هذه الحيثية، وباعتباره جمع بين ما قالوه وأحاط بما كتبوه، يعني إحاطة بشرية لا يعني هذا أن شيخ الإسلام أحاط بكل ما كتب أو ما قيل، نعم، فهو من هذه الحيثية أشمل منهم علمًا، هذا كلامه. وهناك أمر ينبغي أن نتنبه له وهو فضل علم السلف».

ولد شيخ الإسلام سنة ٦٦١ ومات سنة ٧٢٨ وله ٦٧ سنة و١٠ أشهر، بعدمَا أروَى الله به أكبادًا عِطاشًا لدفع الشبهات بالعلم الفُراتِ، وأشبعَ به أنفُسًا جِياعًا لِغَضِّ العلمِ من مَعينِ ورثة الأنبياء، وأدمَى الله به نواصيَ أهلِ الزيغ والإحداث والإضلال، رَحِمَهُ ٱللَّهُ. ولا فضل إلا بالتقوى، وتمامها العلم والإيمان. وعلى مثل ذا فابكِ إن كنتَ باكيًا[(٢)]. ولله أبو حيان النحوي إذ قال:

قامَ ابنُ تيمـيـة في نصـــرِ شِرعَـتنا ... مقامَ سيّدِ تَيْم إذْ عَصَتْ مُضَرُ

فأظـــهرَ الدين إذْ آثارُه دَرَسَــتْ ... وأخمــدَ الشركَ إذ طارتْ له شَرَرُ

---

(١) سير أعلام النبلاء (٧/ ٤٥٠).

(٢) ويكون الدين كله لله، للمؤلف. ص: (١٠).

وإن من عجيب لطف الله تعالى بعبده أن يسوق له الهدى من أبعد باب يتوقّعه، كمن تكون هدايته على يد من كان يراه عدوّه، ومن ذلك الشيخ العلامة محمد خليل هرّاس رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكان أستاذًا في الفلسفة والمنطق من جامعة الأزهر، وكان معاديًا لتراث شيخ الإسلام ابن تيمية، فقصد نقض كتبه بالرد عليها وجمع بعضها، وعكف يدرسها ثلاثة أشهر تمهيدًا لنقضها؛ فما انقضت دراسته لها حتى تبين له أنه لم يفهم الإسلام حقًّا إلا بعد دراسته هذه الكتب المباركة لذلك العالم المبارك، فقام من بعدها بالانتصار لشيخ الإسلام، وأصبح من كبار علماء السنة في زمانه، وشرح الواسطية شرحًا ماتعًا نافعًا، لذلك فمن واجب طلبة العلم والدعاة إلى سبيل الله تعالى بيان حقيقة الدين غضًّا كما هو، مع بسط حسن الخلق للعالمين، فإنّ أحد أسباب تكبير الناس خطأ المنتسب للسلفية لأنّهم يرون أنها منهج النبي ﷺ، وعليه فتعظُم من منتسبٍ إليها أدنى مخالفة سواء في الخُلُقِ أو العلم ونحوه. ورحم الله من قام له بحقٍّ.

لقـد رفـعَ التوحيـدَ أُسًّـا وغايـةً ... ومن كان ذا دومًا فللحقِّ هادِيا

وكذلك حال الشيخ خليل سليمان حيدرية، فحدّث عن نفسه أنه كان متصوّفًا وله زوايا، فلطف الله تعالى به ـ لـمّا أراد هدايته ـ بأن أهداه أحد شيوخ المتصوفة كتاب مجموع فتاوى ابن تيمية طالبًا منه الرد عليه، فقرأه لينقضه؛ فغدى صائدُ الضلالة مصيدَ الهدى بحمد ربه، إذ فتح الله قلبه بذلك المجموع المبارك، فغدا داعيًا لعقيدة السلف منافحًا عنها، وإذا أراد الله أمرًا هيّأ له أسبابه.

فَـــمَا لِأُخُـــوَّةٍ في اللهِ مَعْنًـــى إذا كـانَ الصَّـدِيقُ هـو الإِدَامَـا

وكان الكتاني رَحِمَهُٱللَّهُ ممن شنّعوا على ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ جهلًا به، وبعد أن اطّلع على تصانيفه قال بإنصاف عزيز: «فصدر مني ما صدر من التوغل والإفراط في ذم ابن تيمية.. فلما طالعت كتبه علمت أن الرجل عديم النظير في الإسلام، وقرة عين أهله.. ويستخرج شواهد القرآن.. وكأنه ما حفظ أحد القرآن إلا هو».

يَـا قَاصـدًا ثَـبَجَ البِحـارِ إلّا ارْعَـوِ فلكَمْ تَجَنْدَلَ في المُحيطِ الضَّارِب

وبالجملة؛ فحال الرجل وعلمه المبثوث قد طار في الآفاق، وقد انصرفَ صفوةُ العلماءِ الذين وقفوا على كتبه إلى عِلمِه وتحرايرته كالعنق الواحد، عليه رحمةُ الله وسلامُهُ ورضوانُه والمسلمين، وجزاه عنا خير ما جزى العلماء الصدِّيقين، وأَلْحَقَنَا به جميعًا ووالدِينا وأحبابنا والمسلمين، غير خزَايَا ولا نَدَامَى، إله الحقِّ آمين.

خُـذْ مَـا تَـرَاهُ وَدَع شَـيْئًا سَمِعْـتَ بِـهِ في طَلْعَةِ البَدرِ ما يُغْنِيكَ عَـن زُحَـلِ

هذا؛ وإنّ سبب رقم هذه الأحرف هو الإعلام بمقدمة رسالته القيّمة الحمويّة لِمَن فاته علوّ قدرها، لا بقصد الإشادة فهي تُنبيك عن فحواها، ولا الإشارة ففي صدور أكابر العلماء معناها، وما مثلي بمثلها يشيدُ ويشيرُ، اللّهم غفرًا!

والمقصود هو تنبيه القارئ النبيه إلى أن من حقّ هذه الرسالة التيميّة بالذات نشرها في هذا الزمان الذي ادلهمّت فتنُه، وتعلقت بقلوب فئام من

الشبيبة شبهاته، واستطار شر أهل الأهواء في الناس مع وسائل الاتصال الحديثة. فكان لزامًا على كل قادر سد باب الشر من جهته، وحسم مادة الفتنة من قبله، وحراسة ثغر الأمة طاقته، وغزو قلاع الشيطان بسلاح العلم بالقرآن، ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ۝٥٢﴾ [الفرقان: ٥٢]، و«**المؤمن القويُّ خيرٌ من المؤمن الضعيف**»[(١)].

وقد خط الشيخ الصالح أحمد بن مري رسالة إلى تلاميذ شيخ الإسلام بعد وفاته يوصيهم بكتب الشيخ وعلمه، ويبشرهم بحسن العاقبة للمتقين، ومنها: «فلا تيأسوا من قبول القلوب القريبة والبعيدة لكلام شيخنا.. ووالله إن شاء الله ليقيمن الله سبحانه لنصر هذا الكلام ونشره وتدوينه وتفهمه، واستخراج مقاصده واستحسان عجائبه وغرائبه، رجالًا هم إلى الآن في أصلاب آبائهم»[(٢)].

وقد أبرّ الله تعالى قسمه، وليس راءٍ كمن سمع. وقد نشر الله في الناس علمه، وأعلى بين الأنام ذكره، فانتشرت كتبه ورسائله، منها ما هو ممهور باسمه، ومنها ما أبهم حفظًا لها من عاديات الجُهلاء، كصنيع ابن أبي العزّ والألوسي رحمهما الله تعالى، وغيرهما كثير.

ولما سأله تلميذه البارُّ البزار رحمهما الله تعالى عن سبب كثرة تآليفه في العلميات وأصول الدين دونَ كثيرٍ من مسائلِ العمليّات، والتَمَسَ مِنهُ تأليف

---

(١) مسلم (٢٦٦٤).

(٢) قطعة من مكتوب ابن مري الحنبلي. ص: (١٨).

نَصٍّ فِي الفِقه يجمع اختياراته وترجيحاته ليَكُون عُمدة فِي الإفتاء؛ أجابه بقوله: «الفُرُوع أمرها قريب، ومتى قلّد المُسلم فِيها أحدَ العلماء المقلَّدين جازَ لَهُ العَمَل بقوله ما لم يتيَقَّن خطأه، وأما الأصول فَإنِّي رأيت أهل البدع والضلالات والأهواء قد تجاذبوا فِيها بأزِمَّة الضلال، وأن جمهورهم أوقع النّاس فِي التشكيك فِي أصول دينهم، فَلَمّا رَأيتُ الأمر على ذَلِك؛ بَانَ لي أنه يجب على كلّ من يقدر على دفع شبههم وأباطيلهم وقطع حجتهم وأضاليلهم أن يبذل جهده ليكشف رذائلهم، ويزيّف دلائلهم ذبًّا عَن المِلّة الحنيفية والسّنة الصَّحِيحَة الجلية»(١).

يـا غائبـا في الثَّـرَى تُـبلَى محاسـنُهُ   اللهُ يوليــكَ غُفرانًــا وإحسـانًا

وبالجملة؛ فالشيخ لم يترك شاذّة من كبريات شبهات المُبطلين في عصره إلا وكتب ما يهدمها من أساسها بحمد الله تعالى، سواء من الفرق المنتسبة للإسلام أو الخارجة عنه. والذي يدعو إليه، ويلحّ فيه، ويجاهد له، ولا يتراجع عنه؛ هو إقامة المعتقد الصحيح الذي لا لبس فيه ولا اشتباه، وحينما خاصموه في رسالته الواسطية، ورغبوا إليه - مَكْرًا - بعدم الحَسْمِ بها في مسائل المُعتَقد، ولوّحُوا وألَحُوا، وأرعدوا وأبرقوا، وأرْغَبُوا وأرْهَبُوا، وصرّحوا أنهم سيقبلون بها على أنها رسالة مذهبية حنبلية؛ أبى ذلك بكل حزم ووضوحٍ وشموخ، فالحقُّ يَعلُو ولا يُعلَى، فصَدَح على رؤوسهم، وصَرَخَ بمشهد من جموعهم أنَّهَا مُعْتَقَدُ رسولِ الله ﷺ وصحابتِه، وأنظَرَهم ثلاث سنين ليُثبتوا

(١) الأعلام العلية، للبزار. (٣٥-٣٦) باختصار.

حرفًا منها مخالفًا للقرآن والسنة، وأنّى لهم ذلك! ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

ونحسب أنّ ابن تيمية قد جعله الله تعالى من قذائف الحقّ، ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾ [سبأ: ٤٨]، ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [البقرة: ١٤٧]، ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام: ١٦١]، ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾ [آل عمران: ٢٠].

فالحقُّ شمسٌ والعيونُ نواظرٌ ... لكنّها تخفى على العميانِ

فالأمرُ إذن ليس خلافًا مذهبيًّا يسوغ فيه الخلاف، بل هو معني بملة محمد وإبراهيم والمرسلين صلى الله عليهم وسلم، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في منهاج السنة: «مذهب أهل السنة والجماعة مذهب قديم معروف قبل أن يخلق الله أبا حنيفة ومالكًا والشافعي وأحمد، فإنه مذهب الصحابة الذين تلقوه عن نبيهم، ومن خالف ذلك كان مبتدعًا عند أهل السنة والجماعة، فإنهم متفقون على أن إجماع الصحابة حجة، ومتنازعون في إجماع من بعدهم»[(١)].

وَشَمَائِلٌ شَهِدَ العَدُوُّ بفضلِهَا ... والفضلُ ما شهِدتْ بِهِ الأعْدَاءُ

---

(١) منهاج السنة (٢/ ٦٠١).

أما عن هذه الرسالة الحموية فهي من رسائله الراسخة الشاهقة، وكان الإمام ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ يوصي بها ولو أنْ تُقرَأ مئة مرة، لعظيم نفعها. ومقصودنا هنا مقدمتها، والرسالة واضحة البيان، وليست طويلة الذيول، ومعلوم أنّ أصعب التصنيف وأشقّ التأليف هي المختصرات؛ لأنها اعتصارٌ للفكر، واختزالٌ للعلم، وجمعٌ للمتفرق، وتسويرٌ للشوارد، وإحاطةٌ بمهمات ذلك العلم، واجتذاب أطرافِ أُصولِ ذيَّاكَ الفنّ، فالمصنف في المختصرات كماش على حبلٍ دقيق كيما يوصل للقارئ علمَهُ المراد بإيجازٍ تامِّ المعنى، بلا إغلاقٍ للألفاظ ولا إخلالٍ بالمعاني، أمّا المطوّلات فإنّ المصنِّف فيها يصوغ فيها مرتاحًا ما شاء من معاني بما شاء من حروف، ويسبحُ في بحر فكره بلا تقيّد بضوابط الإيجاز، والقرآن العظيم موجزٌ معجز.

وقيمة هذه المقدمة لرسالة لعقيدة الحموية ظاهرة في التالي:

١- تأصيل مرجعية الوحي.

٢- عنايتها بتأصيل أشرف العلوم على الإطلاق وهو علم أسماء وصفات الله تعالى، وشرفُ كلِّ علم بشرف متعلّقه.

٣- احتوت على جرعات سُنّية من التحرير العلمي والاستعلاء الإيماني بالوحي على من تنكّب جادّته، والاستعزاز بالمنهج النبوي المشرق على سبل أهل الأهواء المظلمة، والطوائف المنحرفة، والملل الضالة. وإنّ حقْنَ هذه المضامين الكليّة في نفوس الناس في الغاية من الأهمية، وخاصة في هذا الزمان الذي اشتدّت فيه غُربَةُ السُّنَّةِ في الناس، ولا زال أهل السّنة

غرباء بين الأنام في كثير من بقاعِ الإسلام، والمُشتكى إلى الله الملك العلّام.

٤- أنها بمثابة رصدٍ مُحقَّقٍ، من خبيرٍ مُدّقِّقٍ، وتحليلٍ مُوَفَّقٍ لأصول ضلالات البدع وابتداءاتها منذُ بزوغِ قرونِ فِتَنِهَا الأولى حتى عصر الشيخ في القرن السابع، فهي حروف نافعة مركّزة في ردّ فروعِ البدع الباطلة لأصولها الوثنية الضالة، وهي الأصول الخائبة التي نبغت من قديم، فتقلّدَهَا متهوِّكٌ خَالِفٌ عن غَابِرٍ تالِفٍ، في سلسلةٍ نَكِدَةٍ مسمومةٍ برُقْيَةِ إبليس أعاذنا الله جميعًا منه. ففي هذه المقدمة سردٌ موجز لتاريخ البدع عامة، وفي ضلالات أهل الأهواء في الصفات الإلهية خاصة. مع بيان أن ذلك هو أعظم أسباب الافتراق في الأمة، ولكلِّ خُبْثٍ وارثٌ.

لكلِّ ساقطةٍ في الأرضِ لاقطةٌ   وكلُّ كاسدةٍ يومًا لها سُوقُ

٥- هدم للأصل المُحدث من افتراضهم الباطل بتعارض النقل والعقل. وقد توسع الشيخ في كتابه الكبير العقل والنقل بما لا مزيد عليه، فهو معدود عالميًّا من أنفس الوثائق العلمية التي ناقشت القضايا العقلية، بل أربت عليها بأن أثبتت بساطع البراهين اتساق العقل الصحيح مع النص الصحيح الصريح، ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسرَاء: ٨١].

٦- حوت المقدمة عمليًّا الطريقة الصحيحة للتعامل مع وافد الأفكار المخالفة، ومنهج التعاطي مع الضلالات الفكرية بعامة، وتضمينها جملة

صالحة من الإلزامات المحكمة النقلية والعقلية والفطرية، بل والأخلاقية المسلكية.

٧- الوضوح والبيان والجزالة والاقتضاب الإيجابي غير المُخِلّ.

٨- تتضح فيها شواهد الولاء والبراء للوحي، والوفاء الأصيل له.

وَجَرَّبنـــا وَجَـــرَّبَ أَوَّلُونـــا فَـلا شَيءٌ أَعَـــزُّ مِـــنَ الوَفـــاءِ

٩- لا أعلمُ رسالة موجزة من رسائل علماء الإسلام في هدم أصول المبتدعة إجمالًا كهذه المقدمة الهائلة، فهي حقيقةٌ جدًّا وقمينةٌ دومًا بالدرس والتكرار والنشر، ويكأنّما عليها قبس من ضياء النبوة، لا جرم فهي معنية بردّ الأمة للمعين الصحيح الأوحد القرآن والسنة.

١٠- هي صالحة لتأصيل طلاب العلم عقديّا في بدايات الطلب.

ولعلها تصل لمن بيده الأمر، سواء أكانَ طالب علم في مكتبته، أو شيخًا في مسجده، أو أستاذًا في جامعته، أو مسؤولًا في وزارته، فأقول: يا ليت هذه المقدمة النورانية تُجعل كمتطلبٍ جامعيّ في كلّ كلية شرعية بعدما تشرح شرحًا متوسّطًا، ففيها من بناء أصول البصيرة وحراستها ما لا يحيط به وصفٌ على إيجازها ووضوحها.

ولو وضعت رسالته الأخرى العبودية كذلك لكان أحرى، فهي في ظني أَسْبَكُ وأمتن ما كتبه الإمام من رسائله في هذا الباب، ولعله ألفها في أخريات حياته الحافلة المباركة، وليس في بابها مثلها فيما أحسب، فرسالة العبودية تُعنى بالبناء الإيماني الداخلي وإحسان التعبد لله تعالى، أما مقدمة الحموية فهي للتحصين العلمي الخارجي، فهما مُكمّلتان لبعضٍ. ففحوى رسالة العبودية

أعمال القلوب، وتأصيل الاعتقاد في الأسماء والصفات الإلهية. فمضمون الرسالتين توحيد المعرفة والإثبات، أعني توحيد الربوبية والأسماء والصفات.

وعلى غِرارِهما كتاب التوحيد وكشف الشبهات للإمام المجدد ابن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في توحيد الإرادة والقصد، أعني توحيد العبادة، فقد أُلِّفَ كتاب التوحيد لبناء ونَسْجِ عَقْدِ القلب على سلامة الإخلاص والاتّباعِ في الداخل، وأما رسالة كشف الشبهات فللتحصينِ من الخارج.

وأما رسالة العقيدة الواسطية على إيجازها فهي جامعة، إذ هي واسطةُ عِقْدِ تأصيلاته العقدية، وزبدة مؤلفاته العلمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهي أوسع من الحموية وأشمل في تقرير توحيد المعرفة والإثبات، وإنما قصدتُ هنا مقدمة الحموية فقط، وكلّ مصنفات شيخ الإسلام جليلة النفع، غزيرة العلم، مباركة المأخذ، أينما وجّهتها وجدتَّ خيرًا فاضِلًا.

تلك عشرة كاملة من أسباب تخصيص هذه المقدمة بمزيد عناية لدى أهل الشأن، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود: ٨٨]. وبالجملة؛ فمقدّمة الحموية تأصيلية بِنائيّة فريدةٌ لا كالمقدمات.

نِبْراسُها العلمُ والتقوى تُؤَجِّجُها فُرْقَانُها سائقٌ إنْ صاحتِ النُّوَبُ

فيا أهل السُّنةِ؛ إنّ المَدَّ الخُرافي والكلامي فضلًا عن الإلحادي الدَّهري آخذٌ في الانتشار شِبْرًا فذراعًا فباعًا فمِيلًا عبر قنوات رسمية مُنظّمة، سواء في ميادين العلم والدراسة، أو حِلَقِ الذكر والمساجد، أو المؤلفات واللقاءات

والمواقع والمنتديات والتدوينات وقنوات التواصل الحديثة، فينبغي أن يُجابَهَ ذلك بالاعتصام بحبلِ الله المتين، والتوكلِ عليه، وتجريدِ القصدِ لوجهه، والقيامِ له برصِّ الصفوفِ السُّنّية المؤسّسِيّة، حِفْظًا لبيضةِ الدين، وغزْوًا لِقِلاعِ التّمويهِ، ومَرَاقِدِ الفتن، وضَعَائِنِ ضَغائِنِ الأهواءِ المُضلّة.

أَخُوكَ الَّذِي إِنْ تَدْعُهُ لِمُلِمَّةٍ يُجِبْكَ   وَإِنْ تَغْضَبْ إِلى السَّيْفِ يَغْضَبِ[1]

ففرضُ الوقتِ الدعوةُ إلى الله تعالى بالحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ [البَقَرَةِ: ١٥٠]. دون تهوّر، ولا طيش، ولا حظوظ النفس الأمارة، وذلك عبر رأب الصدوع، ورتقِ الخروقِ، ورَصِّ الصفوف العلمية، والدعوية، والتربوية، والإعلامية، والعِبادية، والتعاونِ على البر والتقوى، وتركِ الإثم بين الأقران، والعُدوان على هداياتِ فِلْذَاتِ الأجيالِ، وردْمِ الهُوَّةِ بين بعض أهل السنة، والتناصح بين أهل القبلة والإسلام، ويا بَعْضِي دَعْ بَعْضِي، وإطفاءِ ما استطعنا من حرائق الشيطان في أخبيةِ اجتماعهم، وسدِّ ما وَهَى مِن أبنيةِ اعتصامهم بحبل الله جميعًا، فالشيطانُ يرقُصُ فرِحًا طَرِبًا فوقَ قلوبِ مَن جَرَّهُمْ للشحناء، وصدورِ مَن وَسوسَ لهم بالفُرْقةِ الرَّعْنَاءِ، لِإِحَنِ نفوسٍ كَرَعَتْ في خطيئةِ الهَجرِ والقطيعة، إمّا أَخْذًا بِظِنَّةٍ بلا تحقيقٍ، أو قبُول حَمَّالة حطب النميمة بلا تقوى، أو مسِّ حسدِ الأقرانِ، وما أدراك مَا ذَاك، أو طمعٍ في لُعَاعَةِ دنيا دنيئةٍ عن قريب يفارقها أو تفارقه.

ذَكِّـرْ أَخَـاكَ إذَا تَنَاسَـى واجِبًـا   أو عَـــنَّ فِي آرائِـــهِ تقصـــيرُ

---

(١) وهي حميّةُ الدين العظيم، لا حميّة الجاهلية للدنيا الزائلة.

فالرَّأيُ يصْدَأُ كالحُسَامِ لِعَارِضٍ يطْـرَأُ عَلَيْـهِ وصَـقْلُهُ التَّـذكيرُ

فالواجبُ المُحَتّم هو الاجتماعُ على السُّنّةِ، إرضاءً لله تعالى واتّبَاعًا للسُنَّة، فبذلك تفرحُ قلوبُ أهلِ الإخلاصِ والتوحيدِ، ويَنجابُ عن مُحَيَّاهُم قَتَامُ عَصْفِ البِيدِ، وينجَلِي الحقُّ لمُبْتَغِيهِ وتقومُ الحُجَّةُ على أهل التنديد، وتُفْقَؤ عَيْنُ فتنةِ الشيطان، وتُقْشَعُ أسوِدَةُ غَيْنِ السَّخام. فالاجتماع لردِّ عادياتِ شياطينِ الإنسِ والجانِّ فرض الزمان، وقد يكون من فروض الأعيان في بعض المواطن والبقاع والأشخاص والمواقف عند تعذُّرِ القيام بالفرض هنالك(١).

وتِلكَ حُروبٌ مَن يَغِبْ عَن غِمارِها لَيسـلَمَ، يَقـرعْ بَعـدَها سِـنَّ نـادِمِ

أرى أُمَّتي لا يَشرُعونَ إلى العِدى رِمَاحَهُم، والـدينُ واهي الـدَعائِمِ

وليس المقصود طِعَانَ أهلِ الإسلامِ بالرِّماحِ، بل طِعَان الأهواء المُضِلَّةِ برماح الحُجَجِ القرآنية، وضرب وُجُوهِهَا بسيوف البراهين السُّنِّيَّة، وخَطْم أنوفِها بمحكمات التنزيل، ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعَام: ١٩]، خَلا مَن بَسَطَ الله يده من سلطانٍ، فلكلِّ حالٍ قدْرُه وأهْلُهُ.

مَنِ اِقتَضى بِسِوى الهِنديِّ حاجَتَهُ أَجـابَ كُـلَّ سُـؤالٍ عَـن هَـلٍ بِلَـمِ

وهَلُمّ بنا الآن إلى المقدمة المقصودة: قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مقدمته للفتوى الحموية - وهي حروف في الغاية من العلم والحكمة والجودة والنفاسة والمتانة والعمق والبهاء والسموّ - وقد سئل عن مسألة في الصفات:

(١) وانظر في ذلك كتاب: (ولا تفرقوا) للمؤلف.

«الحمد لله رب العالمين، قولنا فيها ما قاله الله ورسوله، والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، وما قاله أئمة الهدى بعد هؤلاء الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم، وهذا هو الواجب على جميع الخلق في هذا الباب وغيره، فإنّ الله سبحانه وتعالى بعث محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، وشهد له بأنّه بعثه داعيًا إليه بإذنه وسراجًا منيرًا، وأمره أن يقول: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ [يُوسُف: ١٠٨].

فمن المحال في العقل والدين أن يكون السراج المنير الذي أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور، وأنزل معه الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وأمر الناس أن يردّوا ما تنازعوا فيه من أمر دينهم إلى ما بُعث به من الكتاب والحكمة، وهو يدعو إلى الله وإلى سبيله بإذنه على بصيرة. وقد أخبر الله بأنه أكمل له ولأمته دينهم، وأتمّ عليهم نعمته، محالٌ مع هذا وغيره أن يكون قد ترك باب الإيمان بالله والعلم به مُلتبسًا مشتبهًا، ولم يميّز بين ما يجب لله من الأسماء الحسنى والصفات العليا، وما يجوز عليه وما يمتنع عليه.

فإنّ معرفة هذا أصلُ الدين وأساس الهداية، وأفضل وأوجب ما اكتسبته القلوب وحصّلته النفوس وأدركته العقول، فكيف يكون ذلك الكتاب وذلك الرسول وأفضل خلق الله بعد النبيين لم يُحكِموا هذا الباب اعتقادًا وقولًا.

ومن المحال أيضًا أن يكون النبي ﷺ قد علّم أمته كل شيء حتى الخِراءة وقال: «**تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك**»(١).

وقال فيما صح عنه أيضًا: «**ما بعث الله من نبيٍّ الا كان حقًّا عليه أن يدلّ أمته على خير ما يعلمه لهم، وينهاهم عن شرّ ما يعلمه لهم**»(٢).

وقال أبو ذر رضي الله عنه: «لقد توفّي رسول الله ﷺ وما طائرٌ يُقلِّبُ جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علمًا». وقال عمر بن الخطاب: «قام فينا رسول الله ﷺ مقامًا، فذكر بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم، حفظ ذلك من حفظه، ونسيه من نسيه»(٣).

---

(١) ابن ماجه (٤٣) والحاكم (١ / ٩٦) وأحمد (٤ / ١٢٦) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢ / ٦٤٨).

(٢) مسلم ١٨/٦ (١٨٤٤) (٤٦). تمامه: «**إنّه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقًّا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شرّ ما يعلمه لهم. وإنّ أمتكم هذه جُعلَ عافيتها في أولها، وسيصيبُ آخرَها بلاء وأمور تنكرونها، وتجيء فتنة يرقّق بعضها بعضًا، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مهلكتي، ثم تنكشف، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه هذه! فمن أحبَّ أن يزحزح عن النار، ويدخل الجنة، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه. ومن بايع إمامًا فأعطاه صفقة يده، وثمرة قلبه، فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر**».

(٣) البخاري (٣١٩٢)

ومحال مع تعليمهم كل شيء لهم فيه منفعة في الدين وإن دقّت؛ أن يترك تعليمهم ما يقولونه بألسنتهم ويعتقدونه في قلوبهم في ربّهم ومعبودهم رب العالمين، الذي معرفته غاية المعارف، وعبادته أشرف المقاصد، والوصول إليه غاية المطالب، بل هذا خلاصة الدعوة النبوية، وزبدة الرسالة الإلهية. فكيف يتوهّم مَن في قلبه أدنى مسكة من إيمان وحكمة ألا يكون بيان هذا الباب قد وقع من الرسول ﷺ على غاية التمام؟

ثم إذا كان قد وقع ذلك منه؛ فمن المحال أن يكون خير أمته وأفضل قرونها قصّروا في هذا الباب زائدين فيه أو ناقصين عنه.

ثم من المحال أيضًا أن تكون القرون الفاضلة القرن الذي بعث فيه رسول الله ﷺ ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم كانوا غير عالمين، وغير قائلين في هذا الباب بالحق المبين، لأن ضدّ ذلك: إما عدم العلم والقول، وإما اعتقاد نقيض الحق وقول خلاف الصدق، وكلاهما ممتنع.

أما الأول: فلأنّ مَن في قلبه أدنى حياة وطلب للعلم أو نهمة في العبادة يكون البحث عن هذا الباب والسؤال عنه ومعرفة الحق فيه أكبر مقاصده وأعظم مطالبه، أعني بيان ما ينبغي اعتقاده، لا معرفة كيفية الرب وصفاته[1].

وليست النفوس الصحيحة إلى شيء أشوق منها الى معرفة هذا الأمر، وهذا أمر معلوم بالفطرة الوَجْدِيَّة، فكيف يُتصوّر مع قيام هذا المقتضى الذي

(١) لأن معرفة الكيفية مستحيلة في الدنيا، وإنما يعتقدون بالمعنى العام المتبادر من نصوص الوحي الشريف لصاحب الفطرة السليمة والعقل القويم.

هو من أقوى المقتضيات؛ أن يتخلّف عنه مقتضاه في أولئك السادة في مجموع عصورهم؟!

هذا لا يكاد يقع في أبلد الخلق وأشدّهم إعراضًا عن الله، وأعظمهم إكبابًا على طلب الدنيا، والغفلة عن ذكر الله تعالى، فكيف يقع في أولئك؟! وأما كونهم كانوا معتقدين فيه غير الحق أو قائليه فهذا لا يعتقده مسلم ولا عاقل عرف حال القوم.

ولا يجوز أيضًا أن يكون الخَالِفُون أعلم من السالفين كما قد يقوله بعض الأغبياء ممن لم يقدّر قدر السلف، بل ولا عرف الله ورسوله والمؤمنين به حقيقة المعرفة المأمور بها: من أن طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم. فإن هؤلاء المبتدعين الذين يفضّلون طريقة الخلف من المتفلسفة ومن حذا حذوهم على طريقة السلف إنما أُتوا من حيث ظنوا أن طريقة السلف هي مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه لذلك، بمنزلة الأمّيين الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ٧٨﴾ [البَقَرَة: ٧٨]، وأنّ طريقة الخلف هي استخراج معاني النصوص المصروفة عن حقائقها بأنواع المجازات وغرائب اللغات. فهذا الظن الفاسد أوجب تلك المقالة التي مضمونها نبذ الاسلام وراء الظهر، وقد كذبوا على طريقة السلف، وضلّوا في تصويب طريقة الخلف، فجمعوا بين الجهل بطريقة السلف في الكذب عليهم، وبين الجهل والضلال بتصويب طريقة الخلف.

وسبب ذلك اعتقادهم أنه ليس في نفس الأمر صفة دلّت عليها هذه النصوص بالشبهات الفاسدة التي شاركوا فيها إخوانهم من الكافرين، فلمّا

اعتقدوا انتفاء الصفات في نفس الأمر، وكان مع ذلك لا بد للنصوص من معنى؛ بقوا متردّدين بين الايمان باللفظ وتفويض المعنى ـ وهي التي يسمّونها طريقة السلف ـ وبين صرف اللفظ إلى معانٍ بنوع تكلّف ـ وهي التي يسمّونها طريقة الخلف ـ. فصار هذا الباطل مركّبًا من فساد العقل، والكفر بالسمع. فإنّ النفي إنّما اعتمدوا فيه على أمور عقلية ظنوها بيّنات وهي شبهات، والسمع[1] حرّفوا فيه الكلم عن مواضعه.

فلمّا ابتُنِيَ أمرُهم على هاتين المقدمتين الكفريتين الكاذبتين؛ كانت النتيجة استجهال السابقين الأولين واستبلاههم، واعتقاد أنهم كانوا قومًا أميين، بمنزلة الصالحين من العامة لم يتبحّروا في حقائق العلم بالله، ولم يتفطّنوا لدقائق العلم الإلهي، وأنّ الخلَف الفضلاء حازوا قَصَبَ السَّبْقِ في هذا كله!

ثم هذا القول إذا تدبره الإنسان وجده في غاية الجهالة، بل في غاية الضلالة، كيف يكون هؤلاء المتأخرون لا سيّما والإشارة بالخلف إلى ضرب من المتكلمين الذين كثر في باب الدين اضطرابهم، وغلظ عن معرفة الله حجابهم، وأخبر الواقف على نهاية أقدامهم بما انتهى إليه أمرهم حيث يقول:

لعمري لقد طفتُ المعاهد كلَّها ... وسيّرت طرْفي بين تلك المعالم

فلم أرَ إلا واضعًا كفّ حائرٍ ... على ذقنٍ أو قارعًا سنّ نادم

(١) السمع: هو أدلّة الوحي ونصوص الشريعة كتابًا وسنّة.

وأقرّوا على أنفسهم بما قالوه متمثلين به أو منشئين له فيما صنفوه من كتبهم، كقول بعض رؤسائهم:

نهايــةُ إقــدام العقــولِ عقــالُ وأكثــرُ ســعي العــالمين ضَــلالُ

وأرواحُنا في وحشةٍ من جسومنا وحاصــلُ دنيانــا أذًى ووبــالُ

ولم نستفدْ من بحثنا طولَ عمرِنا ســوى أن جمعنا فيـه قيـلَ وقـالوا

لقد تأملتُ الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تَشفي عليلًا ولا تُروي غليلًا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، اقرأ في الاثبات: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فَاطِر: ١٠]، واقرأ في النفي: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٌ﴾ [الشُّورَى: ١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ۝١١٠﴾ [طه: ١١٠]، ومن جرّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي.

ويقول الآخر منهم: «لقد خضتُ البحر الخِضَمَّ، وتركتُ أهل الإسلام وعلومهم، وخضتُ في الذي نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني ربى برحمته، فالويل لفلان، وها أنا أموت على عقيدة أمي».

ويقول الآخر منهم: «أكثر الناس شكًّا عند الموت أصحاب الكلام».

ثم هؤلاء المتكلمون المخالفون للسلف إذا حُقّق عليهم الأمر لم يوجد عندهم من حقيقة العلم بالله وخالص المعرفة به خبر، ولم يقعوا من ذلك على عين ولا أثر، كيف يكون هؤلاء المحجوبون المفضولون المنقوصون المسبوقون الحيارى المتهوّكون أعلم بالله وأسمائه وصفاته، وأحكم في باب ذاته وآياته من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم

بإحسان من ورثة الأنبياء وخلفاء الرسل وأعلام الهدى ومصابيح الدجى، الذين بهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا، الذين وهبهم الله من العلم والحكمة ما برزوا به على سائر اتباع الأنبياء فضلًا عن سائر الأمم الذين لا كتاب لهم، وأحاطوا من حقائق المعارف وبواطن الحقائق بما لو جمعت حكمة غيرهم إليها لاستحيا من يطلب المقابلة؟!

ثم كيف يكون خير قرون الأمة أنقص في العلم والحكمة لا سيما العلم بالله وأحكام أسمائه وآياته من هؤلاء الأصاغر بالنسبة إليهم؟ أم كيف يكون أفراخ المتفلسفة وأتباع الهند واليونان وورثة المجوس والمشركين وضُلّال اليهود والنصارى والصابئين وأشكالهم وأشباههم أعلم بالله من ورثة الأنبياء وأهل القرآن والإيمان؟!

وإنما قدّمتُ هذه المقدمة لأن من استقرّت هذه المقدمة عنده عرف طريق الهدى أين هو في هذا الباب وغيره، وعلم أنّ الضلال والتَّهَوُّكَ[1] إنما استولى على كثير من المتأخرين بنبذهم كتاب الله وراء ظهورهم، وإعراضهم عما بعث الله به محمدًا من البينات والهدى، وتركهم البحث عن طريقة السابقين والتابعين، والتماسهم علم معرفة الله ممن لم يعرف الله بإقراره على نفسه، وبشهادة الأمة على ذلك، وبدلالات كثيرة. وليس غرضي واحدًا معيّنًا، وإنما أصفُ نوع هؤلاء ونوع هؤلاء.

---

(١) التهوّك: التحيّر.

وإذا كان كذلك؛ فهذا كتاب الله من أوّله الى آخره وسنة رسوله ﷺ من أوّلها الى آخرها، ثم عامّة كلام الصحابة والتابعين، ثم كلام سائر الأئمة مملوء بما هو: إمّا نصّ وإما ظاهر في أنّ الله سبحانه وتعالى هو العليُّ الأعلى، وهو فوق كل شيء، وهو على كل شيء، وأنه فوق العرش، وأنه فوق السماء.. فلئن كان الحقّ ما يقوله هؤلاء السالبون النافون للصفات الثابتة في الكتاب والسنة من هذه العبارات ونحوها دون ما يُفهم من الكتاب والسنة إما نصًّا وإما ظاهرًا؛ فكيف يجوز على الله تعالى ثم على رسوله ﷺ ثم على خير الأمة أنهم يتكلّمون دائمًا بما هو إمّا نصٌّ وإما ظاهر في خلاف الحق؟! ثم الحقّ الذي يجب اعتقاده لا يبوحون به قط، ولا يدلّون عليه لا نصًّا ولا ظاهرًا حتى يجيء أنباطُ الفرس والروم وفروخ اليهود والنصارى والفلاسفة يبيّنون للأمة العقيدة الصحيحة التي يجب على كل مكلّف أو كل فاضل أن يعتقدها؟!

لئن كان ما يقوله هؤلاء المتكلمون المتكلفون هو الاعتقاد الواجب، وهم مع ذلك أُحيلوا في معرفته على مجرد عقولهم، وأن يَدفَعوا بما اقتضى قياس عقولهم ما دلّ عليه الكتاب والسنة نصًّا أو ظاهرًا؛ لقد كان ترك الناس بلا كتاب ولا سنة أهدى لهم وأنفع على هذا التقدير، بل كان وجود الكتاب والسنة ضررًا محضًا في أصل الدين! فإنّ حقيقة الأمر على ما يقوله هؤلاء أنكم يا معشر العباد لا تطلبوا معرفة الله عز وجل وما يستحقه من الصفات نفيًا وإثباتًا لا من الكتاب ولا من السنة ولا من طريق سلف الأمة، ولكن انظروا أنتم فما وجدتموه مستحقًّا له من الصفات فصفوه به سواء كان موجودًا في الكتاب والسنة أو لم يكن، وما لم تجدوه مستحقًّا له في عقولكم فلا تصفوه به!

ثم هم هٰهنا فريقان: أكثرهم يقولون: ما لم تثبته عقولكم فانفوه، ومنهم من يقول: بل توقّفوا فيه، وما نفاه قياس عقولكم الذي أنتم فيه مختلفون ومضطربون اختلافًا أكثر من جميع من على وجه الأرض فانفوه، وإليه عند التنازع فارجعوا، فإنّه الحق الذي تعبّدتكم به، وما كان مذكورًا في الكتاب والسنة مما يخالف قياسكم هذا أو يثبت ما لم تدركه عقولكم على طريقة أكثرهم فاعلموا أنّي امتحنكم بتنزيله لا لتأخذوا الهُدى منه، لكن لتجتهدوا في تخريجه على شواذّ اللغة ووحشيّ الألفاظ وغرائب الكلام، أو أن تسكتوا عنه مفوّضين علمه إلى الله مع نفي دلالته على شيء من الصفات! هذا حقيقة الأمر على رأي هؤلاء المتكلمين.

وهذا الكلام قد رأيته صرّح بمعناه طائفة منهم، وهو لازم لجماعتهم لزومًا لا محيد عنه، ومضمونه: أنّ كتاب الله لا يُهتدى به في معرفة الله! وأنّ الرسول ﷺ معزول عن التعليم والإخبار بصفات مَنْ أرسله! وأن الناس عند التنازع لا يردُّون ما تنازعوا فيه الى الله والرسول، بل إلى مثل ما كانوا عليه في الجاهلية، وإلى مثل ما يتحاكم إليه من لا يؤمن بالأنبياء كالبراهمة والفلاسفة وهم المشركون والمجوس وبعض الصابئين!

وإن كان هذا الرد لا يزيد الأمر إلا شدّة، ولا يرتفع الخلاف به، إذ لكل فريق طواغيت يريدون أن يتحاكموا إليهم، وقد أَمروا أن يكفروا بهم، وما أشبه حال هؤلاء المتكلمين بقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ [النِّسَاء: ٦٠ - ٦٢].

فإن هؤلاء إذا دُعُوا إلى ما أَنزَلَ اللهُ من الكتاب وإلى الرسول، والدعاء إليه بعد وفاته هو الدعاء إلى سنّته؛ أعرضوا عن ذلك وهم يقولون: إنّا قصدنا الإحسان علمًا وعملًا بهذه الطريق التي سلكناها، والتوفيق بين الدلائل العقلية والنقلية!

ثم عامّة هذه الشبهات التي يسمّونها دلائل إنما تقلّدوا أكثرها عن طاغوت من طواغيت المشركين أو الصابئين أو بعض ورثتهم الذين أُمروا أن يكفروا بهم مثل فلان وفلان، أو عمّن قال كقولهم لتشابه قلوبهم، قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النِّسَاء: ٦٥]، ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البَقَرَة: ٢١٣].(١)

---

(١) أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو يعلى والطبراني بسند صحيح عن ابن عباس قال: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البَقَرَة: ٢١٣] قال: «على الإسلام كلهم». وأخرج البزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم عن ابن عباس قال: «كان بين آدم ونوح عشرة

=

ولازمُ هذه المقالة ألا يكون الكتاب هدى للناس، ولا بيانًا، ولا شفاء لما في الصدور، ولا نورًا، ولا مردًّا عند التنازع؛ لأنّا نعلم بالاضطرار أن ما يقوله هؤلاء المتكلّفون أنه الحق الذي يجب اعتقاده لم يدل عليه الكتاب والسنة لا نصًّا ولا ظاهرًا، وإنّما غاية المتحذلق أن يستنتج هذا من قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ٤]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ [مريم: ٦٥]. وبالاضطرار يعلم كل عاقل أن من دلّ الخلق على أن الله ليس على العرش ولا فوق السماوات ونحو ذلك بقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ فقد أبعد النُّجْعَة، وهو إما مُلَغِّزٌ وإما مُدَلِّسٌ لم يخاطبهم بلسان عربي مبين! ولازم هذه المقالة أن يكون تَرْكُ الناس بلا رسالة خيرًا لهم في أصل دينهم، لأن مردّهم قبل الرسالة وبعدها واحد، وإنّما الرسالة زادتهم عمًى وضلالة!

يا سبحان الله! كيف لم يقل الرسول يومًا من الدهر ولا أحد من سلف الأمة: هذه الآيات والأحاديث لا تعتقدوا ما دلّت عليه، ولكن اعتقدوا الذي تقتضيه مقاييسكم، أو اعتقدوا كذا وكذا فإنّه الحق، وما خالف ظاهره فلا تعتقدوا ظاهره، أو انظروا فيها فما وافق قياس عقولكم فاقبلوه، وما لا فتوقفوا فيه أو أنفوه؟!

=
قرون كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا فبعث الله النبيين» قال: وكذلك في قراءة عبد الله: «كان الناس أمة واحدة فاختلفوا». الدر المنثور (٢ / ٤٩٦)

ثم رسول الله قد أخبر أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة[١] فقد علم ما سيكون، ثم قال: **«إنّي تارك فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا؛ كتاب الله»**[٢]. وروي عنه أنه قال في صفة الفرقة الناجية: **«هم من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي»**[٣].

فهلّا قال: من تمسّك بالقرآن، أو بدلالة القرآن، أو بمفهوم القرآن، أو بظاهر القرآن في باب الاعتقادات فهو ضالّ، وإنّما الهدى رجوعكم إلى مقاييس عقولكم وما يُحْدِثُه المتكلمون منكم بعد القرون الثلاثة في هذه المقالة، وإن كان قد نبغ أصلها في أواخر عصر التابعين.

ثم أصل هذه المقالة ـ مقالة التعطيل للصفات ـ إنما هو مأخوذ عن تلامذة اليهود والمشركين وضُلّال الصابئين، فانّ أوّل من حُفظ عنه أنه قال هذه المقالة في الإسلام أعني أن الله سبحانه وتعالى ليس على العرش حقيقة، وأنّ معنى استوى بمعنى استولى ونحو ذلك هو الجعد بن درهم، وأخذها عنه الجهم بن صفوان وأظهرها فنسبت مقالة الجهمية إليه. وقد قيل: إن الجعد أخذ مقالته عن أبان بن سمعان، وأخذها أبان عن طالوت بن أخت لبيد بن الأعصم،

(١) أحمد (٢/٣٣٢) وأبو داود (٤٥٩٦) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«افترقت اليهود على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة، وتفرّقت النصارى على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة»**. وصححه الألباني.

(٢) الترمذي (٣٧٨٨) وقال: حسن غريب. وصححه الألباني.

(٣) الترمذي (٢٦٤١) وقال ابن تيمية: «حديث صحيح مشهور في السنن والمسانيد». الفتاوى (٣/٣٤٥)

وأخذها طالوت من لبيد بن الأعصم اليهودي الساحر الذي سحر النبي ﷺ.

وكان الجعد بن درهم هذا - فيما قيل - من أهل حرّان، وكان فيهم خلق كثير من الصابئة والفلاسفة بقايا أهل دين نمرود، والكنعانيين الذين صنّف بعض المتأخرين في سحرهم، ونمرود هو ملك الصابئة الكلدانيين المشركين، كما أن كسرى ملك الفرس والمجوس، وفرعون ملك مصر، والنجاشي ملك الحبشة، وبطليموس ملك اليونان، وقيصر ملك الروم، فهو اسم جنس لا اسم عَلَمٍ. فكانت الصابئة إلا قليلًا منهم إذ ذاك على الشرك، وعلماؤهم هم الفلاسفة. وإن كان الصابئ قد لا يكون مشركًا بل مؤمنًا بالله واليوم الآخر، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢﴾ [البَقَرَةِ: ٦٢]، لكن كثيرًا منهم أو أكثرهم كانوا كفارًا أو مشركين، كما أن كثيرًا من اليهود والنصارى بدّلوا وحرّفوا وصاروا كفّارًا أو مشركين، فأولئك الصابئون الذين كانوا إذ ذاك كانوا كفارًا أو مشركين، وكانوا يعبدون الكواكب ويبنون لها الهياكل.

ومذهب النفاة من هؤلاء في الرب أنه ليس له إلا صفاتٌ سلبية أو إضافية أو مركّبة منهما، وهم الذين بُعث إليهم إبراهيم الخليل، فيكون الجعد قد أخذها عن الصابئة الفلاسفة. وكذلك أبو نصر الفارابي دخل حرّان وأخذ عن فلاسفة الصابئين تمام فلسفته، وأخذها الجهم أيضًا فيما ذكره الإمام أحمد وغيره لمّا ناظر السَّمنية بعض فلاسفة الهند، وهم الذين يجحدون من العلوم ما

سوى الحسّيات. فهذه أسانيد جهم[١] ترجع إلى اليهود والصابئين والمشركين، والفلاسفة الضالون هم إما من الصابئين وإما من المشركين.

ثم لما عُرِّبت الكتب الرومية واليونانية في حدود المئة الثانية زاد البلاء مع ما أَلقَى الشيطان في قلوب الضُّلّال ابتداء من جنس ما ألقاه في قلوب أشباههم. ولما كان في حدود المئة الثالثة انتشرت هذه المقالة التي كان السلف يسمونها مقالة الجهمية بسبب بشر بن غياث المرّيسيي وطبقته، وكلام الأئمة مثل مالك وسفيان بن عيينة وابن المبارك وأبى يوسف والشافعي وأحمد واسحاق والفضيل بن عياض وبشر الحافي وغيرهم كثير في ذمّهم وتضليلهم.

وكلام السلف في هذا الباب موجود في كتب كثيرة لا يمكن أن نذكر هٰهنا إلا قليلًا منه مثل: كتاب السنن للالكائي، والإبانة لابن بطة، والسنة لأبى ذر الهروي، والأصول لأبى عمرو الطلمنكي، وكلام أبي عمر بن عبد البر، والأسماء والصفات للبيهقي، وقبل ذلك السنة للطبراني، ولأبي الشيخ الأصبهاني، ولأبي عبدالله بن مَنْدَه ولأبي أحمد العسّال الأصبهانيين، وقبل ذلك السنة للخلّال، والتوحيد لابن خزيمة، وكلام أبى العباس بن سريج، والردّ على الجهمية لجماعة مثل البخاري وشيخه عبد الله بن محمد بن عبدالله الجعفي، وقبل ذلك السنة لعبدالله بن أحمد، والسنة لأبي بكر بن الأثرم،

---

(١) وقد قيل فيه:

عجبتُ لمن يدعو الناس جهرةً ... إلى النارِ واشتُقَّ اسمُه من جهنّمِ

والسنة لحنبل وللمروزي ولأبي داود السجستاني ولابن أبي شيبة، والسنة لأبي بكر بن أبي عاصم، وكتاب خلق أفعال العباد للبخاري، وكتاب الرد على الجهمية لعثمان بن سعيد الدارمي، وغيرهم. وكلام أبي العباس عبد العزيز المكي صاحب الحيدة في الرد على الجهمية، وكلام نعيم بن حماد الخزاعي، وكلام غيرهم، وكلام الإمام أحمد بن حنبل واسحاق بن راهويه ويحيى بن سعيد ويحيى بن يحيى النيسابوري وأمثالهم، وقبل لعبد الله بن المبارك وأمثاله، وأشياء كثيرة.

وعندنا من الدلائل السمعية والعقلية ما لا يتسع هذا الموضع لذكره، فإذا كان أصل هذه المقالة ـ مقالة التعطيل والتأويل ـ مأخوذًا عن تلامذة المشركين والصابئين واليهود؛ فكيف تطيب نفس مؤمن، بل نفس عاقل أن يأخذ سبيل هؤلاء المغضوب عليهم أو الضالين، ويدع سبيل الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين؟!». انتهى[(١)].

ورحم الله الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني فقد أحسن حين قال: «وقد توسَّع من تأخَّر عن القرونِ الثلاثة الفاضلة في غالبِ الأمور التي أنكَرَها أئمّةُ التابعين وأتباعُهم، ولم يقتنِعوا بذلَك حتى مزَجوا مسائلَ الديانة بكلام الفلاسفةِ، وجعلوه أصلًا يرُدّون إليه ما خالَفَه من الآثار بالتأويل ولو كان

(١) الحموية، من ضمن مجموع الفتاوى (٥/٧ - ٢٥) مختصرًا. واعلم أن التحريف يكون في النصوص، والتعطيل يكون في المعتقد، والتكييف والتمثيل يكونان في الصفة، إلّا أن التمثيل أخصّ، فكل ممثّل مكيّف ولا عكس.

مستكرَهًا، ثم لم يكتفوا بذلك حتى زعَموا أنَّ الذي رتَّبوه هو أشرف العلوم وأولاها بالتحصيل، وأنّ مَن لم يستعمِل ما اصطَلحوا عليه فهو عامّيّ جاهل، فالسعيد من تمسَّك بما كان عليه السلف واجتَنَب ما أحدثه الخلف»(١).

وتدبر ـ رعاك مولاك ـ قول الله تبارك وتعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ۝٨٠ وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٨١ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ۝٨٢﴾ [النِّسَاء: ٨٠ - ٨٢].

وقال الحافظ المتفنن ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ذَكَرَ الله تعالى في كتابه العلم تارة في مقام المدح وهو العلم النافع، وتارة في مقام الذّم وهو العلم الذي لا ينفع. فأما الأول فمثل قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الزُّمَر: ٩]، وقوله: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فَاطِر: ٢٨]. وقد أخبر عن قوم أنهم أوتوا علمًا ولم ينفعهم علمهم، فهذا علم نافع في نفسه لكن صاحبه لم ينتفع به، قال تعالى ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا﴾ [الجُمُعَة: ٥]، وقال: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ۝١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الأَعۡرَاف: ١٧٥ - ١٧٦].

وأما العلم الذي ذكره الله تعالى على جهة الذم له؛ فقوله في السحر: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ

(١) فتح الباري (١٣ / ٢٥٣).

خَلَٰقٍ﴾ [البَقَرَة: ١٠٢]، وقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٨٣﴾ [غَافِر: ٨٣]، وقوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ٧﴾ [الرُّوم: ٧].

وأنّ مما أنكره أئمة السلف: الجدال والخصام والمراء في مسائل الحلال والحرام، ولم يكن ذلك طريقة أئمة الإسلام، وإنما أُحدث ذلك بعدهم، كما أحدثه فقهاء العراقين[1] في مسائل الخلاف بين الشافعية والحنفية، وصنّفوا كتب الخلاف، ووسّعوا البحث والجدال فيها، وكل ذلك مُحْدَثٌ لا أصل له، وصار ذلك علمهم حتى شغلهم ذلك عن العلم النافع.

قيل لمالك: الرجل يكون عالمًا بالسنن، يجادل عنها؟ قال: «لا، ولكن يخبر بالسنة، فان قُبِلَ منه وإلا سكت». وقال: «المراء والجدال في العلم يذهب بنور العلم». وقال: «المراء في العلم يُقسّي القلب، ويورث الضّغن».

وكان يقول في المسائل التي يسأل عنها كثيرًا: «لا أدري». وكان الإمام أحمد يسلك سبيله في ذلك.

وقال الأوزاعي: «العلم ما جاء به أصحاب محمد ﷺ، فما كان غير ذلك فليس بعلم». وعلوم الصوفية الباطلة من العلوم التي أُحدثت، وليست بعلم إطلاقًا، كعلومهم المتعلقة بالرأي والذوق والكشف والإلهام ونحو ذلك. ويقولون: شيخنا يقرأ من اللوح المحفوظ، وأنتم تأخذون علمكم ميتًا عن ميت!

(١) العراقين: البصرة والكوفة.

والعلم النافع يدل ويقود إلى أمرين: **أولًا:** إلى معرفة محبة الله، وما يستحقه سبحانه وتعالى من الأسماء الحسنى والصفات العلا. **ثانيًا:** يقود إلى المعرفة بما يحبه الله ويرضاه من الاعتقادات والأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة.

فالعلم النافع هو ما عرف به العبد ربه، واستدل عليه، وأنس به واستحيا منه، واقترب إليه وخشع له، وهذا علم بحد ذاته، ولذلك جاء في الأثر: «أول ما يُرفع من الناس الخشوع»[(١)].

وكان السلف يقولون: العلماء ثلاثة: عالم بالله، عالم بأمر الله: يخشى الله، ويعرف الله، ويعرف أحكام الله. وعالم بالله وليس بعالم أمر الله، يخشى الله لكن لا يعلم الحلال والحرام والأحكام. وعالم بأمر الله وليس بعالم بالله، أي:

---

(١) الطبراني (٢٦٣٧) والترمذي (٢٦٥٣) من كلام عبادة رضي الله عنه، وتمامه: عن جبير بن نفير عن أبي الدرداء قال: كنا مع رسول الله ﷺ فشخص ببصره إلى السماء، ثم قال: **«هذا أوان يُختلس العلم من الناس، حتى لا يقدروا منه على شيء»**. فقال زياد بن لبيد الأنصاري: كيف يُختلس منّا وقد قرأنا القرآن! فوالله لنقرأنّه ولنقرئنّه نساءنا وأبناءنا. فقال: **«ثكلتك أمك يا زياد، إن كنت لأعدّك من فقهاء أهل المدينة، هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى فماذا تغني عنهم؟»**.
قال جبير: فلقيت عبادة بن الصامت قلت: ألا تسمع إلى ما يقول أخوك أبو الدرداء؟ فأخبرته بالذي قال أبو الدرداء. قال: صدق أبو الدرداء، إن شئت لأحدّثنّك بأوّل علم يرفع من الناس؛ الخشوع. يوشك أن تدخل مسجد جماعة فلا ترى فيه رجلًا خاشعًا. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٧٦) وفي صحيح تخريج اقتضاء العلم العمل (٨٩).

يعرف الأحكام والفقه، لكن لا يخشى الله. وقال الحسن: «العلم علمان: فعلم على اللسان فذلك حجّة الله على ابن آدم، وعلم في القلب فذلك العلم النافع».

وإنّ من علامات صاحب العلم النافع: قبول الحق والانقياد له. ومَن علمه غير نافع فليس له شغل سوى التكبّر بعلمه على الناس، وإظهار فضل علمه عليهم، ونسبتهم إلى الجهل وتَنَقُّصهم ليرتفع بذلك عليهم، وهذا من أقبح الخصال وأرذلها وأرداها.

ومن عرف قدر السلف عرف أن سكوتهم عما سكتوا عنه من ضروب الكلام وكثرة الجدال والخصام والزيادة في البيان على مقدار الحاجة لم يكن عيًّا ولا جهلًا ولا قصورًا، وإنّما كان ورعًا وخشية لله واشتغالًا عما لا ينفع بما ينفع.

فليس العلم بكثرة الرواية، ولا بكثرة المقال، ولكنه نور يُقذف في القلب يفهم به العبد الحق، ويميز به بينه وبين الباطل، ويعبر عن ذلك بعبارات وجيزة مُحَصِّلَةٍ للمقاصد. وقد ابتلينا بجهلة من الناس يعتقدون في بعض من توسع في القول من المتأخرين أنه أعلم ممن تقدم. قال ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «إنكم في زمان كثير علماؤه قليل خطباؤه، وسيأتي بعدكم زمان قليل علماؤه كثير خطباؤه».

فالسلف أقل الناس كلامًا وتوسعًا في العلوم، لكن علمهم علم نافع في قلوبهم، ويعبّرون بألسنتهم عن القدر المحتاج إليه من ذلك. وهذا هو الفقه المبارك والعلم النافع، فأفضل العلوم هو ما كان في تفسير القرآن العظيم

ومعاني الحديث والكلام في الحلال والحرام مما كان مأثورًا عن الصحابة والتابعين وتابعيهم إلى أن ينتهي إلى أئمة الإسلام المشهورين المقتدَى بهم.

وقال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «خذوا من الرأي ما يوافق من كان قبلكم، فإنّهم كانوا أعلم منكم». وما روي عن أئمة الإسلام المشهورين المقتدى بهم كابن المبارك، ومالك، والثوري، والأوزاعي، والشافعي، وأحمد، واسحق، وأبي عبيد، ونحوهم في ذلك أفضل العلم، مع تفهّمه وتعقّله والتفقّه فيه، وما حدث بعدهم من التوسّع لا خير في كثير منه، إلا أن يكون شرحًا لكلام يتعلق من كلامهم.

وما كان مخالفًا لكلامهم فأكثره باطل أو لا منفعة فيه، وفي كلامهم في ذلك كفاية وزيادة. ولا يوجد في كلام من بعدهم من حق إلا وهو في كلامهم موجود بأوجز لفظ وأخصر عبارة، ولا يوجد في كلام من بعدهم من باطل إلا وفي كلامهم ما يبين بطلانه لمن فهمه وتأمله، ويوجد في كلامهم من المعاني البديعة والمآخذ الدقيقة مالا يهتدى إليه من بعدهم ولا يلمّ به.

وقد قال سبحانه: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ [المَائِدَة : ١٣] فأخبر أن قسوة قلوبهم كان عقوبة لهم على نقضهم ميثاق الله، وهو مخالفتهم لأمره وارتكابهم لنهيه بعد أن أخذ عليهم مواثيق الله وعهوده ألّا يفعلوا ذلك. فنتج عن قسوة قلوب القوم أمران: قال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المَائِدَة : ١٣] فذكر أن قسوة قلوبهم أوجبت لهم خصلتين مذمومتين إحداهما: تحريف الكلم من بعد مواضعه. والثانية: نسيانهم حظًّا مما ذكّروا به.

وما أحسن قول أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقد سئل عن علقمة والأسود أيهما أفضل؟ فقال: «والله ما نحن بأهل أن نذكرهم، فكيف نفضّل بينهم!» وكان الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول عن معروف الكرخي: «معه أصل العلم؛ خشية الله».

فأصل العلم بالله الذي يوجب خشيته ومحبته والقرب منه والأنس به والشوق إليه. وقال بعضهم: «من خشي اللهَ فهو عالم، ومن عصاه فهو جاهل». وكلامهم في هذا المعنى كثير جدًّا. قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «كفى بخشية الله علمًا، وكفى بالاغترار بالله جهلًا».

وقال وهيب بن الورد: «ربّ عالم يقول له الناس عالم، وهو معدودٌ عند الله من الجاهلين». وقال الجنيد: «عِلمُنا هذا مقيّد بالكتاب والسنة، من لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يُقتدى به في علمنا هذا»[1].

فاسأل ربك التوفيق والإخلاص في شأنك كله، قال بعض السّلف: «ما نزل من السَّماء أعزُّ من التَّوفِيق، ولا صَعَدَ من الأَرْض أعزُّ من الإخلاص»[2].

والمقصود؛ أنّ الرضا بالله يستلزم الرضا بالإسلام وبنبي الإسلام، وهما يستلزمان الرضا بعلم السلف الذي هو التزام الشرع ظاهرًا وباطنًا. والحمد لله وحده على نعمة الإسلام والإيمان والقرآن والرسول والسنة، والحمد لله

---

(١) فوائد من فضل علم السلف على الخلف لابن رجب، عن موقع الكلم الطيب، بتصرف وزيادات.

(٢) التحبير شرح التحرير، للمرداوي. (٦٢/١)

الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، لقد جاءت رسل ربنا بالحق. والله أعلم.

بُعِـــثَ النبـــيُّ وأُوتِيَ التَّنْـــزِيلَا ... طلـعَ الصـــباحُ فـأطفئوا القِنـدِيلَا
شـمسُ الهدايـةِ أشرَقـتْ مـن نـورِهِ ... لا تـــذكُرُوا التــوراةَ والإنجـــيلَا
نزلـتْ على الرسل الكرام وبعدَهُم ... قـــد حُرِّفـــتْ وتبـــدّلتْ تبـــديلا
لـو كـان موسـى والمسـيحُ وأمُّـهُ ... في عصـرِ أحمدَ لاصطفَوْه خليلا
ولآمنـــوا أنّ النبـــيّ محمـــدًا ... مبعـــوثُ ربِّ العـــالمين رسُـــولا
هــذا النبـيُّ المُصـطفى مـن أمَّـةٍ ... خيْريَّـــةٍ مِـــن آل إسْـــمَاعِيلا
وَصَـلَ القلـوبَ بربِّهـا يـومَ الْتقَـى ... في الغـــار بعـــدَ تأمُّـــل جـــبْريلا
تنزيـــلُ ربِّ العـــالمين ووحيُـــه ... قـــد فصِّـــلتْ آياتُـــهُ تفصِـــيلا
إعجازُهُ لا ينقضـي وحرُوفهُ ... لا تقبـــلُ التحْريـــفَ والتبْـــديلا
يعلـــو بكـــل فضـــيلةٍ محمـــودةٍ ... شِـعْرَ الفحـولِ وكـلَّ مـا قَـد قـيلا
خشـعتْ قلـوبُ المـؤمنين لقولِـهِ ... والصـــخرُ بـــالقرآن لانَ ذلـــيلا
واسـتغلقتْ بعـضُ القلـوبِ تَعَنُّتًـا ... لا يســـمعونَ ولا يـــرونَ دلِـــيلا
عُمْـيُ البَصـيرةِ كالبَهـائِمِ شـأنُهُمْ ... بـل هـم أضَـلُّ طريقـةً وسَـبيلا

آدابُ الرّضا بالله تعالى

فرقُ الآداب عن الشروط؛ أنّ الرضا لا يصح إلا بشروطه، أما الآداب فهي لتكميله، ولا يكون الرضا تامًّا إلا بها. فالرضا بالله بحرٌ جميل لا تُدرَكُ سواحله، وعلى قدر تحقيق الآداب، وامتثال الأصول، ومراعاة حسن الأخلاق مع الخالق وخلقه؛ يكون تحصيل أطرافه والتمكّن من أهدابه، والآدابُ راجعةٌ لحفظ القلب واللسان والجوارح، وحراستها من حظّ الشيطان ومَسِّه ولَمِه، وبالله التوفيق.

فمن آداب الرضا: حفظ اللسان عما لا يليق بالراضين بالملك العلّام وتدبيره وحكمته، حتى في أدقّ الأمور، فمن تمام الرضا ألّا تقول عند الألم المفاجئ: حَسّ أو أحّ، فعند النسائي من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: قال: لما كان يومُ أحُد وولَّى الناسُ، كان رسولُ الله ﷺ في ناحيةٍ في اثني عشر رجلًا من الأنصار، فيهم طلحةُ بنُ عبيد الله، فأدركهم المشركون، فالتفتَ رسولُ الله ﷺ، فقال: **«مَن للقوم؟»** فقال طلحةُ: أنا، فقال رسولُ الله ﷺ: **«كما أنتَ»**، فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسولَ الله، فقال: **«أنتَ»**، فقاتل حتى قُتل، ثم التفتَ فإذا المشركون، فقال: **«مَن للقوم؟»** فقال طلحةُ: أنا، قال: **«كما أنت»**، فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسولَ الله[1]،

(١) وتأمل فداء الأنصار لرسول الله ﷺ، وصدقهم الله ما عاهدوه، حتى استشهد منهم أحد عشر رجلًا، إذ قام كل واحدٍ منهم بلا تردّد كأنما يرى موعود الله رأي عين، فاستقبل المشركين بصدره، حتى صُرِّعُوا أبطالًا بين يدي نبيهم ﷺ، رضوان الله =

فقال: «**أنتَ**»، فقاتل حتى قُتل، ثم لم يزل يقول ذلك، ويخرج إليهم رجل من الأنصار، فيقاتل قتالَ مَن قبْله، حتى بقيَ رسولُ الله ﷺ وطلحةُ بن عبيد الله، فقال رسولُ الله ﷺ: «**مَن للقوم؟**» فقال طلحةُ: أنا، فقاتل طلحةُ قِتال الأحَدَ عَشر[1]، حتى ضُرِبت يدُه، فقُطعت أصابعُه، فقال: حَسِّ، فقال رسولُ

=

عليهم، فلا كان ولا يكون بعد النبيين كالمهاجرين والأنصار والصحابة السابقين والأبرار.

ونُسْلِمَه حتى نُصرّعَ حولَه ونُذهلَ عن أبنائنا والحلائلِ

ولعلّ الله تعالى قد أطلع نبيّه ﷺ على مصارعهم وبقاء طلحة، فلم يُحل رسول الله ﷺ بينهم وبين القدَر الرباني الجميل مِن وفائهم لِمَا عاهدوا الله تعالى عليه من نصرةِ نبيه ﷺ بتلك البطولة المختتمة بالشهادة الصادقة الهائلة الجليلة.

(١) في عمدة القاري (٢٥ / ٣٦٦): «ذكر الحاكم في (الإكليل) من طريق موسى بن طلحة: أن طلحة جرح يوم أحد تسعًا وثلاثين أو خمسًا وثلاثين، وشُلّتْ أصبعه، أي السبابة والتي تليها». أهـ.

وقالت عائشة رضي الله عنها: كان أبو بكر إذا ذكر أحد قال: ذاك يوم كله لطلحة! وهو طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي، القرشي أبو محمد التيمي. أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين نصّ عليهم عمر، وقال: توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض. وأحد الخمسة الذين أسلموا من سادات الصحابة على يدي أبي بكر رضي الله عنه، وهم: عثمان، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص. كان يقال له ولأبي بكر: القرينان، لأن نوفل بن خويلد بن العدوية أخذهما، فقرنهما في حبل واحد حين بلغه إسلامهما، ولم يمنعهما بنو تيم،

=

الله ﷺ: **«لو قلتَ: بسم الله؛ لَرَفَعَتْكَ الملائكة والناسُ ينظرون»**، ثم ردَّ الله المشركين[١].

وقد ورد أن رسول الله ﷺ قالها ذات مرّة حينما لَسَعَتِ البُرمة أو الخَزِيرة أصابعه حينما قدّمتها خولة بنت قيس بين يديه، فعند أحمد والنسائي: أنّ حمزة بن عبد المطلب لـمّا قدم المدينة تزوّج خولة بنت قيس بن قهد الأنصارية من بني النجار[٢] قال: وكان رسول الله ﷺ يزور حمزة في بيتها[١]، وكانت تحدثه

=

وكلاهما من بني تيم. وكان يقال له: طلحة الخير، وطلحة الجود، وطلحة الفياض. شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ إلا بدرًا، فإنه كان بالشام، فضرب له رسول الله ﷺ بسهمه وأجره.

وأبلى يوم أحد بلاء حسنًا، وأصيبت يده يومئذ، ورقاها رسول الله ﷺ، وكان جماعة من الصحابة يقولون عن يوم أحد: ذاك يوم كله لطلحة، ولما طأطأ لرسول الله ﷺ لينهض على تلك الصخرة يوم أحد قال: **«أوجَبَ طلحة»**. قُتل رضي الله عنه يوم وقعة الجمل في العاشر من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين، وقد استكمل من العمر يومئذ أربعًا وستين سنة. وانظر: سير أعلام النبلاء (١/٢٣-٤٠).

لقد ذاقَ منه الكفرُ صاعًا مُضاعفًا ... فقد كان للإسلام سيفًا مُداويا

وما كان أمرٌ قبلَ أمرِ إلهنا ... فإن أذكرِ المقدورَ زالَ حذاريا

(١) النسائي (٦/٢٩) وحسنه الألباني في السلسلة (٢١٧١)

(٢) وهم أخوال عبد المطلب، فقد كان هاشم يمكث في المدينة حين ذهابه في تجارة قريش لغزّة - التي صارت غزة هاشم - ثم خطب إليهم ابنتهم فزوجوه فولدت عبد المطلب بن هاشم، وولد لعبد المطلب عبد الله والد رسول الهدى صلوات الله وسلامه وبركاته

=

عنه ﷺ أحاديث، قالت: جاءنا رسول الله ﷺ يومًا فقلت: يا رسول الله، بلغني عنك أنك تُحدّث أنّ لك يوم القيامة حوضًا ما بين كذا إلى كذا، قال: **«أجل، وأحبُّ الناسِ إليّ أن يَرْوَى منه قومُك»**[(٢)]. قالت: فقدّمت إليه بُرْمَةً فيها خبزة، أو خزيرة[(٣)] فوضع رسول الله ﷺ يده في البرمة ليأكل فاحترقت

=

عليه، فصار بنو النجار بذلك أخوال رسول الله ﷺ، لهذا فقد نزل رسول الله ﷺ عندهم حينما هاجر للمدينة حفظًا لرحمهم وصِلَةً لهم، بتدبير الله تعالى لناقته حتى ساقها لمكان المسجد فبركت فيه، ثم قامت ومشت، ثم عادت فبركت في ذات البقعة تأكيدًا لها من الله تعالى، ثم أقبل أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه - وهو من بني النجار - فحمل رحل رسول الله ﷺ وذهب به لبيته، فنزل عليهم رسول الله ﷺ، وهو أكرم ضيف نزل على أحدٍ طرًّا. وبنو النجار أخوال عبد المطلب بن هاشم جدّ رسول الله ﷺ، والنجار هو تيم اللات بن ثَعْلَبَة بن عَمْرو بن الخَزْرَج وهم بطون كثيرة، سمي بالنجار؛ لأنّه اختتن بالقدوم. وروى مسلم (٢٥١١) عن أبي أُسَيدٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«خَيرُ دُورِ الأَنصَارِ بَنُو النَّجَّارِ، ثُمَّ بَنُو عَبدِ الأَشهَلِ، ثُمَّ بَنُو الحَارِثِ بنِ الخَزرَجِ، ثُمَّ بَنُو سَاعِدَةَ، وَفِي كُلِّ دُورِ الأَنصَارِ خَيرٌ»**.

(١) أي: يزور حمزة بن عبد المطلب في بيت زوجِهِ خولة.

(٢) أي: الأنصار رضي الله عنهم، وقد وعدهم بقوله: **«اصبروا حتى تلقوني على الحوض»**. رواه البخاري (٣٧٩٢).

(٣) وفي لفظ: أو حريرة. أما الخزيرة: فهي لحم يقطع صغارًا ويصبّ عليه ماء كثير، فإذا نضج ذرّت عليه النخالة، أمّا إن ذرّ عليه الدقيق فهي الحريرة، وهي أرقّ وأشهى، فإن لم يكن لحم فهي عصيدة. وانظر: اللسان، مادة: (خزر).

أصابعه، فقال: **«حَسِّ»**(١)، ثم قال: «**ابن آدم، إنْ أصابه البردُ قال: حَسِّ، وإن أصابهُ الحرُّ قال: حَسِّ**»(٢).

وتوجيه ذلك: إما أنّ هذا قبل خبر طلحة(٣)، وهذا ظاهر لأن حمزة أصيب في أحد، وكان رسول الله ﷺ يزور حمزة في بيتها، ثم جاء الندب إلى

(١) حَسِّ: وتروى أيضًا بكسر الحاء، وهي صوت الإحساس بالألم مثل: أحّ، ومثل: أوه ونحو ذلك، وتقال عند الفجاءة بالألم أو الضعف عن احتماله، وكلاهما ضعف صبر، إلّا من رسول الله ﷺ فلعلها رحمة بالأمة لأجل بيان الإباحة ورفع الحرج عنهم، ولبيان بشريّته ﷺ وأنه يصيبه ويؤلمه ما يصيبهم، وقد أشار لذلك في نهاية حديثه الشريف ﷺ في بيان ضعف تكوين بني آدم وضعف صبره، حتى يكسر صولة عزته، ويقذِ عَرَامَته، ويضع كِبْرَه، والله أعلم. قال ابن منظور في لسان العرب (٦ / ٤٩) مادة: (حسس): «قال الأصمعي: ضربه فما قال حَسِّ، قال وهذه كلمة كانت تُكره في الجاهلية. وحَسِّ مثل أَوَّهْ». وقال ابن الأثير في النهاية في غريب الأثر (١ / ٩٥٨): «هي بكسر السين والتشديد: كلمة يقولُها الإنسان إذا أصابه ما مَضَّه وأحْرَقَه غَفْلَة كالجَمْرة والضَّرْبة ونحوهما».

(٢) أحمد (٢٧٣٥٧) وقال شعيب الأرناؤوط: رجاله ثقات، رجال الصحيح، وأورده الهيثمي في المجمع (١٠ / ٣٦١) وقال: رواه أحمد والطبراني، ورجال أحمد رجال الصحيح.

(٣) مسمّى على واحدةِ الطلح: وهو شجر ضخام من شجر البراري، وكانت العرب ولا زالت تسمي أولادها ببيئتها كالنبات مثل طلحة وسمرة وسلمة ورمثة ومُرارة، أو بأحوال مطرها كغيث ومطر ووابل وهتان وسحاب ومزنة، أو حيوانها كذئب وثعلب وكلب وجرو وحمار وجحش، أو بأسلحتها كسيف وسهم ورمح، أو بأوانيها كما في =

ترك هذا الكلمة بعد ذلك[١]، أو أنه قالها من باب الإخبار الفعلي بالإباحة، وأنّ ترك ذلك هو من ترك الأولى ـ وهو دون الكراهة ـ وإمّا أنّه قصد بها بيان ما بعدها، فمثّل بحالِهِ ﷺ حال ابن آدم وضعفه في الجملة حينما يصيبه حرٌّ أو برد. والله أعلم.

والمقصود؛ حفظ اللسان من كل ما يخدش الرضا بأيِّ وجه كان، فحفظ اللسان من أصول حفظ الدين، فعن سهل بن سعد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من يضمنُ لي ما بين لحييه وما بين رجليه؛ أضمن له الجنة»**[٢]. وقد يتساهل المرء في كُليماتٍ وهمهماتٍ وتأوُّهَاتٍ بطريق الضَّجَرِ أو برائحةِ الاعتراضِ لا يحسب لها حسابًا، بينَا هي تُنزله من علياء الراضين السابقين لِسَاحِ المُخلّطين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسرَاء : ٣٦]، وقال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق : ١٨].

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلم أنه ينبغي لكل مكلّف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام إلا كلامًا ظهرت فيه المصلحة، ومتى استوى الكلام وتركه في

=

عصرنا من تسميتهم فنجال ومحماس وبيز ونجر ومشوط.. وغير ذلك. وبعضهم كان يسمي أبناءه بالأسماء الشرسة الشديدة كصخر وأسد ونحوها ويسمى مواليه بالأسماء الرقيقة، ويعللون ذلك بأن أسماء أبنائهم لحرب أعدائهم أما مواليهم فلهم.

(١) ولا يُصار إلى القول بالنسخ إلا عند تعذّر الجمع، لأن فيه إلغاءً لمعنى أحد الحديثين.

(٢) البخاري ٨/١٢٥ (٦٤٧٤)

المصلحة؛ فالسنة الإمساك عنه، لأنّه قد ينجرّ الكلام المباح إلى حرام أو مكروه، وذلك كثير في العادة، والسلامة لا يعدلها شيء»[(١)]. وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ قال: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت»**[(٢)]. وتأمّل حديث معاذ وكيف ربط حفظ الدين العظيم كله بحفظ جارحة اللسان وحدها! لأنها الرِّشا الذي يخرج ما في بئر القلب من الضمائر المخفيّة المَعْفُوّةِ إلى الحقائق الظاهرة المُؤَاخَذةِ، فعن معاذ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدُني من النار. قال: **«لقد سألتَ عن عظيم، وإنه ليسير على من يسّره الله تعالى عليه: تعبدُ اللهَ لا تشركُ به شيئًا، وتقيمُ الصلاة، وتؤتِي الزكاة، وتصومُ رمضان، وتحجُّ البيت»**، ثم قال: **«ألا أدلّك على أبواب الخير؟ الصوم جُنَّةٌ، والصدقة تُطفئ الخطيئة كما يطفئ الماءُ النارَ، وصلاة الرجل من جوف الليل»**. ثم تلا: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ١٦ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧﴾ [السَّجۡدَة: ١٦ - ١٧]. ثم قال: **«ألا أخبرك برأس الأمر، وعمودِه، وذِرْوَةُ سنامه؟[(٣)]»** قلت: بلى يا رسول الله، قال: **«رأسُ الأمر الإسلام، وعمودُهُ الصلاة، وذروةُ سنامه الجهاد»**. ثم قال:

---

(١) رياض الصالحين (٢ / ١٧٥)

(٢) البخاري ١٢٥/٨ (٦٤٧٥) ومسلم ٤٩/١ (٤٧) (٧٤)

(٣) ذروة سنامه: سنام الناقة: معروف، وذروته أعلاه، والمراد: أعلى موضع في الإسلام وأشرفه. ومنه: ذِروة الجبل: أي أعلاه، والذروة بكسر الذال المعجمة وتأتي بضمّها أيضًا.

«ألا أخبرك بِمِلَاكِ ذلك كله!»(١) قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسانه وقال: **«كُفَّ عليك هذا»**. قلت: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: **«ثكلتك أمّك! وهل يكبّ الناس في النار على وجوههم إلا حصائدُ**(٢) **ألسنتهم؟»**(٣). وآهٍ من حصائدِ الألسُنِ إنْ لم يرحمنا الله! اللّهم رحمتك التي وسعت كل شيء.

ومن حرس قلبه حرس لسانه، ومن رضي بربه لم يقل عنه وعن تدبيره إلا خيرًا، قال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ: «الجاهل يشكو الله الى الناس، وهذا غاية الجهل بالمشكوّ والمشكوّ اليه، فإنّه لو عرف ربه لما شكاه، ولو عرف الناس لما شكا إليهم. ورأى بعض السلف رجلًا يشكو إلى رجل فاقته وضرورته فقال: يا هذا؛ والله ما زدت على أن شكوتَ من يرحمك! وفي ذلك قيل:

وإذا شكوتَ إلى ابن آدم إنّما ... تشكو الرحيمَ إلى الّذي لا يرحمُ

---

(١) بملاك ذلك: ملاك الأمر: قوامه، وما يتمّ به، بفتح الميم وكسرها.

(٢) الحصائد: جمع حصيدة، وهي ما يحصد من الزرع، وهذا من التشبيه البليغ جدًّا، إذ شبّه ﷺ اللسان وما يَقتطِعُ به من القول بحدّ المِنجَل وما يقطع به من النبات، إن خيرًا فخير، أو شرًّا فشرّ، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ۝٤٦﴾ [فُصِّلَت: ٤٦].

(٣) أحمد (٢٢٠١٦) وقال محققوه: صحيح بطرقه وشواهده، والترمذي (٢٦١٦) وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه (٣٩٧٣) وصححه الألباني في الجامع الصغير وزيادته (٥١٣٦).

والعارف إنّما يشكو إلى الله وحده، وأعرفُ العارفين من جعل شكواه إلى الله من نفسه لا من الناس، فهو يشكو من مُوجبات تسليط الناس عليه، فهو ناظرٌ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقوله: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، وقوله: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥﴾ [آل عمران: ١٦٥]. فالمراتب ثلاثة: أخسّها أن تشكو الله إلى خلقه، وأعلاها أن تشكو نفسك إليه، وأوسطها أن تشكو خلقه إليه»[(١)].

ومن ذلك سبّ الدّهر لأنه راجع لمدبّره، وهذا في الغاية من سوء الأدب مع من لا يأتي الخير إلا منه!

تاللهِ ما جارَ الزَّمانُ وما قَضَى ... حَكَمَ الإلهُ وكلّنا مأمورُ

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن ذلك أن تطلق ألفاظ الذمّ على من ليس من أهلها، فمثل نهيه ﷺ عن سبّ الدهر وقال: «**إنّ الله هو الدّهر**»[(٢)]. وفي

---

(١) الفوائد (١ / ٨٨)

(٢) البخاري (٦١٨٢) قال الشيخ صالح آل الشيخ حفظه الله في إتحاف السائل بما في الطحاوية من مسائل (٩ / ١): «قوله في الحديث القدسي: «**وأنا الدهر**» لا يُفهم منه أنَّ الدهر من أسماء الله تعالى؛ بل يعني أنَّ الذي سبّ الدهر وقعت مسبّته على الله تعالى؛ لأنَّ الله هو الذي يُصرِّف الدهر كيف يشاء.

إذا تبين ذلك وقد ذكرنا مرارًا أنّ وصف الدهر بأوصافٍ ممّا يقع فيه من الأوصاف المشينة ليست مسبّةً للدهر، فقول القائل: هذا يوم أسود، أو هذا الشهر شهر نحس، أو نحو ذلك، فإن هذا ليس بمسبّةٍ للدهر، لأن هذا وصفٌ لما يقع في الدهر، لما يقع في

=

حديث آخر يقول الله عز وجل: «**يؤذيني ابن آدم، فيسبّ الدّهر، وأنا الدّهر، بيدي الأمر، أقلّب الليل والنهار**»[(١)]. وفي حديث آخر: «**لا يقولنّ أحدكم: يا خيبة الدهر**»[(١)]. وفي هذا ثلاث مفاسد عظيمة:

=

اليوم، أو لما وقع فيه، لما يقع في الشهر، أو لما وقع فيه، وهذا كما قال تعالى: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ١٩﴾ [القمر: ١٩] وقال سبحانه: ﴿فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [فصلت: ١٦] فوصف الله تعالى الأيام التي عذّب بها الكفرة أنّها أيام نحيسة، فمثل هذا ليس بسبّ للدهر؛ لأنه وصفٌ لما وقع فيه بالإضافة إلى المخلوق». أهـ.

قلت: والفرق بين وصف الدهر بما يقع فيه وبين سبّ الدهر أنّ الوصف ذِكرٌ لأمرٍ خلَقَه الله كالحرّ والبرد والجدب والشدّة والوباء ونحو ذلك، أما السبّ فوصفه أو تهمته بقبيح ليس فيه كالظلم والكفر، أو بلعنه ونحو ذلك، أما وصفه بالنحس والشؤم فالأظهر المنع، خلافًا لشيخنا، وذلك أنّ النحس والشؤم وصفٌ لأمر لا تُدرى عاقبته، ولا يُعلم مآله، وفيه نوعُ تألٍّ على الله تبارك وتعالى، خلا ما علمنا أنه عذابٌ بسبب الذنوب والكفر والفسوق كما قصّ الله علينا مِن أخبار من غبَر. فإن احتجَّ أحد بقول الله تعالى: ﴿يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ١٩﴾ [القمر: ١٩] فلا يَرِدُ ذلك علينا هنا، لأن الخلق مفتقرون لعلمِ حقائق ومآلات الأمور، أما الله تعالى فهو بكل شيء عليم. وبالله التوفيق.

(١) البخاري (٤٨٢٦) مسلم (٦٠٠٠) قال ابن تيمية: «فقوله في الحديث: «**بيدي الأمر، أقلّب الليل والنهار**» يبيّن أنه ليس المراد به أنّه الزمان، فإنه قد أخبر أنه يقلّب الليل والنهار، والزمان هو الليل والنهار؛ فدلّ نفس الحديث على أنه هو يقلب الزمان ويصرّفه، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ

=

إحداها: سبُّه من ليس بأهل أن يُسبّ، فإنّ الدهر خلق مُسَخّر من خلق الله، منقاد لأمره، مذلّل لتسخيره، فسابُّه أولى بالذمّ والسبّ منه.

الثانية: أنّ سبّه متضمّنٌ للشرك، فإنّه إنّما سبّه لظنّه أنه يضرّ وينفع، وأنه مع ذلك ظالم قد ضرّ من لا يستحق الضرر، وأعطى من لا يستحق العطاء، ورفع من لا يستحق الرفعة، وحرم من لا يستحق الحرمان. وهو[٢] عند شاتميه من أظلم الظلمة، وأشْعَارُ هؤلاء الظلمة الخونة في سبّه كثيرة جدًّا. وكثير من الجهّال يصرّح بلعنه وتقبيحه.

الثالثة: أنّ السبّ منهم إنما يقع على من فعل هذه الأفعال التي لو اتّبَعَ الحقّ فيها أهواءهم لفسدت السماوات والأرض، وإذا وقعت أهواؤهم حمدوا الدهر وأثنوا عليه. وفي حقيقة الأمر فربّ الدهر تعالى هو المعطي المانع، الخافض الرافع، المعزّ المذلّ، والدهر ليس له من الأمر شيء، فمسبّتهم للدهر

=

مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٣﴾ [النُّور: ٤٣]. وإزجاء السحاب: سَوقُه، والودق: المطر». الفتاوى (٢ / ٤٩١)

(١) الموطأ (٦٠٩) وأحمد (٢/٣٩٤) (٩١٠٥) والأدب المفرد (٧٦٩) وصححه الألباني في الجامع (٧٧٦٨) وللفائدة: اعلم أنّ كل ما في الموطأ من المرفوعات صحيح. أما سوى ذلك من البلاغات والموقوفات ونحوها ففيها الصحيح وما دونه.

(٢) أي: الدهر.

مسبّة لله عز وجل، ولهذا كانت مؤذية للرب تعالى[(١)] كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنهُ عن النبي ﷺ قال: قال الله تعالى: «**يؤذيني ابنُ آدم؛ يسبُّ الدهرَ وأنا الدهر**»[(٢)].

فسابّ الدهر دائر بين أمرين لا بدّ له من أحدهما: إمّا سبّه لله أو الشرك به، فإنه إذا اعتقد أن الدهر فاعل مع الله فهو مشرك، وإن اعتقد أن الله وحده هو الذي فعل ذلك وهو يسبّ من فعله فقد سبّ الله. ومن هذا قوله ﷺ: «**لا يقولنّ أحدكم: تَعِسَ الشيطانُ، فإنّه يتعاظمُ حتى يكونَ مثل البيت، فيقول: بقوّتي صرعتُه. ولكن ليقل: بسم الله، فإنّه يتصاغر حتى يكون مثل الذباب**»[(٣)]. وفي الحديث: «**إن العبد إذا لعن الشيطان يقول: إنّك لتلعنُ مُلَعَّنًا**»[(٤)].

---

(١) والأذى غير الضرر، فالضرر منفيّ، وفي الحديث القدسي: «**إنّكم لن تبلغوا ضرّي فتضرّوني**». مسلم (٦٧٣٧)

(٢) البخاري (٤٨٢٦) مسلم (٦٠٠٠)

(٣) أبو داود (٤٩٨٢) وصححه الألباني.

(٤) لم أجده مرفوعًا، ولكن وجدته عند أبي نعيم في حلية الأولياء (٥٩/١) بسنده عن الأوزاعي قال حدثنا حسان قال: «إنّ العبد..». وقد سئل عنه الدارقطني في العلل (١٩٣٨) ورجّح وقفه على أبي هريرة.

قال الشيخ ابن باز رَحِمَهُٱللَّهُ: «لا حرج في لعنه، ولكن التَّعوذ بالله أحسن، التَّعوذ بالله من الشيطان الرجيم أفضل، وإنْ لَعَنَهُ فلا بأس، فقد لعنه النبيُّ ﷺ: جاء في الحديث الصحيح أنَّ الشيطان تفلَّتَ عليه وهو يُصلي، فقال له: «**ألعنُك بلعنة الله**»، فإذا لعنه فلا =

=
بأس، وإن استعاذ بالله من شرِّه فذلك أفضل، وكلاهما جائزٌ». أهـ. من موقعه جوابًا على سؤال: ما حكم سب أو لعن إبليس؟

وفي مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين (٣/ ٩٣): سئل فضيلة الشيخ برقم (٤٩١): عن حكم لعن الشيطان؟ فأجاب بقوله: «الإنسان لم يؤمر بلعن الشيطان، وإنما أمر بالاستعاذة منه كما قال الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٠٠﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، وقال تعالى في سورة فصلت: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٦﴾ [فصلت: ٣٦]».

وقال الشيخ صالح آل الشيخ حفظه الله تعالى في شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٢١٤): «اختلف فيها أهل العلم على قولين:

القول الأول: منهم من أجاز لعنه بعينه لقول الله: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ۝١١٧﴾ [النساء: ١١٧]، وما جاء في الآيات في لعن إبليس وطرده عن رحمة الله.

القول الثاني: أنه لا يُلعَن إبليس ولا الشيطان لما صَحَّ في الحديث أنّ النبي ﷺ نهى عن لعن الشيطان أو عن لعن إبليس وقال: **«لا تلعنوه فإنه يتعاظم»**. المسند (٢٣١٤١) رواه تمّام في فوائده وغيره بإسناد جيد، قالوا: فهذا يدل على النهي عن اللّعن، وهذا متّجه في أنّ اللعن عمومًا في القاعدة الشرعية أنّ المسلم لا يلعن؛ لأنّ اللعن منهي عنه المؤمن بعامة، ومن أعظم ما يكون أثرًا للّعن أنّ اللَّعان لا يكون شفيعًا ولا شهيدًا يوم القيامة».

قلت: والأحوط اجتناب لعنه لصراحة النهي وتعليله بتعاظمه، أما لعنه ﷺ للشيطان فكأنّه خاص به ﷺ، فاللعن منه ليس كغيره، فهو دعاء عليه مِن أَحَبِّ الخلق لرب العالمين، فلا وجه لتعاظمه وقد علم مقام رسول الله ﷺ عند الله تعالى.

ومثل هذا قول القائل: أخزى الله الشيطان، وقبّح الله الشيطان، فإن ذلك كله يُفرحه ويقول: علم ابن آدم أني قد نلته بقوّتي، وذلك مما يعينه على إغوائه، ولا يفيده شيئًا! فأرشد النبي ﷺ مَن مسّه شيء من الشيطان أن يذكر الله تعالى، ويذكر اسمه، ويستعيذ بالله منه؛ فإن ذلك أنفع له، وأغيظ للشيطان.

ومن ذلك نهيه ﷺ أن يقول الرجل خبثت نفسي، كما في حديث: **«لا يقولنّ أحدكم: خَبُثَتْ نفسي، ولكن ليقل: لَقِسَتْ نفسي»**[(١)]. ومعناهما واحد، أي: غَثَتْ نفسي، وساء خلقها، فكره لهم لفظ الخبث لما فيه من القبح والشناعة، وأرشدهم إلى استعمال الحَسَنِ وهجران القبيح، وإبدال اللفظ المكروه بأحسن منه.

---

(١) البخاري ٨/٥١ (٦١٨٢) مسلم (٢٢٥١) قال النووي في رياض الصالحين (٢ / ٢٦٨): لقست نفسي من الشيء: إذا غثت، وإنّما كره «خبثت» هربًا من لفظ الخبث. ونقله عن أبي عبيد والخطابي. كما نقل ذلك ابن حجر في فتح الباري (١٠/٦٩٢). وانظر: معالم السنن (٤/١٢١) وقال الطحاوي في شرح مشكل الاثار (١ / ٣٢٠): «منع من ذلك لأن وصف النفس بالخبث وصف لها بالفسق، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ﴾ [النور: ٢٦] فكان مكروهًا للرجل أن يُفسّق نفسه إذا لم يكن منها ما يوجب ذلك عليها، وكان محبوبًا له أن يقول مكان ذلك: لَقِسَتْ نفسي، وإن كان معناهما معنى واحد وهو الشراسة وشدّة الخلق، كذلك معناهما عند أهل العربية، ومنه قول عمر رضي الله عنه في صفة الزبير: إنّه وعقة لقس، يعني هذا المعنى».

ومن ذلك نهيه ﷺ عن قول القائل بعد فوات الأمر: **«لو أني فعلتُ كذا وكذا»**، وقال: **«إنّ لو تفتح عمل الشيطان»**[(١)]. وأرشده إلى ما هو أنفع له من هذه الكلمة وهو أن يقول: قدر الله وما شاء فعل، وذلك لأن قوله: لو كنت فعلت كذا وكذا؛ لم يفتني ما فاتني، أو لم أقع فيما وقعت فيه. كلام لا يُجدي عليه فائدة البتة، فإنه غير مستقبِلٍ لما استدبر من أمره، وغير مستقيلٍ عثرته بـ«لو». وفي ضمن «لو» ادّعاءُ أنّ الأمر لو كان كما قدّره في نفسه لكان غير ما قضاه الله وقدّره وشاءه، فإنّ ما وقع ممّا يتمنّى خلافه إنما وقع بقضاء الله وقدره ومشيئته، فإذا قال: لو أنّي فعلت كذا لكان خلاف ما وقع فهو محال، إذ خلاف المُقَدَّر المَقضِيِّ مُحال، فقد تضمّن كلامه كذبًا وجهلًا ومُحالًا، وإن سلم من التكذيب بالقدر لم يسلم من معارضته بقوله: لو أني فعلت كذا لدفعت ما قدّر الله علي.

---

(١) مسلم (٨/٥٦) عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«المؤمن القويّ خيرٌ وأحبّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، فإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا وكذا. ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»**. ويصحُّ: قَدَرُ الله، وقَدَّرَ الله. قال الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يصح أن يقال: «قَدَرُ الله» وهو الأقرب والأولى، والمعنى: هذا قدرُ الله».

وقوّة القلوب هي المقصودة، أما الجوارح فتبع لها، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إغاثة اللهفان (١٧): «القلب إذا كان فيه مرض آذاه أدنى شيء من الشبهة أو الشهوة، حيث لا يقدر على دفعهما إذا وردا عليه، والقلب الصحيح القوي يطرقه أضعاف ذلك وهو يدفعه بقوته وصحته».

فإن قيل: ليس في هذا ردّ للقدر ولا جحد له، إذ تلك الأسباب التي تمنّاها أيضًا من القَدَر. فهو يقول: لو وقفت لهذا القَدَر لاندفع به عني ذلك القَدَر، فإن القَدَر يُدفع بعضه ببعض، كما يدفع قدَر المرض بالدواء، وقدَر الذنوب بالتوبة، وقدَر العدو بالجهاد، فكلاهما من القدر.

قيل: هذا حقّ، ولكن هذا ينفع قبل وقوع القدر المكروه، وأما إذا وقع فلا سبيل إلى دفعه، وإن كان له سبيلٌ إلى دفعه أو تخفيفه بقدَر آخر فهو أولى به من قوله: لو كنت فعلته، بل وظيفته في هذه الحالة أن يستقبل فعله الذي يدفع به، أو يخفّف أثر ما وقع، ولا يتمنّى ما لا مطمع في وقوعه، فإنه عجزٌ محض، والله يلوم على العجز، ويحب الكَيْس، ويأمر به. والكَيْسُ: هو مباشرة الأسباب التي ربط الله بها مسبباتها النافعة للعبد في معاشه ومعاده، فهذه تفتح عمل الخير، وأما العجز فإنه يفتح عمل الشيطان، فإنه إذا عجز عما ينفعه وصار إلى الأماني الباطلة بقوله: لو كان كذا وكذا، ولو فعلت كذا، يفتح عليه عمل الشيطان، فإنّ بابه العجز والكسل، ولهذا استعاذ النبي ﷺ منهما، وهما مفتاح كلّ شرّ، ويصدر عنهما الهمّ، والحزن، والجبن، والبخل، وضلع الدين، وغلبة الرجال، فمصدرها كلها عن العجز والكسل، وعنوانها: «لو». فلذلك قال النبي ﷺ: **«فإنّ لو تفتح عمل الشيطان»**. فالمتمنّي مِنْ أعجزِ الناس وأفلسِهم، فإنّ التمنّي رأسُ أموال المفاليس، والعجز مفتاح كلّ شرّ.

وأصل المعاصي كلّها العجز، فإن العبد يعجز عن أسباب أعمال الطاعات وعن الأسباب التي تبعده عن المعاصي، وتحول بينه وبينها، فيقع في المعاصي، فجمع هذا الحديث الشريف في استعاذته ﷺ أصولَ الشرّ وفروعَه ومباديه

وغاياته وموارده ومصادره، وهو مشتمل على ثماني خصال كل خصلتين منها قرينتان، فقال: **«أعوذ بك من الهمّ والحزن»**[(١)]. وهما قرينان فإن المكروه الوارد يكون سببه أمرًا ماضيًا فهو يُحدث الحُزن، وإما أن يكون توقّع أمرٍ مستقبل فهو يُحدث الهمّ، وكلاهما من العجز، فإنّ ما مضى لا يُدفع بالحزن، بل بالرضا والحمد والصبر والإيمان بالقدر وبقولِ العبد: قدر الله وما شاء فعل.

وما يُستقبل لا يُدفع أيضًا بالهمّ، بل إما أن يكون له حيلة في دفعه فلا يعجز عنه، وإما ألا تكون له حيلة في دفعه فلا يجزع منه، ويلبس له لباسه، ويأخذ له عدّته، ويتأهّب له أهبته اللائقة به، ويستجنّ بجُنّة حصينة من التوحيد والتوكل والانطراح بين يدي الرب تعالى، والاستسلام له، والرضا به ربًّا في كل شيء، ولا يرضى به ربًّا فيما يُحب دون ما يكره، فإذا كان هكذا لم يرض به ربًّا على الإطلاق، فلا يرضاه الرب له عبدًا على الإطلاق.

فالهم والحزن لا ينفعان العبد البتة، بل مضرّتها أكثر من منفعتهما، فإنهما يضعفان العزم، ويوهنان القلب، ويحولان بين العبد وبين الاجتهاد فيما ينفعه، ويقطعان عليه طريق السير، أو ينكسانه إلى وراء، أو يعوقانه أو يحجبانه عن العَلَم الذي كلما رآه شمّر إليه وجدّ في سيره، فهما حِمْلٌ ثقيلٌ على ظهر السائر.

---

(١) البخاري (٢٨٩٣) ومسلم (١٣٦٥) عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لأبي طلحة: **«التمس غلامًا من غلمانكم يخدمني حتى أخرج إلى خيبر»**. فخرج بي أبو طلحة مردفي وأنا غلام راهقت الحلم، فكنت أخدم رسول الله ﷺ إذا نزل، فكنت أسمعه كثيرًا يقول: **«اللّٰهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والبخل والجبن، وضلع الدين وغلبة الرجال»**. ويصح باللفظين: الحَزَن، والحُزْن.

بل إن عاقه الهمّ والحزن عن شهواته وإراداته التي تضرّه في معاشه ومعاده انتفع به من هذا الوجه، وهذا من حكمة العزيز الحكيم أن سلّط هذين الجندين على القلوب المعرضة عنه الفارغة من محبته وأُرِيدَ بها الخير؛ كان هذا حظّها من سجن الجحيم في معادها، ولا تزال في هذا السجن حتى تتخلص إلى فضاء التوحيد والإقبال على الله والأنس به، وجعْلِ محبته في محل دبيب خواطر القلب ووساوسه، بحيث يكون ذكره تعالى وحبّه وخوفه ورجاؤه والفرح به والابتهاج بذكره هو المستولي على القلب الغالب عليه، الذي متى فقده فَقَدَ قُوْتَه الذي لا قوام له إلا به، ولا بقاء له بدونه، ولا سبيل إلى خلاص القلب من هذه الآلام التي هي أعظم أمراضه وأفسدها له إلا بذلك، ولا بلاغ إلا بالله وحده، فإنه لا يُوصِلُ إليه إلا هو، ولا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يصرف السيئات إلا هو، ولا يدلّ عليه إلا هو، وإذا أراد عبدَه لأمر هيّأه له، فمنه الإيجاد ومنه الإعداد ومنه الإمداد، وإذا أقامه في مقام أي مقام كان فبحمده أقامه فيه، وبحكمته أقامه فيه، ولا يليق به غيره، ولا يصلح له سواه، ولا مانع لما أعطى الله، ولا معطي لما منع.

ولا يمنع عبده حقًّا هو للعبد فيكون بمنعه ظالمًا له، بل إنّما منعه ليتوسّل إليه بمحابّه ليعبده وليتضرّع إليه ويتذلّل بين يديه ويتملّقه، ويعطي فقره إليه حقّه بحيث يشهد في كل ذرة من ذراته الباطنة والظاهرة فاقةً تامّة إليه على تعاقب الأنفاس، وهذا هو الواقع في نفس الأمر وإن لم يشهده العبد، فلم يمنع الرب عبدَه ما العبدُ محتاج إليه بُخلًا منه، ولا نقصًا من خزائنه، ولا استئثارًا عليه بما هو حقّ للعبد، بل مَنَعَهُ ليردّه إليه، وليعزّه بالتذلّل له، وليغنيه بالافتقار

إليه، وليجبره بالانكسار بين يديه، وليذيقه بمرارة المنع حلاوة الخضوع له، ولذة الفقر إليه، وليلبسه خِلْعَة العبودية، ويولّيه بعَزْلِه أشرفَ الولايات، وليُشهده حكمته في قدرته، ورحمته في عزته، وبرّه ولطفه في قهره، وأنَّ منعَهُ عطاءٌ، وعزلَهُ توليةٌ، وعقوبته تأديب، وامتحانه محبة وعطيّة، وتسليطَ أعدائه عليه سائقٌ يسوقه به إليه(١).

وبالجملة؛ فلا يليق بالعبد غير ما أقيم فيه، وحكمتُه وحمده أقاماه في مقامه الذي لا يليق به سواه، ولا يحسن أن يتخطّاه، والله أعلم حيث يجعل مواقع عطائه وفضله، و ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ٥٣﴾ [الأنعام: ٥٣]. فهو سبحانه أعلم بمواقع الفضل ومحالِّ التخصيص ومحالِّ الحرمان، فبحمده وحكمته أعطى، وبحمده وحكمته حرم، فمن ردّهُ المنع إلى الافتقار إليه، والتذلّل له، وتملّقِهِ؛ انقلب المنع في حقّه عطاء، ومن شغله عطاؤه، وقطَعَه عنه؛ انقلب العطاء في حقّه منعًا.

فكلّ ما شغل العبدَ عن الله فهو مشؤوم عليه، وكلّ ما ردّه إليه فهو رحمة به، والرب تعالى يريد من عبده أن يفعل، ولا يقع الفعل حتى يريد سبحانه من نفسه أن يعينه، فهو سبحانه أراد منّا الاستقامة دائمًا، واتّخاذ السبيل إليه،

---

(١) وهذه حروف شريفة من نوادر الكلم، ودررٌ نفيسة من جواهر العلم، ففيها برْدُ سكينة، ودفء طمأنينة، وطيب يقين، وسلام إيمان، رحم الله الإمام ابن القيم، وأكثر أمثاله في العالمين، فها نحن نقطف من ثمار كتبه، ونستقي من قليب علمه، ونشيمُ بارقةَ أدبه، ونَرِدُ ساحل بحره، ونستوكف قطر مُزنه، جمعنا الله جميعًا ووالدينا به في دار كرامته.

وأخبرنا أن هذا المراد لا يقع حتى يريد من نفسه إعانتنا عليها ومشيئته لنا، فهما إرادتان: إرادةٌ من عبده أن يفعل، وإرادةٌ من نفسه أن يعينه، ولا سبيل له إلى الفعل إلا بهذه الإرادة، ولا يملك منها شيئًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ [التَّكوِير: ٢٩].

فإن كان مع العبد روح أخرى(١)، نِسْبَتها إلى روحه كنسبة روحه إلى بدنه، يستدعي بها إرادةَ الله من نفسه أن يفعل به ما يكون به العبد فاعلًا، وإلا فمحلُّه غير قابل للعطاء، وليس معه إناء يوضع فيه العطاء، فمن جاء بغير إناء رجع بالحرمان، ولا يلومنّ إلا نفسه!

والمقصود؛ أن النبي ﷺ استعاذ من الهمّ والحزن، وهما قرينان، ومن العجز والكسل، وهما قرينان، فإنَّ تخلُّفَ كمالِ العبد وصلاحه عنه إمّا أن يكون لعدم قدرته عليه فهو عجز، أو يكون قادرًا عليه لكن لا يريد فهو كسل، وينشأ عن هاتين الصفتين فواتُ كلِّ خير، وحصولُ كلّ شر، ومن ذلك الشرّ تعطيله عن النفع ببدنه وهو الجبن، وعن النفع بماله وهو البخل، ثم ينشأ له بذلك غلبتان: غلبةٌ بحقّ وهي غلبة الدَّين، وغلبة بباطل وهي غلبة الرجال.

وكلّ هذه المفاسد ثمرةُ العجز والكسل، ومن هذا قوله في الحديث الصحيح للرجل الذي قضى عليه فقال: حسبي الله ونعم الوكيل، فقال: «**إن الله يلوم على العجز، ولكن عليك بالكَيْس، فإذا غلبك أمرٌ فقل: حسبي الله**

(١) أي: روح الإيمان واليقين.

ونعم الوكيل»[1]. فهذا قال حسبي الله ونعم الوكيل بعد عجزه عن الكَيْس الذي لو قام به لقُضيَ له على خصمه، فلو فعل الأسباب التي يكون بها كَيْسًا، ثم غُلب فقال: حسبي الله ونعم الوكيل؛ لكانت الكلمة قد وقعت موقعها، كما أن إبراهيم الخليل لما فعل الأسباب المأمور بها ولم يعجز بتركها، ولا بترك شيء منها، ثم غلبه عدوّه وألقوه في النار قال في تلك الحال: حسبي الله ونعم الوكيل، فوقعت الكلمة موقعها، واستقرّت في مظانّها، فأثّرت أثرها، وترتّب عليها مقتضاها.

وكذلك رسول الله ﷺ وأصحابه يوم أحد لمّا قيل لهم بعد انصرافهم من أحد: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ [آل عِمرَان : ١٧٣] فتجهّزوا وخرجوا للقاء عدوّهم وأعطوهم الكَيْس من نفوسهم، ثم قالوا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ

(١) مسند أحمد (٢٣٩٨٣) قال محققوه: إسناده ضعيف، لضعف بقية بن الوليد، وجهالة سيف، فقد تفرد بالرواية عنه خالد بن معدان، وقال النسائي: لا أعرفه، وكذا قال الذهبي في الميزان: لا يعرف، وتساهل العجلي وابن حبان فوثقاه. وأخرجه أبو داود (٣٦٢٧) وسكت عنه، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٦٢٦). وضعفه الألباني في الجامع (١٧٥٩) وصحح إسناده أحمد شاكر في عمدة التفسير (١/ ٤٤١).

وقوله: **«حسبي الله ونعم الوكيل»** أشار به إلى أن المُدّعي أخذ ماله باطلًا. ومعنى **«يلوم على العجز»** أي: لا يرضى العجز، والمراد به ضد الكَيْس، وهو التيقّظ في الأمور والاهتداء إلى التدبير، والمصلحة بالنظر إلى الأسباب، واستعمال الفكر في العاقبة، يعني كان ينبغي لك أن تتيقّظ في معاملتك، فإذا غلبك الخصم قلت: حسبي الله، وأما ذكر **«حسبي الله»** بلا تيقظ كما فعلت، فهو من الضعف فلا ينبغي، والله تعالى أعلم. وانظر: عون المعبود (١٠ / ٤٠)

وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عِمۡرَان : ١٧٣] فأثّرت الكلمة أثرها، واقتضت موجبها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴿٢﴾ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطَّلَاق : ٢-٣]. فجعل التوكّل بعد التقوى الذي هو قيام الأسباب المأمور بها، فحينئذ إن توكل على الله فهو حسبه، وكما قال في موضع آخر: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [المَائِدَة : ١١].

فالتوكل والحَسْب بدون قيام الأسباب المأمور بها عجزٌ محض، فإن كان مشوبًا بنوعٍ من التوكل فهو توكل عجز، فلا ينبغي للعبد أن يجعل توكله عجزًا، ولا يجعل عجزه توكلًا، بل يجعل توكله من جملة الأسباب المأمور بها التي لا يتم المقصود إلا بها كلها. ومن هاهنا غلط طائفتان من الناس:

إحداهما: زعمت أن التوكل وحده سبب مستقلّ كافٍ في حصول المراد، فعطّلت له الأسباب التي اقتضتها حكمة الله الموصلة إلى مسبباتها، فوقعوا في نوع تفريط وعجز بحسب ما عطّلوا من الأسباب، وضَعُفَ توكّلهم من حيث ظنّوا قوّته بانفراده عن الأسباب، فجمعوا الهمّ كلّه وصيّروه همًّا واحدًا، وهذا وإن كان فيه قوّة من هذا الوجه ففيه ضعف من جهة أخرى، فكلّما قوي جانب التوكل بإفراده أضعفه التفريط في السبب الذي هو محلّ التوكّل[1] فإنّ التوكل

(١) محلّ التوكّل، أي: الأسباب التي جعلها الله كونًا أسبابًا مُفضيةً لحصول المطلوب، أما قِبلةُ التوكّل فهو المُسبِّب سبحانه، وهو القادر على خرق العادة بإحداث أمرٍ بدون أسبابه كرامة لوليّه الذي أفرده بالتوكّل واضطرّ لدَرْكِ مطلوبه، ولم يترك السبب كسلًا، بل عجزًا عن تحصيل السبب الظاهر، أو لإقامةِ حجّة دينية أو غير ذلك. عِلمًا بأنّ التوكّل على الله وحده هو أعظم الأسباب على الحقيقة.

محلّه الأسباب، وكمالُه بالتوكل على الله فيها، وهذا كتوكّل الحرّاث الذي شقّ الأرض وألقى فيها البذر، فتوكّل على الله في زرعه وإنباته، فهذا قد أعطى التوكّل حقّه، ولم يُضعف توكله بتعطيل الأرض وتخليتها بُورًا، وكذلك توكّل المسافر في قطع المسافة مع جِدِّه في السير، وتوكّل الأكياس من النجاة من عذاب الله والفوز بثوابه مع اجتهادهم في طاعته، فهذا هو التوكل الذي يترتب عليه أثره، ويكون الله حسْب من قام به.

وأما توكل العجز والتفريط فلا يترتب عليه أثره، وليس الله حسْبَ صاحبِه، فإن الله إنما يكون حسْب المتوكِّلِ عليه إذا اتّقاه، وتقواه فعل الأسباب المأمور بها، لا إضاعتها.

والطائفة الثانية: هي التي قامت بالأسباب، ورأت ارتباط المسببات بها شرعًا وقدَرًا، وأعرضت عن جانب التوكل. وهذه الطائفة وإن نالت بما فعلته من الأسباب ما نالته؛ فليس لها قوّة أصحاب التوكل، ولا عون الله لهم وكفايته إيّاهم ودفاعه عنهم، بل هي مخذولة عاجزة بحسَب ما فاتها من التوكل.

فالقوّة كلّ القوّة في التوكل على الله، كما قال بعض السلف: «من سرّه أن يكون أقوى الناس؛ فليتوكّل على الله». فالقوّة مضمونة للمتوكل، والكفاية والحسْب والدفع عنه، وإنما ينقص عليه من ذلك بقدر ما ينقص من التقوى والتوكل، وإلا فمع تحقّقه بهما لا بدّ أن يجعل الله له مخرجًا من كلّ ما ضاق على الناس، ويكون الله حسبه وكافيه.

والمقصود؛ أن النبي ﷺ أرشد العبد إلى ما فيه غاية كماله ونيل مطلوبه، أن يحرص على ما ينفعه ويبذل فيه جهده، وحينئذ ينفعه التحسُّبُ وقول: حسبي الله ونعم الوكيل. بخلاف من عجز وفرّط حتى فاتته مصلحته، ثم قال: حسبي الله ونعم الوكيل، فإن الله يلومه، ولا يكون في هذا الحال حسْبه، فإنما هو حسب من اتقاه وتوكّل عليه»[١].

وهل ينفعُ الجيشَ الكثيفَ التفافُهُ   على غير منصورٍ وغير مُعَانِ

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تفكّرت في قول شيبان الراعي[٢] لسفيان: «يا سفيان؛ عُدَّ منع الله إياك عطاءً منه لك؛ فإنه لم يمنعك بخلًا، إنما منعك لطفًا». فرأيته كلام من قد عرف الحقائق، فإنّ الإنسان قد يريد المستحسنات الفائقات فلا يقدر، وعجزُه أصلحُ له؛ لأنه لو قدر عليهن تشتّت قلبه، إما بحفظهن، أو بالكسب عليهن، فإن قوي عشقه لهن؛ ضاع عمره، وانقلب هم الآخرة إلى الاهتمام بهن، فإن لم يردنه، فذاك الهلاك الأكبر، وإن طلبن نفقة لم يطقها؛ كان سبب ذهاب مروءته وهلاك عرضه، وإن أردن الوطء وهو عاجز؛ فربما أهلكنه أو فجَرْنَ، وإن مات معشوقُه؛ هلك هو أسفًا. فالذي يطلب الفائق يطلب سكّينًا لذبحه، وما يعلم»[٣]. وقد أحسن أبو الطيب إذ قال:

(١) زاد المعاد (٤/ ١٦٨ - ١٧٣) باختصار.

(٢) شيبان الراعي: أبو محمد، عابد مشهور، عاش في القرن الثاني الهجري، عاصر سفيان الثوري.

(٣) صيد الخاطر (١/ ٣٢٨)

ممـــا أضرّ بأهـــل العشـــقِ أنّهـــمُ ... هَـوَوا وما عرفوا الدنيا وما فطِنُوا

تفنَـى عيـونُهُمُ دمعًـا وأنفسُـهمْ ... في إثـرِ كـلِّ قبـيحٍ وجهـهُ حَسَـنُ

هذا؛ وإنّ من آداب الرضا السماحة واليسر في المال أخذًا أو خزنًا أو إعطاءً، اطمئنانًا من القلب بربه، وثقةً به، ورضًا بتدبيره، ومن بركات السماحة الدخول تحت دعوة النبي ﷺ لِمَنْ هذا وصفُه، فعن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: **«رحم الله رجلًا سمحًا إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى»**[(1)].

وإن من أسباب البركة في الرزق عدم التدقيق في النفقة والصرف وحساب الصدقة اتكالًا على الله وحسن ظن به ـ مالم تكن ريبة ـ وهذا إنما يكون لمن عظُم توكّله على الله تعالى، أما من كان دون ذلك فلا بأس من مراعاة ريع تجارته أو راتبه وتقسيمه مقدَّمًا بحسب حاجاته ونفقاته وصدقاته، فتدبير المعيشة أمر مهم، حتى لا يقع في خلل من جهة قوت عياله ونحو ذلك، فلا حرج في التدبير والتنظيم لماله، وقد قالوا: «الكَمَالُ فِي ثَلَاثَةٍ: العِفَّةُ في الدِّينِ، والصَّبرُ على النَّوائِبِ، وحُسْنُ التَّدبيرِ في المَعِيشَة». وقِيل لحكيم: فُلَانٌ غَنِيٌّ. فقَال: «لا أَعرِفُ ذَلِكَ ما لم أعرف تَدبِيرَهُ في مالِه»[(2)].

إنما المقصود ترك زيادة الحرص، وتخفيف شدة التدقيق في النفقات، فالعبد يأخذ بالأسباب بدون تشدّدٍ فيها وتعلّقٍ بها، مع الاتّكال على مسبب

---

(١) البخاري ٣/٧٥ (٢٠٧٦)

(٢) أدب الدنيا والدين، للماوردي (٣٢٩)

الأسباب سبحانه، وقد روى البخاري ومسلم[(١)] عن عائشة رضي الله عنها قالت: «تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَا فِي بَيْتِي مِنْ شَيْءٍ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَطْرُ شَعِيرٍ فِي رَفٍّ لِي، فَأَكَلْتُ مِنْهُ حَتَّى طَالَ عَلَيَّ، فَكِلْتُهُ فَفَنِيَ». قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كالَت عائشة الطعام ناظرةً إلى مقتضى العادة، غير متلمّحة في تلك الحالة منحة البركة، فرُدّت إلى مقتضى العادة، كما رُدّت زمزم إلى عادة البئار حين جمعت هاجر ماءها»[(٢)].

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الفتح[(٣)]: «وحديث عائشة محمول على أنها كالَته للاختبار، فلذلك دخله النقص، وهو شبيه بقول أبي رافع لما قال له النبي ﷺ في الثالثة: **«ناوِلني الذراع»**، قال: وهل للشاة إلا ذراعان؟ فقال: **«لو لم تقل هذا؛ لناولْتني ما دمتُ أطلبُ منك»**. فخرج من شؤم المعارضة انتزاع البركة.. ولا تُنزع البركة من المكيل بمجرد الكيل ما لم ينضم إليه أمر آخر كالمعارضة والاختبار، والله أعلم». وقال أيضًا: «والذي يظهر أنه كان من الخصوصية لعائشة ببركة النبي ﷺ، وقد وقع مثل ذلك في حديث جابر، ووقع مثل ذلك في مزود أبي هريرة قال: أتيتُ رسول الله ﷺ بتمرات فقلت: ادع لي فيهن بالبركة، قال: **«فقبض، ثم دعا، ثم قال: خذهنّ، فاجعلهنّ في مِزْوَدٍ، فإذا أردت أن تأخذ منهن فأدخل يدك فخذ، ولا تنثر بهن نثرًا»**،

(١) البخاري (٣٠٩٧) ومسلم (٢٩٧٣)
(٢) كشف المشكل (١٢١٠)
(٣) فتح الباري (٤ / ٣٤٦)

فحملت من ذلك كذا وكذا وسْقًا[١] في سبيل الله، وكنا نأكل ونُطعِم، وكان المزود معلّقًا بحقوي لا يفارقه، فلما قتل عثمان انقطع. وفي رواية: **«فأدخل يدك فخذ ولا تكفئ فيكفأ عليك»**، ونحوه ما وقع في عُكَّةِ المرأة وهو ما أخرجه مسلم[٢] أنّ أم مالك كانت تُهدي للنبي ﷺ في عكّة لها سمنًا، فيأتيها بنوها فيسألون الأدم[٣]، فتعمد إلى العكّة فتجد فيها سمنًا، فما زال يقيم لها أدم بيتها حتى عصرته. فأتت النبي ﷺ فقال: **«لو تركتِها ما زال قائمًا»**.

وقد استشكل هذا النهي مع الأمر بكيل الطعام وترتيب البركة على ذلك كما تقدم في البيوع بلفظ: **«كيلوا طعامَكم يبارَك لكم فيه»**[٤]، وأجيب: بأن الكيل عند المبايعة مطلوب من أجل تعلّق حقّ المتبايعين، فلهذا القصد يُندب، وأما الكيل عند الإنفاق فقد يبعث عليه الشحُّ، فلذلك كره. ويؤيده ما أخرجه

---

(١) الوَسْق: بفتح الواو وكسرها، والفتح أشهر. وهو مكيلة معلومة، وقيل: هو حمل بعير، وجمعه أوساق.
قال ابن منظور رَحِمَهُ ٱللَّهُ في لسان العرب (١٠/ ٣٧٨): «الوسق ستون صاعًا بصاع النبي ﷺ، وهو - أي الصاع - خمسة أرطال وثلث». ومقدار الوسق ١٣٠ كيلو ونصف.
توضيح ذلك: الصاع = ٢١٧٥ جرامًا، والوسق = ٦٠ صاعًا. وعليه فالعملية كالتالي:
٢١٧٥ ×٦٠=١٣٠٥٠٠ جرامًا ÷ ١٠٠٠(لأن الكيلو = ١٠٠٠ جرام). والنتيجة:
١٣٠ كيلو جرام و٥٠٠ جرامًا.
فانظر لبركة دعوة النبي ﷺ لتمر أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) مسلم (٢٢٨٠)

(٣) وهي جمع إدام.

(٤) البخاري (٣/٨٨)

مسلم[١] عن جابر أن رجلًا أتى النبي ﷺ يستطعمه، فأطعمه شطر وَسْقِ شعير، فما زال الرجل يأكل منه وامرأته وضيفهما حتى كاله. فأتى النبي ﷺ فقال: **«لو لم تَكِلْهُ لأكلتم منه، ولَقَامَ لكُم»**[٢].

قال القرطبي: سبب رفع النماء من ذلك عند العصر والكيل ـ والله أعلم ـ الالتفات بعين الحرص مع معاينة إدرار نعم الله ومواهب كراماته وكثرة بركاته، والغفلة عن الشكر عليها والثقة بالذي وهبها، والميل إلى الأسباب المعتادة عند مشاهدة خرق العادة. ويستفاد منه أن من رُزق شيئًا أو أُكرم بكرامة أو لُطِف به في أمر ما؛ فالمتعيّن عليه موالاة الشكر ورؤية المنّة لله تعالى، ولا يحدث في تلك الحالة تغييرًا، والله أعلم». أهـ.[٣]

قلت: ومن ذلك أنّ من فتح الله تعالى له بركةً في رزقٍ مباحٍ من باب خفيّ على غير العادة؛ كزيادةٍ في تجارته، أو بركة زائدة في محصول زرعه، أو ترقٍّ في وظيفته، أو قوة على غير العادة في نشاطه وبدنه، أو تسهيلًا له في معاشه بطرقٍ لا يُبصرها ولا يعيها ونحو ذلك؛ فليقنع به، وليشكر الله عليه، ولا يُدقق في حسابه، ولا يتعلق بتفتيش طريقة وصوله له، اكتفاء ببركة الله تعالى، ورزقه، وكفايته، وحسن ظنه به، ولعل هذا من معاني الإجمال في الطلب المُوصَى به في الحديث الشريف.

---

(١) مسلم (٢٢٨١)

(٢) أي: لكفاكم.

(٣) الفتح (١١ / ٢٨٠)

وبالجملة؛ فالتدبير والاقتصاد حسن، من غير زيادة تنطّع أو تشدّد أو تعلّقٍ زائد للقلب بالأسباب، بل عليه أن يجعل مدار الأمر على فضل الله وبركته التي قد تخالف حساباته وتوقعاته، وعليه أن يعلّق قلبه بربه فهو رازقه ووليّه، وأن يكون بما عند الله أوثق ممّا في يده. فينبغي ألّا يشتدّ حرص المرء على التدقيق فيما أعده للنفقة والصدقة ونحو ذلك، ولا يمنع ما أحبّ الله إنفاقه، فعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: قال لي النبي ﷺ: **«لا تُوكي فيُوكي عليك»**، رواه البخاري[1]، وفي رواية له: **«لا تُحصي فيحصي الله عليك»**، وفي رواية له أيضًا: **«لا توعي فيُوعي الله عليك، ارضَخِي ما استطعتِ»**، وفي رواية أخرى في البخاري[2] أنها قالت: يا رسول الله، ما لي مالٌ إلا ما أدخل عليَّ الزبير فأتصدَّق؟ قال: **«تصدقي، ولا توعي فيوعي الله عليك»**، وفي رواية: **«أنفقي، ولا تحصي فيحصي الله عليك، ولا توعي فيوعي الله عليك»**، وفي رواية لمسلم[3]: **«انفحي»**، أو **«انضحي»**، أو **«أنفقي، ولا تحصي فيُحصي الله عليك، ولا توعي فيوعي الله عليك»**.

ويقال: أوعيت المتاع في الوعاء، إذا جعلته فيه، ووعيت الشيء إذا حفظته. ومعناه أن الله يجازي العامل بمثل عمله، وفيه فضل النفقة بلا حساب، قال سبحانه: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [النَّحل: ٩٦]. ومعنى **«تُوعِي»**:

---

(١) البخاري (١٤٣٣)

(٢) البخاري (٢٥٩٠)

(٣) مسلم (١٠٢٩)

تُمْسكي، والوعاء: الظَّرْفُ يُخبّأ فيه، يقال منه: أوعيت المتاع في الوعاء أوعيه، قالَ:

والشرُّ أخبثُ ما أوعيتَ في زادٍ

وقوله: «**ارْضخِي**»: الرضخ هو العطاء اليسير، أي بحسب قدرتك وبحسب ما آتاك الله، كما قال تبارك وتعالى: ﴿يُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ٧﴾ [الطَّلَاق: ٧].

قال الحافظ في الفتح: «والمعنى: لا تجمعي في الوعاء وتبخلي بالنفقة فتجازي بمثل ذلك. وفيه: الحث على النفقة في العطاء، والنهي عن الإمساك والبخل، وعن ادخار المال في الوعاء، وعن الإحصاء لمقدار الصدقة وعدِّها».

وقال أيضًا: «الإيكاء: شدّ رأس الوعاء بالوكاء، وهو الرباط الذي يربط به.

والإحصاء: معرفة قدر الشيء وزنًا، أو عدًّا، وهو من باب المقابلة، والمعنى النهي عن منع الصدقة خشية النفاد؛ فإن ذلك أعظم لأسباب قطع مادة البركة؛ لأن الله يثيب على العطاء بغير حساب، ومن لا يحسب عند الجزاء لا يحسب عليه عند العطاء، ومن علم أن الله يرزقه من حيث لا يحتسب فحقّه أن يُعطي ولا يحسب، وقيل: المراد بالإحصاء عدّ الشيء؛ لأنه يدخر ولا ينفق منه، وأحصاه الله: قطع البركة عنه، أو حبس مادة الرزق أو المحاسبة عليه في الآخرة»[(١)].

---

(١) الفتح (٣/ ٣٠٠)

وقال الشيخ سعيد بن وهف القحطاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سمعت شيخنا ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «الإحصاء هو عدّ ما أظهره من الصدقة»(١).

وَمَنْ يَأْمَنِ الدُّنْيا يكُنْ مثل قَابِضٍ ... علَى الماءِ خَانَتْهُ فُرُوجُ الأَصَابِعِ

ومن جميل ما أنشده أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهي القصيدة الموسومة بالمُنْفَرِجَة وهي من بحر المتدارك، وقد أُلصقتْ بها بعض الأبيات ذات التوسلات البدعية، والإشارت الباطنية، التي لا أظن أن نسبتها تصح عن الإمام الغزالي، وقد ضربتُ عنها صفحًا:

الشدَّةُ أودت بالمُهَجَ ... يا رب فعجّلْ بالفرَجِ

والأنفسُ أمستْ في حَرَجِ ... وبإذنِكَ تفريجُ الحَرَجِ

هاجتْ لُدُعَاكَ خواطِرُنا ... والويلُ لها إن لم تهِجِ

يا من عوّدتَّ اللطفَ أعِدْ ... عاداتِكَ باللطفِ البَهِجِ

أغلق ذا الضيق وشدَّته ... وافتح ما سُدَّ من الفرجِ

عُجْنَا لجنابك نقصده ... والأنفسُ في أوجِ اللهجِ

وإلى أفضالك يا أملي ... يا ضيعَتَنا أن لم نَعِجِ

من للملهوف سواك يُغِثْ ... أو للمضطرِّ سواك نَجِي

(١) الزكاة في الإسلام (١/ ٣٣٥)

وإســــاءَتنا أن تقطعنـــــا عــن بابــك حتــى لم نَلِــجِ
يـــا ســـيّدَنا يـــا خالقنـــا قــد ضـاق الحبـل عـلى الـودجِ
وعبـــــادك أضـــــحوا في ألمِ مـــا بــين مُكيريــبٍ وشَــجِي
والأعــينُ صـــارتْ في لُجَـــجِ غاصـتْ في المـوجِ مـع المُهَـجِ
والأزْمَـــــةُ زادت شـــــدّتها يـــا أزمـــةُ عَلّــك تنفرجــي
جـــئناكَ بقـــلبٍ منكـــسرٍ ولســـانٍ بالشـــكوى لَهِـــجِ
وبخـــوفِ الزَّلـــةِ في وَجَـــلٍ لكـــن برجائـــكَ مُمْتَـــزِجِ
فكـم استشـفى مزكـومُ الـذنب بنشـــرِ الرحمـــــةِ والأَرَجِ
وبعينِـــكَ مـــا نلقـــاهُ ومـــا فيــه الأحــوالُ مــن المَــرَجِ
والفضـــلُ أعــمُّ ولكــنْ قــدْ قلـــتَ ادعـــوني فلْنبـــتهِجِ
يـــا ربّ ظلمنـــا أنفسَـــنا ومُصــيبتنا مـــا حيــث نجــى
يـــا ربّ خُلِقنـــا مِـــنْ عَجَـــلٍ فلـــذلكَ نـــدعو بـــاللَّجَجِ
يـــا ربّ ولـــيسَ لنـــا جَلَـــدٌ أنّـــى والقلـــبُ عـــلى وهَـــجِ
يـــا ربّ عَبيـــدُك قـــد وفـــدوا يـــدعون بقلـــبٍ منـــزعجِ
يـــا ربّ ضِـــعافٌ لـــيس لهـــم أحـــدٌ يرجـــون لـــدى الهـــرجِ

يـا ربّ فِصَـاحُ الألسـن قـد أضــحوا في الشـدة كـاالهمجِ
السـابقُ مِنَّـا صـارَ إذا يعــدو يسـبقه ذو العَـرَجِ
وحكمــةُ ربي بالغــةٌ جَلّـتْ عـن حَيْـفٍ أو عـوَجِ
والأمـرُ إليـكَ تـدبّره فأغثنـا بـاللطف الـبَهِجِ
أدرِجْ في العفـو أسـاءَتنا والخيبــة إن لم تنــدرجِ
يـا نفـسُ ومـا لَـكِ مـن أحـدٍ إلّا مـولاكِ لـه فَعِجِـي
وبـه عُـوذي وبـه فَلُـذِي ولِبَـابِ مكارمـه فَلِجِـي
كي تنصـلحي كي تنشرحي كـي تنبسـطي كـي تبتهجـي
ويطيـب مقامُـك مـن نَفَـرٍ أضحـوا في الجِنْدِس كالسُّرُجِ
وَفَّـوا لله بـما عَهَـدُوا مـن بيـعِ الأنفـسِ والمهـجِ
فهـم الهـادي وصـحابته ذو الرتبـة والعطـرِ الأَرِجِ
جـاءوا للكـون وظلمتـه عمّـتْ وظـلامُ الشـرك دَجِـي
ما زال النصـرُ يحـفُّهُمُ والظلمـةُ تُمحـي بـالبَلَجِ
حتى نَصَرُوا الإسلامَ فعادَ الـدينُ عزيـزًا في بهَـجِ
فَعَلَـيهم صـلى الـربُّ عـلى مـرّ الأيـام مـعَ الحِجَـجِ

الشـــــدّةُ أودتْ بـــــالمُهَجِ يـــا ربِّ فعجّـــلْ بـــالفرجِ

إيثارُ رضا الله تعالى على رضا غيره

إيثار مرضاة الله تعالى على غيره في باب الرضا له جهتان، فمن جهةِ دافعِه فهو تابع للإرادة والمجاهدة، ومن جهة سكينةِ صاحبِه على الأمر المرضيّ لله فهو عينُ الرضا. ومرتبةُ الرضا هنا لديه تكون بقدر سكينة قلبه عليها، ولعلّ أكثر العُبّاد يتردّدون بين الدرجات الدنيا والمتوسطة من الرضا، أما الخُلّص فلهم التّامّ الخالص، نسأل الله تعالى من فضله وكرمه، ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ۝٦٠﴾ [الرَّحۡمَٰن: ٦٠].

وعليه؛ فإيثار مرضاة الله تعالى أعمّ من مجرّد الرضا لاشتماله على الإرادة والمجاهدة، فالرضا سكون، وطمأنينة، وراحة، وأُنس بالله وبتدبيره تبارك وتعالى، أما إيثار مرضاته وخاصة عند غلبة الهوى، ونزاع النفس الشديد، وجهاد وسواس الشيطان، واقتلاع العادة المستحكمة، فالسكون بعد ذلك عند اختيار الجانب الصعب الشديد فإنّه نوع خاص جميل من الرضا.

ومن الناس من يطوي مراحله سريعًا، ومنهم من يحتاج لزمان طويل، ومنهم بين ذينك، ومنهم السابق الفاذّ وهو الذي لا تنازعه نفسه أصلًا لطمأنينتها لأمر ربها، والتذاذها ابتداءًا ورضاها التام بأمره الشرعي يحصل بالائتمار بأمره، أما القدري فبالسكون والطمأنينة، فهي مُؤْثِرَةٌ في ثوبِ راضيةٍ.

وهذا في الحقيقة راجع لجوهر الرضا ولُبابه، لأنّ معدن الرضا هو الدوران مع أمر الله تعالى، فلله تعالى أمران: قدريّ، وشرعيّ، فالائتمار الشرعيّ هنا هو الإيثار، وهو أشقُّها وأفضلُها، لأنّ القدري نافذٌ لا محالة، وهو غالبًا رضًا بما

مضى وقُدّر، فهو يرضى اضطرارًا ولو في ثاني وثالث الحال، وإنما يتفاوت الراضون هنا بحسَب سرعةِ الرضا عند نزول مُرِّ القضاء، أما الشرعي فهو غالبًا لما يُستقبل من الأمور، فهو يرضى اختيارًا، لهذا فهو أثقل على النفس؛ لأن الأمر بالنسبة لها لم يُفرغ منه من جهتها ـ لا من جهة الله تعالى ـ.

ولا تخلو حركة ولا سكونٌ في هذا العالم إلا ولله تعالى فيهما حُكْمٌ وحِكمَةٌ، والمُوفّق من عباد الله هو من دار مع أحكام شريعة ربنا حيث دارت، وتبعها حيثما ذهبت، ويمّم وجهتا حيثما استقلّت، ولزمها أينما حلّت، وهو موعودٌ من لدن ربه بالكرامة، ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ [الفجر: ٢٧ - ٢٨].

والناس في تحقيق الرضا، والامتلاء به، وتقديمه، على درجات متفاوتة كثيرة. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال صاحب المنازل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الإيثار: تخصيص واختيار، والأَثَرَة: تحسُنُ طوعًا وتصحُّ كرهًا» فرّقَ الشيخ بين الإيثار والأثرة، وجعل الإيثار اختيارًا، والأثرة منقسمة إلى اختيارية واضطرارية، وبالفرق بينهما يُعلم معنى كلامه.

فإن الإيثار هو البذل وتخصيصك لمن تُؤثِرُه على نفسك، وهذا لا يكون إلا اختيارًا، وأما الأثرة فهي استئثار صاحب الشيء به عليك وحوزه لنفسه دونك، فهذه لا يُحمد عليها المستأثَرُ عليه إلا إذا كانت طوعًا، مثل أن يَقْدِرَ على منازعته ومجاذبته فلا يفعل، ويدعه وأثرته طوعًا فهذا حسن، وإن لم يقدر على ذلك كانت أثرة كُرْهٍ.

ويعني بالصحة: الوجود، أي توجد كُرْهًا، ولكن إنما تحسُنُ إذا كانت طوعًا من المستأثِرِ عليه. فحقيقة الإيثار: بذل صاحبه وإعطاؤه، والأَثَرَةُ: استبداله هو بالمُؤْثَرِ به، فيتركه وما استبدل به إما طوعًا وإما كرهًا، فكأنك آثرته باستئثاره حيث خلّيت بينه وبينه ولم تنازعه. قال عبادة بن الصامت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «بايعْنا رسولَ الله ﷺ على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا، ومنشطنا ومكرهنا، وأَثَرَةٍ علينا، وألا نُنازع الأمر أهلَه»[(١)].

قال الهروي: «وهو على ثلاث درجات؛ الدرجة الأولى: أن تؤثر الخلق على نفسك فيما لا يحرم عليك دينًا، ولا يقطع عليك طريقًا، ولا يفسد عليك وقتًا». يعني: أن تقدّمهم على نفسك في مصالحهم؛ مثل أن تطعمهم وتجوع، وتكسوهم وتعرى، وتسقيهم وتظمأ، بحيث لا يؤدّي ذلك إلى ارتكاب إتلافٍ

---

(١) أحمد (٢٢٧٠٠) قال محققوه: «حديث صحيح، وهذا إسناد حسن من أجل محمد بن إسحاق، وقد توبع». قال السندي: قوله: «على السمع والطاعة» صلة بايعنا، بتضمين معنى العهد، أي: على أن نسمع كلامك ونطيعك في مرامك، وكذا من يقوم مقامك من الخلفاء من بعدك. «ومنشطنا ومكرهنا» مفعل، بفتح ميم وعين، من النشاط والكراهة، وهما مصدران، أي: في حالة النشاط والكراهة، أي: حالة انشراح صدورنا وطيب قلوبنا وما يضاد ذلك، أو اسما زمان، والمعنى واضح، أو اسما مكان، أي: فيما فيه نشاطهم وكراهتهم، كذا قيل، ولا يخفى أن ما ذكره من المعنى على تقدير كونهما اسمي مكان بعيد. «وأثرةٍ علينا» أي: على تفضيل غيرنا علينا، والمراد: أي على الصبر إن فضّل أحد علينا، فالمطلوب الصبر عند الأثرة، لا نفس الأثرة. و«الأمر»، أي: أمر الإمارة، أو كل أمر. و«أهله» الضمير للأمر، أي: إذا وكل الأمر إلى من هو أهله، فليس لنا أن نجرّه إلى غيره، سواء أكان أهلا أم لا. عن تحقيق مسند أحمد، طبعة الرسالة (٢٤ / ٤١٤)

لا يجوز في الدين، ومثل أن تؤثرهم بمالك، وتقعد كَلًّا مُضطرًّا مستشرفًا للناس أو سائلًا، وكذلك إيثارهم بكل ما يُحرِّمُه على المؤثِرِ دينُه؛ فإنّه سَفَهٌ وعجز يُذمُّ المُؤثِر به عند الله وعند الناس.

وأما قوله: «ولا يقطع عليك طريقًا» أي لا يقطع عليك طريق الطلب والمسير إلى الله تعالى؛ مثل أن تؤثر جليسك على ذكرِك وتوجُّهِكَ وجمعيّتك على الله، فتكون قد آثرتَه على الله، وآثرتَ بنصيبك من الله ما لا يستحقّ الإيثار، فيكون مثلك كمثل مسافر سائر على الطريق لقيه رجل فاستوقفه وأخذ يحدّثه ويلهيه حتى فاته الرّفاق، وهذا حال أكثر الخلق مع الصادق السائر إلى الله تعالى، فإيثارهم عليه عينُ الغبن، وما أكثر المُؤثِرين على الله تعالى غيره، وما أقلّ المُؤثِرين الله على غيره!

وكذلك الإيثار بما يفسد على المؤثر وقته قبيحٌ أيضًا، مثل أن يؤثر بوقته ويفرّق قلبه، أو يؤثر بأمر قد جمع قلبه وهمّه على الله، فيفرّق قلبه عليه بعد جمعيّته ويشتّت خاطره، فهذا أيضًا إيثار غير محمود.

وكذلك الإيثار باشتغال القلب والفكر في مهمّاتهم ومصالحهم التي لا تتعيّن عليك على الفكر النافع واشتغال القلب بالله، ونظائر ذلك لا تخفى، بل ذلك حال الخلق والغالب عليهم، وكلّ سبب يعود عليك بصلاح قلبك ووقتك وحالك مع الله؛ فلا تؤثر به أحدًا، فإن آثرت به فإنّما تُؤثر الشيطان على الله وأنت لا تعلم! وتأمّل أحوال أكثر الخلق في إيثارهم على الله مَن يضرُّهم إيثارهم له ولا ينفعهم، وأيّ جهالة وسفه فوق هذا؟!

ومن هذا تكلّم الفقهاء في الإيثار بالقُرَبِ وقالوا: إنه مكروه أو حرام، كمن يُؤثر بالصفّ الأول غيرَه ويتأخّر هو، أو يؤثره بقربه من الإمام يوم الجمعة، أو يؤثر غيره بالأذان والإقامة، أو يؤثره بعلمٍ يحرمه نفسه ويرفعه عليه فيفوز به دونه.

وتكلّموا في إيثار عائشة رضي الله عنها لعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بدفنه عند رسول الله ﷺ في حجرتها، وأجابوا عنه: بأنّ الميت ينقطع عمله بموته، فلا يُتصوّر في حقّه الإيثار بالقرب بعد الموت، إذ لا تَقَرُّبَ في حقّ الميّت، وإنما هذا إيثار بمسكن شريف فاضل لمن هو أولى به منها، فالإيثار به قربةٌ إلى الله عز وجلّ للمؤثِرِ، والله أعلم.

قال الهروي: «ولا يستطاع إلا بثلاثة أشياء: بتعظيم الحقوق، ومقْتِ الشُّحِّ، والرغبة في مكارم الأخلاق». ذكرَ ما يعين على الإيثار فيبعث عليه، وهو ثلاثة أشياء:

الأول: تعظيم الحقوق، فإنّ مَن عظمت الحقوق عنده قام بواجبها، ورعاها حقّ رعايتها، واستعظم إضاعتها، وعلم أنّه إن لم يبلغ درجة الإيثار لم يؤدّها كما ينبغي، فيجعل إيثاره احتياطًا لأدائها.

الثاني: مقتُ الشّحّ، فإنّه إذا مقته وأبغضه التزم الإيثار، فإنّه يرى أنه لا خلاص له من هذا المقت البغيض إلا بالإيثار.

الثالث: الرغبة في مكارم الأخلاق، وبحسب رغبته فيها يكون إيثاره، لأنّ الإيثار أفضلُ درجات مكارم الأخلاق.

قال: «الدرجة الثانية: إيثارُ رضا الله على رضا غيره، وإن عظمت فيه المحن، وثقلت فيه المؤن، وضعف عنه الطَّوْلُ والبدن». إيثار رضا الله عز وجل على غيره: هو أن يريد ويفعل ما فيه مرضاته ولو أغضب الخلق، وهي درجة الأنبياء، وأعلاها للرسل عليهم صلوات الله وسلامه، وأعلاها لأولي العزم منهم، وأعلاها لنبيّنا ﷺ. فإنّه قاوم العالم كلّه، وتجرّد للدعوة إلى الله، واحتمل عداوة البعيد والقريب في الله تعالى، وآثر رضا الله على رضا الخلق من كلّ وجه، ولم يأخذه في إيثار رضاه لومة لائم، بل كان همّه وعزمه وسعيه كلّه مقصورًا على إيثار مرضاة الله وتبليغ رسالاته وإعلاء كلماته وجهاد أعدائه، حتى ظهر دين الله على كل دين، وقامت حجته على العالمين، وتمّت نعمته على المؤمنين، فبلّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وعبد الله حتى أتاه اليقين من ربه، فلم ينل أحدٌ من درجة هذا الإيثار ما نال صلوات الله وسلامه عليه.

وأما قوله: «وإن عظمت فيه المحن، وثقلت فيه المؤن». فإن المحنة تعظم فيه أوّلًا ليتأخّر مَنْ ليس من أهله، فإذا احتملها وتقدّم انقلبت تلك المحن منحًا، وصارت تلك المؤن عونًا، وهذا معروف بالتجربة الخاصة والعامة، فإنّه ما آثر عبدٌ مرضاة الله عز وجل على مرضاة الخلق، وتَحَمَّلَ ثقل ذلك ومؤنته، وصبر على محنته؛ إلا أنشأ الله من تلك المحنة والمؤنة نعمةً ومسرّة ومعونة بقدر ما تحمّل من مرضاته، فانقلبت مخاوفه أمانًا، ومظانُّ عَطَبِهِ نجاة، وتعبُه راحةً، ومؤنته معونة، وبليّته نعمة، ومحنته منحة، وسخطه رضًا، فيا خيبة المتخلّفين، ويا ذلّة المُتهيّبين!

هذا وقد جرت سنّة الله التي لا تبديل لها[1] أنّ من آثر مرضاة الخلق على مرضاته أن يُسخط عليه من آثر رضاه، ويخذله من جهته، ويجعل محنتَه على يديه، فيعود حامدُه ذامًّا، ومن آثر مرضاته ساخطًا؛ فلا على مقصوده منهم حصل، ولا إلى ثواب مرضاة ربه وصل، وهذا أعجز الخلق وأحمقهم.

هذا مع أنّ رضا الخلق لا مقدور ولا مأمور ولا مأثور، فهو مستحيل، بل لا بد من سخطهم عليك، فلأَنْ يسخطوا عليك وتفوز برضا الله عنك أحبّ إليك وأنفع لك من أن يسخطوا عليك واللهُ عنك غير راض، فإذا كان سخطهم لا بد منه على التقديرين فآثِرْ سخطهم الذي يُنال به رضا الله، فإن هم رضوا عنك بعد هذا؛ وإلّا فأهونُ شيء رضا من لا ينفعك رضاه ولا

---

(١) فقه السنن فقه شريف، يحوزه بإذن الله من وفقه الله تعالى ببسط علمه وتجربته وفِكره، فالله قد خلق الكون وفق نواميس أقامها له، وجعلها قوانين يمشي عليها، وأسبابًا تُفضي لمُسبَّباتها، فيتفرّسُ المؤمنُ الموفّق للبدايات وهو يرى النهايات إجمالًا قياسًا على مشابهاتها لاتحاد العلل، واستشرافًا لعواقبها علمًا بالسُنن، لظهور الأسباب لديه وارتباطها بالعواقب لديها، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥﴾ [الحِجر: ٧٥]، ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ﴾ [فَاطِر: ٤٣].
ولا يكسر سبحانه هذه النواميس والسنن إلا لحكمة ربّانية، وهذا الكسر يكون وفق سُننٍ ونواميس أخرى جعلها الله كذلك، كنصرٍ عاجلٍ لدينه، وانتصارٍ لمظلوم في حالٍ يقتضيه، وإغاثةٍ لمضطرٍّ مُلِحّ بالدعاء، وغير ذلك، ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأَنْعَام: ٣٨].

يضرك سخطه في دينك ولا في إيمانك ولا في آخرتك، فإنْ ضرّك في أمر يسير في الدنيا فمضرّة سخط الله أعظم وأعظم.

وخاصّةُ العقل احتمالُ أدنى المفسدتين لدفع أعلاهما، وتفويت أدنى المصلحتين لتحصيل أعلاهما، فوازن بعقلك، ثم انظر أيّ الأمرين وأيّهما خير فآثرْه، وأيّهما شرّ فابعد عنه، فهذا برهان قطعيّ ضروريّ في إيثار رضا الله على رضا الخلق.

هذا مع أنه إذا آثر رضا الله كفاه الله مؤنة غضب الخلق، وإذا آثر رضاهم لم يكفوه مؤنة غضب الله عليه. قال بعض السلف: «لَمُصانعةُ وجهٍ واحد أيسر عليك من مصانعة وجوه كثيرة، إنك إذا صانعت ذلك الوجه الواحد كفاك الوجوه كلها».

وقال الشافعي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «رضا الناس غاية لا تدرك، فعليك بما فيه صلاح نفسك فالزمه». ومعلومٌ أنه لا صلاح للنفس إلا بإيثار رضا ربها ومولاها على غيره، ولقد أحسن أبو فراس[1] في هذا المعنى إلا أنه أساء كل الإساءة في قوله إذ يقوله لمخلوق لا يملك له ولا لنفسه نفعًا ولا ضرًّا:

---

(١) أبو فراس الحمداني (٣٢٠ - ٣٥٧) الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي الربعي، أبو فراس. شاعر أمير، فارس، ابن عم سيف الدولة. له وقائع كثيرة، قاتل بها بين يدي سيف الدولة، وكان سيف الدولة يحبه ويجلّه، ويستصحبه في غزواته، ويقدمه على سائر قومه، وقلّده منبج وحران وأعمالها، فكان يسكن بمنبج ويتنقل في بلاد الشام.
جرح في معركة مع الروم، فأسروه وبقي في القسطنطينية أعوامًا، ثم فداه سيف الدولة بأموال عظيمة. قال الذهبي: كانت له منبج، وتملّك حمص وسار ليتملك حلب فقتل في
=

فليتـك تحلـو والحيـاةُ مريـرةٌ ... وليتك تـرضى والأنـامُ غضابُ

وليت الـذي بيني وبينك عـامرٌ ... وبيني وبـين العـالمين خـرابُ

إذا صـحَّ منك الـودّ فالكـلّ هـيّنٌ ... وكلّ الـذي فـوق الـتراب تـرابُ

ثم ذكر الشيخ(١) رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما يُستطاع به هذا الإيثار العظيم الشأن فقال: «ويستطاع هذا بثلاثة أشياء: بطيب العود، وحسن الإسلام، وقوّة الصبر».

من المعلوم أنّ المؤثر لرضا الله متصدٍّ لمعاداة الخلق وأذاهم وسعيهم في إتلافه ولا بدّ، هذه سنّة الله في خلقه وإلا فما ذنب الأنبياء والرسل والذين يأمرون بالقسط من الناس، والقائمين بدين الله الذابّين عن كتابه وسنة رسوله عندهم؟!

فمن آثر رضا الله فلا بد أن يعاديه رذالةُ العالَمِ وسَقَطُهُم وغَرْثَاهم(٢) وجُهّالهم، وأهلُ البدع والفجور منهم، وأهلُ الرياسات الباطلة، وكلّ من يخالف هديُه هديَه، فما يُقدم على معاداة هؤلاء إلا طالبُ الرجوع إلى الله،

=

تدمر، وقال ابن خلّكان: مات قتيلًا في صدد (على مقربة من حمص)، قتله رجال خاله سعد الدولة. دواوين الشعر العربي على مر العصور (١ / ٥٠)

(١) أي: أبو إسماعيل عبد الله الهروي الحنبلي، صاحب منازل السائرين، وذمّ الكلام وأهله.

(٢) من الغَرْث: وهو الجوع. ومنه قول حسان في لاميّته في مدح الصدّيقة رضوان الله عليها: «وتصبحُ غَرْثَى من لحومِ الغَوَافِلِ». وقصد ابن القيم بالغَرْث هنا: جوعها عن البهتان، أي: سلامتها من أكل لحوم الغافلات المؤمنات.

عاملٌ على سماع خطاب: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ [الفَجر: ٢٧ - ٢٨] ومَن إسلامه صلب كامل لا تزعزعه الرجال ولا تقلقله الجبال، ومَنْ عَقْدُ عزيمةِ صبره مُحكمٌ لا تُحِلُّهُ المحنُ والشدائد والمخاوف.

قلت: وملاك ذلك أمران: الزهد في الحياة والثناء، فما ضَعُفَ من ضعف وتأخّر من تأخر إلا بحبّه للحياة والبقاء وثناء الناس عليه ونفرته من ذمّهم له، فإذا زهد في هذين الشيئين تأخّرت عنه العوارض كلّها، وانغمس حينئذ في العساكر(١).

وملاك هذين الشيئين بشيئين: صحّة اليقين وقوّة المحبة، وملاك هذين بشيئين أيضًا: بصدق اللجإ والطلب، والتصدّي للأسباب الموصلة إليهما، فإلى هٰهنا تنتهي معرفة الخلق وقدرتهم. والتوفيق بعدُ بيدِ مَن أَزِمَّةُ الأمور كلها بيده، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّـٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [الإنسان: ٣٠ - ٣١].

قال(٢): «الدرجة الثالثة: إيثارُ إيثارِ الله، فإنّ الخوض في الإيثار دعوى في الملك، ثم ترك شهود رؤيتك إيثار الله، ثم غَيْبَتك عن التَّرك». يعني بإيثار إيثار الله: أن تنسب إيثارك إلى الله دون نفسك، وأنه هو الذي تفرّد بالإيثار لا أنت،

---

(١) أي: مددُ الله له ونصرته.

(٢) يعني الشيخ أبا إسماعيل الهروي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فكأنّك سلّمت الإيثار إليه، فإذا آثرت غيرك بشيء فإن الذي آثره هو الحق لا أنت، فهو المُؤثِرُ حقيقة، إذ هو المعطي حقيقة.

ثم بيّن الشيخ السبب الذي يصحّ به نسبة الإيثار إلى الله وترك نسبته إلى نفسك فقال: «فإن الخوض في الإيثار دعوىً في الملك» فإذا ادّعى العبد: أنه مُؤثِر فقد ادّعى ملك ما آثر به غيره، والمُلك في الحقيقة إنما هو لله الذي له كلّ شيء، فإذا خرج العبد عن دعوى المُلْك فقد آثَرَ إيثار الله، وهو إعطاؤه على إيثار نفسه، وشهد أن الله وحده هو المُؤثِّرُ بمِلكِه، وأمّا من لا ملك له فأيُّ إيثار له؟!

وقوله: «ثم تركُ شهود رؤيتك إيثار الله»، يعني: أنّك إذا آثرت إيثار الله بتسليمك معنى الإيثار إليه بقيَتْ عليك من نفسك بقيّة أخرى لا بد من الخروج عنها؛ وهي أن تُعرِضَ عن شهودك رؤيتَك أنّك آثرت الحق بإيثارك، وأنّك نسبت الإيثار إليه لا إليك، فإنّ في شهودك ذلك ورؤيتك له دعوىً أخرى هي أعظم من دعوى المُلْك، وهي أنك ادّعيت أنّ لك شيئًا آثرتَ به الله، وقدّمته على نفسك فيه بعد أن كان لك، وهذه الدعوى أصعب من الأولى، فإنها تتضمن ما تضمّنته الأولى من المُلْك، وتزيد عليها برؤية الإيثار به. فالأول: مُدّعٍ للملك مُؤثِرٌ به، وهذا مُدّعٍ للملك ومُدّعٍ للإيثار به. فإذن يجب عليه ترك شهود رؤيته لهذا الإيثار، فلا يعتقد أنه آثر الله بهذا الإيثار، بل

الله هو الذي استأثر به دونك، فإن الأثرة واجبة له بإيجابه إيّاها بنفسه لا بإيجاب العبد إيّاها له[١].

وقوله: «ثم غَيْبتُك عن التَّرك». يريد: أنك إذا نزلت هذا الشهود وهذه الرؤية بقيت عليك بقيّة أخرى وهي رؤيتك لهذا التّرك المتضمنة لدعوى ملكك للتَّرك، وهي دعوى كاذبة، إذ ليس للعبد شيء من الأمر، ولا بيده فعلٌ ولا تركٌ، وإنما الأمر كله لله[٢].

---

(١) وهذا من تمام شهود توحيد الربوبية

(٢) وليس تصوّر هذا وتحديث النفس به شرطًا لسلوك الصراط المستقيم، لأنّ العبد إذا آمن أنّ الله خالقُ كلّ شيء، ومالك كل شيء، ومدبّر كل شيء؛ فإنّه بذلك ينتظم كل توجهات وتصوّرات وأعمال قلبه، وهذا كافِيه في الحقيقة، وهذه التفاصيل المسلكية الدقيقة إنّما تصلح لمن شغل نفسه بهذا، وانهمك فيه، وانغمس في مجاهدات القلب به.

وقلتُ: تصلح له؛ لأنّ المشتغلَ بذلك إن لم يوفّق لتفصيل شيخٍ مُسدّد، وإلا فيُخشى عليه من أمرين: أحدهما: متالفُ الوساوسِ، حين يخلو بفكره مع نفسه بلا قيدِ عِلم. والثاني: مزالق الأباطيل، حين يأخذ بيده شيخُ خرافة أو سالِكُ بدعة.

فمن الناس من يتشدّد في شأن الوساوس والخطرات، ويتكلّفُ حراسة النية وملاحظتها بشكل ينغّص عليه عيشه وعيش من حوله، ويشتّتُ جمعية قلبه على الله تعالى من حيث أراد جمعها.

هذا، وبيان خداع النفس وخطراتها وتلبيسات الشيطان وتسويلاته فيها ومداخِله في النيات ونحوها مقصدٌ طيّب، وعلمٌ مبارك، وعملٌ فاضل، لكن لا بد من العلم والحكمة والأناة في تناولها تأصيلًا وتطبيقًا، فقد يُوفّق الكاتب في ذلك فيجلو للقارئ

=

=
رَيْنًا عن قلبه، أو غَيْنًا عن بصيرته، أو يدفع شبهة محيّرة لعقله، أو خَطْرَةً مقلقةً لِلُبِّه، فيُريح قلبه من ثقلِ همٍّ ليس مكلَّفٍ به، وكم من حرفٍ أراح صدرًا!

وفي المقابل قد تقصر أفهام بعض الناس عن إدراك مقصود المؤلف، وقد يفوت المصنّف قيدٌ أو تبيان ونحو ذلك، بل قد لا يُوفّق أصلًا للهُدى في تقعيده وتأصيله وتطبيقه، فيَضِلّ ويُضلّ!

ومن ذلك أن الحارث المحاسبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما صنّف كتابه الرعاية في الخطرات والوساوس قرأه فئامٌ من أهل الاجتهاد والإخلاص؛ فشوّش عليهم جمعيّة قلوبهم؛ لأنّه فتح أذهانهم وأشغل أفئدتهم بمجاهدةٍ وتحقيقٍ وتدقيقٍ وتنقيرٍ ووسوسةٍ ودفعِ أمور عاديّة تجري على كلّ الناس مما لم يكلّفهم الله بها، فاجتهدوا فوق طاقتهم بمراقبة تلك الخطرات والوساوس وتنقيبها وتقليب النظر فيها، فعاد عليهم ذلك بالقنوط واليأس والفشل والكآبة، وتشتّتْ جمعيّتهم، وتفرّقت نيّاتهم، وتشوّشت صدورُهم، فانقطع كثير منهم عمّا كانوا فيه من الخير والنسك ولذّة التعبّد قبل دخول ذلك الكتاب عليهم!

وقد تنبّه الإمام أحمد لذلك فمنع من الحارث وكتبه، بل ومن مصاحبته. وقد ذكر ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تلبس إبليس (ص: ١٦١) أنّ أبا زرعة سُئل عن المحاسبي وكتبه، فقال للسائل: «إيّاك وهذه الكتب، بدع وضلالات، عليك بالأثر؛ فإنك تجد فيه ما يغنيك عن هذه الكتب. قيل له: في هذه الكتب عِبرَة! فقال: من لم يكن له في كتاب الله عبرة فليس له في هذه عبرة. بلغكم أنّ مالكًا أو الثوري أو الأوزاعي أو الأئمة صنّفوا كتبًا في الخطرات والوساوس وهذه الأشياء؟!».

وعليه؛ فإنّ التدقيق والتعمّق المتكرر الشديد في النّية وطبيعة النفس ووسواسها قد يوصل المرء للحيرة والاضطراب، ومن ثمّ الانقطاع والفشل، بل والخَبَل أحيانًا عند بعض من يقصر فهمه عن دفع واردِ فكره.
=

وقد تبيّن في الكشف والشهود والعلم والمعرفة أن العبد ليس له شيء أصلًا، والعبد لا يملك حقيقة، إنّما المالك بالحقيقة سيده، فالأثرة والإيثار والاستئثار كلها لله ومنه وإليه، سواء اختار العبد ذلك وعلمه أو جهله أم لم يختره، فالأثرة واقعة كَرِهَ العبدُ أم رضي، فإنّها استئثار المالك الحق بملكه تعالى، وقد فهمت من هذا قوله: فإنّ الأثرة تحسُنُ طوعًا، وتصِحُّ كرهًا، والله سبحانه وتعالى أعلم»[1]. ولعروة بن حزام:

هوى ناقتي خَلْفي وقُدّامِي الهَوَى ... وإنِّي وإيّاهـا لمختلفـانِ

=

وتأمّل هذين الحرفين النفيسين للشيخين النفيسين: قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في أقسام النفوس وطبائعها وانقسام الناس بالنسبة إليها: «وسألت يومًا شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ عن هذه المسألة، وقطعِ الآفات والأشغال بتنقية الطريق وبتنظيفها. فقال لي جملة كلامه: النفس مثل الباطوس ـ وهو جُبُّ القَذَر والبيّارة ـ كلّما نبشتَه ظهرَ وخرج، ولكن إن أمكنك أن تسقف عليه وتعبره وتجوزه فافعل، ولا تشتغل بنبشه، فإنك لن تصل إلى قراره، وكلما نبشت شيئًا ظهر غيره.

فقلت: سألت عن هذه المسألة بعض الشيوخ، فقال لي: مثل آفات النفس مثل الحيّات والعقارب التي في طريق المسافر، فإن أقبل على تفتيش الطريق عنها والاشتغال بقتلها انقطع ولم يمكنه السير قطّ، ولكن لتكن همّتك المسير والإعراض عنها وعدم الالتفات إليها، فإذا عرض لك فيها ما يعوقك عن المسير فاقتله، ثم امض على سيرك. فاستحسن شيخ الإسلام ذلك جدًّا وأثنى على قائله». وانظر: المدارج (٢/ ٣١٣، ٣١٤)، مجموع الفتاوى (٢/ ٤٧٩)، المستدرك على مجموع الفتاوى (٥ / ٢٢٩) وبالله التوفيق.

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٩٦ - ٣٠٤) باختصار.

هَـوايَ أمـامِي لَـيْسَ خَلْفي مُعَـرَّجٌ وشـوقُ قلـوصي فِي الغُـدُوِّ يَـمَانِ
هــواي عراقــيٌّ وتثنــي زِمامَهــا لــبرقٍ إذا لاحَ النُّجُــومُ يــمانِ
مَتى تجمعي شوقي وشوقكِ تُثْقَلِي ومـا لَـك بالعـبءِ الثقيـل يـدانِ
يَقُـولُ لي الأصْـحابُ إذْ يعـذِلونني أشــوقٌ عراقــيٌّ وأنــتَ يــمانِ
ولَـيْسَ يــمانٌ للعـراقِ بِصـاحِبِ عَسى فِي صروفِ الـدَّهْرِ يَلْتَقِيانِ

علاماتُ ومظاهرُ الراضين بالله تعالى

فرقُ ما بين العلامات والثمرات: أنّ الثمرات حقائقٌ وغاياتٌ ينتهي إليها الراضي بربه تعالى، فهي كالمكافآت الربّانية لمن رضي بإلهه تبارك وتعالى، أما العلامات والمظاهر فهي كالرداء الذي يلبسه الراضي عن ربه، فيراها الناس عليه في وجهه وإشراقه وضيائه وسمْته وأطرافه وخلجاته ولحَظاته وكلماته وأفعاله وأحواله.. فهو مَظْهَرٌ دالٌّ على ما تحته من معاني البرّ، وذخائرِ القُرب، وحشايا السعادة، وثلجِ اليقين، نسأل الله الكريم من فضله العميم.

هذا؛ وإنّ بين الثمرات والعلامات الصادقة ـ لا الخدّاعة ـ علاقة تلازم، فالله شكور حميد سبحانه، ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٤﴾ [فَاطِر: ٣٤]، فإذا صدق العبد معه باطنًا وظاهرًا في رضاه به وعنه ولَهُ؛ فإن الله يكافئه بإلباسه من نورِ الراحةِ، وهَالَةِ الأمن، وعطرِ الحُبِّ لمن رآه، وضياءِ السرور، وإكليلِ المودَّةِ لمن عامله، وبَهاءِ الهيبةِ، وجلالِ الثقة لمن عرفه، وهذه علامات وثمرات، ثم يأخذُ إحسانُ ربِّه بِيَدِ توفيقِه لمزيدٍ من كرائم مِنَحِهِ وجَسَائِمِ عطاياه الدينية، فالحسنة تجلب أختها برحمة الله وكرمه ومِنّته وحمْدِه، ولا يزال العبد يترقّى في دَرَج الرضا ومعارج القَبولِ حتى يرحل عن الدنيا للرفيق الأعلى راضيًا مرضيًّا.

فمن العلامات:

١- السكينة:

وكيف لا تسكنُ نفسٌ سبحت في بحار الرضا عن ربها، فخضعت له ربًّا، وخشعت له إلهًا، ورضيت به معبودًا، وفرحت به مألوهًا لها، فهي تجري في فضاء حُبّه، وتسبحُ في الثقةِ بلقائه، والسكونِ إلى تدبيره، واليقينِ بموعوده، والتعلقِ بفضله. قد وقف بها حبُّه عن حب ما سواه، ووثقت بوعده فاكتفت به عمّن عداه، وفوّضت أمرها بين يديه، إحسانًا لظنها فيما لديه، واستسلمت لقضائه استسلامًا ليقينها بحسن تدبيره ولطفه ورفقه وحكمته وعدله ورحمته وعلمه وبرّه[1].

ومن رَجْزِ الصحابة المرضيين يوم الخندق وفيهم رسول الهدى صلوات الله وسلامه وبركاته عليه يرفع صوته بكلمة «**أَبَيْنَا، أَبَيْنَا**»[2]:

اللّهم لـولا أنـتَ مـا اهتـدينا ... ولا تصـــدّقنا ولا صـــلّينا

فـــأنزلنْ ســـكينةً علينـــا ... وثبّـــتِ الأقـــدامَ إن لاقينـــا

إنّ الألُى قـــد بغـــوا علينـــا ... إذا أرادوا فتنـــةً أبَيْنَـــا

(١) وللسكينة والطمأنينة كتابان مستقلّان بإذن الله تعالى.

(٢) بألفاظ عند البخاري (٢٨٧٠) وغيره.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معنى السكينة: «السكينة فعيلة من السكون، وهو طمأنينة القلب واستقراره، وأصلها في القلب، ويظهر أثرها على الجوارح. وهي عامة وخاصة»(١).

ومن أمتع وأعظم جوالب السكينة قراءةُ القرآن العظيم، وتدبّر آية القُرَّاءِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾ [فَاطِر: ٢٩ - ٣٠]. فتلاوة كتاب الله تعالى هي من مدارج السكينة ومُتَنَزّلاتها كما قال النبي ﷺ: **«ما اجتمع قوم في بيتٍ من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم؛ إلا غشيتهم الرحمة، وتنزلتْ عليهم السكينةُ، وحَفتْهم الملائكةُ، وذكرهم الله فيمن عنده»**(٢).

قال شيخ الإسلام: «لا يشترط لنزول الملائكة وغيرهم أن تكون القراءة أو الذكر في جماعة، فيحصل ذلك للشخص الواحد، روى البخاري ومسلم

---

(١) إعلام الموقعين (٤ / ٢٠١).

(٢) مسلم (٢٦٩٩) وقد ذكر لي الشيخ محمد بن سعود الحمد فائدة شريفة استنبطها بتوفيق الله من هذا الحديث الرباني الجليل: قال: «وأرجو أن يكون من ألّف كتابًا فيه ذكرٌ لله تعالى أن يكون ممن وُعدوا بذكر الله تعالى لهم في الملأ الأعلى، لأن الملأ الذي ذكر العبد ربه عندهم قد يكونون حضورًا شهودًا لديه في مجلسه فيسمعونه، وقد يكونون متفرقين في الأمصار يشهدون ذكره لربه في كتابه». وقد أصاب في هذا الاستنباط الشريف بإذن الله تعالى، فإن القلم أحد اللسانين، ويتبع ذلك كل مكتوب برسالة ورقية أو إلكترونية أو في وسائل التواصل الاجتماعي وكل ما كان بهذه المثابة، والله تعالى أعلم.

حديث أُسَيْد بن حُضَيْر الذي كان يقرأ القرآن في مِرْبده[١] وبجواره ولده وفرسه[٢]، وجاء فيه: فإذا مثل الظُّلّة فوق رأسي، فيها أمثال السُّرُجِ، عرجت في

(١) المرْبدَ والبيدر: الموضع الذي يوُضع فيه التمر حين يُصْرَم ليجفّ، وهو من رَبَدَه: إذا حبسه، ومنه مِرْبد الأبل، وقيل مِرْبدَ البصرة لأنهم كانوا يحبسون فيه الإبل. ومنه حديث أنس في الصحيحين لمّا ذهب بأخ له ليحنّكه رسول الله ﷺ فوجده في مربده يسِمُ شاة في أذنها. وقيل: المربد للتمر والبيدر للحنطة. وانظر: الفائق في غريب الحديث والأثر (١ / ١٦٦) وأخرج البيهقي في السنن الكبرى (٣ / ٣٥٤) وحسن سنده ابن كثير في تاريخه (٦/ ٩٥) عن ابن المسيب عن أبى لبابة بن عبد المنذر الأنصاري قال: استسقى رسول الله ﷺ يوم الجمعة فقال: **«اللّٰهم اسقنا، اللّٰهم اسقنا»**. فقام أبو لبابة فقال: يا رسول الله إن التمر في المرابد، قال: وما في السماء سحاب نراه، فقال رسول الله ﷺ: **«اللّٰهم اسقنا حتى يقوم أبو لُبَابَة عريانًا يسدّ ثعلب مربده بإزاره»**.

قال: فاستهلت السماء فأمطرت وصلى بنا رسول الله ﷺ، قال: ثم طافت الأنصار بأبي لبابة يقولون له: يا أبا لبابة، إن السماء والله لن تقلع أبدًا حتى تقوم عريانًا فتسدّ ثعلب مربدك بإزارك كما قال رسول الله ﷺ. قال فقام أبو لبابة عريانًا فسدّ ثعلب مربده بإزاره، قال فأقلعت السماء. قال أبو عبيد القاسم بن سلام في غريب الحديث: (٣ / ٩٦) «المربد: هو الذي يجعل فيه التمر عند الجذاذ قبل أن يدخل إلى المدينة ويصير في الأوعية. وثعلبه: هو جحره الذي يسيل منه ماء المطر، أي أصاب التمر».

(٢) وقال الحافظ في فتح الباري (٩ / ٦٤): «وفي رواية أبي بن كعب المذكورة أنه كان يقرأ على ظهر بيته وهذا مغاير للقصة التي فيها أنه كان في مربده، وفي حديث الباب أن ابنه كان إلى جانبه وفرسه مربوطة فخشي أن تطأه، وهذا كله مخالف لكونه كان حينئذ على ظهر البيت إلا أن يُراد بظهر البيت خارجه لا أعلاه فتتحد القصتان».

الجو حتى ما أراها! فقال له رسول الله ﷺ: **«تلك الملائكة تستمع لك، ولو قرأت لأصبَحَتْ يراها الناس ما تستترُ منهم»**[(١)](٢).

وعن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قرأ رجل الكهف، وفي الدار الدابة، فجعلت تنفر، فسلّم، فإذا ضبابة أو سحابة غشيته؛ فذكره للنبي ﷺ، فقال: **«اقرأ فلان، فإنها السكينة، نزلت للقرآن. أو تنزلت للقرآن»**(٣). قال العيني في العمدة: «الرجل هو أسيد بن حضير.. والضبابة المذكورة هي السكينة، واختلفوا في معناها فقيل: هي الملائكة وعليهم السكينة، والمختار: أنها شيء من مخلوقات الله تعالى فيه طمأنينة ورحمة، ومعه ملائكة يستمعون القرآن»(٤). وقال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ في حديث أسيد وذكر رواياته: «قوله: وفي رواية: قال ﷺ: **«اقرأ يا بن حضير»**، أي كان ينبغي أن تستمرّ على قراءتك، وليس أمرًا له بالقراءة في حالة التحديث، وكأنه استحضر صورة الحال فصار كأنه حاضرٌ عنده لمّا رأى ما رأى، فكأنه يقول: استمر على قراءتك لتستمر لك البركة بنزول الملائكة واستماعها لقراءتك. وفَهِمَ أسيدٌ ذلك فأجاب بعذره في قطع القراءة وهو قوله: «خفتُ أن تطأَ يحيى» أي خشيت إن استمريت على القراءة أن تطأ الفرس ولدي.

---

(١) مسلم (٧٩٦) وللفظ له، وعلقه البخاري (٥٠١٨) بصيغة الجزم.
(٢) أسباب رفع العقوبة لشيخ الإسلام ابن تيمية (١ / ٤٧)
(٣) البخاري (٣٦١٤) ومسلم (٧٩٥)
(٤) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢٤ / ١٨٢) باختصار.

ودل سياق الحديث على محافظة أسيد على خشوعه في صلاته لأنه كان يمكنه أول ما جالت الفرس أن يرفع رأسه، وكأنه كان بلغه حديث النهي عن رفع المصلى رأسه إلى السماء فلم يرفعه حتى اشتد به الخطب. ويحتمل أن يكون رفع رأسه بعد انقضاء صلاته فلهذا تمادى به الحال ثلاث مرات. وفي رواية قال ﷺ: **«دَنَتْ لصوتك تستمعُ لك»**، وفي رواية: «وكان أُسيد حَسَنَ الصوت» وفي رواية قال ﷺ: **«اقرأ أسيد، فقد أُوتيتَ من مزامير آل داود»**. قال النووي: «في هذا الحديث جواز رؤية آحاد الأمة للملائكة». كذا أطلق وهو صحيح، لكن الذي يظهر التقييد بالصالح مثلًا والحسن الصوت. قال: «وفيه فضيلة القراءة، وأنها سبب نزول الرحمة وحضور الملائكة». وفي آخر الحديث **«ما تتوارَى منهم»**. إشارة إلى الملائكة لاستغراقهم في الاستماع، كانوا يستمرون على عدم الاختفاء الذي هو من شأنهم.

وفيه منقبة لأسيد بن حضير، وفضل قراءة سورة البقرة في صلاة الليل، وفضل الخشوع في الصلاة، وأن التشاغل بشيء من أمور الدنيا ولو كان من المباح قد يفوت الخير الكثير، فكيف لو كان بغير الأمر المباح»[1]. والنبي ﷺ أمر عائشة أن تُميطَ القِرَامَ عن قبلة صلاته، وعلّل أمرَه بأنَّهُ أذكَرهُ الدنيا!

واعلم ـ يا محب ـ أنّ من أعظم جوالب السكينة للمؤمن تدبر كتاب الله تعالى آناء الليل وأطراف النهار، فكتاب الله تعالى زاد لا ينقص، وسقاء لا ينضب، وبحر لا يغيض، بل يفيض على القلب والروح حتى تحلّق وتسمو في

(١) فتح الباري (٩ / ٦٤) باختصار.

سماءٍ ليست بسماء دنيا، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وفي القرآن أمرٌ عجيب؛ وهو أنّ كل من تلاه بتدبّر وجد فيه حلًّا لمشكلاته، وزوالًا لجهالاته، وبلسمًا لجراحاته، وبصيرة لمنهاجه. فكلُّ مشكلةٍ في العالم فحلُّها في الكتاب العزيز، وكلُّ تساؤل في الخليقة فجوابه فيه إجمالًا أو تفصيلًا أو دلالة، وصدق الله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النِّسَاء: ٨٢]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [مُحَمَّد: ٢٤].

فتجد النفرَ يتلون آيات واحدة، أو يستمعونها بتدبّر، فتصنع في صدورهم الأعاجيب، فهذا يجد فهمًا لجانبٍ من حياته نبّهته إليه الآية، وذاك يجد عزاءً لفقدٍ، أو لحرمانِ نفسه من بعض مشتهياتها، أو لما تجرّعته من غُصص آلامها، وآخر يجد برهانًا لفكرةٍ تحيط به ولمّا يتوثّق منها، وغيره يرى إنذارًا لتفريطٍ وقع فيه، وتلك تستمع لآية آنَسَتها فأنْسَتها همًّا ألمّ بها، وشَوَّقَتْها لله تعالى والدار الآخرة، بل أعجب من ذلك أنّ الشخص الواحد يقرأ الآية مرارًا ويجد في كلّ تدبّرٍ معنًى جديدًا، وسعادة حادِثَةَ، وهدايةً غضَّةً طريّة تُثرِي علمه بربه تعالى.

ذلك أن القرآن العظيم هو علمُ العلوم، ومرجعُ المعارف، ومَأرِزُ الأفهام، فهو كتابٌ شافٍ وافٍ كاملٌ شاملٌ، وهو «الفصْلُ وليس بالهزْل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضلّه الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الردّ،

ولا تنقضي عجائبه، من قال به صَدَقَ، ومن عمل به أُجِرَ، ومن حكم به عدل، ومن دعي إليه هُدِي إلى صراط مستقيم، لم تنتهِ الجِنُّ إذ سمِعتْه، حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ [الجن: ١-٢]» (١).

فلا إله إلا الله، ما أعظمَ الله، وأعظمَ كلامه، وأكبرَ نعمته علينا به! ومن أراد العلم فليُثَوِّرِ القرآن كما وجّه به ابن أم عبدٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وتدبر قول ربنا الأكرم: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣﴾ [العَلَق: ٣]، فاستجلب عطايا ربك الكريم بتلاوة كتابه الكريم.

واعلم أن الأشياء إذا تركتها ذبَلَت، إلا القرآن العظيم فإنك إذا تركته ذبلت أنت! فهو الغذاء، والرّواء، والحصن، والسعادة، والفلاح، والله المستعان.

وههنا سؤال لطيف في هذا الباب، وهو: لماذا يحبّ أكثر الناس تلاوة القرآن العظيم وسماعه بالحدر أكثر من الترتيل والترسّل؟

والجواب ذو مطالب:

الأول: أنّ كليهما مشروع بحمد الله تعالى، فمن رتّل فقد أحسن، ومن حَدَر فقد أحسن. والترتيل أفضل. والترتيل هو أحدُ مراتب الأداءِ الثلاث: الترتيلُ، والحَدْرُ، والتَّدْوير.

---

(١) ورد بألفاظ متقاربة عند الترمذي (٢٩٠٦)، وقال: حديث غريب، والدارمي (٣٣٣١)، وأحمد (١/ ١٩)، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي (٥٥٤). ومعناه نورانيٌّ صحيح.

فالترتيل: هو القراءة بتؤدة وتَرَسُّلٍ وتمَهُّلٍ واطمئنان، ومراعاة أحكام التجويد. وأما الحدر: فهو الإسراع في القراءة مع المحافظة على قواعد التجويد ومراعاتها. وأما التدوير: فهو القراءة بسرعة متوسطة بين الترتيل والحدر، مع المحافظة أيضًا على قواعد التجويد. وأفضل المراتب: الترتيل، ثم التدوير، ثم الحدر[1]. قال صاحب تذكرة القراء:

الحـــدْرُ والترتيـــلُ والتـــدويرُ والأوســـطُ الأتـــمُّ فـــالأخيرُ

وقد جعل بعض العلماء المراتب أربع فأدخل التحقيق قبل الترتيل، وجعل فيه مزيد ترسّل [2].

ونحى آخرون ـ وهو الأظهر لدي ـ إلى أنّ المراتب ثلاث: التحقيق (وهو الذي يُسمّى الترتيل) والتدوير والحدر، أما الترتيل فهو ينتظم هذه المراتب جميعًا، وبخاصة ما كانت قراءةً على مُكْثٍ وترسّلٍ لإتاحة التدبّر للقارئ والسامع، وإنما خرجت عن الترتيل قراءة الهذّ. وتدبر قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَهُ تَنزِيلًا ۝١٠٦﴾ [الإسراء: ١٠٦]، والمكث هو الترسّل والبطء والترتيل.

وقال عز وجل: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾ [المزمل: ٤]. وكان ﷺ يتأوّلُ ذلك فيرتل القرآن كما أمره ربه. وكان يمدُّ قراءته حرفًا حرفًا، ويقف على

(١) وانظر لمراتب القراءة وتجويدها: هداية القاري إلى تجويد كلام الباري، لعبد الفتاح المرصفي (١/ ٥٠) وهو سفر نفيس، رحم الله راقمه.

(٢) انظر: إذهاب الحزن وشفاء الصدر السقيم. لعبد السلام مقبل المجيدي ١/ ٢٦٢

رؤوس الآي، ويقرأ السورة حتى تكون أطولَ من أطول منها. بمعنى أن قراءته أبطأُ من القراءة المعتادة لغيره من الناس.

وكلُّ هذا لتحصيل المقصود الأعظم وهو تدبّر التلاوة التي من معانيها العمل بالقرآن، وهو ما فُسّر به قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البَقَرَة: ١٢١]، أي: يصدّقون بما فيه من أخبار، ويعملون بما فيه من أحكام.

ولا يتأتّى العمل بالقرآن إلا بعد العلم بمعانيه، ووسيلته الكبرى - بعون الله تعالى - هي التدبر. لهذا قال ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: **«اقرأ في ثلاث، فإنّه لا يفقه من قرأه في أقل من ثلاث»**(١). أي لا يستطيع تدبره كما ينبغي له. وإلا فالتلاوة المجردة مع نوعِ تدبُّرٍ مقدورة، وقد أتوا بها في ركعة كما ثبت عن عثمان وتميم الداري رضي الله عنهما وكذا سعيد ابن جبير وابن باز رحمهما الله في كثير من العُبّاد.

لذا زجر السلف عن هذِّ القرآن، أي: الهذّ الذي يصل إلى الهذرمة، فتتداخل الحروف وتضطرب الكلمات لشدة لإسراع، أما ابتداء الهذّ وأعني به الهذّ المعتدل الملتزم بأركان الترتيل بمعناه العام فقد جاء الإذن به في الحديث، فعن بريدة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: كنت جالسًا عند النبي ﷺ فسمعته يقول: **«... ثم يقال له: اقرأ واصعد في درج الجنة وغرفها، فهو في صعود ما دام يقرأ هذًّا كان**

(١) البخاري (٣/٥١) ومسلم (٣/ ١٦٣)

أو ترتيلًا» (١). قال شيخنا عبد الكريم الخضير حفظه الله تعالى معلّقًا على الحديث: «يدل على جواز قراءة الهذّ، والحديث حسن» (٢).

أما الإسراع المفرط فقد نهوا عنه، قال ابن إمّ عبدٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «لا تهُذُّوا القرآن هذّ الشِّعْر، ولا تنثروه نثر الدَّقْلِ، وقِفُوا عند محكمه، وحرّكوا به القلوب، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة». وتدبَّرْ آخر جملة والله المستعان.

والهذّ الذي زجر عنه ابن مسعود وغيره هو الإسراع الذي يفوق الحدر فيكون كالهَذْرَمَة، أما الإسراع الذي لا يحرّف القراءة فلا بأس به ما دام مقيمًا لإحسان القراءة، وقد جاء عنه ﷺ في بشارته لأهل القرآن: **«.. وإنّ القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشقّ عنه قبره كالرجل الشاحب. فيقول له: هل تعرفني؟ فيقول: ما أعرفك! فيقول: أنا صاحبُك القرآن، الذي أظمأتك في الهواجر، وأسهرت ليلك، وإنّ كلَّ تاجرٍ من وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كل تجارة، فيُعطَى الملكَ بيمينه، والخُلدَ بشماله، ويُوضعُ على رأسه تاجُ**

---

(١) أحمد ٥/ ٣٤٨ (٢٣٣٣٨). والدارمي (٣٢٥٧)، وحسنه الخضير. وفي سنده بشير بن المهاجر، وثقه ابن معين، وغيره، وتكلّم فيه بعضهم، فهو حسن الحديث، وقد صحّح الحديث الألباني في السلسلة الصحيحة (٦/ ٧٩٢) وقال محققو المسند بإشراف الأرناؤوط: «إسناده حسن في المتابعات والشواهد من أجل بشير بن المهاجر الغَنَوي، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين، وحسنه الحافظ ابن كثير في تفسيره ١/ ٦٢، ولبعضه شواهد يصح بها». وحسنه محقق مسند الدارمي الشيخ حسين سليم أسد.

(٢) شرح كتاب التوحيد، عبد الكريم الخضير (٧/٧).

الوقار، ويُكسَى والداه حُلّتينِ لا يقومُ لهما أهلُ الدنيا، فيقولان: بم كُسينا هذا؟ فيقال: بأخذ ولدكما القرآن. ثم يقال له: اقرأ واصعد في دَرَج الجنة وغرفها، فهو في صعود ما دام يقرأ، هذًّا كان، أو ترتيلًا»(١). ولقد كانت قراءة الفضيل كما وصفوها: بطيئة حزينة شهية، رحمنا الله وإياه.

الثاني: أنّ جمال الصوت وجودة نغماته تتأتّى بشكل أسهل عند الحدر لتنوّع صعود ونزول مستوى أصوات الحروف. ولكن ذلك يشقّ ـ نوعًا ما ـ عند الترتيل إلا مع الدُّرْبة، ولكن هذا كله يزول، بل ينقلب لضده إذا كان السامع يسعى بقلبه لتدبر المعاني من غير الوقوف الطويل مع جماليات التغنّي بالصوت الجميل، ووِاهًا لمن جمعهما.

وهي يسيرة بحمد الله تعالى، خاصةً إن كانت قراءةً حزينةً مُترسّلةً مُتدبِّرَةً، ومعلومٌ أنّ أشهَى الترانيم للآذان هي ترنيمةُ الأحزانِ، فالتلاوة بتحَزُّنٍ أدْعَى للخشوعِ، واستدرارِ الدموعِ، وهجرِ الهُجوعِ، وتَشَنُّفِ الأفئدةِ بكل سَمْعِهَا لتدبُّرِ المَتْلوِّ العظيمِ العزيزِ، وأمكن للرُّوحِ أنْ تُحَلِّقَ في ملكوتِ التدبُّرِ، وسماءِ الرجاء، وفَضَاءِ الحُبِّ، وضياءِ الإيمان، ولذّةِ سلطانِ القرآن، فلا تملك القلوب حينها إلا أن تُلقيَ أزمَّةَ أسماعِها إليه، راشفةً مُتلذِّذَةً مهتديةً شاهدةً مُصيخةً لعهدِ الله الأخير لبني الإنسان ومن تبعهم من الجانّ، وهذه القراءة

(١) أحمد ٥/ ٣٤٨ (٢٣٣٣٨). والدارمي (٣٢٥٧)، بسند حسن. وقد مرّ مزيد تخريجه في الصفحة السابقة.

المرتّلة هي عامّة قراءة الصحابة والسلف رضي الله عنهم، وقد ينزلون عنها لعارض، وكلها خير بفضل الله تعالى.

وبالجملة؛ فالصوت وسيلة لا غاية، وإن كان تزيينه من سنن القراءة، فهو عبادة مقصودة لذاتها حتى وإن كانت في نفسها وسيلةً لطيفةً وطريقةً حسنةً للبلاغ الإلهي الكريم العظيم الجليل الجميل.

وإنّ الملائكة لتطربُ للصوت الجميل بالقرآن، كما في خبر أسيدِ بن الحضير رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، حتى إنها كادت أن تتبدّى للناس عيانًا لا تحتجب عنهم بالستور الملائكية، كلُّ ذا لاستغراقها في سماع كلام ربِّها بحلاوة المزامير الداوديّة، وإخواننا من الجِنَّةُ أسلموا لما سمعوه من فيِّ رسول الهدى صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩]، ومن فرحهم بالقرآن وبالرسول ﷺ ازدحموا بشدّة لسماع القرآن منه كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الجن: ١٩].

وتدبر كذلك صدر سورة الجن وغيرها من فرحهم بالقرآن والتوحيد والإسلام. ولربّما دخل بعض صالحيهم المساجد وبيوت الإنس رغبةً في سماع القرآن الكريم، وأخبار الناس في هذا الباب كثيرة مشتهرة.

بل إنّ رب العزة جل جلاله يحبُّ أن يسمع القرآن من عبده بصوت جميل، فعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما أَذِنَ الله لشيء**

ما أذن لنبيٍّ أن يتغنَّى بالقرآن»[(١)]. وفي رواية: **«لِنبيٍّ حسن الصوت بالقرآن يجهر به»**، وفي رواية: **«لِنبيٍّ يتغنّى بالقرآن يجهر به»**[(٢)]. وعن أبي لبابة بشير بن عبد المنذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أن النبي ﷺ قال: **«من لم يتغنّ بالقرآن فليس منّا»**. قال عبد الله بن أبي يزيد رَحِمَهُٱللَّهُ لابن أبي مليكة: يا أبا محمد؛ أرأيت إن لم يكن حسن الصوت؟ قال: يحسّنه ما استطاع[(٣)]. وعن البراء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«زيّنوا القرآن بأصواتكم»**[(٤)].

فتزيين الصوت وتحسين نغماته بالتلاوة مطلب شرعي ومرضاة للرحمن، وتدبُّرُ القرآنِ مقصودُ التلاوة والسَّماع، فخيرٌ لك، وأولى لك، ثم أولى أن تجمعهما، فاستغرقْ همّتك لهما مدى حياتك، والموعد الجنة، ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ٢٩﴾ [فَاطِر: ٢٩].

الثالث: أنّ في نفوس الناس نزعة إلى العجلة والإسراع لضعف صبرها، ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ٣٧﴾ [الأنبياء: ٣٧]، ولو جاهدناها لأضحتْ بإذن الله تعالى مطمئنّة للترتيل، لا تكاد تسكن إلا إليه. وذلك أن المقصود الأعظم للتلاوة وسماعها هو التدبر، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النِّسَاء: ٨٢]، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩].

---

(١) يقال: أذن إلى الشيء وللشيء، يأذن أذَنًا، أي: استمع له. والتغنّي: تزيين الصوت بالقراءة والتحبير.

(٢) البخاري (٦/٢٣٥، ٩/١٧٣) ومسلم (٢/٢١٩٢)

(٣) أبو داود (١٤٧١) وجوّد سنده النووي في الرياض (١ / ٤٩٨)

(٤) النسائي (١٠١٥) وصححه الألباني.

ووسيلة التدبر هي الترتيلُ، والترسّل، والترجيعُ، والبطء، والتأمّل، والتفكّر، والتسبيح، والسؤال، وإلحاح الدعاء، والاستعاذة، والاستجارة، والاعتصام، والاستغفار، والتوبة، ونحو ذلك عند مروره بالآيات المقتضية ذلك، وكذلك إعادة آيات التنبيه والوعظ والذكرى مرارًا، واسترجاعها تكرارًا، والدعاء أثناءها، وتحريكُ مشاعر القلب بها، واستنزالُ فوائد الفكر في تلاوتها، والعمل بمقتضاها، فيناجي بها ليلًا، ويتفقدها في قوله وعمله ونيته نهارًا.

وتأمَّلْ حالك حتى وأنت تنظر للمصحف بلا قراءة ابتغاء تحصيل معنى تقصده وتفتش عنه، فستجد نفسك بلا جهد ولا قصد تترسّل وتبطِئُ وتتدبر، فالقرآن معجز، وهداياته لا تنضب، وفوائده لا تنتهي، ومعين أجره لا يزول ولا يفنى، بل إلى رضوان الله يقرّب ويرفع ويوصل صاحبه للدرجات العلى من جنات النعيم، ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ١٠٥﴾ [البَقَرَة: ١٠٥].

ولا يعني ذلك أن الحدر ليس فيه تدبّر، بل فيه بحمد الله نزرٌ نافعٌ صالحٌ مبارك، ولكنه ليس كغيث التدبّر حينما تنهمر المعاني بتفجّر ينابيع الآيات مع كرّ النظر تلو النظر، وتدبر العقل بمعول الفكر، وتأمّل النظر ببصيرة العقل، وكل هذا مفتقر لبطءٍ وترسُّلٍ لا عجلة وإسراعٍ.

وقد يكون الحدر والتدوير لدى بعض الناس أسهل للتدبر من الترتيل، لمشقة الترسّل عليهم وارداتٍ تدّبُّرِيّة أو دنيوية لا يطيقون دفعها، أو دفعًا للنعاس، فيحدُرُون، ويملئون أيديهم من خير الله العميم بالقرآن الكريم.

وفضلُ الله واسع، ودينُه يسر، وجنته لها ثمانية أبواب، ورحمته وسعت كل شيء، فله الحمد كما ينبغي له (١).

وإنّ من مزايا الحدر كثرة الحروف المتلوّة، كذلك كثرة توارد معانيها العامة مع كثرة الآيات المقروءة، فيرسم تالي الكتاب في قلبه لوحة ذهنية عامة تجمع ما تفرّق من شوارد المعاني المبثوثة في ثنايا الآيات والسور المتباعدة، وتربط ما تشابه منها فتُحْكِمه بابًا واحدًا هو عمود نور المُتدبّرين، وهذا يكون بحسَب كثرة المقروء، وهو من التدبُّرِ المحمود بلا شكٍّ.

والمقصود؛ أنّ الحدر والترتيل مشروعان، وكذلك التدوير، ولكن الأصل هو الترتيل بغرض التدبر والعمل. ومن العلماء وغيرهم من كانت له أكثر من ختمة واحدة للترتيل المتدبّر جدّا جدًّا، حتى إنه ربما بقي في الختمة الواحدة بضع سنين يرتل ويتدبر، ويُرجِّع ويَرجِع، ويردد الآية ويدعو ويبتهل، ويجعل لهذه الختمة وِردًا خاصًّا يقتطع له أصفى حالات نفسه، وأنقى ساعات يومه، وأجودَ أُوَيْقَاتِ عمره، كما أنّ له ختمة أخرى يرتلها كعادة الناس، حتى لا يغيب عن تمام القرآن بهجر بعضه. وقد مثل الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ متدبر القرآن المترسل كمُهدي الجوهرة الجميلة الكبيرة، ومثل الحادر بالقرآن بمهدي عدة جواهر صغار، فالترتيل المتدبر كيف، والحدر كم.

---

(١) وانظر: من هو الماهر بالقرآن. للمؤلف.

ومتى جاهد المرء نفسه على التدبر تدفقت في قلبه معاني القرآن التي يدهش لبّه من عظمتها وجلالها، فهو كتاب الله تعالى الذي لا يشبع منه العلماء، ولا يخلق من كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه.

ولاحِظِ الأصل اللغوي لكلمة تلاوة، فتَلَى معناها: تَبِعَ. ومنه قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البَقَرَةِ: ١٢١]، أي: يتَّبِعُون القرآن حق اتّباعِه. فالغرض من تلاوة القرآن اتّباع أوامره، واجتناب نواهيه، والاهتداء بهداياته، وتَفَقُّدُهُ في الحياة. فالتالي يتبع هدايات القرآن، ويتفقّدها في قلبه ولسانه وعمله ورجائه وخوفه وإراداته وعزماته وعلومه، ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الإِسْرَاء: ٩]، واعلم أنّ أهدى وألطَف وأجمل وأسدّ وأحكم المواعظ هي مواعظ القرآن، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [النِّسَاء: ٥٨]، فالقرآن حياة أيّما حياة، بل الحياة كل الحياة.

وبكلٍّ؛ فالترتيل والتدوير والحدرُ كلّها وسائل لتحصيل علم القرآن، وفهمه، والاهتداء به، وكلٌّ ميسّرٌ لما خُلِق له، فمن النفوس من يصلح لها هذا، ومنهم ذاك أو ذاك، فلا يتكلفنَّ امرؤٌ مركبًا له عنه مندوحةٌ، ولا يرهقنَّ نفسه في تلاوتها كلام ربها بها دون مشتهاها المقدور المشروع، إلا على سبيل الكرّة بعد المَرَّة، حتى تعتاد ما هو أصلح لها في معادها، فالنفسُ كالراحلة تنشطُ وتنْهَجُ وتمشي سريعةً طرَبًا لحاديها، ورغبةً في تحصيل مناها عند هاديها، وتارة تكلُّ وتنْفَهُ وتمَلُّ وتَحْرُنُ، وقد تنقطع عن المسير إن لم تُدر بحزم واقتدار،

وتُسَايَسُ برحمة وحكمة، وكثير من النفوس فيما أحسب تصلح على أداء الحدر، فلا تُحُجِّرَنَّ على نفسك ما وسّعهُ ربُّها عليها.

فمن الناس من يكون الحدر أو التدوير أنسب لطريقةِ قراءته، وتتابُعِ أنفاسه، وتوارد أفكاره، ومسابقةِ وسواسه، فإنّ بعضهم يشكو عزوبَ الفكر وشرود البال إن هو رتَّلَ، لكنّ قلبَهُ يجتمع على الإسراع شيئًا. فمثلُ هذا التالي ربما يكون الحدرُ خيرًا له، لأنّ غاية هي التفهم والاهتداء وتحصيل الأجر، فأيّ طريق أوصله فهو خير من ربّه، ومِنَّة من هاديه، ونعمة من مولاه.

وعليه؛ فإنْ وجد التالي نفسه في الترتيل فثمَّ بابٌ واسع للفهم، ومَهْيَعٌ جميل للاعتبار، ومنهاجٌ عريض للهدى، ومُنْتَجَعٌ للغايةِ خصيبٌ لِغَنَاءِ الروح، وغِذَاءِ القلب، وإشباعِ العقل، وإسعادِ النفس، في كنوزِ ذخائر لا تُحصى من عظيمِ المَثُوبةِ ووافرِ الأجر، وإن وجد القارئُ نفسَهُ في الحدر فخيرٌ فضيل، وأجرٌ كثير، وحظٌّ من الله كبير، وإن وجدها في التدوير فهو وسط بينهما، يُحَصِّل بيديه طرفي هذا وهذا، فيجمع غنيمةَ التدبّر في تُؤَدَةِ التدوير، وكثرة الحروف في تَرَسُّلِهِ شيئًا. وكلّها خيرٌ وبرٌّ وهدى ونعيم، ومدارج سامقةٌ لمراضي رب العالمين.

وبالجملة؛ فالترتيلُ لأهله، والحدرُ لأهله، والتفاضلُ يكون بحسَب حالِ القارئِ، ومواهبِ الله القِرَائيَّةِ والتدبُّريَّة له، فالحدرُ كَمِّيَّة، والترتيل كيفيَّة مع اتحاد زمن القارئ بهما، وكلٌّ خير، وإن كانت الكيفيّة أهدى سبيلًا.

فسبحان من خَلَقَ وفَرَقَ ومايزَ الطُّرُقَ، وجمع السُّبُلَ كلَّها في سبيلٍ واحدٍ هو الاعتصام بكتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من

حكيم حميد، وتدبر فرِحًا بفضل الله عليك أن جعلك من أهل القرآن قولَ الرحمن تبارك وتعالى، وخصك بين الأمم به: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ [يُونُس: ٥٨].

ونَعِيمًا هَنيئًا لكم يا من جمعه الله تعالى أو بعضه في صدوركم، ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العَنكَبُوت: ٤٩]. فهو أصل العلم وجذره وجماله وكماله وشاهده ومصححه، والله المستعان.

وتدبّر - راشدًا - حال صحيفة فارغة رُقمتْ عليها آياتُ الكتاب العزيز؛ كيف شرّفتْها ونقلتْها لقُدسيةِ ألّا يمسّها إلا طاهر! فكيف بقلبٍ مؤمنٍ نُقشتْ عليه آيات الكتاب العظيم؟! نسأل الله الكريم من فضله العميم، وتأمل شاهد ذلك في حديث عِصْمَة بن مَالِكٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لو جُمِعَ الْقُرْآنُ فِي إِهَابٍ مَا أَحْرَقَهُ اللهُ بِالنَّارِ»**(١).

وهذا من مُبيّنات فضيلة حفظ ما تيسّر من القرآن الكريم عن ظهر قلب، ومشروعك العُمريُّ - فاعلم - هو أن يجمع الله تعالى لك القرآن المجيد في صدرك. وأكثرُ أهل المقابر كانت أمنيتهم الكبرى أن يحفظوه، ولكن تقطّعت آجالهم عن إدراك أمانيهم تسويفًا أو انشغالًا بالخسيس الفاني عن النفيس الباقي، ومنهم المعذور المأجور، ومنهم الواصل المشكور، والموفق من وفقه الله تعالى.

---

(١) المعجم الكبير للطبراني (١٣٩٣٤)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٦٦).

فبما أنك في دار العمل فاعمل، فالدرجات العالية محتاجة لعمل عظيم متقبّل، فكيف بمن يلقى ربه وقد جمع القرآن في صدره خالصًا عاملًا مؤمنًا صالحًا! فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: **«الماهرُ بالقرآنِ مع السفرةِ الكرام البررةِ، والذي يقرأُ القرآن، ويتَتَعْتَعُ فيه، وهو عليه شاقٌّ؛ له أجران»** [(١)]. والماهر: الحاذق بالقراءة، والسّفرة: الملائكة [(٢)]، ومعنى يتتعتع: أي: يتردّد في قراءته، ويتبلّد فيها لسانه [(٣)].

فالماهر بالقرآن هو الضابط له حفظًا ولفظًا. فإنْ ضَعُفَ الحفظُ أو نقصَ إتقانُ اللفظِ؛ كان نقص المهارة بقدر ذلك.

وننبه إلى أنّ كثيرًا من أهل الخير وطلبة العلم يظنون أنّ المهارة بالقرآن محصورة في مهارة التلاوة فقط، وذلك بإقامة الحروف والوقوف، فاقتصروا على إتقان الأداء دون إتقان الحفظ، وهذا قصور شديد، فالحفظُ مطلب شرعيٌّ، وهو داخلٌ ابتداءً في المهارة المذكورة في الحديث، فالمهارة الممدوحة فيه جامعة بين مهارتي الأداء والحفظ، وَوَاهًا لمن جمعهما!

وعلى قدر نقص جودة الأداء أو الحفظ يكون نقصُ المهارة بقدره، فاجتماعهما هو أعلى المراتب، ويليه إتقان الأداء والمهارة فيه، ثم يليهما إتقان الحفظ والتحمّل والجمع، والله المستعان، فسلعة الله غالية، وَمَنْ يَطلبِ

---

(١) البخاري (٤٩٣٧)، ومسلم (٧٩٨)، وأبو داود (١٤٥٤)، والترمذي (٢٩٠٦).
(٢) النهاية ٤/ ٣٧٤.
(٣) النهاية ١/ ١٩٠.

الحَسناءَ لم يُغْلِهِ المَهْرُ.

اللّهم اجعلنا جميعًا ووالدينا وأهلينا وأحبابنا من أهل القرآن الذين هم أهلُكَ وخاصَّتكَ يا كريم يا رحمن، إله الحق آمين.

وإذا افتقرتَ إلى الذَّخائرِ لم تجِدْ ذُخرًا يكونُ كصَالِحِ الأَعمَالِ

والمقصود أنّ القرآن العظيم هو أصل كل علم نافع، فهو أصلُ مُحْكَمِ العلم بإطلاق، وما نزل لهذا العالَمَ ولن ينزل أعظم منه، وقد تكلم الله تعالى به بحرف وصوت، فحروفه ومعانيه من الله تبارك وتعالى. وإنّ مما أسف عليه كثير من أهل العلم عند موتهم أنهم لم يعطوا القرآن العظيم الوقت الكافي لإشباع نهمة نفوسهم للعلم والبركة والخير منه، وشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد أبدى أسفه بين يدي وفاته أنّه أمضى كثيرًا من القول والعلم في غير تدبر القرآن وتثوير علومه ورشف بركته، مع أنّه كان جاهِدًا مُجاهِدًا بعلمه أهل الأهواء المُضِلّة، ولكن للقرآن وتدبره خصائص فريدة محكورةٌ عليه، لا تُتناول إلا عنه، ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩﴾ [الإسْرَاء: ٩].

وكلُّ ما جاء فِي القرآن وصفه بأجْرٍ كَبِيرٍ، وأجْرٍ كَرِيمٍ، ورِزْقٍ كَرِيمٍ، فَهُوَ الجَنَّةَ، نسأل الله الكريم فضله العظيم.

وواغِبطَةَ من كان لقلبه وِردُ قرآنٍ لا يتركه آناء الليل وأطراف النهار حتى يلاقي مولاه، ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَاتٍ﴾ [العَنكَبُوت: ٥]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾ [الانشِقَاق: ٦]، فيراوحُ المُوفَّقُ باتّزان واعتدالٍ بين الحفظ والمراجعة والتلاوة والتفسير والدعاء،

والنفسُ على ما اعتادت عليه، ولا تستصعب أمرَهَا وإن كَبُر عمرُها فإن مواعظ القرآن تُقرِّبُ بعيدَها، وتُذيب جليد غفلتها، وتليِّنُ قاسيها. فلا تغفلنّ عن سَوْقِهِا إلى ربها ولو بالسلاسل، بذكره وحُبِّهِ ودعائه والتوبة إليه واستغفاره والتوكل عليه، واليقينِ بلقائه ووعده ووعيده، وإحسانِ الظن به، واعلم أنّه عند ظنِّكَ به، فظُنَّ به ما شئتَ من خيرٍ تجدْهُ إن أحسنتَ عبادته، سبحانه وتعالى.

إنّ الغُصُونَ إذا عدلْتها اعتدلَتْ ... ولا تلينُ إذا كان من الخشبِ

والعادة خيرًا أو شرًّا ـ فاعلم ـ لها أربعُ مراتب: تبدأ في الثبات بعد ثلاثة أيام، ثم عشرة، وتستحكم بعد أربعين يومًا، ولا يكون من أهلها حتى يتمَّ السنة.

والنَّفْسُ كالطِّفْلِ إنْ تَتْرُكْهُ شَبَّ عَلى ... حُبِّ الرَّضاعِ وإنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ

وعَودًا إلى مطلبنا في السكينة؛ فاعلم أنّ من ألطاف الله تعالى بعبده رحمته بسكينة المنام، فثمَّ سكينة ربّانيَّةٌ عند المنام، فَنَمْ يا عبدَ الله وعينُ الله ترعاك، قال ﷺ: **«من قرأ آية الكرسي إذا أوى إلى فراشه لم يزل عليه من اللهِ حافظ، لا يقربه شيطان حتى يُصبح»**(١). فكيف يكون حال وسكينة المتقلب نائمًا في فراشه وعينُ الرحمن تحفظُه وكَلَأتُه تحرُسُه!

(١) البخاري (٢٣١١،٣٢٧٥،٥٠١٠) تعليقًا بصيغة الجزم.

هذا؛ وإنّ السكينة إذا استقرت في القلب وتمكّنت من الفؤادِ فاضت على الجوارح بحُسْنِ السَّمْتِ شِعَارًا، وبَهَاءِ الإيمان دِثارًا، فالسكينةُ من خصال المؤمنين، قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان المسلمون على عهد نبيهم وبعده لا يُعرفون وقت الحرب إلا بالسكينة وذكر الله تعالى، قال قيس بن عبادة وهو من كبار التابعين: «كانوا[١] يستحبّون خفض الصوت عند الذكر، وعند القتال، وعند الجنائز».

وكذلك سائر الآثار تقتضي أنهم كانت عليهم السكينة في هذه المواطن، مع امتلاء القلوب بذكر الله وإجلاله وإكرامه، كما أن حالهم في الصلاة كذلك. وكان رفع الصوت في هذه المواطن الثلاث عادة أهل الكتاب والأعاجم، ثم قد ابتُلِيَ بها كثير من هذه الأمة»[٢].

والمخالطة مجانسة، فالبيئة، والناس، بل والبهائم لها أثر في سكينة ورزانة وهدوء المرء، كذلك في رعونته وعجلته وطيشه، «ففي الجنس الخاص[٣] كان التفاعل فيه أشدّ، ثم بينه وبين سائر الحيوان مشاركة في الجنس المتوسط[٤]، فلا

(١) أي: الصحابة رضي الله عنهم.

(٢) اقتضاء الصراط (١ / ١١٩)

(٣) أي: الإنسان مع الإنسان، فإن الصاحب ساحب، والأخلاق نزّاعة.

(٤) بجامع الحياة والطعام والنوم والمشاعر والرغبة والرهبة ونحو ذلك.

بد من نوعٍ تفاعلٍ بقدْرِه، ثم بينه وبين النبات مشاركة في الجنس البعيد مثلًا[١]، فلا بد من نوعٍ ما من المفاعلة.

ولأجل هذا الأصل وقع التأثر والتأثير في بني آدم، واكتساب بعضهم أخلاق بعض بالمشاركة والمعاشرة. وكذلك الآدمي إذا عاشر نوعًا من الحيوان اكتسب من بعض أخلاقه، ولهذا صارت الخيلاء والفخر في أهل الإبل، وصارت السكينة في أهل الغنم، وصار الجمّالون والبغّالون فيهم أخلاق مذمومة من أخلاق الجمال والبغال، وكذلك الكلّابون، وصار الحيوان الإنسي[٢] فيه بعض أخلاق الإنس من المعاشرة والمؤالفة وقلة النفرة. فالمشابهة والمشاكلة في الأمور الظاهرة توجب مشابهة ومشاكلة في الأمور الباطنة على وجه المسارقة والتدريج الخفي.

---

(١) وهي مؤثّرة شيئًا ولو من بعيد، فزارع الورد على سبيل المثال الذي يصبح ويمسي على رعاية الياسمين والفل والأزاهير العطرية الجميلة ليس كمن يزرع النباتات الشديدة المراس كريهة الرائحة ونحو ذلك.

والمؤثّر بصورة أكبر من النباتات هو البيئة التضاريسية، فساكن الجبل قد تكون في أخلاقه شدة وانقباض أكثر من ساكن السهل، وأشد منه ساكن المدينة؛ فأخلاقه تضيق أكثر من القروي - مع استبعاد عامل الثقافة والتعليم، ويتضح ذلك فيما لو تعلم القروي وتثقف - ونحو ذلك.

(٢) أي: المستأنس سواء كان في أصله ضاريًا كالفهد والقط ونحوهما، أو كان مستأنسًا مأكولًا كبهيمة الأنعام والدجاج والحمام ونحوها.

وقد رأينا اليهود والنصارى الذين عاشروا المسلمين هم أقل كفرًا من غيرهم[١]، كما رأينا المسلمين الذين أكثروا من معاشرة اليهود والنصارى هم أقل إيمانًا من غيرهم ممن جَرَّدَ الإسلام[٢]. والمشاركة في الهَدي الظاهر توجب أيضًا مناسبة وائتلافًا وإن بَعُدَ المكان والزمان، فهذا أيضًا أمرٌ محسوس»[٣].

وأهلُ السكينة أهلُ ذكر، والملائكة تحبّهم وتدعو لهم، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنّ لله تعالى ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله عز وجل، تنادوا: هلمّوا إلى حاجتكم، فيحفّونهم بأجنحتهم[٤] إلى السماء الدنيا، فيسألهم ربهم -**

---

(١) وقد ذكر أسامة بن منقذ في الاعتبار أمثلة كثيرة من ذلك في تأثر نصارى الشام بالمسلمين في أخلاقهم وغيرتهم على أعراضهم ونحو ذلك.

(٢) أي: لم يخالط المشركين.

(٣) اقتضاء الصراط (١ / ٢٢٠) ثم قال بعد ذلك: «فمشابهتهم في أعيادهم ولو بالقليل هو سبب لنوع ما من اكتساب أخلاقهم التي هي ملعونة، وما كان مظنة لفساد خفي غير منضبط علّق الحكم به ودار التحريم عليه.

فنقول: مشابهتهم في الظاهر سبب ومظِنَّةٌ لمشابهتهم في عين الأخلاق والأفعال المذمومة، بل في نفس الاعتقادات. وتأثير ذلك لا يظهر ولا ينضبط، ونفس الفساد الحاصل من المشابهة قد لا يظهر ولا ينضبط، وقد يتعسر أو يتعذر زواله بعد حصوله لو تفطن له. وكل ما كان سببًا إلى مثل هذا الفساد فإن الشارع يحرمه كما دلت عليه الأصول المقررة».

(٤) جاءت الأخبار في فضل أهل العلم أن الملائكة تضع أجنحتها تواضعًا لهم وإجلالًا، وتحفّهم، حراسة لهم وحفظًا بأمر الله تعالى.

وهو أعلم ـ: ما يقول عبادي؟ قال: يقولون: يسبحونك، ويكبرونك، ويحمدونك، ويمجدونك، فيقول: هل رأوني؟ فيقولون: لا والله ما رأوك. فيقول: كيف لو رأوني؟! قال: يقولون: لو رأوك كانوا أشدّ لك عبادة، وأشدّ لك تمجيدًا، وأكثر لك تسبيحًا. فيقول: فماذا يسألون؟ قال: يقولون: يسألونك الجنة. قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رأوها. قال: يقول: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشدّ عليها حرصًا، وأشدّ لها طلبًا، وأعظم فيها رغبة. قال: فممّ يتعوذون؟ قال: يقولون: يتعوذون من النار. قال: فيقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله ما رأوها. فيقول: كيف لو رأوها؟! قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشدّ منها فرارًا، وأشدّ لها مخافة.

قال: فيقول: فأُشْهِدُكُم أنّي قد غفرتُ لهم، قال: يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة، قال: هم الجلساءُ لا يشقى بهم جليسُهُم»(١).

---

(١) البخاري ٨/١٠٧ (٦٤٠٨)، ومسلم ٨/٦٨ (٢٦٨٩) (٢٥) ومن العِبَر اللطيفة أن رجلًا كان حاضرًا لأحد دروس العلامة العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فسأله الشيخ عن مسألة قد بسطها في درسه ليُحْرِزَ علمه بها ويقظته في درس الشيخ، على عادة الشيخ الحسنة في تنبيه طلبته، وإعادة أذهانهم إليه، فلم يجد عند الرجل من مسألته شيئًا، وتبيّن للشيخ أنه رجلٌ أُمّيٌّ لا يفقه عميق الفقه في الدرس، فسأله: «لماذا حضرتَ الدرس إذًا؟» فأجابه: همُ القوم لا يشقى بهم جليسُهم! فتأثّر الشيخ جدًّا، ودعا له بخير، وقال: «وَعَظَنَا
=

أما ضدُّهم من أهل مجالس الغفلة والمعصية والتِّرَةِ فتحضرهم الشياطين، قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا السماعُ المُحدَث[1] تحضره الشياطين، كما رأى ذلك من كُشَف له، وكما توجد آثار الشياطين في أهله، حتى إن كثيرًا منهم يغلب عليه الوَجْدُ فيُصعق كما يصعق المصروع، ويصيح كصياحه، ويجري على لسانه من الكلام ما لا يُفهم معناه، ولا يكون بلغته كما يجري على لسان المصروع، وربما كان ذلك من شياطين قومٍ من الكفار الذي يكون أهلُ ذلك السماع مشابهين لقلوبهم»[2].

وأهلُ السكينة أهل استقامة وتقوى، ومن كان من أهل الاستقامة فإن الله تعالى يسدّده، ويحفظه، ويحوطه بالتوفيق والإصابة، ويسدّده حتى بالسكينة الملائكية، «وكان عمر قد جعل الله الحقَّ على قلبه ولسانه، وما كان يقول لشيء: إني لأراه كذا وكذا إلا كان كما يقول. وكانت السكينةُ تنطِقُ على لسانه»[3].

=

الرجلُ». ولما سُئل الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن علم معروف الكرخي أجاب: «معه رأسُ العلم؛ خشيةُ الله تعالى».

(١) كالذي يفعله المتصوفة من طقوس التراقص والتصفيق والترنّم بنيّة ذكر الله تعالى! وهذا بعينه مأخوذ من أمم الخرافة والأوثان ومن السحرة والكهان، كما هو واضح للعيان لمن تتبع ذلك أو شاهده، والله المستعان.

(٢) الاستقامة (١ / ٣١٣)

(٣) الجواب الصحيح (٢ / ٤٠٢)

وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كنا نتحدّثُ أنّ السكينة تنطِقُ على لسان عمر، وقال النبي ﷺ: **«إن الله ضرب الحقَّ على لسان عمر وقلبه»**[١] [٢].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس مُحَدَّثُون، فإن يكُ في أمتي أحد فإنه عمر»**. قال ابن وهب: **«مُحَدَّثُون»**[٣]، أي: مُلهمون. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وسمعت شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: جَزَمَ بأنهم كائنون في الأمم قبلنا، وعلّق وجودهم في هذه الأمة بـ **«إن»** الشرطية مع أنها أفضل الأمم؛ لاحتياج الأمم قبلنا إليهم، واستغناء هذه الأمة عنهم بكمال نبيها ورسالته، فلم يُحْوِجْ الله الأمة بعده إلى محدَّث ولا ملهم، ولا صاحب كشف ولا منام، فهذا التعليق لكمال الأمة واستغنائها لا لنقصها. والمحدّث هو الذي يُحَدَّثُ في سرِّه وقلبِه بالشيء فيكون كما يُحَدَّث به.

قال شيخنا: والصِّدِّيق أكملُ من المحدث؛ لأنه استغنى بكمال صدِّيقيِّته ومتابعته عن التحديث والإلهام والكشف، فإنه سلّم قلبه وسرّه وظاهره وباطنه للرسول فاستغنى به عمَّا منه[٤]. قال: وكان هذا المحدَّث يَعرِضُ ما

---

(١) أحمد (٢/٥٣، ٩٥) والترمذي (٣٦٨٣) وإسناده صحيح، وله شاهد من حديث أبي هريرة عند أحمد (٢/٤٠١)

(٢) الفتاوى الكبرى (٣ / ٤٥١) وانظر: إذا ذُكر الصالحون فحيهلًا بعمر. للمؤلف.

(٣) البخاري ٤/٢١١ (٣٤٦٩)

(٤) أي: استغنى بتصديق معدن النبوة عمّا يَرِدُ من التحديث.

يُحدَّث به على ما جاء به الرسول؛ فإن وافقه قبله وإلا ردّه. فعُلِمَ أن مرتبة الصديقية فوق مرتبة التحديث.

قال: وأما ما يقوله كثير من أصحاب الخيالات والجهالات: «حدثني قلبي، عن ربي» فصحيح أن قلبه حدثه، ولكن عن من؟ عن شيطانه، أو عن ربه؟ فإذا قال: حدثني قلبي عن ربي، كان مُسْنَدُ الحديث إلى من لم يعلم أنه حدثه به، وذلك كذب.

قال: ومحدث الأمة لم يكن يقول ذلك، ولا تفوَّهَ به يومًا من الدهر، وقد أعاذه الله من أن يقول ذلك؛ بل كتب كاتبه يومًا: «هذا ما أرى الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب»، فقال: «لا، امحُهُ، واكتب هذا ما رأى عمر بن الخطاب، فإن يكن صوابًا فمن الله، وإن يكن خطأ فمن عمر، والله ورسوله منه بريئان»، وقال في الكَلَالَة: «أقول فيها برأيي، فإن يكن صوابًا فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان»[(١)].

وقد أنزل الله تعالى آيات السكينة في كتابه، والقرآن كله يبعث السكينة في القلب والروح، فقراءة آيات السكينة أُنْسٌ وحراسة وأمان بإذن الملك الرحمن. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد ذكر الله سبحانه السكينة في كتابه في ستة مواضع:

الأول: قوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البَقَرَة: ٢٤٨].

(١) المدارج (١/٣٩، ٤٠) المستدرك على مجموع الفتاوى (١ / ١١١)

الثاني: قوله: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [التَّوۡبَة:٢٦].

الثالث: قوله تعالى: ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ [التَّوۡبَة : ٤٠].

الرابع: قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٤﴾ [الفَتۡح: ٤].

الخامس: قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ١٨﴾ [الفَتۡح:١٨].

السادس: قوله تعالى: ﴿إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الفَتۡح : ٢٦].

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا اشتدت عليه الأمور قرأ آيات السكينة. وسمعته يقول في وقعة عظيمة جرت له في مرضه تعجز العقول عن حملها ـ من محاربة أرواح شيطانية ظهرت له إذ ذاك في حال ضعفِ القوة ـ قال: فلما اشتد عليَّ الأمر قلت لأقاربي ومن حولي: اقرءوا آيات السكينة. قال: ثم أقلعَ عني ذلك الحال، وجلستُ وما بي قَلَبَة[1].

---

(١) القَلَبَةُ: المرض. وأصله داء يكون بالإبل فاستعمل في كل داء. وفي حديث اللديغ: «فانْطَلق يتفُل عَلَيْهِ ويَقرأ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾ [الفَاتِحَة : ٢] فكَأنَّمَا نشط من

=

وقد جرّبتُ أنا أيضا قراءة هذه الآيات عند اضطراب القلب مما يَرِدُ عليه؛ فرأيت لها تأثيرًا عظيمًا في سكونه وطمأنينته.

وأصل السكينة هي الطمأنينة والوقار والسكون الذي ينزله الله في قلب عبده عند اضطرابه من شدة المخاوف، فلا ينزعج بعد ذلك لما يرِدُ عليه، ويوجب له زيادة الإيمان وقوة اليقين والثبات. ولهذا أخبر سبحانه عن إنزالها على رسوله وعلى المؤمنين في مواضع القلق والاضطراب؛ كيوم الهجرة، إذ هو وصاحبه في الغار، والعدو فوق رؤوسهم لو نظر أحدهم إلى ما تحت قدميه لرآهما، وكيوم حنين، حين ولّوا مدبرين من شدة بأس الكفار، لا يلوي أحد منهم على أحد، وكيوم الحديبية، حين اضطربت قلوبهم من تحكّم الكفار عليهم، ودخولهم تحت شروطهم التي لا تحملها النفوس، وحسبُكَ بضعف عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن حملها وهو عمر، حتى ثبّته الله بالصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كلّ سكينة في القرآن فهي طمأنينة، إلا التي في سورة البقرة». وفي الصحيحين عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: «رأيت النبي ﷺ ينقل من تراب الخندق حتى وارى التراب جِلدة بطنه، وهو يرتجز بكلمة عبد الله بن رواحة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ:

لاهُـــمَّ لـــولا أنـــتَ مـــا اهتـــدينا ... ولا تصـــــــدَّقْنَا ولا صــــــلّينَا

فــــأنزلَنْ ســــــكينةً علينــــــا ... وثبّـــــتِ الأقـــــدامَ إنْ لاقينَـــــا

=

عقال، فَانْطَلَق يمشي وَمَا بِهِ قَلَبَة». وانظر: مشارق الأنوار على صحاح الآثار (٢ / ١٨٤)

إنّ الأُولى قـــد بغـــوا علينـــا وإنْ أرادُوا فتنـــــةً أبَيْنَـــــا

قال: ثم يمدّ صوته بآخرها» (١)»(٢).

ومن سكن قلبُه سكنت جوارحه في صلاته، قال شيخ الإسلام: «فمن المعلوم أن الخشوع المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البَقَرَة: ٤٥] لا بد أن يتضمن الخشوع في الصلاة، فإنه لو كان المراد الخشوع خارج الصلاة لفسد المعنى، إذ لو قيل إن الصلاة لكبيرة إلا على من خشع خارجها ولم يخشع فيها؛ كان يقتضي أنها لا تكبر على من لم يخشع فيها، وتكبر على من خشع فيها، وقد انتفى مدلول الآية فثبت أن الخشوع واجب في الصلاة.

ويدل على وجوب الخشوع فيها أيضًا قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾
ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ
لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا
مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ
يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المُؤْمِنُون: ١ - ١١]. أخبر سبحانه وتعالى أن هؤلاء هم الذين يرثون فردوس الجنة، وذلك يقتضي أنه لا يرثها غيرهم.

---

(١) البخاري (٤١٠٦) واللفظ له، ومسلم (١٨٧/٥)

(٢) مدارج السالكين (٥٠٢/٢، ٥٠٣) وانظر: المستدرك على مجموع الفتاوى (١ / ١٨٣)

وقد دل هذا على وجوب هذه الخصال، إذ لو كان فيها ما هو مستحب لكانت جنة الفردوس تورث بدونها، لأن الجنة تُنال بفعل الواجبات دون المستحبات، ولهذا لم يذكر في هذه الخصال إلا ما هو واجب.

وإذا كان الخشوع في الصلاة واجبًا فالخشوع يتضمن السكينة والتواضع جميعًا. ومنه حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حيث رأى رجلًا يعبث في صلاته فقال: «لو خشع قلبُ هذا لخشعت جوارحه»، أي: لسكنت وخضعت»[(١)]. «فإذا كان منهيًّا عن السرعة والعجلة في المشي، مأمورًا بالسكينة وإن فاته بعض الصلاة مع الإمام حتى يصلّي قاضيًا له؛ فأولى أن يكون مأمورًا بالسكينة فيها. ويدل على ذلك أن الله عز وجل أمر في كتابه بالسكينة والقصد في الحركة والمشي مطلقًا فقال: ﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ [لُقمَان: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفُرقَان: ٦٣]. قال الحسن وغيره: «بسكينة ووقار». فأخبر أن عباد الرحمن هم هؤلاء.

فإذا كان مأمورًا بالسكينة والوقار في الأفعال العادية التي هي من جنس الحركة؛ فكيف الأفعال العِبَادية؟ ثم كيف بما هو فيها من جنس السكون كالركوع والسجود؟ فإن هذه الأدلة تقتضي السكينة في الانتقال؛ كالرفع والخفض والنهوض والانحطاط. وأما نفس الأفعال التي هي المقصود بالانتقال كالركوع نفسه والسجود نفسه والقيام والقعود أنفسها ـ وهذه هي

(١) القواعد النورانية الفقهية (١ / ٤٢)

من نفسها سكون - فمن لم يسكن فيها لم يأت بها، وإنما هو بمنزلة من أهوى إلى القعود ولم يأت به، كمن مدّ يده إلى الطعام ولم يأكل منه، أو وضعه على فيه ولم يطعمه»[١].

والسكينة للمؤمن حاضرة حتى في مواطن الزحام، والضيق، والتدافع، وإسراع الناس كالحج، فعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه دفع مع النبي ﷺ يوم عرفة، فسمع النبيُّ ﷺ وراءه زجرًا شديدًا وضربًا وصوتًا للإبل، فأشار بسوطه إليهم، وقال: **«يا أيها الناس، عليكم بالسكينة، فإن البر ليس بالإيضاع»**[٢].

والسكينة ظاهرة على المسلمين حيثما كانوا، و«كان الميت على عهد رسول الله ﷺ يخرج به الرجالُ يحملونه إلى المقبرة، لا يُسرعون ولا يُبطئون، بل عليهم السكينة، لا نساء معهم، ولا يرفعون أصواتهم، لا بقراءة ولا غيرها، وهذه هي السنة باتفاق المسلمين»[٣].

والسكينة في القلب هي محض فضل المولى تبارك وتعالى، «فليس كل ما فَضُلَ به الفاضل يكون مقدورًا لمن دونه، فكذلك من حقائق الإيمان ما لا يَقدِرُ عليه كثير من الناس، بل ولا أكثرهم. فهؤلاء يدخلون الجنة وإن لم

---

(١) كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في الفقه (٢٢ / ٥٦٥)

(٢) البخاري ٢/٢٠١ (١٦٧١)، ومسلم ٤/٧٠ (١٢٨٢) (٢٦٨) والبر: الطاعة. والإيضاع: الإسراع.

(٣) المستدرك على مجموع الفتاوى (٣ / ١٤٦)

يكونوا ممن تحقّقوا بحقائق الإيمان التي فضّل الله بها غيرهم، ولا تركوا واجبًا عليهم وإن كان واجبًا على غيرهم.

ولهذا كان من الإيمان ما هو من المواهب والفضل من الله، فإنه من جنس العلم، والإسلام الظاهر من جنس العمل؛ وقد قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ۝١٧﴾ [مُحَمَّد: ١٧]، وقال: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مَرْيَم: ٧٦]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾ [الفَتْح: ٤].

ومثل هذه السكينة قد لا تكون مقدورة؛ ولكن الله يجعل ذلك في قلبه فضلًا منه وجزاء على عمل سابق، كما قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ۝٦٦﴾ [النِّسَاء: ٦٦]، كما قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ [الحَدِيد: ٢٨]، وكما قال: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المُجَادلَة: ٢٢]، ولهذا قيل: من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم. وهذا الجنس غير مقدور للعباد؛ وإن كان ما يقدرون عليه من الأعمال الظاهرة والباطنة هو أيضًا بفضل الله وإعانته وإقداره لهم؛ لكن الأمور قسمان: منه ما جنسه مقدور لهم لإعانة الله لهم كالقيام والقعود، ومنه ما جنسه غير مقدور لهم»(١).

---

(١) مجموع الفتاوى (٧ / ٣٣٨)

والسكينة التي يجدها المؤمن في قلبه هي من ثمرات التوحيد، والناس كلهم لا تسكن نفوسهم إلا به، و«لا يجوز أن يصلح حالهم إلا بأن يكون الله إلههم ومعبودهم، وتكون حركاتهم لأجله عبادة له، تجمع كمالَ محبته وكمالَ الذلّ له، فإن العبادة تجمع كمال الحب وكمال الذلّ، وهذا شأن المُرَادِ لذاته المقصود لذاته، وكلّ ما سواه فمفتقر إلى هذا المراد المحبوب المعبود لذاته، فلا يكون هو مرادًا محبوبًا لذاته، فإنّ محبته مستلزمة محبة محبوبه ومعبوده الذي هو أكمل منه، بل هو معبود له. والفساد أن يكون كل من الشيئين محبوبًا، والتابع لغيره محبوب لذاته، والمتبوع محبوب لغيره!

وهذا الأصل هو أصل أصول الشرائع والملك، فإن الرسل جميعهم إنما بعثوا لأن يعبدوا الله وحده لا شريك له، وكما أنه مبرهن بالمعقول والقياس والنظر، فهو أيضًا معروف بالوَجْد والإحساس والذوق، فإن العبد يُحِسُّ من قلبه فقرًا ذاتيًّا إلى ذكره وعبادته، غير فقره إليه من جهة إعطائه سُؤلَه، وجلب المنافع له، ودفع المضار عنه، فإن الفقر إليه من هذا الوجه هو أظهر في الابتداء، ولكن الإنسان يجد نفسه إلى أيِّ موجودٍ توجَّهَ بقلبه وذكره، لا يجد الطمأنينة ولا السكينة حتى يذكر الله ويُوجّهَ قلبه إليه، فإنه يجد الطمأنينة والسكينة، فلا يبقى عنده منازعة إلى شيء آخر[١].

(١) وأنت حين يضيق صدرك تجد نفسك تبادر بالإهلال بالتوحيد فتجأر بصوتك: لا إله إلا الله. فتسكن نفسك وتأمن وتطمئن.

فكما أن السائل الداعي الراغب في قضاء حاجته إذا توجّه إلى الله بصدقٍ اطمأنَّ طمأنينة من وصل إلى من نال منه المطالب والحاجات، فكذلك المريد المحب السائل لما يطمئن إليه إذا توجه إلى الله بصدقٍ؛ اطمأنَّ طمأنينة من حصَّل بُغْيَته ووجد محبوبَه ومألوهَه وطلْبَتَه، وهذا الأصل إنما يستقر لأهل المِلَلِ أتباع ملة إبراهيم، أهلِ الحنيفية، فأما غيرهم فلا»[(١)].

والمؤمن أمّارٌ بالسكينة داعٍ لها، يحبها للناس كيما تسعد أرواحهم وتطيب نفوسهم في دنيا الكَبَد، قال ﷺ: **«يسّروا ولا تعسّروا، وسَكّنوا ولا تنفّروا»**[(٢)].

وَاهًـا عـلى ذاكَ الزَّمـانِ وطِيبِـهِ   أيّـامَ كُنـتُ مـن اللُّغـوبِ مُرَاحًـا

وللإمام ابن القيم كلام نفيس عن تلك السكينة للمؤمنين، كَنَزَهَا في إعلام الموقعين، فمن ذلك:

سكينةُ الأنبياء

سكينة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أخصُّ مراتب السكينة، وأعلى أقسامها، كالسكينة التي حصلت لإبراهيم الخليل، وقد أُلقي في المنجنيق مسافرًا إلى ما أضرم له أعداء الله من النار، فلله تلك السكينة التي كانت في قلبه حين ذلك السفر!

---

(١) جامع المسائل لابن تيمية (٦ / ١٢٢)

(٢) البخاري (٦١٢٥) ومسلم (١٧٣٤) وفي رواية عند مسلم (١٧٣٢): **«بشِّرُوا ولا تنفّروا، ويسّروا ولا تعسِّرُوا»**.

وكذلك السكينة التي حصلت لموسى وقد غشيه فرعون وجنوده من ورائهم والبحر أمامهم، وقد استغاث بنو إسرائيل: يا موسى إلى أين تذهب بنا؟ هذا البحر أمامنا، وهذا فرعون خلفنا، وكذلك السكينة التي حصلت له وقت تكليم اللَّه له نداءً وإيحاءً كلامًا حقيقة سمعه حقيقة بأذنه، وكذلك السكينة التي حصلت له وقد رأى العصا ثعبانًا مُبينًا، وكذلك السكينة التي نزلت عليه، وقد رأى حبال القوم وعصيهم كأنها تسعى فأوجس في نفسه خيفة.

وكذلك السكينة التي حصلت لنبينا ﷺ وقد أشرف عليه وعلى صاحبه عدوهما وهما في الغار، فلو نظر أحدهم إلى تحت قدميه لرآهما، وكذلك السكينة التي نزلت عليه في مواقفه العظيمة وأعداء اللَّه قد أحاطوا به كيوم بدر ويوم حنين ويوم الخندق وغيره.

فهذه السكينة أمر فوق عقول البشر، وهي من أعظم معجزاته عند أرباب البصائر، فإن الكاذبَ - ولا سيّما على اللَّه تعالى - أقلق ما يكون وأخوف ما يكون وأشدّه اضطرابًا في مثل هذه المواطن، فلو لم يكن للرسل صلوات اللَّه وسلامه عليهم من الآيات إلا هذه وحدها لكفتهم.

السكينة الخاصة

وأما السكينة الخاصة فتكون لأتباع الرسل بحسب متابعتهم، وهي سكينة الإيمان، وهي سكينة تسكن القلوب عن الريب والشك، ولهذا أنزلها اللَّه تعالى على المؤمنين في أصعبِ المواطن أحوج ما كانوا إليها ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ

﴿وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ٤﴾ [الفتح: ٤]، فذكر نعمته عليهم بالجنود الخارجة عنهم والجنود الداخلة فيهم، وهي السكينة عند القلق والاضطراب الذي لم يصبر عليه مثل عمر بن الخطاب، وذلك يوم الحديبية قال الله سبحانه وتعالى يذكر نعمته عليهم بإنزالها أحوج ما كانوا إليها: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ٤﴾ [الفتح: ٤] لمّا علم الله سبحانه وتعالى ما في قلوبهم من القلق والاضطراب لمّا منعهم كفار قريش من دخول بيت الله، وحبسوا الهدي عن محلّه، واشترطوا عليهم تلك الشروط الجائرة الظالمة، فاضطربت قلوبهم وقلقت، ولم تطق الصبر؛ فعلم تعالى ما فيها فثبّتها بالسكينة رحمةً منه ورأفة ولطفًا، وهو اللطيف الخبير.

وتحتمل الآية وجهًا آخر، وهو أنه سبحانه علم ما في قلوبهم من الإيمان والخير ومحبته ومحبة رسوله؛ فثبتها بالسكينة وقت قلقها واضطرابها، والظاهر أن الآية تعم الأمرين، وهو أنه علم ما في قلوبهم مما يحتاجون معه إلى إنزال السكينة، وما في قلوبهم من الخير الذي هو سبب إنزالها، ثم قال تعالى بعد ذلك: ﴿إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا ٢٦﴾ [الفتح: ٢٦]، لمّا كانت حميّة الجاهلية توجب من الأقوال والأعمال ما يناسبها؛ جعل الله في قلوب أوليائه سكينة تقابل حميّة الجاهلية، وفي ألسنتهم كلمة التقوى مقابلة لما توجبه حميّة الجاهلية من كلمة الفجور، فكان حظُّ المؤمنين السكينةَ في قلوبهم وكلمة التَّقوى على ألسنتهم،

وحظُّ أعدائهم حميّة الجاهلية في قلوبهم، وكلمة الفجور والعدوان على ألسنتهم، فكانت هذه السكينة وهذه الكلمة جندًا من جند اللَّه أيَّد بها اللَّه رسوله والمؤمنين في مقابلة جند الشيطان الذي في قلوب أوليائه وألسنتهم.

وثمرة هذه السكينة الطمأنينة للخبر تصديقًا وإيقانًا، وللأمر تسليمًا وإذعانًا، فلا تدَعُ شبهةً تعارض الخبر، ولا إرادةً تعارض الأمر، فلا تمرُّ معارضات السوء بالقلب إلا وهي مُجتازَةٌ من مرور الوساوس الشيطانية التي يُبتلى بها العبد ليقوى إيمانه ويعلو عند اللَّه ميزانه بمدافعتها وردّها وعدم السكون إليها، فلا يظن المؤمن أنها لنقص درجته عند اللَّه تعالى.

السكينة عند القيام بوظائف العبودية

ومنها السكينة عند القيام بوظائف العبودية، وهي التي تورث الخضوع والخشوع وغض الطرف وجمعية القلب على اللَّه تعالى، بحيث يؤدي عبوديته بقلبه وبدنه، والخشوع نتيجة هذه السكينة وثمرتها، وخشوع الجوارح نتيجة خشوع القلب.

أسبابُ السكينة

سببها استيلاء مراقبة العبد لربه جَلَّجَلَالُهُ حتى كأنه يراه، وكلما اشتدت هذه المراقبة أوجبت له من الحياء والسكينة والمحبة والخضوع والخشوع والخوف والرجاء ما لا يحصل بدونها، فالمراقبةُ أساسُ الأعمال القلبية كلها، وعمودها الذي قيامها به، ولقد جمع النبي ﷺ أصول أعمال القلب وفروعها

كلها في كلمة واحدة، وهي قوله في الإحسان: **«أن تعبد اللَّه كأنّكَ تراهُ»**(١). فتأمل كل مقام من مقامات الدين، وكل عمل من أعمال القلوب؛ كيف تجد هذا أصله ومنبعه؟

والمقصود؛ أن العبد محتاج إلى السكينة عند الوساوس المعترضة في أصل الإيمان ليثبت قلبه ولا يَزيغ، وعند الوساوس والخَطَرات القادحة في أعمال الإيمان لئلا تقوى وتصير همومًا وغمومًا وإرادات ينقص بها إيمانه، وعند أسباب المخاوف على اختلافها ليثبت قلبه ويسكن جأشه، وعند أسباب الفرح لئلا يطمح به مركبُه، فيجاوز الحد الذي لا يُعبر فينقلب ترحًا وحزنًا، وكم ممن أنعم اللَّه عليه بما يُفرحه فجمح به مركب الفرح وتجاوز الحدّ، فانقلب ترَحًا عاجلًا، ولو أُعِين بسكينة تُعَدِّل فرحَه لأُريد به الخيرِ، وعند هجوم الأسباب المؤلمة على اختلافها الظاهرة والباطنة، فما أحوجه إلى السكينة حينئذ، وما أنفعها له وأجداها عليه وأحسن عاقبتها. والسكينة في هذه المواطن علامة على الظفر وحصول المحبوب، واندفاع المكروه، وفقدها علامة على ضد ذلك، لا يخطئ هذا، ولا هذا، واللَّه المستعان(٢).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «السكينة إذا نزلت على القلب اطمأن بها، وسكنت إليها الجوارح وخشعت واكتسبت الوقار، وأنطقت اللسان بالصواب والحكمة، وحالت بينه وبين قول الخنا والفحش واللغو والهُجر وكل باطل.

---

(١) البخاري (٥٥)، ومسلم (٨)

(٢) إعلام الموقعين (٦ / ١٠٧/ ١١١) باختصار.

وكثيرًا ما ينطق صاحب السكينة بكلام لم يكن عن فكرةٍ منه، ويستغربُهُ هو من نفسه كما يَستغربُ السامعُ له، وربما لا يعلم بعد انقضائه بما صدر منه. وأكثر ما يكون هذا عند الحاجة وصدق الرغبة من السائل والمجالس، وصدق الرغبة منه هو إلى الله، والإسراع بقلبه إلى بين يديه وحضرته، مع تجرده من الأهواء، وتجريده النصيحة لله ولرسوله ولعباده المؤمنين. ومن جرّب هذا عرف قدر منفعته وعظمها، وساء ظنه بما يُحسن به الغافلون ظنونهم من كثير من كلام الناس»[1].

واعلم ـ رحمني الله وإياك ـ أن السكينة هي من السمت الحسن الذي جاء وصفه بأنه جزء من النبوّة، فقد روى الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سننه[2] عن عبد الله بن سرجس المزني رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: **«السَّمْتُ الحَسَنُ والتُّؤَدَةُ والاقتصادُ جزءٌ من أربعةٍ وعشرين جزءًا من النبوة»**. قال المباركفوري في تحفته: «قوله: **«السّمت الحسن»** أي: السيرة المرضية والطريقة المستحسنة، قيل: السمت الطريق، ويستعار لهيئة أهل الخير. وفي الفائق: السّمت: أخذ المنهج ولزوم المحجة. والتُّؤَدَة: التأني في جميع الأمور. والاقتصاد: التوسط في الأحوال، والتحرّز عن طرفي الإفراط والتفريط.

وقوله: **«جزء»** أي: كلها، أو كل منها **«من أربعة وعشرين جزءًا»**. والمراد بالعدد المذكور التكثير لا التحديد، ففي حديث بن عباس عند أبي داود أن

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٥٠٦)

(٢) الترمذي (٢٠١٠) وصححه الألباني.

النبي ﷺ قال: **«إنّ الهدي الصالح والسمت الصالح والاقتصاد جزء من خمس وعشرين جزءًا من النبوة»**(١). على أنه يمكن الاختلاف بحسب اختلاف الكمية والكيفية الحاصلة في المتَّصِفِ به. وقوله: **«من النبوة»**: أي: من أجزائها. قال الخطابي: الهدي والسَّمتُ: حالَةُ الرجل ومَذْهَبُه، والاقتصادُ: سلوكُ القصد في الأمور، والدخولُ فيها برفق على سبيلٍ يُمكن الدوام عليها. يريد أنّ هذه الخصال من شمائل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأنها جزء من أجزاء فضائلهم، فاقتدُوا بهم فيها وتابعوهم عليها، وليس معناها أنّ النبوة تتجزأ، ولا أنّ من جمع هذه الخصال كان نبيًّا، فإن النبوة غير مكتسبة، وإنما هي كرامة يخصّ الله بها من يشاء من عباده، والله أعلم حيث يجعل رسالته. ويحتمل أن يكون معناه أن هذه الخلال مما جاءت به النبوة ودعا إليها الأنبياء»(٢).

٢- الطمأنينة:

الراضي عن ربه مطمئنُّ النفس، هادئُ البال، رخيُّ الفؤاد، حنيفُ الوجهِ لربه عمّا يُقلقلُ قلوبَ عُبّاد الدنيا، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ۝٢٨﴾ [الرَّعد: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ۝٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ۝٣٠﴾ الفجر: ٢٧ - ٣٠. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الطمأنينة سكون القلب إلى الشيء، وعدم اضطرابه وقلقه، ومنه الأثر المعروف: **«الصدقُ**

(١) سنن أبي داود (٤٧٧٨) وحسنه الألباني.

(٢) تحفة الأحوذي (٦ / ١٢٧)

طمأنينةٌ، والكذبُ رِيبةٌ»[(١)]. أي: الصدق يطمئن إليه قلب السامع، ويجد عنده سكونًا إليه، والكذب يوجب له اضطرابًا وارتيابًا. ومنه قوله: **«البرُّ ما اطمأنَّ إليه القلب»**[(٢)]. أي: سكن إليه وزال عنه اضطرابه وقلقه»[(٣)].

وجملة الكتاب؛ إن أردتَّ تلخيصَ موضوع الرضا بكلمة واحدة تنتظم أطرافَهُ فهي: السَّلَام. نسأل اللهَ السلامَ سلامًا في الدنيا، ولقاءَه في دار كرامته دار السلام، ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٢٥﴾ [يُونُس: ٢٥].

٣- السهولة وعدم التكلّف:

إنّ من مظاهر الرضا بالقضاء عدم التكلف، لأنه يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأنّ الحادثات المقدّرة ـ مرغوبة كانت أو مرهوبة ـ فالتكلّف إن لم يضرّ فهو لا ينفع. والمستريحُ من الناس هو النمط الأوسطُ البسيط، غير المتكلّف الشطيط.

والتكلف: هو أن تتكلف حالًا ليس لك، كأن تتزيّا بِحالِ غيرِك، أو تدّعي علمًا أنت تجهله، أو فهمًا أكبر من عقلك، أو تطلب ما ليس لك، أو تتعدى

---

(١) الترمذي (٢٥١٨) وقال: حديث حسن صحيح. عن أبي محمد الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، قال: حفظت من رسول الله ﷺ: **«دع ما يَريبك إلى ما لا يَريبك؛ فإن الصدق طمأنينة، والكذب ريبة»**. وصححه الألباني.

(٢) أحمد (١٨٠٠١) وضعفه محققوه.

(٣) مدارج السالكين (٢ / ٥١٢)

المباح للإسراف. قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تعريفه: «هو فعل وقول ما لا مصلحة فيه بمشقة»[(١)].

قال الله تعالى ناهيًا عن التكلّف: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ۝٨٦﴾ [ص: ٨٦] وعن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «نُهينا عن التكلّف»[(٢)]. ومن التكلف المذموم الفتيا بغير علم، فعن مسروق رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: دخلنا على عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فقال: يا أيها الناس، من علم شيئًا فليقل به، ومن لم يعلم، فليقل: الله أعلم، فإنّ من العلم أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم. قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ۝٨٦﴾ ص: ٨٦[(٣)]. وما عاش مرتاحًا ولا صادقًا المُتَزَمِتُ المُتَكَلِّفُ.

والراضي بالله تعالى ليس من أهل التكلّف والتصنّع، وقد ذُكِر عن علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «العلم نقطةٌ كثّرها الجاهلون»[(٤)]. أي: أنّ أصل العلم الذي فقههُ الصحابة رضي الله عنهم كان نزْرًا نافعًا، وهو أصول قيّمة، ومُحكمات جامعة، تُرجَعُ إليها المسائل، وتُعرض عليها الدلائل، ويفيءُ طالبُ العلم بها لبركة الوحي الصافي، ويَرِدُ بها الحَقَّ الوافي، وهو فقه الكتاب وفقه أحاديث النبي ﷺ وأعماله. وهو ليس بهذه الكثرة المُشتّتة، إنما شقّق الناس

---

(١) رياض الصالحين (٨٦)

(٢) البخاري (٧٢٩٣)

(٣) البخاري (٤٨٠٩)

(٤) رواه ابن عبد البر في (جامع بيان العلم وفضله) وانظر: مجموع مؤلفات عقائد الرافضة والرد عليها (٢٤ / ٥٩)

بعدها وتشدّدوا وأوغلوا وغالوا. فبركةُ العلم في صفائه من كَدَرِ التكلّف، ونقائه من دَغَلِ المُخالفة.

والرضا بالمكتوب لا ينفي صُنْعَ مستقبلٍ أجمل لك وللأجيال القادمة، فكن متوكّلًا لا متواكلًا، وعازمًا لا متوانيًا، ووافيًا لا ناقصًا، ووفيًّا لا ناكثًا، وصابرًا لا متسخطًا، وراضيًا لا متردّدًا، وحامدًا شاكرًا لا كافرًا جحودًا. فقد أهبطك الله تعالى للأرض لتعمرها بالعبادة، وتعبرها بالصالحات، وتتزوّد منها بُلغتَكَ لدارك في الآخرة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ١٥﴾ [المُلك: ١٥]، ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠﴾ [الجُمُعَة: ١٠].

وسرُّ جمالِ الحياةِ البساطةُ، فالحياة -يا مُحِبّ- سهلة وعيشها يسير إن رأيتها كذلك، لكنّها شديدة التعقيد إن تعاملت معها بتعقيد، والإكسير موجود لكنه السهل الممتنع: إنه القناعة.

وفي الناسِ من يرضَى بميسورِ عيشِهِ ومركوبُـهُ رِجْـلاهُ والثـوبُ جِلْـدُهُ

والتكلّف مُنغِّصٍ لطيب اللقيا، والمثاليّة قتّالةٌ للإبداع. وكم من بيتٍ عامرٍ إلا من أهله، وآخر مُقِلٌّ إلا من أُنْسِ سُكّانه، ودفء أرواحهم، وقُرْبِ قلوبهم لقلوبهم. وإنّ العبرة ليست في مظاهر الدنيا وأقنعتها الجميلة، بل في حقائق القلوب ورغائبها الأصيلة، وبما أنها تنتهي غدًا برضا رب العالمين أو سخطه؛ فعلام الغفلة عن الأمر الكبير.

وإنّ الكثير من المظاهر الجميلة التي نراها في الناس تخفي تحتها بؤسًا لا يطاق، ولكن الناس يخفون الأسى ويظهرون السعادة، فاحمد الله كثيرًا على العافية.

ولا عارَ إن زالتْ عن الحُرِّ نعمةٌ ولكنَّ عارًا أن يزول التجمُّلُ

ومن نعيمك غير المنظور: أنّ الله قد عزّ ماء وجهك فلم يُهرق للئيم، فما قطع عنق كريم كحاجته عند من لا يُكرم وفادة سُؤْلِهِ. وعلى سبيل الراحة؛ تجرّعِ القناعة.

لا تَحرَصَنْ فالحِرْصُ ليسَ بِزَائدٍ في الرزق بل يُشقِي الحريصَ ويُتعِبُ

ولقد اختصّ الله عز وجل بعض عباده بخصلة جميلة نفيسة نادرة، وهي أنّهم يرون أفضل ما في الناس، ويعاملونهم بحسَب ذلك. فكن لطيفًا بشوشًا دمثًا، ولا بأس ببعض مزاح يزيل ثِقَلَ التكلّف وزَمَانَةَ الجِديّة، لكن لا يكن ديدنًا ولا مؤذيًا، والفكاهةُ في غير أوانها ضربٌ من الحماقة.

إذا لم يكن صفوُ الوِدَادِ طبيعةً فلا خيرَ في ودٍّ يجيء تكلُّفَا

والأخلاقُ ـ فاعلمن ـ جزءٌ كبير من المنهج النبوي، ومن قصّرَ فيها؛ ففيه نقص من تلك الجهة بقدر نقصه، فليستعن بالله في هدايته لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا هو. فكن ـ وفقك الله ـ دمثَ الأخلاق، رقيقَ الحاشية، سهلَ العريكة، بهيَّ الابتسام، طلْقَ المُحيَّا، ليِّن الخطاب، وقد قالت العرْبَاء: الكلامُ الليّنُ يغلبُ المنطِقَ البيّنَ، ومَن لانت كلمتُه وجبت محبتُه، وما تَشاتمَ اثنانِ إلا غَلَبَ ألأَمُهما.

وكُن كما أنت على سجيّتك وطبيعتك وعفويتك بلا تكلّف، وعش سهلًا حنونًا فهي سنّة نبينا ﷺ، أمّا تصنّعُ الرزانة في العلاقة بالناس الأقربين؛ فحقيقتُه وضعُ جدران عالية بين المُتَرَزِّنِ وبينهم بقدر ذلك التصنّع النّكِد، وليس المقصود إخلال المروءة، بل دفع التعالي، وخيرُ الأمور أوساطُها. ولا تدّعي زيادة علمٍ، أو تقى، أو ذكاء، أو مال، وإيّاك وتصنّع المثالية.

وروّح عن نفسك حينًا، وقد قال معاوية لعمرو بن العاص رضي الله عنهما: ما اللذة؟ قال: «طرحُ المروءة». وقال المأمون: «ما بقيت لي لذّةٌ إلا وجودُ أخٍ أضعُ بيني وبينه مؤنة التحفّظ». وقال مالك بن دينار: «أثقلُ إخواني عليّ من يتكلّف لي وأتحفّظ منه، وأخفّهم على قلبي من أكون معه كما أكون لوحدي». وقال الشافعي: «ليس بأخيك من احتجت إلى مداراته». وسُئِلَ ابن عمر رضي الله عنهما: هل كان الصحابة يضحكون؟ قال: «نعم، والإيمان في قلوبهم مثل الجبال». وقال بكر بن عبد الله: «كان أصحاب رسول الله ﷺ يتمازحون، حتى يتبادَحُون بالبطّيخ، فإذا كانت الحقائق؛ كانوا هم الرجال».

جِمَاعُ ذلك؛ كن كما أنت بلا تكلّف ولا تصنّع، وأرسل نفسك على سجيّتها، وكن بطبيعتك، ولا تدّعي لنفسك إيمانًا أزكى، ولا صدرًا أصفى، ولا ذكاءً أحدّ، ولا علمًا أغزر، ولا مالًا أكثر، ولا مقامًا ليس لك.

فأول درجةٍ في سلم الراحة أن تكشف نفسك كما هي، فلا تُعليها ولا تُدنيها إلا تواضعًا، وليس الإزراء بأشدّ من الاستعلاء، ومن تواضع لله رفعه. وليس معنى ذلك أن تسوطها بسياط الكبت والهضم لما لها فيه سبب فلاح ولطيفةُ فرحٍ، فنفسك أسيرتُك فارحمها رحمك الرحمن، والقصدَ القصدَ تبلغوا.

وألن جانبك للمؤمنين، وأطلق مُحيّاك وابسط تباشير وجهكَ البسَّامَ لهم، وكن كما قال ربك: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المَائـِدَة: ٥٤].

٤- **الصدق:**

الراضي بربه تعالى يهفو لبلوغ مرتبة الصدّيقية التي تلي النبوة وتعلو الشهادة، يقول الصدق ولو قتله الصدق، يطابق باطنه ما ظهر من قوله وعمله، مؤمن بربه تعالى مصدّق لرسوله ﷺ. ومن صدق الله صدَقَه الله، ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤٧﴾ [إِبْرَاهِيم: ٤٧].

هو غير محتاج لكذب يذبُّ به عن نفسه أو يهجم به على ما ليس له، فهو يدور مع قَدَرِ الله مسلّمًا قيادَ فؤاده لمن بيده مقاليد الأمور، يدافع القَدَرَ بالقَدَرِ مع التسليم في الأمرين للقادر سبحانه، يحرُثُ عمرَه بإخلاص، ويبني حياته بصدق، ويُقبل على آخرته بيقين، يقول الصدق وبه يعمل، ليس من الكَذَبَة في شيء لا ظاهرًا ولا باطنًا، ممتثلًا أمر ربه الأكرم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١١٩﴾ [التَّوْبَة: ١١٩].

ومَنْ صَـدَقَ الجـبّارَ يجـبر كسرَهُ   ومن نَصَـرَ المولى لهُ النصرُ سـاعيا

٥- **الخلق الحسن:**

حسنُ أخلاق المؤمن نابع من رضاه بمولاه، قد باع نفسه لربه، فهو لله وإلى الله ولا يرجو إلا الله. طابت سريرته فحسنت علانيته، يترقى درَج حَسَنِي الأخلاق ليفوز بقرب مجلسه يوم القيامة من حبيبه وقرة عينه رسول الهدى صلوات الله وسلامه وبركاته عليه وآله، فعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول

الله ﷺ قال: «**إنّ من أحبّكم إليّ، وأقربِكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنُكم أخلاقًا، وإن أبغضَكم إلي وأبعدَكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدّقون والمتفيهقون**». قالوا: يا رسول الله، قد علِمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيهقون؟ قال: «**المتكبرون**» (١) (٢).

وقال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير حسن الخلق: «هو طلاقة الوجه، وبذل المعروف، وكف الأذى».

أبُنَـيَّ إنّ البرّ أمرٌ هيّنٌ ... وجهٌ طليقٌ ولسانٌ ليّنٌ

إن من صفات الرضيِّ حسن الخطاب ولين الكلم، فمن حسن الخطاب أنهم لما قالوا لنوح عليه السلام: ﴿أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١﴾ [الشُّعَرَاء: ١١١] ووصفوا أتباعه بذلك وبالغوا في الاستهجان؛ لم يسكت عليه السلام على الباطل، بل وصف المستضعفين بأحسن وصف فقال بلطف: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٤﴾ [الشُّعَرَاء: ١١٤]، أما سابّيهم فلم يسبّهم، بل أبطل الباطل بهدوء وقوة حجة وحكمة.

ولما اتهموه بالضلال لم يتهمهم بمثله تلطّفًا في الخطاب لعله أن يصل لقلوبهم فيهتدوا فيفلحوا، ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ

---

(١) الترمذي (٢٠١٨) وقال: حديث حسن. وابن حبان (٥٥٥٧) وصححه الأرناؤوط.

(٢) الثرثار: هو كثير الكلام تكلّفًا. والمتشدّق: المتطاول على الناس بكلامه، ويتكلم بملء فيه تفاصُحًا وتعظيمًا لكلامه. والمتفيهق: أصله من الفهق وهو الامتلاء، وهو الذي يملأ فمه بالكلام، ويتوسع فيه، ويُغرب به تكبرًا وارتفاعًا على الناس. وقد خاب المتكبرون.

ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأعراف: ٦١ - ٦٢]. وقال هود عليه السلام لمّا سفّهوه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأعراف: ٦٧]. وتدبّر الشبه الكبير في بيان عظمة قصة هود عليه السلام وقصص أولي العزم الخمسة ـ على القول بتحديدهم ـ وقد ذكرت آية: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] في سورة الأحقاف التي ورد فيها قول الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ [الأحقاف: ٢١] وهو هود عليه السلام.

ومن التلطّف في الخطاب قوله تعالى في سياق محاجة الرسل لمخالفيهم: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [سبأ: ٢٤ - ٢٥].

وقد أمر الله موسى وهارون عليهما السلام بلطف الخطاب لأعتى الكفرة فرعون فقال: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤]، فلما حقّتْ علية الضلالة وانقطع أمل الهدى صاح به الكليم: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء: ١٠٢].

وأمرَنا الله تعالى بالجدال الحسن إلا من عَتَى وظَلَمَ وبغَى وكَابَرَ وأصَرّ ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦]. وتكفينا على الإطلاق وصيةُ ربنا الأعز الأكرم: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

وإياك وجدال ثلاثة: الأحمق والمستكبر والجاهل. كما قيل: «المجادلة مع الأغبياء تُشبه قتْل بَعوضة وقفتْ على خدّك، قد تقتلها، وقد لا تقتلها، لكن في كلتا الحالتين سينتهي بك الأمر لأنْ تصفع نفسك»!

وكن داعيًا إلى سبيلِ ربِّكَ بكلّ ما آتاك ربُّك، حتى وإن عاداكَ الناس أو ظلموك أو بَطَرُوا ما جئتَ به من الحقِّ إليهم، فجزاؤك عند من دعوتَ لسبيلِهِ لا مخلوقاتِه، ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الرَّعۡد : ١٧].

وبالجملة؛ فالراضي بربه يُجلّله الخُلُقُ الحسن، والصدر الطاهر، واللسان العاطر، والقلب المخموم، ومن رضيَ عن ربه وبربه ولربه أرضاه ربُّه، ﴿رِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ [التَّوۡبَة : ٧٢]، نسأل الله الكريم من فضله العميم.

٦- القناعة:

الراضي بالله قانع بما آتاه الله، فالقناعة تدخل دخولًا أوّليًا في معاني الرضا، والمسلم القنوع مفلح حقًّا وسعيد صِدقًا، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**قد أفلح من أسلم، ورُزِق كفافًا، وقنّعه الله بما آتاه**»[1]. وعن فضالة بن عبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**طوبى لمن هُدي للإسلام، وكان عيشه كفافًا، وقَنِعَ**»[2].

ومهما تراكمت أموال المترفين فإنهم في الحقيقة فقراء مالم يدركهم فضل الله بالقناعة، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**ليس الغِنَى عن كثرة العَرَض، ولكن الغنى غنى النفس**»[3]. والعَرَض هو المال.

---

(١) مسلم (١٠٢/٣)

(٢) أحمد (١٩/٦) بسند حسن.

(٣) البخاري (٦٤٤٦) ومسلم (١٠٥١) (١٢٠)

إذا مــا كنــتَ ذا قلــبٍ قنــوعٍ فأنــت ومالــكُ الــدنيا ســواءُ

وقد وعد الله المؤمنين الصالحين بأن يملأ قلوبهم قناعة فقال سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النَّحل: ٩٧] وقد فسر جمعٌ من السلف الحياة الطيبة بالقناعة، كعلي بن أبي طالب، وابن عباس رضي الله عنهم، والحسن البصري، وزيد بن وهب، ووهب بن منبه، رحمهم الله تعالى[(١)].

ومَن رضيَ بالله تعالى، وقنع برزقه له، واشرَأَبَّ بجدٍّ إلى معالي درجات الجنة؛ أقرَّ الله عينه في الدنيا، وأسعده في الأخرى، فعن زيد بن ثابت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من كانت الدنيا همّهُ؛ فرّقَ الله عليه أمرضه، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة نيّته؛ جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة»**[(٢)]. ومما نسب للشافعي رَحِمَهُٱللَّهُ:

ألا يــا نفــسُ إنْ تَــرْضَي بقــوتٍ فأنــتِ عزيــزة أبــدًا غنيــة

دعــي عنــكِ المطــامعَ والأمــاني فكــم أمنيــةٍ جلبــتْ مَنِيَّــة

(١) وانظر: تفسير الطبري (١٧ / ٢٩٠) والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٠ / ١٧٤) والدر المنثور للسيوطي (٩ / ١٠٩)

(٢) ابن ماجه (٤٠٩٥) وصححه الألباني، وانظر: الصحيحة (٩٥٠)

إنّ القناعة مال لا تضيعه النفقة، ولا يُفقد مع مضي الزمان، ولا تناله السُّرّاق، كما قيل ـ ولا يصح حديثًا ـ: «القناعة كنزٌ لا يفنى ومال لا ينفد». وكما أنّ الحرص والشّره سجنٌ للقلب، وغلٌّ في اليد والعنق، وقيد في الرِّجل؛ فالقناعة حُريّةٌ تامّةٌ من ذلك كله، فلا آسِرَ له سوى مولاه، قال إبراهيم بن شيبان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الشرف في التواضع، والعزّ في التقوى، والحُرِّيَّةُ في القناعة».

ولقد تأملتُ حال أقوى من عرفتُ من الناس؛ فوجدت الزهد في الدنيا زادَ قوّتِهِم بأمر الله تعالى، فليس في قلوبهم من حطام الدنيا ما يخسرونه إزاءَ رغائبِ الآخرة. ولقد قال وهب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «خرج الغنى والعزُّ يجولان فلقيا القناعة فاستقرّا».

أفادتني القناعةُ كلَّ عزٍّ ... وهل عزٌّ أعزّ من القناعة

فصيِّرْها لنفسكَ رأسَ مالٍ ... وصيِّرها مع التقوى بضاعة

وإنّ القناعة ـ فاعلم ـ هي أولى درجات الرضا، فلا رضا بدون قناعة بما يُرضى به، قال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الورع أول الزهد، كما أن القناعة أول الرضا». وقال ابن عطاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القناعة في الرزق والرضا بالقضاء». وقال سهل[١]:«حرثُ الدنيا القناعة، وحرثُ الآخرة الرضا». وروي[٢] أن عيسى عليه السلام قال لأصحابه: «لأنتم أغنى من الملوك». قالوا: كيف يا

(١) تفسير السلمي (٢ / ٢٢٧)

(٢) تفسير الثعلبي (٣ / ٤٥)

روح الله ولسنا نملك شيئًا؟ قال: «أنتم ليس عندكم شيء ولا تريدونها، وعندهم أشياء ولا تكفيهم».

إن كـانَ لا يُغنيـكَ مـا يكفيكـا فكـلُّ مـا في الأرض لا يُغنيكـا

والقناعة لا بد لها من كَيْس حتى لا تنحرف بصاحبها ذات اليمين بتفريط أو الشمال بإفراط، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا انحرفتَ عن القناعة انحرفت: إما إلى حرص وكَلَبٍ، وإما إلى خِسَّةٍ ومهانة وإضاعة»(١).

والعاقل بين الناس هو القنوع، قال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «النعم التي تقتضي شكر الله وعبادته على كل أحد كثيرة، فإن الخلق والرزق وما يحتاج إليه وتتوقف مصالحه عليه حاصل للكل، غاية ما في الباب أن حال الناس في الإتراف متقارب، فيقال في حق البعض بالنسبة إلى بعض: إنه في ضر، ولو حمل نفسه على القناعة لكان أغنى الأغنياء. وكيف لا والإنسان إذا نظر إلى حالة يجدها مفتقرة إلى مسكن تأوي إليه، ولباس الحرّ والبرد، وما يسد جوعه من المأكول والمشروب، وغير هذا من الفضلات التي يحمل عليها شحُّ النفس.

ثم إن أحدًا لا يُغلب عن تحصيل مسكن باشتراء أو اكتراء، فإن لم يكن فليس هو أعجز من الحشرات، لا تفقد مُدَّخَلًا أو مغارة. وأما اللباس فلو اقتنع بما يدفع الضرورة كان يكفيه في عمره لباس واحد، كلما تمزق منه موضع يرقعه من أي شيء كان.

(١) مدارج السالكين (٢ / ٢٢)

بقي أمر المأكول والمشروب، فإذا نظر الناظر يجد كل أحد في جميع الأحوال غير مغلوب عن كسرة خبز وشربة ماء، غير أن طلب الغِنى يورث الفقر؛ فيريد الإنسان بيتًا مزخرفًا، ولباسًا فاخرًا، ومأكولًا طيبًا، وغير ذلك من أنواع الدواب والثياب، فيفتقر إلى أن يحمل المشاق. وطلب الغنى يورث فقره، وارتياد الارتفاع يحط قدره، وبالجملة شهوة بطنه وفرجه تكسر ظهره.

على أننا نقول في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَالِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الوَاقِعَة: ٤٥] لا شك أن أهل القبور لمّا فقدوا الأيدي الباطشة، والأعين الباصرة، وبانت لهم الحقائق؛ علموا: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَالِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾﴾ بالنسبة إلى تلك الحالة»[1]. والترف المذموم هو ما ألهى عن الآخرة.

وإنّ مِن غرائزِ النفس المُحتاجةِ لتهذيبٍ: الطمع في الممنوع، وتذكّر اشتهاء شجرة الخُلْدِ.

رَأيْتُ النَّفْسَ تكرَهُ ما لَدَيْهَا ... وتطلُبُ كلَّ مَمْنُوعٍ عَلَيْهَا

والقناعة راحة من نصب الغنى، ومكابدة المال، وحراسة الغلات. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الرضا يثمر سرور القلب بالمقدور في جميع الأمور، وطيب النفس وسكونها في كل حال، وطمأنينة القلب عند كل مفزع مهلع من أمور الدنيا، وبرد القناعة، واغتباط العبد بقسمه من ربه، وفرحه بقيام مولاه عليه، واستسلامه لمولاه في كل شيء، ورضاه منه بما يجريه عليه، وتسليمه له الأحكام والقضايا، واعتقاد حسن تدبيره وكمال حكمته.

---

(١) تفسير الرازي (٢٩/ ٤١٥)

ويذهب عنه شكوى ربه إلى غيره، وتبرمه بأقضيته. ولهذا سمى بعض العارفين الرضا: حسن الخلق مع الله. فإنه يوجب ترك الاعتراض عليه في ملكه، وحذف فضول الكلام التي تقدح في حسن خلقه، فلا يقول: ما أحوج الناس إلى مطر، ولا يقول: هذا يوم شديد الحر أو شديد البرد، ولا يقول: الفقر بلاء، والعيال همّ وغمّ، ولا يسمّي شيئًا قضاه الله وقدره باسم مذموم إذا لم يذمه الله سبحانه وتعالى، فإن هذا كله ينافي رضاه.

وقال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أصبحت ومالي سرور إلا في مواقع القدر» وقال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «الفقر والغنى مطيتان، ما أبالي أيها ركبت، إن كان الفقر فإن فيه الصبر، وإن كان الغنى فإن فيه البذل».»[(١)].

ومن البحر المديد: «اعلم أن الدنيا إذا عظمت وجلّت في قلب عبد؛ فإن ذلك العبد يُعظِّم قدر من أقبلت عليه الدنيا، ويتمنى أن ينال منها ما نال، فإن كل إنسان يعظّم ما اشتهت نفسه. وهذه صفة عبيد الدنيا وعبيد أهوائهم. وهي صفة من أسكرته الغفلة، وخرجت عظمة الله عز وجل من قلبه، وإلى هذه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ [القَصَص: ٧٩]. فكل محب للدنيا، مستغرق في حبها، فهو لاحق بالذين تمنوا زينة قارون.

واعلم أن الدنيا إذا رسخت في القلب واستوطنت؛ ظهر ذلك على جوارح العبد بتكالبه عليها، وشدة رغبته فيها، فيسلبه الله تعالى لذة القناعة،

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ٢٢٠)

ويمنعه سياسة الزاهدين، ويبعده عن روح العارفين؛ فإن القلب إذا لم يقنع .لو ملك الدنيا بحذافيرها .لم يشبع.

وقال بعض الحكماء: «القناعة هي الغنى الأكبر، ولن تخفى صفة القانعين». ومآل الراغبين في الدنيا هو مآل قارون من الفناء والذهاب تحت التراب، وأنشدوا:

إن كُنْتَ تَسْمُو إِلى الدُّنْيا وزِينَتِهَا فَانْظُرْ إِلى مَالِك الأَموالِ قَارُونِ
رَمَّ الأُمُورَ فَأَعْطَتْهُ مَقَادَتَهَا وَسَخَّرَ النَّاسَ بِالتَّشْدِيدِ وَاللِّينِ
حَتَّى إِذَا ظَنَّ أَلاَّ شَيْءَ غَالِبُه وَمُكِّنَتْ قَدَمَاهُ أَيَّ تَمْكِينِ
رَاحَتْ عَلَيهِ المَنَايَا رَوحَةً تَرَكَت ذَا المُلْكِ والْعِزِّ تَحْتَ المَاءِ وَالطِّينِ»[(١)]

وتدبر سورة الزخرف وهي سورة الذهب، ومسمّى الزخرف أبلغ؛ لأنه وصفٌ للذهب في أجمل حالاته في الخيال، وأحلى أشكاله في العين، وأرغب شهوات النفس له، أقول: تأمّل كيف أحاط الله تعالى آيات ذكر الزخرف بآيتين تنسفان كلَّ لوعةِ دنيا، وآيات ذكر الزخرف هي قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزُّخْرُف: ٣٣]. فقد قال تبارك وتعالى قبلها: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزُّخْرُف: ٣٢]، وقال بعدها: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزُّخْرُف: ٣٥].

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لابن عجيبة (ت:١٢٢٤) (٥ / ٢٨٩)

ثم بعد سَرْدِ آيات تقلّبات أهلِ الدنيا فيها ذكر زُخرفَ الجنة المستحقّ إعلاء الهمم لتحصيله، وأن زخرف الدنيا ليس بشيء إزاءه فقال جل شأنه: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٦٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ٦٩ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ٧٠ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٧١ وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٧٢﴾ [الزُّخْرُف: ٦٨ - ٧٢].

وميزان المؤمن - فاعلم - دقيقٌ جدًّا في تدبير أمر الدارين، فالكفة الراجحة هي دار أبد الأبد، لا دار الفناء والخراب، بل إنه ليجعل الدنيا مطيةً صالحة يرحل بها لدار الكرامة في جوار الرب الكريم سبحانه، قال تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ [القَصَص: ٧٧]، أي، أطلب فيما أعطاك الله من الدنيا الدار الآخرة وهي الجنة؛ فإن من حق المؤمن أن يصرف الدنيا فيما ينفعه في الآخرة لا في التجبر والبغي. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا﴾ [القَصَص: ٧٧] اختلف فيه؛ فقال ابن عباس والجمهور: «لا تضيع عمرك في ألا تعمل عملًا صالحًا في دنياك؛ إذ الآخرة إنما يُعمل لها، فنصيب الإنسان عمره وعمله الصالح فيها»، فالكلام على هذا التأويل شِدَّةٌ في الموعظة.

وقال الحسن وقتادة: معناه: «لا تضيع حظك من دنياك في تمتعك بالحلال وطلبك إياه، ونظرك لعاقبة دنياك». فالكلام على هذا التأويل فيه بعض الرفق به وإصلاح الأمر الذي يشتهيه، وهذا مما يجب استعماله مع الموعوظ خشية النَّبْوَةِ من الشدة، قاله ابن عطية.

قلت: وهذان التأويلان قد جمعهما ابن عمر في قوله: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنّك تموت غدًا». وعن الحسن: «قدِّم الفضل، وأمسك ما يبلغ». وقال مالك: «هو الأكل والشرب بلا سرف» وقيل: «أراد بنصيبه الكفن». فهذا وعظ متصل، كأنهم قالوا: لا تنس أنك تترك جميع مالك إلا نصيبك هذا الذي هو الكفن. ونحو هذا قول الشاعر:

نصيبُك ممّا تجمعُ الدهر كلّه ... رداءان تُلْوَى فيهما وحنوطُ

وقال آخر:

وهي القناعةُ لا تبغ بها بدلًا ... فيها النعيمُ وفيها راحةُ البدنِ

انظر لمن ملك الدنيا بأجمعِها ... هل راح منها بغير القطنِ والكفنِ

قال ابن العربي: وأبدع ما فيه عندي قول قتادة: «ولا تنس نصيبك الحلال، فهو نصيبك من الدنيا. وما أحسن هذا! ﴿وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ﴾ [القَصَص: ٧٧]، أي أطع الله وأعبده كما أنعم عليك»[1]. وما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا، ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٢٠١﴾ [البَقَرَة: ٢٠١].

وإنّ نابتك نائبة فاذكر فضل الله عليك ثلاثًا؛ إذ لم تكن في دينك، وأنها أهونُ من أختها، وأنك رُزقت احتسابها عند الله، كما قال عمر. وإنّ من شُكرِ النعمة؛ أن تحمدَ الله عليها وإن قلّت، مستشعرًا حرمان غيرك منها، فإن

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٣ / ٣١٤)

شكوت زوجك؛ فغيرك لا زوج له، وإن أتعبك ابنُك؛ فغيرك لا ابن له، وإن شكوت قلة مالك ودنوّ مرتبة عملك؛ فغيرك لا عمل له وقد كسرت ظهره الديون، وإن شكوت ضَعة نسبك؛ فغيرك لا نسب له ولا يعرف حتى والديه، وإن شكوت ظلم أحد؛ فاذكر من تقصفهم الطائرات والمدافع وهم بين قتيل وسجين ومشرد ومفقود ومفتون في دينه، وإن شكوت كلام الناس في عرضك؛ فتذكر من تُغتصب كريمته بين يديه قهرًا، وإن شكوت ضعف صحتك؛ فتذكر من هم على الأسرة البيضاء ممن لا يُحرّك أيّ عضوٍ، أو يتجرع الكيماوي لدفع السرطان، أو يغسل كليتيه كل يومين، أو لا ينام لشدة الآلام، بل تذكّر من تحت الأرض قد اخترمتهم المنون، ولقطتهم المنايا، وحيل بينهم وبين العمل للآخرة، وتذكر ستر الله عليك وقد هُتك سترُ غيرك، وحرّيَتك في أرض الله وغيرك قد حُكم عليه بدفنِ عمره خلف الزنازين أو تحت الأقبية.

كُلُّ مَن تَلقاهُ يَشكُو دَهرَهُ ... لَيتَ شِعرِي هَذِه الدُّنيا لِمَنْ

فاحمد الله الذي لا يأتي الخير إلا منه، ولا يدفع الشر إلا هو، له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه نرجع ونؤوب، سبحانه وبحمده، وتبر مليًّا قولَ ربك الأعزّ الأكرم: ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ١٠٥﴾ [البَقَرَة: ١٠٥].

هِيَ شِدَّةٌ يَأتِي الرَّخَاءُ عَقيبَهَا ... وأَسًى يُبَشِّرُ بالسرورِ العَاجِلِ

واعلم أنّ الدنيا إن أقبلتْ فَتَنَتْ، وإن أدبرت وَعَظَتْ، وقد قال خالقُها: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ۝٥﴾ [فَاطِر: ٥].

وقلّما تآخى اثنان فدخلت بينهما دنيا؛ إلا فرّقت بينهما شيئًا. وتأمل كيف تمكّن الرجيم من أبوينا بعد أن أسلما قيادهما للحرص: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأَعۡرَاف: ٢٢] فكن معتدلًا قنوعًا، لا هلعًا جزوعًا، ولتكن الدنيا في يدك لا قلبك.

تعالى الله يا سَلْمَ بن عمروٍ ... أَذلَّ الحرصُ أعناقَ الرجالِ
هَبِ الدنيا تُساق إليكَ عفوًا ... أليسَ مصيرُ ذلك للزوالِ

ولما سئل الإمام أحمد: هل يكون مع الرجل مئة ألف دينار وهو من الزاهدين؟ فقال: «نعم، إذا كانت في يده لا في قلبه». وإذا أردت أن تعرفَ هل الدنيا في قلبك أم لا؛ فانظر حالك مع المشتبهات وقوعًا أو تورّعًا.

وهل بالإمكانِ اجتماعُ الطموحِ بالقناعة؟ نعم، إن كان الطموحُ موصولًا بالدار الآخرة. وقد ذكروا أنّ النابغة الجعدي أنشد:

بلغنا السماءَ مَجدُنا وجُدُودُنا ... وإنّا لنَبْغِي فوقَ ذلك مَظْهَرَا

فقيل: إلى أين المظهر يا أبا ليلى؟ قال: الجنة، إن شاء الله.

هذا والقناعة من أعظم روافد العفاف، وإنّ العفاف خلق يسمو بالنفس جدًّا، ويرفعها وينزهها عن الإهانة والمذلة حتى مع ضيق ذات اليد، ولا بدّ للعفيف من قناعةٍ تُبرِدُ لواعجَ حاجته، وتُشبع نهمة فاقته. فصُن وجهك عن

التّأكّل به فماؤه عزيز، فإن كانت لك حاجة ملحّةٌ لدى صاحبك؛ فألمحْ إليها في الأولى، ثم صرّح في الثانية، ثم كرّر التصريح في الثالثة، فإن كانت؛ وإلا أغلِقِ الباب للأبد، فماءُ الوجه ماءُ الروح، فسِرُّ العفاف إذن هو القناعة! ولله أبي الحسن النعيمي إذ يقول:

إذا أظمَأَتــــكَ أكُـــفُّ اللئـــام كَفتــكَ القناعَـــةُ شِــبْعًا ورِيَّـــا
فكُـــنْ رَجُـــلًا رِجْلُـــهُ في الثَّـــرَى وهَامَـــــةُ هِمَّتِـــــهِ في الثُّرَيَّــــــا
أبِيًّــــــا لنَائِــــــل ذي ثـــــروةٍ تـــرَاهُ بـــــما في يَدَيــــه أبِيَّـــــا
فـــإنّ إرَاقَـــةَ مـــاءِ الحَيَـــاة دُونَ إراقَـــةِ مـــاءِ المُحَيَّــــــا

وقال الحسن البصري: «لا يزالُ الرجل كريمًا على الناس حتى يطمع في دينارهم، فإذا فعل ذلك؛ استخفوا به، وكرهوا حديثه، وأبغضوه». قلت: تصديقُ ذلك في حديث أبي العباس سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، دُلّني على عملٍ إذا عملته؛ أحبني الله، وأحبني الناس، فقال: **«ازهد في الدنيا يحبّك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس»**(١).

ذلك أنّ المال عزيزٌ بأيدي أصحابه، ولا يهون عليهم أخذه من أيديهم، بل إنهم ليصولون دونه صيال السباع الضواري، ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾ [الفَجْر: ٢٠] فكما أنّه يهمّهم ويسوقهم تحصيله، فكذلك يؤرّقهم ويرُوقهم حفظه،

(١) ابن ماجه (٤١٠٢) والحاكم (٣١٣/٤) وحسنه النووي في الرياض.

فالشّح مغروز في نفوس البشر، فمن أراد مزاحمتهم عليه؛ قَلَوه وأبغضوه، إلا من سَخَتْ نفسه منهم لأمرٍ خارج عن ذلك؛ كزهد أو غياثٍ أو تحبّبٍ أو صدقة ونحو تلك الرغائب. فأقلُّ الناس أهلُ القناعة، وأقلُّ قليلِهم أهلُ الزَّهادة.

واعلم ـ حفظ الله قلبك ـ أنّ فتنة النساء أشدُّ من فتنة المال عند بعضهم، والعكس صحيح لدى آخرين، وكلّ امرئ قد رُكِّبَ فيه ضعفٌ وميل بحُكم بشريّته، فيستحكمُ في جهةٍ دون الأخرى، وقد حذّر رسول الله ﷺ أمّته من الفتنتين، فقال في شأن النساء: **«ما تركتُ بعدي فتنةً هي أضرّ على الرجال من النساء»**(١). وقال في فتنةِ المال: **«لكلِّ أمة فتنة، وفتنةُ أمتي المال»**(٢).

فلدى بعض الناس ميل غريزي للنساء أكثر بكثير من ميله لجمع المال، ولدى آخرين طمعٌ وجشع وشُحٌّ وهلع للمال مع زهده في أمر النساء، والشيطانُ يشمُّ قلبَ عدوّه وابنِ عدوه آدم، فحيثما وجد ضعفًا ولج منه، سواء من هذين البابين أو من سواهما كحب الرئاسة أو محبة الظلم أو غير لك. وقد جمعهما حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّ رسول الله ﷺ قال: **«إنّ الدنيا حلوةٌ خَضِرةٌ**(٣) **وإنّ الله مستخلفُكم فيها، فناظرٌ كيف تعملون، فاتقوا فتنة**

(١) البخاري ٧/١١ (٥٠٩٦) ومسلم ٨/٨٩ (٢٧٤٠)

(٢) الترمذي (٢٣٣٦) وقال: حديث حسن صحيح غريب.

(٣) خَضِرَة: غضَّة ناعِمَة طريَّة نضِرة، كالثمرة الطيبة.

الدنيا وفتنة النساء، فإنّ أول فتنة بني إسرائيل في النساء»[1]. ففتنةُ المال من أوّليات فتنة الدنيا للعالمين.

وإنّ لك ـ يا صاحبي ـ ثوب إيمانٍ ناصع البياض فلا تلوّثه بسواد الخطايا، والعفافُ نَزْهٌ ناصع شديد الصفاء، فنقطة فجور تفسد أرطالًا من الفضيلة، وخطوُةُ خيانة تلوّثُ أميالًا من العفاف. فأسأل ربك العفاف في أمرك كله، ومن الأدعية المأثورة: **«اللّٰهم إني أسألك الهدى، والتقى، والعفاف، والغنى»**[2]. ومنها: **«اللّٰهم اكفني بحلالك عن حرامك، وأغنني بفضلك عمن سواك»**[3]. فألحّ على ربك أن يحفظك بالعفاف في شأنك كله. ووطن نفسك القناعة تكن ـ بإذن الله ـ من المفلحين[4].

٧- الصبر:

طبع الراضي الصبر، لأنه مستسلم للقضاء حلوه ومرّه، فلا جزع ولا اعتراض، بل صبر وتسليم، فإن ضعف الصبر في صدرك؛ فراجع مساقي الرضا في قلبك، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

---

(١) مسلم (٧١٢٤)

(٢) مسلم ٨/٨١ (٢٧٢١)

(٣) الترمذي (٣٥٦٣) وحسنه.

(٤) (ولا تفرقوا) (٣٤٤-٣٤٦) للمؤلف.

فالإنسان ضعيف بطبعه، قليلُ الحيلة، واهنُ الصبر إلا من صبّره الله، فإن ساعد على ذلك لا مبالاة بعاقبة التساهل بكبح النفس الغضوب، أو الشهوانية، أو العابثة؛ أفضى به ذلك إلى التلف.. أو كاد.

فواعجبًا لذلك المخلوق الصغير، ينكسر لأدنى سبب، ويضعف لأول امتحان، ويفرح ويحزن، ويضحك ويغضب، ويروح ويجيء لأتفه شيء.. ألا ما أضعفك يا أيها الإنسان!

سأصبرُ حتّى يعجزَ الصبرُ عن ... وأصبرُ حتى يحكم اللهُ في أمري

سأصبرُ حتى يعلم الصبرُ أنّني ... صبرتُ على شيء أمرّ من الجمرِ

أي أُخيّ؛ اصبر وارض واحمد واشكر، وافعل الصواب ولو كنت لوحدك، واجتنب الباطل ولو رأيت عليه الأكابر. فالأُمّةُ هو من كان على الحقِّ ولو كان لوحده كما كان خليل الرحمن، وخذ الأمر بتفاؤل لا بقنوط، وبقوّة لا بلعب، وبجدٍّ لا بهزل، ولا تكن من ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ [الأعراف: ٥١] ولا تتعلق ولا ترجُ ولا تخف إلا الله جل جلاله. واعلم أن تكرار لا حول ولا قوة إلا بالله له الأثر النافع جدًا في قوة الروح والنفس والبدن والإيمان.

قد هيأوك لأمرٍ لو فطنتَ له ... فاربأ بنفسك أنْ ترعى مع الهَمَلِ

واعلم أنهم يُجيعون ويُطعم الله، ويحبسون ويفرّج الله، ويَنسون ويذكُرُ الله، ويخذلون ويكفي الله، ويعادُون وينصر الله، إنه الله وكفى بالله وكيلًا. فلا تحنِ رأسك لغير خالقك، ولا تذلّ رقبتك لغير مولاك، فهو الكفاية والهدى والغنى والحفظ والنصر، والله تعالى لا يخلف ميعاده: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ

ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَـٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٩ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠﴾ [الأنبياء: ٩-١٠].

والمؤمن الصالح مهما كِيدَ من مخلوق؛ فهو موقن بأن هناك من يستطيع حمايته وهو متعلّق بكلّيّته عليه، مستعين به، قريبٌ منه، وعلى قدر القرب يكون الأمن، وعلى قدر إحسان العبادة يكون تحقيق معية الحفظ والتمكين، فالقريب من الله قريب من عونه ونصره وهداه: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٨٢﴾ [الأنعام: ٨٢].

ومهما كادك الخلق بسَوْءَاتهم ومكائدهم فتذكر ثلاث صفات لربك الأعلى تُبَدِّدُ عنك كل ضيق ومخافة: علمه، وقدرته، وعدله.

وكُلُّ الحادِثاتِ وإنْ تَناهَتْ   فَمَقْرُونٌ بها الفَرَجُ القَرِيبُ

ويا صاحبي: أَطِبْ معدنَك بالذكر والإيمان، وليكن قلبك ذاك الراضي بربه الشاكر لنعمه الصابر على ابتلائه المستغفر لذنبه. كن كذلك دومًا فلا ضَيْعَة لمن كان مع الله.

وتأمل حال يوسف عليه السلام، فقد بركت على كاهله خمسُ محنٍ شداد فاجتازهن عليه السلام بيقين وثبات وإحسان: الجُبُّ، والمراودة، والسجن، ونعيم السلطة، ولذّة الانتقام. لقد مرّت كلّ عواصفها الشديدة الهائلة بجبل إيمانه؛ فثبت ورسخ. فخلّد الله تعالى ثباته في سورته، فسورةُ يوسف هي سورة الثبات. والمؤمن مأمور بأخذ أسباب الثبات على دين الله تعالى، فيشدُّ ما وَهَى

من أعمدة بنيانه، ويبنى ما انهدّ من متين جدرانه، ويحرس أرجاء بيضةِ دينه رأسِ ماله.

وقد يبتلي الله عبده ليرفَعه وليرحم به غيرَه في قابل أيّامه. فانظر كيف قدّر الله تعالى أن يُباع يوسف وتتوالى مَاجَرَيَات بلاءاته ليكون ـ بإذن الله ربه ـ سببًا في دفع مجاعةٍ عامّة مميتة، تتابعت سبعةُ أعوام في مصر وما حولها. وحقًّا: إذا أراد الله أمرًا هيّأ له أسبابه.

والقدر سرّ الله تعالى في خلقه، ومسالكه في غاية الدقة والإحكام والغموض والخفاء، وبعضها مرتبط برقاب بعض بشكل مدهش هائل عجيب، وأنّى لبشر أن يدرك ذلك، لأنها غيوب كتبها وقدّرها العليم الحكيم.

فلولا أن الله تعالى قدّر على يوسف عليه السلام أن يُلقى في البئر؛ ما دخل بيت العزيز في مصر، ولولا أنه قدّر له أن يدخل السجن؛ ما قابل ساقي الملك، ولولا أنّه قدّر للملك أن يرى الرؤيا العجيبة ما انتهى يوسف عليه السلام لأعظم وزارات مصر فيكون هو عزيز مصر، ثم رحيل آله لمصر وسكناهم إياها. إنها القصة المذهلة التي ابتدأت بحُلْم وانتهت بتحقيقه بعد معاناة أربعين سنة[(١)]، فهي سورة الفرج بعد الشدة لمن أحسن بالله ظنًّا وسورة الثبات على دين الله عند أعتى الملمّات. فتأمل ما في تلك القصة العجيبة من أمور بدت لأول وهلةً مصيبة لكنها قد استبطنت فواتح الفرج ونعيم السرور.

---

(١) نقل ابن الجوزي في المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (٣١٩/١) عن سلمان رضي الله عنه قال: «كانَ بَيْنَ الرؤيا وتأويلها أربعون سَنَة». وعن الحسن: «ثمانون سنة».

ولمّا وصل الكربُ بيعقوب منتهاه؛ عَلِمَ أن الفرج قريب. وتأمّلْ حاله حينما فقد ابنه الثاني فابتهل إلى الله وشكا إليه حاله وأحسَنَ به الظن ثم قال: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف: ٨٧].

فابتدأ بالأمل في رجوع يوسف الغائب منذ أربعين سنة حتى ذَكَرَهُ قبل أخيه الغائب منذ أيام. وتأمل كيف تنسّم روح الفرج فقال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾ [يوسف: ٨٣] ألا ما أجمل قلوبهم!

لذلك: فالمصائب إذا توالت تولّت. وإذا أظلم ليل الابتلاء فقد اقترب فجر الفرج، فمن نار الألم يشرق الأمل، ومن ليل الهموم ينشق ضياء الفرح، فيا مثقلًا بأحزانه.. أفِقْ فحزن الدنيا لا يستحق!

يــا مــن عرفتُــكَ بالتهاسُــكِ مُولَعًــا ... حُرِّيّــةُ الجــدرانِ أن تتصــدَّعَا

ثم تدبّر قوله الأعز الأجل في خبر كليمه وما دبّره الحكيم سبحانه بأقداره المترابطة المتتابعة: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [طه: ٤٠].

إذا اشـتملتْ عـلى اليـأس القلـوبُ ... وضــاقَ لمــا بِــهِ الصَّــدرُ الرحيــبُ
وأوطــأتِ المكــارهُ واطمأنّــت ... وأرْسَــتْ في أماكنهــا الخطــوبُ
ولم تَرَ لانكشاف الضُّرِّ وجهًا ... ولا أغنــى بحيلتــه الأريــبُ
أتــاكَ عــلى قنــوطٍ منــك غــوثٌ ... يَمُــنُّ بــه اللطيــفُ المســتجيبُ

ولك أن تعلم أن ثابت البُناني رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد احتاج لمجاهدةِ نفسه على قيام الليل عشرين سنة حتى وصل بها لشاطئ النفس المطمئنة، قال: «جاهدت نفسي على قيام الليل عشرين سنة، ثم تلذذتُ به عشرين أخرى».

فالطريق طويل لكنه مفضٍ برحمة الله إلى نعيمٍ في الدنيا ونعيمٍ في الآخرة، لذا فلا عجب أن ذكر الله الصبرَ في القرآن أكثر من تسعين مرة، فلا خير في الدنيا والأخرى إلا بصبر، وقال الحبيب صلوات الله وسلامه وبركاته عليه: **«ومن يستعففْ يعفَّه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبّر يصبّره الله. وما أُعطي أحدٌ عطاء خيرًا وأوسع من الصبر»**[1].

ولا يمنع جميلُ الصبر من إسبال عبراتِ الرحمة ونفثِ زفرات الوفاء، لكنه يعلم أنّ في الله خَلَفٌ عن كل مفقود، وأن الجنة ميعاد المحبين المؤمنين.

وَهَوَّنَ ما أَلقَى مِن الوَجدِ أنّني ... أُسَاكِنُه في داره اليومَ أوغَدًا

فحينها تهشُّ نفسُه، ويهدأُ جأشُه، ويعظم رضاه وحمده وشكره، فنِعمَت السلوى جزاء الصابرين الراضين الحامدين الشاكرين، ولَنِعمَ العزاءُ الجنة، ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴿٦٣﴾﴾ [مَرْيَم: ٦١ - ٦٣].

أكرِمْ بجنّات النعيم وأهلِها ... إخوانُ صدقٍ أيّما إخوانِ

---

(١) البخاري ٢/١٥١ (١٤٦٩) ومسلم ٣/١٠٢ (١٠٥٣) (١٢٤)

جـــيرانُ ربِّ العـــالمين وحزبُـــهُ أكـــرِمْ بهـــم في صـــفوةِ الجـــيرانِ
هـــم يســـمعون كلامَـــهُ ويرونَـــهُ والمُقلتـــــان إليـــــه ناظرتـــــانِ

وعلى كثرة مفردات الألم والبؤس والشدة إلا كلمة «الوداع» لها وقعٌ مُمِيتٌ للفؤاد، ولا يُحيِيهِ سوى معاني: الحمد لله على كل حال.

ودّعتُـــهُ وبـــودّي لـــو يُـــودّعُني طيـــبُ الحيـــاة وأني لا أودّعُـــهُ

ولولا انتظار موعودِ رب العالمين بلقيا الأحباب في دار الكرامة؛ لتقطّعت نفوسُ المُحبين من حسرات الفراق!

عزائـــي نبـــيُّ اللهِ مـــن كـــل ميِّـــتٍ وحسبي ثوابُ الله من كلِّ هالك
إذا مـــا لقيـــتُ اللهَ عنّـــي راضـــيًا فـــإنّ سرورَ الـــنفسِ فـــيما هنالـــك

واهِمٌ مَنْ ظَنَّ أنّ الموت هو الفراق، فالفراق ليس هنا بل هناك: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ۝١٤﴾ [الرُّوم: ١٤] قال قتادة: «فُرقة لا اجتماع بعدها». اللّهم رضاك والجنة ولقيا الأحبة محمدًا وحزبه. وفي وداع البارودي لأمه رحمهما الله وقد جاءه خبرها وهو في منفاه في سرنديب (سيرلانكا):

فـــوالله لا أنســـاكِ مـــا ذرّ شـــارقٌ ومـــا حـــنّ طـــيرٌ بـــالأراكِ مُهيـــنِمَا
عليـــكِ ســـلامٌ لا لقـــاءَةَ بعـــده إلى الحشر إذْ يلقى الأخيرُ المُقدَّمَا

وليس كلّ من ظنّ بنفسه الصبر والرضا وقت السعة والرخاء يكون كذلك وقت الضيق والشدة، فالنيّة قُلّبٌ، والعزائم تنفسخ، والعقل يعزُب،

والعزيمة تخور، والنفس تضعف، إن لم يكن الله تعالى معه بلطفه وحفظه. فاستودِعْ نفسَك ومن تحبّ من لا تضيع لديه الودائع، وذلك الله وحده.

وليس الوصلُ في اللُّقيَا ولكن ... ودادٌ في القلوب بلا جفاءُ

فكم من حاضرٍ قد غاب عنَّا ... وكم من غائبٍ زاهي اللقاءِ

واعلم أنّ الله تعالى لمّا بثّ الخلائق اختار لك هذا الزمان وهذا المكان ليكونا محل الابتلاء الإلهي لك، فكن خيرَ ذاكرٍ صابر حامد شاكر تائب مستغفر. واعلم أنّ للمؤمن بحرٌ لا تكدره مصائب الزمان، إنه بحر الرضا بالله تعالى، فاغمِسْ كلَّ همّ لك في بحر الرضا بالله، حينها تنطفئ نيران المصيبة ببرد السلام. فليس مرادُهُ أن يُعذِّب، ولكن يَبتلي ليُهَذِّب.

دع المقاديرَ تجري في أعَنّتِها ... ولا تبيتنّ إلا خالي البالِ

ما بين غمضةِ عينٍ وانتباهتها ... يغيّر الله من حالٍ إلى حالِ

واعلم أنّ قدرَك إنْ لم تذهب إليه؛ جاء إليك. فكن لله، وبالله، ومع الله، وإلى الله؛ فهو الغاية وما سواه هباء، وهو الباقي وما سواه فناء، وهو الحقُّ وما سواهُ باطل، قال سبحانه: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝٤٢﴾ [النَّجم: ٤٢] وقال: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨﴾ [العَلَق: ٨].

فمهما سلكتَ من دروب الحياة خيرًا أو شرًّا، سرورًا أو حزنًا، صحة أو سقمًا، شوقًا أو خوفًا؛ فإليه وحدهُ المنتهى. قال بعض الحكماء: «الدنيا بحر، والمركب التقوى، والآخرة الساحل».

واحمد الله تعالى واشكره كثيرًا على أن فضّلك على غيرك تفضيلًا بالعلم به والفرح به والأنس به في وقتٍ ترى فيه من يفرّ من الله حال شدته وكربته، فلا يفزع للصلاة والدعاء، بل لسفر أو لهو أو مسكر، أما أنت فاختصك بسفرك إليه بذكره ودعائه فهو مفزع الهاربين، ومأوى الشاردين، ومهوى المشمرين، وقبلة القاصدين، ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرَّعْد: ٢٨].

ولا تقل ليس معي أحد إذا كان معك الأحد الفرد الصمد، ومن لذائذ النفوس الاكتفاء برب البرايا والنفوس. وأنفعُ طعام للقلب هو جرعةٌ من الاكتفاء بالله تعالى.

أصبرْ على مضضِ الإدلاج بالسَّحرِ ... وبالرَّواح على الحاجات والبُكَرِ
إنّي رأيتُ وفي الأيام تجربة ... للصبرِ عاقبةٌ محمودةُ الأثرِ
وقلّ مَنْ جَدّ في أمرٍ يُطالبه ... واستصحب الصبرَ إلا فازَ بالظّفَرِ

قال الجنيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما طلب أحدٌ شيئًا بجدّ وصدق إلا ناله، فإن لم ينله كلّه نال بعضه». وقيل للبخاري: بم أدركت العلم؟ فقال: «بالمصباحِ، والجلوسِ إلى الصباح». وللموصلي:

عِندَ الصَّبَاحِ يَحمَدُ الْقَوْمُ السُّرَى ... وتَنجَلِي عَنهُم غَيَابَاتُ الْكَرَى

قال شيخ الإسلام: «الناس عند مقابلة الأذى ثلاثة أقسام: ظالمٌ يأخذ فوق حقّه، ومقتصدٌ يأخذ بقدر حقّه، ومحسنٌ يعفو ويترك حقّه». وصدق الفضل بن يحيى حينما قال: «الصبرُ على أخٍ تعتب عليه، خيرٌ من صديقٍ تستأنفُ مودّته».

وفي قول تعالى في وصف أهل الإيمان: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ٣٧﴾ [الشُّورَى: ٣٧] دليلٌ على أن الانتقام يقبحُ من الكرام. ورُبَّ عفوٍ أنكى من انتقامٍ.

وقال النخعي في قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ٣٩﴾ [الشُّورَى: ٣٩]: «كانوا يكرهون أن يُستذلّوا، فإذا قدروا عفوا».

والعفو النافع هو ما كان عن مقدرة، وكان لأهله، أي ما فيه صلاحهم وأَمْنُ غائلتهم، وإلا فكما قيل في شأن من يضرّ العفو عنه وعن جذوره وفروعه:

لا تقطعـنْ ذَنَـبَ الأفعـى وتُرسِـلَهَا ... إن كنـتَ شـهمًا فـأتبعْ رأسـهَا الـذَّنبَا

همْ جرّدُوا السيفَ فاجعلهُمْ لهُ جُزُرًا ... وأوقَـدُوا النـارَ فـاجعلهمْ لهـا حَطَبًـا

والعتب الظريف على الأحيان يزيل أكدار سوء الأفهام، ولا بأس بالعتاب بين الأحباب.. هذا عِتابُكَ إلّا أنّهُ مِقَةٌ.

ودومًا؛ تذكّر الأجمل، واستعدّ للأسوأ، وتفاءل بالأفضل. واعلم أنّ الذكاء نعمةٌ إذا أوصل صاحبه لمسالك حسن الظن، والعكس صحيح، إذ مسارب العقل لا نهاية لها، فهي شاسعة مدهشة، وهنيئًا لمن هداه الله سبيله.. ويا لك من مستودعٍ للعجائب أيها الإنسان.

والوفاء الوفاء، وإن كانت معه الوفاة:

يميلـون في شـقِّ الوفـاءِ مـع الـرَّدى ... إذا كـان محبـوب البقـاء مـع الغـدرِ

واجعل بينك وبين المحرمات حاجزًا مِنْ ترك المكروهات حِمًى لورعك وحفظًا لأمانتك، قال سهل بن عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أعمالُ البِرِّ يُطيقها البرُّ والفاجرُ، ولكن لا يصبر عن المعاصي إلا صدِّيق». وقال الحجاج بن يوسف: «الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذابه».

والقاعدة المطردة التي لم ولن تنخرم: من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه. وتأمل عَقْرَ سليمان عليه السلام خيله غضبًا لله إذ ألهته عن صلاة العصر؛ فعوّضه الشكور الحميد عنها بالريح: ﴿تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ٣٦﴾ [ص: ٣٦].

والراضي عن ربه ساخط للمعصية محتسب عليها، فكُن آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، فجمالُ العلم والعبادة الأمرُ بتقوى الله تعالى. وكن مبتدئًا بنفسك، مستنًّا بنبيك ﷺ، وعليك بالعلم قبل الإنكار، وبالحلم والرفق أثناءه، وبالصبر بعده، فمن أنكرَ فإنه سيؤذَى في الله، فهي سبيل المرسلين وأتباعهم الصادقين، لهذا أمر بالله بالصبر في هذا الموطن: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧﴾ [لقمان: ١٧].

فكن - رعاك الله - من البقيّة السابقين البررة: ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [هود: ١١٦]

وقد كانوا إذا عُدُّوا قليلًا ... فقد صاروا أقلّ من القليلِ

وويلٌ لمن تَعَجّلَ بعلمِه حطامًا فانيًا، ﴿لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ٦٣﴾ [المائدة: ٦٣].

وتزدادُ أهمية الدعوة إلى سبيل الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونشر العلم عند انتشار الفساد وتفشي الغفلات وغلبة المنكرات.

وإنّ الناهي عن المنكر دافعه أمران: براءةُ ذمته، ورحمتُه بالناس، ﴿قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ١٦٤﴾ الأعراف: ١٦٤. قال العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كلّما أضيعت السنّة؛ كان فعلها ونشرها بين الناس أوكد؛ لئلّا تُترك وتموت».

يَقُولُونَ الزَّمَانُ بِهِ فَسَادٌ ... وهُمْ فَسَدُوا وَمَا فَسَدَ الزَّمَانُ

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأيُّ دينٍ وأيّ خيرٍ فيمن يرى محارمَ الله تُنتهك، وحدودُه تُضاع، ودينُه يُترك، وسنُّة رسول الله ﷺ يُرغب عنها، وهو باردُ القلب، ساكت اللسان، شيطان أخرس، كما أنّ المتكلم بالباطل شيطان ناطق. وهل بليّة الدين إلا من هؤلاء الذين إذا سلمت لهم مآكلهم ورياساتهم؛ فلا مبالاة بما جرى على الدين، وخيارُهم المتحزِّنُ المتلمِّظُ، ولو نُوزع في بعض ما فيه غضاضة عليه في جاهه أو ماله؛ بَذَلَ وتبذّل، وجدّ واجتهد، واستعمل مراتب الإنكار الثلاثة بحسْب وسعه!

وهؤلاء مع سقوطهم من عين الله ومقت الله لهم قد بُلوا في الدنيا بأعظم بلية تكون وهم لا يشعرون؛ وهي موت القلوب، فإنّ القلب كلّما كانت حياته أتمّ؛ كان غضبه لله ورسوله أقوى، وانتصاره للدين أكمل»[1].

---

(١) إعلام الموقعين (٢ / ١٧٧) وقال ابن عقيل في الفنون: «مِن أعظم منافع الإسلام وآكد قواعد الأديان الأمر بالمعروف والنهي والتناصح؛ فهذا أشقّ ما يحمله المكلف؛ لأنه مقام الرسل، حيث يثقل صاحبه على الطّباع، وتنفر منه نفوس أهل اللّذّات، ويمقته
=

أيَا أمَّةَ الإسلام جِدُّوا وأدِجُوا فإنَّ عَرِينَ الليثِ قد باتَ خاليا

لئن كان للإسلامِ قومٌ ودولةٌ فهذا أوانٌ للنُّهوضِ بداليا

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يا من هو من عسكرِ الرسول، أيحسنُ بك كلَّ يوم هزيمة! فيا أقدام الصبر احملي، فقد بقي القليل». وسئل الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أين تجد الراحة؟ فقال: «في سجدة بعد غفلة، وتوبة بعد ذنب»، وصدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فمن سَجَدَ وَجَدَ، والسجدة الطويلة تجلو الهمّ الثقيل، وما استُجلبتْ عطايا الكريم بمثل السجود الخالص الخاشع.

واعلم أنّ جزاءَ الصبرِ الخالصِ الجنةُ الخالصةُ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾ [الرَّعۡد: ٢٤] وكما قيل: العملُ للدين قرينُ الانتماء إليه. قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما أغبط أحدًا لم يصبه في هذا الأمر بلاء»[1]. أي أمرِ العمل في سبيل رضوان الله تعالى.

يهونُ علينا أن تُصابَ جُسُومنا وتسلم أعراضٌ لنا وعقولُ

وكن عند اشتداد الخصومات واجتماع أسباب الشرور كالنبهاني إذ يقول:

فما ليَّنَتْ مِنَّا قَناةً صَليبَةً ولا ذَلَّلتنا للتي ليسَ تَجْمُلُ

=

أهل الخلاعة، وهو إحياء السنن وإماتة البدع». نقله السفاريني في غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب (١/٢١٣)

(١) كتاب المحن، لأبي العرب التميمي (٢٨٣)

ولكــن رَحَلْناهَــا نُفُوسًــا كَرِيمَـةً   تُحَمَّــلُ مــالا يُســتَطاعُ فتَحمِــلُ

وقَينـا بِحُسـنِ الصـبر منـا نُفُوسَـنَا   فَصَحَّتْ لنا الأعرَاضُ والنّاسُ هُزَّل

فعليك ـ أخا الإيمان ـ بالصبر والمصابرة والمرابطة في ذات الله [1]، فاصبر وتصبّر وصبِّر، واهتف لنفسك وإخوتك بقول ربكم: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النَّحل: ١٢٧] وقوله: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عِمرَان: ١٢٠] وقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥﴾ [البَقَرَة: ١٥٥].

وتدبر سورة العصر، فالإسلام دين الصابرين. وأرِ اللهَ تعالى منك ما يُرضيه؛ حتى يعطيك ما يرضيك. فأيُّ دينٍ كهذا الكمال والجمال، وأيّ مستودعٍ للصبر والأمل كهذا سعة وعظمة وسموًّا.

وأسعدُ الناسِ مَنْ يحيا على أملٍ   وأتعسُ النـاسِ مَيَّـالٌ إلى الألمِ

وليس كلّ صبرٍ مستحقٌّ للثواب، فالصبر على الطاعة وعن العصيان وعلى البلوى مفتقرٌ إلى إخلاصه لوجه الله تعالى، قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ [الرَّعد: ٢٢].

وخلِّ الهُوَيْنَى للضعيفِ ولا تكنْ   نؤومًـا فـإِنّ الحُـرَّ لـيس بنـائمِ

---

(١) وانظر: الصبر. ضمن هذه السلسلة.

٨- **التوازن:**

الراضي بربه متّزن العقل، متوازن النظر، لا يعطي أمرًا فوق حجمه ولا ينقصه عن قدره، قدر رفع الآخرة إذ رفعها الله تعالى، ووضع الدنيا حيث وضعها الله. قد فتح الله بصيرته فرأى بعيني قلبه حقيقة الدنيا فزهد فيها زهادة أهل القبور، فجعلها معبرًا وممرّا وزادًا لرحلته للدار الآخرة ومستمتعًا بالخير إلى حين.

لَـوْلا العُقُـولُ لَكَـانَ أدنَـى ضَـيْغَمٍ   أدنَـــى إلى شَرَفٍ مـــن الإنْسَـــانِ

والراضي بربه يعلم أنّ من أجلّ المهمات لبصيرته وعمله وحكمته ومصيره: الحاجةُ الملحّة للتوازن في النظر للأمور وتقدير أحجامها المعنويّة بلا وكسٍ ولا شطط. وسيّدة قواعد التوازن هي أن الذي يستحق أن تقلق لأجله هو الآخرة؛ درجاتها ودركاتها، أما الدنيا فمفروغ منها، رزقك وعمرك.

فالعابد الناسك لا يترهّب ولا يتبتل، كما أنه لا ينشغل بالدنيا عن الدين ولا يغفل عن زاد التقوى، بل يحرث الأرض بالإحسان كما أمره ربه، فيعمل لآخرته ولا ينسى نصيبه من الدنيا. قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «رأيت سبب الهموم والغموم؛ الإعراض عن الله عز وجل والإقبال على الدنيا. وكلما فات منها شيء وقع الغم لفواته.

فأما من رزق معرفة الله تعالى استراح؛ لأنه يستغني بالرضا بالقضاء، فمهما قدّر له رضي. وإن دعا فلم ير أثر الإجابة لم يختلج في قلبه اعتراض، لأنه مملوك مدبَّر فتكون همته في عبادة الخالق.

ومن هذه صفته لا يؤثر جمع مال، ولا مخالطة الخلق ولا الالتذاذ بالشهوات. لأنه إما أن يكون مقصرًا في المعرفة فهو مقبل على التعبد المحض، يزهد في الفاني لينال الباقي. وإما أن يكون له ذوق في المعرفة فإنه مشغول عن الكل بصاحب الكل[(١)].

فتراه متأدبًا في الخلوة به، مستأنسًا بمناجاته، مستوحشًا من مخالطة خلقه، راضيًا بما يقدّر له. فعيشه معه كعيش محب قد خلا بحبيبه لا يريد سواه، ولا يهتم بغيره. فأما من لم يرزق هذه الأشياء، فإنه لا يزال في تنغيص متكدر العيش، لأن الذي يطلبه من الدنيا لا يقدر عليه، فيبقى أبدًا في الحسرات مع ما يفوته من الآخرة بسوء المعاملة، نسأل الله عز وجل أن يستصلحنا له فإنه لا حول ولا قوة إلا به»[(٢)].

ومن مسائل التوازن لطالب العلم: تقديرُ العالم وإجلالُه، فقد جفا عن حقّه وجلاله أقوام ـ وبخاصة حدثاء الأسنان ـ وجعلوا كلمته ورأيه وفتواه كفتوى آحادهم التي تلقفوها من الكتب مباشرة أو من فهومهم القاصرة أو من شبكاتٍ مجهولة سائرة، وغفلوا عن كبار أمورٍ لا تُدرَكُ إلا بعد النضج العلمي الطويل، وسهَوا عن مرتبة إجلال حَمَلَةِ الشريعة وتعظيم العلم الذي في صدورهم. فإن المعلومة التي يتأمّلها الإنسان أربعين سنة ويسقيها عصارة

---

(١) فينشغل بمحبة الله تعالى والشوق إليه والأنس به وتلمّح إحسانه ولطفه ورفقه وبرّه والحياء منه ومخافته وذكره ودعائه وإحسان التعبّد له، فينتظم له الزهد في الدنيا وأهلها تبعًا.

(٢) صيد الخاطر (١ / ١١١) بتصرف يسير.

تجاربه ويُمِرّ عليها دلائل الوحي ليست كالتي تنطبع في ذهن غيره في ساعات، فيضمحل صفوُها لكَدَرِ ثاني الحال.

وفي غَابِرِ الأيّامِ مَا يَعِظ الفَتَى ولَا خيرَ فِيمَنْ لَمْ تَعِظْهُ التَّجارِبُ

ومن مهمات مسائل التوازن العقلي للمؤمن: الانتباه لتلبيسات إبليس في الأوامر والمناهي الإلهية، فإن الشيطان الغادر قد يَلْبَسُ جُبّة الشيخ الناصح، وما بالك بمن عُمُرُه أطول من عمر البشرية كلها، وتجاربه مع بني آدم لا تُحصى، فهو خبيرٌ نفسي، وعدوٌّ ماكر، ومُخالطٌ غادر، نافثٌ خَطَرات، ومُزيّنٌ شهوات.

والموفق من عصمه الله من كيده وإغوائه، وكان بمعزل في التقوى عن خطواته، فإنه يبدأ بالخطوة ليمشي بالمرء أميالًا، ويهوّن عليه الأمر لينكسر حاجز المناعة ضد الخطيئة، ويوسوس للمرء بالأمر حرصًا على بلوغ غيره وهكذا، وتأمل خَبَرَهُ مع برصيصا العابد.

وحدّثني من كان يضع صورة القائد خّطاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في محفظته، حتى إذا فَتَرَ نظر إليها. والآخرُ علّق صورة والده المتوفّى، فكان يُحيِّي الصورة كلما دخل المنزل، وبعد مدّة زاد مع التحية ركوعٌ. فيا سبحان الله، حذو القذة بالقذة، وهل هلك قوم نوح ومن بعدهم إلا بذرائع الشرك في لبوس الصلاح، فاللهم غُفْرًا. فالتصوير والنحت هو ذريعة التعظيم والعبادة، ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾ [نوح: ٢٣ - ٢٤] فيحرُم تعليق صور ذوات الأرواح مطلقًا، ويغلظ التحريم

إن كانت لذي سلطانٍ على القلوب سواء لمحبته كالوالد، أو لعلمه كالعلماء، أو لعبادته كالصالحين، أو لمُلْكِهِ كالسلاطين والملوك.

طــاوَعْتُمُ فِيــهِ العَــدُوَّ وكُنْــتُمُ لــو شــئتمُ في معــزلٍ وقــرارِ

ولكنّ الشيطان بحمد الله ضعيف صغير حقير أمام مَنْ حَفِظَ أمرَ ربِّه وتعلق به واستعاذ واعتصم، فهو مجرد أزّازٍ، يوسوس في الصدر فيؤُز[1] الإنسان لمعصية الرحمن، ولكن لا سلطان له على قلبه وعقله وإرادته وجوارحه، إنما هو مشير سوء ومسعّر فتنة لا حول له ولا طول ولا قوة إلا بالوسوسة، ويخنس حال ذكر الله تبارك وتعالى، فهو كما قال أبو حازم رَحِمَهُٱللَّهُ: «الشيطانُ وما الشيطان! أُطيعَ فلم ينفع، وعُصيَ فلم يضرّ». وربنا جل وعلا يقول: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ۝٧٦﴾ [النِّسَاء: ٧٦] وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٢٢﴾ [إبرَاهيم: ٢٢].

فهو مجرد وسواس يخنس عند ذكر الله العظيم جلّ وعزّ، فالشيطان الجنّي والإنسيّ وسواس خنّاس، فالمؤمن يخشى الله وحده ويحذر كيد عدوّه وقد أجلى العليم عداوة الخبيث فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فَاطِر: ٦] فالاعتصام بحبل الله نجاة وحسن الرجاء بفضله فلاح.

---

(١) أي: يهيّج ويغري ويزيّن.

مـــن يتـــق الله يُحمـــد في عواقبـــه ويكفـه شرّ مـن عـزّوا ومـن هـانوا

والراضي بربه إذا آتاه الله حظًّا من علم وأثارة من سبيل النبي ﷺ شديد العناية بفقه الأولويات والتوازنات وقواعد المصالح والمفاسد من التقديم والتأخير والتحصيل والاحتمال والدفع والرفع على ضوء المُحكمات الشرعيّة، فلا يمنع الرضا بالله من إعمال العقل وإتعاب الفكر في جلب مصالح الدنيا والآخرة ودفع مضارّهما، ذلك أن الذي أمرك بالرضا هو من أمرك بتحصيل مصالح الزَّمَانين ومدافعة بلايا الدارين، ﴿فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ۝١٥﴾ [المُلك: ١٥]، وبالله التوفيق والعصمة والهدى والسداد.

٩- القنوت:

القنوت: هو دوام العبادة كالذكر والصلاة والصيام، ومنها كثرة الدعاء بأنواعه الثناء والمسألة، ومن القنوت الخضوع والخشوع والاستكانة والتّبتّل بدوام التعبد، فالقنوت تعلّق القلب بمحراب العبادة حتى وإن كان الجسد في أودية الدنيا.

وإنّ الراضي بربه دائم العبادة بكل أنواعها وأحوالها المستطاعة له، فهو بين عبادة مقصودة لذاتها كالذكر والتفكر والدعاء والتلاوة والصلاة والصيام والصدقة، وبين عبادة مقصودة لغيرها كالنوم والطعام وإجمام النفس وترويح الروح لتنشيطها لعبادات الغايات، ودوام العبادة هو قنوت محبوب لله تعالى، فالقنوت هو دوام القيام بوظائف العمر.

عن سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ [الزُّمَر: ٩] قال: «يحذر عذاب الآخرة»[١]. وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال تعالى: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزُّمَر: ٩]، أي: أمّن هو هكذا كمن ليس كذلك؟ ولهذا قال: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٩﴾ [الزُّمَر: ٩][٢].

والقنوت من أشرف أعمال القلوب والجوارح، «والقانت: المطيع. وبهذا فسره ابن عباس رضي الله عنهما. والقنوت في الكلام يقع على القراءة، وعلى طول القيام في الصلاة، وبهذا فسره ابن عمر رضي الله عنهما. قال الفخر: قيل: إن المراد بقوله: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ عثمان بن عفان لأنه كان يحي الليل، والصحيح أنها عامة في كل من اتصف بهذه الصفة، وفي هذه الآية تنبيه على فضل قيام الليل. انتهى. وروي عن ابن عباس أنه قال: «من أحبّ أن يهوّن الله عليه الوقوف يوم القيامة؛ فليره الله في سواد الليل ساجدًا وقائمًا»[٣].

قَــدِّم لِنَفسِــكَ تَوبَــةً مَرجُــوَّةً ... قَبلَ المَـماتِ وَقَبلَ حَبسِ الأَلسُنِ
بـادِر بِهـا غُلَـقَ النُفــوسِ فَإِنَّهـا ... ذُخـرٌ وَغُـنمٌ لِلمُنيـبِ المُحسِـنِ

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (١٤ / ٣٧)
(٢) تفسير ابن كثير (٦ / ٢٠٢)
(٣) تفسير الثعالبي (٤ / ٤٩)

وللمؤمن وظائف في اليوم والليلة حريّ به مداومتها حتى يرحل لربه تعالى راضيًا مرضيًا. فللموفق الصالح كلّ يوم وليلة أعمالٌ صالحة ترفع للسماء، بعضها واجب وبعضها مستحب، هي درجاتٌ في مراتب الجنات، فمستقلٌّ ومستكثر من فضل رب البريات، قد جعلها الله وظائفَ لعمر المؤمن، يزيد بها أجره ويُقربُه بها من مرضاته وجنته.

يُدَفّنُ بعضُنَا بعضًا وتمشي ... أوائلُنا على هام الأوالي

وكَمْ عينٍ مقبّلةِ النّواحي ... كحيل بالجنادل والرمالِ

والمومن الموفّق يبدأ يومه بصلاة الفجر جماعة مع المسلمين في بيت الله تعالى، فحينما تسمع الأذان انهض مباشرة واحذر من نزغات الشيطان التي تدعوك للكسل عن الصلاة. فمن صفات المنافقين: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ [النِّسَاء: ١٤٢]. فإن بادرت للمسجد قبل الأذان فأنت من خيرِ مَن أنتَ منهم.

اذكر ربك من حين انتباهِكَ من نومك وأسبغ وضوءك وامش إلى المسجد بسكينة ووقار، ولك بكل خطوةٍ درجةٌ وتكفيرُ خطيئة، كما في الصحيحين[1].

وعند دخولك المسجد قدّم رجلك اليمنى وقل: **«أعوذ بالله العظيم، وبوجهه الكريم، وسلطانه القديم، من الشيطان الرجيم، بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله، اللّهم افتح لي أبواب رحمتك»**[1].

---

(١) البخاري (١٨٨٧) ومسلم (٦٦٤) (٢٧٩)

وهناك سنّةٌ راتبة بين الأذان والإقامة، وهي ركعتان خفيفتان، ومما ورد في فضلها قوله ﷺ: **«ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها»**(٢). وما كان رسول الله ﷺ يدعها حضرًا ولا سفرًا، وهي الرغيبة، وإذا كان هذا فضل سنة الفجر، فما بالكم بصلاة الفجر؟! ومن السنة أن تقرأ في الركعة الأولى سورةَ الكافرون وفي الثانية قل هو الله أحد، أو في الأولى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ [البَقَرَة: ١٣٦] الآية. وفي الثانية: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ﴾ [آل عِمۡرَان: ٦٤] الآية. ومن فاتته سنة الفجر قبل الصلاة فيشرع أن تُقضى بعد ارتفاع الشمس وإن بعد صلاة الفجر فلا بأس.

واعلم أخي المسلم: إن لصلاة الفجر شأنًا عظيمًا كما قال تعالى: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ۝٧٨﴾ [الإسۡرَاء: ٧٨]، وقال ﷺ: **«مَن صلى**

=

(١) أبو داود (٤٦٦) وصححه الألباني. وقال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تاريخ الإسلام (٥٣٢/٨): «قال الحسين بن أحمد الصّفار الشيرازي: لما مات أحمد بن منصور الحافظ، جاء إلى أبي رجلٌ فقال: رأيته في النّوم، وهو في المحراب واقف، في جامع شيراز، وعليه حُلّة، وعلى رأسه تاج مكلّل بالجوهر، فقلت: ما فعل اللّه بك؟ قالَ: غفر لي وأكرمني، وأدخلني الجنة، فقلت: بماذا؟ قال: بكثرة صلاتي عَلَى رَسُولِ اللّه ﷺ». اللّهم صل وسلم وبارك على محمد وآله عدد ما خلقت من الخلائق.

(٢) مسلم (٧٢٥) (٩٦)

البردين دخل الجنة»(١). والبردان هما الفجر والعصر. ومنها أن **«من صلى الفجر فهو في ذمة الله»**(٢).

ومن أدلة أهمية صلاة الفجر أن الصحابة كانوا يرون أن التخلف عنها من علامات النفاق، كما قال ابن مسعود: «ولقد رأيتُنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق». هذا؛ «ولصلاةِ الفَجر على وجه الخصوص تأثيرٌ عجيب في تصفية القلب وفي تنويره أكثر من تأثير سائر الصلوات.. فإن كل من له ذوق سليم وأدَّى هذه الصلاة في هذا الوقت بالجماعة وجد من قلبه فُسحة ونورًا وراحة»(٣).

أخي في الله: يشرعُ لك بعد الفجر أن تبدأ صباحك بأذكار الصباح الواردة عن نبينا ﷺ التي تجعل قلبك يعيش في رياض الإيمان، ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝٢٨﴾ [الرَّعد: ٢٨] فالذكر للروح كالماء للسمك، وقال ﷺ: **«مثلُ الذي يذكر ربه والذي لا يذكره كمثل الحي والميت»**(٤).

وإذا صليت الفجر فاذكر أذكار الصلاة، ثم أتبعها بأذكار الصباح، ولا تقم حتى ترتفع الشمس ففيها أجر عظيم، فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

---

(١) البخاري (٥٧٤) ومسلم (٦٣٥)
(٢) مسلم (١٤٦٧)
(٣) تفسير الرازي (٢١/ ٣٨٥)
(٤) البخاري ٨/١٠٧ (٦٤٠٧)، ومسلم ٢/١٨٨ (٧٧٩) (٢١١)

قال رسولُ الله ﷺ: «**مَنْ صَلَّى الفجر في جماعة، ثم قَعَدَ يذكرُ الله حتى تطلُع الشمس، ثم صلى ركعتين، كانت له كأجر حَجّةٍ وعمرة تامّة تامّة تامّة**»[1].

ويا عبد الله: لا بد أن يكون لك ورد يومي من القرآن لا يقل عن جزءٍ قدر استطاعتك، فلا تهجر كلام ربك فتدخل في شِكاية الرسول ﷺ: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ۝٣٠﴾[الفرقان: ٣٠]. فليكن لك ورد لا يقطعه إلا الموت، فالأبل ترد الماء لتحيا، وكذلك القلب يردُ القرآن ليحيا، فأحيه بالقرآن ولا تُقسّه بهجره، فأبعدُ القلوب عن الله القلبُ القاسي.

والموفق يعتني بصلاة الضحى، وروى البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «**أوصاني خَلِيلِي بثَلَاثٍ لا أدعُهُنَّ حَتَّى أَموت: صيام ثلاثَةِ أَيَّامٍ مِن كُل شَهرٍ، وصَلاةِ الضُّحى، وأن أوتر قبل أن أنام**»[2]. ويبدأ وقتها بعد طلوع الشمس بنحو ربع ساعة حتى قبيل الظهر بعشر دقائق، وأقلها ركعتان، ولا حدّ لأكثرها.

فإذا أُذّن لصلاة الظهر فيستحب لك صلاة أربع ركعات بسلامينِ قبلها لأنه وقتٌ تُفتح فيه أبواب السماء، فعن عبد الله بن السائب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول

---

(١) الترمذي (٥٨٦) وحسّنه، ووافقه ابن باز، وكذلك الألباني في السلسلة الصحيحة (١٤ / ١٥)

(٢) البخاري (١١٧٨) ومسلم (٢/١٥٨)

الله ﷺ كان يصلي أربعًا بعد أن تزول الشمس قبل الظهر، وقال: «**إنها ساعة تفتح فيها أبواب السماء، فأحبّ أن يصعد لي فيها عمل صالح**»(١).

ثم صل الفريضة واذكر أورادها، ثم صل ركعتين بعدها، كما جاء في الحديث: «**من صلى ثنتي عشرة ركعة بنى له الله بيتاً في الجنة**»(٢). وهي أربعٌ قبل الظهر، واثنتان بعده. وإن صلى بعدها أربعًا فحسن، فعن أم حبيبة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «**من حافظ على أربع ركعات قبل الظهر، وأربع بعدها، حرّمه الله على النار**»(٣). ولاحظ عبارة «**حافظ**» المشعرة بالديمومة قدر المستطاع. واثنتان بعد المغرب في البيت واثنتان بعد العشاء في البيت، واثنتان قبل صلاة الفجر.

يا عبد الله؛ بادر وبكّر للصلاة فإنك لا تزال في صلاة ما كنت في انتظارها، فإذا صليت فإن الملائكة تستغفر لك ما دمت في مصلاك مالم تنصرف أو تُحدِث، كما صح عنه ﷺ. فلا تستعجل الخروج من المسجد بعد الصلوات، واعمر وقتك بالذكر فأنت في رياض الجنة.

---

(١) أحمد ٥/٤١٨ (٢٣٩٤٧) وقال محققوه: صحيح لغيره. الترمذي (٤٧٨) والنسائي في الكبرى (٣٣١)، وقال: «حديث حسن غريب».

(٢) أحمد (٢٦٧٧٤) والنسائي (١٧٩٩) وصححه الألباني.

(٣) أبو داود (١٢٦٩)، وابن ماجه (١١٦٠)، والترمذي (٤٢٧) وقال: «حديث حسن غريب». وصححه الألباني.

فإذا دخل وقت العصر استُحِبَّ لك صلاةُ أربع ركعات بسلامين قبل الفريضة، قال ﷺ: **«رَحِمَ الله امرأً صلى قبل العصر أربعًا»**(١).

وصلاة العصر جِدُّ عظيمة، قال تعالى: ﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٣٨] والمراد بالوسطى هي العصر. وقال ﷺ: **«مَن ترك صلاة العصر فقد حبط عمله»**(٢).

فإذا صليت العصر وذكرت أذكارها فلا تقم حتى تذكر أذكار المساء، فإنك أن قمت أَنْسَتْك مشاغلُ الدنيا غنائمَ الآخرة! والمؤمن حازمٌ فطن، ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلَى: ١٧].

وتحرمُ الصلاة بعد العصر حتى غروب الشمس مما ليس له سبب، وأما الصلوات التي لها سبب فتجوز في أوقات النهي على الراجح، كصلاةِ الجنازة والاستخارة والطواف والوضوء وتحيةِ المسجد ونحو ذلك، فيجوز فعلُ كلِّ ذلك حتى في أوقات النهي؛ لأنها من ذوات الأسباب. ولكن إذا اقترب وقت الغروب أو الشروق أو الزوال فلا تُصلّى حتى ذواتِ الأسبابِ، وذلك لورود التشديد في النهي عن الصلاة فيها، فعن عقبة بن عامر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: **«ثلاثُ ساعاتٍ نهى رسول الله ﷺ أن نصلّي فيهن أو ندفن فيهن موتانا: حين تطلع**

---

(١) أبو داود (١٢٧١)، والترمذي (٤٣٠) وقال: حديث حسن غريب. وحسنه الألباني.

(٢) البخاري ١/١٤٥ (٥٥٣)

الشمس بازغةً حتى ترتفع، وحين يقومُ قائمُ الظهيرة حتى تميلَ، وحين تَضَيَّفُ الشمسُ للغروب حتى تغرب»[(١)].

فإذا غربت الشمس استُحبّت ركعتان قبل صلاتها، قال ﷺ: **«صَلُّوا قبل المغرب، صلُّوا قبل المغرب»** وقال في الثالثة: **«لمن شاء»**[(٢)]. وعن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «لقد رأيتُ كبار أصحاب رسول الله ﷺ يبتدرون السواريَ عند المغرب»[(٣)].

فإذا صليت المغرب فصل ركعتين، والأفضلُ أن تصليَها في بيتك، قال ﷺ فيها: **«هذه صلاة البيوت»**[(٤)].

وصلاة العشاء معظّمة في الإسلام، قال ﷺ: **«مَن صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى الفجر في جماعة فكأنما قام الليل كله»**[(٥)]. وقال ﷺ: **«أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر، ولو**

---

(١) مسلم (٨٣١). و«**قائم الظهيرة**»: أي: قيام الشمس وقت الزوال، وذلك عند بلوغها وسط السماء.

(٢) البخاري ٢/ ٧٤ (١١٨٣)

(٣) البخاري ١/ ١٣٤ (٥٠٣) قال ابن حجر في فتح الباري (٢/ ١٤١): «يبتدرون: أي: يستبقون، والسواري جمع سارية، كأن غرضهم بالاستباق إليها الاستتار بها ممن يمرّ بين أيديهم لكونهم يصلون فرادى».

(٤) أبو داود (١٣٠٢) وقال الألباني: قلت: حديث حسن، واستحسنه أحمد، وصححه ابن خزيمة.

(٥) مسلم ٢/ ١٢٥ (٦٥٦) (٢٦٠)

يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوًا»[(١)]. وبعد الفراغ من الصلاة يستحب لك صلاة ركعتين، وهي من السنن الرواتب.

واعلم أن السنن التي تسقط عن المسافر هي راتبة الظهر والمغرب والعشاء فقط، أما ما سوى ذلك كراتبة الفجر، أو النوافل المطلقة، أو ذوات الأسباب، أو صلاة الضحى، أو الوضوء، أو قيام الليل ونحو ذلك فهي باقية في حق المسافر كالمقيم.

وإن من أحب الأعمال إلى الله ـ فاعلم ـ الصلاةُ في جوف الليل، فصلاة الليل هي أفضل الصلواتِ بعد الفريضة، وصلاة الليل هي زاد المؤمن وراحته وجَنته وجُنّته، ومن أسباب الأمن يوم القيامةِ قيامُ الليل، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإنسان: ٢٥ - ٢٧]، وتدبر رحمك الله قولَ اللهِ عز وجل عن المؤمنين: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السَّجدَة: ١٦ - ١٧].

فمَـنْ يطلـب العُليـا يبيـتُ مُسـهَّدًا ... ولـيس بميْـتِ القلـب للّهـو سـارِيا
ويصـبحُ صـوّامًا كثـيرًا دعـاؤهُ ... إلى الله يمضي وهو للّهوِ قَاليا
يَخُنُّ تراب الأرضِ من صِدقِ دَمْعِهِ ... ويُشبهُ حين الوتر إحدى السَّواريا

---

(١) البخاري ١/١٥٩ - ١٦٠ (٦١٥)، ومسلم ٢/٣١ (٤٣٧)

سخيًّا بذي الدّنيا ضنينًا بدينه سحابًا كما الأطوادِ سُودًا غَوَادِيا

يا صاحبي؛ إنّ في الجنة نعيمًا ليس من جنس نعيم الدنيا، بل هو جديدٌ بكل تفاصيله وأسمائه، وليس في الدنيا ما يعبَّرُ عنه به حتى ولو على سبيل التقريب والتشبيه، ففي الصحيح عن النبي ﷺ قال: «**يقول الله عز وجل: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. اقرءوا إن شئتم:** ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧﴾ [السَّجۡدَة: ١٧]»[1]. فلم يخطُر ذلك النعيمُ على قلبٍ أصلًا، نسأل الله الكريم من فضله. قال بعض السلف: «أخفوا لله العمل فأخفى الله لهم الجزاء، فلو قَدِموا عليه لأقرّ تلك الأعين عنده».

وقال الله عن أهل الجنة: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧﴾ [الذَّارِيَات: ١٧] وقال ﷺ: «**عليكم بقيام الليل؛ فإنه دأبُ الصالحين قبلكم، وقربة إلى الله تعالى، ومكفرة للسيئات، ومنهاة عن الإثم، ومطردة للداء عن الجسد**»[2]. وتأمّل كلمة «**دأب**» أي أنها من سماتهم وصفاتهم وأفعالهم المستمرة التي يدأبون عليها حتى يرحلون إلى الله تعالى بخيرها، وقال ﷺ: «**أتاني جبريلُ فقال: يا محمد، عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه،**

---

(١) البخاري ٤/١٤٣ (٣٢٤٤) ومسلم ٨/١٤٣ (٢٨٢٤) (٢)

(٢) الترمذي (٢٨١٤) وحسنه الألباني، وقال الحافظ العراقي في تخريج إحياء علوم الدين (٢ / ١٩٥): ورواه الطبراني والبيهقي من حديث أبي أمامة بسند حسن، وقال الترمذي: إنه أصح.

واعمل ما شئت فإنك مجزي به، واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزُّه استغناؤه عن الناس»(١). ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ١٦٣﴾ [البَقَرَة: ١٦٣].

ولا تنس لا تنس لا تنس أن تذكر الله وتدعوه في الثلث الأخير من الليل، فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلثُ الليل الآخر يقول: من يدعوني فأستجيبَ له من يسألُني فأعطيَه من يستغفرُنِي فأغفرَ له»**، وفي رواية: **«حتى ينفجر الصبحُ»**(٢). فالغنائم أيها النائم.

ومن أراد الخير فليعمل بأسبابه ورأسها الاستعانة بالله تعالى وتقواه، وذُكر عند رسول الله ﷺ رجلًا نام ليلَهُ حتى أصبح فقال: **«ذاك رجل بال الشيطان في أُذنيه»**(٣). متفق عليه، وهذا فيمن فاته قيامُ الليل؛ فكيف بمن فاتته فريضة الفجر؟! اللّهم لا تجعل مصيبتنا في ديننا. ولما اشتكوا للحسن ضعفهم عن التهجد قال: «قيّدتكم خطاياكم». وللسلف مع قيام الليل أخبار شريفة.

والمؤمن ليِّنٌ رحيمٌ سهلٌ دمثٌ رفيق، وهو كذلك حيٌّ يَقِظٌ حازمٌ صارمٌ في حينه، بصيرٌ بما يصلحه، حذرٌ مما يُسقطه، قال الشيخ العلامة المعلّمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إيّاكم والشُّبَه، فإنّ النفوسَ توّاقةٌ إلى اللذّات والشّهوات، فإن

---

(١) الطبراني في الأوسط (١ / ٦١ / ٢) والحاكم (٤ / ٣٢٤ - ٣٢٥) وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢ / ٣٣٠)

(٢) البخاري (١١٤٥) ومسلم (٧٥٨) (١٧٠)

(٣) البخاري ٢/٦٦ (١١٤٤) ومسلم ٢/١٨٧ (٧٧٤) (٢٠٥)

جُوهدتْ عن الصغائر قنِعتْ عن الكبائر الموبقات، وإن سومحتْ عن الشُّبهاتِ وقعتْ في الحرام. فجاهِدوا نفوسَكم حقَّ المجاهدة، وعاهدوها بالتحرُّزِ أشدَّ المعاهدة؛ فإنّ عُراها سريعة الانفصام. وعليكم بالفرائض، فإنّها أساسُ الدِّين. وإيّاكم وتركَ السُّنَن، فإنّها شهودُ اليقين. ومن ترخَّص في السُّنن سهَّل له الشيطانُ تركَ الفرائضِ العظام»(١).

فطلاقة الجبين، وبشاشة الوجه، وحسن الحديث، هي من أخصّ أخلاق الرسول ﷺ، فعليك بذلك، وعُدَّهُ من صالح أعمالك، وقيِّمِ كنوزك يوم معادك، وعظيمِ ذخائرك عند ربك.

أخي في الله: إن من توفيق الله لعبده أن يهديَه لعملٍ صالحٍ لا ينقطع بموته، فلا يزال يصعد درجات الجنة حتى بعد رحيله عن دنيا العمل، بكلمةٍ علّمها، أو نفس أسعدها، أو جَوعة أشبعها، أو علّة داواها، أو بئرٍ حفرها، أو جِلدٍ أدفأه، أو ظلامٍ بدّده، أو طريق عبّده، أو نفعٍ سبّله، أو مسجد بناه، ونحو ذلك من مراضي رب العالمين، إنما المقصود مراعاة رأس المال قبل تحصيل الربح، فإن ذهبت العبادة الخاصة فما تلاها أولى بِذَهابٍ. والسعيد من كان للرحيل مستعدًّا.

والناس غدًا فريقين: ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾ [الشُّورَى: ٧]، فهل علمتَ مكانك في أيّهما حتى تغفل عن زاد مسيرك للحسنى؟! قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

(١) آثار الشيخ العلامة عبد الرحمن بن يحيي المعلمي اليماني (٢٢/١٠٩).

﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ٢١﴾ [الجاثية: ٢١]، وقال تعالى: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ ٢٨﴾ [ص: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠﴾ [الحشر: ٢٠]؛ ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ١٨﴾ [السجدة: ١٨] نعم لا سواء، والله المستعان. وحكَوا عن الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله:

تَمَنَّى أُنَاسٌ أَنْ أَمُوتَ وَإِنْ أَمُتْ ... فَتِلْكَ سَبِيلٌ لَستُ فِيهَا بِأَوحَدِ

فَقُل لِلَّذِي يَبغِي خِلَافَ الَّذِي مَضَى ... تَهَيَّأْ لِأُخْرَى مِثلِهَا وَكَأَنْ قَدِ

وعليك ببناء علمك بالطلب فهو بداية الوصول، والتلاوةِ فهي عطر الروح، والتدبّرِ فهو مفتاح العقل، والحفظِ فهو كنز العلم، والمراجعةِ فهي تأكيدُ وإنماءُ الفائدة، والمُدارسةِ فهي لِقاحُ المعرفة، والعلم الذي لا يُدرس يَندرس.

وقال إبراهيم بن عبد الواحد موصيًا الضياء المقدسي لمّا أراد الرحلة للعلم: «أكثِر مِن قراءة القرآن ولا تتركه؛ فإنه يتيسّر لك الذي تطلبه على قدر ما تقرأ». قال الضياء: فرأيت ذلك وجرّبته كثيرًا، فكنتُ إذا قرأتُ كثيرًا تيسّر لي من سماع الحديث وكتابته الكثير، وإذا لم أقرأ لم يتيسرْ لي. وتدبر قول الله تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ٨٩﴾ [النحل: ٨٩] ففيه الكفاية والشفاء[1].

---

(١) وانظر: ولا تفرقوا، للمؤلف (٦٠٧).

وعليك بالدعاء فهو زاد المؤمن وقُوْتُه وقُوَّتُه وسلاحه، وما خاب من دعا، وما ندم من ابتهل، وما خسر من تضرّع. ومِن أعظم أسباب إجابة الدعاء: اليقين بربك، وحسن ظنك به، والثقة بلطفه، والطمأنينة لوجوده وإحاطته وعلمه وقُربُه ورحمته.

ومن وصايا طاووس بن كيسان اليماني: «إيّاك أن تطلب حوائجك ممن أغلق دونك أبوابه، وجعل دونك حجَّابه، وعليك بمن أمرك أن تسأله، ووعدك الإجابة»، ويكفينا قول الكريم الوهاب: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ غافر: ٦٠.

وتدبر هذا الخبر: فعن ابن عباس، أنه قيل لعمر رضي الله عنهم: حدثنا من شأن العسرة. فقال: «خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلًا أصابنا فيه عطش، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن كان الرجل ليذهب يلتمس الرجل، فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع، حتى إن كان الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده. فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن الله قد عوّدك في الدعاء خيرًا، فادع الله لنا. قال: **«أتحبُّ ذلك»؟** قال: نعم. فرفع يديه، فلم يرجعهما حتى قالت السماء فأظلّت ثم سكبت، فملأوا ما معهم. ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جازت العسكر»[1].

(١) المستدرك (١/ ٢٦٣) وقال الحافظ الذهبي: حديث حسن قوي. وصححه الوادعي في الصحيح المسند (٢/٧٦).

ولتكن مستمتعًا دومًا بتطهير روحك برياض العبادة وبساتين الذكر، وغسلِ قلبك بالسجود والخضوعِ والضراعة، وعينِك بالتفكر والرقائق والدموع، وصدرِك بمحبة الخير للناس والشفقة عليهم والإحسان إليهم، وبطنِك بكثرة الصيام والصدقة وأكلِ الحلال. وواهًا لمن جمعها، وطابتْ حياةُ الراضين.

ولا تـنسْ أنْ تـرضى عـن الله دائـمًا فقـد فـازَ عنـد الله مـن كـان راضـيا

وسابقْ إلى الطاعاتِ تُعطَى رضَاءهُ ومَـنْ يـرضَ عنـه الله حـازَ المَعَالِيـا

اللّهم حبّب إلينا الإيمان، وزيِّنْهُ في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين، اللّهم ارزقنا حسنَ عبادتك آناء الليل وأطراف النهار. اللّهم صل على محمد وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان. ﴿ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [الجاثية: ٣٦ - ٣٧].

الرضا والبلاء

معيارُ الرضا هو البلاء، وإلا فالنعيم مرضيّ على كل حال، أما البلاء فالغريزة تمنع الرضا به ما لم يأتها دافع من خارجها يُحبِّب لها الرضا، ويقلب مرارته حلاوة، فالدواء كريه المأخذ رضيٌّ الغاية، وابتغاء الأجر والتقلّب مع مراد الحبيب حيثما أراد، فأحبُّه إليه أحبُّه إليه، والعاقبة: **«فمن رضيَ فلهُ الرِّضَا»**(١).

وروى الطبراني في الكبير أن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اشتكى، فدخل عليه جار له، فاستبطأه في العيادة، فقال له: يا أبا نجيد، إن بعض ما يمنعني من عيادتك ما أرى بك من الجهد. قال: فلا تفعل، فإنّ أحبَّه إليّ أحبُّه إلى الله، فلا تبتئس لي بما ترى، أرأيتَ إذا كان ما ترى مُجازاة بذنوب قد مضت، وأنا أرجو عفو الله على ما بقي، فإنه قال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾ [الشورى: ٣٠]. (٢)

ومن البشارات للعبد الصالح المريض أو العاجز عن صالحاتِ أعمالٍ كان قد اعتادها لمرض، أو سفر، أو حبس، أو غيره أنّ ثوابها يجري له وإن لم يعمل، كرامةً من الله وَجُودًا، قال ﷺ: **«إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما**

---

(١) الترمذي (٢٣٩٦) وصححه الألباني.

(٢) الطبراني في الكبير (١٩٣)

كان يعمل مقيمًا صحيحًا»(١). فعلى المريض ومن في حكمه أن يصبر ويرضى ويحمد ويشكر الله على هذا البلاء، فإن تلك المقامات من أعلى عبوديات الضراء.

وخيرٌ للمؤمن أن تُعجّل عقوبته في الدنيا ـ إذا لم يكتب له ربه مغفرة لها وعفوًا عنها ـ ويعظم التكفير، ويجلُّ الجزاء، بحسب حجم الابتلاء، ودرجة وقوعه على العبد، فعن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا أراد الله بعبده خيرًا عجّل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به**(٢) **يوم القيامة. وإنّ عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإنّ الله تعالى إذا أحبّ قومًا ابتلاهم فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط»**(٣). قال العثيمين رَحِمَهُٱللَّهُ شارحًا: «الأمور كلها بيد الله عز وجل وبإرادته،

---

(١) البخاري (٢٩٩٦)

(٢) الموافاة هنا هي الاستيفاء، أي: أخذ الحق كاملًا مستوفيًا، والمراد: أي: لا يجازيه بذنبه في الدنيا حتى يجيء في الآخرة مستوفر الذنوب وافيها، فيستوفي ما يستحقه من العقاب، عياذًا بالله تعالى.

(٣) الترمذي (٢٣٩٦) وقال حديث حسن وصححه الألباني في صحيح الترمذي. وأخرجه ابن ماجه (٤٠٣١) باللفظ الثاني فقط. قال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ في الزاد (٣/ ٥٠٦): «يؤدّب الله عبده المؤمن الذي يحبه وهو كريم عنده بأدنى زلة وهفوة، فلا يزال مستيقظًا حذرًا، وأما من سقط من عينه، وهان عليه؛ فإنه يخلي بينه وبين معاصيه، وكلما أحدث ذنبًا أحدث الله له نعمة، والمغرور يظن أن ذلك من كرامته عليه، ولا يعلم أن ذلك عين الإهانة، وأنه يريد به العذاب الشديد، والعقوبة، التي لا عافية معها».

لأن الله يقول عن نفسه: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦﴾ [البُرُوج: ١٦] ويقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ۝١٨﴾ [الحج: ١٨] فكل الأمور بيد الله، والإنسان لا يخلو من خطأ ومعصية وتقصير في الواجب، فإذا أراد الله بعبده الخير عجّل له العقوبة في الدنيا، إما بماله، أو بأهله، أو بنفسه، أو بأحد ممن يتصل به.

المهم أن تُعجّل له العقوبة، لأن العقوبات تكفر السيئات، فإذا تعجلت العقوبة وكفّر الله بها عن العبد؛ فإنه يوافي الله وليس عليه ذنب، قد طهّرته المصائبُ والبلايا، حتى إنه ليُشدّدُ على الإنسان موتُه لبقاء سيئة أو سيئتين عليه، حتى يخرج من الدنيا نقيًّا من الذنوب، وهذه نعمةٌ لأن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة.

لكن إذا أراد الله بعبده الشر أمهل له، واستدرجه، وأدرّ عليه النعم، ودفع عنه النقم، حتى يبطر ويفرح فرحًا مذمومًا بما أنعم الله به عليه، وحينئذ يلاقي ربَّهُ وهو مغمور بسيئاته؛ فيُعاقب بها في الآخرة. نسأل الله العافية!

فإذا رأيتَ شخصًا يبارز الله بالعصيان، وقد وقاه الله البلاء، وأدرّ عليه النعم؛ فاعلم أنّ الله إنما أراد به شرًّا؛ لأنَّ الله أخّر عنه العقوبة حتى يوافي بها يوم القيامة.

ثم ذكر في هذا الحديث: أنّ عظم الجزاء من عظم البلاء، يعني أنه كلما عَظُمَ البلاء عَظُمَ الجزاء، فالبلاء السهل له أجر يسير، والبلاء الشديد له أجر كبير؛ لأن الله عز وجل ذو فضل على الناس، إذا ابتلاهم بالشدائد أعطاهم عليها من الأجر الكبير، وإذا هانت المصائب هان الأجر.

وإن الله إذا أحب قوم ابتلاهم، فمن رضى فله الرضا، ومن سخط فله السّخط. وهذه بشرى للمؤمن إذا ابتلي بالمصيبة، فلا يظن أن الله سبحانه يبغضه، بل قد يكون هذا من علامة محبة الله للعبد، يبتليه سبحانه بالمصائب، فإذا رضي الإنسان وصبر واحتسب فله الرضا، وإن سخط فله السخط.

وفي هذا حثٌّ على أن الإنسان يصبر على المصائب حتى يكتب له الرضا من الله عز وجل، والله الموفق»[1]. وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا في القول المفيد: «قد تكون المصائبُ أكبرَ من المعائب ليصل المرء بصبره أعلى درجات الصابرين، والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد.

والمراد بالرضا: الرضا بقضاء الله من حيث إنه قضاء الله، وهذا واجب بدليل قوله: **«ومن سخط»** فقابل الرضا بالسخط، وهو عدم الصبر على ما يكون من المصائب القدرية الكونية.

ولم يقل هنا: فعليه السخط، مع أن مقتضى السياق أن يقول فعليه، كقوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فُصِّلَت: ٤٦]. فقال بعض العلماء: إن اللام بمعنى «على»، كقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ [الرَّعْد: ٢٥] أي: عليهم اللعنة. وقال آخرون: إنّ اللام على ما هي عليه، فتكون للاستحقاق، أي: صار عليه السخط باستحقاقه له، فتكون أبلغ من «على»، كقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ [الرَّعْد: ٢٥]؛ أي: حقّت عليهم

---

(١) شرح رياض الصالحين للعثيمين (١ / ٤٨)

باستحقاقهم لها، وهذا أصح»[١]. وفي المعتصر: **«وإذا أراد الله بعبده الشر»**: «عبده هنا مثل عبده الأول، لكنه المسرف على نفسه بالمعاصي. وهل معنى الحديث أن الله يريد الشر؟ وكيف نوفّق بينه وبين قوله ﷺ: **«والشرُّ ليس إليك»**[٢]؟ هنا سمّى الإمساك عن العقوبة شرًّا باعتبار العبد، وإلا باعتبار فعل الله فعدل[٣].

ومعنى: **«أمسك عنه بذنبه»**: المسوك عنه هي البلايا والعقوبة. بذنبه: الباء سببية، بمعنى أنه ما عاقبه بسبب ذنوبه، ولكن أمسك عنه العقوبة، وقد تكون بمعنى الاستحقاق أي مع أنه مستحق بذنبه. ونَسَبَ الذنوبَ إلى العبد: لأنها كسبُه. وهذه الذنوب هي ما دون المُكَفِّرَات. أما حتى هنا فهي لانتهاء الغاية، أي: إلى غاية أن يوافي به يوم القيامة.

---

(١) القول المفيد على كتاب التوحيد (٢ / ٧٩)

(٢) أحمد في المسند (٨٠٣) ومسلم (١ / ٢١٥)

(٣) قال الشيخ صالح آل الشيخ حفظه الله: حديث: **«والشرّ ليس إليك»** يعني أنَّ أفعال الله تعالى لا توصف بالشرّ؛ بل كلها عدل، أو فَضْلٌ وخير، لِمِا فيها من الغايات المحمودة؛ لكن ما يُضَافُ للعبد يكون شرًّا بالنسبة له؛ لكن بالنسبة للقدر هو خير.

مثلًا: أصيب فلان بفقد والده، أصيب بفقد ماله؛ فهذا بالنسبة له سوء وشر؛ لكن بالنسبة إلى القَدر وفعل الله تعالى هو خير؛ لأنَّهُ لا يُنْظَرُ إلى المسألة بمجردها؛ بل إلى الغاية المحمودة من ورائها، والغاية المحمودة من ورائها أن يَبْتَلِيَ العباد بذلك، يبتلي الحي، يبتلي الميت ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [المُلك: ٢]. فإذًا أفعال الله تعالى كلها خير، وأما ما يضاف إلى العبد فينقسم إلى الخير والشر. إتحاف السائل بما في الطحاوية من مسائل (٣٨ / ١٧)

وهل كل مصيبة علامة خير؟ لا. إلا إن وُفّق إلى الصبر فهي علامة خير، وإن لم يصبر فهي علامة شرّ.

وقوله: **«إن عظم الجزاء»**: فإذا نظرت إلى هذه الكلمة **«الجزاء»** وآخر الحديث تبين لك أن في هذا الحديث دلالة على أن المصائب رافعة للدرجات. **«مع عظم البلاء»**: المعيّة هنا ليست معيّة مقترنة، وإنما الجزاء يأتي بعد البلاء؛ لأنه مترتب عليه.

وهل الجزاء مع كل بلاء مطلقًا؟ لا. ليس كل بلاء معه جزاء إلا بشرطه، وشرطه هنا: أقله اثنان وأكثره ثلاثة: إما الصبر والرضا، أو الصبر والرضا والشكر[(١)].

وقوله: **«مع عظم البلاء»**: أي أن عظم البلاء معه عظم جزاء. هل هو باعتبار الكمية أو الكيفية؟ قد يكون هذا وقد يكون هذا. **«وإنّ الله تعالى إذا أحبَّ قومًا»**: فيه إثبات أن الله يحب. والمعطلة لا يثبتون المحبة لله تعالى. وقوله **«قومًا»**: هنا نكرة، والمقصود بقوم: أي المؤمنين. والدليل: أن الله لا يحب الكافرين، وهؤلاء القوم محبوبون. وقوله **«ابتلاهم»**: أي: أصابهم ببلايا

---

(١) الأظهر أنّ أقلّه واحد وهو الصبر، لأنه واجب، والعبد مستحق للأجر بأداء الواجب، أما الرضا ففضيلة، وأعني به الرضا بالمقضيّ. أما أكثره فأربعه بزيادة الحمد لأن الحمد غير الشكر، فالحمد أعمّ من جهة أسبابه، والشكر أعم من جهة أنواعه، والحمد عبادة جليلة وهي داخلة في هذا الباب دخولًا أوليًّا، والله أعلم.

ومصائب، ورزقهم ما يثيبهم عليها ويثبتهم. ويدل هذا الحديث بالمفهوم أن قلة الجزاء مع قلة البلاء.

قوله **«فمن رضي»**: هنا ذكر الرضا فهو يدل على الصبر وزيادة. وقوله: **«فله الرضا»** هذا جزاء رضائه أن يرضى الله عنه، فيترتب على ذلك كثرة الثواب. **«ومن سخط»** أي: كره، وما تبع الكراهة من أعمال الجوارح. **«فله السخط»** فهذا جزاءً وفاقًا، فلما سخط سخط الله عليه، فيترتب على ذلك العقوبة. ودل الحديث على فضل الرّضا، وأنه يزيد في الدرجات، ويزيد في التوحيد»[1].

وهٰهنا سؤال كبير: كيف يميّز العبد في المقضيّ المؤلم (المصيبة) بين العقوبة والابتلاء؟

والجواب: أنّ بينهما عموم وخصوص، فما كان على ذنب فهو عقوبة، ومنه قول الله عز وجل: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ٣٠﴾ [الشورى: ٣٠] وقوله جل شأنه: ﴿فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [النساء: ٦٢] وقوله عز اسمه: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]. وما لم يكن على سالف ذنب، أو كان مغفورًا فهو محض الابتلاء، فقد كان رسول الله ﷺ مغفور الذنوب سالفها ولاحقها ومع هذا فقد كان من أشدّ الناس بلاء، وهو القائل: **«أشدّ الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الإنسانُ على حسَبِ دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في**

---

(١) المعتصر شرح كتاب التوحيد للخضير (١ / ٢١٩) باختصار وتصرف يسيرين.

بلائه، وإن كان في دينه رقّة خُفّف في بلائه»[1]. وقد تكون المصيبة مستغرقةً للعقوبة والابتلاء، فتستنفذ الذنب وتدخل في الابتلاء.

وكل المصائب خير للمؤمن خلا مصيبة الدين، فالمصائب مُمَحِّصَة، مُكفّرة، رافعة للدرجة، مقرّبة من الله، مُزهِّدَة في الدنيا، مُرَغِّبَةٌ في الآخرة، فالبلاء يجمع بين العبد وربه، والعافية تجمع بينه وبين نفسه. ويا بن آدم: لقد بُورِكَ لك في حاجة أكثرت فيها من قرع باب سيدك. وصدق أبو الفتح البستي رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذ يقول:

وَكُلُّ كَسْرٍ فَإِنَّ الدِّينَ يَجْبُرُهُ وَمَا لِكَسْرِ قَنَاةِ الدِّينِ جُبْرَانُ

وقال الغنيمان حفظه الله في قوله ﷺ: **«إذا أراد الله بعده الخير عجّل له العقوبة في الدنيا»**: أي: يصبّ عليه البلاء والمصائب؛ لما فرط من الذنوب منه فيخرج منها وليس عليه ذنب يوافي به يوم القيامة.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المصائب نعمة؛ لأنها مكفرات للذنوب، وتدعو إلى الصبر، فيثاب عليها، وتقتضي الإنابة إلى الله والذل له والإعراض عن الخلق، إلى غير ذلك من المصالح العظيمة.

فنفس البلاء يكفر الله به الخطايا، وهذا من أعظم النعم، فالمصائب رحمة ونعمة في حق عموم الخلق، إلا أن يدخل صاحبُها بسببها في معاصي أعظم مما

(١) أحمد (١٤٩٤) وحسنه محققوه من أجل عاصم بن بهدله. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٩٦)

كان قبل ذلك، فتكون شرًّا عليه من جهة ما أصابه في دينه، فإن من الناس من إذا ابتلي بفقر أو مرض أو وجع؛ حصل له من النفاق، والجزع، ومرض القلب، أو الكفر الظاهر، أو تَرْكِ بعض الواجبات، وفعل بعض المحرمات، ما يوجب له ضررًا في دينه، فهذا كانت العافية خيرًا له من جهة ما أورثته المصيبة، لا من جهة نفس المصيبة، كما أن من أوجبت له المصيبة صبرًا وطاعة كانت في حقه نعمة دينية، فهي بعينها فعل الرب عز وجل ورحمة للخلق، والله تعالى محمود عليها»[1].

ظاهر قول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه يرى أن المصائب تكفر الذنوب، وهذا هو الظاهر، أما حصول الثواب والأجر فهو بأسباب أخرى، كأن يكون بالصبر عليها، وكونها تحدث للإنسان إنابة إلى الله، وذل، وتعلّق به، ودعاء إليه، فهذا أمر آخر، أما المصيبة نفسها فهي كفارة فقط، تكفر ما وقع منه، وليس فيها أنه يكتب له فيها الثواب، وإنما يكفر عنه بها ما وقع من المعاصي وترك الطاعات الواجبة عليه إذا اتصل بها شيء، سواء كان مما يدعو إلى الإنابة والتوبة والاستغفار والدعاء فهذا أمر آخر يثاب عليه، أما إذا كانت سببًا للإعراض والتضجر والاعتراض على الله جل وعلا والسخط مما قضاه عليه؛ فإنها تكون مصيبة أخرى ليس له فيها كفارة، وربما وقعت منه مصيبة أكبر من المصيبة التي أصيب بها! فهذا يقع فيه كثير من الناس.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٤١، ٢٨/ ٤٦٠)

وبعض الناس يكون المرض الذي يقع فيه غير مُنَبِّهٍ له، بل يبقى على حالته التي هو عليها حتى تجده يترك الصلاة؛ لأن كونه مريضًا لا يستطيع أن يتوضأ ولا يستطيع أن يصلي، وهذا يوجد في كثير من المرضى، وهذا خطر عظيم ومعصية كبيرة، بل قد تكون كفرًا، نسأل الله العافية.

فالصلاة لا تسقط عن الإنسان بحال من الأحوال، وإذا مرض الإنسان فينبغي له أن يحرص على أداء الصلاة على حسب حاله ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البَقَرَة: ٢٨٦]، ولكن لا يترك الصلاة، وإن استطاع أن يتوضأ توضأ، وإن استطاع أن يصلي قائمًا صلى قائمًا، وإن لم يستطيع الوضوء تيمم، فالتيمم ليس صعبًا، فإذا لم يكن عنده من يوضئه ويعينه على وضوئه تيمّم، فإن كان عنده من يفعل ذلك فإنه يجب عليه ذلك، أما إذا كان لا يستطيع أن يخرج فيُوضعُ له قليل من التراب في إناء ويتيمّم فيمسح وجهه ويديه، وإذا لم يستطع هو ذلك فالذي عنده يفعل به ذلك وييمّمه، فيأخذ بيديه ويضعها على التراب، ثم يسمح بها وجهه وكفيه، ثم يقول له: صل، فيصلي على حسَب حاله، ولو بالإشارة يشير برأسه.. فما دام العقل عنده صاحيًا فلا تسقط عنه الصلاة بحال، ولا يجوز أن يترك الصلاة، فقد يموت قبل أن يُشفى، فيكون موته وهو تارك للصلاة، نسأل الله العافية، فهذا خطر عظيم يجب أن ينبه عليه الناس، فمثل هذا يكون المرض - وهو مصيبة - قد سبَّبَ مصيبةً أخرى أكبر منها، نسأل الله العافية.

فالمسألة: أن الناس يختلفون في البلاء الذي يصيبهم، فمنهم من يرجع إلى الله بسببه وينيب، ومنهم من يبتعد عن الله جل وعلا ويكون سببًا في تضجّره

وتسخّطه على الله، ويقول: أنا لا أستحق هذا الشيء ـ يعني: أنّ الله ظلمه عياذًا بالله ـ وأنا ما عملت شيئًا، أنا أصلي وأنا أفعل كذا، وأنا وأنا ولكن ما أدري من أين جاءت هذه المصيبة؟! هكذا نسمع بعضهم يقول! والذي لا يقول هذا بلسانه يمكن أن يقول في قلبه شيئًا من ذلك، وإذا كان في قلب الإنسان شيء من ذلك فإنه يكفي في هلاكه؛ لأن الله جل وعلا يحكم بالعدل، ولا يصاب من مصاب إلا بسبب أمر تركه أو ذنب ارتكبه، كما أخبر الله جل وعلا.

ويجب أن يتّعظ الإنسان بالمصائب، فتكون المصيبة موعظة له، فيتعظ ويحاسب نفسه، ويبتعد عن المعائب التي يُعابُ عليها دينًا، فيبتعد عنها ويستغفر ربه منها، فمثل هذا تكون المصيبة قد طهرته من الذنب، وكفرت عنه ذنبه، ولهذا يوجد من الناس من إذا وقع في مصيبة يخرج منها كأنه ليس عليه شيء، كأن لم يعمل ذنبًا، كيوم ولدته أمه، وهذا من فضل الله ورحمته بالعبد، فلهذا العبد لا يسوؤه أنه يُصاب بشيء، لا ينبغي أن تكون هذه السيئة تسوؤه، فليعلم أن هذا فضل من الله وعدل، ثم لينزجر ويتعظ، ويكثر الرجوع إلى الله، وليجعل ذلك سببًا لرجوعه وتعلقه بالله جل وعلا؛ لأن الإنسان ضعيف، فلو جوزي مثلًا بما يعمل أو جمع كل ما يعمله حتى يوافى به يوم القيامة فقد يهلك، يمكن أن ترجح سيئاته على حسناته فيكون من الخاسرين.

فيجب على الإنسان أن يحمد ربه، وهذه صفة المؤمن، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: **«عجبًا للمؤمن إنّ أمره كله له خير، إن أصابته ضراءُ صبرَ**

فكان خيرًا له، وإن أصابته سراءُ شكرَ فكان خيرًا له، وليس ذلك إلا للمؤمن»[١].

أما المنافق والكافر فهو مثل البعير الذي يُعقل ثم يُطلق عقالُهُ، ولا يدري لماذا عُقِلَ، ولا يدري لماذا أُطلق عقالُه! فالمؤمن ينبغي أن يكون بهذه الصفة: إذا أصيب بشيء يكره صبر واحتسب، وصار هذا سببًا في خضوعه وذله ورجوعه إلى الله واستغفاره، وإن أصيب بنعم حمد الله وشكره وأوجب ذلك له زيادة طاعة لله جل وعلا، حيث أحدث له نعمًا فيحدث لله طاعة.

قال الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]:«فمن ابتُليَ فرُزق الصبر، كان الصبر عليه نعمة في دينه، وحصل له بعدما كُفّر من خطاياه رحمة، وحصل له بثنائه على ربه صلاة ربه عليه، قال تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ﴾ [البَقَرَةِ: ١٥٧]، وحصل له غفران السيئات ورفع الدرجات، فمن قام بالصبر الواجب حصل له ذلك». انتهى ملخصًا. أي: أنه يمتثل الآية، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ [البَقَرَةِ: ١٥٦]، ومعنى: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ أي: نحن ملك له وعبيد له يتصرف فينا كيف يشاء، لا نملك لأنفسنا شيئًا، فإذا أصابنا بشيء فهو إليه جل وعلا، ولا يجوز لنا أن نعترض على شيء من ذلك، إنا لله مُلْكًا وعبيدًا، يفعل بنا ما يشاء، ﴿وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾، أي:

---

(١) مسلم ٨/٢٢٧ (٢٩٩٩)

(٢) أي: صاحب فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، وهو عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ. (ت: ١٢٨٥)

مرجعنا إليه فيجازينا على أعمالنا، فإن كان الإنسان شاكرًا جازاه خيرًا، وإن كان كافرًا لا يلقى إلا جزاء عمله فقط، ولا يظلم شيئًا، والشاكرون هم الذين يقول جل وعلا: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ﴾ [البَقَرَة: ١٥٧]، وصلاة الله على عبده أن يثني عليه عند الملائكة، ومن أثنى الله عليه عند ملائكته أحبته الملائكة وصارت تدعو له بسبب بذلك، ملائكة الله جل وعلا الذين في السماء يستغفرون له ويدعون الله له، فيكتسب عملًا ما كان يعمله هو استغفار الملائكة، وهذه الصلوات صلوات الله، وأما الرحمة فأمر آخر: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ﴾، ثم ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾ [البَقَرَة: ١٥٧]، هذا الذي ينبغي أن يكون عليه العبد إذا أصيب بشيء أن يقول هذا، لعله يتحصّل على هذا الفضل العظيم، وهو صلاة الله ورحمته جل وعلا، ولو لم يكن في المصيبة إلا هذا لكفى أن يرتبط الإنسان به.

وكون الإنسان يكون معافًى دائمًا ينبغي أن لا يفرح، فقد يكون دليلًا على أن الله لا ينظر إليه، وأنه مُعرِضٌ عنه، نسأل الله العافية! قال الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوله: «**وإذا أراد بعبده شرًّا أمسك عنه بذنبه**» أي: أخّر عنه العقوبة بذنبه. «**حتى يُوافِي به يوم القيامة**» وهو بضم الياء وكسر الفاء منصوبًا بـ«حتى» مبنيًّا للفاعل، قال العزيزي: وهذه الجملة هي آخر الحديث. فأما قوله: وقال النبي ﷺ: «**إنّ عظم الجزاء مع عظم البلاء**» إلى آخره، فهو أول حديث آخر، لكن لما رواهما الترمذي بإسناد واحد وصحابي واحد جعلهما المصنف كالحديث الواحد.

وفيه التنبيه على حسن الرجاء، وحسن الظن بالله فيما يقضيه لك، كما قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡ﴾ [البَقَرَة: ٢١٦].

الابتلاء سنة ماضية، يُبتلَى الناس على قدر دينهم، فمن ثَخُنَ دينُه اشتدَّ بلاؤه، ومن قلَّ دينُه قلّ بلاؤه، وأشدُّ الناس ابتلاء هم الأنبياء عليهم السلام. والواجب عند نزول البلاء هو الصبر والرضا وعدم التسخط، فمن صبر ورضي أُجر على مصيبته، وكُفِّر بها من سيئاته، ومن سخط وقعت عليه مصيبته، ولم يؤجر عليها، وليعلم أن عظم الجزاء مع عظم البلاء.

وظاهر حديث: «**إنّ عظم الجزاء مع عظم البلاء**» هو أصل المسألة التي ذكرنا: أن البلاء والمصائب عليهما جزاء، فمعناه: إذا كان الإنسان ابتلاؤه أعظم فجزاؤه أعظم وأكبر، فيدل على أن المصيبة يُجزى بها الإنسان.

وقد جاء صريحًا في حديث ابن مسعود: لمّا دخل على النبي ﷺ وهو مريض، قال له: إنّك لَتُوعَك وعكًا شديدًا، قال: «**نعم**»، أو قال: «**أجل، كما يُوعَك اثنان منكم**»، وقال: ذلكَ أنَّ لكَ أَجْرَيْن؟ قال: «**نعم**» يعني: إذا كان هذا مرضه أشدّ فيكون أجره أكثر، وهذا الحديث صريح في ذلك، وهذا هو الصواب أن الإنسان إذا أصيب بمصيبة إن كان له ذنوب كفّرت بها، مقابل ذلك، ولا يخلو أحد من الذنوب أبدًا. «**كل بني آدم خطّاء، وخير الخطائين التوابون**»(١).

---

(١) الترمذي (٢٤٩٩)، وابن ماجه (٤٢٥١). وحسنه الألباني.

وفي الحديث الصحيح: **«لو لم تذنبوا لذهب الله، بكم ولجاءَ بقوم يذنبون ثم يستغفرون الله، فيغفر لهم»**(١). لأن الله جل وعلا من أسمائه الغفار والعفو والرحيم والتواب، فلا بدّ أن تظهر آثار أسمائه جل وعلا على خلقه، فهذا مقتضى خلقه وأسمائه وصفاته تعالى وتقدس، فكل بني آدم والجن ـ وهم المكلفون ـ يقعون في أخطاء كثيرة، وخيرهم الذي إذا أخطأ تاب، ثم الملائكة خلقوا للعبادة، أي: أنه خلصَ خلقُهم للعبادة وكلفوا بذلك، ولهذا لا يوجد عندهم ما عند بني آدم من العصيان: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ﴾ [التَّحۡرِيم: ٦]، دائمًا وأبدًا، فهم جنس آخر من غير جنس بني آدم.

فإذا كان الإنسان خطؤه عظيمًا فتكون المصيبة مقابل الخطأ، فإن كانت أكبر وأشد من خطئه صار منها ما هو مُكَفِّرٌ، ومنها ما هو في رفعة درجاته عند الله، وفي الأثر: «إنّ الإنسان تكون له درجةٌ عند الله لا يبلُغُها بعمله، فيبتليه الله جل وعلا بالمصائب حتى يبلغ تلك الدرجة».

وهذا القول هو الصواب من أقوال العلماء: أنه يختلف الناس فيها، إذا اشتد البلاء والإنسان ليس له من الذنوب ما يقابل ذلك فإن هذا رفعة لدرجاته، وزيادة في حسناته، ولهذا فإن الأنبياء صلى الله عليهم وسلم يُبتلونَ بتكذيب قومهم وبأذيتهم، وربما بقتلهم.

---

(١) مسلم ٨/٩٤ (٢٧٤٩) (١١) وفيه قد ابتدأ الخبر بالقسم فقال: **«والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا..»**.

ومعلوم أنهم خير الخلق، فخير بني آدم هم الأنبياء والرسل: **«أشدُّ الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الإنسان على حسَب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقّة خُفّف في بلائه»**(١).

فتكون بلواه على حسب ما عنده من الدين، وهذا من رحمة الله جل وعلا، لأنه لو زيد في بلاء الإنسان الذي دينه ضعيف لقَدَّم دينه دون عرضه حتى يسلم، فالله جل وعلا لطيف بعباده، وهو حسَب مصالحهم، فإنه إذا أراد الخير بعبده هيأ له أسباب ذلك بفعله هو، وإن لم يكن من فعله ما يصل به إلى الدرجة العالية وقد أراد الله له تلك الدرجة ابتلاه بالمصائب، سواء كانت مصائب قدرية أو مصائب بسبب الناس، وإن كانت كلها بالقدر، فما يقع شيء إلا بقدر الله جل وعلا، ولكن الأسباب قد تكون أثرًا من آثار الناس الذين يفعلون ذلك وهم مسئولون عن أفعالهم، وإن كان أمرهم مقدّرًا؛ لأن العاقل والمكلف لا بد أن يُطالَب بأعماله، وليس لأحد حجّة بالقدر، فيقول: هذا مقدّر عليّ، أنا فعلت الشيء المُقدّر عليّ! لأنّ الإنسان مكلّف بأعمال محددة من الطاعات، ومنهيٌّ عن أعمال محددة من المعاصي يستطيع أن يتركها، والطاعات يستطيع أن يفعلها، وقد علم بذلك وقيل له: هذا طريق الخير فاسلكه، وهذا طريق الشر فاجتنبه.

---

(١) أحمد (١٤٩٤) وحسنه محققوه من أجل عاصم بن بهدله. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٩٦)

فإذا ارتكب شيئًا من المناهي بعد ذلك فاللوم عليه، وليس له أن يقول: إن الله قدّر عليّ ذلك، فهو الذي فعله، وما يدريك أنه قدّر عليك قبل أن تفعل ذلك، فعليك أن تجتهد، فإذا وقعت في ذنب فلا تقل: هذا مقدّر، ولكن قل: أستغفر الله وأتوب إليه، فاستغفر واسترجع، وعُد على نفسك باللوم، أما إذا قال الإنسان: أنا وقعت في القدر، فمعنى ذلك: أنا أجعل اللوم على القدر لا على نفسي، يبرئ نفسه من ذلك، ويجعل اللوم على ربه، فهذا يكون مقتديًا بإبليس عندما قال لربه: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩﴾ [الحِجر: ٣٩] الله أغواه، أم هو الذي أغوى نفسه؟ هو الذي اختار الغواية، ولما قيل له: اسجد، أبى وقال: أنا خير منه وهناك سجدت الملائكة، ولكنه أبى هو باختياره، فهو الذي غوى بفعله.

فلا يحتجّ بأن الله قدّر ذلك، الله جل وعلا قدّر كل شيء؛ لأنه هو المالك لكل شيء، ولكن أعطاك المقدرة على الفعل الذي كلّفك به، وأعطاك المقدرة على ترك الأفعال التي حرمها عليك، فإذا امتثلتَ الأمر كنتَ موافقًا للقدر وموافقًا للشرع، وإذا لم تمتثل الأمر كنت عاصيًا، وإن كنت لا تخرج عن مقدور الله جل وعلا، فلا أحد يخرج عن مقدور الله، ولكن العقلاء كلفوا بعدما أعطوا العقل بالشيء الذي يستطيعونه.

أمّا حديث: «**إذا أحبَّ الله قومًا ابتلاهم..**» فقد قال بعض العلماء: إن المصائب يثاب عليها مع تكفير الخطايا، ورجح ابن القيم أن ثوابها تكفير الخطايا فقط، إلا إذا كانت سببًا لعمل صالح كالصبر والرضا والتوبة

والاستغفار، فإنه حينئذ يثاب على ما تولّد منها، وعلى هذا يقال في معنى الحديث: «**إنّ عظم الجزاء مع عظم البلاء..**» أي: إذا صبر واحتسب.

على كلٍّ؛ الحديث مطلق، والأحاديث التي ذكرنا مطلقة، فكوننا نقيّد الأحاديث بشيء لم يقيّدها به رسول الله ﷺ هذا ليس واردًا، والمفهوم شيء، والمنطوق شيء آخر.

ومعلوم أن النصوص يجب أن يؤخذ بظاهرها إلا إذا جاءت نصوص أخرى تخالفها؛ لأن النصوص من كتاب الله جل وعلا ومن سنة رسوله ﷺ لا تتعارض، بل يصدّق بعضها بعضًا.

هذا؛ وإنّ ابتلاء الأنبياء والأولياء دليل على أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا دفعًا، «**وإنّ الله إذا أحبّ قومًا ابتلاهم**»[1]، ولهذا ورد في حديث سعد: سئل النبي ﷺ: أيُّ الناس أشدّ بلاءً؟ قال: «**الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل..**»، وهذا الحديث ونحوه من أدلة التوحيد، فإذا عرف العبد أن الأنبياء والأولياء يصيبهم البلاء في أنفسهم الذي هو في الحقيقة رحمة، ولا يدفعه عنهم إلا الله؛ عرف أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا دفعًا، فَلَأَنْ لا يملكوه لغيرهم أولى وأحرى، فيَحرُمُ قصدُهم والرغبةُ إليهم لقضاء حاجة أو تفريج كربة، وفي وقوع الابتلاء بالأنبياء والصالحين من الأسرار والحكم والمصالح وحسن العاقبة ما لا يحصى.

---

(١) البخاري ١٠٩/٧ (٥٤٧٠) ومسلم ١٧٤/٦ (٢١٤٤) (٢٣)

هذا واضح وجلي، فقد ابتلي بعض الناس ـ نسأل الله العافية ـ بالتعلق بدعاء المخلوق والشرك به، ويوجد كثير من الناس يعبدُ رسولَ الله ﷺ، ويعبدُ الأولياء، ويتلمّس لذلك الأدلة، مع أن كتاب الله جل وعلا ودعوة الرسل كلها جاءت بوجوب إخلاص العبادة لله وحده، وأنّ الإلهية له وحده، ولكن الشيطان لا يزال بالإنسان حتى يحرّف الأمور الواضحة الجلية، فيجعل العبادة غير العبادة، ويجعل التعلّق في قالب آخر، فإذا جاء الشر صريحًا صار يؤوله(١).

والمعروف أن كثيرًا من الناس يتعلقون بمن يسمّونهم أولياء، مع أن الوَلاية أمرُها خفيّ، فقد يظهر للإنسان أنّ فلانًا صالحٌ أمام الناس، وهو في نفسه فاسد ليس صالحًا، وليست المسألة مسألة ما يظهر للناس، وإنما هو الشيء الذي يكون عند الله للإنسان، فقد يري الناس مثلًا أنه مطيع ومن الفضلاء، فإذا توارى عن الناس عصى الله تعالى، وهذا يوجد بكثرة، وقد يكون هذا المرض واضحًا عند كثير من الناس. فكون هذا وليًّا أمر لا يعلمه

(١) تأمّل ثناء الله تعالى في سورة الأنعام على ثمانية عشر رسولًا ونبيًّا في سياق واحد مُتَّصِل، ثم خُتم الثناء العظيم بقوله الحاسم: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنعام: ٨٨] وقال في سورة الإخلاص الكبرى «الزمر» للنبي الخاتم ﷺ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر: ٦٥] فلا مسامحة في نقض التوحيد. فالشرك ينقض العمل كله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: ٧٢].

إلا الله، إلا أن يخبرنا الرسول ﷺ عن إنسان بعينه، وكونهم مثلًا يتعلقون به أمر محرم. هذا أمر.

الأمر الثاني: أن الدين الإسلامي جاء بوجوب الإخلاص لله وحده، ووجوب متابعة الرسول ﷺ في مثل هذين الأمرين، فكون العبادة كلها لله خالصة ليس فيها شيء لغيره، وكون العبادة جاء بها رسول الله ﷺ لا تكون بالاختيار، أو بالنظر، أو بالاستحسان، أو بما يتعارف عليه الناس ويصطلحون عليه كالموالد وما أشبه ذلك من الأمور التي يفعلونها ثم يبحثون عن الأدلة من بعيد، ويتعلقون بأشياء عجيبة، فيقولون: إنها مشروعة، كيف كانت مشروعة وهي أول ما أُحدثت في القرن السادس؟! هل احتفل الرسول ﷺ بمولده؟! وهل احتفل به أحد من صحابته؟!

هذا لا يثبته إلا كذّابٌ مكابر، فكيف يكون بعد ذلك عبادة؟! وفيها هوى النفوس واستيلاء الجهل عليها، وأشياء كثيرة من هذا القبيل، وهذا مثال فقط.

ثم كون العمل مقصود به وجه الله وحده فقط، ثم إذا دخله شيء من الإرادات والمقاصد؛ فإنه إما أن يفسد فيصبح حابطًا، وإما أن يكون ناقصًا على الأقل كما سيأتي. وإن ذهب بعضه وبقي بعضه إذا كان شيئًا واحدًا فالله لا يقبل إلا ما كان خالصًا له، وبعد هذا كله كيف يكون مخلوق مكلف خلقه الله ليتعبده، كيف يكون شريكًا لله في الإلهية أو في العبادة؟ والأمور في هذا واضحة، ولكن الذين يحبون الشرك ويدعون إليه يُغالطون.

الله جل وعلا لما أخبر عن الملائكة أنهم عباد مكرمون، وأنهم يفعلون ما يؤمرون ولا يعصون الله ما أمرهم قال: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ﴾ [الأنبياء: ٢٩]، ماذا يكون؟ ﴿فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٢٩]، يصلى جهنم.

فالقرآن كله ودعوات الرسل كلها تصب في هذا الأصل العظيم الذي ضل عنه كثير من الناس، وصار يغالط ولا يعتمد إلا على رؤيا كقولهم: رأيت كذا، وفلان رأى كذا، أو على حكايات وقصص خرافية، كقولهم: إن فلانًا دعا الولي الفلاني أو تعلق به فحصل له كذا وحصل له كذا، أو على أحاديث مكذوبة على رسول الله ﷺ، أو على تحريفات كتحريفات اليهود الذين حرفوا النصوص تحريفات واضحة، ثم يستاء بعد ذلك أن يقال: إن بلوى الرسل وما يصابون به دليل على أنهم عباد، وأنهم ليس لهم من الربوبية مع الله شيء، وليس لهم من الإلهية مع الله شيء! احتج على القول لشدة الجهل والعناد، وشدة ترك ما جاء به الرسول ﷺ من بعض الناس.

ومعلوم ما وقع فيه سيد الخلق رسول الله ﷺ من أعدائه، لقد أُخرج من مكة، ثم لم يستطع الدخول إلا بجوار رجل مشرك، وذهب إلى الطائف فرموه بالحجارة حتى أَدْمَوا عقبيه صلوات الله وسلامه عليه، وردّوا عليه ردًّا مِن أسوأ ما يكون، ثم قال جاهل من ثلاثة من كبارهم وساداتهم كانوا مجتمعين فعرض عليهم أمرَ الله ودعاهم فقال أحدهم: ما وجد الله أحدًا غيرك حتى أرسلك؟! بهذه السخرية والتهكم، والآخر قال: إنه يسرق كسوة الكعبة إن كنت رسولًا، وهذا استهزاء صريح، والآخر قال: لا أكلمك كلمة، لئن كنت صادقًا فلأنت أعظم من أن أردّ عليك، ولئن كنت كاذبًا فلأنت أحقر

من أن أكلمك! أهذا جواب الذي جاء بالبينات والهدى الواضحات؟! ثم بعد ذلك يُغرَى به السفهاء والصبيان، فيرمونه بالحجارة ويضربون عقبيه حتى يخرج منه الدم صلوات الله وسلامه عليه، ثم يخرج ولا يدري إلى أين يتجه صلوات الله وسلامه عليه، قد ذهب فكره، فلم يفق إلا وهو بقرن الثعالب الذي يسمى: السيل العالي من الطائف، وهناك رجع إلى فكره ودعا بالدعوة المعروفة المشهورة وقال فيها: **«إن لم يكن بك عليَّ غضبٌ فلا أبالي، غير أنّ عافيتك أوسعُ لي»**[1]. فيقول: كلُّ مصيبة تصيبني بها لا أبالي ما دام أنها بأمرك ولطاعتك، فيحمد الله على ذلك.

ثم كذلك يوم بدر قالت له عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله؛ هل مرّ بك يوم أشدّ من يوم أحد؟ قال: **«يا عائشةُ؛ لقد لقيتُ من قومك..»**[2]. وذكر يوم الطائف.

---

(١) الطبراني في الكبير (١٣/٧٣/١٨١) وضعفه الألباني في السلسلة (٦ / ٤٨٧) من جهة تدليس وعنعنة ابن إسحاق.

(٢) البخاري ٤/١٣٩ (٣٢٣١) ومسلم ٥/١٨١ (١٧٩٥) (١١١) وتمامه: عن عائشة رضي الله عنها: أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشدّ من يوم أحد؟ قال: **«لقد لقيتُ من قومك، وكان أشدّ ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضتُ نفسي على ابن عبد ياليلَ بن عبدِ كِلَال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقَرْنِ الثعالب، فرفعت رأسي، وإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام، فناداني، فقال: إنّ الله تعالى قد سمع قول قومك لك، وما ردّوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فناداني ملك الجبال،**
=

ويوم أحد شُجَّ في وجهه صلوات الله وسلامه عليه، وجعل الدم يسيل على وجهه وهو يقول: **«كيف يفلحُ قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى الله؟!»**(١). ثم بعد ذلك أنزل الله جل وعلا عليه: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٢٨﴾ [آل عِمرَان: ١٢٨]، فالأمر كله لله، فامتثل أمر سيدك، وامض حيث أُمرتَ وكُلّفتَ، ثم بعد هذا يأتي قائل ويقول:

يا أكرمَ الخلقِ ما لي من ألوذُ به سواكَ عند حلول الحادث العَمِمِ
إن لم تكن في معادي آخذًا بيدي فضلًا وإلّا فقُل يا زلّةَ القدم
ولن يضيق رسولَ الله جاهُكَ بي إذا الكريمُ تجلّى باسم منتقم

يقول: إذا غضب الله يوم القيامة فأنا أستجير بك من الله! ـ نسأل الله العافية ـ ثم يقول:

فإنّ مِن جودِكَ الدنيا وضُرّتَها ومن علومك علم اللوح والقلمِ

إذا كان من جملة جود النبي ﷺ الدنيا والآخرة، ومن جملة علومه علم اللوح الذي كتب فيه كل شيء، والقلم الذي كتب كل شيء، فماذا بقي لله؟ ما أبقى لله شيئًا، نسأل الله العافية! ثم يصبح هذا الكلام نصًّا، ويُحفظ كما تحفظ

=

فسلم عليّ، ثم قال: يا محمد، إنّ الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربي إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت، إن شئتَ أطبقتُ عليهم الأخشبين». فقال النبي ﷺ: **«بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا»**.

(١) البخاري (٤٠٦٨) ومسلم (١٧٩١) بنحوه.

الفاتحة؛ بل بعض الناس يقرؤه مساءً وصباحًا، ويجعله وردًا كآية الكرسي والمعوذتين وما أشبه ذلك.

وليس هذا إلا انحرافًا واضحًا، وتعلّقًا بالمخلوق وتركًا للخالق جل وعلا الذي بيده أزمّة الأمور وكل شيء، ومن الذي يزين هذه الأمور؟ يزينها شياطين الجن والإنس، ويحسنونها ويجعلونها بقالب تعظيم النبي ﷺ ومعرفة حقوقه.

يؤخذ خالص حقّ الله جل وعلا ويوضع في المخلوق، فإنه لو كان رسول الله ﷺ مواجِهًا لهم لقاتلهم أشدّ من قتاله لكفار قريش؛ لأنهم خالفوه صراحة، وجاءوا بما لم يأت به مشرك من المشركين، نسأل الله العافية.

وعلى العبد أن يرضى بالقضاء وبالقدر وأن يسلّم أمره لله، ولا يعترض ولا يتضجر، بل يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، ما أصابنا شيء إلا بإذن ربنا، وله الحمد على ذلك، فيكون عبدًا صحيحًا، فيسلّم وينقاد، لا يعترض ولا يتضجر، ولا يتوجع، ولا ينافي هذا كونه يتعالج إذا كان مريضًا، أو كونه يصف المرض ويقول: أنا عندي كذا وكذا، وأجد كذا وكذا لمن يكون عنده شيء من العلاج، فهذا لا ينافي كونه يُسلّم وينقاد لعدم الاعتراض، كما أنه لا ينافي التسليم كونه يئنّ في مرضه، وبعض العلماء يقول: الأنين شكاية، كما روي عن طاووس رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولهذا لما بلغ ذلك الإمام أحمد وهو في مرضه صار لا يئنّ حتى مات رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولكن كون المريض يجد في أنينه شيئًا من الراحة فلا بأس، وليس معناه أنه يشتكي أو يتوجع.

فالمقصود: التسليم والرضا، وهو أن يسلّم وينقاد، وألا يكون قلبه متسخطًا أو متوجعًا من ربه، فإذا تعالج أو وصف مرضه فإنه لا يكون منافيًا لذلك؛ لأن العلاج سبب من الأسباب التي وضعها رب العالمين، والأسباب أمر الله جل وعلا أن نبذلها كما جاء في الحديث لما قالوا للنبي ﷺ: هل نتداوى؟ قال: **«نعم. تداووا عباد الله، فإن الله ما وضع داءً إلا ووضع له شفاء، علمه من علمه، وجهله من جهله، إلا داءً واحدًا وهو الهرم»**، وفي رواية: **«الموت»**[1]. لأن هذه الحياة لابد أن تنتهي.

قال الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ويحسن الظن به، ويرغب في ثوابه، وقد يجد لذلك راحة وانبساطًا، محبةً لله وثقة به، كما قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إنّ الله بقِسطه وعدله جعل الرَّوْحَ والفرحَ باليقين والرضا، وجعل الهمّ والحزن بالشكّ والسخط»[2]»[3]. «وإنّ الناس إذا أُرسل إليهم الرسل بين أمرين: إما أن يقول أحدهم: آمنّا، وإما ألا يقول ذلك، بل يستمر على السيئات والكفر. فمن قال: آمنّا؛ امتحنه ربّه وابتلاه وفتَنَه، والفتنة: الابتلاء والاختبار، ليتبيّن الصادق من الكاذب، ومن لم يقل آمنّا فلا يحسب أنه يعجز الله ويفوته ويسبقه، فإنّه إنما يطوي المراحل في يديه.

---

(١) ابن ماجه (٣٤٢٧) وصححه الألباني. وأحمد (١٨٤٥٥) بلفظ: **«إلا الموت والهرم»**. وحسنه محققوه.

(٢) شعب الإيمان (١٧٦/١) والحلية (١٢٢/٣) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٢٠٠٩).

(٣) شرح فتح المجيد للغنيمان (٩٤-١٠٣/ ١) مختصرًا.

وكيف يفرّ المرءُ عنه بذنبِه إذا كان تُطوَى في يديه المراحلُ

فمن آمن بالرسل وأطاعهم عاداه أعداؤهم وآذوه فابتُلِيَ بما يؤلمه، وإن لم يؤمن بهم ولم يُطعهم عُوقب في الدنيا والآخرة فحصل له ما يؤلمه، وكان هذا المؤلم له أعظم ألمًا وأدوم من ألم اتّباعهم، فلا بد من حصول الألم لكل نفس آمنت أو رغبت عن الإيمان، لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداء، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة، والمعرض عن الإيمان تحصل له اللذة ابتداء ثم يصير إلى الألم الدائم.

وسئل الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أيّما أفضل للرجل أن يُمكّن أو يُبتلى؟ فقال: «لا يُمكّن حتى يُبتلى». والله تعالى ابتلى أولي العزم من الرسل، فلمّا صبروا مكّنهم، فلا يظنّ أحد أنه يخلص من الألم البتة، وإنما يتفاوت أهل الآلام في العقول، فأعقلهم من باع ألمًا مستمرًّا عظيمًا بألم منقطع يسير، وأشقاهم من باع الألم المنقطع اليسير بالألم العظيم المستمرّ. فإن قيل: كيف يختار العاقل هذا؟ قيل: الحامل له على هذا النقد والنسيئة[(١)] والنفس مُوكَلةٌ بحبّ العاجلِ»[(٢)].

وللمؤمن الصالح موقف ثابت مع الابتلاء، فعليه أن يعلم أنّ المصائب والبلاء امتحانٌ من الله تعالى له، لصبره ورضاه وحمده وشكره، بل وإيمانه، وهي علامة حبّ الله له؛ فهي كالدواء، فإنَّه وإن كان مُرًّا إلا أنَّك تُسدِيه على

---

(١) النقد هو العاجلة أي: متاع الدنيا الزائل، أما النسيئة فهي التأخير، والمراد الآجلة وهو أجر الآخرة.

(٢) زاد المعاد (٣/ ١١)

مرارته لمن تُحِبّ، وتتجرّعُه على كراهة مذاقه، ولله المثل الأعلى. كيف وعبده يُلِظّ حينها بيا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام! ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝﴾ [القَلَم: ٥-٦].

تـاللهِ مـا الـدَّعَواتُ يهزمُهـا الـرَّدى   يومًـا وفي التـاريخِ بـرٌّ يمينـي
ضعْ في يـديَّ القيـدَ، ألهِبْ أضـلُعي   بالسوطِ، ضَعْ عُنُقِي على السِّكِّينِ
لـن تستطيعَ حصـارَ فكـريَ سـاعةً   أو نـزعَ إيـماني ونـورَ يقينـي
فـالنورُ في قلبـي، وقلبـي في يَـدَيْ   ربّي، وربِّي نـاصري ومُعينـي
سـأعيشُ مُعتَصِـمًا بحبـلِ عقيـدتي   وأمـوتُ مبتسـمًا ليحيَـا دينـي

ونزول البلاء خيرٌ للمؤمن من أن يُدَّخر له العقاب في الآخرة ـ وأن كانت العافية خير ـ وكيف لا وفيه تُرفع درجاته وتكفّر سيئاته. قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا تكرهوا البلايا الواقعة، والنقمات الحادثة، فَلَرُبَّ أمرٍ تكرهه فيه نجاتك، ولَرُبَّ أمرٍ تؤثره فيه عطَبُك»(١).

وقال الفضل بن سهل: «إن في العلل لنِعَمًا لا ينبغي للعاقل أن يجهلها، فهي تمحيص للذنوب، وتَعَرُّضٌ لثواب الصبر، وإيقاظٌ من الغفلة، وتذكيرٌ بالنعمة في حال الصحة، واستدعاءٌ للتوبة، وحضٌّ على الصدَقة».

تـذكّرْ هـداكَ اللهُ يـومَ قيامـةٍ   بـهِ النار تُذْكَى مِن لُحومِ الطَّوَاغِيا

---

(١) أي: هلاكك.

أمَـا عَـرَفَ المسـكينُ شـدَّةَ حرِّهـا فيا ويحَ واخُسْرًا لمن كان عاصيا

والمؤمن يجتهد لمراضي ربه تبارك وتعالى، فهو يبحث في العافية عن مزيد الشكر، والبلاء عن عظيم الأجر، ولا سبيل إليه إلاَّ بالصبر، وفوقه الرضا والحمد والشكر، ولا سبيل إلى ذلك بعد توفيق الله إلّا بعزيمةٍ إيمانيةٍ وإرادةٍ بالله قوية. فهلمّ للرِّضوان، ﴿أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ٣٤ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ ٣٥﴾ [القِيَامَة: ٣٤ - ٣٥].

الكفْـــرُ بالنِّعمــــةِ يـــدعُو إلى زَوَالِهـــا والشُّـــكْرُ أبقَـــى لَهَـــا

وما أجمل تلك اللحظات التي يفرّ فيها العبد إلى ربه، ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذَّاريَات: ٥٠] ويعلم أنه وحده هو مُفرّج الكرب، ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النَّمل: ٦٢] وما أعظم الفرحة إذا أنزل الله الفرج بعد الشدة، قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾ [البَقَرَة: ١٥٥ - ١٥٧].

وكُـــلُّ شَـــدِيدَةٍ نَزَلَـــتْ بِقَـــومٍ سَـــيَأْتِي بعـــدَ شِـــدَّتِهَا رَخَـــاءُ

وعن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللّٰهم أجُرْنِي في مصيبتي وأخلُفْ لي خيرًا منها؛ إلا أخلف الله له خيرًا منها»**. قالت:

فلما مات أبو سلمة قلت: أيّ المسلمين خير من أبي سلمة؟! أولُ بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ، ثم إني قلتُها[١] فأخلفَ اللهُ لي رسولَ الله ﷺ[٢].

إنّ المؤمن يسأل ربه العافية على الدوام، فإن نزل البلاء صبر ورضي وحمد وشكر، فعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، علّمني شيئًا أسأله الله عز وجل. قال: **«سلِ الله العافية»**. فمكثتُ أيّامًا ثم جئتُ فقلت: يا رسول الله، علّمني شيئًا أسأله الله، فقال لي: **«يا عباس، يا عمّ رسول الله، سَلُوا الله العافية في الدنيا والآخرة»**[٣].

وربّ بلاءٍ مبارك! فمن البلاء ما يكون سببًا لدخول الجنة والنجاة من النار إن وفّق الله صاحبه لحسن التعامل معه ظاهرًا وباطنًا، قال ﷺ: **«يودُّ أهلُ العافية يوم القيامة حين يُعطَى أهلُ البلاءِ الثوابَ لو أنّ جلودَهم كانت قرِّضت بالمقاريض»**[٤].

---

(١) اتباعًا للسنة، فحقق الله لها أعظم مالم يخطر ببالها، ليقينها وتصديقها وحسن ظنها بربها سبحانه.

(٢) مسلم (٩١٨)

(٣) الترمذي (٣٥١٤) وقال حديث صحيح، وكذلك صححه الألباني.

(٤) الترمذي (٢٤٠٤) وحسنه الألباني (٢/٢٨٧)

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن النبي ﷺ عاد مريضًا ومعه أبو هريرة، فقال له رسول الله ﷺ: **«أبشر، فإنّ الله عز وجل يقول: هي ناري أُسلّطها على عبدي المؤمن في الدنيا؛ لتكون حظّه من النار في الآخرة»**[1].

ومن بركات البلاء ردُّ العبدِ إلى كَنَفِ ربه ولطفِ مولاه، وتذكيرُه بمعصيته وإباقِهِ، وإيقاظُه من غفلته وشِرَادِهِ، فيكون هذا البلاء سوطٌ للقلب يردّه لسيده، ويسوقه لمولاه، ويحدوه لمغفرته، ويدخله على ربه مِن أوسعِ أبوابه. فمن فوائد البلاء مرضًا أو حبسًا أو قلّة أو مظلمة أو غيرها أنّه يردّ العبدَ الشارد عن ربه إليه، ويُذكّره بمولاه بعد أن كان غافلًا عنه، ويكفّه عن معصيته بعد أن كان منهمكًا فيها، ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: ٣١].

ومن غايات الابتلاء الربانية وألطافه الرحمانية الخفية أنّ العبد قد تكون له منزلة عظيمة عند الله تبارك وتعالى، وليس للعبد من صالحات الأعمال ما تبلّغهُ إيّاها، فلا يزال به ربُّه الرحيم يبتليه بالبلاء تلو البلاء، ويُنزل عليه المصائب، ويتابع عليه الكربات، ويقرعُ فؤاده بالمُلمّات؛ حتى يبلغ المنزلة بألمه وصبره، وقد يُوفّق للرضا والحمد والشكر، قال ﷺ: **«إنّ العبد إذا سبقت له**

(١) أحمد (٩٦٧٦) وجود إسناده محققوه. وأبو داود (٣٠٩٢) وصححه الألباني في الجامع (٣٢)

من الله منزلة لم يبلغها بعمله، ابتلاه الله في جسده أو في ماله أو في ولده، ثم صبّره على ذلك، حتى يبلّغه المنزلة التي سبقت له من الله تعالى»(١).

وإذا دخل أهلُ الجنةِ الجنةَ؛ انقطع التكليف، وارتفعت الستور، وزال الابتلاء، وانتهى الامتحان، وحلّ عليهم الرضوان، وأعطاهم الله ما يشتهون من ألوان النعيم، وأعظمه النظر لوجه الجميل الكريم سبحانه وبحمده، فلا إله إلا الله.

ومن نعيمهم أن أباح لهم بعض ما حرم عليهم في الدنيا ابتلاء وحفظًا، جزاء طاعتهم وصبرهم، مع أنه لا مقارنة بين ما في الدنيا والآخرة، ومن ذلك الخمر، قال الله تعالى عن خمر الجنة: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ۝٢٣﴾ [الطُّور: ٢٣] وقال تعالى: ﴿بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ ۝٤٦ لَا فِيهَا غَوۡلٞ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ ۝٤٧﴾ [الصَّافَّات: ٤٦ - ٤٧] وقال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ ۝١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝١٩﴾ [الوَاقِعَة: ١٧ - ١٩].

فيا أيّها المُبتلى تفاءل بخير ربك، وأحسن الظن بمن لا يأتيك الخير إلا من عنده، ولا يندفع الضرّ إلا به.

ألا وإن مواطن الابتلاء كثيرة، فهي لا تنحصر في الأمراض والمصائب ونحوها من حالات الضراء، بل هناك أيضا فتنة السرّاء، وكما قد يُبتلى العبد بالضراء ليُختبرَ أيرضى أم يسخط، فإنه قد يُبتلى بالسراء ليُختبر ويُمتحن أيشكر

(١) أبو داود (٣٠٩٢) وصححه الألباني.

أم يكفر. قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال تعالى على لسان سليمان عليه السلام: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]، فليس بلازمٍ أن يُبتلى العبدُ بالضراء.

وقد أخرج الترمذي عن رجلٍ كان يخدم عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: حَضَرتُهُ أُتِيَ بطعامٍ ليلًا، وكان ظَلَّ يومه صائمًا، فبكى، وقال: «ذهب الأوَّلون، لم تَكْلَمْهُمُ[١] الدنيا من حسناتهم شيئًا، وإنّا ابتُلينا بالضَّرَّاء فصبرنا، ثم ابتُلينا بالسَّرَّاء فلم نَصبِر[٢]، وكفى لامرئٍ من الشرِّ أن يُشارَ إليه بالأَصابع في أمر»[٣].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نعمة الضراء احتياجها إلى الصبر ظاهر، وأما نعمة السراء فتحتاج إلى الصبر على الطاعة فيها. فإنّ فتنةَ السَّراءِ أعظم من فتنة الضراء. وفي الحديث: **«أعوذ بك من فتنة الفقر، وشرِّ فتنة الغِنَى»**[٤]. والفقر يصلُحُ عليه خلق كثير، والغنى لا يصلح عليه إلا أقل منهم. ولهذا كان أكثر من يدخل الجنة المساكين، لأن فتنة الفقر أهون، وكلاهما يحتاج إلى الصبر

---

(١) الكلْم: الجرح، والمراد لم تخدش الدنيا دينهم.

(٢) قالها إزراء على نفسه وتواضعًا، لأنّه قارن حاله بأَخَرَةٍ بحاله مع رسول الله ﷺ، وإلا فهو مشهود له بالبرّ والشكر والإحسان رضي الله عنه.

(٣) الترمذي (٢٤٦٤) وحسنه.

(٤) البخاري (٦٣٧٧) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يقول: **«اللّهم إني أعوذ بك من فتنة النار، وعذاب النار، وفتنة القبر، وعذاب القبر، وشرّ فتنة الغنى، وشرّ فتنة الفقر»**.

والشكر، لكن لـمّا كان في السرّاء اللذة وفي الضراء الألم؛ اشتُهر ذكر الشكر في السراء والصبر في الضراء، قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١﴾ [هود: ١٠-١١]. ولأن صاحب السراء أحوج إلى الشكر، وصاحب الضراء أحوج إلى الصبر، فإنّ صبْرَ هذا وشُكْرَ هذا واجب إذا تركه استحق العقاب.

وأما صبر صاحب السراء فقد يكون مستحبًّا إذا كان عن فضول الشهوات، وقد يكون واجبًا، ولكن لإتيانه بالشكر ـ الذي هو حسنات ـ يُغفر له ما يغفر من سيئاته. وكذلك صاحب الضراء يكون الشكر في حقّه مستحبًّا إذا كان شكرًا يصير به من السابقين المقربين.

وقد يكون تقصيره في الشكر مما يُغفر له لما يأتي به من الصبر. فإنّ اجتماع الشكر والصبر جميعًا يكون مع تألم النفس وتلذذها، يصبر على الألم ويشكر على النعم. وهذا حال يعسر على كثير من الناس.

والمقصود هنا؛ أن الله تعالى منعِمٌ بهذا كله، وإن كان لا يظهر الإنعام به في الابتداء لأكثر الناس، فإنّ الله يعلم وأنتم لا تعلمون، فكل ما يفعله الله فهو نعمة منه.

وأما ذنوب الإنسان فهي من نفسه، ومع هذا فهي ـ مع حسن العاقبة ـ نعمة[(١)]، وهي نعمة على غيره بما يحصل له بها من الاعتبار والهدى والإيمان. ولهذا كان من أحسن الدعاء قوله: «اللّٰهم لا تجعلني عبرة لغيري، ولا تجعل أحدًا أسعد بما علّمتني مني»[(٢)].

وفي دعاء القرآن: ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٥﴾ [يُونُس : ٨٥] ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [المُمْتَحنَة : ٥] كما فيه ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ٧٤﴾ [الفُرْقَان : ٧٤] أي: فاجعلنا أئمة لمن يقتدي بنا ويأتمّ[(٣)]، ولا تجعلنا فتنة لمن يضل بنا ويشقى. و«الآلاء» في اللغة: هي النعم، وهي تتضمن القدرة. قال

---

(١) نعمة في حقّ من أورثته توبة وإنابة، فأبدلها بالحسنات الماحية والطاعات الوازِنة، فآدم عليه السلام ارتفع مقامه بعد توبته فصار بعد التوبة خيرًا منه قبل الذنب. والتوبة عبادة مقصودة لذاتها، وهي باب الدخول الأعظم على الله تعالى في حقّ كل مذنب، وكلّنا كذلك، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن تدبر أصول الشرع علم أنه يتلطّف بالناس في التوبة بكل طريق». تفسير آيات أشكلت (٢/ ٥٩٥).

(٢) ذكره ابن بطة في الإبانة من دعاء مطرف بن عبد الله. قال: كان مطرف بن عبد الله بن الشخير يدعو بهؤلاء الدعوات الخمس الكلمات: «اللّٰهم إني أعوذ بك من شر الشيطان، ومن شر السلطان، ومن شر ما تجري به الأقلام، وأعوذ بك من أن أقول حقًّا هو لك رضى أبتغي به حمدَ سواك، وأعوذ بك من أن أتزين للناس بشيء يُشِينِني عندك، وأعوذ بك أن تجعلني عبرة لغيري، وأعوذ بك أن يكون أحد هو أسعد بما علّمتني مني». الإبانة (٢/ ١١/ ٢٨٠/ ١٩١٥). وهو دعاء لتحصيل التحصين من خيبة العمل، وهو دعاء حسن جامع.

(٣) وهي إمامة الدين والقدوة الحسنة.

ابن قتيبة: لما عدّد الله في هذه السورة ـ سورة الرحمن ـ نعماءه، وذكَّرَ عباده آلاءه ونبّههم على قدرته؛ جعل كل كلمة من ذلك فاصلة بين نعمتين، لتُفهم النعم، ويقرّرهم بها.

والله تعالى يذكّر في القرآن بآياته الدالة على قدرته وربوبيته، ويذكّر بآياته التي فيها نعمه وإحسانه إلى عباده، ويذكّر بآياته المبيّنة لحكمته تعالى، وهي كلها متلازمة. فكل ما خلق فهو نعمة ودليل على قدرته وعلى حكمته، لكن نعمة الرزق والانتفاع بالمآكل والمشارب والمساكن والملابس ظاهرة لكل أحد، فلهذا يستدل بها كما في سورة النحل، وتسمّى سورة النعم، كما قاله قتادة وغيره.

وعلى هذا فكثير من الناس يقول: الحمد أعمّ من الشكر من جهة أسبابه، فإنّه يكون على نعمة وعلى غير نعمة(١)، والشكر أعمّ من جهة أنواعه، فإنه يكون بالقلب واللسان واليد(٢).

فإذا كان كل مخلوق فيه نعمة لم يكن الحمد إلا على نعمة، والحمد لله على كل حال، لأنه ما من حال يقضيها إلا وهي نعمةٌ على عباده(١)، لكنْ هذا فَهْمُ مَنْ عرف ما في المخلوقات من النعم، والجهمية والجبرية بمعزل عن هذا(٢).

---

(١) لأنّ الحمد هو الثناء على من يستحق الثناء لجمال صفاته، حتى وإن لم يُحسن إلى الحامد، أما الشكر فهو الثناء على من أحسن إلى الشاكر.

(٢) كما قيل:

أفــادتْكــمُ النعــماءُ منّـي ثـلاثةً … يـدي ولســاني والضميرَ المُحَجَّبَا

=
(١) فكل قضاء الله لعبده خير ما لم يبعده عنه.
(٢) مجموع الفتاوى (١٤/ ٣٠٦- ٣٠٨) باختصار. وقد بيّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ سبب ضلال الجهمية والجبرية والقدرية هنا فقال إتمامًا لما سبق: «والجهمية والجبرية بمعزل عن هذا، وكذلك القدرية الذين يقولون: لا تعود الحكمة إليه؛ بل ما ثمّ إلا نفعُ الخلق، فما عندهم إلا شكر، كما ليس عند الجهمية إلا قُدْرة، والقدرة المجردة عن نعمةٍ وحكمةٍ لا يظهر فيها وصفُ حمدٍ، وحقيقة مذهبهم أنه لا يستحق الحمد؛ فله ملك بلا حمد، كما أن عند المعتزلة له نوع من الحمد بلا ملك، وعند السلف له الملك والحمد تامّين، قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾ [آل عِمرَان: ١٨] فله الوحدانية في إلهيته، وله العدل وله العزّة والحكمة، وهذه الأربعة إنما يثبتها السلف وأتباعهم، فمن قصر عن معرفة السنة نقَص الربَّ بعض حقّه.

والجهمي الجبري لا يُثبت عدلًا ولا حكمة، ولا توحيد إلهيته، بل توحيد ربوبيته، والمعتزلي لا يثبت توحيد إلهيته، ولا عدلًا ولا عزّة ولا حكمة، وإن قال: إنّه يثبت حكمةً ما ومعناها يعود إلى غيره، فتلك لا تكون حكمة، فمن فعلَ لا لأمرٍ يرجع إليه، بل لغيره؛ فهذا عند العقلاء قاطبة ليس بحكيم. وإذا كان الحمد لا يقع إلا على نعمة فقد ثبت أنه رأس الشكر، فهو أول الشكر والحمد. وإن كان على نعمة وعلى حكمة فالشكر بالأعمال هو على نعمته، وهو عبادةٌ له لإلهيته التي تتضمن حكمته، فقد صار مجموع الأمور داخلًا في الشكر.

ولهذا عظّم القرآن أمر الشكر، ولم يُعظّم أمر الحمد مجردًا إذْ كان نوعًا من الشكر، وشرع الحمدَ الذي هو الشكر مَقُولًا أمامَ كلِّ خطابٍ مع التوحيد، ففي الفاتحة الشكر مع التوحيد، والخطب الشرعية لا بد فيها من الشكر والتوحيد. والباقيات الصالحات نوعان: فسبحان الله وبحمده فيها الشكر والتنزيه والتعظيم، ولا إله إلا الله والله أكبر
=

وقد عقد شيخ الإسلام الثاني ابن القيم فصلًا بديعًا في مفتاح دار السعادة وذكر فيه شيئًا عن حِكَم الله تعالى في ابتلاء أوليائه فقال: «وإذا تأملت حكمته سبحانه فيما ابتلى به عباده وصفوته بما ساقهم به إلى أجلّ الغايات وأكمل النهايات التي لم يكونوا يعبُرُون إليها إلا على جسر من الابتلاء والامتحان، وكان ذلك الجسر لكماله كالجسر الذي لا سبيل إلى عبورهم إلى الجنة إلّا عليه، وكان ذلك الابتلاء والامتحان عينُ المنحة في حقهم والكرامة، فصُورتُه صورة ابتلاء وامتحان، وباطنه فيه الرحمة والنعمة، فكم لله من نعمة جسيمة ومنّة عظيمة، تُجنى من قطوف الابتلاء والامتحان[1].

=

فيها التوحيد والتكبير، وقد قال تعالى: ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [غافر: ٦٥]. ». مجموع الفتاوى (٨/ ٢١١- ٢١٢)

وعليه؛ فقد رجع الحمدُ إلى الشكرِ، ونسأل الله تعالى أن يجعلنا جميعًا من الحامدين الشاكرين المُقرّبين السابقين، إلهَ الحقِّ آمين. وبالله التوفيق.

(١)

وكم للهِ مِنْ لُطْفٍ خفيٍّ ... يَدِقّ خفاهُ عَنْ فَهْمِ الذَّكِيِّ

وَكَمْ يُسْرٍ أَتَى مِنْ بَعْدِ عُسْرٍ ... فَفَرَّجَ كُرْبَةَ القَلْبِ الشَّجِيِّ

وكم أمرٍ تُساءُ به صباحًا ... وَتَأْتِيكَ المَسَرَّةُ بالعَشِيِّ

إذا ضاقتْ بكَ الأحوالُ يومًا ... فَثِقْ بالواحِدِ الفَرْدِ العَلِيِّ

فتأمل حال أبينا آدم وما آلت إليه محنته من الاصطفاء والاجتباء والتوبة والهداية ورفعة المنزلة، ولولا تلك المحنة التي جرت عليه ـ وهي إخراجه من الجنة وتوابع ذلك ـ لما وصل الى ما وصل إليه، فكم بين حالته الأولى وحالته الثانية في نهايته.

وتأمل حال أبينا الثاني نوح ﷺ، وما آلت اليه محنته وصبره على قومه تلك القرون كلها، حتى أقرّ الله عينه وأغرق أهل الارض بدعوته، وجعل العالم بعده من ذريته، وجعله خامس خمسة وهم أولو العزم الذين هم أفضل الرسل، وأمر رسوله ونبيه محمدًا ﷺ أن يصبر كصبره، وأثنى عليه بالشكر فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ٣﴾ [الإسراء: ٣] فوصفه بكمال الصبر والشكر.

ثم تأمل حال أبينا الثالث[١] إبراهيم ﷺ إمام الحنفاء وشيخ الأنبياء وعمودُ العالم[١] وخليل رب العالمين من بني آدم، وتأمل ما آلت إليه محنته

---

(١) قال تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾ [الحج: ٧٨] فإبراهيم عليه السلام أبٌ للعرب الإسماعيليين من جهة النسب، وأبٌ للمسلمين كافّة من جهة أبوّة النبوّة، وأبوّة النبوّة هي لنبيّنا أصالة وللمرسلين تبَع، وهي بمعنى أبوّة الروح، وهي أعظم من أبوّة الجسد والنسل، وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره (٦ / ٣٨١): رُوي عن أُبيّ بن كعب، وابن عباس أنهما قرآ: «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أبٌ لهم»، وروي نحو هذا عن معاوية، ومجاهد، وعِكْرِمة، والحسن: وهو أحد الوجهين في مذهب الشافعي. حكاه البغوي وغيره، واستأنسوا عليه بالحديث الذي رواه أبو داود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعَلِّمكم..»** رواه أبو داود (٨) والحاكم (٣٥٥٦). وقال رسول الله ﷺ: **«لتكوننّ هجرةٌ بعد هجرةٍ إلى**
=

وصبره وبذله نفسه لله، وتأمل كيف آل به بذله لله نفسَه، ونصره دينه؛ إلى أن اتخذه الله خليلًا لنفسه، وأمر رسوله وخليله محمدًا ﷺ أن يتبع ملّته.

وأنبّهك على خصلة واحدة مما أكرمه الله به في محنته بذبح ولده[٢] فإنّ الله تبارك وتعالى جازاه على تسليمه ولده لأمر الله بأن بارك في نسله وكثّره حتى ملأ السهل والجبل.

=

مُهاجر أبيكم إبراهيم..». رواه أحمد (٢/٨٤) وجوّد سنده الحافظ في الفتح (١١/٣٨٠).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا بدّ من الولادة مرتين، كما قال المسيح للحواريين: «إنكم لن تلِجُوا ملكوتَ السماء حتى تولدوا مرتين» ولذلك كان النبي أبًا للمؤمنين كما في قراءة أبيّ: «النبيُّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أبٌ لهم» ولهذا تفرّع على هذه الأبوّة أن جُعلت أزواجُه أمهاتُهم، فإنّ أرواحَهم وقلوبهم ولدت به ولادةً أخرى غير ولادة الأمهات، فإنه أخرج أرواحَهم وقلوبهم من ظلمات الجهل والضلال والغيّ إلى نور العلم والإيمان وفضاء المعرفة والتوحيد، فشاهدتْ حقائقَ أُخَرَ وأمورًا لم يكن لها بها شعور قبله، قال تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ [إبراهيم: ١] وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٢﴾ [الجُمُعَة: ٢]».
طريق الهجرتين (١ / ٣٥)

(١) بمعنى أنّ العالم ليس له قيام بدون الملّة المنسوبة إليه وهي الحنيفية، كما قال تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨].

(٢) قال الشربيني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد اجتمعت فيه خصال لم تجتمع في غيره:
=

فإنّ الله تبارك وتعالى لا يتكرّم عليه أحد، وهو أكرم الأكرمين، فمن ترك لوجهه أمرًا أو فعله لوجهه بذل الله له أضعاف ما تركه من ذلك الأمر أضعافًا مضاعفة، وجازاه بأضعافِ ما فعله لأجله أضعافًا مضاعفة، فلمّا أمر إبراهيم

=

أوّلها: أنه اعتزل عن الخلق على ما قال: ﴿وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مَرْيَم : ٤٨]، فلا جَرَمَ بارك الله له في أولاده فقال: ﴿وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۝٤٩﴾ [مَرْيَم : ٤٩].

ثانيها: أنه تبرّأ من أبيه كما قال عز وجل: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التَّوْبَة : ١١٤] ، لا جرم سماه الله أبًا المسلمين فقال: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج : ٧٨].

ثالثها: تلّ ولده للجبين ليذبحه في الله على ما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ۝١٠٣﴾ [الصَّافَّات : ١٠٣]، لا جرم فداه الله تعالى على ما قال: ﴿وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ۝١٠٧﴾ [الصَّافَّات:١٠٧].

رابعها: أسلم نفسه فقال: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝١٣١﴾ [البَقَرَة : ١٣١] ، فجعل الله تعالى النار بردًا وسلامًا عليه فقال: ﴿يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾ [الأنبياء : ٦٩].

خامسها: أشفق على هذه الأمّة فقال: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البَقَرَة : ١٢٩]، لا جرم أشركه الله تعالى في الصلوات في دعائهم: **«كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم»**.

سادسها: وفي قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ۝٣٧﴾ [النَّجْم : ٣٧] ، لا جرم جعل موطئ قدميه مباركًا، و﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البَقَرَة: ١٢٥].

سابعها: عادى كل الخلق في الله فقال: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٧٧﴾ [الشُّعَرَاء : ٧٧]، فاتخذه الله خليلًا كما قال: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ۝١٢٥﴾ [النِّسَاء : ١٢٥] ». تفسير السراج المنير (٢ / ٣٤١) باختصار يسير. وأصلها من تفسير الرازي (١ / ٢٩٩١)

بذبح ولده فبادر لأمر الله ووافق عليه الولد أباه رضاءً منهما وتسليمًا، وعلم الله منهما الصدق والوفاء فداه بِذِبْحٍ عظيم، وأعطاهما ما أعطاهما من فضله.

وكان من بعض عطاياه أن بارك في ذريتهما حتى ملؤوا الأرض، فإنّ المقصود بالولد إنما هو التناسل وتكثير الذرية، ولهذا قال إبراهيم: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠٠﴾ [الصَّافَّات: ١٠٠]، وقال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ۝٤٠﴾ [إبْرَاهِيم: ٤٠]. فغاية ما كان يحذر ويخشى من ذبح ولده انقطاع نسله، فلما بذل ولده لله وبذل الولد نفسه ضاعف الله له النسل وبارك فيه وكثر حتى ملؤوا الدنيا، وجعل النبوّة والكتاب في ذريته خاصة، وأخرج منهم محمدًا ﷺ.

ثم تأمل حال الكليم موسى عليه السلام، وما آلت اليه محنتُه وفُتُونُهُ من أوّل ولادته إلى منتهى أمره[1]، حتى كلّمه الله تكليمًا، وقرّبه منه، وكتب له

---

(١) قال شيخ المفسرين أبو جعفر الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره: «واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠] فقال بعضهم: ابتليناك ابتلاءً واختبرناك اختبارًا. قال ابن عباس في قوله: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾يقول: اختبرناك اختبارًا. وقال: ابتليت بلاء. وعن قتادة: ابتليناك بلاء. وقال الضحاك: هو البلاء على إثر البلاء. وقال آخرون: معنى ذلك: أخلصناك. وعن مجاهد ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾: أخلصناك إخلاصًا. وكذلك عن سعيد بن جبير. قال أبو جعفر: وقد بيّنا فيما مضى من كتابنا هذا معنى الفتنة، وأنها الابتلاء والاختبار». تفسير الطبري (١٨ / ٣٠٦، ٣١٠، ٣١١) مختصرًا.

وقال السعدي: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ «أي: اختبرناك، وبلوناك، فوجدناك مستقيمًا في أحوالك أو نقلناك في أحوالك، وأطوارك، حتى وصلت إلى ما وصلت إليه» تفسير =

التوراة بيده، ورفعه إلى أعلى السماوات، واحتمل له مالا يحتمل لغيره، فإنّه رمى الألواح على الأرض حتى تكسّرت، وأخذ بلحية نبي الله هارون، وجرّه إليه، ولطم وجه ملك الموت ففقأ عينه.. وربّه يحبّه على ذلك كلّه، ولا سقط

= السعدي (١ / ٥٠٤) وقال البيضاوي: ﴿وَفَتَنَّـٰكَ فُتُونًا﴾ «وابتليناك ابتلاء أو أنواعًا من الابتلاء، على أنه جمع فتن أو فتنة على ترك الاعتداد بالتاء كحجوز وبدور في حجزة وبدرة، فخلّصناك مرّة بعد أخرى، وهو إجمال لما ناله في سفره من الهجرة عن الوطن ومفارقة الأُلَّافِ، والمشي راجلًا على حذر، وفقد الزاد، وأجر نفسه.. إلى غير ذلك». تفسير البيضاوي (١ / ٥٠) وقال الشربيني في تفسير السراج المنير (٢ / ٥٠١): «فإن قيل: إنّه تعالى عدّد أنواع مِنَنه على موسى في هذا المقام، فكيف يليق بهذا الموضع: ﴿وَفَتَنَّـٰكَ فُتُونًا﴾؟ أجيب بجوابين:

الأوّل: فتنّاك أي: خلّصناك تخليصًا، من قولهم: فتنتُ الذهب إذا أردت تخليصه من الفضة أو نحوها.

الثاني: أنّ الفتنة تشديد المحنة، يقال: فُتنَ فلان عن دينه، إذا اشتدّت عليه المحنة حتى رجع عن دينه، قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العَنكبُوت: ١٠]، وقال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝﴾ [العَنكبُوت: ٢-٣]. ولما كان التشديد في المحنة يوجب كثرة الثواب عدّه الله تعالى من جملة النعم.

فإن قيل: هل يصح إطلاق الفتّان على الله تعالى اشتقاقًا من قوله تعالى: ﴿وَفَتَنَّـٰكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠]؟ أجيب: بأنّه لا يصح، لأنّه صفة ذمّ في العُرف، وأسماء الله تعالى توقيفية، لا سيّما فيما يوهم ما لا ينبغي». أهـ.

شيء منه من عينه، ولا سقطت منزلته عنده، بل هو الوجيه عند الله القريب، ولولا ما تقدم له من السوابق وتحمّل الشدائد والمحن العظام في الله، ومُقاساتِ الأمر الشديد بين فرعون وقومه، ثم بني إسرائيل وما آذوه به، وما صبر عليهم لله؛ لم يكن ذلك.

ثم تأمّل حال المسيح ﷺ، وصبره على قومه، واحتماله في الله وما تحمله منهم، حتى رفعه الله إليه وطهّره من الذين كفروا، وانتقم من أعدائه وقطّعهم في الأرض ومزّقهم كل ممزق، وسلبهم ملكهم وفخرَهم إلى آخر الدهر.

فإذا جئت إلى النبي ﷺ، وتأملت سيرته مع قومه، وصبرَهُ في الله، واحتماله مالم يحتمله نبيّ قبله، وتلوّن الأحوال عليه؛ مِن سِلمٍ وخوف، وغنًى وفقر، وأمنٍ وإقامة في وطنه، وظعن عنه وتركه لله، وقتل أحبابه وأوليائه بين يديه، وأذى الكفار له بسائر أنواع الأذى من القول والفعل والسحر والكذب والافتراء عليه والبهتان، وهو مع ذلك كله صابر على أمر الله، يدعو إلى الله، فلم يُؤذَ نبيّ ما أوذي، ولم يحتمل في الله ما احتمله، ولم يُعط نبي ما أعطيه، فرفع الله له ذكره، وقرن اسمه باسمه، وجعله سيد الناس كلّهم، وجعله أقرب الخلق إليه وسيلة، وأعظمهم عنده جاهًا، وأسمَعَهُم عنده شفاعة. وكانت تلك المحن والابتلاء عينُ كرامته، وهي مما زاده الله بها شرفًا وفضلًا، وساقه بها إلى أعلى المقامات.

وهذا حال ورثته من بعده الأمثل فالأمثل، كلٌّ له نصيب من المحنة، يسوقه الله به إلى كماله بحسَب متابعته له، ومن لا نصيب له من ذلك فحظّه

من الدنيا حظٌّ مَن خُلِق لها وخُلقت له، وجُعل خَلَاقُه ونصيبه فيها! فهو يأكل منها رغدًا، ويتمتّع فيها حتى يناله نصيبه من الكتاب.

يُمتحنُ أولياءُ الله وهو في دَعَةٍ وخَفْضِ عيشٍ، ويخافون وهو آمن، ويحزنون وهو في أهله مسرور، له شأن ولهم شأن، وهو في واد وهم في واد. همُّه ما يقيم به جاهَه، ويسلم به مالُه، وتُسمع به كلمتُه، لزم من ذلك ما لزم، ورضي من رضي، وسخط من سخط. وهمُّ المؤمنين إقامةُ دين الله، وإعلاء كلمته، وإعزاز أوليائه، وأن تكون الدعوة له وحده، فيكون هو وحده المعبود لا غيره، ورسوله المطاع لا سواه، فلله سبحانه من الحكم في ابتلائه أنبياءه ورسله وعباده المؤمنين ما تتقاصر عقول العالمين عن معرفته، وهل وصل من وصل إلى المقامات المحمودة والنهايات الفاضلة إلا على جسر المحنة والابتلاء؟!

كذا المعالي إذا ما رُمتَ تدركُها ... فاعبُرْ إليها على جسرٍ من التّعبِ

وإذا تأملت الحكمة الباهرة في هذا الدين القويم والملة الحنيفية والشريعة المحمدية التي لا تنال العبارةُ كمالَها، ولا يدرك الوصف حسنها، ولا تقترح عقول العقلاء ولو اجتمعت وكانت على أكمل عقل رجل منهم فَوقَها، وحسْبُ العقول الكاملة الفاضلة إنْ أدركت حسنها، وشهدت بفضلها، وأنّه ما طَرَقَ العالَمَ شريعة أكمل ولا أجلّ ولا أعظم منها، فهي نفسها الشاهد والمشهود له، والحجّة والمحتجّ له، والدعوى والبرهان، ولو لم يأت الرسول ببرهان عليها لكفى بها برهانًا وآية وشاهدًا على أنها من عند الله، وكلها شاهدة

له بكمال العلم، وكمال الحكمة، وسعة الرحمة، والبر، والإحسان، والإحاطة بالغيب والشهادة، والعلم بالمبادئ والعواقب، وأنّها مِن أعظم نعم الله التي أنعم بها على عباده، فما أنعمَ عليهم بنعمة أجلّ من أن هداهم لها، وجعلَهم من أهلها، ومِمَّن ارتضاهم لها، فلهذا امتنّ على عباده بأن هداهم لها، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عِمْرَان: ١٦٤]، وقال معرّفًا لعباده ومذكّرًا لهم عظيم نعمته عليهم، مستدعيًا منهم شكره على أن جعلهم من أهلها: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المَائـِدَة: ٣].

وتأمّل كيف وصفَ الدين الذي اختاره لهم بالكمال والنعمة التي أسبغها عليهم بالتمام، إيذانًا في الدين بأنه لا نقص فيه، ولا عيب، ولا خلل، ولا شيء خارجًا عن الحكمة بوجه، بل هو الكامل في حُسْنه وجلالته، ووَصَفَ النعمةَ بالتمام إيذانًا بدوامها واتصالها، وأنه لا يسلبهم إياها بعد إذ أعطاهموها، بل يُتمَّهَا لهم بالدوام في هذه الدار وفي دار القرار.

وتأمل حسن اقتران التمام بالنعمة، وحسن اقتران الكمال بالدين، وإضافةَ الدين إليهم إذ هم القائمون به المقيمون له، وأضاف النعمة إليه إذ هو وليّها ومسديها والمنعِم بها عليهم، فهي نعمته حقًّا، وهم قَابِلُوها. وأتى في الكمال باللام المؤذنة بالاختصاص، وأنه شيء خُصّوا به دون الأمم، وفي إتمام النعمة بعلَى المؤذنة بالاستعلاء والاشتمال والإحاطة، فجاء: (أتممت) في مقابلة: (أكملت)، و(عليكم) في مقابلة (لكم)، و(نعمتي) في مقابلة (دينكم).

وأكّد ذلك وزاده تقريرًا وكمالًا وإتمامًا للنعمة بقوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المَائِدَة: ٣] وكان بعض السلف الصالح يقول: يا لَه من دينٍ لو أنّ له رجالًا»(١).

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٣٠١- ٣٠٤) مختصرًا. رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما أنفع كتبه. وقد قال عنه الإمام الشوكاني البدر الطالع (١/ ١٤٤): «وكل تصانيفه مرغوب فيها بين الطوائف، وله من حسن التصرف في الكلام، مع العذوبة الزائدة، وحسن السياق، ما لا يقدر عليه غالبُ المصنفين؛ بحيث تعشق الأفهام كلامه، وتميل إليه الأذهان، وتحبه القلوب، وليس له على غير الدليل معوَّل في الغالب، وقد يميل نادرًا إلى مذهبه الذي نشأ عليه، ولكنه لا يتجاسر على الدفع في وجوه الأدلة بالمحامل الباردة؛ كما يفعله غيره من المتمذهبين، بل لا بد له من مستند في ذلك، وغالب أبحاثه الإنصاف، والميلُ مع الدليل حيث مال، وعدمُ التعويل على القيل والقال، وإذا استوعب الكلام في بحث، وطول ذيوله، أتى بما لم يأت به غيره، وساق ما تنشرح له صدور الراغبين في أخذ مذاهبهم عن الدليل، وأظنه سرت بركة ملازمته لشيخه ابن تيمية في السراء والضراء، والقيام معه في محنه ومواساة بنفسه، وطول تردده إليه، فإنه ما زال ملازمًا له من سنة ٧١٢ إلى تاريخ وفاته.

وبالجملة: فهو واحدُ مَن قام بنشره السنة، وجعلها بينه وبين الآراء المحدثة أعظمَ جُنة، ف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وجزاه عن المسلمين خيرًا. وحكي عنه قبل موته بمدة: أنه رأى شيخه ابن تيمية في المنام، وأنه سأله عن منزلته؟ فقال: إنه أنزل فوق فلان - وسمى بعض الأكابر - وقال له: أنت تلحق به، ولكن أنت في طبقة ابن خزيمة، ومات في ثالث شهر رجب سنة ٧٥١». رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

هذا؛ وإنّ في صبر النبي ﷺ على أذى المشركين أمثلة رائعة يجدر بالدعاة إلى الله تعالى، بل بعموم المسلمين أن يقفوا عندها ويتأملوها، ليتأسَّوا بالنبي ﷺ، فهو خير أسوة لخير أمة، ومن ذلك: ما كان مشركو مكة يُلقون على عتبته ﷺ من الأنتان والأقذار، وقد كان صابرًا محتسبًا، وما كان يزيد على قوله: **«يا بني عبد مناف؛ أيّ جوار هذا؟!»**[(١)].

وبعد أن اشتدّ أذى قريش للنبي ﷺ عقب وفاة عمه أبي طالب، خرج النبي ﷺ إلى الطائف للدعوة وطلب النصرة من ثقيف، ولكنهم لم يستجيبوا له، بل كفروا به، وأمروا صبيانهم وسفهاءهم أن يصطفّوا على الطريق صفّين، وأن يرجموه بالحجارة، فرجموه ﷺ بالحجارة حتى أدموا عقبه الشريف. قال ابن إسحاق رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولـمّا هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تنال منه في حياة عمه أبي طالب، فخرج رسول الله ﷺ إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف والمَنَعَةَ بهم من قومه، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل، فخرج إليهم وحده.

ولـمّا انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف هم يؤمئذ ساده ثقيف وأشرافهم، وهم إخوةٌ ثلاثةٌ عبدُ ياليلِ بن عمرو ومسعود بن عمرو وحبيب بن عمرو، وعند أحدهم امرأةٌ من قريش من بني جُمَحٍ، فجلس إليهم رسول الله ﷺ فدعاهم إلى الله، وكلّمهم بما جاءهم له من نصرته على

---

(١) سيرة ابن هشام، (٤١٦/١) وتاريخ الطبري، (٣٤٣/٢)

الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه. فقال له أحدهم: هو[١] يمرُط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك، وقال الآخر: أما وجد الله أحدًا يرسله غيرك؟ وقال الثالث: والله لا أكلّمك أبدًا، لئن كنت رسولًا من الله كما تقول لأنت أعظم خطرًا من أن أردّ عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك. فقام رسول الله صلى عليه وسلم من عندهم، وقد يئس من خيرِ ثقيف. وقد قال لهم - فيما ذكر لي -: «**إذا فعلتم ما فعلتم فاكتُمُوا عَنِّي**». وكره رسول الله ﷺ يبلغ قومه عنه فيذْئَرُهُمْ ذلك عليه.

فلم يفعلوا، واغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبّونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، وألجئوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد إلى ظلِّ حَبَلَةٍ من عنب فجلس فيه، وابنا ربيعة ينظران إليه، ويريان ما لقي من سفهاء أهل الطائف.

فلما اطمأنّ رسول الله ﷺ قال: «**اللّهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلّة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت ربّ المستضعفين، وأنت ربّي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدوّ ملّكته أمري؟ إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي، غير أنّ عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن ينزل بي**

---

(١) يعني نفسه، ولكن لورع الراوي وإجلالًا للكعبة أن يذكر ما يُوهِمَ السوء على نفسه حيالها لم يذكرها كما قالها، بل قال «هو» بدلًا من «أنا»، ومثل هذا رواية وفاة أبي طالب حينما روى الراوي قوله: «أنا» إلى «هو على ملة عبد المطلب». رواه البخاري (١١٩/٢). ولا زال هذا على الألسن دارج، وهو سائغ بليغ جميل شريف.

غضبك، أو يحلّ عليّ سخطك، لك العُتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك» (١).

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٣١٥٠٥)، والطبراني (١٤/١٣٩) (١٤٧٦٤)، وابن عدي في (الكامل في الضعفاء) (٦/١١١)، وابن عساكر في (تاريخ دمشق) (٤٩/١٥٢) باختلاف يسير. ورجاله ثقات، غير ابن إسحاق وهو مدلس وقد عنعن. وابن إسحاق إمام في المغازي ضعيف في الحديث، فإن أخذتَ الخبر كسائر أخبار السيرة المرسلة فهو كما ترى، وعليه شواهدُ من جَلالِ وبهاء أنوار النبوة، أما إن أعملت الصنعة الحديثية ففي صحته كلام. والحديث قد روي مرسلًا عن محمد بن كعب القرظي، وعن الزهري. وبالجملة؛ الحديث لا يثبت، لتدليس ابن إسحاق، ولإرسال محمد بن كعب القرظي والزهري. وهو حديث مشهور، وضياء النبوة ظاهر عليه، فهو وإن لم يثبت سندًا إلّا أن معانيه ثابتة بنصوص أخرى، وفيه ثناء على الله تعالى وافتقار إليه وتمجيده وتوحيده، فهو قبس من مشكاة النبوّة، إما تعيينًا بلسانه ﷺ أو شمولًا بتعليمه أمته أدب الدعاء والمناجاة والحمد، وقد تتابع علماء السيرة على ذكره والإفادة منه. وانظر: البيهقي في الدلائل: ٢: ٤١٤ – ٤١٧ من طريق موسى بن عقبة عن الزهري، وهو مرسل، ولم يذكر الدعاء، وأورد السيوطي الدعاء في الجامع الصغير، وعزاه للطبراني ورمز له بالحسن. وقد ضعفه الألباني في فقه السيرة (١ / ١٢٥)، وقال الهيثمي في المجمع: ٦: ٣٥: «وفيه ابن إسحاق. وهو مدلس، وبقية رجال ثقات». وذكره ابن هشام في سيرته ٢/٤٢٠. وروي مرسلًا: عن محمد بن كعب القرظي، وعن الزهري. وانظر: مجمع الزوائد (٦/٣٥)، وتاريخ الطبري (١/٣٤٥) والبداية والنهاية (٣/١٤٧)، ودلائل النبوة لأبي نعيم (١/ ٢٩٦) وفيض القدير: ٢: ١٥٠ – ١٥١ (١٤٨٣) وكنز العمال (٣٦١٣،٣٧٥٦). وانظر: السيرة النبوية (٢/٧١).

=

فلما رآه ابنا ربيعة عتبة وشيبة وما لقي تحرّكتْ له رحمهما؛ فدعَوا غلامًا لهما نصرانيًّا يقال له عَدَّاس، فقالا له: خذ قطفًا من هذا العنب فضعه في هذا الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل، فقل له يأكل منه.

ففعل عدّاس، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ، ثم قال له: كل، فلما وضع رسول الله ﷺ فيه يده قال: «**باسم الله**» ثم أكل، فنظر عدّاس في وجهه ثم قال: والله إنّ هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد! فقال له رسول الله ﷺ: «**ومِن أهل أيّ البلاد أنت يا عدّاس، وما دينُك؟**» قال: نصراني، وأنا رجل من أهل نينوى، فقال رسول الله ﷺ: «**مِن قرية الرجل الصالح يونس بن متّى**» فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسول الله ﷺ: «**ذاك أخي، كان نبيًّا وأنا نبيّ**». فأكبّ عدّاس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه.

قال: يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أمّا غلامك فقد أفسده عليك! فلما جاءهما عدّاس قالا له: ويلك يا عدّاس! ما لك تقبّل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا سيدي؛ ما في الأرض شيء خير من هذا، لقد أخبرني بأمر ما

=
وكان ابن تيمية وابن القيم يذكرانه من ضمن أدعية النبي ﷺ، وهو دعاء عظيم المعاني، جليل الفوائد، عليه أنوار النبوة. وانظر: العبودية (١ / ٨٦)، ومجموع الفتاوى (٦ / ٣٨٧)، وزاد المعاد في هدي خير العباد (٣ / ٣١). ومعنى يتجهّمني: أي: يستقبلني بوجه كريه.

يعلمه إلا نبيّ. قالا له: ويحك يا عدّاس، لا يصرفنّك عن دينك، فإن دينك خير من دينه.

قال: ثم إن رسول الله ﷺ انصرف من الطائف راجعًا إلى مكة حين يئس من خير ثقيف، حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصلي، فمرّ به النفر من الجنّ الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى، وهم - فيما ذُكر لي - سبعةُ نَفَرٍ من جِنِّ أهل نَصِيبَيْن، فاستمعوا له، فلما فرغ من صلاته ولّوا إلى قومهم منذرين، قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا، فقصّ الله خبرهم عليه ﷺ، قال الله عز وجل: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الأَحْقَاف: ٢٩] إلى قوله تعالى: ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣١﴾ [الأَحْقَاف: ٣١]. وقال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ١] إلى آخر القصة من خبرهم في هذه السورة»(١).

فصلى الله وملائكته وصالح عباده وسلّم وبارك على هذا النبي الشفيق الكريم، وقد أحسن جهاد جحا حينما أنشد:

وَلَـرُبَّ حَاجَـاتٍ تَعَسَّـرَ نَيـلُهَا ... والخَيْرُ كُلُّ الخَيرِ فـي تَعسِيرِهَا

كُـنْ وَاثِقًـا بـالله فِيمَـا قَـد قَـضَى ... واتْرُكْ أُمُـورًا قَـد دَعَـاكَ لِغَيرِهَـا

واجعَـلْ حيَاتَـكَ كُلَّهـا بيَـدِ الَّـذِي ... لـولاهُ لَـنْ تَقْـوَى عَـلَى تَـدبِيرِهَا

واترُكَ هَوَاكَ لِأَمْرِ رَبِّكَ واحْتَسِبْ ... لَا تَلْتَـفِتْ لِلـنَّفْسِ عِنْـدَ زَئِيرِهَـا

(١) تهذيب سيرة ابن هشام (١/ ١٢٣ - ١٢٤)

مَـنْ يَتَّـقِ الـرَّحمنَ يَلْـقَ سَـعَادَةً   يَعْيَا لِسَانُ الخلقِ عَـن تَفْسِيرِهَا

وكلما قوي طمع العبد في فضل الله ورحمته ورجائه لقضاء حاجته ودفع ضرورته؛ قويت عبوديته له وحرّيته مما سواه؛ فكما أنّ طمعه في المخلوق يوجب عبوديته له، فيأسه منه يوجب غنى قلبه عنه. كما قيل: استغن عمن شئت تكن نظيره، وأفضِلْ على من شئت تكن أميره، واحتجْ إلى من شئت تكن أسيرَه.

فكذلك طمع العبد في ربه ورجاؤه له يوجب عبوديته له، وإعراض قلبه عن الطلب من الله والرجاء له يوجب انصراف قلبه عن العبودية لله، لا سيّما من كان يرجو المخلوق ولا يرجو الخالق، بحيث يكون قلبه معتمدًا إما على رئاسته وجنوده وأتباعه ومماليكه، وإما على أهله وأصدقائه، وإما على أمواله وذخائره، وإما على ساداته وكبرائه، كمالكه وملكه وشيخه ومخدومه وغيرهم، ممن هو قد مات أو يموت، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [الفرقان: ٥٨] (١).

إذا كـانَ غـيرُ الله للمـرءِ عُـدَّةً   أَتَتْـهُ الرَّزايَا مـن جَمِيعِ المَطَالِبِ

ومن جميل ما هتفت به يراعة الشاعر الأندلسي أبي الفضل يوسف بن محمد المعروف بابن النحوي المتوفى سنة ٥١٣ هـ وتسمَّى «القصيدة المنفرجة» وهي على روي منفرجة الغزالي الآنفة، قال ابن النحوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(١) العبودية، ابن تيمية (١ / ٨٧)

اشـــتَدِّي أزمَـــةُ تنفرِجـــي | قَـــد آذَنَ لَيلُـــكِ بِـــالبَلَجِ
وَظَـــلامُ اللَّيـــلِ لَـــهُ سُرُجٌ | حَتّى يَغشَـــاهُ أبُو السرُجِ
وَسَـحَابُ الخَـيرِ لَهَـا مَطَـرٌ | فَـإِذَا جَـاءَ الإبّـانُ تَجِـي
وَفَوائِـــدُ مَولانـــا جُمَـــلٌ | لِسُـرُوحِ الأَنفُـسِ والمُهَـجِ
وَلَهَـــا أَرَجٌ مُحْـــيِي أَبَـــدًا | فَاقصُـــد مَحيَـــا ذاكَ الأَرَجِ
فَلَـــرُبَّمَا فَـــاضَ المَحيَـــا | بِبحُـورِ المَـوجِ مِـنَ اللُّجَـجِ
وَالخَلـــقُ جَميعًـــا في يَـــدِهِ | فَـذَوُو سِـعَةٍ وَذَوُو حَـرَجِ
وَنُـــزُولُهُمُ وَطُلُـــوعُهُمُ | فَعَـــلَى دَرَكٍ وَعَـــلَى دَرَجِ
وَمَعائِشُـــهُم وَعَـــواقِبُهُم | لَيسَت في المَشيِ عَلى عِوَجِ
وَرِضًـا بِقَضَـاءِ اللهِ حِجًـى | فَعَـلَى مَركُوزَتِـهِ فَعُـجِ
وَإِذا انفَتَحَـت أَبـوابُ هُـدى | فاعجِـل لِخَزائِنِهَـا وَلِـجِ
وَمَعَـاصِي اللهِ سَـماجَتُها | تَـزدانُ لِـذِي الخُلُـقِ السَـمِجِ
وَلِطَاعَتِـهِ وَصَـباحَتِها | أنـوارُ صَـبَاحٍ مُنـبَلِجِ
واتـلُ القُـرآنَ بِقَلـبٍ ذي | حَـزَنٍ وَبِصَـوتٍ فيـهِ شَـجِي
وَصَـلاةُ اللَّيـلِ مَسـافَتُها | فاذهَـب فِيهَـا بِـالفَهمِ وَجِـي

وَتَـــــدبّرْها وَمَعانِيَهَــــــا تــأتِ الفَــردَوسَ وَتَنفَــرِجِ
وَكِتَـــابُ اللهِ رِياضَـــــتُهُ لِيقُــودَ الخلــقِ بِمُنــدَرِجِ
وَخِيـــارُ الخَلــقِ هُـــداتُهُمُ وَسِـوَاهُم مِـن هَمَـجِ الهَمَـجِ
وإذا كُنـــتَ المِقـــدَامُ فَـــلا تجـزَع في الحَـربِ مِـنَ الـرَّهَجِ

أحكامُ تَمَنِّي الموت خشيةَ الفتنةِ أو غيرِها

جعل الله تعالى الموت راحةً لِوَلِّيِّه من وَصَبِ الدنيا ونَصَبِ لأوائها، ونهايةً سعيدةً لعبده من ضيقها وعَنَتِهَا وكَدَرِهَا وعَنائِها، ومعبرًا وحيدًا للوصولِ إليه تعالى ولقائه ورؤيته وسَلامِه في دار السلام، قال ﷺ: **«تعلمُوا أنّه لن يرَى أحدٌ مِنكُم ربه عز وجل حَتّى يَمُوت»**[1]. والرب تبارك وتعالى يُبشّر عباده بلقياه في الدار الآخرة بقوله سبحانه: ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖ﴾ [العَنكَبُوت: ٥].

وإذَا أرَادَ اللهُ أمـــرًا لم تَجِـــدْ لقضـــائِهِ رَدًّا ولا تبـــدِيلًا

فالموت هو الباب الوحيدُ للقاء وليِّ الله تعالى ربّه تعالى، وهو طريق الوصول للجنة والدار الآخرة، ولقاء الأحباب كرسول الله ﷺ والمرسلين والصحابة والسابقين، وكأحباب المؤمن من خاصته الذين سبقوه كوالديه أو أجداده أو زوجه وذريته وأقاربه وجيرانه وأحبابه الذين فَرَطُوهُ بالرحيل للدار الآخرة، لذلك قال غير واحد من الصحابة عند موتهم: مرحبًا بحبيب جاء على فاقة[2]! فهذا معاذٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول عند احتضاره: «مرحبًا بالموت مرحبًا! زائرٌ مُغبٌّ، وحبيبٌ جاء على فاقةٍ»[3]، وكذلك بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين قالت

---

(١) مسلم (١٦٩، ٤/٢٢٤٥)

(٢) الفاقة: هي الحاجة الشديدة.

(٣) الزهد. لأحمد بن حنبل (١٤٨)، حلية الأولياء (١/ ٢٣٩).

زوجته عند موته: واكَرْباه! قال: «لا، بل واطَرَباه! غدًا ألقى الأحبة محمدًا وحزبه»(١). وقال حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ حين احتُضِر: «جاء حبيب على فاقة، لا أفلح من نَدِم»(٢). يعني على التمنّي. وقال عمّار رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بصفّين: «اليوم ألقى الأحبةَ محمدًا وحزبه»(٣). وقال أبو الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «أُحِبُّ الموتَ اشتياقًا إلى ربي»(٤). فالجِوارُ الذي يُحرَصُ عليه هو الجوار في جنات النعيم، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [النِّسَاء: ٦٩ - ٧٠].

جـاورتُ أعـدائي وجـاوَرَ ربَّـهُ   شـتّانَ بـين جِـوارِه وجِـوارِي

أما الكافر فحين يأتيه موتُه فلا شيء يكرهه أكثرَ مما أمامه، فيضيقُ واسعُه، ويستوحشُ أُنسُه، ويخاف حينَ لات مأمنٍ، ويهلك حين يفوته النجاء، ولاتَ حِين الذي يرجو، ويوقن حينها بأن الله هو الحق المبين، ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٨٥].

فنفسَـــك لُمْ، ولا تَلُـــمِ المطايـــا   ومُتْ كَمَدًا، فليس لـك اعتذارُ

وقد يأخذه ابتداءُ وهمِه إلى لقيا أحبته الغابرين، لكن هيهات فلا سعادة في الآخرة لكافر، فإنهم يتبرؤون من بعضهم، قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ

(١) الشفاء (٢/ ٥٦٩).
(٢) الحاكم في المستدرك (٤/ ٥٤٧).
(٣) البزار في مسنده (١٤١٠).
(٤) أبو داود في الزهد (٢٣٧)، والبيهقي في الشعب (٩٦١١).

لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ [الزُّخرُف: ٦٧]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿٧٢﴾ [المَائِدَة: ٧٢]، ولمّا منّ رسول الله ﷺ على اليهودي الزبير بن باطا القُرَظِي بشفاعة خطيبه ﷺ ثابت بن قيس بن الشماس لِيَدٍ كانت لليهودي عليه في الجاهلية، فوهبه نفسَه وأهلَه ومالَه، وبعد أن توثّق من ذلك كله سأل عن أحبابه من اليهود الذي ذُبحوا، فأخبره، فقال بكل خيبة وخذلان وحسرة: «فإني أسألك يا ثابت بيدي عندك إلّا ألحقتني بالقوم، فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير، فما أنا بصابرٍ فَتْلَةَ دلوِ ناضحٍ حتى ألقى الأحبة»! فقدّمه ثابتٌ فضرب عنقه. فلما بلغ أبا بكر الصديق، قوله: «ألقى الأحبة»، قال: «يلقاهم في نار جهنم خالدًا مخلدًا»(١).

إذا الحيـــاة لغـــير الله وجهتهـــا ... فطولهـا في صـميم الأمـرِ نقصـانُ

فدَربُها ضـــيعةٌ تُفضـــي لمهلكَةٍ ... وزادُهـا جلمـدٌ في شـكل عِقيـانِ

فعـش إذا شـئتَ أو فلتمـتْ كمـدًا ... فـالموتُ والعيشُ بعد اليوم سيّانُ!

وبعدُ؛ فكثيرٌ من الناس يسألُ عند كثرة الفتن واضطراب أحوالِ الفرد أو الجماعة سؤالًا يدلّ على حرصهم على لقاء ربهم تبارك وتعالى وهم أنقياء أتقياء معافَون، فيقول القائل منهم: **هل تمنّي الموت من رُخَصِ الفتن؟**

---

(١) الخبر بطوله في سيرة ابن هشام (٢ / ٢٤٣). والناضِح: الحبل الذي تستخرج بواسطته المياه من البئر بالسانية، والمراد بقوله: «فتلة دلو ناضح»، هو مقدار ما يأخذ الرجل الدلو إذا أخرجت فيصبها في الحوض، يفتلها أو يردّها إلى موضعها.

والجواب: أن الأصل للمؤمن تمنّي بقاءه في الحياة ليعبد ربه ويستكثر من خيره، فكل يوم يمرّ عليه يزيد فضله وأجره وذخره إلى منقلبه، وتقرّبه قرابين قبوله إلى رضوان ربه، فقد قال ﷺ: **«خيرُكم من طال عمره وحسن عمله»**[(١)].

والمؤمن مسلّمٌ أمره إلى ربه ووليّه، فيرضى بما قضى الله له بالبقاء أو الرحيل، ويجاهد نفسه على إرضاء ربه تبارك وتعالى على كل حال وفي كل حين، وهو يعلم بكل أحواله أنّ الموت غاية كل حي.

ألا يا ابنَ الذين فَنُوا وَبَادُوا   أمَا والله ما ذَهَبُوا لتبَقَى

بيد أنه يرخّص في الفتن ما لا يُرخص في غيرها، وذلك لأن الفتن العامة والخاصة سببٌ في اضطراب الأمور، وانقلاب القلوب، وانتكاس الأحوال، واختلال الأديان، واخترام العزائم، وإظلام البصائر إلا من عصم الله تعالى بحياة صالحة رشيدة، أو موت مُسلّمٍ مُذهِب، فقد روى الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ في حديث اختصام الملأ الأعلى: **«اللّهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وإذا أردتَ بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون ..»** الحديث، وقد حمل الإمام مالك[(٣)] دعاء عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «اللّهم كبرت سنّي، وضعفت قوّتي، وانتشرت رعيتي؛ فاقبضني إليك غير مضيّع ولا مفرّط» الذي رواه عنه في

---

(١) أحمد (٢٠٤٤٤) وحسنه الأرناؤوط، والترمذي (٢٣٢٩) وصححه الألباني.

(٢) الترمذي (٣٢٣٣) وصححه الألباني.

(٣) كما في الجامع لابن أبي زيد القيرواني (١٨٢).

موطئه فقال: «ولا أرى عمر دعا على نفسه بالشهادة إلا أنه خاف التحوّل من الفتن، وقد كان يحب البقاء في الدنيا»، وكان من دعائه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في آخر عمره: «اللَّهمَّ ارزقني شهادة في سَبِيلك، واجعل موتي في بَلَدِ رسولك. قالت حفصة: فقلت: أنّى يكون هذا؟ قال: يأْتِيني به اللهُ إذا شاء»[(١)]. وقد استجاب الله دعاءه، فتوفّاه صدّيقًا شهيدًا راضيًا مَرْضِيًّا.

من لم يمُت بالسيفِ مات بغيره   تنوَّعتِ الأسبابُ والموتُ واحدُ

وعليه؛ فلا يُشرع تمنّي الموت عند الضرر إلا إن خاف المؤمن على دينه، فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يتمنّينّ أحدُكم الموتَ لضرّ أصابه، فإن كان لا بد فاعلًا، فليقل: اللّهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفّني إذا كانت الوفاة خيرًا لي»**[(٢)]. وفي رواية قال أنس: لولا أن رسول الله ﷺ قال: **«لا يتمنّين أحدُكم الموت»**، لتمنّيته[(٣)].

فدل الحديث على النهي عن تمنّي الموت لأجل مصائب الدنيا، لما في ذلك من الجزع، وعدم الصبر على المُقدّر، وعدم الرضا بالقضاء، وهذ من رِقّة الدين، وضعف اليقين في الأغلب.

ولا يلزم من وجود ذلك ضعف الإيمان لكل من تمنّى الموت لضرر الدنيا، بل قد يكون سبب تمنّيه جهله بالحُكم الشرعي وعدم بلوغه النهي، أو نسيانه

---

(١) البخاري (١٨٩٠).

(٢) البخاري ١٥٦/٧ (٥٦٧١) ومسلم ٦٤/٨ (٢٦٨٠) (١٠).

(٣) البخاري (٥٦٧١)، ومسلم (٢٦٨٠)

وغيبته عن باله حين أمنيته، سيّما والغالب اختلال المزاج عند من تمنّى هذه الأمر الشديد جدًّا.

كم من هُموم أحرَقتْ كبدي التي | بجـــوانحي لكنّنـــي أتجلّـــدُ
أوّاهُ دمعـــي لا تَـــبُحْ سِرّي الـــذي | أكننتُـــهُ قلبًـــا حزينًـــا يكمـــدُ
لكـــنّما اللّوعـــاتُ حـــينَ أوارُهـــا | تجثوا على القلبِ القوي فيهمدُ
تتهشّمُ الأضلاعُ من رجْع الصّدَى | مِـــنْ أنَّـــةٍ مكلومـــةٍ تـــتردَّدُ
يـا مُقْلَتِـي مـا عُـدتُ أقـوَى صَـابِرًا | جُـــودي ببحـــرٍ زاخـــرٍ يتمـــدَّدُ
بحـــرٌ خِضَـــمٌّ سُـــخّنَتْ أمواجُـــهُ | مـن نـار كبـدي والضـلوعُ تُقَـدَّدُ

وعلى كل حال؛ فالمؤمن مُفَتَّنٌ تَوَّابٌ، وقد يَرِد على قلب المؤمن أحيانًا عوارض من ذلك بلا استمرار، بسبب واردٍ غير مُحتمل، أو مزاجٍ تَكَدَّرَ، أو قلبٍ غَضِبَ، أو نفسٍ نَفَهَتْ، أو غفلةٍ تمكّنت، كتب الله النقص والخطأ والخطيئة على عباده علّهم إليه يرجعون، والله تعالى يغفر لعباده ويعفو عنهم ما داموا غير مُصِرّين، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۝٢٠١﴾ [الأعراف: ٢٠١]، والطائف: لَمَّةُ الشيطان ووسوستُه وتغطيته ذكرَ القلب على وجه السرعة والمباغتة بنسيان أو غفلة أو ضعف إرادة ونحو ذلك.

وتدبّر كيف وصفهم سبحانه في ثاني الحال بقوله الأكرم: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۝٢٠١﴾: فأتى بـ«إذا» الفُجائية المقتضية سرعة تنبههم من غفلتهم

ويقظتهم من سِنَتهم واغتسالهم بالذكر من دَرَنِ الغفلة وتطهُّرِهم بالتوبة من نَجَسِ الخطيئة.

وكما أن المرء يلتفت غريزيًّا للوراء استطلاعًا إن عثرت قدمُه بشيء؛ فكذلك المؤمن العاقل الحازم الفطن اليقظ، فإنّه يقف متأمِّلًا حاله حين تلبُّسه بالعصيان حتى يعلم من أين أُتِي، وكيف استُلِب. ومعلومٌ لكل ذي لُبٍّ أنّ بيئة المعصية مُشهيّة لأمثالها لدى مَنْ عاقرها. فكان مِن حزم المؤمن هجر مكان الغفلة، والهرب من بقعة الخطيئة، وقطع أواصر نفسه الضعيفة مع مَن كانوا هُداتها للضلال والإباق، قال تبارك وتعالى موجِّهًا عبده التائب بترك أسباب المعصية، وقطع ذرائعها وحسم مادّتها: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٦٨﴾ [الأنعام: ٦٨]، والهجرة بالأبدان وسيلة للهجرة بالقلوب.

احـذَرْ مَحَـلَّ السُّـوءِ لا تنـزلْ بـِهِ وإذَا نَبـا بِـكَ منـزلٌ فتحَـوَّلِ

وعن قيس بن أبي حازم قال: دخلنا على خبّاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وقد أكتوى سبع كيّات في بطنه، فقال: لو ما أن رسول الله ﷺ نهانا أن ندعو بالموت لدعوتُ به(١). وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يتمنّى أحدكم الموت، ولا يَدْعُ به من قبل أن يأتيَه، إنّه إذا مات أحدكم انقطع عمله، وإنه لا يزيد المؤمنَ عمرُه إلا خيرًا»**(٢). وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله

---

(١) مسلم (٤/ ٢٠٦٤) (٢٦٨١).

(٢) مسلم (٤/ ٢٠٦٥) (٢٦٨٢).

ﷺ: **«لا يتمنّينّ أحدكم الموت، إما محسن، فلعله يزداد خيرًا، وإما مسيء لعله يستعتب»**(١).

أتَـتْ وحِيَـاضُ المَـوْتِ بينِي وبَينَهَـا ... وَجَادَتْ بوَصْلٍ حِينَ لا ينفعُ الوَصْلُ

والرحيل حتمٌ لازب مهما لوينا أعناقنا عنه هربًا أو إليه طلبًا، ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ١٩﴾ [ق: ١٩]. اللّٰهم حسن الختام، وطيب المنقلب، ورضاك، والجنة.

ويـا ربّ عـامِلنِي بـما أنـتَ أهلُـهُ ... فـذنبي عظيـمٌ والرّحيـلُ دَنَـا لِيَـا

وقد تمنّاه بعض الصحابة خوفًا على دينهم، فعن عُلَيم قال: كنا جلوسًا على سطح معنا رجل من أصحاب النبي ﷺ، قال يزيد: لا أعلمه إلا عبسًا الغِفَاري، والناس يخرجون في الطاعون، فقال عبس: يا طاعون خذني، ثلاثًا يقولها، فقال له عليم: لم تقول هذا؟ ألم يقل رسول الله ﷺ: **«لا يتمنّى أحدكم الموت، فإنه عند انقطاع عمله، ولا يردّ فيستعتب»** فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«بادروا بالموت ستًّا: إمرة السفهاء، وكثرة الشرط، وبيع الحكم، واستخفافًا بالدم، وقطيعة الرحم، ونشوًا يتّخذون القرآن مزامير يقدمونه يغنّيهم، وإن كان أقلّ منهم فقهًا»**(٢).

---

(١) أحمد (٧٥٧٨) وصححه محققوه والألباني.

(٢) أحمد (١٦٠٤٠) وصححه محققو المسند والألباني في الصحيحة (٢/ ٦٧٢/ ٩٧٩).

وقد تمنّى سيّد الأوس سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الموت ودعا لنفسه به بشرطه، ولعله قد نوى الدعاء بالشهادة لأنّ إصابته كانت في المعركة، ولعله كذلك خشي أن يضعف إيمانُه مع طول الأَمَدِ بعد نهاية حرب قريش، فأَحَبَّ أن يلقى ربه وهو في الغاية من الإيمان، فالجهاد يغذّي جذوة إيمان القلب ما لا يُلحق به في السِّلم، ولعلّ منادي الشوق قد ناجاه فلبّاه بدعوته مولاه، فعن عائشة رضي الله عنها أن سعدًا أصيب يوم الخندق في أَكْحَلِه(١) فحَسَمَهُ(٢) رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيده بمِشْقَصٍ، وضرب له خيمة في المسجد ليعوده من قريب.. الحديث، وفيه: أن سعدًا قال: «اللّٰهم إنك تعلم أنه ليس أحدٌ أحبّ إليّ أن أجاهدهم فيك من قوم كذّبوا رسولك وأخرجوه، اللّٰهم فإني أظنّ أنك قد وضعْتَ الحرب بيننا وبينهم، فإن كان بقي من حرب قريش شيء فأبقني لهم حتى أجاهدهم فيك، وإن كنت وضعت الحرب فافجُرْها، واجعل موتي فيها، فانفجرت من لَبَّتِه - وفي لفظ: من ليلته -، فلم يَرُعْهُم - وفي المسجد خيمة من بني غفار - إلا الدم يسيل إليهم، فقالوا: يا أهل الخيمة، ما هذا الذي يأتينا من قبلكم؟ فإذا سعد يغذو جُرحه دمًا، فمات منها»(٣). رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لئن عَزّ ديني واستُبيحتْ جَوَارِحي فــأينَ مقــامُ العِــزِّ إلّا مَقَامِيَــا

---

(١) وهو عرق في وسط الذراع يكثر فصدُه.

(٢) أي: قطع سيلانه بكيِّه.

(٣) البخاري (٤١١٧) ومسلم (١٧٦٩).

فسعدٌ رضي الله عنه إنما تمنّى الشهادة في سبيل الله لأنه قد جُرِحَ هذا الجُرح الذي دعا به في المعركة، وهذا حسن مطلوب؛ لأنه طلب الشهادة هو ذروة الإيمان، وهو دليل على الصبر والثبات والرضا بما يصيبه في ذلك مِمَّا يقدّره الله عليه، فعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده، وددتُ أني أقاتِل في سبيل فأُقتل، ثُمَّ أحيا، ثُمَّ أقتل، ثُمَّ أحيا، ثُمَّ أقتل**»(١).

فيا ربّ هلْ إلّا بكَ النَّصر يُبتغَى | عليهم، وهلْ إلّا عليكَ المُعَوَّلُ

وحال المؤمن محبة الحياة على طاعة الله تعالى، فلا يزال صدرُه بستانًا من ذكر ربه، وقلبه منشرحًا بدعاء مولاه، مستأنسًا بقرب إلهه، يرتفعُ عند ربه مع امتداد أعماله في الحياةِ، ويزداد أجرُه بتوالي الصالحات، ويعْمُرُ عُمُرَه بالقُرُبات، قد شَامَتْ بصيرتُه أعالي الجنات، فرَفَعَ همَّتَهُ لأعلى الدرجات، وَوَضَعَ الدنيا حيث وضعها ربه، ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧﴾ [الأعلى: ١٦ - ١٧]، ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧]. فالحياة هي القالَبُ الذي يسعى به العبد للقُرُبات، والمَحَلُّ الذي يفوز منه برضوان رب البريات تبارك وتعالى.

ولـمّا حضرت معاذًا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الوفاة قال: «انظروا أصبحنا؟»، فأُتي فقيل: لم تُصبح، فقال: «انظروا أصبحنا؟»، فأُتي فقيل له: لم تُصبح، حتى أُتي في بعض ذلك فقيل: قد أصبحت، قال: «أعوذ بالله من ليلةٍ صباحها إلى النار، مرحبًا بالموت مرحبًا! زائرٌ مُغبٌّ، وحبيبٌ جاء على فاقةٍ، اللَّهمَّ إنِّي قد كنت أخافك،

---

(١) البخاري (٧٢٢٦).

فأنا اليوم أرجوك، اللَّهمَّ إنّك تعلم أنّي لم أكن أحبُّ الدُّنيا وطول البقاء فيها لجري الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالرُّكب عند حِلَقِ الذِّكر»[(١)].

وقد كان معاذٌ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ممن أوتوا العلم والإيمان والحكمة ومحبة رسول الله ﷺ الذي أقسم على محبته، فهنيئًا لمعاذٍ تلك الخصوصية النبوية. ومن مواعظه الجليلة قوله الرضيّ لأبي إدريس الخولاني رَحِمَهُٱللَّهُ: «إنّك تجالس قومًا لا محالة يخوضون في الحديث، فإذا رأيتهم غفلوا، فارغب إلى ربِّك تعالى عند ذلك رغباتٍ»[(٢)].

ولقد أوصى ابنه وصية حادبٍ ناصح مشفق: «يا بُنيَّ، إذا صلَّيت صلاةً، فصلِّ صلاة مودِّعٍ: لا تظنُّ أنّك تعود إليها أبدًا، واعلم يا بنيَّ أنّ المؤمن يموت بين حسنتين: حسنةٍ قدَّمها، وحسنةٍ أخَّرها»[(٣)].

فالحياة بالإيمان هي الحياة التي تستحق أن تُسمّى حياة، ثم تكمل بنعيم الجنة كما قال سبحانه: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٦٤﴾ [العَنكَبُوت: ٦٤].

---

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (١٤٨)، حلية الأولياء (١/ ٢٣٩).

(٢) حلية الأولياء (١/ ٢٣٦).

(٣) حلية الأولياء (١/ ٢٣٤)، وقد ورد هذا الحرف: «**صلِّ صلاة مودِّعٍ**» في حديث مرفوع، لكن لا يثبت سنده.

ووعْدُ الآخرة قريب، ومهما عاش المرء فهو إلى الوفاة يسير، ﴿مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ [الأنعام: ١٣٤]. إليكَ.. وإلّا لا تُشَدُّ الركائبُ.

يحبّ الفَتى طولَ البَقاء وإنّهُ   على ثِقةٍ أنّ البَقاءَ فناءُ

وتأمّل الرغائب العُمَرِيّة في الحياة، قال عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: «لولا ثلاثٌ في الدنيا لما أحببتُ البقاءَ فيها؛ لولا أن أحمِلَ أو أجهِّزَ جيشًا في سبيل الله، ولولا مكابدةُ هذا الليل، ولولا مجالسةُ أقوامٍ ينتقونَ أطايبَ الكلام كما يُنتقى أطايبُ الثمر؛ لما أحببتُ البقاء»(١).

وتأمّل اتفاق أسباب حبّه للحياة مع أسباب معاذ وأبي الدرداء، لا جَرَمَ فالقَبَسُ واحدٌ، رضي الله عنهم.

لَا بَارَكَ اللَّهُ في الدُّنيا إِذَا انقَطَعت   أسبَابُ دُنياكَ عَن أسبَابِ دنيَانَا

فتبارك من جعل الدنيا لا تطيب إلا بطاعته، والآخرة إلا برضوانه، وله الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه نرجع.

وَخَيرُ أُمَّتِنَا الصِّدِّيقُ طُرًّا   بِهِ صَارَ الكَفُورُ فَرٍ هُلَامَا
كَذَا الفَارُوقُ أَكْرِمْ مِنْ نَسِيجٍ   بِهِ شَدَّ الإِلَهُ لَنَا الحِزَامَا
هُمُ الصَّحْبُ الرَّضِيُّ نُجُومُ لَيْلٍ   فَأَنْعِمْ بِالَّذِي مَدَحَ الكِرَامَا

---

(١) ابن المبارك في الجهاد (٢٢٢)، وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد (١١٧). ونقلت عن أبي الدرداء كذلك رضي الله عنه كما عند أحمد (١٣٥)، وابن المبارك (٢٧٧) كلاهما في الزهد.

فَقَدْ خابَ المُؤَمِّلُ غَمْزَ صَحْبٍ وَأَهْـلِ البيـتِ أَسْـيَادٍ تَسَـامَى
فَـآلُ الْبَيْـتِ تِيْجَـانٌ وَطُهْـرٌ تَحَمَّـلْ يَـا مُحِـبُّ لَهُـمْ سَـلَامًا
بَرِئْنَـا لِلَّـذِي خَلَـقَ البَرَايَـا مِنَ الرَّفْضِ المُحِيقِ بِهِمْ خِطَامَا
وَقَـدْ عَـادَ الظَّلُـومُ يَنُـوءُ حِمْـلًا بِـأَوْزَارٍ وَإِنْ صَـلَّى وَصَـامَا
أَلَا مَـنْ عَـذِيْرِيَ مِـنْ نُفُـوسٍ تَـنُجُّ بِسَـاحِنَا مَكْـرًا تَطَـامَى
يَرُوْمُـونَ الدِّيَانَـةَ بِانْتِقَـامٍ وَثَـارَاتٍ مِنَ الصَّحْبِ القُدَامَى
لِثَـارَاتٍ أَزَالَـتْ آلَ كِسْـرَى وَأَلْحَقَـتِ المَجُـوسِيَّ اصْـطِلَامَا
تَغُـصُّ حُلُـوقُهُمْ مِـنْ ذِكْـرِ سَعْدٍ وَسَـيْفِ اللهِ أَشْـبَعَهُمْ رَغَامًـا
إِلَهَ العَـالَمِينَ أَرِحْ فُـؤَادِي فَقَـدْ حَـزَّ النُّصَـيْرِيُّ العِظَامَـا
أَفَاضَ الثَّكْلَ فِي الإِسْلَامِ غَدْرًا وَقَـتَّلَهُمْ سُـجُودًا أَوْ قِيَامَـا
وَعَـاثَ الأَبْعَـدُ الأَطْغَـى زَمَانًا وَأَكْثَـرَ فِي جَوَانِبِهَـا اليَتَـامَى
فَمُـرْ بِكَتِيبَـةٍ حَمْـرَاءَ تَشْـفِي صُـدُورَ الصَّـالِحِينَ دَمًا سِجَامًا
وَثَـنِّ إِلَهَنَـا بِصَـلِيْبِ كُفْـرٍ فَـدُقَّ عَمُـودَهُ الأَفْـرَى رُكَامًـا
وَثَلِّـثْ بِـالْيَهُودِ جُنُـودَ مِسْـخٍ هُـوَ الـدَّجَّالُ فَامْتَشِـقُوا الحُسَـامَا
إِخَـالُ جُمُوعَنَـا وَالخَيْـلُ تَجْـرِي بِنَـا نَحْـوَ غُوطَتِهَـا الشَّـآمَا

سَحَائِبَ جَنْدَلٍ تَرْمِي بِشُهْبٍ عَلَى الْكُفَّارِ مِنْ مَطَرٍ حِمَامَا

أَوِ الْرِّيْحَ الدَّبُورَ جَرَتْ بِأَمْرٍ مِنَ الجَبَّارِ تَجْتَثُّ اللِّئَامَا

أَوِ اللَّيْثَ الهِزَبْرَ يَهُوش جَدْيًا فَهَلْ يَسْتَبْقِ لِلْجَدْيِ السَّلَامَى

أو النيلَ الخِضَمَّ يَسُوقُ بَحْرًا يَدُكُّ عُرُوشَهُمْ فَغَدَتْ حُطَامَا

فَإِنْ شِئْتَ البُطُولَةَ صِحْ بِقَوْمٍ إِذَا كَانَ الكَلَامُ لَهُمْ كِلَامًا

أَصِيحُ بَأَدْهَمِي يَاوَافِ أَقْبِلْ فَدُونَكَ مَنْهَلٌ يُرْوِي الزُّؤَامَا

وَصَلِّ إِلَهَنَا فِي كُلِّ حِيْنٍ عَلَى مَنْ كَانَ لِلْمِسْكِ الخِتَامَا

ولما اشتكى سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عام الفتح في مكة، وعادَه رسول الله ﷺ قال له: يا رسول الله؛ أُخَلَّفُ بعدَ أصْحَابي[١] قال: «**إِنَّكَ لَن تُخَلَّفَ فتَعملَ عَملًا تبتغي بِهِ وجه اللهِ إلا ازددت بِه دَرَجةً ورِفعَةً، ولعلَّكَ أن تُخَلَّفَ حتّى ينتفعَ بكَ أقوامٌ ويُضَرَّ بِكَ آخرون**»[٢].

(١) أي: أموت في مكة وقد هاجرت منها! وقال ابن الملقّن رَحِمَهُ اللَّهُ في الإعلام بفوائد عمدة الأحكام (٨/٣١): «كأنَّه أشفق من موته بمكة بعد أن هاجر منها وتركها لله، فخشي أن يقدح ذلك بهجرته أو في ثوابه عليها، أو خشية بقائه بمكة بعد انصراف النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة وتخلّفه عنهم بسبب المرض، فإنهم كانوا يكرهون الرجوع فيما تركوه لله تعالى، وقد جاء في رواية أخرى: «أخلّف عن هجرتي» أو أنه سأله عن طول عمره وبقائه بعد أصحابه».

(٢) مسلم ٨/١١ (٢٥٦٤) (٣٤).

فتدبر هذه البشرى لكل من عاش على الإيمان، وفيه: فضيلةُ طول العمر للازدياد في العمل الصالح، وقوله ﷺ: **«ولعلّك أنّ تُخلّف حتى ينتفعَ بك أقوامٌ»**، أي: يطيل الله عمرك، وكذلك كان، فإنه عاش بعد ذلك أزيدَ من أربعين سنة، بل قريبًا من خمسين عامًا، أذ كنت وفاته سنة خمسٍ وخمسين من الهجرة، وقيل: سنة ثمان وخمسين، وهو المشهور، فيكون قد عاش بعد حجة الوداع خمسًا وأربعين، أو ثمانيًا وأربعين. وقوله ﷺ: **«حتّى يَنتَفِعَ بِكَ أقوامٌ ويُضَرَّ بِكَ آخرون»**، أي: ينتفع بك المسلمون بعلمك وعملك ودعوتك ودعائك وجهادك في سبيل الله تعالى، فعاش حتّى فتح الله به وبمن معه العراق وغيره، وانتفع به أقوامٌ في دينهم ودنياهم.

وفي الحديث آية وبرهان لنبوة النبي ﷺ، فقد أخبر بطول عمره وبعمله الصالح ونفعه المتعدّي قبل وقوعه بكل هذه السنين. وقد قالها وسعدٌ في غمرة المرض الشديد الذي خشي على نفسه منه، ففي صدر الحديث قال: «عادني رسول الله ﷺ في حجة الوداع في وجع أشْفَيْتُ منه على الموت، فقلت: يا رسول الله بلغ بي من الوجع ما ترى، وأنا ذو مال..» الحديث.

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «في هذا الحديث فضيلة طُول العُمرِ للازديادِ من العملِ الصّالح، والحَثِّ على إرادة وجهِ اللّهِ تعالى بالأعمال»(١). لذلك كان شيخنا ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول بمشروعية الدعاء بموجب هذا الحديث فيقول الداعي: اللّهم أطل عمري في طاعتك ـ ونحو ذلك ـ فالدنيا مزرعة الآخرة

---

(١) شرح النووي على مسلم (١١/٧٨).

حتى آخر رمق فيها، وقد ذكروا أنّ الجنيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان يقرأ القرآن وهو في سياق الموت ويصلّي، فختم، فقيل له: في مثل هذه الحال يا أبا علي؟ فقال: «ومَن أحَقّ منّي بذلك، وها هي تُطوى صحيفةُ عملي»، ثم كَبَّر ومات رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1].

لَهفِي على عمْرٍ تَقَضَّى غـافلًا ... وتركـتُ للـنفسِ السـفيهةِ غـارِبي

يـا صـاحبي إن جُـزتَ قـبرِيَ هـائمًا ... فانصـح لنفسـك واعتـبرْ بتجـاربي

وعن أبي سلمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: كان رجلان من بَلِي من قضاعة أسلما مع النبي ﷺ، واستُشهِد أحدُهما، وأُخِّرَ الآخرُ سنة. قال طلحة بن عبيد الله: فأُريت الجنة، فرأيتُ فيها المُؤَخَّرَ منهما أُدخل قبل الشهيد! فعجبتُ لذلك، فأصبحت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: **«أليس قد صام بعده رمضان، وصلى ستة آلاف ركعة[2]، أو كذا وكذا**

---

(١) العاقبة في ذكر الموت، لعبد الحق الإشبيلي (١٣٣).

(٢) فعدد الركعات المفروضة سبع عشرة ركعة في اليوم والليلة، وعدد أيام السنة ٣٥٤ يومًا، وحاصل ضربهما ٦٠١٨ ركعة. والعرب فصحاء بلغاء يلغون في البيان ما زاد من العدد الكبير إن كانت الزيادة أو النقص يسيرين، وهو ما يسميه بعضهم حذفَ الكسور.

وهذا العدد المذكور إنما هو فيما لو اقتصر على الفريضة فقط، وهذا هو الحدّ الأدنى المفروض على كل مسلم. فإن أضفنا الرواتب ١٢ ركعة والتهجد ١١ ركعة فمجموعها ٤٠ ركعة في اليوم والليلة؛ وعلى ذلك فعدد ركعات السنة الواحدة ١٤١٦٠ ركعة! وعدد سجداتها يقارب الثلاثين ألف سجود، فكم لله من منح وألطاف وهبات ورحمات في صلاة العبد وسجوده! فلله الحمد والشكر والمِنَّة.

=

=
وهذا ما سوى بقية النوافل من ذوات الأسباب والمطلقة، نسأل الله الكريم من فضله، وتدبر كيف سمّى ﷺ الركعة سجدة، ولعل مرد ذلك لما فيهما من مشترك معنى السجود العام بالركوع والخاص بالسجود.

وضمّ لقلبك - رحمني الله وإياك - ما جاء في صحيح مسلم (٤٨٨) بسنده عن ثوبان رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ أنه قال لرسول الله ﷺ: أخبرني بعمل أعمله يدخلني الله به الجنة، أو قال: قلت: بأحبّ الأعمال إلى الله. فقال: **«عليك بكثرة السجود لله، فإنّك لا تسجدُ لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة، وحطّ عنك بها خطيئة»**.

وكذا ما جاء عن ربيعة بن كعب الأسلمي خادِمِ رسول الله ﷺ، ومن أهلِ الصُّفَّةِ رضي الله عنهم قال: كنتُ أبيتُ مع رسولِ الله ﷺ فآتيهِ بوَضُوئهِ وحاجتِهِ، فقال: **«سَلْني»** فقلت: اسألكَ مُرافقَتَكَ في الجنة! فقال: **«أَوَ غيرَ ذلكَ؟»**، قلت: هو ذاكَ، قال: **«فأَعِنِّي على نفسِكَ بكثرَةِ السُّجودِ»**. رواه مسلم (٤٨٩). وأهل الصُّفّة: هم فقراء المهاجرين، ومن لم يكن له منزل يسكنه، فكانوا يأوون إلى موضع مظلّل في مسجد رسول الله ﷺ.

قال شيخنا العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح رياض الصالحين (٢/١٠٣): «وكثرة السجود تستلزم كثرة الركوع، وكثرة الركوع تستلزم كثرة القيام؛ لأن كل صلاة في كل ركعة منها وسجودان، فإذا كثر السجود كثر الركوع وكثر القيام، وذكر السجود دون غيره، لأن السجود أفضل هيئة للمصلي، فإن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، وإن كان المصلي قريبًا من الله؛ قائمًا كان، أو راكعًا، أو ساجدًا، أو قاعدًا، لكن أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد. وفي هذا دليل على فضل السجود». أهـ.

وإذا افتقرتَ إلى الذخائرِ لم تجدْ ذخرًا يكونُ كصالحِ الأعمالِ

ركعةً صلاةَ السَّنَة»(١). وفي رواية: قال رسول الله ﷺ: **«فما بينهما أبعدُ مما بين السماء والأرض»**(٢).

وبالجملة؛ فالناس في تمني الموت على خمسة أقسام:

الأول: من يتمناه لينال الشهادة في سبيل الله تعالى. فهذا مشروع محمود، ولكن لا يلزم من ذلك الاستعجال به، بل الأولى له أن يسأل ربه أن يمنّ عليه بأن يستكثر من صالحات الأعمال والقُرَب والعلم والذكر والجهاد، ثم يختم له بالشهادة في سبيله، فيجمع بين مرتبتي الصّدّيقية والشهادة.

أيا مُبْتَغِي الفردوس عَجِّلْ بِصَارم ... وكُنْ صادقَ الإقبالِ عندَ التَّلاقِيا

فإن تحيَ عِشْتَ العزّ في كل لحظةٍ ... وإن كانت الأُخرى سَتَلقَى المَرَاقِيَا

الثاني: من يتمنّاه شوقًا إلى ربه. وهذا مشروع، لأنّ قلق الشوق لا مدفع له عند بعض النفوس إلّا باللقاء، فكيف إن كان لقاء رب العالمين تبارك وتعالى!

وقد سبق ذكر قول أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أُحِبُّ الموتَ اشتياقًا إلى ربي»، فشوقُه قد ساقه لتمنّي عبور الباب للمحبوب سبحانه وبحمده. وتأمل أيضًا حال معاذٍ وبلالٍ وحذيفة وعمّار في كثير من السلف رضي الله عنهم حين

(١) مسند أحمد (٨٣٩٩) وحسنه محققوه، ومسند أبي يعلى الموصلي (٦٤٨) وصححه محمد سليم أسد.

(٢) ابن ماجه (٣٨٦٩) وصححه الألباني.

حضرتهم مناياهم فقد كانوا يطربون لذلك ويبتهجون ويستبشرون ويشتاقون، ويهتفون: غدًا نلقى الأحبَّة محمدًا وحزبَه. وهم لم يسألوا ربهم الموت لكنهم فرحوا بنزوله، لأنه الباب الوحيد للوصول للدار الآخرة التي يلقون الله تعالى فيها ثم نبيّه ﷺ وأصحابه وأحبابه.

إذن فتمنّي الموت شوقًا إلى الله تعالى مشروع، ولكنه مشروط بأمرين:

الأول: ألا يكون دافعه التألِّي على الله تعالى، والإعجابُ بعمله، والثقةُ بقبوله، والأمنُ من مكر الله تعالى، ونسيانُ صفات جلاله تبارك وتعالى، فهذا من سوء الأدب مع الله سبحانه وتعالى، ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ [الأنعَام: ٩١].

بل الموفق هو من يبسط الرجاء على حسن ظنه بربه تعالى لا بعمله مهما بلغ، فالقَبولُ غيبٌ، والخاتمةُ غيبٌ، والمصيرُ غدًا غيبٌ لا يعلمه إلا علام الغيوب سبحانه وتعالى.

ولولا انتظار المؤمنين لقاء ربهم يوم القيامة لتقطّعت نفوسهم حَسَرَات!

لذلك كان عامّة من ورد عنهم مثل ذلك من السلف إنما يصرحون بالشوق للقاء الله تعالى عند الاحتضار أو قبيله حين نزول أمارات الرحيل لله والدار الآخرة، والله المستعان.

ترقّبوا يا صَفْوَةَ النّاسِ الهِلَالَ وهكذا الدُّنيا حُلُولٌ وارتِحَالٌ

واعلم أن كل أمنية فهي بعين الله تعالى وعِلْمِه جل جلاله، وكم من مؤمن يموت وحاجته في صدره لم يبلغها وهي عند الله مُدّخَرَة محفوظة، وخير له ادّخارها، فسبحان اللطيف الخبير علّام الغيوب، ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا

تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَاءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ [يونس: ٦١]، ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ [طه: ٩٨]، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾ الطلاق: ١٢، ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾ [الجن: ٢٨]، ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣]، ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ [الأنعام: ٥٩]، ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ [هود: ٦].

الثاني: أن يكون قلقه مفضيًا به إلى الخشية من نقص دينه عبر تشوّش قلبه بواردات لا يطيق لها دفعًا، أو قسوةِ قلبه مع طول المَدَى، وهذا في الحقيقة آيلٌ إلى معنى تمنّي الموت عند الخوف من الفتن.

ورسول الهدى ﷺ قد وضح ذلك غاية الوضوح بقوله: «**لا يتمنّيَنّ أحدكم الموت لضرّ أصابه، فإن كان لا بد فاعلًا، فليقل: اللَّهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفّني إذا كانت الوفاة خيرًا لي**»(١).

وتأمّل تعليق الدعاء بالحياة والوفاة بالخِيرَةِ الإلهية من جهة، وبالرضا باختيار الله له من جهة أخرى، فصار الداعي مُحاطًا بخير الله من جميع جهاته. وهذا من حرص الشفيق ﷺ على حماية قلوب أمته من استجرار العواطف

(١) البخاري (٥٦٧١)، ومسلم (٢٦٨٠).

غير الموفقة لها، فسدّ ذريعة الخطأ أوّلًا ثم فتح باب الأمل من جميع الجوانب، ولا غرو فقد مدحه ربه تبارك وتعالى بقوله الأكرم: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التَّوْبَة: ١٢٨]، بل رحمته عامّة، قال سبحانه فيه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبِيَاء: ١٠٧]، وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قيل: يا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ادع الله على المشركين. قال: **«إنّي لم أُبعث لعّانًا، وإنّما بُعثتُ رحمة»**(١). وعنه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«يا أيّها النّاس إنّما أنا رحمة مهداة»**(٢). فصلوات الله وسلامه وبركاته عليه وآله ومن تبعه بإحسان.

الثالث: من يتمناه خوفًا من فتنةٍ تحول بينه وبين رضا ربه. وهذا مشروع كما مرّ معنا، مع تسليم الأمر لله والدعاء بما ورد به الخبر.

الرابع: من يتمناه جزعًا من الدنيا. وهذا مذموم بكل حال، وقد يُفضي به ذلك للانتحار وهو من أكبر الذنوب عياذًا بالله تعالى. فالواجب الصبر على لأواء الدنيا وتقوى الله فيها، والاستعانة به في دفع ما يضره من بلاء الدين والدنيا.

---

(١) مسلم (٢٥٩٩).

(٢) الحاكم في المستدرك (١/ ٣٥) واللفظ له وقال: هذا حديث صحيح على شرطهما ووافقه الذهبي. وقال الحافظ الهيثمي: رواه البزار والطبراني في الصغير والأوسط ورجال البزار رجال الصحيح. ورواه ابن سعد في الطبقات (١/ ١٩٢) والبيهقي في الدلائل (١/ ١٥٩) مرسلًا، وصحح الألباني إسناده مع إرساله في السلسلة (٤٩٠). وله شواهد متصلة لا بأس بها.

الخامس: من يتمناه مَلَالةً من الدنيا واكتفاءً بما عاشه من عمره. والغالب أن هذا يكون عند تقدّم السن وضعف الأعضاء واعتلال الجسد وموت الأقران والإحساس بثقله على أهله، فهذا حكمه حكم غيره، فهو يختلف باختلاف حاله ودافعه وموجبه، فيكون مذمومًا إن كان زهدًا في صالح الأعمال، ومَلَالًا من القربات لرب البريَّات، ومشروعًا إن خاف نقص دينه بتقصير في فريضة، أو وقوعٍ في خطيئة، أو زيغ في فتنة ونحو ذلك. قال الرَّبيع بن برَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّما يُحِبُّ البَقاءَ مَن كانَ عُمُرُهُ لَهُ غُنْمًا، وزِيادَةً فِي عَمَلِهِ، فَأمّا مَن غُبِنَ عُمُرَهُ واستَزَلَّهُ هواهُ، فلا خيرَ لهُ في طُولِ الحياةِ»(١). ومن شواهدهم في مَلَالِهم حياتهم قول زهير بن أبي سلمى في معلقته:

سئِمتُ تكاليفَ الحياةِ ومن يَعِشْ ... ثمانين حولًا لا أبالك يسأمِ

وقال آخر:

إذا عاش الفتى سبعين عامًا ... فقد ذهب اللذاذةُ والفتاءُ

وقال لبيدُ العامريّ بعد أن بلغَ الثلاثين ومئةَ سنة فيما يُحكى:

ولَقَدْ سَئِمْتُ مِنَ الحَياةِ وطُولِها ... وسُؤالِ هَذا الخَلْقِ كَيْفَ لَبِيدُ

وقول أوسِ بنُ ربيعةَ الخُزاعِيّ:

لَقَدْ عَمَّرْتُ حَتّى مَلَّ أهْلِي ... ثَوائِي عِنْدَهُم وسَئِمْتُ عُمْرِي

---

(١) الزهد الكبير للبيهقي (١/ ٢٤١).

وقال زهَيرُ بن جَنابٍ الكلبِيّ:

لَقَــدْ عَمَّــرْتُ حَتّــى لا أُبــالِي ... أحَتْفِـــي فِي صـــباحِ أو مَســـاءِ

وقال المتنبّي:

وإذا الشَّـيْخُ قـالَ أُفٍّ فـما مَـلَّ ... حَيــاةً وإنّــما الضُّـعْفَ مَــلَّا

آلَــةُ العَــيْشِ صِــحّةٌ وشَــبابٌ ... فــإذا ولَّيــا عَــنِ المَــرْءِ ولّى

وقال أبو العتاهية ونُسب إلى أبي محمد التّيمي:

إذا ما مَضى القَرنُ الذي أنتَ مِنهُمُ ... وخُلِّفْـتَ في قَـرنٍ فأنـتَ غَرِيـبُ

وإنِ امـرَأً قـد سـارَ خَمسِينَ حِجَّـةً ... إلى مَنهَــلٍ مِــن ورْدِهِ لَقَرِيـــبُ

ولله ما أجمل رد ذلك الشيخ ولذيذ عيشه بالرضا والذكر، فقد دخل سليمان بن عبد الملك مسجدَ دمشق، فرأى شيخًا، فقال: يا شيخُ، أيسرُّك أن تموتَ؟ فقال: لا واللهِ، قال: ولِمَ، وقد بَلَغْتَ من السِّنِّ ما أرى؟ قال: مَضى الشبابُ وشرُّه، وبَقِيَ الشَّيْبُ وخيرُه، فأنا إذا قعَدتُ ذكرتُ اللهَ، وإذا قُمتُ حَمِدتُ الله، فأحِبُّ أنْ تدومَ لي هاتان الحالتان[1].

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٦٨/١٧٣).

ومن رقيقِ نصحِ الشيخ عبد العزيز السلمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله النفيس: اعلم أن طول العمر محبوب ومطلوب إذا كان في طاعة الله، لقوله ﷺ: «**خيرُكم من طال عمره، وحَسُنَ عمله**»(١).

وكلما كان العمر أطول في طاعة الله؛ كانت الحسنات أكثر والدرجات أرفع. وأما طوله في غير طاعة، أو في المعاصي، فهو شرّ وبلاء، تكثر السيئات وتضاعف الخطيئات.

ومن زعم أنه يحب طول البقاء في الدنيا ليستكثر من الأعمال الصالحة المقربة إلى الله تعالى فإن كان مع ذلك حريصًا عليها ومشمّرًا فيها، ومجانبًا لما يشغل عنها من أمور الدنيا فهو بالصادقين أشبه، وإن كان متكاسلًا عنها ومسوّفًا فيها - أي الأعمال الصالحة - فهو من الكاذبين المتعلّلين بما لا يغني عنه، لأن من أحب أن يبقى لأجلِ شيء وجدتَه في غاية الحرص عليه مخافة أن يفوتَهُ ويُحال بينه وبينه، ولا سيّما والعمل الصالح محلّه الدنيا، ولا يمكن في غيرها، لأن الآخرة دار جزاء وليست بدار عمل.

فتفكر يا أخي في ذلك عسى الله أن ينفعنا وإياك، واستعن بالله واصبر واجتهد وشمّر، وبادر بالأعمال الصالحة قبل أن يُحال بينك وبينها فلا تجد إليها سبيلًا، وكن حذرًا من مفاجأة الأجل فإنك غَرَضٌ للآفات، وهدفٌ منصوب لسهام المنايا، وإنما رأس مالك الذي يمكنك إن وفقك الله أن تشتري به سعادة الأبد هو هذا العمر. قال الله جل وعلا: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ

---

(١) أحمد (٢٠٤٤٤) وحسنه الأرناؤوط، والترمذي (٢٣٢٩) وصححه الألباني.

مَن تَذَكَّرَ﴾ [فَاطِر: ٣٧]. فإياك أن تنفق أوقاته وأيامه وساعاته وأنفاسه فيما لا خير فيه ولا منفعة، فيطول تحسّرك وندمك وحزنك بعد الموت.

إذا كانَ رَأْسُ المـالِ عُمْرَكَ فاحتَرِزْ عليهِ من الإنفاقِ في غيرِ واجبِ[1]

ويا عبد الله؛ احذر من صولة العبادة، والإدلال بالعمل، والإعجاب بالنفس، فالعُجب تلف، ومحبط للعمل، ومحرق لجميل الماضي.

فالحسنات أعظم الذخائر الحقيقة بالحراسة من عدوك الرجيم حتى أوان عرضها يوم يقوم الأشهاد.

فيا من ترى من نفسك صلاحًا اشكر ربك على هذه النعمة، واسأله المزيد من فضله منها، وكن على الدوام من التوابين. وتدبر قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ [الإِسْرَاء: ٥٤]. فالأمر أمره، والمشيئة مشيئته، والحكم حكمه، والدين دينه، تبارك وتعالى، فليس لك من الأمر شيء فالأمر كله لله، ولله وحده، وإليه وحده.

قال أحد الصالحين: كنت أقتات عقودًا من عمري على حرف قاله واعظ الإسلام ابن الجوزي رحمه الله تعالى: «لا يعجبنّك ثناء الناس عليك، فإنما غرّهم جميل ستر الله عليك».

فكلٌّ أعلم بغدراته وفجراته وتروكه واجترارِه، وأنت بين حسنة لا تعلم قبولها، وذنب لا تعلم قبول توبتك منه، فعلام الإعجاب بحال كهذا؟!

---

(١) مفتاح الأفكار للتأهب لدار القرار. عبد العزيز السلمان (٣/٢٦٨).

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه إذا مُدح في وجهه يقول: «اللَّهم لا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني خيرًا مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون»(١). فلئن كان هذا مقول الصِدِّيق الأكبر، فما الظن بي وبك؟! والله المستعان. وأجمل بالأول وبنا قوله:

يَظُنُّ النَّاسُ بي خيرًا وإنِّي ... لَشَرُّ الخلق إنْ لم تعفُ عنِّي

وقال العابد الزاهد محمد بن واسع رحمه الله تعالى: «لو كان للذنوب رائحة؛ ما استطاع أحدٌ أن يجالسني»(٢). فالحمد لله على جميل ستره، ونسأله برد عفوه ومغفرته ورحمته. وقد قيل في ذلك مما نحن أحق به من العُجب والتألّي والإدلال والغرور:

واللهِ لو عَلِمُوا قبيحَ جَرِيرَتي ... لأبى السّلام عليَّ مَن يَلقَانِي

والمقصود؛ أن على المؤمن إحسان الظن بربه تعالى أولًا ثم إحسان الظن بالناس ثانيًا، أما مع نفسه فإنه يحسن سياستها بالشرع، فلا يرفعها رفعا يغرّها، ولا يخفضها خفضًا يضرّها، مع ميل إلى أن يسيء الظن فيها شيئا احتياطًا لها، بحيث يكون بحكمة واعتدال، فلا يصل للقنوط واليأس والفشل والتوقف، بل يفرح بفضل الله ورحمته، ويعظم رغبته فيما عنده، ويحسن الظن به، إنما

---

(١) البخاري في الأدب المفرد (٧٦١)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٥٨٩).

(٢) شرح حديث «**ما ذئبان جائعان**» لابن رجب ١/ ٨٧

المراد كسر صولة العجب القاتلة، لا قتل محرك الإيمان، فما أضيق العيش لولا فسحة الأمل.

ولولا الرجاء بالرضوان وحسن الظن بالرحمن ما عمل العاملون، ولا اجتهد المشمرون، ولا تسابق المتنافسون، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا به.

الشّـــوْقُ فِيْنِـــي جَـــذْوةٌ لا تَخْمــدُ ... والعَــيْنُ تَبْكِـي للفِــراقِ وتَسْــهدُ

والــرّوحُ تَحْــدُو لا تُغَــيّرُ خَطْوَهــا ... دومًــا إليـكَ فأنْـتَ أنْـتَ الأَوْحَـدُ

تَحْــدُو إليْــكَ بِكُــلّ ثقــلّ كَلّهــا ... وبِكــلّ ضَــعْفِ كيانِهــا تَتَخَــدّدُ

ربّاه تعلمُ مَا يجولُ بِخَافقِي ... آلامُ شـــوْقٍ حَـــيْرَةٌ لا تَرْشُـــدُ

وَجِّــه فُــؤَادِيَ نحْــوَ دَرْبِــكَ إنّــهُ ... درْبُ الرّشَـــادِ ودُونـــه أتشَـــرّدُ

وارْحَـم هشاشـةَ خـافقِي يَـا خـالقِي ... أنــتَ الــرّحِيمُ الــرّاحمُ المُتفــرّدُ

وامْــدُدْ فُــؤَادِيَ بالهدايــةِ والهــدىٰ ... فأنَـا الفقـيرُ وأنـتَ أنـتَ الأجـودُ

ثمارُ الرّضا بالله تعالى

الإسلام تسليمٌ واستسلام، وهذا محضُ الرضا وصافيه وخلاصته ولُبُّه، فالرضا هو استسلامُ المتوكلين على ربهم قبل نزول القضاء، وإسلامُ الأمر والقلب لله بعد نزوله، وإسلام الوجه لله إخلاصًا لكل عبادة وقصد، وإسلام الاتّباع لرسول الهدى صلوات الله وسلامه وبركاته عليه عند كل حركة وسكون، ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [هُود: ١٤]، ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنبِيَاء: ١٠٨].

وإنّ ثمرة الرضا مباركة طيّبة، وكيف لا تكون كذلك وهي استناد إلى ركن سعادة الدنيا والآخرة، وهي الثقةُ بتدبير الحيّ القيوم البرّ اللطيف، وانغماسٌ في بحر الطمأنينة لتدبير العليم القدير الحكيم الرحيم، وارتواء بالفرح والغبطة والسرور بالله تبارك وتعالى.

وإنّ مِن مُتَعِ الأرواح، ولذائذِ الأنفسِ، والنعيمِ الذي لا ينفد، وقرّةِ العين التي لا تنقطع؛ الرضا بالله تعالى. وتدبر قوله الأعز ـ وكلّ قوله أعزّ ـ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفُرْقَان: ٢]، فانظر كيف كان القدر اللطيف هو نسيج الخلق كله، فلم يخرج منه شيء، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القَمَر:٤٩].

فيا صاحبي؛ تأمّل ما عندك لا ما ليس عندك، فإنّ ما عندك من جود ربك الوهاب الكريم، وما ليس عندك فهو من حكمة ربك اللطيف الرحيم. وكن من أهل الحياة الطيبة ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النَّحل: ٩٧]، وهي الإيمان

والقناعة، وقد مات حبيبك ﷺ ودرعه مرهونة. ففوّض أمرك إلى من بيده مقاليد الأمور، وأعِنَّة النواصي، ومفاتح الأرزاق، واعلم أنّه أرحمُ وأعلمُ وألطفُ وأرفقُ وأحكمُ بك من نفسك، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [المُلك: ١٤].

وإذا البشائرُ لم تجِنْ أوقاتُها ... فلِحِكْمَةٍ عندَ الإلهِ تأخَّرَتْ
سيسُوقُهَا في حِينِها فاصبرْ لَهَا ... حتّى وإنْ ضاقتْ عليكَ وأقْفَرَتْ
وغدًا سيَجرِي دمعُ عينِك فرحةً ... وترَى السحائبَ بالأماني أمطَرَتْ
وترى ظروفَ الأمسِ صارتْ بلسَمًا ... وهي التي أعْيَتْكَ حينَ تعَسّرَتْ
وتقولُ سبحانَ الذي رفعَ البَلَا ... مِن بعدِ أن فُقدَ الرجاءُ تَيَسَّرَتْ

والمؤمن الصالح راضٍ ومَرْضِيٌّ عنه حال رحيله لربه تعالى، فعن عبادة بن الصامت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ قال: **«مَن أحبَّ لقاء الله أحبَّ الله لقاءَهُ، ومن كره لقاءَ الله كره الله لقاءَه»**. قالت عائشة ـ أو بعض أزواجه ـ: إنا لنكره الموت. قال: **«ليس ذلك، ولكنّ المؤمن إذا حضَرَهُ الموتُ بُشّرَ برضوان الله وكرامته، فليس شيءٌ أحبّ إليه مِمَّا أمامه، فأحبَّ لقاء الله، وأحبَّ الله لقاءه. وإنّ الكافر إذا حُضِرَ بُشّر بعذاب الله وعقوبته، فليس شيء أكره إليه مما أمامه،**

فكره لقاء الله، وكره الله لقاءه»[١]. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ثمرة الرضا: الفرحُ والسرور بالرب تبارك وتعالى»[٢].

وما ليَ مِن عبدٍ ولا من وليدةٍ ... وإنّي لفي فضلٍ من اللهِ واسعُ

هذا وإن الرضا بالله تعالى يورث الشوق العظيم إليه، فعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ جلس على المنبر؛ فقال: «**إنّ عبدًا خيّره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا وبين ما عنده؛ فاختار ما عنده**»، فبكى أبو بكر، وقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا. فعجبنا له. وقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ، يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا وبين ما عنده، وهو يقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فكان رسول الله ﷺ هو المُخيَّر، وكان أبو بكر هو أعلمُنَا به. وقال رسول الله ﷺ: «**إنّ من أَمَنّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنتُ متخذًا خليلًا من أمتي لاتخذت أبا بكر، إلا خُلّة الإسلام، لا يبقينّ في المسجد خَوْخَة**[٣] **إلا خوخة أبي بكر**»[٤]. وحُقَّ للصديق ذلك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وأرضاه. ورضي عن حسان إذ قال:

إذا تَذَكَّرْتَ شَجْوًا مِن أخِي ثِقَةٍ ... فاذْكُرْ أخاكَ أبا بَكْرٍ بِما فَعَلا

خَيْرُ البَرِيَّةِ أتْقاها وأعْدَلَها ... بَعْدَ النَّبِيِّ وأوْفاها بِما حَمَلا

---

(١) البخاري، الفتح ١١ (٦٥٠٧)، ومسلم (٢٦٨٣)

(٢) المدارج (٢ / ١٧٣)

(٣) الخوخة: هي الباب الصغير بين البيتين أو الدارين.

(٤) البخاري، الفتح ٧ (٣٩٠٤) واللفظ له، ومسلم (٢٣٨٢)

الثّـانِي التّـالِي المَحْمُـودُ مَشْـهَدُهُ   وأوّلُ النّاسِ مِنهُمْ صَدَّقَ الرُّسُلَا

هذا، وإنّ من ثمار الرضا الطيبة أنّ الرضا بقضاء الله تعالى عند فقد الأحبة كالولد سبب لدخول الجنة، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال لنسوة من الأنصار: «**لا يموتُ لإحداكنّ ثلاثة من الولد فتحتسبه إلا دخلتِ الجنة**». فقالت امرأة منهن: أو اثنين يا رسول الله؟ قال: «**أو اثنين**»[(١)].

والاسترجاع مع الرضا مُؤذِنٌ بخَلَفٍ طيّب، فعن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللّهم أجُرْنِي في مصيبتي واخلُفْ لي خيرًا منها. إلا أخلف الله له خيرًا منها**»[(٢)].

ومَن حَمِدَ الله تعالى واسترجع عند المصيبة فهو موعود ببيت في الجنة، وإذا بنى الله لعبد بيتًا أسكنه إياه، ولا حَمْدَ ولا استرجاعَ إلا على متنِ الرضا وجناحِ التسليم، فعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا مات ولد العبد، قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمِدَكَ واسترجع. فيقول الله: ابنوا لعبدي بيتًا في الجنة، وسَمُّوهُ بيتَ الحمد**»[(٣)]. أي:

---

(١) البخاري، الفتح ٣ (١٢٤٩)، ومسلم (٢٦٣٢) واللفظ له.

(٢) مسلم (٩١٨)

(٣) الترمذي (١٠٢١) وحسن إسناده الألباني.

أنه كُوفِئَ بهذا البيت لمّا حمد الله على قدره، فهذا بيت فلان الذي أكرمه به ربه لما حمده.

ومَـا المـالُ والأهْلـونَ إلّا وَدَائِـعٌ ... ولَا بُـدَّ يَوْمًـا أنْ تُـرَدَّ الوَدَائِـعُ

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: **«يقول الله تعالى: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضتُ صفيَّهُ من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة»**(١). والصفيُّ هو الحبيب المُصافي سواء أكان قريبًا في النسب أم لا. ولله قريحةُ سوسن الدعيس إذ كتبت:

ذكـروكَ عنـدي في حـديثٍ عـابرٍ ... شـوقًا؛ فأغرَقَـتِ الـدّموعُ مَحَاجِري

ودُهِشْـتُ مـا لي والـدّموعُ غزيـرةٌ ... مِنّـي، فأسـكُبُهَا كغيـثٍ مـاطرِ

ذَكَـرُوكَ فاسـتَيْقَظْتَ فيَّ مَشَـاعِرًا ... وكأنَّـهُ شـوقٌ غَفَـا في خـاطري

في لحظـةٍ أدركـتُ أنّـك لم تَعُـد ... حَيًّـا؛ ولـن ألقـاكَ بـينَ نـواظري

وكأنّــه خــبرٌ أتــاني صــدمةً ... جَمَـدَتْ بوقعتـه جميـعُ مشـاعري

عجبًـا، ألم أبكيـكَ قبلًا، والعيـونُ ... تقرّحــتْ مــن ســيلها المتنــاثرِ

مضـتِ السُّـنُونُ ولم أزِدْ بمُضِـيِّها ... إلّا حنينًــا جُرْحُــهُ لم ينــبرِ

لازلـتُ مُشـتاقًا، ولازلـتَ الـذي ... في القلبِ حلمُ غدٍ وشـوقُ الحاضرِ

فلعلّنــا ولعــلّ لقيانــا غــدًا ... في جنــةٍ؛ أجـرَ الفـؤادِ الصَّـابرِ

---

(١) البخاري، الفتح ١١ (٦٤٢٤)

وإن من ثمار الرضا بالله تعالى: أنها سببٌ لمحبة الله ورضاه وتجنب سخطه، والنبي ﷺ كان أرضى الناس بالله، وأسرُّ الناس بربه، وأفرحُهُم به تبارك وتعالى.

والرضا دليلٌ على طيب الإحسان، وزيادة الإيمان، وحسن الإسلام، وحبلٌ متين للفوز بالجنة والنجاة من النار، ومظهرٌ من مظاهر صلاح العبد وتقواه. وصاحبُها موعود بالبشرى في الآخرة، وهي دليل حسن ظن العبد بربه، وطريق إلى الفوز برضوان الله تعالى، فالرضا يثمر رضا الرب عن عبده، فإن الله عز وجل شكور حميد، وإذا ألححتَ عليه وطلبتَه وتذلّلتَ إليه؛ أقبل عليك وأجابك وقرّبك وابتدأك وأعطاك.

والرضا ـ فاعلم ـ يضفي على الإنسان المسلم راحة نفسية وسكينة روحية، ويجنّبه ـ بإذن الله ـ الأزمات النفسية من قلق زائد وتوتر وعجلة وانفعال وغضب، كما أنها طريق واضح إلى تحقيق السلام في مجتمعات الناس، فإن المجتمع مكون من لبنات أفراد، فإن استقاموا استقام.

كما أنّ الرضا يخلّص من الهمّ، والغمّ، والحزن، وضيق الصدر، ووَحَرِهِ، وشتاتِ القلب، وكسْفِ البال، وسوء الحال، ولذلك فإن باب جنة الدنيا يُفتَح بالرضا قبل جنة الآخرة؛ فالرضا يوجب طمأنينة القلب وراحته وبَرْده وسكونه وقراره، بعكس السخط الذي يؤدي إلى اضطراب القلب وريبته وقلقه وانزعاجه وضيقه وعدم قراره.

فالرضا ينزِل على قلب العبد سكينةً لا تتنزّل عليه بغيره، ولا أنفع له منها؛ ومتى ما نزلت على قلب العبد السكينة استقام، وصلُحت أحواله، وصلُح

باله، وكان في أمنٍ، ودَعَةٍ، وطيبِ عيشٍ، ورَغَدِ حياة، ومتعةِ روح، وسعادة حال، كما قيل: «من قرَّت عينه بالله تعالى؛ قرَّت به كل عين، ومن لم تقرَّ عينه بالله؛ تقطّعَ قلبُه على الدنيا حسَرات».

وقد تأملت سبب الهم والحزن في الدنيا فوجدته راجع لأحد أمور أربعة:

الأول: أن المبتلى بذلك قد أعطى الأمر الذي أحزنه أو أهمّه أكبر من حجمه، مع أن الدنيا بأسرها لا تستحق ذلك، فهي تافهة لا تستحق تقطيب الجبين لأجلها، ولا زفرات الحزن لفقدها، ولا اللهث لتحصيل ترفها، وهي دار الأحزان والآفات، ومجمع الهموم والنكبات، لمن لم يصحبها بطاعة الله وذكره والفرح به واليقين به والرضا به وعنه، فعلام نعطيها أكبر من حجمها؟!

فالعاقل هو مَن وَضَعَهَا حيث وضعها الله تعالى، ولم يرفعها فوق همّته لآخرته وعُقباه، ولم يزاحمها بها همًّا وإرادة ورغبةً واشتغالًا ونظَرًا وتدبيرًا واستعدادًا، فهي دار ممرّ ومعبر لا بقاء ومقرّ، فنحن ـ وإن حزنّا لأجلها لضعفنا أحيانًا ـ فينبغي أن يكون حزنًا عارضًا سريع الزوال، مشفوعًا ممزوجًا بالرضا بالقضاء واليقين بحكمة الله وعلمه ولطفه ورحمته، والفرح بالله تعالى الذي إن حصل فكل ما سواه زائل.

الثاني: قد يكون ذلك بسبب تقصير العبد في أمر الله تعالى، وتساهله في مناهيه، فقد يكون مقصّرًا في ذكر ربه، ومن أعظم الذكر الصلاة، قال سبحانه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾ [طه: ١٤]، ومن أعرض عن الصلاة وقصّر فيها فلا يستغرب ضنك عيشه وضيق نفسه وكَدَر حاله، فأيّ حياة بلا صلاة! ولرُبّما

أمسى صدرُه صدرُه لإعراضه عنها أضيق من بياضِ المِيم وصدرِ اللئيم كما قيل، قال سبحانه: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤]. فليراجع نفسه من قريب، وليتب إلى الله تعالى من فوره، وليعلم أن الله تعالى يفرح بتوبة عبده وأوبته بعد إباقِهِ وحَوْبَتِه، وقُرْبِهِ وازدِلافِه بعد بُعدِه واستيحاشِه. وكم ضجَّ الناسُ بأمرٍ وهو يسيرٌ، وكم ألقوا خلفهم أمرًا وهو عظيم، ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ۝١٥﴾ [النّور: ١٥].

وهذا الألم النفسي الحاصل من حزن على الماضي، أو همّ بحاضر ومستقبل؛ فهو من سياط تأديب العبد الآبق من سيده الرحيم المحب اللطيف الرفيق إلى حبائل عدوِّه الماكر المبغض الكاره، فيأذنُ الحكيم تعالى بدخول الألم قلبَ عبده لينفُضَ عن قلبه غبار الإدبار، وغَيْنَ الغفلة، ويقشع عن بصيرته غيم الذنوب، ويجلو عن نفسه وعقله وروحه وصحيفته كدر الأوزار ووسخ الخطايا وقَتَرَ الغَفلات!

فحينها ينتبه العبدُ فيرجعُ مستكينًا خاضعًا ذليلًا تائبًا معترفًا بالمنّة لمولاه، عائدًا إلى كَنَفِ خالقِهِ ورحمةِ سيدِه ولُطفِ إلهه سبحانه وبحمده، وهو الحكيم اللطيف الخبير، ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ [الشُّورَى: ١٩].

الثالث: قد يكون الهمّ والحُزْنُ لطفٌ من الله محضٌ للعبد كيما يرفع به درجته في المهديين المرضيين، فقد قال الرحمة المهداة صلوات الله وسلامه

وبركاته عليه: **«ما يصيبُ المسلمَ من نَصَبٍ، ولا وَصَبٍ، ولا همٍّ، ولا حزن، ولا أذى، ولا غمّ، حتى الشوكة يشاكها إلا كفَّرَ الله بها من خطاياه»**[(١)].

لذا فقد يكون الابتلاء ـ ومنه الهمّ والحزن ـ مُسَبَّبًا على ذنب سابق، وقد يكون لمحض الرحمة والفضل، فحتى أكمل الخلائق ﷺ لم يسلم من ذلك ليرفع الله تعالى درجته ويجزل مثوبته.

الرابع: الحزن لأجل دين الله تعالى، إما لتفويت طاعة، أو وقوعٍ في خطيئة، أو تألُّمٍ وتوجّع لحال المسلمين المكلومين، وهو حزنُ الصالحين، وفيه تفصيل، وسيأتي بسطه قريبًا إن شاء الله تعالى، وعليه التكلان وإليه المرجع والمآب.

---

(١) البخاري ١٤٨/٧ (٥٦٤١) ومسلم ١٦/٨ (٢٥٧٣) والنَّصَبُ: هو التعب والمشقة، أما الوَصَب: فهو المرض. قال العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح رياض الصالحين ١٠٩/١) معلقًا على هذا الحديث المبشّر العظيم: «المصائب تكون على وجهين: فتارة إذا أصيب الإنسان تذكر الأجر واحتسب هذه المصيبة على الله فيكون فيها فائدتان: تكفير الذنوب، وزيادة الحسنات. وتارة يغفل عن هذا فيضيق صدره، ويغفل عن نيّة الاحتساب والأجر على الله، فيكون في ذلك تكفير لسيئاته، إذًا هو رابح على كل حال في هذه المصائب التي تأتيه.

فإما أن يربح تكفير السيئات وحط الذنوب بدون أن يحصل له أجر، لأنه لم ينو شيئًا ولم يصبر ولم يحتسب الأجر، وإما أن يربح شيئين كما تقدم. ولهذا ينبغي للإنسان إذا أصيب ولو بشوكة، فليتذكر الاحتساب من الله على هذه المصيبة».

هذا وإنّ «الرضا يخلّص العبد من مخاصمة الرب في الشرائع والأحكام والأقضية والمقادير، فإبليس مثلًا لما أُمِر بالسجود أبى[(١)] ولم يرضَ، كيف أسجدُ لبشرٍ خلقتَه من ترابٍ؟ فعدم الرضا من إبليس أدّى إلى اعتراضٍ على أمر الله. فإذًا منافقو عصرنا الذين لا يرضون بحكم الله في الربا والحجاب وتعدّد الزوجات في كل مقالاتهم في مخاصمةٍ مع الرب سبحانه لماذا؟ لأنّ كلامهم يدور على مخاصمة الرب في شرعه وإن لم يصرّحوا بهذا. فالرضا يخلّص الإنسان من هذه المخاصمة[(٢)].

(١) وصف الله تعالى معصية آدم بالعصيان ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١﴾ [طه: ١٢١] لأنها نتاج الضعف البشري الغريزي أمام سلطان الشهوة، لذلك كان قريب الفيئة، سريع التوبة من الحوبة، أما إبليس فوصفه بقوله: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ﴾ [البَقَرَةِ: ٣٤] لأن سبب معصيته هو الكبر، فسُلب النعمة، وباء بالخيبة، ورمي بالخذلان، وعوقب بالطرد، وسيم باللعنة، نعوذ بربنا منه ومن حاله وحال أهل النار.

(٢) روى مسلم (٨/٥٢) عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: قال: جاء مُشركو قُريشٍ يُخاصِمونَ رسولَ الله ﷺ في القَدَرِ، فنزلت: ﴿يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ۝٤٨﴾ [القَمَر: ٤٨]. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والمخاصمون في القدر نوعان:

أحدهما: من يُبطل أمر الله ونهيه بقضائه وقدره، كالذين قالوا: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأَنۡعَام: ١٤٨]

والثاني: من يُنكر قضاءه وقدره السابق. والطائفتان خصماءُ الله، قال عوف: «من كذّب بالقدر فقد كذّب بالإسلام، إن الله تبارك وتعالى قدّر أقدارًا، وخلق الخلق بقدَر، وقسم الآجال بقدَر، وقسم الأرزاق بقدَر، وقسم البلاء بقدَر، وقسم العافية بقدَر، وأمر ونهي».

=

والرضا من العدل، إذ الرضا يُشْعِرِ العبد بعدل الرب، ولذلك كان ﷺ يقول: **«عدلٌ فيَّ قضاؤك»**(١). والذي لا يشعر بعدل الرب فهو جائرٌ ظالمٌ، فالله أعدل العادلين حتى في العقوبات. فقطع يد السارق عقوبةٌ، فالله عدَل في قضائه وعقوباته، فلا يُعْتَرَض عليه لا في قضائه ولا في عقوباته.

وعدم الرضا راجع إلى فواتِ شيءٍ أخطأك وأنت تحبّه وتريده، أو لشيءٍ أصابك وأنت تكرهه وتسخطه. فيحصل للشخص الذي ليس عنده رضًا قلقٌ واضطرابٌ إذا نزل به ما يكره أو فاته ما يحب فيصيبه الشقاء النفسي، أما إن كان راضيًا فلو نزل به ما يكره أو فاته ما يحب فلا يشقى ولا يتألّم؛ لأنّ الرضا يمنع عنه هذا الألم، فلا هو يأسى على ما فاته، ولا يفرح بما أوتي، ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]، لأنه مقدّرٌ مكتوبٌ.

والرضا يفتح باب السلامة من الغشّ والحقد والحسد؛ لأن المرء إذا لم يرضَ بقسمة الله سيبقى ينظر إلى فلانٍ وفلانٍ، فتبقى دائمًا عينه ضيقةٌ وحاسدٌ

=

وقال الإمام أحمد: «القَدَرُ قُدْرَةُ الله» واستحسن ابن عقيل هذا الكلام جدًّا، وقال: هذا يدل على دقّة علم أحمد وتبحّره في معرفة أصول الدين. وهو كما قال أبو الوفاء، فإن إنكارَ القدر إنكارٌ لقدرة الرب على خلق أعمال العباد وكتابتها وتقديرها. وسلف القدرية كانوا ينكرون علمه بها، وهم الذين اتفق سلف الأمة على تكفيرهم. شفاء العليل (١ / ٢٨)

(١) أحمد (٣٧١٢) وضعفه الأرناؤوط. وصححه الألباني في الصحيحة (١٩٩) وقد مرّ تفصيل ذلك، وأنه بناء على اختلافهم في تعيين الراوي الجهني.

ومتمنٍّ زوال النعمة عن الآخرين. والسخط يدخل هذه الأشياء في قلب صاحبه(١).

---

(١) من أعظم نعيم الأنفس سلامة الصدر، وطيب القلب، وصفاء السريرة، تجاه عباد الله تعالى، فهذا من النعيم المُعجّل في هذه الدار، مع ما يترتب عليه من أجور يَتقاصر دونها الخيالُ إن امتنّ الله تعالى بقبولها، وقد ضمن صلوات الله وسلامه وبركاته عليه أعلى الجنة لمن حسن خلقه، ومن أجمل الأخلاق سلامة الصدر للعباد، فاسألْ ربك الكريم الأعلى أن يصطفيك منهم، فهي جَنَّةٌ قبل الجَنَّة، ولو لم يكن فيها إلا السلامة من آثار دَغَلِ القلب، وَوَحَرِ الصَّدرِ، وضَغْطَاتِ الحسد، وشؤمِ التّبِعة، وموتِ الإنسانية، وظلامِ الظلم، وحيرةِ التِّيه، وكُرْهِ الخلق، وحرقِ الحسنات لكفى به مغنمًا، كيف وهي سُلَّمُ مرضاةٍ ودَرَجُ مرقاةٍ لعِلّيين.

فعليك ـ رحم الله مَحْيَاك ومُحَيّاك ـ بإرضاء الله تعالى، وإنْ ساءَتْ بكَ ظنون الناس، ووصل إليك أذاهم، فستفوز برضوان الله وهو كافٍ شافٍ، ولن تُعْدَمَ مِن الناسِ. شاكرًا، ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ١٢٠﴾ [آل عمران: ١٢٠] فافعل الصواب وليكن بعده ما يكون، ومن كان بالله فلا ضيعة عليه.

إذا رَضِيَتْ عَنّي كِرَام عَشِيرَتِي فَلَا زَالَ غَضْبَانًا عَليَّ لِئَامُهَا

واعلم ـ رحمني الله وإياك ـ أنّ سلامة الصدر، ونقاء القلب، وطيب السريرة محضُ فضل الله تعالى ولطفه وكرمه، لم تكتسبه بنفسك وكَدِّكَ وكَدِّ أهلك، فهو اصطفاء إلهي لمن شاء من عباده، فقد خصّك الله تعالى بها حُرِمَ منه غيرُك من المخذولين، فإنّ من أصناف الناس نوعٌ ثقيل الروح، سامُّ الأنفاس، نتنُ الظنون، قد كثفت دغائل نفوسهم كأنما قُدُّوا من أحجارِ النّار!

ولا أدري كيف يتنفّسون الهواء بقلوبٍ سوداء كالحٌ حقدُها، والغٌ ضَغنُهَا، وكيف يمشون على أقدام تحمل كل هذا الثقل من الغلّ والوِزْرَ من الحقد. فلم يرضوا بقضاء الله لهم =

والرضا يجعلك لا تشكّ في قضاء الله وقدَره وحكمته وعلمه ورحمته وعدله، فتكون مستسلمًا لأمره معتقدًا أنه حكيمٌ مهما حصل. لكن الإنسان الساخط يشكّ ويوسوس له الشيطان: ما الحكمة هنا وهنا؟! ولذلك فالرضا واليقين أخوان مصطحبان، والسخط والشكّ توأمان متلاصقان، ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ﴾ [البَقَرَة:

=

ولا بقضائه لغيرهم، ﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ﴾ [النِّسَاء: ٥٤]، نعوذ بالله من الخسار والتباب.

وما المسخُ فِي الإنْسان تَغْيِيرُ صُورَةٍ ... ولَكِنَّهُ سِلْبُ اللَّطَافَةِ والأُنْسِ

فلا تكن - حرسك الله - ممن اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، ولا ممن رَضُوا حطام الفانية، وتفكر - ويدك على قلبك - في حال من خسر صفقة دينه وإيمانه، فاشترى حفرة الجحيم بإنفاذِ غيظٍ غشوم لتصديقِ بهتانِ نفسٍ ظلوم، فعادَ الخائبُ أخسرَ من سَلْم الخاسر الذي باع مُصحفًا واشترى بثمنه طنبورًا! وأغبَنَ صفقةً من أبي غبشان الذي باع مفتاح الكعبة بزِقِّ خمرٍ! أخلاقُهُم بالية، وأحلامُهُم ذاوية، وألبابُهم خاوية، وأفعالُهُم غاوية، كأنما عناهم أبو تمام الطائي:

مَسَاوٍ لو قِسَمْنَ علَى الغَوَانِي ... لَمَا أُمْهِرْنَ إلاَّ بالطَّلَاقِ

فإنْ مررتَ بناديهم فاضرع لربك حامدًا مبتهلًا شاكرًا: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاهم به، وفضّلني على كثير ممن خلق تفضيلًا. وتذكر أمر ربك الأعلى: ﴿فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ﴾ [النِّسَاء: ١٤٠]، ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٦٨﴾ [الأنعَام: ٦٨].

٢٦٨]، وأكْرِمْ بِمَن كان الرحمنُ قِبلتَه، وَأَخْسِرْ بصفقةِ صاحبِ الشيطانِ، ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾ [الحج: ١٣].

ألَا وإنّ من أطيب ثمرات الرضا: أنّه يثمر الشكر، فصاحب السخط لا يشكر. فهو يشعر أنه مغبونٌ، وحقّه منقوصٌ، وحظّه مبخوسٌ، لأنه يرى أنه لا نعمة لديه أصلًا! فالسخط نتيجة كفران المُنعِم والنِّعَم، والرضا نتيجة شكران المنعم والنعم.

والرضا يجعل الإنسان لا يقول إلا ما يُرضي الرب، والسخط يجعل الإنسان يتكلّم بما فيه اعتراضٌ على الرب، وربما يكون فيه قدحٌ في الرب عز وجل.

وصاحب الرضا متجرّدٌ عن الهوى، وصاحب السخط متّبعٌ للهوى. ولا يجتمع الرضا واتباع الهوى، لذلك الرضا بالله وعن الله يطرد الهوى بإذن الله.

وصاحب الرضا واقفٌ مع اختيار الله، يحسّ أن عنده كنزٌ إذا رضي الله عنه أكبر من الجنة، لأن الله عندما ذكر نعيم الجنة قال: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ التوبة: ٧٢، فرضا الله إذا حصل فهو أكبر من الجنة وما فيها. والرضا صفة الله، والجنة مخلوقةٌ. وصفة الله أكبر من مخلوقاته كلها، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: ٧٢]. فرضا الله أكبر من الجنة.

والرضا يخلّص العبد من سخط الناس، لأن الله إذا رضي عن العبد أرضى عنه الناس، والعبد إذا سعى في مرضاة الله لا يبالي بكلام الناس. أما إذا سعى في مرضاة الناس فسيجد نفسه متعبًا؛ لأنه لن يستطيع إرضاءهم فيعيش في شقاءٍ. أما من يسعى لرضا الله فلا يحسب لكلام الناس أيَّ حسابٍ ولن يتعبَ نفسيًّا. ولو وصل إليه كلام الناس فلن يؤذيَه نفسيًّا، ولن يبالي ما دام الله راضيًا عنه(١).

والله يعطي الراضي عنه أشياءَ لم يسألها، ولا تكون عطايا الله نتيجة الدعاء فقط ما دام في مصلحته(٢).

---

(١) قال تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ [آل عِمرَان : ١١١]، فهو مجرد أذى نفسي لا ضرر حقيقي، وقال سبحانه: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عِمرَان : ١٢٠] فلا ضرر على المؤمن ما دام متّقيًا صابرًا.

فليتكَ تحلُو والحياةُ مريرةٌ   وليتكَ ترضى والأنامُ غِضَابُ
وليتَ الذي بيني وبينكَ عامرٌ   وبيني وبين العالمين خَرَابُ
إذا صحّ منكَ الودُّ فالكلُّ هيّنٌ   وكلُّ الذي فوقَ الترابِ تُرَابُ

(٢) فالله تعالى طبيبُ عبده ووليُّه وربُّه، يسدي له الخير، ويلطف به، ويرفق به، ويرحمه، شَعَرَ العبد أم لم يشعر، ويوصل الخير إليه من طرق أكثرها خفيّ، وهو يوالي عليه هذه النعماء شَكَرَ العبد أم قصّر، عَلِمَ أم جَهِل. ومتى استشعر المؤمن هذه المعاني الهائلة التي تتقاصر دونها تعابير الخلائق؛ امتلأ قلبه بحبّ الله ربّه، وتهلّلت روحه فرحًا واستبشارًا بإلهها ومعبودها، وأشرقت أرجاؤه سرورًا واغتباطًا بسيدها البر الرحيم.

والرضا يفرّغ قلب العبد للعبادة، فهو في صلاته خالٍ قلبُه من الوساوس[١]، في الطاعة غير مشتّت الذهن[٢]، فيستفيد من العبادة. فالرضا يركّز ويصفّي الذهن فينتفع صاحبه بالعبادة.

والرضا له شأنٌ عجيبٌ مع بقية أعمال القلوب الصالحة، فأجره لا ينقطع وليس له حدٌّ، بخلاف أعمال الجوارح، فأجرها له حدٌّ تنتهي بمدّةٍ معينةٍ. فعمل الجوارح محدودٌ، لكن عمل القلب غير محدودٍ. فأعمال الجوارح تتضاعف على حدٍّ معلومٍ محسوبٍ، أما أعمال القلوب فلا ينتهي تضعيفها وإن غابت عن بال صاحبها. كيف؟

إنسانٌ راضٍ يفكّر بذهنه وقلبه أنه راضٍ عن الله وعن قضائه، عرضت له مسألةٌ حسابيّةٌ فانشغل ذهنه بها. العلماء يقولون: أجرُ الرضا لا ينقطع وإن شُغِل الذهن بشيءٍ ثانٍ؛ لأن أصله موجودٌ حتى ولو انشغل القلب بشيءٍ ثانٍ الآن.

إنسانٌ يخاف الله، أحيانًا يحصل له بكاءٌ ووجلٌ نتيجة هذا الخوف، لو انشغل باله مع ولده يضمّد جراح ولده ونسي موضوع التأمل في الخوف وما

---

(١) وهذا من أعظم ثمرات الرضا بالقضاء، فالعبد متوكل على الله قبل نزول القضاء، راضٍ به بعد نزوله. فأطيب الناس عيشًا المتوكّلون الرّاضون.

(٢) فعلام يتشتّت الذهن وصاحبه قد فوّض كل أمره لمن بيده مقاليد الأمور وإليه يرجع الأمر كله، وهو أرحم بالعبد من والدته ومن نفسه، وكيف لا يطمئن لمن لا يأت الخير إلا من قِبَلِه عز وجل.

يوجب البكاء والخشية، فلا زال أجره على الخوف مستمرًّا؛ لأنه عملٌ قلبيٌّ مركوزٌ في الداخل لم ينتهِ أجره، بل هو مستمرٌّ. وهذا من عجائب أعمال القلوب. وهذا يمكن أن يوضِّح لماذا أجر أعمال القلوب أكثر من أجر أعمال الجوارح، مع أنه لا بد من أعمال الجوارح طبعًا، لأنه إذا لم يكن هناك أعمال جوارح فالقلب خَرِبٌ»[1].

ومن لطائف حكمة الله تعالى ما ذكره الدكتور عبد الرحمن بن معاضة الشهري عن شاب من أهل أبها: أنه ابتعث إلى ألمانيا للدراسة، ولما أقبلت الاختبارات النهائية أراد الاختلاء بدروسه في جزيرة، فذهب قبل الاختبار بيوم وحجز تذكرة على العبّارة، ووضع عفشه في العبارة، ثم خرج يتنزه حولها حتى يحين الانطلاق. فرأى زهرة فقطفها، فأخذته الشرطة وحبسته ليلة، ولم تطلقه إلا بعد ظهر اليوم التالي وقد فاته الاختبار!

فلما خرج ذهب للعبارة ليأخذ كتبه وشنطته فإذا شاطئ البحيرة كله مأتم؛ إذ غرقت العبارة ومات كل ركابها، وأعلنوا أنه لم ينج منهم أحد، ولكن للقدر قول آخر بأمر ربه، إذ سلّم الله ذلك الشاب الذي حبسه عنها رحمة به. قال الإمام أحمد: «القدر سرُّ الله في خلقه»، ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ [الشُّورَى: ١٩].

ومن ثمار الرضا بالله تعالى أنه وسيلة لدفع البلاء ورفعه، فعن أبي قتادة الأنصاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رجلًا أتى النبي ﷺ فقال: كيف تصوم؟ فغضب رسول الله ﷺ. فلما رأى عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ غضبه قال: رضينا بالله ربًّا،

(١) سلسلة أعمال القلوب، محمد المنجد (٣١-٣٢) بتصرف.

وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًّا. نعوذ بالله من غضب الله، وغضب رسوله. فجعل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يردّد هذا الكلام حتى سكن غضبُه، فقال عمر: يا رسول الله كيف بمن يصوم الدهر كله؟ قال: «**لا صام ولا أفطر؟**»(١). أو قال: «**لم**

(١) أي: لم يحظ بأجر الصيام لأنه على غير سنّة، ولم يحظ بترف الفطر وراحته.
وفي الديباج على مسلم (٣ / ٢٤٦): «قال العلماء: سبب غضبه أنه كره مسألته لأنّ حاله لا يناسب حال النبي ﷺ في الصوم، فكان حقّه أن يقول: كيف أصوم؟ ليجيبه بما هو مقتضى حاله، كما أجاب غيره. وقيل: لأن فيه إظهار عمل السرّ. وقوله: «**لا صام ولا أفطر**» نفى الأول شرعًا والثاني حسًّا. وقوله: «**وددتُّ أنّي طُوِّقْتُ ذلك**» أي: أُقدرتُ عليه. قال القرطبي: يشكل مع وصاله وقوله: «**إني أبيت أُطعم وأُسقى**» قال: ويرتفع الإشكال بأنّ هذا كان منه ﷺ في أوقات مختلفة، ففي وقت يواصل الأيام بحكم القوة الإلهية، وفي آخره يضعف فيقول هذا بحكم الطباع البشرية. قال: ويمكن أن يقال: تمنّى ذلك دائمًا بحيث لا يخلّ بحقّ من الحقوق التي يخلّ بها من أدام صومه من القيام بحقوق الزوجات واستيفاء القوّة على الجهاد وأعمال الطاعات».
قلت: والأظهر أنه قال: «**وددت أني طوقت ذلك**» في سياق الإشفاق على الأمة، وأنه منهم وأنّهم منه، وأنهم بحكم بشريتهم لا يطيقون كل ما يريدون، وأنّ حسن التديّن لديهم إنما يكون بحسن الامتثال لا بطرد رغائب العمل.
وقال الصنعاني في سبل السلام (٢ / ١٧٢): «قال ابن العربي: إن كان معناه الدعاء فيا ويح من أصابه دعاء النبي ﷺ! وإن كان معناه الخبر فيا ويح من أخبر عنه النبي ﷺ أنه لم يصم! وإذا لم يصم شرعًا؛ فكيف يكتب له ثواب؟
وقد اختلف العلماء في صيام الأبد، فقال بتحريمه طائفة، وهو اختيار ابن خزيمة لهذا الحديث وما في معناه، وذهب طائفة إلى جوازه وهو اختيار ابن المنذر، وتأولوا أحاديث النهي عن صيام الدهر بأنّ المراد: مَن صامه مع الأيام المنهي عنها من العيدين وأيام التشريق، =

يصم ولم يفطر». قال: كيف من يصوم يومين ويفطر يومًا؟ قال: «**ويطيق ذلك أحد؟»**. قال: كيف من يصوم يومًا ويفطر يومًا؟ قال: «**ذاك صوم داود عليه السلام»**. قال: كيف من يصوم يومًا ويفطر يومين؟ قال: «**وددت أني طُوِّقتُ ذلك»**. ثم قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة من كل شهر، ورمضان إلى رمضان، فهذا صيام الدهر كله. صيام يوم عرفة أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله، والسنة التي بعده. وصيام يوم عاشوراء، أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله»**[1].

=

وهو تأويل مردود بنهيه ﷺ لابن عمرو عن صوم الدهر، وتعليله بأنّ لنفسه عليه حقًّا، ولأهله حقًّا، ولضيفه حقًّا، ولقوله: «**أمّا أنا فأصوم وأفطر، فمن رغب عن سنّتي فليس مني**» فالتحريم هو الأوجه دليلًا، ومِن أدلته ما أخرجه أحمد والنسائي وابن خزيمة من حديث أبي موسى مرفوعًا: «**من صام الدهر ضيّقت عليه جهنم**» وعَقَدَ بيده. قال الجمهور: ويستحب صوم الدهر لمن لا يُضعفه عن حقّ، وتأوّلوا أحاديث النهي تأويلًا غير راجح، واستدلوا بأنه ﷺ شبّه صوم ست من شوال مع رمضان، وشبّه صوم ثلاثة أيام من كل شهر بصوم الدهر، فلولا أن صاحبه يستحق الثواب لما شبّه به.

وأجيب بأنّ ذلك على تقدير مشروعيته، فإنّها تُغني عنه كما أغنت الخمس الصلوات عن الخمسين التي قد كانت فرضت، مع أنّه لو صلاها أحد لوجوبها لم يستحق ثوابًا، بل يستحق العقاب». وقيل غير ذلك. وانظر كلام الخطابي في غريب الحديث (١ / ٥١٩) والزرقاني في شرحه (٢ / ٢٤١)

(١) مسلم (١١٦٢)

إنَّ مِن أعظم ثمار الرضا ذلكم النعيم الروحي، والسكينة القلبية، والطمأنينة النفسية للراضي بربه تعالى. ومن جميل كلام الشيخ سعود الشريم: «إنّ الطمأنينة والاستقرارَ النفسي مطلب البشر قاطبةً وإن اختلفوا في تحديد معاييرها وسبُل الوصول إليها، وربما ضاقت بعض النفوس عطَنًا في نظرتها لمثلِ هذا المعنى الرفيع، فحصرته كامنًا في المال وتحصيله، ونفوسٌ أخرى حصرته في الجاه والمنصب، ونفوسٌ غيرها حصرته في الأهل والولد. وهذه المفاهيم وإن كانت لها حظوة في معترك الحياة الدنيا، إلا أنها مسألةٌ نسبيّة في الأفراد ووَقتيّة في الزمن، والواقع المشاهَد أن الأمر خلافُ ذلكم، فكم من غنيّ لم يفارق الشقاء جنبيه، ولم يجد في المال معنى الغنى الحقيقي؛ إذ كم من غنيٍّ يجد وكأنّه لم يجد إلا عكسَ ما كان يجد، وكم من صاحب جاهٍ ومنزلة رفيعة لم يذق طعم الأنس والاستقرار في وردٍ ولا صدر، ولا لاح له طيفُه يومًا ما، وكم من صاحب أهلٍ وولدٍ يتقلّب على رمضاءِ الحزن والقلق والاضطراب النفسيّ وعدم الرضا بالحال، بينما نجد في واقع الحال شخصًا لم يحظَ بشيء من ذلكم البتةَ؛ لا مال ولا جاهٍ ولا أهل ولا ولد، غيرَ أن صدرَه أوسع من الأرض برمّتها، وأنسَه أبلغُ من شقاء أهلها، وطمأنينتَه أبلجُ من قلقهم واضطرابهم، لماذا؟

لأنّ تلكم الأصناف قد تباينت في تعاملها مع نعمة كبرى ينعم الله بها على عبده المؤمن، نعمةٍ إذا وقعت في قلب العبد المؤمن أرته الدنيا واسعةً رحبة ولو كان في جوف حجرةٍ ذرعُها ستة أذرعٍ، ولو نزِعت من قلب العبد لضاقت

عليه الواسعة بما رَحُبت ولو كان يتقلّب بجنبيه في حجر القصور والدور الفارهة.

إنها نعمةُ الرضا، نعم نعمة الرضا، ذلكم السلاح الفتّاك الذي يقضي بحدّه على الأغوال الهائلة التي ترعب النفسَ فتضرب أمانها واطمئنانَها بسلاح ضعف اليقين والإيمان؛ لأن من آمن عرف طريقَه، ومن عرف طريقه رضي به وسلكه أحسنَ مسلكٍ ليبلغَ ويصل، لا يبالي ما يعرض له؛ لأن بصرَه وفكره متعلقان بما هو أسمى وأنقى من هذه الحظوظ الدنيوية. ولا غروَ أن يصل مثل هذا سريعًا؛ لأنّ المتلفِّت لا يصل ولا يُرجى منه الوصول، يقول المصطفى ﷺ: **«ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولًا»**[(١)]. وقال: **«من قال: رضيتُ بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمّد رسولًا؛ وجبت له الجنّة»**[(٢)].

إنّ للرضا حلاوةً تفوق كلَّ حلاوة، وعذوبةً دونها كلُّ عذوبةٍ، وله من المذاق النفسي والروحيِّ والقلبيّ ما يفوق مذاقَ اللسان مع الشهد المكرَّر. فهذان الحديثان عليهما مدار السعادة والطمأنينة، وباستحضارهما ذكرًا وعملًا تتمكّن النفس من خوض عُباب الحياة، مهما خالط ذلك من مشاقٍّ وعنت؛ لأن الحديثين قد تضمّنا الرضا بربوبيّة الله سبحانه وألوهيته والرضا برسوله والانقياد له والرضا بدينه والتسليم له، فأخلِق بمن جمع هذه الدعاماتِ الثلاثة

---

(١) مسلم (٣٤)، والترمذي (٢٦٢٣).

(٢) أبو داود (١٥٢٩) وصححه الألباني.

في قلبه أن يحيا هنيًّا ويعيشَ رضيًّا؛ لأن هذه الدعامات مقاصد مشروعةٌ مضادّة لما يخالفها من الهوى والشبهة والشهوة التي تعترض المرءَ ما دام حيًّا، وهي معه في سجال معتَرَكٍ بين الحقّ والباطل والزَّين والشَّين والرضا والسخط، ومن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السّخط، ولا يظلم ربّك أحدًا.

إنّ الأمة في هذا العصر الذي تموج فيه الفتن بعضها ببعض، وتتلاقح فيه الشرور والنكبات لهي أحوج ما تكون إلى إعلان الرضا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمّد رسولًا.

نعم، إنها أحوج ما تكون إلى إعلان ذلكم بلسانها وقلبها وجوارحها؛ لأن ما تعانيه الأمة المسلمة اليوم يصدق فيه قول الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ حينما سئل: من أين أُتِي هذا الخَلْق؟ قال: «من قِلَّة الرضا عن الله»، قيل له: ومن أين أتي قلّة الرضا عن الله؟ قال: «من قلّة المعرفة بالله». ولا جرم أننا نسمع مثل هذا الإعلان على الألسنِ كثيرًا، بيدَ أن هذا ليس هو نهاية المطاف ولا غاية المقصد، بل إننا أحوج ما نكون إليه في الواقع العمليّ ليلامسَ شؤوننا المتنوّعة في المأكل والمشرب والملبس والعلم والعمل والحكم والاقتصاد والاجتماع والثقافة والإعلام وسائر نواحي الحياة»[(١)].

وإنّ من ثمار الرضا: نقاء الصحيفة من دَرَنِ خطايا اللسان، وذلك بسلامة الكلام حتى على من مسّكَ أذاه، وهذا من جميل الرضا وهو من الحكمة أيضًا،

---

(١) من خطبته في الحرم المكي الجمعة (١٨/ ٢/ ١٤٣٠)

فأكبر الخيبة وأعظم الغبن: أن تُهدي أغلى ما لديك أبغضَ من لديك. فهذه الثمرة الحنظلية للغِيبة!

لَعَمْـرُكَ مَـا وُدّ اللِّسـان بِنـافِعٍ ... إذَا لمْ يكُنْ أصلُ المودّةِ في الصّدرِ

وقد قيل: أحق الناس بالشفقة رجلٌ نصب خيمته على رصيف السالكين، يمرّون خِفافًا إلى المعالي، ويُفني عمره وهو يصف أحوالهم، وينتقد مسيرهم، فيا ضيعة الأعمار راحت سبهللًا! فلا تَكُ مِنْ قومٍ تَلَهَّوْ بِدِينِهم، والله المستعان.

وبما أنّك لن تُرضي الناس ـ ولو حرصت ـ فاكتف بإرضاء رب الناس وهو من سيكفيك الناس سبحانه وبحمده. فاقصده وحده تَصِلْ، واكتف بمن قلوب العباد بيده، ومشاعرهم بأمره، وتصرفاتهم بقَدَرِه، فارضَ بربّك، وارض بقسمه وقضائه، وثق بحكمته ورحمته، وقد أحسن ابن دريد في وصف خيبة من رام إرضاء الناس فقال:

وما أحدٌ من ألسنِ الناسِ سالمًا ... ولـو أنّـه ذاك النبـيُّ المطهّـرُ

فإن كان مقدامًا يقولون أهوجٌ[1] ... وإن كان مِفضالًا يقولون مُبذِرُ

وإن كان سِكّيتًا يقولون أبكمٌ ... وإن كان مِنْطيقًا يقولون مِهْذَرُ[2]

وإن كان صوّامًا وبالليل قائمًا ... يقولون زرّافٌ[1] يُرائي ويمكرُ

(١) الأهوج: من كان فيه تسرع وحماقة.

(٢) المِهْذَار: كثير الكلام فيما لا ينفع.

فـلا تحتفـل بالنـاس في الـذمّ والثنـا ... ولا تخـش غـير الله، فـالله أكـبرُ

وللرضا ثمرات وثمرات جامعها الفوز والنجاة والسعادة والفلاح في الدنيا والآخرة، وبالله التوفيق.

يـا مَـن تَرَفَّـعَ لِلـدُنيا وَزينَتِهـا ... لَـيسَ التَرَفُّـعُ رَفـعَ الطـينِ بـالطينِ

إِذا أَرَدتَ شَريـفَ القَـومِ كُلّهِـم ... فَـانظُر إِلى مَلِـكٍ في زِيٍّ مِسـكينِ

لا تَخضَـعَنَّ لِمَخلـوقٍ عَـلى طَمَـعٍ ... فَـإِنَّ ذَلِـكَ وَهـنٌ مِنـكَ في الـدِّينِ

وَاسـترْزِقِ اللهَ مِمّـا في خَزائِنِـه ... فَـإِنَّ ذاكَ لـه بالكـافِ وَالنـونِ

أَلا تَـرى كُـلَّ مَـن ترجـو وَتَأمَلُـه ... مِـنَ البَرِيَّـةِ مسـكينَ اِبـنَ مِسـكينِ

أَرى أُناسًـا بِـأَدنى الـدينِ قَـد قَنِعـوا ... وَلا أَراهُمُ رَضوا في العَيشِ بِالدونِ

فَاِستَغنِ بِالدينِ عَن دُنيا المُلوكِ كَما ... اِستَغنى المُلوكُ بِدُنياهُم عَن الدينِ

=

(١) زرف في الكلام: زاد فيه وكذب.

الرضا بالله تعالى والتفاؤل

طبيعة الإيمان تفاؤل، لأنّ المؤمن ساكن النفس، مطمئنّ القلب، رخيّ البال، مرتاح الفكر؛ فعلمه بربه وبذله وسعه لمرضاته حافزٌ للاستبشار والسرور وحسن الظنّ بمن لا يأتي الخير إلّا من عنده، ولا يُستدفع الشر إلا به، تبارك وتعالى وجلّ وعزّ.

فالمؤمن يعلم أنّ أمره كلّه خير، وأن تدبير ربه له خير من تدبيره وتدبير غيره له، يتعبّد ربّه بمقتضى أسمائه وصفاته كالرب والكريم والحكيم والرفيق واللطيف والبرّ والرحمن والرحيم والوهاب والعدل والحيّ والقيوم وغيرها من أسماء وصفات الجمال والجلال، ويؤمن بالقضاء والقدر، وأنه حتم لازب وقضاء نافذ، ويدافع القضاء بالقضاء على وفق الشرع، فلا يعجز عند الأمر، ولا يجزع عند المرِّ، قد انسجمت روحه وقلبه وعقله وجثمانه مع علمه بربّه وشريعته.

وبالجملة؛ فالمؤمن متفائل بمستقبله ومستقبل أحبابه ومجتمعه وأمته على الدوام، مهما كان الامتحان بشدائد البلايا وكبريات الرزايا، فمهما اشتد البلاء فالفرج على إثره، وكل مصيبة ـ خلا الدين ـ فهي يسيرة وزائلة لأنها مصيبة دنيا، وهموم الدنيا ـ على التحقيق ـ لا تستحق، فإنّ زوال الدنيا بأسرها ليس بشيء في جناب ساعة من ساعات الآخرة، وقد قال صلوات الله وسلامه

وبركاته عليه: **«لغدوة في سبيل الله - أو روحة - خير من الدنيا وما فيها، ولموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها»**[(١)].

وميزان الدنيا مع الآخرة صفر كمًّا وكيفًا بحسب المنطق؛ ذلك أنك لو وزنت عددًا محدودًا مهما بلغ طوله بما لا حدّ له ولا نهاية فالنتيجة صفرية، وتأمل آيات الكتاب والسنة في أمر الدنيا تجد أنها ليست بشيء أمام الآخرة! وأن كل حطامها فانٍ، وكل متاعها زائل، وكل عيشها منغّص ومقطوع، وكل عقائد أهلها الباطلة وأخلاقهم السافلة هي في النهاية هباء زائل ووزر جاثم وزادٌ باطل مهما زيّفتها شياطين الإنس والجانّ، ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ﴾ [المَائـِدَة: ٦٨].

وتأمل معي؛ لو أن ميتًا نُشر من قبره الساعة، ثم خُيِّر بين أمرين: مُلك الدنيا أو تسبيحة واحدة، فماذا سيختار؟

سيختار التسبيحة قطعًا، لأنها زاد الآخرة، وقد عَلِمَ شأنها وشأن الدنيا الزائلة، فإذا كانت الدنيا بأسرها لا تساوي تسبيحة واحدة؛ فكل ما فاتك منها شيء فسبّح تكن غانمًا فائزًا فالحًا مستريحًا، وكما قال ابن حزم وقد اشتهى فاكهة أمامه وكان صائمًا: يا فاكهة؛ موعدي وموعدك الجنة، برحمة الله. ومن ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه.

فيا ليتَ شِعري أينَ ميتة من ثَوَى ... قتيلًا كليلًا مِن قتالِ البَواغيا

---

(١) أحمد (١٥٥٦٣) وصححه محققوه الأرناؤوط وأصحابه.

ومن مات مثلَ الكلبِ من شِبْع بطنِهِ وقـد مـات خَـوّارًا جَبانًـا ولاهِيـا
فَمَـــنْ ذا يبيـــع المُســـتهام جنانـــه فقد نادتِ الفردوسُ من كان ساميا

قال شيخنا عبد الله الدميجي حفظه الله تعالى: «كان السلف يتواصون: أصلح ما بينك وبين الله يصلح الله ما بينك وبين الناس، وأصلح سريرتك يصلح الله علانيتك، واجتهد في إصلاح أمر آخرتك يصلح الله أمر دنياك وآخرتك». أهـ.

ومن نظر إلى نعيم الآخرة هانت عليه نفسه في أودية عذابات الدنيا، ومن علم أن الله يحب عباده المؤمنين به ويبتليهم، وأنه على قدر ولايتهم يكون صبّ البلاء وصب الصبر والرضا والحمد والشكر لمن وفّقه منهم، وأن الله تعالى أقرب ما يكون من عبده حال مرضه، أو فاقته، أو مظلمته، أو فقد أحبابه، أو تبدّل أحواله ونحو ذلك؛ فلن ييأس أو يحزن أبدًا، وفي ذلك تحصينٌ وبناء وعلاج ودواء؛ لأن الحزن واليأس يزيدان المرض والحسرة والألم والضيق.

هذا؛ وإنّ الجزع أو السوداوية أو سوء الظن بالله في المرض خاصة يضعف مقاومة الجسم للأمراض، فتضعف مناعته، بل تنهار وتنهزم عن مقاومة المرض، وهذا ما أثبته الطب حديثًا، فالروح المعنوية القوية من أقوى عوامل دفع الداء بإذن الله تعالى.

وإن مما يقوى الجهاز المناعي للمريض ويرفع به عنه الداء بإذن الله تعالى رضا المريض بربه وقضائه وثقته به وحسن ظنه ورجائه، وهو نافع كذلك في

دفعه قبل نزوله، فالذي خلق الداء هو من ابتلى به، فلا تذهب عنه فثمّت العافية. وقد أصيب ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ زمنًا في بصره فأوصاه الطبيب بالامتناع عن القراءة حينًا ريثما تطيب عيناه، فأبى ذلك ابن تيمية وحاكمه إلى طِبِّه بأن أقرّه أن قوة الروح في بسط رغبتها فيما تحبّ معين بإذن الله تعالى في رفع الداء، فأقرّه الطبيب على ذلك.

وإنّ من الأطباء - هداهم الله - من يُقنّط المريض من الشفاء بحجة عرض الحقائق بزعمه، علمًا أن المستقبل علمٌ اختص الله بتدبيره والعلم به، فمهما اتّفقت وجهات نظرهم وأجهزة علمهم فهي ليست يقينيّة، وكم فَلَجَهُمُ الشافي سبحانه بشفاء مرضى قد يئسوا وأيَّسُوا من شفائهم، فأبى الله ذلك سبحانه وبحمده.

وفعلُهم هذا مخالف لهدي رسولنا صلى الله عليه فقد كان من هديه ﷺ تنفيس المريض، وإراحته، فهو بحقٍّ سيد المتفائلين، وكان إذا بعث أحدًا من أصحابه في بعض أمره قال: «**بشّروا ولا تنفّروا، ويسّروا ولا تعسّروا**»(١). ويختار من رسله ذوي الأسماء والوجوه والمظاهر الحسنة.

ولا بد أن نعلم أن عقيدتنا كمسلمين في المرض مختلفة عن نظرة الكفرة له، فيشيع في بلاد الشرق والغرب أنّ هناك أمراضًا لا شفاء لها، وهذا مخالف لمعتقد الحنفاء؛ فقد قال الهادي البشير ﷺ: «**إنّ الله خلق الداء والدواء،**

---

(١) مسلم (١٧٣٢)

فتداووا ولا تتداووا بحرام»[١]. وقال ﷺ: **«ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء، علمه من علمه وجهله من جهله»**[٢]. وقال ﷺ: **«لكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله»**[٣].

واعلم أيها المريض أن المرض مقدّر لك من عند الله، الذي هو أرحم وأعلم وأحكم وألطف وأرفق بك من والديك ومن نفسك، قال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٥١﴾ [التَّوۡبَة: ٥١]. وتدبر قوله سبحانه: ﴿لَنَا﴾ [التَّوۡبَة: ٥١] مع أن المتبادر أن يقول: (علينا)، وذلك لأنها في الحقيقة هبة ربانية ورحمة إلهية على شكل مصيبة دنيا، فاحمد الله واشكره، لأن المصيبة إن نزل معها صبر ورضا وحمد وشكر فهي نعمة سابغة تامّة، أما إن كان معها الجزع والتسخّط فهي مصيبتان: مصيبة دين بالسخط والوقوع تحت طائلة غضب الله وعقوبته، ومصيبة دنيا بحسب ما فاته ووقع عليه، والله المستعان.

وقال الرحيم الرحمن تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٢٢﴾ [الحَدِيد: ٢٢]. وقال ﷺ: **«كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض**

---

(١) الطبراني في الكبير (٦٤٩) ووثق رجاله صاحب المجمع (٨٢٨٨) وحسنه الألباني في السلسلة (١٦٣٣)

(٢) البخاري (٥٦٧٨) دون جملة **«علمه من علمه...»** فإنها عند أحمد (٤/ ٢٧٨) وحسنه محققوه، والحاكم (٤/ ١٩٦)

(٣) مسلم (٢٢٠٤)

بخمسين ألف سنة»(١). وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قدم على النبي ﷺ سبيٌ، فإذا امرأة من السبي وجدت صبيًّا فأخذته، فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال النبي ﷺ: **«أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار»؟** قلنا: لا وهي تقدر ألا تطرحه، فقال: **«لله أرحم بعباده من هذه بولدها»**(٢).

وتذكّر أن الله تبارك وتعالى قد أراد بك خيرًا بمرضك وبلائك، قال ﷺ: **«من يرد الله به خيرًا يُصِبْ منه»**(٣). أي يبتليه بالمصائب ليثيبه عليها. والابتلاء بالمرض وغيره من أمارات محبة الله لعبده؛ قال ﷺ: **«إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط»**(٤).

واعلم ـ رحمني الله وإياك ـ أن هذه الدار فانية ومتعها زائلة، وأن هناك دارًا أعظم منها خطرًا، وأجلّ منها قدرًا، قال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ

---

(١) مسلم (٢٦٥٣)

(٢) البخاري (٥٩٩٩)

(٣) البخاري (٥٦٤٥)

(٤) الترمذي (٢٣٩٦) وقال حديث حسن وصححه الألباني في صحيح الترمذي. وأخرجه ابن ماجه (٤٠٣١) باللفظ الثاني فقط.

ﵟٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠ﵞ [الحديد: ٢٠]، وقال تعالى: ﵟيَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٥ﵞ [فاطر: ٥].

وعن عمرو بن عوف الأنصاري رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ إلى البحرين(١) يأتي بجزيتها، فقدم بمال من البحرين، فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة، فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ (٢)فلما صلى رسول الله ﷺ، انصرف، فتعرضوا له، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم، ثم قال: «**أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين**»؟ فقالوا: أجل، يا رسول الله، فقال: «**أبشروا وأمّلوا ما يسرّكم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم**(٣)**، ولكني أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بُسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم**»(٤).

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، قال: جلس رسول الله ﷺ على المنبر، وجلسنا حوله، فقال: «**إن مما أخاف عليكم من بعدي ما يُفتح عليكم**

---

(١) البحرين هي ما تسمى الآن بالمنطقة الشرقية في السعودية، وهي من الأحساء غربًا حتى شاطئ وجزر الخليج العربي شرقًا.

(٢) لأن بعضهم كانت منازلهم بعيدة عن مسجد رسول الله ﷺ ولهم مساجد في دورهم، فصلوا معه ذلك اليوم حين سمعوا بقدوم أبي عبيدة.

(٣) فالرزق مكفول مضمون، ولكن العمل والجنة ليسا كذلك والله المستعان، والمال غرّار فتّان إلا من أخذه بحقّه.

(٤) البخاري ٤/١١٧ (٣١٥٨) ومسلم ٨/٢١٢ (٢٩٦١) (٦)

من زهرة الدنيا وزينتها»(١). وعنه: أن رسول الله ﷺ، قال: «**إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله تعالى مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء»**(٢).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن النبي ﷺ قال: «**اللَّهم لا عيش إلا عيش الآخرة»**(٣). وعنه عن رسول الله ﷺ قال: «**يتبع الميت ثلاثة: أهلُه وماله وعمله: فيرجع اثنان، ويبقى واحد: يرجع أهله وماله ويبقى عمله»**(٤).

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «**الجنة أقرب إلى أحدكم من شِرَاك نعله، والنار مثل ذلك»**(٥). وقال ﷺ: «**يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيُصبغ في النار صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم: هل رأيت خيراً قط؟ هل مرّ بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب. ويؤتى بأشد الناس بؤسًا في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ في الجنة صبغة، فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مرّ بك شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ما مرّ بي بؤس قط، ولا رأيت شدّة قط»**(٦).

---

(١) البخاري ١٤٩/٢ (١٤٦٥) ومسلم ١٠١/٣ (١٠٥٢) (١٢٣)

(٢) مسلم ٨٩/٨ (٢٧٤٢)

(٣) البخاري ١٠٩/٨ (٦٤١٣) ومسلم ١٨٨/٥ (١٨٠٥) (١٢٧)

(٤) البخاري ١٣٤/٨ (٦٥١٤) ومسلم ٢١١/٨ (٢٩٦٠) (٥)

(٥) البخاري ١٢٧/٨ (٦٤٨٨) والشِّرَاك: أحد سيور النعل.

(٦) مسلم (٢٨٠٧). والصبغة: أي: يغمس غمسة.

وقال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ناصحًا:

ومن يذُقِ الدنيا فاني طعِمتُها   وسيقَ الينا عذْبُها وعَذَابُها

فلم أرَهَا إلا غُرورًا وباطلًا   كما لاح في ظهر الفلاةِ سَرَابُها

وما هي إلا جيفةٌ مستحيلةٌ   عليها كلابٌ همّهُنّ اجتذابُها

فان تجتَنِبْها كنتَ سِلْمًا لأهلِها   وأنْ تجتذِبْهَا نازعتكَ كِلابُها

فطوبى لنفسٍ أُولِعتْ قعرَ دارها   مغلّقةُ الأبواب مُرخًى حجابُها

وعليه؛ فالمؤمن يرضى بتدبير مولاه الرحيم الرفيق البر اللطيف، ولا بد للمؤمن أن يستبشر في كل أحواله، شاهدًا برضاه بقسمة مولاه، متخذًا من بلائه مطية لبلوغ مرماه الأخروي، وتحقيق هدفه السماوي، فعجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا، وإن أصابته ضراء فصبر فكان خيرًا، كما أخبر رسول الله ﷺ عن حال المؤمن الصابر الراضي بقضاء الله تعالى. وقديما قال لبيد:

فاقنعْ بما كتَبَ المَليكُ فإنّما   قَسَمَ الخلائقَ بيننا علاّمُ

ودومًا: تفاءل بالأحسن، وانتظر الأفضل، وكن على استعداد للأسوأ حتى لا تنكسر، وكن حسن الظن بمن كل الخير منه.

سيفتحُ اللهُ بابًا كُنتَ تحسبهُ   من شدّة اليأسِ لم يُخلقْ بمفتاحِ

وقال الشيخ عائض القرني: «إنَّ في المصائبِ مسائل: الصبرَ والقدرَ والأجرَ، وليعلمِ العبدُ انَّ الذي أخذ هو الذي أعطى، وأنَّ الذي سلب هو الذي منح.

لا تعصِ الله من أجل من أحببت؛ فقلبُ من أحببتَ بيد من عصيتَ، وتذكر بأن الخذلان دائماً يأتيك من الجهة التي عصيت الله لأجلها.

ولا بد للعسر من يسر، فقد قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشَّرح: ٥ - ٦] (١). وهذه سنة الله تعالى في خلقه. ما جعل عسرًا إلا جعل بعده يسرًا، والأمراض مهما طالت وعظمت لا بد لأيامها أن تنتهي، ولا بد لساعاتها ـ بإذن الله ـ أن تنجلي يقول الشاعر:

ولرب نازلةٍ يضيق بها الفتى ... ذرعا وعند الله منها المخرجُ
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها ... فرجت وكان يظنها لا تفرجُ

قال وهب بن منبه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا يكون الرجل فقيهًا كامل الفقه حتى يعد البلاء نعمة ويعد الرخاء مصيبة، وذلك أن صاحب البلاء ينتظر الرخاء

---

(١) قاعدة لغويّة أصوليّة: النّكرة إذا أعيدت معرفة كانت الثّانية عينَ الأولى، وإذا أعيدت نكرة كانت الثّانية غير الأولى.
والمعرفة إذا أعيدت معرفة كانت الثّانية عين الأولى، وإذا أعيدت نكرة كانت الثّانية غير الأولى. وانظر: موسوعة القواعد الفقهية، محمد صدقي آل بورنو (١١/١٢٥٠)

وصاحب الرخاء ينتظر البلاء»[١]. وقال عبدُ بنُ حُميد لرجل يشكو إليه العسرة في أموره:

ألا يا أيّها الذي في عسره أصبح إذا اشتدّ بك الأمرُ فلا تنسَ (ألم نشرح)[٢]

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقال النَّبيُّ ﷺ: **«لن يَغْلِبَ عُسرٌ يُسرين»**[٣]. وروي أنّ أبا عبيدة حُصِرَ بالشام فكتب إليه عمرُ يقول: «مهما ينْزل بامرئ شدَّةٌ يجعل الله بعدها فرجًا، وإنَّه لن يَغلِبَ عسرٌ يُسرين، وإنَّه يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٢٠٠﴾ [آل عِمرَان: ٢٠٠]»[٤].

---

(١) لا تحزن (٢ / ٤٣)

(٢) وقال محمد عبد الله القاضي شاعر عنيزة:

والله وَعَد عسر الليالي بيسرها جانا دليل بـ(ألم نشرح) وهو كافي

(٣) أحمد (٢/٢٢٨) وقال العجلوني في كشف الخفاء (٢ / ١٤٩) (٢٠٧٩): «رواه الحاكم والبيهقي في الشعب عن الحسن مرسلًا، ورواه الطبراني عن معمر والعسكري في الأمثال وابن مردويه عن جابر بسند ضعيف». وضعفه الألباني في الجامع (٤٧٨٤) وقال محمد الحوت في أسنى المطالب (١ / ٢٣٠): «روي عن الحسن مرسلًا، وله طرق ضعيفة. قال العراقي: مراسيل الحسن عندهم كالريح. ورفعه لم يصح وإن ذكره المفسرون».

(٤) مالك في الموطأ برواية الليثي (١٢٨٨) وابن أبي شيبة (٣٣٨٤٠) وحسنه الحافظ في تغليق التعليق (٤ / ٣٧٢)

ومن لطائف أسرار اقتران الفرج بالكرب واليُسر بالعسر: أنَّ الكربَ إذا اشتدَّ وعَظُمَ وتناهى، وحصل للعبد الإياسُ من كَشفه من جهة المخلوقين، وتعلّق قلبُه بالله وحده، وهذا هو حقيقةُ التوكُّل على الله، وهو من أعظم الأسباب التي تُطلَبُ بها الحوائجُ؛ فإنَّ الله يكفي من توكَّل عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطَّلَاق: ٣].

تَوَكَّلْ علَى الرَّحْمَنِ فِي الأمرِ كُلِّهِ فَـمَا خَابَ حَقًّا مَنْ عَلَيْهِ تَـوَكَّلَا

وعن محمد بن إسحاق قال: جاء مالكٌ الأشجعي إلى النَّبيِّ ﷺ، فقال: أُسِرَ ابني عوفٌ! فقال له: **«أرسل إليه أنَّ رسول الله ﷺ يأمُرُكَ أنْ تُكثِرَ من قول: لا حول ولا قوَّةَ إلا بالله»**، فأتاه الرسول فأخبره، فأكبَّ عوفٌ يقول: لا حولَ ولا قوَّةَ إلاَّ بالله، وكانوا قد شدُّوه بالقِدِّ فسقط القِدُّ عنه، فخرج فإذا هو بناقةٍ لهم فركبها، فأقبل فإذا هو بسَرحِ القوم الذين كانوا شدّوه، فصاح بها، فأتبعَ آخرها أوَّلها، فلم يفاجأ أبويه إلَّا وهو ينادي بالباب، فقال أبوه: عوفٌ وربِّ الكعبة، فقالت أمه: واشوقاه! وعوفٌ كيف يقدم؛ لما هو فيه من القِدّ؟!

فاستبقَ الأبُ والخادمُ إليه، فإذا عوفٌ قد ملأ الفناء إبلًا. فقصَّ على أبيه أمرَه وأمرَ الإبل، فأتى أبوهُ رسولَ الله ﷺ، فأخبره بخبرِ عوفٍ وخبرِ الإبل، فقال له رسول الله ﷺ: **«اصنع بها ما أحببتَ، وما كنت صانعًا بإبلك»**،

ونزل: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطَّلَاق: ٢-٣].(١)

قال الفضيل: «والله لو يئست مِنَ الخلق حتَّى لا تريد منهم شيئًا، لأعطاك مولاك كُلَّ ما تُريد».

رُبَّمَا تَجْزَعُ النُّفُوسُ لأمْرٍ وَلَهَا فُرْجَةٌ كَحَلِّ العِقَالِ

وأيضًا فإنَّ المؤمن إذا استبطأ الفرج، وأيس منه بعدَ كثرة دعائه وتضرُّعه، ولم يظهر عليه أثرُ الإجابة يرجع إلى نفسه باللائمة، وقال لها: إنَّما أُتيتُ من قِبَلِكَ، ولو كان فيك خيرٌ لأُجِبْتُ. وهذا اللومُ أحبُّ إلى الله من كثيرٍ من الطَّاعاتِ، فإنَّه يُوجبُ انكسار العبد لمولاه واعترافه له بأنَّه أهلٌ لما نزل به من البلاء، وأنَّه ليس بأهلٍ لإجابة الدعاء، فلذلك تُسرِعُ إليه حينئذٍ إجابةُ الدعاء وتفريجُ الكرب، فإنَّه تعالى عندَ المنكسرةِ قلوبهم من أجله.

قال وهب: «تعبَّدَ رجل زمانًا، ثم بدت له إلى الله حاجةٌ، فصام سبعين سبتًا، يأكلُ في كُلِّ سبتٍ إحدى عشرة تمرة، ثم سأل الله حاجته فلم يُعطَها، فرجع إلى نفسه فقال: منكِ أُتيتُ، لو كان فيك خيرٌ أعطيت حاجتك، فنَزل إليه عند ذلك مَلَكٌ فقال: يا ابنَ آدم ساعتُك هذه خيرٌ من عبادتك التي مضت، وقد قضى الله حاجتك»(٢). ولبعضِ المتقدمينَ في هذا المعنى شعرٌ:

---

(١) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٢٤٤٦) وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (٩٧٢)

(٢) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا (١/ ٩٤)

عسى ما ترى ألّا يَدومَ وأنْ تَرَى ... لَـهُ فَرَجًا مِمَّا أَلَحَّ بِهِ الدَّهرُ

عَسى فَرَجٌ يأتِي بِهِ الله إنَّه ... لَـهُ كُلَّ يَومٍ في خَليقَتِهِ أَمْرُ

إذا لاحَ عُسْرٌ فارجُ يُسرًا فإنَّه ... قَضَى الله أنَّ العُسرَ يَتبَعُهُ اليُسرُ»[(١)]

❁❁❁❁

(١) جامع العلوم والحكم (٢١/ ٣٩ - ٤٢) باختصار.

علوُّ الهِمَّة بالرّضا

قد يبدو لغير المتأمل أن الرضا يضاد علوّ الهمة، والحق أنه لا تعارض بينهما البتة، ذلك أن الرضا لا يمنع العمل في جلب مصالح العبد في دينه ودنياه، والرضا يحوط زمن العمل من جهاته الثلاث؛ قبله وأثناءه وبعده: فيكون الرضا سابقًا له بتوطين النفس عليه واعتقاده أوّلًا، ويكون مصاحبًا له باستشعاره في تفاصيل العمل والقضاء ثانيًا، ثم باستقرار وسكون القلب على ما بعده ثالثًا، فيكون العبد الموفق قد ركب سفينة الرضا ودثّر قلبه بلباسه في كل مرحلة.

فالرضا لا يعني ترك المنافسة في خيرات الآخرة وخيرات الدنيا، فالرضا بالله لا يمنع التاجر ولا الفلّاح ولا الموظف ونحوهم من الازدياد من توسيع معاشهم شريطة ألا يسخطوا تدبير الله تعالى لهم، قال سبحانه: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [المُلك: ١٥]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القَصَص: ٧٧]. فالله تعالى قد جعل الدنيا وسيلة لتحقيق رغائب الآخرة، والموفق الحازم هو من لم يركن إليها، إنما يجعلها وسيلة ومعبرًا لتحصيل رضا ربه والدرجات العلى من الجنة.

هذا؛ وقد تعلو همّة الراضي بربه حتى يكتفي بأمور الآخرة عن فضول دنياه، ويكتفي من الدنيا ببلغة تعينه على الطاعة، فيضع الدنيا حيث وضعها الله تعالى، ويرفع الآخرة حيث رفعها سبحانه. فمُحَرِّك الزهد في الدنيا هو تمام الرضا بالله، فإن العبد لما اكتمل رضاه بربه اكتفى به عما سواه. ومن هنا كان

الرضا بالله أعظم سبب في رفع الهمّة الصحيحة حقًّا، فالولوغ في السفساف ليس من الهمة في شيء، والتخوّض في المعاصي ليس منها، إذ حقيقة الهمة: السعي لتحصيل معالي الأمور. ووظيفة الرضا هنا: تصويب مسار البصيرة، ورفع سقف الرغبة. فأغمض عينيكَ بُرْهَةً، كَيْمَا تتأمّل حقيقتَك، وكن كما قيل: كيفَ يَرَى هؤلاءِ الذين لا يُغمِضُونَ عيونَهُم؟! والمهديُّ من هداه الله.

ولؤلؤتـــــانِ فِي قَلْبِــــــي تَـرَى مَـا لا تَـرَى الأَلْحَـاظُ

وبما أن الهمّة مشتقة من الهمّ - وفيه من الإزعاج والمشقّة والثّقل ما فيه - فإنّ الرضا هو العقار المريح لقلق الترقّب، فالقلب والجوارح تعملان بجدٍّ لتحصيل معالي الأمور، والمسارعة في أنواع القُرَبِ؛ والمنافسة على منازل الجنة العالية، والمسابقة لرضوان الله تعالى، والقلب في كل ذلك مطمئن بربه، ساكنٌ إليه وبه، راضٍ تمام الرضا بتقديره، لعلمه أن ما يختاره ربه له خير مما يختاره لنفسه، لأنه قد بذل وسعه في مرضاته ورضي به وعنه.

كَـــريمٌ لا يُغَـــيِّرُهُ صَـــباحٌ عَـنِ الخُلُـقِ السَـنِيِّ وَلا مَسـاءُ

قال ابن الحاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلم أنّ القوم لـمّا وصلوا إلى ما وصلوا إليه؛ لم يغتروا بدار الغرور، ولم تكن لهم رغبة إلا خوف فوات ما شوّق إليه وعد القرآن ووعيده من الخلود في دار النعيم أو دار الهوان، إن في هذا لبلاغًا لقوم عابدين.

إنما دعا إلى دار السلام مَن خَلَقَها وزيّنها وجلّاها، فخُض أيها المريد

الغمرات شوقًا إلى نعيمها، وأجب الداعي الصادق الوفيّ إلى ما وعد ودعاك إليه، فإنه قد حذّرك نفسك وهواك، وأنذرك حلول دار سخطه.

فاجعل الموت ضجيعك، والزهد قرينك، والجدّ سلاحك، والصدق مركبك، والإخلاص زادك، والخوف من الله على مقدِّمتك، والشوق إلى الجنة صاحب لوائك، والمعرفة على ميمنتك، واليقين على ميسرتك، والثقة على ساقتك، والصبر أمير جندك، والرضا وزيرك، والعلم مشيرك، والتوكل درعك، والشكر خليلك؛ ثم انفر إلى عدوّك وصافِفْهُ بجميع ما ذكرتُ لك، وطب نفسًا عن دار الهموم والأحزان إلى دار البقاء والسرور مع الخيرات الحسان، والله المستعان، والحمد لله رب العالمين، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾ [الحُجُرَات: ١٨].

فلينظر العبد إلى الله تعالى في كل أمره، فإنه من نظر إلى نفسه أو إلى أحد من المخلوقين بأملِ رجاء منفعته كان عُزُوبًا لقلبه عن الله، وكان منقوصًا عن منزلة الواثقين المؤَيَّدين، وقد قال الله عز وجل لداود عليه السلام: «يا داود إني قد آليت على نفسي ألا أثيب عبدًا من عبادي إلا عبدًا قد علمت من طلبته وإرادته وإلقاء كنفه بين يدي أنه لا غنى له عنّي، وأنه لا يطمئن إلى نفسه بنظرها وفعالها إلا وكلته إليها. أَضِف الأشياء إليّ، فإني أنا مننتُ بها عليك» (١).

(١) المحبة لله لأبي إسحاق الختلي (١/١٠٦) (٢٤٨) وهو من أحاديث بني إسرائيل.

واعلم أنّ العباد قد تفاوتوا وتباينوا، فباختيارهم نظر الله تعالى على اختيار أنفسهم زادهم ذلك سرعة وقربًا من معونة الله تعالى لهم وصنعه وتسهيله عليهم، وبالسهو عنه واختيارهم أنفسهم على نظر الله تعالى زادهم ذلك بطئًا وبعدًا من معونة الله تعالى لهم وصنعه وتسهيله عليهم، فكن في نظرك إلى ربك ناظرًا بأن لا تؤمل غير صنعه ولا ترجو غير معونته، واثقًا باختياره، فإن ذلك أقرب وأسرع في معونته لك.

فإن الذين قلّدوا أمورَهم ربَّهُم ووثقوا به ولجأوا إليه قد أماتوا من قلوبهم تدبير أنفسهم، وجعلوا الأمور عندهم أسبابًا مع قيامهم بها والمحافظة عليها، فأولئك ذهبوا بصفو الدنيا والآخرة لسكون قلوبهم إليه، فوجدوا بذلك الرَّوحَ والراحة، فهم حماة الدين والعلماء بالله، قد فاقوا على من سواهم باطمئنانهم به وسكونهم إليه، فأوجب لهم صنعه(١) وأقام قلوبهم على منهاجه، فما تقلبوا فيه من الأمر فعلى الرضا والطمأنينة، ومَن سواهم من الخلق في مؤنة وتعب من أنفسهم حيث اختاروها وتوكلوا عليها؛ فأورثتهم الهم والغموم.

وأما أهل العبودية لله فهم الذين قلّدوه أمورهم وخرجوا عن طباع العباد لِمَا تبيّن لهم من خطأ من اختار نفسه، فجعلوا اختيارهم الرضا بما صيرهم إليه مولاهم من أمورهم؛ فزالت الغموم عن قلوبهم؛ فأوجب لهم الصنع والتوفيق في أحوالهم، وأورثهم الغنى والعز في قلوبهم، وسد عنهم أبواب الحاجات إلى المخلوقين، وأتتهم لطائف الله من حيث لا يحتسبون،

---

(١) أي: فضله ومنّته.

وقام لهم بما يكتفون به، ونزّه أنفسهم عما سوى ذلك إكرامًا لهم عن فضول الدنيا، وطهارة لقلوبهم عن التشاغل بما أغناهم عنه، فحصنهم من كل دنس، وأمشاهم في طرقات الدنيا طيّبين موالين له، فهم في السموات أشهر منهم في الأرض، ولأصواتهم هناك دوي ونور يُعرفون به ويحيون عليه، قد رفع أبصار قلوبهم إليه[(١)] وحببهم إلى ملائكته وسائر خلقه.

فهؤلاء قد ملأ الله أسماعهم وأبصارهم وجوارحهم من حبه، فأدّبوا أنفسهم بالعبودية له والدخول في محبته، وذلك أن تأديب الرجل نفسه في مطعمه ومشربه وملبسه يزيد في صلاح قلبه، وتنقاد جوارحه لقلبه، ويقوى عزمه ويقهر هواه، فيقوم عند ذلك مقام أهل القوة، إلى أن يرفعه الله إلى منزلة فوقها حتى يستوي عنده الأخذ والترك، فلا يأسفون على ما فاتهم ولا يفرحون بما آتاهم للغنى الذي وقر في قلوبهم، يزدادون له محبة ومودة وشكرًا له في العلم به والمعرفة به، فعند ذلك رقّت قلوبهم وانقادت أهواؤهم إلى ما قلّ من الدنيا وكفى، فهي لا تطلع إلى غير ذلك، ناظرين إلى ربهم في أمورهم كلها لا إلى الأسباب، نظرهم من غير تفريط في إقامة الأسباب الخالصة من أعمال البر، فإن لبسوا خشنًا أو ليّنًا أو حسنًا أو قبيحًا أو أكلوا طيبًا أو كريهًا أو حلوًا أو مرًّا أو حامضًا أو قليلًا أو كثيرًا لم يغير ذلك من قلوبهم عن الحال التي هي عليها من ذكر ربهم وتعظيمه، وذلك أن قلوبهم عامرة من ذكر الخالق وليس لشيء سواه في قلوبهم ثبوت إلا بالخاطر من غير أن يرسخ أو يثبت، فلم يقم الناس

(١) وهي البصائر، والغالب إطلاق البصر لما في الرأس والبصيرة لما في القلب.

مقامًا أشرف من أن يعلقوا قلوبهم بربهم، ولا أَولى بهم من ذلك، لأنهم أشد الناس محافظة على جمع همومهم في صلاتهم، وجمع ما يتقربون به من ربهم.

إن قاموا عرفوا بين يدي من هم قيام له، وكذلك إن ركعوا أو سجدوا أو تلوا القرآن أو دعوا ربهم، لا تعزب قلوبهم عن ذلك، فبه زكت أعمالهم وصوّبت عقولهم، فهو يتعاهدهم بلطفه ويسُوسُهم بتوفيقه؛ فقلّ عند ذلك خطؤهم وكثر صوابهم، فمن كان يريد الدخول في محبة طاعة الله فلا يكن له ثقة إلا الله، ولا غنًى إلا به، ولا أمل غيره، يرجوه ويتخذه وكيلًا في أموره كلها، راضيًا بقضائه فيما نقله إليه من أموره، راضيًا باختيار الله له، متهمًا رأيه ولِما تسوّل له نفسه، مسلّمًا راضيًا عن الله، غير متجبر ولا متملك فيما أحدث الله من مرض أو صحة أو رخاء أو شدة مما أحب أو كره.

وليكن قلبه بذلك راضيًا لموضع الثقة بربه وحسن الظن به، فإذا كان العبد كذلك ورث قلبه المحبة له والشوق إليه، وصار إلى منزلة الرضا بما كفاه وحماه من الدنيا وإن قل، وأخرج من قلبه مطامع المخلوقين، فاستغنى بالله فجعله الله من أولي الألباب، ثم ألهمه مولاه علمًا من علمه فعرّفه ما لم يكن يعرفه، وعلّمه ما لم يكن يعلم، فعن الله أخذ علمه وبأمر الله جلّ ذكره، تأدب فطهرت أخلاقه لمّا آثر أمر الله ولجأ إليه، فتمت عليه نعمة الله في الدنيا والآخرة.

إذا أذِنَ اللهُ فِي حَاجَـــــــــــــةٍ أتـــاكَ النَّجَـــاحُ بهـــا يـــرْكُضُ

فأولئك المحبوبون في أهل السماوات المعروفون فيها، خفي أمرهم على أهل الأرض وظهر أمرهم لأهل السماوات، لكلامهم هناك دويٌّ، ولبكائهم

حنين تقعقع له أبواب السماء من سرعة فتحها إجابةً لدعائهم، فأعْظِمْ بهم عند الله جاهًا ومنزلة، وأعظم بهم خوفًا من الله وحسن ظن به، فهم مسرورون بربهم قريرة أعينهم طَرِبَةً قلوبهم بذكره مشتاقة ساكنة مطمئنة إليه، تقدموا الناس وانقطع الناس عنهم، وأشرفوا على الناس واشتغل الناس عنهم، فعجبوا من الناس وعجب الناس منهم!

انقطعوا إلى الله بهمومهم وأهوائهم وتعلّقوا به، ولجئوا إلى الله لجأ المستغيثين به المتوكلين عليه، قد تخلصت إليه عقولهم بالمودة؛ فأنزلوا نسيانه معصية محرمة عليهم، فقبلهم واجتباهم ونعّمهم وخصّهم وكفاهم وآواهم وعلّمهم وعرّفهم[1] وأسمعهم وبصّرهم، وحجبهم عن الآفات وحجب الآفات عنهم، وأقامهم مقام الطهارة، وأنزلهم منازل السلامة، وأقام قلوبهم بذكره، فلم يريدوا به بدلًا ولا عنه حِوَلًا، صيانة لديه، وطربًا واشتياقًا إليه، قد أذاقهم من حلاوة ذكره، ليس لهم مسكن غيره، تضطرب قلوبهم عند فقده حتى ترجع إلى موضع حنينها.

ولهم في كل يوم وليلة منه هدايا مجددة، فتارة يغلب على قلوبهم تعظيم ربهم وجلاله، وتارة يغلب على قلوبهم قدرته وسلطانه، وتارة يغلب على

---

(١) ذكر العلم بالله والمعرفة به وكلاهما بمعنى واحد إن افترقا. والجادّةُ استعمال لفظ العلم، وهو مغنٍ كافٍ شافٍ، ولا بأس بلفظ المعرفة، وقد ورد في السنة فلا اشكال فيه.
وعليه؛ فعند أهل السلوك أنّهما إن اجتمعا فيُراد بلفظ العلم بالله: العلم بأسمائه وصفاته وأفعاله تبارك وتعالى، ويراد بالمعرفة به: سلوك القلب مع ربه وأدبه وحاله معه، فالعلم هنا قول القلب، والمعرفة عمله، والله أعلم.

قلوبهم آلاؤه ونعماؤه، وتارة يغلب على قلوبهم تقصيرهم عن واجب حقّه، وتارة يغلب على قلوبهم رأفته ورحمته. ولهم في كل تارة دمعة ولذة، وفي كل دمعة ولذة فكرة وعِبرة، وقلوبهم مستقلة به عما سواه. فهم يُسقون من كل تارة مشربًا سائغًا يذيقهم لذته، ولهم في كل مقامِ علمٍ زيادةٌ يعرّفهم ما يحدث لهم في قلوبهم من الزيادة، فلو رأيتهم وقد انقطعت آمال الخلق عنهم، وأفضوا إلى الله جل ذكره بجميع رغباتهم، وانزاحت الأشياء الشاغلة عن قلوبهم، فصمّت عنها أسماعهم، وانصرفت أبصار قلوبهم إليه، حتى إذا جنّهم الليل وزجرهم القرآن بعجائبه من وعده ووعيده وأخباره وأمثاله شربوا من كل نوع كأسًا من الزجر والتحذير والأخبار والأمثال والوعد والوعيد، ووجدوا حلاوة ما شربوا.

حتى إذا صفا يقينهم ارتفعوا إلى عظمة سيدهم وجلال مولاهم، فخضع كل عضو منهم لله، وخشعت كل جارحة منهم لسكونها إليه، غير منتشرة عليهم همومهم، بل كل ذلك لذاذة لاستماعه، فقد كشف لهم القرآن عن أموره، وكشف لهم عن عجائبه فيفهمونه.

فهم يزدادون لله ذكرًا ومودة ومحبة في كل ما امتحنهم به من أمر الدنيا والآخرة، فقد أعرضوا عن كل نعيم عاجل أو آجل، واشتغلوا عن النعيم بذكر مولاهم، وكل ذلك منّةٌ منه وتفضّلٌ عليهم، فهم أدلّاء لعباده، وأعلامٌ في بلاده، فهم بركةٌ بين ظهرانينا، يحبّون الله ويحبون ذكره، أقاموا مشيئتهم فيما وافق محبة ربهم، يغضبون لغضبه، ويُحبون لمحبته.

خفّتْ عليهم مؤنة الدنيا فلم ينافسوا فيها أحدًا، فتلك حالاتهم في المطعم والملبس ما تهيأ أكلوه ولبسوه، ورثوا نور الهدى فأبصروا مواضع حيل إبليس ومكره، فكسروا عليه كيده، ودلّوا الناس على مواضع مكره، فهم نصحاء الله في عباده، وأمناؤه في بلاده، ثم أسكن محبتهم في ملكوت السماوات في عليين، فأحبهم وحببهم إلى ملائكته»[١].

وقال بعض العلماء: «من أعظم ما مُدحت به الجنة قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ١٠٨﴾ [الكهف: ١٠٨]، لأن الإنسان لو هَيَّأ قصرًا في الدنيا من ذهب؛ وجمع فيه كل ما يحبه ويملأ عينه ويسرّ قلبه؛ وأقام في ذلك المكان بعينه مدة؛ فإنه يملّه ويودّ لو انتقل إلى هيئة أخرى من التلذّذ، إلا منزلته في الجنة؛ فإنه لِفَرْطِ ما هو فيه من النعيم الذي لا يُمل ولا يبلى، والسرور الذي لا يُسأم ولا يفنى، فإنه لا يبتغي عن منزلته حِولًا، ولا عنها بدلًا»[٢].

وتأمل هذه الأحاديث الثلاثة: ففي صحيح البخاري[٣] عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة، وآتى الزكاة وصام رمضان، كان حقًّا على الله أن يدخله الجنة، هاجر في سبيل الله، أو جلس في أرضه التي ولد فيها»**. قالوا: يا رسول الله، أفلا نبشر الناس بذلك؟ قال: **«إن في الجنة مئة درجة أعدها الله للمجاهدين في**

---

(١) المدخل لابن الحاج (٣/ ٣٢-٣٩) مختصرًا.
(٢) وانظر: تفسير القرآن العظيم للسخاوي (١/ ٥٠٤)
(٣) البخاري (٤/ ١٦) (٢٧٩٠)

سبيله، كل درجتين بينهما كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجّر أنهار الجنة».

وفي صحيح مسلم(١) قال ﷺ: **«يا أبا سعيد؛ من رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد نبيًّا وجبت له الجنة»** فعجب لها أبو سعيد، فقال: أعدها علي يا رسول الله، ففعل. قال: **«وأخرى يرفع الله بها العبد مئة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض»** قال: وما هي يا رسول الله؟ قال: **«الجهاد في سبيل الله».**

وفي صحيح البخاري(٢): إن أم الربيع بنت البراء ـ وهي أم حارثة بن سراقة ـ أتت النبي ﷺ فقالت: يا نبي الله؛ ألا تحدثني عن حارثة ـ وكان قتل يوم بدر أصابه سهم غَرْبٌ(٣) ـ فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان في غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء. قال: **«يا أم حارثة؛ إنها جنان في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى».** قال ابن تيمية: «فقد بين في الحديث الأول أن العرش فوق الفردوس الذي هو أوسط الجنة وأعلاها، وأنّ في الجنة مئة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض والفردوس أعلاها، والحديث الثاني

---

(١) مسلم (١٨٨٤)، والنسائي (٦/ ١٩ ـ ٢٠)

(٢) البخاري ٤/ ٢٤ (٢٨٠٩)

(٣) أي: مجهول المصدر، يقال: سَهْمٌ غَرْبٌ: لما لا يُدْرَى راميه، والجمع: غُرُوب.

يوافقه في وصف الدرج المئة، والحديث الثالث يوافقه في أن الفردوس أعلاها»[(١)].

نمشي حفاةً على الرَّمضاءِ تأسُرُنا ... فردوسُ ربّي فلا الدنيا تدانيها

فَشَمِّرْ ذَيلَ العَزمِ عن ساقِ الحَزمِ، لك الله!

وارحمِ اللّهم ابن المبارك إذ قال حاثًّا على الجهاد مرغبًا عَلِيَّاتِ النفوس لِعِلِّيين، عسى سامعه أن يستمدَّ عزمًا نبا، ويسترِدَّ قوةً عَزَبت، فينهض لفلاحه نُهُوضًا لا قُعُودَ بعده:

يا عابِدَ الحَرَمينِ لَوْ أبْصَرْتَنا ... لَعَلِمْتَ أنَّكَ في العِبادَةِ تَلْعَبُ

مَن كانَ يَخْضِبُ خَدَّهُ بدُمُوعِهِ ... فَنُحُورُنا بِدِمائِنا تَتَخَضَّبُ

أوْ كانَ يُتْعِبُ خَيْلَهُ في باطِلٍ ... فَخُيُولُنا يَوْمَ الصَّبيحَةِ تَتْعَبُ

رِيحُ العَبيرِ لَكُمْ ونَحْنُ عَبيرُنا ... رَهَجُ السَّنابِكِ[(٢)] والغُبارُ الأطْيَبُ

ولَقَدْ أتانا مِن مَقالِ نَبِيِّنا ... قَوْلٌ صَحِيحٌ صادِقٌ لا يُكْذَبُ

لا يَسْتَوِي وغُبارُ خَيْلِ اللهِ في ... أنفِ امْرِئٍ ودُخانُ نارٍ تَلهبُ[(٣)]

---

(١) الرسالة العرشية (١ / ١١) مجموع الفتاوى (٦ / ٥٥٥)

(٢) الرَّهَج: الغبار، والسنابك: جمع سنبك، طرف حافر الخيل وجانباه من قدام.

(٣) يشير إلى الحديث الذي أخرجه أحمد (٢ / ٢٥٦) والنسائي (٦ / ١٢) وغيرهما من حديث أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان** =

هَــذا كِتــابُ اللهِ يَنْطِــقُ بَيْنَنــا ... لَـيْسَ الشَّـهِيدُ بِمَيِّـتٍ لاَ يُكْـذَبُ

فقرأه الفضيل وبكى، ثم قال: «صدق أبو عبد الرحمن ونصح» (١).

وعلى المؤمن أن يكون حسن الظن بنصر الله تعالى لدينه مهما ادلهمّت الخطوبُ، وتكاثرت الحشودُ، وتنادت كتائب الضلال، ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢١﴾ [المُجَادلَة: ٢١].

أبشر خليلي فقد أجْلَتْ لنا الكُتُبُ ... نصرٌ من الله في الكفّار يلتهبُ

أَنْجِدْ أُخيَّ ولا تلوِ على ضَعَةٍ ... واشفِ صُدورًا شواها القهرُ

أشرِقْ بوجهكِ قد حانتْ بوادرُه ... وعدٌ من الله للأحرار يقتربُ

تنزيلُ مرحمةٍ تنزيلُ ملحمةٍ ... تجنيدُ ألويةٍ صَمْصَامُها النُّجُبُ

نبراسها العلمُ والتقوى تؤجِّجُها ... فرقانُها سائقٌ إن صاحتِ النُّوَبُ

أوّاهُ ما أروعَ الأبطال إذ حَمَلوا ... همّ الديانةِ إن خافوا وإن سَغَبُوا

ما قال واحدُهُمْ همّي الحطام فقد ... صاغتْ مبادئُهُمْ طه فما انقلبوا

تناثرَ العلمُ شهدًا من ثغورهمُ ... أكرمْ بهِ منبعًا للدين ينسكبُ

إن تُبْلَ معركةٌ تلقَ الكرامَ بها ... في ساعة الحربِ دومًا غِيلُهُم أَشِبُ

= جهنم في جوف عبد أبدًا، ولا يجتمع الشحُّ والايمان في قلب عبد أبدًا». وصححه ابن حبان (١٥٩٧)، وحسنه الأرناؤوط.

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٨/ ٣٧٨ - ٤٢١).

إذا المبــــادئُ لم تُحْمَـــلْ مُكرّمـــة … عـلى الرِّقـاب فـلا العليـاءُ تُرتَقَـبُ

حتى في أمور التعامل مع أراذل الخلق فيحسن الرضا بقضاء الخالق، والتفاؤل بحسن اختيار الله تعالى لعبده في سابق وقادم أيامه، قال أبو القاسم الشابّي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقد أصابه مرض خطير مُتلف، وكان قد ابتلي بمن يعاديه ويؤذيه، وتأمّل شمم وعزة وغنى من اكتفى بالله عمن سواه:

سَــأعيشُ رَغْــمَ الــدَّاءِ والأَعــداءِ … كالنَّسْـرِ فوقَ القِمَّةِ الشَّمَّاءِ

أَمشي بروحِ حـــالمٍ متَوَهِّجِ … في ظُلمـــــــــــةِ الآلامِ والأَدواءِ

النُّــور في قلبــي وبــينَ جــوانحي … فَعَــلامَ أخشــى السَّــيرَ في الظلــماءِ

أمَّا إذا خمدت حياتي وانقضى … عُمُــري وأخرسَــتِ المنيَّــةُ نــائي

وخبـا لهيـبُ الكـون في قلبـي الَّـذي … قـد عـاش مِثْـلَ الشُّـعْلَةِ الحمـراءِ

فأنـــا السَّـــعيد بـــأنَّني مُتحـــوِّلٌ … عــن عــالمِ الآثــامِ والبغضــاءِ

وأَقــولُ للجَمْــعِ الَّــذين تجشَّــموا … هَــدْمي وودُّوا لــو يخِــرُّ بنــائي

ورأوْا عـلى الأَشـواكِ ظـلِّيَ هامِـدًا … فتخيَّلـــوا أنِّي قضـــيْتُ ذَمـــائي

وغـدوْا يَشُـبُّون اللَّهيـبَ بكـلِّ مـا … وجـدوا ليشـوُوا فوقَـهُ أشـلائي

ومضَــوْا يَمُــدُّونَ الخِــوَانَ ليــأكلوا … لحمــي ويرتشـفوا عليـه دِمـائي

إنِّي أقولُ لهمْ ووجهي مُشرقٌ … وعــلى شــفاهي بَسْــمَةُ اســتهزاءِ

إنَّ المعــــاوِلَ لا تَهُــــدُّ منـــــاكبي والنَّــــارَ لا تــــأتي عــــلى أعضـــائي

فــارموا إلى النَّــار الحشــائشَ والعبـوا يا مَعْشَرَ الأَطفالِ تحتَ سَمائي

وإذا تقصــفّتِ العَواصــفُ وانتشــى بـــاهولِ قلْـــبُ القبَّـــةِ الزَّرقـــاءِ

ورأيتمــــوني طــــائرًا مــــترنِّمًا فــوقَ الزَّوابــعِ في الفَضــاءِ النَّــائي

فــارموا عــلى ظــلِّي الحجــارةَ واختفُــوا خَــوْفَ الرِّيــاحِ الْسُّــودِ والأَنــواءِ

وهنــاكَ في أمــنِ البيــوتِ تطــارحوا غَـــثَّ الحـــديثِ وميِّـــتَ الآراءِ

وترنَّمـــوا مـــا شـــئتمُ بِشَـــتَائمي وتجــاهَروا مــا شــئتمُ بعِــدائي

أمَّـــا أنـــا فـــأُجيبكمْ مِـــنْ فـــوقكمْ والشَّــمسُ والشَّــفقُ الجميــل إزائـي

مَــنْ جَــاشَ بــالوحي المقــدَّسِ قلبُــه لم يحتفـــل بحِجَـــارةِ الفلتـــاءِ

طرقُ تحصيلِ الرضا بالله تعالى

من لطف الله تعالى بعباده أن يسّر لهم طرق الخير وسهّل ميادين البرّ، ومن أعظم ذلك الرضا به تبارك وتعالى، فما أمرَ الله بشيء إلا وقد هيأ في المبدأ قوّةً كامنة في نفوس البشر أجسادًا وعقولًا وأرواحًا على إطاقته، ولكن الموفقون منهم هم من اختاروا فعله إرادة منهم وطاعة وبرًّا، فدينه ـ بحمده ـ يسير، قال تبارك وتعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البَقَرَة: ١٨٥]، وقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] وقال نبيه ﷺ: **«إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم[(١)]»**[(٢)].

(١) الاستطاعة نوعان: استطاعة قوى عليها مناطُ التكليف، ومنها هذا الحديث، واستطاعة توفيق وإمداد، ومنه قوله تعالى: ﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾ [هود: ٢٠] وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا ١٠١﴾ [الكهف: ١٠١]، كما أن الهداية نوعان: هداية إرشاد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ﴾ [فُصِّلَت: ١٧]، وهداية توفيق، ومنه ومما قبله قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ [الفَاتِحَة: ٦]، وقوله: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١١٨﴾ [الصَّافَّات: ١١٨]

(٢) البخاري ٩/١١٦ (٧٢٨٨)، ومسلم ٧/٩١ (١٣٣٧) (١٣١) فائدة نفيسة: قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تعليقه على هذا الحديث في الجامع: «قوله ﷺ: **«إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»**. قال بعض العلماء: هذا يؤخذ منه أن النهي أشدّ من الأمر؛ لأن النهي لم يرخص في ارتكاب شيء منه، والأمر قيّد بحسب الاستطاعة، وروى هذا عن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ويشبه هذا قول بعضهم: «أعمال البر يعملها البر الفاجر، وأما المعاصي فلا يتركها إلا صديق». وروي

=

=
عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال له: **«اتق المحارم تكن أعبد الناس»**. (رواه الترمذي ٢٣٠٥ وحسنه الألباني في الصحيحة ٩٣٠) وقالت عائشة رضي الله عنها: «من سره أن يسبق الدائب المجتهد فليكف عن الذنوب». وقال الحسن: «ما عبد العابدون بشيء أفضل من ترك ما نهاهم الله عنه».

والظاهر: أن ما ورد من تفضيل ترك المحرمات على فعل الطاعات إنما أريد به على نوافل الطاعات، وإلا فجنس الأعمال الواجبات أفضل من جنس ترك المحرمات؛ لأن الأعمال مقصودة لذاتها، والمحارم مطلوب عدمها ولذلك لا تحتاج إلى نية بخلاف الأعمال، وكذلك كان جنس ترك الأعمال قد يكون كفرًا كترك التوحيد وكترك أركان الإسلام أو بعضها على ما سبق، بخلاف ارتكاب المنهيات فإنه لا يقتضي الكفر بنفسه.

ويشهد لذلك قول ابن عمر رضي الله عنهما: «لَرَدُّ دانق من حرام أفضل من مئة ألف تنفق في سبيل الله». وعن بعض السلف قال: «ترك دانق مما يكرهه الله أحب إلى الله من خمسمئة حجة». وقال ميمون بن مهران: «ذكر الله باللسان حسن، وأفضل منه أن يذكر اللهَ العبدُ عند المعصية فيمسك عنها». وقال ابن المبارك: «لأن أرد درهمًا من شبهة أحب إليّ من أن أتصدق بمئة ألف ومئة ألف حتى بلغ ستمئة ألف». وقال عمر بن عبد العزيز: «ليست التقوى قيام الليل وصيام النهار والتخليط فيما بين ذلك، ولكن التقوى أداء ما افترض الله وترك ما حرم الله، فإن كان مع ذلك عمل فهو خير إلى خير». أو كما قال، وقال أيضًا: «وددت أني لا أصلي غير الصلوات الخمس سوى الوتر، وأن أؤدي الزكاة ولا أتصدق بعدها بدرهم، وأن أصوم رمضان ولا أصوم بعده يوما أبدًا، وأن أحج حجة الإسلام ثم لا أحج بعدها أبدًا، ثم أعمد إلى فضل قوتي فأجعله فيما حرم الله علي فأمسك عنه».

وحاصل كلامهم يدل على اجتناب المحرمات وإن قلّت فهي أفضل من الإكثار من نوافل الطاعات؛ فإن ذلك فرض وهذا نفل». جامع العلوم والحكم (١ / ٩٦)

فمن طرق تحصيل الرضا بالله تعالى:

١- التفكر النافع في لطف الله تعالى في اختياره لك.

فكل مصيبة أخطأت دينك فلا تعدنّها مصيبة، بل هي نعمة في ثوب محنة، وتطهير في سربال بلاء، ورفعة في شكل خفض.

وإنّ هٰهنا ملحظًا جيّدًا في تهوين البلاء على المؤمن، وهو أن يقيس لنفسه ويُقدّر أنّ الله تعالى قد قضى بنزول بلاءات بأعداد محددة، وشِدّات مختلفة، وأزمان متباينة، منها الكبير الثقيل الشديد الطويل، ومنها السهل اليسير السريع، منها ما هو فتنة في الدين، ومنها ما هو شدّة في الدنيا في النفس أو العِرض أو الأحبّة أو المال ونحو ذلك، وقضى أن تنزل هذه البلايا على أشخاص بأعيانهم، فهذا المؤمن قد نزل اسمه في صحيفة البلاءات، وقد اختار الله له أن تكون مصيبته في دنياه لا دينه، ثم جعلها أهون من غيرها من المصائب التي نزلت على غيره من الناس.

قال المنجد حفظه الله: «هناك عباراتٌ أحيانًا ترد على القلب فإذا آمن بها وصل إلى المطلوب. وهناك مقاماتٌ إيمانيةٌ يبلغها الإنسان بقلبه ويأخذ بها أجرًا عظيمًا يرتقي بها عند الله، وهي عبارةٌ عن تفكّراتٍ يفكّر فيها فيهتدي إليها فيأخذ بها فيحصل على المطلوب، فلم يبذل جهدًا، بل هي أشياءٌ تأمليةٌ. فالتفكّر من أعظم العبادات، فإذا تفكّر العبد أن ما يختاره له ربه هو الأحسن والأفضل فقد وصل. فإذا آمن بها الإنسان رضي.

وتحصيل الرضا غير معقّدٍ، وهو أن تؤمن بأن ما اختاره الله لك وقدّره عليك هو أحسن شيءٍ لك، سواءً كان موتُ ولدٍ أو مرضٍ أو تركُ وظيفةٍ. لكن أنت قد تجهل لماذا هو أحسن شيءٍ، أنت لا تعلم لماذا لو أعطاك فليس في صالحك. أنت في حال الفقر لا تعلم لماذا ليس في مصلحتك أن تحصّل المال.. وهكذا. فنتيجة اعتراف العبد بجهله وإيمانه بعلم ربه وأن اختياره له أولى وأفضل وأحسن من اختياره لنفسه هي الوصول إلى الرضا.

فطريق المحبة والرضا تسير بالعبد وهو مستريح، فهناك أناسٌ يعملون ويجهدون وصاحب الرضا بعبادته القلبية يسبقهم بمراحل وهم من خلفه، مع أنه على فراشه وهم يعملون؛ لأنه راضٍ عن الله ويتفكّر في هذا الأمر ويؤمن به؛ فيقترب من الله. وأناسٌ لم يصلوا لهذا المستوى ويعملون ويجهدون!

لذلك أعمال القلوب مهمةٌ جدًّا؛ لأن المرء يمكن يبلغ بها مراتب عند الله وهو قاعدٌ، وهذا لا يعني ألا يعمل ولا يصلي. فأبو بكر ما سبق أهل هذه الأمة لأنه أكثرهم صلاةً وقيامًا في الليل، فهناك أناسٌ أكثر منه في عمل العبادات والجوارح، لكن سبقهم بشيءٍ وَقَرَ في نفسه»[(١)].

٢- إغلاق باب الوساوس في تصرّف الرب بالكليّة.

فمن أسرار بركات الرضا أنه يُسلّم صاحبه من آفات وساوس العقل، فهو مفوّضٌ أمره لربّه بالكلية، قد أغلق قلبه دون واردات إبليس وخبث وساوسه ونجاسات خواطره، فهو راسخ اليقين قوي الإيمان عظيم الرضا،

(١) سلسلة أعمال القلوب، محمد المنجد (٢/ ٢٦-٢٧) بتصرف.

حتى إذا جاءه الرجيم بخواطر سوء من قبيل: كيف لفلان كذا مع فجوره ولك أو لغيرك كذا وكذا، ونحو ذلك، فإنه يدفعها بالاستعاذة منه وبالرضا بربه تعالى. قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيمن ينظر إلى من: يلبس الحرير، ويظلم الناس، والدنيا منصبّة عليه. ثم يرى خلقًا من أهل الدين، وطلاب العلم، مغمورين بالفقر والبلاء، مقهورين تحت ولاية ذلك الظالم. فحينئذ يجد الشيطان طريقًا للوسواس ويبتدئ بالقدح في حكمة القدر!

فيحتاج المؤمن إلى الصبر على ما يلقى من الضرّ في الدنيا، وعلى جدال إبليس في ذلك. وكذلك في تسليط الكفار على المسلمين والفساق على أهل الدين. وأبلغ من هذا إيلام الحيوان، وتعذيب الأطفال، ففي مثل هذه المواطن يتمحّص الإيمان.

ومما يقوّي الصبر على الحالتين النقل والعقل. أما النقل فالقرآن والسنة، أما القرآن فمنقسم إلى قسمين، أحدهما بيان سبب إعطاء الكافر والعاصي، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ [آل عِمرَان: ١٧٨]. ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ [الزُّخرُف: ٣٣]، ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ١٦﴾ [الإسرَاء: ١٦]. وفي القرآن من هذا كثير.

والقسم الثاني: ابتلاء المؤمن بما يلقى كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ﴾ [آل عِمرَان: ١٤٢]، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ

وَزُلْزِلُواْ﴾ [البَقَرَة: ٢١٤]، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ﴾ [التَّوْبَة: ١٦]. وفي القرآن من هذا كثير.

وأما السنة فمنقسمة إلى قول وحال[1]. أما الحال: فإنه ﷺ كان يتقلّب على رمالِ حصيرٍ تؤثّر في جنبه، فبكى عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وقال: كسرى وقيصر في الحرير والديباج، فقال له ﷺ: **«أفي شكٍّ أنت يا عمر؟ ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟»**[2]. وأما القول فكقوله ﷺ: **«لو أنّ الدنيا تساوي عند**

---

(١)

فهوَ المُفَسِّـــرُ للكـــتابِ وإنما نَطَـقَ النبـيُّ لَنَـا بِـهِ عـن ربـهِ

(٢) روى مسلم روايتين لعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في سياق هذا الخبر وسأذكرهما لما فيهما من عظيم العبر: الأولى (١٤٧٩): عن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: لما اعتزل نبيّ الله ﷺ نساءه قال: دخلت المسجد، فإذا الناس ينكتون بالحصى ويقولون: طلّق رسول الله ﷺ نساءه! وذلك قبل أن يؤمرن بالحجاب، فقال عمر: فقلت: لأعلمنّ ذلك اليوم.

قال: فدخلت على عائشة، فقلت: يا بنت أبي بكر؛ أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله ﷺ؟! فقالت: مالي ومالك يا بن الخطاب، عليك بعَيْبَتِكَ.

قال: فدخلتُ على حفصة بنت عمر، فقلت لها: يا حفصة، أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله ﷺ؟! والله لقد علمت أنّ رسول الله ﷺ لا يحبّك، ولولا أنا لطلّقك رسول الله ﷺ، فبكت أشدّ البكاء، فقلت لها: أين رسول الله ﷺ؟ قالت: هو في خزانته في المشربة.

فدخلتُ، فإذا أنا برباح غلام رسول الله ﷺ قاعدًا على أسكُفَّة المشربة، مدلٍ رجليه على نقيرٍ من خشب، وهو جذع يرقى عليه رسول الله ﷺ وينحدر، فناديت: يا رباح، استأذنْ لي عندك على رسول الله ﷺ، فنظر رباح إلى الغرفة، ثم نظر إليّ، فلم يقل شيئًا.

=

=

ثم قلت: يا رباح، استأذن لي عندك على رسول الله ﷺ، فنظر رباح إلى الغرفة، ثم نظر إليّ فلم يقل شيئًا، ثم رفعت صوتي فقلت: يا رباح، استأذن لي عندك على رسول الله ﷺ، فإني أظنّ أنّ رسول الله ﷺ ظنّ أنى جئتُ من أجل حفصة، والله لئن أمرني رسول الله ﷺ بضرب عنقها لأضربنّ عنقها، ورفعت صوتي، فأومأ إليّ: أن ارْقَه.

فدخلتُ على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على حصير، فجلست فأدنى عليه إزارَه، وليس عليه غيره، وإذا الحصيرُ قد أثّر في جنبه، فنظرت ببصري في خزانة رسول الله ﷺ فإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع، ومثلها قرظًا في ناحية الغرفة، وإذا أفيق معلّق. قال: فابتدَرَتْ عيناي!

قال: **«ما يبكيكَ يا بن الخطاب؟»** قلت: يا نبيّ الله، ومالي لا أبكي وهذا الحصير قد أثّر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذاك قيصر وكسرى في الثمار والأنهار، وأنت رسول الله ﷺ وصفوته وهذه خزانتك! فقال: **«يا بن الخطاب، ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟»** قلت: بلى.

قال: ودخلت عليه حين دخلت وأنا أرى في وجهه الغضب، فقلت: يا رسول الله، ما يشقُّ عليك من شأن النساء، فإن كنت طلّقتهن؛ فإنّ الله معك وملائكتُه وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك، وقلّما تكلّمت - وأحمدُ الله - بكلام إلا رجوت أن يكون الله يصدّق قولي الذي أقول، ونزلت هذه الآية آية التخيير: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ [التَّحريم: ٥] ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤﴾ [التَّحريم: ٤]. وكانت عائشة بنت أبي بكر وحفصة تَظَاهَرانِ على سائر نساء النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله، أطلّقتهن؟ قال: **«لا»** قلت: يا رسول الله، إني دخلتُ المسجد والمسلمون ينكتون بالحصى يقولون: طلّق رسول الله ﷺ نساءه، أفأنزل فأخبرهم أنك لم تطلّقهن؟ قال: **«نعم، إن شئت»**. فلم أزل أُحدّثه حتى تحسَّرَ الغضبُ عن وجهه، وحتى كشر فضحك، وكان من أحسن

=

=

الناس ثغرًا. ثم نزل نبي الله ﷺ ونزلت، فنزلتُ أتشبّث بالجذع، ونزل رسول الله ﷺ كأنّما يمشي على الأرض ما يمسّه بيده، فقلت: يا رسول الله، إنّما كنت في الغرفة تسعة وعشرين؟ قال: «**إنّ الشهر يكون تسعًا وعشرين**».

فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي: لم يطلّق رسول الله ﷺ نساءه، ونزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ [النِّسَاء: ٨٣]، فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر، وأنزل الله عز وجل آية التخيير.

وروى مسلم كذلك (١٤٧٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لم أزل حريصًا أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا﴾ [التَّحۡرِيم: ٤] حتى حجّ عمرُ وحججتُ معه، فلما كنّا ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه بالإداوة، فتبرّزَ ثم أتاني فسكبت على يديه فتوضأ، فقلت: يا أمير المؤمنين، من المرأتان من أزواج النبي ﷺ اللتان قال الله عز وجل لهما: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا﴾ [التَّحۡرِيم: ٤] قال عمر: واعجبًا لك يا بن عباس! قال الزهري: كره والله ما سأله عنه ولم يكتمه، قال: هي حفصة وعائشة، ثم أخذ يسوق الحديث قال:

كنّا معشر قريش قومًا نغلب النساء، فلمّا قدمنا المدينة؛ وجدنا قومًا تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلّمن من نسائهم، قال: وكان منزلي في بني أمية بن زيد بالعوالي، فتغضّبتُ يومًا على امرأتي فإذا هي تراجعني، فأنكرتُ أن تراجعني، فقالت: ما تُنكرُ أن أراجعك؛ فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه، وتهجرُه إحداهنّ اليوم إلى الليل؟!

فانطلقتُ فدخلتُ على حفصة، فقلت: أتراجعين رسول الله ﷺ؟! فقالت: نعم، فقلت: أتهجره إحداكنّ اليوم إلى الليل؟! قالت: نعم، قلت: قد خاب من فعل ذلك منكنّ وخسر، أفتأمنُ إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله ﷺ فإذا هي قد هلكت!

=

=
لا تُراجعي رسول الله ﷺ، ولا تسأليه شيئًا، وسليني ما بدا لك، ولا يغرّنك أن كانت جارتك هي أوسم وأحبّ إلى رسول الله ﷺ منك، يريد عائشة.

قال: وكان لي جار من الأنصار، فكنا نتناوب النزول إلى رسول الله ﷺ، فينزل يومًا، وأنزل يومًا، فيأتيني بخبر الوحي وغيره وآتيه بمثل ذلك، وكنّا نتحدّث أنّ غسان تنعلُ الخيل لتغزونا، فنزل صاحبي ثم أتاني عشاء فضرب بابي، ثمّ ناداني فخرجتُ إليه، فقال: حدث أمر عظيم! قلت: ماذا، أجاءت غسّان؟ قال: لا، بل أعظم من ذلك وأطول، طلّق النبي ﷺ نساءه! فقلت: قد خابت حفصة وخسرت، قد كنت أظنّ هذا كائنًا.

حتى إذا صليت الصبح، شددتُّ عليّ ثيابي، ثم نزلت، فدخلت على حفصة وهي تبكي، فقلت: أطلقكن رسول الله ﷺ؟ فقالت: لا أدري، ها هو ذا معتزل في هذه المشربة، فأتيت غلامًا له أسود، فقلت استأذن لعمر، فدخل ثم خرج إليّ، فقال: قد ذكرتك له فصمَتْ، فانطلقت حتى انتهيت إلى المنبر فجلست، فإذا عنده رهط جلوس يبكي بعضهم، فجلست قليلًا ثم غلبني ما أجد، ثم أتيت الغلام فقلت: استأذن لعمر، فدخل ثم خرج إليّ فقال: قد ذكرتك له فصمَتَ، فولّيتُ مدبرًا فإذا الغلام يدعوني فقال: ادخل، فقد أذن لك، فدخلت فسلّمت على رسول الله ﷺ، فإذا هو متّكئ على رمل حصير قد أثّر في جنبه، فقلت: أطلّقت يا رسول الله نساءك؟ فرفع رأسه إليّ وقال: **«لا»**.

فقلت: الله أكبر، لو رأيتَنا يا رسول الله وكنّا معشر قريش قومًا نغلب النساء، فلمّا قدمنا المدينة وجدنا قومًا تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلّمن من نسائهم فتغضّبتُ على امرأتي يومًا فإذا هي تراجعني، فأنكرت أن تراجعني، فقالت: ما تنكرُ أن أراجعك، فوالله إنّ أزواج النبي ﷺ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل، فقلت: قد خاب من فعل ذلك منهن وخسر، أفتأمنُ إحداهن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله ﷺ فإذا هي قد هلكت! فتبسّم رسول الله ﷺ.
=

الله جناح بعوضة(١) **ما سقى كافرًا منها شربة ماء»**(٢).

وأما العقل: فإنه يقوّي عساكر الصبر بجنود منها أن يقول: قد ثبتّت عندي الأدلة القاطعة على حكمة المُقَدِّر، فلا أترك الأصل الثابت لما يظنّه الجاهل خللًا.

ومنها أن يقول: ما قد استهولته أيها الناظر من بسط يد العاصي هي قبضٌ في المعنى، وما قد أثر عندك من قبض يد الطائع بسطٌ في المعنى، لأن ذلك

=

فقلت: يا رسول الله، قد دخلتُ على حفصة، فقلت: لا يغرّنك أن كانت جارتك هي أوسم منك وأحبّ إلى رسول الله ﷺ منك، فتبسّم أخرى. فقلت: أَستأنِسُ يا رسول الله؟ قال: **«نعم»**.

فجلستُ فرفعت رأسي في البيت؛ فوالله ما رأيت فيه شيئًا يردّ البصر إلا أُهُبًا ثلاثة، فقلت: ادع الله يا رسول الله أن يوسّع على أمتك، فقد وسّع على فارس والروم، وهم لا يعبدون الله، فاستوى جالسًا ثم قال: **«أفي شكٍّ أنت يا بن الخطاب؟! أولئك قومٌ عُجّلت لهم طيّباتهم في الحياة الدنيا»**. فقلت: استغفر لي يا رسول الله، وكان أقسم ألا يدخل عليهن شهرًا من شدة موجدته عليهن، حتى عاتبه الله عز وجل.

(١) وهذا الحديث يدل بمفهومه على عظمة الآخرة، وإن الدنيا ليست بشيء إزاءها. ولشيخنا عبد الكريم الخضير حفظه الله جملة مشهورة في ذلك، فكان إذا ذكر الحديث قال: «فكم سيُقسم لك من هذا الجناح يا من تعطي الدنيا همّك؟!»

(٢) ابن ماجه (٤١١٠) والترمذي (٢٣٢٠) وقال: «حديث صحيح غريب». وصححه الألباني في الصحيحة (٩٤٠)

البسط يوجب عقابًا طويلًا، وهذا القبض يؤثر انبساطًا في الأجر جزيلًا، فزمان الرجلين ينقضي عن قريب، والمراحل تطوى، والركبان في السير الحثيث.

ومنها أن يقول: قد ثبت أن المؤمن بالله كالأجير، وأن زمن التكليف كبياض نهار، ولا ينبغي للمستعمَل في الطين إن يلبس نظيف الثياب، بل ينبغي أن يصابر ساعات العمل، فإذا فرغ تنظّف ولبس أجود ثيابه. فمن ترَفَّه وقت العمل ندم وقت تفريق الأجرة، وعوقب على التواني فيما كُلّف، فهذه النبذة تقوّي أزْرَ الصبر.

وأزيدها بسطًا فأقول: أترى إذا أُريد اتخاذ شهداء، فكيف لا يخلق أقوام يبسطون أيديهم لقتل المؤمنين، أفيجوز أن يفتك بعمر إلا مثل أبي لؤلؤة؟ وبعلي إلا مثل ابن ملجم؟ أفيصحّ أن يَقتل يحيى بن زكريا إلا جبارٌ كافر؟ ولو أنّ عين الفهم زال عنها غشاء العَشا؛ لرأت المُسَبِّبَ لا الأسباب، والمقدِّر لا الأقدار، فصبرت على بلائه، إيثارًا لما يُريد، ومن هٰهنا ينشأ الرضا. كما قيل لبعض أهل البلاء: ادع الله بالعافية، فقال: أحبُّه إلي أحبَّه إلى الله عز وجل.

إن كـــان رضـــاكم في ســـهري فســـلامُ الله على وَسَـــنِي»[1]

---

(١) صيد الخاطر (١ / ٢٩)

٣- مقارنة الفائت بالباقي.

وذلك أن ينظر إلى ما أصيب به فيجد ربّه قد أبقى عليه مثله أو أفضل منه، وادَّخر له إن صبر ورضي ما هو أعظم من فوات تلك المصيبة بأضعاف مضاعفة، وأنّه لو شاء لجعلها أعظم مما هي.

فمما يفيد المصاب أن ينظر إلى ما أبقى الله عليه من النعم، فينظر إلى ما أصيب به فيجد ربه قد أبقى عليه مثله أو أفضل منه وادّخر له ـ إن صبر ورضي ـ ما هو أعظم من فوات تلك المصيبة بأضعاف مضاعفة، وأنه لو شاء لجعلها أعظم مما هي.

٤- التأسي بأهل المصائب.

على المبتلى أن يطفئ نار مصيبته ببرد التأسّي بأهل المصائب. ولينظر يمنة فهل يرى إلا محنة؟ ثم ليعطف يسرة فهل يرى إلا حسرة؟ وليعلم أنه في كل واد بنو سعد[1]، وأنه لو فتَّش العالم لم ير فيهم إلا مبتلى؛ إما بفوات محبوب، أو

---

(١) ذكر الضبّي في الأمثال قصة ذلك المثل وهو أن الأضبط بن قريع بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم كان يرى من قومه وهو سيدهم بغيًا عليه وتنقصًا له! فقال: ما في مجامعة هؤلاء خير، ففارقهم وسار بأهله حتى نزل بقوم آخرين، فإذا هم يفعلون بأشرافهم كما كان يفعل به قومه من التنقّص له والبغي عليه، فارتحل عنهم وحلّ بآخرين، فإذا هم كذلك، فلما رأى ذلك انصرف وقال: ما أرى الناس إلا قريبًا بعضهم من بعض، فانصرف نحو قومه وقال: أينما أُوجِّهُ أَلْقَ سعدًا! فأرسلها مثلًا. ومعنى ألق سعدًا: أي: أرى مثل قومي بني سعد. وقال: في كل واد بنو سعد. الأمثال للضبي (٢٧) وانظر جمهرة العسكري (١/ ٦١) والبيان والتبيين (٣/ ٢٩٤)

حصول مكروه، وأن شرور الدنيا أحلام نوم، أو كظل زائل، إن أضحكت قليلًا أبكت كثيرًا، وإن سرَّت يومًا ساءت دهرًا، وإن متَّعت قليلًا منعت طويلًا، ولا سرّته بيوم إلا خبأت له ضدّه، قال ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «لكل فرحة ترحة، وما مليء بيت فرحًا إلا مليء ترحًا». وقال ابن سيرين: «ما كان ضحكٌ قطُّ إلا كان من بعده بكاء!».

وقالت هند بنت النعمان: «لقد رأيتنا ونحن من أعز الناس وأشدهم ملكًا، ثم لم تغب الشمس حتى رأيتنا ونحن أقل الناس. وأنه حقّ على الله ألا يملأ دارًا حَبْرَة[1] إلا ملأها عَبرة». وسألها رجل أن تحدّثه عن أمرها فقالت: «أصبحنا ذا صباح وما في العرب أحد إلا يرجونا، ثم أمسينا وما في العرب أحد إلا يرحمنا»!

وبكت أختها حرقة بنت النعمان يومًا وهي في عزّها فقيل لها: ما يبكيك، لعل أحدًا آذاك؟ قالت: لا، ولكن رأيت غَضَارَةٌ في أهلي، وقلما امتلأت دار سرورًا إلا امتلأت حزنًا. قال إسحاق بن طلحة: دخلت عليها يومًا فقلت لها: كيف رأيت عِبَرَ الملوك؟ فقالت: «ما نحن فيه اليوم خير مما كنا فيه الأمس، إنا نجد في الكتب أنه ليس من أهل بيت يعيشون في حبرَة إلا سيُعقبون بعدها عَبرة، وأنّ الدهر لم يظهر لقوم بيوم يحبونه إلا بطن لهم بيوم يكرهونه». ثم قالت:

فبينَا نسوسُ الناسَ والأمرُ أمرُنا ... إذا نحنُ فيهم سُوقةٌ نَتَنَصَّفُ

---

(١) أي: سرور وحبور.

قلت: والأمر في حقيقته ليس بهذه السوداوية التي قد تطرأ على من لم يتأمل أقوالهم، وليس هذا مراد السلف من تلك العبارات، إنما قُصَاراه التنبيه على عدم الركون للدنيا، وإن لها حتوفًا تأخذ من اغترّ بها، وأشدّ ما تكون إيلامًا حينما تأتي بغتةً على غفلة! والمؤمن يسأل ربه السلامة والبركة والعافية، ويحسن الظن بالله تعالى في ذلك.

فالدنيا تطيب بطاعة الله تعالى، بل لا تطيب إلا بذلك، ويَلتذّ بها في رياض الأنس بالله وذكره وما أباح لعباده مما يعين على مرضاته المؤمنون الراجون الله والدار الآخرة، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النَّحل: ٩٧]، وقد فُسّرت الحياة الطيبة بالقناعة. وعن ثابت عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«حُبِّبَ إليَّ النساء والطيب، وجُعلت قرة عيني في الصلاة»**(١). وعن طلحة بن يحيى قال: كنت جالسًا عند عمر بن عبد العزيز فدخل عليه عبد الأعلى بن هلال فقال: أبقاك الله يا أمير المؤمنين ما دام البقاء خيرًا لك، قال: «قد فُرغ من ذلك يا أبا النضر، ولكن قل: أحياك الله حياة طيبة، وتوفّاك مع الأبرار». والله المستعان.

وكافية الوصايا في ذلك قوله ﷺ: **«انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم»**(٢).

إذا شِئْتَ أنْ تَحْيَا سَعِيدًا فَلا تَكُنْ عَـلَى حَالَـةٍ إلّا رَضِـيتَ بِـدُونِهَا

---

(١) النسائي (٣٩٤٠) وصححه الألباني.

(٢) البخاري ٨/١٢٨ (٦٤٩٠) ومسلم ٨/٢١٣ (٢٩٦٣) (٨) (٩)

٥- أن يعلم أن الجزع لا يرد المصيبة، بل يضاعفها.

فالجزع في الحقيقة هو مِن تزايد المرض وخيبة الرجاء، فيجتمع عليه مُرّ المصيبة وحسرة فوات الأجر، بل قد يحمل أحيانًا الوزر. ومما يُنسب عن الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١)، وهي من بحر الوافر:

---

(١) لا أظن صحة نسبة القصيدة: «دعِ الأيامَ تفعلُ ما تشاءُ» بتمامها إلى الشافعي رحمه الله تعالى، بسبب ما فيها من ملاحظ عقدية في البيت الأول والأخير، ولن تخفى عن إمامنا المحقق المحرر الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ- وما أكثر ما ينسب لعلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ والشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ من القصائد ما لا يصح عنهما- وقد يصح توجيه البيت الأول، ولكن الأخير صريح في سبّ الدهر، والحديث في النهي عن هذا صحيح كما عند مسلم، باب: النهي عن سب الدهر (١٧٦٣) عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: **«لا تسبّوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر»**. أما البيت الأخير فلا شك في تحريمه، وحاشا الإمام الشافعي أن يفوه به، فإما أنه مقحم في القصيدة من غيره، وإما أن القصيدة بتمامها ليست له، والبيت الأخير هو قوله:

دعِ الأيــام تغـــدرُ كـلَّ حـينٍ ... فما يُغـــني عن المـوتِ الـدواءُ

أما البيت الأول فهو قول الشاعر:

دعِ الأيــامَ تفــعـــلُ ما تشـــاءُ ... وطِبْ نفـــسًا إذا حكـمَ القضـاءُ

وقد سئل العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في لقاء الباب المفتوح (٢٣/ ١٢٩) عن حكم هذا البيت فأجاب: «نعم، لا شك أن فيه شيئًا في الشطر الأول؛ لأن الأيام ليست تفعل، إنما الذي يفعل هو: الله تعالى. لكن قد يُعبَّر بالزمن عن الفاعل وهو الله تعالى، ومن ذلك قول الرسول ﷺ: **«لا تسبّوا الدهر، فإن الله هو الدهر»**، فقد يريد الشاعر بقوله: «دع الأيام تفعل ما تشاء» يريد بذلك الرب تعالى، بمعنى أنه يقول: ارضَ بقضاء الله كما بيَّن ذلك في الشطر

=

ولا تَجـــزَع لِحادِثَـــةِ اللَيـــالي فَـــما لِحَـــوادِثِ الـــدُنيا بَقـــاءُ
وكُن رَجُلًا عَلى الأهوالِ جَلْدًا وشـــيمَتُكَ السَـــماحَةُ والوَفـــاءُ
وإن كَثُـــرَت عُيوبُـــكَ في البَرايـــا وسَرَّكَ أن يَكـــونَ لَهـــا غِطـــاءُ
تَسَـــتَّر بِالسَـــخاءِ فَكُـــلُّ عَيـــبٍ يُغَطّيـــه كَـــما قيـــلَ السَـــخاءُ
ولا تُـــرِ لِلأعـــادي قَـــطُّ ذُلًّا فَـــإنَّ شَـــماتَةَ الأعْـــدَا بَـــلاءُ
ولا تَـــرجُ السَـــماحَةَ مِـــن بَخيـــلٍ فَـــما في النـــارِ لِلظَمـــآنِ مـــاءُ
ورِزقُـــكَ لَـــيسَ يُنقِصُـــهُ التَـــأنّي ولَـــيسَ يَزيـــدُ في الـــرِزقِ العَنـــاءُ
ولا حُـــزنٌ يَـــدومُ ولا سُرورٌ ولا بُـــؤسٌ عَلَيـــكَ ولا رَخـــاءُ
إذا مـــا كُنـــتَ ذا قَلـــبٍ قَنـــوعٍ فَأنـــتَ ومالِـــكُ الـــدُنيا سَـــواءُ
وأرضُ اللهِ واسِـــعَةٌ ولَكِـــن إذا نَـــزَلَ القَضـــا ضـــاقَ الفَضـــاءُ

=
الثاني: «وطب نفسًا إذا حكم القضاءُ». فعلى كل حال: الشاعر له وجهة نظر في الشطر الأول، أما الشطر الثاني فلا غبار عليه؛ لكننا نقول: لا ينبغي للإنسان أن يقول هكذا، وأن يضيف الحوادث إلى زمنها».

٦- أن يعلم أنّ فوات ثواب الجازع أعظم من ذات المصيبة.

ففوات ثواب الصبر والتسليم ـ وما فوق ذلك من الرضا والحمد والشكر ـ وهو الصلاة والرحمة والهداية التي ضمنها الله على الصبر والاسترجاع أعظم من المصيبة في الحقيقة.

٧- أن يعلم أن الجزع يضعف الحال والمرتبة في الدارين.

فيُشمتُ عدوَّه، ويسوء صديقه، ويغضب ربه، ويسر شيطانه، ويحبط أجره، ويضعف نفسه.

وإذا صبر واحتسب؛ أرضى ربه، وسرّ صديقه، وساء عدوه، وحمل عن إخوانه وعزّاهم هو قبل أن يعزّوه. فهذا هو الثبات والكمال الأعظم، لا لطم الخدود، وشق الجيوب، والدعاء بالويل والثبور، والسخط على المقدور(١).

٨- تذكّر الرجعى إلى الله تعالى.

قال ربنا سبحانه: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ٨﴾ [العَلَق: ٨]. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان هديه ﷺ في علاج حر المصيبة وحزنها: «قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾ [البَقَرَة: ١٥٥- ١٥٧]. وفي المسند عنه ﷺ أنه قال: **«ما من أحد تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله**

---

(١) انظر: الزاد لابن القيم (٤/١٨٩-١٩٥)

وإنا إليه راجعون، اللَّهم أجُرْنِي في مصيبتي وأخلف لي خيرًا منها؛ إلا أجاره الله في مصيبته، وأخلف له خيرًا منها»(١).

فإذا إذا تحقق العبد بأنه لله وأن مصيره إليه تسلى عن مصيبته. وهذه الكلمة من أبلغ علاج المصاب وأنفعه له في عاجلته وآجلته، فإنها تتضمن أصلين عظيمين إذا تحقق العبد بمعرفتهما تسلّى عن مصيبته:

أحدهما: أنّ العبد وأهله وماله ملك لله عز وجل حقيقة، وقد جعله عند العبد عاريّة، فإذا أخذه منه فهو كالمعير يأخذ متاعه من المستعير.

وأيضًا فإنه محفوف بعدَمين: عدمٌ قبله وعدم بعده، وملك العبد له متعة معارة في زمن يسير، وأيضًا فإنه ليس الذي أوجده عن عدمه حتى يكون ملكه حقيقة، بل الله تعالى.

والثاني: أن مصير العبد ومرجعه إلى الله مولاه الحق، ولا بد أن يخلّف الدنيا وراء ظهره ويجيء ربَّه فردًا كما خلقه أول مرة، بلا أهل ولا مال ولا عشيرة، ولكن بالحسنات والسيئات. فإذا كانت هذه بداية العبد وما خوّله ونهايته؛ فكيف يفرح بموجود أو يأسى على مفقود؟! ففكره في مبدئه ومعاده من أعظم علاج هذا الداء»(٢).

(١) أحمد (٢٦٦٣٥) ومسلم ٣/٣٧ (٩١٨) (٤)
(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد (٤/١٧٤)

٩- اليقين بالقدر.

فمن أعظم العلاج أن يعلم علم اليقين أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه. قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ٢٢ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٖ فَخُورٍ ٢٣﴾ [الحديد: ٢٢ - ٢٣]. قال ابن الديلمي: أتيت أبيّ بن كعب فقلت له: وقع في نفسى شيء من القدر! فحدثني بشيء لعل الله أن يذهبه من قلبي. فقال: «لو أن الله عذّب أهل سماواته وأهل أرضه عذّبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم، ولو أنفقت مثل أحد ذهبًا في سبيل الله ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك. ولو مت على غير هذا لدخلت النار». قال ثم أتيت عبد الله بن مسعود فقال مثل ذلك، ثم أتيت حذيفة بن اليمان فقال مثل ذلك، ثم أتيت زيد بن ثابت فحدثني عن النبي ﷺ مثل ذلك[1].

١٠ التلذّذ بالصبر، وتذكر بيت الحمد.

ومن علاجها: أن يعلم أن ما يعقبه الصبر والاحتساب من اللذة والمسرة أضعاف ما كان يحصل له ببقاء ما أصيب به لو بقي عليه، ويكفيه من ذلك بيت الحمد الذي يُبنى له في الجنة على حمده ربّه واسترجاعه. فلينظر أي المصيبتين أعظم: مصيبة العاجلة، أو مصيبة فوات بيت الحمد في جنة الخلد؟ وفي الأثر:

---

(١) أحمد (٢١٥٨٩) وقوى سنده محققوه، وأبو داود (٤٧٠١) وصححه الألباني.

«يودّ ناس يوم القيامة أن جلودهم كانت تُقَرَّضُ بالمقاريض[١] في الدنيا لما يرون من ثواب أهل البلاء»[٢].

وقال بعض السلف: «لولا مصائب الدنيا لوردنا الآخرة مفاليس». وللصبر لَذَّتهُ، وللرضا لذَّته، وللحمد والشكر لذَّتها. ومن جدَّ وجد، وأول الغيث قطْرٌ ثم ينهمر.

لَـئِنْ شَـابَ الـقَـذَالُ فَـمَا فُـؤَادِي سِوَى طِفْلٍ يُدافِعُ ذا الفِطَامَا

١١- ترويح القلب برجاء الخَلَف من الله تعالى.

فعلى المصاب أن يروّح قلبه برَوْح رجاء الخلف من الله، فإنه من كل شيء عوض إلا الله فما منه عوض، كما قيل:

مِنْ كلِّ شيءٍ إذا ضيعته عوضٌ وما مِنَ الله إنْ ضيَّعتَهُ عِوَضُ

١٢- تذكّر أنّ حظه من المصيبة بقدر ما تحدِثُه له.

فيذكّر نفسه أن من رضي فله الرضا ومن سخط فله السّخط. فحظّه منها ما أحدثته له، فليختر خير الحظوظ أو شرّها، فإن أحدثت له سخطًا وكفرًا

---

(١) المقاريض: جمع مِقْراض وهو المِقَصّ.

(٢) روى ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٦٧٥١) بسند فيه مبهم عن ابن مسعود، قال: «ودّ أهل البلاء يوم القيامة، أن جلودهم كانت تقرض بالمقاريض». ورواه (٣٦٠٢٧) بسنده عن مسروق. قال السيوطي في اللآلي المصنوعة (٢ / ٣٣٤): «وروى الطبراني بسند جيد عن ابن مسعود موقوفًا».. وذكره.

كتب في ديوان الهالكين، وإن أحدثت له جزعًا وتفريطًا في ترك واجب أو فعل محرم كتب في ديوان المُفَرِّطِين، وإن أحدثت له شكاية وعدم صبر كتب في ديوان المغبونين، وإن أحدثت له اعتراضًا على الله وقدحًا في حكمته فقد قرع باب الزندقة أو ولجه، وإن أحدثت له صبرًا وثباتًا لله كتب في ديوان الصابرين، وإن أحدثت له الرضا عن الله كتب في ديوان الراضين، وإن أحدثت له الحمد والشكر كتب في ديوان الشاكرين وكان تحت لواء الحمد مع الحمّادين، وإن أحدثت له محبة واشتياقًا إلى لقاء ربه كتب في ديوان المحبين المُخلِصين المُخلَصين.

قال النبي ﷺ: **«إنّ عِظَمَ الجزاء مع عظمِ البلاء، وإن الله تعالى إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط»**[(١)]. زاد أحمد: **«ومن جزع فله الجزع»**[(٢)].

١٣- علمه بالسلوّ المحتوم.

فعليه أن يعلم أنه وإن بلغ في الجزع غايته فآخر أمره إلى صبر الاضطرار وهو غير محمود ولا مثاب، قال بعض الحكماء: العاقل يفعل في أول يوم من المصيبة ما يفعله الجاهل بعد أيام، ومن لم يصبر صبر الكرام سلا سلو البهائم. قال ﷺ: **«إنما الصبر عند الصدمة الأولى»**[(٣)].

---

(١) الترمذي (٢٣٩٦) وابن ماجه (٤٠٣١) وصححه الألباني.

(٢) المسند (٢٣٦٢٣) وحسنه محققوه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٧٠٦).

(٣) البخاري ٢/٩٩ (١٢٨٣)، ومسلم ٣/٤٠ (٩٢٦) (١٥)

وقال الأشعث بن قيس: «إنّك إن صبرت إيمانًا واحتسابًا، وإلا سلوت سلوّ البهائم».

١٤- علمه أنّ أنفع الأدوية موافقة الله فيما أحبه.

فأنفع الأدوية له موافقة ربه وإلهه فيما أحبه ورضيه له، وأن خاصية المحبة وسرّها موافقة المحبوب، فمن ادعى محبة محبوب ثم سخط ما يحبه وأحب ما يسخطه فقد شهد على نفسه بكذبه وتمقّت إلى محبوبه. وقال أبو الدرداء: «إن الله إذا قضى قضاء أحب أن يُرضى به». وكان عمران بن حصين يقول في علّته: «أحبُّه إليّ أحبَّه إليه». وكذلك قال أبو العالية.

وهذا دواء وعلاج لا يعمل إلا مع المحبين، ولا يمكن لكلِّ أحد أن يتعالج به، فالمحبة ترياق السعادة، وسرُّ السرور، ومن لم يرَ جمال يوسف؛ لم يدرِ ما الذي أبكى يعقوب، وهل ساق العبودية إلا الحبُّ المكِينُ، وواهًا لمرافقة قوافل المحبين الصالحين.

١٤- علمه أن لذة التمتع بثواب الله أعظم من لذة التمتع بالسلامة مما أصيب به.

فعلى المؤمن أن يوازن بين أعظم اللذتين والمتعتين وأدومهما: لذة تمتعه بسلامته مما أصيب به، ولذة تمتعه بثواب الله له. فإن ظهر له الرجحان فآثر الراجح فليحمد الله على توفيقه، وإن آثر المرجوح من كل وجه فليعلم أن مصيبته في عقله وقلبه ودينه أعظم من مصيبته التي أصيب بها في دنياه.

١٥- أن يتذكر أنه في دار امتحان.

فيتذكر ابتلاء الله العبد لامتحان صبره، فمن علاج المصيبة أن يعلم أن الذي ابتلاه بها أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين، وأنه سبحانه لم يرسل إليه البلاء ليهلكه به ولا ليعذبه به ولا ليجتاحه، وإنما ليمتحن صبره ورضاه عنه وإيمانه، وليسمع تضرعه وابتهاله، وليراه طريحًا ببابه لائذًا بجنابه مكسور القلب بين يديه رافعًا قصص الشكوى إليه. قال الشيخ عبد القادر[1] : «يا

---

(١) الشيخ عبد القادر الجيلاني (ويقال: الكيلاني، والجيلي) مشهور بالعبادة والفضل والزهد والحكمة، وقد غلا فيه بعض الناس جهلًا منهم بحقيقة التوحيد أوّلًا، ثم ببراءته من أكثر ما ينسب إليه ثانيًا. فقد نسبوا إليه أشياء غير قليلة كذبًا وزورًا هو منها بريء، ومن أباطيلهم في شأنه اعتقادهم بتصرّفه بعد موته في الكون، وفضيلة استقبال قبره عند الدعاء، واعتقاد السرّ فيه وغير ذلك مما لا يصح عنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال شيخ الإسلام في الفتاوى الكبرى (٢ / ٤٣٤): «وأما قول القائل: من قرأ آية الكرسي، واستقبل جهة الشيخ عبد القادر الجيلاني رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وسلّم عليه، وخطا سبع خطوات يخطو مع كل تسليمة خطوة إلى قبره قضيت حاجته، أو كان في سماع فإنه يطيب ويكثر تواجده، فهذا أمرٌ القربةُ فيه شرك برب العالمين.

ولا ريب أن الشيخ عبد القادر لم يقل هذا، ولا أمر به، ومن يقل مثل ذلك عنه فقد كذب عليه، وإنما يُحدث مثل هذه البدع أهل الغلو والشرك المشبهين للنصارى من أهل البدع الرافضة الغالية في الأئمة، ومن أشبههم من الغلاة في المشايخ».

وقد وصفه ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية (١ / ١٧٥) بقوله: «الشيخ الإمام العارف قدوة العارفين الشيخ عبد القادر الجيلاني قدس الله روحه».

=

بنيّ؛ إن المصيبة ما جاءت لتهلكك، وإنما جاءت لتمتحن صبرك وإيمانك، يا بني القَدَرُ سَبعٌ، والسبع لا يأكل الميتة».

والمقصود؛ أن المصيبة كَيْرُ العبد الذي يُسبَك به حاصله، فإما أن يخرج أحمر، وإما أن يخرج خبثًا كله، كما قيل:

سَــــبَكْنَاهُ ونحسَــــبهُ لُجَيْنًــــا فأبدى الكَيْرُ عن خَبَثِ الحديدِ

فإن لم ينفعه هذا الكَير في الدنيا فبين يديه الكيرُ الأعظم، فإذا علم العبد أن إدخاله كير الدنيا ومسبكها خير له من ذلك الكير والمسبك، وأنه لا بد من أحد الكيرين؛ فليعلم قدر نعمة الله عليه في الكير العاجل.

=

وما أكثر ما ينسب إلى الصالحين والصالحات من شناعات هم منها سالمون وعنها غافلون، أما الكاذبون فـ ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ١٩﴾ [الزُّخرُف: ١٩]. وما صحّ منها فنعتذر لهم عنها ولا نتابعهم عليها، فإن الله لم يأمرنا بشرع سوى ما جاء به رسوله ﷺ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحَشر: ٧] ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النِّسَاء: ٥٩] فمعيار الشريعة الوحي، وإليه المردّ عند التنازع، والله المستعان. ورحم الله من قال:

كلُّ إمـــامٍ ليسَ قوله بحُـــجّـــة إلا الذي من صـــاحبِ المَحَـــجّة
صلّى عليـــه اللهُ كُـــلَّ حـــينٍ فـفي هـداهُ شِـــرعَـتي وديني

قال الإمام الدارمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الرد على الجهمية (١/١١٨): «إنّ الذي يُريدُ الشذوذَ عن الحق يتبعُ الشّاذَّ من قول العلماء، ويتعلق بِزلّاتهم، والذي يَؤُمُّ الحقَّ في نفسه، يتبعُ المشهورَ من قول جماعتهم، وينقلب مع جمهورهم، فَهُما آيتان بَيِّنَتان يُسْتَدَلُّ بهما على اتباع الرَّجُلِ، وعلى ابتداعه».

١٦- علمه أنّ المصيبة تورثه التواضع الرافع.

فالمصيبة كاسرة لداء الكبر وقسوة القلب، فعليه أن يعلم أنه لولا محن الدنيا ومصائبها لأصاب العبد من أدواء الكبر والعجب[1] والفرعنة وقسوة القلب ما هو سبب هلاكه عاجلًا وآجلًا، فمِن رحمة أرحم الراحمين أن يتفقده في الأحيان بأنواع من أدوية المصائب تكون حِمْية له من هذه الأدواء وحفظًا لصحة عبوديته واستفراغًا للمواد الفاسدة الرديئة المهلكة منه، فسبحان من يرحم ببلائه ويبتلي بنعمائه، كما قيل:

قد ينعمُ بالبلوى وإن عَظُمَتْ   ويبتلي اللهُ بعضَ القومِ بالنِّعَمِ

فلولا أنه سبحانه يداوي عباده بأدوية المحن والابتلاء؛ لطغوا وبغوا وعتوا، والله سبحانه إذا أراد بعبد خيرًا سقاه دواء من الابتلاء والامتحان على قدر حاله، يستفرغ به من الأدواء المهلكة، حتى إذا هذبه ونقاه وصفاه أهّله لأشرف مراتب الدنيا وهي عبوديتِه وأرفعِ ثوابِ الآخرة وهو رؤيتِه وقربِه.

(١) قال شيخ الإسلام في الفتاوى (١٠ / ٢٧٧): وكثيرًا ما يقرن الناس بين الرياء والعجب، فالرياء من باب الإشراك بالخلق، والعجب من باب الإشراك بالنفس، وهذا حال المستكبر. فالمرائي لا يحقق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفَاتِحَة : ٥] والمعجب لا يحقق قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفَاتِحَة : ٥]. فمن حقق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفَاتِحَة : ٥] خرج عن الرياء، ومن حقق قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفَاتِحَة : ٥] خرج عن الإعجاب. وفي الحديث المعروف: **«ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متّبع، وإعجاب المرء بنفسه»**. أهـ. والحديث رواه البزار ١٠-١٥ - (٢ / ٢٩٠) والبيهقي في الشعب (٦٤٩١) وحسنه الألباني في الصحيحة (١٨٠٢)

١٧ – علمه بأن مرارة الدنيا حلاوة الآخرة.

فيعلم أن مرارة الدنيا هي بعينها حلاوة الآخرة يقلبها الله سبحانه كذلك، وحلاوة الدنيا بعينها مرارة الآخرة، ولَأن ينتقل من مرارةٍ منقطعة إلى حلاوة دائمة خير له من عكس ذلك، فإن خفي عليك هذا فانظر إلى قول الصادق المصدوق ﷺ: **«حُفّت الجنة بالمكاره، وحفّت النار بالشهوات»**[(١)]. وفي هذا المقام تفاوتت عقول الخلائق وظهرت حقائق الرجال، فأكثرهم آثر الحلاوة المنقطعة على الحلاوة الدائمة التي لا تزول، ولم يحتمل مرارة ساعة لحلاوة الأبد، ولا ذل ساعة لعز الأبد، ولا محنة ساعة لعافية الأبد، فإن الحاضر عنده شهادة، والمنتظَر غيب، والإيمان ضعيف، وسلطان الشهوة حاكم، فتولد من ذلك إيثار العاجلة ورفض الآخرة[(٢)]، وهذا حال النظر الواقع على ظواهر الأمور وأوائلها ومبادئها، وأما النظر الثاقب الذي يخرق حجب العاجلة ويجاوزه إلى العواقب والغايات فله شأن آخر.

فادع نفسك إلى ما أعد الله لأوليائه وأهل طاعته من النعيم المقيم والسعادة الأبدية والفوز الأكبر، وما أعد لأهل البطالة والإضاعة من الخزي

---

(١) مسلم (٢٨٢٢)

(٢) وتدبر الآيات: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإنسان: ٢٧]، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾ [القصص: ٦٠ - ٦١]: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٦ - ١٧] وفي القرآن ذكر كثير لهذا المعنى الهام جدّا لكل عاقل.

والعقاب والحسرات الدائمة، ثم اختر أي القسمين أليق بك، وكل يعمل على شاكلته، وكل أحد يصبو إلى ما يناسبه وما هو الأولى به، ولا تستطل هذا العلاج فشدة الحاجة إليه من الطبيب والعليل دعت إلى بسطه، وبالله التوفيق[(١)].

وأذكر أنّ أحدَ أصحابي اشتكى من علّة تعاوده وتؤرقه، ففحصه الطبيب ثم أخبره بأنه مصاب بالسرطان، فخرّ صاحبي على الفور ساجدًا لله تعالى، قائلًا: مرحبًا بباب الجنة! ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فُصِّلَت: ٣٥].

١٨- ملازمة الذكر.

ومن أعظم وسائل تحصيل الرضا ملازمة الذكر ورطوبة اللسان به وإدمان القلب عليه، والذكر هو اتصال البال بالله تعالى بالقلب واللسان والجوارح، ومن أمثل الأذكار هٰهنا ذكر الرضا بالله وبدينه ونبيه ﷺ طرفي النهار، فعن أبي سلام رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ خادم النبي ﷺ ـ عن النبي ﷺ، قال: **«ما من مسلم، أو إنسان، أو عبد، يقول، حين يمسي، وحين يصبح: رضيت بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد نبيًّا؛ إلا كان حقًّا على الله أن يرضيه يوم القيامة»**[(٢)].

---

(١) من الطريقة الرابعة وما بعدها عن: زاد المعاد (٤/ ١٧٣-١٨٠) بتصرف واختصار.

(٢) ابن ماجه (٢/ ٣٨٧٠) وفي الزوائد: إسناده صحيح، ورجاله ثقات.

وعن أبي الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأرضاها عند مليككم، وأرفعِها في درجاتكم، وخيرٍ لكم من إعطاء الذهب والورق، ومن أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟**» قالوا: وما ذاك؟ يا رسول الله، قال: «**ذكر الله**»[1]. وقال أبو الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «ما دمت تذكر الله فأنت في صلاة وإن كنت في السوق». فكن ذاكرًا تُذكر.

١٩- العلم بالله تعالى.

علم الشرع على نوعين: علم بالله وعلم بأمر الله؛ وأشرفهما هو العلم بالله، لذلك قالوا: شرف كل علم بشرف مُتَعَلَّقه، وأشرف العلوم العلم بالله تعالى، وعليه فعلم الأسماء والصفات لله تعالى هو أشرف العلوم بإطلاق، وعلم القرآن داخل في ذلك ابتداء لأن القرآن كلام الله، وكلامه من صفاته تبارك وتعالى، وهو بيان لأسماء الله وصفاته وأفعاله تبارك وتعالى.

وقيدنا العلم بالشرع لأنه موقوف على الوحي، وهو علم الآخرة بخلاف علوم الدنيا، وإذا أطلق العلم في الشريعة فهو هذا، وهو علمُ غاية، أما غيره فعلم وسيلة، ويلحق به ـ بمرتبة أقل ـ ما كان وسيلة إليه كعلوم الآلة الموصلة لعلوم الغاية.

أما علم الدنيا فهو مقيد، فلا يقال عالم ولا علماء في علوم الدنيا إلا بتقييد العلم المنسوبين إليه؛ فيقال عالم فلك وعالم طب وعالم نحو وعالم لغة وعالم

---

(١) الترمذي (٣٣٧٧)، وابن ماجه (٢/ ٣٧٩٠) واللفظ له وصححه الألباني، صحيح ابن ماجه (٣٠٥٧)

كذا.. أما العالم بالشرع فيكفي أن يقال عالم. فعلم الشرع مطلق وعلم الدنيا مقيّد، وعلم الآلة في برزخ بينهما فهو فوق علم الدنيا ودون علم الآخرة، والموفق من وفقه الله.

هذا؛ والقسمة في علم الشرع رباعية؛ فالناس ـ باختلاف مشاربهم ـ لا يخرجون عنها فمستقل ومستكثر، وهم كالتالي:

عالم بالله وبأمر الله فهو السابق الأفضل، وعالم بالله وهو دون ذلك في علمه بأمره فهو التالي، وعالم بأمر الله لكنه دون ذلك في العلم بالله وهو تاليهما، والرابع المغبون الخاسر وهو الجاهل بالله وبأمره.

والعالم بالله هو ما يسميه بعضهم بالعارف، ويسمون العلم بالله المعرفة، ولا مشاحّة، والجادة استعمال لفظ العلم لا المعرفة. وكأنهم يقصدون بالمعرفة عمل القلب وبالعلم علمه.

وبالجملة؛ فالعلم بالله تعالى هو جنة الدنيا في الحقيقة، وهو معراج القلوب والأرواح للملكوت الأعلى وحضرة القُدُس، فمن كان بالله عالمًا على منهج رسول الله ﷺ وصحابته والسلف الصالح في المعتقد وسلامة التصور وإثبات ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات والأفعال على ما يليق بجلال الله تعالى وعظمته بلا تمثيل ولا تعطيل ولا تحريف ولا تكييف، ويحفظ أسماء الله الحسنى التي جاءت في الشرع ويعلم معانيها ويعبد الله تعالى بمقتضاها، قد امتلأت جوانح صدره بمحبة الله تعالى، وتعلقت عُرى قلبه بربه تبارك وتعالى، ودارت روحه وجوارحه وقلبه مع أمر الله تعالى حيث دار؛ فهو السابق

والمقرب والموفق والمُختار، والله ذو الفضل العظيم، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾ [الزُّخرُف: ٨٤].

وإذا طلبتَ العلمَ فاعلمْ أنّه حِمْلٌ فأبصِرْ أيّ شيءٍ تحملُ
وإذا علمتَ بأنه مُتَفاضلٌ فاشغلْ فؤادَكَ بالذي هو أفضلُ

قال مالك بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا طلب العبد العلم ليعمل به كسره علمُه، وإذا طلبه لغير العمل زاده كبرًا». وقال ابن الحاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن العبد كلما ازداد علمًا وفيه تفهمًا ازداد للخير طلبًا وعليه حرصًا، فخف عليه الثقيل وقرب عليه البعيد ولها في الدنيا عما يريد، وإنما الثقل والعسر تمثال الدنيا في قلب العبد، وهي مرصد إبليس وسلاحه، فإذا قطع عنه ذلك استنار القلب وخرجت الظلمة منه، فلم يكن للشيطان به احتمال قوة ولا له فيه نصيب، ووصل من الأمر إلى ما يريد.

فقال له[1]: زدني ما يسهل به علي ثقل احتمال الصبر ويخففه علي. فقال له: الأمر الذي يسهل عليك ثقل احتمال الصبر ويخففه عليك: الرضا عن الله تبارك وتعالى بكل ما صنع بك واختاره لك وساقه إليك.

فقال له صاحبه: فأوضح لي كيف يهون علي مؤنة الصبر برضائي عن الله ويخفف علي احتماله. فقال: ألست تعلم أنك إنما انتسبت إلى الرضا وسميته

---

(١) أي محاور ابن الحاج وسائله، وهو من باب ضرب الأمثال، فهو حوار نافع في ذهن الشيخ، لا في الخارج.

صبرًا لأن الأمر الذي نزل بك مكروه عليك، وإن هواك ونفسك ينازعانك إلى غيره، فاحتجت إلى الصبر فتدبرت واعتبرت فصرت من ذلك إلى موضع رضاه، ثم يتجاوز بك الأمر حتى تصير إلى موضع السرور حتى ترى لو صرف ذلك الأمر عنك لصرت منه إلى تقوية نفسك، وعلمت أن ما صرف عنك عقوبة لبعض ما أحدثت من ذنوبك أو قصرت فيه عن شكر ما أنعم الله به عليك فصرت منه إلى الدرجة الرفيعة ومنازل أهل الرضا.

وإنما يوصل إلى ذلك بالمعرفة بالله، وبمعرفته ينظر إليك، فتعلم أنك لا نظر لك من نفسك، فترضى بما رضي به وترغب فيما رغبه وتزهد فيما زهده، والزهد من الرضا»(١).

والعلم مفتقر إلى إخلاص وتواضع وعزم وثبات وتؤده، ومن حصّل العلم النافع فليحمد الله كثيرًا فقد خصه بها حُرم منه أكثر البشر، وتأمل جمال التواضع للعلم والثبات على المحبرة حتى المقبرة، فعن الشيخ فهد المشيقح حفظه الله تعالى أنه قال: «كنتُ أدرسُ بعد الفجر على والدي، وكنتُ أنا ووالدي ندرس بعد الظهر على الشيخ صالح الخريصي، وكنتُ أنا ووالدي والشيخ الخريصي ندرسُ بعد المغرب على العلامة الشيخ عبد الله ابن حميد رحمهم الله».

(١) المدخل لابن الحاج (٣/ ٨٧- ٨٨)

والعلم رَحِمٌ بين أهله، وهم أهل وفاء نادر، قال الشيخ عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ حفظه الله تعالى: «حججتُ عن الإمام النووي، وابن حزم، والمُنذري، وابن عبد البر، وفاءً لهم واعترافًا بفضلهم عليَّ وعلى الأمة».

وَجَرَّبنــــا وَجَـــرَّبَ أَوَّلُونـــا فَــلا شَيءٌ أَعَــزُّ مِــنَ الوَفــاءِ

إن الوفاء النادر الجميل ليهزّ أهل المروءات هزًّا، ولا يهتزّ لطيّب الذكرى سوى ابن الأكرمين، قال الربيع بن سليمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سمعت الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ينشد ـ وتأمل فخامة الأبيات وجمال معانيها وسموّ فحواها ـ:

جَزَى اللَّهُ عَنَّا جَعْفَرًا حِينَ أُزْلِقَتْ بِنَــا نَعْلُنَــا فِي الْــوَاطِئِينَ فَزَلَّــتِ

هُــمُ خَلَطُونــا بــالنُّفُوسِ وَأَلْجَئُــوا إِلَى حُجُــرَاتٍ أَدْفَــأَتْ وَأَظَلَّــتِ

أَبَــوْا أَنْ يَمَلُّونَــا وَلَــوْ أَنَّ أُمَّنَــا تُلاقِـي الَّـذِي يَلْقَـوْنَ مِنَّـا لَمَلَّـتِ

وَقَـالُوا هَلُمُّـوا الـدَّارَ حَتَّـى تَبَيَّنُـوا وَتَــنْجَلِيَ الْغَـمَّـاءُ عَــمَّا تَجَلَّــتِ

وَمِـنْ بَعْـدِ مَـا كُنَّـا لِسَـلْمَى وَأَهْلِهَـا عَبِيــدًا وَمَلَّتْنَــا الْـبِلَادُ وَمُلَّـتِ[1]

والأبيات لِطُفَيْلِ بن مالكٍ الغَنَوِيِّ الجَاهِلِيّ وهي من غرر القريض العربي في جمال المعنى وفخامة المبنى وندرة القافية.

(١) آداب الشافعي ومناقبه لابن أبي حاتم (١/ ٢١٢).

٢٠- الدعاء الخالص الملحّ الدائم.

إن من أعظم وأنجع الوسائل لتحصيل الرضا: الدعاء الخالص والضراعة الملحّة، فيرضى هو عن الله، ويسأل الله أن يرضى عنه، فالمؤمن يلتمس رضا مولاه بدعائه وإلحاحه أن يرضى عنه مولاه، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: فقدت رسول الله ﷺ ليلة في الفراش، فالتمسته فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد[١] وهما منصوبتان وهو يقول: «**اللّٰهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك[٢] أنت كما أثنيت على نفسك**»[٣].

وإنّ عظمة تحصيل رضوان الله تعالى تتجلى حينما يبشر الله تبارك وتعالى عباده في جنته بإحلاله رضوانه عليهم فلا يسخط عليهم أبدًا![٤] اللّٰهم نسألك من فضلك العظيم وكرمك العميم إله الحق، لذلك فقد كان من أدعية نبيّنا

---

(١) المقصود بالمسجد هٰهنا: أي: في السجود، أو في الموضع الذي كان يصلي فيه في حجرته. عن: نضرة النعيم (٦ / ٢١٢٣)

(٢) لا أحصي ثناء عليك: أي: لا أحصي نعمتك وإحسانك والثناء بها عليك وإن اجتهدت في الثناء عليك.

(٣) مسلم (٤٨٦)

(٤) البخاري ١٤٢/٨ (٦٥٤٩) ومسلم ١٤٤/٨ (٢٨٢٩) (٩)

ﷺ: «**اللَّهُمَّ زِدنَا وَلَا تَنقُصنَا، وَأَكْرِمنَا وَلَا تُهِنَّا، وَأَعطِنَا وَلَا تَحرِمنَا، وَآثِرنَا ولَا تُؤثِر عَلَينا، وأرضِنَا وارضَ عَنَّا**»[١].

فدعاء الله بتيسير العمل الموصل لرضوانه حبلٌ لتحصيل الرضا؛ فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجًا إلى سفر كبر ثلاثًا، ثم قال: «**سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنا له مُقرِنين**[٢] **وإنا إلى ربنا لمنقلبون. اللّٰهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللّٰهم هوّن علينا سفرنا هذا، واطْوِ عنا بعده. اللّٰهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل. اللّٰهم إني أعوذ بك من وعثاء**[٣] **السفر، وكآبة**[٤] **المنظر، وسوء المنقلب**[٥] **في المال والأهل**». وإذا رجع قالهن، وزاد فيهن «**آيبون تائبون عابدون، لربنا حامدون**»[٦].

وهاك أدعية مأثورة يُستدفع بها البلاء بإذن الله تعالى، واعلم أنّ الابتلاء حتمٌ لازمٌ بكل مؤمن؛ لأن الدنيا كلها قائمة عليه، فسرُّ الإهباط الآدمي من الجنة العلوية فَرْزُ عباد الله وأوليائه عن غيرهم، ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ

---

(١) الترمذي (٣١٧٣)، والنسائي (١٤٤٣) ومسند أحمد (٢٢٣) وحسّنه عبد القادر الأرناؤوط في تحقيقه لجامع الأصول (٨٨٤٧).

(٢) وما كنا له مقرنين: أي ما كنا نطيق قهره واستعماله لولا تسخير الله تعالى إياه لنا.

(٣) وعثاء: المشقة والشدة.

(٤) الكآبة: هي تغير النفس من حزن ونحوه.

(٥) المنقلب: المرجع.

(٦) مسلم (١٣٤٢).

﴿ٱلطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧]، وعلى قدر التديّن يكون قدر البلاء. قال الله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢﴾ [العنكبوت: ٢]، ويقول سبحانه: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥﴾ [البقرة: ١٥٥].

وقال النبي ﷺ: **«إنّ عِظم الجزاء مع عظم البلاء، وإنّ الله تعالى إذا أحبَّ قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السّخط»**. وقال ﷺ: **«أشدّ الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الإنسان على حسَبِ دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقّة خُفّف في بلائه»** (١).

وعليه؛ فالمؤمن مبتلى، وهو مع ذلك يسأل ربه العافية، فالعافية لا يعدلها شيء، لأنه ليس كل مبتلى يوفّق لاحتمال البلاء في ذات الله، فأكثر الناس جزعون، والله المستعان، فعن المقداد بن الأسود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: وايْمُ الله لقد سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **«إنّ السعيد لَمَن جُنِّبَ الفِتَن»**، قالها ثلاثًا، **«ولَمَنِ ابْتُلِيَ فصبر، فَواهًا»**(٢).

---

(١) أحمد (١٤٩٤) وحسنه محققوه من أجل عاصم بن بهدله. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٩٦).

(٢) أبو داود (٤٢٦٣) وصححه الألباني وأيمن صالح. فواها: واها: كلمة يقولها المتأسف على الشيء المتلهف له.

فعلى المؤمن أن يَنْظِمَ نفسه في سلك الراضين، وحزب المتوكلين، وجادة المرسلين، الذين هتفوا لنا: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ١٢﴾ [إبراهيم: ١٢].

وأما الأدعية التي يُدفع بها البلاء بإذن الله تعالى، فمنها: سؤال الله العافية، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: **«أنّ رسول الله ﷺ لم يكن يدع هؤلاء الكلمات حين يمسي وحين يصبح: اللّهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللّهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللّهم استر عوراتي، وآمن روعاتي، اللّهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أُغتال من تحتي»** قال وكيع: يعني الخسف(١).

وكان ﷺ إذا أخذ مضجعه قال: **«اللّهم خلقت نفسي وأنت توفاها، لك مماتها ومحياها، إن أحييتها فاحفظها، وإن أمتها فاغفر لها، اللّهم إني أسألك العافية»(٢).**

وعن أبي إبراهيم عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ في بعض أيامه التي لقي فيها العدو، انتظر حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال: **«يا أيها الناس، لا تتمنّوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف».** ثم قال النبي

---

(١) أبو داود (٥٠٧٤) وأحمد (٢/٢٥) (٤٧٨٥) وصححه الألباني وأيمن صالح شعبان.

(٢) مسلم (٢٧١٢)

ﷺ: **«اللّٰهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم»**[(١)].

وعن أبي الفضل العباس بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله علمني شيئًا أسأله الله تعالى، قال: **«سلوا الله العافية»** فمكثت أيامًا، ثم جئت فقلت: يا رسول الله علمني شيئًا أسأله الله تعالى، قال لي: **«يا عباس، يا عمّ رسول الله، سلوا الله العافية في الدنيا والآخرة»**[(٢)]. وعن سليمان بن بريدة عن أبيه: أن رسول الله ﷺ كان إذا أتى على المقابر قال: **«السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، أنتم لنا فرط ونحن لكم تبع، أسأل الله العافية لنا ولكم»**[(٣)].

وعن أوسط البجلي قال: خطبنا أبو بكر فقال: خطبنا رسول الله ﷺ عام الأول ـ ثم بكى أبو بكر ـ فقال[(٤)]:**«سلوا الله العافية، فإن الناس لم يعطوا**

---

(١) البخاري ٤/٦٢ (٢٩٦٦)، ومسلم ٥/١٤٣ (١٧٤٢) قال العثيمين: «وفي الحديث: ألّا يتمنى الإنسان لقاء العدو، وهذا غير تمني الشهادة، فتمني الشهادة جائز، بل قد يكون مأمورًا به. وفيه أن يسأل الله العافية والسلامة، وإذا لقيت العدو فاصبر، وينبغي لأمير الجيش أن يرفق بهم ويختار الوقت المناسب من الناحية اليومية والفصلية، وفيه الدعاء على الأعداء بالهزيمة». شرح رياض الصالحين لابن عثيمين (١/١٣١) عن تحقيق الفحل للرياض.

(٢) الترمذي (٣٥١٤) وقال: حديث صحيح، وأحمد (١٧٨٣) وصححه الألباني.

(٣) النسائي (٢٠٤٠) وقال الشيخ الألباني: صحيح.

(٤) أي قاله رسول الله ﷺ، وفي بعض الروايات بدون ذكر بكاء أبي بكر.

في الدنيا بعد اليقين شيئًا أفضل من المعافاة. ألا وعليكم بالصدق فإنه مع البر وهما في الجنة، وإياكم والكذب فإنه مع الفجور وهما في النار، ولا تَقاطعوا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخوانًا كما أمركم الله» (١).

وعن أبي ظبيان قال: كنت جالسًا عند ابن عمر، قال: فسمع رجلًا يتمنى الموت، قال: فرفع إليه ابن عمر بصره فقال: «لا تمنّ الموت فإنك ميّت، ولكن سل الله العافية» (٢). وصدق الله الأعلى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزُّمَر:٣٠].

وقد كتبَ الرحمنُ مُذْ شاءَ خَلْقَهُ عليه حِمامَ الموت تِيكَ اللياليا

ومنها هذه التعوذات النبوية فعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: **«تعوذوا بالله من جَهْد البلاء، ودَرَك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء»** (٣). ومن الأدعية التي يستدفع بها البلاء بإذن الله تعالى هذه التسمية التَّعَوُّذِيَّة العظيمة؛ فقد روى عثمان بن عفان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما من عبد يقول في صباح كل يوم ومساء كل ليلة: بسم الله الذي لا**

---

(١) مسند أبي يعلى (١ / ١١٢) وقال حسين سليم أسد: إسناده صحيح.
(٢) مصنف ابن أبي شيبة (١٠ / ٤٣٧)
(٣) البخاري ٨/١٥٧ (٦٦١٦) ومسلم ٨/٧٦ (٢٧٠٧) (٥٣)

يضرّ مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم، ثلاث مرات؛ إلا لم يضرّه شيء»[١].

وروى أبو داود في سننه[٢] عن أبان بن عثمان يقول سمعت عثمان ـ يعني ابن عفان ـ يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من قال بسم الله الذي لا يضرّ مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم، ثلاث مرات؛ لم تصبه فجأةُ بلاء حتى يصبح، ومن قالها حين يصبح ثلاث مرات؛ لم تصبه فجأةُ بلاء حتى يمسي»**. قال: فأصاب أبان بن عثمان الفالج[٣]، فجعل الرجل الذي سمع منه الحديث ينظر إليه، فقال له: ما لك تنظر إلي؟ فوالله ما كذبت على عثمان، ولا كذب عثمان على النبي ﷺ، ولكن اليوم الذي أصابني فيه ما أصابني غضبتُ فنسيتُ أن أقولَها. زاد ابن ماجه[٤]: ولكني لم أقله يومئذ ليُمضي الله عليّ قدره[٥].

(١) أبو داود (٥٠٨٨) و(٥٠٨٩) وابن ماجه (٣٨٦٩) والترمذي (٣٣٨٨) وقال: حديث حسن صحيح غريب. وصححه الألباني.

(٢) (٥٠٩٠) وكذلك أصحاب السنن وأحمد، وصححه الألباني.

(٣) وهو الشلل، وخصّه بعضهم بشلل الشق الأيمن أو الأيسر طولًا.

(٤) (٣٨٦٩) وصححه الألباني.

(٥) والأخبار والقصص من أمثال ذلك كثيرة، وإذا أراد أمرًا هيأ له أسبابه.

ومنها حديث خولة بنت حكيم رضي الله عنها، قالت: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: **«من نزل منزلًا ثم قال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك»**[(١)].

وكان من دعاء رسول الله ﷺ: **«اللّٰهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحوّل عافيتك، وفُجاءةِ نقمتك، وجميع سخطك»**[(٢)].

وعن عائشة أن رسول الله ﷺ علمها هذا الدعاء ـ وتذكّرْ محبته لها ﷺ ـ: **«اللّٰهم إني أسألك من الخير كله عاجله وآجله، ما علمتُ منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله، ما علمت منه وما لم أعلم، اللّٰهم إني أسألك من خير ما سألك عبدك ونبيك، وأعوذ بك من شر ما عاذ به عبدك ونبيك، اللّٰهم إني أسألك الجنة وما قرّب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرّب إليها من قول أو عمل، وأسألك أن تجعل كل قضاء قضيته لي خيرًا»**[(٣)].

---

(١) مسلم ٨/٧٦ (٢٧٠٨) (٥٤).

(٢) مسلم ٨/٨٨ (٢٧٣٩) (٩٦).

(٣) أحمد (٢٥١٣٧) وابن ماجه (٣٨٤٦)، وابن حبان (٨٦٩)، وصححه الألباني. وقوّى رجاله الأرناؤوط.

ومنها قول رسول الله ﷺ: «**دعوات المكروب: اللّهم رحمتك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت**»(١).

والأدعية كثيرة والموفق من حرص عليها ولزمها، والله المستعان.

٢١- تقديم محابّ الله على محاب النفس.

فالمؤمن يحرص على الدوام على تقديم مرضاة الله تعالى على رضا الناس، وعند غلباتِ الهوى، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس. ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس**»(٢). وهذا من أعظم أسباب محبة الله تعالى لعبده، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أسباب محبة الله تعالى لعبده: «ومنها: إيثار محابّه على محابّك عند غلباتِ الهوى، والتسنّم إلى محابّه، وإن صعب المرتقى»(٣).

---

(١) أحمد (٢٠٤٣٠) والبخاري في الأدب المفرد (٧٠١) وأبو داود (٥٠٩٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٣٨٨).

(٢) صحيح سنن الترمذي (١٩٦٧) وهو في الصحيحة (٢٣١١).

(٣) مدارج السالكين (٣ / ١٧) وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الفتاوى (١٠/ ٧٣): «اتفقت الأمتان قبلنا على ما عندهم من مأثور وحكم عن موسى وعيسى صلوات الله عليهما وسلامه أنّ أعظم الوصايا: أن تحب الله بكل قلبك وعقلك وقصدك، وهذا هو حقيقة الحنيفيّة ملّة إبراهيم، التي هي أصل شريعة التوراة والإنجيل والقرآن».

٢٢- الحمد الدائم للحميد سبحانه وبحمده.

فيحمد الله تعالى على كل حال، عند مواطن السرور يحمده، وعند منازل الشدائد يحمده، وفي أحوال المصائب وأنواع المشاقّ يحمده، فلسانه دائم اللهج بحمده، وقلبه ممتلئ بحمده، فهو حامد ربه على كل حال على الدوام.

ومن ذلك تجدد النعم، ومنها نعمة الطعام والشراب؛ فعن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة[1] فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها»**[2].

٢٣- توحيد الله تعالى والاعتصام به.

فعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله يرضى لكم ثلاثًا، ويكره لكم ثلاثًا. فيرضى لكم أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله[3] جميعًا ولا تفرقوا. ويكره لكم قيل وقال[4] وكثرة السؤال[5] وإضاعة المال»**[6].

---

(١) الأَكلة: بفتح الهمزة، وهي المرة الواحدة من الأكل، كالغداء والعشاء.

(٢) مسلم (٢٧٣٤).

(٣) الاعتصام بحبل الله: التمسك بعهده واتباع كتابه والتأدب بآدابه.

(٤) قيل وقال: هو الخوض في أخبار الناس.

(٥) كثرة السؤال: المراد به التنطّع في المسائل والإكثار من السؤال عما لا يقع ولا تدعو إليه الحاجة.

(٦) مسلم (١٧١٥)، وبعضه عند البخاري (٥٩٧٥)

٢٤- برّ الوالدين.

فبر الوالدين والإحسان لهما وتحصيل وتطلّب مرضاتهما سبيل لرضا الله تعالى، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**رضا الرب في رضا الوالد، وسخط الرب في سخط الوالد**»(١). والوالد أوسط أبواب الجنة.

٢٥- الشهادة في سبيل الله تعالى ـ أسألُهَا الله لي ولك ـ.

يريدونَ بذلًا للنفوسِ وقدْ سَمَتْ ... بهم هِمَمٌ نحوَ الجِنَانِ العَوَالِيا

فمن قُتل في ذات الله تعالى وفي سبيله فهو حقيق برضوان الله تعالى عليه وبإرضائه له، فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: دعا رسول الله ﷺ على الذين قتلوا أصحاب بئر معونة(٢) ثلاثين صباحًا، يدعو على رِعْلٍ وذَكْوان ولِحيان وعُصَيَّة عصت الله ورسوله. قال أنس: أنزل الله عز وجل في الذين قُتلوا ببئر معونة قرآنًا قرأناه حتى نُسخ بعدُ: «**أن بلّغوا قومنا أن قد لقينا ربّنا فرضي عنا، ورضينا عنه**»(٣).

فأسألُ ربّي أن تكونَ منيّتي ... بعيدًا عنِ الأوطانِ للشّركِ غازِيا

---

(١) الترمذي (١٨٩٩) وصححه الألباني، صحيح الترمذي (١٥٤٩)، وقال محقق جامع الأصول (١/ ٤٠١): إسناده صحيح.

(٢) بئر معونة: في أرض بني سليم فيما بين مكة والمدينة.

(٣) البخاري، الفتح ٦ (٣٠٤٦). مسلم (٦٧٧) واللفظ له. وعند البخاري: «**فرضي عنا وأرضانا**». ثم رفع ذلك بعد.

فخُذْ من دمائي يا سميعًا لدعوتي فَمَا أطيبَ الآلامَ إن كنتَ راضِيا

٢٦- تصديق الحالف بالله إعظامًا للمحلوف به سبحانه.

إن من طرق تحصيل الرضا تصديق الحالف بالله تعالى إعظامًا لله، وضد ذلك بضده؛ فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمع النبي ﷺ رجلا يحلف بأبيه. فقال: **«لا تحلفوا بآبائكم، من حلف بالله فليصدق، ومن حلف له بالله فليرض، ومن لم يرض بالله فليس من الله»**(١).

٢٧- السواك.

وهي خصلة إيمانية، وسنة نبوية، ومسلك فطري طيب، فمن أسباب الوصول لرضا الرحمن سبحانه مداومة التسوّك، فعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: **«السواك مطهرة للفم، مرضاة للرب»**(٢).

٢٨- إحسان الظن بالله تعالى.

من وسائل تحصيله إحسان الظن بمن لا يأتي الخير إلا منه تبارك وتعالى، ومن ذلك فقد الأحبة والأصفياء، وكفى بالجنة للمؤمنين الراضين، ومن علم

---

(١) ابن ماجه (٢١٠١)، وقال البوصيري في الزوائد: رجال إسناده ثقات. وحسنه الحافظ في الفتح (١١/ ٥٣٦).

(٢) النسائي (١/ ١٠) وصححه الألباني، صحيح الجامع (٣٦٩٥)، وصحيح سنن النسائي (٥) وقال الحافظ الدمياطي: رواه النسائي وابن خزيمة وابن حبان، والبخاري معلقًا مجزومًا.

أن حبيبه وصفيه قد نالها فحريّ به الحبور والسرور والسعادة له، فكيف بمن نال الفردوس ـ نسأل الله الكريم من فضله وكرمه ورحمته ـ فعن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: أصيب حارثة يوم بدر ـ وهو غلام ـ فجاءت أمه إلى النبي ﷺ، فقالت: يا رسول الله، قد عرفت منزلة حارثة مني، فإن يكُ في الجنة أصبر وأحتسب. وإن تكن الأخرى ترى ما أصنع؟ فقال: **«ويحك، أَوَ هَبِلْتِ**[1] **أَوَ جنة واحدة هي؟ إنها جنان كثيرة، وإنه لفي جنة الفردوس»**[2].

٢٩- ملازمة الاستخارة في المهمات.

لقد كان رسول الله ﷺ يعلّم صحابته الاستخارة كما يعلمهم السورة من القرآن، والاستخارة تشرع في الأمر كله، وبخاصة جليل الأمور، وربّ يسير أمر ترتب عليه الأمر الجلل.

وروى البخاري رَحِمَهُٱللَّهُ في صحيحه قال: حدثنا قتيبة، قال: حدثنا عبد الرحمن بن أبي الموالي، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يعلّمنا الاستخارة في الأمور كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول: **«إذا همّ أحدكم بالأمر، فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل: اللّٰهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب. اللّٰهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ـ أو قال: عاجل**

---

(١) هَبِلْتِ: أفقدت عقلك بفقد ابنك حتى ظننت أن الجنان جنة واحدة؟

(٢) البخاري، الفتح ١١ (٦٥٥٠)

أمري وآجله ـ فاقدُره لي ويسّره لي، ثم بارك لي فيه. وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شرّ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ـ أو قال في عاجل أمري وآجله ـ فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدُر لي الخير حيث كان، ثم أرضني». قال: «**ويسمي حاجته**». وفي رواية: «**ثم رضّني به**»(١).

«ففي هذا الحديث: بيان لحاجة العبد إلى فعل ما ينفعه في معاشه ومعاده، وعلم ما فيه مصلحته، وتيسير الله له ما قدره له من الخير، فهو القادر سبحانه وتعالى على كل شيء، والعبد عاجز إن لم ييسر الله له ما فيه مصلحته، ولذلك أرشده النبي ﷺ إلى طلب فضله سبحانه وتيسيره، ثُمَّ إذا اختاره له بعلمه، وأعانه عليه بقدرته، ويسره له من فضله، فهو يحتاج إلى البقاء عليه، وثبوت هذا الفضل ونموه، ثُمَّ إذا فعل ذلك كله فهو محتاج إلى أن يرضيه، فإنه قد يهيئ له ما يكرهه فيظل ساخطًا والخيرة فيه»(٢). والخيراتُ خفيّاتٌ.

ويكتب اللهُ خيرًا أنت تجهله ... وظاهرُ الأمرِ حرمانٌ من النِّعَمِ

فالاستخارة خير كلها، وما خاب من استخار، وما ندم من استشار، والموفق من وفقه الله. وبكل حال يا مؤمن: ﴿لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ١﴾ [الطَّلَاق: ١].

---

(١) البخاري (١١٦٢).

(٢) الرضا بالقضاء. عن: مجلة جامعة أم القرى (٥ / ٤٢٠).

٣٠- التفقه في معاني الرضا.

الرضا بحر من بحار العلوم، فمسائله كثيرة، وغوامضه ليست قليله، وقد حوى في عمقه دررًا لا ينالها إلا من غاص تحت طباق معارفه، وأعانه مولاه فميّز بثاقب نظره حقَّه من باطله، وفيه مسائل متشابهة ظاهرًا لا يكاد يُفطن لها، مع أن ما بينها في الحقيقة أبعد مما بين الخافقين، فتجد الأولى هدى ونور، والأخرى مدخل للشيطان الغَرور، والله تعالى يمتن على من شاء من عباده بالبصيرة في الدين والحكمة والتوفيق في القول والعمل. ولا يعني هذا مشقته الشديدة، ولا بُعْد معانيه عن التقاط العقولِ لها، بل هي ـ بحمد الله ـ متاحة لمن تدبر القرآن والحديث، وأجال بصائر فكره في غُررهما، وحرّك دوافقَ فؤاده في رياضهما، وأرسى نوابض قلبه على ساحلهما، والله تعالى يقول: ﴿ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه: ١٢٣] فلا يضل علمُه ولا يشقى بعمله. وهي يسيرة على من وفقه الله تعالى.

قال الإمام الرباني ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبيّنا أهمية الفقه فيه وأنه يسير على من يسره الله عليه، مع ضرب أمثلة لبعض مهماته: «طريق الرضا طريق مختصرة قريبة جدًّا، موصلة إلى أجلّ غاية، ولكن فيها مشقّة. ومع هذا فليست مشقتها بأصعب من مشقة طريق المجاهدة، ولا فيها من العقبات والمفاوز ما فيها، وإنما عقبتها همّة عالية ونفس زكية وتوطين النفس على كل ما يَرِدُ عليها من الله تعالى.

ويسهّل ذلك على العبد؛ علمه بضعفه وعجزه ورحمة ربِّه وشفقته عليه وبرِّه به، فإذا شهد هذا وهذا، ولم يطرح نفسه بين يديه ويرضى به وعنه،

وتنجذب دواعي حبه ورضاه كلها إليه؛ فنفسه نفس مطرودة عن الله، بعيدة عنه، ليست مؤهلة لقربه وموالاته، أو نفس ممتَحنة مُبتلاة بأصناف البلايا والمحن!

فطريق الرضا والمحبة تسير بالعبد وهو مستلقٍ على فراشه، فيصبح أمام الركب بمراحل. وثمرة الرضا: الفرح والسرور بالرب تبارك وتعالى. ورأيت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه في المنام، وكأني ذكرت له شيئًا من أعمال القلب، وأخذت في تعظيمه ومنفعته ـ لا أذكره الآن ـ فقال: «أمّا أنا فطريقتي الفرح بالله، والسرورُ به». أو نحو هذا من العبارة.

وهكذا كانت حاله في الحياة، يبدو ذلك على ظاهره، وينادي به عليه حاله. لكن قد قال الواسطي: «استعمل الرضا جهدك، ولا تدع الرضا يستعملك، فتكون محجوبًا بلذّته ورؤيته عن حقيقة ما تطالع».

وهذا الذي أشار إليه الواسطي هو عقبة عظيمة عند القوم، ومقطع لهم، فإن مساكنة الأحوال والسكون إليها والوقوف عندها استلذاذًا ومحبة؛ حجاب بينهم وبين ربهم بحظوظهم عن مطالعة حقوق محبوبهم ومعبودهم[(١)]، وهي

---

(١) فتتحول الوسيلة لديهم لغاية، وهذا من مداخل الشيطان وتزيينه، وليس المقصود بالتحذير ترك التلذّذ بالبلاء فهذا فضيلة وعمل قلبي جليل، إنما المقصود ألا يقف عند هذا العمل، بل عليه أن يتقدم به للأمام فيشهد الغايات من هذا البلاء، واطّلاع مولاه، وحسن ظنه بوعده، والشوق إليه، وتعظيمه، ونحو ذلك، وهي مضطردة في كثير من أعمال القلب كالصبر، والتوكل، والمحبة، والأُنس، والصدق، وغيرها.

عقبة لا يجوزها إلا أولو العزائم. وكان الواسطي كثير التحذير من هذه العقبة شديد التنبيه عليها، ومن كلامه: «إياكم واستحلاء الطاعات فإنها سموم قاتلة»(١).

فهذا معنى قوله: «استعمل الرضا جهدك ولا تدع الرضا يستعملك». أي لا يكون عملك لأجل حصول حلاوة الرضا، بحيث تكون هي الباعثة لك عليه، بل اجعله آلة لك وسببًا موصلًا إلى قصدك ومطلوبك، فتكون مستعملًا له، لا أنه مستعمل لك.

وهذا لا يختص بالرضا، بل هو عام في جميع الأحوال والمقامات القلبية التي يسكن إليها القلب، حتى إنه أيضًا لا يكون عاملًا على المحبة لأجل المحبة وما فيها من اللذة والسرور والنعيم به، بل يستعمل المحبة في مرضاة المحبوب ولا يقف عندها، فهذا من علل المحبة»(٢).

---

(١) لا يقصد التمتع بحلاوة الإيمان، فهي من لُباب التوحيد وهي من أسباب زيادة الإيمان واليقين، وهي مكافأةٌ من الله تعالى لعبده في الدنيا لعمله الصالح، إنما مقصوده ـ كما مرّ ـ التحذير من الوقوف عندها، فغاية المؤمن بعبادته إرضاء الله تعالى، فهي غاية الغايات وليس وراءها مرمى، والله تعالى إذا رضي عن عبده أرضاه وأكرمه، ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ [المَائـِدَة : ١١٩]، فإذا وقفت غاية العبد وقصده بالعمل الصالح عند تحصيل لذة العبادة فقد قصّر عن الغاية، وهذا كما مر في التلذذ بالرضا بالبلاء سواء بسواء، والله المستعان.

(٢) مدارج السالكين (٢ / ٢٠١- ٢٠٤) مختصرًا.

والمقصود؛ ضرورة العبد للتفقه في معاني الرضا وإحسان تصوره وحدوده ولوازمه كيما يحسن تطبيقه ليفوز بثوابه، وأن يسأل الله العافية على الدوام، فعن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: مَرَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمُجَذَّمِينَ، فقال: **«أما كانَ هَؤُلاءِ يَسْأَلُونَ العافِيَةَ؟»**(١) وبالله التوفيق.

(١) الدعاء للطبراني (٤٩) وصححه الألباني في الصَّحيحَة: (٢١٩٧) والمُجذّمون هم من أصابهم مرض الجُذام، وهو مرض جلدي بكتيري معدي، يظهر على شكل تقرّحات جلدية شديدة، تتفاقم لتتسبب بإذن الله بتلف في الأعصاب في الذراعين والساقين ومناطق الجلد حول الجسم، بالإضافة إلى ضعف العضلات.

هل الأفضل الدعاء برفع بلاء الدنيا، أم الرضا والتسليم؟

إن السؤال هنا محدد محصور، وهو بصيغة أخرى: أيّهما أفضل: الدعاء برفع البلاء الدنيوي لا الديني، أم ترك الدعاء برفعه، والسباحة في بحر الرضا؟ مثاله: من نزل به مرض أو سُلب مال، أو أصيب بجائحة، أو ظُلم بمظلمة.. ونحو ذلك من خطوب الفانية؛ هل يدعو أو يكفّ؟

علمًا أنّ الدعاء ليس كالتداوي ـ وإنْ جَامَعَه بطلب الاستشفاء ـ لأن الدعاء عبادة محضة، وطلب الاستشفاء به تبع لها، ومن ذلك رقية الإنسان نفسه، أما التداوي الحسّي فأمر خارج عن ذلك، لذلك لا يدخل ترك الدعاء في مسألة أفضلية ترك التداوي رضًا بالقضاء، والله أعلم.

وهذه المسألة دقيقة، بل إنها في الغاية من الدقة، وإنك إن تأملتها وجدت أنّ السؤال فاسدٌ في الأصل! ومكمنُ فساد السؤال هو في افتراضه وجود الشيء ونقيضه أو نقيصه هنا، أي: أنه افترض مسبقًا استحالة الجمع بينهما على صفة الوجود أو الكمال، وليس الأمر كذلك، فلا مانع من اجتماعهما على صفة الكمال، ونِعْمَ خُلُق المؤمنِ الرضا، ونِعْمَ ملاذ المؤمنِ الدعاء.

وعليه؛ فيُتَصَوَّرُ امتلاء القلب بالرضا والتسليم، واتساعه ببرد الحمد واليقين، مع لهجه برفع البلاء، فهذا شيء وذاك شيء، فليس الرضا بالبلاء ملازم لعدم الدعاء برفعه، ذلك أن كلتيهما عبادة مستقلة منفردة عن الأخرى. نعم؛ قد يُرى ـ في ابتداء النظر ـ تلازمُ الأمرين بسبب أنّ طلب الرفع مناقض ـ أو مُنقِصٌ ـ للرضا به، وهذا مُتَصوَّر في أمور العباد فيما بينهم، لكنه ليس كذلك

في أعمال قلوب المؤمنين مع ربهم، ذلك أن بحر الرضا واسع جدًّا، فتنغمس فيه جميع أنواع وأفراد بلاءات الدنيا، فحين تصيب النازلة والرزيّة قلبًا هذا حاله؛ فإنها تنقلب بردًا وسلامًا على ذيّاك الفؤاد المؤمن الراضي، بيد أنه ببصيرته وعلمه يتلمّح ركن التعلّق الأعظم وهو الدعاء، فيدعو مَن أمره بالدعاء، ويوقن أن مَن أمره بالرضا بالقضاء هو من أمره بإلحاح الدعاء، وأنه ابتلاه لِحِكَمٍ عظيمة، لعلّ منها أن يكسر صولة نفسه، ويسمع ضراعته ومسكنته ومناجاته، ويملأ قلبه وجوانحه بخالص عبادة الدعاء والرجاء والرّغَب والرّهَب، وتلتذّ نفسُه الراضية المُسلِّمة بالانغماس المطمئن الساكن في جريان المقدور، فيدعو المؤمن الراضي المُبتَلى ضارعًا ربه أن يختار له الخيرة حيثما توجّهت، لعلمه أنّ الغيب سرّ مكتوم، وأنّ الخيرة معلقة بلطف الله وعلمه وحكمته وتدبيره وكرمه ورحمته ورفقه وبرّه، فلا خير في العجلة، ولا عجلة في الخير.

فهو يدعو بكل قلبه مُضمِّنًا توكّله ـ ومن أفراد توكله تفويض أَزِمَّة الأمور وطلب خيرها إليه سبحانه ـ وهذا عينُ تضمينِ الدعاءِ الملحّ بخير الأمر وحسن العاقبة، حينها يملأ صدره بدفء وسكينة الرضا، وقلبه بيُمنِ وغنيمة الدعاء، فيحرس الذخيرتين، ويحوز الغنيمتين، ويُحرز الفضيلتين، ويعود بالأجرين: الرضا والدعاء.

وبالجملة؛ فعلى المؤمن أن يدعو برفع البلية في دنياه مضمّنًا دعوته بقلبه ـ وإن شاء بلسانه كذلك ـ تفويض الخيرة إليه، فيدعو ربه أن يكشف البلوى إن كان في ذلك خير لدينه، مع تذكّر فضل بلاء الدنيا من التكفير والأجر والذخر

ونحو ذلك. وتشتدّ أهميّة تفويض الخيرة برفع البلاء عند اشتباه الأمور أو استغلاق النفوس، فعند الشيخين[١] عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يتمنّينَّ أحدُكم الموتَ لضُرٍّ ينزل به، فإن كان لا بد متمنيًا فليقل: اللّهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي»**. وبهذا تجتمع أعطاف النصوص القرآنية والنبوية وحتى الصاحبيّة، ولا تتعارض البتة، والحمد لله رب العالمين.

واعلم أنّ المؤمن في دعائه ربّه غير محتاج للتلفّظ بتفويض الخيرة لربه في كل دعوة خلا الاستخارة أو شدة الضرّ، فرسول الله ﷺ قد وجّه إليه في دعاء الاستخارة أو طلب خيرة الحياة أو الموت لشدة البلاء، ولعل من أسباب ذلك التوجيه إلى طلب الخيرة في الاستخارة ـ كما هو ظاهر من مسمّاها ـ ما يترتب على استئناف المرء لخيارٍ لَحِقَهُ فيه نوعُ حَيرةٍ من المُضيِّ أو الترك، فهو على مفترق خيارات يترتب على مضيّه في أحدها مصير يهمّه، فهو يسأل ربه العليم الرحيم الحكيم أن يحرّك له إرادته فيما فيه خيرته، ويبارك له فيما يختاره، ويصرف عنه السوء ويصرف نفسه عنه، وكذلك في الدعاء عند شدّة الضر من سؤال ربه أن يختار له إبقاءه في الدنيا أو الرحيل إليه عنها.

أما مطلق الدعاء بجلب الخير أو دفع الضرّ فالعبد غير محتار فيه ابتداءً إلا من جهة جهله بالعاقبة، وهي غيب محض، وبما أن ربه قد أمره بالدعاء فيكفيه أن يدعوه مضمّنًا تفويض الخيرة إليه بالقلب، فمن الحَسَنِ تحريكُ القلب بهذا

---

(١) البخاري (٥٦٧١)، ومسلم (٢٦٨٠)

المعنى الإيماني مع استقراره في القلب أصلًا، وإن ذهل عن هذا المعنى اللطيف حال دعائه فلا بأس، فربُّه أعلم بما يُصلحه ويصلح له. والرضا بالله تعالى كامن في قلب الداعي على الدوام، مع علمه أنّ ماهية الإجابة عامة بالأمور الثلاثة: إما أن يُعجّل الله تعالى له دعوته في الدنيا، وإما أن يَدّخرها له في الآخرة، وإما أن يَصرف عنه من السوء مثلها. فعلى العبد السؤال، والله تعالى يستجيب له بما يصلحه، ويختار له ما يسعده، وهو سبحانه أعلم بما يكون خيرًا له، وبهذا يستقيم أمره.

وبالجملة؛ فما عدا دعاء الاستخارة ونحوه كالدعاء بتفويض خيرة الحياة أو الموت للضرّ الشديد ـ كما في حديث أنس الآنف ـ فليس على العبد في دعائه ربه بخير الدنيا ودفع بلائها ورفعه التلفظ بذكر الخيرة، وإن فعل فلا بأس، فهي من جملة الدعاء على كل حال، إلا في دعائه بالمأثور فلا يزد عليه لأنه الكمال، وليس عليه مُستَدْرَك، ولم تكُ جادّةُ رسولِ الله ﷺ التزام ذكر تفويض الخيرة في جُلّ أدعيته.

وأما الدعاء بخير الآخرة فغير وارد ذكر تفويض الخيرة فيه هنا؛ لأن باب الخيرة فيه واحد وهو الرضا والجنة، والنجاة من السخط والعذاب، وهي دار جزاءٌ لا عمل، فلا يُعقل أن يقول الداعي: اللّهم اغفر لي إن كان خيرًا لي، أو أدخلني الجنة إن كانت خيرًا لي! ونحو ذلك. وعليه؛ فطلب الخيرة إنما هو في أفعال المكلفين في الدنيا وما يترتب عليها في دينهم ودنياهم، أما الآخرة وسُبُلُها المحضة فلا تَرِدُ هنا.

أما مسألة الاستثناء في الدعاء بالمشيئة كقول العبد: اللّٰهم اغفر لي إن شئت ونحو ذلك؛ فهي ليست داخلة في هذا المبحث، وليس لها تعلّق به، وهي غير جائزة، وهي من سوء الأدب مع الله تعالى.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والعاقل خصم نفسه، والجاهل خصم أقدار ربه، فاحذر كل الحذر أن تسأله شيئًا مُعَيّنًا خيرته وعاقبته مغيّبة عنك، وإذا لم تجد من سؤاله بدًّا فعلّقه على شرط علمه تعالى فيه الخِيْرة(١)، وقدّم بين يدي سؤالك الاستخارة، ولا تكن استخارة باللسان بلا معرفة، بل استخارة من لا علم له بمصالِحِه، ولا قدرة له عليها، ولا اهتداء له إلى تفاصيلها، ولا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، بل إن وُكِل إلى نفسه هلك كل الهلاك، وانفرط عليه أمره. وإذا أعطاك ما أعطاك بلا سؤال: تسأله أن يجعله عونًا على طاعته، وبلاغًا إلى مرضاته، ولا يجعله قاطعًا لك عنه، ولا مبعدًا عن مرضاته»(٢).

والنبي ﷺ وهو سيد الراضين وإمام المسلّمين لأمر الله رب العالمين كان يسأل الله العافية، ويدعو بكشف البلية عن نفسه، كما قد علّم أمته ذلك، فمن دعائه: **«اللّٰهم إني أسألك العافية»**(٣). وقال: **«سَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ»**(٤). وتأمل حديث عائشة رضي الله عنها قالت: سُحِرَ النبيُّ ﷺ حتى كان يُخَيَّلُ

---

(١) الخِيْرَة: بسكون الياء من الخير، وهي المقصودة هنا، أما بفتح الياء فهي من الخِيَار، ومنه قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ [القَصَص: ٦٨].

(٢) مدارج السالكين (١/ ١٦٩).

(٣) مسلم (٢٧١٢).

(٤) البخاري (٧٢٣٧) ومسلم (١٧٤٢).

إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله[(١)]، حتى كان ذات يوم دعا ودعا، ثم قال: **«أشَعَرتِ[(٢)] أنّ الله أفتاني فيما فيه شفائي[(٣)] أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجليّ، فقال أحدهما للآخر: ما وجَعُ الرجل؟ قال: مطْبُوبٌ[(٤)] قال: ومن طبَّهُ[(٥)]؟ قال: لبيد بن الأعصم[(٦)]، قال: فيما ذا؟ قال: في مُشُطٍ ومُشَاقَةٍ وجُفِّ طَلْعَةٍ ذكَرٍ[(٧)] قال: فأين هو؟ قال: في بئر ذَرْوَانَ»**. فخرج

---

(١) أي: إتيان النساء. ففي رواية أخرى للبخاري، وفيها: «كان رسول الله ﷺ سُحِرَ، حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن». قال سفيان: وهذا أشدّ ما يكون من السحر إذا كان كذا.

(٢) أشعرتِ: أي هل علمتِ، وهو أسلوب تنبيه ليعي المُخَاطب ما سيُقال له بعدُ.

(٣) وفي لفظ: **«فيما استفتيتُه»** وكلاهما بمعنى، أي: شفاني حين دعوتُه بالشفاء.

(٤) أي: مسحور. سمّي بذلك تفاؤلًا بالطِّبِّ الذي هو العلاج، كما قيل للديغ: سليم، تفاؤلًا بالسلامة، وللصحراء الشاسعة مفازة تفاؤلًا بالفوز بتجاوزها بالسلامة، وللمسافرين الكُثُر على الجمال قافلة تفاؤلًا بالقفول وهو الرجوع.. وهكذا.

(٥) أي: من سَحَرَه؟

(٦) وفي رواية: أنه رجل من بني زريق حليف ليهود، وكان منافقًا. وقيل: بل هو يهودي. وقال الحافظ في فتح الباري (١ / ٣٢٩) «حديث عائشة: سَحَرَ رسولَ الله ﷺ رجل من بني زريق يقال له لبيد بن الأعصم، ذكر ابن سعد في الطبقات أنّ مُتولِّي السحر أخواتُ لبيد، وكُنّ أسحر منه، وأنه هو الذي دفنه. وفيه: **«أتاني رجلان»** في رواية الطبراني بلفظ: **«أتاني ملكان»** ويحتمل أن يكونا جبريل وميكائيل عليهما الصلاة والسلام كما في حديث سعد بن أبي وقاص».

(٧) وفي رواية: **«ومُشاطة»** بدلًا من **«ومشاقة»** وكلاهما بمعنى. قال ابن بطال في شرح صحيح البخاري (٩ / ٤٤١): «قال الليث وابن عيينة عن هشام: **«في مشط ومشاقة»**

=

=
قال أبو عبد الله ـ وهو البخاري ـ: يقال المُشاطة ما يخرج من الشعر إذا مُشِطَ، والمُشَاقَةُ من مشاقة الكتان. قال المهلب: والجُفّ: غشاء الطلع، وقال أبو عمرو الشيباني: الجفّ: شيء يُنقَرُ من جذوع النخل».

فالجُفّ: وعاء طلع النخيل وغشاؤه الذي يُكِنُّه، ويسمّى في زماننا: الكُمّ. والمقصود أن الساحر الفاجر قد عَقَدَ عُقَدَ السحر بشعرات رسول الله ﷺ التي كانت تتساقط وتجتمع في المشط من تسريحِهِ لشَعره الشريف، ثم جعل ذلك في داخل الجفّ أو الكُمّ، ثم وضع الجفَّ تحت راعوفة بئر ذروان. وذروان: بئر في بني زريق، والراعوفة: صخرة تترك في أسفل البئر إذا احتُفرت، توضع ليجلس عليها مستقي الماء حين يمتحه ويغرفه من قاع البئر، كذلك إذا أرادوا تنقيتها فيجلس المُنقّي عليها. وكل ذلك إمعانًا في إخفاء سحره وشرّه، ولعل في تعمّده جعل السحر قريبًا من مجرى الماء الأسفل في الأرض سرًّا شيطانيًّا يختص به السحرة، قاتلهم الله تعالى. فكبيرهم إبليس يضع عرشه على الماء مضاهاة لرب العزة جل جلاله، وأنّى له ذلك، وتعالى الله وتبارك وتقدس.

والسحر قد يتسلّط على العقول فيخيّل لها أشياء على غير حقيقتها، وقد يتسلّط على الأبدان فيُمرض ويقتل، لكنه لا يحيل الذوات لغيرها، كأن يقلب الرجل لحيوان، أو الخشب لذهب ونحو ذلك، فهذا محال، وهو من خصائص الربوبية لله تعالى، قال سبحانه: ﴿فَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧﴾ [النَّحل: ١٧]. قال شيخنا عيسى السعدي حفظه الله: لا شكّ في حقيقة السحر، وأنه ليس مجرّد تخييل، ولكن لا يمكن أن يصل تأثيره إلى درجة إحالة الذات إلى ذات أخرى؛ لأن قلب الأعيان لا يقدر عليه أحد إلا الله؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ [الحج: ٧٣]، وفي الصحيح: **«قال الله عز وجلّ: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرّة، أو ليخلقوا حبة أو شعيرة»**. رواه البخاري: (٧٥٥٩).

إليها النبي ﷺ، ثم رجع فقال لعائشة حين رجع: **«نخلها كأنه رؤوس الشياطين!»** فقلت: استخرجتَه؟ فقال: **«لا، أمّا أنا فقد شفاني الله، وخشيت أن يُثير ذلك على الناس شرًّا»**، ثم دُفنت البئر[1]. وفي رواية: فذهب النبي ﷺ في أناس من أصحابه إلى البئر فنظر إليها، وعليها نخل، قال: ثم رجع إلى عائشة، فقال: **«والله لكأنّ ماءَها نُقَاعَةُ الحِنّاء، ولكأنَّ نخلها رؤوس الشياطين»**، قلت: يا رسول الله، أفأخرجته؟ قال: **«لا، أما أنا فقد عافاني الله وشفاني، وخشيت أن أُثوّر على الناس منه شرًّا»**، وأمر بها فدفنت.

فتأمل وصف عائشة له بإلحاحه ﷺ على ربه بشفائه بقولها: **«دعا ودعا»**. وهذا الحديث في الصحيحين قاطع في المسألة، وحاسم لموارد نزاعها، فهو صريح في إلحاحه ﷺ على ربه في طلب شفائه، مع كونه إمام الراضين المُسلّمين الحامدين ربهم قاطبة صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

ولا يرد علينا أن هذا البلاء في الدين، لأن الرسل معصومون من جهة البلاغ، فيستحيل أن يبلغ السحر فيه لمواطن البلاغ من العلم والإرادة والجوارح السالمة من خلل التأدية الكاملة، مع ضميمة تصريح أم المؤمنين بحصر ذلك في أمر إتيان النساء.

وكان من هديه ﷺ عند عيادة المريض أن يقول: **«اللَّهُمَّ أَذْهِبْ الْبَأْسَ رَبَّ النَّاسِ، وَاشْفِ فَأَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا»**

---

(١) البخاري (٣٢٦٨) واللفظ له، ومسلم (٢١٨٩).

(١). وقال لعُثمانَ بن أَبي العَاصِ لما جاءه يشكو ألمًا يجده في بدنه فقَال رسول الله ﷺ: **«ضَعْ يَدَكَ عَلَى الَّذِي تَأَلَّمَ مِنْ جَسَدِكَ، وَقُلْ: بِاسْمِ اللَّهِ، ثَلَاثًا، وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ: أَعُوذُ بِاللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ»**[٢].

والدعاء برفع البلاء جادّةُ المرسلين والأنبياء والصالحين، قال الله تعالى في شأن موسى عليه السلام: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ [القَصَص: ٢١]، وقال عن داود عليه السلام: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ [الأنبيَاء: ٨٣ - ٨٤]، وقال تعالى عن يونس عليه السلام: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبيَاء: ٨٧ - ٨٨]، والمرأة الصالحة آسية جأرت لربها: ﴿وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ﴾ [التَّحرِيم: ١١]. فهذه جادة عباد الرحمن.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كلامه على حديث رسول الله ﷺ: **«يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ؛ يَقُولُ دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي»**[٣]: «في هذا الحديث أدب من آداب الدعاء؛ وهو أنه يلازم الطلب، ولا ييأس من الإجابة؛ لما في ذلك من الانقياد والاستسلام وإظهار الافتقار، حتى قال بعض السلف: «لأنا أشدّ خشية أن أُحرم الدعاء من أن أُحرم الإجابة».

---

(١) الترمذي (٣٥٦٥) وصححه الألباني.
(٢) مسلم (٢٢٠٢).
(٣) البخاري (٦٣٤٠) ومسلم (٢٧٣٥).

قال الداودي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يُخشى على من خالف وقال: قد دعوتُ فلم يُستجب لي؛ أن يُحرم الإجابة وما قام مقامها من الادّخار والتكفير»! وإلى ذلك أشار ابن الجوزي بقوله: اعلم أن دعاء المؤمن لا يُردّ، غير أنه قد يكون الأولى له تأخير الإجابة، أو يعوّض بما هو أولى له عاجلًا أو آجلًا، فينبغي للمؤمن ألا يترك الطلب من ربه، فإنه مُتَعَبَّدٌ بالدعاء، كما هو متعبّد بالتسليم والتفويض»(١). وتأمل آخر جملة من حروف ابن الجوزي رحمنا الله وإياه.

والمقصود؛ أن الله تعالى قد أمرنا بدعائه والتضرع إليه لكشف الكروب: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النَّمل: ٦٢]، ودعاؤه عبادة، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غَافِر: ٦٠]، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ [البَقَرَة: ١٨٦]، والآيات في هذا المعنى كثيرة جدًّا. وشاهد الكلام؛ أن الله تعالى قد أمرنا بالدعاء وبالصبر والرضا، ووعد المثوبة للصابرين فقال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزُّمَر: ١٠].

وبالجملة؛ فليس المُلِحُّ على ربه بكشف كربه بمعترضٍ على قدَره، ولا بناقضِ الرضا بتدبيره، فالذي قضى هو من أمر بالدعاء، وهو من أمر باتخاذ الأسباب المشروعة، وهو من جعل الدعاء سببًا موصلًا لمرضاته، ولإعطاء عبده رغيبته طلبًا أو هربًا أو دفعًا أو رفعًا أو جلبًا أو إعصامًا، فالأمرُ أمرُه، والخلقُ خلقُه، والعبدُ عبدُه، والدينُ دينُه، ﴿رَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ

(١) فتح الباري (١١/ ١٤١) باختصار.

لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨]، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣]، ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ١٩].

فالدعاء ثباتٌ على طريق بلوغ المراد ضمن الأسباب المشروعة، والدعاء أحدها، بل من أعظمها وأقواها، وهو سيما العبودية، وختم الإيمان. والدعاء شفاء، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من أنفع الأدوية: الإلحاحُ في الدعاء»(١).

وعليه؛ فليس بين الرضا بالبلاء والدعاء برفعه تعارض حتى يُلجأ فيه إلى الترجيح، فالسؤال فاسد أصلًا، لأن جهَتَي الأمرين في الحكم منفكّتان، فيمكن للعبد الدعاء لرفع البلاء مع رضاه التام به.

ولكن هذا يحتاج لسعة نظر وجمال تأمّل، لأنه مشتبه على كثير من الناس، ومن هنا جيء بالسؤال - على ما فيه - لاشتباهه، ومن ثمّ الإجابة عليه.

ونزيد التوضيح فنقول: لا تعارض في الحقيقة بينهما، لأنّ المؤمن مأمور بتحصيل خيري الدنيا والآخرة ودفع شرّهما عن نفسه، كما أنا قد أُمرنا بالأخذ بالأسباب، ومن أعظمها التوكل والدعاء، فهما قطبي التحصيل بإذن الله، وهما سرّي نفوذ البركة لأصحابها بإذن الله، ويدخل في ذلك الدعاء برفع النازلة الخاصة والإلحاح فيها خاصة إن خاف أن تشوّش عليه جمعيّة قلبه مع ربه تبارك وتعالى.

---

(١) الجواب الكافي (٢٥).

وتزيد أرجحيّة الدعاء برفع النازلة الخاصة في حال مزاحمة حملها للدين، أو تشويش الجمعيّة، أو إشغالها عن أمور يغلب على ظنّ المُبْتَلَى أنها خير له من مجرد الرضا بالنازلة، كمن يدعو بشفاء جسده ليجاهد في سبيل الله، أو لإعانته على تذوّق حلاوة التهجّد والمناجاة، أو ليقوم على والديه المحتاجين له، أو نفع الناس في دينهم ودنياهم، ونحو ذلك، مع الرضا التام والتسليم المطلق؛ لأنه يعلم أنه بِعَيِنِ من يعلم العواقب، ويرحم عبده، ويرفق ويلطف به، ويختار خيرته، لذا: فأحبّه إليه أحبّه إلى الله عز وجل، كما جاء عن عمران بن حصين رضي الله عنهما وغيره، ولعل عمران قد قصد بذلك تعليق الدعاء لشفائه بالخِيْرة، قال الحسن: «وكان في مرضه تسلّم عليه الملائكة، فاكتوى ففقد التسليم، ثم عادت إليه، وكان به استسقاء، فطال به سنين كثيرة وهو صابر عليه، وشُقّ بطنه وأخذ منه شحم، وثقب له سرير، فبقي عليه ثلاثين سنة، ودخل عليه رجل[1] فقال: يا أبا نجيد، والله إنه ليمنعني من عيادتك ما أرى بك! فقال: يا ابن أخي فلا تجلس[2]، فوالله إن أحبَّ ذلك إليّ أحبُّه إلى الله عز وجل»[3].

يَهُونُ علينَا أنْ تُصَابَ جُسُومنَا ... وتَسْلَمَ أعْرَاضٌ لنا وعُقُولُ

(١) وهو مطرّف بن عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ، وكان من خاصته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أسد الغابة، لابن الأثير (١ / ٨٦٩) (١٣١٤).

(٣) المرقاة (٨ / ٣٥٢).

مع التنبيه إلى أن الدعاء يكون بالثناء ـ وهو الأشرف ـ وبالسؤال، وكلاهما عبادة مقصودة. علمًا بأن المؤمن عند النازلة لا يكتفي بالدعاء برفعها فقط، بل يدعو ويدعو ويتفنن في طرائق الدعاء، لأمور:

الأول: أن كثيرًا من الدعاء هو دعاء الثناء كالحمد والشكر والتسبيح والتكبير والقرآن ونحو ذلك. قال في مرقاة المفاتيح[1]: وقال أمية بن الصلت في مدح عبد الله بن جدعان:

أأذكرُ حاجتي أم قد كفاني ... حِبَاؤُكَ إن شيمتك الحِباءُ

إذا أثنى عليك المرءُ يومًا ... كفاهُ من تعرضكَ الثناءُ

قال سفيان بن عيينة: «فهذا مخلوق حين نُسب إلى الكرم اكتفى بالثناء عن السؤال، فكيف بالخالق»! والدعاء قد يكون صريحًا، وقد يكون تعريضًا، فإن الثناء على الكريم يتضمن الدعاء، والسؤال تعريضًا بألطف إيماء كمدح السائل والشاعر[2].

الثاني: أن دعاء المسألة وبخاصة جوامع الدعاء يستغرق صلاح الدين والدنيا ـ ومن ضمنه كشف تلك النازلة ـ وصلاح العاقبة بالمغفرة والرحمة

---

(١) المرقاة (٨ / ٣٥٢).

(٢) أما حديث: **«من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»**. فالأكثرون على تضعيفه. قال الحافظ في الفتح (٩ /٦٦): «رجاله ثقات إلا عطية العوفي ففيه ضعف». وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٦٤٣٥).

والرضا والجنة، وما إلى ذلك. فتأمل دعوة المؤمن بقوله: **«ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار»** (١).

وقوله: **«اللّٰهم إني أسألك من الخير كلّه عاجله وآجله ما علمتُ منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشرّ كلّه، عاجله وآجله، ما علمتُ منه وما لم أعلم. اللّٰهم إني أسألك من خير ما سألك عبدك ونبيك، وأعوذ بك من شرّ ما عاذ به عبدك ونبيّك، اللّٰهم إني أسألك الجنة وما قرّب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرّب منها من قول أو عمل، وأسألك أن تجعل كل قضاء قضيتَه لي خيرًا، اللّٰهم إني أسألك من الخير كله، وأعوذ بك من الشر كله»** (٢).

وقوله: **«اللّٰهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللّٰهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللّٰهم استر عوراتي، وآمن روعاتي، اللّٰهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي»** (٣).

---

(١) البخاري (٦٣٨٩) واللفظ له، ومسلم (٢٦٩٠) عن أنس قال: كان أكثر دعاء النبي ﷺ: **«اللّٰهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار»**.

(٢) ابن ماجه (٣٨٤٦) عن عائشة: أن رسول الله ﷺ علّمها هذا الدعاء. ورواه ابن حبان (٨٦٩)، والحاكم (١ / ٥١٢- ٥٢٢) وصححه الألباني.

(٣) أبو داود (٥٠٧٤) وأحمد (٢/٢٥) (٤٧٨٥) وصححه الألباني.

وقوله: «**اللَّهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والبخل والجبن، وضلع الدين وغلبة الرجال**»(١). ونحو تلك الجوامع الدُعائية.

(١) البخاري (٤/٢٨، ٨/٩٨) ومسلم (٨/٧٥) عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ لأبي طلحة: «**التمسْ غُلامًا من غلمانكم يخدمني**». فخرج أبو طلحة يُردفني وراءه، فكنت أخدم رسول الله ﷺ كلما نزل، فكنت أسمعه يكثر أن يقول: «**اللَّهم إني أعوذ بك من الهمّ والحزن، والعجز والكسل، والبخل والجبن، وضَلَعِ الدين وغلبة الرجال**». ومعنى ضَلَعِ الدين: الضلع: الاعوجاج، والمقصود ثقل الدين حتى يميل صاحبه عن الاستواء.

وقال النووي في شرح صحيح مسلم (٩/٢٦): «الكسل: هو عدم انبعاث النفس للخير وقلة الرغبة مع إمكانه. وأما العجز: فعدم القدرة عليه، وقيل: هو ترك ما يجب فعله، والتسويف به، وكلاهما تستحب الاستعاذة منه.. وأما استعاذته من الجبن والبخل، فلما فيهما من التقصير عن أداء الواجبات والقيام بحقوق الله تعالى وإزالة المنكر.. وبالسلامة من البخل يقوم بحقوق المال وينبعث للإنفاق والجود ولمكارم الأخلاق».

وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (١١/٢٠٧): «الضلع هو الاعوجاج، والمراد به هنا ثقل الدين وشدته، وغلبة الرجال: أي: شدة تسلطهم كاستيلاء الرعاع هرجًا ومرجًا».

وقال ابن القيم في بدائع الفوائد (٢ / ٤٣٣) «فاستعاذ من ثمانية أشياء كل اثنين منها قرينان:

فالهم والحزن قرينان، وهما من آلام الروح ومعذباتها، والفرق بينهما أن الهم توقع الشر في المستقبل والحزن التألم على حصول المكروه في الماضي أو فوات المحبوب، وكلاهما تألم وعذاب يرد على الروح، فإن تعلق بالماضي سمّي حزنًا وإن تعلق بالمستقبل سمّي همًّا.

=

ومما يلحق بذلك: أنه لا حرج على من ترك الدعاء برفع بليّة الدنيا تسليمًا للقضاء، ولكنه خلاف الأفضل، فهو وإن حاز مرتبة الرضا لكنه قد فوّت على نفسه حظها من دعاء العبيد ربهم في شؤون دنياهم، فالله تعالى حيٌّ قيّوم صَمَدٌ يقوم بمصالح عباده ويصمد لهم بقضاء حوائجهم، وهذا من مقتضيات ربوبيته تبارك وتعالى، وإذا كان الله تعالى يُحِبُّ أن تُؤتى رُخَصُهُ؛ فكيف بكشف كُرْبَةِ وليِّهِ!

كَمْ كُرْبَةٍ طَرَقَتْ جُنْحَ الظَّلامِ تنفَّسَ الصُّبحُ حَتّى فرَّجَ اللهُ

كما أنّ الدعاء داخل في توحيدَي الربوبية والعبادة، فالربوبيّة من جهة أن دعاءه متضمّن الإيمان بمُلْك الله المطلق، وتدبيره التام الذي لا يشاركه فيه غيره، والعبادة من جهة استجابته لأمر ربه جل وعلا: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾

=

والعجز والكسل قرينان، وهما من أسباب الألم لأنهما يستلزمان فوات المحبوب؛ فالعجز يستلزم عدم القدرة، والكسل يستلزم عدم إرادته، فتتألم الروح لفواته بحسب تعلقها به والتذاذها بإدراكه لو حصل.

والجبن والبخل قرينان، لأنهما عدم النفع بالمال والبدن وهما من أسباب الألم؛ لأن الجبان تفوته محبوبات ومفرحات وملذوذات عظيمة، لا تنال إلا بالبذل والشجاعة، والبخل يحول بينه دونها أيضًا، فهذان الخُلُقان من أعظم أسباب الآلام.

وضلع الدين وقهر الرجال قرينان، وهما مؤلمان للنفس معذبان لها، أحدهما قهر بحق وهو ضلع الدين، والثاني قهر بباطل وهو غلبة الرجال، وأيضًا فضلع الدين قهر بسبب من العبد في الغالب، وغلبة الرجال قهر بغير اختياره».

[غافر: ٦٠]. وعن أبي ذر جندب بن جنادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ فيما يروي عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «**يا عبادي، كلكم جائع إلا من أطعمتُه فاستطعموني أطعمْكم. يا عبادي، كلكم عارٍ إلا من كسوتُه فاستكسُوني أكسُكُم**»[١].

قال الحافظ ابن رجب: «الله يحب أن يسأله العباد جميع مصالح دينهم ودنياهم من الطعام والشراب والكسوة وغير ذلك كما يسألونه الهداية والمغفرة، وفي الحديث: «**ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى شِسْعَ نعله إذا انقطع**»[٢] وكان بعض السلف يسأل الله في صلاته كل حوائجه حتى ملح عجينه وعلف شاته.. فإن كل ما يحتاج العبد إليه إذا سأله من الله فقد أظهر حاجته فيه وافتقاره إلى الله، وذاك يحبه الله، وكان بعض السلف يستحي من الله أن يسأله شيئًا من مصالح الدنيا، والاقتداء بالسنة أولى»[٣]. أي: أن السنة سؤال الله تعالى كل أمور الآخرة والدنيا. وسؤال الله تعالى أمور الدنيا معين على أمور الآخرة، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]، ولكن عند المزاحمة في الدعاء كحال الصلاة أو أوقات الإجابة المضيّقة فينبغي أن يتوجه العبد لرغائب الآخرة دون الدنيا، إلا ما كان مُلِحًّا عليه أو مشوّشًا لجمعية قلبه على ربه ونحو ذلك.

---

(١) مسلم (٢٥٧٧)

(٢) الترمذي (٣٦٨٢) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٩٤٩).

(٣) جامع العلوم والحكم (١ / ٢٢٥).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شأن ترك الأسباب المشروعة: «ولهذا تجد عامة هذا الضرب التاركين لما أمروا به من الأسباب يتعلقون بأسباب دون ذلك.

فإما أن يعلقوا قلوبهم بالخلق رغبة ورهبة، وإما أن يتركوا لأجل ما تبتّلوا له من الغلوِّ في التوكل واجبات أو مستحبات أنفع لهم من ذلك، كمن يصرف همّته في توكله إلى شفاء مرضه بلا دواء، أو نيل رزقه بلا سعي، فقد يحصل ذلك، لكن كان مباشرة الدواء الخفيف والسعي اليسير، وصرف تلك الهمة، والتوجه في علمٍ صالح أنفع له، بل قد يكون أوجب عليه من تبتّله لهذا الأمر اليسير الذي قدْرُه درهم أو نحوه»[(١)].

ومقصوده رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ أنّ أولوّية صرف الهمّة القلبية من التوكل ونحوه للأمور الكبار أولى مما سواها؛ ذلك أن للنفس قدْرٌ محدودٌ من الطاقة مهما كانت قوّتها، ومتى صُرف شيء من الهمّ القلبي لغير الأمور الكبار تشتّتَتْ قوّةُ هِمّته وطاقةُ قلبه، ونقص عمل قلبه ذلك ـ أيًّا كان ـ بقدر ما صرف من تشتيت طاقته، أي: أن رصيد الطاقة القلبية في التوجّه قد نقص بمقدار ذلك الشتات، فإذا صرف كل هِمّةَ قلبه علمًا وعملًا وأعملها في مصالح آخرته صفَتْ قوُّتُه من كَدَر الأمور اليسيرة، فصار كل توجّهه لتحصيل عَمَار قلبه بالإيمانيات وآخرته برفيع الدرجات، ثم انتظمت له مع هذا النعيم سائرُ أمور حياته صغيرها وكبيرها، لأن الله وليّه وكافيه تبارك وتعالى، ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزُّمَر: ٣٦]، بلى وعِزَّتِكَ.

---

(١) الفتاوى الكبرى (١ / ١٠٩).

وبعد هذا؛ فالمحصّلة أنّ القسمة رباعية: فالأكمل: الرضا والدعاء - علمًا أنّ الدعاء لا يُنقص الرضا - ويليه الرضا وترك الدعاء برفع النازلة المعيّنة، ويليهما الدعاء برفعها مع نقص الرضا بالقضاء، وأما الرابعة فمرتبة المخذولين فلا رضًا ولا دعاء.

وسبب تقديم الرضا في المرتبة الثانية على الدعاء برفع النازلة (وهي المرتبة الثالثة) لأن الرضا عبادة مقصودة لذاتها، وهو من أصول الإيمان ومن مكملاته كذلك التي لا ينفكّ عنها بحال، فوجوده أصل في الدين وكمالُه من كمالاته، أما الدعاء برفع النازلة المعيّنة فهي - وإن كانت في مرتبة عالية في الدين والإيمان - إلا أنها مرجوحة هنا إن وزنت بالرضا لأنها دعاءٌ لتحصيل دنيا، وزوال الرضا بالقضاء هنا محرم(١)، أما ترك الدعاء برفعه فالعبد فيه بالخيار؛ إن

(١) فالرضا بالقضاء واجب وفريضة، وهو أحد أركان الإيمان التي لا يصح إلا بها. أما الرضا بالمَقضِيّ فمستحبّ. والمقضيّ هو مفعولات الله تعالى بعبده، فليس المراد هنا فعل الله، بل المقصود مفعوله، أي ليس صفة الله التي هي الخلق والتقدير، بل هو مخلوقُ الله تعالى الذي هو نفسُ المصيبة. فالقضاء أمرُ الله والمقضيُّ خلْقُه، والقدرُ أمرُ الله والمقدورُ خلْقُه، مثاله: المرض، فالمرض يكتنفه جانبان: الأول: من جهة أن الله هو الذي قدّره؛ فهذا هو النوع الأول وهو القضاء والقدر، الثاني: من جهة ذات المرض والإحساس به والتألم منه، فهذا هو المراد هنا، فهو المقضيّ والمقدور.

وهذا النوع - أي الرضا بالمقضيّ - قد اختلف العلماء في حكمه بين الوجوب إلحاقًا بالنوع الأول، لأنها في النهاية راجعة إلى قضاء الله تعالى، والاستحباب لانفكاك جهته تصوُّرًا في الذهن، لأنه مخلوق من جملة المخلوقات، وليس هو ذات القضاء والقدر، كذلك لمشقة هذا النوع على أكثر الناس، وربما يكون فيه نوع حرج على كثير منهم، والشريعة لا =

شاء دعا وهو الأفضل والأكمل، وإن شاء اكتفى بالرضا مع تفويض الأمر كله لله تعالى.

علمًا أنّ الدعاء بحد ذاته هو عبادة شريفة من أجلّ العبادات، وهذا ملحظ عظيم؛ فالداعي لكشف الكرب عليه أن يُحرّك قلبه بتنبيهه لشأن عبادةِ الدعاء مع رجاء كشف الضراء، فعلى المرء أن يتذكّر أن دعاءه عبادة بذاتها، فليذكّر قلبه بذلك عند رفع يديه ضراعةً لخالقه لطلب رغيبته وكشف ضرّه، قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وينبغي لمن دعا ربه في حصول مطلوب أو دفع مهروب، ألا يقتصر في قصده ونيته في حصول مطلوبه الذي دعا لأجله، بل يقصد بدعائه التقرب إلى الله بالدعاء وعبادته التي هي أعلى الغايات، فيكون على يقين من نفع دعائه، وأن الدعاء مخ العبادة وخلاصتها، فإنه يجذب القلب إلى الله، وتلجئه حالته للخضوع والتضرع لله الذي هو المقصود الأعظم في العبادة.

ومن كان قصده في دعائه التقرب إلى الله بالدعاء وحصول مطلوبه فهو أكمل بكثير ممن لا يقصد إلا حصول مطلوبه فقط كحال أكثر الناس، فإن هذا نقص وحرمان لهذا الفضل العظيم، وفي مثل هذا فليتنافس المتنافسون. وهذا من ثمرات العلم النافع، فإن الجهل منعَ الخلق الكثير من مقاصد جليلة

=

تأتي بالحرج بل برفعه، ﴿مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البَقَرَة: ٢٨٦].

ووسائل جميلة، لو عرفوها لقصدوها، ولو شعروا بها لتوسلوا إليها، والله الموفق»[١].

مسألة: هل ينسحب هذا التقرير على الدعاء للغير برفع نازلة دنياهم؟ أي: هل يدخل في ذلك الدعاء برفع البلاء عن الغير.

الجواب: نعم، مثلًا بمثل سواء بسواء، بَيْدَ أنّ الدعاء برفع البلاء عن النفس تكون فيه معاني العبودية ـ غالبًا ـ كالرضا والإخلاص والاضطرار والتعلق أظهر وأشدّ، أما الدعاء برفع البلاء عن الغير فإن فيه مزيد الإحسان للناس وهي عبادة لله محبوبة، ففي الدعاء للغير تحقيق محض النصح له ومحبته، وهما من حقوق الإسلام وأخلاق أهل الإيمان، فالدين النصيحة، فعن تميم الداري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال ﷺ: «**الدين النصيحة**» ثلاثًا. قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «**لله ولكتابه ولرسوله ولأئمّة المسلمين وعامّتهم**»[٢].

ومن مكملات الإيمان محبة أهله، فعن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[٣]. كما يتبع ذلك دعاء الملائكة للداعي بمثل ما دعى به، فعن أبي الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا قال الملَك:**

---

(١) الفتاوى السعدية (١٥).

(٢) مسلم (٥٥).

(٣) البخاري ١/ ١٠ (١٣)، ومسلم ١/ ٤٩ (٤٥) (٧١).

ولك بمِثْل»[1]. وهم خلْقٌ كرام على الله تعالى محبوبون له حَرِيّون أن يُستجاب لهم. وبالله التوفيق ومنه الهدى. وقد أحسن الشاعر فاضل أصفر حين صدح:

وأصـعبُ الجـرحِ جـرحُ الـروحِ ... وأهـونُ الجـرحِ سَـيَّالٌ بـبعضِ دمِ
وأعظـمُ الصـبرِ صـبرُ المـرءِ يتبعُـه ... حمـدٌ وشـكرٌ وتسـليمٌ لـذي الكـرمِ
كم من فقيرٍ صحيحٍ طابَ مرقدُهُ ... وكـم ثـريٍّ مـن الأوجـاعِ لم يـنمِ
وكسرةُ الخبزِ في أكنافِ عافيةٍ ... ألـذُّ طعـمًا من السلوى مع السَّقمِ
وسـائلُ النـاسِ مـتروكٌ لخيبتِـهِ ... وسـائلُ الله لم يُحـرَم مـن الـنِّعَمِ

❀❀❀❀

(١) مسلم ٨/٨٦ (٢٧٣٢) (٨٦) ومعنى بمثل: أي أعطاك الله مثل ما دعوت لأخيك.

هل الدعاء على الظالم فضيلة؟

إن كانت النازلة مظلمة فيشرع الدعاء برفعها من جهة أنها ابتلاء، أما الظالم فيُستحبّ الدعاء له بالهداية والمغفرة مع قطع شرّه عن نفسه وعن الناس، وهذا أفضل من الدعاء عليه، وإن كان ذلك جائزًا لأنّه مِنْ طلبِ الاقتصاص الذي هو من فروع العدل، أما العفو فمن فروع الإحسان وهو أفضل وأكمل، وربنا جل وعز يقول: ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾ [البَقَرَة: ٢٣٧]، ويقول: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ٤٣﴾ [الشُّورَى: ٤٣]، ويقول: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾ [آل عِمۡرَان:١٣٤].

فليس من سيما المؤمنين شفاء صدورهم لأجل دنيا، بل لأجل الدين، كما قال تعالى في نصره لدينه: ﴿وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ﴾ [التَّوۡبَة: ١٤ - ١٥].

إذا كنتَ فِي أمرٍ فكُن فِيهِ مُحْسِنًا   فَعَمّا قليلٍ أنْتَ ماضٍ وتارِكُه

والدعاء انتقام، ونبيّ الله ﷺ ما انتقم لنفسه قط، قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «ما انتقمَ رسول الله ﷺ قطُّ لنفسه، إلا أن تُنتَهك محارمُ الله، فإذا انتُهِكت محارم الله لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله»[1].

---

(١) البخاري (٦٨٥٣) ومسلم (٢٣٢٧).

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قدم الطفيل وأصحابه فقالوا: يا رسول الله، إن دوسًا قد كفرت وأَبَتْ فادع الله عليها! فقيل: هلكت دوس فقال: **«اللَّهم اهدِ دوسًا وائتِ بهم»**(١). والإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما قيل له في الدعاء على ظالمه أجاب: «وما ينفعك أن يُعذِّبَ الله أحدًا بسببك».

فالمؤمن لا يتشفّى للدنيا، بل ينصح لكل المؤمنين ويعفو عنهم إن كان في عفوه إصلاحًا، ويدعو بكف شرّ الظالم عن نفسه وعن الناس. قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والناس أربعة؛ منهم من ينتصر لنفسه ولربه، وهو الذي فيه دين وغضب لله، ومنهم من لا ينتصر لنفسه ولا لربه، وهو الذي فيه جبن وضعفُ دين، ومنهم من ينتقم لنفسه لا لربه، وهو شر الأقسام، وأما الكامل فهو الذي ينتصر لحقّ الله ويعفو عن حق نفسه عند المقدرة»(٢). وقال في الصبر على أذى الناس وترك الانتقام منهم: النوع الرابع: ما يحصل له بفعل الناس في ماله أو عِرضِه أو نفسِه، فهذا النوع يَصعُب الصبرُ عليه جدًّا، لأنّ النفس تستشعِرُ المُؤذيَ لها، وهي تكره الغلبة، فتَطلبُ الانتقام، فلا يَصبِرِ على هذا النوع إلاّ الأنبياء والصدّيقون.

---

(١) مسلم (٢٥٢٤).

(٢) مختصر الفتاوي المصرية لابن تيمية (١ / ٣٢٥).

وكان نبينا ﷺ إذا أُوذِي يقول: «**يَرحمُ اللهُ موسى، لقد أُوذِي بأكثر من هذا فصَبر**»(١). وأَخبَر عن نبي من الأنبياء أنه ضربَه قومُه، فجعلَ يقول: «**اللَّهم اغفِرْ لقومي، فإنهم لا يعلمون**»(٢). وقد رُوي عنه ﷺ أنه جرى له مِثلُ هذا مع قومه، فجعل يقول مِثلَ ذلك(٣). فجمع في هذا ثلاثة أمور: العفو عنهم، والاستغفار لهم، والاعتذار عنهم بأنهم لا يعلمون.

وهذا النوع من الصبر عاقبتُه النصرُ والهُدى والسُّرور والأمنُ، والقوةُ في ذاتِ الله، وزيادةُ محبةِ الله ومحبة الناس له، وزيادةُ العلم. ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السَّجدَة: ٢٤]. فبالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين، فإذا انضاف إلى هذا الصَّبرِ قوةُ اليقين والإيمان تَرَقَّى العبدُ في درجات السعادة بفضل الله تعالى، و﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحَدِيد: ٢١].

---

(١) البخاري (٣١٥٠، ٣٤٠٥) ومسلم (١٠٦٢). وتامل قولهم له عليه السلام ـ وهي المقالة التي لا تكاد تخطِئُها أذنُ داعٍ إلى الله سبيل تعالى على مرِّ الأزمنة ـ: ﴿مَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [القَصَص: ١٩]، فعلى الدعاة إلا يحزنوا، فأجرهم على الله العظيم، لا على مخلوقاته الفانية، ومن كان في الله تَلَفُهُ؛ كان على الله خَلَفُه. ولله أبي الطيب حين قال:

وإذَا أتَتْـكَ مـذمَّتِي مـن نـاقصٍ ... فهـيَ الشَّـهادةُ لي بـأنِّي كَامِـلُ

(٢) البخاري (٣٤٧٧، ٦٩٢٩) ومسلم (١٧٩٢).

(٣) الطبراني عن سهل بن سعد، كما في مجمع الزوائد (٦/ ١١٧). وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فُصِّلَت: ٣٤ - ٣٥].

ويُعِينُ العبدَ على هذا الصبر عدّةُ أشياءَ:

أحدها: أن يشهدَ أن الله سبحانه وتعالى خالقُ أفعالِ العباد، حركاتِهم وسَكَناتِهم وإراداتِهم، فما شاءَ الله كان، ومالم يشأ لم يكن، فلا يتحرك في العالم العُلْوِيّ والسّفليّ ذرَّة إلاّ بإذنه ومشيئتِه، فالعباد آلة، فانظر إلى الذي سَلَّطَهم عليك، ولا تَنظُرْ إلى فِعلِهم بكَ، تَسْتَرِحْ من الهمّ والغَمِّ.

الثاني: أن يَشْهَد ذُنُوبَه، وأنّ الله إنما سلَّطهم عليه بذنبه، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشُّورَى: ٣٠]. فإذا شهد العبدُ أن جميع ما يناله منْ المكروه فسببُه ذنوبُه، اشتغلَ بالتوبة والاستغفار من الذنوب التي سلَّطهم عليه بسببها عن ذَمِّهم ولَومِهم والوقيعةِ فيهم.

وإذا رأيتَ العبدَ يقع في الناس إذا آذَوْه، ولا يَرجع إلى نفسِه باللوم والاستغفار، فاعلمْ أن مصيبتَه مصيبةٌ حقيقية، وإذا تاب واستغفر وقال: هذا بذنوبي، صارتْ في حقّهِ نعمةً. قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كلمةً من

جواهرِ الكلام: «لا يَرجُوَنَّ عبدٌ إلاّ ربَّه، ولا يَخافَنَّ عبدٌ إلاّ ذنبَه»[١]. ورُوِي عنه وعن غيرِه: «ما نزلَ بلاءٌ إلاّ بذنبٍ، ولا رُفِع إلاّ بتوبة»[٢].

الثالث: أن يشهد العبدُ حُسْنَ الثواب الذي وعده الله لمن عَفَا وصَبَر، كما قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠﴾ [الشورى: ٤٠].

ولمّا كان الناسُ عند مقابلة الأذى ثلاثة أقسام: ظالم يأخذ فوق حقّه، ومقتصدٌ يأخذ بقدرِ حقِّه، ومحسنٌ يعفو ويترك حقَّه، ذَكَر الأقسامَ الثلاثة في هذه الآية، فأولها للمقتصدين، ووسطها للسابقين، وآخرها للظالمين.

ويشهد نداءَ المنادي يوم القيامة: **«إلاَ لِيقُم مَن وَجَب أجرُه على الله»**[٣]. فلا يَقُوم إلاّ من عفا وأصلح. وإذا شهِدَ مع ذلك فوتَ الأجر بالانتقام والاستيفاء، سَهُلَ عليه الصبر والعفو.

الرابع: أن يشهد أنه إذا عَفَا وأحسنَ أورثَه ذلك من سلامةِ القلب لإخوانه، ونَقائِه من الغِشّ والغِلّ وطلبِ الانتقام وإرادةِ الشرّ[١]، وحصَلَ له

---

(١) انظر شرحها في مجموع الفتاوى (٨/١٦١-١٨٠).

(٢) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٦/ ٣٥٩) من دعاء العباس بن عبد المطلب رَضِيَٱللَّهُعَنهُ حينما استسقوا به في عام الرمادة، بلفظ: «اللّهم إنه لم ينزل بلاءٌ إلا بذنب، ولم يُكشَف إلا بتوبة...». وإسناده ضعيف جدًّا.

(٣) ابن أبي حاتم وابن مردويه وغيرهما عن ابن عباس وأنس. انظر: الدر المنثور (٧/٣٥٩) عن: محقق جامع المسائل.

من حلاوة العفو ما يزيد لذّتَه ومنفعتَه عاجلاً وآجلاً، على المنفعة الحاصلة له بالانتقام أضعافًا مضاعفةً، ويدخل في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٣٤﴾ [آل عِمْرَان : ١٣٤]، فيصير محبوبًا لله، ويصير حالُه حالَ من أُخِذَ منه درهمٌ فعُوِّضَ عليه ألوفًا من الدنانير، فحينئذٍ يَفرحُ بما منَّ الله عليه أعظمَ فرحًا يكون.

الخامس: أن يعلم أنه ما انتقم أحد قَطُّ لنفسه إلاّ أورثَه ذلك ذُلاًّ يجده في نفسه، فإذا عَفا أعزَّه الله تعالى، وهذا مما أخبر به الصادق المصدوق حيث يقول: «**ما زاد الله عبدًا بعَفْوٍ إلاّ عزًّا**»(٢). فالعزّ الحاصل له بالعفو أحبّ إليه وأنفع له من العَزّ الحاصل له بالانتقام، فإنّ هذا عِزٌّ في الظاهر، وهو يُورِث في الباطن ذُلاًّ، والعفوُ ذُلٌّ في الباطن، وهو يورث العزَّ باطنًا وظاهرًا.

السادس - وهي من أعظم الفوائد -: أن يَشهدَ أن الجزاء من جنس العمل، وأنه نفسه ظالمٌ مذنب، وأنّ من عَفا عن الناس عَفَا الله عنه، ومن غَفَر لهم غَفر الله له. فإذا شَهِدَ أن عفوه عنهم وصفحَه وإحسانَه مع إساءتِهم إليه سببٌ لأن يجزيه الله كذلك من جنس عمله، فيعفو عنه ويصفح، ويُحسِن إليه على ذنوبه، ويَسْهُل عليه عفوُه وصبرُه، ويكفي العاقل هذه الفائدةُ.

=

(١) ذكر أبو يعلى في طبقات الحنابلة (١ / ١٩٦) أنّ رجلًا جاء إلى الإمام أحمد فقال له: نكتبُ عن فلان؟ فقال: إذا لم تكتب عنه فعمّن يكون ذلك؟! قالها مرارًا. فقال له الرجل: إنه يتكلّم فيك. فقال الإمام أحمد: رجلٌ صالح، ابتُلي فينا، فماذا نعمل!

(٢) مسلم (٢٥٨٨).

السابع: أن يَعلم أنه إذا اشتغلتْ نفسُه بالانتقام وطلب المقابلة ضاعَ عليه زمانُه، وتفرَّقَ عليه قلبُه، وفاتَه من مصالحِه مالا يُمَكِن استدراكُهُ، ولعلّ هذا أعظم عليه من المصيبة التي نالتْه من جهتهم، فإذا عفا وصَفحَ فرَغَ قلبُه وجسمُه لمصالحه التي هي أهمُّ عنده من الانتقام.

الثامن: أن انتقامَه واستيفاءَه وانتصارَه لنفسه، ورسولُ الله عليه وسلم ما انتقمَ لنفسِه قَطُّ، فإذا كان هذا خيرَ خلق الله وأكرمَهم على الله لم يَنتقِمْ لنفسِه، مع أن أَذَاه أَذَى الله، ويتعلّقُ به حقوق الدين، ونفسه أشرف الأنفُس وأزكاها وأبرُّها، وأبعدُها من كلّ خُلُقٍ مذمومٍ، وأحقُّها بكل خُلُقٍ جميلٍ، ومع هذا فلم يكن يَنتقِم لها، فكيف يَنتقِمُ أحدنا لنفسِه التي هو أعلم بها وبما فيها من الشرور والعيوب، بل الرجل العارف لا تُساوِي نفسُه عنده أن ينتقم لها، ولا قدرَ لها عنده يُوجِبُ عليه انتصارَه لها.

التاسع: إن أُوذِيَ على ما فعلَه لله، أو على ما أُمِرَ به من طاعتِه ونُهِي عنه من معصيتِه، وجبَ عليه الصبرُ، ولم يكن له الانتقام، فإنّه قد أوذِي في الله فأجرُه على الله[1].

---

(١) وهذا ملحظٌ عظيم جدًّا، حريٌّ بكل داعٍ إلى سبيل ربه أن يتأمله، وأن يحويه في صدره، فسبيل الأنبياء وأتباعهم مليء بأذى الناس الذين يعادون ويصاولون عن شهواتهم المحرمة من أراد حجزهم عنها لمرضاة الله تعالى، كما قال جل وعز: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾
=

ولهذا لمّا كان المجاهدون في سبيل الله ذهبتْ دماؤهم وأموالُهم في الله لم تكن مضمونةً، فإن الله اشترى منهم أنفسهم وأموالهم، فالثمن على الله لا على الخلق، فمن طلبَ الثمنَ منهم لم يكن له على الله ثمنٌ، فإنه من كان في الله تَلَفُه كان على الله خَلَفُه، وإن كان قد أُوذِي على مصيبة فليَرجعْ باللومِ على نفسِه، ويكون في لَومِه لها شُغْلٌ عن لَومِه لمن آذاه، وإن كان قد أُوذِي على حظّ فليُوطِّن نفسَه على الصبر، فإنّ نيلَ الحُظوظِ دونَه أمرٌ أَمَرُّ من الصَّبر، فمن لم يصبر على حرِّ الهَوَاجر والأمطارِ والثلوج ومشقةِ الأسفارِ ولصوصِ الطريقِ، وإلاّ فلا حاجةَ له في المتاجر.

وهذا أمر معلوم عند الناس أنّ مَن صدَقَ في طلب شيء من الأشياء بُدِّل من الصبر في تحصيله بقدر صدقِه في طلبِه.

العاشر: أن يَشهدَ معيَّةَ الله معه إذا صَبَر، ومحبَّةَ الله له إذا صَبَر، ورِضاه. ومن كان الله معه دَفَع عنه أنواعَ الأذى والمضرَّات مالا يَدفعُه عنه أحدٌ من خلقِه، قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٤٦﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٤٦﴾ [آل عِمرَان: ١٤٦].

=

[الفُرْقَان: ٣١]، والمقصود؛ أن من أوقف نفسه لله فلا يُشرع له الانتقام لنفسه إن أوذي من أجل الله، فهو لله وبالله وإلى الله، وفي سبيل الله، وضامن على الله، وأجره على الله تعالى.

الحادي عشر: أن يَشهد أن الصبرَ نِصفُ الإيمان، فلا يبدّل من إيمانه جَزاءً في نُصرةِ نفسِه، فإذا صَبَر فقد أَحرزَ إيمانَه، وصانَه من النقص، والله يدافع عن الذين آمنوا.

الثاني عشر: أن يشهد أنّ صبرَه حكمٌ منه على نفسِه، وقَهرٌ لها، وغَلَبةٌ لها، فمتَى كانتِ النفسُ مقهورةً معَه مغلوبةً، لم تطمعْ في استرقاقِه وأَسْرِه وإلقائِه في المهالك، ومتى كان مطيعًا لها سامعًا منها مقهورًا معها، لم تزَلْ به حتَّى تُهلِكَه، أو تتداركَه رحمةٌ من ربِّه. فلو لم يكن في الصبر إلاّ قَهرُه لنفسِه ولشيطانِه، فحينئذٍ يَظهرُ سلطانُ القلبِ، وتَثبُتُ جنودُه، ويَفرَحُ ويَقوى، ويَطْرُد العدوَّ عنه.

الثالث عشر: أن يعلم أنه إن صبرَ فاللهُ ناصرُه ولا بُدَّ، فاللهُ وكيلُ من صَبر، وأحالَ ظالمَه على الله، ومن انتصَر لنفسِه وكلَهُ اللهُ إلى نفسِه، فكان هو الناصر لها. فأينَ مَن ناصِرُه اللهُ خيرُ الناصرين إلى مَن ناصِرُه نفسُه أعجز الناصرين وأضعفُه؟

الرابع عشر: أن صَبْرَه على من آذاه واحتمالَه له يُوجِبُ رجوعَ خَصْمِه عن ظُلْمِه، ونَدامتَه واعتذارَه، ولومَ الناسِ له، فيعودُ بعد إيذائِه له مستحيًا منه نادمًا على ما فعلَه، بل يَصيرُ مواليًا له. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فُصِّلَت: ٣٤ - ٣٥].

الخامس عشر: ربّما كان انتقامُه ومقابلتُه سببًا لزيادة شرِّ خصمِه، وقوّةِ نفسِه، وفكرته في أنواع الأذى التي يُوصِلُها إليه، كما هو المشاهَد. فإذا صبر

وعفا أَمِنَ من هذا الضرر، والعاقلُ لا يختارُ أعظمَ الضررين بدَفْعِ أدناهما. وكم قد جلبَ الانتقامُ والمقابلةُ من شرٍّ عَجَزَ صاحبُه عن دفعِه، وكم قد ذهبتْ نفوس ورِئاسَات وأموال لَو عفا المظلومُ لبقيتْ له.

السادس عشر: أنّ من اعتادَ الانتقام ولم يَصبِرْ لا بُدَّ أن يقعَ في الظلم، فإنّ النفس لا تَقتصِرُ على قدرِ العَدْل الواجب لها، لا علمًا ولا إرادةً، وربما عجزت عن الاقتصار على قدرِ الحقّ، فإنّ الغضبَ يَخرُجُ بصاحبه إلى حدٍّ لا يَعقِلُ ما يقول ويفعل، فبينما هو مظلوم يَنتظِرُ النَّصْرَ وَالعِز، إذ انقلبَ ظالمًا يَنتظِرُ المقتَ والعقوبةَ.

السابع عشر: أنّ هذه المَظْلَمةَ التي ظُلِمَها هي سبب إمّا لتكفيرِ سيئتِه، أو رَفْعِ درجتِه، فإذا انتقمَ ولم يَصبِرْ لم تكنْ مُكفِّرةً لسيئتِه ولا رافعةً لدرجتِه.

الثامن عشر: أنّ عفوَه وصبرَه من أكبر الجُنْدِ له على خَصْمِه، فإنّ من صَبَرَ وعفا كان صبرُه وعفوه مُوجِبًا لذُل عدوِّه وخوفِه وخَشيتِه منه ومن الناس، فإنّ الناس لا يسكتون عن خصمِه، وإن سَكتَ هو، فإذا انتقمَ زالَ ذلك كلُّه. ولهذا تَجِدُ كثيرًا من الناس إذا شَتَم غيرَه أو آذاه يُحِبُّ أن يَستوفيَ منه، فإذا قابله استراحَ وألقَى عنه ثِقلًا كان يجده.

التاسع عشر: أنه إذا عفا عن خصمِه استشعرتْ نفسُ خصمِه أنه فوقَه، وأنه قد رَبِحَ عليه، فلا يزال يرى نفسَه دونَه، وكفى بهذا فضلًا وشرفًا للعفو.

العشرون: أنه إذا عفا وصَفَحَ كانت هذه حسنةً، فتُوَلِّدُ له حسنةً أخرى، وتلك الأخرى تُولِّدُ له أخرى، وهَلُمَّ جرًّا، فلا تزال حسناتُه في مزيد، فإنّ من

ثواب الحسنةِ الحسنة، كما أنّ من عقاب السيئةِ السيئة بعدها. وربّما كان هذا سببًا لنجاتِه وسعادتِه الأبدية، فإذًا انتقم وانتصرَ زال ذلك[١].

ومن عجائب شيخ الإسلام ابن تيمية التي تدل على سمو أخلاقه العالية وسلامة صدره ما ذكره الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أنّ شيخ الإسلام لما ألف كتابه «الاستغاثة» وهو المعروف بالرد على البكري[٢] ترصّد له ابن البكري الصوفي على الطريق ومعه جماعة من أصحابه، وضربوا شيخ الإسلام ضربًا شديدًا حتى طرحوه على الأرض، ثم هربوا.

فاجتمع كثير من محبيه بعدها ومعهم الجند وطلبوا من شيخ الإسلام أن يأذن لهم بالانتقام من ابن البكري فرفض شيخ الإسلام وقال لهم: «إما أن يكون الحق لي أو لكم أو لله؛ فإن كان لي فهو في حلٍّ، وإن كان لكم فإن لم تسمعوا مني فلا تستفتوني وافعلوا ما شئتم، وإن كان لله فالله يأخذ حقه كيف شاء متى شاء».

قالوا: فهذا الذي فعلوه معك هو حلال لهم؟ قال: «هذا الذي فعلوه قد يكونون مثابين عليه مأجورين فيه»! فقالوا: فتكون أنت على الباطل وهم على الحق، فإذا كنت تقول إنهم مأجورين فاسمع منهم ووافقهم على قولهم. فقال

---

(١) جامع المسائل لابن تيمية، تحقيق عزير شمس (١/ ١٦٨- ١٧٤) بتصرف يسير.

(٢) وهو كتاب غزير الفوائد عظيم النفع، وبخاصة في زماننا، لأنه في رد شبه القبورية عن توحيد العبادة لله تعالى. وقد لخصه ابن كثير في كتاب «تلخيص كتاب الاستغاثة».

لهم: «ليس الأمر كما تزعمون، فإنهم قد يكونون مجتهدين مخطئين، ففعلوا ذلك باجتهادهم، والمجتهد المخطئ له أجر»(١).

لكنهم لم يكترثوا لكلامه، وسعوا في طلب ابن البكري في كل مكان، وضيّقوا عليه حتى لم يجد مكانًا يختبئ فيه إلا بيت شيخ الإسلام، فآواه شيخ الإسلام وخبأه وشفع له عند السلطان فعفا عنه السلطان!(٢)

---

(١) وهذا معنى بديع، وقصد شريف، ونباهة نادرة لهذا الإمام، وبخاصة في هذا المقام، ذلك أنّ النفوس تضعف عند فوران قِدْر الغضب، والحكمة تعزب حين عصفِ سوء الظن بالناس.

ومن نماذج حسن الظن الجميل في الناس ما نقله الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أدب الدنيا والدين (١/١٨٠) عن بنتِ عبد الله بنِ مُطِيعٍ أنَّها قالَت لِزوجِها طَلحَةَ بنِ عَبدِ الرحمنِ بنِ عَوف الزُّهْرِيِّ، وكان أجوَدَ قريش في زمانِهِ: ما رَأيت قومًا ألْأمَ مِن إخوانِك! قالَ: مَهْ، ولِمَ ذَلِكَ؟ قالَت: أراهُم إذا أيسَرت لزِمُوك، وإذا أعسَرت تَرَكُوك. قالَ: هَذا واللَّه مِن كَرمِهِم، يَأْتُوننا فِي حالِ القُوَّةِ بنا عَلَيهِم، ويَتركوننا فِي حالِ الضَّعفِ بنا عنهُم. فانظر كيف تأوَّل بكرمه هذا التَّأْويل حتّى جَعل قبيحَ فعلهم حَسنًا، وظاهِرَ جفائهم وفاءً. وهَذا مَحضُ الكَرَمِ ولُبابُ الفَضل، وبمثل هذا يَلزمُ ذَوِي الفضل أن يتأولوا الهفواتِ من إخوانهم.

وإنّ الـــذي حـــانَتْ بِفَـــلْـــجٍ دمـاؤهم   هم القـــومُ كلُّ القـــومِ يا أم خـــالدِ

(٢) انظر: البداية والنهاية (١٤/٧٦)، وذيل طبقات الحنابلة (٢/٤٠٠)، والعقود الدرية (ص٢٨٦)، والكواكب الدرية (ص١٣٩) وفي ذكره لخبر إصلاحه بين الحنابلة والأشعرية مجموع الفتاوى (٣/ ٢٢٧).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الفتنة التي كانت بينه وبين ابن مخلوف[1]: «وأنا والله من أعظم الناس معاونة على إطفاء كل شر فيها وفي غيرها، وإقامة كل خير. وابن مخلوف لو عمل مهما عمل والله ما أقدر على خير إلا وأعمله معه، ولا أعين عليه عدوه قط، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(١) والسبب وراء هذه المحنة أن السلطان بيبرس الجاشنكير طلب ابن تيمية إلى مصر يوم الخامس من رمضان عام ٧٠٥ فتوجه إليها ابن تيمية فدخلها يوم ٢٢ رمضان، فعُقد له مجلس بالقلعة، وقد اجتمع فيها القضاة وأكابر الدولة، وفي المجلس أراد ابن تيمية الكلام إلّا أنه لم يُسمح له، وادَّعى عليه ابن مخلوف المالكي (قاضي المالكية وكان من أشد خصوم ابن تيمية) ومعه نصر المَنْبِجي (الصوفي الضال الحلولي الاتحادي، وكان صاحب حظوة ووجاهة عند أمير مصر بيبرس الجاشنكير)؛ حيث ادّعى ابن مخلوف على ابن تيمية أنه يقول: «إن الله فوق العرش حقيقة، وإن الله يتكلم بحرف وصوت»، فسأله القاضي عن ذلك، فأخذ ابن تيمية يبدأ حديثه في حمد الله والثناء عليه، فقيل له: «أجب، ما جئنا بك لتخطب»، فعلم أنها المحاكمة لا المجادلة، فقال: «ومن الحاكم فيَّ؟» قيل له: «القاضي المالكي»، فقال له الشيخ: «كيف تحكم فيَّ وأنت خصمي؟»، فغضِب غضبًا شديدًا وانزعج، فأصدر حكمه عليه، وحُبس ابن تيمية في برج أيامًا، ثم نُقل مع أخويه: شرف الدين عبد الله، وزين الدين عبد الرحمن إلى الحبس المعروف باسم «الجُبِّ» في ليلة عيد الفطر.

ثم استطاع الملك الناصر محمد بن قلوون أن يستعيد ملكه ثانية، ويخرج ابن تيمية من محبسه ويستشيره في قتل ابن مخلوف والمنبجي وغيرهم، فرفض ابن تيمية ورده عما هم به من البطش بهم. ومرت الأيام ثم حبسه الناصر الحبسة السابعة حتى مات في حبسه رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وانظر: البداية والنهاية، لابن كثير (١٤/ ٤٣).

هذه نيتي وعزمي مع علمي بجميع الأمور، فإني أعلم أن الشيطان ينزغ بين المؤمنين، ولن أكون عونًا للشيطان على إخواني المسلمين، ولو كنت خارجًا لكنت أعلم بماذا أعاونه، لكن هذه مسألة قد فعلوها زورًا والله يختار للمسلمين جميعهم ما فيه الخيرة في دينهم ودنياهم، ولن ينقطع الدور وتزول الحيرة إلا بالإنابة إلى الله والاستغفار والتوبة وصدق الالتجاء، فإنه سبحانه لا ملجأ منه إلا إليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله»(١).

وقال(٢):«إنّي قد أحللتُ السلطانَ الملكَ الناصر مِن حبسه إياي لكونه فعل ذلك مقلدًا غيره معذورًا، ولم يفعله لحظ نفسه، بل لما بلغه مما ظنه حقًّا من مُبلغه، والله يعلم أنه بخلافه، وقد أحللتُ كل واحد مما كان بيني وبينه إلا من كان عدوًّا لله، ورسوله» (٣).

ولما استشاره الملك الناصر محمد بن قلاوون في قتل القضاة الذين آذوه وكانوا قد أفتوا بقتله، وكان قد أخرج من جيبه فتاوى لبعضهم في قتله، واستفتاه في قتل بعضهم، قال ابن تيمية: «ففهمت مقصوده، وأنّ عنده حنقًا شديدًا عليهم لمّا خلعوه وبايعوا الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير. فشرعت في مدحهم والثناء عليهم وشكرهم، وأن هؤلاء لو ذهبوا لم تجد مثلهم في دولتك، أما أنا فهم في حلّ من حقي ومن جهتي، وسكّنت ما عنده

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٢٧١).
(٢) في سجنه الأخير.
(٣) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية (ص: ٨٢).

عليهم». فكان القاضي ابن مخلوف قاضي المالكية يقول بعد ذلك: «ما رأينا أتقى من ابن تيمية، لم نُبق ممكنًا في السعي فيه، ولما قدر علينا عفا عنا»(١).

ومن كلامه النفيس جدًّا فيمن آذوه، في رسالة كتبها لأصحابه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فلا أحب أن ينتصر من أحد بسبب كذبه علي أو ظلمه وعدوانه، فإني قد أحللت كل مسلم، وأنا أحب الخير لكل المسلمين، وأريد بكل مؤمن من الخير ما أحبه لنفسي، والذين كذبوا وظلموا فهم في حلّ من جهتي، وأما ما يتعلق بحقوق الله فإن تابوا تاب الله عليهم وإلا فحكم الله نافذ فيهم. فلو كان الرجل مشكورًا على سوء عمله لكنت أشكر كل من كان سببًا في هذه القضية؛ لما ترتّب عليها من خير الدنيا والآخرة(٢)، لكن الله هو المشكور على حسن نعمه وآلائه وأياديه التي لا يقضي للمؤمن قضاء إلا كان خيرًا له، وأهل القصد الصالح يشكرون على قصدهم وأهل العمل الصالح يشكرون على عملهم وأهل السيئات نسأل الله أن يتوب عليهم»(٣).

كَـأنّ نسـيمَ ذِكْـرَاهُ سُـحيرًا ... نسـيمَ الـرَّوْضِ تقبلـه القبُـولُ
إذا وافى أنـوفَ الرَّكـبِ قـالُوا ... سـحيقُ المسـكِ أم عِطـرٌ مَهيـلُ
أيَـا قمـرَ المكـارم والمعَـالي ... أبـنْ لي كَيـفَ عاجلـكَ الأُفـولُ

---

(١) العقود الدرية (ص: ٢٩٨).

(٢) أي: من كونهم سببًا في خلوته بالله تعالى وأنسه به، والتفكر في الآلاء، والتدبر في الآيات، والتأمل في الحياة وبعد المات، بعيدًا عن الصوارف والمشغلات.

(٣) العقود الدرية (ص: ٢٨١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان بعض أصحابه الأكابر يقول: وددتّ أني لأصحابي مثله لأعدائه وخصومه، وما رأيته يدعو على أحد منهم قط، وكان يدعو لهم. وجئتُ يومًا مبشرًا له بموت أكبر أعدائه، وأشدّهم عداوة وأذى له، فنهَرَنِي وتنكّر لي واسترجع، ثم قام من فوره إلى بيت أهله فعزاهم، وقال: إني لكم مكانه، ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه، ونحو هذا من الكلام، فسُرّوا به ودعوا له وعظّموا هذه الحال منه، فرحمه الله تعالى ورضي عنه»(١).

وإن القبول في قلوب الناس منحة ربانية يهبها من يشاء من عباده الصالحين، ونحسب أن ابن تيمية منهم ولا نزكي على الله أحدًا، فعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النّبيّ ﷺ قال: **«إِذَا أَحَبَّ اللهُ تَعَالَى العَبْدَ؛ نَادَى جِبريلَ: إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُحِبُّ فُلانًا فَأَحْبِبْهُ، فَيُحِبُّهُ جِبريلُ، فَيُنَادِي فِي أَهْلِ السَّماءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّماءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي الأَرْضِ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبدًا دَعَا جِبريل، فَيَقُولُ: إِنّي أُبْغِضُ فُلانًا فَأَبْغِضْهُ. فَيُبْغِضُهُ جِبريلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّماءِ: إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ فُلانًا فَأَبْغِضُوهُ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ البَغْضَاءُ فِي الأَرْضِ»**(٢).

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣٤٥).

(٢) البخاري ٤/١٣٥ (٣٢٠٩)، ومسلم ٨/٤٠ (٢٦٣٧) (١٥٧) وقوله: **«وإذا أبغض..»** الحديث، من زيادات مسلم. وأخرجه الترمذي (٣١٦١) مثل مسلم، وزاد: «فذاك قول الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦﴾ [مَريَم: ٩٦].

وعن انس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: مُرَّ بجنازة، فأُثْنِيَ عليها خيرٌ، فقال النبيُّ ﷺ: **«وجبتْ، وجبت، وجبت»**، ومُرَّ بجنازة، فأُثْنِيَ عليها شرٌّ، فقال نبيُّ الله ﷺ: **«وَجَبَتْ، وجبت، وجبت»**، فقال عمر: فِدى لك أبي وأمّي، مُرَّ بجنازة فأثني عليها خيرٌ، فقلتَ: **«وجبت، وجبت، وجبتْ»**، ومُرَّ بجنازة فأُثني عليها شرّ، فقلت: **«وجبت، وجبت، وجبت»؟** فقال رسولُ الله ﷺ: **«من أثنيتم عليه خيرًا وَجَبَتْ له الجنّة، ومن أثنيتُم عليه شرًّا وجبتْ له النار، أنتم شهداءُ الله في الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض»**[1].

وإنّ عامّة الناس لا يُجاملون في العادة لا ثناء ولا ذمًّا، أنما يصنع ذلك من كان له غرضٌ وحظٌّ خاصٌّ، أمّا سواد الناس وهم الأعمّ الأغلب ممن يحيط بذلك الإنسان من قريب وبعيد فلا تخطئ ألسنتهم إحدى هذه الثلاث: إما الثناء بخير، أو بشر، أو السكوت عنه، وعدم رفع الرأس بأمره.

فإنّ بَسْطَ ألسنةِ المؤمنين بالثناء العامّ على إنسان هو محض ألطافٍ ربّانية، يختصّ الله تعالى بها من شاء من صالحي عباده، فهي من عاجل بشراه في حياته، ومن أسباب فلاحه في معاده بشهادة المؤمنين له بين يدي ربهم تبارك وتعالى، وعكسها عاجل عذاب بسيء السُّمعة عياذًا بالله تعالى إن كان ثناء شرٍّ بحق، فقد يكون محض ابتلاء من الله تعالى ببهت بعض رؤوس الناس له فتتبعهم العامة بثناء الشرّ، وإن كادت القلوب لا تكاد تتواردُ على بُغضه.

(١) البخاري ٢/١٢١ (١٣٦٧) ومسلم ٣/٥٣ (٩٤٩) (٦٠) واللفظ له.

فالسعيد من رحل عن الدنيا وقلوب المؤمنين له محبة وألسنتهم له عند لله شاهدة، فلا يستنطق القلوبَ بثناء الألسنِ إلّا القبول العام، مِنَّةٌ من الله تعالى ورحمةً وكرامةً لعبده، وقبولٍ حسنٍ من لدنه، والعكس كذلك، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وأحسنُ الناسِ مَنْ للناسِ أنفعُهم ... وأسوأ الناسِ زهَّادٌ بذي رَحِمِ
وأصدقُ الصحبِ مَنْ في العُسرِ تبصرُهُ ... وأكذبُ الصحبِ من في الضيقِ عنكَ عَمِ

الدعاءُ لرفع نازلة الدِّين

رأسُ مال المؤمن دِينُه وإيمانُه وإسلامُه، لذا فإن كانت البليّة والرزيّة في الدِّين فلا ينبغي أن يكون تردّدٌ أو خلافٌ في أمر الدعاء برفع تلك البليّة، فما خُلقنا إلا لإقامة الدين، وما لِكَسر قناة الدين جبرانٌ، ولئن ساغ الرضا بمُرِّ القضاء والمقدور في رزايا الأمور الدنيوية مع ترك الدعاء برفعه؛ فلا يسوغ ذلك بأي حالٍ في بلاء الدِّين، لأنها ذنوب وخطيئات، والعبد مأمور بالاحتراز منها في الابتداء، وبالتخلص منها ومن أدرانها وآثارها إن الْتَطَخَ بها، أما ما يفعله بعض الجهلة في انغماسهم في الرضا بالذنوب والرذائل والخطايا زعمًا بأنهم جارين مع الرضا بالقضاء، والسير مع القدر، وخلطوا بين الإرادتين الشرعية والكونية؛ فهذا محض الجهل، ودهليز الخرافة، وسابلة الضلال، ورِشا الرقاب لحتوف الجحيم، وقد سبق الجواب عليه وكشف شبهاته فيما سبق.

إيرادٌ وجوابُه: ورد حديثان بخصوص هذا الموضوع قد يُساء فهمهما وتنزيلهما على غير محلّهما، وهما حديثا المرأة التي كانت تُصرع والرجل الضرير.

وقد يظنّ بعض الأفاضل أنّ فيهما فضيلة ترك الدعاء لرفع البلاء وليسا كذلك؛ لأن دعوة الرسول ﷺ لهما في أمرهما هذا مستجابة، لإخباره لهما بذلك[1]، فخرج بهذا الفارق عن مناط مسألتنا، لأن الدعاء عبادة مستقلة

---

(١) **مسألة:** هل دعاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كله مستجاب؟

=

=

الجواب: المسألة فيها تفصيل: فدعاء الثناء كله مُجاب ـ بمعنى الثواب ـ أما دعاء المسألة فهو على قسمين:

الأول: الإجابة العامة، بمعنى أن الله تعالى يستجيب دعاءهم كله بالمعنى العام، وهو أنه يعجّل تحقيقها لهم، أو يؤخرها لحكمة، أو يدفع من البلاء بقدرها، أو يدّخرها أجرًا وذخرًا، فمن هذه الحيثية كل دعاءهم مجاب لأنّهم كُمَّلُ البشر، وأقومهم عبودية لله تعالى، وأحبُّ الخلائق إلى الله سبحانه، وهم أدعى الناس للإتيان بشروط إجابة الدعاء واستكمال آدابه، مع قيامهم بحق الله تعالى وإقامة دينه، وقد وعد الله من هذا شأنه بالإجابة، قال سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غَافِر: ٦٠].

الثاني: الإجابة الخاصة، بمعنى تحقيق المطلوب وتنجيزه، فالأصل إجابة دعوتهم بتنجيزها إلا لحكمة يريدها الله تبارك وتعالى اقتضت ذلك، فليس بمضطرد تحقيق ذلك، وإن كانوا هم أرجى الناس لتحقيق الله لهم ذلك، إلا ما خصّه الله لهم من ذلك، كما في شفاعته ﷺ لأمته يوم القيامة، قال ﷺ فيما رواه البخاري (٦٣٠٤) ومسلم (١٩٩) واللفظ له عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لكل نبيٍّ دعوةٌ مستجابة، فتعجّل كلُّ نبيّ دعوته، وإنّي اختبأتُ دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا»**، وفي رواية: **«لكل نبيّ دعوة دعا بها في أمته فاستجيب له، وإني أريد إن شاء الله أن أؤخر دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة»**. قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في المنهاج ـ وهو شرحه على مسلم ـ (٣ / ٧٥): «هذه الأحاديث يفسر بعضها بعضًا، ومعناها أن كل نبي له دعوة متيقنة الإجابة، وهو على يقين من إجابتها، وأما باقي دعواتهم فهم على طمع من إجابتها، وبعضها يجاب وبعضها لا يجاب. وذكر القاضي عياض أنه يحتمل أن يكون المراد لكل نبي دعوة لأمته. وفي هذا الحديث بيان كمال شفقة النبي ﷺ على أمته، ورأفته

=

=
بهم، واعتنائه بالنظر في مصالحهم المهمة، فأخّر النبي ﷺ دعوته لأمته إلى أهمّ أوقات حاجاتهم».

وفي عمدة القاري (٣٣ / ٤٤): «فإن قلت: وقع للكثير من الأنبياء عليهم السلام من الدعوات المجابة ولا سيما نبينا، وظاهرُه أن لكل نبي دعوة مجابة فقط. قلت: أجيب بأن المراد بالإجابة في الدعوة المذكورة القطع بها، وما عدا ذلك من دعواتهم فهو على رجاء الإجابة. وقيل معنى قوله: **«لكل نبي دعوة»** أي: أفضل دعواته، وقيل: لكل منهم دعوة عامة مستجابة في أمته إما بإهلاكهم وإما بنجاتهم، وأما الدعوات الخاصة فمنها ما يستجاب ومنها ما لا يستجاب. قلت: لا يحسن أن يقال في حق نبي من الأنبياء أن يقال: مِن دعواته ما لا يُستجاب، والمعنى الذي يليق بحالهم أن يقال: مِن دعواتهم ما يستجاب في الحال، ومنها ما يؤخّر إلى وقتٍ أرادهُ الله عز وجل أن اختبأ ـ أي أدّخر ـ وجعلها خبيئة». أهـ.

قلت: ولو قال: أجابهم بالمعنى العام كان أصوب؛ لأن منها ما لم يستجب له مُنَجَّزًا ولا مُؤخَّرًا. أي: بالإجابة الخاصة المُنجّزة، وإن كان قد استجاب له إن شاء الله الإجابة العامة ومنها الإثابة كدعائه ﷺ على أناس بأعيانهم فهداهم الله للإسلام ـ وسيأتي بإذن الله تعالى ـ.

وقال في مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٧ / ٦٨٣): «وقيل: معناه إن لكل منهم دعوة تخصه لدنياه أو لنفسه، كقول نوح: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ [نوح: ٢٦]، وقول زكريا: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَ﴾ [مريم: ٥]، وقول سليمان: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ [ص: ٣٥] ص: ٣٥. حكاه ابن التين». أهـ.

وقد دلت السنة على هذا، فمن ذلك ما رواه البخاري (٧/٤٢٣) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كان النبي ﷺ يدعو على صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث
=

مطلوبة بذاتها، ولم يرد في الشرع مشروعية تركها بحال، وليس في الحديثين أمرهما بترك الدعاء، هذا أوّلًا. ثانيًا: قد ترد خصوصيةٌ لكل منهما، وبيان ذلك فيما يلي:

أولًا: حديث المرأة التي كانت تُصرَع:

عن عطاء بن أبي رباح رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: قال لي ابن عباس رضي الله عنهما: ألا أُريكَ امرأة من أهل الجنة؟ فقلت: بلى، قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ، فقالت: إني أصرع، وإني أتكشّف، فادع الله تعالى لي. قال: **«إن شئتِ صبرتِ ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله تعالى أن يعافيَكِ»** فقالت: أصبر، فقالت: إني أتكشّف فادع الله ألا أتكشّف، فدعا لها[1]. وفي الحديث تخيير

=

بن هشام» فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ١٢٨﴾ [آل عِمرَان : ١٢٨]، وفي رواية الترمذي (٣٠٠٤) وصححه الألباني، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ يوم أحد: **«اللّهم العن أبا سفيان، اللّهم العن الحارث بن هشام، اللّهم العن صفوان بن أمية»**، فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ١٢٨﴾ [آل عِمرَان : ١٢٨] فتاب عليهم فأسلموا، فحسن إسلامهم.

(١) البخاري ٧/ ١٥٠ و١٥١ (٥٦٥٢) ومسلم ٨/ ١٦ (٢٥٧٦) وعند البخاري في رواية عن عطاء: «أنه رأى أمَّ زفر تلك المرأة الطويلة السوداء على ستر الكعبة» وفي معرفة الصحابة لأبي نعيم (٦ / ٣٣٧٥) عن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس: «ألا أُريكَ امرأةً من أهل الجنة»؟ قال فأراني حبشيّة صفراء عظيمة، يقال: هذه شقيرة.

المرأة بين الصبر وضمان الجنة، وبين الدعاء لشفائها الناجز[١]، فاختارت ما عند الله رضي الله عنها، وهذا الحديث ليس مما نحن بسبيله من عدم التعارض

---

(١) **مباحث في الصَّرْع:**

الصرْع ـ بتسكين الراء ـ: هو علة في الجهاز العصبي، تصحبها غيبوبة وتَثَنّي في العضلات. وهو منقسم على الروح والجسد، فصرع الروح علّته قوى خفية كتلبّس الجان للمصروع، فيؤثر على الجسد فيصرعه. ودواء هذا النوع بالتوكل على الله تعالى وبالرقية والدعاء والاستغفار.

أما صرع الجسد فهو علّة في الأعصاب لها أنواع سببها ـ بإذن الله تعالى ـ خلل في الجهاز العصبي، ودواء هذا النوع هو عين دواء النوع الأول مع زيادة أدوية الأطباء الحسية؛ كوخزات الكهرباء، أو بالأدوية والعقاقير المعتادة، ومع تقدم العلوم الطبية في مجال أمراض الدماغ والأعصاب عُرفت أنواع عديدة من الصرع تعود إلى خلل في كهرباء الدماغ يؤثر في أعضاء البدن، ولها أدوية تنظم كهرباء الدماغ فتمنع الصرع بإذن الله. وكذلك لبعض أنواعه علاج بالجلسات النفسية أحيانًا.

والصرع بنوعيه من جملة الابتلاء الإلهي كبقية الابتلاءات بالأمراض وغيرها التي تستوجب رجوعًا لله تعالى، وتعلقًا به سبحانه، وانطراحًا بين يديه، وانكسارًا لعظمته، وتذلّلًا لعزته تبارك وتعالى، مع بذل الوسع في رفع البلاء بالدعاء دومًا، وباستحباب الدواء أحيانًا.

وقد كثر خوض الناس في هذا الزمان في مسألة تلبّس الجانّ بالإنسان، وهذه المسألة مبنيّة على أُسّين:

أولاهما: وجود الجن، فهذا أمر معلوم متيقن منه، ومُنكِرُ الجنِّ كافرٌ لتكذيبه صريح القرآن والسنة المتواترة، فقد ذكرهم الله تعالى في آيات عديدة، كقوله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، بل أنزل سورة سميت باسمهم، =

=
قال تعالى: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ۝١﴾ [الجن: ١]. وعدم رؤيتنا لهم لا ينفي وجودهم، فقد جعل الله لهم خاصية الاختفاء عن أعيننا، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡ﴾ [الأعراف: ٢٧]، وذكر سبحانه وتعالى أصل خلق الجن فقال تعالى: ﴿وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧﴾ [الحجر: ٢٧]، وقال النبي ﷺ: **«خُلِقَتْ الملائكةُ من نور، وخُلِقَ الجانُّ من نار، وخُلِقَ آدمُ مما وُصف لكم»**، رواه مسلم (٥٣١٤)

ولا يوجد في طوائف المسلمين من ينكر وجود الجن، بل حتى الكفار من اليهود والنصارى يؤمنون بوجودهم، قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مجموع الفتاوى (١٠/١٨): «لم يخالف أحد من طوائف المسلمين في وجود الجن، ولا في أن الله أرسل محمدًا ﷺ إليهم. وجمهور طوائف الكفار على إثبات الجن. أما أهل الكتاب من اليهود والنصارى فهم مقرون بهم كإقرار المسلمين.. وهذا لأن وجود الجن تواترت به أخبار الأنبياء تواترا معلومًا بالاضطرار». وقال في الرد على المنطقيين (٤٧٠): «عامّة أساطين الفلاسفة كانوا يقرون بهذه الأشياء، وكذلك أئمة الأطباء كأبقراط وغيره يقرّ بالجن، ويجعل الصرع نوعين: صرعًا من الخلْط، وصرعًا من الجن».

الثاني: دخول الجنّ لجسد الآدمي، ومنه التلبّس، فهذا ثابت، لكنه ليس كثبوت وجود الجن، وعليه من أنكر التلبّس فقد أخطأ وضلّ وكذّب ما ثبت في الأدلة الشرعية والواقع المتكرر وجوده. ولكن لخفاء هذه المسألة لا يُكَفَّرُ المخالف فيها، ولكن يُخَطَّأ ويُضلّل؛ لأنه لا يعتمد في إنكار ذلك على دليل، ولم يتعمّد تكذيب الوحي، وإنما يعتمد على عقله القاصر عن فهم كثير مما يحيط به في حياته، وهذا خذلان وضلال، مع أن العقل الصحيح لا يتعارض البتة مع النص الصحيح الصريح.
=

=

وقد ذُكر تلبس الجان للإنسي في سورة البقرة فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ﴾ [البَقَرَة: ٢٧٥]، أي: لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا على هيئة المصروع الممسوس. وقد جاء في السنة ذكر المسّ كذلك ـ وهو التلبّس ـ فعند ابن ماجه (٢/ ١١٧٤) (٣٥٤٨) وصححه الألباني عن عثمان بن أبي العاص رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: «لما استعملني رسول الله ﷺ على الطائف جعل يعرض لي شيء في صلاتي حتى ما أدري ما أُصلّي! فلمّا رأيت ذلك رحلت إلى رسول الله ﷺ، فقال: **«ابن أبي العاص؟»** قلت: نعم يا رسول الله، قال: **«ما جاء بك؟»** قلت: يا رسول الله، عرض لي شيء في صلواتي حتى ما أدري ما أصلي. قال: **«ذاك الشيطان. ادنُه»**، فدنوت منه، فجلستُ على صدور قدمَيّ. قال: فضرب صدري بيده وتفل في فمي وقال: **«اخرج عدوَّ الله»**! ففعل ذلك ثلاث مرات، ثم قال: **«الحق بعملك»**. قال: فلعمري ما أحسبه خالطني بعد». وفي رواية: «فقلت: يا رسول الله، إن القرآن ينفلت مني، فوضع يده على صدري وقال: **«يا شيطان، اخرج من صدر عثمان»**. فما نسيت شيئًا أريد حفظه». أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٥ / ٣٠٨)، وقال الألباني في السلسلة (٦/ ٩٩٩): إسناده صحيح..
وفي الحديث دلالة صريحة على أن الشيطان قد يتلبس الإنسان ويدخل فيه ولو كان مؤمنًا صالحًا، وفي ذلك أحاديث كثيرة منها حديث يعلى بن مرّة، وذكر فيه خبر أمّ الصبي التي اعترضت رسول الله ﷺ بابنها في سفره، وفيه: وأتته امرأة فقالت: إن ابني هذا به لمَمٌ منذ سبع سنين يأخذه كل يوم مرتين، فقال رسول الله ﷺ: **«أدنيه»**. فأدنته منه فتفل في فيه وقال: **«اخرج عدوَّ الله، أنا رسول الله»**. ثم قال لها رسول الله ﷺ: **«إذا رجعنا؛ فأعلمينا ما صنع»**. فلما رجع رسول الله ﷺ؛ استقبلته ومعها كبشان وأقط وسمن، فقال لي رسول الله ﷺ: **«خذ هذا الكبش فاتخذ منه ما أردت»**. فقالت: والذي أكرمك؛ ما رأينا به شيئًا منذ فارقتنا.. الحديث.

=

=

وفي الختام أقول: ليس غرضي مما تقدم إلا إثبات ما أثبته الشرع من الأمور الغيبية، والرد على من ينكرها. ولكنني من جانب آخر أنكر أشد الإنكار على الذين يستغلون هذه العقيدة، ويتخذون استحضار الجن ومخاطبتهم مهنة لمعالجة المجانين والمصابين بالصرع، ويتخذون في ذلك من الوسائل التي تزيد على مجرد تلاوة القرآن مما لم ينزل الله به سلطانًا، كالضرب الشديد الذي قد يترتب عليه أحيانًا قتل المصاب، كما وقع هنا في عمّان وفي مصر، مما صار حديث الجرائد والمجالس. لقد كان الذين يتولون القراءة على المصروعين أفرادًا قليلين صالحين فيما مضى، فصاروا اليوم بالمئات، وفيهم بعض النسوة المتبرجات، فخرج الأمر عن كونه وسيلة شرعية لا يقوم بها إلا الأطباء عادة، إلى أمور ووسائل أخرى لا يعرفها الشرع ولا الطب معًا.. وقد ورد خبر آخر عن الطبراني في المعجم الكبير (٢٧٥/٥) (٥٣١٤) في قصة الوازع، ولكن الخبر لا يثبت. أهـ. مختصرًا.

وقد روى البخاري (٢٠٣٥) ومسلم (٢١٧٥) عن صفية بنت حيي زوج النبي ﷺ قالت: كان النبي ﷺ معتكفًا، فأتيته أزوره ليلًا، فحدّثته، ثم قمت لأنقلب، فقام ليقلبني، وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد، فمرّ رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا، فقال النبي ﷺ: **«على رِسْلِكُما، إنها صفيّة بنت حيي»**، فقالا: «سبحان الله يا رسول الله»! فقال ﷺ: **«إنّ الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شرًّا، أو شيئًا»**. فدل هذا على وجود الجان في مسالك عروق الإنسان.

ومن الأدلة كذلك ما رواه أحمد والترمذي وأبو داود والنسائي عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل كبَّر، ثم يقول: **«سبحانك اللَّهم وبحمدك وتبارك اسمك، وتعالى جَدُّك، ولا إله غيرك»**، ثم يقول: **«الله أكبر كبيرًا»**، ثم يقول: **«أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من**

=

=
همزه، ونفخه ونفثه». رواه أبو داوود (٧٧٥) وصححه الألباني. وقال في إرواء الغليل (٢ / ٥٦) بعد ذكر الروايات والشواهد: «وأما حديث أبي أمامة فلفظه: كان رسول الله ﷺ إذا دخل في الصلاة من الليل كبّر ثلاثًا، وسبّح ثلاثًا، وهلّل ثلاثًا، ثم يقول: **«اللّٰهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه وشركه»**، وفي رواية: **«ونفثه»** بدل **«وشركه»**. أخرجه أحمد (٢٥٣/٥).. ثم استدركت حديثًا مرسلًا آخر، وفيه تفسير الألفاظ التي وردت في هذه الزيادة، وهو من رواية أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يقول: **«اللّٰهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم من همزه ونفثه ونفخه»**، قال: وكان رسول الله ﷺ يقول: **«تعوّذوا بالله من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه»**، قالوا: يا رسول الله وما همزه ونفخه ونفثه؟ قال: **«أما همزه فهذه الموتة التي تأخذ بني آدم، وأما نفخه فالكبر، وأما نفثه فالشِّعر»**. أخرجه أحمد (١٥٦/٦) بإسناد صحيح إلى أبي سلمة، وفيه رد على من أنكر من المعاصرين ورود هذا التفسير مرفوعًا.

وبالجملة؛ فهذه أحاديث خمسة مسندة، ومعها حديث الحسن البصري، وحديث أبي سلمة المرسَلَين إذا ضمّ بعضها إلى بعض قطع الواقف عليها بصحة هذه الزيادة، وثبوت نسبتها إلى النبي ﷺ، فعلى المصلي الإتيان بها اقتداء به ﷺ. وأما الزيادة الأخرى وهي **«السميع العليم»** فصحيحة أيضًا، وقد ورد فيها أحاديث». أهـ.

وفي رواية أخرى قال ﷺ: **«نفثُهُ: الشِّعْر، ونفخُه: الكبِر، وهمزُه: الموتة»**. قال ابن كثير (٦١/١): «فهمزه الموتة، وهو الخنق الذي هو الصرع». وقال ابن منظور (لسان العرب (٩٣/٢): «الموتة: جنس من الجنون والصرع، يعتري الإنسان فإذا فاق عاد إليه عقله». وقد ذكر القاضي أبو يعلى في طبقات الحنابلة (١٠٨- ١٠٩) أن الإمام أحمد بن حنبل كان يجلس في مسجده فأنفذ إليه الخليفة العباس المتوكل صاحبًا له يعلمه أن جارية بها صرع، وسأله أن يدعو الله لها بالعافية، فأخرج له أحمد نعلي
=

=

خشب بشراك من خوص للوضوء، فدفعه إلى صاحب له، وقال له: «امض إلى دار أمير المؤمنين، وتجلس عند رأس الجارية وتقول له ـ يعني الجان ـ قال لك أحمد: أيّما أحب إليك: تخرج من هذه الجارية، أو تصفع بهذه النعل سبعين»؟ فمضى إليه، وقال له مثل ما قال الإمام أحمد، فقال له المارد على لسان الجارية: السمع والطاعة، لو أمرنا أحمد ألا نقيم بالعراق ما أقمنا به، إنه أطاع الله، ومن أطاع الله أطاعه كل شيء، وخرج من الجارية وهدأت ورزقت أولادًا، فلما مات أحمد عاودها المارد، فأنفذ المتوكل إلى صاحبه أبي بكر المَرُّوذي وعرّفه الحال، فأخذ المروذي النعل ومضى إلى الجارية، فكلمه العفريت على لسانها: لا أخرج من هذه الجارية، ولا أطيعك، ولا أقبل منك، أحمد بن حنبل أطاع الله، فأُمرنا بطاعته.

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: قلت لأبي: إن قومًا يقولون: إن الجنّ لا يدخل في بدن المصروع من الإنس، فقال: «يا بني يكذبون، هو ذا يتكلم على لسانه». وانظر: مجموع الفتاوى (١٩/ ١٢).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في «الرد على المنطقيين» (٤٠٧): «إن دخول الجني بدن الإنس، وتكلّمه على لسانه بأنواع الكلام وغير ذلك أمر قد علمه كثير من الناس بالضرورة..». وقد عالج ابن تيمية الإنسان المصروع بسبب الجني مرات كثيرة، وحدَّث عن نفسه في ذلك فقال: «كما قد فعلنا نحن هذا، وجربناه مرات كثيرة يطول وصفها بحضرة خلق كثيرين». وانظر: مجموع الفتاوى (١٩ / ٦٠) وبنحوه قال الحافظ ابن حجر، وقبلهما ابن حزم في كثير من أهل العلم.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في زاد المعاد (٤/ ٦٦،٧٠): «الصَّرْع صرعان: صَرْعٌ من الأرواح الخبيثة الأرضية، وصَرْعٌ من الأخلاطِ الرديئة. والثاني: هو الذي يتكلم فيه الأطباء في سببه وعِلاجه.

=

=
وأما صَرْعُ الأرواح، فأئمتُهم وعقلاؤهم يعترفون به، ولا يدفعونه، ويعترفون بأنَّ علاجه بمقابلةُ الأرواحِ الشريفةِ الخيِّرةِ العُلويَّة لتلك الأرواح الشِّريرة الخبيثة، فتُدافِعُ آثارها، وتعارِضُ أفعالَها وتُبطلها، وقد نص على ذلك «أبقراط» في بعض كتبه، فذكر بعضَ عِلاج الصَّرْعِ، وقال: هذا إنما ينفع من الصَّرْع الذي سببُه الأخلاط والمادة. وأما الصَّرْع الذي يكون من الأرواح، فلا ينفع فيه هذا العلاج.

وأما جهلةُ الأطباء وَسقَطُهم وسفلَتُهم، ومَن يعتقِدُ بالزندقة فضيلة، فأُولئك يُنكِرون صَرْعَ الأرواح، ولا يُقرون بأنها تُؤثر في بدن المصروع، وليس معهم إلا الجهلُ، وإلا فليس في الصناعة الطبية ما يَدفع ذلك، والحِسُّ والوجودُ شاهدٌ به، وإحالتهم ذلك على غلبة بعض الأخلاط، هو صادق في بعض أقسامه لا في كلِّها.. وعِلاجُ هذا النوع يكون بأمرين: أمْرٍ من جهة المصروع، وأمْرٍ من جهة المعالِج، فالذي من جهة المصروع يكون بقوةِ نفسه، وصِدْقِ توجهه إلى فاطر هذه الأرواح وبارئها، والتعوُّذِ الصحيح الذى قد تواطأ عليه القلبُ واللِّسان، فإنَّ هذا نوعُ محاربةٍ، والمحَارِب لا يتمُّ له الانتصاف من عدوه بالسلاح إلا بأمرين: أن يكون السلاح صحيحًا في نفسه جيدًا، وأن يكون الساعدُ قويًّا، فمتى تخلَّف أحدُهما لم يُغنِ السلاح كثيرَ طائلٍ، فكيف إذا عُدِمَ الأمران جميعًا: يكونُ القلب خرابًا من التوحيد، والتوكل، والتقوى، والتوجّه، ولا سلاحَ له. والثاني: من جهة المعالِج، بأن يكون فيه هذان الأمران أيضًا، حتى إنَّ من المعالجينَ مَن يكتفى بقوله: «اخرُجْ منه»، أو بقول: «بِسْمِ الله»، أو بقول: «لا حَوْل ولا قُوّة إلا بالله»، والنبي ﷺ كان يقولُ: **«اخْرُجْ عَدُوَّ اللهِ، أنا رَسُولُ اللهِ»**.

وشاهدتُ شيخنَا يُرسِلُ إلى المصروع مَن يخاطبُ الروحَ التي فيه، ويقول: قال لكِ الشيخُ: اخرُجي، فإنَّ هذا لا يَحِلُّ لكِ، فيُفِيقُ المصروعُ، وربما خاطبها بنفسه، وربما كانت الروحُ مارِدةً فيُخرجُها بالضرب، فيُفيق المصروعُ ولا يُحِس بألم، وقد شاهدنا نحن
=

=
وغيرُنا منه ذلك مرارًا. وكان كثيرًا ما يَقرأ في أُذن المصروع: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المُؤمِنون: ١١٥].وحدَّثني أنه قرأها مرة في أُذن المصروع، فقالت الروح: نعم، ومدّ بها صوته. قال: فأخذتُ له عصا، وضربتُه بها في عروق عنقه حتى كَلَّتْ يداي من الضرب، ولم يَشُكَّ الحاضرون أنه يموتُ لذلك الضرب. ففي أثناء الضرب قالت: أَنَا أُحِبُّه، فقلتُ لها: هو لا يحبك. قالتْ: أنَا أُريد أنْ أحُجَّ به. فقلتُ لها: هو لا يُرِيدُ أَنْ يَحُجَّ مَعَكِ، فقالتْ: أنا أدَعُه كَرامةً لكَ، قال: قلتُ: لا ولكنْ طاعةً للهِ ولرسولِه، قالتْ: فأنا أخرُجُ منه، قال: فقعَد المصروعُ يَلتفتُ يمينًا وشمالًا، وقال: ما جاء بي إلى حضرة الشيخ؟! قالوا له: وهذا الضربُ كُلُّه؟ فقال: وعلى أي شيء يَضرِبُني الشيخ ولم أُذْنِبْ، ولم يَشعُرْ بأنه وقع به الضربُ البتة. وكان يعالِجُ بآية الكرسي، وكان يأمر بكثرة قراءتها المصروع، ومَن يعالجه بها، وبقراءة المعوِّذتين.

وبالجملة؛ فهذا النوعُ من الصَّرْع، وعلاجه لا يُنكره إلا قليلُ الحظ من العلم والعقل والمعرفة، وأكثرُ تسلّطِ الأرواح الخبيثةِ على أهلِه تكون من جهة قِلَّةِ دينِهم، وخرابِ قلوبهم وألسنتهم من حقائق الذِّكر، والتعاويذِ، والتحصُّناتِ النبوية والإيمانيَّة، فَتَلْقَى الروحُ الخبيثةُ الرجلَ أعزلَ لا سلاح معه، وربما كان عُريانًا فيُؤثر فيه هذا.

ولو كُشِفَ الغِطاء، لرأيتَ أكثرَ النفوسِ البَشَريةِ صَرْعَى هذه الأرواحِ الخبيثةِ، وهي في أسرِها وقبضتِها تسوقُها حيثُ شاءتْ، ولا يُمكنُها الامتناعُ عنها ولا مخالفتها، وبها الصَّرْعُ الأعظمُ الذي لا يُفيقُ صاحبُه إلا عند المفارقةِ والمعاينةِ، فهناك يتَحقَّقُ أنه كان هو المصروعَ حقيقةً، وبالله المستعان.

وعلاجُ هذا الصَّرْع باقتران العقل الصحيح إلى الإيمان بما جاءتْ به الرُّسُل، وأن تكون الجَنَّةُ والنارُ نُصبَ عينيه وقِبلَة قَلْبِه، ويستحضر أهلَ الدنيا، وحلول المَثُلاتِ والآفات بهم، ووقوعَها خلال ديارهم كمواقع القَطر، وهُم صَرعَى لا يُفيقون، وما
=

=
أشدَّ داءَ هذا الصَّرْعِ، ولكن لما عَمَّتِ البليَّةُ به بحيثُ لا يَرى إلا مصروعًا، لم يَصر مستغرَبًا ولا مستنكرًا، بل صار لكثرة المصروعين عَيْنَ المستنكرِ المستغرَبِ خلافه.
فإذا أراد الله بعبدٍ خيرًا أفاقَ من هذه الصَّرْعة، ونظر إلى أبناء الدنيا مصروعين حولَه يمينًا وشمالًا على اختلافِ طبقاتهم، فمنهم مَن أطبَقَ به الجنونُ، ومنهم مَن يُفيق أحيانًا قليلةً، ويعودُ إلى جنونه، ومنهم مَن يُفيق مرةً، ويُجَنُّ أُخرى، فإذا أفاق عَمِل عَمَل أهلِ الإفاقةِ والعقل، ثم يُعَاوِدُه الصَّرْعُ فيقعُ في التخبط».
وقال العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح رياض الصالحين (١ / ٤٠- ٤١): «والصرع نعوذ بالله منه نوعان: صرع بسبب تشنج الأعصاب وهذا مرض عضوي يمكن أن يعالج من قبل الأطباء بإعطاء العقاقير التي تسكّنه أو تزيله بالمرة. وقسم آخر بسبب الشياطين والجن، يتسلط الجني على الإنسي فيصرعه، ويدخل فيه، ويضرب به على الأرض، ويغمى عليه من شدة الصرع، وهذا النوع من الصرع له علاج يدفعه، وله علاج يرفعه. فهو نوعان:
أما دفعه فبأن يحرص الإنسان على الأوراد الشرعية الصباحية والمسائية، وهي معروفة في كتب أهل العلم، منها آية الكرسي فإن من قرأها في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح. ومنها سورة الإخلاص والفلق والناس، ومنها أحاديث عن الرسول ﷺ، فليحرص الإنسان عليها صباحًا ومساء، فإن ذلك من أسباب دفع أذيّة الجن.
وأما الرفع فهو إذا وقع بالإنسان فإنه يقرأ عليه آيات من القرآن فيها تخويف وتذكير واستعاذة بالله عز وجل حتى يخرج». أهـ باختصار. وقد كتب في ذلك كتب ورسائل منها ما كتبه د. صالح الرقب بعنوان: الأدلة الشرعية في إثبات صرع الشيطان للإنسان، والرد على المنكرين.

بين الرضا والدعاء برفع البلاء، فظاهرهُ خصوصية تلك المرأة بذلك، ومن ذا الذي يرفض هذا العرض الهائل بضمان الجنة؟!

لذلك فقد يتوجّه القول بأن خبر هذه المرأة السوداء قضيةُ عينٍ من جهة البشارة إنْ وَفَتِ الصبر، لا مطلق الثواب لمن فعل مثلها، وكذلك الحال للضرير، بدليل خطابهما المباشر بالوعد بالجنة مع وجود أصحاب عاهات وعلل وعمًى في المدينة، ولم يرد أنه وعدهم بخصوصهم بذلك، مع احتمال أنّ ذلك بسبب أنهم لم يطلبوا دعاءه ﷺ لشفائهم، وفضل الله واسع بكل حال.

وقد يكون لهذه المرأة خبيئة صالحة رضي الله عنها بها فكافأها بعاجل بشراها بالجنة على لسان رسوله ﷺ إن وفت ما تبقّى من عهد الصلاح بالصبر على البلاء، فخصوصيتها إنما هي عاجل البشارة، أما ترتيب الثواب فالأظهر عمومه لكل من صبر على مثل بلائها لله، فإنّ الأصل أن خطابه صلى الله علي وسلم لآحاد أمته على جهة التشريع هو خطاب لكل أمته إلا بمُخصِّص يُخرج ما عداها، ولم يرد المخصص هنا بحمد الله وكرمه وفضله وامتنانه، فبقي الأمرُ على جادّة العموم بفضل الله تعالى.

وعليه؛ فترك التداوي لمن علم من نفسه تمام الصبر والرضا خيرٌ من التداوي، إلّا إن ترتب عليه فواتُ فضائل إيمانية أرجح من ذلك، وبخاصة ما تعَدّى نفعه كالقيام على العيال، أو الجهاد في سبيل الله بالعلم والقتال والدعوة والإغاثة ونحو ذلك. وعلى المتداوِي وتاركِ الدواء الدعاء بكشف البلاء إن كان في كشفه خيرًا. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تعليقه على حديث المرأة السوداء: «وفي ذلك دليلٌ على جواز ترك المعالجةِ والتداوي، وأنَّ علاجَ

الأرواح بالدعواتِ والتوجُّهِ إلى الله يفعلُ ما لا ينالُه علاجُ الأطباء، وأنَّ تأثيرَه وفعلَه وتأثُّرَ الطبيعةِ عنه وانفعالها أعظمُ من تأثيرِ الأدويةِ البدنيةِ وانفعالِ الطبيعة عنها، وقد جرَّبنا هذا مرارًا نحن وغيرُنا»[1].

وعليه؛ فترك الدعاء غير داخل هنا بالمرّة، إنما قُصَاراه ترك التداوي للصابر. وعلى هذا فيستقيم لنا القول: إنّ الدعاء برفع البلاء هو الأصل في الدِّين، وهو جادّة المرسلين، ولا يُشرع تركه بحال.

أما من قال: إني دائر مع قضاء ربي، ولن أسأله رفعَ بلاءٍ اختارَهُ لي، قلنا له: إنّ مَن ابتلاك هو من أمرك بدعائه، والضراعة إليه، والانكسار بين يديه، والافتقار التامّ إليه في آيات كثيرة من كتابه، ولستَ بخيرٍ ولا أكمل تفويضًا وحسن عبادة وكمال تعلّق من نبينا ﷺ والمرسلين من قبله، وقد كانوا يدعون الله تعالى برفع البلاء وكشف الضراء وإسبال العافية في الدين والدنيا.

واعلم أنّ من أعظم حِكم البلاء إدمانُ دعاءِ من يَفرح بعبده إذا دعاه، ويغضب عليه إن ترك سؤاله، قال تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]. وقال نبيه ﷺ: **«من لا يسأل الله يغضبْ عليه»**[2].

والدعاء برفع البلاء كالمرض، أو الفقر، أو الحبس، أو المظلمة ونحو ذلك لا يخدش التوكل، ولا يمنع كمال التعلّق، إنما الكلام في ترك بعض

---

(١) زاد المعاد (٤ / ٧١)

(٢) أحمد (٩٧٠١)، ومسند أبي يعلى (٦٦٥٥) وحسنه حسين سليم أسد، والترمذي (٥ / ٤٥٦) وحسنه الألباني.

الأسباب الظاهرة كالدواء للمريض، وطلبِ المعونة لرفع مظلمة، ونحو ذلك، تعلّقًا بالمُسَبِّب سبحانه؛ فهذا هو الفاضل لمن غلب على ظنّه عظيم الصبر على ذلك البلاء وواسع الرضا به، عبادةً لله تعالى، وتلذُّذًا بالصبر في ذاته سبحانه، وبالرضا والحمد والشكر له. وقد كان الحنيف عليه السلام يدعو ربه، ويخبر بأنه الشافي وحده، مُخْلِصًا دينه له: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٠].

ففضيلة الترك للكُمّل هو تركهم أسبابًا ظاهرة تعلُّقًا بالمُسبِّب سبحانه، وليس بترك دعائه أن يكشف البلاء عنهم، لأنّ الدعاء ـ وهو أعظم الأسباب مع التوكل ـ مقصودٌ لذاته، أما الأسباب الظاهرة فوسيلة دنيا لا غير. فافترقا من هنا، وعليه: فادع الله بكل أحوالك لرفع كل أدوائك وابتلاءاتك، وبالله التوفيق، والله أعلم.

قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد إيراد حديث المرأة السوداء: «وفيه: فيه فضل الصرْع، وفيه أن اختيار البلاء والصبر عليه يورث الجنة، وأن الأخذ بالشدة أفضل من الأخذ بالرخصة لمن علم من نفسه أنه يطيق التمادي على الشدة ولا يضعف عن التزامها»(١). وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي الحديث أن الأخذ بالشدة أفضل من الأخذ بالرخصة لمن علم من نفسه الطاقة ولم يضعف عن التزام الشدة، وفيه دليل على ترك التداوي، وفيه أن علاج الأمراض كلها بالدعاء والالتجاء إلى الله أنجع وأنفع من العلاج بالعقاقير، وأن تأثير ذلك

(١) شرح صحيح البخاري (٩ / ٣٧٦) كذلك ذكره العيني في عمدة القاري (٣١ / ٢٥٤).

وانفعال البدن عنه أعظم من تأثير الأدوية البدنية، ولكن إنما ينجع بأمرين: أحدهما من جهة العليل وهو صدق القصد، والآخر من جهة المداوي وهو قوة توجهه وقوة قلبه بالتقوى والتوكل»[(١)].

وتأمّل حال أيوب عليه السلام، فإنه صبر ورضي طويلًا حتى إذا بلغ به الأمر دعا: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

فالعبد دائرٌ في رَحَى العبودية، فإن غلب على ظنه صلاح حاله بالعافية، وقوّته على العبادات، وانشراح صدره بالذكر ونحو ذلك فليدع بخصوص أمره وكشف ضره وبتفويض الخيرة لله تعالى له، وإن غلب على ظنه تلذُّذه بالصبر والرضا والحمد والشكر فليلزمه طاقته، وليسأل ربه العافية بكل حال، فإنْ ضعُفَ لعارضٍ أو طول مدى فليدع ربه، فكلا الأمرين خير وبرّ وعبادة، والعافية مع الشكر سبيلٌ عظيم للجنة، كما أنّ الصبر والرضا سبيلان لها أيضًا، وكلها مجتمعة في الأمر الواحد للمؤمن الواحد إن وفقه الله تعالى لفقهها والعمل بمقتضاها. ونبينا ﷺ يقول: «**عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن. إن أصابته سراءُ شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له**»[(٢)].

---

(١) فتح الباري (١٠/١٤٣).

(٢) مسلم (٢٩٩٩).

ثانيًا: حديث الضَّرِير: وقد رواه أحمد وغيره[١] عن عثمان بن حنيف، أن رجلًا ضرير البصر أتى النبي ﷺ، فقال: ادع الله أن يعافيني، قال: **«إن شئتَ دعوتُ لك، وإن شئتَ أخّرت ذاك، فهو خير»**. وفي رواية: **«وإن شئتَ صبرت**

---

(١) المسند (١٧٢٤٠) وقال محققوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات. وصححه الألباني في التوسل (١ / ٦٩) وقال: ورواه الترمذي (٤ / ٢٨١ - ٢٨٢ بشرح التحفة) وابن ماجه (١ / ٤١٨) والطبراني في الكبير (٣ / ٢ / ٢) والحاكم (١ / ٣١٣) كلهم من طريق عثمان بن عمر: أن شعبة عن أبي جعفر المدني قال: سمعت عمارة بن خزيمة يحدث عن عثمان به. وقال الترمذي: «حسن صحيح غريب» وفي ابن ماجه عقبه: «قال أبو إسحاق: حديث صحيح». ثم رواه أحمد: ثنا شعبة به. وفيه الرواية الأخرى، وتابعه محمد بن جعفر ثنا شعبة به. رواه الحاكم (١ / ٥١٩) وقال: (صحيح الإسناد) ووافقه الذهبي. وقد أعلّه بعضهم كصاحب (صيانة الإنسان) وصاحب (تطهير الجنان ص: ٣٧) وغيرهما بأن في إسناده أبا جعفر، قال الترمذي: «لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث أبي جعفر وليس الخطمي». فقالوا: هو إذن الرازي، وهو صدوق، ولكنه سيء الحفظ.

قلت: ولكن هذا مدفوع بأن الصواب أنه الخطمي نفسه. وهكذا نسبه أحمد في رواية له (٤ / ١٣٨) وسماه في أخرى: (أبا جعفر المدني) وكذلك سماه الحاكم والخطمي هذا ـ لا الرازي ـ هو المدني، وقد ورد هكذا في (المعجم الصغير) للطبراني، وفي طبعة بولاق من سنن الترمذي أيضًا. ويؤكد ذلك بشكل قاطع أن الخطمي هذا هو الذي يروي عن عمارة بن خزيمة، ويروي عنه شعبة كما في إسناده هنا وهو صدوق، وعلى هذا فالإسناد جيد لا شبهة فيه. أهـ

قلت: وقد رجح شيخ الإسلام الإمام الناقد أبو العباس ابن تيمية أن أبا جعفر هو الخطمي لا الرازي في مجموع الفتاوى (١/٢٦٦)

فهو خير لك». فقال: ادعه، فأمره أن يتوضأ، فيحسن وضوءه، ويصلي ركعتين، ويدعو بهذا الدعاء: **«اللّٰهم إني أسألك، وأتوجّه إليك بنبيّك محمد نبيّ الرحمة، يا محمد، إني توجّهت بك إلى ربي في حاجتي هذه، فتقضى لي، اللّٰهم شفّعه فيّ»**[(١)].

---

(١) **مباحث في التّوسّل:**

تنبيه مهم: يتشبث الخرافيون والقبوريون بهذا الحديث زعمًا أن فيه دليلًا على مشروعية التوسل الشركي الذي يقوم عليه بنيانُ طرائقهم. وقد تكلم العلماء في كشف شبهتهم، وهتك تلبيسهم، وبطلان تعلقهم بها وهموه. وممن تكلموا في ذلك ابن تيمية في الرد على البكري، وفي قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة، وابن عبد الهادي في الصارم المُنْكي - وهو نفيس جدًّا في هدم شبه القبوريين بعامة - وحمد بن ناصر آل معمر في الرد على القبوريين، وسليمان بن سحمان في الصواعق المرسلة الشهابية، وعبد الله بن عبد الرحمن أبا بطين في تأسيس التقديس في كشف تلبيس داود بن جرجيس، ومحمد نسيب الرفاعي في التوصل إلى حقيقة التوسل، والألباني في التوسل أنواعه وأحكامه، وغيرهم كثير، وسنلخّص بعض ما كتبوه لعظيم البليّة على من تعلّق به في شركه مما لم يأذن به الله تعالى ولا رسوله ﷺ، فالله تعالى قد أمر بالتوسل المشروع لا الممنوع.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد روى الترمذي حديثًا صحيحًا عن النبي ﷺ أنه علّم رجلًا يدعو فيقول: «اللّٰهم إني أسألك وأتوسل إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد يا رسول الله، إني أتوسل بك إلى ربي في حاجتي ليقضيها لي، اللّٰهم شفّعه فيّ».. فهذا الحديث فيه التوسل به إلى الله في الدعاء.

فمن الناس من يقول: هذا يقتضي جواز التوسل به مطلقًا حيًّا أو ميتًا... وقول هؤلاء باطل شرعًا وقدرًا، فلا هم موافقون لشرع الله، ولا ما يقولونه مطابق لخلق الله.

=

=

ومن الناس من يقولون: هذه قضية عين يثبت الحكم في نظائرها التي تشبهها في مناط الحكم، لا يثبت الحكم بها فيما هو مخالف لها لا مماثل لها، والفرق ثابت شرعًا وقدَرًا بين من دعا له النبي ﷺ، وبين من لم يدع له، ولا يجوز أن يُجعل أحدهما كالآخر.

وهذا الأعمى شفع له النبي ﷺ؛ فلهذا قال في دعائه: «اللّٰهم فشفعه في»، فعُلم أنه شفيع فيه، ولفظه: «إن شئت صبرتَ، وإن شئتَ دعوتُ لك» فقال: ادع لي. فهو طلب من النبي ﷺ أن يدعو له، فأمره النبي ﷺ أن يصلي ويدعو هو أيضًا لنفسه ويقول في دعائه: «اللّٰهم شفّعه فيّ»، فدل ذلك على أن معنى قوله: «أسألك وأتوجّه إليك بنبيك محمد» أي: بدعائه وشفاعته، كما قال عمر: «اللّٰهم إنا كنا إذا أجدبنا توسلنا إليك بنبيك فتسقينا».

فالحديثان معناهما واحد: فهو ﷺ علّم رجلًا أن يتوسل به في حياته كما ذكر عمر أنهم كانوا يتوسلون به إذا أجدبوا، ثم إنهم بعد موته إنما كانوا يتوسلون بغيره بدلًا عنه.

فلو كان التوسل به حيًّا وميتًا سواء، والمتوسِّلُ به الذي دعا له الرسول كمن لم يدع له الرسول؛ لم يعدلوا عن التوسل به، وهو أفضل الخلق وأكرمهم على ربه، وأقربهم إليهم وسيلة، إلى أن يتوسلوا بغيره ممن ليس مثله.

وكذلك لو كان الأعمى توسل به ولم يدع له الرسول بمنزلة ذلك الأعمى لكان عميان الصحابة أو بعضهم يفعلون مثل ما فعل الأعمى، فعدولهم عن هذا إلى هذا مع أنهم السابقون الأولون المهاجرون والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فإنهم أعلم منا بالله ورسوله، وبحقوق الله ورسوله، وما يشرع من الدعاء وينفع، وما لم يشرع ولا ينفع، وما يكون أنفع من غيره، وهم في وقت الضرورة ومخمصة وجدب يطلبون تفريج الكربات وتيسير العسير وإنزال الغيث بكل طريق ممكن دليل على أن المشروع ما سلكوه دون ما تركوه.

=

=

ولهذا ذكر الفقهاء في كتبهم في الاستسقاء ما فعلوه دون ما تركوه، وذلك أن التوسل به حيًّا هو الطلب لدعائه وشفاعته، وهو من جنس مسألته أن يدعو لهم وهذا مشروع، فما زال المسلمون يسألون رسول الله ﷺ في حياته أن يدعو لهم، وأما بعد موته فلم يكن الصحابة يطلبون منه الدعاء لا عند قبره ولا عند غير قبره، كما يفعل كثير من الناس عند قبور الصالحين، يسأل أحدهم الميت حاجته، أو يقسم على الله به ونحو ذلك». أهـ. مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١ / ٣٢٥) مختصرًا. وانظر: فتاوى اللجنة الدائمة (١ / ٥٢٨).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الاقتضاء: «وقوله: **«يا محمد، يا نبي الله»** هذا وأمثاله نداء يُطلب به استحضار المنادَى في القلب فيُخاطَبُ لشهوده بالقلب، كما يقول المُصلّي: **«السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته»**. والإنسان يفعل مثل هذا كثيرًا يخاطب من يتصوره في نفسه إن لم يكن في الخارج من يسمع الخطاب.

فلفظ التوسل بالشخص والتوجّه به والسؤال به فيه إجمال واشتراك، غلط بسببه من لم يفهم مقصود الصحابة، فيُراد به التسبب به لكونه داعيًا وشافعًا مثلًا، أو لكون الداعي مجيبًا له ـ أي لرسول الله ﷺ ـ مطيعًا لأمره مقتديًا به. فيكون التسبب إما بمحبة السائل له واتباعه له، وإما بدعاء الوسيلة وشفاعته». أهـ. اقتضاء الصراط (١ / ٤١٥ -٤١٦) وانظر أيضًا: الاستغاثة، وتسمى كذلك: الرد على البكري (١ / ١١٤) قلت: ومن شواهد استحضار الغائب في القلب بلا عبادة قول الشاعر:

خـــيالُكَ في عيـــني وذِكـــرُك في فمي ... ومثـــواك في قلـــبي فأينَ تغـــيبُ

وقال الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التوسل: «يرى المخالفون أن هذا الحديث يدل على جواز التوسل في الدعاء بجاه النبي ﷺ أو غيره من الصالحين، إذ فيه أن النبي ﷺ علّم الأعمى أن يتوسل به في دعائه، وقد فعل الأعمى ذلك فعاد بصيرًا.

=

=
وأما نحن فنرى أن هذا الحديث لا حجة لهم فيه على التوسل المختلف فيه وهو التوسل بالذات، بل هو دليل آخر على النوع الثالث من أنواع التوسل المشروع الذي أسلفناه، لأن توسل الأعمى إنما كان بدعائه. والأدلة على ما نقول من الحديث نفسه كثيرة وأهمها:

أولًا: أن الأعمى إنما جاء إلى النبي ﷺ ليدعو له وذلك قوله: «ادع الله أن يعافيني»، فهو قد توسل إلى الله تعالى بدعائه ﷺ، لأنه يعلم أن دعاءه ﷺ أرجى للقبول عند الله بخلاف دعاء غيره. ولو كان قصد الأعمى التوسل بذات النبي ﷺ أو جاهه أو حقّه لما كان ثمّة حاجه به إلى أن يأتي النبي ﷺ ويطلب منه الدعاء له، بل كان يقعد في بيته ويدعو ربه بأن يقول مثلًا: «اللّهم إني أسألك بجاه نبيك ومنزلته عندك أن تشفيني وتجعلني بصيرًا». ولكنه لم يفعل. لماذا؟ لأنه عربي يفهم معنى التوسل في لغة العرب حقّ الفهم، ويعرف أنه ليس كلمة يقولها صاحب الحاجة يذكر فيها اسم المتوسل به، بل لا بد أن يشتمل على المجيء إلى من يعتقد فيه الصلاح والعلم بالكتاب والسنة، وطلب الدعاء منه له.

ثانيًا: أن النبي ﷺ وعده بالدعاء مع نصحه له ببيان ما هو الأفضل له، وهو قوله ﷺ: **«إن شئت دعوت وإن شئت صبرت فهو خير لك»**. وهذا الأمر الثاني هو ما أشار إليه ﷺ في الحديث الذي رواه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: **«إذا ابتليتُ عبدي بحبيبتيه** - أي عينيه - **فصبر؛ عوّضته منهما الجنة»**. رواه البخاري (٥٦٥٣)

ثالثًا: إصرار الأعمى على الدعاء وهو قوله: «فادع»، فهذا يقتضي أن الرسول ﷺ دعا له، لأنّه ﷺ خيرُ من وفى بما وعد، وقد وعده بالدعاء له إن شاء كما سبق، فقد شاء الدعاء وأصرّ عليه، فإذن لا بدّ أنه ﷺ دعا له، فثبت المراد.

وقد وجّه النبي ﷺ الأعمى - بدافع من رحمته وبحرص منه على أن يستجيب الله تعالى دعاءه فيه - إلى النوع الثاني من التوسل المشروع، وهو التوسل بالعمل الصالح، ليجمع
=

=
له الخير من أطرافه. فأمره أن يتوضأ، ويصلي ركعتين، ثم يدعو لنفسه، وهذه الأعمال طاعة لله سبحانه وتعالى يقدّمها بين يدي دعاء النبي ﷺ له، وهي تدخل في قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المَائِدَة: ٣٥]. وهكذا فلم يكتف الرسول ﷺ بدعائه للأعمى الذي وعده به، بل شغله بأعمال فيها طاعة لله سبحانه وتعالى وقربة إليه ليكون الأمر مكتملًا من جميع نواحيه، وأقرب إلى القبول والرضا من الله سبحانه وتعالى. وعلى هذا فالحادثة كلها تدور حول الدعاء ـ كما هو ظاهر ـ وليس فيها ذكر شيء مما يزعمون.

رابعًا: أنّ في الدعاء الذي علمه رسول الله ﷺ إياه أن يقول: «**اللّهم فشفّعه فيّ**»، وهذا يستحيل حمله على التوسل بذاته ﷺ أو جاهه أو حقّه، إذ أن المعنى: اللّهم أقبل شفاعته ﷺ فيّ، أي اقبل دعاءه فيّ أن تردّ عليّ بصري. والشفاعة لغة: الدعاء، وهو المراد بالشفاعة الثابتة له ﷺ ولغيره من الأنبياء والصالحين يوم القيامة، وهذا يبين أن الشفاعة أخصّ من الدعاء، إذ لا تكون إلا إذا كان هناك اثنان يطلبان أمرًا فيكون أحدهما شفيعًا للآخر، بخلاف الطالب الواحد الذي لم يشفع غيره.

خامسًا: إنّ مما علّم النبي ﷺ الأعمى أن يقوله: «**وشفّعني فيه**» أي اقبل شفاعتي ـ أي دعائي ـ في أن تقبل شفاعته ﷺ ـ أي دعاءه ـ في أن تردّ علي بصري. هذا الذي لا يمكن أن يفهم من هذه الجملة سواه، وهذه الجملة صحت في الحديث أخرجها أحمد والحاكم وصححه ووافقه الذهبي، وهي وحدها حجة قاطعة على أن حمل الحديث على التوسل بالذات باطل.

سادسًا: إنّ هذا الحديث ذكره العلماء في معجزات النبي ﷺ ودعائه المستجاب، وما أظهر الله ببركة دعائه من الخوارق والإبراء من العاهات، فإنه بدعائه ﷺ لهذا الأعمى أعاد الله عليه بصره، ولذلك رواه المصنّفون في دلائل النبوة كالبيهقي وغيره، فهذا يدل على أنّ السرّ في شفاء الأعمى إنما هو دعاء النبي ﷺ.
=

=
إذا تبين للقارئ الكريم ما أوردناه من الوجوه الدالة على أن حديث الأعمى إنما يدور حول التوسل بدعائه ﷺ، وأنه لا علاقة له بالتوسل بالذات؛ فحينئذ يتبين له أن قول الأعمى في دعائه: **«اللّهم إني أسألك وأتوسل إليك بنبيك محمد ﷺ»** إنما المراد به: أتوسل إليك بدعاء نبيك أي: على حذف المضاف، وهذا أمر معروف في اللغة، كقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢] أي أهل القرية وأصحاب العير. ونحن ومخالفونا متفقون على ذلك، أي على تقدير مضاف محذوف، وهو مثل ما رأينا في دعاء عمر وتوسله بالعباس، «إني أتوجه إليك بـ(دعاء) نبيك»، و«يا محمد إني توجهت بـ(دعاء) ك إلى ربي». فأما تقديرهم (بجاهه) فليس لهم عليه دليل لا من هذا الحديث ولا من غيره، إذ ليس في سباق الكلام ولا سياقه تصريح أو إشارة إلى لذكر الجاه أو ما يدل عليه إطلاقًا، كما أنه ليس عندهم شيء من القرآن أو من السنة أو من فعل الصحابة يدل على التوسل بالجاه، فبقي تقديرهم من غير مرجح فسقط من الاعتبار، والحمد لله.

وثمة أمر آخر جدير بالذكر وهو أنه لو حُمل حديث الضرير على التوسل بالذات لكان معطّلًا لقوله فيما بعده: **«اللّهم فشفّعه في، وشفّعني فيه»** وهذا لا يجوز كما لا يخفى، فوجب التوفيق بين هذه الجملة والتي قبلها. وليس ذلك إلا على ما حملناه من أن التوسل كان بالدعاء، فثبت المراد وبطل الاستدلال به على التوسل بالذات، والحمد لله». أهـ. التوسل للألباني (١ / ٧٠- ٧٦) مختصرًا.

وقال عبد الرحمن دمشقية: «.. وقبول الشفاعة أي قبول الدعاء، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«ما من ميّت يصلي عليه أمة من المسلمين يبلغون مئة كلهم يشفعون له إلا شفعوا فيه»**. رواه مسلم (٩٤٧) فمعنى **«شفّعهم الله فيه»** أي قبل دعائهم له. فيكون معنى **«شفّعني فيه»** أي اقبل دعائي بأن تستجيب دعاءه.
=

=

ومن الصحابة من أصيبوا بالعمى بعد مماته كابن عباس وابن عمر، ولم يُعهد أنهم استعملوا هذا الدعاء، بل تركوا التوسل به، فهذي جادّتهم. وهكذا فهم الصحابة التوسل، فقد تركوا التوسل به إجماعًا، كما في قصة عمر يوم أجدبوا وسألوا الله بدعاء عمّه العباس. وانظر: جلاء العينين (٤٥٥).

فقوله: «يا محمد إني توجّهت بك إلى ربي» أي أتوجّه بدعائك الذي وعدتني به حين قلت: **«إن شئت دعوت لك»**. وهذا ما فعله الرجل، فإنه توجه إلى النبي وطلب منه أن يدعو له. فهو يُشهِد الله أنه توجه إلى نبيه، وذهب إليه ليسأل الله له، وكأنه يقدم هذه الشهادةَ بين يدي سؤاله ربه، ومثل هذا كثير في الدعاء كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا﴾ [المُؤْمِنُون: ١٠٩]، وتقديم أصحاب الغار عملهم الصالح بين يدي دعائهم لله. وهذا التوجه هو حكاية حال، يحكي فيه أنه توجه وذهب إلى النبي ﷺ فطلب منه أن يدعو ربه. ولم يسأله في غيابه كما يفعل أهل البدع.

وهؤلاء يفهمون من قوله ﷺ: **«إئتِ الميضأة»** وكأنّ معناه عندهم: اذهب إلى بيتك! ولم لا تكون الميضأة قريبة منه ﷺ كما يفهم من سياق الرواية، وليس هناك دليل على أن الأعمى ذهب إلى مكان آخر وصلى ثم دعا بهذا الدعاء؟! وبتقدير أن يكون كلامه من بعيد. فيكون التوجّه خطابًا لحاضر في قلبه وليس استغاثة، كما نقول في صلواتنا: **«السلام عليك أيها النبي»**، وكما يقول أحدنا اليوم: «بأبي أنت وأمي يا رسول الله»، وكما قالت فاطمة حين مات ﷺ: «وا أبتاه: أجاب ربًّا دعاه». ودليل ذلك قوله في نهاية الدعاء: **«اللّهم فشفّعه فِيّ»** أي اقبل دعاءه في.

وقوله: **«يا محمد»**: ليس دعاء، وإنما هو تكلم مع حي حاضر. بدليل أن الأعمى لم يستغث بالنبي من بعد. وبدليل أن الصحابة لم يفعلوا، ولم يكونوا يخاطبون النبي بقولهم: يا محمد. بل الثابت عدول عمر عن قبر النبي ﷺ وتوسله بالعباس رضي الله عنهما.

=

=

فأما التوجه الذي يفهمه الأحباش أي التوجه إلى النبي ﷺ إلى جهة قبره بعد موته كما علمهم محمد بن حسن الصيادي الرفاعي: أن من أصابته ضراء فليتوجه نحو قبر الرفاعي ويخطو ثلاث خطوات ويسأله حاجته (قلادة الجواهر ٤٣٤ و٢٣٩). فهذا من سنن النصارى.

أما سنة نبينا فقد كان ﷺ يستقبل القبلة في دعائه، ويسأل الله وحده، وكان يقول في دعاء الاستفتاح في الصلاة: **«وجّهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين»**. رواه مسلم (٧٧١) فالتوجه إلى الله بالدعاء هو الملة الحنيفية، ودعوتكم الناس إلى التوجه إلى مقابر الأنبياء والأولياء هو ملة الشرك.

فإنّه توجّه بدعاء النبي ﷺ - وهذا ما حدث حقًّا - فقد توجّه إلى النبي ﷺ ليدعو له فوعده بذلك. ولذلك قال في آخر دعائه: **«اللّهم فشفعه في»**، أي اللّهم اقبل دعاءه فِيّ. والرجل يحكي ما فعله، وليس في صيغة كلامه ما يستدل به على جواز قول المشركين: «شيء لله يا رسول الله»! والدليل على ذلك أن ننظر: ماذا قال الأعمى بعد قوله **«يا محمد»**، هل قال: أغثني أعد إلي بصري؟ لقد قال: **«يا محمد»** لكنه لم يسأله، وأنتم إذا قلتم: «يا محمد» تقولون: أغثنا أمدنا بإمدادك، تعطّف تكرّم تحنّن علينا بنظرة! فإن كان سأله بعد قوله: **«يا محمد»** فقد قامت حجتكم، وإن كان لم يسأله فقد قامت الحجة عليكم. فالحديث حجة عليكم لا لكم.

وليس كل خطاب لغير الحاضر استغاثة به، وإلا فقد خاطب عمر بن الخطاب الحجر الأسود قائلًا: «والله إني لأعلم أنك حجرٌ لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك». رواه البخاري (١٥٩٧) ومسلم (١٢٧٠)». أهـ. أحاديث يحتج بها الشيعة (١ / ١٠٦ - ١١٠) باختصار. وانظر: غاية الأماني للألوسي، والتوصل إلى

=

وقد عَلِمَ ﷺ أنّ دعاءه للمرأة وللضرير مستجاب؛ لكنه أرشدهما إلى خيرٍ لهما من ذلك وهو الصبر على البلاء، على رجاء أن يعوِّض الله صاحبه ما هو خير وأبقى جنّةً عرضها السماوات والأرض، فأخذتْ بإرشاده المرأة، واستعجل الرجل بُشراه، فطلب الدعاء بكشف البلاء، فكان لهما ما طلبا. ولا يعني ذلك أن يترك العبد الدعاء لنفسه لكشف البلاء؛ فإن الدعاء بذاته مستوجبٌ للأجر والثواب سواء رُفع البلاء أو بقي؛ لقوله ﷺ: **«الدعاءُ هو العبادة»**(١).

ولا يظهر أنّ الأمر بالصبر مع بقاء البلاء في هذا الحديث مخصوص بذلك الرجل فيكون قضية عين، ولكن ربّما يكون مخصوصًا بجملة العُميان للفضيلة الخاصة بالصبر على فقد البصر، فقد قال ﷺ في الحديث الذي رواه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: **«إذا ابتليتُ عبدي بحبيبتيه**(٢) **فصبر عوّضته منهما الجنة»**(٣).

وهذ الفضل الخاص هو ما أشار إليه ﷺ بقوله في حديث الضرير: **«وإن شئتَ صبرتَ فهو خير لك»**. فقد يكون العمى مخصوصًا بهذا الحديث، والأمر

=

حقيقة التوسل (١ / ١٣٧) وما بعدها. وشرح العقيدة الطحاوية للحوالي (١ / ١٢٠٩ -١٢١١).

(١) أبو داود (١٤٧٩) والترمذي (٢٩٦٩) وصححه الألباني.

(٢) أي: عينيه.

(٣) البخاري ٧/١٥١ (٥٦٥٣) من حديث أنس.

محتمل. وقد لا يكون مُخصِّصًا أصلًا وهو الأظهر لعدم الدليل القاطع الصارف للتخصيص، وبكل حال فليس في الحديث توجيه للأعمى بترك الدعاء، فاتّسق بذلك مع ما سواه من الأحاديث الدالة على فضيلة الحُسنيين حسنة الرضا وحسنة الدعاء، وبالله التوفيق.

وبعدُ؛ فمِنَ الحسن الآن تبيان التوسل المشروع من الممنوع، فإن الله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]، قال قتادة: «تقرّبوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه».

والتوسل المشروع هو الذي أمر به الله تعالى ورسوله ﷺ، وعمل به الصحابة، وله أنواع عديدة أهمها:

١. **التوسل بالإيمان:** قال تعالى يحكي توسل عباده بإيمانهم: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣﴾ [آل عِمرَان: ١٩٣].

٢. **التوسل بتوحيد الله تعالى:** كدعاء يونس عليه السلام حين ابتلعه الحوت: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾ [الأنبياء: ٨٧ - ٨٨].

٣. **التوسل بأسماء الله تعالى:** قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]. ومن دعاء الرسول ﷺ قوله: «**أسألك بكل اسم هو لك..**»(١).

٤. **التوسل بصفات الله تعالى:** كقوله ﷺ: «**يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث**»(٢).

٥. **التوسل بالأعمال الصالحة:** كالصلاة وبر الوالدين وحفظ الحقوق والأمانة والصدقة والذكر وتلاوة القرآن والصلاة على النبي ﷺ، وحبّنا له ولأصحابه... وغيرها من الأعمال الصالحة، فقد ثبت في صحيح مسلم قصة أصحاب الغار الذين حُبسوا فيه، فتوسّلوا إلى الله بحفظ حقّ الأجير والإحسان للوالدين وعفاف الفرج؛ ففرّج الله عنهم.

٦. **التوسل إلى الله بترك المعاصي:** وقد توسل أحد أصحاب الغار الذين حُبسوا فيه بتركه الزنا ففرّج الله عنه.

وبعض المسلمين ـ هداهم الله ـ تركوا العمل الصالح والتوسل به، ولجؤوا إلى التوسل بأعمالِ غيرهم من الأموات، مخالفين هدي الرسول ﷺ.

أما التوسل الممنوع فهو الذي لا أصل له في الدين، فيأتي على أنواع:

---

(١) أحمد (٤٣١٨) وصححه الألباني في السلسلة (١٩٩).

(٢) الترمذي (٢٧٩٦) وحسنه الألباني.

التوسل بالأموات: وطلب الحاجات منهم، والاستعانة بهم، كما هو واقع اليوم من الجهلة، ويسمون شركهم تقرّبًا، ووثنيّتهم توسّلًا، وليس كذلك، لأن التوسل المشروع هو الطلب من الله بواسطةٍ مشروعة كالإيمان والعمل الصالح وأسماء الله الحسنى، أما دعاء الأموات فهو إعراض عن الله تعالى، وهو من الشرك الأكبر لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٦﴾ [يُونُس: ١٠٦]، والظالمون هنا هم المشركون. ومَن توسّل بالأموات فدعاهم لكشف الكربات فقد أشرك وخرج من رِبْقَةِ الإسلام، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ٧٢﴾ [المَائـِدَة: ٧٢].

١- **التوسل بجاه الرسول ﷺ:** كقول بعضهم: «يا رب، بجاه محمد اشفني» فقوله هذا بدعةٌ وضلالة وإحداث في الدين وذنبٌ يستحق عليه المؤاخذة إن لم يتُب منه، وليس بمُخرجٍ من الملّة؛ لأنه أخلص الدعاء لله، لكنه ابتدع في دين الله ما لم يأذن به الله من التوسل إلى الله تعالى بجاه مخلوق. والصحابة لم يفعلوه، وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ توسل بالعباس حيًّا بدعائه ولم يتوسل بالرسول ﷺ بعد موته عندما طلب نزول المطر، أما حديث: **«توسّلوا بجاهي»** فهو باطل لا أصل له كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية. وهذا التوسل

البدعي قد يؤدي للشرك، وذلك إذا اعتقد أن الله محتاج لواسطة كالأمير والحاكم، لأنه شبّه الخالق بالمخلوق(١).

وما أعظم الإخلاص وأحسن طيبات الخبايا، قال المروَزِيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل يقول: «ما رفع الله ابن المبارك إلا بخبيئةٍ كانت له» (٢). نسأل الله حُسْنَ المعتقد، وسلامةَ العمل، وسدادَ الاتِّباع، وصلاحَ الدين، وإخلاصَ النية، وحُسْنَ الختام، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأَنْعَام: ١٥٣].

❁❁❁❁

(١) انظر: منهاج الفرقة الناجية (١ / ٤٤ – ٤٨). وانظر كلام شيخ الإسلام في ذلك في الرد على البكري (١ / ٢٦٦) وقاعدة جليلة في التوسل والوسيلة (٢ / ٢٨٠) ومجموع الفتاوى (١ / ٣٢٣).

(٢) صفوة الصفوة (٤/ ١٤٥، ١٤٦).

حكمُ التداوي، وهل يقدحُ في الرضا؟

الأصل في التداوي الجواز، وقد يكتنفه ما يحيله إلى الوجوب، أو الاستحباب، أو الكراهة، أو التحريم. ولا يقدح التداوي في الرضا إلا بما يقدحه في التوكل؛ كالاعتماد بالقلب على السبب دون المُسبِّب سبحانه، وكالتداوي بمكروه كالكَيّ، وإلا فالأصل أنّ التداوي ليس بقادح لأنّه من تناول الأسباب التي أباحها الله، وبما أنها مأذونة شرعًا فهي غير قادحة شرعًا، ولا بمُنزِلةٍ صاحبها من تمام الرضا وكماله بإذن الله، وإن كان الأكمل لمن وثق بقلبه تركه، لصحة ما ورد في ذلك عن رسول الله ﷺ أوّلًا، ولأن العادة في الأسباب جارية على أن دفع الداء بالأدوية دون مرتبة دفع الجوع والعطش بالطعام والشراب، كما قد يترتب على الدواء ضرر في نفس المرض أو غيره، وقد يصاحبه نقصٌ في التوكل واليقين والرضا ونحو ذلك بسبب ضعف القلب أمام واردات آلام الأدواء ورجاء الأسباب الماديّة المشروعة للشفاء، ولأن ترك الاستشفاء بالأدوية ـ خلا النبويّة ـ فيه مزيد اعتماد وتفويض ورضا بتدبير الله تعالى.

بيان ذلك: أن الاستشفاء هو من قبيل جلب المصلح للبدن ودفع المفسد بإذن الله، وهو في ذلك يجري مجرى الطعام والشراب والاستدفاء ونحو ذلك، وقد أمر الله تعالى بحفظ البدن فقال سبحانه: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البَقَرَة: ١٩٥]، وقد كان من هديه ﷺ التداوي في نفسه، والأمر لمن أصابه مرض من أهله وأصحابه، ومن أدلة ذلك قوله ﷺ: **«ما أنزل الله من**

داء إلا أنزل له شفاء، عَلِمَه من علمه وجهله من جهله»[١]. وقال ﷺ: «**لكل داء دواء، فإذا أُصِيبَ دواءُ الداءِ بَرَأَ**[٢] **بإذن الله»**[٣]. وعند أحمد: «**فَإِذا أَصَبْتَ دَواءَ الدّاءِ، بَرَأَ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعالى**»[٤].

لذلك فلا يخرج من هذا العموم أي مرض حتى الإيدز والسرطان والكورونا ونحوها، ولكن علاجها لا زال في طيّ علم علام الغيوب سبحانه، فإذا أذن لعباده أن يعلموه يسّر لهم أسباب ذلك. وقال ابن القيم على الحديث الآنف: «فيه تقوية لنفس المريض والطبيب وحث على طلب ذلك الدواء،

---

(١) البخاري (٥٦٧٨) دون جملة «**عَلِمَه من علمه...**» فإنها عند أحمد (٤/ ٢٧٨) وحسنه محققوه، والحاكم (٤/ ١٩٦).

(٢) قال ابن الملك في شرح المصابيح (٥/ ٩١): «بَرَأَ: بفتحتين، يقال: بَرَأْتُ من المرض أَبَرأُ بَرْءًا بالفتح، فأنا بارِئ، وأبرأني الله منه، وعن أهل الحجاز: بَرِئْتُ بالكسر، بُراءً بالضم».

(٣) مسلم (٢٢٠٤) قوله: «**فإذا أُصِيبَ دَواءُ الدّاءِ**» أي إذا أصاب المريض الدواء المناسب شُفي بإذن الله تعالى، وفيه إشارةٌ إلى أهميّة دقةِ التشخيصِ للمرضِ، وحُسْنِ اختيارِ الدواءِ المناسبِ، من حيث النوعُ والكمُّ، وتقصِّي أقلِّ الأعراضِ الجانبيةِ حدوثًا. قال الزرقاني في شرح المواهب اللدنّية بالمنح المحمدية (٩/ ٣٥٧): «فإذا أصاب المريض دواء الداء المناسب له، سواء أصابه بتجربة أو أخبار عارف، واستعمله على القدر الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي؛ برأ بإذن الله تعالى، لأن الشيء يُداوى بضده غالبًا، لكن قد تدقّ حقيقة المرض وحقيقة طبع الدواء، فيقلّ الفقه بالمتضادّين، ومن ثم أخطأ الأطباء، فمتى كان مانعًا بخطأ أو غيره؛ تخلّف البرء، فإن تمّت المضادّة حصل البرء، فصحّت الكلية واندفع التدافع، وهذا أحد محمَلي الحديث».

(٤) المسند (١٤٥٩٧) وقال محققوه: حديث صحيح، إسناده على شرط مسلم.

والتفتيش عليه»[١]. وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذه كلمة صادقة العموم؛ لأنها خبر عن الصادق عن الخالق: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ الملك: ١٤، فالداءُ والدواءُ خلْقُه، والشفاءُ والهلاكُ فعلُه، وربط الأسباب بالمسببات حِكمتُه وحُكمُه، وكل ذلك بقَدَر لا معدول عنه»[٢].

وعن أسامة بن شريك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: كنت عند النبي ﷺ وجاءت الأعرابُ[٣] فقالوا: يا رسول الله، أنتداوى؟ فقال: **«نعم يا عباد الله تداووا، فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له شفاء، غير داء واحد»** قالوا: ما هو؟ قال: **«الهَرَم»**[٤].

قلت: فعاد الأمر بجملته إلى حال المرض والمريض ونوع الدواء، ويختلف الأمر من شخص لآخر ومن حال لآخر حتى لنفس الإنسان. فإن وثق بيقينه وتوكله وحسن ظنه بربّه وثقته به وعظيم صبره ورضاه وعدم انتقاص أمور دينه، واكتفى برقيته على نفسه، وتلذّذ بالرضا بمُرِّ القضاء؛ فالأفضل له ترك التداوي الحِسِّي إلا من زمزم والعسل والحبة السوداء ونحو ذلك مما جاء في

---

(١) الزاد (٤/ ١٧).

(٢) عن: فيض القدير للمناوي (٥ / ٣٦١).

(٣) وقد كان الصحابة يفرحون بهم ليتعلّموا من أجوبة رسول الله ﷺ لهم، وفي هذا بيان جمال خلق الصحابة مع نبيهم ﷺ، وهيبتهم له، وتوقيره، رضوان الله عليهم.

(٤) أحمد (٤/ ٢٧٨) وأبو داود (٣٨٥٧) وصححه الألباني. وأخرجه الترمذي (٢٠٣٨) وقال: حسن صحيح. وصححه ابن حبان في الموارد (١٣٩٥) والبوصيري في الزوائد (١٩٢٤) وصححه الألباني.

الوحي الإرشاد إليه. وعليه؛ فتركه للتداوي غير النبوي أفضل تسليمًا ورضًا. أما من لم يجتمع له ذلك فالتداوي في حقّه آكد، ولا يسع أكثر الناس إلا ذلك، وليس في دينِ مَن تداوى بالمباح منقصة من ذلك بحال، بل هو مُتَّبعٌ للشرع، مطيعٌ للربّ.

وعلى ذلك؛ فقد يكتنف المرض أحوال تُرجِّحُ أفضلية التداوي؛ كقيام المريض على أمور ضرورية للناس تختلُّ بمرضه، أو أن يخشى ضيق نفسه بالمرض، أو نوع تضجّر، أو ضعف صبر، واضطراب، وتشويش جمعية قلبه بانشغاله بمدافعة الألم والمرض عن عبادات أنفع لقلبه، أو انشغال عما هو أولى كمصالح المسلمين العامة ونحو ذلك، فيستحبُّ له التداوي جلبًا للمصلحة الأعلى.

أما إن خشي على نفسه التلف والهلكة؛ كنزيف يحتاج لرتق أو كيّ، وجرت العادة بنفع ذلك الدواء، كذلك من خشي إيذاء غيره؛ كمن به مرض مُعدٍ ولا يتمكّن من الاحتراز من نقل العدوى، ولا يستطيع عزل نفسه، أو خشي على دينه من الجزع والتسخّط فالواجب في حقه التداوي. أما إن استوى الطرفان فهو على الإباحة. علمًا أنّ التداوي بالكي مكروه، وأما التداوي بالحرام كالخمر والخنزير والدم والنجاسات والميتة فحرام. والله أعلم.

وقد اختلف أهل العلم في الجملة في حكم التداوي، هل هو مباح وتركه أفضل؟ أم مستحبّ؟ أم واجب؟ فالمشهور عند أحمد الأول، وعند الشافعي الثاني، وذكر النووي أنه مذهب جمهور السلف والخلف، وعند أبي حنيفة أنه مؤكّد حتى يُداني به الوجوب، وعند مالك استواء الطرفين. أما الرقية

فمستحبة من الإنسان لنفسه ولغيره، أما الاسترقاء ـ وهو طلب الرقية ـ فخلاف الأولى.

والجمهور على أنّ التداوي مباح، وإن اختلفوا هل الأولى فعله أو تركه. وفعلُ النبي ﷺ للتداوي دليل على أصل الإباحة. أما تخييره ﷺ للمرأة التي كانت تصرع بين الصبر[١] والدعاء لها بالشفاء مع ضمان الجنة لها فهو دليل على عدم وجوب التداوي، وقد ترك التداوي جماعة من السلف. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولست أعلم سالفًا أوجب التداوي، وإنما كان كثير من أهل الفضل والمعرفة يفضل تركه تفضّلًا واختيارًا لما اختار الله ورضي به وتسليمًا له»[٢]. وقد نقل الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ الإجماع على عدم وجوب التداوي[٣].

ولما قيل لأبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ـ وهو في مرض الموت ـ: ألا نأتيك بطبيب؟ قال: «قد رآني». قالوا: فما قال لك؟ قال: قال لي: «إني فعّال لما أريد»[٤].

قال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد تكون المشقّة الداخلة على المكلف من خارج لا بسببه، ولا بسبب دخوله في عمل تنشأ عنه؛ فههنا ليس للشارع قصد في بقاء

---

(١) ولازِمُهُ ترك التداوي على الأظهر.
(٢) مجموع الفتاوى (٢١/٥٦٤).
(٣) الطب النبوي (٢٢٧).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٩ / ٢٩٧) وتفسير ابن كثير (٨ / ٣٧٢).

ذلك الألم وتلك المشقة والصبر عليها، كما أنه ليس له قصد في التسبّب في إدخالها على النفس، غير أن المؤذيات والمؤلمات خلقها الله تعالى ابتلاء للعباد وتمحيصًا، وسلّطها عليهم كيف شاء ولِمَا شاء ف ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وفهم من مجموع الشريعة الإذن في دفعها على الإطلاق، رفعًا للمشقّة اللاحقة، وحفظًا على الحظوظ التي أذن لهم فيها»[(١)].

والتداوي هو من جملة الأقدار، فعن أبي خزامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله، أرأيت رُقى نسترقيها، ودواء نتداوى به، وتُقاة[(٢)] نتّقيها، هل تردّ من قدر الله شيئًا؟ قال: **«هي من قَدَر الله»**[(٣)]. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد أجابهم النبي ﷺ بما شفى وكفى، فقال: هذه الأدوية والرقى والتقى هي من قدر الله، فما خرج شيء عن قدره، بل يردّ قدَرَه بقدَرِه، وهذا الردّ من قدره، فلا سبيل إلى الخروج عن قدره بوجه ما، وهذا كردّ قدر الجوع والعطش والحرّ والبرد بأضدادها، وكردّ قدر العدو بالجهاد، وكلٌّ من قدر الله، الدافع والمدفوع والدفع»[(٤)].

---

(١) الموافقات (٢ / ٢٦٠).

(٢) التّقاة: ما يُتوقّى به الضرر، كالدرع والترس ونحو ذلك، لذلك فالتقوى جُنَّةٌ من غضب الله وعذابه.

(٣) أحمد (٣/ ٤٢١)، الترمذي (٢٠٦٦).

(٤) الزاد (٤/ ١٤).

وقال ابن مفلح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يُباحُ التداوي، وتركه أفضل، نصّ عليه[١] قال في رواية المرّوذي: العلاج رخصة، وتركه درجة أعلى منه. وسأله إسحاق بن إبراهيم بن هانئ في الرجل يمرض يترك الأدوية أو يشربها قال: إذا توكّل فتركها أحبّ إليّ.

وذكر أبو طالب في كتاب التوكل عن أحمد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: أُحِبُّ لمن عقد التوكل وسلك هذا الطريق ترك التداوي مِن شرب الدواء وغيره. وقد كانت تكون به علل فلا يخبر الطبيب بها إذا سأله، وقدّمه ابن تميم وابن حمدان، وهو قول ابن عبد البرّ، وحكاه عمن حكاه لقوله ﷺ في حديث ابن عباس: **«يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفًا بغير حساب[٢]، هم الذين لا يسترقون،**

---

(١) أي: الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٢) ومن فضل الله ورحمته وكرمه أن جعل مع كل واحد من السبعين ألف سبعين ألفًا أيضًا، فيكون مجموعهم أربعة مليارات وتسعمئة مليون مؤمن: (٧٠٠٠٠ × ٧٠٠٠٠ = ٤٩٠٠,٠٠٠٠٠٠) والظاهر أن الأعداد هنا مقصودة بذاتها، وليست على سبيل المبالغة كعادة العرب في المبالغة بالسبعين، لأنّ جادّة العرب في المبالغة بالعدد أنهم يكتفون بذكره وحده بلا إضافات عليه، كقولهم رأيته سبعين مرة ونحو ذلك، أما في هذا الحديث فقد رُتّبت أعداد لاحقة على أعداد سابقة فمع كل ألف سبعين ألفًا، أو مع كل واحد سبعين ألفًا، أما الحَثَيات الربانية فلا يقدر قدرها إلا الله تعالى، ومثلُ هذا العدد المقصود حديثُ رسول الله ﷺ: **«يُؤتى بجهنَّمَ يومئِذٍ لها سَبعُونَ ألفُ زمامٍ، مع كلِّ زِمامٍ سَبعونَ ألف مَلَكٍ يَجُرُّونَها»**، رواه مسلم (٢٨٤٢) والله أعلم. فعند أحمد (٢٢) وأبي يعلى في مسنده عن أبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: **«أُعطيتُ سبعين ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب، وجوههم كالقمر ليلة البدر، قلوبهم**

=

=

على قلب رجل واحد، فاستزدت ربي عز وجل فزادني مع كل واحد سبعين ألفًا». وقال الهيثمي في المجمع (١٨٧١٢): «رواه أحمد وأبو يعلى، وفيهما المسعودي وقد اختلط، وتابعيّه لم يسمّ، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح». وصححه البوصيري والألباني في الصحيحة (١٤٨٤) وقال بعد ذكره كلام الهيثمي الآنف: لكن الحديث صحيح، فإن له شواهد كثيرة عن جمع من الصحابة، وفاته حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«سألت ربي عز وجل، فوعدني أن يدخل من أمتي سبعين ألفًا على صورة القمر ليلة البدر، فاستزدت فزادني مع كل ألف سبعين ألفًا فقلت: أي رب؛ إن لم يكن هؤلاء مهاجري أمتي، قال: إذن أكمّلهم لك من الأعراب»**. أخرجه أحمد (٢ / ٣٥٩) عن زهير بن محمد عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ.

قلت: وهذا إسناد على شرط مسلم، لكن زهير هذا وهو أبو المنذر الخراساني فيه ضعف من قبل حفظه. والحديث قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١١ / ٣٤٥): «رواه أحمد والبيهقي في «البعث» من رواية سهل بن أبي صالح ...، وسنده جيد، وفي الباب عن أبي أيوب عند الطبراني، وعن حذيفة عند أحمد، وعن أنس عند البزار، وعن ثوبان عند ابن أبي عاصم، فهذه طرق يقوي بعضها بعضًا». قلت: وعن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق عند أحمد أيضًا (١ / ١٩٧). أهـ.

وقد جاء في حديث آخر: **«وعدني ربي أن يُدخل الجنة من أمتي سبعين ألفًا، مع كل ألف سبعون ألفًا لا حساب عليهم ولا عذاب، وثلاث حَثَيَاتٍ من حَثَيَاتِ ربي»**. فعددهم في هذا الحديث أربعة ملايين وتسعمئة ألف (٤,٩٠٠,٠٠٠) مع زيادة حثيات الكريم الرحيم الوهاب تبارك وتعالى. فلعلّ الله تعالى قد بَشَّرَهُ أوَّلًا بسبعين ألف مع كل ألف، ثم زاده سبعين ألفًا مع كل واحد، وفوق ذلك كله الحَثَيَات الإلهية الثلاث، أي يدخل الجنة بلا حساب ولا عذاب بقدر حثياته الثلاث تبارك وتعالى وتقدّس، وهي حثيات عظيمة، ولا يقدّر قدرها إلا الله تعالى. والله أعلم كم قدر الحثية، والحَثية في اللغة: هي

=

ولا يتطيرون، ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون». متفق عليه[(١)]. وقال رسول الله ﷺ: **«من اكتوى أو استرقى فقد برئ من التوكل»**. رواه أحمد وغيره وإسناده ثقات وصححه الترمذي[(٢)]»[(٣)]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن الناس قد تنازعوا في التداوي هل هو مباح أو مستحب أو واجب؟ والتحقيق: أن منه ما هو محرم، ومنه ما هو مكروه، ومنه ما هو مباح، ومنه ما هو مستحب. وقد يكون منه ما هو واجب، وهو ما يعلم أنه يحصل به بقاء النفس لا بغيره، كما يجب أكل الميتة عند الضرورة، فإنه واجب عند الأئمة الأربعة وجمهور العلماء، وقد قال مسروق: «من اضطر إلى أكل الميتة فلم يأكل حتى مات دخل النار». فقد يحصل أحيانًا للإنسان إذا استحرّ المرض ما إن لم يتعالج معه مات، والعلاج المعتاد تحصل معه الحياة كالتغذية للضعيف وكاستخراج الدم أحيانًا»[(٤)]. وقال أيضًا: «وليس التداوي بضرورة لوجوه:

=

ملء الكفّين. نسأل الله الكريم أن يجعلنا جميعًا ووالدينا وأحبابنا منهم، آمين. ومعلومٌ حبورُ النفس وفرحها بتتابع البشارات تلو البشارات بخصوص البشارة الأولى وزيادتها ومباركتها، فلله الحمد كل الحمد.

(١) البخاري ٧/ ١٦٣ (٥٧٠٥)، ومسلم ١/ ١٣٧ (٢٢٠) (٣٧٤)

(٢) أحمد (١٨٢٢١) وحسنه محققوه، والترمذي (٢٠٥٥) وقال: هذا حديث صحيح، وصححه الألباني.

(٣) الآداب الشرعية لابن مفلح (٢/ ٣٥٩).

(٤) مجموع الفتاوى (١٨ / ١٢).

أحدها: أن كثيرًا من المرضى أو أكثر المرضى يُشفون بلا تداوٍ لا سيّما في أهل الوبر والقرى والساكنين في نواحي الأرض، يشفيهم الله بما خلق فيهم من القوى المطبوعة في أبدانهم الرافعة للمرض، وفيما ييسره لهم من نوع حركة وعمل، أو دعوة مستجابة، أو رقية نافعة، أو قوة للقلب وحسن التوكل، إلى غير ذلك من الأسباب الكثيرة غير الدواء. وأما الأكل فهو ضروري ولم يجعل الله أبدان الحيوان تقوم إلا بالغذاء، فلو لم يكن يأكل لمات، فثبت بهذا أن التداوي ليس من الضرورة في شيء.

وثانيها: أن الأكل عند الضرورة واجب، والتداوي غير واجب. ومن نازع فيه خصمته السنة في المرأة السوداء التي خيّرها النبي ﷺ بين الصبر على البلاء ودخول الجنة وبين الدعاء بالعافية، فاختارت البلاء والجنة. ولو كان رفع المرض واجبًا لم يكن للتخيير موضع كدفع الجوع. وفي دعائه لأبيّ بالحمّى، وفي اختياره الحمّى لأهل قباء، وفي دعائه بفناء أمته بالطعن والطاعون، وفي نهيه عن الفرار من الطاعون.

وخصَمَهُ حال أنبياء الله المبتلين الصابرين على البلاء حين لم يتعاطوا الأسباب الدافعة له مثل أيوب عليه السلام وغيره. وخَصَمه حال السلف الصالح؛ فإن أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين قالوا له: ألا ندعو لك الطبيب؟ قال: قد رآني، قالوا: فما قال لك؟ قال: إنّي فعال لما أريد. ومثل هذا ونحوه يروى عن الربيع بن خُثَيْم المُخبت المنيب الذي هو أفضل الكوفيين أو كأفضلهم، وعمر بن عبد العزيز الخليفة الراشد الهادي المهدي، وخلق كثير لا يحصون عددًا.

ولست أعلم سالفًا أوجب التداوي، وإنما كان كثير من أهل الفضل والمعرفة يفضل تركه تفضلًا واختيارًا لِمَا اختار الله ورضي به وتسليمًا له، وهذا المنصوص عن أحمد وإن كان من أصحابه من يوجبه، ومنهم من يستحبه ويرجحه، كطريقة كثير من السلف استمساكًا لما خلقه الله من الأسباب، وجعله من سنّته في عباده.

وثالثها: أن الدواء لا يُستيقن، بل وفي كثير من الأمراض لا يظن دفعه للمرض؛ إذ لو اطّرد[1] ذلك لم يمت أحد، بخلاف دفع الطعام للمسغبة والمجاعة فإنه مستيقن بحكم سنة الله في عباده وخلقه.

ورابعها: أن المرض يكون له أدوية شتّى، فإذا لم يندفع بالمُحَرَّم انتقل إلى المُحَلَّل[2]، ومحال ألّا يكون له في الحلال شفاء أو دواء، والذي أنزل الداء أنزل لكل داء دواء إلا الموت. ولا يجوز أن يكون أدوية الأدواء في القسم المحرم، وهو سبحانه الرؤوف الرحيم. وإلى هذا الإشارة بالحديث المروي: **«إن الله لم**

---

(١) يصح لغة: اضطرد واطّرد.

(٢) لعل في العبارة قلب، فيكون الكلام: «إذا لم يندفع بالمُحلّل انتقل إلى المُحرّم»، أي قياسًا على أكل الميتة لمن خاف على نفسه الهلكة، ولا يقصد بذلك بيان الحكم - فهو لا يقول به - إنما قصد التدرج في القياس لإبطاله بسبب عدم اتحاد العلّتين، مع بيان الفرق بينهما، هذا هو الأظهر. أما إن لم يكن ثمّ قلب فقد يكون قد قصد التقسيم العقلي المُلجئ بالقسمة الثنائية، فالدواء إما بالحلال أو الحرام، وبما أن الشارع قد حرّم الحرام، وبيّن أنه ليس فيه شفاء، فيلزم من ذلك أن الدواء الشافي بإذن الله محصور في الحلال، والله أعلم.

يجعل شفاء أمتي فيما حرم عليها»[1]. بخلاف المسغبة فإنها وإن اندفعت بأي طعام اتفق إلا أن الخبيث إنما يباح عند فقد غيره، فإن صوّرت مثل هذا في الدواء فتلك صورة نادرة؛ لأن المرض أندر من الجوع بكثير، وتعيّن الدواء المعيّن، وعدم غيره نادر فلا ينتقض هذا. على أن في الأوجه السالفة غنى.

وخامسها ـ وفيه فقه الباب ـ: أنّ الله تعالى جعل خلقه مفتقرين إلى الطعام والغذاء لا تندفع مجاعتهم ومسغبتهم إلا بنوع الطعام وصنفه، فقد هدانا وعلمنا النوع الكاشف للمسغبة المزيل للمخمصة.

وأما المرض فإنه يزيله بأنواع كثيرة من الأسباب ظاهرة وباطنة روحانية وجسمانية، فلم يتعيّن الدواء مزيلًا. ثم الدواء بنوعه لم يتعيّن لنوع من أنواع الأجسام في إزالة الداء المعين. ثم ذلك النوع المعين يخفى على أكثر الناس، بل على عامتهم دركه ومعرفته، والخاصة المزاولون منهم هذا الفن أولو الأفهام والعقول يكون الرجل منهم قد أفنى كثيرًا من عمره في معرفته ذلك ثم يخفى عليه نوع المرض وحقيقته، ويخفى عليه دواؤه وشفاؤه، ففارقت الأسباب المزيلة للمرض الأسباب المزيلة للمخمصة في هذه الحقائق البينة وغيرها، فكذلك افترقت أحكامها كما ذكرنا»[2].

---

(١) ابن حبان في صحيحه (٤ / ٢٣٣) وأبو يعلى في المسند (١٢) وشرح ثلاثيات المسند (١/٨٢٥) وقال السفاريني: صحيح. وصححه كذلك في كشف اللثام (٦/ ٢٠٠).
وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥ / ٨٦): «رجاله رجال الصحيح، خلا حسان بن مخارق، وقد وثقه ابن حبان».

(٢) مجموع الفتاوى (٢١ / ٥٦٣- ٥٦٦).

وقال ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التداوي لا بأس به، ولا حرج فيه، ولا ينقص الإيمان، يقول النبي ﷺ: **«عباد الله تداووا ولا تداووا بحرام»**(١). ويقول النبي ﷺ: **«ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء، علمه من علمه وجهله من جهله»**(٢). لكن ترك طلب الاسترقاء هو الذي جاء في الحديث: **«ولا يسترقون»**(٣). أي: لا يطلبون من يرقي لهم ويقرأ عليهم **«ولا يكتوون»**، فترك

(١) الترمذي (٢٠٣٨) وقال: حسن صحيح. وصححه الألباني.

(٢) البخاري (٥٦٧٨) دون جملة **«علمه من علمه...»** فإنها عند أحمد (٤/ ٢٧٨) وحسنه محققوه، والحاكم (٤/ ١٩٦).

(٣) البخاري ٧/١٦٣ (٥٧٠٥)، ومسلم ١/١٣٧ (٢٢٠) (٣٧٤) وجاءت عند مسلم بلفظ **«لا يرقُون»** وقد ردها المحققون للشذوذ. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «زاد مسلم وحده **«ولا يَرْقُون»** فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: «هذه الزيادة وهمٌ من الراوي، لم يقل النبي ﷺ: **«لا يرقون»** لأن الراقي محسن إلى أخيه، وقد قال ﷺ حين سئل عن الرقى: **«من استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه»**. رواه أحمد (٣/٣٠٢) ومسلم (١٤/١٨٦) وقال ﷺ: **«لا بأس بالرقى ما لم تكن شركًا»**. رواه أبو داود (٣٨٨٦) وأيضًا فقد رقى جبريل النبي ﷺ. رواه مسلم (١٤/١٧٠) والفرق بين الراقي والمسترقي: أن المسترقي سائل مستعط ملتفت إلى غير الله بقلبه، والراقي محسن نافع». المستدرك على مجموع الفتاوى (١ / ٢٧) وانظر: مفتاح دار السعادة (٥٨٠) وقال العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«لا يرقون»** كلمة غير صحيحة، ولا تصح عن النبي ﷺ؛ لأن معنى **«لا يرقون»** أي: لا يقرؤون على المرضى، وهذا باطل، فإن الرسول ﷺ كان يرقي المرضى». شرح رياض الصالحين (١/٢٩٠).

الكيِّ أفضل إلا عند الحاجة فلا بأس[١]، يقول النبي ﷺ: **«الشفاء في ثلاث: كيّة نار، أو شربة عسل، أو شرطة محجم»**[٢]. فإذا دعت الحاجة إلى الكيّ أو الاسترقاء أو نحو ذلك فلا بأس به، فالتداوي مطلوب **«ما أنزل الله من داء إلا وأنزل له شفاء»**. لكن مع التداوي يعتمد على الله، ويسأل ربه الشفاء، ويعلم أنه سبحانه هو الشافي وبيده الأمر.

والتداوي من الأسباب، فالعلاج عند الأطباء أو عند القراء كلها أسباب، والتوفيق والشفاء بيد الله جل وعلا»[٣]. وقال العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا غلب على الظن نفع الدواء مع احتمال الهلاك بتركه فالتداوي واجب. وإن غلب على الظن نفع الدواء، ولكن ليس هناك احتمال للهلاك بترك الدواء، فالتداوي أفضل. وإن تساوى الأمران فترك التداوي أفضل»[٤].

---

(١) قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أحاديث الكي أربعة أنواع: أحدُها: فعلُه، والثاني: عدمُ محبته له، والثالث: الثناء على مَن تركه، والرابع: النهى عنه. ولا تَعَارُض بينها بحمدِ الله تعالى، فإنَّ فِعلَه يدلُّ على جوازه، وعدمَ محبتِه له لا يدلُّ على المنع منه، وأما الثناءُ على تاركِه فيدلُّ على أنَّ تَرْكَه أولى وأفضلُ، وأما النهيُ عنه، فعلى سبيل الاختيار والكراهة، أو عن النوع الذي لا يُحتاجُ إليه، بل يفعل خوفًا من حدوث الداء. والله أعلم». زاد المعاد (٤ / ٦٥).

(٢) صححه ابن باز في المجموع (١/ ٢٠٦) والألباني في صحيح الجامع (٣٧٣٤) أما لفظ البخاري فبسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: **«الشفاء في ثلاثة؛ في شرطة محجم، أو شربة عسل، أو كيّة بنار، وأنا أنهى أمتي عن الكيّ»**.

(٣) دروس للشيخ عبد العزيز بن باز (١٧ / ١٢).

(٤) كتب ورسائل العثيمين (٢١٥ / ١).

وكم من مريض استعجل شفاءه بمحرم كان فيه هلاكه، فأراد العاجلة ولاتَ حينَ شِفاءِ!

وقد ييسّر الله تعالى الشفاء من المرض العضال برؤيا صالحة، وقد ذكروا أن عائشة رضي الله عنها لما سحرتها جاريتها رأت في منامها أن اغتسلي من ثلاثة آبار يمدّ بعضها من بعض، فاستُقي لها فاغتسلت فبرأت بإذن الله[١]. وأسند البيهقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن اللَّيث بن سعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: رأيتُ إسماعيلَ بن عقبة بصيرًا، ثُمَّ رأيتُه قَد عميَ، ثمَّ رأيته قد أبصَر، فَقلت لَه. فقال: «رأيتُ رجلًا في المَنام قائِمًا، فقال لي: قُل. قُلت: ما أقُولُ؟ قال: قُل: «يا قَرِيبُ يا مُجِيبُ، يا سَمِيعَ الدُّعاءِ، يا لَطِيفُ لِما يَشاءُ، رُدَّ عَلَيَّ بَصَرِي، فَقُلْتُها فَأَبْصَرْتُ» [٢].

هذا؛ وإنّ الإخبار بالمرض ـ لحاجة ـ ليس من الشكوى ولا يقدح في الرضا، فعن أبي سعيد الخدري: أنه دخل على رسول الله ﷺ وهو موعوك، عليه قطيفة، فوضع يده عليه، فوجد حرارتها فوق القطيفة. فقال أبو سعيد: ما أشدّ حُمَّاك يا رسول الله! قال: **«إنا كذلك، يشتد علينا البلاء، ويضاعف لنا الأجر»**. فقال: يا رسول الله! أيّ الناس أشدّ بلاء؟ قال: **«الأنبياء ثم الصالحون، وقد كان أحدهم يُبتلى بالفقر، حتى ما يجد إلا العباءة يجوبُها**[٣]

---

(١) الجامع لمسائل المدونة لابن يونس الصقلي (٧/٨٤٥) وقد ذكرها ابن القيم في الروح (١/١٩١).

(٢) شعب الإيمان (٢/٣٥٦).

(٣) «**يجوبها**»: الجوب: الخرق والقطع.

فيلبسها، ويُبتلى بالقمل حتى يقتله، ولأحدهم كان أشد فرحًا بالبلاء، من أحدكم بالعطاء»(١).

وقد بوّب البخاريرَحِمَهُٱللَّهُ في الأدب المفرد باب: هل يكون قول المريض: «إنّي وَجِعٌ» شكاية؟ وساق الحديث عن هشام، عن أبيه قال: «دخلت أنا وعبد الله بن الزبير على أسماء ـ قبل قتل عبد الله بعشر ليال ـ وأسماء وَجِعَة. فقال لها عبد الله: كيف تجدينك؟ قالت: وَجِعَةٌ. قال: إني في الموت. فقالت: لعلك تشتهي موتي، فلذلك تتمناه؟ فلا تفعل، فوالله ما أشتهي أن أموت حتى يأتي على أحد طرفيك، أو تُقتل فأحتسبك، وإما أن تظفر فتقرّ عيني، فإياك أن تُعرض عليك خُطّة، فلا توافقك، فتقبلها كراهية الموت. وإنما عنى ابن الزبير ليقتل فيحزنها ذلك»(٢). وبالله التوفيق.

أما إن لم يكن هناك حاجة من الإخبار فالكفّ عنه أولى وأجمل وأسلم وأحمد، وليكن حاله كحال يعقوب عليه السلام: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ﴾ [يُوسُف: ٨٦]، ولا يكن كالشاكِين ربهم لخلقه!

وقد نظر أعربي إلى رجل يشكو ما هو فيه من الضيق والضرّ فقال: «يا هذا أتشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك؟». ولله من قال:

---

(١) الأدب المفرد (١/١٧٩) وشعب الإيمان للبيهقي (١٢/٢٢٧) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٩٥) وعند أحمد بنحوه في المسند (٣/ ٩٤)، ومصنف عبد الرزاق (٢٠٦٢٦)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٠٤٧).

(٢) الأدب المفرد (٥٠٩) وصححه الألباني.

وإذا عَرَتْـــكَ بليّــةٌ فاصـــبر لهـــا صـــبر الكـــريم فإنـــه بـــك أعلـــمُ

وإذا شـــكوتَ إلى ابـــن آدم إنـــما تشكو الـرحيمَ إلى الـذي لا يـرحمُ

هل الرضا بالله تعالى موهبيٌّ أم كسبيٌّ؟

أي: هل يُوهَبُ من الله كالغريزة، وهو ما يسمُّونَهُ بالحال، أم يمكن للعبد تحصيله؟ ويسمّونه المقام. أي: هل هو فطريٌّ، أم لا يُحصل إلّا بالمجاهدة ورياضة النفس؟

والجواب: أنه هذا وهذا، فأصله موجود في معدن المرء وجِبِلَّته وغريزته، مُختلِفٌ وجودًا وعدمًا، قوةً وضعفًا من شخص لآخر، كما أنّ للعلم بالوحي الشريف مع الدُربة والمجاهدة أثر أصيل في إيجاده ـ بإذن الله تعالى ـ إن كان معدومًا، وفي حفظه وزيادته وتقويته إن كان موجودًا، وكلما زاد العلم بالله وشرعه في القلب ازدادت موارد الرضا به تبارك وتعالى، وكلما تقلّص العلم به أو نُسيَ بَرَكَ الجهل بكلكله على كاهله، فأخمد جذوته، وأطفأ نوره، وأضعف قوّته، كذلك إذا داوم العبد على تحريك قلبه به ـ إذ هو منقسم على علم القلب وعمله ـ فتفكّر فيه، ومارسه، وحَيَا به، وتذكّره آناء الليل وأطراف النهار وعند نومه بقوله بلسانه المواطئ قلبه: **«رضيت بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا»**(١).

---

(١) قال النبي ﷺ: **«ما من مسلم، أو إنسان، أو عبد، يقول حين يمسي وحين يصبح: رضيت بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد نبيًّا؛ إلا كان حقًّا على الله أن يرضيه يوم القيامة»**. رواه ابن ماجه (٢/ ٣٨٧٠) وفي الزوائد: إسناده صحيح، ورجاله ثقات.

ويُخْطِرُ تلك المعاني الطاهرة الجميلة المُفعَمة على نياط قلبه كلّما لاحت مناسبتُه، حينها يقوى رضاه بربه، فلا يزال في زيادة علمٍ مباركٍ حتى يلقى الله تعالى يوم يقوم الأشهاد.

وبالجملة؛ فالرضا مبنيٌّ في الأساس على علوم وأعمال أخرى كالعلم بصفات الله تعالى وأفعاله، وكالتوكل والتفويض والتسليم والمحبة والإخلاص، فعلى قدرها يكون غَناءُ التوكل وضعفُه بضعفِها. وعليه؛ فالرضا موهبيّ كسبيّ، وهو محض فضل الله تعالى على عبده بإيجاده في قلبه ابتداءُ، وبحراسته وعمارته وإمداد عبده وإعانته بطرائقِ تحصيله ووسائل زيادته وحبالِ حفظه انتهاءً.

قال المُنجّد حفظه الله تعالى: «الرضا كسبيٌّ باعتبار سببه، موهبيٌّ باعتبار حقيقته. فإذا تمكن العبد في أسباب الرضا وغرس شجرة الرضا في قلبه جنى الثمرة. لأن الرضا آخر التوكل. فبعدما يعجز التوكل يأتي الرضا. والذي ترسخ قدمه في طريق التوكل ينال الرضا. لأن بعد التوكل والتسليم والتفويض يحصُل الرضا، وبدونها لا يحصل الرضا.

ولذلك لو قال أحدهم: نريد تحصيل الرضا، نقول له: يجب أن يكون لديك توكلٌ صحيحٌ وتسليمٌ وتفويضٌ، ثم ينتج الرضا بعد ذلك. ولذلك لم يُوجِب الله على عباده المنازل العالية من الرضا؛ لأن ذلك شيءٌ صعبٌ جدًّا، وأكثر النفوس ربما لا يحصُل لها ذلك.

فالله ندب إليه ولم يوجبه ـ ليس أساس الرضا وإنما ما فوق ذلك ـ فإذا حصل للعبد شيءٌ فإنه لا بد أن يكون محفوفًا بنوعيه من الرضا: رضًا قبله،

ورضًا بعده. وكذلك الرضا من الله عز وجل عن العبد، إنما هو ثمرة رضا العبد عن الرب سبحانه، فإذا رضيتَ عن الله رضي الله عنك.

والرضا باب الله الأعظم وجَنَّة الدنيا ومُسْتَرَاح العارفين وحياة المحبين ونعيم العابدين، وهو من أعظم أعمال القلوب. قال يحيى بن معاذ لما سئل: متى يبلغ العبد إلى مقام الرضا؟ قال: «إذا أقام نفسه على أربعةِ أصولٍ يُعامِل بها ربه: يقول: إن أعطيتني قبلتُ، وإن منعتني رضيتُ، وإن تركتني عبدتُ، وإن دعوتني أجبتُ».

والرضا إذا باشر القلب؛ فإنه يدل على صحة العلم، وليس الرضا والمحبة كالرجاء والخوف، فمن الفروق: أن أهل الجنة مثلًا لا يخافون في الجنة ولا يرجون مثل رجاء الدنيا، لكن لا يفارقهم الرضا أبدًا. فإن دخلوا الجنة فارقهم الخوف ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس: ٦٢].

ففي الدنيا هناك خوف، فإذا دخلوا الجنة زال الخوف، أما الرضا فلا يزول خارج الجنة وداخلها.

فالخوف والرجاء في الدنيا ليس موجودًا عند أهل الجنة في أحوال(١)، أما الرضا فلا يفارق العبد لا في الدنيا ولا في البرزخ ولا في الآخرة ولا في الجنة. ينقطع عنهم الخوف؛ لأن الشيء الذي كانوا يخافونه أَمِنوه بدخولهم الجنة، وأما

---

(١) قال ابن القيم في التفرقة بين الرجاءين: «لكنه ليس رجاء مشوبًا بشكٍّ، بل هو رجاءُ واثقٍ بوعدٍ صادقٍ من حبيبٍ قادر، فهذا لون ورجاؤهم في الدنيا لون». مدارج السالكين (٢ / ١٧٥).

الشيء الذي كانوا يرجونه فقد حصل لهم، أما الرضا فإنه لا يزال معهم وإن دخلوا الجنة. معيشتهم راضيةٌ وهم راضون، ورضوا عن الله، وراضون بثوابه وما آتاهم في دار السلام»(١).

---

(١) سلسلة أعمال القلوب، محمد المنجد (٢/ ٢٤-٢٥) بتصرف يسير، وانظر تفصيل ذلك في مدارج السالكين (٢ / ١٧٣) وما بعدها.

هل للسنّ علاقة بطيب الرضا؟

من أسباب الرضا التقدم في العمر وكبر السن وبلوغ النضج العقلي، وهٰهنا سؤال: هل كبر السن النسبيّ ـ كعمر الستين ـ له دور في حسن الأخلاق وقوة الاحتمال وحسن المعشر والبشاشة وطِيب الرضا بالقضاء ونحو ذلك؟

الجواب: أن هذا هو الأصل ما لم يُغلب من مورد آخر ذاتي، كضغوطٍ حياتية أو معيشية خاصة تسبب ضجره وضيق عطنه، أو أمراض معينة وبخاصة العصابية، أو المؤذية، أو حتى المزمنة كالضغط والسكري ونحوه.

وقلنا إن الأصل هو أن التقدم العمر في الأغلب مفض لطيب الرضا لأنّ متعلّق الرضا هو العلم والعقل، وهذان يُفترض اتساعهما مع العمر، خاصة بعد بلوغ النضج العقلي في الأربعين، أما العلمي فهو متراكم على مرّ السنين، حتى يصل العمر إلى مراحل النسيان وبدايات الخرف ونحوه، فقوة العقل واتساع العلم من أسباب طِيبِ الرضا وقوّته بإذن الله تعالى، لأنّ الإنسان يصل في هذه الأعمار إلى رؤية حقيقة الدنيا، وتحتّم فنائها، وضرورة الزهد في حطامها، ويرى الغلالة الرقيقة بين الدارين، ويبصر العلاقة الحقيقية بين الأشياء، ويقارن المواقف والتجارب مع حصيلته العمرية من العلوم والمعارف.

لذا فالغالب عند من تجاوز الستين أن نفسه تتغيّر فيه للأحسن، ويطيب عيشه المعنوي والإيماني والروحاني، ويميل بأَخَرَةٍ إلى التأمل الجميل، والمعاشرة الهادئة، والأذكار الطيبة، والخلق الدمث، لأنه يرى ببصيرته معالم

بدايات الآخرة، وقربه الزماني ـ في العادة ـ منها. هذا إن سلم من غوائل الحرص، ودغائل طول الأمل، وأسقام حب الدنيا، وسمّ التهالك على تحصيلها.

والمقصود؛ أن العمر الجميل والسنّ الهادئ والعقد الراضي هو سن الستين، فهو سن الهدوء والتأمل، والرضا والحب، والسلام والتسليم، والاستعداد الجميل ليوم الرحيل ولقاء الجليل الجميل تبارك وتعالى.

وبالجملة؛ فالأصل أنّ تقدم العمر سبب لطِيب الرضا ما لم يعرض ذلك غفلة إيمانية أو شرودٌ علميّ، أو سَوءَةٌ مزاجية، وبالله التوفيق.

ومن باب ذكر الشيء بالشيء فإنّ منتصف العمر عند الأطباء يكون عند الأربعين، وهناك مرحلة يسمّونها بأزمة منتصف العمر، ولكنها في القرآن العظيم هي مرحلة الأشدّ، واستجماع القوى، واستحكام الرأي، ونضوج العقل.

أما منتصف العمر في الحقيقة فهو الثلاث والثلاثون، لحديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنّ رسول الله ﷺ قال: **«أعمارُ أمّتي ما بين الستين إلى السبعين. وأقلّهم من يجوز ذلك»**(١).

وعليه؛ فنصف معترك المنايا ومنتصفها على التقريب هو الخمس والستون، ونصفها الثلاث والثلاثون تقريبًا، ومنه تبدأُ رسل النضج والوقار،

---

(١) الترمذي (٢٨١٥) وابن ماجه (٤٢٣٦) وصححه الألباني.

وهي علامات المشيب، وهو عمر أهل الجنة حين يدخلونها، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: **«يدخل أهلُ الجنةِ الجنةَ جُردًا مُردًا مكحّلين، أبناء ثلاث وثلاثين سنة»**(١). نسأل الله الكريم من فضله.

(١) أحمد (٨٥٠٥) الترمذي (٢٥٤٥) وصححه الألباني. ومعنى «جردًا»: الأجرد هو الذي لا شعر على جسده. «مُردًا»: الأمرد هو الشاب الذي لا لحية له.

هل عدمُ الألم شرطٌ للرِّضا بالله تعالى؟

يسمع بعض الناس عن أحوال بعض الصالحين من الأنبياء والصحابة وغيرهم أنهم يتلذّذون بالبلاء في ذات الله تعالى، كحال صبر أيوب عليه السلام سنينًا كثيرة، وما جاء في حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه دخل على رسول الله ﷺ وهو موعوك، عليه قطيفة، فوضع يده عليه، فوجد حرارتها فوق القطيفة. فقال أبو سعيد: ما أشدّ حُمَّاك يا رسول الله! قال: «**إنا كذلك، يشتد علينا البلاء، ويضاعف لنا الأجر**». فقال: يا رسول الله! أيّ الناس أشدّ بلاء؟ قال: «**الأنبياءُ، ثم الصالحون، وقد كان أحدهم يُبتلى بالفقر، حتى ما يجد إلا العباءة يجوبُها، فيلبسها، ويُبتلى بالقمل حتى يقتله، ولأحدهم كان أشد فرحًا بالبلاء، من أحدكم بالعطاء**»(١). وكما نقل عن بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سئل: كيف كنت تصبر على عذاب حرِّ الرمضاء؟ فقال: «والله أمَا إنّي كنتُ أجِدُ ألمًا عظيمًا، ولكني مزجتُ حرارةَ الألم بلذّةِ الرضا فيما أرجوه من الله؛ فغلب ذلك ما أجد من آلامها».

بِعَيْنَيْكَ ما يلقى الفُؤادُ وما لَقِي ... وللشوقِ ما لم يبْق منّي وما بقِي

---

(١) الأدب المفرد (١/١٧٩) وشعب الإيمان للبيهقي (١٢/٢٢٧) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٩٥) وعند أحمد بنحوه في المسند (٣/ ٩٤)، ومصنف عبد الرزاق (٢٠٦٢٦)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٠٤٧). ومعنى «يجوبها»: من الجَوْبِ، وهو الخرق والقطع.

فيظنّ من سمع أمثال تلك المواقف أنّ عدم الإحساس بالألم شرطٌ لكمال الرضا، أو أنّ التلذّذ بالألم بعد الإحساس به شرط له!

وهذا ظنٌّ غير صحيح، فليس شرطًا بحمد الله تعالى، ولا يسع الناس إلا ذلك، والله تعالى يقول: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، ويقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فالشعور بالألم حتميّ في العادة، ولا يُحمد صاحبه ولا يذمّ، إنما يحمد ويذم على انفعاله بالمؤلم، أيرضى أم يجزع. فالرضا اختياري أمّا الألم فليس بالاختيار، لذلك فالجهة منفكّة، ولولا الألم ما كان للرضا بالمصائب وجه، فكيف يرضى بمصيبة لا تؤلمه، والامتحان إنما هو بفعل الطاعة وترك المعصية مع مشقتهما على النفس، والمشقة هي عين الألم.

ويوضّح هذا ما ذكره الإمام أحمد في كتاب الزهد بسنده قال: كُتب إلى عمر: يا أمير المؤمنين؛ رجلٌ لا يشتهي المعصية ولا يعملُ بها، أفضل، أم رجل يشتهي المعصية ولا يعمل بها؟ فكتب عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «إنّ الذين يشتهونَ المعصية ولا يعملون بها ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾ [الحجرات: ٣]»(١).

---

(١) تفسير ابن كثير (٧ / ٣٦٨) وعزاه للأحمد في الزهد وساق سنده، وكذلك السيوطي في الدر المنثور (٧/٥٥٢)، والأثر في كنز العمال للمتقي الهندي (٢/ ٤٦٠٩). ولعل هذا الأثر مما اندثر من الأصل، فلم أجده في الزهد المطبوع، ولكن حفظه الله في بطون كتب أخرى، وهذا من ألطاف الله تعالى في حفظ العلم.

ولـــذَّة ســـاعةٍ ذهبَـــتْ وولَّـــتْ وَأبقتْ بَعْـــدَهَا حَسَـــرَات دَهْر

ويتبيّن هذا إذا عرفنا معنى الرضا العام، فالرضا دورانٌ براحةِ النفس وطمأنينةِ القلب مع أمر الله مُفرِحًا كان أو مؤلمًا. وعليه؛ فليس من شرط الرضا عدمُ الشعور بالألم، والألم تارة يكون حسيًّا وتارة معنويًا وهو الأشدّ، بل إنّ سادة الناس وهم الرسل والأنبياء كانوا يتألّمون، ولكن كانت قلوبهم راضية تمام الرضا بمُرّ القضاء، فالسعيد من كان على نهجهم، والنبي ﷺ كان يُوعَكُ كما يوعك الرجلان، فعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أتيت النبي ﷺ في مرضه فمسستُه وهو يوعك وعكًا شديدًا! فقلت: إنك لتوعك وعكًا شديدًا، وذلك أن لك أجرين؟ قال: «**أجل، وما من مسلم يصيبه أذى إلا حاتَّتْ عنه خطاياه كما تَحَاتُّ ورقُ الشجر**»(١).

وقال ﷺ: «**أشدّ الناس بلاءً الأنبياء، ثمّ الأمثل فالأمثل، يُبتلى الإنسانُ على حسَبِ دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقّة خُففّ في بلائه**»(٢).

---

(١) البخاري (٥٣٣٧) «**تَحَاتُّ**»: مضارع تحاتّ على وزن تباعد، وأصلها: تحاتت فأدغمت التاء تسهيلًا. يقال: حاتّ الورق إذا تناثر. وفي الرواية الأخرى بلفظ مقارب: «**أجل، ما من مسلمٍ يصيبه أذى من مرض فما سواهُ إلاَّ حطَّ الله له سيئاته كما تحطُّ الشَّجرةُ ورقها**». رواه البخاري (٥٦٤٧) ومسلم (٢٥٧١).

(٢) أحمد (١٤٩٤) وحسنه محققوه من أجل عاصم بن بهدله. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٩٦).

وإذا نزل البلاء ومعه الصبر والرضا والحمد والشكر فهو رحمة ونعمة، حتى وإنّ ظنّ الناس خلاف ذلك، ولكن إن كان معه الجزع والسّخط فهو عذاب ونقمة، نسأل الله العافية. قال المنجد حفظه الله تعالى: «ليس من شروط الرضا ألّا يحسّ العبد بالألم والمكاره، بل من شروط الرضا عدم الاعتراض على الحكم، وألا يسخط، ولذلك فإن الرضا لا يتناقض مع وجود التألم وكراهة النفس لما يحصل من مكروه. فالمريض مثلًا يرضى بشرب الدواء مع أنه يشعر بمرارته ويتألم لمرارته، لكنه راضٍ بالدواء مطمئنٌ بأخذه، مقبلٌ على أخذه، لكنه في ذات الوقت يَطْعَم مرارة الدواء، والصائم رضي بالصوم وصام وسُرَّ بذلك لكنه يشعر بألم الجوع، فهل بشعوره بألم الجوع يكون غير راضٍ بالصيام؟! لا بل هو راضٍ بالصيام ويشعر بالجوع. والمجاهد المخلص في سبيل الله راضٍ عند الخروج للجهاد ومُقْدِمٌ عليه، لكن يحسّ بالألم والتعب والغبار والنعاس والجراح، وهكذا.

لَـوْلَا المَشَـقّةُ سَـادَ النّـاسُ كُلُّهُـمُ ... الجُـودُ يُفْـقِرُ وَالإِقْـدَامُ قَتَّـالُ

إذًا لا يشترط أن يزول الألم والكراهية للشيء إذا حصل الرضا، لكن بعض أصحاب المقامات العالية جدًّا يستلذّون بالألم إذا حصل في الجهاد أو الصيام. لكن لا يشترط أن الفرد إذا أحس بالألم في العبادة أن يكون غير راضٍ»[١].

(١) سلسلة أعمال القلوب، محمد المنجد (٢/ ٢٦-٢٧) بتصرف يسير.

وللإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ جواب لطيف على ذلك، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يظن بعض الناس أن من شرط الرضا ألّا يحسّ بالألم والمكاره، وطعنوا فيه وقالوا: هذا ممتنع على الطبيعة، وإنَّما هو الصبر، وإلّا فكيف يجتمع الرضا والكراهة وهما ضدان؟ والجواب من وجوه:

الأول: أنه لا تناقض بينهما، فوجود التألم، وكراهة النفس له لا ينافي الرضا، كرضا المريض بشرب الدواء الكريه، ورضا الصائم في اليوم الشديد الحر بما يناله من ألم الجوع والظمأ، ورضا المجاهد بما يحصل له في سبيل الله من ألم الجراح، وغيرها.

الثاني: أن طريق الرضا طريق مختصرة، قريبة جدًّا، موصلة إلى غاية، ولكن فيها مشقة، ومع هذا فليست مشقتها بأصعب من مشقة طريق المجاهدة، ولا فيها من العقبات والمفاوز ما فيها، وإنَّما عقبتُها همّةٌ عالية، ونفس زكية، وتوطين النفس على كل ما يرِدُ عليها من الله. ويسهّل ذلك إذا وطّن نفسه على الرضا بما قدره الله عليه، ولم يتكلف من الأسباب ما لا طاقة به له. وهذا القسم من الكوني أيضًا على نوعين:

النوع الأول: ما للعبد فيه استطاعة واختيار وإرادة في منازعته ومدافعته بكل ممكن، ومثاله الجوع والعطش أو البرد ونحو ذلك، فإن العبد يترك الانقياد له، ومسالمته، ويدفعه بقدَر آخر من الأكل والشرب واللباس ونحوه. فإذا وقع حريق - مثلًا - في دار أو متجر أو مركب، فهذا بقدر الله تعالى، والعبد لا يستسلم له ويسالمه ويتلقاه بالإذعان، بل عليه أن ينازعه ويدافعه بالماء والتراب وغير ذلك مِمَّا يطفئ الحريق، وما خرج في ذلك عن قدر الله.

بل يجب أن يفعل الأسباب في عدم حصول ذلك أصلًا، كما في الحديث: احترق بيت بالمدينة على أهله من الليل، فلما حُدّث بشأنهم النبي ﷺ قال: **«إنّ هذه النَّار عدوٌّ لكم، فإذا نمتم فأطفئوها عنكم»**[١]. ومن ذلك تغطية الإناء، وإيكاء السقاء، وإغلاق الأبواب، وذكر اسم الله عليها، وإطفاء السرج عند النوم، وكفّ الصبيان والمواشي بعد المغرب»[٢].

والإحساس بالمؤلم لا يمنع الرضا به، والرضا بالمؤلم لا يمنع دفعه بما شرع الله تعالى، فهو خالق السّبب والمُسبَّب، ومن ذلك: إذا أصاب المؤمن مرض، فهذا بقدر الله تعالى وقضائه الكوني، فإن له أن يدافعه وينازعه بقدر الله أيضًا، فيستعمل الأدوية الدافعة للمرض، فإن غلبه وقهره حرص على دفع آثاره وموجباته بالأسباب التي نصبها الله لذلك، فيكون قد دفع القدر بالقدر، كما في قصة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقوله عندما عُوتب على فراره من الطاعون، وعدم دخوله أرض الشام بمن معه من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم جميعًا فقالوا له: «أفرارًا من قدر الله»؟ فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: نعم، نفرُّ من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت إن كانت لك إبل هبطت واديًا له عَدْوَتان[٣]:

---

(١) البخاري ٨/٨١ (٦٢٩٤) ومسلم ٦/١٠٧ (٢٠١٦) (١٠١).

(٢) انظر: مدارج السالكين (٢ / ١٧٦) وما بعدها. وعند مسلم (٢٠١٣) عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تُرسِلوا فَواشِيَكُمْ وصِبيانَكُمْ إذا غابتِ الشَّمسُ حتى تَذهَبَ فَحْمَةُ العِشاءِ، فإنَّ الشياطِينَ تَنبَعِثُ إذا غابَتِ الشَّمسُ حتّى تَذْهَبَ فَحمَةُ العِشاءِ».**

(٣) العَدْوَة: جانب الوادي.

إحداهما: خَصِيبة، والأخرى جَدْبة، أليس إن رعيتَ الخصيبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيتَ الجدبة رعيتَها بقدَر الله؟ قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ـ وكان متغيّبًا في بعض حاجته ـ فقال: إنّ عندي في هذا علمًا، سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه»**. قال: «فحمد الله عمر، ثُمَّ انصرف»(١). قال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ: «ومن لم يستبصر من هذه المسألة ويعطها حقّها؛ لزمه التعطيل للقدر أو الشرع، شاء أو أبى. فما للعبد ينازع أقدار الرب بأقداره في حظوظه، وأسباب معاشه، ومصالحه الدنيوية، ولا ينازع أقداره في حق مولاه، وأوامره ودينه، وهل هذا إلا خروج عن العبودية، ونقص في العلم بالله وصفاته وأحكامه»(٢).

وعلى هذا، فإنه لا بدّ للعبد أن يرضى بالمقضيّ إنْ أرادَ نَظْمَ نفسه مع حزب الله الراضين، ولا يجزع، ولا يعترض على قدر الله وقضائه وإن كره أو تألّم، أو طلب تغيير المقدور إلى ما هو أحسن، مع علمه بأنه قد يكون ما أصابه من ذلك خير مِمَّا يحب أن يصيبه، مِمَّا ظاهره الخير، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [البَقَرَة: ٢١٦]، وهذه الآية هائلة جدًا في الكشف والإجلاء والتسليم والرضا والراحة والأمن والثقة واليقين.. في معانٍ لا تنحصر من مواد الإيمان الجميلة الرائعة، نسأل الله الكريم من فضله وبره وإحسانه.

---

(١) البخاري ٧/١٦٨ (٥٧٢٩) ومسلم ٧/٢٩ (٢٢١٩) (٩٨).

(٢) طريق الهجرتين (١ / ٦٨).

النوع الثاني: ما ليس للعبد فيه اختيار ولا طاقة، ولا حيلة في منازعته ومدافعته. وهذا ما أشار إليه حديث عبادة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**واعلم أنّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك**».. الحديث[1]. فهذا لا تنفع فيه المنازعة ولا المدافعة، فهذا يقابل بالرضا والاستسلام، وترك المخاصمة والسخط، والعلم والإيمان بأن الأمر والحكم والقضاء لله من قبل ومن بعد، وأنه سبحانه له حكمة في ذلك هو يعلمها سبحانه، وهو عدل في قضائه، والقدر المقضيّ ينزل مواقعه، ويحلّ محلّه لا رادّ له، وذلك أوجب للرب سبحانه عدله وحكمته وعزته وملكه وموجب أسمائه وصفاته، فله عليه أكمل الحمد وأتمه، والرضا والتسليم[2].

ومَتى تفكّر العبدُ في عظمة خلقِ الله تعالى وصل لِعَظَمَةِ قَدَرِهِ تبارك وتعالى وقُدْرَتِه.

دَحَـوتَ الـبِلادَ فَسَـوَّيتَها وَأَنـتَ عَـلى طَيِّهـا قـادِرُ

ولقد قال الشاعر العراقي بدر شاكر السيّاب رَحِمَهُٱللَّهُ (١٩٢٦ - ١٩٦٤م) قصيدة جميلة في مرض موته، وقد ابتلي بنوع شللٍ ألزمه فراشه حتى أصابته قرح الفراش، وشحب لونه، وهزل جسده، وقد ختم بها حياته، وعسى أن تكون توبة له نصوحًا، فالعبرة بالخواتيم كما قال النبي ﷺ: «**الأعمالُ**

---

(١) أبو داود (٤٧٠١) وصححه الألباني.

(٢) وانظر: طريق الهجرتين وباب السعادتين (٣٩/١) وسبق بسطه في فصل: الشَّرعُ والقَدَر.

بِالخَواتِيم»(١). وقال ﷺ: **«إِنَّما الأعْمالُ بِخَواتِيمِها، كالوِعاء: إذا طابَ أعْلاهُ طابَ أسْفَلُه، وإذا خَبُثَ أعْلاهُ خَبُثَ أسْفَلُه»** (٢).

ولقد مرّ السياب بمحطات حياتية فكرية بعضها شديد الانحدار، لكنه ـ كما قيل ـ قد رجع لربه قبل مماته وتاب وأناب وألف كتابه «كنتُ شيوعيًّا».

وقد قال في مرض موته هذه القصيدة(٣) وقد ضمّن حشوها جميل الحمد والحب والصبر والرضا واليقين، وفيها بعض الشكوى التي ليته سلم منها، وقد وسمها بـ«سفر أيوب» (١):

---

(١) البخاري (٦٦٠٧).

(٢) ابن حبان (٣٣٩) وحسنه الأرناؤوط.

(٣) وهي من قصائد التفعيلة، أو ما يُسمّى بالشعر الحُرّ غير الملتزم ببحور أشعار العرب، إن صح أصلًا أن نسمّي ما خلا الشعر العمودي شِعرًا، وليس كذلك فيما أحسب إلا إن جعلناه في مرتبة تالية للشعر المعروف أوّلًا والرجز المألوف ثانيًا. فقد يُقبل ذلك إذن تجوّزا لا إقرارًا، لأن له نوعُ جَرْسٍ لذيذ للأذن، ونوع وزن للكَلِم، وإن كان مفكّكًا وغير مضطرد، لذلك وسَمُوه بالشعر الحرّ من قيد العروض، وهذا مأخذُ سهولته لدى الكثير، وكذلك تستحليه كثير من القرائح لمن يحسنه ـ فقد صار بأَخَرةٍ مركبًا لكثير من هُزَالى المتشاعرين ـ كما قد ضُمّن كمًّا كثيرًا من معاني ونبض الشِّعر الأصيل، وجزالة لفظه، وسلاسة جرسه، وبهاء رونقه، وطراوة مائه، وعذوبة مأخذه، ونبل مقاصده، ورقّة أهدابه.. وعلى كلٍّ فلا مشاحة في الاصطلاح سواء أدخلوه في الشعر أو أخرجوه، وليس هو من التنزيل حتى يلزم التشديد، ففي الأمر سعة إن شاء الله تعالى.

لــك الحمــدُ مهــما اســتطال الــبلاءُ
ومهــــــــما اســــــــتبدّ الألم
لــــك الحمـــدُ، إنّ الرزايـــا عطـــاء
وإنّ المصـــيباتِ بعـــضُ الكـــرم
ألم تُعطنـــي أنـــت هـــذا الظـــلام
وأعطيتنـــي أنـــت هـــذا السَّـــحَر[٢]
فهـــل تشـــكر الأرضُ قطـــرَ المطـــر
وتغضـــب إن لم يَجُـــدْها الغَـــمامُ[٣]
شـــهورٌ طِـــوالٌ وهـــذي الجـــراح
تمـــزّقُ جنبـــيَّ مثـــل المُـــدَى

=

(١) وفي هذا تشبُّه بأهل الكتاب بتسمية القصيدة بأسفار كتابهم المحرف، وإن كان قصد الشاعر الإشارة بذلك إلى شبه حاله بشيء من حال نبي الله الصابر الراضي الكريم أيوب عليه السلام، ولكن كان الأولى خلاف هذا المُسمّى.

(٢) يقصد أنّ الظلام عطيّة ربانية له، وبخاصة وقت السَّحر، فيخلو فيه عن الخلق بربه، ويبثه ما تفيض به نفسه المتألمّة من زَمَانةِ السقام وشوق اللقاء وبرْد الرضا، وانكسار التائب المنيب.

(٣) أي: أنه ثابت على الرضا والحمد والشكر في العطاء والمنع، واليسر والعسر.

ولا يهـــدأ الـــداءُ عنـــد الصـــباح
ولا يمســـح اللّيـــل أوجاعـــه بـــالرَّدى[١]
ولكـــنّ أيّـــوبَ إن صـــاح صـــاح:
لـــك الحمـــد، إنّ الرّزايـــا نـــدى
وإنّ الجـــراح هـــدايا الحبيـــب
أضـــمّ إلى الصّـــدر باقاتهـــا[٢]
هـــداياك في خـــافقي لا تغيـــب
هـــداياك مقبولـــة هاتِهـــا
أشـــدُّ جراحـــي وأهتـــفُ بالعائـــدين
ألا فـــانظروا واحســـدوني

(١) كأنه يلمح إلى أنّ خواطرًا بتمنّي الموت تأتيه ليلًا حتى تمسح ألم طعن سكاكين جراح القروح، وتمنّي الموت لضرر دنيا خطيئة، فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يتمنّين أحدكم الموت لضرّ ينزل به، فإن كان لا بدّ متمنّيًا فليقل: اللّهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفّني إذا كانت الوفاة خيرًا لي»**. رواه البخاري (٥٦٧١)، ومسلم (٢٦٨٠).

(٢) فمِن رضاه بربه وحمده شكره على ابتلائه صارت البلايا عليه كباقات الورود المُهداة، لِمَا تضمّنته من معاني التكفير والتطهير ورفعة الدرجات.

فهـــــذى هـــــدايا حبيبــــي

جميــلٌ هـــو السّـــهدُ أرعـــى سَــمَاك

بعينـــيَّ حتـــى تغيـــبَ النجـــوم

ويلمـــس شُـــبّاكُ داري سَـــنَاكَ[١]

جميــــــلٌ هـــــو الليــــــلُ

أصــــــــــــداءُ بــــــــــومِ

وأبـــواقُ ســـيارةِ مـــن بعيــــد

وآهــــاتُ مــــرضى، وأمٌ تُعيــــد

أســــاطيرَ آبائهــــا للوليــــد

وغابــــاتُ ليــــل السُّـــــهاد

الغيـــومُ تحجّـــبُ وجـــهَ الســـماء

---

(١) لأنه كسيح طريح الفراش، مشلول لا يمشي هنا وهناك، بل مقابل لنافذته التي يراعي فيها نجوم السماء وأحوال الأرض، ومن جمال الأدباء أن خيالهم المُترع بالجمال يصوّر لهم المعاني متجسّدة، فيتذوّقونها بقلوبهم، ويشمّونها بأرواحهم، ويتناولونها بعقولهم، وإن كانت عن الحسّ بعيدة، بل حتى الشيء الذي يراه بعض أهل الكثافة في الغاية من الوحشة - كصوت البوم - نراه يصوره كنغمٍ جميل لقيثارة ناعمة، وذلك للطف روحه، ورقّة طبعه، ورهافة إحساسه، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وتجلـــــــوه تحـــــت القمـــــــر

وإن صـــاح أيـــوب كـــان النـــداء

لـــك الحمـــد يـــا راميًـــا بالقـــدر

ويـــا كاتبًـــا بعـــد ذاك؛ الشّـــفاء

هل ينافي الرضا البكاء على الميّت؟

هذا سؤال من الأهمية بمكان، فقد اشتبه على كثير من الناس لاشتباه صُوَرِهِ، وتداخلِ أطرافه، وصعوبة تصوّره، حتى جعله بعضهم بابًا واحدًا، وضربًا متّحدًا، وأنّ كلّ باكٍ جازع، وهذا غلطٌ بيّن.

فنقول وبالله التوفيق: إنّ دمع العين لا بأس به، بل هو محمود محبوب، لصدوره عن لِينِ القلب بالرحمة، فهو غير منافٍ للرضا ما لم يصحبه محذور كأقوالِ وأفعالِ أهل الجزع. وقد كان سيد الراضين ﷺ يبكي رحمة بالميت مع امتلاء قلبه بالرضا والحمد لربه تعالى، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

فعن أنس بن مالك، قال: «شهدنا دفن بنت رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ جالس على القبر، فرأيت عينيه تدمعان، فقال: **«هل منكم من أحدٍ لم يقارف الليلة»؟** فقال أبو طلحة: أنا. فقال: **«انزل في قبرها»** فنزل في قبرها»[1].

وعنه أيضًا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أنّ رسول الله ﷺ دخل على ابنه إبراهيم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وهو يَجُودُ بنفسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان. فقال له عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: وأنت يا رسول الله؟! فقال: **«يا ابن**

---

(١) البخاري (١٢٨٥) (١٣٤٢).

عوف، إنها رحمة»، ثم أتبعها بأخرى، فقال: **«إن العينَ تدمع، والقلبَ يحزن، ولا نقول إلا ما يُرضي ربَّنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»**[(١)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أخذ رسول الله ﷺ ابنةً له تَقْضِي[(٢)]، فاحتضنها، فوضعها بين يديه، فماتت وهي بين يديه. فصاحت أُمُّ أيمن، فقال: يعني رسول الله ﷺ: **«أتبكين عند رسول الله»**[(٣)]؟ فقالت: ألستُ أراكَ تبكي؟ قال: «**إنّي لستُ أبكي**[(٤)]**، إنّما هي رحمة، إنّ المؤمن بكل خير على كلِّ حال، إنّ نفسه تُنزع من بين جنبيه وهو يحمد الله تعالى»**[(٥)].

وعن أسامة بن زيد رَضِيَالله عَنهُ قال: «أرسلَتْ بنتُ النبيِّ ﷺ[(٦)]: إنّ ابني قد احتُضِرَ فاشْهَدنا. فأرسل يُقرِئُ السلام ويقول: **«إنّ لله ما أخذ، وله ما**

---

(١) البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥).

(٢) تقضي: تشرف على الموت. زاد النسائي في روايته: «صغيرة» وهي بنت بنته زينب من أبي العاص بن الربيع، رضي الله عنهم. وروي أنها أشرفت على الموت، ولم تمت حينئذ، بل عاشت بعده ﷺ حتى تزوجها علي بن أبي طالب، ومات رَضِيَالله عَنهُ عنها.

(٣) أي: بكاءً محظورًا مقترنًا بالصّياح دالّا على الجزع. أما بكاء الرحمة فحسن، فعن عائشة رضي الله عنها: أنّ رسول الله ﷺ قبّل عثمان بن مظعون، وهو ميّت، وهو يبكي. رواه الترمذي (٩٨٩) وصححه الألباني.

(٤) أي: لست أنوح.

(٥) أحمد (١/ ٢٦٨) والترمذي في الشمائل (٣٢٤)، وصححه الألباني في مختصر الشمائل (٢٧٩).

(٦) قيل: إنها زينب رضي الله عنها بنت رسول الله ﷺ.

أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمًّى، فلتصبر ولتحتسب». فأرسلت إليه تُقسم عليه ليأتينَّها، فقام ومعه سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل، وأُبَيُّ بن كعب، وزيد بن ثابت، ورجال، فرُفِعَ إلى النبي ﷺ الصبيُّ، فأقعده في حجره ونفسه تقعقع، قال: كأنها شَنٌّ، وفي رواية: تَقَعْقَعُ[١] كأنها في شنٍّ[٢] ففاضت عيناه، فقال سعد: يا رسولَ الله ما هذا؟ قال: **«هذه رحمةٌ جعلها الله في قلوب مَن شاء من عباده، إنّما يرحم الله من عباده الرُّحماءُ»**[٣].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «رأيتُ رسولَ الله ﷺ يُقبِّل عثمان بن مظعون وهو ميِّتٌ، حتى رأيت الدموعَ تسيل». ولفظ الترمذي: «أن النبي ﷺ قبَّل عثمانَ بن مظعون، وهو ميِّتٌ وهو يبكي، أو قال: عيناه تذرفان»[٤].

وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن النبي ﷺ نعى زيدًا وجعفرًا للناس قبل أن يأتيهم خبرهم، فقال: **«أخذ الرّايةَ زيدٌ فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب** ـ وعيناه تذرفان ـ **حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فُتِح عليهم»**[٥].

---

(١) تقعقع: تضطرب وتتحشرج، أي أن روح الصبي تخرج من جسده.

(٢) الشَّنّ: القربة البالية.

(٣) البخاري (١٢٨٤)، ومسلم (٩٢٣).

(٤) أبو داود (٣١٦٣)، والترمذي (٩٨٩)، وصححه الألباني.

(٥) البخاري (٤٢٦٢).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «اشتكى سعد بن عبادة شكوى له، فأتاه النبي ﷺ يعوده مع عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم، فلما دخل عليه وجده في غاشية أهله[١] فقال: **«قد قضى»؟** قالوا: لا يا رسول الله، فبكى النبي ﷺ، فلما رأى القوم بكاء النبي ﷺ بَكَوْا، فقال: **«ألا تسمعون؟ إنّ الله لا يُعذِّب بدمع العين، ولا بحُزن القلب، ولكن يُعذب بهذا[٢]** - وأشار إلى لسانه - **أو يرحم[٣]»**[٤].[٥]

واملأ فؤادكَ رحمةً لذَوِي الأَسَى لا يرحمِ الرحمنُ من لا يرحمُ

قال شيخ الإسلام: «ولهذا لم نؤمر بالحزن المنافي للرضا قط، مع أنه لا فائدة فيه، فقد يكون مضرة، لكن يُعفى عنه إذا لم يقترن به ما يكرهه الله، لكن البكاء على الميت على وجه الرحمة حسن مستحب، وذلك لا ينافي الرضا، بخلاف البكاء عليه لفوات حظه منه[٦].

---

(١) غاشية أهله: أي: الذين يغشونه للخدمة وغيرها. عن: فتح الباري لابن حجر (٣/ ١٧٥).

(٢) **«ولكن يعذّب بهذا»:** أي: إن قال سوءًا. عن: فتح الباري (٣/ ١٧٥).

(٣) **«أو يرحم»:** أي: إن قال خيرًا. فتح الباري (٣/ ١٧٥).

(٤) البخاري (١٣٠٤)، ومسلم، (٩٢٤).

(٥) وانظر: رحمة للعالمين، لسعيد بن وهف القحطاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١/ ٨١ - ٨٤).

(٦) فالمحمود بكاء الرحمة بالميت، لا بكاء فوات حظ نفسه منه.

وبهذا تعرف معنى قول النبي ﷺ لما بكى على الميت وقال: **«إنَّ هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنَّما يرحم الله من عباده الرحماء»**[(١)]. وأنّ هذا ليس كبكاء من يبكي لِحَظِّهِ لا لرحمة الميت، وأن الفضيل بن عياض لما مات ابنه عليٌّ ضحك وقال: «رأيتُ أن الله قضى فأحببت أن أرضى بما قضى الله به». فحالُه حال حسنٌ بالنسبة إلى أهل الجزع، وأما رحمة الميت مع الرضا بالقضاء وحمد الله كحال النبي ﷺ فهذا أكمل، قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ۝١٧﴾ [البلد: ١٧]، فذكر سبحانه التواصي بالصبر والرحمة. **والناس أربعة أقسام:**

منهم من يكون فيه صبرٌ بقسوةٍ، ومنهم من يكون فيه رحمةٌ بجزعٍ، ومنهم من يكون فيه القسوةُ والجزعُ، والمؤمن المحمود الذي يصبرُ على ما يصيبه ويرحمُ الناس»[(٢)]. وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد ذكر في مناقب الفضيل ابن عياض أنه ضحك يوم مات ابنه علي فسئل عن ذلك فقال: «إن الله تعالى قضى بقضاء فأحببت أن أرضى بقضائه». وهديُ رسول الله أكمل وأفضل، فإنه جمع بين الرضا بقضاء ربه تعالى وبين رحمة الطفل، فإنه لما قال له سعد بن عبادة: ما هذا يا رسول الله؟ قال: **«هذه رحمة، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء».** والفضيل ضاق عن الجمع بين الأمرين، فلم يتّسع للرضا بقضاء الرب وبكاء الرحمة للولد. هذا جواب شيخنا سمعته منه»[(٣)].

---

(١) البخاري (١٢٨٤) ومسلم (٩٢٣).

(٢) أمراض القلوب (١ / ٥٨) وانظرها في مجموع الفتاوى (١٠/ ٤٧).

(٣) تحفة المودود بأحكام المولود (١ / ١٠٦).

وعلى الباكي أن يتذكّر الرضا، ويحرّك به قلبه حتى لا تأخذه زَفَرَاتُ الحزن لشيء من الاعتراض وهو لا يشعر.

قُلْ لقوم يستنزفونَ المآقي هل شَفَيْتُمْ من البكاءِ غليلًا
ما أتَينا إلى الحياةِ لنَشْقَى فأرِيحُوا أهلَ العُقُولِ العُقُولَا
كلُّ مَن يَجمع الهمومَ عليه أخذتْه الهمومُ أخذًا وبيلًا

﴿وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا﴾

فِلْذَةُ الكَبِدِ روحٌ رقيقةٌ تمشي بين يدي والديها، ويمامةٌ أنيقةٌ تتهادى بين روحيهما، وأمنيةٌ وضيئةٌ أسْعَدَ الله بها قلبيهما، حقيقٌ بهما الابتهال لربِّهما بصلاحها، وقد كانت دعوة زكريا عليه السلام لولده الذي لم يولد بعد: ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ۝٦﴾ [مَرْيَم : ٥ - ٦]، قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «رضيًّا: أي: مرضيًّا عندك وعند خلقك، تحبّه وتحبّبه إلى خلقك في دينه وخلقه»[(١)]. وكان يسأل ربه الذرية الطيبة: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ﴾ [آل عِمْرَان : ٣٨]، فأجاب رب العالمين دعاءه بولدٍ نبيٍّ رضيٍّ مرضيٍّ سيدٍ حصورٍ لم يُسمَّ أحدٌ على اسمه قبلًا، ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ۝٧﴾ [مَرْيَم : ٧]، ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ﴾ [الأَنبِيَاء : ٩٠]. وكان من دعاء الخليل عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ۝٤٠﴾ [إِبْرَاهِيم : ٤٠].

وبركة صلاح الوالد تدرك الولد بإذن الله تعالى ولو بعد حين، ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا﴾ [الكَهْف : ٨٢].

---

(١) تفسير ابن كثير (٥ / ٢١٤).

فذرية المرء هي رأس ماله الباقي بعده، وهم امتداده بعد رحيله، ومَفْرَحُه في قبره بصلاحهم واستقامتهم، ويوم القيامة بأمانهم وسعادتهم، والله المستعان. ولحطّان بن المعلى في وصف وَلَعِهِ ببنيّاته:

لَــوْلا بُنَيّــاتٌ كَزُغْــبِ القَطـا   رُدِدْنَ مِــن بَعْــضٍ إلى بَعْــضِ
لَكــانَ لِي مُضْــطَرِبٌ واسِــعٌ   في الأرضِ بِـالطُّولِ وبِـالعَرْضِ
وإنَّــما أوْلادُنــا بَيْنَنــا   أكْبادُنا تَمْشِي عَلى الأرْضِ
لـو هبَّـتِ الـريحُ عـلى بَعضِـهِم   لامتنعَتْ عيني عنِ الغَمْضِ

وما أجمل الذرية إن استقامت لربها، فهي الزينة والبهجة والسرور والامتداد والذخر والخير المستمر الباقي، اللّٰهم أصلحنا ووالدينا وذرياتنا وأهلينا وأحبابنا والمسلمين، واجعلنا مقيمي الصلاة ومن ذرياتنا، ربنا وتقبل دعاءنا وهبنا اللّٰهم لنا من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء، وهب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين، يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام، إله الحق آمين، وصل اللّٰهم وبارك على محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان.

عوائقُ الرِّضا

أمرٌ بهذا القدر في أعمال القلوب حقيق بالتنقيب عن كل ما يعمره في القلب ويدفع ضده، والله تعالى قد بنى ابتلاء الدنيا على سُنَّةِ الدفع والمُدافعة، فالباطل يُدفع بالحقِّ، والشرُّ يُدفع بالخيرِ، والضلالُ يُدفع بالهدى، والجهلُ يُدفع بالعلم، والمنكرُ يُدفع بالمعروف.. والسّخطُ يُدفع بالرضا مهما اشتدت عقباته، وتلوّنت تلبيساته، وتكاثرت أعباؤه، فالجائزة ـ برحمة الله تعالى ـ هي الحُسنى وزيادة! قال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٥١].

وإنّ للراضي بربه خِصالٌ شريفة، وأخلاق مليحة، وشِيَمٌ مشهورة، ومقاماتٌ لله محمودة، فالمؤمن بالقضاء، الراضي به، صبور متجلد، يتحمل المشاق، ويتضلع بالأعباء، وخاصة في العصور المتأخرة، فكيف بالوقت الذي يكون **«القابضُ فيه على دينه كالقابض على الجمر»**[(١)].

أمَّا ضعيف الرضا بالقضاء، الذي لا يقوى على احتمال المصائب، ولا يصبر على أدنى شيء منها، فهذا لضعف إيمانه، ورخاوة نفسه، وانزعاجها العظيم للشيء الحقير، فما أن يصاب بالتافه من الأمر حتى تراه حرج الصدر، فتقضّ مضجعه، وتؤرق جفنه، وهي ـ وأكبر منها ـ لو وقعت لمن هو أقوى منه

(١) الترمذي (٢٢٦٠) وصححه الألباني.

إيمانًا ورضًا بالقضاء لم يُلق لها بالًا، ولم تحرك منه نفسًا، ولنام ملء جفونه رضيَّ البال، قرير العين بالله رب العالمين.

فالذي يجزع لأتفه الأسباب، قد يصل إلى الجنون، أو الوسوسة، أو تعاطي المسكرات على اختلاف مستوياتها، أو قتل النفس، أو الانتحار. وما أكثر هذه الأمور في المجتمعات التي لا ترضى بقضاء الله تعالى. فالذي لا يرضى بما يصيبه من المصائب؛ يدبّ إلى روعه القنوط، ويظن أنها قاصمة الظهر، ونازلة النوازل، ويرمي نفسه في وحل اليأس، وسجن الاكتئاب.

أمَّا المؤمن بالقضاء والقدر، الصابر على المصيبة، وعن المعصية، فلا تراه إلّا متفائلًا في جميع أحواله، منتظرًا الفرج من الله، مؤقنًا بأن النصر مع الصبر، وأن مع العسر يسرًا، وأن العاقبة للتقوى، وأن قضاء الله نافذ لا محالة، فلا يأس، ولا قنوط، ولا كسل، ولا هوان، ولا تهاون، تسمو به الحال فيصل إلى منزل الرضا، فيرضى عن الله، ويرضى الله عنه[1].

والعُسرُ مهما قسَا فاليُسْرُ يتبعهُ ... وعدٌ من الله هذا الوعدُ يكفينا

وأمرُ الله نافذٌ مهما هرب العبد منه، وقَدَره كائنٌ مهما حاول العبد تغييره، وقضاؤه واقعٌ مهما زيّف القلب بصيرته بمصيره.

وقد كان الصاحب بن عباد يقول: «بُدِئ الشعر بمَلِك، وهو امرؤ القيس، وخُتم بملك، وهو أبو فراس الحمداني». ومن شعره:

---

(١) الرضا بالقضاء، سالم القرني، مجلة جامعة أم القرى (٥ / ٣٥٠) بتصرف يسير.

إذا اللهُ لم يُحْــــرِزْكَ مِمَّـــــا تخافُــــهُ فلا الدرعُ منّاعٌ ولا السيفُ قاضبُ

فعلى المؤمن الناصح لنفسه أن يكون كيّسًا فطنًا نبيهًا لمداخل الشيطان على خبايا قلبه الذي هو موضع نظر ربه، **فمن عوائق الرضا**

١- الاعتراض على قضاء الله الشرعي:

والاعتراض قد يكون على قضاء الله الديني الشرعي، وقد يكون على قضاء الله الكوني القدري، وبخاصة الأقضية التي تخالف ما يحب العبد ويهوى. فالاعتراض مُعارِضٌ لقول المسلم: رضيتُ بالله ربًّا، فكيف لا ترضى بأمرِ وقضاءِ مَن رضِيتَه ربًّا؟! فعلى المؤمن أن يُحبَّ ما أحبَّ الله، ويبغض ما أبغضه الله، ويرضى بما قدّره الله، ويسلّم لحكم الله.

إنّ المؤمن حَفِيٌّ بأمر ربه مهما تقلّبت به أعطافُ أقدارِه، وأينما توجّهت به عواصفُ قضَاءاتِه، فيستقبلُ قَاصِفَ القَدَرِ بجبلِ التسليمِ الرَّاسخ، ويُوَاجِهَ بَرْقَ شَدِّ القضاءِ بجَبِينِ الرِّضَا بمُرِّ القضاء، فتنكسر عن قلبه الاعتراضات الشيطانية، وترتدّ عن صدره المخاصمات الإبليسية، فهو مستسلمٌ لربه، مفوّضٌ لإلهه، مستريحُ البالِ، قريرُ العينِ، قد امتلأ قلبُهُ باليقين، والحب، والثقة، والتوكّل، والتوحيد، والإيمان.

أما الكافر فخائِبَةٌ صفقتُه، غَابِرَةٌ حُفرتُه، ناجِزةٌ هَلَكَتُهُ، حاضرةٌ ندامتُهُ، مكتملةٌ أركانُ عذابه، فلا سِلَمَ من نَكَدِ الدنيا، ولا أُجِيرَ من عذاب الآخرة، ﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١﴾ [الحج: ١١].

فأعظم الخذلان هو حال مَن كره رضوان الله تعالى، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ٢٨﴾ [مُحَمَّد: ٢٨].

وتأمّل هذا الحديث المخيف الذي أخرجه الشيخان[١] عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أنّ الناس سألوا نبيّ الله ﷺ حتى أَحْفَوْهُ بالمسألة[٢]، فخرج ذات يوم فصعد المنبر فقال: **«سلوني، لا تسألوني عن شيء إلا بيّنته لكم»**. فلما سمع ذلك القوم أَرَمُّوا[٣] وَرَهِبُوا أن يكون بين يدي أمرٍ قد حضر!

قال أنس: فجعلتُ ألتفت يمينًا وشمالًا فإذا كل رجل لافٌّ رأسه في ثوبه يبكي[٤]، فأنشأ رجل من المسجد كان يُلاحَى[٥] فيُدعى لغير أبيه، فقال: يا نبي الله، من أبي؟ قال: **«أبوكَ حذافة»**. فبرَكَ عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فقال: رضينا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا، عائذًا بالله من سوء

---

(١) البخاري (٧٠٨٩) ومسلم (٤/ ١٨٣٢) (٢٣٥٩) واللفظ له.

(٢) أي: أكثروا سؤاله فيما ليس لهم أن يسألوه.

(٣) أي: سكتوا.

(٤) ولفظ البخاري: «فغطّى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنين». رضي الله عنهم وأرضاهم، ألا ما كان أخشعهم لله تعالى وأرهبهم وأتقاهم وأعلمهم وأزكاهم وأرضاهم، اللّهم ألحقنا بهم غير خزايا ولا ندامى، إله الحق آمين.

(٥) يُخاصِم.

الفتن[١]. فقال رسول الله ﷺ: **«لم أرَ كاليوم قطّ في الخير والشر، إني صُوِّرَتْ لي الجنةُ والنارُ فرأيتها دون هذا الحائط».**

وفي رواية البخاري: فقام إليه رجل فقال: أين مدخلي يا رسول الله؟ قال: **«النار»!** فتأمل كيف كان الرضا بالله تعالى والجأر بذلك من أسباب حفظ الله عبدَه من الفتن ومواقع السخط.

واعلم أنّ أكثر من يسبُّ القدر ويعترض على القضاء هم الشعراء الذين قال الله فيهم: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٢٤] فإن كان تابعهم غاويًا فكيف بهم؟! نعوذ بالله من الغواية عن الهداية، ومن الجهل بعد الحلم، ومن الحَوْرِ بعد الكَوْرِ.

وتأمل حال الناس معهم الآن وكيف يستفزّون أحلام الناس بأبيات تسير بينهم كالنار في الهشيم، ورُبَّ بيتِ شِعرٍ فرّقَ شملَ فئامٍ من الناس كثير!

وانظر الى اجتماع الناس حولهم فيما يسمّونه حفلات وعرضات ومحاورات وأمسيات، وكيف يفقد بعض من كانوا محسوبين من أهل العقل رزانتهم، فيتمايلون ويرقصون ويصفقون ويصيحون ويرمون العمائم، وأعجب من ذلك بعض كبار السنّ الذين يرقصون الليل طربًا، ويهزّون الأرض

---

(١) وهذا فقه عظيم من المُحدَّث المُلهَم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فالصدع بالرضا في هذا المقام، والتعوذ بالله تعالى من سوء الفتن كان - بإذن الله تعالى - من أسباب تخفيف غضب رسول الله ﷺ. ففي الرواية الأخرى لمسلم: قال: «فسكت رسول الله ﷺ حين قال عمر ذلك».

بأقدامهم هزًّا، حتى إذا صَفَّ أقرانُهم للصلاة بين يدي ملك الملوك قعدوا في صلاتهم على كراسيهم كسَلًا، والله المستعان، ولو امتلأت قلوبهم بتعظيم الصلاة والقرآن والحياء والتوقير للرحمن لَمَا رأوا لها سلوةً وفرَحًا سواها.

ثم انظر كيف يتقصّفُ الناس على قصائد الغزل بالمعازف والأوتار، ثم يقصدون أنْ تُغنّى بأجمل وألين وأرخم الأصوات الخالبة أفئدة السامعين المُصِيخين والسامعات الحالِمَات، حتى تفعل في ألبابهم فعل الرّاح المُعتّق، فيهذي سامعها كالسّكارى، ويتمايل كالعذارى، ثم يبكي كاليتامى، مِقتًا أو فِرَاقًا أو شوقًا لغير الرحمن!

والمخذول من خذله الله تعالى، فكم من قلب عامر بالإيمان خرّبته وقسّته وأمرضتْهُ وأغفلَتْهُ وأنكسته، وعن التلذّذ القرآن العظيم وتدبّره أبعدته، ويكفي أنه مزمار الشيطان وحاديه، ومطيّته وناديه. قال تبارك وتعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۞ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۞﴾ [لقمان: ٦-٧] قال أكثر المفسرين: «معنى لهو الحديث في الآية الغناء»، وقال جماعة آخرون: «كلُّ صوتٍ منكَرٍ من أصوات الملاهي، فهو داخل في ذلك: كالمزمار، والرّبابة، والعود، والكمان، وأشباه ذلك، وهذا كله يصدّ عن سبيل الله، ويُسبب الضلال والإضلال[١]».

---

(١) وانظر: مجموع فتاوى ابن باز (٢١/ ١٥٠).

والله تعالى عدل مقسط، فلمّا ذمّ الشعراء بيّن سبب ذلك، واستثنى من لم يكن من أهل ذلك الوصف، فقال جل ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۝٢٢٥﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٢٥]، أي: أنهم يتكلمون في كل أمر بلا وازعٍ من الأخلاق، ولا رقيبٍ من الديانة، ولا أَثَرَةٍ من علوم الأنبياء، إن رضوا مدحوا وغلوا وكذبوا، وإن سخطوا هجوا وظلموا وبَهتوا، يتسوّلون الحطام بأبياتهم كما تأخذ البَقرةُ الكلأَ بلسانها، ويُبدّلون الحقائق بقصائدهم، ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۝٢٢٦﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٢٦] وهذا محض الكذب، ومصنع الزّيف، ومِهَادُ دعاوى نفخ الذوات الفارغة بأوهامِ أقنعةِ الخداعِ وألبِسَةِ التضليل!

ثم استثنى الله عز وجل من اتقى منهم فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٢٧] أي من آمن بالله واتقاه، وعمل الصالحات، وعمر قلبه بالإيمان، وطهر لسانه بالصدق والتقوى، وعطّر صدره باليقين والرضا، وصقل روحه بالإكثار من ذكر الله تعالى، وانتصر من بعد ما ظُلم، وبخاصة من انتصر لله تعالى، وذبّ عن دينه، وجاهد بلسانِه أعداءَ الملة، فهو من الشعراء الصالحين المُصلحين البررة المجاهدين ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ۝٢٢٧﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٢٧]. وفي تنوير المقباس[1]: «﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بِمُحَمد ﷺ والقُرآن كحسان بن ثابت وأصْحابه ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الطّاعات فِيما بَينهم وبَين رَبهم ﴿وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ فِي الشّعْر ﴿وَٱنتَصَرُواْ﴾ لمُحَمد ﷺ وأصْحابه بِالرَّدِّ على الكفّار ﴿مِنۢ

(١) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس للفيروزآبادي (١/ ٣١٥)

بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ هجوا هجاهم الكفّار ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ هجوا النبي ﷺ وأصْحابه ﴿أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ٢٢٧﴾ أي مرجع يرجعُونَ فِي الآخِرَة، وهِي النّار، يَعْنِي إن لم يُؤمنُوا».

ولا يعني هذا تعميم المذمّة في الاعتراض على القضاء على الشعراء، فمن الشعراء بحار علم وجبال إيمان، فمنهم أهل إيمان عظيم، ويقين راسخ، ورضًا نادر، وجهاد كبير، ولهم أبيات في نفع الناس سائرة، ومواعظ في تنبيه قلوب الغافلين شائعة، وقصائد في نصر دين الله ذائعة، وأبيات صَدَحُوا بها لله تعالى وصرخوا بها بين أركان العالَمَ فكان أنْ شُقّتْ حناجرُهم بأيدي طواغيتِ الإنس لتصعد أرواحهم المؤمنة لرحاب الآخرة شهيدة سعيدة مُرْتَضَاة، فالمجاهد ببيانه وأبياته أحدُ المجاهدين، وَلَرُبَّ قصيدةٍ تهدمُ أبنيةَ الكفرِ، وتقصفُ هامَ العدوّ أشدّ من وقع النبل والرصاص والقَنَا الخَطَّار.

إذا قيلَ مَهْلًا قالَ للحِلْمِ مَوضِعٌ وحِلمُ الفَتى فِي غيرِ مَوْضِعِهِ جَهْلُ

وقد كان حسان بن ثابت يهجو قريشًا بأمر رسول الله ﷺ وروحُ القُدُسُ معه، بل وكان جبرائيل عليه السلام يُلقّنه بعضَها إلهامًا كما ورد في الآثار. والمقصود؛ أنّ العادة قد جرت على كثير من الشعراء في ذلك الأمر المرذول جهلًا وغفلة وتساهلًا، والحمد لله رب العالمين.

٢- التهاون في أمر التوكل على الله تعالى:

التوكل شرط الإيمان، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾ [المَائدة: ٢٣]، وإذا رضي العبد بربه حقًّا تعلق قلبه بحوله وطوله وقوّته ومدده

دون أسباب الخلائق، والتوكل الصحيح موصل بإذن الله تعالى للرضا الصحيح، لأنه إذا صدق التوكّل على الله تعالى ترتّب عليه علم القلب بأن تدبير الأمور بيد الله تعالى، وأنه لا راد لما قضاه ولا معقب لحكمه فيرضى ويسلّم.

وبالجملة؛ فالتوكل هو العيش بالله والإخلاص هو العيش لله، فبهما وصل من وصل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم الكريم الرحيم.

٣- التّسخّط:

السَّخَطُ ضد الرضا ونقيضُه وحريبُه، وفيه شقاوةُ الساخطِ وخذلانُهُ وخسارهُ. وقد جعل الله تعالى الهمّ، والغمّ، والحزن، في التسخّط، والتبرّمِ من أمر الله تعالى، وكتب على صاحبه شتات القلب، ومرض الروح، وكسف البال، وسوء الحال، والظن بالله خلاف ما هو أهله، وضعف اليقين بموعود الله. وأمَّا الرضا فيفرّغ القلب لربه، ويقلّل همّه وغمّه بدنياه، فيتفرّغ لعبادة الله بقلب خفيف من أثقال الدنيا وهمومها وغمومها.

والسخط من سوء الخلق؛ لأن الساخط مخاصم لله تعالى فيما لم يرض به من أحكام شرعه وأحكام قدره، من أمره ونهيه، أو قضائه ورزقه وتدبيره، وما يصيبه من نوائب ومصائب.

وهذه المخاصمة هي أصلُ منهج إبليس مع ربه، فقد كان منهجه عدم الرضا بأقضيته وأحكامه الدينية والكونية القدرية، فلو رضي لم يُمسخ من المُصَافَّةِ الملكيّة العلويّة رَجْمًا إلى الحقيقة الشيطانية الإبليسية.

والسخط يفتح باب الشك بالله تعالى، وقضائه وقدره وأمره وحكمته وعلمه، فقلَّ أن يسلم الساخط من شك يُداخل قلبه، ويُزايلُ يقينه، وإن كان لا يشعر به، لكن لو فتّش نفسه غاية التفتيش، واختبرها، لوجد إيمانه معلولًا، وتصديقه مدخولًا، ورضاه منقوضًا، ويقينه منقوصًا، فإن الرضا واليقين صاحبان لا يكادان يفترقان، كما أن السخط والشك قرينان لا ينفكّان.

والسخط يوجب اضطراب قلب العبد وريبته وانزعاجه وعدم قراره، كما أنه يوجب تلوّن العبد وعدم ثباته مع الله، فإنه لا يرضى إلا بما يلائم طبعه ونفسه، والمقادير تجري دائمًا بما يلائمه وبما لا يلائمه، وكلّما جرى عليه منها ما لا يلائمه أسخطه، فلا تتحقق عبوديته لله تعالى.

فإذا ابتلى الله سبحانه وتعالى عبده في رزقه أو غير ذلك من أمور حياته، فإنّما ذلك امتحان له: أيرضى أم يسخط. يدل على ذلك آيات منها: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر: ١٥ - ١٦]. لأن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق، فقد يُوسَّعُ على الكافر لا لإكرامه، بل لاستدراجه، ويضيّق على المؤمن لا لإهانته، بل لإكرامه في حاله وعاقبة أيّامه، ولحكمة هو يعلمها سبحانه، وقد يكون منعًا له من شرِّ الغنى حميةً له وحفظًا.

هذا؛ ومن الناس من تمنّى أنه لم يُخلق! وهذه الأمنية تختلف بحسب مقصد قائلها، فإن حمله على ذلك الخوف من الحساب والعقاب، والخشية من التَّبِعَة، والحياء من تقصيره في جناب ربه تبارك وتعالى؛ فتلك أمنية محمودة.

وعلى ذلك يُحمل ما ورد عن تمنّي بعض الصحابة أنهم لم يُخلقوا، كما جاء عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه كان يقول: «يا ليتني كنت شجرة تُعضَدُ ثم تُؤكل». وكذلك قال طلحة وأبو الدرداء وأبو ذر رضي الله عنهم. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول ـ وقد أخذ تبنة من الأرض ـ: «يا ليتني كنت هذه التّبنة، يا ليتني لم أكُ شيئًا مذكورًا، يا ليت أمي لم تلدني». وقال عثمان رضي الله عنه: «وددتُّ أني إذا متُّ لا أُبعث». وقال أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه: «وددتُّ أنّي كنت كبشًا فذبحني أهلي، فأكلوا لحمي، وحَسَوا مرقي». وقالت عائشة رضي الله عنها: «يا ليتني كنت نسيًا منسيًا». وقال عمران بن حصين رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «يا ليتني كنت رمادًا تذروه الرياح»[(١)].

وأما إن كان الحامل عليه التسخّط والاعتراض وردّ القضاء والتبرّم بقدر الله تعالى فهي من الأمنيات المحرمة والكلمات المذمومة التي تنافي خلق المؤمن وصبره واحتسابه ورضاه وحمده وشكره لله تعالى.

وبالجملة؛ فالسخط يهدم بنيان الرضا فلا يجتمعان لأنهما نقيضان، وعلى قدر نسبة وجود السخط في القلب يرتفع منه ويخرج بقدره من الرضا، وتلك لعَمْرُ اللهِ الفاقرة، نعوذ بالله منها.

٤- الحزن غير المشروع:

أكثر الحزن مذموم، إما لجهته وموضوعه، أو قدْرِه وكمّيته، فيا أيها الراضي بالله: لا تحزن، فالحزن شعور سلبيّ سوداوي مَرَضِيّ، مخالف للسرور

---

(١) ولمزيد أمثلة انظر: مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة (١/٣١٣).

والسعادة والاستبشار والصحّة، وهو مفضٍ مع الاستمرار في سردابه للكآبة، والقنوط، وسوء الظن بالله تعالى وحسن تدبيره وعظيم حكمته ولطفه ورحمته وبرّه، فلا تقف عند أخطائك، ولا تجلِد بها ذاتك، فلكلّ منّا أخطاؤه الغبيّة في الحياة، وللعبد فُرَصٌ ما دام قلبه ينبض بالحياة، وله مخارج من نكباته مهما كانت في دينه ودنياه إن كان مع الله تعالى.

وليكن شعارك دومًا حينما تضيق بك الدروب، وتتراكم عليك الخطوب، وتُمْنَى بفشلٍ وخيبة: لعل في الأمرِ خيرة، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [البَقَرَةِ: ٢١٦]. نعم؛ إنّ الله يعلم ما لا نعلمه، فيرى تمام العاقبة مهما تقاصرت عنها بصائرنا، وأمور المؤمن خير لأن الله تعالى نفسه من يصنعها ويُقدّرها، فكن على الدوام في كل حال واثقًا بالله علام الغيوب، ومدبر الأمور، وهو الرحيم الغفور، كن دومًا قويًا به، متوكّلًا عليه، راضٍ به، فما خاب من استمسك بعراه، وأخلص له وجهه، وكفر بكل معبودٍ سواه.

فأخلص وجهك على الدوام لله تعالى، ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾ [النَّحل: ٥٢] أي: لَهُ الطّاعَةُ والإخلاصُ دائِمًا ثابتًا واجِبًا، فإخلاص العبادة على الدوام لله وحده لا شريك له، ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ [الزُّمَر: ٣]، والله تعالى أغنى الشركاءِ عن الشِّرك، ومَن أشركَ معه شيئًا تَرَكَهُ وشِرْكَهُ، فلا رَبِحَتْ صفقاتُ المُرائين، ولا نامتْ أعْيُنُ المُشركين!

ولا أرذَلَ ممّن قام مُظهِرًا قيامه لله، مُبْطِنًا قيامَهُ لحظِّ نفسه، ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤﴾ [العَلَق : ١٤]، ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾ [القِيَامَة : ١٤ - ١٥].

ثم تدبر هذه الوصية الربانية وتفقّدها في نفسك على الدوام: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾ [الطَّلَاق : ٢ - ٣]، تبارك وتعالى.

واعلم أنّ كثيرًا من الخِيرة مقرون بالكُرْه، ولم يَضِعْ مِنْ مالِكَ ما وَعَظك. والجنةُ دارُ اللذائذ، وكما قيل: يا فاكهةُ موعدي وإيّاكِ الجنة. وقال ابن عطاء السكندري: «منعُ اللهِ عطاءٌ، ولكن لا يفهم العطاء في المنع الا صدٌيق»، أي أن أكثر الناس لا يدركون مصالح منع الله لهم مشتهياتهم، فهذا المنع في حقيقته عطاءٌ كبير وآلاء جسيمة ومنن كثيرة لم تكن لو أعطاهم الله عاجل رغيبتهم، وقد تكون لو عُجّلت لهم فسادًا عريضًا عليهم في دينهم ودنياهم، ولو كُشفت لهم بعض حكمته في منعهم لخَرُّوا له سجدًا شاكرين حامدين. فالحمد لله رب العالمين على منعه وعطائه وعلى كل حال.

والمرض لا يقرّب أجلًا والصحة لا تدفع محتومًا، بل هي أسباب إن شاء الله تعالى أمضاها وإن شاء ردّها، وقد ذكر ابن عبد ربه في العقد الفريد(١) أنّ أعرابيًّا خرج هاربًا من الطاعون، فبينما هو سائر إذ لدغته أفعى فمات، فقال أبوه يرثيه:

طـــافَ يبغِـــي نجـــوةً مِـــن هـــلاكٍ فهلَـــك
والمنايـــــا رُصَّـــــدٌ للفتـــى حيـــثُ سَـــلَك
ليـــت شـــعري ضَـــلَّةً أيُّ شيء قتَلَـــــك
كـــلُّ شيء قاتـــلٍ حـــينَ تلقـــى أجَلَـــك

وأبلغُ وأصدق وأحكم من ذلك قول ربّ العزة تبارك وتعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنۡهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٨﴾ [الجُمُعَة: ٨]. ولـمّا احتُضر أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، تمثّلت عائشة رضي الله عنها بقول الشاعر:

لعمرُكَ ما يُغني الثراءُ عنِ الفَتَى إذا حَشْرَجَتْ يومًا وضاقَ بها الصَّدرُ

فقال: يا بنيّة، ليس كذلك، ولكن كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ۝١٩﴾ [ق: ١٩]. والله المستعان.

---

(١) العقد الفريد (٣/٢١٨) والنَّجوة: هي النجاة، وضلّة: من الضلال، أي عدم علمي به. والمشهور أنّ الأبيات لأُمِّ تَأَبَّطَ شرًّا، وهو السّليك بن السّلكة، وقد فقدته حينما قتل، والله أعلم.

ولا تكن ـ لك الله ـ ممّن ينتهجُ إبعادَ الأحبّة، وطردَ الأصدقاء، والازورارَ عن النُّصَحَاء، حتى إذا رحل الجميع اشتكى الوحدة، وعانى الوحشة.. يداهُ أَوْكَتَا وفُوهُ نفخ، ومع كلِّ حال: فليس مع الله وحشة، ولا مع عبده ضيعة. ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [الزُّمَر: ٣٦].

ومن جميل المقول: «بطريقةٍ ما ستدرك أن الطريق الذي اختاره الله لك كان أفضل ألف مرة من الطريق الذي أردته لنفسك، وأنّ الباب الذي أُغلِق في وجهك ألف مرة كان وراءه شرٌّ محض، وأنّ اليد التي أفلتتك لم تكن تناسبك منذ البداية، وأنّ البلاء الذي أنهكك لم يكن سوى رحمةٌ مُهداة، وأنّ انهيار الأسباب من حولك لم تكن بالقسوة التي ظننت، وإنّما هي سنّة الله في خلقه، وأنّ الأمر الذي جفاك النوم من أجله لم يكن يستحق كل هذا، وأنك قلقت أكثر مما ينبغي.

ويومًا ما ستدركُ أنّك لستَ مالِك أمرك، وأنّ أمرك إن ضاق واستضاق فله ربٌّ هو أولى به مني ومنك ومنهم ومنهن، وأنّ الله رحيم يُنجينا من شرور البشر، ومن أنفسنا حين لا نقوى عليها». ويا أيها الحزينُ: تَصَدَّق.

اعلم ـ رحمني الله وإياك ـ أن الله تعالى يحب الخير لعباده، ويدلهم على طريق الفرح، فلقد قال سبحانه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ [يُونُس: ٥٨] ونهى عن الحزن في غير موضعه: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ الحجر: ٨٨.

ومن أجلِّ أعمال القلوب قاطبة: الفرحُ بالله تعالى. ولو كان للسعادة معيارٌ حسيّ؛ لصُعق أهل المال والجاه والسلطان والصحة من افتقارهم لها إزاء غِنى الأتقياء بها، ولو علم الناس حقيقة السعادة ما ذهبوا بعيدًا، لأنها بين أيديهم لو كانوا يعقلون، إنّها في الفرح بالله تعالى، وطريقُها الإيمان والقرآن والاستقامة.

حتى مع اليأسِ لا تحزن؛ فلك أسوةٌ صالحة، فكم من مؤمنٍ حبيبٍ لله قد مات وحاجته في صدره لم يدركها في دنياه. وبما أنّ المؤمن بشرٌ مثل جنسه فلا يُنكر عليه الحزن العارض لفوات ملائم أو طروء مخالف لطبعه أو مضايقة روحه ونفسه، ولكن عليه أن يكون مَلِكَ نفسه وسيّد مشاعره وطبيب روحه؛ فيُرخي لمشاعره الزمام شيئًا بحيث لا يكبتها، كما لا يتركها بلا قيد ولا خطام. ونبيّ الهدى ﷺ لم يسلم من الحزن العارض، فقد قال في ابنه إبراهيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقلبه عامر بالرضا والحمد: **«وإنا لِفراقك يا إبراهيمُ لمحزونون»**(١). وسئل ابن عيينة رَحِمَهُ اللَّهُ عن هَمٍّ لا يُعرف سببه؟ فقال: «هو ذنبٌ هممتَ به في سرِّك ولم تعملْه؛ فجُزيت همًّا به». فللذنوب عقوبات؛ السرُّ بالسرِّ، والعلانيةُ بالعلانية، والله المستعان.

وعليك بخبيئات الصالحات، فالخبايا للخبايا، فإن وهبك الله تعالى من ذخائر الإيمان وخبايا الأنس وألطاف القُرَبِ فلا عليك ما فاتك من الدنيا وأهلها.

---

(١) البخاري ٢/١٠٥ (١٣٠٣) ومسلم ٧/٧٦ (٢٣١٥) (٦٢).

يظـنّ بـه المغـرورُ ظـنَّ سـفاهةٍ ولا عجبًا فالكنزُ في القلبِ خافيا
سـيعلمُ مـن قـد فـاز فـوزًا ورفعـةً إذا جُندلَ المخذولُ تحتَ السّوافيا

وليستعملْ المُوفّق علمَهُ بالله وحسن ظنه به وعقله وفكره فيما بين يديه من دوافع حزنه، وروافع بلائه، وأسباب سلوانه، ولسانُ حال الشارد: لَكِ الله يا عذابات السنين، ويا جراحات الأنين، كم لك في الفؤاد من لوعةٍ تكوي نداءات الحنين. فيجيبُه نداءُ العقل بتلاوة منشور الفلاح للمتقين: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البَقَرَة: ١٥٥ - ١٥٧] وقول العليم الرحيم: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٥] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مَريَم: ٩٦]. قال أحد السلف: «تذكَّر أنَّ كلَّ نعمةٍ دون الجنةِ فانيةٌ، وكلَّ بلاءٍ دونَ النارِ عافية».

فإن كان الأمر لفوات دنيا؛ فليعلمْ أنّ الدنيا بحذافيرها لا تستحقّ على التحقيق حزنَ ساعة، لكن لضعفنا البشري المُركّب، وغفلتنا الآنيّة، فإنّا نسترسل فيما لا ينبغي للعاقل الاسترسال فيه. والزمن طبيب جيّد للأحزان. وعن تجربة: فمِن أجدى طرقِ المواساة غير المباشرة للمُصابِ والمكلوم؛ إشغالُه بأنْ يواسيَ مصيبةَ غيرِه ممن يحبهم، فينسى - مؤقتًا - مصيبته التي ستبرد قليلًا بالتقادم. واعلم بأنّ من الخطوب ما لا يداويه سوى موعود الآخرة!

تذكّرْتُ عصْرًا قد مَضَى فتهافَتَتْ بناتُ الحشا وانهلّ مني المدامعُ
ونعلـــمُ أنّ المُلْـــكَ للهِ وحـــدهُ وَأنّ قَضَـــاءَ اللّهِ لا بُـــدّ وَاقِـــعُ

وأمّا إن كان الحزن للدِّين؛ فينظر: إن كان لذنبٍ أو فوات طاعة وقُربَه؛ فحزنه محمود، لكن عليه أن يجعل حزنه إيجابيًّا، بحيث يعوّض ما فاته، ويستدرك ما فرّط فيه بحسْب وسعه وطاقته، ويستغفر لذنبه ويلحّ بدعاء ربه بقبول توبته والعفو عنه.

يــا صــاحبَ الهــمِّ لا تنــزعجْ فعــمّا قليــلٍ يكــونُ الفــرجْ
فــما في ســديمِ الــدُّنا مــن ظــلامٍ إلا ومنـــه يكـــونُ الـــبلَجْ

وأمّا الحزنُ لِدِين غيره؛ كتقصير الناس في طاعة الله، وانتشار المنكرات، وضعف حال المسلمين، وضعف تدينهم، وظلمهم من قبل أعداء الدين قتلًا وسجنًا وتشريدًا، ونحو ذلك من الحزن السلبي لغلبة الكفار المادية للمسلمين؛ فإنّه لا يصنع شيئًا، بل منهيٌّ عنه شرعًا، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عِمرَان: ١٧٦].

وقد يكون حزنُه محمودًا من جهة رحمته بهم، ولكن لا بدّ أن يكون حزنًا باعتدال، مع مزجه بالاحتساب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تجاه المنكرات، وبالدعوة إلى سبيل الله تعالى، والمجاهدة لأعداء دينه، وبالرضا بالقضاء لمصيبات الأمة ونقص أمنهم وأرزاقهم، مع بذله جهده وطاقته في سبيل رفع ما يمكن رفعه من حال الأمة، وكلٌّ ميسر لما خلق له.

وليعلم أن الجنة هي ميعاد المحبين من المؤمنين، وأنّ غمسةً فيها تُنسي شقاء الدنيا كلّه.

أقـولُ وقولـوا معـي يـا أبـاةُ ... بصـوتٍ يطـولُ أعـالي القمـمْ
إذا الدِّينُ أضحى ينادي رجالًا ... فـلا خـيرَ فينـا إذا لم نقـمْ
ولا خيرَ فيمن يصيحُ به الدينُ ... صـيحةَ غـوثٍ فلـم ينـتقمْ

واعلم أنّ من الأدب مع الله تعالى أن تقول في إنكارك على من جاهر بالمنكر، أو عاند، أو حارب، أو حادَ عن جادّة المرسلين، أو حادَّ شرع الله العظيم أن تقول: ما أغرَّ فلانًا بالله! ولا تقل: ما أجرَأ فلانًا على الله، فقد تكون موهمة لشيء من قدرة المخلوق على الخالق تعالى وتقدس، وهذا معنًى فاسدٌ مُحال، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦﴾ [الانفطار: ٦] ؟!

ورايـةُ الكفـرِ إنْ طالـتْ سـلامتُها ... لا تيأسَـنّ فإنّ الكسـرَ لاقيها

وثمّة بشارة لقلب كل مؤمن: وهي أنّه مهما كان مكانك وزمانك وضعفك وعجزك وفقرك وقِلّتك أمام انتفاش الباطل وأهله؛ فاعلم أنّهم لا يستطيعون سلب الإيمان من صدرك. وهذه وربّي كافية في برْدِ اليقين وثلجِ الطمأنينة، والشيطان نفسه لا يملك قدرةً عليك، ولا تسلُّطًا على إرادتك، إنما هي أمانٍ ووساوس وكيد ضعيف، وهو القائل لأوليائه يوم الدين: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، فكن قويًّا بربك، واثقًا منه، موقنًا به، متعلقًا به، طائعًا له، مخبتًا تائبًا منيبًا.

ومِن نافع وصاياهم: «عند القَدَرِ لا تجزع، وعند الأمرِ لا تعجز».

فَثِبْ واثقًا بـالله وثْبـةَ ماجـدٍ يَرى المَوْتَ في الهيجا جَنَى النّحلِ في الفَمِ

واحذر صحبة الأشرار، ومصادقة الفُجّار، واعلم أنّ معيار الشرِّ نقصُ التديّن، وضعفُ وازع الإيمان، وعدمُ رفعِ الرأس بشعائر الشريعة، والمصيرُ غدًا هو البراءةُ بين كلّ صحبِ خلا المؤمنين، فيجأرُ الكافر من قعرِ الجحيم، ويصيحُ الهالكُ من أغلال سِجّين: ﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨﴾ [الفُرْقَان: ٢٨].

ومن حقوق الصحبة تخفيفُ الأحزان، ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ﴾ [التَّوْبَة: ٤٠].

واعلم أنّ أمرَ المؤمن خيرٌ كلّه، والله تعالى يقول: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٨﴾ [البَقَرَة: ٣٨] أي ليس عليهم خوف من المستقبل، ولا حزن على الماضي. وليس مع الله ضيعة.

فـإذا ابتُليـتَ بنكبـةٍ فاصـبرْ لهـا اللهُ حسـبي وحـدَهُ وكفـاني

ويا صاحب الهم: أينك عن الملاذ؟ إنّه يقينك بالله وثقتك به، انطرح بكليّتك بين رحمته وكرمه، قال ابن مسعود: «الصبر نفسُ الإيمان، واليقين هو الإيمان كلّه». إلهي، أنا لك، وأنا إليك راجع.

تمـوتُ النفـوسُ بأوصَـابِها ولمْ يـدْرِ عُوّادُهـا مَـا بِهـا

ومـا أنصـفتْ مهجـةٌ تشـتكِي أذَاهـا إلى غـيرِ أحبَابِهَـا

فلكل مهموم، أو حزين، أو مريض، أو مُحطّم الفؤاد، أو متآكل الروح من فشله أو عثرته أو إحباطه: ثَمّ ربٌّ يراك، وإلهٌ يسمع نجواك، ويفرح بضراعتك، ويُقرّبك إذا تخلّى عنك الأقربون. ويذْكُرك إن نسيك المحبون،

ويرحمُك إذ قسا عليك الألدّون، ويرفعك ويرزقك ويشفيك ويسعدك، ويشرح صدرك وييسر أمرك. فأين أين أين أنت عن طرق بابه، واللياذِ بعظيم جنابه، والالتذاذِ بجميل خطابه، والانطراح في عبوديته ودعائه!

اشْكُ نفسَكَ والناسَ إليه، واحذر من أن تشكوه إليهم، فكيف تشكو من لا يأتي بالخير إلا هو!

وَإِذَا شَكَوتَ إلى ابنِ آدمَ إنَّمَا   تَشْكُو الرَّحِيمَ إلى الذي لا يَرْحَمُ

وعليك بجادّة الأنبياء: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يُوسُف: ٨٦] والبثُّ هو الحزن الذي لا يُطاق.

والناس يقولون: لا تكبت همومك في صدرك، وبُثَّها لصديق يواسيك؛ لأنّ الصدر إذا نَفَثَ برأ، ولا بدَّ من شكوى إذا لم يكن صبرُ.

وأبثثُ عَمْرًا بعضَ ما في جَوانحي   وجَرَّعتُه من مُرِّ ما أتجرّعُ

ولا بدَّ من شكوى إلى ذي مروءةٍ   يواسيكَ أو يُسليكَ أو يتوجَّع

وما علموا أنّ البثَّ النافع هو الشكوى إلى من بيده مقاليد الأمور ومعاقد الأقدار.

فيا نازفًا همَّهُ بدموعه، ومُرسلًا شجَنَه بأنينه، وشِكايته بزفراته؛ أبشر ببشرى الله لك: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البَقَرَة: ١٨٦]. فبُثَّ له وحده شجونك وأحزانك، وقل كما قال العبد الصالح عليه السلام: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٨٦﴾ [يُوسُف: ٨٦].

ودرّب نفسك على أن يكون قلبُك أقوى احتمالًا وأرحبَ مكانًا وأشدَّ جلَدًا لأليم الواردات عليه، فإنْ ضاقت بك الأرضُ يومًا بما رحُبَتْ؛ فالجَأ لمن لا يَخيب من دعاه، ولا يخسر من عامله، ولا ينهزم من توكل عليه، ولا يفتقر من اغتنى به.

أمّا من لم يُطِق، ورأى صلاحه في بث بعض شكواه لمن وثق به؛ فلا بأس، بشرط الأدب مع الله تعالى، بعدم تسخّط أقضيته والتبرّم من أقداره.

إِذا لم أطِق صَبرًا رَجعتُ إلى الشكوى وناديتُ تحت الليل يا سامع النَّجوَى

وكيف ينفعنا الإيمانُ بمرِّ القضاء إذا لم تثبت على ثلجِ يقينِه وبرْدِ حُسنِ الظن بعاقبته قلوبُنا عند احتدام الكُرب والهموم، وارتدام البلايا والغموم!

وتذكّرْ أنّ أعظم مُسَكّن في العالم هو جُرعة من الرضا بمرّ القضاء.

ولا بأس حين تفيضُ كأسُ النفسِ المترعة بالأحزان مِن بوحٍ لذي دين وعقل وجب ونصح، إذا لَمْ يكُ وافرُ صبرٍ، كما قال أبو تمّام:

شَكَوْتُ وما الشَّكْوَى لمثْلِي عَادَةٌ ولَكِنْ تَفِيضُ العَيْنُ عِنْدَ امتلائِهَا

ولكل مصاب ومحزون ومهموم: سيكونُ هذا يومًا ما مجرد ذكرى من الماضي، فأَرْضِ ربَّكَ الآن؛ لتسعد بالذكرى غدًا، فالدنيا، كلّ الدنيا لا تساوي غمسةً في الجنة.

ومن لم يتجرّع الرضا تقطّعت نفسه عند المصيبات، قال الأصمعيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أقبل مُتَمِّم بن نويرة التميمي إلى العراق، فجعل لا يرى قبرًا إلا بكى عليه، فقيل له: يموت أخوك بالملا وتبكي أنت على قبر بالعراق؟ فقال:

لَقَد لامَنِي عندَ القُبُورِ عَلى البُكا ... رَفِيقِي لِتَذْرافِ الدُّمُوعِ السَّوافِكِ
فقال: أتبكِي كُلَّ قَبرٍ رأيتَهُ؟ ... لقَبرٍ ثَوى بَين اللِّوى فالدَّكادِكِ
فقلتُ: له إنَّ الأَسَى يَبعَثُ الأسى ... فَدَعْنِي فَهَذا كُلُّهُ قَبْرُ مالِكِ

وكن ـ يا صاحبي ـ دائم الحياء من ربك، ويعظم الحياء في القلب بتذكر صفات الله تعالى، والتفكر في عظمته، والتدبر في كتاب كلامه المنزل لك، وفي كتاب خلقه المسطور أمامك في الكون الفسيح والكون الصغير، وتذكر عظيم نعمائه عليك، وتتابع ألطافه، وتراكم آلائه، فمهما صنعت لتؤدي شكرها لم تفلح، لكنه شكور حميد يقبل منك القليل، ويثيبك عليه الثواب الجزيل، ويَفرح بقربك منه وهو المتفضّل عليك، وهو المعين لك في الأولى والمعطي لك في الأخرى، فله الحمد أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا وهو الولي الحميد.

فإذا تدبرت ذلك، وغموض مآلك، ونَقْصَ أعمالك، وتقلّبَ حالك؛ أبصرت نقصك وضعفك وعظيم جريرتك وحتْمَ الرجعى إليه، وحينها يُطرِقُ قلبُك حياءً ووجلًا من الله تعالى. واعلم أن الحياء قرين الإيمان، فقد قال

الصادق المصدوق ﷺ: **«إنّ الحَياءَ والإيمانَ قُرِنا جَميعًا، فَإذا رُفِعَ أحدُهُما رُفِعَ الآخَرُ»**(١).

هَـــبِ البعـــثَ لم تأتنـــا رسْـــلُهُ   وجـــاحِمَةُ النـــارِ لم تُضـــرَمِ
ألـــيس بكـــافٍ لـــذي فكـــرةٍ   حـــــياءُ المســـيءِ من المُنعِمِ

وكن مع القرآن يكن الله معك، وأَنِرْ أرجاء بيتك بتلاوته، وجوانح روحك بتدبره، وربيع عقلك بتعلّمه، وسماءك بأن تكون من أهله، قال الحبيب ﷺ: **«وإنَّ البيت ليُتلى فيه القرآن؛ فيتراءى لأهلِ السماء كما تتراءى النجومُ لأهل الأرضِ»**(٢).

وعن يحيى بن عون: قال: دخلت مع سَحنون(٣) على ابن القصّار وهو مريض، فقال: «ما هذا القلق»؟ قال له: الموت والقدوم على الله. قال له

---

(١) أبو نعيم في الحلية (٤/ ٢٩٧)، والحاكم (١/ ٧٣)، والبيهقي في الشعب (٧٧٢٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٢٠٠).

(٢) أخرجه الذهبي في سير أعلام النبلاء (٨/٢٦- ٢٧) من طريق السراج: حدثنا أبو رجاء قتيبة بن سعيد: حدثنا ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة عن عائشة عن النبي ﷺ قال... فذكره. وأخرجه أحمد (٦/٦٥): ثنا حسن: ثنا ابن لهيعة به. قال الألباني في السلسلة الصحيحة ١-٩ - (١٠ / ٢): وهذا إسناد جيد؛ لأن قتيبة صحيح الحديث عن ابن لهيعة، ولهذا قال الذهبي عقب الحديث: «هذا حديث نظيف الإسناد، حسن المتن.. وله شاهد من طريق آخر».

(٣) قاضي القيروان، وصاحب «المدونة». قال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في السير (١٢ / ٦٤): «سمع من: سفيان بن عيينة، والوليد بن مسلم، وعبد الله بن وهب، وعبد الرحمن بن القاسم، =

سحنون: «ألستَ مصدّقًا بالرسل والبعث والحساب والجنة والنار، وأنّ أفضل هذه الأمة أبو بكر، ثم عمر، والقرآن كلام الله غير مخلوق، وأنّ الله يُرى يوم

=
ووكيع بن الجراح، وأشهب، وطائفة. ولم يتوسع في الحديث كما توسع في الفروع. وقد لازم ابن وهب، وابن القاسم، وأشهب، حتى صار من نظرائهم. وساد أهل المغرب في تحرير المذهب، وانتهت إليه رئاسة العلم. وعلى قوله المعوّل بتلك الناحية، وتفقّه به عدد كثير.

وعن أشهب قال: ما قدم علينا أحد مثل سحنون. وعن يونس بن عبد الأعلى قال: سحنون سيد أهل المغرب. وقال عيسى بن مسكين: سحنون راهب هذه الأمّة، ولم يكن بين مالك وسحنون أحد أفقه من سحنون.

وكان يقول عن نفسه: «إني حفظت هذه الكتب، حتى صارت في صدري كأم القرآن». وكان إذا قرئت عليه مغازي ابن وهب تسيل دموعه، وإذا قرئ عليه الزهد لابن وهب يبكي.

ومن أقوال الإمام سحنون رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «محبّ الدنيا أعمى، لم ينوّره العلم». وقال: «كان بعض من مضى يريد أن يتكلم بالكلمة، ولو تكلم بها لانتفع بها خلق كثير، فيحبسها، ولا يتكلم بها مخافة المباهاة. وكان إذا أعجبه الصمت تكلم»، وقال: «أجرأ الناس على الفتيا أقلهم علمًا». وقال: «ما وجدت من باع آخرته بدنيا غيره إلا المفتي». وعنه: «سرعة الجواب بالصواب أشدّ فتنة من فتنة المال».

توفي الامام سحنون في شهر رجب سنة أربعين ومئتين، وله ثمانون سنة، وخلفه ولده محمد. وقال أبو العرب: اجتمعت في سحنون خلال قلّما اجتمعت في غيره: الفقه البارع، والورع الصادق، والصرامة في الحق، والزهادة في الدنيا، والتخشّن في الملبس والمطعم، والسماحة. ولم يكن يهاب سلطانًا في حق، شديدًا على أهل البدع، انتشرت إمامته، وأجمعوا على فضله». رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وعلى مثل ذا فابكِ إن كنتَ باكِيا.

القيامة، وأنّه على العرش استوى، ولا تخرج على الأئمة بالسيف، وإن جاروا»؟ قال: إي والله! فقال: «مُتْ إذا شئت، مُتْ إذا شئت»(١).

ولكل قلبٍ أضناه الحزن لعجز يده أو لسانه عن إنكار منكر: أنكِرْ بقلبك، ثم تدبر قول ربك: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ١١٢﴾ [الأنعام: ١١٢] وقوله ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [الحِجر: ٨٨].

وما دام المؤمن متعلقًا بربه، محسنًا الظن به، تامّ الطمأنينة بتدبيره، مفوّضًا أموره إليه؛ فهو - والله - بخيرٍ مهما اشتد بلاؤه. فلله في ثنايا ابتلائه منحًا عظيمة ونعمًا جليلة، لا يتصورها إلا من عرف ربه بجميل صفات كماله، وكفى بنعمة الصبر والرضا والشكر والحمد والإيمان نعمة، فلله الحمد كثيرًا.

ولا تحدثني عن دنياك مهما كانت حالك معها، لكن حدثني عن حال قلبك مع ربك، فهو محور سعادتك لأبد الأبد. ولقد كتب أخٌ لأحمد بن حنبل أيام المحنة:

هـذي الخطـوبُ ستنتهي يـا أحمـدُ ... فإذا جَزِعْتَ مِنَ الخُطُوبِ فمَنْ لهَا
الصـبرُ يقطـعُ مـا تـرى فاصـبرْ لهَـا ... فعسـى بهـا أنْ تـنجَلِي ولعلّهَـا

فأجابه الإمام:

صـبَّرْتني ووعظتنـي فأنـا لهـا ... فستنجلي بـل لا أقـولُ لعلَّهَـا

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٢ / ٦٧).

ويَحُلُّهَا مَنْ كانَ يملِكُ عَقْدَهَا ... ثقةً بِهِ إذْ كانَ يَمْلِكُ حَلَّهَا

وتذكّر أن الخلق مجرد أسبابٍ يُجري الله تعالى أسبابًا للرزق على أيديهم، فلا خوفٌ علينا في أرزاقنا فهي مكفولة مضمونة، لكن الخوف العظيم من نقص أدياننا وتقصير أعمالنا، إذ لم يضمنها الله لنا، بل وعدنا وأوعدنا، فرزق الدنيا مضمون كما قال رسول الله ﷺ: **«إنّ رُوح القُدُس**[١] **نَفَثَ في رُوعي**[٢] **أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها»**[٣]. ولكنّ رزق الآخرة غير مضمون، قال الله تعالى: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ [النِّساء: ١٢٣].

فاسألِ الرازّقَ الغنيَّ ابتداءً وانتهاءً وإفرادًا، اسأله أنواعَ الأرزاق، واعلم أنّ خيرَها رزقُ الإيمان والعمل الصالح، وتوكّل على الحي الذي لا يموت، وثق بمن بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يُجار عليه، ولا تلتفت بقلبك ولا بوجهك لسواه. فكل شدّة إلى زوال، وكل كربة إلى ذهاب، وكل همٍّ إلى

(١) **«رُوح القدس»:** القُدُس: الطهارة، ورُوح القدس: اسم جبريل عليه السلام أي: الروح المقدسة الطاهرة.

(٢) **«نفث في رُوعِي»:** النفث: النفخ بالفم، والرُّوع بضم الراء: القلب، والمعنى: ألقى في قلبي، وألهمني. أما الرَّوع بفتح الراء فهو الفَزَعُ. وانظر: الصحاح للجوهري (١٢٢٣/٣).

(٣) ابن ماجه (٢١٤٤)، وابن حبان (٣٢٣٩)، والحاكم (٤/٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٨٥).

نهاية، المهم ألّا تهتزّ ثقتك بالله طرفة عين، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾ [الطَّلَاق: ٣].

لبستُ ثوب الرَّجَا والناس قد رَقَدُوا ... وقمتُ أشكو إلى مولاي ما أجدُ

وقلتُ: يا عُدّتي في كلِّ نائبةٍ ... ومن عليه لكشف الضرِّ أعتمدُ

أشكو إليكَ أمورًا أنتَ تعلمُهَا ... مالي عَلَى حَمْلِها صبرٌ ولا جَلَدُ

وقد مددتُ يدي بالذُّلِّ مُعترفًا ... إليكَ يا خيرَ مَن مُدَّتْ إليه يدُ

فلا تردنَّها يا ربِّ خائبةً ... فبحرُ جودِكَ يُروي كلَّ من يردُ

ويَصْلُحُ حالُكَ إذا دبّرت دينك أكثر من تدبير دنياك، فرزقك مكتوب لك، ولو هربت عنه لأدركك، فابذل أسبابه واعمر آخرتك، ولا تخش الفقر فإن ذلك من لمّات الشيطان: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٢٦٨﴾ [البَقَرَة: ٢٦٨]. فلا تغتمّ لمستقبلٍ يصنعهُ من هو أرحم بك منك.

واعلم أنّ الحزن الذي لا يُخرج الإنسان من كونه صابرًا راضيًا، أي كان قلبه مطمئنًا فإنه لا يؤاخذ عليه. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولهذا لم يؤمر بالحزن المنافي للرضا قط، مع أنه لا فائدة فيه، بل قد يكون فيه مضرة، لكنه عفي عنه إذا لم يقترن به ما يكرهه الله» (١).

(١) أمراض القلوب (٥٨)، مجموع الفتاوى (١٠ / ٤٦).

ويا أيها الحزين؛ أينك عن هذا الحديث العظيم الهائل المبدّد سحب الأحزان والمبيد عواصف الهموم، ولكم أفادني في أحيان كثيرة، فما أن تضيق بي نفسي بكُرب بالدنيا وأحزانها الفانية حتى ألهج لربي به، فإذا أنا في جَنَّة الأُنس والسلوى بحمد ربي اللطيف الرحيم، فعن عبدالله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما أصاب عبدًا همّ ولا حزن، فقال: اللّهم إني عبدك، وابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيّ حكمك، عدلٌ فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سمّيت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علّمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك؛ أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همّي وغمّي، إلا أذهب الله همّه وغمّه، وأبدله مكانه فرحًا»**. قالوا: يا رسول الله أفلا نتعلّمهن؟ قال: **«بلى، ينبغي لمن سمعهن أن يتعلّمهن»**(١).

يا من يُرَجّى في الشدائدِ كلِّها ... يا من إليه المُشتكى والمفزَعُ

ما لي سوى قرعي لبابك سُلّمًا ... فإذا رددتَّ فأيُّ باب أقرعُ

٥- النياحة:

ومِمَّا يضاد الرضا وينافيه النياحة، سواء كانت صادرة من النساء أو الرجال، وإن كان المعتاد أن يكون من النساء في المآتم، وعند القبور، وعند نزول المصائب، لضعف صبرهن ووهن احتمالهنّ إلا من رحمها الله منهنّ

(١) أحمد (٣٧١٢) وابن حبان (٩٧٢) وصححه الألباني وشعيب الأرناؤوط - وإذا أطلقتُ الأرناؤوط فهو شعيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ -.

فسكّنت قلبها بالصبر، وسلَّته بالرضا، وأسعدته بالحمد والشكر. والنياحة من كبائر الذنوب لأنها منافية للرضا والتسليم، وهي من الجزع والاعتراض على القضاء قال ﷺ: **«ليس منا من لطم الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية»**[(١)].

والنياحة ضلال عظيم، تتضمن فعل ما نهى الله عنه، وترك ما أمر به، ففيها ترك الصبر، وفيها الجزع، وقول الهُجْر.

والنائحة متوعَّدَةٌ بالعذاب، فعن أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: **«أربعٌ في أمتي من أمر الجاهليَّة**[(٢)] **لا يتركونهنّ: الفخر في الأحساب**[(٣)]**، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة»**، وقال: **«النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سِرْبَالٌ من قَطِرَانٍ، ودِرْعٌ من جَرَبٍ»**[(٤)].

---

(١) البخاري (١٢٩٤) ومسلم (١٠٣) (١٦٥).

(٢) في نسبته هذه الأربع لأمر الجاهلية مذمّة كافية، فأمر الجاهلية موضوع، وما نُسب إليها على لسان الشرع فهو مذموم.

(٣) الأحساب: هي ما افتُخِر بها من أمور معنوية كالنسب والجاه والمنصب. فالأنساب داخلة في الأحساب، ولمّا كان الفخر تارة يكون بها وتارة بغيرها كالمنصب والجاه والمال ونحوها عمّم ذلك، أما الطعن فلا يكون عادة إلا في النسب فخصّه، والله أعلم.

(٤) مسلم ٣/٤٥ (٩٣٤) (٢٩) والسربال هو القميص أو الثوب. أما الدرع فهو ما كان لاصقًا بالبدن.

فالنياحة وما يَحُفُّهَا ويقترن بها من المخالفات الشرعية تنافي الرضا بالقضاء، وهي أيضًا من التّسخّط الذي هو ضد الرضا.

أمَّا البكاء على الميت حين وفاته على وجه الرحمة فحسن، فقد قال ﷺ في ذلك، وقد بكى على مَيِّتِه: **«إنّها رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنَّما يرحم الله من عباده الرحماء»**(١).

ولا زال أهل الوفاء يبكون أحبتهم رحمة وشوقًا، وإن كانت قلوبهم بالله راضية. قال إسحاق بن أحمد: كنا عند البخاري، فورد عليه كتاب فيه نعي الدارمي، فنكس رأسه ثم رفع واسترجع، وجعل تسيل دموعه على خدّيه، ثم أنشأ يقول:

إنْ تَبْـقَ تُفجـعْ بالأحبَّـة كلِّهـمْ   وفنـاءُ نفسِـكَ لا أبـا لَـكَ أفْجَعُ

ألَا مَا أعَزَّ الوَفَاء، وأعَزَّ أهل الوَفَاءِ! قال عوف بن النعمان الشيباني، وكان في الجاهلية، وقد أدرك النبي ﷺ: لَأَنْ أمُوتَ عطشًا، أحبُّ إليَّ من أكونَ مِخْلافَ المَوْعِدَةِ.

اشْـدُدْ يَـديك بِمـن بلـوت وفـاءه   إن الوفـاءَ مــن الرِّجــال عَزِيــز

---

(١) البخاري (١٢٨٤) ومسلم (٩٢٣).

٦- تمنّي الموت لبلاء الدنيا:

فالذي خلقك وأحياك ورزقك وربّاك هو من قدّر عليك تلك المصيبة، ومهما كان وقعها على قلبك فلا تجزع خلا مصائب الدين، لأن الله تعالى وإن قدّرها كونًا فهو لا يحبها شرعًا، فعليك فورًا بالتوبة منها، ومباعدة أسبابها، وعدم الفرح بها والركون إليها والانبساط عند ورودها، أما مصائب الدنيا فهي هباء وفناء، فلا عليك ما فاتك منها، فعن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: **«لا يتمنّينّ أحدكم الموت لضرّ نزل به، فإن كان لا بد متمنّيًا الموت فليقل: اللّٰهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي»**(١).

فدل الحديث على النهي عن تمني الموت بسبب بلاء، أو محنة، أو خشية ذلك من عدو، أو مرض، أو فاقة، أو نحوها من المصائب التي تصيب الإنسان في حياته، لما في ذلك من الجزع، وعدم الصبر على المقدر، وعدم الرضا بالقضاء.

وتمني الموت لا يقرب موعده ولا يباعد أجله، ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ۝٥٨﴾ [الإسراء: ٥٨]، ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ۝٣٨﴾ [الأحزاب: ٣٨].

وهذا بخلاف تمني الشهادة في سبيل الله، فإنّ هذا حسن مطلوب؛ لأنه ذروة الإيمان، وهو دليل على الصبر والثبات والرضا بما يصيبه في ذلك ممَّا يقدره الله عليه، فعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: **«والذي**

---

(١) البخاري (٦٣٥١)، ومسلم (٢٦٨٠).

نفسي بيده، وددت أني أقاتل في سبيل فأُقتل، ثُمَّ أحيا، ثُمَّ أقتل، ثُمَّ أحيا، ثُمَّ أقتل»(١).

فَـإِنْ شِـئْتَ البُطُولَـةَ صِـحْ بِقَـوْمٍ ... إِذَا كَـانَ الكَـلَامُ لَهُـمْ كِلَامًـا

٧- الجزعُ والهلعُ:

عند الأمر لا تعجز، وعند المصيبة لا تجزع، فالمصيبة إذا هجمت على القلب الغافل أورثته شيئًا من الجزع بحسبها وبحسب القلب الواردة عليه، فإذا تذكّر العبدُ أنّ هذه المصيبةَ وسبَبها مقدورٌ مكتوبٌ؛ صبر على قدر الله، وسلّم لأمره؛ فإنّ هذا من جملة ما أمره الله به؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التَّغَابُن: ١١]، قال ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلّم».

والجزع ضعف في النفس، وخوف في القلب، تمدّه شدة الطمع والحرص، وهو متولّد من ضعف الإيمان بالقدر، وصاحبه معاقب به، فيحرمه الراحة التي يرتاحها العابدون الراضون، ويخرّب القلب الذي حقّه عِمَارَة اليقين والرضا والإيمان، ويذهب بخيرية العبد واستقامته وصدق تديّنه.

---

(١) البخاري (٧٢٢٦).

والهلع أفحش الجزع، والهلع له معان منها: الحرص، والشح، والضجر، والبخل، والشره، والإمساك، والذي لا يشبع، وضيق العطن، والعجلة، وهذه المعاني كلها تنافي الرضا بالقضاء.

والجزع ضد الصبر الآيل إلى الرضا، فلا خير في العجز ولا في الجزع، كما نجده في حال كثير من الناس حتى من بعض المتديّنين، فنراهم إذا ظُلِموُا أو رأوا منكرًا أو عُدوانًا لا ينتصرون ولا يصبرون، بل يعجزون ويجزعون إلا من رحم الله.

وفي صحيح مسلم[1] عن الأعرج عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«المؤمن القويّ خيرٌ وأحبّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، فإن أصابك شيء فلا تقل: لو أنى فعلت كذا وكذا. ولكن قل: قَدَرُ الله[2] وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»**.

فمن أراد بلوغ مقام الرضا فليحبس نفسه عن الجزع، والهلع، والتّشكّي، والتّسخّط، وأن يسأل ربه ثبات قلبه على الأحكام القدرية والشرعية. وليس المراد أن يقسو قلبه ويمتنع عن الانفعال والتأثر بالنوازل، فمن لم يتأثر بها

---

(١) مسلم (٨/٥٦).

(٢) يصحُّ: قَدَرُ الله، وقَدَّرَ الله.

لِغِلَظِ قلبه وقساوته لا لصبره واحتماله فليس من الراضين بالقضاء والقدر[١].

كما قيل:

يُبكى علينا ولا نبكي على أحدٍ   لنحن أغلظ أكبادًا من الإبل

وههنا مسألة غريبة ولولا كثرة دورانها على ألسنة الناس ما أوردتها لوضوح أمرها وتبيانه، كما أنّ في ثنايا جواب الشيخ لها نفائس نادرة، والمسألة هي حكم قتل المريض الميئوس منه بطلب منه من قبل الطبيب ونحوه. فقد أجاب شيخنا الشنقيطي حفظه الله تعالى عنها بقوله: «هذه مسألة خطيرة جدًّا، وهي التي يسمونها: مسألة قتل الرحمة، ولذلك ـ والعياذ بالله ـ من غرائب هذا الزمان أن الحرام في هذا الزمان لا يسمى باسمه؛ بل يصدق عليه قول الله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [النَّمْل : ٢٤]، وهذا من تزيين الشيطان لعصاة بني آدم، فهناك قتل يقولون عنه: قتل الرحمة، ويسمونه بهذا الاسم، وصدق عليهم قول الله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١﴾ [البَقَرَة : ١١].

وهذا القتل الذي يسمّونه بقتل الرحمة يكون المريض ميئوسًا من علاجه، فيقولون: لماذا يتعذب؟ يعطى إبرة تقضي عليه فيرتاح من عذاب المرض، ومن آلام المرض، وهذا لا شك أنه اعتداء وقتل عمد، وسيأتينا ـ إن شاء الله ـ في مسألة القتل بالسم، فحقن المواد السامة في جسم الإنسان التي يقتل مثلها يعتبر قتل عمد، والطبيب إذا فعل ذلك فإنه يعتبر قاتلًا.

---

(١) وانظر: الرضا بالقضاء، سالم القرني، مجلة جامعة أم القرى (٥ / ٣٥٣-٣٦٧).

وللعلماء كلام في مسألة من قال لغيره: اقتلني، فإذا قال لغيره: اقتلني، فله صورتان: الصورة الأولى: أن يُكرهه على قتله، فيقول له: إن لم تقتلني سأقتلك، ففي هذه الحالة لا قصاص ولا دية على القاتل؛ لأنه في هذه الحالة هدده، وله الحق أن يدفع عن نفسه، ولم يستبح نفسًا محرمة، وسقط القصاص لوجود الإذن بالقتل، وسقطت الدية لأنه مستتبع لحكم القصاص.

وعلى كل حال: هذا القتل لا يجوز، وقد قالوا: إنما ذلك لأجل أن الشخص يتعذب بالآلام، بل توسع الأمر إلى درجة ـ والعياذ بالله ـ أنهم نظروا في الأشخاص المتخلّفين عقليًا، ووجدوا أنهم عبء على أهليهم وعبء على ذويهم، فيحقنونهم بمواد تقضي عليهم، وهذا لاشك أنه من الاعتداء على حدود الله عز وجل، والإنسان وصفه الله عز وجل وقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۝٧٢﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وهناك قاعدة يضعها طالب العلم، بل يضعها كل مسلم نصب عينيه، وهي أن الطب له جانبان إن خرج عنهما فليس بطب، ولا تأذن له الشريعة أبدًا:

الجانب الأول: علاج الأسقام ومداواة الجروح ونحو ذلك، وهو إصلاح الفاسد في الجسد.

الجانب الثاني: بذل الأسباب التي تحول بين الإنسان وبين الوقوع في المرض والسقم، وهو الذي يسمى بالطب الوقائي، فالأول يسمى: الطب العلاجي، والثاني يسمى: الطب الوقائي، فإنْ فَعَل الطبيبُ أيّ فعلٍ في الآدمي

خارج عن العلاج، أو خارج عن الوقاية؛ فهذا ليس بطب، وقد خرج عن رسالة الطب، وخرج عن الإذن الشرعي بالطب.

فإذا قال: إن هذا مريض يتألم ويحصل له كذا وكذا، فنقول له: أنت طبيب تداوي، فإن أمكنك أن تداوي بذلت ما في وسعك، وإذا لم يمكنك أن تداوي فلا تدخلن بين المخلوق والخالق، فإن هذا ليس إليك، ولست أنت الذي ترحم، وليس بيدك الرحمة، إنما هي بيد الله سبحانه وتعالى الذي وسعت رحمته كل شيء، ولا تكن كمن قال الله فيهم: ﴿قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ﴾ [الحُجُرَات: ١٦]، فلست أنت الذي تعلّم الله من هو الذي يُرحم والذي لا يُرحم. ارحم بشيء تملكه، وشيء لا تملكه ليس من صنعك، وقد تكون هناك درجات من درجات العلى في الجنة جعلها الله لولي من أوليائه بعذابه في المرض والسقم.

وقد يجعل الله عز وجل في قرارة قلبه من اليقين ما يتلذذ به بهذا السقم والمرض، وقد كان بعض الصحابة رضوان الله عليهم، وبعض السلف لما مرض في الطاعون كان يقول: «اطعني فوعزّتك وجلالك إني لأتلذّذ بما يصيبني منك»، وهذه هي منزلة الرضا عن الله عز وجل.

فلست أنت الذي تتدخل بين المخلوق والخالق، فهذه أشياء لا دخل للإنسان فيها، وليست من رسالة الطبيب، فإن حدود الطبيب محصورة، والله عز وجل بعزته وجلاله وقدرته وعظمته وكماله جعل كل شيء لغيره محدودًا قاصرًا، فمهما بلغ من القوة ومهما بلغ من المنزلة في العلم والإدراك للأشياء، فإنه يقف عند حد معين، ليقف ذليلًا أمام عزة الله جل جلاله، مهانًا أمام كرامة الله، يقف مكتوف اليدين أمام الله الذي علَّمه، وعندها يعلم علم

اليقين أنه لا حول له ولا قوة، ولذلك مهما تقدم الطب فسيصل إلى درجة لن يستطيع أن يتقدم عندها؛ لأن الله قال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإِسْرَاء: ٨٥]، وسيقولون: إن هذا لا علاج له عندنا، لكي يعلم كل أحد أن الله سبحانه وتعالى وحده الذي يشفي من المرض، كما قال ﷺ: **«واشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك»**[1].

هنا تظهر عظمة الله عز وجل، فيعيش المريض يئن ويتألم في المستشفى، والأطباء واقفون، حتى يدخل كل شخص إلى المستشفى فيعلم أن الطبيب لا يملك له مثقال خردلة ولا أقل من ذلك من دون الله عز وجل، فهذا كله فيه أسرار وحكم، ولكن الذين كفروا لا يعقلون.

وهذه أشياء ما كان يعرفها المسلمون، فما كان المسلمون كلما مرض مريض حقنوه بحقنة وقضوا عليه، ما كانوا يفعلون هذا أبدًا، ولكن بحكم الاتصال بالكفار وسهولة المعرفة كما يقولون، أصبح شيئًا مألوفًا، وإلا فالمسلمون يعرفون الرضا، والتسليم بقضاء الله وقدره، ويعيش المريض ويأتي شخص ويقول لك: هذا المريض جالس عند أهله سنة أو سنتين وقد عذبهم. وما يدريك أن هذه السنة والسنتين كم أصلحت من قلب كان فاسدًا، وكم قومت من شخص كان معوجًّا، وكم سددت من شخص كان تائهًا بعيدًا عن الله سبحانه وتعالى، فقد يعيش مريض في البيت ويئن ويتألم فإذا بالشاب

(١) البخاري (٥٧٥٠) مسلم (٢١٩١).

السوي القوي يتذكر أنه إذا شاب وهرم سيئول إلى هذا المآل، فيخاف من معصية الله عز وجل.

فهناك حكم وأسرار كثير من الناس لا يعقلها ولا يعلمها، وأشياء لا يتدخل فيها الإنسان، أما الطب فله حدوده إذا رأى مفسدة أن يزيلها، أما حكم ومصالح ذلك المرض فلا يعلمها إلا الله عز وجل، والله أرحم بخلقه من خلقه بأنفسهم، قال ﷺ: **«أترون هذه طارحة ولدها في النار؟»** قالوا: لا يا رسول الله، قال: **«لله أرحم بعباده من هذه بولدها»**(١).

المقصود: أنّ هناك حدودًا ينبغي الوقوف عندها، وإذا خرج الطب عن هذه الأمانة والمسئولية من مداواة الأجساد، ووضع الأسباب، والحيلولة بين الأجساد والأسقام بقدرة الله عز وجل؛ فإنه ليس بطب، وإنما هو العبث، ولذلك ينبغي لطالب العلم أن يزن الطب بهذا الميزان، قال ﷺ: **«تداووا عباد الله، فإنّ الله ما وضع داءً إلا ووضع له شفاء، علمه من علمه، وجهله من جهله، إلا داءً واحدًا وهو الهرم»**، وفي رواية: **«الموت»**(٢).

فنحن نقول: لا يجوز هذا الأمر، وهو حقن المريض بما يؤدي إلى موته، ولو كان مرضه ميئوسًا منه، ولو كان قد استنفذت مقاتله، فيسلّم الأمر لله

---

(١) البخاري (٥٩٩٩).

(٢) ابن ماجه (٣٤٢٧) وصححه الألباني. وأحمد (١٨٤٥٥) بلفظ: **«إلا الموت والهرم»** وحسنه محققوه.

سبحانه وتعالى، فلا يجوز للطبيب ولا يجوز لأولياء المريض ولا للمريض أن يأذن بهذا الأمر الذي لا يُحلّه الله ولا رسوله، والله تعالى أعلم»(١).

وبعدُ؛ فينبغي للمؤمنِ أن يكون على الدوام راسخَ اليقين بربه تعالى، عظيمَ حُسْنِ الظن به، كبيرَ الثقة به، متذكرًا على الدوام رَحمَاتِهِ وهِبَاتِه وأَلْطَافِهِ وابتداءاتِهِ بإسداءِ الخيرِ كلِّ الخيرِ، فإنْ نَزَلَ عَن تِيْكَ الرُّتَبِ العاليةِ فلا أقلَّ مِنْ ثَبَاتِه على هَضَبَةِ الصَّابرين، وهي لعَمْرُ الحَقِّ عظيمةٌ مباركةٌ حافظةٌ بأمرِ اللهِ نُزَّالَهَا، يقول رب العزة: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَاۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾ [الطُّور: ٤٨]، قال العلّامة ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذه الآية ينبغي أن يُقَرِّرَها كلّ مؤمن في نفسه، فإنها تُفْسِحُ مضايق الدنيا»(٢).

سَـنَظَلُّ في جَبَـلِ الرُّمـاةِ وخلفنَـا   صَـوتُ النَّبِـيِّ يُهُزُّنَـا: لا تَبْرَحُـوا

---

(١) شرح الزاد للشنقيطي (١١/ ٣٤٨).

(٢) تفسير ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ١٩٤).

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾

وَرُبَّ بــاكٍ فَــوات حاجَتِــه ... وَفي الفَــواتِ النَجــاةُ مِــن عَطَبِــه

إنّ المؤمن راض مسلّم لأمر ربه تعالى، ليقينه بعلمه وحكمته ولطفه ورفقه ورحمته، وأنّ ما يختاره مولاه له خير مما يختاره هو لنفسه، فهو أرحم به من نفسه ومن والديه له، فهو راض سعيد بتدبير ربه واختياره مهما كان حاله الظاهر بائسًا، فاختيار الله تعالى لعبده خير من اختيار العبد لنفسه، فهو أعلم وأرحم وأحكم وألطف وأرفق به من نفسه، فعلام يتبرّم العبد بفعل مولاه.

وتدبر مرارًا قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [البَقَرَة: ٢١٦]، ولاحظ كيف وصف الله تعالى الأمرَ الذي كَرِهَتْه بعض النفوس بالخير لها وهي لا تعلم، وكيف وصف الأمر الذي أحبته بالشرّ لها، فلم يذكر أن غيره خير منه ونحو ذلك، بل وصفه بالشرّ، مع أنها ـ لجهلها بالعاقبه ـ تُحبّه! فإنها لجهلها تحب ما فيه حتفها وهلاكها، وتكره ما فيه نجاتها وفلاحها.

ثم قف كثيرًا عند خاتمة الآية وسلّم لربك كلَّ أمرك: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [البَقَرَة: ٢١٦]، فعِلْمُ الله كامل تامّ مستغرق لكل أمرك ماضيه وحاضره ومستقبله، ومحيطٌ بكل تفاصيله، ويعلم كل ما يكتنف أمرك من أمور أخرى تغيّر حقيقته أو مساره، ففوّض أمرك إليه، وسلّمه له، وارض به كل الرضا، واعلم أنه لا يَخيبُ مع ربه مَن هذا دِينُ قلبه.

ومن عرف حقيقة الدنيا والآخرة هانت نفسه لله تعالى، وقرّت عينه به، واكتفى به عمّا سواه، ولم يلتفت لِما فاته من حطام الدنيا ما دام دينُه مُعافى، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مكثت سنة أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية. فما أستطيع أن أسأله هيبة له.. الحديث وفيه: فقلت[١]: يا رسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت رسول الله، فقال: «**أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟**»[٢].

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من الجهل أن يخفى على الإنسان مراد التكليف، فإنه موضوع على عكس الأغراض، فينبغي للعاقل أن يأنس بانعكاس الأغراض، فإن دعا وسأل بلوغ غرض؛ تعبّدَ الله بالدعاء، فإن أُعطي مراده شكر، وإن لم ينل مراده فلا ينبغي أن يلحّ في الطلب؛ لأن الدنيا ليست لبلوغ الأغراض، وليقل لنفسه: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البَقَرَة: ٢١٦]، ومن أعظم الجهل أن يمتعض في باطنه لانعكاس أغراضه، وربما اعترض في الباطن، أو ربما قال: حصول غرضي لا يضر، ودعائي لم يستجب. وهذا كله دليل على جهله وقلة إيمانه وتسليمه للحكمة.

ومن الذي حصل له غرض ثم لم يُكدّر؟! هذا آدم، طاب عيشه في الجنة، وأخرج منها، ونوح سأل في ابنه فلم يعط مراده، والخليل ابتلي بالنار، وإسحاق

---

(١) القائل هنا هو عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) البخاري، الفتح ٨ (٤٩١٣) واللفظ له، مسلم (١٤٧٩).

بالذبح(١) ويعقوب بفقد الولد، ويوسف بمجاهدة الهوى، وأيوب بالبلاء، وداود وسليمان بالفتنة، وجميع الأنبياء على هذا. وأما ما لقي نبيُّنا محمد ﷺ

---

(١) الصواب وعليه الأكثرون أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام، وآيات الكتاب بهذا شاهدة. قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مسألة تعيين الذبيح: «النزاع فيها مشهور، لكن الذي يجب القطع به أنه إسماعيل، وهذا الذي عليه الكتاب والسنة والدلائل المشهورة، وهو الذي تدل عليه التوراة التي بأيدي أهل الكتاب.. ومما يدل على أنه إسماعيل: قصة الذبيح المذكورة في سورة الصافات. قال تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ١٠١﴾ [الصَّافَّات: ١٠١]، وقد انطوت البشارة على ثلاث: على أن الولد غلام ذكر، وأنه يبلغ الحلم، وأنه يكون حليمًا. وأي حلم أعظم من حلمه حين عرض عليه أبوه الذبح فقال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾ [الصَّافَّات: ١٠٢] ؟

وقيل: لم ينعت الله الأنبياء بأقلّ من الحلم، وذلك لعزّة وجوده، ولقد نعت إبراهيم به في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ١١٤﴾ [التَّوۡبَة: ١١٤]، ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ٧٥﴾ [هُود: ٧٥] لأن الحادثة شهدت بحلمهما: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾ [الصَّافَّات: ١٠٢] -إلى قوله- ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ١٠٧﴾ [الصَّافَّات: ١٠٧]. فهذه القصة تدل على أنه إسماعيل من وجوه:

أحدها: أنه بشره بالذبيح، وذكر قصته أوّلًا، فلما استوفى ذلك قال: ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٢ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَ﴾ [الصَّافَّات: ١١٢ - ١١٣] ، فبيّن أنهما بشارتان؛ بشارة بالذبيح، وبشارة ثانية بإسحاق، وهذا بيّن.

الثاني: أنه لم يذكر قصة الذبيح في القرآن إلا في هذا الموضع، وفي سائر المواضع يذكر البشارة بإسحاق خاصة، كما في سورة هود من قوله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا

=

=
بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هُود: ٧١]، فلو كان الذبيح إسحاق لكان خُلفًا للوعد في يعقوب.

الوجه الثالث: أنه ذكر في الذبيح أنه غلام حليم، ولما ذكر البشارة بإسحاق ذكر البشارة بغلام عليم في غير هذا الموضع.

والتخصيص لا بد له من حكمة، وهذا مما يقوّي اقتران الوصفين، والحلم هو مناسب للصبر الذي هو خُلُق الذبيح. وإسماعيل وُصف بالصبر في قوله تعالى: ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنبياء: ٨٥]، وهذا أيضًا وجه ثالث فإنه قال في الذبيح: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصَّافَّات: ١٠٢]، وقد وصف الله إسماعيل أنه من الصابرين، ووصف الله تعالى إسماعيل أيضًا بصدق الوعد في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾ [مَرْيَم: ٥٤] لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فوفّى به.

الوجه الرابع: أن البشارة بإسحاق كانت معجزة؛ لأن العجوز عقيم، ولهذا قال الخليل عليه السلام: ﴿قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [الحِجر: ٥٤]، وقالت امرأته: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًا﴾ [هود: ٧٢]، وقد سبق أن البشارة بإسحاق في حال الكبر، وكانت البشارة مشتركة بين إبراهيم وامرأته. وأما البشارة بالذبيح فكانت لإبراهيم عليه السلام، وامتُحن بذبحه دون الأم المُبشّرة به.

ومما يدل على أن الذبيح ليس هو إسحاق أن الله تعالى قال: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هُود: ٧١] فكيف يأمر بعد ذلك بذبحه؟ والبشارة بيعقوب تقتضي أن إسحاق يعيش ويولد له يعقوب. ولا خلاف بين الناس أن قصة الذبيح كانت قبل ولادة يعقوب، بل يعقوب إنما ولد بعد موت إبراهيم عليه السلام، وقصة الذبيح كانت في حياة إبراهيم بلا ريب.
=

=

ومما يدل على ذلك أن قصة الذبيح كانت بمكة، والنبي ﷺ لـما فتح مكة كان قرنا الكبش في الكعبة، فقال النبي ﷺ للسادن: «**إني آمرك أن تُخمّر قرني الكبش، فإنه لا ينبغي أن يكون في القبلة ما يُلهي المصلي**» [قلت: رواه أبو داود (٢٠٣٠) بنحوه، وصححه الألباني. والخمار: الغطاء. وقد احترق القرنان حينما أحرق الحجاج الكعبة الشريفة ـ بلا قصد، وإن كان لا يخلو من تهوّر وتفريط ونقصٍ لتعظيم شعائر الله تعالى ـ برميها بالمنجنيق الملتهب نارًا، حينما كان ابن الزبير رضي الله عنهما متحصّنًا منه في مسجد الكعبة.] ولهذا جُعلت مِنى محلًّا للنسك من عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وهما اللذان بنيا البيت بنص القرآن. ولم ينقل أحد أن إسحاق ذهب إلى مكة لا من أهل الكتاب ولا غيرهم، لكن بعض المؤمنين من أهل الكتاب يزعمون أن قصة الذبح كانت بالشام فهذا افتراء؛ فإن هذا لو كان ببعض جبال الشام لعُرف ذلك». مجموع الفتاوى (٤ / ٣٣١- ٣٣٥) مختصرًا.

وتأمل صفة الحلم فهو في الأصل ذاتي غريزي لمن فضّله الله بذلك، أما العلم فمكتسب خلا علوم الفطرة، ومهمة العلم تزكية أخلاق القلب، والحليم بطبيعته زكي القلب من جهة الحلم، والغاية أكرم من الوسيلة إن استوتا، أما ما زاد كالعلم بالله تعالى وشرعه فلا يُدرك ولا يقارب فضلًا وكرامة، ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ١٠٥﴾ [البَقَرَة: ١٠٥]، ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٥]، والموفق من ألحَّ على ربه بتكريمه بالعلم والحلم. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والناس هاهنا أربعة أقسام فخيارهم من أوتي الحلم والعلم، وشرارهم من عدمهما، الثالث من أوتي علمًا، بلا حلم، الرابع عكسه، فالحلم زينة العلم وبهاؤه وجماله وضده الطيش والعجلة والحدة والتسرع وعدم الثبات فالحليم لا يستفزه البدوات، ولا يستخفه الذين لا يعلمون، ولا يقلقه أهل الطيش والخفة والجهل، بل هو وقور ثابت ذو أناة يملك نفسه عند ورود أوائل الأمور عليه، ولا تملكه أوائلها وملاحظته للعواقب تمنعه من أن تستخفه دواعي الغضب والشهوة فبالعلم تنكشف له

=

من الجوع والأذى وكدر العيش فمعلوم، فالدنيا وضعت للبلاء، فينبغي للعاقل أن يوطّن نفسه على الصبر، وأن يعلم أن ما حصل من المراد فلُطْفٌ[١]، وما لم يحصل فعلى أصل الخلق والجبلّة للدنيا، كما قيل:

طُبِعتْ على كدرٍ وأنت تريدُها صفوًا من الأقذاءِ والأكدَارِ»[٢]

=

مواقع الخير والشر والصلاح والفساد، وبالحلم يتمكن من تثبيت نفسه عند الخير فيؤثره ويصبر عليه وعند الشر فيصبر عنه، فالعلم يعرفه رشده والحلم يثبته عليه، وإذا شئت أن ترى بصيرًا بالخير والشر لا صبر له على هذا ولا عن هذا رأيته، وإذا شئت أن ترى صابرًا على المشاق لا بصيرة له رأيته، وإذا شئت أن ترى من لا صبر له، ولا بصيرة رأيته، وإذا شئت أن ترى بصيرًا صابرًا لم تكد، فإذا رأيته، فقد رأيت إمام هدى حقًا فاستمسك بغرزه والوقار والسكينة، ثمرة الحلم ونتيجته». إعلام الموقعين عن رب العالمين (٦/١٠٧).

(١) أي أن العبد إذا أعطاه الله مراده فإن هذا على خلاف سنّة الدنيا المُكَدّرة، إنما هو محض كرم الله تعالى ولطفه به.

(٢) صيد الخاطر (٣٩٩) والبيت الذي ختم به خاطرته مأخوذ من قصيدة أبي الحَسَن التِّهامِي في رثاء ابنه، وهي من الكامِل، مع التحفظ على قوله: «حكم المنيّة» فالحكم لله لا لمخلوقاته، وقد يكون قصد بذلك حكمُ الله تعالى بأن جعل سُنّته أن المنيّة - وهي الموت - جارية على جميع الناس، فبهذا التوجيه يكون البيت صالحًا. ومنها:

حُكْمُ المَنِيَّةِ فِي البَرِيَّةِ جارِ ما هَذهِ الدُّنْيا بدار قَرارِ
بَيْنا يُرى الإنْسانُ فِيها مُخْبِرًا حَتّى يُرى خَبَرًا مِنَ الأخْبارِ

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الآية: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [البَقَرَةِ: ٢١٦]: «في هذه الآية عدة حكم وأسرار ومصالح للعبد، فان العبد إذا علم أن المكروه قد يأتي بالمحبوب، والمحبوب قد يأتي بالمكروه؛ لم يأمن أن توافيه المضرة من جانب المسرة، ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة؛ لعدم علمه بالعواقب. فان الله يعلم منها مالا يعلمه العبد. وأوجب له ذلك أمورًا منها: أنه لا أنفع له من امتثال الأمر وإن شقّ عليه في الابتداء، لأن عواقبه كلها خيرات ومسرات ولذات وأفراح، وإن كرهته نفسه فهو خير لها وأنفع. وكذلك لا شيء أضر عليه من ارتكاب النهى وإن هويته نفسه ومالت إليه، وأنّ عواقبه كلها آلام، وأحزان، وشرور، ومصائب.

وخاصَّةُ العقلِ تحمّل الألم اليسير لما يعقبه من اللذة العظيمة والخير الكثير، واجتناب اللذة اليسيرة لما يعقبها من الألم العظيم والشر الطويل، فنظرُ الجاهل لا يجاوز المبادئ إلى غاياتها، والعاقل الكيّس دائمًا ينظر إلى الغايات من وراء ستور مبادئها، فيرى ما وراء تلك الستور من الغايات المحمودة والمذمومة. فيرى المناهي كطعام لذيذ قد خُلِطَ فيه سمّ قاتل، فكلّما دعته لذته إلى تناوله نهاه ما فيه من السمّ، ويرى الأوامر كدواء كريه المذاق مُفضٍ إلى العافية والشفاء، وكلما نهاه كراهة مذاقه عن تناوله أَمَرَهُ نفعُه بالتناول. ولكن هذا يحتاج إلى فضل علم تدرك به الغايات من مبادئها، وقوة صبر يوطّن به نفسه على تحمل مشقة الطريق لما يؤول إليه عند الغاية.

فإذا فقد اليقين والصبر تعذر عليه ذلك، وإذا قوي يقينه وصبره هان عليه كل مشقة يتحملها في طلب الخير الدائم واللذة الدائمة.

ومن أسرار هذه الآية: أنها تقتضي من العبد التفويض إلى من يعلم عواقب الأمور، والرضا بما يختاره له ويقضيه له، لما يرجو فيه من حسن العاقبة.

ومنها: أنه لا يقترح على ربه ولا يختار عليه ولا يسأله ما ليس له به علم(١)، فلعل مضرته وهلاكه فيه وهو لا يعلم، فلا يختار على ربه شيئًا، بل يسأله حسن الاختيار له، وأن يرضيه بما يختاره، فلا أنفع له من ذلك.

ومنها: أنه إذا فوض إلى ربه ورضي بما يختاره له أمدّه فيما يختاره له بالقوة عليه والعزيمة والصبر، وصرَف عنه الآفات التي هي عرضة اختيار العبد لنفسه، وأراه من حسن عواقب اختياره له ما لم يكن ليصل إلى بعضه بما يختاره هو لنفسه(٢).

ومنها: أنه يريحه من الأفكار المُتعبة في أنواع الاختيارات، ويفرّغ قلبه من التقديرات والتدبيرات التي يصعد منها في عَقَبَة وينزل في أخرى، ومع هذا فلا

---

(١) لا يمنع هذا من دعاء ربه ما فيه صلاحه وقيامه من جلب الخير الخاص ودفع ضده، فالعبد على الدوام يسأل ربه كل حاجته، فما هو إلا به، وأنّا له إلّا عليه، قال سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

(٢) وتظهر هذه المعاني الجميلة في دعاء الاستخارة الذي كان رسول الله ﷺ يعلمه أصحابه كما يعلمهم السورة من القرآن.

خروج له عما قدّر عليه، فلو رضي باختيار الله أصابه القدر وهو محمود مشكور ملطوف به فيه، وإلا جرى عليه القدر وهو مذموم غير ملطوف به فيه، لأنه مع اختياره لنفسه.

ومتى صح تفويضه ورضاه اكتنفه في المقدور العطف عليه واللطف به، فيصير بين عطفه[(١)] ولطفه، فعطفه يقيه ما يحذره ولطفه يهوّن عليه ما قدّره. وإذا نفذ القدر في العبد كان من أعظم أسباب نفوذه تحيّله في رده، فلا أنفع له من الاستسلام وإلقاء نفسه بين يدي ربّه»[(٢)].

وتأمل دعاء الاستخارة تجد فيه راحة الصدر وقرة العين ورسوخ الثقة وثلج اليقين، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يُعلّم أصحابه الاستخارة في الأمور كلها كما يعلّم السورة من القرآن، يقول: **«إذا همّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللّٰهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللّٰهم فإن كنت تعلم هذا الأمر ـ ثم يسمّيه بعينه ـ خيرًا لي في عاجل أمري وآجله** ـ أو قال: ـ **في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ـ فاقدُره لي، ويسّره لي، ثم بارك لي فيه، اللّٰهم إن كنت**

---

(١) العطف هنا هو الرحمة والحنان.

(٢) الفوائد (١/١٣٦-١٣٨) مختصرًا.

تعلم أنه شرٌّ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري أو قال: في عاجل أمري وآجله فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رَضِّني به»[(١)].

ومن الرضا والتفويض الإكثار من الحوقلة وما شاء الله، لأن التوكل موصل للرضا. ومن أدامهما كُوفِئ بنخلِ الجنة وقوّةِ الدنيا. قال الشيخ حماد الأنصاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قول ما شاء الله، لا حول ولا قوّة إلا بالله. قالها الإمام مالك لمن سأله كيف حصلت هذا العلم؟ وهذا الدعاء فيه شبه إجماع من أهل العلم أن من افتتح به الدرس يُفتح عليه»[(٢)].

ومن صيد خواطر ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قد عقد فصلًا سمّاه: الندم على ما فات، قال فيه: «تأملت أحوال الفضلاء، فوجدتهم ـ في الأغلب ـ قد بُخسوا من حظوظ الدنيا، ورأيت الدنيا ـ غالبًا ـ في أيدي أهل النقائص.

فنظرت في الفضلاء، فإذا هم يتأسّفون على ما فاتهم ممّا ناله أولو النقص، وربما تقطّع بعضهم أسفًا على ذلك. فخاطبت بعض المتأسّفين فقلت له: ويحك تدبّر أمرَكَ، فإنك غالط من وجوه:

أحدها: أنه إن كانت لك همّة في طلب الدنيا، فاجتهدْ في طلبها تربَحْ التأسّفَ على فوتها، فإن قعودك متأسفًا على ما ناله غيرك، مع قصور اجتهادك غاية العجز.

(١) البخاري، الفتح ١٣ (٧٣٩٠).
(٢) المجموع (ص: ٤٨٢).

والثاني: أن الدنيا إنما تُراد لتُعبَر لا لتُعمَر، وهذا هو الذي يدلّك عليه علمُك ويبلغه فهمك. وما يناله أهل النقص من فضولها يؤذي أبدانهم وأديانهم.

فإذا عرفت ذلك ثم تأسفت على فقدِ ما فقدُه أصلحُ لك، وكان تأسُّفُك عقوبةً لتأسُّفِكَ على ما تعلم المصلحة في بُعْدِه، فاقنع بذلك عذابًا عاجلًا، إن سلمتَ من العذاب الآجل.

والثالث: أنك قد علمت بخس حظ الآدمي في الجملة من مطاعم الدنيا ولذاتها، بالإضافة إلى الحيوان البهيم، لأنه ينال ذلك أكثر مقدارًا مع أمن، وأنت تناله مع خوف وقلّة مقدار. فإذا ضوعف حظك من ذلك كان ذلك لاحقًا بالحيوان البهيم من جهة أنه يشغله ذلك عن تحصيل الفضائل[(١)].

وتخفيف المؤن يحث صاحبه على نيل المراتب. فإذا آثرت ـ مع قلة الفضول ـ الفضول، عدت على ما علمت بالإزراء، فشُتّت علمك، ودُللت على اختلاط رأيك»[(٢)].

فَلا تَجزَع وَإِن أَعسَرتَ يَومًا ... فَقَد أَيسَرتَ في الزَمَنِ الطَويلِ

وَلا تَيأَس فَإِنَّ اليَأسَ كُفرٌ ... لَعَلَّ اللهَ يُغني عَن قَليلِ

---

(١) أي: لا يكن حظك كحظ الحيوان الذي غاية همته طعامه ولذته، لأنك إن زدت في همتك لتحصيل ما حصّله كنت شبيهًا له فيما يُحصّله وفيما حُرِمَ منه من فضائل الدين والعقل، وحُرِمْتَ لذلك ما أُعطيه أهلُ الفضائل مع نقص لذائذ دنياهم الحسية.

(٢) صيد الخاطر (١ / ٥).

وَلا تَظـــنُن بِرَبِّـــكَ ظَـــنَّ سَـــوءٍ فَـــــإِنَّ اللهَ أَولى بِالجَميـــــــلِ

وعلى الداعي تصديق الوعد بالإجابة، فلا يحمل همّها ما دام مستجمعًا أسباب قبولها، عالمًا معاني إجابتها على ما يصلح للعبد؛ بالتعجيل، أو التأجيل، أو كفاية الشرّ بقدرِها، أو ادّخارها حسنات مكنوزة ليوم يقوم الإشهاد. فقد صحّ عن النبي ﷺ أنه قال: **«ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم؛ إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إمّا أن تُعجّل له دعوتُه، وإما أن يدّخرها له في الآخرة، وإما أن يُصرف عنه من السوء مثلها»**، قالوا: إذا نُكثر. قال: **«الله أكثر»**[(١)]. وينبغي لمن وقع في شدّة ثم دعا ألا يختلج في قلبه أمرٌ من تأخير الإجابة أو عدمها. لأنّ الذي إليه أن يدعو، والمدعوُّ مالك حكيم، فإن لم يُجِبْ فَعَلَ ما يشاء في ملكه، وإن أخَّرَ فَعَلَ بمقتضى حكمته. فالمعترض عليه في سرّه خارج عن صفة عبد، مزاحم بمرتبة مستحقّ.

ثم ليعلم أنّ اختيار الله عز وجل له خير من اختياره لنفسه. فربما سأل سيلًا سَالَ به! وروي أنّ أحد السلف كان يسأل الله عز وجل أن يرزقه الجهاد فهتف به هاتف[(٢)]:«إنك أن غزوتَ أُسرتَ، وإن أُسِرْت تنصّرت».

---

(١) أحمد (١٠٧٤٩) وجود سنده محققوه. والبخاري في الأدب المفرد (٧١٠)، والحاكم (١/ ٤٩٣) وقال: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي. وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: حسن صحيح.

(٢) الهاتف: صوت غير مُشاهد، وقد يكون في النفس وقد يكون في الخارج، وقد يكون ملَكًا وقد يكون من الجانّ، ولا يؤخذ منه يقين، لكنه يستفيد منه من كان عليمًا خبيرًا في =

=

ذلك، غير متهالكٍ على تَطَلُّبِ الكرامات، ولا منخدعٍ بخداع ومكر الشياطين، وقد أشار شيخ الإسلام لذلك في كلامه عن أنواع الوحي في الكيلانية (١/ ٥٠) ومجموع الفتاوى (١٢/٣٩٨). قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الوحي هو الإعلام السريع الخفي: إمّا في اليقظة، وإمّا في المنام. فإن رؤيا الأنبياء وحيٌ، ورؤيا المؤمنين جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة، كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ في الصحاح. وقال عبادة بن الصامت - ويروى مرفوعًا -: «رؤيا المؤمن كلامٌ يكلّمُ به الربُّ عبدَهُ في المنام». وكذلك في اليقظة، فقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: **«قد كان في الأمم قبلكم مُحَدَّثُون، فإن يكن في أمتي فعمر»**، وفي رواية في الصحيح: **«مُكَلَّمُون»**. وقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي﴾ [المَائدة: ١١١]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القَصَص: ٧]. بل قد قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [فُصّلَت: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النَّحل: ٦٨]. فهذا الوحي يكون لغير الأنبياء، ويكون يقظةً ومنامًا.

وقد يكون بصوتِ هَاتِفٍ، يكونُ الصوتُ في نفس الإنسان ليس خارجًا عن نفسه يقظة ومنامًا، كما قد يكون النُّور الذي يراه أيضًا في نفسه. فهذه الدرجة من الوحي التي تكون في نفسه مِن غيرِ أن يسمعَ صوتَ مَلَكٍ في أدنى المراتب وآخرها، وهي أولها باعتبار السالك». أهـ. وانظر تفصيل الشيخ في المكاشفات والمشاهدات في مجموع الفتاوى (١١ / ٦٣٦) في كلام متين مركّز.

ومن جميل الأخبار في هواتف الجانّ ما ذكره الشيخ في الصارم المسلول (١ / ١٥٦) في بيان انتقام بعض صالحي الجن من جنّي فاجر قد سبَّ رسول الله ﷺ، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقد ذكروا أنّ الجن الذين آمنوا به كانت تقصد من سَبَّهُ من الجنِّ الكفّار فتقتله، قبل الهجرة وقبل الإذن في القتال لها وللإنس. فيُقِرّها على ذلك، ويشكر ذلك لها. قال سعيد بن

=

=
يحيى الأموي في مغازيه: حدثني محمد بن سعيد ـ يعني عمه ـ قال: قال محمد بن المنكدر: إنّه ذكر له عن ابن عباس أنّه قال: هَتَفَ هاتفٌ من الجِنّ على جبل أبي قبيس فقال:

قَبَّحَ اللهُ رأيكم آلَ فِهْرٍ ... ما أدَقَّ العقولَ والأحلام
حينَ تُغْضِي لِمَنْ يَعِيبُ عليها ... دينَ آبائهَا الحُمَاةَ الكرام
حالفَ الجنّ جِنَّ بُصْرَى عليكُم ... ورجالَ النخيلِ والآطام
تُوشِكُ الخيلُ أنْ تروْهَا نهارًا ... تقتلُ القومَ في بِلادِ التّهَام
هل كريمٌ منكمُ لهُ نَفْسُ حُرٍّ ... ماجدُ الجَدَّتَينِ والأعمام
ضاربًا ضربةً تكونُ نَكَالًا ... ورواحًا من كُرْبَةٍ واغتمام

قال ابن عباس: فأصبحَ هذا الشعر حديثًا لأهلِ مكة يتناشدونه بينهم. فقال رسول الله ﷺ: «**هذا شيطانٌ يُكَلّمُ الناس في الأوثان، يقال له مِسْعَرٌ، واللهُ مُخْزِيه**». فمكثوا ثلاثة أيام، فإذا هاتفٌ يهتفُ على الجبل يقول:

نحنُ قَتَلْنَا في ثلاثٍ مِسْعَرًا ... إذْ سَفَّهَ الحَقَّ وَسَنَّ المُنْكَرَا
قَنَّعْتُهُ سَيْفًا حُسَامًا مُبَتَّرًا ... بِشَتْمِهِ نَبِيَّنَا المُطَهَّرَا

فقال رسول الله ﷺ: «**هذا عفريتٌ من الجنِّ اسمه سمحج. آمن بي، سمَّيتُهُ عبدَ الله. أخبرَنِي أنّه في طلَبِهِ منذ ثلاثة أيام**». فقال عليٌّ: جزاهُ الله خيرًا يا رسول الله. وانظره أيضًا في الدلائل لأبي نعيم (١/ ٣٠) كما ذكره الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٢/ ٣٤٨).

والشيء بالشيء يذكر؛ فمن جميل الهواتف الجنّية ما روته أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما فيما نقله السهيلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الروض الأنف (٤/١٨٥): «قال ابن إسحاق: فَحُدّثْت عَنْ أسماءَ بِنت أبِي بكرٍ أنّها قالت: لمّا خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وأبُو بَكرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أتانا نَفَرٌ مِن
=

=

قُرَيْشٍ، فِيهِمْ أبُو جهلِ بن هِشام، فَوَقَفُوا على باب أبي بكر، فَخَرَجْتُ إليهم؛ فقالوا: أينَ أبُوك يا بِنْتَ أبِي بَكْرٍ؟ قالَتْ: قُلْت: لا أدْرِي واللهِ أيْنَ أبِي. قالَتْ: فَرَفَعَ أبُو جَهْلٍ يَدَهُ، وكانَ فاحِشًا خَبِيثًا، فَلَطَمَ خدّى لطمة طرح منها قرطي. قالَت: ثُمّ انصَرَفُوا.

فَمَكَثْنا ثَلاثَ لَيالٍ، وما نَدرِي أين وجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، حَتّى أقْبَلَ رَجُلٌ مِن الجِنّ مِن أسْفَلِ مَكّةَ، يَتَغَنّى بِأبياتٍ مِن شَعْرِ غِناءِ العَرَبِ، وإنّ النّاسَ لَيَتْبَعُونَهُ، يَسْمَعُونَ صَوْتَهُ وما يَرَوْنَهُ، حَتّى خَرَجَ مِن أعلَى مَكّةَ وهُوَ يَقُولُ:

جَزى اللهُ رَبّ النّاسِ خَيْرَ جَزائِهِ ... رَفِيقَيْنِ حَلّا خَيْمَتَيْ أُمّ مَعْبَدِ

هُما نَزَلا بِالبِرّ ثُمّ تَرَوّحا ... فَأفْلَحَ مَن أمْسى رَفِيقَ مُحَمّدِ

لِيَهْنِ بَنِي كَعْبٍ مَكانُ فَتاتِهِمْ ... ومقعدُها للمؤمنين بمَرْصَدِ

فَلَمّا سَمِعْنا قَوْلَهُ عَرَفْنا حَيْثُ وجه رسول الله ﷺ، وأنّ وجْهَهُ إلى المَدِينَةِ».

وسئل ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الجان المؤمنين: هل هم مخاطبون بفروع الإسلام كالصوم والصلاة وغير ذلك من العبادات؟ أو هم مخاطبون بنفس التصديق لا غير؟

فأجاب: لا ريب أنهم مأمورون بأعمال زائدة على التصديق، ومنهيون عن أعمال غير التكذيب. فهم مأمورون بالأصول والفروع بحسبهم، فإنهم ليسوا مماثلي الإنس في الحدّ والحقيقة، فلا يكون ما أمروا به ونهوا عنه مساويًا لما على الإنس في الحدّ، لكنهم مشاركون الإنس في جنس التكليف بالأمر والنهي، والتحليل والتحريم. وهذا ما لم أعلم فيه نزاعًا بين المسلمين.

وكذلك لم يتنازعوا أن أهل الكفر والفسوق والعصيان منهم يستحقون لعذاب النار كما يدخلها من الآدميين؛ لكن تنازعوا في أهل الإيمان منهم؛ فذهب الجمهور من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وأبي يوسف ومحمد إلى أنهم يدخلون الجنة، وروي في حديث رواه الطبراني: **«أنهم يكونون في رَبَض الجنة، يراهم الإنس من حيث لا يرونهم»**.

=

=

وقال العلامة ابن مفلح في كتاب الفروع: «الجنّ مكلفون في الجملة إجماعًا يدخل كافرهم النار إجماعًا، ويدخل مؤمنهم الجنة وفاقًا لمالك والشافعي رحمهم الله، لا أنهم يصيرون ترابًا كالبهائم، وأن ثواب مؤمنهم النجاة من النار خلافًا لأبي حنيفة والليث بن سعد ومن وافقهما». لوامع الأنوار البهية (٢٢٢٢-٢٢٣) وانظر: شرح النووي على مسلم (٤١٦٩).

وقال ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قد يظهر الجن لبعض الناس، والجن ثقل مستقل غير الإنس، والمشهور عند العلماء: أنهم أولاد الشيطان، كما أن آدم أولاده الأنس، فالشيطان الذي هو الجان، الذي امتنع من السجود لآدم هو أبو الجن، فمؤمنهم طيب، وكافرهم مثل كافر الإنس خبيث، فيهم الفاسق، وفيهم الكافر، وفيهم المؤمن الطيب، وفيهم العاصي، فهم أقسام مثل الإنس، وقد يتصل بعض الناس بهم، وقد يكلمهم ويكلمونه، قد يراهم بعض الناس، لكن الأغلب أنهم لا يرون، كما قال جل وعلا: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧] يعني يروننا من حيث لا نراهم، وليس معنى أننا لا نراهم قد نراهم، لكن من حيث لا نراهم قد يروننا، يروننا فيها ما نراهم فيها، لكن الجني قد يبدو لبعض الناس في الصحراء وفي البيوت، قد يخاطب، وقد حدثنا جماعة من العلماء أنه وقع عليه كثير من هذا؛ لأن بعض الجن حضروا مجالس العلم، وسألوا عن بعض العلم وإن كانوا لا يرون، وبعض الناس قد يراهم ويتمثلون في الصحراء وفي غير الصحراء.

لكن لا تجوز عبادتهم من دون الله، ولا الاستغاثة بهم، ولا الاستعانة بهم على إضرار المسلمين، ولا سؤالهم عن علم الغيب، بل يجب أن يحذروا». ضمن جوابه على سؤال منشور في موقعه رَحِمَهُ ٱللَّهُ نصه: هل يظهر الجن لبعض الناس، ويعقد صداقات معهم، وهل الجني هو الشيطان؟

فإذا سلّم العبد تحكيمًا لحكمته وحكمه، وأيقن أن الكل ملكه؛ طاب قلبه، قُضيت حاجته أو لم تقض. فإذا رأى يوم القيامة أن ما أُجيب فيه قد ذهب، وما لم يُجب فيه قد بقي ثوابه، قال: ليتك لم تجب لي دعوة قط. فافهم هذه الأشياء، وسلّم قلبك من أن يختلج فيه ريب أو استعجال(١).

فالحمد لله العليم القدير الحكيم اللطيف البر الرفيق، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [البَقَرَة: ٢١٦].

ومما يعين على الرضا والتسليم؛ اليقين بأن تدبير الله للعبد أجدى وأنفع من تدبير العبد لنفسه، وأن العاقبة غيب لا يعلمه إلا مولاه، فخير له أن يرضى بتدبير من هو أرحم به من نفسه، وتدبر راشدًا قصة الخضر مع موسى عليهما السلام في السفينة والغلام والجدار، وما تحتها من معان عظيمة في الرضا والتسليم والحمد والشكر لله رب العالمين، وهي قصة تختصر كثيرًا من معاني القدر الجميلة، فتارة يُبتلى المرء بمصيبة تكون دافعة لمصيبة أشدّ وأشق وأعظم كأصحاب السفينة، فلولا كسرها لصودرت ونهبت، وربما قُتل أصحابها، وتارة يُبتلى العبدُ بمصيبة - ظاهرًا - لكنها في الحقيقة هي الباب الذي يؤدي إلى منح ونعم وألطاف ودفع بأس كقتل الغلام الذي لو بقي لأرهق والديه بكفره وطغيانه، ولكن رحيله كان رحمة به أولًا، ثم بوالديه ثانيًا لأنهم عُوضوا عنه بذرية طيبة صالحة حتى ورد أنها كانت بنتًا فتزوجها نبيٌّ فولدت له نبيًّا! ولو

---

(١) صيد الخاطر (١ / ٥١) بتصرف يسير.

بقي أخوها لاختلف الحال، وثالثًا رحمة بالذرية الجديدة، فالحمد لله على كل حال في حكمته ولطفه ورحمته وعلمه وتدبيره، وله الحكمة البالغة واللطف التام والعلم الشامل والمنّة الكاملة على كل خلقه.

وتارة يلطف الله تعالى بعبده وينعم ويرفق ويرزق ويكرم ويدفع بلاءات عديدة بدون مسّ عبده بمصيبة من تلك الجهة كجدار الغلامين، وهذا هو الأكثر والأغلب والأعمّ من فعل الله تعالى بعباده، ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ [الشُّورَى: ١٩]، فهم محوطون بنعم لا يحصونها ولا ينتبهون لها ولا يعلمونها مع أنهم منغمسون فيها ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [إِبۡرَاهِيم: ٣٤][(١)]، فالحمد لله على كل حال في حكمته ولطفه ورحمته وعلمه وتدبيره، وله الحكمة البالغة واللطف التام والعلم الشامل والمنّة الكاملة على كل خلقه.

وسنذكر ما تيسر من أخبار وفوائد تلك القصة الهائلة مع شرح الإمام البغوي لها في تفسيره القيم، قال في قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ٧١﴾ [الكَهۡف: ٧١]، قال: ﴿فَٱنطَلَقَا﴾ يمشيان على الساحل يطلبان سفينة يركبانها، فوجدا سفينة فركباها، وعن أبي بن كعب عن النبي ﷺ: **«مرّت بهم سفينة فكلّموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نَوْلٍ[(٢)] فلما لججوا البحر أخذ الخضر**

---

(١) وسيأتي تفصيلها في كتاب الشكر بإذن الله تعالى.

(٢) أي: مجّانًا بلا أجرة.

فأمّا فخرق لوحًا من السفينة»(١)، فذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ قال له موسى: ﴿أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ٧١﴾ أي: منكرًا، والإمرُ في كلام العرب: الداهية، وأصله: كل شيء شديد كثير. وقال القتيبي: ﴿إِمۡرٗا ٧١﴾ أي: عجبًا. وروي أن الخضر لما خرق السفينة لم يدخلها الماء. وروي أن موسى لما رأى ذلك أخذ ثوبه فحشى به الخرق.

﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٧٢ قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا ٧٣ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا ٧٤﴾ [الكهف: ٧٢-٧٤]، قال أبي بن كعب عن النبي ﷺ: **«كانت الأولى من موسى نسيانًا، والوسطى شرطًا، والثالثة عمدًا»**(٢). ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا ٧٤﴾ [الكهف: ٧٤] في القصة أنهما خرجا من البحر يمشيان، فمرّا بغلمان يلعبون، فأخذ الخضر غلامًا ظريفًا وضيء الوجه، فأضجعه ثم ذبحه بالسكين. قال السدي: كان أحسنهم وجهًا، وكان وجهه يتوقّد حسنًا. قال ابن عباس: كان غلامًا لم يبلغ الحنث. وهو قول الأكثرين. قال ابن عباس: لم يكن نبي الله يقول: ﴿قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ﴾ إلا وهو صبي لم يبلغ.

---

(١) البخاري (١ / ٢١٨).

(٢) البخاري: (٥ / ٣٢٦)، مسلم (٤ / ١٨٤٧-١٨٥٠).

وعن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الغلام الذي قتله الخَضِرُ طُبِعَ كافرًا، ولو عاش لأرهق أبويه طغيانًا وكفرًا»**[1]. ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ۝٧٤﴾ أي: منكرًا. قال قتادة: النُّكر أعظم من الإمر؛ لأنه حقيقة الهلاك، وفي خرق السفينة كان خوف الهلاك.

قوله عز وجل: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ﴾ [الكَهْف: ٨٠] أي: فعلمنا، ﴿يُرْهِقَهُمَا﴾ يغشيهما ﴿يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۝٨٠﴾ قال سعيد بن جبير: فخشينا أن يحملهما حبه على أن يتابعاه على دينه. ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ [الكَهْف: ٨١] أي: صلاحًا وتقوى ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا ۝٨١﴾، قال قتادة: أي: أوصل للرحم وأبرّ بوالديه. قال الكلبي: أبدلهما الله جارية، فتزوجها نبيّ من الأنبياء، فولدت له نبيًّا فهدى الله على يديه أمة من الأمم.

قال مطرف: فرح به أبواه حين وُلد، وحزنا عليه حين قتل. ولو بقي لكان فيه هلاكهما، فليرض امرؤ بقضاء الله تعالى، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب.

وقال عز وجل: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ۝٨٢﴾ [الكَهْف: ٨٢].[2]

---

(١) مسلم (٢٦٦١).

(٢) تفسير البغوي (٥/ ١٩٠-١٩٤) باختصار.

ومن هذا الباب الجليل قد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ فائدة نفيسة في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [البَقَرَة: ٢١٦] وقوله عز و جل: ﴿فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩﴾ [النِّسَاء: ١٩]، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالآية الأولى في الجهاد الذي هو كمال القوة الغضبية، والثانية في النكاح الذي هو كمال القوة الشهوانية. فالعبد يكره مواجهة عدوه بقوته الغضبية خشية على نفسه منه، وهذا المكروه خير له في معاشه ومعاده، ويحب الموادعة والمتاركة وهذا المحبوب شرّ له في معاشه ومعاده، وكذلك يكره المرأة لوصفٍ من أوصافها وله في إمساكها خير كثير لا يعرفه، ويحب المرأة لوصف من أوصافها وله في إمساكها شرّ كثير لا يعرفه!

فالإنسان كما وصفه به خالقه ظلوم جهول، فلا ينبغي أن يجعل المعيار على ما يضره وينفعه ميله وحبه ونفرته وبغضه، بل المعيار على ذلك ما اختاره الله له بأمره ونهيه.

فأنفع الأشياء له على الإطلاق طاعة ربه بظاهره وباطنه، وأضرّ الأشياء عليه على الإطلاق معصيته بظاهره وباطنه، فاذا قام بطاعته وعبوديته مخلصًا له؛ فكل ما يجري عليه مما يكرهه يكون خيرًا له، وإذا تخلى عن طاعته وعبوديته؛ فكل ما هو فيه من محبوب هو شرّ له.

فمن صحت له معرفة ربه والفقه في أسمائه وصفاته علم يقينًا أن المكروهات التي تصيبه والمحن التي تنزل به فيها ضروب من المصالح

والمنافع التي لا يحصيها علمه ولا فكرته، بل مصلحة العبد فيما يكره أعظم منها فيما يحب. فعامة مصالح النفوس في مكروهاتها، كما أن عامة مضارِّها وأسباب هلكتها في محبوباتها.

فانظر إلى غارس جنة من الجنات خبير بالفلاحة غرس جنة وتعاهدها بالسقي والإصلاح، حتى إذا أثمرت أشجارُها أقبل عليها يُفصِّل أوصالها ويقطع أغصانها لعلمه أنها لو خلّيت على حالها لم تطب ثمرتُها، فيُطَعّمها من شجرة طيّبة الثمرة حتى إذا التحمت بها واتحدت وأعطت ثمرتها أقبل يقلّمها ويقطع أغصانها الضعيفة التي تذهب قوتها، ويذيقها ألم القطع والحديد لمصلحتها وكمالها، لتصلح ثمرتها أن تكون بحضرة الملوك.

ثم لا يدعها ودواعي طبعها من الشرب كل وقت، بل يعطّشها وقتًا ويسقيها وقتًا، ولا يترك الماء عليها دائمًا وإن كان ذلك أنضر لورقها وأسرع لنباتها. ثم يعمد إلى تلك الزينة التي زيّنت بها من الأوراق فيُلقي عنها كثيرًا منها لأن تلك الزينة تحول بين ثمرتها وبين كمال نضجها واستوائها، كما في شجر العنب ونحوه، فهو يقطع أعضاءها بالحديد ويلقي عنها كثيرًا من زينتها وذلك عين مصلحتها، فلو أنها ذات تمييز وإدراك كالحيوان لتوهّمتْ أن ذلك إفساد لها وإضرار بها، وإنما هو عين مصلحتها.

وكذلك الأب الشفيق على ولده، العالم بمصلحته، إذا رأى مصلحته في إخراج الدم الفاسد عنه بَضَعَ جلده وقَطَعَ عروقه وأذاقه الألم الشديد، وإن رأى شفاءه في قطع عضو من أعضائه أبانه عنه، وكان ذلك رحمة به وشفقة عليه. وإن رأى مصلحته في أن يمسك عنه العطاء لم يعطه ولم يوسع عليه؛

لعلمه أن ذلك أكبر الأسباب إلى فساده وهلاكه، وكذلك يمنعه كثيرًا من شهواته حمية له ومصلحة، لا بخلًا عليه.

فأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين وأعلم العالمين الذي هو أرحم بعباده منهم بأنفسهم ومن آبائهم وأمهاتهم إذا أنزل بهم ما يكرهون؛ كان خيرًا لهم من ألا ينزله بهم، نظرًا منه لهم وإحسانا إليهم ولطفًا بهم، ولو مُكّنوا من الاختيار لأنفسهم لعجزوا عن القيام بمصالحهم علمًا وإرادة وعملًا، لكنه سبحانه تولى تدبير أمورهم بموجب علمه وحكمته ورحمته، أحبوا أم كرهوا.

فعرف ذلك الموقنون بأسمائه وصفاته فلم يتهموه في شيء من أحكامه، وخفي ذلك على الجهلة به وبأسمائه وصفاته فنازعوه تدبيره وقدحوا في حكمته ولم ينقادوا لحُكمه، وعارضوا حكمه بعقولهم الفاسدة وآرائهم الباطلة وسياساتهم الجائرة، فلا لربهم عرفوا، ولا لمصالحهم حصّلوا، والله الموفق.

ومتى ظفر العبد بهذه المعرفة سكن في الدنيا قبل الآخرة في جَنّة لا يشبهها فيها إلا نعيم الآخرة، فإنه لا يزال راضيًا عن ربه. والرضا جنة الدنيا ومستراح العارفين، فإنه طيّب النفس بما يُجري عليه من المقادير التي هي عين اختيار الله له، وطمأنينته إلى أحكامه الدينية، وهذا هو الرضا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولًا. وما ذاق طعم الإيمان من لم يحصل له ذلك.

وهذا الرضا هو بحسب معرفته بعدل الله وحكمته ورحمته وحسن اختياره، فكلما كان بذلك أعرف كان به أرضى، فقضاء الرب سبحانه في عبده دائر بين العدل والمصلحة والحكمة والرحمة، لا يخرج عن ذلك البتة، كما قال

في الدعاء المشهور: «**اللَّهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك. أسألك بكل اسم هو لك، سمَّيتَ به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علَّمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك؛ أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همّي، وغمّي. ما قالها أحد قط الا أذهب الله همّه وغمّه، وأبدله مكانه فرحًا**» قالوا: أفلا نتعلّمهنّ يا رسول الله؟ قال: «**بلى، ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن**»[(١)]. والمقصود قوله: «**عدل فيَّ قضاؤك**» وهذا يتناول كل قضاء يقضيه على عبده من عقوبة أو ألم وسبب ذلك، فهو الذي قضى بالسبب وقضى بالمسبّب، وهو عدل في هذا القضاء، وهذا القضاء خير للمؤمن كما قال: «**والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاء الا كان خيرًا له، وليس ذلك إلا للمؤمن**»[(٢)]. فسألت شيخنا[(٣)] هل يدخل في ذلك قضاءُ الذنب؟ فقال:

---

(١) أحمد (٣٧١٢) وضعفه محققوه من جهة الجهالة بأبي سلمة الجهني، وأنه راوٍ آخر غير أبي موسى الجهني. وصححه أحمد شاكر، وكان الأرناؤوط قد صححه في تخريج ابن حبان ثم تراجع عنه هنا، وصححه ابن القيم في إعلام الموقعين (١/ ١٥٠) وصححه الألباني في الصحيحة (١٩٩) وقال: «ليس في الرواة من اسمه موسى الجهني إلا موسى بن عبد الله الجهني، وهو الذي يكنى بأبي سلمة، وهو ثقة من رجال مسلم».

(٢) مسلم (٢٩٩٩).

(٣) أي: ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

نعم بشرطه. فأجمَلَ في لفظةِ بشرطه ما يترتب على الذنب من الآثار المحبوبة لله من التوبة والانكسار والندم والخضوع والذل والبكاء وغير ذلك»(١).

ومن يحـمد الدنيا لعـيشٍ يسرُّهُ … فسـوف وَرَبِّي عـن قليـل يلومُهـا

ولله الأمر من قبل ومن بعد، فإنا نكتب هذا الآن في (شعبان/ ١٤٤١) والعالم أجمع يكتسحه بأمر الله تعالى وباء قاتل يسمونه كورونا (كوفيد ١٩) وقد غصت مشافي بعض الدول بالحالات الحرجة، وفاضت ثلاجات الموتى بعشرات الآلاف من جثث المتوفين حتى وضعوها في صالات التزلج الواسعة، وعطلت الجمعة والجماعة في أكثر بلاد الإسلام، وصار حظرٌ للتجوال على مدار اليوم والليلة. والناس في استغفار وتوبة وجؤار بالدعاء وقنوت وابتهال، فهم في كرب لا يعلمه إلا الله، ولا نعلم كيف ستنجلي، ولكنّا على يقين بأنها خير للمؤمن فهو تكفير وتمحيص وأجر يعقبه إما شهادة أو عافية، والحمد لله على كل حال.

سائلًا المولى الرحيم أن يرفع الوباء والبلاء، وأن ينزل رحمته ولطفه وعافيته إنه سميع قريب مجيب رحيم ودود، ولا يبعد أن يكون لعمالقة شركات الأدوية أو الماسُون يدٌ في ذلك، والله من وراء ذلك كله بتدبيره ومشيئته وقضائه وقدره وعلمه وإحاطته وقدرته ورحمته ولطفه وعزّته واستدراجه.

---

(١) الفوائد (١ / ٩١- ٩٤).

ومهما يكن من أمر فأمر الله كله خير، وكل مصيبة ليست في الدين فخطبها يسير مقارنة بمصائب الأديان. والخيبة كل الخيبة ظنُّ المبتلى في دِينه أنه معافى.. ﴿فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحَشر: ١٩].

وكلُّ كسرٍ فإنّ الدينَ يجبرُه وما لِكَسْرِ قناة الدين جبرانُ

ولله في ذلك حكم باهرة لا نعلمها والله يعلمها وهو العليم الخبير، آمنا وسلمنا وإلى الله أنبنا وإلى الله المصير. ومن حِكَم ذلك أنها قرعت قلوب الناس فدفعتهم للتوبة من الحوبة، وللأوبة من الشوبة، وللاستيقاظ من رقدة الغفلة، والاستعداد ليوم النُّقْلَة.

ومن حكمها التي رأيناها عيانًا بيانًا أنها ردّت جبابرة الملاحدة للتواضع والانكسار والافتقار التام، وحنت جباههم خضوعًا وأذلّت أعناقهم خشوعًا خوفًا من سوء مصير الدنيا، فهم من أحرص الناس على الحياة، لأنها في أعينهم حياة واحدة، وقد جاءهم ما لا قِبَلَ لهم به، وأفزعهم فيروسٌ لا يرى بالعين، ولا ترده الأسلحة ولا المبيدات، فبينا هم يزعمون أنهم أصبحوا - عياذًا بالله تعالى - آلهة تخلق وتدبر؛ إذ هم يصيحون فشلًا، ويبكون حيرة وخيبة، ويهلعون رعبًا ومخافة ويأسًا، والله تعالى يقول: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٠ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ۝٤١ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ۝٤٢ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٤٣ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟

أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ٤٤ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٥﴾ [الأنعام: ٤٠ - ٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ٤ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٥﴾ [الأعراف: ٤ - ٥].

وقال تعالى: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٥٨﴾ [القصص: ٥٨].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٩٦ أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ٩٧ أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ٩٨ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩٩﴾ [الأعراف: ٩٦ - ٩٩].

وتأمل خبر تلك النملة التي قالت لقومها ناصحة: ﴿ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾ [النمل: ١٨] فقد صارت اليوم عادٌ الثانية وطغاة العالم وجبابرة البشر يصيحون في أقوامهم: ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم ذلك الفيروس الذي لا يُرى، قالوا هذا وهم بالأمس يقولون: ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾ [فصلت: ١٥] فسبحان من لا يدوم سواه، ولا باقي إلا إيّاه، عز جاره، وجل ثناؤه، ولا إله غيره، وأستغفر الله الذي لا أله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه.

خَلَعْنَـــا شِـــقْوَةً ذَهَبَـــتْ بِوَيْـــلٍ   وَبِالتَّهْلِيـــلِ أَيْقَظْنَـــا النِّيَامَـــا

أخطاء في فهم الرضا أو تطبيقه

الرضا باب عظيم من أبواب الدين، وهو من أعمال القلوب الكبار، وداخلٌ في لُبابِ الإسلام، إذ أصلُ الإسلامِ تسليمٌ واستسلام لله تعالى بتوحيده وطاعته، وعينُ الاستسلام الرضا، فالرضا هو محض التسليم، وكهف السكينة، وإكسير الانقياد، ومُوقدُ الهمّة للعبادة. ولمّا كان الرضا بهذه الأهمية؛ كان حتمًا على كل موفّق فهم حدوده للوصول لغاياته، دون روغان عن جادته، ولا زيغ عن محجّته.

والخطأ في الرضا راجع لواحد من أمرين: وهما القصور في العلم أو التقصير في العمل فالأول هو الخطأ في التصوّر والعلم والفهم والتنظير، وهذه آفة الجهل، وشفاؤها العلم النافع، أما الثاني فهو التفريط في العمل والسلوك والتطبيق، وهذه آفة فساد الإرادة، وهي راجعة إما لسوء القصد أو لضعف العزيمة، وشفاؤها الإيمان بالله تعالى ووعظ القلب ومجاهدة النفس في الله تعالى. والهُدى أن يأخذ الله بيد عملك وعين بصيرتك فينيرك بالعلم والإيمان، فاللهم اهدنا الصراط المستقيم.

فمن الأخطاء في باب الرضا:

الأول: نقص الفقه في معانيه الشرعية:

ذلك أن ميدان الرضا خصيب بالمعاني التي تحتملها المفردات المترادفة والمتباينة، فيلزم من أراد فهم الرضا أن يتفقّه في مقاصد ألفاظ الشرع، حتى لا يقع التباس يُحيل الباطل في عينه لحقّ يتوهّمه؛ فيَضلّ ويُضلّ، قال ابن

القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكثيرًا ما يشتبه في هذا الباب المحمود الكامل بالمذموم الناقص، ومن ذلك: اشتباه الرضا عن الله بكل ما يفعل بعبده مما يحبه ويكرهه بالعزم على ذلك وحديث النفس به، وذلك شيء والحقيقة شيء آخر، كما يحكى عن أبي سليمان أنه قال: «أرجو أن أكون أُعطيتُ طرفًا من الرضا، لو أدخلني النار لكنت بذلك راضيًا». فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: «هذا عزم منه على الرضا وحديث نفس به، ولو أدخله النار لم يكن من ذلك شيء». وفرق بين العزم على الشيء وبين حقيقته»[1].

هذا؛ ولبعض المتعبّدة الجهال عجائب في فهم الرضا آلت ببعضهم للمروق من الشريعة عياذًا بالله تعالى من مضلات الفتن وعَمَايات الجهل، قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس في الوجود شيء أشرف من العلم، كيف لا وهو الدليل، فإذا عُدِم وقع الضلال.

وإنّ من خفيّ مكائد الشيطان أن يزيّن في نفس الإنسان التعبد ليشغله عن أفضل التعبد وهو العلم، حتى إنه زيّن لجماعة من القدماء أنهم دفنوا كتبهم ورموها في البحر. وهذا قد ورد عن جماعة. وأحسن ظني بهم أن أقول: كان فيها شيء من رأيهم وكلامهم فما أحبّوا انتشاره. وإلا فمتى كان فيها علم مفيد صحيح لا يخاف عواقبه؛ كان رميها إضاعة للمال.

وقد دنت حيلة إبليس إلى جماعة من المتصوفة حتى منعوا من حمل تلامذتهم المحابر، وهذا من خفي حيل إبليس، ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ

---

(١) مدارج السالكين (٢ / ١٢٥) باختصار.

ظَنَّهُۥ﴾ [سَبَإ : ٢٠]»[1]. وقال أيضًا: «اعلم أن أول تلبيس إبليس عَلَى الناس صدّهم عَنِ العلم، لأن العلم نور، فَإذا أطفأ مصابيحهم خبطهم فِي الظُّلَمِ كيف شاء. وقَدْ دخل عَلَى الصوفية فِي هَذا الفن من أبواب:

أحدها: أنه منع جمهورهم من العلم أصلًا، وأراهم أنه يحتاج إلى تعب وكُلَفٍ، فحسّن عندهم الراحة، فلبسوا المراقع، وجلسوا عَلَى بساط البطالة! قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أُسّس التصوّفُ عَلَى الكسل». ومقصود الإمام بهذا أن مقصود النفس الولايات، وأما استجلاب الدنيا بالعلوم فإنه يطول ويتعب البدن، وقد يحصل المقصود أو لا يحصل. والصوفية قد تعجّلوا الولايات، فإنهم يُرَون بعين الزهد واستجلاب الدنيا، فإنها إليهم سريعة.

ومن الصوفية من ذم العلماء، ورأى أن الاشتغال بالعلم بطالة، وقالوا: إن علومنا بلا واسطة. وإنما رأوا بُعْدَ الطريق فِي طلب العلم، فقصّروا الثياب، ورقّعوا الجباب، وحملوا الرّكاء، وأظهروا الزهد.

والثاني: أنه قنّع قوم منهم باليسير مِنهُ، ففاتهم الفضل الكثير فِي كثرته. فاقتنعوا بأطراف الأحاديث، وأوهمهم أن علوّ الإسناد والجلوس للحديث كلّه رياسة ودنيا، وأن للنفس فِي ذلك لذة.

وكشفُ هذا التلبيس أنه ما من مقامٍ عالٍ إلا وله فضيلة وفيه مخاطرة، فَإن الإمارة والقضاء والفتوى كلها مخاطرة، وللنفس فيه لذة، ولكنها فضيلة عظيمة كالشوك فِي جوار الورد، فينبغي أن تُطلب الفضائل ويُتّقي ما فِي ضمنها

---

(١) صيد الخاطر (١/ ٣١).

من الآفات. فأما ما فِي الطبع من حب الرياسة فإنه إنما وُضع لتُجتلب هذه الفضيلة، كَما وضع حب النكاح ليحصل الولد.

وبالعلم يُتقوّم قصدُ العالِم، كما قال يزيد بن هارون: «طلبنا العلم لغير اللَّه، فأبى إلا أن يكون لله»(١). ومعناه: أنه دلنا عَلَى الإخلاص. ومَن طالب نفسه بقطع ما فِي طبعه لم يمكنه.

والثالث: أنه أوهم قومًا منهم أن المقصود العمل، وما فهموا أن التشاغل بالعلم من أوفى الأعمال. ثم إن العالم وأن قصر سير عمله فإنه عَلَى الجادة، والعابد بغير علم عَلَى غير الطريق.

والرابع: أنه أرى خلقًا كثيرًا منهم أن العِلم هو ما اكتُسب من البواطن، حتى إن أحدهم تتخايل لَهُ وسوسةٌ فيقول: «حَدَّثَنِي قلبي عَن ربي»(٢)، وكان الشِّبْلِي(٣) يَقُول:

---

(١) ورويت كذلك عن الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٢) وقد قيل لبعضهم: ألا ترحل حتى تسمع من عبد الرزاق؟ فقال: ما يصنع بالسماع من عبد الرزاق من يسمع من الخلّاق؟!

(٣) الشبلي من أهل القرن الثالث، وكان فقيهًا مالكيًّا فترك التعليم ولبس الخرق وتصوف، وله أقوال حسنة رائقة، وأخرى قبيحة لا يتابع عليها. قال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «صحب الشبلي الجُنَيدَ وغَيْرَهُ، وصار من شأْنه ما صار. وكان فقيهًا عارِفًا بمذهب مالك، وكتب الحديث عن طائفة. وقال الشِّعرَ، وله ألفاظٌ وحِكَم وحال وتَمَكُّنٌ، لكنَّه كان يحصُل له جفافُ دِماغ وسُكْرٍ، فيقول أشياء يُعتَذرُ عَنهُ فِيها لا تكُون قدوة. وكان رَحِمَهُ اللَّهُ لَهجًا بِالشِّعر الغَزل والمحبَّة. وله ذَوْقٌ في ذلك، وله مُجاهَداتٌ عجيبَةٌ انْحَرَفَ مِنها مِزاجه».

=

إذا طـــالبوني بعلـــم الـــوَرَق بـــرزتُ علـــيهم بعلـــم الخِـــرَقِ

وقد سمّوا علم الشريعة علم الظاهر، وسمّوا هواجس النفوس العلم الباطن.. ومن يترك العلم، ويقول إنه يعتمد على الإلهام والخواطر فليس هذا بشيء، إذ لولا العلم النقلي ما عرفنا ما يقع فِي النفس أمن الإلهام للخير أو الوسوسة من الشَّيطان.

واعلم أن العلم الإلهامي المُلقى فِي القلوب لا يكفي عن العلم المنقول، كَما أن العلوم العقلية لا تكفي عَنِ العلوم الشرعية.

وجاء رجل إلى سَهل بن عبد اللَّه وبيده محبرة وكتاب، فقال لسهل: جئت أن أكتب شيئًا ينفعني اللَّه به، فقال: «اكتب، إن استطعت أن تلقى اللَّه وبيدك المحبرة والكتاب فافعل»، قال: يا أبا مُحَمَّد؛ أفدني فائدة. فَقال: «الدنيا كلّها جهل إلا ما كان علمًا، والعلم كله حجّة إلا ما كان عملًا، والعمل كله موقوف إلا ما كان مِنهُ عَلَى الكتاب والسنة، وتقوم السنة على التقوى». ومن أقواله:

=

سير الأعلام (١٥/ ٣٦٥-٣٦٧) باختصار وانتقاء. وقال شيخ الإسلام: «يروى عن الشبلي أنه كان يقول: «الله الله». فقيل له: لم لا تقول لا إله إلا الله؟ فقال: أخاف أن أموت بين النفي والإثبات. وهذه من زلات الشبلي التي تغفر له لصدق إيمانه وقوة وجده وغلبة الحال عليه، فإنه كان ربما يُجنّ ويُذهب به إلى المارستان، ويحلق لحيته. وله أشياء من هذا النمط التي لا يجوز الاقتداء به فيها؛ وإن كان معذورًا أو مأجورًا، فإن العبد لو أراد أن يقول: «لا إله إلا الله» ومات قبل كمالها لم يضره ذلك شيئًا، إذ الأعمال بالنيات، بل يكتب له ما نواه». مجموع الفتاوى (١٠ / ٥٥٦).

«احفظوا السواد عَلى البياض، فما أحد ترك الظاهر إلا تزندق». وقال: «ما من طريق إلى اللَّه أفضل من العلم، فإن عدلت عن طريق العلم خطوة؛ تهت فِي الظلام أربعين صباحًا».

وعن أبي بكر الدقاق قال: سَمِعت أبا سَعِيد الخرّاز يَقُول: «كل باطن يخالف ظاهرًا فهو باطل».

وقَدْ نبه الإمام أبو حامد الغزالي في كتاب الإحياء فقال: «من قال إن الحقيقة تخالف الشريعة أوِ الباطن يخالف الظاهر فهو إلى الكفر أقرب مِنهُ إلى الإيمان».

وقال ابن عقيل: «جعلت الصوفية الشريعة اسمًا، وقالوا: المراد منها الحقيقة. قال: وهذا قبيح، لأن الشريعة وضعَها الحقُّ لمصالح الخلق وتعبداتهم، فما الحقيقة بعد هذا سوى شيء واقع فِي النفس من إلقاء الشياطين، وكل من رام الحقيقة فِي غير الشريعة فمغرور مخدوع».

ولـمّا انقسم هؤلاء بين متكاسل عَن طلب العلم[١] وبين ظانّ أن العلم هو ما يقع فِي النفوس من ثمرات التعبد، وسمّوا ذلك العلم العلم الباطن؛ ونَهوا عَنِ التشاغل بالعلم الظاهر!

---

(١) ذكر بعض أهل العلم أن طلب العلم يلزم بالشروع فيه كالجهاد والحج، ولعل هذا مما قصده سفيان بن عيينة بقوله الشريف: «من طلب العلم فقد بايع الله عز وجل».

اغْتَنِمْ فِي الفَراغِ شُغْلَ عُلومٍ ... فَعَسى أنْ يَكُونَ مَوْتُكَ بَغْتَة

كَمْ صَحِيحٍ رَأيتَ مِن غَيرِ سُقْمٍ ... ذَهَبَتْ نَفْسُهُ الصحيحةُ فَلْتَه

=

قال جعفر الخلدي: «لو تركني الصوفية لجئتكم بإسناد الدنيا(١)، لقد مضيت إلى عبّاس الدوري وأنا حَدَثٌ(٢) فكتبت عنه مجلسًا واحدًا، وخرجت من عنده فلقيني بعض من كنت أصحبه من الصوفية فَقال: أيش هَذا معك؟ فأريته إياه، فَقال: ويحك، تدع علم الخِرَقِ وتأخذ علم الورق! ثم خرق الأوراق، فدخل كلامه فِي قلبي فلم أعد إلى عَبّاس».

وقال أبو سعيد الكندي: كنت أنزل رباط الصوفية، وأطلب الحديث فِي خفية بحيث لا يعلمون، فسقطت الدواة يومًا من كُمّي(٣) فقال لي بعض الصوفية: أستر عورتك!(٤)

وقال الحُسَين الصفار: «كان بيدي محبرة، فقال لي الشبلي: غيّب سوادك عني يكفيني سواد قلبي».

وإن من أكبر المعاندة لله تعالى الصد عن سبيل اللَّه، وأوضحُ سبيل للّه العلم؛ لأنه دليل على اللَّه وبيان لأحكام اللَّه وشرعه وإيضاح لما يحبه ويكرهه،

=

(١) يقصد علو الإسناد الذي أدركه بكتابته، ثم فاته بإتلاف سنده.

(٢) أي: يافعٌ صغير السن.

(٣) وهو ما يسمى الآن بجيب الثوب، والمُخبا.

(٤) والناس أعداءٌ لما جهلوا، ومَنْ جَهِلَ شيئًا عابه، ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾ [يُونُس:٣٩]

يُقضى على المرء في أيّام محنته ... حتى يرى حسنًا ما ليس بالحسنِ

فالمنع مِنهُ معاداة لله ولشرعه، ولكن الناهين عَنْ ذلك ما تفطنوا لما فعلوا. قال عبد اللَّه بن خفيف: «اشتغلوا بتعلم العلم، ولا يغرنكم كلام الصوفية، فإني كنت أخبئ محبرتي فِي جيب مرقعتي، والكاغد في حزّة سراويلي، وكنت أذهب خفية إلى أهل العلم، فإذا علموا بي خاصموني وقالوا: لا تفلح! ثم احتاجوا إليّ بعد ذلك».

وقَد كان الإمام أحمد بن حنبل يرى المحابر بأيدي طلبة العلم فيقول: «هذه سُرُجُ الإسلام». وكان هو يحمل المحبرة على كبر سنه، فقال لَهُ رجل: إلى متى يا أبا عبد اللَّه؟ فَقال: «مع المحبرة إلى المقبرة». وقال فِي قوله ﷺ: **«لا تَزالُ طائِفَةٌ مِن أُمَّتِي مَنصُورِينَ، لا يَضُرُّهُمْ مَن خَذَلَهُمْ حَتّى تَقُومَ السّاعَةُ»**[١]. فَقال أحمد: «إن لم يكونوا أصحاب الحديث فلا أدري من هم». وقيل له: إن رجلًا قال فِي أصحاب الحديث: إنهم كانوا قوم سوء! فَقال أحمد: «هو زنديق».

وقَد قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا رأيتُ رجلًا من أصحاب الحديث فكأني رأيت رجلًا من أصحاب رَسُول اللَّهِ ﷺ».

واعلم أن هؤلاء القوم لما تركوا العلم وانفردوا بالرياضات على مقتضى آرائهم؛ لم يصبروا عن الكلام فِي العلوم، فتكلموا بِواقِعاتهم[٢]، فوقعت الأغاليط القبيحة منهم، فتارة يتكلمون فِي تفسير القرآن، وتارة فِي الحديث، وتارة فِي الفقه، وغير ذلك. ويسوقون العلوم إلى مقتضى علمهم الذي انفردوا

---

(١) أحمد (١٠٧٦) والترمذي (٢ / ٣٠) وصححه الألباني في الصحيحة (١ / ٦٨٨)

(٢) جمع واقع، أي: واقِعِهم وماجَرَياتهم وأحوالهم وأحداث حياتهم.

به، واللَّه سبحانه لا يُخلي الزمان من أقوام قُوَّامٌ بشرعه، يردّون عَلى المتخرّصين، ويبينون غلط الغالطين»(١).

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإذا جاءت عَصا الشريعةِ المحمدية ابتلعتْ ما صَنعَه الخارجون عنها من السِّحْر المُفْترى، ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ۝٦٩﴾ [طه: ٦٩]»(٢).

فلا تركننّ أخي إلى العازِفين عن العلم، الراغبين عن التعلّم، فالعلم وقود العمل، ونور الطريق، ومنار المنهاج، وعملٌ بلا علمٍ وبالٌ وحسرة، وفي أمر أعمال القلوب ترد على النفوس وساوسُ قَتَرات وسمومُ خَطَرَاتٍ لا تنقمع بإذن الله إلا بنور ساطع من علم الشريعة يجلو الله تعالى به دياجير ظلمات الجهالات ويقشع به عن القلب سموم الرِّيَب، وصدق الله تعالى إذ قال في محكم التنزيل: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٩﴾ [الزُّمَر: ٩].

ولعلّ من حِكَمِ الله تعالى بإفقار كثير من أهل العلم صيانةً لحَرَمِ العلم، حتى لا يكون تعلّم علم الشرع سُوقًا لطُلّاب الدنيا، بل مُتَّجَرًا للراغبين في الله والدار الآخرة، فترى الناس تُعطي وتهدي وتوظّف وترفع وترقع أهل الدنيا دون كثير من أهل العلم، فنتج عن ذلك ألّا يتّجه للعلم إلا من أحبّ العلم لذاته لأنه مقرّب إلى الله تعالى، فأحبَّ طلب العلم لله لا للناس، ولو أنّ الناس

---

(١) تلبيس إبليس (٢٨٤-٢٩١) مختصرًا.

(٢) جامع المسائل لابن تيمية، المجموعة الخامسة (١/ ٢٢٦)

أعطوا أهل العلم بالشرع على علمهم لتصدّر للعلم طُلّاب الدنيا لا الدين، ولأصبح لفتاوى العلماء أسعار في بورصة البيع والشراء بحسب أهواء المُشترين، لكنّ الحكيم سبحانه صان العلم عن الطامعين، ولعل هذا من حِكَمِ أنّ الوظائف الدينية كالقضاء والحُسبة والتعليم ونحوها لا يُعطى أصحابها أجرةً بل رَزْقًا ومكافأة تكفيه من بيت المال ما يقوم حاله وعياله. ولعل من هذا الباب أن جعل أشرف البقاع واديًا غير ذي زرع وهي مكة، وحرّة صحراوية شديدة وهي المدينة كي لا يسكنها إلا من طلب معالي الآخرة ولو بلأواء الدنيا، فطاب فيها من طاب له الإيمان، والله المستعان.

هذا؛ وإن طلب العلم سلاح ذو حدّين، فإنْ طلبه لله تعالى رَفَعه وأدناه من ربّه وأوشك أن يكون مع الصدّيقين، أما إن طلبه للدنيا فقد خاب وخسر. وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«من تعلّم علمًا مما يُبتغى به وجه الله، لا يتعلّمه إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا؛ لم يرح رائحة الجنة يوم القيامة»**[(١)].

---

(١) أبو داود (٣٦٦٤) وابن ماجه (٢٥٢) وصححه الألباني. قوله: **«لم يرح»**؛ قال الكسائي: «هو بضم الياء؛ من قوله: أرحتُ الشيء، فأنا أريحه إذا وجدتَ ريحه». وقال أبو عمرو: **«لم يَرِح»** بكسر الراء؛ من رُحت أريح إذا وجدتَ الريح». وقال غيرهما: «بفتح الياء والراء، والمعنى واحد، وهو شم الرائحة». أهـ. من صحيح الترغيب والترهيب (١٥٧/٣). وفي رواية: **«لم يجد عَرْفَ الجنة»**. قال ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «عَرْف الجنة، الرائحة، مبالغة في تحريم الجنة، لأن من لم يجد ريح الشيء لا يتناوله قطعًا». عون المعبود (٩٨/١٠).

وبركة العلم لا يحوطها وصف، ولو لم يجد في العلم إلا حراسة صحة تصوره لكفاه فضلًا وشرفًا، واعجبْ ممن حُرموا نوره كيف يتخبّطهم الشيطان في كلّ مَهْمَهٍ ومَهْلَكٍ!

وقد ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أخبارًا عن تخبّط الشياطين بخواطر العُباد كيما يفتنوهم عن الاستقامة، فمن ذلك قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كما إن كثيرًا من العبّاد يرى الكعبة تطوف به، ويرى عرشًا عظيمًا وعليه صورة عظيمة، ويرى أشخاصًا تصعد وتنزل فيظنها الملائكة، ويظن أن تلك الصورة هي الله تعالى وتقدس، ويكون ذلك شيطانًا!

وقد جرت هذه القصة لغير واحد من الناس، فمنهم من عصمه الله وعرف أنه الشيطان كالشيخ عبد القادر[١] في حكايته المشهورة، حيث قال: كنتْ مرّة في العبادة، فرأيت عرشًا عظيمًا، وعليه نور، فقال لي: يا عبد القادر؛ أنا ربّك، وقد أحللتُ لك ما حرّمت على غيرك. قال: فقلت له: أنت الله الذي لا إله إلا هو! اخسأ يا عدوّ الله. قال: فتمزّق ذلك النور وصار ظلمة، وقال: يا عبد القادر؛ نجوت مني بفقهك في دينك وعلمك، وبمنازلاتك في أحوالك[٢] لقد فتنتُ بهذه القصة سبعين رجلًا. فقيل له: كيف علمت أنه الشيطان؟ قال: بقوله لي: أحللت لك ما حرمت على غيرك. وقد علمتُ أن

(١) وهو الجيلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٢) أي: مجاهدتك نفسك في مراضي الله تعالى.

شريعة محمد ﷺ لا تُنسخ ولا تُبدّل، ولأنه قال: أنا ربك. ولم يقدر أن يقول: أنا الله الذي لا إله إلا أنا.

ومن هؤلاء من اعتقد أن المرئي هو الله، وصار هو وأصحابه يعتقدون أنهم يرون الله تعالى في اليقظة، ومستندهم ما شاهدوه. وهم صادقون فيما يخبرون به، ولكن لم يعلموا أن ذلك هو الشيطان.

وهذا قد وقع كثيرًا لطوائف من جهال العُبّاد يظن أحدهم أنه يرى الله تعالى بعينه في الدنيا، لأن كثيرًا منهم رأى ما ظن أنه الله، وإنما هو شيطان»[(١)].

الثاني: ترك معونة الناس بحجة الرضا بالقضاء:

إنّ من المهمات: معرفة أن الرضا محرّك إيجابي، ودافع لإغاثة الملهوف، وإعانة المحتاج، وإغناء المسكين، ونصر المظلوم، وفكِّ العاني، والقيام لله في ذلك كله، وليس معناه الإعراض عنهم، والتولّي عند حاجتهم، والإدبار عن نفعهم بحجة الرضا، فافعل الخيرَ وارْجُ اللهَ خلفًا مباركًا في دينك ودنياك:

مـنْ يفعـلِ الخَـيْرَ لا يُعْـدَمْ جَوَازِيَـهُ   لا يذهبُ العُرْفُ بَينَ اللهِ والنّاسِ

فليس من الرضا ترك فعل الخيرات، بل ادفع قدر الضُرِّ بقدر النفع بإذن الله تعالى، وكُنْ كَنبيّكَ ﷺ، والله في عونك ما دمت في عون أخيك، ومن كان الله في عونه فلا ضيعةَ عليه.

صـمتُ الفقـير بكـاءٌ لا يُحَـسُّ بـهِ   في ضجـّة الكـون إلا مَـن يُعانيـهِ

---

(١) مجموع الفتاوى (١ / ١٧١)

يبكـي بُكـاءً مريـرًا لا دمـوعَ لـهُ ... إذ أنّـهُ عـن عيـون النـاس يُخفيـهِ
لأنـــهُ مُعـــدِمٌ لا مـــال في يَـــدهِ ... ســوى التّعفُّـف في أسـمى معانيـهِ
لا يسـأل النـاس إلحافًـا ولا طمعًـا ... وفيهِ من حسرةِ الإملاق ما فيهِ
ذاك الـذي يسـتحق العـون فـانتبهوا ... ولا تقولـوا غنـاء الـنفس يكفيـهِ
ففتّشـوا الآن في الأحيـاءِ عنـهُ ولا ... يستصـغِرِ الأجـرَ عنـد الله مُعطيـهِ

الثالث: تمني البلاء:

من الأخطاء في باب الرضا: تمني البلاء. فيتمنى العبد بلاء كي يرضى به، وهو منه أصلًا في عافية، ولا يدري عاقبته في نفسه، ولا مدى احتماله له، ولا يدري عن توفيق الله له بتثبيت عزمه على الرضا، فكم انفسخت في الناس من عزيمة، وبطلت من همّة، واضمحلّت من إرادة!

وليس من سنة الرسل تمني البلاء وإن التذّوا به حين يقع لعظيم إيمانهم وقوّة علمهم وعصمة الله تعالى لهم، ونبي ﷺ كان يسأل ربه العافية، ويوصي أمته بذلك، وكلُّ الهدى في سنته، والسلامة لا يعدلها شيء. قال المباركفوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله ﷺ: **«إذا أحب الله قومًا ابتلاهم»**[(١)]: المقصود الحث على الصبر على البلاء بعد وقوعه، لا الترغيب في طلبه للنهي عنه»[(٢)].

---

(١) البخاري ١٠٩/٧ (٥٤٧٠)، ومسلم ١٧٤/٦ (٢١٤٤) (٢٣)
(٢) تحفة الأحوذي (٧ / ٦٦)

ومما يدل على ذلك قوله ﷺ: **«أيها الناس؛ لا تتمنّوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا»**(١). فنهانا ﷺ عن تمني البلاء، وأمرنا أن نسأل الله أن يعافيَنا منه كذلك، كما أمرنا بالصبر عند وقوعه.

وقال ﷺ: **«تعوذوا بالله من جَهْدِ البلاء، ودَرَكِ الشقاء، وسوءِ القضاء، وشماتة الأعداء»**(٢). وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان رسول الله ﷺ يتعوّذ من جَهْد البلاء، ودَرَك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء»(٣). وفي صحيح مسلم(٤) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ عاد رجلًا من المسلمين قد خَفَتَ(٥) فصار مثل الفَرْخ(٦)، فقال له رسول الله ﷺ: **«هل كنت تدعو بشيء، أو تسأله إيّاه»؟** قال: نعم كنت أقول: اللّٰهم ما كنت معاقِبي به في الآخرة فعجّله لي في الدنيا. فقال رسول الله ﷺ: **«سبحان الله، لا تطيقه، أو لا تستطيعه(٧). أفلا قلت: اللّٰهم آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار»؟** قال: «فدعا الله له فشفاه».

---

(١) البخاري ٤/ ٦٢ (٢٩٦٦)، ومسلم ٥/ ١٤٣ (١٧٤٢)

(٢) البخاري ٨/ ١٥٧ (٦٦١٦) ومسلم ٨/ ٧٦ (٢٧٠٧) (٥٣)

(٣) البخاري (٨/ ٩٣) ومسلم (٨/ ٧٦)

(٤) مسلم (٢٦٨٨)

(٥) أي: ضَعُف جدًّا. ويقال: خَفَتَ الصوت، إذا ضعف وسكن.

(٦) أي: في ضعف ولد الطير.

(٧) وهذا من رفقه ورحمته وشفقته ونصحه ﷺ.

ففي هذه الأحاديث وأمثالها استحباب التعوذ من البلاء، وكراهة تمنّيه. والخطأ ليس في سؤال الله العافية وتمني عدم البلاء، بل الخطأ في سؤال الله إيّاه وقد عافاه، وتمنّيه وقد نهاه، ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾ [النِّسَاء: ١٤٧]. وقد مرّ الكلام عن ذلك.

وتأمل تفسير الحسن البصري لآية الحسنة فقد قال في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [البَقَرَة: ٢٠١] هي العلم والعبادة، ﴿وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البَقَرَة: ٢٠١] هي الجنّة[1]. نسأل الله الكريم من فضله. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا من أحسن التفسير؛ فإنّ أجلّ حسنات الدنيا العلم النافع والعمل الصالح»[2]. وهذا تفسير للشيء ببعض معناه، أو بالمهمّ من تأويله، وإلا فحسنات الدنيا الشرعية والدنيوية المباحة لا تُحصى بفضل الله وكرمه، وبالله التوفيق.

الرابع: اشتراط عدم الإحساس بالألم:

ليس من شرط الرضا فقد الإحساس بالمؤلم، فهذا ممتنع على الطبيعة، بل إن الكمال أن يكون الرضا مع الألم حتى يتجرّد ذلك العمل القلبي الجميل من حظوظ النفس. وقد مضى الكلام على هذا.

الخامس: تركُ الأسباب بحُجّة الرضا بالقضاء:

العبدُ دائرٌ في عبوديّته بين مأمور بفعله، ومحظور بتركه، فوظيفتُه فعل المأمور واجتناب المنهي، وهو بهذا يفعل الأسباب المأمور بها، ويترك المنهيّ عنها.

---

(١) الطبري في التفسير (٤/ ٢٠٥)، وابن عبد البر في الجامع (١/ ٢٢٩)، وغيرهما.

(٢) مفتاح دار السعادة (١/٣٣٩)

ومن الأسباب التي لابد له من فعلها ـ أي هو مأمور بها ـ: ما يحفظ حياته من الطعام، والشراب، واللباس، والمسكن، وكذلك الأسباب الموجبة لبقاء نوع الإنسان من النكاح، وما يحافظ على عقله، وماله، وغير ذلك من ضرورات الحياة. وإن تعطيل شيء مِمَّا أمر الله به، أو الوقوع فيما نهى الله عنه يفسد حياته وآخرته.

وفعل الأسباب ليس مانعًا من الرضا، بل ذلك من الرضا بقضاء الله وقدره، ولا يتحقق الرضا بالقضاء إلا بفعل الأسباب المأمور بها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ٨﴾ [البيّنة: ٧-٨]. وقال سبحانه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٢٢﴾ [المُجادلة: ٢٢]. وغيرهما من الآيات الكثيرة التي تدل على أن فعل الأسباب من الإيمان والعمل الصالح بكل أنواعه وكيفياته، ومنه الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والحب في الله، والبغض فيه وله، والجهاد في سبيل الله، وابتغاء الرزق الحلال من غير جشع أو طمع، والإنفاق في وجوه الخير، وغير ذلك من

العبادات الواجبات والمسنونات والمستحبات. وكما قيل: «من أراد أن يبلغ محلّ الرضا فليلزم ما جعل الله رضاه فيه»[(١)].

ومن قال أو ظن أو فهم أن الرضا ترك التدبير أو ترك الأسباب؛ فقد طعن في الشريعة التي جاء بها محمد ﷺ، فالله عزّوجل يقول: ﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [المُلك: ١٥]، وقال: ﴿كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ [سَبَإ: ١٥]، وقال: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٩]، والغنيمة: اكتساب. وقال تعالى: ﴿فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال: ١٢] فهذا عمل، وقد هاجر ﷺ مستخفيًا، كما ظَاهَرَ في الحرب بين درعين فيما هو أرضى الخلق طُرًّا بربهم ﷺ.

فالرضا والتسليم لله، والإيقان بأنّ قضاءَ الله ماضٍ نافذ، واتباع سنة الرسول ﷺ في السعي فيما لا بد منه من الأسباب، من مطعم ومشرب، وتحرّز من عدو، وإعداد الأسلحة، واستعمال ما تقتضيه سنة الله تعالى المعتادة؛ هو الحق والصواب، والخير والفلاح للعبد في ذلك[(٢)]، وبالله التوفيق.

السادس: تركُ الدعاءِ أو الإلحاحِ فيه بحجّة الرضا:

وهذا باطل، فالدين وِعاءُ الدعاء، والله يحب أن يُدعى، وقد أمر كثيرًا بالدعاء. والدعاء الملحّ بصلاح أمور الدين واضح المشروعية مؤكد

---

(١) نقلها القشيري في «الرضا» عن النصر آبادي.

(٢) وانظر: المنهاج (٣/ ٩١) وإكمال المعلم (٢/ ٩٠٣ - ٩٠٤.٤) والبحر المحيط الثجاج في شرح صحيح الإمام مسلم بن الحجاج لمحمد آدم الأثيوبي (٥/٥٣٦)

الاستحباب، أما في أمور الدنيا فمشروع كذلك مع ضرورة سكون القلب بما قسم الله له حال الدعاء. وربنا تعالى يقول: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غَافِر: ٦٠]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البَقَرَة: ١٨٦]، وقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ [الأَعۡرَاف: ١٨٠]، وقال عزّ وجل: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾ [الأَعۡرَاف: ٥٥]، والآيات في هذا كثيرة.

وفي صحيح مسلم[(١)] بسنده عن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمئة وتسعة عشر رجلًا، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة، ثم مدّ يديه، فجعل يهتف بربه: «**اللّٰهم أنجز لي ما وعدتني، اللّٰهم آت ما وعدتني، اللّٰهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبد في الأرض**» فما زال يهتف بربه مادًّا يديه، مستقبل القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك. فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ٩﴾ [الأنفال: ٩] فأمدّه الله تعالى بالملائكة.

---

(١) مسلم (١٧٦٣)

وقال ﷺ: **«من لا يسأل الله يغضب عليه»**(١). فإذا كان سؤال الله يرضيه؛ لم يكن الإلحاح فيه منافيًا لرضاه، بل هو من المبالغة في الإرضاء والاجتهاد في لُبِّ العبودية.

أمَّا سؤال العباد، وإهراق ماء حياة الوجه تحت لُعَاعتهم، فذلك عيب في صدق التديّن، فإنه يُطفئُ الرضا، ويذهب بهجته، ويبدّل حلاوته مرارة، ويكدّر صفوه شوبًا دنيئًا.

فإنّ إرَاقَةَ ماءِ الحَيَاة دُونَ إراقَةِ ماءِ المُحَيَّا

ومن قال: إن الدعاء بكشف البلاء يقدح في الرضا والتسليم. فالجواب عليه: إن الطلب من الله ليس ممنوعًا، بل هو عبادة من أجلِّ العبادات التي أمر الله بها، وكرّر أمره به وأبدأ فيه وأعاد، لأهميته، بل لضرورة العبد له. كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ۝١٨٦﴾ [البَقَرَة: ١٨٦]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٢﴾ [يُونس: ١٢].(٢) ومن مأثور الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(١) أحمد (٩٧٠١)، ومسند أبي يعلى (٦٦٥٥) وحسنه حسين سليم أسد، والترمذي (٥ / ٤٥٦) وحسنه الألباني.

(٢) وانظر: الرضا بالقضاء. د. سالم بن محمد القرني. عن: مجلة جامعة أم القرى (٥ /٣٤١ - ٣٥٠)

أتهزأُ بالدعاء وتزدريه وما تدري بما صنع الدعاءُ
سهامُ الليل لا تخُطْي[1] ولكن لها أمدٌ وللأمدِ انقضاءُ

واعلم أنّ القلوبَ ضعيفةٌ، والشُّبَهَ خطّافةٌ، وأن الأفكار والتصوّرات والعلوم لها واردات عقليّة إن لم يكُ صاحبُها مُحَصّنًا بأَثَارَةٍ من علم الوحي، مُعتصمًا بأَثَرِ الرسول المعصوم ﷺ، مُقتفيًا آثَارَ السلف الصالح في معتقده وسلوكه وهديه وسَمْتِه وقصده وقوله وعمله؛ فهو على شفا جُرُفٍ هار، والمحفوظ المُوفّق من حفظه الله ووفقه.

فادع الله تعالى أن يُنجيك من شبكة الشبهات، وادعُهُ دعاءَ الغَرِيقِ لعلّه أن ينظر إليك نظر رحمة وإجابة وقبول، فينجيك من شرّ نفسك وشرّ الشيطان وشركه، ويتداركك من حفر النار في العلم والإرادة والعمل.

وتأمل وصيّة ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ ومرّرها على عقلك، واضعًا يدك على قلبك، لَهِجًا بدعاء ربك أن يعصمك من سوء الفتن. قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن البُصَراء لا يأمنون من أربع: ذنبٍ قد مضى لا يُدرى ما يصنع فيه الرب عز وجل، وعُمرٍ قد بقي لا يُدرى ما فيه من الهلَكة، وفَضْلٍ قد أُعطيَ العبدُ لعله

(١) أصلها: تخطئ، ولكن سهّلت مراعاة للرويّ، وهذا شائع في الشعر واللغة.

مَكرٌ واستدراج، وضلالةٍ قد زُيِّنتْ يراها هُدى، وزيغِ قلبٍ ساعةً، فقد يُسلبُ المرءُ دينَه ولا يشعر»![١]

وسئل شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ عما ذكر القشيري في باب الرضا عن الشيخ أبي سليمان أنه قال: «الرضا ألّا يَسأل اللهَ الجنة، ولا يستعيذ من النار»، فهل هذا الكلام صحيح؟ فأجاب بجواب تأصيلي من جهة التثبت أوّلًا من نسبة هذا الكلام لمن نُسب إليه، ثم فنّد هذا الباطل بدلائل القرآن والسنة والبراهين العقليّة، وسألخص مهمّاته مستعينًا بالله تعالى، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الحمد لله رب العالمين، الكلام على هذا القول من وجهين:

أحدها: من جهة ثبوته عن الشيخ، **والثاني:** من جهة صحته في نفسه وفساده.

أما المقام الأول: فينبغي أن يُعلم أن الأستاذ أبا القاسم[٢] لم يذكر هذا عن الشيخ أبي سليمان[٣] بإسناد، وإنما ذكره مرسلًا عنه، وما يذكره أبو القاسم في رسالته فيه الصحيح والضعيف والموضوع كحال غيره.

---

(١) شعب الإيمان (٢/ ٢٦٠) وسير أعلام النبلاء: (٨/ ٣٥٩). ولعله لو قال خمس كان أولى، ولعله قصد أن زيغ القلب مبنيّ على الضلالة، وأظن أن «وزيغ» مصحفه عن «فزيغ» فتكون «زيغ» بيانية لا مستأنفة. والله أعلم.

(٢) هو القشيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٣) هو الداراني رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وطلب الجنة والاستعاذة من النار طريق أنبياء الله ورسله وجميعِ أوليائه السابقين المقرّبين وأصحاب اليمين، كما في السنن أن النبي ﷺ سأل بعض أصحابه: **«كيف تقول في دعائك»؟** قال: أقول: اللّهم إني أسألك الجنة، وأعوذ بك من النار. أما إني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ! فقال: **«حولها ندندن»**[(١)]. فقد أخبر أنه هو ﷺ ومعاذ وهو أفضل الأئمة الراتبين بالمدينة في حياة النبي ﷺ إنما يدندنون حول الجنة، أفيكون قول أحد فوق قول رسول الله ﷺ ومعاذ ومن يصلي خلفهما من المهاجرين والأنصار؟!

وقد ثبت في الصحيح[(٢)] عن النبي ﷺ أنه قال: **«إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلّوا عليّ، فإنه من صلى عليّ مرة صلى الله عليه عشرًا. ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد. فمن سأل الله لي الوسيلة؛ حلّت عليه شفاعتي يوم القيامة»**. فقد أخبر أن الوسيلة التي لا تصلح إلا لعبد واحد من

---

(١) وفي رواية: **«حولها نُدَنْدِن»**. والحديث عند أحمد (٣/٤٧٤) بسند صحيح، وأبو داود (١ / ٢٩٢) (٧٩٢) وصححه الألباني. وقال العيني في شرح أبي داود (٣ / ٤٥٠): «دندنتك» الدندنة: قراءة مبهمة، غير مفهومة، والهينمة مثلها، أو نحوها. وقوله: **«حولها»** أي: حول الجنة والنار، «ندندن» أي: في طلبهما، مِن دندن الرجل إذا اختلف في مكان واحد مجيئًا وذهابًا. وقال ابن رجب في فتح الباري (٥ / ١٨٩): **«حولها ندندن»**: وهذا يشعر بأنه يجوز الدعاء بمصالح الآخرة بأي لفظٍ كان. قلت: وبرواية الإفراد: **«حولها»** أي الجنة، وهو متضمّن النجاة من النار.

(٢) مسلم ٢/٤ (٣٨٤) (١١)

عباد الله، ورجا أن يكون هو ذلك العبد، وهي درجة في الجنة. فهل بقي بعد الوسيلة شيء أعلى منها يكون خارجًا عن الجنة يصلح للمخلوقين؟!

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «**إن لله تعالى ملائكةً يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله عز وجل، تنادوا: هلمّوا إلى حاجتكم، فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا. فيسألهم ربهم ـ وهو أعلم ـ: ما يقول عبادي؟ قال: يقولون: يسبّحونك، ويكبرونك، ويحمدونك، ويُمجّدونك. فيقول: هل رأوني؟ فيقولون: لا والله ما رأوك. فيقول: كيف لو رأوني؟! قال: يقولون: لو رأوك كانوا أشدَّ لك عبادة، وأشدَّ لك تمجيدًا، وأكثرَ لك تسبيحًا.**

فيقول: فماذا يسألون؟ قال: يقولون: يسألونك الجنة. قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رأوها. قال: يقول: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصًا، وأشد لها طلبًا، وأعظم فيها رغبة.

قال: فمم يتعوذون؟ قال: يقولون: يتعوذون من النار. قال: فيقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله ما رأوها. فيقول: كيف لو رأوها؟! قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فرارًا، وأشد لها مخافة.

قال: فيقول: فأشهدكم أني قد غفرت لهم. قال: يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة. قال: هم الجلساءُ لا يشقى بهم

جليسهم»[(١)]. فهؤلاء الذين هم من أفضل أولياء الله كان مطلوبهم الجنة، ومهربهم من النار.

والنبي ﷺ لما بايع الأنصار ليلة العقبة، وكان الذين اتبعوه من أفضل السابقين الأولين الذين هم أفضل من هؤلاء المشايخ كلهم. قالوا للنبي ﷺ: اشترطْ لربك ولنفسك ولأصحابك. قال: **«أشترطُ لنفسي أن تنصروني مما تنصرون منه أنفسكم وأهليكم، وأشترطُ لأصحابي أن تواسوهم»**. قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: **«لكم الجنة»**. قالوا: مُدّ يدك، فوالله لا نُقيلك ولا نَستقيلك[(٢)].

فهؤلاء الذين هم من أعظم خلق الله محبة لله ورسوله، وبذلًا لنفوسهم وأموالهم في رضا الله ورسوله على وجه لا يلحقهم فيه أحد من هؤلاء المتأخرين، وقد كان غاية ما طلبوه بذلك الجنة. فلو كان هناك مطلوب أعلى من ذلك لطلبوه، ولكن علموا أن في الجنة كل محبوب ومطلوب، بل وفي الحقيقة ما لا تشعر به النفوس لتطلبه، فإن الطلب والحب والإرادة فرع عن الشعور والإحساس والتصوّر، فما لا يتصوّره الإنسان ولا يحسّه ولا يشعر به يمتنع أن يطلبه ويحبه ويريده. فالجنة فيها هذا وهذا[(٣)]، كما قال تعالى: ﴿لَهُم مَّا

---

(١) البخاري ٨/١٠٧ (٦٤٠٨) ومسلم ٨/٦٨ (٢٦٨٩) (٢٥)

(٢) معرفة الصحابة لأبي نعيم (١ / ٣٨٤)

(٣) أي: فيها مما هو معروف ومتصوَّر لنا في الدنيا من المُتع واللذائذ - مع الفارق - وفيها أيضًا ما ليس له جنس في الدنيا من لذائذ خاصة بالجنة، فليس لها أمثال في الدنيا حتى بالاسم، فلا يتصوّرها ولا يتخيّلها البشر، نسأل الله الكريم من فضله.

يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ [ق: ٣٥]، وقال: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزُّخرُف: ٧١]. ففيها ما يشتهون وفيها مزيد على ذلك، وهو ما لم يبلغه علمهم ليشتهوه، كما قال ﷺ: **«ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»**(١). وهذا باب واسع.

فإذا عرفت هذه المقدمة؛ فقول القائل: الرضا ألا تسأل الله الجنة ولا تستعيذه من النار، إن أراد بذلك ألا تسأل الله ما هو داخل في مسمى الجنة الشرعية، فلا تسأله النظر إليه ولا غير ذلك مما هو مطلوب جميع الأنبياء والأولياء، وأنك لا تستعيذ به من احتجابه عنك، ولا من تعذيبك في النار؛ فهذا الكلام مع كونه مخالفًا لجميع الأنبياء والمرسلين وسائر المؤمنين، فهو متناقض في نفسه، فاسد في صريح العقول، وذلك أن الرضا الذي لا يُسأل؛ إنما لا يَسأله لرضاه عن الله، ورضاه عنه إنما هو بعد معرفته به ومحبته له. وإذا لم يبق معه رضا عن الله ولا محبة لله؛ فكأنه قال: يرضى ألّا يرضى، وهذا جمع بين النقيضين! ولا ريب أنه كلام مَن لم يتصوّر ما يقول ولا عقَلَه.

يوضح ذلك أن الراضي إنما يحمله على احتمال المكاره والآلام ما يجده من لذة الرضا وحلاوته، فإذا فقد تلك الحلاوة واللذة امتنع أن يحتمل ألمًا ومرارة، فكيف يُتصوّر أن يكون راضيًا وليس معه من حلاوة الرضا ما يحمل به مرارة

---

(١) البخاري ١٤٣/٤ (٣٢٤٤) ومسلم ١٤٣/٨ (٢٨٢٤) (٢)

المكاره[1]. وإنما هذا من جنس كلام السكران، والفاني الذي وجد في نفسه حلاوة الرضا فظن أن هذا يبقى معه على أي حال كان، وهذا غلط عظيم منه.

وإن أراد بذلك ألا يسأل التمتع بالمخلوق، بل يسأل ما هو أعلى من ذلك؛ فقد غلط من وجهين: من جهة أنه لم يجعل ذلك المطلوب من الجنة، وهو أعلى نعيم الجنة. ومن جهة أنه أيضًا أثبت أنه طالبٌ مع كونه راضيًا. فإذا كان الرضا لا ينافي هذا الطلب فلا ينافي طلبًا آخر إذا كان محتاجًا إلى مطلوبه.

ومعلوم أن تمتعه بالنظر لا يتم إلا بسلامته من النار، وبتنعّمه من الجنة بما هو دون النظر. وما لا يتم المطلوب إلا به فهو مطلوب، فيكون طلبه للنظر طلبًا للوازمه التي منها النجاة من النار، فيكون رضاه لا ينافي طلب حصول المنفعة ودفع المضرة عنه، ولا طلب حصول الجنة ودفع النار ولا غيرهما مما هو من لوازم النظر. فتبين تناقض قوله.

وأيضًا فإذا لم يسأل الله الجنة ولم يستعذ به من النار؛ فإما أن يطلب من الله ما هو دون ذلك مما يحتاج إليه من طلب منفعة ودفع مضرة، وإما ألّا يطلبه. فإن طلب ما هو دون ذلك واستعاذ مما هو دون ذلك؛ فطلبه للجنة أولى، واستعاذته من النار أولى.

وإن كان الرضا ألّا يطلب شيئًا قط ولو كان مضطرًا إليه، ولا يستعيذ من شيء قط وإن كان مضرًّا؛ فلا يخلو: إما أن يكون ملتفتًا بقلبه إلى الله في أن يفعل

---

(١) كما أُثر عن بلال رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لما سئل عن احتماله العذاب في مكة قال: مزجت مرارة العذاب بحلاوة الإيمان ففاقت حلاوة الإيمان المرارة فاحتملتها. أو نحو هذا.

به ذلك، وإما أن يكون معرضًا عن ذلك. فإن التفت بقلبه إلى الله فهو طالب مستعيذ بحاله، ولا فرق بين الطلب بالحال والقال، وهو بهما أكمل وأتمّ، فلا يعدل عنه. وإن كان معرضًا عن جميع ذلك؛ فمن المعلوم أنه لا يحيا ويبقى إلا بما يقيم حياته ويدفع مضارّه بذلك.

والذي به يحيا من المنافع ودفع المضار إما أن يحبه ويطلبه ويريده من أحد، أو لا يحبه ولا يطلبه ولا يريده، فإن أحبه وطلبه وأراده من غير الله كان مشركًا مذمومًا، فضلًا عن أن يكون محمودًا، وإن قال: لا أحبه ولا أطلبه ولا أريده لا من الله ولا من خلقه؛ قيل: هذا ممتنع في الحي، فإن الحي ممتنع عليه ألّا يحب ما به يبقى، وهذا أمر معلوم بالحس. ومن كان بهذه المثابة امتنع أن يوصف بالرضا، فإن الراضي موصوف بحب وإرادة خاصة، إذ الرضا مستلزم لذلك، فكيف يسلب عنه ذلك كله. فهذا وأمثاله مما يبين فساد هذا الكلام.

وأما في سبيل الله وطريقه ودينه فمن وجوه:

أحدها: أن يقال: الراضي لا بد أن يفعل ما يرضاه الله، وإلا فكيف يكون راضيًا عن الله من لا يفعل ما يرضاه الله؟! وكيف يسوغ رضا ما يكرهه الله ويسخطه ويذمّه وينهى عنه؟! وبيان هذا: أن الرضا المحمود إما أن يكون الله يحبه ويرضاه، وإما ألّا يحبه ويرضاه، فإن لم يكن يحبه ويرضاه، لم يكن هذا الرضا مأمورًا به لا أمر إيجاب ولا أمر استحباب، فإن من الرضا ما هو كفر؛ كرضا الكفار بالشرك، وقتل الأنبياء وتكذيبهم، ورضاهم بما يسخطه الله ويكرهه. قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [مُحَمَّد: ٢٨]، فمن اتبع ما أسخط الله برضاه وعمله فقد أسخط الله.

وقال النبي ﷺ: **«إن الخطيئة إذا عُملت في الأرض كان من غاب عنها ورضيها كمن حضرها، ومن شهدها وسخطها كان كمن غاب عنها وأنكرها»**[(١)]. وقال ﷺ: **«سيكون بعدي أمراء تعرفون وتنكرون، فمن أنكر فقد برئ، ومن كره فقد سلم، ولكن من رضي وتابع»**[(٢)].

وقال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٩٦﴾ [التَّوْبَة: ٩٦]. فرضانا عن القوم الفاسقين ليس مما يحبه الله ويرضاه، وهو لا يرضى عنهم. وقال تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٣٨﴾ [التَّوْبَة: ٣٨]، فهذا رضا قد ذمّه الله. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾ [يُونُس: ٧]، فهذا أيضًا رضًا مذموم، وسوى هذا وهذا كثير.

فمن رضي بكفره وكفر غيره وفسقه وفسق غيره ومعاصيه ومعاصي غيره؛ فليس هو متّبعًا لرضا الله، ولا هو مؤمن بالله، بل هو مُسخط لربه، وربه غضبان عليه، لاعنٌ له، ذامّ له، متوعِّدٌ له بالعقاب.

وطريق الله التي يأمر بها المشايخ المهتدون إنما هي الأمر بطاعة الله، والنهي عن معصيته. فمن أمر، أو استحب، أو مدح الرضا الذي يكرهه الله ويذمه، وينهى عنه، ويعاقب أصحابه؛ فهو عدوٌّ لله، لا وليّ لله، وهو يصدّ عن سبيل الله، وطريقه ليس بسالك لطريقه وسبيله. وذلك أن الرضا نوعان:

---

(١) أبو داود (٤٣٤٥) وحسنه الألباني.

(٢) مسلم (٣/ ١٤٨١) (١٨٥٤)

أحدهما: الرضا بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه، ويتناول ما أباحه الله من غير تعدّ إلى المحظور كما قال: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ [التَّوۡبَة : ٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝٥٩﴾ [التَّوۡبَة : ٥٩]، وهذا الرضا واجب.

ولهذا ذم من تركه بقوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ ۝٥٨ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ۝٥٩﴾ [التَّوۡبَة : ٥٨ - ٥٩].

والنوع الثاني: الرضا بالمصائب، كالفقر والمرض والذل؛ فهذا الرضا مستحب في أحد قولي العلماء، وليس بواجب، وقد قيل: إنه واجب، والصحيح: أن الواجب هو الصبر، كما قال الحسن: «الرضا غريزة، ولكن الصبر مُعَوَّلُ المؤمن».

وأما الرضا بالكفر والفسوق والعصيان؛ فالذي عليه أئمة الدين أنه لا يرضى بذلك، فإن الله لا يرضاه كما قال: ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَ﴾ [الزُّمَر : ٧]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ۝٢٠٥﴾ [البَقَرَة : ٢٠٥]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٩٦﴾ [التَّوۡبَة : ٩٦].

فإذا كان الله سبحانه لا يرضى لهم ما عملوه، بل يسخطه ذلك، وهو يسخط عليهم ويغضب عليهم؛ فكيف يُشرع للمؤمن أن يرضى ذلك، وألّا يسخط ويغضب لما يسخط الله ويغضبه.

والمقصود هنا أن ما ذكره القشيري عن النصر آبادي من أحسن الكلام حيث قال: «من أراد أن يبلغ محل الرضا؛ فليلزم ما جعل الله رضاه فيه»، وكذلك قول الشيخ أبي سليمان: «إذا سلا العبد عن الشهوات فهو راض». وذلك أن العبد إنما يمنعه من الرضا والقناعة طلب نفسه لفضول شهواتها، فإذا لم يحصل سخط، فإذا سلا عن شهوات نفسه رضي بما قسم الله له من الرزق. وكذلك ما ذكره عن الفضيل بن عياض أنه قال لبشر الحافي: «الرضا أفضل من الزهد في الدنيا، لأن الراضي لا يتمنّى فوق منزلته»، كلام حسن، لكن أشك في سماع بشر الحافي من الفضيل.

وكذلك ما ذكره معلّقًا قال: «قال الشبلي بين يدي الجنيد: لا حول ولا قوة إلا بالله. فقال الجنيد: قولك ذا ضيق الصدر، وضيق الصدر لترك الرضا بالقضاء». فإن هذا من أحسن الكلام. وكان الجنيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ سيّد الطائفة ومن أحسنهم تعليمًا وتأديبًا وتقويمًا. وذلك أن هذه الكلمة كلمة استعانة لا كلمة استرجاع. وكثير من الناس يقولها عند المصائب بمنزلة الاسترجاع، ويقولها جزعًا لا صبرًا. فالجنيد أنكر على الشبلي في سبب قوله لها إذ كانت حالًا ينافي الرضا، ولو قالها على الوجه المشروع لم ينكر عليه[1].

ومثل ما ذكر القشيري أنه قيل: كتب عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ إلى أبي موسى الأشعري: «أما بعد؛ فإن الخير كله في الرضا، فإن استطعت أن ترضى وإلا فاصبر». فهذا الكلام كلام حسن وإن لم يعلم إسناده. وإذا تبين أن فيما

---

(١) فلو قالها من باب طلب معونة الله تعالى والتقرب إليه بذكره كان قولها مشروعًا محمودًا.

ذكره مسندًا ومرسلًا ومعلّقًا ما هو صحيح وغيره؛ فهذه الكلمة لم يذكرها عن أبي سليمان إلا مرسلة. وبمثل ذلك لا تثبت عن أبي سليمان باتفاق الناس، فإنه وإن قال بعض الناس: إن المرسل حجة؛ فهذا لم يعلم أن المرسل هو مثل الضعيف وغير الضعيف، فأما إذا عرف ذلك فلا يبقى حجة باتفاق العلماء، كمن علم أنه تارة يحفظ الإسناد وتارة يغلط فيه. والكتب المسندة في أخبار هؤلاء المشايخ وكلامهم مثل كتاب حلية الأولياء لأبي نعيم، وطبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن، وصفة الصفوة لابن الجوزي، وأمثال ذلك لم يذكروا فيها هذه الكلمة عن الشيخ أبي سليمان. ألا ترى الذي رواه عنه مسندًا حيث قال: «قال لأحمد بن أبي الحواري: يا أحمد؛ لقد أوتيتُ من الرضا نصيبًا لو ألقاني في النار لكنت بذلك راضيًا». فهذا الكلام مأثور عن أبي سليمان بالإسناد، ولهذا أسنده عنه القشيري من طريق شيخه أبي عبد الرحمن، بخلاف تلك الكلمة، فإنها لم تُسند عنه، فلا أصل لها عن الشيخ أبي سليمان.

ثم إن القشيري قرن هذه الكلمة الثانية عن أبي سليمان بكلمة أحسن منها، فإنه قبل أن يرويها قال: وسئل أبو عثمان الحيري النيسابوري عن قول النبي ﷺ: **«أسألك الرضا بعد القضاء»**[1]، فقال: «لأن الرضا بعد القضاء هو الرضا». فهذا الذي قاله الشيخ أبو عثمان كلام حسن سديد. ثم أسند بعد هذا عن الشيخ أبي سليمان أنه قال: «أرجو أن أكون قد عرفت طرفًا من الرضا؛ لو أنه أدخلني النار لكنت بذلك راضيًا»! فتبين بذلك أن ما قاله أبو سليمان

---

(١) أحمد (١٨٣٥١) والنسائي (١٣٠٥) وصححه الألباني في الكلم الطيب (١٠٦)

ليس هو رضا، وإنما هو عزم على الرضا، وإنما الرضا ما يكون بعد القضاء. وإن كان هذا عزمًا فالعزم قد يدوم، وقد ينفسخ. وما أكثر انفساخ العزائم، خصوصًا عزائم الصوفية(١)، ولهذا قيل لبعضهم: بماذا عرفت ربك؟ قال: «بفسخ العزائم ونقض الهمم».

وقد قال تعالى لمن هو أفضل من هؤلاء المشايخ: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾ [آل عمران: ١٤٣]، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصف: ٢ - ٤]، وفي الترمذي: أن بعض الصحابة

---

(١) وهو غالب لا مضطرد كما قال، فمنهم من يثبت في عزيمته كالجبال الرواسي لعظيم إيمانه وقديم دُربته وقوة أطر نفسه على الاستقامة، وكان فسخها غالبًا لديهم بالخصوص لأن إرادتهم غلبت علمَهم، فعلمهم بالله تعالى وبشرعه ليس على المستوى المطلوب لإيمانهم، فيبتدئ المريد بقوّةِ عزيمةٍ رغبًا ورَهَبًا ومحبّة وشوقًا، لكنها لا تلبث أن تضعف أو تضمحل في ثاني الحال، فيخبو شعاع الروح تحت كثافة الطين، وينطمر العزم تحت ثقلته؛ لأن تلك العزيمة المشوّشة كانت مبنيّة على وهج رغبة وطرفٍ من علم، فعادت دعوى غير مُحقّقة.

أما إن ساعدها علمُ فقيه بطريق الرسول ﷺ في أعمال الجوارح وأحوال القلوب وما يصلح لها وما يقيمها وما يقوّيها لاختلف الحال، إلا من مانعٍ من خارجٍ، كفسادِ نيّة، أو ضعفِ تديّن، أو خذلانٍ مقدور، والله أعلم.

قالوا للنبي ﷺ: لو علمنا أيّ العمل أحبّ إلى الله لعملناه؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية[١].

وقد قال تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾ [النِّسَاء: ٧٧]. فهؤلاء الذين كانوا قد عزموا على الجهاد وأحبّوه؛ فلما ابتلوا به كرهوه، وفروا منه. وأين ألم الجهاد من ألم النار وعذاب الله الذي لا طاقة لأحد به؟! ومثل هذا ما يذكرونه عن سمنون المحب، أنه كان يقول:

ولــــيس لي في ســـــواكَ حـــــظٌّ فكـــيفما شــــئتَ فـــاختبرني

فأخذه الحَسر من ساعته، أي حُصِرَ بولُه[٢]، فكان يدور على المكاتب[٣]، ويفرّق الجوز على الصبيان ويقول: ادعوا لعمّكم الكذاب[٤].

وحكى أبو نعيم الأصبهاني أن سمنون قال: يا رب، قد رضيتُ بكل ما تقضيه عليّ. فاحتبس بوله أربعة عشر يومًا. فكان يتلوى كما تتلوى الحيّة، يتلوى يمينًا وشمالًا، فلما أطلق بوله قال: رب قد تبتُ إليك.

---

(١) الترمذي (٥ / ٤١٢) (٣٣٠٩) وصححه الألباني.

(٢) كأنه أُصيب بفشل كلوي مؤقت أو حَجَرٍ سدَّ مسالكه.

(٣) أي: طلاب الكتاتيب.

(٤) لأنهم لم يُقارفوا ذنوبًا، فعمدُ الطفل خطأٌ، ومن رحمة الله تعالى بهم أن يحتسب لهم الحسنات دون السيئات.

قال أبو نعيم: فهذا الرضا الذي ادّعى سمنون ظهر غلطه فيه بأدنى بلوى، مع أن سمنونًا هذا كان يضرب به المثل، وله في المحبة مقام مشهور. وقد ذكر القشيري في باب الرضا عن رويم المقري رفيق سمنون قال: قال رويم: إن الراضي لو جعلت جهنم عن يمينه ما سأل الله أن يحوّلها عن يساره! فهذا يشبه قول سمنون: فكيف ما شئت فامتحني. وإذا لم يطق الصبر على عسر البول أفيطيق أن تكون النار عن يمينه؟!

والفضيل بن عياض كان أعلى طبقة من هؤلاء، وابتلي بعسر البول فغلبه الألم حتى قال: بحبّي لك إلّا فرجتَ عني؛ ففرّج عنه.

ورويم وإن كان من رفقاء الجنيد فليس هو عندهم من هذه الطبقة، بل الصوفية يقولون إنه رجع إلى الدنيا، وترك التصوّف، حتى روي عن جعفر الخلدي صاحب الجنيد أنه قال: من أراد أن يتكتم سرًّا فليفعل كما فعل رويم؛ كتم حب الدنيا أربعين سنة[1]، فقيل: وكيف يتصور ذلك؟ قال: وَلِيَ إسماعيل

---

(١) من غرائز النفوس التي لا تكاد تنفك عنها حب الدنيا، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ [آل عِمرَان: ١٤]، وقد أرشد سبحانه بعد بيان حالنا الضعيف مع زينة الدنيا إلى ما ينبغي لنا حقًّا أن نرتقي إليه، فقال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۝١٥﴾ [آل عِمرَان: ١٥].

وقال سبحانه مُعَرِّيًا غريزة بني آدم: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾ [الفَجر: ٢٠]، وقال سبحانه مبيّنًا حقيقة الدنيا وحال الغافلين معها: ﴿ٱعْلَمُوٓا أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ

=

بن إسحاق القاضي قضاء بغداد، وكان بينهما مودة أكيدة فجذبه إليه، وجعله وكيلًا على بابه، فترك لبس التصوف، ولبس الخزّ والقَصَب والديبقي، وأَكَلَ الطيبات[1] وبنى الدور، وإذا هو كان يكتم حبّ الدنيا ما لم يجدها، فلما وجدها

= بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ [الحديد: ٢٠]، ثم نقل الوصف مباشرة للآخرة فقال: ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ٢٠] أي: اختاروا مصيركم، واحرثوا لآخرتكم، واعملوا لمنازلكم غدًا.

وتدبر قوله تعالى ورحمته بنا حين زوى كثيرًا من ترف الدنيا عنا، فقال سبحانه: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزخرف: ٣٣]

قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لولا أن يكون الناس كفارًا أجمعون، يميلون إلى الدنيا، لجعل الله تبارك وتعالى الذي قال، ثم قال: والله لقد مالت الدنيا بأكثر أهلها، وما فعل ذلك، فكيف لو فعله»؟! ذكره الطبري في تفسيره (٢١/٥٩٨).

وبالجملة؛ فلعل مقصودهم بكتمان حبّ الدنيا: أي حبّ المبالغة في زينتها والتنافس في حطامها الذي يقسّي القلب فيغفل عن معالي الآخرة. وبما قصدوا - وهذا أظهر -: ترك مظاهر التصوف التي أصّلها المتصوفة لأنفسهم من غير هدى من الله، ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد: ٢٧]، فاشترطوا زيًّا معينًا من الصوف والخِرَق البالية زعمًا أنه من لوازم الطريق، وما هو من لوازمه، ولكن من اكتفى به زهدًا في الدنيا بدون شهرة أو تعاظم أو قصد أنها سنّة متّبعة فلا بأس، حفظًا للنفس من غيلة الترف، والله أعلم.

(١) لعلّ قصده الترفّه والتنعّم لا مطلق الطيبات، فقد قال سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ =

ظهر ما كان يكتم من حبّها. هذا مع أنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان له من العبادات ما هو معروف، وكان على مذهب داود.

وهذه الكلمات التي تصدر عن صاحب حال[١] لم يفكر في لوازم أقواله وعواقبها، لا تُجعلُ طريقة ولا تُتخذ سبيلًا، ولكن قد يستدل بها على ما لصاحبها من الرضا والمحبة ونحو ذلك، وما معه من التقصير في معرفة حقوق الطريق[٢]، وما يقدر عليه من التقوى والصبر.

والرسل صلوات الله عليهم أعلم بطريق سبيل الله وأهدى وأنصح، فمن خرج عن سنتهم وسبيلهم كان منقوصًا مخطئًا محرومًا، وإن لم يكن عاصيًا[٣] أو فاسقًا أو كافرًا.

= ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ [الأعراف: ٣٢]. وفي صحيح البخاري معلّقًا (١٠/٢٦٤) ووصله النسائي: قال النبي ﷺ: **«كلوا واشربوا والبسوا وتصدّقوا في غير إسراف ولا مَخِيلة»**. وللقَسطلاّني رَحِمَهُ ٱللَّهُ تحرير نافع في إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (١/٣٣٣).

(١) أي: انه استغرق بمشاعر قلبه الدينية وخواطر روحه الإيمانية بلا قيودِ عقلٍ يحجزه عن تجاوز أو تبيّن حقائق الأمور على ضوء العلم الشرعي، فهو إحساس وإرادة بلا كفاية علم وبصيرة.

(٢) أي حقوق سلوك التنسّك والتعبد، فليس حِمًا مباحًا لكل من أراد، بل هو مشروط بشروط الشرع، كالإخلاص والاتّباع والعلم والتوكل والمجاهدة والتثبت ونحوها.

(٣) لجهله، ويُعتذر عنه إن كان ثَمَّ تأويل، ولا يُتابَع على خطئه.

ويشبه هذا الأعرابي الذي دخل عليه النبي ﷺ وهو مريض كالفرخ، فقال: **«هل كنت تدعو الله بشيء»؟**(١) قال: كنت أقول: اللَّهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فاجعله في الدنيا. فقال: **«سبحان الله، لا تستطيعه ولا تطيقه»، هلّا قلت: «ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار»**(٢). فهذا أيضًا حَمَلَه خوفه من عذاب النار، ومحبته لسلامة عاقبته، على أن يطلب تعجيل ذلك في الدنيا، وكان مخطئًا في ذلك غالطًا. والخطأ والغلط مع حسن القصد وسلامته، وصلاح الرجل وفضله ودينه وزهده وورعه وكراماته كثير جدًّا، فليس من شرط وليِّ الله أن يكون معصومًا من الخطأ والغلط، بل ولا من الذنوب، وأفضل أولياء الله بعد الرسل أبو بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال له لمّا عَبَرَ الرؤيا: **«أصبت بعضًا وأخطأت بعضًا»**(٣).

(١) وهذا من فراسته ﷺ، ومعرفته بنفوس أصحابه وطبائعهم، أو من وحي الله تعالى له.

(٢) مسلم (٨/٦٨) وفي رواية: «فقالها، فشفاه الله».

(٣) رواه البخاري (٩/٤٣، ٥٥) ومسلم (٧/٥٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، أن رجلًا أتى رسول الله ﷺ، فقال: إني رأيت الليلة في المنام ظُلَّةً تنطُف السمن والعسل، فأرى الناس يتكفّفون منها فالمستكثر والمستقل، وإذا سببٌ واصل من الأرض إلى السماء، فأراك أخذت به فعلوت، ثم أخذ به رجل آخر فعلا به، ثم أخذ به رجل آخر فعلا به، ثم أخذ به رجل آخر فانقطع ثم وُصِل.

فقال أبو بكر: يا رسول الله بأبي أنت، والله لتدعني فأعْبُرها. فقال النبي ﷺ: **«اعبُر»** قال: أما الظُّلَّةُ فالإسلام، وأما الذي ينطف من العسل والسمن فالقرآن، حلاوته تنطُفُ =

ويشبه ـ والله أعلم ـ أن أبا سليمان لما قال هذه الكلمة: «لو ألقاني في النار لكنت بذلك راضيًا»، أن يكون بعض الناس حكاه بما فهمه من المعنى أنه قال: الرضا ألا تسأل الله الجنة ولا تستعيذه من النار.

وتلك الكلمة التي قالها أبو سليمان ـ مع أنها لا تدل على رضاه بذلك ـ ولكن تدل على عزمه بالرضا بذلك، فنحن نعلم أن هذا العزم لا يستمر، بل ينفسخ، وأن هذه الكلمة كان تركها أحسن من قولها(١)

= فالمستكثر من القرآن والمستقلّ، وأما السبب الواصل من السماء إلى الأرض فالحقّ الذي أنت عليه؛ تأخذ به فيعليك الله، ثم يأخذ به رجل من بعدك فيعلو به، ثم يأخذ رجل آخر فيعلو به، ثم يأخذ رجل آخر فينقطع به، ثم يوصل له فيعلو به. فأخبرني يا رسول الله، بأبي أنت، أصبت أم أخطأت؟ قال النبي ﷺ: **«أصبت بعضًا وأخطأت بعضًا»**، قال: فوالله لتحدثني بالذي أخطأت. قال: **«لا تُقسم»**.

قلت: ولعله حدّثه لاحقًا عنها إبرارًا لقسمه، ولم يشهد ابن عباس ذلك، والله أعلم. والظُّلَّة: هي السحابة تظل من تحتها، وقد يطلق على الجبل، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [لقمان: ٣٢] ومعنى تنطف: أي تقطر. ومعنى يتكففون، من التكفف وهو مدّ الأيدي للأخذ. والسبب هو الحبل، ومنه قول الله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ [الحج: ١٥]، وكل ما يتوصل به إلى ما يتعذر الوصول إليه، فهو سبب. وعَبَرَ الرؤيا وعبرتها ـ بتخفيف الباء وبتشديدها كذلك ـ: إذا أخبر بما يؤول إليه أمرها.

(١) إنصاف عظيم ولطف بالغ من هذا الإمام الجليل. وهذا من حفظ مقامات أهل الفضل، ولا يعرف الفضلَ لأهل الفضلِ إلّا أهلُ الفضل. قال ابن كثير في البداية والنهاية (١٠ / =

=
٢٧٨): «أبو سليمان الداراني عبد الرحمن بن عطية، أحد أئمة العلماء العاملين، أصله من واسط، سكن قرية غربي دمشق يقال لها داريا. وقد سمع الحديث من سفيان الثوري وغيره، وروى عنه أحمد بن أبي الحواري وجماعة». وقال الذهبي في تاريخ الإسلام (١٥ / ٢٥٣): «قال الجنيد: قال أبو سليمان: أفضل الأعمال خلاف هوى النفس. وقال: لكل شيء علم، وعلم الخذلان ترك البكاء، ولكل شيء صدأ، وصدأ نور القلب شبع البطن.
وقال أحمد بن أبي الحواري: سمعت أبا سليمان يقول: أصل كل خير الخوف من الله، ومفتاح الدنيا الشبع، ومفتاح الآخرة الجوع.
وقال أبو سليمان: إذا تكلف المتعبدون أن يتكلموا بالإعراب ذهب الخشوع من قلوبهم. وقال أحمد: رأيت أبا سليمان حين أراد أن يلبّي غشي عليه، فلما أفاق قال: بلغني أن العبد إذا حج من غير وَجْهِهِ، فلبى قيل له: لا لبيك ولا سعديك حتى تطرح ما في يديك، فما يؤمننا أن يقال لنا مثل هذا! ثم لبّى.
وقال الجنيد: شيء يروى عن أبي سليمان أنا أستحسنه كثيرًا، قوله: من اشتغل بنفسه شغل عن الناس، ومن اشتغل بربه شغل عن نفسه وعن الناس».
وقال ابن القيم في روضة المحبين (١ / ٤٣٩): «قال ابن أبي الحواري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سئل أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأنا حاضر: ما أقرب ما يُتقرب به إلى الله عز وجل؟ فبكى، ثم قال: مثلي يسأل عن هذا، أقرب ما يتقرب به إليه أن يطّلع على قلبك وأنت لا تريد من الدنيا والآخرة إلا هو». وقال (١ / ٤٤١): «قال أبو سليمان الداراني: من صفا صُفِّيَ له، ومن كدر كُدِّرَ عليه، ومن أحسن في ليله كوفئ في نهاره، ومن أحسن في نهاره كوفئ في ليله، ومن ترك لله شهوة من قلبه فالله أكرم أن يعذّب بها قلبه». وقال في المدارج (٢ / ٢٢): «قال أبو سليمان الداراني: الورع أول الزهد، كما أن القناعة أول الرضا».
وبالجملة؛ فالشيخ أبو سليمان الداراني مشهور بالعلم والعبادة والورع والفضل والوعظ والخير والحروف النافعة، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وأنها مُستدرَكة[١]، كما استدركت دعوى سمنون ورويم، وغير ذلك. فإن بين هذه الكلمة وتلك فرقًا عظيمًا؛ فإن تلك الكلمة مضمونها: أن من سأل الجنة واستعاذ من النار لا يكون راضيًا! وفرقٌ بين من يقول: أنا إذ فعل كذا كنت راضيًا، وبين من يقول: لا يكون راضيًا إلا من لا يطلب خيرًا، ولا يهرب من شرّ.

وبهذا وغيره يعلم أن الشيخ أبا سليمان كان أجلّ من أن يقول مثل هذا الكلام، فإن الشيخ أبا سليمان من أجلاء المشايخ وساداتهم، ومن أتبعهم للشريعة، حتى إنه قال: «إنه لتمرُّ بقلبي النكتة من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين: الكتاب والسنة»[٢]. فمن لا يقبل نكتة قلبه إلا بشاهدين يقول مثل هذا الكلام؟! وقال الشيخ أبو سليمان أيضًا: ليس لمن أُلهم شيئًا من الخير أن يفعله حتى يسمع فيه بأثر، فإذا سمع فيه بأثر كان نورًا على نور، بل صاحبه أحمد بن أبي الحواري كان من أتبع المشايخ للسنة، فكيف أبو سليمان!

وتمام تزكية أبي سليمان من هذا الكلام تظهر بالكلام في المقام الثاني؛ وهو قول القائل كائنًا من كان: «الرضا ألا تسأل الله الجنة ولا تستعيذه من النار». ونقدم قبل ذلك مقدمة نبين بها أصل ما وقع في مثل هذه الكلمات من الاشتباه والاضطراب. وذلك أن قومًا كثيرًا من الناس من المتفقّهة، والمتصوّفة،

---

(١) أي: محتسبة محفوظة عليه من جُمَلِ أخطائه.

(٢) وقد استشهد شيخ الإسلام بهذا الحرف الداراني في مواطن كثيرة في مؤلفاته، ومن أسباب ذلك أنّه من أجِلّاء المتصوّفة، وله قبول رحيب لديهم، من باب شاهد الأهل، رحمهما الله تعالى.

والمتكلّمة وغيرهم، ظنّوا أن الجنة هي التنعّم بالمخلوق، من أكل، وشرب، ونكاح، ولباس، وسماع أصوات طيبة، وشمّ روائح طيبة، ولم يُدخلوا في مسمى الجنة نعيمًا غير ذلك.

ومذهب سلف الأمة وأئمتها ومشايخ الطريق إثبات تنعم المؤمنين برؤية ربهم، كما في الحديث الذي في النسائي[1] وغيره، عن النبي ﷺ: **«اللّٰهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني إذا كانت الحياة خيرًا لي، وتوفّني إذا كانت الوفاة خيرًا لي، اللّٰهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحقّ في الغضب والرضا، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيمًا لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء، وبرْدَ العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، وأسألك الشوق إلى لقائك، من غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة، اللّٰهم زيِّنَّا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين»**.

وفي صحيح مسلم[2] وغيره، عن صهيب، عن النبي ﷺ قال: **«إذا دخل أهل الجنة الجنة؛ نادى منادٍ: يا أهل الجنة؛ إن لكم عند الله موعدًا يريد أن ينجزْكُموه. فيقولون: ما هو؟ ألم يُبيّض وجوهنا، ويثقّل موازيننا، ويدخلنا الجنة، ويجرنا من النار، قال: فيكشف الحجاب، فينظرون إليه. فما أعطاهم شيئًا أحبّ إليهم من النظر إليه»**.

(١) سنن النسائي (٣/ ٥٤) (١٣٠٥) وصححه الألباني.
(٢) مسلم (٢٩١)

وكلما كان الشيء أحب، كانت اللذة بنيله أعظم. وهذا متفق عليه بين السلف والأئمة ومشايخ الطريق. كما روي عن الحسن البصري أنه قال: «لو علم العابدون بأنهم لا يرون ربهم في الآخرة؛ لذابت نفوسهم في الدنيا شوقًا إليه». وكلامهم في ذلك كثير.

وطوائف من المتصوّفة، والمتفقّرة، والمتبتّلة وافقوا هؤلاء على أن المحبة ليست إلا هذه الأمور التي يتنعّم فيها المخلوق، ولكن وافقوا السلف والأئمة على إثبات رؤية الله، والتنعّم بالنظر إليه، وجعلوا يطلبون هذا النعيم وتسمو إليه همتهم، ويخافون فوته، وصار أحدهم يقول: «ما عبدتك شوقًا إلى جنتك، أو خوفًا من نارك، ولكن لأنظر إليك، وإجلالًا لك»[١].

وأمثال هذه الكلمات، ومقصودهم بذلك هو أعلى من الأكل والشرب، والتمتع بالمخلوق، لكن غلطوا في إخراج ذلك من الجنة.

وقد يغلطون أيضًا في ظنهم أنهم يعبدون الله بلا حظٍّ ولا إرادة، وأن كل ما يطلب منه فهو حظ النفس، وتوهموا أن البشر يعمل بلا إرادة ولا مطلوب ولا محبوب، وهو سوء معرفة بحقيقة الإيمان والدين والآخرة. وسبب ذلك أن همّة أحدهم المتعلقة بمطلوبه ومحبوبه ومعبوده تنفيه عن نفسه، حتى لا يشعر بنفسه وإرادتها، فيظن أنه يفعل لغير مراده، والذي طلب وعلق به همته غاية مراده ومطلوبه ومحبوبه.

---

(١) مرويّة عن العابدة رابعة العدوية رحمها الله تعالى، إن صحّ النقل عنها.

وهذا كحال كثير من الصالحين والصادقين، وأرباب الأحوال والمقامات، يكون لأحدهم وجدٌ صحيح، وذوق سليم، لكن ليس له عبارة تبين كلامه، فيقع في كلامه غلط وسوء أدب، مع صحة مقصوده، وإن كان من الناس من يقع منه في مراده واعتقاده.

فهؤلاء الذين قالوا مثل هذا الكلام إذا عنوا به طلب رؤية الله تعالى أصابوا في ذلك، لكن أخطئوا من جهة أنهم جعلوا ذلك خارجًا عن الجنة، فأسقطوا حرمة اسم الجنة، ولزم من ذلك أمور منكرة، نظير ما ذكره عن الشبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه سمع قارئًا يقرأ: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٢]، فصرخ، وقال: أين مريد الله؟ فيُحمد منه كونه أراد الله، ولكن غلط في ظنه أن الذين أرادوا الآخرة ما أرادوا الله، وهذه الآية في أصحاب النبي ﷺ الذين كانوا معه بأحد، وهم أفضل الخلق، فإن لم يريدوا الله، أفيريد الله من هو دونهم كالشبلي وأمثاله؟! ومثل ذلك ما أعرفه عن بعض المشايخ أنه سئل مرة عن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التَّوبَة: ١١١].[1] قال: فإذا كان الأنفس والأموال في ثمن الجنة، فالرؤية بم تنال؟ فأجابه مجيب بما يشبه هذا السؤال.

---

(١) يرد في القرآن العزيز لفظ شرى واشترى وما تفرع عنهما، والفرق في المعنى أن ما جاءت بحرف التاء (يشتري، اشتراه، ليشتروا..) فهي الأخذ - وهو المسمى عرفًا بالشراء - أما ما خلت من التاء (يشري، شروا، وشروه) فهي بمعنى البيع. ومعنى الآية هنا ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى﴾ [البَقَرَة: ٢٠٧]، أي: يبيع نفسه.

والواجب أن يُعلم أن كل ما أعده الله للأولياء من نعيم بالنظر إليه، وما سوى ذلك هو في الجنة، كما أن كل ما وعد به أعداءه هو في النار. وقد قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٧﴾ [السَّجْدَة : ١٧].

وإذا عُلم أن جميع ذلك داخل في الجنة، فالناس في الجنة على درجات متفاوتة، كما قال: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ وَلَلْأَخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ٢١﴾ [الإِسْرَاء : ٢١]. وكل مطلوب للعبد بعبادة أو دعاء أو غير ذلك من مطالب الآخرة هو في الجنة. وطلب الجنة، والاستعاذة من النار، طريق أنبياء الله ورسله، وجميع أوليائه السابقين المقربين، وأصحاب اليمين»[1].

وبعد؛ فعلى المؤمن ألا يستحسر عن الدعاء، وإلا يستهين به، فهو من أعظم أسباب التوفيق في الدنيا والآخرة، وألّا يزيغ بظن عدم جدواه، أو أنه معارِضٌ لرضا القلب، بل عليه أن يسأل ربه ما شاء من مطالب الدنيا والآخرة، وأن يُعلي همته في مطالبه، وألا ينكل عن سؤال ربه ما يؤرق راحته ويكدّر صفوه من أمر الآخرة والدنيا، فإن الروح إذا كلّت عميت أو كادت، ورب أمر صغير تُبنى عليه كبريات الأمور، والله المستعان.

---

(١) الفتاوى الكبرى (٢ / ٤٠١- ٤١٢) باختصار. وسيأتي بسط موضوع انفساخ العزائم في الفصل القادم بإذن الله تعالى.

فيا نازفًا همَّه بدموعه، ومُرسلًا شجنه بأنينه، وباثًّا شكايته بزفراته؛ أبشر ببشرى الله لك: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البَقَرَة: ١٨٦].

السابع: الظن بأن التنعّم بالمباحات ينقص الرضا.

وهذا ظن باطل، فإن الله تعالى يقول: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأَعْرَاف: ٣٢]، والنبي ﷺ قد حبب الله إليه النساء والطيب، وكان لا يردّ موجودًا ولا يتكلّف مفقودًا، وربّ مباح أعان على طاعة وَرَدّ عن شهوة حرام. قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما زال جماعة من المتزهدين يُزرون على كثير من العلماء إذا انبسطوا في مباحات. والذي يحملهم على هذا الجهل. فلو كان عندهم فضل علم ما عابوهم.

وهذا لأن الطباع لا تتساوى، فرب شخص يصلح على خشونة العيش، وآخر لا يصلح على ذلك، ولا يجوز لأحد أن يحمل غيره على ما يطيقه هو.

غير أن لنا ضابطًا هو الشرع، فيه الرخصة وفيه العزيمة. فلا ينبغي أن يُلام من حصر نفسه في ذلك الضابط. ورب رخصة كانت أفضل من عزائم لتأثير نفعها.

ولو علم المتزهّدون أن العلم يوجب المعرفة بالله تعالى، فتنبت القلوب من خوفه، وتنحلّ الأجسام للحذر منه؛ فوجب التلطّفُ حفظًا لقوة الراحلة. ولأن آلة العلم والحفظ القلب والفكر، فإذا رُفّهت الآلة جاد العمل، وهذا أمر لا يُعلم إلا بالعلم.

فلجهل المتزهدين بالعلم أنكروا ما لم يعلموا، وظنوا أن المراد إتعاب الأبدان، وإنضاء الرواحل، وما علموا أن الخوف المضني يحتاج إلى راحةٍ مقاوِمة، كما قال القائل: «روِّحوا القلوب تعي الذكر».»[1].

ولكن لا يعني هذا أن تكون الدنيا هي المقصد، فقد خاب من أولاد آدم من كان سعيه لها دون الدار الحيوان الآخرة، قال تبارك وتعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٦﴾ [هود: ١٥ - ١٦]. وقال ﷺ: **«تعس عبد الدينار، والدرهم، والقطيفة، والخميصة، إن أُعطي رضي، وإن لم يُعط لم يرض»**[2]. اللّٰهم لا تجعل الدنيا أكبر همّنا ولا مبلغ علمنا.

أَظْهَــــروا لِلنّـــاسِ نُســـكًا ... وعَــــلى المَنقــــوشِ داروا
ولَــــهُ صــــاموا وَصَــــلّوا ... وَلَــــهُ حَجّــــوا وَزاروا
وَلَــــهُ قــــاموا وَقــــالوا ... وَلَــــهُ حَلّــــوا وســــاروا
لَـــو غَـــدا فَـــوقَ الثُرَيّـــا ... وَلَهُـــم ريـــشٌ لَطـــاروا

---

(١) صيد الخاطر (١ / ٣٠)

(٢) البخاري ٨/١١٤ (٦٤٣٥) والقطيفة: كساء له خمل، والخميصة: ثوب خزّ أو صوف معلّم. النهاية (٢/٨١، ٤/٨٤)

والمقصود؛ أن تنعّم المؤمن فيما آتاه الله تعالى مما أباحه لا ينافي الرضا ولا ينقصه، وقد كان حال النبي ﷺ قائم على القناعة وإحسان سياسة النفس بما تيسّر من الطيّبات، فالموجود لا يردُّه، والمفقود لا يطلبُه، وكان يحب الطيبات من النساء والطيب والحلواء والعسل والدبّاء واللحم وغيرها، ولم يهتد به من منع نفسه اللحم ظانًّا أن هذا من هدي الشريعة، فقد كان ﷺ يأكله، بل وذكر حبّه له، ورسول الله لا يحب إلا طيّبا، ففي حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما أضافه وقدم له اللحم قال ﷺ: **«كأنك قد علمتَ حُبّنا للّحم»**[1].

فإنّ من كماله ﷺ أنه يحب من الطعام الطيبات التي يحبها سائر الناس، فقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون غذاءُ الآدميين تبعًا لما تقوم به أجسادهم، فجعلها من مشتهياتهم من الطيبات، فميل النفوس لما يلائمها مما اقتضته سنة الله تعالى في خلقه هو من الكمالات، وضده نقص، وإنّ من أطيب وأنفع وأقوى ما يقوم به الجسد اللّحم.

وعليه؛ فقد أحبّ رسولُ الله ﷺ طيّبات اللحم كما أحب العسل والحلواء والدُّبَّاء[2] وغير ذلك مما نقل من محبته له، ولعلّ رسول الله ﷺ قد

---

(١) أحمد في مسنده (١٥٢٨١) وقال محققوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير نبيح العنزي، فقد روى له أصحاب السنن، وهو ثقة.

(٢) روى البخاري (٥٤٣١) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول اللَّهِ ﷺ يُحِبُّ الحَلْواءَ والعَسَلَ». وروى أيضًا (٢٠٩٢) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أنّ خيّاطًا دعا رسول الله ﷺ لطعام صنعه، قال أنس: فذهبت مع رسول الله ﷺ إلى ذلك الطعام، فقرّبَ إلى رسول الله ﷺ خبزًا من شعير ومَرَقًا فيه دُبَّاءٌ وقَديد، قال أنس: =

قصد بذكر محبته للحم تطييب قلب جابر وإدخال السرور عليه لِمَا قدّمه من أيّ طعام كان سواء أكان لحمًا أو غيره من الطيبات، خاصة وأن في تقديم اللحم للأضياف كلفته في ذلك الزمن، كما أن رسول الله ﷺ قد ذكر المحبة بلفظ الجمع «**حبّنا للحم**»، فلعلّ فيه إشعار بأن من معه هم كذلك، وأنه قد أدخل نفسه معهم في تلك المحبة، كذلك فالبشر على العموم محبون لهذا اللون من الطعام، بل لعله في رأس السلّم الغذائي في رغائب موائدهم سواء أدركوا حاجتهم منه أم لم يدركوها، وتأمل تقديمه في الولائم لمن كان قادرًا، كما في أمره ﷺ لعبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما تزوج فقال: «**أولم ولو بشاة**»(١)، وكان ﷺ يأكل لحم الإبل والغنم والدجاج والصيد والسمك وضحّى عن نسائه بالبقر، وقد أضاف إبراهيمُ عليه السلام الملائكة عجلًا مشويًّا، وقد ذكر الله تعالى اللحم طعامًا لأهل الجنة فقال سبحانه: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١﴾ [الوَاقِعَة: ٢١]، وأخرج مسلم (٢) من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في سؤالات اليهودي لرسول الله ﷺ وفيه: قال اليهودي: فما تُحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال:

= فرأيت رسول الله ﷺ يتتبّعُ الدّباء من حوالي الصَّحْفَة، فلم أزل أحبُّ الدُّبّاء من يومئذ». والدباء هو اليقطين وهو القرع. أما القديد فهو اللحم المُقدَّد المُشرَّح المُملّح، يقطع طوالًا ويملّح ويجفف في الشمس، وفائدة الملح أن يخرج الرطوبة من اللحم سريعًا، ويُعلّق في مكان جافٍّ حتى لا تدركه العفونة، وتبقى بعض بكتيريا نافعة تنضج اللحم على الوقت الطويل. وهي تقنية للطعام قديمة عند أكثر الشعوب.

(١) البخاري (٥١٥٥) ومسلم (١٤٢٧)

(٢) مسلم (٣١٥)

«زيادة كبد النون»، قال: فما غذاؤهم على أثرها؟ قال: **«يُنحر لهم ثورُ الجنة، الذي كان يأكل من أطرافها»**[١]، قال: فما شرابهم عليه؟ قال: **«من عين فيها تُسمّى سلسبيلًا»**.. فذكر الحديث، وفيه: فقال اليهودي: لقد صدقتَ، وإنّك لنبيٌّ. وانصرف.

وروى الشيخان[٢] حديثًا عجيبًا عن أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: **«تكون الأرض يوم القيامة خبزةً واحدة يتكفَّؤُها الجبار بيده[٣] كما يَكْفَأُ أحدكم خبزته في السَّفَر[٤]، نُزُلًا لأهل الجنة»**[٥]، فأتى رجل من اليهود فقال: «بارك الرحمن عليك يا أبا القاسم، ألا أخبرك بنزل أهل الجنة يوم القيامة»؟ قال: **«بلى»**، قال: «تكون الأرض خبزة واحدة». كما قال النبي ﷺ، فنظر النبي ﷺ إلينا، ثم ضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال[٦]: «ألا أخبرك بإدامهم»؟[٧] قال: «إدامهم بَالَامٌ ونُونٌ»، قالوا: وما هذا؟ قال[٨]: «ثورٌ

(١) ولعلّه الثور الوحشي، وهو من أطيب الصيد عند العرب.

(٢) البخاري (٢٧٩٢) ومسلم (٢٧٩٢)

(٣) أي: يقلّبها ويميلها بيده لإصلاحها وإنضاجها.

(٤) وتسمّى خبزة الملّة.

(٥) أي: ضيافة لهم حين ينزلونها.

(٦) أي: اليهودي.

(٧) أي: ما يؤكل به الخبز.

(٨) أي: اليهودي.

ونون، يأكل من زائدة كبدهما سبعون ألفًا». والنون هو الحوت، أما البالام فقد بيّنه حين استفهموه بأنه الثور[(١)].

وقد سبق وأخبرهم النبيُّ ﷺ بذلك كما في حديث ثوبان الآنف، فجاء هذا الحَبْرُ فصدّقه في كل ما قال، وهذا من دلائل نبوّته ﷺ، وفيه أنّ الأرض ستصبح بقدرة الله تعالى خبزة واحدة ورغيفًا عظيمًا وطعامًا طيّبًا نزلًا من الله تعالى لأهل الجنة، فسبحان من بيده أمر كل شيء، وهو على كل شيء قدير.

(١) ولعله الثور. وفي مصابيح الجامع للبدر الدماميني (٩/٤٤٩): «حكى السفاقسي عن الخطابي أنه قال: أما النونُ، فهو الحوت، وأما بالامٌ، فإنّه شيء مبهَم دلَّ الجوابُ من اليهودي على أنه اسمٌ للثور، وهو ما لم ينتظم، فيشبه أن يكون اليهودي أرادَ أن يعمِّي الاسمَ بتقطيع الهجاء، وقدَّمَ أحدَ الحرفين، فقال: بالام، وإنّما هو في حق الترتيب؛ لا با هجاء لأى على وزن لَعى؛ أي: ثور، فصحَّفَ فيه الرواية: «بالام»، فأشكلَ واستبهمَ. قال: وهذا أقربُ ما يقع لي فيه، إلّا أن يكون ذلك بغير لسان العرب، فإن المخبِرَ يهوديٌّ، فلا يبعد أن يكون إنما عَبَّرَ عنه بلسانه». أهـ.

قلت: وقد أخبر صلى الله عليهم وسلم بتحفتهم في حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الثابت في مسلم (٣١٥) في سؤالات اليهودي، وإجابات رسول الله ﷺ، ومنها: «**تحفتهم يوم يدخلون الجنة زيادةُ كبد النون**». قال: ما غذاؤهم على إثرها؟ قال: «**يُنحر لهم ثور الجنة، الذي كان يأكل من أطرافها**» قال: فما شرابهم على إثرها؟ قال: «**من عين فيها تسمى سلسبيلًا**». ولا يبعد أن يكون الثور هو بقر الوحش الذي يسمّى المها والوضيحي، فهو من شُرَّدِ الصيد، وتستطيبه العرب جدًّا، وإن كان هو والحوت من حيوان الجنة الذي ليس في الدنيا منهما سوى الاسم، وبالله التوفيق.

ولعلّ من حِكم ذلك حتى يوقن أهل الجنة أن لا عودَ إلى الدنيا بعد فناء الأرض التي أكلتهم أوَّلًا فأكلوها آخرًا، فيزداد نعيمهم بالخلود.

وعلى المؤمن أن يوقن بصدق كل ما ثبت عن النبي ﷺ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحُجُرات: ١٥]. أما المراد من الضحك في هذا الحديث فهو كمالُ التبسم، وإنما ضحك سرورًا بأن شهد له الحبر الإسرائيلي بما في التوراة بتصديق ما أخبر أصحابه به، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الشُّعَراء: ١٩٧].

وبالجملة؛ ففي هذا إثبات محبته ﷺ للَّحم على خلاف من امتنعوا منه قصدًا ممن يُسمّون بالنباتيين الذين خالفوا فطر الناس. قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الفتح (١):«وكان ذلك لقلة الشّيء عندهم فكان حبّهم له لذلك.. وأمّا ما ورد عن عمر وغيره من السّلف من إيثار أكل غير اللحم على اللحم، فإمّا لقمع النّفس عن تعاطي الشّهوات والإدمان عليها، وإمّا لكراهة الإسراف والإسراع في تبذير المال لقلة الشّيء عندهم إذ ذاك». وكفى بهذه الآية الفاذّة الجامعة، قال سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأعراف: ٣٢].

هذا؛ ومن فُتح له باب زهد فليحمد الله تعالى عليه، ولكن لا يحمل الناس على مذهبه، ولا يجبرهم على اختياره، ولا يسيّرهم راغمين على مساره،

---

(١) الفتح (٩ / ٥٥٦)

ولا يلزمهم مالم تلزمهم به الشريعة، وكلٌّ ميسّر لما خلق له، فقد يكون مَنْ ظاهره الترف أعلى درجة عند الله ممّن ظاهره الزهد، فقد تكون تلك المظاهر مُعِينة له على ضبط إيمانه بسياسة نفسٍ حكيمة، وبطرائق منهجية مشروعة، وله خبايا لا يعلم بها إلا الله تعالى.

ولقد كان زين العابدين علي بن الحسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ - فيما ذكره الذهبي عن ابن إسحاق - يُبخّل، لأنّه كان يُنفق سرًّا ويظن أهله أنه يجمع الدراهم. فلما مات فقده أهل مئة بيت في المدينة لم يكونوا على علم بمن يضع لهم الطعام عند أبوابهم ليلًا حتى رحل لربه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولما غسّلوه وجدوا بظهره أثرًا مما كان ينقل الجُرُبَ بالليل إلى منازل الأرامل! فالاعتبار ليس بالظاهر.

والمقصود؛ أن الزهد عبادة عزيزة لكنها جارية على الأحكام التكليفية الخمس، فزهد واجب عن الحرام، ومستحبّ عما يشغل عن الآخرة، ومكروه في حال إشغاله عن عبادة أرجى في الميزان منه، ومباح فيما استوى طرفاه، ومحرّم فيما لو ترتّب عليه تفريط في واجب أو وقوع في حرام، ونحو ذلك.

وبالجملة؛ فليس لأحد ان يحمل الناس على أمرِ شِدّة ولهم فيها سعة في دين الله تعالى، فمِن الناس من يُلزم أهله وولده وأسرته بأمور من الزهد هي من الفضائل لا من العزائم، بل قد يقع بعضهم في تحريم حلالٍ بيّنِ الحِلّ، وقد يؤولُ الأمر بهم بسبب الإلزام لخلاف مقصده الناصح ونيّته الصادقة، لكن إن وُفِّقَ للينٍ وحكمة فعرضها عليهم عرضًا مُقنعًا مناسبًا لطيفًا رفيقًا كان ذلك أدعى لقبولهم، لكن بلا اخشيشانِ خُلُقٍ، ولا إلزامٍ بعيشٍ لم يُلزمهم به الدين.

وعن عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: جاء رجل إلى وهيب بن الورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فجعل كأنه يذكر الزهد، قال: فأقبل عليه وهيب فقال: «لا تحمل سعة الإسلام على ضيقة صدرك»(١).

وقال أيوب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن زَهَدَ رجلٌ فلا يجعلنَّ زُهده عذابًا على الناس»(٢).

ولِمَن زُوي عنه شيءٌ يريده من رزق الله تعالى: أَبْشِرْ، فإنّك بعينِ الله تعالى وعلمه، فقد خار لك صالحَك، وسوف يسوق رزقك المناسب لك في أوانه المناسب لك، فهو القائل: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٢﴾ [الشورى: ١٢]، وتدبر عموم: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٢﴾، فلا تخفى عليه خافيتك يا عبدَهُ، فهو عليم بك وبحاجتك ورغبتك وبما يُصلح دينك ودنياك، فأنت فقيرُه وضعيفُه وكسيرُه وعبدُه ومملوكُه ومرحومُه، فاحمد واشكره وارضَ عنه وأرضِهِ، والحمد لله رب العالمين.

أَلا يا صَبا نَجدٍ مَتَى هِجتَ مِن وجدٍ فقَد زَادَنِى مَسرَاكَ وَجْدًا عَلَى وَجدِى
أَإنْ هَتَفَت وَرقَاءُ فِي رَونَقِ الضُّحَى عَلَى فَنَنٍ غَضِّ النَّبَاتِ مِنَ الرَّنـدِ
بَكيتَ كَمَا يَبكِى الوَلِيدُ وَلَم تَكُن جَلِيدًا وَأَبدَيتَ الَّذِى لَم تَكُن تُبدِى
وَحَنَّت قَلُوصِي مِن عَدَانَ إِلى نَجدِ وَلَمْ يُنسِهَا أَوطَانَهَا قِدَمُ العَهدِ

---

(١) تهذيب الحلية (٣/ ٣٥)
(٢) موسوعة ابن أبي الدنيا (٥/ ١٩١)

وقَـدْ زَعَمُـوا أنَّ المُحِـبَّ إذاَ دَنـا ... يَمَـلُّ وأنَّ النَّـأْيَ يَشْـفِي مِـنَ الوَجْـدِ

بِكُـلٍّ تَـداوَيْنا فَلَـمْ يُشْـفَ مـا بَنـا ... عَلى أنَّ قُـرْبِ الـدّارِ خَـيْرٌ مِـنَ البُعْـدِ

انفساخُ العَزائِم وانتقاضُ الدَّعائِم

وكَمْ مِنْ همَّةٍ في النَّفْسِ قَدْ خَمَدَتْ   مِنْ بَعْدِ مَا زَجَلَتْ حُلْمًا بِعَالِيهَا

إنّ من نعم الله تعالى على العبد المؤمن أن يفتحَ عينَ بصيرته فيجلو عنها غَيْنَ الجهالة، وغيْمَ العَمَاية، وقَتَرَةَ الضلالة، وسخامَ الهوى، واللهِ تعالى هو الفعَّالُ لِمَا يريدُ، وعَدَ الشاكِرين بالمزيدِ، وهو على كل شيء قديرٌ، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٤٧﴾ [سَبَإ: ٤٧]، هو الحيُّ القيّومُ السّميعُ المُجيبُ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ۝١٤﴾ [الحَج: ١٤]، وهو العليمُ الحكيمُ اللطيفُ الرفيقُ، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣﴾ [البُرُوج: ١٣]، تبارك وتعالى وتقدّس، وجلّ وعزّ وحُمِدَ وسُبِّحَ، الخلْقُ خلْقُهُ، والأمرُ أمرُه، والدينُ دينه، وهو الدينُ الحقُّ الرشيدُ، ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٦٢﴾ [غَافِر: ٦٢].

خَلَقَ الإنسانَ مزيجًا أمشاجًا يبتلِيه، وسَوَّاهُ حيًّا سميعًا بصيرًا عاقلًا رشيدًا لما يُصلحه ويقيمُه ويحمِيه، ركّبَهُ من جَسَدٍ يحمِلُه، وعقلٍ يُرشدُه، وروحٍ تحكُمُه، وأَقّتَ له موعدًا لا يجوزه، وأجَلًا لا ريب فيه، وقُدْرَةً مبسوطةً له، وقَدَرًا ما له عنهُ مَحِيدٌ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفِطَار: ٦ - ٨].

خَلَقَهُ ـ لِحِكَمٍ عظيمةٍ ـ على أصلِ الضَّعْفِ ووَهْنِ الصبرِ وقِلّةِ الحيلة، ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ۝٢٨﴾ [النِّسَاء: ٢٨]، وجعَلَ له غريزةً تُحِبُّ الجَدَلَ، وتَنْسَى العَهْدَ، وتنقضُ العزْمَ، وتُؤثِرُ العاجلة، فهو خاسرٌ لا محالة إلّا إن آمن وعمل صالحًا وتواصى بالحق والصبر، قال تبارك وتعالى في شأن الإنسان: ﴿وَكَانَ

ﭐلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ﴿٥٤﴾ [الكهف : ٥٤]، قال الحافظ: «فالإنسان كثيرُ المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق بالباطل، إلا من هدى الله وبصّره لطريق النجاة» (١)، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ﴿١١٥﴾﴾ [طه : ١١٥]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «إنما سُمّيَ الإنسانُ لأنّه عُهِدَ إليه فنَسِيَ. وقال مجاهد والحسن: نَسِيَ، أي: تَرَكَ» (٢).

أكرمه ربُّه العظيمُ بالعلمِ والإيمانِ، والعقلِ واللسانِ، وحبِّ الخيرِ والحَنَانِ، والإرادةِ والاختيارِ المنعقدِين في سُويداء الجَنَانِ، وحكمتُه وعدلُه وعلمُه ورحمتُه وإحاطتُه من وراء ذلك كله، ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة : ٢١٦]، ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [الأعراف : ٣٠]، ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء : ٧٠]، وأسجدَ له خَلْقَه النُّورانيِّين العُظَماءَ الملائكة الكُرَماءَ تكرِمَةً له، ﴿إِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ [البقرة : ٣٤].

فعلَى قَدْرِ إيمانِ الإنسانِ وعلمِه ويقينه وعملِهِ تكونُ رفعتُه وسموُّه وزكاتُه وطيبُه، وعلى قدر جهله وكفره وشركه وظلمه ونفاقه يكون اتّضاعُه ونزوله وخسرانه وهلاكه، ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١١﴾﴾ [المجادلة : ١١]، ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [النحل : ٩٣]، ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ [الحج : ١٨]،

---

(١) تفسير ابن كثير (٥ / ١٧١)

(٢) تفسير ابن كثير (٥ / ٣٢٠)

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾﴾ [العَنكبُوت: ٢١]، ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الإسْرَاء: ١٠٨].

وإنّ من عجائب القدرةِ فقدُ العزمِ بعد انقياده، وحلُّ قيده بعد انعقاده، وعُزُوبُه بعد إنشائه، فلا إله إلا اللهُ العليمُ القديرُ المدبّرُ الحكيمُ، فقد يريدُ المرءُ أمرًا ساميًا، ويطمحُ لغاية فُضلى، ويشمّرُ عازمًا بلوغها، حَالُهُ:

إذَا هَمَّ ألقَى بينَ عَينَيهِ عَزْمَهُ ... وَنَكَّبَ عن ذِكْرِ العَوَاقبِ جَانِبَا

ثمَّ ـ فجأةً ـ لأمرٍ غير مفهوم، وعِلّة غير معلومة، وسببٍ خفيّ غير ظاهر، نراه ينكصُ عنها القَهْقَرَى، راغبًا عنها لا إليها، راجعًا مُعرضًا مُدبِرًا زاهدًا، بل كارِهًا قَالِيًا، وما مِنْ بأسٍ سوى ضَجَرٍ وصرْفٍ لا يجد له مَدْفعًا، ولا يَرْضَى عنه مَقْنَعًا، إنما يرتاحُ عنه بالبِعَادِ، فإن رامَ عَوْدًا لما مضى من سبيله إذِ الصَّرْفُ قد عَادَ، حالُ عزيمتِهِ: وجَادَتْ بَوَصْلٍ حِينَ لا ينفعُ الوَصْلُ!

فتبارك الله خالقُ هذا وهذا، فهو المُدَبِّرُ المُتَصَرِّفُ الحكيم العليم. وكما قيل: أنت تريدُ، وأنا أريدُ، والله يفعل ما يريد.

وقال يوسفُ بن عبد الأحدِ: «قلت للمُزَنِيِّ: معنى قولِ الشّافعي: يَتَرَوَّحُ الرَّجُلُ بِبَيْتَينِ مِنَ الشَّعْرِ، ما هُما، فأنشدَنِي:

يُرِيدُ المَرْءُ أنْ يُعْطَى مُنَاهُ ... ويَأْبَى اللهُ إلّا مَا أرادَا

يَقُولُ المَرْءُ فائِدَتِي ومالِي ... وتَقْوى اللهِ أفْضَلُ ما اسْتَفادَا»[(١)]

---

(١) ذكره أبو نعيم في حلية الأولياء (٩/١٥١)

إنّ انفساخَ العزائمِ على الدوام، وانصرافَ الرغائبِ كلَّ حين، وهجومَ المَلَالِ قبل التَّمَامِ، وانتقاصَ الإرادات للقمم، وانتقاض الدَّعَائِم للهِمَمِ؛ معدودٌ من براهينِ ربوبية الله تعالى، وعجيبِ صُنْعِه في خلْقِه. وقد سئل حكيم: بماذا عرفت ربَّك؟ قال: «بفسخِ العزائمِ ونقْضِ الهمَمِ».

فإنّ العبدُ يهمُّ بالأمر ذي البالِ، ويشدُّ عزْمَهُ إليه، راغبًا مريدًا، فإذا هو في ثاني الحال ـ بلا سبب ظاهر ـ راغبًا عنه، منصرفًا لغيره، فاترًا في شأنه، قد انطفأتْ مُحَرِّكَاتُ قُدْرَته بأمرٍ ما! كما قال صاحب النوادر: «الآدمي يفكّر ويُدبّر ويعزم، وتدبيرُ الله تَعالى من ورائه بِإبْطال ذَلِك، وتَكون تِلْكَ الأُمُور على غير ما فكّر ودبّر»(١).

لقد كُتِبَ النقصُ والنقضُ والانقطاعُ والمَلَالُ على أهيلِ هذه الدار في مُجمَل عاداتهم، ما لم يثبت واحدُهُم بعد واحِدِهم على أمرِ خيرٍ يَشُدُّ الله فيه عزيمته، ويقبضُ عليه إرادته، ويفتحُ له نياط قلبه، ويفتلُ له حبال رسوخه، ويُتمِّمُ له به مرادَهُ، ويُحقّقُ له عن طريقه مأمولَهُ من رغائبِ الدنيا ونعيمِ الدين، حتى يبلغَ الجنة التي لا مَلال فيها ولا سآمة، ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ۝١٠٨﴾ [الكهف:١٠٨].

فالإنسان في الدنيا ملولٌ بطبعه، منقطعٌ دون بلوغ أمانيه، لأنه ضيّق الأفق، قليلُ العلم، شَرُودُ العزيمة، خوّارُ النفسِ، مُغرَمٌ بالحظّ العاجلِ السّهل،

(١) نوادر الأصول في أحاديث الرسول، للحكيم الترمذي (١٠٧/٢)

مُولعٌ بالنائلِ القريب اليسير، كما وصفه خلّاقه العليم الحكيم: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ۝١١﴾ [الإسْرَاء: ١١]، أي: ضَجِرًا لا صَبْرَ له.

وقال﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبِيَاء: ٣٧]، فهي غريزةٌ خَلْقِيّة لا يُلام عليها ما دامت في حدود الشرع، وكلّما هذّبها حَسُنَ حالُه، واستقامت سبيله، ونهضتْ مصالِحُه. كما قال الله تعالى عنه: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ۝٢١﴾ [القِيَامَة: ٢٠-٢١]، وقال: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ۝٢٧﴾ [الإنسَان: ٢٧] والدنيا كلها عاجلة. والمرءُ هلوعٌ جزوعٌ جموعٌ منوعٌ إلا المُصلّين.

ضَجَرُ الفَتى فِي الحَادثاتِ مَذَمَّةٌ والصَّبْرُ أحسنُ بِالرِّجالِ وأليقُ

ومن هنا جاءت الإشادة بالحلمِ لأنه ضدُّ الجهلِ، وبالأَناةِ لأنها نقيضُ العجلة، وتأمّلْ خُلُقَيْ الخليلين عليهما الصلاة السلام تجدْهُما خيرَ من تَخلَّقَ بهذين الخُلُقَين السَّامِييْن، والسجيّتَين السّاميتين، وسائر أخلاق الجمال، لا جَرَم؛ فَهُما هُما!

ولقد قال رسول الله ﷺ لأشجِّ عبد القيس: **«إنَّ فيكَ خَصلتَيْن يُحبُّهما الله تعالى: الحلمُ والأناة»** (١).

فالإنسان ـ لعجلته، وقلّة صبره، وضيقِ أُفُقِ معرفته ـ يرفعُ الأمنية لِمَا فوقَ القدرة، أو يجعل أمَدَ مِضمارِ المسابقةِ دونَ طَوْقِ مسارعتِه. فتضيعُ نفسُه بين

---

(١) مسلم ١/٣٦ (١٧) (٢٥)

غَمَارَاتِ فَشَلِ الأمنيات، إلّا من رحم الله، أبى الله إلّا نقصَ الإنسان، حتى لا يركنَ لنفسه، أو يُعجبَ بقدرته، أو يزهوَ بعلوّه، أو يقنعَ بعاجلِ حظِّه، فالله وليُّهُ وطبيبُه ومرشدُه وهاديه. ومَن يَتَحَرَّ الخَيْرَ يُعْطَهُ، ومَن يَتَوَقَّ الشَّرَّ يُوقَهُ.

وإذا هَمَمْـتَ بِـأَمْرِ سُـوءٍ فاتَّئِـدْ ... وإذا هَمَمْـتَ بِـأَمْرِ خـيرٍ فاعْجِـلِ

وإن المرء ليقصد أحيانًا لأعمالٍ خيِّرَة وأشياء فاضلة، ويرسم له منهجًا بجدّيّة وعزم، فما هو إلّا زمنٌ ليس بالطويل؛ إلّا والإرادةُ التي قد كانت سامقة صلبة بالأمس؛ قد عادت اليوم للوراء مُنثنية، وللخَلْفِ راجعة، فاستبدلتِ القهقرى بالتقدّم، وضرَبَتْ جمعيّة الهَمِّ بالتّشرذُم، أمّا العزمُ الذي كان بالأمس مَضَّاءً شديدًا؛ فلقد أضحى اليوم بالكسل مسلوبًا، وبالفتور منهوبًا![1].

وقد ترى ذلك في كثير من أصحابك ولِدَاتِكَ، ولربما شكاه لك تواضعًا بعضُ مشايخك، وقد تلمسه في خلق بعض تلامذتك ممن كنتَ تعدّهم للرسوخ في العلم والعمل، عبر اصطبارك الطويل لهم في الطلب والتحصيل والعبادة، إذا أعطاهم الله تعالى خصوصيات ذهنية عالية، وقدرات عقلية حادة، وألباب نبيهة، مع وافر أخلاق نبالة وكرم وشهامة، وقد رسمت في ذهنك لوحة جميلة لمستقبل ذلك اليافع وذاك في ميادين العلم والسلوك والعمل. وهم في ذلك قد قطعوا في التعلّم أشواطًا، وساروا في العلم أميالًا، وثنوا الركب وحفظوا ودرسوا بتؤدةٍ وعنايةٍ وحسنِ تعاهُدٍ ومتابعةٍ ورفقٍ، مع إعطاء نفوسهم حظوظها المباحة حتى لا يكلُّوا، فما هو إلّا زمان ليس بالطويل

---

(١) وانظر: (العزم) للمؤلف، ضمن سلسلة أعمال القلوب.

حتى يبدأ انقطاعُ همّة أكثرهم بالتدريج، فَتَنْحَلُّ لُحْمَةُ عَزَماتهم عَرَاءً، وتنهلُّ سَدَى إراداتهم هَبَاءً، ويبدأ ذلك النزول لدرك البطالة عبر تعلُّلِهم بأدنى سبب للغياب وأيسر مندوحة وأقلّ عذر، ثم يطول بهم الأمر شبرًا فذراعًا فباعًا فميلًا فانقطاعًا. حتى يتحوّلوا عما كانوا عليه من الجدية في العلم والعمل، فيرغبون عن المعالي للسَّفْسَافِ، وعن النَّوَائِفِ للأسافل، عائذًا بالله العظيم من الحَوْرِ بعد الكَوْرِ، ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾ [آل عِمْرَان : ٧٤]، ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ﴾ [الأنعَام : ١٢٤] ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القَصَص : ٦٨].

وينبغي التنبّه إلى أن الأمور قد لا تكون حقائقها على ظواهرها، ولا غاياتها على مبادئها، فقد يكون الله تعالى ـ وهو الحكيم اللطيف الحميد العليم ـ قد صرف عبدَهُ لأمرٍ خير مما صُرِفَ عنه مهما بدا لنا خلافه، أو أنه قد دفع السوء عنه من حيث يعلم العبد ذلك أو لا يعلم، إنما هو محض لطف الرب جل جلاله، فهو الحكيم الحميد سبحانه، فلا يخرج شيء البتة عن حكمة الله تعالى ورحمته وعلمه ولطفه، حتى في أمر العلم والعبادة، تبارك الله، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٢١٦﴾ [البَقَرَة : ٢١٦]، ومن ذلك أنّ من تعلّم العلم وكتمه فخير له لو لم يتعلمه؛ فلجام النار وعيدُه، وكذلك مَن تعلّمه وخالفه مستكثرًا حجج الجبار عليه، والله المستعان.

والمقصود؛ أنْ ليستِ كلّ الأمور على ما يبدو من ظواهرها، فلله حكم وأسرار في أقضيته وأقدارِه هي في الغاية من الحكمة والرحمة، وهو محمود على

أفعاله وأقداره وتدبيره بكلّ حال. ولقد قال ابنُ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنّ العبدَ ليهمُّ بالأمرِ من التجارةِ والإمارةِ حتى يُيسّر لهُ. فينظرُ اللهُ إليه فيقولُ للملائكةِ: اصرفوه عنهُ، فإنهُ إن يسّرتُهُ له أدخلتهُ النارَ، فيصرفه اللَّهُ عنهُ، فيظلُّ يتطيَّرُ يقولُ: سبقنِي فلانٌ دهانِي فلان، وما هو إلا فضلُ اللَّهِ عز وجلّ»[1].

وكَمْ رُمْتُ أمْرًا خِرْتَ لِي فِي انصِرافِهِ ... ومـا زِلـتَ بي مِنِّـي أبَـرَّ وأرْحَمـا

وإنّكَ لتجدُ بعضَ من اشتُهِرُوا صِغَارًا على مستوى الإقليم أو الدولة أو العالمِ الإسلامي بقوّة حافظاتهم، وحذقِ نباهاتهم، وجودة قرائحهم، وحِدَّةِ عقولهم، وانتظرناهم ليكونوا أئمة للدين سابقين، ونجومَ هُدًى للخير ناشرين، ولكنا لم نسمع لهم من حينها رِكْزًا، ولم يُرصَدْ لهم خبرٌ ولو هَمْسًا، فلم يلبثوا أن طواهم النسيان، فلا ندري أغُيِّبوا تحتَ الترابُ في ملاحِدِهِم، أم غابوا فوق التراب بانطفاءِ أَلَقِهِم، وخبوِّ شُعْلَتِهِم، ونُضُوب عزمِهِم، إمّا أنّهم لم يتلقّهم من يأخذ بأيديهم بصبر وحكمة وتُؤَدَة، أو أنّ عَزَمَاتِهم قد تاهتْ في بِيْدِ رَغَائبِ الدنيا المُذيبة شمع هِمَمِ أكثر الفتيان.

وبالجملة؛ فإنّه يعزّ علينا أنْ أمسى تألُّقُهم من ماضي طفولتهم، لا حاضر شبيبتهم، ولا قابلِ كهولتهم، وهذا منارٌ بسبيلِ حروفِنا هذه، والله المستعان واليه المشتكى والمفزع والمعتصم.

كُـلُّ امـرِيءٍ رَاجِـعٌ يَوْمًـا لِشِـيمتهِ ... وإنْ تَخَـالَقَ أَخْلاقًـا إلَى حِـينِ

---

(١) تفسير ابن رجب (٢/٣١٤)

وفي أمور تدبير الدنيا فإنّ انفساخ العزائم حاضرٌ أيضًا؛ لأنّه غريزة إنسانية، وإنّك لترى الرجل قد أوغل في بابِ تجارةٍ أو وظيفةٍ وقد كتب الله له فيه خيرًا، ويسّر له به أسباب بركةِ رزقٍ، ورَغَدِ عيش، ثم يفجؤك بعد مدة برغبته عن ذلك الباب لغيره، وَيْ؛ كَأنّما صُرِفَ عنه صَرْفًا!

وإنّ من جذورِ أخلاقه العجلة، كما قال ربه وفاطره: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، فهو غِرٌّ عجول، لا يطيق صبرًا كيما يربح القليل على القليل حتى يكثر بإذن الله مع الوقت الطويل والصبر الجميل، بل تضيق نفسه الطفولية إلّا بالكثير العاجل وبالجهد القليل، ألا ما أعجبك وأعجلك وأجهلك أيها الإنسان، إلا من رحم الرحمن.

لذلك رحم الله المؤمن بأن عجّل بعض نعيم الجنة له في الدنيا كالفرح به تعالى، والأنس به، والشوق إلى لقائه، والتلذُّذِ بمناجاته وذكره ودعائه وتلاوة كلامه، وذوقِ لذةِ الإيمان ووَجْدِ حلاوته ونحو ذلك من نعيم الأنفس ورقائق جِنَانِ النعيم التي اختصّ الله تعالى بها المؤمنين، فالنفس عجولٌ حرونٌ محتاجةٌ لشيء من عاجل حظّها حتى لا تنقطع عن المسير لمرضاة ربها تبارك وتعالى وتقدس، كما قيل:

إني لأرْجُو مِنكَ شَيئًا عاجِلًا والنَّفْسُ مُوَلَعَةٌ بِحُبِّ العاجِلِ

وقال سبحانه في شأن ذاك المخلوق العجيب في حاله، والمحبوب المكرّم في أصله، ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨﴾ [النساء: ٢٨]، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا

قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ [الإسراء: ٨٥]، فجسده ضعيف، وعزمه ضعيف، وعلمه قليل، إلا من رحم الله تعالى.

واعلم أنّ المللَ عدوُّ الإنجازِ، والتسويفَ علامةُ ابتدائه.

وإنّك إذا تتبّعتَ قصص النجاح العِلمية والعملية والإيمانية والعبادية والتربوية والتجارية وغيرها وجدتَّ أنّ العامل المشترك بينها هو ثبات صاحبِهَا على قدر - ولو يسير - منها، مُدَّةً طويلة من الزمن، وهو ما يسمّى بالمثابرة. وتأمل شقَّ الماء صلادةَ الصخر مع لطف الماء ولينه ورقّته وصلابة الصخر وقساوته وخشونته وقوته، لكنها المثابرة والإصرار! وطريق الألف ميل يبدأ بخطوة مع مثابرة.

ومن وصايا ناصحي التُجّار الصالحين: عليك بعد تقوى الله تعالى والتوكُّلِ عليه بملاحظة شيئين: لا تَمَلّ، ولا تُوَكِّلْ. لأنّ المرء إذا مَلَّ فَقَدَ الشّغف، وفاته أسرار المهنة التي لا تفتح خزائن معارفها إلا لمن ثبت فيها مدّة طويلة، فمَنْ ثَبَتَ نَبَتَ، كذلك لا توكّل على أمرك أحدًا بلا حاجة ملحّة، فإنك إن سَلِمْتَ من خيانته؛ فقد خسرتَ خبرةَ الميدان أيًّا كان!

ولقد صدق جفرسون إذ قال: «فيما يتعلّق بالأسلوب اسبح مع التيار، وفيما يتعلّق بالمبدأ اثبت كالصخرة».

وتدبر قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ [الكهف: ٢٣ - ٢٤]. قال الشيخ المرصفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنّ كلَّ حركةٍ، وكلّ

نأمة، بل كل نَفَسٍ من أنفاس الحيّ، مرهون بإرادة الله. وسُجُفُ الغيبِ مُسْبَلٌ يحجبُ ما وراء اللحظة الحاضرة. وعينُ الإنسان لا تمتدّ إلى ما وراء الستر المُسْدَل، وعقلُه مهما عَلِمَ قاصرٌ كلِيلٌ، فلا يقل إنسان: إني فاعلٌ ذلك غدًا، والغدُ في غيب الله، وأستارُ غيبِ الله دون العواقب!

وليس معنى هذا أن يقعد الإنسان، لا يفكر في أمر المستقبل ولا يدبر له، وأن يعيش يومًا بيوم، لحظة بلحظة، وألا يصل ماضي حياته بحاضره وقابله، كلّا. ولكن معناه أن يحسب حساب الغيب وحساب المشيئة التي تدبره، وأن يعزم ما يعزم، ويستعينَ بمشيئة الله على ما يعزم، ويستشعر أن يدَ الله فوق يده، فلا يستبعد أن يكون لله تدبيرٌ غير تدبيره، فإن وفّقه الله إلى ما اعتزم، وجرت مشيئة الله بغير ما دبّر؛ لم يحزن ولم ييأس؛ لأن الأمر لله أولًا وأخيرًا!

فليفكر الإنسان وليدبّر، ولكن ليشعر أنه إنما يفكر بتيسير الله، ويدبر بتوفيق الله، وأنه لا يملك إلا ما يمدّه الله من تفكير وتدبير، ولن يدعو هذا إلى كسل، أو تراخ، أو ضعف، أو فتور، بل على العكس يمدّه بالثقة، والقوّة، والاطمئنان، والعزيمة، فإذا انكشف ستر الغيب عن تدبير لله غير تدبيره، فليتقبّل قضاء الله بالرضا والطمأنينة والاستسلام، لأنّه الأصل الذي كان مجهولًا فكشف عنه الستار!

هذا هو المنهج الذي يأخذ به الإسلام قلبَ المسلم، فلا يشعر بالوحدة والوحشة وهو يفكّر ويدبّر، ولا يحسّ بالغرور والتبطّر وهو يفلح وينجح، ولا يستشعر القنوط واليأس وهو يفشل ويُخفق، بل يبقى في كل أحواله متصلًا

بالله، قويًّا بالاعتماد عليه، شاكرًا لتوفيقه إيّاه، مسلمًا بقضائه وقدره، غير مُتَبَطِّر ولا قَنُوطٍ.»[(١)].

والمُوفّقُ من عباد الله تعالى هو من حرص على حسنةِ الآخرة، ثم حسنةِ الدنيا، لأنّ حسنة الآخرة تنتظمها وتيسّرها بأمر الله تعالى، قال الله تعالى في وصف حال ومقال المؤمنين: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝٢٠١ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٢٠٢﴾ [البَقَرَة: ٢٠١ - ٢٠٢]، وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان أكثرُ دعاءِ النبي ﷺ: **«ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار»**[(٢)]. ثمّ قنع بما تنتهي عنده أقدارُ ربِّهِ عند نهاية بذله وسْعَهُ فيما ينفعه، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«المُؤْمِنُ القَوِيُّ خيرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعيفِ، وَفي كُلٍّ خيرٌ[(٣)] احرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، واسْتَعِنْ باللهِ وَلاَ تَعْجَزْ. وَإِنْ أَصَابَكَ شيءٌ فَلاَ تَقُلْ لَوْ أَنّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ[(٤)] اللهِ، وَمَا شَاءَ فعَلَ؛ فإنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيطَانِ»**[(١)].

---

(١) الجامع الصحيح للسيرة النبوية، د. سعد المرصفي (٤/٩١٩)

(٢) البخاري (٦٣٨٩)، ومسلم (٢٦٩٠) وفي رواية لمسلم: **«اللّهم»** بدل: **«ربنا»**، والباقي مثله.

(٣) قال النووي في شرح صحيح مسلم (٨/٣٨٢) (٢٦٦٤): «معناه: في كلٍّ من القويّ والضعيف خير، لاشتراكهما في الإيمان».

(٤) قال شيخنا ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«قدَرُ الله وما شاء فعل»**، وبعضهم ضبطها «قدَّرَ الله وما شاء فعل» أي: قدّر الشيء الواقع، والمعنى الأول أظهر، أي: أنّ هذا الواقع هو قدَرُ الله، =

وتأمل جلالَ ونصحَ وحكمةَ خبرِ جبير بن نفيررَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: جلسنا إلى المقداد بن الأسود يومًا، فمرَّ به رجلٌ فقال: طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ. لوَدِدْنَا أنّا رأينا ما رأيت، وشهِدْنَا ما شهدتَّ. فاستغضب، فجعلتُ أعجبُ، ما قال إلّا خيرًا! ثم أقبلَ إليه فقال:

ما يحملُ الرجلَ على أن يتمنّى مَحْضَرًا غيّبه اللهُ عنه، لا يدري لو شهده كيف كان يكون فيه؟ والله لقد حضر رسول الله ﷺ أقوام أكبَّهم الله على مناخرهم في جهنم، لم يجيبوه ولم يصدقوه، أو لا تحمدون الله إذ أخرجكم لا تعرفون إلا ربكم مصدقين لما جاء به نبيكم، قد كُفيتمُ البلاءَ بغيركم؟ لقد بعث الله النبي ﷺ على أشدِّ حالٍ بُعِثَ عليها نبيٌّ من الأنبياء في فترةٍ من جاهلية، ما يَرَون أنّ دينًا أفضلُ من عبادة الأوثان.

فجاء بفُرقانٍ فَرَّقَ به بين الحقّ والباطل، وفَرَّقَ بين الوالد وولده، حتى إن كان الرجلُ ليَرَى والدَهُ وولَدَهُ، أو أخاه كافرًا، وقد فتح الله قُفْلَ قلبه للإيمان، يعلم أنّه إن هلك دخل النار، فلا تَقَرُّ عينُه وهو يعلم أنّ حبيبَهُ في النار، وإنّها

=

أي: مقدورُ الله، وما شاء الله فعل. شرح كتاب التوحيد: ص: (٢٥٠). وكذلك رجّحه شيخنا العثيمين رَحِمَهُٱللَّهُ.

(١) مسلم ٨/٥٦ (٢٦٦٤) (٣٤) وفي الفصل القادم بسط الكلام في ذلك إن شاء الله تعالى.

التي قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفُرقَان: ٧٤] (١).

ويا ليتَ عُقَدَ إصرارِنا على الذنوب تنفسخ عن قلوبنا حتى نكونَ من أهل التوبة النصوح، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٨﴾ [التَّحرِيم: ٨]. قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: توبة صادقة جازمة، تمحو ما قبلها من السيئات، وتلمّ شَعَثَ التائب وتجمعه، وتكفّه عما كان يتعاطاه من الدناءات.

وقال الثوري، عن سِمَاك، عن النعمان، عن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «التوبة النصوح: أن يتوب من الذنب ثم لا يعود فيه». وعن عبد الله ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «يتوب ثم لا يعود». ولهذا قال العلماء: «التوبةُ النَّصُوح: أن يُقلعَ عن الذنب في الحاضر، ويندمَ على ما سلف منه في الماضي، ويعزِم على ألا يفعل في المستقبل. ثم إن كان الحق لآدمي ردّه إليه بطريقه».

وكان الحسن يقول: «التوبة النصوح: أن تُبغِض الذنبَ كما أحببته، وتستغفر منه إذا ذكرته». فأما إذا حَزَمَ بالتوبة، وصَمَّمَ عليها؛ فإنها تَجُبُّ ما

---

(١) المسند (٢٣٨١٠) وصححه محققوه، وصححه الحافظ ابن كثير في تفسيره (٦/١٤٢) وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٨٧) وصححه الألباني.

قبلها من الخطيئات، كما ثبت في الصحيح: **«الإسلام يَجُبُّ ما قبله، والتوبة تجبُّ ما قبلها»** [١].»[٢].

ومن هنا جاء التأكيد على شأن الثبات على الخير قدر الطاقة، فمن ثَبَتَ نَبَتَ، ومن رَفَقَ وُفّقَ، ومَن شدَّ انقطع، ومن شَذَّ ضاع، فالْمُنْبَتّ لا ظهرًا أبقى ولا سيرًا قطع، والبطال الكسلان لا خيرًا حصّل لنفسه ولا للناس نَفَعَ، ومن جُمْلَةُ ما جاء في السنة النبوية في هذا الشأن ما جاء عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان للنبي ﷺ حَصِيرٌ[٣]، وكان يُحَجِّرُهُ[٤] باللَّيل فيُصلي فيه، ويَبْسُطُهُ بِالنَّهار، فَيَجْلِس عليه، فجعل النَّاسُ يَثُوبُونَ إلى النَّبي ﷺ، يُصَلُّونَ بصلاته، حتَّى كَثُرُوا. فأقبَل، فقال: **«يا أَيُّها النَّاسُ؛ خُذُوا من الأعمال ما تطيقون، فإنَّ الله لا يَمَلُّ حتَّى تَمَلُّوا[٥] وإنَّ أحَبَّ الأعمال إلى الله ما دَامَ وإن قلَّ»**، زادَ في

---

(١) مسلم (١٢١)

(٢) تفسير ابن كثير (٨ / ١٦٨) باختصار.

(٣) أي: نسيج من خوص النخل في المسجد.

(٤) يُحَجِّرُهُ: حَجَّرَهُ يُحَجِّرُهُ، أي: يتّخذه حُجْرَةً وسترة ينفرد عليه فيها. وقال الفَتَّنِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مجمع بحار الأنوار (١/٤٥٤): «هو من التحجير، احتجر، أي: حفظ موضعًا من المسجد لئلّا يمرّ عليه مارٌّ، ويتوفّر خشوعه، ثم تركها وعاد إلى البيت لخوف مفسدة». وانظر: شرح النووي على مسلم (٦/٦٩)

(٥) سئل شيخنا عبد الرحمن البراك حفظه الله تعالى عن دخول (التّرَدُّدِ والمَلَلِ والظّلِّ) في صفات الله تعالى؟ فأجاب بتحرير نفيس فقال:

«الحمد لله، هذه الألفاظ لا شكّ أنها وردت مضافة إلى الله في أحاديث صحيحة، ولكن دلالة الأحاديث على اعتبارها صفة لله أو غير صفة مختلفة، فأما التردّد فإنّه بالمعنى الذي ورد

=

=
في الحديث القدسي: «**وما تردّدتُّ في شيء أنا فاعله تَرَدُّدِي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت، وأكره مساءته، ولا بدّ له منه**». هو صفة فعلية، ومعناها كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: تعارضُ إرادتين: إرادةُ قبضِ نفس المؤمن، وكراهة الله لما يسوء المؤمن، وهو الموت.

وليس هذا التردُّدُ من الله ناشئًا عن الجهلِ بمقتضى الحكمة، والجهلِ بما ينتهي إليه الأمر، فهذا تردُّدُ المخلوق. بل هو سبحانه العليم الحكيم، فهذا التعارض بين إرادتيه سبحانه تردُّدٌ مع كمال العلم بالحكمة، ومنتهى الأمر، ولهذا قال في الحديث: «**ولا بدَّ له منه**».

فتردّد المخلوق الناشئ عن جهله نقصٌ، بخلاف التردّد من الله فلا نقص فيه، بل هو متضمّن للكمال: كمال العلم، وكمال الحكمة.

وأما الملل المذكور في قوله ﷺ: «**اكلفُوا من العلم ما تطيقون، فإنّ الله لا يملّ حتى تملّوا**»، فالعلماء مختلفون في دلالة الحديث على إثبات الملل صفة لله تعالى، فقال بعضهم: إنّه لا يدلّ على إثبات الملل، وأنّه من جنس قول القائل: فلانٌ لا تنقطع حجته حتى ينقطع خصمه. لا يدل على إثبات الانقطاع.

ومنهم من قال: إنّه يدلّ على إثبات الملل، وتأوّله بقطع الثواب، فمعناه: أنّ الله لا يقطع الثواب حتى تقطعوا العمل، ففسروا اللفظ بلازمه.

ويمكن أن يقال: إنه يدل على إثبات الملل صفة لله تعالى في مقابل ملل العبد من العمل بسبب تكلّفه وإشقاقِه على نفسه، والملل من الشيء يتضمّن كراهته، ومعلوم أنّ الله تعالى يحبّ من عباده العمل بطاعته ما لم يشقّوا على أنفسهم، ويكلفوها ما لا تطيق، فإنه الله يكره منهم العمل في هذه الحال، والله أعلم بالصواب.

وأما الظلّ المضاف إلى الله بقوله ﷺ: «**سبعة يظلّهم الله في ظلّه**»، فالصواب عندي أنه ليس صفة لله تعالى، بل هو ظلُّ العرش، كما جاء في رواية، أو أيُّ ظلٍّ يقي الله به من شاء من حرّ الشمس في ذلك اليوم؛ كظلّ الصدقة كما في الحديث: «**المؤمن في ظلّ صدقته يوم**
=

رواية: **«واكْلَفُوا من الْعَمَلِ ما تُطيقون»**[١]. وفي رواية: **«سَدِّدُوا وقاربُوا[٢]، واعلموا أنَّهُ لَنْ يُدْخِلَ أحَدَكُم عَمَلُهُ الجَنَّةَ، وأنَّ أحبَّ الأعمال إلى الله أدْوَمُها وإنْ قلَّ»**، وفي رواية: إنَّ رسولَ الله ﷺ سُئلَ: أيُّ العَمَل أحبُّ إلى الله؟ فقال: **«أدْوَمُهُ وإنْ قَلَّ»**، متفق عليه[٣]، وزاد أبو داود[٤]: «وكان إذا عمل عملًا أثبَتَهُ»، وفي أخرى له عن علقمة قال: سألتُ عائشةَ: كيف كان عملُ رسول

=

القيامة». فعلى هذا تكون إضافة الظلّ إليه من إضافة المخلوق إلى خالقه، ولم أقف على كلام في هذا لأحدٍ من أئمة السنة المُقتَدَى بهم. والله أعلم». لقاءات ملتقى أهل الحديث بالعلماء (٢/ ٣٠)

(١) أي: تحمّلوا من العمل ما تطيقون المداومة والثبات عليه. قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في كشف المغطّى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطّأ (١/ ١٠٨): «يقال: كَلِفَ بكذا من باب فَرِحَ: أي: أُولِع وأحبّ، وحذف باء الجر من قوله: **«ما تطيقون»** فعُدي الفعل بنفسه على طريقة التوسع؛ أو لأنه ضمن **«اكلفُوا»** معنى اعملوا، فعبر عن العمل بالكلف؛ لأن العمل من لوازم المحبة؛ إذ لا يفعل الطائع فعلًا إلا هو عن محبة؛ إذ لا إكراه عليه. وفي هذا التضمين نكتة بديعة وهي الإشارة إلى علة النهي التي قدمناها، وهي أن الشأن أن يكون عمل المتطوع عن محبة وإقبال، فعبر عن اعملوا بـ**«اكلفوا»** ببداعة بليغة».

(٢) **«سَدِّدُوا»**: اقصدوا السَّداد من الأمر، وهو الصواب. **«وقاربوا»**: اطلبوا المقاربة، وهي القصد في الأمر الذي لا غُلو فيه ولا تقصير.

(٣) البخاري (٦٤٦٥) ومسلم (٧٨٢)

(٤) أبو داود (١٣٦٨) وصححه الألباني.

الله ﷺ؟ هل كان يَخُصّ شيئًا من الأيام؟ قالت: «لا، كان عَملُه دِيمَةً[(١)]، وأيُّكم يستطيع ما كان رسول الله ﷺ يستطيع؟»

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي السنن[(٢)] عنه أنه قال: **«لكلِّ عاملٍ شِرَّةٌ[(٣)]، ولكل شِرَّةٍ فترة[(٤)]، فمن كانت فترته إلى سُنَّةٍ فقد اهتدى، ومن أخطأها فقد ضَلَّ»**. وفي لفظ: **«ولكل شِرَّةٍ فَتْرَة؛ فإن كان صاحبها سَدَّدَ وقارب فارجوه، وإن أُشير إليه بالأصابع فلا تَعُدُّوهُ»**.

فقيل للحسن البصري لما رَوَى هذا الحديث: إنَّك إذا مَرَرتَ بالسُّوق فإنَّ النَّاس يُشِيرونَ إليكَ؟ فقال: «لم يُرِدْ ذلك، وإنما أرادَ المُبْتَدِعَ في دينه والفاجرَ في دنياه». وهو كما قال الحسن رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فإنَّ من الناس من يكون له شدَّة ونشاط وحدة واجتهاد عظيم في العبادة، ثم لابُدَّ من فُتُور في ذلك. وهم في الفَتْرَة نوعان:

منهم: من يلزم السنَّة فلا يترك ما أمر به، ولا يفعل ما نُهِيَ عنه، بل يلزم عبادة الله إلى المات؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحِجر

---

(١) الديمةُ: المطر الدائم في سكون، مبالغة من الدوام أو الديمومة، ويسمى الهتّان، شَبَّهَتْ عمله في دوامه مع الاقتصاد بديمة المطر.

(٢) الترمذي (٢٤٥٣) عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. وقال: «حسن صحيح غريب». وأخرجه أحمد (٢/١٨٨)

(٣) أي: نشاط ورغبة.

(٤) أي: فتور وتراخ.

: ٩٩]، يعني الموتَ، قال الحسن البصري: لم يَجْعَل الله لعباده المؤمنين أجلًا دون الموت.

ومنهم: من يخرج إلى البدعة في دينه أو فُجُور في دنياه حتى يُشير إليه الناس، فيقال: هذا كان مجتهدًا في الدِّين ثم صار كذا وكذا. فهذا مِمَّا يخاف على من عَدَل عن العبادات الشرعية إلى الزيادات البدعية. ولهذا قال أبي بن كعب وعبد الله بن مسعود: «اقتصادٌ في سُنَّة خير من اجتهادٍ في بِدْعة»[(١)].

ومع هذا فجِنْس الجهاد أفضل، بل قد روى أبو هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: مَرَّ رجل مِن أصحاب رسولِ اللهِ ﷺ بشعبٍ فيه عُيَينة مِن ماءٍ عَذْبة فأَعْجَبَتْهُ. فقال: لو اعتزلتُ الناس، فأَقَمتُ في هذا الشِّعْب، ولن أفْعَلَ حتى أَستأذِنَ رسولَ اللهِ ﷺ[(٢)]، فذَكَرَ ذلك لرسولِ الله ﷺ فقال: **«لا تفعل، فإنَّ مُقامَ أحدِكم في سبيلِ الله أفضلُ من صلاتِه في بيتِه سبعينَ عامًا، ألاَ تُحِبُّونَ أن يَغفِرَ اللهُ لكم ويُدْخِلكم الجَنَّةَ؛ اغْزُوا في سبيلِ الله، مَن قاتلَ في سبيلِ الله فوَاقَ ناقةٍ وجَبَتْ له الجَنَّةُ»**[(٣)]. وفُوَاقُ النَّاقة: ما بين الحلبتين.

---

(١) السُّنَّة، للمروزي. ص: (٣٠)

(٢) وهذا من أناته رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وحُسنِ متابعته، وطيب تديّنه، وحكر اهتدائه على الوحي المبين، دون الخواطر الجامحة أو المدخولة، أو تزيينات النفس على غير هدي الرسول ﷺ، لذلك بارك الله له بالنصح الرَّسُوليِّ له ألّا يفعل.

(٣) أحمد (٢/٤٤٦، ٥٢٤) والترمذي (١٦٥٠) وحسنه الترمذي والألباني.

وجماع الأمر ما قاله الفضيل بن عياض في قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [المُلك: ٢]. قال: أَخْلَصُه وأَصْوَبُه، قالوا يا أبا علي؛ ما أَخْلَصُه وأَصْوَبُه؟ قال: إنَّ العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقْبَل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقْبَل، حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالِص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السُّنَّة. وهذا كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكَهْف: ١١٠]. وكان عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول: اللَّهُمَّ اجعل عملي كُلَّه صالحًا، واجعله لِوَجهِك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا.

والعملُ الصالح هو المشروع، وهو طاعة الله ورسوله، وهو فِعل الحسنات التي يكون الرجل به مُحْسنًا. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النِّسَاء: ١٢٥]، وقال: ﴿بَلَىٰ ۚ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البَقَرَة: ١١٢]»[(١)].

لقد كان الصحابة ومن بعدهم من أئمة الدين يتواصون بحُسن المتابعة والاقتصاد في السنة والاقتصار عليها والعضّ على نهجها ما استطاعوا لذلك سبيلًا، فعن أُبيِّ بن كعبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «عليكم بالسَّبيل والسُّنَّة، وإنّ اقتصادًا

---

(١) جامع المسائل لابن تيمية، (٥ / ٣٧٥-٣٧٧) باختصار.

في سنَّةٍ وسبيل، خيرٌ من اجتهادٍ في غير سنَّةٍ وسبيل، فانظروا أعمالكم؛ فإن كانت اقتصادًا واجتهادًا، فلتكن على منهاج الأنبياء وسُنَّتهم»(١).

وعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «اقتصادٌ في سُنَّة خيرٌ من اجتهادٍ في بدعة؛ إنّك أن تتّبع، خيرٌ من أن تبتدع، ولن تخطئ الطَّريق ما اتَّبعت الأثر»(٢).

وقال أيضًا: «يا حبّذَا نومُ الأكياسِ وفطرُهُم، كيف يسبقون سهرَ الجاهلين وصيامَهم»(٣).

وقال بعضهم: «كم من مستغفرٍ محروم، وساكت مرحوم، هذا مستغفر وقلبه فاجر، وهذا ساكت وقلبه ذاكر»(٤).

وقال بعضهم: «ليس الشأنُ فيمن يقوم الليل، إنّما الشأن فيمن ينام عَلى فراشه ثم يصبح وقد سبق الركب». وفي ذلك قيل:

مَـــنْ لِي بِمِثْــلِ ســـيرِكَ المُـــدَلَّلِ تَمْشِي رويدًا وتجي في الأوَّلِ(٥)

لذا؛ فكلنا ـ بلا استثناء ـ مُحتاجون لأمورٍ تعيننا بإذن الله تعالى على اجتياز قنطرة الدنيا بسلام، فما هي إلّا مُهَلٌ قصيرة في دار الامتحان، وسُنيّاتُ تكليفٍ يسيرة في دنيا الابتلاء، فاصبر بالله ولله قليلًا، فالسنين تُطوَى سريعًا حتى

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ٢٢٤) باختصار.

(٢) السُّنَّة، للمروزي. ص: (٣٢)

(٣) أحمد في الزهد (١٣٧) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢١١)

(٤) صفة الصفوة، لابن الجوزي (٢/٢٩٣) ونسبها ليحيى بن معاذ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٥) مجموع رسائل ابن رجب (٤/٤١٧)

يلحق باقيك من أعضائك بسابقيك من أحبابك، والمرجوّ من الله البرِّ الكريم الرحمن الرحيم أن يكون المُلْتَقَى في ظلال عرش الرحمن جل جلاله ـ رحمني الله وإياك ـ.

فلا تغرّنّك الآمالُ فإنّما الآجالُ تقتنصُ الآمالَ، ومنايا تخترمُ الأماني، وساعات رحيل إلى لقاء الله تعالى، والسعيدُ من رضي عنه الله تعالى، ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عِمرَان : ١٨٥]، ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾﴾ [العَنكبُوت : ٥].

وإنّ الحاجة ماسّة بيننا لنتعاون في التالي: أن نتواصى بيننا بالحق وبالصبر وبالمرحمة، ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العَصر : ٣]، ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾ [البَلَد : ١٧]، ومن ذلك التواصي المستمر الدائم بالإخلاص لله تعالى، والمتابعة لرسوله ﷺ، ومحاسبة النفس على الدوام في ذلك.

وكذلك التناصح والتواصي والتعاون على البرّ والتقوى، وعلى تَفَقُّدِ الإخوان حتّى لا يستحوذ عليهم الشيطان، فيطوي على قلوبهم كَشْحَهُ السّامّ، ويُغطّي بصائرَهم بمكره الفَتّان، فيسْرِي بهم لِمَبَاءَاتِ الهَلَاكِ، ويسوقهم لمَرَاقِدِ الغفلَاتِ، ثم يلقيهم في شِبَاكِ الفتن والخطيئات.

وإنّ المؤمنُ ضعيفٌ بنفسه مهما كان حالُه، قويٌّ بإخوانه، واجتماعهم، وتعاونهم، وتناصحهم، وتعاضدهم، وتوادّهم، وتفقّد خلّات بعضهم، ورأبِ صدوعهم، ورَفْءِ شقوقهم، والأخذِ بأيدي بعضهم إلى سعة رضوان الله

تعالى ونعيم الجنة، وكلٌّ بقدْرِه وطاقته، فلا يكلّف الله نفسًا إلا وسعها، فعليها بذلُ الوسع حتى تبلغ الغاية، وإنّما يأكل الذئب القاصية.

أخـاكَ أخـاكَ إنّ مَـنْ لاَ أخًـا لَـهُ كَسـاعٍ إلى الهَيْجَـا بغَـيرِ سِـلاَحِ

ومما نحتاجه كذلك: المجاهدة للنفس، وحسن سياستها، والرّفق بها، وإنّ من الرفق بها الحزمُ معها في كلّ ما مِن شأنه خيرها. وإنّ من المهمّات العظيمة في إحسان سياسة النفس ضرورة المحافظة على المسار الوسط من جهتين:

الأولى: رسم طريق الهدي النبوي لها، حتى لا تفرُط في غُلُوٍّ، ولا تُفَرِّط في أمرٍ أو نهيٍ، فهو النهج الوسط، بلا وكسٍ ولا شَطَطٍ.

الثانية: ـ وإليها قصدنا هنا ـ ألّا تنزلَ عن الحدّ الأدنى لمطالب الشرع الحنيف. فثمّ حدٌّ أدنى لا يجوز النزول عنه بحال، وهو حدُّ الحرام، فيبقيها بعيدة عن حمى حدِّ المحرمات، ولكن يطاوعها على الندرة في التوسع في المباحات، بل قد يولجها أحيانًا لعلّةٍ مُلْجِئَةٍ بعض أبواب المكروهات وترك المستحبات ونحو ذلك، بدون أن تكون عادة، لأنّ العادة الغافلة الرديئة تُسقِطُ أسوار المجاهدة دون حصن القلب، فله حِمَاه الذي متى اجتازه عدوه اقترب للقلب بقدره.

والمقصود؛ أن يكون ذلك بأقل الممكن حتى لا تستمرئ النفسُ الدَّعَةَ والكسل، فسائس الفرس أعلم بمزاجه، وأحرص على عافيته ونشاطه، فلا يرخي له الطِّول دومًا ولا يشدُّه دومًا، بل برفق حازم، وإقبال على مهل، ومن لم يقدمه عزمه أخره عجزه.

ومع هذا كله فهداها بيد هاديها، ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشَّمس: ٨]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦﴾ [القَصَص: ٥٦].

فالفتور سمة وغريزة وخِلقة في الإنسان، والنفس يعتريها ما ينوبها من فتور وتقصير تسكن إليه حينًا، فمن حُسن سياستها الترفّق الحكيم معها حين ضعفها، فسوطُ زاجرِ الموعظة في حال فتور النفس وتعبها قد يرتدُّ على خلاف ما وضع له، ورسول الله ﷺ قد بعثه الله بشيرًا ونذيرًا، فإن حَرَنَتْ عن وعْظِ المَخَافَةِ أو خِيفَ عليها مِسْكَةٌ من قُنُوطٍ عن الوعظ فَاحْدُ لها بالبِشارات، وأرخِ لها عنانها شيئًا، وخذ بها لسهول مُتع الإباحة، ثم ارتق بها درج الجديّة، فالحُرُوقُ مَفَاوِزُ الشُّرُوقِ.

وبالجملة؛ فابْسط لنفسك حبل مسرَّتها بساعة وساعة، بلا ركون طويل وعكوف دائم، حتى لا يكون الاستثناء أصلًا، فهذه مرتبة البطالين، ولكن لا بأس أن تشتغل بها النفس من باب الترويح المباح استعدادًا وتقوّيًا على الجدِّ الفاضل، بحيث لا يطولَ ذلك الفتور فيستحكم كعادات السوء.

واعلم أن من شروط سلامة المسير إراحة الراحلة، وتأمّل فقه عليم الأمة معاذ حينما تحدث مع أبي موسى رضي الله عنهما وسأله عن أمر ينبغي أن يكون هو شغلنا وهمّنا ومردّ سؤالاتنا، قال: «يا أبا مُوسى كَيْفَ تَفْعَلُ بِالقُرْآنِ؟، قالَ: أتَفَوَّقُهُ تَفَوُّقًا، أقْرَأُ عَلى فراشِي، وفِي صَلاتِي، وعَلى راحِلَتِي، ثُمَّ قالَ: أبُو مُوسى: كَيْفَ تَفعَلُ أنْتَ يا أبا عَبْدِ الرَّحْمنِ؟، قالَ مُعاذٌ: سَأُنَبِّئُكَ كَيْفَ أفعَلُ، أمّا أنا،

فَأَبْدَأُ فَأَتَقَوّى بِنَوْمَتِي عَلى قَوْمَتِي، فَأَحْتَسِبُ فِي نَوْمَتِي، كَما أَحْتَسِبُ فِي قَوْمَتِي»(١).

وإنّ من رحمة الله تعالى أن جعل هناك محطات للتزود بالتقوى زمانية كالجمعة ورمضان والحج، ومكانية كالمساجد وحلق العلم، فحقيقٌ بالحازم استغلالها فيما يزيد إيمانه بمولاه، ويرفع درجاته في عقباه. وكلما خبت همّتُكَ شيئًا فتذكر أن نار الله الموقدة لا تخمد لمن لم يهرب إلى الله منها، ﴿خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ۝٩٧﴾ [الإسْرَاء: ٩٧].

هذا؛ ومشروعُكَ الأعظم ـ فاعلم ـ الذي ينبغي أن يكون نصب عينيك، وأن تعمل لأجله سواد ليلك وبياض نهارك، وتهتم لأجله في يقظتك ومنامك، وفي شرخ شبابك وكهولتك وهرمك حتى رمقك الأخير ونفسك الخاتم ولحظتك النهائية في هذا العالم الامتحاني حتى تصنع لك أعظم قصة نجاح: هو بلوغك رضوان الله تعالى. فاعمل بِكُلِّكَ لتحصيله والفوزِ به، ولْيَكُنْ بعد ذلكَ ما يكونُ.

لَــهُ هِمَــمٌ لا مُنْتَهَــى لِكِبَارِهَــا وهِمَّتُـهُ الصُّـغْرَى أَجَـلُّ مـن الـدَّهْرِ

فاسأل الله تعالى الثبات على الهدى حتى الممات، وقد ورد من دعاء رسول الله ﷺ: **«اللَّهم إنّي أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد»**(١). والله

---

(١) صحيح ابن حبان (١٢/ ١٩٦). ومستخرج أبي عوانة (٥/١٠٠) وصححه الألباني والأرناؤوط.

تعالى لا يضيع أجر المحسنين، ولا يُخيِّبُ من أحسن فيه ظَنَّهُ، وأَعْلَى عِندَهُ رَجَاءَهُ، وَأَعظَمَ بينَ يَدَيه رَغِيبَتَه، فهو عند حسنِ ظنِّ عبده به، فاعمل عمل

=

(١) مسند أحمد (٢٨ / ٣٣٨) (١٧١١٤) والحاكم (١/٥٠٨) وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. والحديث حسن بطرقه. قال الإمام أحمد: حدثنا روح، قال: حدثنا الأوزاعي، عن حسان بن عطية، قال: كان شداد بن أوس، في سفر، فنزل منزلًا، فقال لغلامه: ائتنا بالسفرة نعبثُ بها، فأنكرتُ عليه، فقال: ما تكلّمت بكلمة منذ أسلمت إلا وأنا أخطمها وأزمّها غير كلمتي هذه، فلا تحفظوها عليّ، واحفظوا مني ما أقول لكم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا كَنَزَ الناسُ الذهبَ والفضةَ، فاكنِزُوا هؤلاء الكلمات: اللَّهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك، وأسألك حسن عبادتك، وأسألك قلبًا سليمًا، وأسألك لسانًا صادقًا، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شرّ ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم، إنك أنت علام الغيوب**».

وهو حديث عظيم المعاني، جمّ الفوائد، غزير الفرائد، حريّ بتدبره وحفظ حروفه ودعاء الله بها، وفي تخريجه قال محققو المسند بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط: «حديث حسن بطرقه، وهذا إسناد ضعيف لانقطاعه، حسان بن عطية لم يدرك شداد بن أوس. ورجال الإسناد ثقات رجال الشيخين». وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (١٣ / ٣١): «أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٧/٣٣٥- ٣٣٦)، ومن طريقه: أبو نعيم في الحلية (١/٢٦٦)، وكذا ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٦/١٢٧) من طريقين عن سليمان بن عبدالرحمن: ثنا إسماعيل بن عياش: حدثني محمد بن يزيد الرحبي عن أبي الأشعث الصنعاني عن شداد بن أوس قال: قال لي رسول الله ﷺ:... فذكره. قلت: وهذا إسناد جيد، رجاله ثقات، وفي بعضهم خلاف لا يضر».

الراغبين حتى تكون من الرَّاجين، ولا تقعدنَّ مع الكسالى فالكسل أَعْدَى مِن الجَرَبِ، ولا تَركَنَنَّ إلى البطَّالين المُتَمَنِّيَن على الله الأماني، ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النِّسَاء: ١٢٣]، ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ [النَّجم: ٢٤ - ٢٥].

واحذر ارتهان نفسك بالسيئات، فلا فِكَاكَ بعد رحمة الله إلا بالتوبة والصالحات، فلا يكن حالُكَ كحالِ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ [الأنعَام: ٧٠]، واسأل ربك الخير كلَّه، ومِنْ أعظمِه حسنَ الخاتمة، ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبرَاهيم: ٢٧].

وعن شَهْرِ بن حَوشَبٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: قلتُ لأُمِّ سَلَمة رَضِيَ اللهُ عنها: يَا أمَّ المؤمِنينَ؛ مَا كَانَ أكثرُ دعاءِ رَسُولِ الله ﷺ إذَا كَانَ عِنْدَكِ؟ قالت: كَانَ أَكْثَرُ دُعائِهِ: **«يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»**. قالت: قلت: يا رسول الله؛ ما أكثر دعاءك يا مقلب القلوب ثبّتْ قلبي على دينك؟ قال: **«يا أُمَّ سَلَمَة؛ إنّهُ ليس آدميٌّ إلّا وقلبُه بين أصبعين من أصابع الله، فمن شاء أقام، ومن شاء أزاغ»**. فتَلَا معاذ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عِمرَان: ٨][1].

وعن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: كان النبي ﷺ يُكثر أن يقول: **«يا مقلّب القلوب، ثبّتْ قلبي على دينك»**. قال: فقلنا يا رسول الله؛ آمنَّا بك وبما جئتَ

---

(١) الترمذي (٣٥٢٢) وقال: حديث حسن. وصححه الألباني.

به، فهل تخافُ علينا؟ قال: فقال: **«نعم، إنّ القلوب بين أصبعين من أصابع الله عز وجل يقلبها»**(١).

وعن سالِمٍ عن عبد اللَّهِ ابن عمر رضي الله عنهما، قال: كَثِيرًا مِمَّا كانَ النَّبِيُّ ﷺ يَحْلِفُ: **«لا، ومُقَلِّبِ القُلُوبِ»**(٢)، وفي رواية: كانَتْ يَمِينُ النَّبِيِّ ﷺ: **«لَا ومُقَلِّبِ القُلُوبِ»**(٣) فليكن لسانك لَهِجًا على الدوام بهذا الدعاء العظيم.

ولنا وقفة لا بدّ منها هٰهنا؛ فإنّ المؤمن الموفّق هو من كشف الله له زيفَ الجهلِ عن جوهر العلم، فلإبليس ـ أعاذنا الله تعالى منه ـ تسويلات وتزيينات وتلبيسات وترويعات وتحزينات لا تكادُ تنتهي عند من لم يستعذ بالله منه، ويتبصّر حاله معه، ويتّخذه عدوًّا كما أمره ربه، ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾ [فَاطِر: ٦].

ألَا وإنّ انفساخ العزائم عن طلب ذخائر الآخرة ومعالي همم المتقين والعمل الصالح والقول الطيب مؤذنٌ باستلابِ حبِّ الدنيا قلب المرء بخراب دينه، إن لم يتداركه ربه بعونه وتوفيقه وحفظه وهدايته.

فإنّ من غرائز النفوس التي لا تكاد تنفك عنها حب الدنيا، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ [آل عِمرَان: ١٤]، وقد أرشد سبحانه بعد

---

(١) أحمد (١٢١٠٧) وقال محققوه: إسناده قوي، على شرط مسلم.

(٢) البخاري (٦٦١٧)

(٣) البخاري (٦٦٢٨)

بيان حالنا الضعيف مع زينة الدنيا إلى ما ينبغي لنا حقًّا أن نرتقي إليه، فقال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥]. وقال سبحانه مُعَرِّيًا غريزة بني آدم: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ [الفجر: ٢٠].

وقال سبحانه مبيّنًا حقيقة الدنيا وحال الغافلين معها: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ [الحديد: ٢٠]، ثم نقل الوصف مباشرة للآخرة فقال: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ [الحديد: ٢٠] أي: اختاروا مصيركم، واحرثوا لآخرتكم، واعملوا لمنازلكم غدًا.

وتدبر قوله تعالى ورحمته بنا حين زوى كثيرًا من ترف الدنيا عنا، فقال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزخرف: ٣٣]. قال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «لولا أن يكون الناس كفارًا أجمعون، يميلون إلى الدنيا، لجعل الله تبارك وتعالى الذي قال، ثم قال: والله لقد مالت الدنيا بأكثر أهلها، وما فعل ذلك، فكيف لو فعله؟!»[1].

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٢١/٥٩٨).

وروى أحمد(١) بسند جيد أن رسول الله ﷺ قال: **«حُبب إلي من دنياكم النساء، والطيب، وجُعلت قرة عيني في الصلاة»**. وروى البخاري(٢) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «كانَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ يُحِبُّ الحَلْواءَ والعَسَلَ». ونحو هذا من الطيبات المعينة على عبادة الله تعالى.

فحبُّ الدنيا غريزة هذبتها الشريعة، وأكثرها محتاج لمجاهدة قلب حتى يكتفي منها بالبُلْغة للوصول لغايته في الدار الآخرة، والعاقل هو من لم يُحبّ الدنيا لذاتها بل بما تفضي به إلى مرضاة الله. قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الصفدية: «ليس في الدنيا من اللذات أعظم من لذة العلم بالله وذكره وعبادته، ولهذا كان النبي ﷺ يقول: **«حُبِّبَ إلي من دنياكم النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة».**»(٣)، هكذا لفظ الحديث، لم يقل: حبّب إلي ثلاث، فإن المُحبّب إليه من الدنيا اثنان، وجعلت قرة عينه في الصلاة، فهي أعظم من ذينك، ولم يجعلها من الدنيا.

ومن أمثلة محبة العلم أنّ ابن هطيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان مُوْلعًا بشرح الرضى على كافية ابن الحاجب، لا يفارقه في أغلب أوقاته، فلما حضرته الوفاة طلب هذا الشرح، ثم وضعه على صدره، وقال:

تمتَّعْ مـن شَـميمِ عَـرَارِ نجـدٍ ... فـما بعـد العَشـيّةِ مـن عَـرَارِ

(١) أحمد (١٤٠٣٧) والنسائي (٧/٦١) وسنده جيد.
(٢) البخاري (٥٤٣١).
(٣) الصفدية (٢ / ٢٧٢).

أما عن الترفّه، فالمذموم منه ما ألهى عن الآخرة لا ما أراح النفس بالمباح من وعثاء الدنيا، ولكن تقصُّدَ الترفّه والتنعّم والانغماس في لذائذ الجسد ليس للمتقين بسبيل سلامة ولا بطريق عافية، أما مطلق الطيبات فطيبة حسنة، فقد قال سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأعراف: ٣٢].

وفي صحيح البخاري معلقًا مجزومًا به[1] باب قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ [الأعراف: ٣٢]: قال النبي ﷺ: **«كلوا واشربوا والبسوا وتصدّقوا في غير إسراف ولا مَخْيَلة»**. وقال ابن عباس: «كل ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك اثنتان: سَرَفٌ أو مَخِيلَةٌ».

وأخرج البيهقي[2] أنّ ابن عباس لما ذهب لمناظرة الخوارج قالوا له: مرحبًا بك يا أبا عباس فما هذه الحُلّة؟ قال: قلت: ما تعيبون عليَّ؟! لقد رأيت على رسول الله ﷺ أحسن ما يكون من الحلل، ونزلت: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ﴾ [الأعراف: ٣٢].

ولنا في الأنبياء أسوة، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: **«بَيْنا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيانًا فَخَرَّ عَلَيْهِ جَرادٌ مِن ذَهَبٍ، فَجَعَلَ أَيُّوبُ يَحْتَثِي فِي ثَوْبِهِ،**

---

(١) البخاري معلّقًا بصيغة الجزم (١٠/٢٦٤). وقد وصله النسائي (٢٥٥٩) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

(٢) البيهقي في السنن الكبرى (١٧١٨٦).

فَناداهُ رَبُّهُ: يا أَيُّوبُ، أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرى؟ قالَ: بَلَى وعِزَّتِكَ، ولكِنْ لا غِنى بِي عَنْ بَرَكَتِكَ»(١). قال القَسطلاّني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوله: «ولكن لا غِنى بي عن بركتك»: أي: خيرِك، واستُنبط منه فضل الغِنى لأنه سمّاه بركة، ومُحالٌ أن يكون أيوب صلوات الله عليه وسلامه أخذ هذا المال حبًّا للدنيا، وإنما أخذه كما أخبر هو عن نفسه لأنه بركة من ربه تعالى لأنه قريب العهد بتكوين الله تعالى، أو أنّه نعمة جديدة خارقة للعادة، فينبغي تلقّيها بالقبول، ففي ذلك شكر لها وتعظيم لشأنها، وفي الإعراض عنها كفرٌ بها، وفيه جواز الاغتسال عريانًا؛ لأنّ الله تعالى عاتبه على جمع الجراد، ولم يعاتبه على الاغتسال عريانًا»(٢). وعليه؛ فالدنيا لا تُذمُّ لذاتها، بل بما ترتب على التعامل معها، فما قرّب إلى الله تعالى فهو محمود ممدوح طيب كريم، وما أبعد عنه فالمذموم المُطّرح.

وبكل حالٍ؛ فلا يزالُ الحُزنُ(٣) والرّجاءُ، والفرَحُ والأملُ، والترّقّبُ والانتظار، والشّوقُ والتّوقُ، والحُلْمُ والحقيقةُ، والجَلْبُ والقبضُ، والدّفعُ والرّفعُ، والعزمُ والفسخُ، والفَتْلُ والنَّقضُ، والإنشاءُ والهدم، يعتلج في أفئدة أهل الإيمان واليقين، مهما بلغتْ مَوْعِدَتُهُم لأنفسهم، أو وصلَ علمُهُم وفهْمهُم، أو قويتْ عزماتُهُم واشتدَّتْ إراداتُهم، وأينما تعطّفت بهم دنياهم في بِطَاحِ التَّرَفِ، وأمواجِ الرّغائبِ، وسَحَابِ الأمنيات، وأوديةِ الضَّنْكِ، وسُبُلِ

(١) رواه البخاري (٢٧٩).

(٢) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني (١/ ٣٣٣) باختصار.

(٣) وإن كان غير محمودٍ.

الكَدِّ، وأروقَةِ المعرفةِ، فالدنيا قد طُبِعتْ على الكَدَرِ، والإنسانُ خُلِقَ في كَبَدٍ، وَكمْ من مُؤمنٍ يموتُ وحاجته في صدره لم تُيَسَّرْ له، لحِكْمةٍ ربّانية ولطفٍ إلهيٍّ، فأمر المؤمن كله خير بإذن الله تعالى، ولله الحمد في كل حال وعلى كل شيء.

فقد يثوبُ الإنسانُ ـ أحيانًا ـ لأصلِ طبعِهِ الضعيفِ، فيعْزُبُ ـ شيئًا ـ عن رواسخِ يقينه، وسوَاطِعِ بصيرته، وثوابتِ عقله حينَ تَراكُمِ أسبابِ الأحزان، وتوارُدِ أسرابِ الهموم، وتتابُعِ كتائبِ الغموم؛ بَيْدَ أنَّ الإيمانَ عمود نورٍ ليقينه، ورَوْحٌ مريحٌ لروحِهِ، وعزاءٌ تامٌّ لفؤادِه، وسكينةٌ وارِفَةٌ لقلبه المطمئنِّ بربه، الراضي به، الموقنِ بلقائه، القويِّ به، الحسنِ ظنًّا به، الواثقِ على الدوام به، المتوكِّلِ بكليته عليه، الفَرِحِ كُلّ الفرحِ به.

ومَن كانَ هذا حالُه فلا ضَيعَةَ عليه، ولا خوفٌ ولا حزنٌ، فالله تبارك وتعالى لا يُضَيِّعُ أهلَهُ، ولا يُخلِفُ ميعادَهُ، ولا يُخَيِّبُ مَن صَدَقَ معه، وبالله التوفيق. والحمد لله أزلًا وأبَدًا وسَرْمَدًا، وسلامٌ على عباده الذين اصطفى.

كيف تتخطّى مرحلة الـ(لو)

إنّ (لو) أحبولة الشيطان، يصطاد بها ضيّقي الصدور، أو ضعيفي البصائر، فلا يستطيع الشيطان بلوغ مآربه من المرء في هذا إلا من باب الجهل بالشرع أو الجهالة فيه، أي ضعف العلم أو وَهَن اليقين والإرادة، لذلك نوه الله تعالى للجمع بين العلم والإيمان، فقال سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦]، فالعلم نور والإيمان مَرْكَبٌ، فبالنور تصل سفينة الإيمان شاطئ النعيم بإذن الله تعالى، فالنور لا يكفي والراحلة لا تكفي، بل لا بد من اجتماعهما للوصول لعلّيين برحمة أرحم الراحمين تبارك وتعالى.

فما أحوج الناس في هذا الزمان للتواصي بالحق والصبر فيه عبر طَرْق هدايات الشريعة هذا الموضوع الذي لا تنفك أسبابه عن هجومها على أفئدة الناس وعلى صدورهم على الدوام عند أدنى عثرة فُجاءة، أو تلاشي أمنية، أو فوات رغيبة، فلو اعتنقته أفئدتهم على وفق الشرع ورَضُوا ما آتاهم الله تعالى لأراحوا أنفسهم من زفرات الخيبات، وحسرات الفوائت، وجرعات الغيض، وزعزعة سكينة القلوب. ذلك أنّ الإنسان في مراحل حياته وسيرورة أيامه يمرّ ولا بدّ بمنعطفات حرجة في حياته، ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ١٩﴾ [الانشقاق: ١٩] وحالًا بعد حال، فيترتب على اختياره لمنعطفاته الحياتية أمور كبار أو صغار بحسب حجم هذا الأمر، وكم من أمر صغير تترتب عليه العظائم!

لذلك شرع الله تعالى المشاورة والاستخارة والتوكل، فقال سبحانه: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عِمْرَان: ١٥٩]، وقال سبحانه: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القَصَص: ٢٢]، وقال سبحانه: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عِمْرَان: ١٥٩].

وعن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلّمنا الاستخارة في الأمور كلها، كالسورة من القرآن..»(١). وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«احرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، واسْتَعِنْ بِاللهِ وَلاَ تَعْجَزْ»**(٢).

ولا جرَم في شأن تقديم الشريعة أمر الرضا بالله تعالى في كل أمر، فإن الفرح بتحصيل المرغوب، أو دفع المرهوب، أو الحزن، أو الحسرة، أو الغضب لفواته لها أثر مباشر في سكينة الإنسان، وراحته، وطمأنينته، مهما كانت جهة المُقدَّرِ الربّاني، أو الاختيارِ الإنساني، سواء أكان ذلك الأمر فقد حبيب، أو خسارة مكتسب، أو تسلّط ظالم، أو مرض عضال، أو اختيار قسم الدراسة، أو العمل، أو الزواج، أو المسكن، أو السفر، أو إجراء صفقة ما، أو اختيار ما.. ونحو ذلك. ولا يكاد ينفكّ أحد عن ذلك، فقطب رحى الراحة في الرضا. والدنيا إنما هي مزرعة وحرث وميدان عمل.

---

(١) البخاري (٦٣٨٢)

(٢) مسلم ٨/٥٦ (٢٦٦٤) (٣٤)

والمقصود؛ بيان أنّ لفظ ومعنى (لو) لها استدعاء وحضور في حياة أكثر الناس، وأكثر استعمالاتها شيوعًا التحسّر والتلهّف والتسخّط على ماضٍ انقضى اعتراضًا على القدر، وهذا هو المذموم.

وبالجملة؛ فلفظ (لو) له أحوال:

الأول: أن يقولها اعتراضًا على القدر وتسخّطًا له، فهذا محرم.

الثاني: أن يقولها لمجرد الخبر المحض، فهي مباحة في الأصل، ولكن يختلف حكمها بحسب صدق الخبر أو كذبه.

الثالث: أن يقولها لبيان ما ينبغي فعله مما فات من الطاعات من غير تسخط، فهذا مشروع.

الرابع: أن يقولها للتمنّي في المستقبل، فهي بحسب ما تمنّاه من خير أو شرّ.

بيان ذلك: أن لفظ (لو) له أحوال قد بينها الكتاب وفصلتها السنة، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ. احرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، واسْتَعِنْ بِاللهِ وَلاَ تَعْجَزْ. وَإِنْ أَصَابَكَ شَيءٌ فَلاَ تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيطَانِ»**[1].

---

(١) مسلم ٨/٥٦ (٢٦٦٤) (٣٤)

وعليه فالحال الأول للفظ (لو) هو أن يقولها اعتراضًا على القدر وتسخطًا، فهذا من عمل الشيطان. وكثير ممن يقولونها إنما يقولونها تسخّطًا واعتراضًا على القدر وذمًّا للمقضيّ، وهذا هو الممنوع المذموم، وهو لا يغني عن صاحبه شيئًا سوى ألم الحسرة ووزر الذنب، فلا هو بالذي سلم من المؤلم، ولا هو بالذي تقلّد مكرمة الصابرين الراضين الحامدين الشاكرين.

والاعتراض على القضاء وتسخّطه من خصال المنافقين، ولا غَرْوَ؛ فليس لهم زادٌ من رضًا يسافرون به في تخوم ابتلاءات الدنيا كحال المتقين الفائزين الحائزين رضا الآخرة برضاهم في الدنيا. فقلب المنافق فارغ من الرضا بالله تعالى، لهذا فمن وسائل طرد النفاق عن حمى القلب ترديد ذكر الرضا طرفي النهار قال رسول الله ﷺ: **«ما من عبد مسلم يقول حين يُصبح وحين يُمسي ثلاث مرات: رضيت بالله ربًا وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا، إلا كان حقًّا على الله أن يرضيه يوم القيامة»**[(١)].

قال الله تعالى ذامًّا المنافقين واصفًا مقالهم وحالهم مع مُرّ المقادير وشديدات الأقضية: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عِمْرَان: ١٥٤]، وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾ [آل عِمْرَان: ١٦٨] فهم يعترضون على مواقع القدر بهذا، وفيه من سوء الأدب مع الله

---

(١) أحمد (١٨٩٦٧) (٤/٣٣٧) من حديث أنس، وفيه سابق بن ناجية لم يوثقه غير ابن حبان. وقال محققو المسند: صحيح لغيره. وجود سنده النووي في الأذكار، وحسّنه ابن باز في تحفة الأخيار. وله شاهد من حديث أبي سعيد الخدري عند أحمد (١١١٠٢) وهو حديث صحيح.

تعالى ما فيه، ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣﴾ [نوح: ١٣]. قال ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله ﷺ: «**فإن لو تفتح عمل الشيطان**» يعني تفتح عن العبد عمل الشيطان ووساوسه وتشكيكه، فينبغي للمؤمن ألا يستعملها حتى لا يقع في حبائل الشيطان ووساوسه وتشكيكه، وإملائه ما لا ينبغي، فإن الأمور بيد الله تعالى، هو الذي قدّرها جل وعلا، فإذا فعل المؤمن ما شرع الله من العلاج، من السفر، ومن الإقامة، ومن الأكل ومن غير ذلك من الأسباب التي تعاطاها، ثم غلبه القدر؛ فليقل: قَدَرُ الله، وما شاء فعل، إنا لله وإنا إليه راجعون، فليس الأمر بيده، بل بيد الله تعالى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ۝١٥٧﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧]، وقال النبي ﷺ: «**ما من عبد يصاب بمصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللّٰهم آجِرْني في مصيبتي، واخلف لي خيرًا منها، إلا آجَرَهُ الله في مصيبته، وأخلف له خيرًا منها**»(١)، فالمؤمن هكذا تحت القدر، لكن لا يمنعه القدر من تعاطي الأسباب، يفعل الأسباب التي يستطيعها، فإذا قدر أن الأسباب لن تنفع؛ فلا يجزع، ولا يقل: لو لو، بل يقول: قدر الله وما شاء فعل، إنا لله وإنا إليه راجعون، مثلاً ذهب بالمريض إلى الطبيب الفلاني، أو المستشفى الفلاني، أو المستوصف الفلاني فلم يقدر نفع الأسباب؛ فلا يقل بعد موته: لو أني سافرت به إلى الخارج، لو أني ذهبت إلى المستشفى الآخر، لو أني ذهبت إلى فلان، هذا

---

(١) مسلم (٩١٨)

ما ينفع قد مضى الأمر، والله تعالى لو شاء ذلك لوقع، لكن هذه المنية انتهت، والأجل قد تم، فلا ينبغي الاعتراض بقول: لو لو.

أما إذا كان قول (لو) لبيان ما ينبغي، مثل ما قال ﷺ: **«لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما أهديت»** (١). هذا ليس للاعتراض، ولكن لبيان الأفضل، مثل لو علمت أن هذا واقع لفعلت كذا وكذا، مما يبين للناس أنه الأفضل وأنه الأحرى، ولو علمت أن فلانًا موجودًا لزرته، ولو علمت أن فلانًا مريضًا لعدته، أو ما أشبه ذلك مما يسفر عن أسفه على ما فات عليه، ليس على سبيل الاعتراض، هذا لا خلاف في هذا الباب، وإنما الممنوع هو الاعتراض على القدر، وأما إخباره وأنه لو كان كذا لفعل كذا، لو كان فلانًا موجودًا لقرأت عليه، لو كان العالم موجودًا لقرأت عليه، لو علمت أن فلانًا مريضًا لزرته، لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سفرت إلى كذا، وما أشبه ذلك، ليس هذا من باب الاعتراض»(٢). وقال العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كلامه على قوله ﷺ: **«فإن لو تفتح عمل الشيطان»**: «كلمة (لو) في هذا المقام إنما تفتح باب الندم والحزن، ولهذا نهى عنها رسول الله، ﷺ؛ لأن الإسلام لا يريد من الإنسان أن يكون محزونًا ومهمومًا بل يريد منه أن يكون منشرح الصدر وأن يكون مسرورًا طليق الوجه، ونبه الله المؤمنين لهذه النقطة بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [المُجَادلَة: ١٠]. والمهم أن الشرع يحب من المرء أن يكون دائمًا في سرور، ودائمًا في

(١) البخاري (٧٢٢٩) مسلم (١٢١١) (١٣٠)

(٢) شرح كتاب التوحيد (٦٤) باب ما جاء في (لو)

فرح ليكون متقبلًا لما يأتيه من أوامر الشرع؛ لأن الرجل إذا كان في ندم وهم وفي غم وحزن لا شك أنه يضيق ذرعًا بما يلقى عليه من أمور الشرع وغيرها، ولهذا يقول الله تعالى لرسوله دائمًا: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝٧٠﴾ [النمل: ٧٠]، ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف: ٦]

وهذه النقطة بالذات تجد بعض الغيورين على دينهم إذا رأوا من الناس ما يكرهون تجدهم يؤثّر ذلك عليهم، حتى على عبادتهم الخاصة، ولكن الذي ينبغي أن يتلقوا ذلك بحزم وقوة ونشاط، فيقوموا بما أوجب الله عليهم من الدعوة إلى الله على بصيرة، ثم إنه لا يضرّهم من خالفهم»[(١)].

ومن ذلك قول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في توجيهه النافع الشهير: «كثير من الناس إذا رأى المنكر أو تغيُّر كثيرٍ من أحوال الإسلام جزع وَكَلَّ وناحَ كما ينوح أهل المصائب، وهو منهيّ عن هذا، بل هو مأمور بالصبر والتوكل والثبات على دين الإسلام وأن يؤمن بالله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأن يؤمن بأن العاقبة للتقوى، كما قال رب العزة جلا وعلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ۝١٢٨﴾ [النحل: ١٢٨]»[(٢)].

الثاني: أن يقولها لمجرد الخبر المحض، فهي بحسب الخبر إن صدقًا وإن كذبًا. كقوله: لو كنت متفرغًا للقيتك، أو لو مررت بلدتك لزرتك ونحو

---

(١) كتاب مجموع فتاوى ورسائل العثيمين. المناهي اللفظية (٤٩٥)

(٢) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٨/ ٢٩٧)

ذلك. فإن (لو) هنا هي لمجرد الإخبار، فهذه لا بأس بها، وهي بحسب الخبر إن صدقًا وإن كذبًا، فيجوز إلا إن كان كاذبًا في خبره. مثاله قول عمرو بن معدي كرب الزبيدي اليماني معاتبًا قومه إذ لم يصدقوا في الحرب فلم يستحقوا مدحته:

فلَـوْ أنَّ قَـوْمي أَنطَقَتْنـي رمـاحُهُمْ ... نَطَقْـتُ ولكـنَ الرمـاحَ أَجـرَّتِ[1]

---

(١) وهو من الطويل، وهذه الأبيات معدودة هي من جزيل قصائد الحماسة، وهي عشرة أبيات، قال عمرو:

ومُردٍ عَلَى جُـردٍ شَـهِدْتُ طِـرادَها ... قُبيلَ طُلُوعِ الشَّـمْس أَو حينَ ذَرَّتِ
صَـبحْتُهُمُ بيضـاءَ يَبـرُقُ بَيْضُـها ... إذَا نظَـرَتْ فِيها العـيونُ ازمَهـرَّتِ
ولمَّا رأيتُ الخَـيلَ زُورًا كَـأنَّهَا ... جداولُ زرعٍ أُرْسـلت فاسبطَرَّتِ
وجاشَـت إِلَيَّ النفسُ أولَ وهلةٍ ... فَرُدَّتْ عَلَى مكـرُوهِها فاسـتقرَّتِ
عَلَامَ تقـولُ الرُمـحُ يُثقـلُ عاتِقِي ... إذَا أنَا لم أطعـنْ إِذا الخيلُ ولَّتِ
عقـرْتُ جوادَ ابْني دُريدٍ كليهما ... ومَا أَخذَتْني فِي الخُـتُونة عِـزَّتي
لَحَا الله جَـرْمًا كلّما ذَرَّ شـارقٌ ... وُجُوهَ كلابٍ هارشـتْ فازْبَأَرَّتِ
ظللتُ كَأَنِّي للرمـاحِ دريئـةً ... أُقاتِلُ عَنْ أبناءِ جَـرْمٍ وفرَّتِ
فلمْ تُغنِ جـرمٌ نهـدَها إِذْ تلاقتا ... وَلَكِن جَرْمًا فِي اللِّقَـاءِ ابذَعَرَّتِ
فلوْ أنَّ قومِي أنطـقتِني رمَاحُهُمْ ... نطـقتُ ولكِنَّ الرمـاحَ أَجَرَّتِ

وكان من قصة هذه الأبيات أن جَرْمًا ونهدًا ـ وهما قبيلتان من قضاعة ـ كثرت بطونهم فتلاحوا فاقتتلوا وتفرّقوا وتشتت أمرهم، وحرّش الشيطان بينهم فقطّعوا أرحامهم ووقع الشر بينهم، فلحقت نهد بن زيد ببني الحارث بن كعب فحالفوهم، ولحقت جرم بن ربان =

=

ببني زبيد فحالفوهم، ثم وقعت الحرب بين الحارث وبني زبيد واستتبع ذلك أن تحارب نهدٌ جرْمًا، فتحاربت بنو الحارث وبنو زبيد في الحرب التي كانت بينهم فالتقوا، وعلى بنى الحارث عبد الله بن عبد المدان، وعلى بنى زبيد عمرو بن معدي كرب الزّبيدىّ، فتعبّى القوم، فاستعدّت جرم لنهد، وتواقع الفريقان، فاقتتلوا، فكانت الدّبرة يومئذ على بنى زبيد وانهزموا، وقد فرّت جرم عن حلفائها من زبيد، فهزمت بنو زبيد قوم عمرو بن معدي كرب، وانخذلت عنها جرم التي لم ترع حق الحلف. فهتف عمرو بهذه الأبيات الشامخة الخامشة المتألمة الأبيّة، ورويّها الرائق الماتع الفريد.

والمرد: جمع أمرد. الجرد: جمع أجرد، وهو الفرس القصير الشعر. الطراد: هو مطاردة الفرسان بأن يجعل بعضهم على بعض في الحرب. ذرّت الشمس: طلعت وظهرت أول طلوعها. صبحتهم: جئتهم بالكتيبة صباحًا. بيضاء: يريد كتيبة بيضاء عليها بياض الحديد. بَيْضُها: قلانس الحديد على رؤوسها، واحدها بيضة. ازمهرّت: احمرت من الغضب. الزُّور: جمع أزور وزوراء؛ وهو المعوجّ العنق. ورويت «رهوًا»: أي سراعًا متتابعة. الجداول: الأنهار الصغار. اسبطرّت: امتدّت في سرعة. جاشت: ارتفعت من فزع، وهذا ليس لكونه جبانًا، بل هو بيان حال النفس، ونفس الجبان والشجاع سواء فيما يدهمها عند الوهلة الأولى، ثم يختلفان، فالجبان يركب نفرته، والشجاع يدفعها فيثبت. لذلك قال: فرُدّتْ على مكروهها: أي رددّتُها على الشدة. ومن ذلك قول ابن الإطنابة:

أَبَتْ لِي عِــفّـتِي وأبَى بَــلائي ... وأخـــذي الحَمْــدَ بِالثّمنِ الرَّبيح
وإجْشَــامِي على المَكْرُوه نَفسـي ... وضَـــرْبي هَامة البطلِ المُشِـيح
وَقَوْلِي كُلّمَا جَشــأتْ وجَاشَــتْ ... مَكَانَكِ، تُحْــمَدِي أَو تَســتَرِيحي
لِأَدْفَــعَ عَن مآثِرَ صـــالحاتٍ ... وأحمي بعـــدُ عَن عِرضٍ صَـحِيحِ

=

=

أما الختونة التي ذكرها عمرو فهي من الختن أي المصاهرة، والختن: أبو امرأة الرجل وأخو امرأته وكل ما كان من قبل امرأته، والاسم الختونة. وقد ذكر الله القرابات في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ۝٥٤﴾ [الفُرْقَان: ٥٤] فالقرابات بالنسب عصبة وخؤولة، وصهرا بالنكاح، ورضاعًا.

أما قوله: لحاه الله: أي أهلكه، وهو دعاء، وأصل اللحو نزع قشر العود. ذرّ شارقٌ: طلعت الشمس. وجوهَ: بالنصب على الذمّ والشم، أو بدل من «جرمًا». هارشت: من المهارشة، وهي تَقَاتُل الكلاب. ازبأرّت: انتفشت حتى ظهر أصول شعرها وتجمّعت للوثب. الدريئة: الحلقة التي يتعلم الرامي الطعن والرمي عليها، فقوله: «ظللت كأني للرماح دريئة» أي: بقيت في نهاري منتصبًا في وجوه الأعداء والطعن يأتيني من جوانبي أذب عن جرم، ويجوز أن يكون المعنى: كأني للرماح صيد. نَهْد: قبيلة. لم تغنها جرم: لم تقاومها ولم تكفها، ولكنها فرّت منها. وأضاف نهدًا إلى ضمير جرم لاعتقادهم الاكتفاء بها. ابذعرّت: تفرقت وتبدّدت. أجَرَّتِ: الإجرار: أن يُشق لسان الفصيل ويوضع فيع عويد لئلا يرضع. يقول: لو أن قومي قاتلوا وأبلوا لذكرت ذلك وفخرت بهم، ولكن رماحهم أجرتني، أي: قطعت لساني عن مدحهم لفرارهم، أراد أنهم لم يقاتلوا. وقال الجاحظ في البيان والتبيّن (٢/١٥٤) «الجرار: عود يعرض في فم الفصيل أو يشقّ به لسانه لئلّا يرضع أمه. فيقول: قومي لم يطعنوا بالرماح فأثني عليهم، ولكنهم فروا فأمسكت كالفصيل الذي في فمه جرار». وانظر: شرح الأصمعيات: (١٢١-١٢٢) ومعجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع للبكري (١/٤١).

وأقول: لعلّ سبب جرم سيوفها عن نهد تذكّر الأرحام، فمعاداة الأقارب شر وبلاء، الرابح فيها خاسر، والمنتصر مهزوم، كما قال البحتري في صلح بني تغلب وهي في الغاية من وصف آلام الصِّلة الجميلة التي اغتالتها فتائل الغضب وقلائد الشيطان:

وَفُرْسَـــــانِ هَيْجَـاءٍ تَجِيْشُ صُدُوْرُهَا   بِأَحْقَـــادِهَا حَتَّى تَضِيـْقَ دُرُوْعُهَا

=

والإجرار: هو شقُّ لسان الفصيل لئلّا يرضع أمه، ويجعل في لسانه عود صغير ليمنعه من خُلْفِ أمه. يقول: لو أنهم أبلوا في الحرب بلاء حسنًا لمدحتهم وذكرت بلاءهم، ولكن قصروا فأجرُّوا لساني فما أنطق بمدحهم.

الثالث: أن يقولها لبيان ما ينبغي فعله مما فات، فهذا مشروع لأنه خال من الاعتراض على المقادير. فتكون هنا للتأسف على فوات قربة وطاعة، فهذه محمودة إن كانت لتربية النفس وتأديبها وزجرها عن تفويت خير الآخرة فيما يُستقبل مع الرضا بالقضاء الذي قد نفذ، فهو يقولها تربية لنفسه فيما يُستقبل لا

=

تُقَتِّلُ مِنْ وَتْرٍ أَعَزَّ نُفُوسَها ... عَلَيْهَا بِأَيْدٍ مَا تَكَادُ تُطِيقُهَا
إِذَا احْتَرَبَتْ يَوْمًا فَفَاضَتْ دِمَاؤُهَا ... تَذَكَّرَتِ القُرْبَى فَفَاضَتْ دُمُوعُهَا
شَواجِرُ أَرْمَاحٍ تُقَطِّعُ بَيْنَهُمُ ... شَوَاجِرَ أرحامٍ مَلُومٌ قَطُوعُهَا

فبعضهم يسفك دم بعض ويده لا تكاد تطاوع وتْره، والدماء تفيض على الثرى، والدموع تسيل على المآقي، والرماح تقطّع علائق الأرحام. والله المستعان.

والشاعر هو عمرو بن معدي كرب بن ربيعة بن عبد الله الزبيدي. ويكنى أبا ثور، من الشعراء المخضرمين، ولد سنة ٥٢٥ م، أي حوالي مئة سنة قبل الهجرة، وتوُفِّي سنة ٢١/ ٦٤٢. فارس اليمن المشهور، وصاحب غارات مذكورة، وفد على المدينة سنة ٩ هـ، في وفد مَذْحِج في عشرة من بني زبيد، فأسلموا وعادوا. ولما توفي النبي ﷺ ارتد عمرو في اليمن، ثم رجع إلى الإسلام، فبعثه أبو بكر إلى الشام، فشهد اليرموك، وفقد فيها إحدى عينيه. وبعثه عمر إلى العراق، فشهد القادسية، وكان عصيّ النفس، أبيًّا. وشهد القادسية وهو ابن مئة وست سنين فيما يزعمون، وأبلى فيها بلاء عظيمًا. واختلف في وفاته، فقيل في القادسية وقيل بعد وقعة نهاوند.

في تسخّطها على ما فات. وكذلك لو قالها لبيان ما ينبغي، وكذا لبيان فضل العمل الفائت، أو أن يقولها تطييبًا لقلوب أصحابه وحثًّا للناس على فعله للائتساء والاقتداء، ويحمل عليه قوله ﷺ: **«لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدي وجعلتها عمرة»**(١).

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن النبي ﷺ لم يقل: **«لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي وجعلتها عمرة»** لأجل أن الذي فعله مفضول، ففعله هو الأفضل، وإنما أراد تطييب قلوب أصحابه لما شَقَّ عليهم أن يحلّوا من إحرامهم، وفي هذا تأليف للقلوب، فجمع الله له الأجرين: أجر فعل الأفضل، وأجر ما اختار من موافقتهم على ما أمرهم به لولا سوق الهدي، وذلك لأن في سوق الهدي من تعظيم شعائر الله ما ليس في التمتع والتحلل والإحرام ثانيًا، فيكون القارن الذي ساق الهدي أفضل من المتمتع الذي لم يسق الهدي.(٢)

الرابع: أن يقولها للتمنّي في المستقبل، فهي بحسَب ما تمنّاه من خير أو شرّ. فتكون محمودة إن كانت عن صادق أمنية صالحة، ومن ذلك قوله ﷺ: **«إنما الدنيا لأربعة نفرٍ: عبد رزقه الله مالًا وعلمًا فهو يتقي فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقًّا، فهذا بأفضل المنازل. وعبد رزقه الله علمًا، ولم يرزقه مالًا، فهو صادق النية، يقول: لو أنّ لي مالًا لعملت بعمل فلان، فهو بنيّته،**

---

(١) البخاري (٧٢٢٩) مسلم (١٢١١) (١٣٠)

(٢) وانظر: الفتاوى (٢٦/ ٨٩ - ٩٢)

فأجرهما سواء. وعبد رزقه الله مالًا، ولم يرزقه علمًا[١]، فهو يخبط في ماله[٢] بغير علم، لا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقًّا، فهذا بأخبث المنازل[٣] وعبد لم يرزقه الله مالًا ولا علمًا، فهو يقول: لو أنّ لي مالًا لعملت فيه بعمل فلان، فهو بنيّته، فوزرهما سواء»[٤].

فالنيّة تدرِكُ ما لا يدركُ العمل، **«إنما الأعمال بالنيات»**[٥]. ومردّ ذلك إلى أن الغرض من التقوى هو صلاح القلب، حتى وإن خلت اليد من مال يثبت به حبه لربه تعالى بإنفاقه في مرضاته، أو عجز الجسد عن الوقوف بين يديه ليقوم في صلاته، أو لم تطق صحته صيام هاجرة، أو منعت المرأة من صلاة لعذرها الشهري، أو عجز العبد عن الوصول لمشاعر الحج أو الجهاد باللسان أو باليد ونحو ذلك، فالعبرة بما في القلب، كما قال ﷺ: **«التقوى هٰهنا»**[٦]،

---

(١) أي: علمًا نافعًا يحجزه عن الحرام ويدفعه للإحسان والتقوى.

(٢) لاحظ وصف فعله في ماله بالخبط، إشارة لعدم أو ضعف الاتزان والاقتصاد والتحرّز والتورع.

(٣) وذلك لخبث طويته، وخسّة، طينته وسوء معدنه، فإنه قد تمنّى الحرام حتى وإن لم يكُ متمكّنًا منه.

(٤) أحمد (١٨٠٣١) بسند حسن من حديث أبي كبشة الأنماري، وله شاهد صحيح من حديث أبي هريرة، ذكره الأرناؤوط. ورواه الترمذي (٢٣٢٥) وقال: حسن صحيح. وصححه الألباني.

(٥) البخاري ١/٢ (١) ومسلم ٤٨/٦ (١٩٠٧)

(٦) مسلم (٦٤٨٢)

فالعبرة والمعوّل على ما في القلب، أما الجوارح فأعوان لهذا القلب، وجنود له، ينفذ القلب بواسطتها ما يريد، قال تبارك وتعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

فهياكل العبادات قوالب لإحسان العبودية لله تعالى، وإذا تدبرت الوحي وجدت أن صلاح القلب هو الغاية لكل عبادة بدنية أو مالية أو غيرها، فتلك العبادات تصقله وتهذبه وتصفيه وتنيره وتطيبه، فلا غنى عنها، ولا قوام لها إلا به، فهي أركانٌ عملية للعبادة مقصودة لذاتها، فهي عبادة، وثمرتها صلاح القلب، لذلك فالعبادة تكون فاسدة في حال فسد القلب فيها كالرياء.

ومن هنا كان أمر أعمال القلب في الغاية القصوى والأَمَدِ الغائي لكل مؤمن موفق، فترى صاحب أعمال القلب العظيمة يسبق بمراحل من دونه في مراتب أعمال القلوب وإن كان المسبوق أكثر اجتهادًا في أعمال البدن، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد: ٢١].

والإيمان في القلب والجوارح كالشجرة، فأصولها القلب وفروعها الجوارح، فإذا فسد جذع الأصل فسيظهر عرق فساده في الفروع والأغصان والأوراق والثمار، وإن طاب طابت، ومتى رأينا فسادًا في ثمرة أو غصن استدللنا بذلك على فساد في الجذع بحسبه، وفي هذا ردّ على من زعم أن فساد الظاهر لا علاقة له بفساد الباطن، كلا؛ بل لولا فساد في الباطن ما ظهر فساد الظاهر، ولا عكس، فقد يفسد الباطن ويبقى الظاهر مزيّفًا إلى حين، ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠].

ونحن قد أمرنا بمعاملة الناس بحسَب ما ظهر منهم، وما أبدوه لنا من صفحاتهم، ونكل حقائق ما في قلوبهم لعلام الغيوب، فلا ننقب العيوب ولا نزكّيها.

قال شيخنا عبد الكريم الخضير حفظه الله تعالى: «إذا ظهر على الجوارح شيء من المخالفات هل يمكن أن يحتج هذا المخالف بأن التقوى هٰهنا؟ نقول: لو كان في هذا المخفي شيء، أو أن التقوى موجودة في هذا القلب لظهرت على الجوارح؛ لأن ما ظهر على الجوارح من المخالفات برهان على تكذيب الدعوى التي هي التقوى، لما استدل الصحابي بقوله جل وعلا: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ﴾ [المَائِدَة: ٩٣] قال: يشرب الخمر وهو تقي، قال له عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «أخطأتْ أستُك الحفرة، لو اتقيت وآمنت وعملت الصالحات لم تشرب الخمر»(١).

---

(١) نقلها ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١١/٤٠٥) وقوله: «اخطأتْ..» مثل يُضْرب لمن لم يصب مَوضِع الصواب.

وهذه الحادثة لها فوائد جمّة فقهية ومسلكية، وقد جرت لقدامة بن مظعون رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وهو أحد الصحابة الأخيار، إذ جلس يومًا مع بعض الصحابة يتذاكرون القرآن، فتلوا قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ﴾ [المَائِدَة: ٩٣]. فقالوا: «الحمد لله، نحن ممن آمن، ونحن على صلاح وتقوى، وليس علينا جناح فيما طعمنا»، فجاءوا بالخمر فشربوها ظنّا أنها حلال لهم. فعلم عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بخبرهم، فجاء بقدامة ومن كان معه، وجمع لهم الصحابة، فسألوا قدامة

=

وهذا الذي تظهر عليه علامات الفسوق يحلق لحيته، ويشرب ما يشرب علنًا، ويسبل ثيابه، أو عنده مخالفات، يقول: التقوى هٰهنا! هذا لو اتقى الله ما حصلت منه هذه الأمور، فقد كذب دعواه بفعله، وليس في هذا مستمسك للعصاة المعلنين بمعاصيهم أن يقولوا: التقوى هٰهنا، لو اتقى الله، جل وعلا، ما فعل هذه المعاصي»(١).

هذا؛ ومما يلحق بذلك لفظ (لولا) فهي (لو) المنفية، قال العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إسناد الشيء إلى سببه ينقسم إلى أقسام:

الأول: قسم يكون شركًا أكبر، مثل أن يقول: لولا الوليّ فلان لهلكت، والولي فلان هذا مدفون مقبور لا ينفع أحدًا شيئًا، فلا يصدر هذا القول إلا من

=

بن مظعون لِمَ؟ فتأوّل لهم الآية، فقال له عمر بن الخطاب: «أخطأت أستك الحفرة، لو اتقيت وآمنت وعملت الصالحات لم تشرب الخمر».

ثم قال لمن حوله من كبار الصحابة: سلوهم فإن شربوها مستحلّين كفروا، وإن شربوها متأوّلين جُلدوا، فأقيم عليهم الحدّ، وفي هذا دليل على منع التكفير بالتأويل والشبهة.

وبقي قدامة بن مظعون رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ دهرًا يبكي على نفسه، حتى خُشي أن يصل به الأمر إلى اليأس من رحمة الله تعالى، فجاء به عمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ مرة أخرى، ثم قال له: لا أدري أيّ ذنبيك أعظم: استحلالك الخمر؟ أم يأسك من رحمة الله؟ وتلا عليه أول سورة غافر: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾ [غَافِر: ٣] فذهب ما به وصلح حاله رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ وعن عمر.

(١) شرح الأربعين النووية عبد الكريم الخضير (٢١/١٤)

شخص يعتقد أنّ لهذا الوليّ المدفون تصرّفًا في الكون، فيكون شركًا أكبر مخرجًا عن الملة.

الثاني: أن يضيف الشيء إلى سببه المعلوم شرعًا أو المعلوم حسًّا. فهذا جائز ولا بأس به، مثل أن تقول: لولا أنّ فلانًا توضأ لم تصح صلاته، هذا صحيح واقع، لو لم يتوضأ لم تصح صلاته هذا السبب الشرعي.

أما السبب الحسي فكأن يسقط في بئر فيخرجه رجل آخر فيقول: لولا فلان أخرجني لهلكت، فهذا أيضا صحيح، لكن لا يعتقد أن فلانًا هو الذي استقلّ، لكن يسّره الله له فأنقذه، ومنه قول الرسول ﷺ في عمه أبي طالب حيث أخبر أن عمه أبا طالب في ضحضاح من نار وعليه نعلان يغلي منهما دماغه قال: «**ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار**»[١] هذا جائز، لأنه صدر من الرسول ﷺ، وهو في كلام العلماء كثير من إضافة الشيء إلى سببه المعلوم حسًّا أو شرعًا[٢].

الثالث: أن يضيفه إلى السبب مع الله مقرونًا بالواو، فهذا لا يجوز، بل هو من الشرك، لكنه شرك أصغر، إلا أن يعتقد أن الثاني الذي مع الله له تصرّف كتصرف الله فيكون شركًا أكبر، مثل أن يقول: لولا الله وفلان لحصل كذا

---

(١) البخاري (٣٨٨٣) ومسلم (٢٠٨)

(٢) ولا شك أن الأكمل والأجمل أن يقول: لولا الله، أو لولا أن الله يسّر بفلان ونحوه، فهذا أفضل وأحسن، أما الحديث ففيه بيان الجواز، والله أعلم.

وكذا، فهذا لا يجوز، حتى وهو يعتقد أن الله فوق كل شيء، بل يقول: لولا الله ثم فلان.

أما إن اعتقد أن الله وفلان سواء في التأثير فهذا شرك أكبر، وعلى هذا فإذا كان خبرًا فإنه لا بأس به، أو إذا كان مستندًا إلى سبب صحيح فإنه لا بأس به»(١).

وشاهد المقال: أنّ الناس حيال فوات مرغوبهم أو حصول مرهوبهم على درجات ودركات؛ فقد يجزعون، وقد يصبرون، وأقلهم من يرضون، وأقل قليلهم من يحمدون ويشكرون، ﴿إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٧٣ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٧٤﴾ [آل عمران: ٧٣ - ٧٤].

والآن حان وقت إجابة السؤال الكبير: كيف تتخطّا مرحلة الـ(لو)؟ وسأوجز الجواب في عشرة أمور:

الأول: تحريكُ نَوَابِهِ القلب لرسوخ يقينيّة نفاد القضاء والقدر، وأنّ ما قضاه الله فهو لا بد كائن، قال سبحانه: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٢٢﴾ [الحديد: ٢٢] وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ٤٩﴾ [القمر: ٤٩]، وقال ﷺ: **«واعلم**

(١) لقاء الباب المفتوح (٢٩) وانظر: شرحه لكتاب التوحيد (٤٦) فتاوى ابن عثيمين (١٣٠/٣)

أنّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك»[1]. فقدر الله ماض، وقضاؤه نافذ، مهما كابر الإنسان.

الثاني: العلم اليقينيّ بأنّ اختيار الله لك خير من اختيارك لنفسك، وأنّك مهما أوتيت من علم وحكمة وقدرة فلن تختار الطريق الأنسب لك لا بعلمك وحكمتك ولا بإرادتك وعملك.

الثالث: العلم بأن صواب الاختيار والمسار ليس محصورًا في ذلك الإطار الضيق من تحقيق مشتهى نفسك العجلى ونظرتها القاصرة، بل هو عبارة عن لوحة كبيرة تندرج فيها أمور كثيرة متشابكة من مصير دينك ودنياك، ومع اجتماع كل عناصر اللوحة ينبثق الاختيار الأصوب والأفضل، فميزان الاختيار الصائب ضخم جدًّا ودقيق جدًّا، فلا يهمل أي أمر من أمورك مهما صغر آنيًّا في عينك، أو عزب عن ذاكرتك، أو نحو ذلك، وليس هذا لأحد إلا لعلام الغيوب سبحانه.

الرابع: العلم بأنّ الأمور المؤلمة في ابتدائها فإنها تؤول إلى سعادة في نهاياتها لمن اتقى الله تعالى، فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين، والعبرة بكمال النهايات لا نقص البدايات، ومن كانت بداياته محرقة كانت نهاياته مشرقة بإذن الله تعالى. فكل أمور الدين والدنيا يعتريها ما يعتريها من المشاق والآلام، فإذا علمت أن أشرف الخلق وأكملهم وأطيبهم قد صُبت عليه صنوف البلايا من موت البنين والبنات والوالدين والأعمام والزوجة المحبة، وابتلي بقاطعي

---

(١) أبو داود (٤٧٠١) وصححه الألباني.

الأرحام، ومؤذي الجيران، والماشين بالبهتان، والمحاربين له في نفسه وعرضه وأصحابه، فصبر وصابر، ورضِيَ فأُرضِي، وحمِد فحُمد، وشكر فشُكِر، فكان سيد ولد آدم طرًّا، ومقدمهم يوم يقوم الأشهاد، فمن تأمل سيرته علم أن البلاءَ رَحِمُ الفرح، والامتحان معراج العُلى، واليقين سلّم الفلاح، والرضا باب الجنة، ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضُّحَى: ٥].

الخامس: العلم بحقيقة الدنيا، فإنّ ذلك يثمر الزهد فيها، ويتبين لك أنها لا تستحق، فحينها تستحيل لواعج الحسرات إلى مرهم وترياق، ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النَّحل: ٩٦]، ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤﴾ [الضُّحَى: ٤]، ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧﴾ [الأعْلَى: ١٧]، ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ۝٦٤﴾ [العَنكبُوت: ٦٤].

وقال ﷺ: «**لو أنّ الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء**»(١). وقال صلوات الله وسلامه وبركاته عليه: «**الغدوة في سبيل الله - أو روحة - خير من الدنيا وما فيها، ولموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها**»(٢).

---

(١) ابن ماجه (٤١١٠) والترمذي (٢٣٢٠) وقال: «حديث صحيح غريب». وصححه الألباني في الصحيحة (٩٤٠)

(٢) أحمد (١٥٥٦٣) وصححه محققوه الأرناؤوط وأصحابه.

ولما تعجّب الصحابة من نعومة وجمال جبّة سندس كانت لأكيدر دومة[١] قال ﷺ: **«أتعجبون من هذه؟ فو الذي نفسي بيده، لمناديل سعد بن معاذ في الجنة خير منها»**[٢].

وعليه، فالدنيا ليست بشيء في عين المبصر الحقيقي ببصيرته وهدى الله له، لا بعجلته وطيشه وطفولة رغباته وصغر أمنياته. ومن كان كذلك فلن يأسَ على فائت، ولن يفرح باطلًا بِمُؤْتَى، وستذوب لوعاتُه كَنَدَى الصباح عند تذكّر الرُّجعى، وسيوقن حينها أنّ الدنيا لا تستحق الغضب لأجلها، والحزن من أحوالها، والخوف من أهوالها، والأسى منها ولها. فرضوان الله تعالى هو غاية الأماني، ونهاية الآمال، وسقف الرغبات، فمن وجد الله فما ذا فقد؟ ومن فقد رضوانه فما ذا وجد؟!

والمقصود؛ أنّ الميزان الحقيقي هو ميزان الآخرة، فمن ضبط رمّانة ميزانه على ذلك استقامت له جادة السعداء، ولاحت له رفقة الأنبياء، واتبع الرسول بإحسان، فكان من الفائزين.

السادس: انتظار الأجر بالرضا بالقضاء، فالراضي موفور الحظ مغذوّ النصيب، قال رسول الله ﷺ: **«ما من عبد مسلم يقول حين يُصبح وحين**

---

(١) أي: حاكم دومة الجندل، وقد أسرته خيل خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأمر الرسول ﷺ أثناء غزوة تبوك في قصة جميلة حوت كثيرًا من دلائل نبوته ﷺ.

(٢) البزار في مسنده (٣/٢٥٧- ٢٥٨) قال الألباني لما ساق سنده: وهذا إسناد جيد، رجاله كلهم ثقات على شرط مسلم. السلسلة الصحيحة (٣٣٤٦)

يُمسي ثلاث مرات: رضيت بالله ربًا وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا، إلا كان حقًا على الله أن يرضيه يوم القيامة»[(١)]. فكيف لعاقل ألا ينتظر كنوز العطايا وذخائر المزايا؟! وعند الله للأتقى مزيدُ.

وربِّكَ مَا مَالُ الفَتَى بِذَخِيرَةٍ وَلَكِنَّ تَقْوَى الله خَيْرُ الذَّخَائِرِ

السابع: التلذّذ بالبلاء الذي لا بدّ منه، ولا حيلة في دفعه، فان كان لدنيا فهو الصبر والرضا والحمد والشكر، وإن كان للدين فهو أعظم وأعلى وأجلى وأسعد، كان مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: لا تغبطوا أحدًا لم يصبه في هذا الأمر بلاء، يقول: إن الله لا بد أن يبتلي المؤمن، فإن صبر رفع درجته كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ٢٤﴾ [السَّجدَة: ٢٤][(٢)].

الثامن: العيش بحسن الظن بالله تعالى، فالله عند ظن عبده به فليظن به ما شاء، فأحسن الظن كل الحسن بربك تعالى الذي لا يأتي بالخير إلا هو، لا يدفع الشر إلا هو، ولا إله إلا هو. واعلم أن انتظار الفرج عبادة المتوكّلين

---

(١) أحمد (١٨٩٦٧) (٤/٣٣٧) من حديث أنس، وفيه سابق بن ناجية لم يوثقه غير ابن حبان. وقال محققو المسند: صحيح لغيره. وجود سنده النووي في الأذكار، وحسّنه ابن باز في تحفة الأخيار. وله شاهد من حديث أبي سعيد الخدري عند أحمد (١١١٠٢) وهو حديث صحيح.

(٢) خرجه يعقوب بن سفيان في المعرفة والتاريخ (١/ ٤٧٤، ٦٦٠) ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٨/ ٣٤٣)، وأبو العرب التميمي في المحن (٢٩٧) وورد بنحوه عن عمر بن عبد العزيز وكذلك الإمام أحمد رحمهم الله تعالى.

الموقنين، وكل عسر يتبعه فرج ويسر، فما ابتلَى ليُعذِّب، ولكن ليُهذِّب، والبلاء يجمع بينك وبين الله والعافية تجمع بينك وبين نفسك، ويا ابن آدم لقد بورك لك في حاجة اكثرت فيها من قرع باب سيدك سبحانه.

فـلا تظـنن بربّـك ظـنّ سـوء ... فــإنّ الله أولى بالجميــل
ولا تظـنن بنفسـك قـطّ خـيرًا ... فكيـف بظـالم جـانٍ جهـولٍ
وظُـنَّ بنفسـك السُّـوءى تجـدْها ... كـذلك خيرهـا كالمسـتحيل
ومـا بـكَ مـن تُقـى فيهـا وخـير ... فتلـك مواهـبُ الـرّبّ الجليـل
ولـيس لهـا ولا منهـا ولكـن ... مِـن الـرّحمن فاشـكر للـدّليلِ

التاسع: مجاهدة النفس لله تعالى، فإن النفس جزوع هلوع حرون جهول لعوب، محتاجة لزمّها على التقوى، وجرّها لمراتع الهدى، والرفق بها، حتى تذوق فتعرف فتغترف فتشتاق فتسير فتعتاد وتثبت فتصل بإذن الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العَنكَبُوت: ٦٩]، وقال: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: ٧٨]. فجاهد نفسك في الله تعالى، واحزم معها، وارفق بها، ودارِها، وراعِها، ومن ثبت نبت، ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩﴾ [الجَاثِيَة: ١٩].

العاشر: العلم بأنّك قد بذلت وسعك بالاستخارة والاستشارة وبذل الوسع والتوكل على الله تعالى والاستعانة به وحسن الظن به، وهذا أقصى ما عليك، فلم يبق إلا ثلج اليقين بحسن الخَلَفِ، وبحر الرضا بتدبير المولى.

على العبدِ أن يسعَى إلى الخيرِ جهده ولــيس عليــه أن تــتمّ المقاصــدُ

وإنّي لكثير الوقوف والاستدعاء والتأمل والتلذّذ والتعلّم من كلام لأنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في وصف تسليم رسول الله ﷺ لربه في الأقدار، قال أنسٌ: «والله لقد خدمتهُ تسع سنينٍ، ما علمتهُ قال لشيءٍ صنعتهُ لم فعلتَ كذا وكذا، أو لشيء تركتهُ هلاَّ فعلتَ كذا وكذا» (١).

فأيُّ تسليم ورضًا وراحة كهذا، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القَلَم: ٤]، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، **«أيّها الناس، إنّما أنا رحمة مهداة»**.(٢) والرحمة المهداة للبشرية من لدن الرحمن الرحيم لا تكون إلا كاملة.

وإذا رَحِمْــــتَ فأنــــتَ أمٌّ أوْ أبٌ هـــذانِ في الــدُّنْيا هُمـــا الرُّحَمـــاءُ

صلوات الله وبركاته وسلامه ورحماته عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان، وبالله وحده التوفيق، وعليه التكلان، وإليه المآب.

---

(١) مسلم (٢٣١٠)

(٢) الحاكم (١٠٠)، والدارمي (١٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٣٤٥) والصحيحة (٤٩)

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾

ليس وراء رضوان الله لأهل الإيمان مطلب، فنسأل الله تعالى بوجهه الأكرم واسمه الأعظم أن يُحِلَّ علينا جميعًا ووالدينا وأهلينا وأحبابنا والمسلمين رضوانه الذي لا سخط بعده، إنه سميع قريب. قال تبارك وتعالى مبينًا مُبشّرًا مُرغّبًا واعدًا أهل الإيمان: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٧٢﴾ [التَّوۡبَة: ٧٢] «جامعة لكل نعيم وفرح، خالية من كل أذى وترح، تجري من تحت قصورها ودورها وأشجارها الأنهار الغزيرة، المروية للبساتين الأنيقة، التي لا يعلم ما فيها من الخيرات والبركات إلا الله تعالى.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، لا يبغون عنها حِوَلا ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖ﴾، قد زُخرفت وحسّنت وأعدت لعباد الله المتقين، قد طاب مرآها، وطاب منزلها ومقيلها، وجمعت من آلات المساكن العالية ما لا يتمنّى فوقه المتمنّون، حتى إن الله تعالى قد أعد لهم غرفًا في غاية الصفاء والحسن، يُرى ظاهرُها من باطنها، وباطنُها من ظاهرها.

فهذه المساكن الأنيقة، التي حقيق بأن تسكن إليها النفوس، وتنزع إليها القلوب، وتشتاق لها الأرواح، لأنها في جنات عدن، أي: إقامة لا يظعنون عنها، ولا يتحولون منها.

﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، يحلّه على أهل الجنة ﴿أَكۡبَرُۚ﴾ مما هم فيه من النعيم، فإن نعيمهم لم يطب إلا برؤية ربهم ورضوانه عليهم، ولأنه الغاية التي أَمَّها العابدون، والنهاية التي سعى نحوها المحبون، فرضا رب الأرض والسماوات، أكبر من نعيم الجنات. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٧٢﴾، حيث حصلوا على كل مطلوب، وانتفى عنهم كل محذور، وحسنت وطابت منهم جميع الأمور، فنسأل الله أن يجعلنا معهم بجوده»(١).

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربّنا وسعديك، والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: وأيّ شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا**»(٢).

فرضا الله تعالى الذي لا سخط بعده أفضل من جنّة بلا دوام رضا، فلا نعيم للمؤمن إلا بعد رضا الله تعالى، وإنما بيّن لهم تعالى إعطاءَهم رضاه عليهم على سبيل التدرّج في ترقّي نعيمهم في الجنة للأعلى والأجمل والأفضل، وبأن رضاه عنهم لا يزول ولا يحول، وفي هذا غاية الأمن والحبور، كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ

---

(١) تفسير السعدي (١ / ٣٤٣).

(٢) البخاري ١٤٢/٨ (٦٥٤٩)، ومسلم ١٤٤/٨ (٢٨٢٩) (٩).

ٱلۡعَظِيمُ ٧٢﴾ [التَّوۡبَة: ٧٢]، فالرضا جزء من نعيم الجنة، والجنة لا يدخلها إلا من رضي الله عنه، فالجنة ثمرة الرضا.

وقد يكافئ السيد عبده وهو غير راض عنه، أما الرضا فله شأن ثان، وقد يرضا عنه في وقت دون آخر، أما ديمومة الرضا فلا مثيل لها، ولله المثل الأعلى. والجنة إنما طابت برضوان الله تعالى على أهلها.

ثم لـمّا كان الرضا قد أقرَّ عيونَ أهل الجنة بالفرح السابغ والأمن الدائم الخالد؛ أُعطوا فوقه نعيمًا زائدًا، وأيُّ نعيم؟! نسأل الله الكريم من فضله، إنه النظر لوجه الرحمن، إنه الزيادة. فعن صهيب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة؛ يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيّض وجوهَنا؟ ألم تدخلْنا الجنة وتنجِّنا من النار؟ فيكشف الحجاب، فما أُعطوا شيئًا أحبّ إليهم من النظر إلى ربهم**»[(١)].

قال الحافظ رَحِمَهُٱللَّهُ في الفتح في كلامه على حديث: «**ألا أعطيكم أفضل من ذلك..**»: «وفيه تلميح بقوله تعالى: ﴿رِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ لأن رضاه سبب كل فوز وسعادة، وكلّ من عَلِمَ أنّ سيّده راض عنه؛ كان أقرّ لعينه واطيب لقلبه من كل نعيم، لما في ذلك من التعظيم والتكريم. وفي هذا الحديث: أن النعيم الذي حصل لأهل الجنة لا مزيد عليه»[(٢)]. وقال ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ: «وهذا يدل على أنه في ذلك الوقت حصل لهم هذا الرضوان

---

(١) مسلم ١/١١٢ (١٨١) (٢٩٧).

(٢) فتح الباري (١١ / ٤٢٢).

الذي لا يتعقبه سخط أبدًا، ودل على أن غيره من الرضوان قد يتعقبه سخط. وفي الصحيحين في حديث الشفاعة يقول كلٌّ من الرسل: «**إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله**»[(١)].[(٢)] وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وتأمل قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التَّوْبَة: ٧٢]، كيف جاء بالرضوان مبتدأً منكَّرًا مُخبِرًا عنه بأنه أكبر من كل ما وعدوا به، فأيسرُ شيء من رضوانه أكبر من الجنات وما فيها من المساكن الطيبة وما حَوَتْه»[(٣)]. نسأل الله الكريم من فضله.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ مُحفِّزًا همم الصالحين التواقين لمعالي علّيين، ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾﴾ [المُطَفِّفِين: ١٩][(٤)]: «خلق الله دارين، وخصّ كل دار بأهل،

---

(١) البخاري ٤/١٦٣ (٣٣٤٠) و٦/١٠٥ (٤٧١٢)، ومسلم ١/١٢٧-١٢٨ (١٩٤) (٣٢٧).

(٢) مجموع الفتاوى (٧ / ٤٤٤).

(٣) بدائع الفوائد (٢ / ٣٩٣)

(٤) عليّون: من أبنية المبالغة في وصف العلوّ والارتفاع، فهو أعلى الأمكنة وأشرف المراتب وأقربها من الله تعالى، فالله تعالى في أعلى العلوّ كما وصفه رسوله ﷺ في دعائه: «**وأنت الظاهر فليس فوقك شيء**». رواه مسلم (٢٧١٣). وتحته مخلوقاته، فأقربها منه أشرفها، فلفظ عليّين من أبنية المبالغة في العلوّ. فأعلى عليّين هي منزلة الوسيلة لرسول الله ﷺ، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول، ثم صلّوا عليّ؛ فإنّه من صلّى عليّ صلاة صلى الله**

=

=

عليه بها عشرًا، ثم سلوا الله لي الوسيلة؛ فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلّت له الشفاعة». رواه مسلم (٣٨٤). فإن كانت الوسيلة من الفردوس الأعلى فهي أعلاه، وإن كانت منفصلة عنه فهي فوقه، والمُتبادر إلى الفهم أنها منزلة في أعلى الفردوس الأعلى من جنّة الرحمن، وفي معنى الوسيلة القرب، وهي هنا القرب من الرحمن جل جلاله مكانًا ومكانَةً.

والفردوس الأعلى في المرتبة الأعلى من علّيّين ـ وقد يكون عليّون مختصّ بالفردوس في بعض إطلاقاته ـ فعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من آمن بالله وبرسوله وأقام الصلاة وصام رمضان؛ كان حقًّا على الله أن يدخله الجنة، جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها»**، فقالوا: يا رسول الله، أفلا نبشّر الناس؟ قال: **«إن في الجنة مئة درجة، أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تُفجّر أنهار الجنة»**. رواه البخاري (٢٧٩٠).

فالجنة مُقبَّةٌ، وأوسطُ القبّة أعلاها كرأس الكُرَة، وعن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ أن أم الربيع بنت البراء ـ وهي أم حارثة بن سراقة ـ أتت النبي ﷺ، فقالت: يا رسول الله، ألا تحدثني عن حارثة ـ وكان قتل يوم بدر ـ فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء، فقال: **«يا أم حارثة، إنها جنانٌ في الجنة، وإنّ ابنك أصاب الفردوس الأعلى»**. رواه البخاري (٢٨٠٩).

ومراتبُ الجنة العُلى ـ كأهل الغُرَف ـ عليّون بالنسبة لمن دونهم من أهل الجنة، فمراتب أهل الغرف عالية، وقد يكونون هم أهل الفردوس، وقد يكونون أدنى منهم لأن مراتب الجنة كثيرة جدًّا وساشعة المسافات وهائلة الأبعاد. فعن أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ عن النبي ﷺ قال: **«إنّ أهلَ الجنة ليتراءون أهلَ الغرف من فوقهم كما تراءون الكوكب الدرّي الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم»**، قالوا: يا

=

=

رسول الله؛ تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: **«بلى والذي نفسي بيده، رجالٌ آمنوا بالله وصدّقوا المرسلين»**. رواه البخاري (٣٢٥٦) ومسلم (٢٨٣١).

والجنة كلها عليّون بالنسبة لما تحتها، كما في الحديث الطويل للبراء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: **«فيقول الله تعالى: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض»**. أخرجه أحمد (١٨٧٣٣) وأبو داود (٣٢١٢ و٤٧٥٣) وصححه الألباني. فالجنة كلها عليون بالنسبة لأهل الأرض، والأبرار المقتصدون هم من المؤمنين الذين يُكتب كتابهم في عليين، كما قال سبحانه: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾﴾ [المُطَفِّفِين: ١٨]، وإن كان السابقون المُقرّبون أعلى منهم منازل.

وقد جاء عن السلف في معنى «علّيين» أقوال، منها: السماءُ السابعة، وقائمةُ العرشِ اليُمنى، والجنة، وعند سِدْرَةِ المنتهى، وقيل: في السماء عند الله تعالى. وقيل: هو اسمٌ لِديوَان الملائكة الحَفَظَة، تُرْفَع إليه أعمالُ الصالحين من العباد، وقيل: أراد أعلى الأمكنَة وأشرَف المرَاتِب من الله في الدار الآخرة. قال الطبري رَحِمَهُٱللَّهُ في تفسيره (٢٤ / ٢٩٣): «فبيَّن أن قوله: ﴿لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾﴾ [المُطَفِّفِين: ١٨] معناه: في عُلُوٍّ وارتفاع، في سماءٍ فوق سماء، وعُلُوٍّ فوق عُلُوٍّ. وجائزٌ أن يكونَ ذلك إلى السماء السابعة، وإلى سدرة المنتهى، وإلى قائمةِ العرش اليُمنى، ولا خبرَ يقطعُ العُذرَ بأنه معنيٌّ به بعضٌ دون بعض. والصوابَ أن يقال في ذلك كما قال الله جل ثناؤه: إن كتابَ أعمالِ الأبرار لفي ارتفاعٍ إلى حدٍّ قد عَلِمَ الله جلَّ وعزَّ منتهاه، ولا علمَ عندنا بغايته، غير أن ذلك لا يقصرُ عن السماء السابعة؛ لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك». أهـ. هذا وقد وردَ في بعض طرقِ حديثِ البراء بن عازب: **«اكتبوا كتابَ عبدي في علّيِّين في السماء السابعة»**. وانظر: زاد المسير (٥٧/٩)، وتفسير ابن كثير (٣٧٤/٨) وغريب الحديث لابن الجوزي (٢ / ١٢٤) وقال ابن الأثير في النهاية (٢٩٤/٣): «ويعرب بالحروف والحركات كقنّسرين وأشباهها على أنه جمع أو واحد».

=

والله سبحانه مع كونه خالق كل شيء فهو موصوف بالرضا والغضب والعطاء والمنع والخفض والرفع والرحمة والانتقام، فاقتضت حكمته سبحانه أن خلق

=

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مجموع الفتاوى (٥ / ١٨٣): «قال أبو مطيع البلخي في كتاب «الفقه الأكبر» المشهور: سألت أبا حنيفة عمّن يقول: لا أعرف ربي في السماء أو في الأرض. قال: قد كفر؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥﴾ [طه: ٥]، وعرشه فوق سبع سماواته. فقلت: إنه يقول: على العرش استوى، ولكن لا يدري العرش في السماء أو في الأرض، فقال: إذا أنكر أنه في السماء كفر؛ لأنه تعالى في أعلى عليين؛ وأنه يُدعى من أعلى لا من أسفل». وقال في فتاويه (٦ / ١٢): «والمقرّبون هم فوق أصحاب اليمين الأبرار الذين كتابهم في عليين، ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ١٩ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٢٠ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢١ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ٢٢ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٢٣ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ٢٤ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ٢٧ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢٨﴾ [المُطَفِّفِين: ١٩ - ٢٨] قال ابن عباس: يشرب بها المُقرّبون صِرْفًا، وتُمزج لأصحاب اليمين مزجًا».

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح مسلم (١٥ / ٢٠٨): «قوله ﷺ (٢٤٤٤): **«اللّٰهم اغفر لي وارحمني وألحقني بالرّفيق»**، وفي رواية: **«الرفيق الأعلى»**، الصحيح الذي عليه الجمهور أن المراد بالرفيق الأعلى الأنبياء الساكنون أعلى عليين، ولفظةُ رفيق تطلق على الواحد والجمع، قال الله تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النِّسَاء: ٦٩]. وقيل: هو الله تعالى، يقال: الله رفيق بعباده، من الرفق والرأفة، فهو فعيل بمعنى فاعل، وأنكر الأزهري هذا القول. وقيل: أراد مُرتفقَ الجنة». وقال ابن القيم في الروح (١ / ٤٥): «هذا مع القطع بأن روحه الكريمة في الرفيق الأعلى، في أعلى عليين، مع أرواح الأنبياء».

والله أعلى وأحكم.

دارًا لطالبي رضاه، العاملين بطاعته، المؤثِرين لأمره، القائمين بمحابّه؛ وهي الجنة.

وجعل فيها كل شيء مرضي، وملأها من كل محبوب ومرغوب ومشتهى ولذيذ، وجعل الخير بحذافيره فيها، وجعلها محلّ كل طيّب من الذوات والصفات والأقوال.

وخلق دارًا أخرى لطالبي أسباب غضبه وسخطه، المُؤثِرين لمراضيهم وحظوظهم على مرضاته، العاملين بأنواع مخالفته، القائمين بما يكره من الأعمال والأقوال، الواصفين له بما لا يليق به، الجاحدين لما أخبرت به رسله من صفات كماله ونعوت جلاله؛ وهي جهنم، وأودعها كل شيء مكروه، وسِجنها مليء من كل شيء مؤذ ومؤلم، وجعل الشرّ بحذافيره فيها، وجعلها محلّ كل خبيث من الذوات والصفات والأقوال والأعمال.

فهاتان الداران هما دارا القرار، وخلق دارًا ثالثة هي كالميناء لهاتين الدارين، ومنها يتزوّد المسافرون إليهما، وهي دار الدنيا. ثم أخرج إليها من أثمار الدارين بعض ما اقتضته أعمال أربابهما، وما يستدل به عليهما، حتى كأنهما رأي عين، ليصير للإيمان بالدارين وإن كان غيبًا وجهُ شهادة تستأنس به النفوس، وتستدل به.

فأخرج سبحانه إلى هذه الدار من آثار رحمته من الثمار والفواكه والطيبات والملابس الفاخرة والصور الجميلة، وسائر ملاذ النفوس ومشتهياتها، ما هو نفحة من نفحات الدار التي جعل ذلك كله فيها على وجه الكمال. فإذا رآه

المؤمنون ذكّرهم بما هناك من الخير والسرور المقيم، والعيش الرخيّ الهنيِّ الرغيد، كما قيل:

فـــإذا رآكِ المســـلمون تيقّنـــوا حـورَ الجنـان لـدى النعـيم الخالـدِ

فشمّروا إليه، وقالوا: اللّهم لا عيش إلا عيش الآخرة، وأحدثت لهم رؤيته عزمات وهمًا وجِدًّا وتشميرًا، لأن النعيم يُذكّر بالنعيم، والشيء يذكّر بجنسه، فإذا رأى أحدهم ما يعجبه ويروقه ولا سبيل له إليه قال: موعدك الجنة[1] وإنما هي عشيّة أو ضحاها.

فوجود تلك المشتهيات والملذوذات في هذه الدار رحمة من الله، يسوق بها عباده المؤمنين إلى تلك الدار التي هي أكمل منها، وزاد لهم من هذه الدار إليها، فهي زادٌ وعبرة ودليل وأثر من آثار رحمته التي أودعها تلك الدار، فالمؤمن يهتزّ برؤيتها إلى ما أمامه، ويثير ساكن عزماته إلى تلك، فنفسه ذوّاقة توّاقة إذا ذاقت شيئًا منها تاقت إلى ما هو أكمل منه، حتى تتوق إلى النعيم المقيم في جوار الرب الكريم[2].

---

(١) رويت عن ابن حزم، وأنه قالها لفاكهة وكان صائمًا: «يا فاكهة موعدك الجنة». ورويت عن فقير قالها، لشدة فقره، وقوّة صبره ويقينه.

(٢) نقل ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في المدهش (١ / ٢٢٨) عن عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «خُلِقتْ لي نفسٌ توّاقة، لم تزل تتوق إلى الإمارة، فلما نلتُها تاقت إلى الخلافة، فلما نلتها تاقت إلى الجنة».

وأخرج سبحانه إلى هذه الدار أيضًا من آثار غضبه ونقمته من العقوبات والآلام والمحن والمكروهات من الأعيان والصفات ما يستدل بجنسه على ما في دار الشقاء من ذلك، ومن ذلك آثار النَّفَسين الشتاء والصيف اللذين أذن الله سبحانه بحكمته لجهنم أن تتنفس بهما، فاقتضى ذانك النفَسَان آثارًا ظهرت في هذه الدار كانت دليلًا عليها وعبرة. وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى ونبّه عليه بقوله في نار الدنيا: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ۝٧٣﴾ [الوَاقِعَة: ٧٣]. تذكرةً تُذْكَرُ بها الآخرة ومنفعة للنازلين بالقواء وهم المسافرون، يقال: أقوى الرجل إذا نزل بالقي والقوى، وهي الأرض الخالية، وخص المقوين بالذكر وإن كانت منفعتها عامة للمسافرين والمقيمين تنبيهًا لعباده ـ والله أعلم بمراده من كلامه ـ على أنهم كلهم مسافرون، وأنهم في هذه الدار على جناح سفر، ليسوا هم مقيمين ولا مستوطنين، وأنهم عابرو سبيل وأبناء سفر.

والمقصود؛ أنه سبحانه أشهد في هذه الدار ما أعد لأوليائه وأعدائه في دار القرار، وأخرج إلى هذه الدار من آثار رحمته وعقوبته ما هو عبرة ودلالة على ما هناك من خير وشرّ، وجعل هذه العقوبات والآلام والمحن والبلايا سياطًا يسوق بها عباده المؤمنين، فإذا رأوها حذروا كل الحذر، واستدلوا بما رأوه منها وشاهدوه على ما في تلك الدار من المكروهات والعقوبات. وكان وجودها في هذه الدار وإشهادهم إياها وامتحانهم باليسير منها رحمةً منه بهم، وإحسانًا إليهم، وتذكرةً، وتنبيهًا.

ولما كانت هذه الدار ممزوجًا خيرها بشرها وأذاها براحتها ونعيمها بعذابها؛ اقتضت حكمةُ أحكم الحاكمين أن خلّص خيرَها من شرِّها، وخصّه

بدار أخرى هي دار الخيرات المحضة، ودار السرور المحضة، فكتب على هذه الدار حكم الامتزاج والاختلاط، وخلط فيها بين الفريقين، وابتلى بعضهم ببعض، وجعل بعضهم لبعض فتنة. حكمة بالغة بهرت العقول، وعِزَّة قاهرة، فقام بهذا الاختلاط سوق العبودية كما يحبه ويرضاه، ولم تكن تقوم عبوديته التي يحبها ويرضاها إلا على هذا الوجه. بل العبد الواحد جمع فيه بين أساب الخير والشر، وسلّط بعضه على بعض؛ ليستخرج منه ما يحبه من العبودية التي لا تحصل إلا بذلك.

فلما حصلت الحكمة المطلوبة من هذا الامتزاج والاختلاط، أعقبه بالتمييز والتخليص، فميّز بينهما بدارين ومحلّين، وجعل لكل دار ما يناسبها، وأسكن فيها من يناسبها. وخلق المؤمنين المتقين المخلصين لرحمته، وأعداءه الكافرين لنقمته، والمخلّطين للأمرين، فهؤلاء أهل الرحمة، وهؤلاء أهل النقمة، وهؤلاء أهل النقمة والرحمة.. وأظهر حكمته الباهرة، ليعلم العباد كمال قدرته وحكمته، وأنه يخلق ما يشاء، ويختار من خلقه من يصلح للاختيار، وأنه يضع ثوابه موضعه، وعقابه موضعه، ويجمع بينهما في المحل المقتضي لذلك، ولا يظلم أحدًا، ولا يبخسه شيئًا من حقه ولا يعاقبه بغير جنايته.

هذا مع ما في ضمن هذا الابتلاء والامتحان من الحكم الراجعة إلى العبيد أنفسهم من استخراج صبرهم وشكرهم وتوكّلهم وجهادهم، واستخراج كمالاتهم الكامنة في أنفسهم من القوة إلى الفعل، ودفع الأسباب بعضها ببعض، وكسر كل شيء بمقابِلِه، ومصادمته بضده؛ لتظهر عليه آثار القهر

وسِمات الضعف والعجز، ويتيقّن العبد أن القهّار لا يكون إلا واحدًا، وأنه يستحيل أن يكون له شريك، بل القهر والوُحدة متلازمان، فالملك والقدرة والقوّة والعزّة كلها لله الواحد القهار، ومن سواه مربوب مقهور، له ضدٌّ ومناف ومشارك.

فخلق الرياح، وسلّط بعضها على بعض تُصادِمها وتكسر سورتها وتذهب بها، وخلق الماء، وسلّط عليه الرياح تصرفه وتكسره، وخلق النار، وسلط عليها الماء يكسرها ويطفئها، وخلق الحديد، وسلّط عليه النار تذيبه وتكسر قوته، وخلق الحجارة، وسلّط عليها الحديد يكسرها ويُفتّتها، وخلق آدم وذريته، وسلّط عليهم إبليس وذريته، وخلق إبليس وذريته، وسلّط عليهم الملائكة يشرّدونهم كل مشرّد، ويطردونهم كل مطرد، وخلق الحرّ والبرد والشتاء والصيف، وسلّط كلّا منهما على الآخر يذهبه ويقهره، وخلق الليل والنهار، وقهر كلّا منهما بالآخر، وكذلك الحيوان على اختلاف ضروبه من حيوان البر والبحر، لكل منه مضادّ ومُغالب.

فاستبان للعقول والفطر أن القاهر الغالب لذلك كله واحد، وأن من تمام ملكه إيجادُ العالَم على هذا الوجه، وربطُ بعضه على بعض، وإحواجُ بعضه إلى بعض، وقهرُ بعضه ببعض، وابتلاءُ بعضه ببعض، وامتزاجُ خيره بشرّه، وجعلُ

شرّه لخيره الفداء، ولهذا يُدفع إلى كل مؤمن يوم القيامة كافر فيقال له: **«هذا فداؤك من النار»**(١).

وهكذا المؤمن في الدنيا يسلَّط عليه الابتلاء والامتحان والمصائب ما يكون فداءه من عذاب الله، وقد تكون تلك الأسباب فداء له من شرور أكثر منها في هذا العالم أيضًا، فليعط اللبيب هذا الموضع حقه من التدبر؛ تتبين له حكمة اللطيف الخبير»(٢).

مع التنبيه إلى ضرورة المؤمن للمسارعة في الخيرات، والتوبة النصوح من الزلات، علّ الله تعالى أن يجيب الدعوات، وينيل الرغبات، ويغفر الخطيئات، أنه سميع قريب مجيب. قال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا تستبطئ الإجابة وقد سددتَّ طريقها بالذنوب»(٣).

نحن ندعو الإلهَ في كلِّ كربِ ... ثمَّ ننساه عند كشف الكروبِ
كيف نرجو إجابةً لدعاءٍ ... قد سددنا طريقَها بالذنوبِ

ومن توابع ذلك أن على المؤمن الابتعاد عن مواطن الظلم لعباد الله، فهو ديوانٌ لا يُترك منه شيء، ولْيكثر ما استطاع من الحسنات المرجّحة لميزانه،

---

(١) في المسند (١٩٦٧٠) ومسلم (٢٧٦٧) (٤٩) عن أبي موسى رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا كان يوم القيامة دُفِع إلى كلّ مؤمن رجل من أهل الملل، فقال له: هذا فداؤك من النار»**.

(٢) طريق الهجرتين (١/ ١٣٤-١٤٠) مختصرًا بتصرف.

(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ٢٧٥).

ولْيزاحم السيئات الغابرة بالحسنات الماحية، ولا يحقرنّ من المعروف شيئًا، ولْيعلم أن السيئة الكبيرة محتاجة إلى حسنة كبيرة عند الميزان إن لم يعف الرحمن، فلا يعلم أي حسنة يحتاج إليها غدًا لرجحان ميزانه، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حَقُّ الآدميّ يُعطاهُ من حسناتِ مَن ظَلَمَه، فمِن تمام التَّوبة أن يستكثِرَ العَبدُ من الحسناتِ لِيُوَفِّيَ غُرماءَهُ، وتبقى له بقِيَّةٌ يدخلُ بها الجنَّة»[(١)]. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢١﴾ [الأنعام: ٢١].

وإن من نعم الله تعالى علينا أن جعل لذنوبنا مكفرات كالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية والمصائب ودعاء المؤمنين ومحض العفو الرباني، والله تعالى جعل شرعه الشريف يتشنّف إلى توبة العباد لربهم تعالى على الدوام وبكل طريق، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن تدبّر أصول الشرع علم أنه يتلطف بالناس في التوبة بكل طريق»[(٢)].

وإنّ من فضل الله تعالى أن الحسنة الكبيرة تكفّر السيئة الكبيرة بإذن الله تعالى ورحمته، وهذا موطن حريّ بالوقوف التأمّلي عنده، وطول التدبر لجليل معانيه، ورؤية دِقّة الميزان مع فضل الرحمن وعدله، وفتحه باب المكفرات وموازنات الطالحات بالصالحات حتى ترجح الكفّة بالرحمات، وحمد الله تعالى على فضله وكرمه وإحسانه، وجلال عدله وعظمته وكبريائه، وهو محمود على

---

(١) تفسير آيات أشكلت (١/ ٣١٧).

(٢) تفسير آيات أشكلت (٢/٥٩٥) وانظر أيضًا كلاما محرّرًا عن التوبة في مجموع الفتاوى (٢٢ / ٢١).

كل أسمائه وصفاته وأفعاله تبارك وتعالى تمام الحمد وأكمله وأوفاه، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تعليقه على قصة جَسِّ حاطب بن أبي بلتعة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: «والكبيرة العظيمة مما دون الشرك قد تُكَفَّر بالحسنة الكبيرة الماحية، كما وقع الجسُّ(١) من حاطب مُكَفَّرًا بشهوده بدرًا، فإن ما اشتملت عليه هذه الحسنة العظيمة من المصلحة، وتضمّنته من محبة الله لها ورضاه بها، وفرحه بها، ومباهاته للملائكة بفاعلها، أعظم مما اشتملت عليه سيئة الجَسِّ من المفسدة وتضمّنته من بغض الله لها، فغلب الأقوى على الأضعف، فأزاله، وأبطل مقتضاه، وهذه حكمة الله في الصحة والمرض الناشئَين من الحسنات والسيئات، المُوجِبَين لصحة القلب ومرضه، وهي نظير حكمته تعالى في الصحة والمرض اللاحقين للبدن، فإن الأقوى منهما يقهر المغلوب، ويصير الحكم له حتى يذهب أثر الأضعف، فهذه حكمته في خلقه وقضائه، وتلك حكمته في شرعه وأمره.

وهذا كما أنه ثابت في محو السيئات بالحسنات، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود: ١١٤]. وقوله تعالى: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ٣١﴾ [النِّسَاء: ٣١]، وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: **«وأتبِعِ السيئةَ الحسنةَ تمحُها»** (٢)، فهو ثابت في عكسه لقوله تعالى﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ﴾ [البَقَرَة: ٢٦٤]، وقوله:

---

(١) أي: التجسس، فحاطب قد أرسل ظعينة للمشركين يخبرهم بمسير رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ إليهم، ولقد شفعَ له مقامُهُ في بدرٍ عند ربه فغفر له، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

(٢) الترمذي (١٩٨٧) وقال: حديث حسن صحيح. وحسنه الألباني والأرناؤوط.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢﴾ [الحُجُرَات: ٢]. وقول عائشة عن زيد ابن أرقم أنه لما باع بالعِينَة[١]: «إنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ إلا أن يتوب»[٢]، وكقوله ﷺ: **«من ترك صلاة العصر حبط عمله»**[٣]، إلى غير ذلك من النصوص والآثار الدالة على تدافع الحسنات والسيئات، وإبطال بعضها بعضا، وذهاب أثر القوى منها بما دونه، وعلى هذا مبنى الموازنة والإحباط.

وبالجملة؛ فقوّة الإحسان ومرض العصيان متصاولان ومتحاربان، ولهذا المرض مع هذه القوة حالة تزايد وترام إلى الهلاك، وحالة انحطاط وتناقص، وهي خير حالات المريض، وحالة وقوف وتقابل إلى أن يقهر أحدهما الآخر، وإذا دخل وقت البُحْرَان[٤] وهو ساعة المناجزة، فحظّ القلب أحد الخطتين:

---

(١) بيع العِيْنَة: أن يبيع سلعةً بثمن مؤجَّلٍ، ثم يشتريها من المشتري بثمن أقل منه نقدًا، وهي من الربا، وحيلة عليه، أما إن كانت من ثلاثة أطراف وذلك بأن يبيع الأول على الثاني سلعة بثمن مؤجل، ثم يبيعها الثاني على طرف ثالث بثمن حالّ فهي التَّوَرُّق، وهي جائزة على الراجح، وقد أفتى بحِلّها ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والله أعلم.

(٢) مصنف عبد الرزاق (١٤٨١٣)، وسنن الدارقطني (٣/٥٢) بنحوه. والبيهقي (٥/٣٠٠) والحديث لا يثبت للجهالة، قال الدارقطني: أم محبة وعالية مجهولتان لا يحتج بهما. وانظر: نصب الراية (٤/٤٦٧).

(٣) البخاري (٥٩٤).

(٤) البُحْرَان - بضم الباء -: هو منعطف صحي يحدث فجأة للمريض إما للعافية أو للعطب. فهو تغيّر يَحدث للعليل فجأة في الأمراض الحُمِّيّة الحادَّة، ويصحبه عَرَق غزير، =

إما السلامة وإما العطب، وهذا البُحْرَان يكون وقت فعل الواجبات التي توجب رضى الرب تعالى ومغفرته، أو توجب سخطه وعقوبته، وفى الدعاء النبوي: «**أسألك مُوجِبَاتِ رحمتك**[(١)]» [(٢)]، وقال عن طلحة يومئذ: «**أَوْجَبَ طلحةُ**»[(٣)]، ورفع إلى النبي ﷺ رجل وقالوا: يا رسول الله؛ إنه قد أوجب، فقال: «**أعتقوا عنه**»[(٤)] وفى الحديث الصحيح «**أتدرون ما الموجبتان**»؟ **قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة، ومن مات يشرك بالله شيئا دخل النار»**[(٥)]، يريد أن التوحيد والشرك رأس الموجبات

=

وانخفاض سريع في الحرارة، وهو تغير عظيم يحدث في المرض فيدفعه إلى الصحة أو إلى العطب. وقيل: إنّ البحران لفظ يوناني معرب، وهو في لغة اليونان الفصل في الخطاب، أي: الخطاب الذي يكون به الفصل بين الخصمين، أعني الطبيعة والمرض. قال جالينوس: «هو الحكم الحاصل لأنه به يكون انفصال حكم المرض إما إلى الصحة وإما إلى العطب».

(١) أي: ما يوجبُ الرحمةَ من الأعمال الصالحة والطاعات.

(٢) الحاكم (١/ ٥٢٥) وابن ماجه (١ / ٤٤١) (١٣٨٤) وقال الألباني: ضعيف جدًّا.

(٣) الترمذي (٤ / ٢٠١) (١٦٩٢) وحسنه الألباني. وابن حبان (٦٩٧٩) وقال الأرناؤوط: إسناده قوي.

(٤) أحمد (١٦٠١٢) وصححه محققوه، وابن حبان (١٠ / ١٤٥) (٤٣٠٧) وصححه الأرناؤوط. وقال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «معنى أوجب: عمل عملًا تجبُ له به النار. ويقال: إنه كان قتل قتيلًا». جامع العلوم والحكم (١ / ١٧٢) أي: قتله بغير حق.

(٥) مسلم (٩٣) وقال الحافظ أبو نعيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مستخرجه: «الموجبتان: الخصلتان اللتان توجبان الجنة والنار». المستخرج (١/ ١٦٨).

وأصلها، فهما بمنزلة السم القاتل قطعًا، والترياق المُنَجِّي قطعًا»[١]. اللّٰهم نسألك رضاك والجنة، ونعوذ بك من سخطك والنار، ونسألك العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة، وأعذنا اللّٰهم من كلّ ظلم لأنفسنا وغيرنا، إله الحق.

وَقَــدْ عَــادَ الظَّلُــومُ يَنُــوءُ حِمْــلًا ... بِـــأَوْزَارٍ وَإِنْ صَـــلَّى وَصَـــامَا

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ٤٢٣- ٤٢٥).

﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَ﴾

في البلايا من النعم خفايا، وفي الأقدار عجائبُ الأسرارِ، ومستودعاتُ الألطافِ والرحمات، وفي الرضا بالحكيم العلّام قَبْضاتُ البرِّ ومخازن الخير ومعارج لا يرقى لها فهم الأنام، فقدَرُه أوسع من حديدِ عقولهم، وقضاؤه أرفعُ من جميع علومهم، فإليهم الرحمة والتكريم، وعليهم الإيمان والتسليم، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ۝٤٩ وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ۝٥٠﴾ [القمر: ٤٩-٥٠].

إن المتأمل لتلك القصة العجيبة التي استهل الله تعالى لها أجمل استهلال بقوله الأعز الأكرم: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]، يجد فيها ترياق روحه من أسقام الدنيا، وطهارتها من أقتارها، وصقلها من خدشها، وإشراق نورها بعد إظلامها، ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ۝٨٧﴾ [النساء: ٨٧]، ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ۝١٢٢﴾ [النساء: ١٢٢]. ففي قصة يوسف عليه السلام كمال الرضا بتدبير الرحمن تبارك وتعالى، وعِزّ التوحيد، وتمام التسليم، وعظيم الحمد، وجزيل الشكر، وكبير التعظيم، وروائع الفرح بالله تعالى.

إنها قصة كاملة جميلة لذيذة، لها صوت حزين، وترنيم خاشع، ووصايا جليلة، وقلوب بالله واثقة، ونتائج بفضل الله سعيدة، لها خاتمةٌ للآي شهيّة للقلوب، رائقة للأرواح. ابتدأت بحُلم وانتهت بتعبيره عبر سنين طويلة، إنها سورة الفرج بعد الشدة، واليسر بعد العسر.

فيها تبيانُ عظمة التوحيد، وشرف الصبر، وقيمة الرضا، وعزّ الحمد، وثمرة الشكر. فيها حياة بالله متوكلة، وحياة لله مخلصة، فهي بالله ولله في كل

حال. فيها إعلاءُ معالي الأمور، واطّراح سَفْسَافِها. فيها نبلُ الأخلاق، ومعالي الشيم. فيها إظهارُ رفقِ الله تعالى بأوليائه، ورعايته وعنايته ورحمته ولطفه لهم. فيها حواراتُ أنبياء، ودمعاتُ أصفياء، وابتهالاتٌ لسادة الأولياء، ومصابرة لأواء.

فيها مجاهدةُ نفوسٍ بالسوء أمّارة، ومرابطة على حدِّ العفاف والفضيلة، ورفعةٌ للصابرين الراضين الحامدين الشاكرين. فيها مَشَاهِدُ جمال، وألطافٌ من رب السماء تنهال، فيها عُقَدُ قصةٍ للعين مبكية، لكنها لا تلبث أن تُتبِعَ دمع السخونة ابترادًا بالفرح، فتنقلب البُرَحَاءُ راحة، والحزنُ سرورًا، والكربُ فرجًا، والخاتمةُ ضراعةُ نبيٍّ كريم إلى ملك الملوك ورب الأرباب أن يُلحقه في الذين مضوا على الخير من سادة الصالحين، فلا إله إلا الله كم في هذه السورة من صورة، وكم بين ثناياها من خفقاتٍ للقلب ترقُّبًا، وتأثُّرًا، وشوقًا، وفرحًا، وحنانًا، وسرورًا. ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣].

لَـو تَـدرِ فـيمَ عَـذَلتَني لَعَـذَرتَني خَفِّـض عَلَيـكَ وخَلِّنـي وطريقـي

إنّ لأخبار المرسلين شوق ولهفة، إذ في جنبات طريقها تنبت عروقُ البِرّ، وتُزهرُ أغصانُ الإيمان، وتُغسَلُ أدرانُ الخطايا ونجاساتِ الذنوب، ويُرَقَّعُ بتأملِّها واستشعارِها واتّباعها ما اخلولقَ من ثوبِ الإيمان، وتُبنى بها في الفؤاد مدينةُ الإحسان.

وأذكـرُ أيـامَ الحِمـى ثـم أنثنـي على كَبِدِي من خشيةٍ أنْ تَصَدَّعا

قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَ﴾ [يُوسُف: ٧٦][1]، فمهما فكّر البشر وقدّروا ثم فكّروا وقدّروا فغايتهم الفشل والخيبة مالم يأخذ الله تعالى بأيديهم

---

(١) قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الفتاوى الكبرى في وجه مناداة إخوة يوسف عليه السلام بالسارقين (٦ / ١٢٧): «قد ذكروا في تسميتهم سارقين وجهين:

أحدهما: أنه من باب المعاريض، وأن يوسف نوى بذلك أنهم سرقوه من أبيه حيث غيّبوه عنه بالحيلة التي احتالوها عليه وخانوه فيه، والخائن يسمى سارقًا، وهو من الكلام المشهور حتى إن الخونة من ذوي الديوان يسمّون لصوصًا.

الثاني: أن المنادي هو الذي قال ذلك من غير أمر يوسف عليه السلام. قال القاضي أبو يعلى وغيره: أمر يوسفُ بعضَ أصحابه أن يجعل الصاع في رحل أخيه، ثم قال بعض الموكلين بالصيعان ـ وقد فقدوه ولم يدروا من أخذه منهم ـ: ﴿أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ٧٠﴾ [يُوسُف: ٧٠] على ظنٍّ منهم أنهم كذلك، ولم يأمرهم يوسف بذلك. فلم يكن قول هذا القائل كذبًا كان في حقّه وغالب ظنه ما هو عنده، ولعل يوسف قد قال للمنادي: هؤلاء قد سرقوا، وعنى بسرقته من أبيه، والمنادي فهم سرقة الصواع وهو صادق في قوله: ﴿نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ﴾ [يُوسُف: ٧٢]، فإن يوسف لعله لم يطلع على أن الصواع في رحالهم ليتمّ الأمر؛ فنادى: ﴿إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ٧٠﴾ [يُوسُف: ٧٠] بناء على ما أخبر به يوسف، وكذلك لم يقل: سرقتم صاع الملك، إنما قال: نفقده، لأنه لم يكن يعلم أنهم سرقوه، أو أنه اطّلع على ما صنعه يوسف فاحترز في قوله فقال ﴿إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ٧٠﴾، ولم يذكر المفعول ليصح أن يضمر سرقتهم يوسف، ثم قال: ﴿قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ﴾ [يُوسُف: ٧٢]، وهو صادق في ذلك، وكذلك احترز يوسف في قوله: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يُوسُف: ٧٩] ولم يقل إلا من سرق. وعلى التقدير فالكلام من أحسن المعاريض».

تبارك وتعالى. والسعيد من كان الله معه. وتدبر قوله تعالى في شأن يوسف عليه السلام كيف كفاه أمره، ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [الزُّمَر: ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٧٦].

قال الرازي الجصاص: «وفيما حكى الله تعالى من أمر يوسف وما عامل به إخوته في قوله ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ [يوسف: ٧٠] إلى قوله ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٧٦] دلالة على إجازة الحيلة في التوصل إلى المباح واستخراج الحقوق؛ لأن الله تعالى رضي ذلك من فعله ولم ينكره، وقال في آخر القصة ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٧٦]. ومن نحو ذلك قوله تعالى ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ [ص: ٤٤] وكان حلف أن يضربها عددًا، فأمره تعالى بأخذ الضِّغْث(١)، وضربها به ليبرّ في يمينه من غير إيصال ألم كبير إليها.

ومن نحوه: النهي عن التصريح بالخِطبة وإباحة التوصل إلى إعلامها رغبته بالتعويض»(٢). وقال القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف: ٧٦]: ﴿فَبَدَأَ﴾ أي فتى يوسف ﴿بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾، أي ففتشها ﴿قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾، أي بنيامين، نفيًا للتهمة، ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا﴾، أي السقاية، ﴿مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾. ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ أي دبّرنا لتحصيل غرضه، ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾، أي: شرعه وقانونه. والجملة استئناف وتعليل

---

(١) الضِّغْث: مجموعة من شماريخ قنو النخل.

(٢) أحكام القرآن للجصاص (٣/ ١٧٦).

لذلك الكيد وصنعه. أي: ما صح له أن يأخذ أخاه في قضاء الملك، فدبر تعالى ما حكم به إخوة يوسف على السارق، لإيصال يوسف إلى إربه، رحمة منه وفضلًا. وفيه إعلام بأن يوسف ما كان يتجاوز قانون الملك، وإلا لاستبدّ بما شاء، وهذا من وفور فطنته وكمال حكمته، ويستدل به على جواز تسمية قوانين ملل الكفر (دينا) لها، والآيات في ذلك كثيرة.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ يعني: أن ذلك الأمر كان بمشيئة الله وتدبيره، لأن ذلك كله كان إلهامًا من الله ليوسف وإخوته، حتى جرى الأمر وفق المراد[1]. وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ٧٣ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ٧٤ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٥ فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ٧٦﴾ [يوسف: ٧٣ - ٧٦]: عن ابن عباس: ﴿صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ﴾ قال: كان من فضة يشربون فيه، وكان مثل المكوك، وكان للعباس مثله في الجاهلية، فوضعها في متاع بنيامين من حيث لا يشعر أحد، ثم نادى مناد بينهم: ﴿أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ٧٠﴾ [يوسف: ٧٠] فالتفتوا إلى المنادي وقالوا: ﴿مَّاذَا تَفۡقِدُونَ ٧١ قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧١ - ٧٢] أي: صاعه الذي يكيل به، ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ﴾ وهذا من باب الجعالة، ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ٧٢﴾ وهذا من باب الضمان والكفالة.

---

(١) تفسير القاسمي «محاسن التأويل» (٦/ ٢٠٤).

ولما اتهمهم أولئك الفتيان بالسرقة، قال لهم إخوة يوسف: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [يُوسُف: ٧٣] أي: لقد تحققتم وعلمتم منذ عرفتمونا، لأنهم شاهدوا منهم سيرة حسنة، أنّا ما جئنا للفساد في الأرض، وما كنا سارقين، أي: ليست سجايانا تقتضي هذه الصفة، فقال لهم الفتيان: ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾ [يُوسُف: ٧٤] أي: السارق، إن كان فيكم ﴿إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾﴾ أي: أي شيء يكون عقوبته إن وجدنا فيكم من أخذه؟ ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [يُوسُف:٧٥].

وهكذا كانت شريعة إبراهيم: أن السارق يُدفعُ إلى المسروق منه. وهذا هو الذي أراد يوسف عليه السلام؛ ولهذا بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه، أي فتّشها قبله تورية، ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ [يُوسُف: ٧٦] فأخذه منهم بحكم اعترافهم والتزامهم وإلزامًا لهم بما يعتقدونه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يُوسُف: ٧٦] (١) وهذا من الكيد المحبوب المراد الذي يحبه الله ويرضاه، لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة.

---

(١) معتقد أهل السنة والجماعة إثباتُ صفة الكيد والمكر على حقيقتها بلا تمثيل ولا تعطيل ولا تكييف ولا تحريف. قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١١١/٧) في ردّه على من زعم أنّ في القرآن مجازًا: «وكذلك ما ادّعوا أنه مجاز في القرآن؛ كلفظ: المكر والاستهزاء والسخرية المضاف إلى الله، وزعموا أنه مسمّى باسم ما يقابله على طريق المجاز، وليس كذلك، بل مسميات هذه الأسماء إذا فُعلت بمن لا يستحق العقوبة؛ كانت ظلمًا له، وأما إذا فعلت بمن فعلها بالمجني عليه عقوبة له بمثل فعله؛ كانت عدلًا؛
=

وقوله: ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٦] أي: لم يكن له أخذه في حكم ملك مصر، قاله الضحاك وغيره. وإنما قيّض الله له أن التزم له إخوته بما التزموه، وهو كان يعلم ذلك من شريعتهم؛ ولهذا مدحه تعالى فقال: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾ [يوسف: ٧٦] كما قال تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١﴾ [المجادلة: ١١]. ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ٧٦﴾ [يوسف: ٧٦] قال الحسن البصري: ليس عالمٌ إلا فوقه عالم، حتى ينتهي إلى الله عز وجل. وكذا روي عن سعيد بن جبير. ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾ [يوسف: ٧٧].

وقال إخوة يوسف لما رأوا الصواع قد أُخرج من متاع بنيامين: ﴿إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُ﴾، يتنصلّون إلى العزيز من التشبّه به، ويذكرون أن هذا فَعَل كما فعل أخ له من قبل، يعنون به يوسف عليه السلام.

=

كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٧٦]، فكاد له كما كادت إخوته لمّا قال له أبوه: ﴿لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًا﴾ [يوسف: ٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥﴾ [الطارق: ١٥]». وقال في التدمرية (٢٦): «وهكذا وصف نفسه بالمكر والكيد، كما وصف عبده بذلك، فقال: ﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقال: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ١٦﴾ [الطارق: ١٥ - ١٦]، وليس المكْر كالمكْر ولا الكيد كالكيد». وقد فصل الكلام عليها ابن القيم في المدارج (٣/٤١٥)، وانظر أيضًا: مختصر الصواعق المرسلة (٢/٣٢-٣٤).

وقوله: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ﴾، يعني: الكلمة التي بعدها، وهي قوله: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًاۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ۝٧٧﴾ أي: تذكرون. قال هذا في نفسه، ولم يبده لهم، وهذا من باب الإضمار قبل الذكر، وهو كثير، وله شواهد كثيرة في القرآن والحديث واللغة في منثورها وأخبارها وأشعارها. قال العوفي، عن ابن عباس: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ﴾ قال: أسرّ في نفسه: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًاۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ۝٧٧﴾.(١)

ولابن تيمية استنباطات لطيفة من هذه القصة الجميلة الجليلة، ومن كيد الله تعالى لوليه ونبيه يوسف عليه السلام فقال: «فكاد الله ليوسف بأن جمع بينه وبين أخيه، وأخرجه من أيدي إخوته بغير اختيارهم كما أخرجوا يوسف من يد أبيه بغير اختياره. وكيد الله سبحانه وتعالى لا يخرج عن نوعين:

أحدهما: هو الأغلب؛ أن يفعل سبحانه فعلًا خارجًا عن قدرة العبد الذي كاد له، فيكون الفعل قدَرًا محضًا ليس هو من باب الشرع(٢)، كما كاد الذين كفروا بأن انتقم منهم بأنواع العقوبات. وكذلك كانت قصة يوسف؛ فإن يوسف أكثر ما قَدر أن يفعل أن ألقى الصواع في رحل أخيه وأذّن المؤذن بسرقتهم، فلما أنكروا ﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ۝٧٤﴾ [يوسف: ٧٤] أي جزاء السارق ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ [يوسف: ٧٥] أي

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/٤٠١-٤٠٣) باختصار.

(٢) أي: من باب الخلْق والتقدير والإرادة الكونية، لا من باب الأمر والتشريع والإرادة الشرعية.

جزاؤه نفسُ نفْسِ السارق يستعبده المسروق إما مطلقًا أو إلى مدة، وهذه كانت شريعة آل يعقوب.

وقوله: ﴿وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أنه هو خبر المبتدأ، وقوله بعد ذلك: ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ جملة ثانية مؤكدة للأولى. والتقدير في جزاء هذا الفعل نفس من وجد في رحله، فإن ذلك هو الجزاء في ديننا كذلك يجزي الظالمين. والثاني: أن قوله ﴿مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ جملة شرطية هي خبر المبتدأ، والتقدير جزاء السارق هو أنه من وجد الصاع في رحله كان هو الجزاء، كما تقول جزاء السرقة ممن سرق قطع يده، وإنما احتمل الوجهين لأن الجزاء قد يراد به نفس الحكم باستحقاق العقوبة، وقد يراد به نفس العقوبة، وقد يراد به نفس الألم الواصل إلى المعاقب. فلمّا تكلموا بهذا الكلام كان إلهام الله لهم هذا كيدًا ليوسف خارجًا عن قدرته، إذ قد كان يمكنهم أن يقولوا: ألّا جزاء عليه حتى يثبت أنه هو الذي سرق، فإن مجرد وجوده في رحله لا يوجب حكم السارق. وقد كان يوسف عليه السلام عادلًا لا يمكنه أن يأخذهم بغير حجة، أو يقولون: جزاؤه أن يفعل به ما تفعلون بالسراق في دينكم، وقد كان من دين ملك مصر فيما ذكره المفسرون أن السارق يُضرب ويغرم قيمة المسروق مرتين، ولو قالوا ذلك لم يمكنه أن يلزمهم بما لا يلزمه غيرهم. ولهذا قال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [يوسف: ٧٦] أي ما كان يمكنه أخذه في دين ملك مصر لأن دينه لم يكن فيه طريق إلى أخذه ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، استثناء منقطع، أي: لكن إن شاء

الله أخذه بطريق آخر، أو يكون متصلًا بأن يهيئ الله سبحانه سببًا آخر بطريق يؤخذ به في دين الملك من الأسباب التي كان الرجل في دين الملك يُعتقل بها.

فإذا كان المراد بالكيد فعلًا من الله سبحانه بأن ييسر لعبده المؤمن المظلوم المتوكل عليه أمورًا يحصل بها مقصوده بالانتقام من الظالم وغير ذلك فإن هذا خارج عن الحيل الفقهية، فإنّا إنّما تكلمنا في حيلٍ يفعلها العبد لا فيما يفعله الله سبحانه، بل في قصة يوسف تنبيه على أن من كاد كيدًا محرمًا فإن الله يكيده.

وهذه سنة الله في مرتكب الحيل المحرمة، فإنه لا يبارك له في هذه الحيل كما هو الواقع.

وفيها تنبيه على أن المؤمن المتوكل على الله إذا كاده الخلق فإن الله يكيد له وينتصر له بغير حول منه ولا قوة، وعلى هذا فقوله بعد ذلك: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [يُوسُف: ٧٦] قالوا: بالعلم.

وفيه تنبيه على أن الخَفِيَّ الذي يتوصل به المقاصد الحسنة مما يرفع الله به الدرجات، وفيه دليل على أن يوسف كان منه فعل، فيكون بهذا العلم هو ما اهتدى به يوسف إلى أمرٍ توكّلَ في إتمامه على الله، فإن اهتداءه لإلقاء الصاع واسترجاعهم نوعُ فعلٍ منه، لكن ليس هذا وحده هو الحيلة. والحيل الفقهية[١] بها وحدها يتم غرض المحتال لو كانت حلالًا.

---

(١) عرّف الشاطبي رحمه الحيل الفقهية في الموافقات (٤/ ٢٠١) بقوله: «حقيقتها المشهورة: تقديم عمل ظاهره الجواز لإبطال حكم شرعي، وتحويله في الظاهر إلى حكم آخر». أهـ.

=

النوع الثاني من كيده لعبده: هو أن يلهمه سبحانه أمرًا مباحًا، أو مستحبًّا، أو واجبًا يوصله به إلى المقصود الحسن، فيكون هذا على إلهامه ليوسف أن يفعل ما فعل هو من كيده سبحانه أيضًا. وقد دل على ذلك قوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ فإن فيه تنبيهًا على أن العلم الدقيق الموصل إلى المقصود الشرعي صفة مدح، كما أن العلم الذي يُخصَمُ به المُبطِل صفة مدح. حيث قال في قصة إبراهيم: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [الأنعام: ٨٣]. وعلى هذا فيكون من الكيد ما هو مشروع لكن لا يجوز أن يراد به الكيد الذي تُستحلّ به المحرمات، أو تسقط به الواجبات فإن هذا كيد لله، والله هو المكيد في مثل هذا، فمحال أن يشرع الله أن يُكاد دينه.

=

ولم تُعرف الحيل في عهد النبوة ولا في عهد الصحابة، بل إن النبي ﷺ قد أقفل بابها بمثل قوله: «**لا يُجمع بين متفرّق، ولا يُفرّق بين مجتمع خشية الصدقة**»، رواه البخاري (١٤٥٠) قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إعلام الموقّعين (٣ / ١٥٩): «وهذا نصّ في تحريم الحيلة المفضية إلى إسقاط الزكاة، أو التنقيص منها بسبب الجمع والتفريق، فإذا باع بعض النصاب قبل تمام الحول تحيّلًا على إسقاط الزكاة أو التنقيص منها بسبب الجمع أو التفريق، فقد فرق بين المجتمع فلا تسقط الزكاة عنه بالفرار منها. ومثل: لعنه ﷺ للمُحلِّل والمُحَلَّل له». أهـ. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الفتاوى الكبرى (٦/٧٩): «أمّا الإفتاء بها وتعليمها للناس، وإنفاذها في الحكم، واعتقاد جوازها؛ فأوّل ما حدث في الإسلام في أواخر عصر صغار التابعين بعد المئة الأولى بسنين كثيرة، وليس فيها ولله الحمد حيلة واحدة تُؤثَرُ عن أصحاب رسول الله ﷺ، بل المستفيض عن الصحابة أنهم كانوا إذا سُئلوا عن فعل شيء من ذلك أعظموه وزجروا عنه».

وأيضًا؛ فإن هذا الكيد لا يتم إلا بفعل يُقصد به غير مقصوده الشرعي، ومحال أن يشرع الله لعبد أن يقصد بفعله ما لم يشرع الله ذلك الفعل له. وأيضًا فإن الأمر المشروع هو عام لا يخص به شخص دون شخص، فإن الشيء إذا كان مباحًا لشخص؛ كان مباحًا لكلّ من كان على مثل حاله، فإذن؛ من احتال بحيلة فقهية محرمة أو مباحة لم يكن له اختصاص بتلك الحيلة لا بفهمها ولا بعلمها، لأن الفقهاء كلهم يَشْرَكُونه في فهمها، والناس كلهم يساوونه في عملها، وإنما فضيلة الفقيه إذا حدثت حادثة أن يتفطن لاندراج هذه الحادثة تحت الحكم العام الذي يعلمه هو وغيره، أو يمكنهم معرفته بأدلته العامة نصًّا أيضًا واستنباطًا، فأما الحكم فمتقرر قبل تلك الحادثة.

فإذن؛ احتياج الناس إلى الحيل لا يجدد أحكامًا شرعية لم تكن مشروعة قبل ذلك، بل الأحكام مستقرّة وجدت تلك الحاجة أو لم توجد، فإن كان الشارع قد جعل الحكم يتغير بتغير تلك الحاجة؛ كان حكمًا عامًّا وجدت حاجة ذلك الشخص المعين أو لم توجد، وإن لم يكن جعل لتلك الحاجة تأثيرًا في الحكم، فالحكم واحد سواء وجدت تلك الحاجة مطلقًا أو لم توجد.

والله سبحانه إنما كاد ليوسف كيدًا جزاءً منه على صبره وإحسانه وذكره في معرض المنّة عليه، فلو لم يكن ليوسف عليه السلام اختصاص بذلك الكيد لم يكن في مجرد عمل الإنسان أمر مباح له ولغيره مِنّة عليه في مثل هذا المقام، فعُلم أن المنّة كانت عليه في أن أُلهم العمل بما كان مباحًا قبل ذلك، فإنه قد يلهم العبد ما لا يلهمه غيره، ولهذا قال بعض المفسرين في قوله تعالى ﴿كِدْنَا﴾ صنعنا، وبعضهم قال ألهمنا يوسف. ومن احتال بعمل هو مباح في نفسه على

الوجه الذي أباحه الشارع فهذا جائز بالاتفاق، وإنما الكلام في أنه هل يباح له ما كان محرمًا على الإطلاق مثل الخيانة والغلول، أو يباح له فعل المباح على غير الوجه المشروع مثل الحيل الربوية؟ يوضح ذلك: أن نفس الأحكام مثل إباحة الفعل لا يجوز أن تسمى كيدًا، وإنما الكيد فعل من الله ابتداء، أو فعل من العبد يكون العبد به فاعلًا، وعلى التقديرين فليس هذا من الحيل الشرعية.

وهذا الذي ذكرناه في معنى الكيد إنما انضم إليه معرفة الأفعال التي فعلها يوسف عليه السلام، والأفعال التي فعلها الله له؛ تيقّن اللبيب أن الكيد لم يكن خارجًا عن إلهامِ فعلٍ كان مباحًا، أو فعلٍ من الله تمّ به ذلك الفعل، وأن حاجة يوسف لم تُبح له فعل شيء كان حرامًا على الإطلاق في الجملة قبل ذلك، وهذا هو المقصود، والله أعلم»[1].

إذا مـا سُـهَيلٌ أَبرَزتـهُ غَمَامَـةٌ ... عَلَى مَنكِبٍ مِن جانِبِ الطُّورِ يَلمَحُ
دَعـا بَعضُـنا بَعضًـا فَبِتنـا كأَنَّنـا ... رَأَينـا حَبِيبًـا كـانَ يَنـأَى وَينـزَحُ
وَذلِـكَ أَنّـا واثِقُـونَ بِقُـربِكُم ... وأَنَّ النَّـوَى عَـمّا قَليـلٍ تَزَحـزَحُ

---

(١) الفتاوى الكبرى (٦/ ١٣٣- ١٣٤).

والنفسُ ذاتُ إقبالٍ وإدبارٍ

النفس عجيبة مدهشة، غريبة مبهرة، تارة تسمو فوق السحاب إلى السماء، وحينًا تثَّاقَلُ إلى طينة الأرض السفلى، وما بين ذينك فهي في اضطراب واضطرام، وحركة وثبات، وعزم ونقض، وزلزلة ورسوخ، حينًا تُحسن وآخر تظلم، وما بين ذينك تعدل، لها رغائبُ خائبة تُضعِفُها النفسُ وتنفيها إن أُلهِمتْ رُشدَها وغلَّبتْ عقلَها، وتقهرُها الطباعُ تارة وتكسرها إن علت على عقلها صولةُ شهوةِ إرادتِها، لها قرينان مصاحبان ملكيٌّ بالخير يُسدِّدُها ويهديها، وشيطانيّ للشرّ يعدها ويُمنّيها، تارة أمّارة، وحينًا لوّامة، وخيرُها المطمئنة، تبارك وتعالى من خلقها وسوّاها، وبارك فيها وأعلاها، وألهمها خطأها وخطيئتها ورشدها وتقواها، ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشَّمس: ٧-١٠]، وقال في محكم تنزيله مبينًا تكريمه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسْرَاء: ٧٠].

نفسُ المؤمن العابد لربه طاهرة، وللخير توّاقة، وللمعالي نزّاعة، وللبركات والفلاح حائزة، أما من تجبّر وعتى؛ فنفسة خبيثة خائبة خاسرة، والمُوفَّقُ من أخذ الله بيده للحسنى وزيادة.

وَمــا وَجــدُ أَعرابيّــةٍ قَــذَفَت بِهــا صُرُوفُ النَّوى مِن حَيثُ لَم تَكُ ظَنَّتِ
تَمَنّــت أَحاليــبَ الرِّعــاءِ وخَيمــةً بِنَجــدٍ فَلَــم يُقــدَر لَهــا مــا تَمَنَّــتِ
إِذا ذَكَــرَت مــاءَ العِضــاهِ وطِيبَــهُ وَبَرْدَ الحَصَى مِن بَطنِ خَبتٍ أَرَنَّتِ

بِـأَعظَمَ منِّـي لَوعَـةً غَـيرَ أَنَّنِـي أجمجِـمُ أَحشـائِي عـلى مـا أَجّنَّـتِ
وَكانَـت رِيـاحٌ تَحمـلُ الحـاجَ بَينَنَـا فَقَـد بَخشـلَت تِلـكَ الرِّيـاحُ وَضَـنَّتِ

فيا أيها النفس تفكّري، وبهُدى الله استهدي، فكم لله تعالى عليكِ من أنعام خفيّة، وألطاف سابغة، وكرامات واصلة، لكن أين شكركِ للحميد الشكور؟![1]﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝١٥﴾ [سَبَإ: ١٥]

والمقصود؛ أن للنفس مع الرضا تقلّب واضطرام واضطراب يليه رسوخ للموفّقين، وتحليق في سماوات الفائزين، ودخول في زُمَرِ السعداء المفلحين لأبواب عليين، بفضل الحميد الرحيم المنان الكريم.

فكن - رحمك الله - منهم تفُز، وخذ بأسباب ذلك، واهتم بها هنالك، علّك للخير تحُز، فكل نعمةٍ ونعيمٍ وفضل في الدنيا والدين هو محض فضل ورحمة الله الكريم لا شريك له.

بكيـتُ عـلى ذاك الزَّمـانِ وطيبِـه وكـلُّ فتًـى لا شـكَّ يومًـا سـيرحلُ

(١) وللشكر كتاب آتٍ بإذن الله تعالى وعونه وتوفيقه.

من أخبار الراضين بالله رب العالمين

للراضين برب العالمين صحائفُ بالعطر مسطورة، وأخبار بالفوز مشهورة، ومقاماتٌ لِعِلِّيينَ ـ برحمة الله ـ مبرورة. ففي القرآن ميعادهم، وفي السنة بشاراتهم، وفي ألسُنِ العالمين عَبَقُ أخبارِهم. كتب الله أن من حفظ دينه حفظه، ومن صدق عهد الله صدقه، ومن رضي به وأرضاه رضي عنه وأرضاه، ومن أحسن عمله كان عند الله من الفائزين، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ٢٢﴾ [المُجَادلَة: ٢٢]، فشمِّرْ يا عبد الله للفردوس فقد رُفعت سُهامها للمُقرّبين، ونُشرت راياتها للمشمّرين، ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ٧٩﴾ [النَّمل: ٧٩].

يـا حبّـذا رنـدُ العقيـقِ وبانُـهُ ... سُـقِيَ العقيـقُ وأهلُـهُ وزمانُـهُ
راقــتْ خمائلُـه ورقَّ نسـيمُهُ ... وصَـفَتْ عـلى حصـبائه غدرانُـهُ
وشَـكَتْ تبـاريحُ الصّـبابة وُرْقُـهُ ... وتمايلــتْ بِيَـدِ الصَّـبَا أفنانُـهُ
يـا مُفْـرَدًا في حسـنِهِ ذا مُـدْنَفٌ ... في حُزنِـه لعِبـتْ بـه أشـجانُهُ
صـبًّا إذا ذكَـرَ العقيـقَ وأَهْلَـهُ ... صـابَتْ مدامعُـهُ وجُـنّ جَنَانُـهُ

أخبارُهم نثْرُ العبير، ونشْرُ المسك الذّرير، يَضُوعُ في الآفاق، من كل عطر فاق، ويجمع السالف التليد بالشاهد المُقيم، ذلك أن أخبار الراضين للصالحين مُرْضِيَة، ولِقلوبهم ـ بإذن الله ـ رابطة، فالسالك يفرح لأثرِ السابق، يشدُّ بسيرته

أزْرَ فؤادِه إذا لم ترَ عينُه المُؤنسين، ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ١٢٠﴾ [هود: ١٢٠].

وصلوات الله وسلامه وبركاته ونعماؤه على إمامِ الراضين، وقائدِ الشاكرين، وسيّدِ الصابرين، وأطيبِ الحامدين، ومُقدّمِ الفرحين برب العالمين، رسول الرحمة والهدى، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين. لولا أنَّ الله ابتعثه للناس رحمةً ما نجا من نجا من أمته، ولا وصلَ من رام الفلاحَ حينَ الحشرِ من نُقلته، فله حقوقٌ عظيمةٌ وصنائعُ جسيمةٌ في عنق كلِّ مؤمن إلى يوم القيامة.

عَمَّـــت فَواضِـــلُهُ وَعَـــمَّ مَصـــابُهُ   فَالنـــاسُ فيـــهِ كُلُّهُـــم مَـــأجورُ
رَدَّت صَـــنائِعُهُ إِلَيـــهِ حَياتَـــهُ   فَكَأَنَّهُ مِن نَشْـــرِها مَنشـــورُ

إنّ من أسباب الثبات على دين الله أوقات الشدائد والفتن، وانشراح الصدر بالرضا بالله تعالى مطالعةُ سير المرسلين.

وَجَـاءَ حَـدِيثٌ لاَ يُمَـلُّ سَـمَاعُهُ   شَـهِيٌّ إِلَيْنَـا نَثْـرُهُ وَنِظَامُـهُ

ومن أولئك الخليل إبراهيم ﷺ، وتدبرْ وصف الله تعالى له عليه السلام بكونه أمّة: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠].

وتأمل كيف كانت صفة الرضا بالله وعن الله معلمًا واضحًا من معالم شخصيته وآثار سيرته عليه السلام، وكيف كان إمام المستسلمين لأمر الله، ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٣١﴾ [البقرة: ١٣١].

وكيف أتمّ الكلمات التي ابتلاه الله بها، ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البَقَرَة : ١٢٤]، وكيف سلّم أمره وابنه تمامًا لربّه تعالى، ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ١٠٣﴾ [الصَّافَّات : ١٠٣]، ثم جاهَدَ في الله حق جهاده في الدعوة والجهاد باللسان والحجة واليد - بكسر الأصنام - والصبر العظيم والرضا العجيب والحمد الكبير لربه حينما كان يُبتلى فيه بحرقه في النار وبالأذى فيرضى ويسلّم، ويجاهد لوحده أمّة كافرة جبّارة جائرة لوجه ربه تبارك وتعالى.

قال سبحانه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٢٠ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ١٢١ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٢٢ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٢٣﴾ [النَّحل : ١٢٠ - ١٢٣]. قال الإمام المجدد رحمنا الله وإيّاه في الكلام على هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾: «لئلّا يستوحش سالكُ الطريق من قلّة السالكين، ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾، لا للملوك ولا للتّجار المُترفين، ﴿حَنِيفًا﴾، لا يميل يمينًا ولا شمالًا كفعل العلماء المفتونين، ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٢٠﴾، خلافًا لمن كثّر سوادهم وزعم أنّه من المسلمين»[(١)].

ثمّ تدبّر كيف نسب الله كل نبي في سورة الشعراء لقومه: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ [الشُّعَرَاء : ١٠٦]، ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ﴾ [الشُّعَرَاء : ١٢٤]، ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ﴾ [الشُّعَرَاء : ١٤٢]، ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ﴾ [الشُّعَرَاء : ١٦١]، خلا ثلاثة

---

(١) تفسير آيات من القرآن الكريم (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الجزء الخامس) ١/ ٢٣٧

أنبياء، ولكل منهم سبب، وهم الخليل وموسى وشعيب عليهم الصلاة والسلام.

أما موسى عليه السلام فلعل من الأسباب؛ ابتداءُ خبرِه بنداء ربه تعالى له فقال جل شأنه: ﴿نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٠]، وهذه التَّقدُمة الهائلة شرَفٌ ما بعده شرف، وبهذا فكأنّه خرج عن هذا العالم إلى عالم الملكوت السماوي الربّاني برفعه لرتبةِ أن يكلّمه الله تعالى بلا واسطة مع وجود الحجاب[1]. وحُقَّ له أن يكون وجيهًا عند الرحمن، ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ۝٦٩﴾ [الأَحْزَاب: ٦٩].

---

(١) أما بدون حجاب فهو الكِفَاح، وهو الكلام مع المواجهة والرؤية، ومنه حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: لقِيني رسول الله ﷺ وأنا مُهْتَمّ، فقال: «**ما لي أراك مُنكسرًا**»؟ قلتُ: اسْتُشْهِدَ أبي يومَ أُحُد، وترك عيالًا ودَيْنا، فقال: «**ألا أُبَشِّرُكَ بما لقي اللهُ به أباك**»؟ قلتُ: بلى، قال: «**ما كلَّم الله أحدًا قطُّ إلا من وراء حجاب، وإنه أحيَى أباك، فكلَّمه كِفاحًا، فقال: يا عبدي؛ تمنَّ عليَّ أُعْطِكَ، قال: يا ربِّ، تُحيِيني فأُقتل ثانية، قال سبحانه: قد سَبَقَ منّي أنّهم إليها لا يرجعون**»، فنزلت: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝١٦٩﴾ [آل عِمرَان: ١٦٩]. رواه الترمذي (٣٠١٠) وابن ماجه (١٩٠) وحسنه الألباني وأيمن صالح شعبان. وفي النهاية لابن الأثير (٤/ ١٨٥): «قوله: «**فكلّمه كِفاحًا**»: أي مواجهة ليس بينهما حجاب ولا رسول». وقال السيوطي في شرح سنن ابن ماجه (١/ ١٧): «وفي الحديث إشكال، وهو أنّ الله تعالى قال: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشُّورَى: ٥١]. فالجواب: أنّ الآية مخصوصة بدار الدنيا، فلا يُتصوَّرُ في الدنيا كلام الله تعالى مع عبده مواجهة، لأنّ أجساد الدنيا كثيفة لا يليق بها التَّجلِّي الذاتي، لأنّ الله تعالى لما تجلّى للجبل جعله دكًّا وخرَّ موسى صَعِقًا، وأما في الآخرة
=

وأما شعيب عليه السلام فلعل ذلك راجع إلى وصف الله تعالى لأمته بأصحاب الأَيْكَة، والأيكة: هي الشجر الملتفّ، وهي الغيضة، وقيل إنها من الدّوم(١)، وقيل من المَقْل(٢)، فلمّا عبدوا الشجرة من دون الله؛ نسبهم الله إليها، ثم نزّه الله رسوله عن الانتساب إليهم وإليها، صيانة لاسمه عن فعلهم ووصفهم. قال ابن جُزَي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ [الشُّعَرَاء: ١٧٧]: «لم يقل هنا أخوهم كما قال في قصة نوح وغيره، وقيل: إنّ شعيبًا بُعث إلى مدين، وكان من قبيلتهم، فلذلك قال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأَعْرَاف: ٨٥]، [هُود: ٨٤]، [العَنكَبُوت: ٣٦]، وبُعث أيضًا إلى أصحاب الأيكة ولم يكن منهم، فلذلك لم يقل أخوهم، فكان شعيبًا ـ على هذا ـ مبعوثًا إلى القبيلتين.

=

فالتجلّياتُ تحصل للأرواح أو للأجساد المثاليّة لأجساد الجنة». وقال مُلّا علي القاري في مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١٨/ ١٢١): «فيه إيماءٌ إلى أنه بخصوصه أفضل من سائر الشهداء الماضية، حيث ما كلّم الله أحدًا منهم إلا من وراء حجاب، وفيه إشارة إلى أن قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ [الشُّورَى: ٥١] مقيّدٌ بالدنيا لقوله: **«وأحيا أباك فكلّمه كِفَاحًا»**، أي مواجهًا عيانًا». وقال شيخنا عبد الرحمن بن ناصر البراك في شرح كلمة الإخلاص لابن رجب (١/ ١٣٦) **«كَلَّمَه كِفاحًا»**: يعني أنّه كَلَّمَه من غَيرِ حِجابٍ، وهذا في عالم الآخرة، وليس في عالم الدنيا». والله أعلم.

(١) وهو شجر كالنخيل لكن ثمره قليل النفع، ويكثر في السباخ.

(٢) وهو السّدر، ويسمّى كذلك النّبق.

وقيل: إنّ أصحاب الأيكة مدين، ولكنه قال: ﴿أَخُوهُمْ﴾ حين ذكرهم باسم قبيلتهم، ولم يقل أخوهم حين نسبهم إلى الأيكة التي هلكوا فيها، تنزيهًا لشعيب عن النسبة إليها»(١).

وفي نفس السياق وذات السورة كذلك ذكَرَ الله تعالى تكذيب الأمم بأعيانها، فقال سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ١٠٥]، ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ١٢٣]،(٢) ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ١٤١]،

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (١ / ١٣٠٥).

(٢) عاد قد أُهلكت بالريح وبالصيحة كذلك. قال تعالى في فصلت: ﴿مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ [فُصِّلَت: ١٣]، وهي الصيحة الصاعقة للقلب. كذلك فقد ذكر الله في سورة المؤمنون بعد ذكر قوم نوح أمةً تفاصيل أمرهم مشابه لقوم عاد، وهو يتلون عاد في توالي الذكر وفي الزمن، فقال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [المُؤْمِنُون: ٣١ - ٣٢] إلى قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ﴾ [المُؤْمِنُون: ٤١].
وفي العنكبوت ذكَرَ الله تبارك وتعالى تتابع الأمم، ثم ذكر تتابع المَثُلَاتِ عليهم، فذكر جميع عقوباتهم بقوله: ﴿مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ [العَنكَبُوت: ٤٠]، وهم قوم لوط ﴿مِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [العَنكَبُوت: ٤٠]، ومن المعلوم أن ثمود أخذتهم الصيحة. وقد ذكرهم هنا مقرونين ببعضهم: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ [العَنكَبُوت: ٣٨]، فلعل في هذا إيماء إلى أن الصيحة كانت لهما جميعًا. وقد اكتفى في هود بذكر وصفِ غِلَظِ عذابهم فقال ممتنًّا على هود عليه السلام ومن معه: ﴿عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾ [هُود: ٥٨]. أما في سورتي القمر والحاقة فقد ذكر عقوبتهم بالريح الصرصر، عياذًا بالله من النار ومن حال أهل النار. ﴿مِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [العَنكَبُوت: ٤٠]، وهو قارون ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾
=

﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٦٠﴾ [الشُّعَرَاء: ١٦٠]، ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧٦﴾ [الشُّعَرَاء: ١٧٦]، أما إبراهيم عليه السلام فلم يذكر ذلك في قومه، كذلك موسى عليه السلام.

أمّا موسى عليه السلام فلعلّ السبب راجعٌ إلى إرساله إلى أُمَّتَي القبط وبني إسرائيل، فأصالةً لبني إسرائيل، وتبَعًا لمن تيسّر له من الفراعنة، وإن كان هو رسولٌ خاصٌّ بقومه بني إسرائيل، فقد ذكّر القبط بالله تعالى وخوّفهم نِقَمه، كما في دعوته للملأ من قوم فرعون: ﴿قَالَ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٦﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٦]، وإن كانت هذه في مقام المناظرة والمُحاجّة ليُرسل فرعونُ معه بني إسرائيل، وقال لسحرة فرعون يخوّفهم عقوبة الله للمفترين: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ ٦١﴾ [طه: ٦١]، وإن كانت هذه مُسبّبة بالسبب الأول كذلك، وقد أسلموا بحمد الله على يديه. فرسالته إنما كانت لبني إسرائيل خاصّة كما في حديث رسول الله ﷺ: **«كان النبيُّ يُبعث إلى قومه خاصّة، وبُعثت إلى الناس**

=

[العَنكَبُوت: ٤٠]، وهما فرعون وهامان وقومهما. وفي الأعراف قطعُ الدابر: ﴿وَقَطَعۡنَا دَابِرَ﴾ [الأَعۡرَاف: ٧٢]، وقطع الدابر هو الاستئصال بإهلاك الجميع، والدابر بمعنى الآخِر. وبالله التوفيق.

عامّة»[(١)]. ولكن لأنّه عالج الأمّتين أشدّ المعالجة، وقد كان لبثُه بينهم، فصار له نوعٌ من دعوة القبط إلى الإسلام، والله أعلم.

---

(١) البخاري واللفظ له (٣٣٥، ٤٣٨) ومسلم (٥٢١) بلفظ: **«وبُعثتُ إلى كلّ أحمر وأسود»**.
قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الفتح: وأما قوله: **«وبعثت إلى الناس عامة»**، فوقع في رواية مسلم: **«وبعثت إلى كل أحمر وأسود»**، الإنس والجن، وعلى الأول التنصيص على الإنس من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى، لأنه مرسل إلى الجميع، وأصرح الروايات في ذلك وأشملها رواية أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عند مسلم (٧٢٣): **«وأرسلت إلى الخلق كافّة»**. أهـ.
وقال عبد الحق الدِّهْلوي في لمعات التنقيح في شرح مشكاة المصابيح (٩/٢٢٦): «قوله: **«وأرسلت إلى الخلق كافة»** قيل: لم يكن في زمن نوح عليه السلام نبي فيكون مبعوثًا إلى أهل ذلك الزمان كافة، وأيضًا دعا على جميع من في الأرض بإهلاكهم بالغرق، وهو دليل على أنه كان مبعوثًا إليهم، ولم يمتثلوا أمره، وسليمان عليه السلام كان يسير في الأرض، ويأمر الناس بالإسلام كالبلقيس وغيرها، ويهددهم بالقتال، وذلك دليل على عموم الرسالة. وأجيب بأن عموم رسالة نوح لم يكن من أصل البعثة، بل إنما اتفق بالحادث، وهو انحصار الخلق في الموجودين بعد هلاك سائر الناس، وأما دعاؤه على جميع من في الأرض فمن جهة أن دعوته قومه إلى التوحيد بلغ سائر الناس بطول مدته، فتمادوا على الشرك فاستحقوا العذاب، ذكره ابن عطية.
وقال ابن دقيق العيد: يجوز أن يكون التوحيد عامًّا في بعض الأنبياء، والتزام فروع شريعته لم يكن عامًّا، ويحتمل أنه لم يكن في الأرض عند إرساله إلا قومه، فبعثته خاصة بهم لكونها إلى قومه، وهي عامة في الصورة لعدم وجود غيرهم، ولكن إن اتفق وجود غيرهم لم يكن مبعوثًا إليهم.
=

=

ونقل عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام في الحديث عن الإشكال بحال سليمان أنه قال: معنى الرسالة خاصة، أي: في الواجبات والمحرمات، أما في المندوبات فهم مأمورون بها، وأما التهديد بالقتال الذي هو من خصائص الواجب في بادي الرأي فلا نقول: إنه من خصائصه، بل العقاب في الدار الآخرة، كذا نقل عن السيوطي في حاشيته على النسائي (١/ ٢١١). وقيل: يحتمل أن يقال: إن تهديد بلقيس وقتاله مع الناس على التوحيد لأجل ملكيّته لكونه ملِكًا على الدنيا، لا لأجل رسالته وبعثته على الناس كافة، فلا إشكال، كذا نقل عن الشيخ، فتدبر». أهـ. وقال محمد الأمين الهرري في تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن (١٤/ ٣٣٠): «كان نبينا محمد ﷺ مبعوثًا إلى الناس كافة، قال تعالى في حقه: ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ﴾ ولم يقل: لتخرج قومك كما قال في موسى عليه السلام: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾ [إبراهيم: ٥] وخصّص. وقال هنالك: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ وطواه هنا؛ لأن الإخراج بالفعل قد تحقق في دعوته ﷺ، فكانت أمته أمة دعوة وإجابة، ولم يتحقق في دعوة موسى، إذ لم يجبه القبط إلى أن هلكوا، وإن أجابه بنو إسرائيل». أهـ.

وأما كيفية وصول رسالته إلى الجن، فقد بينها القرآن، وذلك باستماع بعض الجنّ للنبي ﷺ وهو يقرأ القرآن، قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١-٢]. الآيات.

وقد ثبت في صحيح مسلم (٤٥٠) بسنده قال علقمةُ: قلتُ لابنِ مسعودٍ: هل صحبَ النبيَّ ﷺ ليلةَ الجنِّ منكُم أحُد؟ قال: ما صحبهُ منّا أحدٌ، ولكنّا كنا معهُ ذاتَ ليلةٍ ففقدناهُ، فالتمسناهُ في الأوديةِ والشعابِ، فقلنا استُطيرَ أو اغتيلَ، فبتنا بشرِّ ليلةٍ باتَ بها قومٌ، فلمّا أصبحنا إذا هُو جاءَ من قبلِ حراءٍ، فقلنا يا رسولَ الله: فقدناك فطلبناكَ فلم نجدكَ، فبتنا شر ليلةٍ باتَ بها قومٌ، قالَ: **«أتاني داعي الجنِّ، فذهبتُ معهُ، فقرأتُ عليهمُ القرآن»**. فانطلقَ بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد فقالَ: **«لكُم كلُّ عظمٍ ذكر اسمُ الله**

=

أما خليل الرحمن أبو الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والبركة والسلام فله شأن آخر في ذلك كلّه، فابتداء لم ينسبه ربه إلى قومه كبقية إخوته الأنبياء، كما لم يذكر قومه بنفس ذكر بقية الأقوام وتكذيبهم المرسلين، والله أعلم بمراده من ذلك، ولعل من الأسباب أنّه كان أمّة وحده تقتدي به مِن بعدِه جميعُ الأمم برسلهم وأنبيائهم، وإليه تنسب الملّة الحنيفيّة، فهو لهم جميعًا إمامٌ، فهو شيخ الأنبياء وإمام الحنفاء ووالد من بعده من المرسلين، حتى ختم الله أنبياءه ورسله بالنبي الرسول الأمّة الحنيف الخاتم الإمام محمد ﷺ، الذي ساد كل من سبقه من الأنبياء والمرسلين، والذي صلّى بجميع الأنبياء إمامًا في المسجد الأقصى ليلة الإسراء والمعراج، وقد أخذ الله على جميع الأنبياء والمرسلين عهدًا باتّباعه ولم يستثن في الآية أحدًا، فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ

=

عليهِ يقعُ في أيديكُم، أوفرُ ما يكونُ لحمًا، وكلُّ بعرةٍ علفٍ لدوابكُم»، فقال ﷺ: **«فلا تستنجُوا بهما فإنهما طعامُ إخوانكُم»**. وفي رواية (٤٥٠): «وكانُوا من جنِّ الجزيرةِ».

وعن زِرٍّ عن عبد الله قال: «هَبَطُوا عَلى النَّبيِّ ﷺ وهُوَ يَقْرَأُ القُرْآنَ بِبطْنِ نَخْلَةَ، فَلَمّا سَمِعُوهُ، قالُوا: أَنْصِتُوا، قالُوا: صَهٍ، وكانُوا سَبْعَةً - وفي رواية تسعة - أَحَدُهُمْ زَوْبَعَةُ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَبارَكَ وتَعالى ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟﴾ [الأحقاف: ٢٩] الآيَةَ، إلى ﴿ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٣٢﴾ [الأحقاف: ٣٢]». رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٥٦) ووافقه الذهبي، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٢٢٨)، وقال الهيثمي (٧/ ١٠٩): رواه البزار، ورجاله ثقات. وقال سليم الهلالي: قلنا: وهذا سند حسن؛ رجاله ثقات رجال الصحيح، وفي عاصم كلام معروف لا ينزل عن رتبة الحسن.

﴿لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [آل عِمرَان: ٨١ - ٨٢]. والإِصْرُ: هو العهد والميثاق. وقد قال علي بن أبي طالب، وابن عمه عبد الله بن عباس رضي الله عنهم: «ما بعث الله نبيًّا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق، لئن بعث محمدًا وهو حيٌّ ليؤمننّ به ولينصرَنَّه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته: لئن بُعث محمد وهم أحياء ليؤمننّ به ولينصرنّه»(١).

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه، أنّ عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أتى رسولَ الله بنسخة من التوراة، فقال: يا رسول الله، هذه نسخة من التوراة، فسكت فجعل يقرأُ ووجه رسول الله ﷺ يتغيّر، فقال أبو بكر: ثكلتك الثواكل، ما ترى بوجه رسول الله ﷺ! فنظر عمر إلى وجه رسول الله ﷺ فقال: أعوذ بالله من غضب الله ومن غضب رسوله، رضينا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًّا. فقال رسول الله ﷺ: **«والذي نفس محمد بيده، لو بدا لكم موسى فاتّبعتموه وتركتموني لضللتم عن سواء السبيل، ولو كان حيًّا وأدرك نبوّتي لاتّبعني»**(٢).

---

(١) جامع البيان (٦/٥٥٥)، وتفسير القرآن العظيم (٢/٥٦)، والدر المنثور (٢/٢٥٢).

(٢) الدارمي (١/١٢٦) (٤٣٥)، وأحمد (٣/٣٨٧)، وابن أبي عاصم (١/٢٧) (٥٠) وصحح إسناده الحافظ ابن كثير من رواية أحمد، وقال: «تفرّد به أحمد، وإسناده على شرط مسلم». البداية والنهاية (٢/١٢٣).

وكان ﷺ أشبه الناس بأبيه إبراهيم عليهما السلام خَلْقًا وخُلُقًا. فمحمدٌ مجدِّدٌ لدين إبراهيم وزيادة، صلى الله عليهما وآلهما وسلّم وبارك.

والمقصود؛ أنّ الله تعالى قد وصف الله خليله عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النَّحل: ١٢٠] فإبراهيم عليه السلام معروفٌ نسبه في أُمّته، وقد بُعث فيهم رسولًا عظيمًا، ولكن لمّا كان إبراهيم عليه السلام بهذه المثابة في التأسّي بمِلّته وإمامته صار انتساب خيارِ الأمم إليه بدلًا من مجرد قومه.

وتأمل كيف طلب الخليل أن يُلحقه الله بالصالحين فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٣﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٣]، والحُكْم هو النبوّة، ولم يُذكر أنْ قد سبقه أصلح منه، فلا أخير منه سوى ابنه رسولنا محمد صلى الله عليهما وسلم، فلاحِظْ تواضعه، ولاحِظْ محبته للصالحين.

وتدبّر وَصْفَ الله تعالى الأممَ القديمة كنوح وعاد وثمود بتكذيب جميع المرسلين، فـ«أل» في المرسلين استغراقية فتعمّ جميع الرسل، وسبب نسبة كفرهم برسلٍ لم يُخلقوا أصلًا إلا بعد قرون من فناء تلك الأمم؛ لأنّ من كَفَرَ بنبيّ واحد فهو كافر بجميع الأنبياء والمرسلين.

ولنمضِ قليلًا في هدايات سورة الشعراء ـ وهي أولى الطواسين ـ وما فيها من أخبار المرسلين أئمة الراضين بالله رب العالمين، فمن ذلك: تواضع الكليم عليه السلام للحق، فحينما ذكّره فرعون بقتله القبطي بقوله: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٩﴾ [الشُّعَرَاء: ١٩] وكان المقام مقام حِجاج وإفحام خصم، لم يتلكّأ عليه السلام أو ينكر أو يحيد بل قال بكل ثبات ورباطة جأش على الحق: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٢٠﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٠]. ومن وضوح حجته أن

أقرّ بالفعل لكنه لم يقرّ فرعون على وصفه بالكفر، فقد أقرّ على نفسه أنّه لم يُوفّق للصواب بقتله القبطي، وكان قصد فرعون كفر النعمة، ولكن لِعلم موسى عليه السلام أنّ المُنعِم على الحقيقة هو الله تعالى، وأنّ فرعون مجرّد سبب إن شاء الله أمضاه وإن شاء ردّه؛ فلم يكن لفرعون إذلال موسى بذلك، ولمّا أقرّ بالخطأ ولم يتكبّر على الاعتراف به دُهش فرعون بهذا الجواب الملِيء بالثقة والتواضع. ثم قلبها موسى عليه حينها وسّع ميدان النظر كثيرًا بقوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٢]؟! أي: هل لأنّك غذوت واحدًا نسيت استعبادك واستسخارك قومه! أهذه نعمة تعدّها مع علمك بأنّك إن وضعت الأمرين في الميزان استبان الفرق لكل ذي عينين.

فلُطم فرعون بذلك لدرجة أن فتح باب التساؤل والمناظرة في الربوبية، فزعم أنّه لا يعرف الله، مع أنّه على يقين من وحدانية الله تبارك وتعالى، قال سبحانه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النَّمل: ١٤]، فليس مجرد علم بوحدانيّة الله ألوهيّةً وربوبية، بل يقينٌ مستقر في قلوبهم، لكن ردّهم الظلم وإرادة العلوّ في الأرض.

قال فرعون متسائلًا مستبعدًا مكذّبًا: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٣]؟! وهنا تظهر العظمة الرساليّة لموسى عليه السلام، ويتجلّى عظيم صبره، ووافر حلمه، وغزير علمه، وإحكام منطقه، وجميل منطوقه، فقال: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٤] موقنين بعقولكم وبالسماء التي تُظلكم والأرض المقلّةِ لكم، فابدؤا بهذه اليقينيات التي تبنون عليها الحجة الدامغة والسلطان العلميّ الواضح، فاستدلّ على وجود الله وربوبيته

بمخلوقاته العظام، وهزّ يقينياتهم وحرّكها علّها أن تثور من عقال كفرها وكبرها لفطرتها الأولى وتوحيدها السابق، فهزئ فرعونُ به قائلًا لملئه: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٥]، أي ألا تعجبون للعجب العُجاب من هذا الإنسان الذي يقول كلامًا ليس تحته حقائق. فأجابه الكليم مباشرة مُصرًّا على مبدئه القويم وحجته المستقيمة وبرهانه الساطع، غير آبهٍ بتُرّهات الخصم الذي ذهب لأوديةٍ شتّى من سخرية وتشتيتٍ وإخراجِ محلّ الخلاف عن دائرة تركيز النظر، وكلُّ هذا خلاف ما أقيمت المناظرة لأجله، فقال: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٦]، فعاد إليهم بعبارة أشدّ وحجّة أدحض، وخلاصتها: أنّك يا فرعون مربوب لست بربّ، وأنت ولدٌ لآباءٍ سبقوك، إذن فلست بخالق ولا مالك ولا مُدبّر ولا ربّ ولا إله، وكذلك حال الملأ الذين يسمعون هذه المناظرة وحال آبائهم السالفين.

هنا غضب فرعون واشتدّت غطرسته وتيهه وكبره فلجأ إلى حيلة الجهلة ضعفاء العقول والعلوم والنفوس على مرِّ الأزمان، وهي الحيدة عن محل المناظرة وعين النقاش لأمور لا تتصل به، بل يروم الضغط على خصومه بتهديدهم بها جهلًا وجهالة، فديدنه وأمثاله عند انقطاعهم اتّهام المُصلحين في عقولهم وعلومهم وأديانهم، فقال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٧]! أي: إنه يقول ما لا يعقله العقلاء. وهل استُفزَّ الكليم الكريم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه بذلك؟ كلّا، بل كان رابط الجأش، ثابت الفؤاد، شديد الشكيمة، وافر الحلم، رَحْبَ الخُلُق والفطنة والعلم والحكمة، فعاد إلى نفس الحُجّة المباركة، ونفس الهدف الدعويّ الرساليّ،

ونفس المعنى المقصود بدعوته أوّلًا، لكن بعبارات أخرى ومعنًى أوسع، فقال بعدما اتُّهم بالجنون: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الشُّعَرَاء : ٢٨]، فأراد تحريك ذلك الشيء الجوهريَّ المطمور في غمرات قلوبهم ودفائن رؤوسهم الذي اتهموه بفقدانه وهو العقل، فاستفزّ بقوّةٍ قريحَتهم بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الشُّعَرَاء : ٢٨]. فإن كنت يا فرعون تتهمني بالجنون؛ فأولى بك أن تتأكد من سلامة عقلك وصحّة ذهنك وملئك كذلك، أمّا هذه المناظرة فهي لإقامة التوحيد لله رب العالمين وحده لا شريك له.

هنا سقطت حجة فرعون في الأرض، وتمرّغ منطقة تحت الأقدام في التراب، وأُسقط في يده، وعاد خاسئًا حسيرًا في مقام الحجاج، فعاد لجُحْرِ أخلاق الجبابرة وسرداب رذائل الجهلة؛ فأعلن الوعيد بالعذاب لمن خالفه، فقال كقول من سبقه ولحقه من أزواجه وأشباهه وأقرانه: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشُّعَرَاء : ٢٩].

فهل استفزّ ذلك موسى أو أخافه؟ كلّا، لم يستفزَّهُ طيشُه، ولم يهزّ شيئًا من كيانه ولا قلبه ولا إيمانه ولا يقينه، ولا علمه بربه، ولا تعلّقه به، فكان خوفه من الله لا من غيره، فهو مُحقّق للتوحيد، ومن حققه فلا يخاف إلا ربّه، كما قال تعالى في شأنهم: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾ [الأحزاب : ٣٩].

فلمّا توعّده هذا الطاغية الجبار بالسجن طوى ما مضى من سجلّات الحِجَاج، ثم عرض عليه بألطف أسلوب وأجمل بيان وأحسن أداء وأقرب بلاغ فقال عارضًا مُشدّدًا حازمًا جازمًا مشرقًا واضحًا: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ

بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ ﴿٣٠﴾ [الشُّعَرَاء : ٣٠]، فطوى حِجاج المعاني الذهنيّة ليخلي الميدان للبراهين الحسّية، والمعاني الذهنية هي الأقوى لدى العقلاء، لأنها مبنيّة على قطعيّات يقينية مُركّبة على مرّ عمر عقل المرء وتأمّلاته لعلاقة الأشياء ببعضها، وأكثرُ براهين القرآن من ذلك القبيل، فدلائله وبيّناته وتوجيهاته تشحذ القريحة العقلية للنظر والتدبّر والتفكّر، كذكر ابتداء الخلق، وأنّ مَن خلقهم من عدم قادر على بعثهم بطريق الأولى، ثم تُثنّي بحفزِ نَظَراتٍ حسّية لبلوغ مآلاتها العقليّة وغاياتها الذهنية، من التفكّر في عظمة المخلوقات، وكِبَرها، واتّساعها، واتّساقها، وجَودة صنعها، وإحكام تدبيرها ونحو ذلك، وتُردِفها بمثال حسّي نافذٍ للذهن السليم وهو التفكّر في المطر والنبات ومراحله وهشيمه، ومقارنة نبتةِ الزرع ومراحلها بنبتةِ الجنين، وأنّ خالق الاثنين واحد وهو الرب القادر المدبر والإله العظيم العليم، ثم تثلّث بالشعور والعاطفة بالتذكير بالفطرة التوحيديّة الأولى للإنسانية بل للمخلوقات، ثم بعد ذلك بشحن عواطف بني الإنسان بجنة الوعد ونار الوعيد، فتصفو حينها الروحُ من القروح، فتسمُو صعدًا في السماوات، مرتّلة أجملَ آيات التوحيد والإيمان.

وبالجملة؛ فقد أحسن موسى عليه السلام أيّما إحسان في المناظرة بجميع مراحلها، وكيف لا يكون كذلك وهو من هو ﷺ؟! فقال بعد إتمام المقاصد الذهنيّة الصادقة التي يغلب عليها العقل إلى المقاصد البرهانيّة الواضحة التي يغلب عليها الحسُّ الذي قد استبطنه العقلُ السليم الصحيح، لأنّ ذات البرهان حقيقة محسوسة مشاهَدَة، وليست فقط خيال ذهنيّ صحيح، فهي عند قسمين من الناس أوقع أثرًا وأفلَجُ نظرًا؛ وهم أهل كثافة الفهم وزَمَانَة الكبر،

وحقيقٌ بفرعون وملئه أن يكونوا منهم. فقال عليه السلام: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٣٠]، أي: آية حسّية واضحة لكل أحد، غير ما أسلفت لك من الكلام النظري البرهاني الصحيح.

فالقسم الأول من المناظرة مفتقرٌ لقياس عقليّ من قِبَلِ المُناظَر، مع ضميمة ما استودع في فطرته من معانٍ صالحة وأصول توحيدية مستقيمة، وهذا ما رفضة الفراعنة ابتداء فخذلهم الله تعالى لسوءِ مادّتهم، وخبثِ معدنهم، وشرِّ طبيعتهم، ثم فلّ جمعَهم، وقطع دابرهم، وجعلهم أمثولة العالمين، كما قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأَعْرَاف: ١٤٦]، ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأَنْعَام: ٤٥].

أما القسم الثاني فهو ملموس حسّا فيراه المُناظَرُ بجارحة عينه، ويسمعه بأذنه، بل ويلمسه بيده إن شاء، فالأُولى تُدرك بالتأمل والتفكّر والقياس، والثانية بالمشاهدة والسماع والحسّ، فانتقل الكليم عليه السلام من تغليب المعنى لتغليب الحسّ، حتى يُفرِغَ على عدوّ الله كلَّ الحجج الكبار، ويصبّ على بنيانِ أباطيله وابلَ الأحجار، ويُبطل عذره بالجهل، فلا يبقى سوى العناد والاستكبار.. وهو ما كان!

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٣٠]، واضح على صدق دعوتي، وثبات كلمتي، واستقامة حجّتي، فأجابه الفرعون: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٣١]. ولاحِظْ استمرار التكذيب والسخرية من هذا

الطاغية الجبار. ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝٣٢ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ۝٣٣﴾ [الشُّعَرَاء: ٣٢ - ٣٣]، فعاد فرعون لشبهة من سبقه ولحقه من سفهاء الرؤساء فزعم قائلًا: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝٣٤ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ﴾ [الشُّعَرَاء: ٣٤ - ٣٥].. الآيات.

وتدبّر ما ورد في قصة فرعون وطبّقها على الطغاة الجبابرة في كل مكان وزمان، إذ بضاعة المفسدين واحدة، وزاملة المبطلين مشاكلة، ومآلات الفاسقين مشابهة، وقد قال ربنا تعالى فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ۝٨٣ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ۝٨٤﴾ [مَرْيَم: ٨٣ - ٨٤].

فتأمل كلام فرعون وهتافه الشقيّ بقوله وهو على سرير غفلته، وعرش طغيانه، وأُبَّهة جبروته، وراحلة خُذلانه، وحفرة سوء منقلبه: ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝٥٤ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَـٰذِرُونَ ۝٥٦﴾ [الشُّعَرَاء: ٥٤ - ٥٦]، فوصف الصالحين والمُصلحين بالشرذمة، والشرذمة: الطائفة القليلة من الناس، وخصّها بعضهم بالحُقراء والأخسَّاء والسّفلة منهم، وقصد بذلك أنهم بمنزلة العبيد والخدم لي ولكم.

وذُكر عن مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «هم يومئذ ستّ مئة ألف، ولا يُحصى عدد أصحاب فرعون». ولعل في هذا العدد مبالغة. وأظهر فرعون غيظه وغضبه، وألزم أتباعه بفعل فعلته، ولبس لأمة حرب الصالحين، فقال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝٥٥﴾ [الشُّعَرَاء: ٥٥]، آخذين أُهبتنا مستعدّين لتدميرهم، فما هي نتيجة ذلك الطغيان: أنها الاستئصال! ولله الأمر من قبل ومن بعد، قد هانوا عليه فخذلهم وعذّبهم، ولو عزّوا عليه لعصمهم وأكرمهم.

قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٥٧ - ٥٩]، فساق الله مال أعدائه لبني إسرائيل، سنة ماضية، وآية باقية، وناموس ثابت: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾ [فَاطِر: ٤٣ - ٤٥].

ألّا وإنّ من مهمات الأمر: معرفةُ سُنَّةِ الاستخلاف للأتقياء. فإنّ الله تعالى لـمّا أورثَ بني إسرائيل أرضَ فرعونَ وملئِهِ وكنوزَهم كانوا أتقياء بررة، كما قال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٥٩]، ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأَعْرَاف: ١٣٧]، والأرض المباركة هي الشام بعد الفراعنة والعمالقة، وقد كانت الشام تتبع حُكّام مصر إذ ذاك، والأزمنة تُطْوَى في القرآن العظيم لأنه من علم الله تعالى الذي يستوي لديه غابرُ الزمان بحادِثِهِ ومستقبَلِه، تبارك وتعالى عالمُ الغيب والشهادة العزيز الحكيم.

وقد أورثها الله تعالى لهم بِمَهْلِكِ مَن كانَ فِيها منَ العَمالِقَةِ، ولا يمنع أن يكون لهم حكم كذلك في مصر، ولكن الأظهر أنه محصور بالشام الأرض المباركة، وقد جاء في بعض كتب مؤرخي يهود أنَّ مُوسى عليه السلام قد حكم

بَعْد فرعون ثلاث عشرة سَنَةً فِي مِصر، والشام تبع لمصر حينها، ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ [القَصَص: ٥-٦]، والله تعالى أعلم.

وإنّما أورثهم الله تعالى دولة فرعون وملئه لأن بني إسرائيل كانوا أهل إيمان وقتها، بل كانوا أفضل أهل زمانهم، ولما ذكر الله تعالى في سورة الحج تكذيب الأمم رسلهم: لم يذكر تكذيب بني إسرائيل؛ لأنهم لم يكذبوا موسى عليه السلام، بل من كذبه هم القِبْطُ، قال سبحانه: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ۝٤٢ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ۝٤٣ وَأَصْحَـٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَـٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝٤٤﴾ [الحج: ٤٢-٤٤]، وقال سبحانه: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۝١١٣ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝١١٤ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ۝١١٥﴾ [آل عِمرَان: ١١٣-١١٥].

والله تعالى يقول مقَرِّرًا سُنّته القدرية والشرعية في الاستخلاف: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٢٨﴾ [الأَعرَاف: ١٢٨] فعاقبة الاستخلاف هي لِمَن اتقى.

ولذلك لمّا كفر بنو إسرائيل بالنبي الخاتم المبشر به في كتبهم أورث الله أرضهم لعباده الأتقياء أتباع سيد المرسلين ﷺ، فحال عنهم بكفرهم ما كان استحال إليهم بإيمانهم، كما قال تعالى في الأحزاب: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ۝٢٧﴾ [الأَحزَاب: ٢٧]، وقال

سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥﴾ [الأنبياء : ١٠٥] فكتب الله تعالى في كتب الأنبياء ومنها زبور داود وتوراة موسى من بعد اللوح المحفوظ أنّ الأرض الدنيا وأرض الجنة هما ميراث الصالحين من عباده، فالجنة خالصة والدنيا مشُوبة، ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢﴾ [الأعراف : ٣٢].

وبقاء هذه الأرض الموروثة للصالحين في الدنيا مشروطة بصلاحهم، وإلا: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ٣٨﴾ [محمد : ٣٨]، فوراثة أرض الله إنما هي لإقامة شرع الله من أيّ أحدٍ كان، فلا نسب ولا لون ولا عرق ولا غيره من علائق الدنيا له ميزة في هذا الاستخلاف، إنما هي التقوى لا غير، ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات : ١٣]، والله المستعان.

أَعِــزَّ إلهَ النـــاسِ أمّـــةَ أحمــدٍ ... فقـد سَـامَهَا الكفـارُ ذُلًّا مُصَـالِيا

فـلا حـولَ عنـدي يـا إلهـي وقـوّةً ... ومـن أنـزلَ الحاجـاتِ بـالله ناجيـا

ومن هدايات سورة الشعراء كذلك أن البلاء موكل بالمنطق، بيان ذلك أن قوم شعيب عليه السلام لمّا كذّبوه وتعنّتوا عليه بقولهم: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ١٨٦ فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٨٧﴾ [الشعراء : ١٨٦ - ١٨٧]، أي قِطَعًا من السماء، فانظر كيف يتحيّنون عذابهم، ويستجلبون هلكتهم بألسنتهم! فأحالهم الرسول الكريم إلى علّام الغيوب ومَن بيده مقاليد الأمور وتصاريف الأقدار قائلًا: ﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا

تَعۡمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الشُّعَرَاء : ١٨٨]، فما ذا كان جواب الله تعالى لهم﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾ [الشُّعَرَاء : ١٨٩]. وأخرج ابن المنذر عن السُّدّي قال: «فتح الله عليهم بابًا من أبواب جهنم، فغشيهم من حرِّه ما لم يطيقوه، فتبرَّدوا بالماء وبما قدروا عليه، فبينما هم كذلك إذ رُفعت لهم سحابة فيها ريح باردة طيّبة، فلمّا وجدوا برْدها ساروا نحو الظُّلّة، فأتوها يتبرّدون بها، فخرجوا من كل شيء كانوا فيه، فلما تكاملوا تحتها؛ طبَّقتْ عليهم بالعذاب»!(١)

وقد فعلت قريش فعلتهم، فلمّا التقى القوم في بدرٍ قال أبو جهل: «اللّٰهم أقطَعنا للرحم، وآتانا بما لا نعرف؛ فأحنه الغداة»، فكان ذلك استفتاحًا منه، فنزلت: ﴿إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُ﴾ [الأنفال : ١٩] (٢)، أي النصر، لكنّه عليكم لا لكم! فأُحنوا وقُتلوا وأسروا وهُزموا، نعوذ بالله من النار وحال أهل النار.

ومن هدايات هذه السورة الجليلة الجميلة: حسنُ الخطاب، ومن ذلك أن الكفرة لما قالوا لنوح عليه السلام: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الشُّعَرَاء : ١١١]، فوصفوا أتباعه بالرذالة والدناءة؛ لم يسكت على الباطل، بل مدح أتباعه فوصفهم بأحسن وصف للإنسان؛ وصف الإيمان، فقال عليه السلام: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الشُّعَرَاء : ١١٤]، أمّا الكفرة السبابة فقد أعرض عنهم

(١) الدر المنثور (١١ / ٢٩٢)
(٢) تفسير ابن كثير (٤ / ٣٢)

ولم يسبّهم. ولمّا وسموه بالضلالة؛ لم يردّ العدوان بمثله، بل اكتفى بهذا الجمال والبهاء والسكينة والثقة والنصح والشفقة فقال: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦١ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٢﴾ [الأعراف: ٦١ - ٦٢].

وهذا القول الحسن سلوك راسخ في الرسل الكرام، قال سبحانه: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٤ قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٢٥ قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ ٢٦ قُلۡ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَۖ كَلَّاۚ بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٧﴾ [سبأ: ٢٤ - ٢٧]. وتدبر مليًّا قوله الأكرم: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٤﴾ [سبأ: ٢٤]، وهذا الأسلوب مفيد جدًّا في المناظرات من جهتين:

الأولى: الأدب وحسن الخطاب وجمال التأتّي، مما يزيل وحشة صدر المخالف، ويُوقِذُ من عَرَامِه، ويكسر من أنَفَتِه، ويُخجل وجهه، ويستنهض كرامته، ويقرّبه بعد البعاد.

الثانية: قوّة الإلزام، وسطوة الحجاج، وسطوع البرهان، وشدّة الإلجاء المُبعِد غشاوة الحَيْدَات ومهارب الإلزامات.

وقد ختم ربنا تعالى سورة الشعراء بذكر غواية الشعراء! وكثير منهم من أبعد الناس عن مواطن الرضا، بل إنّ كثيرًا من تسخّط البشر إنّما يأتي على أفواههم، ويجري على ألسنةِ أبياتهم، فيسبّون الدهر والزمان والأيام، ويسيرُ سبُّهم وتسخّطهم بين العالمين مسير الشمس، فيتبعهم الناس ويتناقلون

سخطهم وجزعهم وسبّهم للدهر، لِمَا ظنّوه من حكمتهم إذ أرسلوا أبياتهم فذاعت، وبين الورى قد طارت، قال سبحانه: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ٢٢٤﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٢٤]، نعوذ بالله من الغواية عن الهداية، ومن الجهل بعد الحلم، ومن الحَوْر بعد الكور، وكفى بحرمانهم من التعرّف على أعظم وأجمل وأحقّ مطلوب خسارةً وغبنًا، فالعلم بالله هو أشرفُ وأجملُ وألذُّ العلوم بإطلاق. وقد ذكر الله تعالى في ذات السورة ـ الشعراء ـ جزاء الغاوين فقال: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ٩١﴾ [الشُّعَرَاء: ٩١]، فَوَاغَبْنَ السَّاخِطين، وخَسارَة الغاوِين، ﴿لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ١٤﴾ [الفُرْقَان: ١٤].

ولكن من اتقى الله في شعره فهو عن الغواية بمعزل، وللهداية بمُرتقى، وللجهاد للذروة برمي سهام قصيدِه في أعين الكفرة وقلوبهم وأكبادهم، وفي بناء معاني الصلاح بالأبيات الهادية، وتنشئةِ مرابع الاستقامة بالأبيات القويمة، ورَفْدِ محاضن التربية بالقريض النافع، وتسهيلِ علوم الشريعة بنظمها للراغبين، وترقيقِ القلوب بأبيات الحنين والشوق للدار الآخرة، وما يتبع ذلك من الصالحات، والحمد لله رب العالمين.

فلقد قال سبحانه مستثنيًا أولئك البررة الأثبات: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ٢٢٧﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٢٧]. وقد أيّد الله حسّانًا في شعره بروح القدس، وفي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**اهجُوا قريشًا، فإنّه أشدُّ عليها من رَشْقِ النَّبل**». فأرسل إلى ابن رَوَاحةَ، فقال: «**اهْجُهُمْ**»، فلم يُرْضِ، فأرسلَ إلى كعب ابن مالك فلم يُرْضِ، ثم أرسل

إلى حسان بن ثابت، فلما دخل عليه قال حسانُ: قد آن لكم أن تُرْسِلوا إلى هذا الأسدِ الضَّاربِ بِذَنَبِهِ، ثم أدْلَعَ لسانه، فجعل يُحرِّكُه، فقال: والذي بعثك بالحق، لأفرينَّهُمْ بلساني فرْيَ الأديم، فقال رسول الله ﷺ: **«لا تَعْجلْ، فإن أَبا بكر أعلمُ قريش بأنسابها، وإن لي فيهم نَسَبًا، حتى يُخْلَصَ لك نسَبي»**.

فأتاه حسّان، ثم رجع، فقال: والذي بعثك بالحق، لأسُلَّنَّكَ منهم كما تُسَلُّ الشعرة من العجين، قالت عائشة رضي الله عنها: فسمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول لحسان: **«إن رُوحَ القُدُس لا يزال يُويِّدُكَ ما نَافحتَ عن الله ورسوله»**.

وقالت عائشة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«هَجاهُم حسان، فشَفى واشْتَفى»**. فقال حسّان:

هَجَوْتَ محمدًا فأجبْتُ عنه ... وعندَ اللهِ في ذاكَ الجَزَاءُ

هَجوتَ محمدًا بـرًّا تقيًّا ... رسولَ الله شيمتهُ الوَفَاءُ

فإنّ أَبي وَوَالدَهُ وعِرضي ... لِعِرْضِ محمد منكم وِقَاءُ

عدِمنا خيلنا إن لم تَرَوْهَا ... تُثِيرُ النَّقْعَ من كَنَفَي كَداءُ

يُبَارِينَ الأعنَّةَ مُصْعِدَات ... على أكتافِها الأَسَلُ الظِّماءُ

تَظَلُّ جِيَادُنا مُتَمَطِّرَات ... تُلَطِّمُهُنَّ بالخُمُرِ النِّسَاءُ

فإنْ أعْرَضْتُمُ عنا اعْتَمَرنا ... وكَانَ الفَتْحُ وَانكَشَفَ الغِطَاءُ

وإلا فَاصْبِرُوا لِجلادِ يَوْم ... يُعِزُّ اللهُ فيه من يشاءُ

وقال الله قد أرْسَلْتُ عبدًا ... يقولُ الحقَّ ليس به خفاءُ

وقـــال الله قـــد يَســـرَّتُ جنـــدًا هُـــمُ الأنصـــارُ عُرْضـــتها اللِّقَـــاءُ
لنـــا في كـــلِّ يـــوم مـــن مَعَـــدٍّ سِـــبَابٌ أَو قتـــالٌ أو هِجـــاءُ
فَمَـــنْ يَهْجُـــوا رَسـولَ الله مـــنكم ويَمدَحُــــه وَينصـــرُهُ سَـــوَاءُ
وجبريـــلٌ رســـولُ الله فينـــا وروُحُ القُـدْسِ لـيس لـه كِفـاءُ[١]

فهنيئًا لأبي الوليد ما شفى من صدر الحبيب ﷺ، وما نافح عن رسول الهدى صلوات الله عليه وسلامه وبركاته. ولما أُنشدَتْ قريش شعر حسان قالت: إن هذا الشتم ما غاب عن ابن أبي قحافة! لعلمهم بتفوّقه في الأنساب والأيام والأخبار. وجعل بعضهم يقول: «لقد قال أبو بكر الشعر بعدنا».

وفي المستدرك بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما وصححه، قال: لما دخل رَسُول الله ﷺ مَكَّة رأى النِّسَاء يلطمن وُجُوه الْخَيل بِالْخمرِ، فَتَبَسَّمَ رَسُول الله ﷺ إِلَى أبي بكر فَقَالَ: **«كَيفَ قَالَ حسان بن ثَابت يَا أَبَا بكر»**؟ فأنشده أَبُو بكر رَضِوَاللَّهُعَنْهُ:

عـــدمتُ بنيّتـــي إن لم تَرَوْهَـــا تُثـيرَ النَّقْـعَ مـن كَتِفـي كـداء
ينــازِعْن الأعِنَّـــةَ مشـــعفات تُلطّمهـــن بِـــالْخمرِ النِّسَـــاء

فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: **«من حَيْثُ قَالَ حسان»**. فَدخل رَسُول الله ﷺ من كداء أَعلَى مَكَّة[٢].

---

(١) البخاري (٤/٢٢٥) (٥/١٥٤) ومسلم (٢٤٩٠) واللفظ له.
(٢) المستدرك (٣ / ٧٢) (٤٤٤٢) وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

وورد أنّ حسّانًا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ حينما جاء لمفاخرةِ تميم برسول الله ﷺ والإسلام؛ أخرج لسانه فضرب به أَرنبة أَنفه، وقال: «والله يا رسولَ الله؛ إنّه ليخيّل لي أنّي لو وضعته على حَجر لفَلَقَهُ، أو على شَعَر لحَلَقَهُ»(١).

وفي الصحيح عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يضع لحسان منبرًا في المسجد، يقوم عليه، فإما يُفاخر عن رسول الله ﷺ، وإما يُنافح. ويقول رسول الله ﷺ: **«إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما نافح أو فاخر عن رسول الله»**(٢).

وفي الترمذي أن عائشة رضي الله عنها سُئلت: هل كان النبيُّ ﷺ يَتَمثَّل بشيء من الشِّعْر؟ قالت: كان يتمثَّلُ بِشِعْرِ ابنِ رَواحة، وَيَتَمثَّلُ ويقول: **«ويأتيكَ بالأخبَارِ مَن لم تُزَوِّد»**(٣).

وروى البخاري(٤) عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه كَان يَقُول فِي قصصه يذكر رَسُول الله ﷺ: **«إِنَّ أَخًا لكم لَا يقُول الرَّفث»**(٥). قال:

وَفينَــا رَسُــولُ الله يَتْلُــو كِتَابــه ... إِذا انشقَّ مَعْرُوفٌ من الْفجْر سَاطِعُ

(١) الروض الأنف للسهيلي (٤ / ٣٤١)
(٢) البخاري (٤/٢٢٥) معلّقًا، ومسلم (٧/١٦٣)
(٣) أحمد (٦/١٣٨) والبخاري في الأدب المفرد (٨٦٧) والترمذي (٢٨٤٨) وصححه الألباني.
(٤) البخاري (٢ / ٦٨)
(٥) يَعنِي بذلك عبد الله بن رَوَاحَة. والرفث: هو فحش القول.

أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا ... به موقنات أن ما قاله واقع

يبيت يجافي جنبه عن فراشه ... إذا استقلت بالكافرين المضاجع

ويُذكر أن ابن رواحة أنشد أبياته هذه لما غاضبته امرأته حينما رأته خارجًا عن جاريته، واتهمته بجماعها فأنكر. فقالت: إذن فاتلُ من القرآن[1] فاحتال بأن أنشدها الأبيات الآنفة، فزال ما بها.

وخرَّج مُسلم[2] عَن عَمْرو بن الشريد عَن أَبِيه قَال: أردفني رَسُول الله ﷺ فقَالَ: **«هَل مَعَك من شعر أُميَّة بن أبي الصَّلْت شَيْء»؟** قال: نعم. قَالَ: **«هيه»**. قَالَ: فَأَنْشَدته بيتا فقَالَ: **«هيه»**. قَالَ: فَأَنْشَدته حَتَّى بلغت مئَة بَيت. وَفِي رِوَايَة أنشدت النَّبِي ﷺ مئَة قافية من قَول أُميَّة بن أبي الصَّلْت. كل ذَلِك يَقُول: **«هيه، هيه»**. ثمَّ قَالَ: **«إِن كَاد فِي شعره ليُسْلِم»**.

وقد كان يهجو المشركين ثلاثةٌ من الأنصار؛ حسانُ بن ثابت، وكعبُ بن مالك، وعبدُ الله بن رواحة. فكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر، ويعيّرانهم بالمثالب، ويرميهم كعب بتخويفهم بالحرب، ويثلمهم حسان بالقدح في أنسابهم، وكان عبد الله بن رواحة يعيّرهم بالكفر. فكان في ذلك الزمان أشدّ القول عليهم قول حسان وكعب، وأهون

---

(١) لأن الجنب ممنوع من تلاوته.

(٢) مسلم (٢٢٥٥)

القول عليهم قول ابن رواحة، فلما أسلموا وفقهوا الإسلام كان شعر ابن رواحة أشدّه عليهم.

وعند الشيخين عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف أنه سمع حسان بن ثابت الأنصاري يستشهد أبا هريرة: أنشدك الله؛ هل سمعت النبي ﷺ يقول: **«يا حسان؛ أجب عن رسول الله ﷺ، اللّهم أيّده بروح القدس»**؟ قال أبو هريرة: نعم[١].

وعن سعيد بن المسيب، أن عمر مرّ بحسان بن ثابت وهو ينشد في مسجد رسول الله ﷺ، فمر به عمر فلَحَظَهُ[٢]، فقال حسان: قد أنشدتُ فيه من هو خير منك[٣]. فانطلق عمر[٤]. وخبر المفاخرة مع بني تميم في عام الوفود من السنة التاسعة يُظهر منزلة الشعر والخطابة في العهد النبوي، وأصل الخبر عند ابن إسحاق وابن سعد وغيرهما بأسانيدهما، وجيّدٌ سياق أبي الفرج في أغانيه بسنده عن محمد بن الضحاك عن أبيه.

ومن مآثر الشعر ما ذكره ابن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: بلغني أنّ دَوسًا إنما أسلمتْ فَرَقًا من كعب بن مالك صاحب النبيّ ﷺ حيث يقول:

قَضينا مِن تِهامةَ كُلَّ رَيْبٍ ... وخَيْبرَ ثم أَجْمَمْنا السيوفَا

---

(١) البخاري (٤٥٣) ومسلم (٢٤٨٥)

(٢) أي: نظر إليه بغضب.

(٣) يعني رسول الله ﷺ.

(٤) أحمد (٢١٩٣٩)

نُخيِّرُهـــا ولـــو نَطقــتْ لقالـــت　　قواضــــبُهنَّ دَوْسًـــا أو ثَقِيفًـــا

وفي التاريخ الكبير للبخاري[(١)] عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال لكعب بن مالك: **«أيا كعب؛ ما نسيَ ربُّك ـ وما كان ربك نسيًّا ـ بيتًا قلتَهُ»**. قال: وما هو يا رسول الله؟ قال: **«أنشِده يا أبا بكر»** فأنشده أبو بكر:

زعمتْ سَخِينَةُ[(٢)] أنْ ستغلب رَبَّها　　ولَيُغْلَــــبَنَّ مُغالِــــبُ الغَــــلاّبِ

وذكر ابن عبد ربه في عَقْدِه[(٣)] أن رسول الله ﷺ قال لعبد الله بن رَواحة: **«أَخْبرني ما الشعرُ يا عبد الله»؟** قال: شيءٌ يَختلجُ في صَدْري فيَنطق بهِ لساني. قال: **«فأَنْشِدني»** فأَنشده شعره الذي يقول فيه:

---

(١) التاريخ الكبير (٣٥٥) والنسيان يأتي في لغة العرب على معنيين:

الأول: الغفلة وذهاب الوهل وعزوب العلم، وهذا منفيّ عن الله تبارك وتعالى، قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤] كذلك: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

الثاني: الترك. وهذا غير منفيّ عن الله تعالى، بل من أفعاله الترك لمن يستحق ذلك، ومن ذلك قوله جل وعلا: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التَّوْبَة : ٦٧] أي: تركهم في غفلتهم وخيبتهم وضلالهم، ولم يوفّقهم للهدى والرشاد.

(٢) السخينة: هي طعام حارٌّ يتخذ من دقيق وسمن، وقيل: دقيق وتمر، أغلظُ من الحساء، وأرقّ من العصيدة، وكانت قريش تكثر من أكلها فعُيّرتْ بها، حتى سمّوا سَخِينة.

(٣) العقد الفريد (٦/ ١٢٨)، وأخرجه البرهان فوري في كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال (١٣ / ٤٥١)، والخبر بنحوه في طبقات فحول الشعراء (٢٢٥ – ٢٢٦)، وطبقات ابن سعد (٣/ ٥٢٨)، وتهذيب الآثار (٩٧٧)، والمعجم الكبير للطبراني (١٣/ ٤٣٧)، وسير أعلام النبلاء (١/ ٢٣٤)

فثبَّت الله ما آتاك مِن حَسَنٍ   تثبيتَ موسى ونصرًا كالَّذي نُصِروا

فقال النبيّ ﷺ: **«وإياك ثَبَّت الله، وإياك ثَبّت الله»**. فثبّته الله حتى مات شهيدًا.

وكان الذي هاج فتْح مكة أنّ عمرو بن مالك الخُزاعِيّ، أحدَ بني كَعب، خَرج من مكة حتى قَدم على رسول الله ﷺ المدينة، وكانت خُزاعة في حِلْف النبيِّ ﷺ وفي عهده وعَقْده، فلمّا انتقضت عليهم قريش بمكة وأصابوا منهم ما أصابوا، أقبل عمرو بنُ مالك الخُزاعيّ بأبيات قالها. فوقف على رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد بين ظهراني الناس فقال(١):

يا رب إنّي ناشدٌ مُحمدًا   حِلْفَ أَبينا وأَبيه الأتْلدَا

قد كنتُم وُلْدًا وكُنّا وَالدًا   ثمّت أسلمنا فلم ننزع يدا

إنّ قريشًا أخلفوك الموعدا   ونقضوا ميثاقك المؤكّدا

وجعلوا لي في كَداءٍ رَصدًا   وزعموا أن لست أدعو أحدا

وهم أذلّ وأقلّ عددًا   هُم بيّتونا بالوتير هُجَّدا

وقتّلونا رُكعّا وسُجّدا   فانصرُ هَداك الله نَصرًا أَيِّدا

وأدْعُ عبَاد الله يأتوا مَدَدًا   فيهِم رسولُ الله قد تجرّدا

---

(١) وتأمل تماثل قافيتي الصدر والعجز في اشتراكٍ راقصٍ بديعٍ، وهذا ما ميّز الأراجيز واستحلاها من أفواهِ الحُدَاة.

إنْ سِـيم خَسْـفًا وجهُـه تَربّـدا   في فَيْلـق كـالبَحر يَجْـري مُزْبـدا

فقال رسولُ الله ﷺ: **«نُصرت يا عمرو بن سالم»**. ثمَّ عَرض عارضٌ من السماء، فقال رسولُ الله ﷺ: **«إن هذه السحابة تستهلّ بنَصْر بني كعب»**[١].

هذا؛ ولقد كان الشعر ميسورًا على سليقة العرب وسجيّتهم وصفاء قريحتهم، وقال سعيد بن المُسيِّب: كان أبو بكر شاعرًا، وعُمر شاعرًا، وعليٌّ أشعرَ الثلاثة. ولما نظم حسان قوله:

نسـوِّدُ ذا المـالِ القليـلِ إذا بـدتْ   مروءتـهُ فينـا وإنْ كـانَ مُعـدَما

أعجب به، فصعد أطمةً، ونادى: واصاحباه، فاجتمع قومه إليه، وقالوا: ما وراءك؟ فأنشدهم البيت!

وقال أنس بن مالك خادمُ النبيّ ﷺ: قَدِم علينا رسولُ الله ﷺ، وما في الأنصار بيت إلّا وهو يقول الشعر. قيل له: وأنتَ أبا حمزة؟ قال: وأنا[٢].

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي (٩ / ٢٣٣) ومعنى ناشد: طالب، وذكّر. الأتلد: القديم. نصرًا أعتدًا: أي حاضرًا. المدد: العون. تجرّدا: شمّر، وتهيّأ لحربهم. سيم خسفًا، معناه: طلب منه، وكلّفه. تربّدا: تغيّر. عن: حاشية سيرة ابن هشام، (٤/ ١١)

(٢) وانظر للمزيد من بيان مكانة الشعر في الإسلام: وقد يجمع الله الشتيتين. للمؤلف.

محمد رسول الله ﷺ

أعظم الناس رضًا برب الناس هو خير الناس محمد ﷺ، فقد كان المثل البشريّ الأعلى للرضا بالمولى الحق سبحانه وبحمده، وتأمل سيرته العطرة، وكيف كان حاله الكامل الشريف مع طوارق المحن، وترادف الشدائد والفتن، وضغط الصعوبات، وموت الناصر من القرابات، وقلّة المعينين من البشر والمُعينات، فأطبقت على كاهله الشديدات؛ ولكن كل ذلك لا شيء بالنسبة لرضاه عن رب البريّات، ومالك الأرض والسماوات، وقاضي الأمور والحاجات، ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ [التَّوْبَة: ٤٠]، ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المَائِدَة: ٦٧]، ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزُّمَر: ٣٦]، ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المُجَادلَة: ٢١]، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يُوسُف: ٢١]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [الحَج: ٣٨]، ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النَّمل: ٦٢]، ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾ [الفَتْح: ٢ - ٣].

لقد كان نبينا ﷺ نسيج وحده في كل كمالات الصفات اللائقة بالبشر، فما من خلق إلا وقد حاز كماله، لقد خلقه الله تعالى وهيّأه لأعلى المنازل وأسمى الرتب، فجلّله بأكمل الفضائل وأجمل السجايا حتى كان خلقه القرآن، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القَلَم: ٤]، فأيُّ شَرَفٍ فوق هذا الشرف، وأيُّ مديحة تعلوه، فصلوات الله وسلامه وبركاته وملائكته والصالحون من

عباده عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان، صلاة دائمة متعاقبة لا تنقطع على مرّ الدهور والأزمان(١).

أنْـتَ الَّـذِي لَمَّـا رُفِعْـتَ إلى السَّـما ... بِـكَ قَـدْ سَـمَتْ وتَزَيَّنَـتْ لِلِقاكـا

نادَيْـتَ أشْـجارًا أتَتْـكَ مُطِيعَـةً ... وشَـكا البَعِـيرُ إِلَيْـكَ حِـينَ رَآكـا

والمـاءُ فـاضَ بِراحَتَيْـكَ وسَبَّحَتْ ... صُـمُّ الحَصـى للهِ في يُمْناكا

والجِـذعُ حَـنَّ إليـكَ حِـينَ تَرَكْتَـهُ ... وعـلى سِـواهُ أُوقِفَـتْ قَـدَماكا

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وخُلُقُ رسول الله ﷺ القرآن أكمل الأخلاق. وقد كان من خلقه أنه لا ينتقم لنفسه، فإذا انتهكت محارم الله لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم لله، فيعفو عن حقّه ويستوفي حقّ ربه.

والناس في الباب أربعة أقسام: منهم من ينتصر لنفسه ولربه، وهو الذي يكون فيه دين وغضب. ومنهم من لا ينتصر لا لنفسه ولا لربه، وهو الذي فيه جهل وضعف دين. ومنهم من ينتقم لنفسه لا لربه، وهم شر الأقسام. وأما الكامل فهو الذي ينتصر لحقّ الله ويعفو عن حقّه، كما قال أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: خدمتُ رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي: أفٍّ قط. وما قال لي لشيء فعلتُه: لم فعلتَه؟ ولا لشيء لم أفعله: لم لا فعلته؟ وكان بعض أهله

---

(١) وانظر: محمدٌ رسول الله ﷺ. للمؤلف.

إذا عتبني على شيء يقول: **«دعوه، لو قُضي شيء لكان»**.(١)»(٢) فقد كان ﷺ تجسيدًا للرضا بالله تعالى، فمهما ابتلي في دنياه وجسده وروحه وأحبابه وأصحابه فإنه ثابت الجنان في الرضا، راسخ الفؤاد فيه، لا تزيده الخطوب إلا رضًا عن ربه ويقينًا به، وعبودية حقّةً له.

إبراهيم الخليل ﷺ

وإنّ من أعظم خَلْقِ الله رضًا بالله خليل الرحمن عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام والبركات، فهو بحق أنموذج كامل للرضا بالله تعالى بعد نبينا محمد صلى الله عليهما وسلم، ومن تأمل سيرته الشريفة وما مرّ به من أهوال تتضعضع دون بعضها أعظم قلوب الرجال، ويتقاصر دونها صبرهم، ويبعُد رضاهم، وينزوي حمدهم؛ نراه في ذلك كله بحرًا واسعًا ساكنًا تذوب فيه كل بليّة، وتذوي فيه كل قاصفة، وتنكمش لأجله كل عاصفة، وينكسر أمام عظمة دينه وإيمانه وتقواه كلّ شيطان مريد.

قال شيخنا محمد المختار الشنقيطي حفظه الله تعالى: «هذا نبيُّ الله إبراهيم ﷺ، أوذي في الله فصبر، فجمع له قومه ذلك الوادي العظيم من النار، حتى إذا تأجّج ذلك الوادي بناره، واصطلى بجحيمه وسعيره، أُلقي

(١) البخاري ٤/ ٢٣٠ (٣٥٦١)، ومسلم ٧/ ٨١ (٢٣٢٩) (٨٢) أما زيادة «وكان بعض أهله..» فهي عند أبي نعيم، وأوردها شيخ الإسلام في رسالة الاحتجاج بالقدر (١ / ٤٣) وصححها الألباني.

(٢) مجموع الفتاوى (٣٠ / ٣٦٩)

ﷺ، حتى إذا صار مقبلًا على ذلك البلاء العظيم، مسلّمًا لله عز وجل فيما ابتلاه، فلما قدم قال له جبريل: هل لك من حاجة؟

ذلك المَلَك الذي لو أذن الله له لخسف الأرض ومن عليها بجناحه، قال: يا إبراهيم؛ هل لك من حاجة؟ قال: «أما إليك فلا، وأما إلى الله، فحسبي الله ونعم الوكيل»، فقال الله تعالى: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ٦٩﴾ [الأنبيَاء : ٦٩] قال بعض العلماء: «لو قال الله يا نار كوني بَرْدًا لأهلكته من بردها»(١)، ولكن قال: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ٦٩﴾ [الأنبيَاء : ٦٩]

ثم خرج ﷺ طريدًا عن قومه، مهانًا من عشيرته، وحيدًا لا مال لا بنون لا إخوة لا أصحاب لا أحباب، فخرج من داره مؤذًى في الله مضطهدًا، فلما ولّى وجهه قال ﷺ: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ٩٩ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠٠﴾ [الصَّافَّات : ٩٩ - ١٠٠].

فخرج من دار فعوّضه الله أطهر من الدار التي خرج منها، عوّضه الله الأرض المقدّسة، وجعل ذريته ذرية النبوة والصلاح، وجعل فيها ميراث الأنبياء ﷺ، وكل ذلك باليقين بالله. فكل إنسان أصابته مصيبة فعلم أنه لا ينجيه منها إلا الله عز وجل فرّج الله همّه وغمّه.

ثم أمره الله تبارك وتعالى أن يخرج بهاجر مع صبيها ورضيعها، أن يخرج من دارٍ كلها جنات وأنهار إلى دارٍ لا ماء فيها ولا أشجار، فجاء فوضعها في ذلك الوادي الذي لا أنيس فيه ولا جليس، فتعلقت به تلك المرأة المفجوعة،

---

(١) وقالوا: ولو لم يخصص إبراهيم بذلك ما انتفع أحد بحرّ نار بعدها.

وقالت: يا إبراهيم، إلى من تدعنا؟! فولى وجهه ﷺ قبل الدابة، فتعلقت به ثانية وقالت: إلى من تدعنا يا إبراهيم؟ امرأة ضعيفة وصبي ضعيف ليس معهم أحد، تقول له وتتعلق به: إلى من تدعنا يا إبراهيم؟! فلما كانت المرة الثالثة، تعلقت به وألحّت فقالت: إلى من تدعنا يا إبراهيم؟! فقال: «لله»، فقالت: إذًا لا يضيعنا الله، ورجعت إلى صبيها وقلبها كله يقين بالله تبارك وتعالى، فتولى ﷺ، حتى إذا نزل في الوادي وتغيب عن نظرها رفع كفه إلى الله فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم: ٣٧] الله أكبر! إلى يومنا هذا والقلوب تحنّ وتئن إلى رؤية البيت العتيق، إلى يومنا هذا والنفوس تشتاق إلى رؤية البيت العتيق، فلما جلست تلك المرأة المفجوعة مع صبيها، وعاينت ما هي فيه من البلاء، جاءت تلك الساعة التي صاح فيها الصبي يطلب الماء، وعندها خرجت لكي تلتمس الأسباب، فرقت على الصفا فصاح صبيها فلم تر أحدًا، ثم مضت إلى المروة وتعلّقت بالله عز وجل تدعوه وترجوه، حتى إذا كانت المرة السابعة؛ أبى الله إلا أن يفرّج همّها بالصبي نفسه، فجعل تفريج الكرب من تحت قدم الصبي الذي دحس برجله الماء! من أيقن بالله تعالى جعل الله فرجه في نفسه قبل أن يكون بعيدًا عنه»[١].

ومن جميل أخبار الراضين بالله تعالى خبر آل إبراهيم عليه السلام، كأمّنا هاجر رضي الله عنها، وكذا ما ورد في قصة إسماعيل وأبيه عليهما السلام

---

(١) دروس للشيخ محمد المختار الشنقيطي (٤٩ / ٧)

وزوجتيه. فعن سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: قال ابن عباس رضي الله عنهما: أوّلُ ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقًا[١] لتُعفي أثرها على سارة، ثُمَّ جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل، وهي ترضعه، حتى وضعها عند البيت، عند دوحة فوق زمزم، في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذٍ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جرابًا فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثُمَّ قفّى[٢] إبراهيم منطلقًا، فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم؛ أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء، فقالت له ذلك مرارًا،

---

(١) المِنْطَق: النِطاق، وجمعُه: مَناطِقُ. وهو أن تَلْبَسَ المرأةُ ثوبَها، ثم تَشُدّ وَسَطها بشيء، وتَرْفَع وسَط ثوبها وتُرْسِله على الأسفل عند مُعاناة الأشغال لئلا تَعْثُرَ في ذَيْلها. وبه سُمِّيَت أسماء بنت أبي بكر ذاتَ النِّطاقَين، لأنها كانت تُطارق نِطاقًا فوق نِطاق. وقيل: كان لها نِطاقان تَلْبَس أحدَهما وتَحْمِل في الآخر الزادَ إلى النبي ﷺ وأبي بكر وهما في الغار. وقيل: شَقَّت نِطاقَها نصفين، فاستَعملت أحدَهما، وجعلَتِ الآخر شِدادًا لِزادِهما. وفي حديث عائشة: «فَعَمَدْن إلى حُجزِ مَناطِقِهنّ فَشَقَقْنَهَا واخْتَمَرْن بها». النهاية في غريب الأثر (٥ / ١٦٦)

(٢) أي: أدبر، وولّى لهم قفاه.

وجعل لا يلتفت إليها[1] فقالت له: آلله الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يضيّعنا[2].

فانطلق إبراهيم، حتى إذا كان عند الثنيّة[3] حيث لا يرونه[1]؛ استقبل بوجهه البيت[2] ثمَّ دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه، فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ

(١) وتأمل صعوبة الموقف وشدته وثقله على قلبه لولا أنه كان مطمئنًّا بربه الذي أمره، راضيًا كل الرضا به، واثقًا تمام الثقة به، عليه السلام، لذلك مدحه ربه تبارك وتعالى بأنه أتمّ كلمات الله عليه فصيّره إمامًا للعالمين: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗا﴾ [البَقَرَة: ١٢٤].

(٢) وصدقت هذه الوليّة التّقيّة المؤمنة البارّة الرّاشدة، فالله لا يضيع أولياءه ولا يخلف وعده، ومن كان مع الله كان الله معه، ومن كان الله معه فلا ضيعة عليه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لمّا كان بين إبراهيم وبين أهله ما كان؛ خرج بإسماعيل وأم إسماعيل، ومعهم شَنّة فيها ماء، فجعلت أم إسماعيل تشرب من الشنّة فيدرّ لبنُها على صبيّها، حتى قدم مكة فوضعها تحت دوحة، ثم رجع إبراهيم إلى أهله، فاتبعته أم إسماعيل حتى لما بلغوا كداء نادته من ورائه: يا إبراهيم إلى من تتركنا؟ قال: إلى الله. قالت: رضيتُ بالله». رواه البخاري (٣٣٦٥) وفي رواية: «قالت: رضيتُ بالله، ثُمَّ رجعت». والشَّنّة: القربة الصغيرة. فلما رضيت بالله أرضاها الله في الدنيا بالأمن والرزق وبرّ الولد النبي الصالح، وفي الآخرة رضوان الله والجنة، ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠﴾ [يُوسُف: ٩٠].

(٣) الثنيّة: الطريق في العقبة، وقيل: هو المرتفع من الأرض فيها.

﴿مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم:٣٧].

وجعلت أم إسماعيل تُرضع إسماعيلَ، وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت، وعطش ابنها[٣]، وجعلت تنظر إليه يتلوّى[٤]، أو قال: يتلبّط[٥]. فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثُمَّ استقبلت الوادي، تنظر هل ترى أحدًا، فلم تر

=

(١) إمعانًا في الإخلاص، كذلك لم يردها أن تراه يدعو لهما حتى لا ينقطع تعلقها التام بالله وحده، فإنها لمّا قطعت حبال الخليقة وتعلقت بمولاها؛ ظهر إخلاصها لربها وتوحيدها وإيمانها وثقتها ورضاها.

(٢) وفيه استحباب استقبال القبلة عند الدعاء، وكان نبيّنا ﷺ يفعله كما عند مسلم (١٧٦٣) من حديث ابن عباس عن عمر رضي الله عنهم في غزوة بدر: فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة، ثم مدّ يديه، فجعل يهتف بربه: «**اللّٰهم أنجز لي ما وعدتني**»، وكما في حديث ابن بن عمر رضي الله عنهما في صفة حجته ﷺ: «أنه كان يرمي الجمرة الأولى بسبع حصيات، يكبّر مع كل حصاة، ثم يتقدم فيقوم مستقبلًا القبلة قيامًا طويلًا فيدعو ويرفع يديه»، رواه ابن حبان في صحيحه (٣٨٨٧) قال شعيب الأرناؤوط رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حديث صحيح إسناده قوي.

(٣) لجفاف ثدييها لما عطشت.

(٤) وهو موقف شديد جدًّا على الأمهات لِمَا جبلهن الله تعالى من عظيم الرحمة والشفقة بأولادهنّ.

(٥) التلبّط: الاضطراب والتقلّب ظهرًا لبطن.

أحدًا، فهبطت من الصفا، حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرَف دِرْعَها[(١)]، ثُمَّ سعت سعي الإنسان المجهود[(٢)]، حتى جاوزت الوادي، ثُمَّ أتت المروة، فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدًا، فلم تر أحدًا، ففعلت ذلك سبع مرات. قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: **«فذلك سعي الناس بينهما»**، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا فقالت: صه ـ تريد نفسها ـ ثُمَّ تسمّعت فسمعت أيضًا فقالت: قد أسمعتَ إن كان عندك غواث[(٣)]. فإذا هي بالمَلَك[(٤)] عند موضع زمزم، فبحث بعَقِبِه، أو قال: بجناحه حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه[(٥)]، وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها، وهو يفور بعدما

---

(١) أي: ثوبها.

(٢) أي: أجهدت نفسها في السعي مخافة تلف ابنها جوعًا وعطشًا، فبذلت السبب وقلبها معلّق بالمُسبِّب تبارك وتعالى.

(٣) فطلب الغوث من المخلوق الحاضر القادر جائز، ومن ذلك: ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِ﴾ [القَصَص: ١٥]. أما الشرك الوخيم والذنب العظيم فهو الاستغاثة بمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الخالق جل جلاله، أو بمخلوق غائب، كمن يستغيثون بأهل القبور أو الجن أو الغائبين، ولا يعلم الغيب إلا الله. وهذا شرك ناقل عن ملّة الإسلام، والمشرك مخلّد في الجحيم، حرام عليه جنة النعيم، قال سبحانه: ﴿ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النِّساء: ٤٨]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ٧٢﴾ [المَائدة: ٧٢].

(٤) هو أمين الوحي وسيّد الملائكة جبريل عليه السلام.

(٥) تحوضه: أي تجعل له حوضًا يجتمع فيه الماء.

تغرف. قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال النبي ﷺ: **«يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم - أو قال: لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عينًا مَعِينًا»** [(١)]. قال: فشربت، وأرضعت ولدها، فقال لها المَلَك: لا تخافوا الضَّيْعة[(٢)]، فإن هاهنا بيت الله، يَبنِيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يُضَيِّعُ أهله. وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرابية[(٣)]، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك حتى مرَّتْ بهم رفقة من جرهم، أو أهل بيت من جرهم، مقبلين من طريق كَدَاء[(٤)]، فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائرًا عائِفًا[(١)]،

---

(١) المَعِين: الماء الظاهر الجاري الذي لا يتعذّر أخذه.

(٢) الضيعة: الضياع والحاجة.

(٣) الرابية: المرتفع من الأرض.

(٤) ثمّ ثلاثة أماكن في مكة في أسمائها تشابه، كَدَاء في أعلاها (الحَجُون حاليًّا)، وكُدَى في أسفلها جهة المدينة (الشبيكة حاليًّا)، وكُدَي - بالياء - أسفل مكة من جهة اليمن، وفيها حاليًّا مواقف سيارات كُدَي.

فكَدَاء، بالفتح والمدّ: الثنيّة من أعلى مكة مما يلي المقابر، وكُدَى بالضم والقصر: من أسفلها مما يلي باب العمرة، وكُدَي بالياء من أسفلها جنوبًا. وقال الشيخ عبد الله بن جاسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مفيد الأنام (١/٢٥٧): «ثنية كَدَاء بفتح الكاف والدال مع المد، وهي التي تسمى بالحَجُون بأعلى مكة، وبها باب المعلاة مقبرة أهل مكة، وهي التي أشار إليها حسان بن ثابت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في قصيدته المشهورة وجعلها موعد خيل المسلمين في قوله:

عدمنا خيلنا إن لم تروها ... تثير النقع موعدُها كَدَاءُ

ودخل منها رسول الله ﷺ يوم فتح مكة وقال ﷺ: **«ادخلوها من حيث قال حسان»**.

وقال ابن حجر في الفتح: ثنية كداء بفتح الكاف والمد، وهذه الثنية هي التي ينزل منها

=

فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء؛ لَعهدُنا بهذا الوادي وما فيه ماء! فأرسلوا جَرِيًّا أو جَرِيَّيْن(٢)، فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا، قال: وأُمُّ

=

إلى المعلاة مقبرة أهل مكة، وهي التي يقال لها الحَجُون بفتح المهملة وضم الجيم، وكانت صعبة المرتقى فسهّلها معاوية ثم عبد الملك ثم المهدي، على ما ذكره الأزرقي، ثم سهّل في عصرنا هذا منها سنة إحدى عشرة وثمان مئة موضع، ثم سُهّلت كلها في زمن سلطان مصر الملك المؤيد في حدود العشرين وثمان مئة، وكلّ عقبة في جبل أو طريق عال تسمى ثنية». أهـ

قلت: ثم سُهّلت في زمن الشريف الحسين بن علي في حدود الثلاثين وثلاث مئة وألف، ثم سهلت في زمن الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل آل سعود، ثم سهلت تسهيلًا كاملًا بعده.

وسنَّ خروجٌ من مكة من أسفلها من ثنية كُدًى بضم الكاف والتنوين، دون ذي طوى من جهة مكة بقرب شعب الشافعيين، وهي الثنية التي تسمى ثنية الشافعيين، وتعرف الآن بريع الرسام، وهي التي خرج منها رسول الله ﷺ، ويقال لها باب شبيكة، لقول ابن عمر: «كان رسول الله ﷺ يدخل من الثنيّة العليا التي بالبطحاء، ويخرج من الثنيّة السفلى» متفق عليه. قال: هي ثنية كُدَى بضم الكاف كهُدى وقُرى، لا ثنية كُدَي كسُمَي بالتصغير، لأن هذه لمن خرج من مكة إلى اليمن.

(فائدة): وأهل مكة يقولون: ادخل وافتح، واخرج وضُمّ. وهذا ضابط طريف.أهـ بتصرف يسير.

(١) أي: يدور في السماء حول شيء في الأرض.

(٢) أي: الأجير أو الوكيل، وسمّي به لأنه يجري مجرى موكله.

إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟[١] فقالت: نعم، ولكن لا حقَّ لكم في الماء[٢] قالوا: نعم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال النبي ﷺ: **«فألفى ذلك أمَّ إسماعيل وهي تحب الأُنْس»**، فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم، فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشبَّ الغلامُ[٣]، وتعلّم العربيَّة منهم، وأنفَسَهم[٤] وأعجبهم حين شبَّ، فلما أدرك زوّجوه امرأة منهم، وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل، يطالع تَرِكَتَهُ[٥]، فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا[٦]. ثُمَّ سألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بشرٍّ، نحن في ضيق وشدّة، فشكت إليه.[٧]

---

(١) وهذا من أدبهم وحسن شيمتهم وعفافهم، فهي امرأة وحيدة في صحراء خالية.

(٢) أي: إلا بإذني.

(٣) أي: إسماعيل صادق الوعد الرسول النبي عليه السلام.

(٤) من النفاسة وهي السبق إلى الطيب والخير. والمراد: صار عندهم نفيسًا مرغوبًا فيه.

(٥) أي: أهله الذين تركهم في مكة.

(٦) أي: يجلب لهم ما يصلحهم من طعام ونحوه.

(٧) فلم ترض بقضاء الله تعالى لهم، ولم تثن على الله تعالى خيرًا، ولم تحمده، وزادت فشكت الحال إلى إبراهيم عليه السلام.

وإذا اعْتَرَتْكَ بليّةٌ فاصبر لها … صَبْرَ الكريم فإنَّه بك أرحمُ

وَإِذَا شَكَوْتَ إِلَى ابْنِ آدَمَ إِنَّمَا … تَشْكُو الرَّحِيمَ إِلَى الَّذِي لَا يَرحَمُ

وسلام الله على يعقوب إذ قال: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يُوسُف: ٨٦].

قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، وقولي له: يغيِّرُ عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل كأنه آنسَ شيئًا، فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم. جاءنا شيخ، كذا وكذا، فسألَنا عنك، فأخبرته، وسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته أنّا في جهد وشدّة، قال: فهل أوصاك بشيء[1]؟ قالت: نعم؛ أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غيّر عتبةَ بابك. قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقك، الحقي بأهلك، فطلّقها، وتزوج منهم أخرى.

فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله. ثُمَّ أتاهم بعْدُ، فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت: خرج يبتغي لنا، قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله[2]. فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم، قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء، قال: اللَّهم بارك لهم في اللحم

---

(١) وهذا من فطنته عليه السلام.

(٢) تأمل الفارق بين المرأتين، فمع اتحاد العيش إلا أن قلب الثانية راض بالله تعالى مسرور به، قانعٌ مكتف بالبلغة من هذه الدنيا. ومن سرور ابن آدم زوجٌ صالح، فعن عبد الله بن عمرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول اللهِ ﷺ قال: «**الدُّنيا مَتاعٌ، وخَيرُ مَتاعِ الدُّنيا المَرأةُ الصّالِحَةُ**». رواه مسلم (١٤٦٧)، والمرأة الصّالحة: هي الصالحة في دينها، ونفسها، والمُصلِحَةُ لحال زوجها. وهذا كما قال في الحديث الآخر: «ألا أخبركم بخير ما يكنز المرء»؟ قالوا: بلى. قال: «**المرأة الصالحة؛ التي إذا نظر إليها سرّته، وإذا غاب عنها حفظته، وإذا أمرها أطاعته**». رواه أبو داود (١٦٦٤)، والحاكم (١/ ٤٠٨)، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. وصحح إسناده العراقي في تخريج الأحياء (٢/ ٣٦) وضعّفه الألباني في الضعيفة (١٣١٩).

والماء. قال النبي ﷺ: «**ولم يكن لهم يومئذٍ حبّ**[١]، **ولو كان لهم دعا لهم فيه**»، قال: «**فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلاَّ لم يوافقاه**»[٢]. قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، ومُريه يثبّت عتبة[٣] بابه، فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه[٤]، فسألني عنك، فأخبرته، فسألني: كيف عيشنا؟ فأخبرته أنّا بخير، قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبّت عتبة بابك، قال: ذاك أبي، وأنت العَتَبَة، أمرني أن أمسكك.

ثُمَّ لبث عنهم ما شاء الله. ثُمَّ جاء بعد ذلك، وإسماعيل يبري نبلًا له تحت دوحة[٥] قريبًا من زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد، والولد بالوالد، ثُمَّ قال: يا إسماعيل، إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك

---

(١) أي: زراعة.

(٢) دعا عليه السلام لأهل مكة بالبركة في اللحم والماء، فكانوا يقتصرون عليهما دون أن يتضرّروا منهما، وأصبح ذلك خاصًّا بمكة دون غيرها من البلاد، فإنه لا يقتصر أهل بلد عليهما إلاّ تضرر منهما. وعليه؛ فلو اقتصر أهل مكة على اللحم والماء كفاهم، وأما غيرهم فلا. والمقصود: أن المداومة عليهما لا يوافق الأمزجة إلا بمكة، وهذا من جملة بركاتها وأثر دعاء إبراهيم عليه السلام، لذلك دعا نبيّنا ﷺ لأهل المدينة في الزرع والكيل والوزن ﷺ.

(٣) وكانوا يسمّون العتبة الأُسكفّة. وقد استفاد أهل التعبير من هذا أن العتبة في المنام هي الزوجة.

(٤) فأثنت عليه خيرًا في غيابه، وهذا من حسن خلقها وطيب معدنها.

(٥) الدوحة: الشجرة الكبيرة.

ربك. قال: وتعينني؟ قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتًا، وأشار إلى أَكَمَة مرتفعة على ما حولها(١)، قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة، وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء، جاء بهذا الحجر(٢)، فوضعه له، فقام عليه وهو يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ١٢٧﴾ [البَقَرَة: ١٢٧]. قال: فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ١٢٧﴾ [البَقَرَة: ١٢٧].(٣)

موسى عليه السلام

قد مضى بعض الحديث عن الكليم عليه السلام، وقد كرر الله تعالى وثنّى قصته وأخباره في القرآن العظيم تنويهًا به وليستنّ المؤمنون، وإنّ من أجمع ما ذكر من سيرته الشريفة خبر الفتون، وإنّ حديثَ الفُتُونِ حديث مشهور، وفيه عبر لكل مؤمن، وقد رأيت إيراده لمناسبته حال المؤمن في رضاه عن ربّه تعالى وهو يقلّبه بين ثنايا قدره ورحمته وأعطاف قضائه، وحكمته وأكناف لطفه وبرّه. وهو موقوف على ابن عباس رضي الله عنهما، ولعله نقل كثيرًا منه عن كعب الأحبار مما أورده عن بني إسرائيل مما لم يُكذّبه شرعنا، فعند أحمد وأبي

---

(١) الأَكَمَة: ما ارتفع من الأرض كالرابية.

(٢) وهو مقام إبراهيم عليه السلام، قال أبو طالب في لاميّته:

ومـوطئُ إبـراهيم في الصـخر رطبة ... عـلى قدميـه حافيًـا غـير ناعـلِ

(٣) البخاري (٣٣٦٤)، (٣٣٦٥)

داود [١] عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**حدِّثُوا عن بني إسرائيل ولا حرج**». وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذلك: «من المعلوم أن النبي ﷺ لا يُجيز التحدث بالكذب، فالمعنى: حدّثوا عن بني إسرائيل بما لا تعلمون كذبه، وأما ما تجوّزونه فلا حرج عليكم في التحدث به عنهم، وهو نظير قوله: «إذا حدّثكم أهل الكتاب فلا تصدّقوهم، ولا تكذبوهم».» [٢].

وبما أن السند لابن عباس رضي الله عنهما جيّد [٣] فابن عباس حبرٌ بحرٌ يعلم النافع فيرويه وغيره فيطويه، وهو الناصح العليم والناقد البصير رضي الله عنه.

---

(١) المسند (١٠١٣٠) وأبو داود (٣٦٦٢) وصححه الألباني.

(٢) نقله عنه الحافظ في فتح الباري: (٦/ ٣٨٨).

(٣) حديث الفتون قد أخرجه الإمام النسائي في السنن الكبرى (١١٣٢٦) والإمام الطبري (١٢٥/١٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقد صحح سنده البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة (٢٣٤/٦) وصححه سليم الهلالي في صحيح الأنباء (٤٩٨/٢) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٦٦): «رواه أبو يَعلى، ورجاله رجال الصحيح غير أَصْبَغ بن زيد والقاسم بن أبي أيّوب وهما ثقتان». وقال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٢/ ١٩٦) وبنحوه في تفسيره بعد سياق الحديث بطوله: «هكذا ساق هذا الحديث الإمام النسائي، وأخرجه ابن جرير، وابن أبي حاتم، في تفسيرهما من حديث يزيد بن هارون. والأشبه والله أعلم أنه موقوف، وكونه مرفوعًا فيه نظر، وغالبه متلقى من الإسرائيليات وفيه شيء يسير مصرح برفعه في أثناء الكلام، وفي بعض ما فيه نظر ونكارة، والأغلب أنه من كلام كعب الأحبار. وقد سمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزِّي يقول ذلك أيضًا، والله أعلم».

والحديث بطوله عن سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: سألت عبد اللهِ بنَ عبَّاسٍ رضِيَ اللهُ عنهما عن قولِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ لموسى ﷺ: ﴿فَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠]، فسألْتُه عن الفُتُونِ؟ فقال: استأنِفِ النَّهارَ يا ابنَ جُبيرٍ؛ فإنَّ لها حديثًا طويلًا. قال: فغدوْتُ على ابنِ عبَّاسٍ لأنتجِزَ ما وَعَدني مِن حديثِ الفُتونِ، فقال:

تذاكَرَ فِرعونُ وجُلساؤُه ما كان اللهُ عَزَّ وجَلَّ وعَدَ إبراهيمَ ﷺ مِن أنْ يجعَلَ في ذُرِّيته أنبياءَ ومُلوكًا؛ فقال بعضُهم: إنَّ بني إسرائيلَ لينتظِرونَ ذلك ما يشُكُّون فيه، وقد كانوا يظنُّونَ أنَّه يُوسفُ بنُ يعقوبَ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ، فلمَّا هلَكَ قالوا: ليس هكذا كان، إنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ وعَدَ إبراهيمَ ﷺ. قال فِرعونُ: فكيف تَرونَ؟ فائْتَمَروا، واجتمَعوا أمْرَهم على أنْ يبعَثَ رِجالًا بالشِّفارِ، يَطُوفون في بني إسرائيلَ، فلا يَجِدون مولودًا ذكَرًا إلَّا ذَبَحوه، ففعَلوا ذلك، فلمَّا أنْ رَأَوا أنَّ الكبارَ في بني إسرائيلَ يموتونَ بآجالِهم، والصِّغارَ يُذْبَحونَ، قالوا: أتوشِكونَ أنْ تُفْنوا بني إسرائيلَ، فتَصيروا إلى أنْ تُباشِروا مِن الأعمالِ والخدمةِ الَّتي كانوا يَكْفُونكم؟ فاقْتُلوا عامًا كلَّ مولودٍ ذكرٍ، فيقِلَّ نَباتُهم، ودَعُوا عامًا، فلا تَقْتلوا منهم أحدًا، فيشِبَّ الصِّغارُ مكانَ مَن يموتُ مِن الكبارِ، فإنَّهم لنْ يَكْثروا بمَن تَسْتحيون، فتخافوا مُكاثرتَهم إياكم، ولنْ يَفْنَوا بمَن تقتُلونَ، فتحتاجونَ إليهم، فأجْمَعوا أمْرَهم على ذلك، فحمَلَت أُمُّ موسى بهارونَ عليهما السَّلامُ العامَ الَّذي لا يُذْبَحُ فيه الغِلمانُ، فولدَتْه علانيةً، فلمَّا كان مِن قابلٍ حمَلَتْ بمُوسى عليه السَّلامُ، فوقَعَ في قلْبِها مِن الهَمِّ والحزنِ. فذلك مِن الفُتونِ يا ابنَ جُبيرٍ، ما دخَلَ عليه في دهو بَطْنِ أُمِّه ممَّا يُرادُ به،

فأوحى اللهُ تعالى إليها: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ [القَصص: ٧].

وأمَرَها أنْ إذا ولَدَتْ أنْ تجعلَه في تابوتٍ، ثمَّ تُلْقِيه في اليمِّ، فلمَّا ولَدَت فعلَت ذلك به، فألْقَته في اليمِّ، فلمَّا توارى عنها ابنُها أتاها الشَّيطانُ، فقالت في نفْسِها: ما فعَلْتُ بابني؟! لو ذُبِحَ لبِثَ عندي فرأيْتُه وكفَّنْتُه كان أحَبَّ إليَّ مِن أنْ أُلْقيَه بيدي إلى دوابِّ البحرِ وحِيتانِه!

وانتهى الماءُ به حتَّى أرفَأَ به عند فُرْضَةِ مُسْتَقى جواري امرأةِ فِرعونَ، فلمَّا رأيْنَه أخذْنَه، فهمَمْنَ أنْ يفتحْنَ التَّابوتَ، فقالت بعضُهنَّ: إنَّ في هذا مالًا، وإنَّا إنْ فتحْناه لم تُصدِّقْنا امرأةُ الملِكِ بما وجَدْنا فيه، فحمَلْنَه بهيئةٍ لم يُحرِّكْنَ منه شيئًا، دفعْنَه إليها، فلمَّا فتحَتْه رأتْ فيه غُلامًا، فأُلْقِيَ عليه منها محبَّةٌ لم تُلْقَ مثلُها على البشَرِ قطُّ، وأصبَحَ فُؤادُ أُمِّ موسى فارغًا مِن ذِكْرِ كلِّ شَيءٍ إلَّا مِن ذِكْرِ مُوسى عليه السَّلامُ، فلمَّا سمِعَ الذَّابِحونَ بأمْرِه أقبلوا بشِفارِهم إلى امرأةِ فرعونَ ليذبَحُوه ـ وذلك مِن الفُتونِ يا ابنَ جُبيرٍ ـ فقالت للذَّبَّاحينَ: أقِرُّوه؛ فإنَّ هذا الواحدَ لا يَزيدُ في بني إسرائيلَ حتَّى آتِيَ فِرعونَ فأسْتَوْهِبَه منه، فإنْ وهَبَه لي كنْتُم قد أحسنْتُم وأجمَلْتُم، وإنْ أمَرَ بذبْحِه لم أَلُمْكم، فأتَتْ به فرعونَ، فقالت: قُرَّةُ عينٍ لي ولك، قال فِرعونُ: يكونُ لك، فأمَّا لي فلا حاجةَ لي في ذلك. قال رسولُ اللهِ ﷺ: **«والَّذي أحلِفُ به، لو أقَرَّ فِرعونُ بأنْ يكونَ له قُرَّةَ عينٍ كما أقَرَّت امرأتُه، لهداهُ اللهُ به كما هدى به امرأتَه، ولكنَّ اللهَ حرَمَه ذلك»**.

فأرسَلَتْ إلى مَن حولَها، مِن كلِّ امرأةٍ لها لبنٌ، تختارُ لها ظِئرًا، فجعلَ كلَّما أخذَته امرأةٌ منهنَّ، فترُضِعُه، لم يَقبَلْ ثَدْيَها، حتَّى أشفَقَت عليه امرأةُ فِرعونَ أنْ

يَمتنِعَ مِن اللَّبنِ فيموتَ، فأحْزَنها ذلك، فأمرَتْ به، فأُخْرِجَ إلى السُّوقِ وتجمَّعَ النَّاسُ، تَرْجو أنْ تجِدَ له ظِئرًا يأخُذُ منها، فلم يَقْبَلْ، وأصبَحَتْ أُمُّ موسى والهةً، فقالت لأُخْتِه: قُصِّيه - يعني: أثَرَهُ - واطْلُبيه، هل تسمعينَ له ذِكْرًا؟ أحيٌّ ابْني أمْ قد أكلَتْه الدَّوابُّ؟ ونسِيَت ما كان اللهُ عَزَّ وجَلَّ وعَدَها فيه، فبَصُرتْ به أختُه عن جُنُبٍ وهم لا يَشعُرونَ، والجُنُبُ: أنْ يبصِرَ الإنسانُ إلى الشَّيءِ البعيدِ وهو إلى جَنْبِه لا يشعُرُ به، فقالت مِن الفرحِ حين أعياهم الظُّؤارُ: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ١٢﴾ [القَصَص: ١٢].

فأخَذُوها فقالوا: ما يُدريك ما نُصْحُهم له؟ هل يعرِفونَه؟ حتَّى شكُّوا في ذلك - فذلك مِن الفُتونِ يا ابنَ جُبيرٍ - فقالت: نصيحَتُهم له وشفقَتُهم عليه رغبةً في صِهرِ المَلِك، ورجاءَ مَنفعتِه، فأرْسَلوها، فانطلَقَتْ إلى أُمِّها فأخبرتْها الخبرَ، فجاءتْ أُمُّه، فلمَّا وضعَتْه في حِجرِها، نزَا إلى ثَدْيِها، فمَصَّه حتَّى امتلأَ جَنباهُ رِيًّا.

وانطلَقَ البشيرُ إلى امرأةِ فرعونَ: أنْ قد وجَدْنا لابْنِك، فأرسَلَتْ إليها، فأُوتِيتْ بها وبه، فلمَّا رأت ما يصنَعُ، قالت لها: امْكُثي عندي؛ تُرْضِعي ابني هذا، فإنِّي لم أحبَّ شيئًا حُبَّه قطُّ، فقالت أُمُّ مُوسى: لا أستطيعُ أنْ أدَعَ بيتي وولدي، فيَضيعَ، فإنْ طابتْ نفْسُك أنْ تُعْطِينَه، فأذهَبَ به إلى مَنْزِلي، فيكونَ معي لا آلوهُ خيرًا فعلْت، وإلَّا فإنِّي غيرُ تاركةٍ بيتي وولدي، وذكَرَت أُمُّ مُوسى عليه السَّلامُ ما كان اللهُ عَزَّ وجَلَّ وعَدَها، فتعاسَرَت على امرأةِ فرعونَ، وأيقنَتْ بأنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يُنْجِزُ موعودَه، فرجَعَتْ إلى بيتِها بابنِها مِن يومِها،

فأنبَتَه اللهُ نباتًا حسنًا، وحفِظَه لِمَا قد قَضى فيه، فلم يزَلْ بنو إسرائيلَ وهم في ناحيةِ القريةِ مُمْتنعينَ يَمْتنعونَ به مِن السُّخرةِ ما كان فيهم.

فلمَّا ترعرَعَ قالت امرأةُ فرعونَ لأُمِّ مُوسى: أريدُ أنْ تُريني ابني، فوعَدَتْها يومًا تُريها فيه إيَّاه، فقالتِ امرأةُ فِرعونَ لخُزَّانِها، وظُؤورتِها، وقَهارِمَتِها: لا يَبْقينَّ أحدٌ منكم إلَّا استقبَلَ ابني اليومَ بهَديَّةٍ وكَرامةٍ؛ لِأَرى ذلك فيه، وأنا باعثةٌ أمينًا يُحْصِي ما يصنَعُ كلُّ إنسانٍ منكم، فلم تَزَلِ الهدايا والكرامةُ والنِّحلةُ، تَستقبِلُه مِن حينِ خرَجَ مِن بيتِ أُمِّه إلى أنْ دخَلَ على امرأةِ فرعونَ، فلمَّا دخَلَ عليها بجَّلَتْه، وأكرمَتْه، وفرِحَت به، وأعجَبَها، ونحَلَت أُمَّه؛ لحُسْنِ أثَرِه، ثمَّ قالت: لآتيَنَّ به فِرعونَ، فليَنْحَلَنَّه، وليُكْرِمَنَّه، فلمَّا دخلَتْ به عليه، جعَلَه في حِجْرِه، فتناوَلَ مُوسى لِحيةَ فرعونَ، فمَدَّها إلى الأرضِ، فقال الغواةُ مِن أعداءِ اللهِ لفرعونَ: ألَا ترى إلى ما وعَدَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ إبراهيمَ نَبيَّه عليه السَّلامُ أنَّه يرِثُك، ويَعْلوك، ويصرَعُك، فأرسَلَ إلى الذَّبَّاحينَ، وذلك مِن الفُتونِ يا ابنَ جُبيرٍ، بعدَ كلِّ بلاءٍ ابتُلِيَ به، أو أُرِيدَ به فُتونًا.

فجاءت امرأةُ فِرعونَ تَسْعى إلى فرعونَ، فقالت: ما بدا لك في هذا الغلامِ الَّذي وهَبْتَه لي؟ قال: ألَا تَرَيْنَه يزعُمُ أنَّه يصرَعُني ويَعْلوني؟ قالت: اجْعَلْ بيني وبينك أمرًا تعرِفُ فيه الحَقَّ؛ ائتِ بجَمْرتينِ ولُؤلؤتَينِ، فقَرِّبْهما إليه، فإنْ بطَش باللُّؤلؤتَينِ واجتنَبَ الجَمْرتينِ، عرَفْتَ أنَّه يعقِلُ، وإنْ تناوَلَ الجَمْرتَينِ ولم يُرِدِ اللُّؤلؤتَينِ، علِمْتَ أنَّ أحدًا لا يُؤثِرُ الجَمرتينِ على اللُّؤلؤتينَ وهو يعقِلُ، فقُرِّبَ ذلك إليه، فتناوَلَ الجَمرتَينِ، فانْتَزَعوهما مِن يَدِه، وخافت أنْ يحرِقَا يدَيْه،

فقالت المرأةُ: ألَا ترى؟! فصرَفَه اللهُ عنه بعدما كان قد هَمَّ به، وكان الله عَزَّ وجَلَّ بالغًا فيه أمْرَه.

فلمَّا بلَغَ أشُدَّه وصار مِن الرِّجالِ، لم يكُنْ أحدٌ مِن آلِ فِرعونَ يخْلُصُ إلى أحدٍ مِن بني إسرائيلَ معه بظُلمٍ ولا سُخرة، حتَّى امْتَنعوا كلَّ الامتناعِ. فبينما مُوسى عليه السَّلامُ يَمْشي في ناحيةِ المدينةِ، إذ هو برجُلينِ يَقْتتلانِ؛ أحدُهما فرعونيٌّ، والآخرُ إسرائيليٌّ، فاستغاثَه الإسرائيليُّ على الفرعونيِّ، فغضِبَ مُوسى عليه السَّلامُ غضبًا شديدًا؛ لأنَّه تناوَلَ وهو يعلَمُ منزلةَ مُوسى عليه السَّلامُ مِن بَني إسرائيلَ، وحِفْظَه لهم، لا يعلَمُ النَّاسُ إلَّا إنَّما ذلك مِن الرَّضاعِ إلَّا أُمُّ مُوسى، إلَّا أنْ يكونَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ أطْلَعَ مُوسى عليه السَّلامُ مِن ذلك على ما لم يُطْلِعْ عليه غيرَه. فوكَزَ مُوسى عليه السَّلامُ الفرعونيَّ، فقتَلَه، وليس يراهما أحدٌ إلَّا اللهُ عَزَّ وجَلَّ، فقال مُوسى عليه السَّلامُ حين قتَلَ الرَّجلَ: هذا مِن عمَلِ الشَّيطانِ؛ إنَّه عدُوٌّ مُضِلٌّ مُبينٌ، ثمَّ قال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ [القصص: ١٦]، إلى قولِه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [القصص: ١٦]. ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ١٨] الأخبارَ.

فأُتِيَ فِرعونُ فقيلَ: إنَّ بني إسرائيلَ قد قتَلَتْ رجُلًا مِن آلِ فرعونَ، فخُذْ لنا بحَقِّنا، ولا تُرخِّصْ لهم، فقال: ابْغُوني قاتِلَه ومَن شهِدَ عليه؛ فإنَّ الملِكَ وإنْ كان صَفْوُه مع قومِه، لا يستقيمُ له أنْ يُقِيدَ بغيرِ بيِّنةٍ، ولا ثَبتٍ، فانْظُروا في عِلْمِ ذلك آخُذْ لكم بحَقِّكم، فبينا هم يَطوفونَ لا يَجِدونَ شيئًا، إذا موسى عليه السَّلامُ قد رأى في الغدِ ذلك الإسرائيليَّ يقتُلُ رجُلًا مِن آلِ فرعونَ آخرَ، فاستغاثَه الإسرائيليُّ على الفرعونيِّ، فصادَفَ مُوسى عليه السَّلامُ قد ندِمَ على ما

كان منه، فكَرِهَ الَّذي رأى، فغضِبَ الإسرائيليُّ وهو يُريدُ أنْ يبطِشَ بالفرعونيِّ، فقال للإسرائيليِّ - لِمَا فعَلَ أمس واليومَ -: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ١٨﴾ [القَصَص: ١٨].

فنظَرَ الإسرائيليُّ إلى مُوسى عليه السَّلامُ بعدما قال له ما قال، فإذا هو غضبانُ كغضَبِه بالأمسِ الَّذي قتَلَ به الفرعونيَّ، فخاف أنْ يكونَ بعدما قال له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ١٨﴾ إيَّاه أراد، ولم يكُنْ أراده، إنَّما أراد الفرعونيَّ، فخاف الإسرائيليُّ، فحاجَزَ الفرعونيَّ، فقال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ﴾ [القَصَص: ١٩] ؟ وإنَّما قال ذلك؛ مخافةَ أنْ يكون إيَّاهُ أراد مُوسى عليه السَّلامُ أنْ يقتُلَه، فتنازَعَا. فانطلَقَ الفرعونيُّ إلى قومِه، فأخبَرَهم بما سمِعَ مِن الإسرائيليِّ مِن الخبرِ حين يقولُ: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ﴾ [القَصَص: ١٩].

فأرسَلَ فرعونُ الذَّبَّاحِينَ ليقتُلوا موسى عليه السَّلامُ، فأخَذَ رُسلُ فرعونَ الطَّريقَ الأعظمَ يَمْشون على هَيئَتِهم يطلُبونَ مُوسى عليه السَّلامُ، وهم لا يخافونَ أنْ يفوتَهم، فجاء رجُلٌ مِن شِيعَةِ مُوسى عليه السَّلامُ مِن أَقْصى المدينةِ، فاختصَرَ طريقًا قريبًا حتَّى سبَقَهم إلى موسى عليه السَّلامُ فأخْبَرَه. فذلك مِن الفُتونِ يا ابنَ جُبيرٍ.

فخرَجَ مُوسى عليه السَّلامُ مُتوجِّهًا نحوَ مدينَ لم يلْقَ بلاءً قبلَ ذلك، وليس له علمٌ بالطَّريقِ إلَّا حُسْنَ الظَّنِّ بربِّه عَزَّ وجَلَّ، فإنَّه قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ٢٢﴾ [القَصَص: ٢٢]. ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ﴾ [القَصَص: ٢٣] إلى ﴿تَذُودَانِ﴾ [القَصَص: ٢٣]، يعني بذلك: حابستَينِ غنَمَهما، فقال لهما: ما خطْبُكما مُعتزلتَينِ لا تَسْقيانِ مع النَّاسِ؟ قالتا: ليس لنا قُوَّةٌ نُزاحِمُ القومَ،

وإنَّما ننتظِرُ فُضولَ حياضِهم، فسقى لهما، فجعَلَ يغرِفُ بالدَّلْوِ ماءً كثيرًا، حتَّى كانتا أوَّلَ الرِّعاءِ فراغًا، فانصرَفَتا بغنَمِهما إلى أبيهما، وانصرَفَ موسى عليه السَّلامُ، فاستظَلَّ بشجرةٍ، وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ٢٤﴾ [القَصَص: ٢٤]، فاستنكَرَ أبوهما سُرعةَ صُدورِهما بغنَمِهما حُفَّلًا بطانًا، فقال: إنَّ لكما اليومَ لشأنًا، فأخبَرَتاه بما صنَعَ موسى عليه السَّلامُ، فأمَرَ إحداهما أنْ تَدْعُوَه له، فأتَتْ موسى عليه السَّلامُ فدَعَتْه، فلمَّا كلَّمَه قال: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥﴾ [القَصَص: ٢٥]، ليس لفِرعونَ ولا لقومِه علينا سُلطانٌ، ولسْنا في مَمْلكتِه.

قال: فقالت إحداهما: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ٢٦﴾ [القَصَص: ٢٦]، فاحتمَلَتْه الغَيرةُ على أنْ قال: وما يُدريكِ ما قُوَّتُه؟ وما أمانتُه؟ قالت: أمَّا قُوَّتُه: فما رأيْتُ في الدَّلْوِ حين سَقى لنا، لم أرَ رجُلًا قطُّ في ذلك المَسْقى أقوى منه، وأمَّا أمانتُه: فإنَّه نظَرَ إليَّ حين أقبلْتُ إليه وشَخَصْتُ له، فلمَّا علِمَ أنِّي امرأةٌ، صوَّبَ رأْسَه لم يرفَعْه، ولم ينظُرْ إليَّ حتَّى بلَّغْتُه رِسالتَك، ثمَّ قال لي: امشِي خلفي، وانْعَتي لي الطَّريقَ، لم يفعَلْ هذا إلَّا وهو أمينٌ، فسُرِّيَ عن أبيها وصدَّقَها، وظَنَّ به الَّذي قالت له. فقال له: هل لك ﴿أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ﴾ [القَصَص: ٢٧]، إلى قوله: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾ [القَصَص: ٢٧]، ففعَلَ.

فكانت على نَبيِّ اللهِ موسى عليه السَّلامُ ثَمانيَ سنينَ واجبةً، وكانت سنتانِ عِدَةً منه، فقَضَى اللهُ عَزَّ وجَلَّ عنه عِدَتَه فأتَمَّها عشْرًا. قال سَعيدٌ: فلَقِيَني رجُلٌ مِن أهلِ النَّصرانيَّةِ مِن عُلمائِهم، فقال: هلْ تَدْري أيَّ الأجلينِ قضى مُوسى

عليه السَّلامُ؟ قلْتُ: لا، وأنا يومئذٍ لا أدري، فلقِيتُ ابنَ عبَّاسٍ، فذكَرْتُ ذلك له، فقال: أمَا علِمْتَ أنَّ ثمانيًا كانت على نبيِّ اللهِ عليه السَّلامُ واجبةً، لم يكُنْ نبيُّ اللهِ لِيَنْقُصَ منها شيئًا، وتعلَمُ أنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ كان قاضيًا عن مُوسى عليه السَّلامُ عِدَتَه الَّتي وعَدَ، فإنَّه قضى عشْرَ سنينَ. فلقِيتُ النَّصرانيَّ، فأخبَرْتُه بذلك، فقال: الَّذي سألْتَه فأخبَرَك أعلَمُ منك بذلك؟ قلْتُ: أجل، وأَولى.

فلمَّا سار مُوسى عليه السَّلامُ بأهلِه كان مِن أمرِ النَّارِ ما قَصَّ اللهُ عليك في القُرآنِ، وأمْرِ العصا ويَدِه، فشكا إلى ربِّه عَزَّ وجَلَّ ما يتخوَّفُ مِن آلِ فرعونَ في القتيلِ، وعُقدةَ لسانِه، فآتاهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ سُؤْلَه، وحَلَّ عُقدةً مِن لسانِه، وأوحى اللهُ عَزَّ وجَلَّ إلى هارونَ عليه السَّلامُ، وأمَرَه أنْ يلقاهُ، واندفَعَ مُوسى عليه السَّلامُ بعصاهُ، حتَّى لقِيَ هارونَ عليه السَّلامُ، وانطلَقَا جميعًا إلى فرعونَ، فأقاما حِينًا على بابِه لا يُؤْذَنُ لهما، فقالا: إنَّا رسولَا ربِّك، قال: فمَن ربُّكما يا موسى؟

فأخبراهُ بالَّذي قَصَّ اللهُ عَزَّ وجَلَّ عليك في القُرآنِ، قال: فما تُريدانِ؟ وذكَّرَه القتيلَ، واعتذَرَ بما قد سمِعْتَ، وقال: أريدُ أنْ تُؤمِنَ باللهِ، وأنْ تُرْسِلَ معي بني إسرائيلَ، فأبى عليه، وقال: ائتِ بآيةٍ إنْ كنْتَ مِن الصَّادقينَ، فألقى عصاه فإذا هي حيَّةٌ عظيمةٌ، فازعةٌ، فاغرةٌ فاها، مُسرعةٌ إلى فرعونَ، فلمَّا رآها فِرعونُ قاصدةً إليه خافها، فاقتحَمَ عن سَريرِه، واستغاثَ بمُوسى عليه السَّلامُ أنْ يكُفَّها عنه، ففعَلَ، ثمَّ أخرَجَ يَدَه مِن جَيْبِه، فرآها بيضاءَ مِن غيرِ سُوءٍ، يعني: مِن غيرِ برَصٍ، فرَدَّها، فعادت إلى لونِها الأوَّلِ.

فاستشارَ الملأَ حولَه فيما رأى، فقالوا له: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ [طه: ٦٣] الآيةَ، والمُثْلى: مُلْكُهم الَّذي هم فيه والعيشُ. فأَبَوا على مُوسى عليه السَّلامُ أنْ يُعْطُوه شيئًا ممَّا طلَبَ، وقالوا له: اجمَعْ لهما السَّحرةَ؛ فإنَّهم بأرضِك كثيرٌ، حتَّى نغلِبَ سِحْرَهما، وأرسَلَ في المدائنِ، فحُشِرَ له كلُّ ساحرٍ مُتعالمٍ، فلمَّا أَتَوا على فرعونَ، قالوا: ما يعمَلُ هذا السَّاحرُ؟ قالوا: يعمَلُ الحيَّاتِ، قالوا: فلا واللهِ ما أحدٌ في الأرضِ يعمَلُ السِّحرَ والحيَّاتِ والحبالَ والعِصِيَّ الَّذي نعمَلُ، فما أجْرُنا إنْ نحن غلَبْنا؟ قال لهم: أنتم أقاربي وخاصَّتي، وأنا صانعٌ إليكم كلَّ شَيءٍ أحببتم، فتَواعَدوا يومَ الزِّينةِ وأنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى.

قال سعيدٌ: فحدَّثني ابنُ عبَّاسٍ: أنَّ يومَ الزِّينةِ اليومُ الَّذي أظهَرَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ فيه مُوسى عليه السَّلامُ على فِرعونَ والسَّحرةِ هو يومُ عاشوراءَ. فلمَّا اجتمعوا في صَعيدٍ، قال النَّاسُ بعضُهم لبعضٍ: انطَلِقوا، فنتخبَّرْ هذا الأمْرَ، ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝٤٠﴾ [الشُّعَرَاء: ٤٠]، يعنون مُوسى وهارونَ عليهما السَّلامُ؛ استهزاءً بهما، فقالوا: يا موسى - لِقُدْرتِهم في أنفُسِهم بسِحْرِهم - إمَّا أنْ تُلْقِيَ، وإمَّا أنْ نكونَ نحن المُلْقينَ، قال: بل أَلْقُوا.

﴿فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝٤٤﴾ [الشُّعَرَاء: ٤٤]، فرأى مُوسى عليه السَّلامُ مِن سِحْرِهم ما أوجَسَ في نفْسِه خِيفةً، فأوحى اللهُ عَزَّ وجَلَّ إليه: أنْ أَلْقِ عصاك، فلمَّا ألقاها، صارت ثُعبانًا عظيمًا فاغرةً فاها، فجُعِلَتِ العِصِيُّ بدَعوةِ مُوسي عليه السَّلامُ تلتبِسُ بالحبالِ، حتَّى صارت جُرُزًا إلى الثُّعبانِ تَدخُل فيه، حتَّى ما أبقَتْ عصًا ولا حبلًا إلَّا ابتلعَتْه. فلمَّا عرَفَ

السَّحرةُ ذلك، قالوا: لو كان هذا سِحرٌ لم يَبلُغْ مِن سِحرِنا كلَّ هذا، ولكنَّه أمْرٌ مِن اللهِ، آمنَّا باللهِ ربِّنا وما جاء به مُوسى عليه السَّلامُ، ونتوبُ إلى اللهِ عَزَّ وجَلَّ ممَّا كنَّا عليه. وكسَرَ اللهُ ظهْرَ فِرعونَ في ذلك الموطنِ وأشياعِه، وأظهَرَ الحقَّ، وبطَلَ ما كانوا يعمَلونَ، فغُلِبوا هنالك وانقلَبوا صاغِرينَ.

وامرأةُ فِرعونَ بارزةٌ مُتبذِّلَةٌ تَدْعو بالنَّصرِ لمُوسى عليه السَّلامُ على فِرعونَ، فمَن رآها مِن آلِ فرعونَ ظَنَّ أنَّها إنَّما تبذَّلَتْ للشفقةِ على فِرعونَ وأشياعِه، وإنَّما كان حُزْنُها وهمُّها لمُوسى عليه السَّلامُ.

فلمَّا طال مُكْثُ مُوسى عليه السَّلامُ لمواعيدِ فِرعونَ الكاذبةِ، كلَّما جاءه بآيةٍ وعَدَه عندها أنْ يُرْسِلَ معه بني إسرائيلَ، فإذا مضَتْ أخلَفَ موعِدَه، وقال: هل يستطيعُ ربُّك أنْ يصنَعَ غيرَ هذا؟ فأرسَلَ اللهُ عليه وعلى قومِه الطُّوفانَ، والجرادَ، والقُمَّلَ، والضَّفادعَ، آياتٍ مُفصَّلاتٍ، كلُّ ذلك يَشْكو إلى موسى عليه السَّلامُ، ويطلُبُ إليه أنْ يكُفَّها عنه، ويُواثِقُه على أنْ يُرسِلَ معه بني إسرائيلَ، فإذا كَفَّ ذلك عنه، أخلَفَ موعِدَه ونكَثَ عهدَه.

فأُمِرَ موسى عليه السَّلامُ بالخُروجِ بقومِه، فخرَجَ بهم ليلًا، فلمَّا أصبَحَ فرعونُ ورأى أنَّهم قد مَضَوا، أرسَلَ في المدائنِ حاشرينَ، فتبِعَهم بجُنودٍ عظيمةٍ كثيرةٍ، وأوحى اللهُ عَزَّ وجَلَّ إلى البحرِ: أنْ إذا ضرَبَك مُوسى بعصاهُ، فانفرِقْ له اثنتَيْ عشْرةَ فِرقةً، حتَّى يجوزَ موسى عليه السَّلامُ ومَن معه، ثمَّ الْتَئِمَ على مَن بقِيَ بعدُ مِن فرعونَ وأشياعِه، فنسِيَ مُوسى عليه السَّلامُ أنْ يضرِبَ البحرَ بالعصا، فانْتَهى إلى البحرِ وله قصيفٌ؛ مَخافةَ أنْ يَضرِبَه موسى عليه السَّلامُ وهو غافِلٌ، فيصيرَ عاصيًا اللهَ عَزَّ وجَلَّ.

فلمَّا تراءى الجَمْعانِ وتقارَبَا، قال أصحابُ موسى: إنَّا لمُدْرَكونَ، افعَلْ ما أمرَكَ به ربُّك عَزَّ وجَلَّ؛ فإنَّك لم تكذِبْ ولم تُكْذَبْ، فقال: وعَدَني ربِّي عَزَّ وجَلَّ إذا أتيْتُ البحرَ، انفرَقَ لي اثنتيْ عشْرةَ فِرقةً حتَّى أُجاوزَه، ثمَّ ذكَرَ بعدَ ذلك العصا، فضرَبَ البحرَ بعصاه حين دنا أوائلُ جُندِ فرعونَ مِن أواخرِ جُندِ مُوسى عليه السَّلامُ، فانفرَقَ البحرُ كما أمَرَه اللهُ عَزَّ وجَلَّ، وكما وُعِدَ مُوسى عليه السَّلامُ، فلمَّا أنْ جاوَزَ موسى عليه السَّلامُ وأصحابُه البحرَ، ودخَلَ فِرعونُ وأصحابُه، الْتَقى عليهم البحرُ كما أُمِرَ.

فلمَّا جاوَزَ مُوسى عليه السَّلامُ البحرَ، قال أصحابُه: إنَّا نخافُ ألَّا يكونَ فِرعونُ قد غرِقَ، فلا نُؤمِنُ بهلاكِه، فدعا ربَّه عَزَّ وجَلَّ، فأخرَجَه له ببدنه حتَّى استيْقَنوا بهلاكِه. ثمَّ مَرُّوا بعدَ ذلك. ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌۚ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، إلى ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٣٩﴾ [الأعراف: ١٣٩]، قد رأيتُم مِن العِبَرِ، وسمِعْتُم ما يَكْفيكم، ومَضَى.

فأنزَلَهم مُوسى عليه السَّلامُ منزِلًا، ثمَّ قال لهم: أطيعوا هارونَ عليه السَّلامُ؛ فإنِّي قد استخلفْتُه عليكم، وإنِّي ذاهبٌ إلى ربِّي عَزَّ وجَلَّ، وأجَّلَهم ثلاثينَ يومًا أنْ يَرجِعَ إليهم فيها، فلمَّا أتى ربَّه وأراد أنْ يُكلِّمَه ثلاثينَ يومًا، وقد صامهنَّ: ليلَهنَّ ونهارَهنَّ، وكرِهَ أنْ يُكلِّمَ ربَّه عَزَّ وجَلَّ وريحُ فَمِه رِيحُ فَمِ الصَّائمِ، فتناوَلَ مُوسى عليه السَّلامُ مِن نباتِ الأرضِ شيئًا فمضَغَه، فقال له ربُّه عَزَّ وجَلَّ حين لقاه: لِمَ أفطرْتَ؟ - وهو أعلَمُ بالَّذي كان - قال: يا ربِّ، إنِّي كرِهْتُ أنْ أُكلِّمَك إلَّا وفَمِي طيِّبُ الرِّيحِ، قال: أوما علِمْتَ يا مُوسى أنْ رِيحَ فَمِ

الصَّائِمِ أطيبُ عندي مِن رِيحِ المِسْكِ؟ ارجِعْ حتَّى تصومَ عشْرًا ثمَّ ائْتِني، ففعَلَ مُوسى عليه السَّلامُ ما أُمِرَ به.

فلمَّا رأى قومُ مُوسى عليه السَّلامُ أنَّه لم يرجِعْ إليهم للأجَلِ ساءَهم ذلك، وكان هارونُ عليه السَّلامُ قد خطَبَهم، فقال لهم: خرجْتُم مِن مِصْرَ ولقومِ فرعونَ عندي عواري وودائعُ، ولكم فيهم مثلُ ذلك، وأنا أرى أنْ تحتَسِبوا ما لكم عندهم، ولا أحلَّ لكم وديعةً اسْتُودِعْتُمُوها، ولا عاريَّةً، ولسنا برادِّين إليهم شيئًا مِن ذلك، ولا مُمْسِكيه لأنفُسِنا، فحفَرَ حفيرًا، وأمَرَ كلَّ قومٍ عليهم شَيءٌ مِن ذلك؛ مِن متاعٍ أو حِليةٍ أنْ يَقْذِفوه في ذلك الحفيرِ، ثمَّ أوقَدَ عليه النَّارَ، فأحرَقَه، فقال: لا يكونَنَّ لنا، ولا لهم.

وكان السَّامريُّ رجلًا مِن قومٍ يَعْبُدون البقرَ جيرانٍ لهم، ولم يكُنْ مِن بني إسرائيلَ، فاحتملَ مع مُوسى عليه السَّلامُ وبني إسرائيلَ حين احْتملوا، فقُضِيَ له أنْ رأى أثرًا، فأخَذَ منه بقبْضَتِه، فمَرَّ بهارونَ، فقال له هارونُ عليه السَّلامُ: يا سامريُّ، ألَا تُلْقي ما في يدَيْك؟ وهو قابضٌ عليه لا يَراه أحدٌ طوالَ ذلك، فقال: هذه قبْضةٌ مِن أثرِ الرَّسولِ الَّذي جاوَزَ بكم البحرَ، ولا أُلْقيها لشَيءٍ إلَّا أنْ تَدْعُوَ اللهَ إذا ألقيْتُها أنْ تكونَ ما أُرِيدُ، فألْقاها، ودعا اللهَ هارونُ عليه السَّلامُ، فقال: أريدُ أنْ يكونَ عِجْلًا، واجتمَعَ ما كان في الحُفرةِ مِن متاعٍ له، أو حِلْيةٍ، أو نحاسٍ، أو حديدٍ، فصار عِجْلًا أجوفَ ليس فيه رُوحٌ، له خُوارٌ. قال ابنُ عبَّاسٍ: لا واللهِ ما كان له صوتٌ قطُّ، إنَّما كانت الرِّيحُ تدخُلُ مِن دُبُرِه وتخرُجُ مِن فَمِه، فكان ذلك الصَّوتُ مِن ذلك.

فتفرَّقَ بنو إسرائيلَ فِرَقًا؛ فقالت فِرقةٌ: يا سامريُّ، ما هذا فأنت أعلَمُ به؟ قال: هذا ربُّكم عَزَّ وجَلَّ، ولكنَّ مُوسى عليه السَّلامُ أضَلَّ الطَّريقَ. وقالت فِرقةٌ: لا نُكذِّب بهذا حتَّى يرجِعَ إلينا مُوسى، فإنْ كان ربَّنا لم نكُنْ ضيَّعْناه وعجَزْنا فيه حِينَ رأيْناه، وإنْ لم يكُنْ ربَّنا، فإنَّا نتَّبِعُ قولَ مُوسى عليه السَّلامُ. وقالت فِرقةٌ: هذا عمَلُ الشَّيطانِ، وليس بربِّنا، ولا نُؤْمِنُ، ولا نُصدِّقُ. وأُشْرِبَ فِرقةٌ في قُلوبِهم التَّصديقَ بما قال السَّامريُّ في العجلِ، وأعْلَنوا التَّكذيبَ، فقال لهم هارونُ عليه السَّلامُ: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾ [طه: ٩٠]، وإنَّ ربَّكم ليس هكذا، قالوا: فما بالُ مُوسى عليه السَّلامُ؛ وعَدَنا ثلاثينَ يومًا ثمَّ أخلَفَنا، فهذه أربعونَ قد مَضَت؟! فقال سُفهاؤُهم: أخطَأَ ربَّه، فهو يطلُبُه ويتبَعُه.

فلمَّا كلَّمَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ مُوسى عليه السَّلامُ وقال له ما قال، أخبَرَه بما لقِيَ قومُه بعده. ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ﴾ [طه: ٨٦]، وقال لهم ما سمِعْتُم في القُرآنِ وأخَذَ برأسِ أخِيه، وألْقى الألواحَ مِن الغضَبِ، ثمَّ عذَرَ أخاه بعُذْرِه، واستغفَرَ له، وانصرَفَ إلى السَّامريِّ، فقال له: ما حمَلَك على ما صنعْتَ؟ قال: قبَضْتُ قبضةً مِن أثرِ الرَّسولِ وفطِنْتُ لها، وعُمِّيَت عليكم، فقَذفْتُها؛ وكذلك سوَّلَت لي نَفْسي. قال: ﴿فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ﴾ [طه: ٩٧] إلى قولِه: ﴿نَسۡفًا ٩٧﴾ [طه: ٩٧]، ولو كان إلهًا لم يُخْلَصْ إلى ذلك منه. فاستيقَنَ بنو إسرائيلَ بالفتنةِ، واغْتَبَطَ الَّذين كان رأيُهم فيه مثلَ رأيِ هارونَ عليه السَّلامُ، فقالوا بجماعتِهم لمُوسى عليه السَّلامُ: سَلْ لنا ربَّك عَزَّ وجَلَّ أنْ يفتَحَ لنا بابَ توبةٍ

نصنعُها؛ فيُكفِّرَ عنَّا ما عمِلْنا، فاختارَ موسى عليه السَّلامُ قومَه سبعينَ رجُلًا لذلك - لا يألُو الخيرَ - خيارَ بني إسرائيلَ، ومَن لم يُشْرِكْ في العجلِ.

فانطلَقَ بهم ليسأَلَ لهم التَّوبةَ، فرجَفَتْ بهم الأرضُ، فاستحيا نبيُّ اللهِ ﷺ من قومِه ووفْدِه حين فُعِلَ بهم ما فُعِلَ، فقال: ﴿رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، وفيهم مَن قد كان اللهُ عَزَّ وجَلَّ اطَّلَعَ على ما أُشْرِبَ قلبُه من حُبِّ العجلِ وإيمانِه به؛ فلذلك رجَفَت بهم الأرضُ. فقال: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] إلى: ﴿فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، فقال: رَبِّ سألْتُك التَّوبةَ لقومي، فقلْتَ: إنَّ رحمتي كتبْتُها لقومٍ غيرِ قومي، فليتَكَ أخَّرْتَني حين تُخْرِجُني حيًّا في أُمَّةِ ذلك الرَّجلِ المرحومةِ، فقال اللهُ له: إنَّ توبتَهم أنْ يقتُلَ كلُّ رجُلٍ منهم مَن لقِيَ مِن والدٍ أو ولدٍ، فيقتُلَه بالسَّيفِ لا يُبالي مَن قتَلَ في ذلك الموطنِ، وتاب أولئك الَّذين كان خفِيَ على موسى وهارونَ عليهما السلام ما اطَّلَعَ اللهُ عليهم من ذُنوبِهم، فاعترَفوا بها، وفعَلوا ما أُمِروا، وغفَرَ اللهُ للقاتِلِ والمقتولِ.

ثمَّ سار بهم مُوسى عليه السَّلامُ مُتوجِّهًا نحوَ الأرضِ المُقدَّسةِ، وأخَذَ الألواحَ بعدما سكَتَ عنه الغضبُ، وأمَرَهم بالَّذي أُمِرَ به أنْ يُبلِّغَهم من الوظائفِ، فثقُلَ ذلك عليهم، وأبَوا أنْ يُقِرُّوا بها، فنتَقَ اللهُ عليهم الجبلَ كأنَّه ظُلَّةٌ، ودنا منهم حتَّى خافوا أنْ يقعَ عليهم، فأخَذُوا الكتابَ بأيمانِهم وهم يَصْغُون ينظُرونَ إلى الجبلِ والأرضِ، والكتابُ بأيديهم وهم يَنظُرونَ إلى الجبلِ؛ مخافةَ أنْ يقعَ عليهم، ثمَّ مَضَوا إلى الأرضِ المُقدَّسةِ، فوَجَدوا مدينةَ قومٍ جبَّارينَ خَلْقُهم مُنْكرٌ، وذكَرَ من ثِمارِهم أمرًا عجبًا من عِظَمِها، فقالوا: يا

موسى، إنَّ فيها قومًا جبَّارينَ لا طاقةَ لنا بهم، ولا ندخُلُها ما داموا فيها، فإنْ يَخْرجوا منها فإنَّا داخِلونَ، قال رجُلانِ من الَّذين يَخافونَ مِن الجبَّارينَ: آمنَّا بمُوسى عليه السَّلامُ، فخرَجَا إليه، فقالا: نحنُ أعلَمُ بقومِنا، إنْ كنتُمْ إنَّما تَخافونَ ما رأيتُمْ من أجسامِهم وعدَدِهم، فإنَّهم لا قُلوبَ لهم، ولا مَنعةَ عندهم، فادْخُلوا عليهم البابَ، فإذا دخلْتُموه فإنَّكم غالِبونَ. ويقولُ أناسٌ: إنَّهما من قومِ مُوسى عليه السَّلامُ. وزعَمَ سعيدُ بنُ جُبيرٍ أنَّهما من الجبَّارينَ آمَنَا بمُوسى، بقولِه: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ [المَائـِدَة: ٢٣] إنَّما عَنى بذلك: مِن الَّذين يَخافونَ بني إسرائيلَ. ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤﴾ [المَائـِدَة: ٢٤]!

فأغْضَبوا مُوسَى عليه السَّلامُ، فدعا عليهم، وسمَّاهم فاسقينَ، ولم يدْعُ عليهم قبلَ ذلك؛ لِمَا رأى منهم من المعصيةِ وإساءتِهم حتَّى كان يومئذٍ، فاستجابَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ له، فسمَّاهم كما سمَّاهم مُوسى عليه السَّلامُ فاسقينَ، فحرَّمَها عليهم أربعينَ سَنةً يَتيهون في الأرضِ؛ يُصْبِحون كلَّ يومٍ، فيَسِيرونَ ليس لهم قرارٌ، ثمَّ ظلَّلَ عليهم الغمامَ في التِّيهِ، وأنزَلَ عليهم المَنَّ والسَّلوى، وجعَلَ لهم ثيابًا لا تَبلى، ولا تتَّسِخُ، وجعَلَ بين ظَهرِهم حَجرًا مُربَّعًا، وأمَرَ مُوسى عليه السَّلامُ فضرَبَه بعصاهُ، فانفجَرَ منه اثنتا عشْرةَ عينًا، في كلِّ ناحيةٍ ثلاثةُ أعينٍ، وأعلَمَ كلَّ سِبْطٍ عينَهم الَّتي يَشْربون منها، فلا يَرْتحِلونَ من مَنزلٍ إلَّا وجدوا ذلك الحجرَ منهم بالمكانِ الَّذي كان منه أمسِ. وصلى الله وسلم وبارك على نبينا وعلى موسى والنبيين.

أيوب عليه السلام

ومن أعظم الراضين بالله رب العالمين، الصادقين في دعواهم، الشاكرين في بلواهم، نبي الله أيوب عليه السلام، الذي قد ضرب الناس به المثل في الصبر والرضا بما قدّره الله تعالى عليه(١). قال الشنقيطي حفظه الله تعالى: «نبي الله أيوب عليه السلام مكث طريح الفراش أكثر من سبع سنين، كان ذا مال وثروة ونعمة وجاه، قال إبليس: اللَّهم سلطني على عبدك أيوب، فسلطه الله على ماله فأحرق جميع ماله، فلما رأى ذلك البلاء في ماله قال: الحمد لله، حمد الله تبارك وتعالى، وقال في كلام معناه: اللَّهم وهبتني المال، وأنعمت علي بالمال حتى شغلني عن ذكرك، فها أنت قد فرّغتني لذكرك وشكرك، فلك الحمد رب العالمين!

رضي عن الله تبارك وتعالى، وشاء الله تبارك وتعالى أن لا يبقى البلاء عند هذا، وإذا بذلك العدو يسأل الله أن يسلطه على أهله وولده، وشاء الله تبارك وتعالى أن يُمكّنه من ذلك، ففقد فلذات كبده وفقد أهله واحدًا تلو الآخر حتى فجع بهم جميعًا إلا زوجةً واحدة، بقيت هذه الزوجة مع ذلك النبي المصاب، ومع ذلك العبد المبتلى تواسيه وتسلّيه، فقال ﷺ: الحمد لله رب العالمين، وشكر الله على البلاء الذي أصابه، فقال إبليس عليه لعنة الله: اللَّهم سلطني على نفسه، فقال: لك كل شيء إلا لسانه وقلبه، فبقي ﷺ لا يمكن أن يفتر له

---

(١) وقد ذكرتُ نزرًا نافعًا من أخباره عليه السلام في كتاب الصبر.

لسان عن ذكر الله تبارك وتعالى، ولا يمكن أن يفتر له جنان عن حسن الظن بالله تبارك وتعالى.

تولّى عنه الناس حتى أصبح أنتن ما يكون رائحة، وتركوه إلى جوار المزابل - كما ورد في الأخبار - ولم يبق معه إلا زوجته التي بقيت معه تهتم به، فلما بلغ به الأذى مبلغه، وأصابه ما أصابه من الضر والبلاء؛ عندها تذكر الله تبارك وتعالى، وأحس بعظيم البلاء الذي يجده، فقال الله تعالى يصور ساعة اليقين من ذلك القلب الموقن: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣ - ٨٤] ولما أراد الله أن يفرج كربه أمره بكلمةٍ واحدة: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ [ص: ٤٢] ما أمره أن يقوم وما أمره أن يذهب إلى أحد، وما أمره أن يسأل أحدًا أن يفرّج كربه، ولكن أمره بأمر واحد: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ [ص: ٤٢] فجعل تفريج كربه من تحت قدمه، فلا إله إلا الله رب العالمين!

في طرفة عين تفجّرت العين، ثم اغتسل منها؛ فما بقي به مرض في جسده، وما بقيت به عاهةٌ في بدنه، فقام ﷺ قويًّا سويًّا من لحظته وساعته، الله أكبر! ما أيقن أحد بالله فخاب في يقينه، ولا رجاهُ أحد فخاب في رجائه.

ثم أعاد الله تبارك وتعالى عليه أهله وذريته، قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «أعاد إليه الأهل والذرية بأعيانهم، فردّ عليه الزوجات وردّ عليه الأبناء والبنات، ثم ردّ عليه أضعاف ما كان فيه من النعمة»[(١)]»[(٢)].

أبو بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ

ومن أئمة الراضين بالله تعالى أبو بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وهو أول من دافع عن رسول الله ﷺ، فلما أراد المشركون أن يضربوا رسول الله ﷺ أو يقتلوه بمكة دافع عنه الصديق طاقته فضربوه حتى كادوا أن يقتلوه، فعن عروة بن الزبير قال سألت عبد الله بن عمرو عن أشدِّ ما صنع المشركون برسول الله ﷺ، قال: «رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلى النبي ﷺ وهو يصلي، فوضع رداءه في عنقه فخنقه خنقًا شديدًا، فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه فقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر: ٢٨] »[(٣)]. وفي حديث أسماء رضي الله عنها: «فأتى الصريخُ[(٤)] إلى أبي بكر، فقال: أدرك صاحبك. قالت: فخرج من عندنا وله غدائر أربع[(٥)]، وهو يقول: ويلكم أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله؟!

(١) تفسير الطبري (١٨ / ٥٠٦) بنحوه.

(٢) دروس للشيخ محمد المختار الشنقيطي (٤٩ / ٨)

(٣) البخاري (٤٥٣٧)

(٤) الصريخ: المُغيث، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ [يس: ٤٣]، ويأتي بمعنى الصارخ المُنذر، وهو المراد هنا.

(٥) الغدائر: هي الجدائل وقرون شعر الرأس.

فلهَوا عنه وأقبلوا على أبي بكر، فرجع إلينا أبو بكر فجعل لا يمسّ شيئًا من غدائره إلا رجع معه، وهو يقول: تباركت يا ذا الجلال والإكرام»(١). فتأمل طمأنينته بالله ورضاه عنه وهو يثني عليه وهو في حاله هذا.

وعن علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «لقد رأيت رسول الله ﷺ وأخذته قريش، فهذا يحادّه، وهذا يتلتله(٢)، وهم يقولون: أنت الذي جعلت الآلهة إلهًا واحدًا، فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر، يضرب هذا، ويُجاهد هذا، ويتلتل هذا، وهو يقول: ويلكم، ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ [غَافِر: ٢٨]، ثم رفع عليٌّ بردةً كانت عليه، ثم بكى حتى اخضلّت لحيته، ثم قال علي: أنشدكم الله، أمؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر؟ فسكت القوم. ثم قال: ألا تجيبوني؟ فوالله لساعة من أبي بكر خير من ملء الأرض من مثل مؤمن آل فرعون، ذاك رجل يكتم إيمانه، وهذا رجل أعلن إيمانه»(٣).

وتأمل هذا الموقف الهائل المليء بالفداء والمحبة والرضا بالله تعالى ورسوله ﷺ ودينه، فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: «لما أسلم أبو بكر قام خطيبًا، فكان أول خطبته دعا إلى الله ورسوله، فثار المشركون على أبي بكر، فضربوه ضربًا شديدًا، ودنا منه عتبة بن ربيعة وجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ويحرّفهما بوجهه، ونزا على بطن أبي بكر حتى ما يُعرف أنفُه من وجه.

---

(١) أبو يعلى (٥٢) وحسنه ابن حجر في فتح الباري (٧/ ١٦٩)

(٢) يتلتله: من التلّ، وهو الجذب المُنكر المتكرر العنيف.

(٣) البداية والنهاية (٣/ ٢٧٢)، وعزاه إلى البزار. وانظر: تاريخ الخلفاء للحافظ جلال الدين السيوطي، (٣٧)

فجاءت بنو تيم فحملت أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله، لا يشكّون في موته، وجعل أبوه وبنو تيم يكلّمونه، فأجابهم آخر النهار فقال: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فنالوا منه بألسنتهم وعذلوه وفارقوه، فلم يزل يسأل عن رسول الله ﷺ حتى حُمل إليه، فأكبَّ عليه رسولُ الله ﷺ يقبّله، ورقّ عليه رسول الله ﷺ رِقّة شديدة، فقال أبو بكر: يا رسول الله هذه أمي، وأنت مبارك، فادع لها، وادعها إلى الإسلام، لعل الله أن يستنقذها بك من النار. فدعا لها رسول الله ﷺ ودعاها إلى الله تعالى فأسلمت»[1]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨﴾ [الفجر: ٢٧ - ٢٨]. قال: نزلت وأبو بكر جالس، فقال: يا رسول الله، ما أحسن هذا، فقال: **«أما إنّه سيقال لك هذا»**[2].

وسُمِّيتَ صِدِّيقًا وكُنْتَ مُهاجِرًا ... سِواكَ يُسَمّى باسْمِه غَيْر مُنْكَرِ
وبِالغارِ إذا سُمِّيتَ بِالغارِ صاحِبًا ... وكُنْتَ رَفِيقًا لِلنَّبِيِّ المُطَهَّرِ
سَبَقْتَ إلى الإسْلامَ واللهُ شاهِدٌ ... وكُنْتَ جَلِيسًا بِالعَرِيشِ المُشَهَّرِ

وحين مات رسول الله ﷺ لم يزلزل عقله هذا الخطب المهول، بل ثبت قلبه في جبل الرضا بالله تعالى، فسلّم أمره لله رب العالمين، فلما أتاه الخبر أقبل على فرس من مسكنه بالسُّنح، حتى نزل، فدخل المسجد، فلم يُكلّم الناس

---

(١) أسد الغابة لابن الأثير (٧٤٣٦)

(٢) الماوردي في تفسيره (٦/٢٧٣)، وابن أبي حاتم بسند حسن، وابن مردويه، والضياء في المختارة.

حتى دخل على عائشة رضي الله عنها، فتيمّم رسول الله ﷺ وهو مُغَشًّى(١) بثوب حِبَرَة، فكشف عن وجهه، ثم أكبّ عليه فقبّله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي، والله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كُتبتْ لك فقد مُتَّها، ثم خرج أبو بكر ـ وعمر يُكلم الناس ـ فقال: أيها الحالف على رسْلِك، وقال: اجلس يا عمر، فأبي عمر أن يجلس، فلما تكلم أبو بكر أقبل الناس إليه وتركوا عمر، فجلس عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه، وقال: أما بعد، فمن كان منكم يعبد محمدًا فإن محمدًا ﷺ قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤٤].

فوالله لكأنّ الناس لم يكونوا يعلمون أن الله أنزل الآية حتى تلاها أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وقال عمر: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعُقِرْتُ حتى ما تُقلّني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها، علمت أن النبي ﷺ قد مات. وقال الراوي: فتلقاها الناس كلهم، فما أسمع بشرًا من الناس إلا يتلوها، ونشج الناس يبكون(٢).

لا يلبث الأحبابُ ان يتفرّقوا   ليلٌ يكرُّ عليهم ونهارُ

---

(١) أي: مُسجًّى ومُغطّى.

(٢) البخاري (١٢٤١، ١٢٤٢، ٣٦٦٧، ٤٤٥٤)، وانظر: البداية والنهاية (٥/ ٢٤١، ٢٤٢)، وحلية الأولياء (١/ ٢٩)

صـــلّى الملائكـــةُ الـــذين تُخُـــيِرُوا   والطيبـــون عليـــك والأبـــرارُ

ولا يمكن احتمال هذا الخطب الثقيل المزعزع الجسيم إلا لمن امتلأت نفسه بالرضا عن الله تعالى، فدار مع أمره وقضائه حيث دارا، فالتنظير والتأطير والقول يسيرٌ على الناس، ولكن حينما تحقّ الحقائق، وتجثم الخطوب، وتتزلزل أفئدة الرجال؛ حينها يظهر الراضي التامّ حقًّا وصدقًا.

ولقد كان عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ من سادة الرضين بالله تعالى، وكان يكثر من حمد الله على البلاء، فلما سُئِل عن ذلك قال: «ما أُصبت ببلاءٍ إلاَّ كان لله عليَّ فيه أربع نعم: أنَّه لم يكن في ديني، وأنَّه لم يكن أكبر منه، وأنِّي لم أُحْرَم الرضا والصبر، وأنِّي أرجو ثواب الله تعالى عليه».

زَمَانُـكَ لـو تـدري زمـانُ زعَـازِعٍ   فكـن ثابتًا في الـدين كـالطّودِ راسِيا
فصـلبًا عـلى البـاغي رحـيمًا بمـؤمنٍ   كثـيرَ النّـدى سـمحًا وللـمالِ حاثِيـا
فمَنْ كان صلبَ الدينِ صحّ فؤادُهُ   ومن كان رُخْوًا فهو للدّون ساعيا
اذكرْ نعيمَ العَدْنِ واذكرْ لَظَى لَظَى   واحـذر فقـدْ يُلقيـكَ مَـن لا يبـاليـا
واسكبْ من العَبْرَاتِ دمعًا سَواجِمًا   فـما أقـربَ الغُفـران إن كنـتَ باكيـا
واسجدْ سجودَ الذُّلِّ واطلبْ نوالَهُ   فـــإنّ إله الحـــقّ يُحيـــي البواليـــا
واعلـم بـأنَّ الـدّين توحيـدُ ربِّنَـا   فوحِّـدْ وكـن دومًـا حنيفًـا وداعيـا
ولا تـنسْ أنْ تـرضى عـن الله دائـمًا   فقـد فـازَ عنـد الله مـن كـان راضيـا
وسابقْ إلى الطاعاتِ تُعطَى رضاءهُ   ومَـنْ يـرضَ عنـه الله حـازَ المَعَالِيـا

عائشة الصديقة رضي الله عنها

هذا وإن من سادة الراضين بالله تعالى الصدّيقة بنت الصدّيق رضي الله عنهما، المبرأةُ من فوق سبع سماوات، التي جعلها الله فرقانًا بين أهل الإيمان والإحسان والسنّة وأهل النفاق والرفض والبدعة. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن تأمل قول الصديقة وقد نزلت براءتها فقال لها أبواها: قومي إلى رسول الله ﷺ، فقالت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله؛ عَلِمَ معرفتها وقوة إيمانها وتوليتها النعمة لربها، وإفراده بالحمد في ذلك المقام، وتجريدها التوحيد، وقوّة جأشها، وإدلالها ببراءة ساحتها، وأنها لم تفعل ما يوجب قيامها في مقام الراغب في الصلح الطالب له، وثقتها بمحبة رسول الله ﷺ لها. قالت ما قالت إدلالًا للحبيب على حبيبه، ولا سيّما في مثل هذا المقام الذي هو أحسن مقامات الإدلال، فوضعته موضعه. ولله ما كان أحبّها إليه[1] حين قالت: «لا أحمدُ إلا الله، فإنه هو الذي أنزل براءتي». ولله ذلك الثبات والرزانة منها، وهو أحبّ شيء إليها، ولا صبر لها عنه، وقد تنكّر قلب حبيبها لها شهرًا، ثم صادفت الرضا وقربه، مع شدة محبتها له، وهذا غاية الثبات والقوة»[2].

الصحابة والصحابيات رضوان الله عليهم

إن الرضا بالله تعالى قد اختلط بأرواح الصحابة رجالًا ونساءً، وكل مصاب بين أعينهم يصغر إزاء مصيبة الدين بفقد الرسول ﷺ، فعن سعد بن

(١) أي: إلى رسول الله ﷺ.
(٢) زاد المعاد (٣/ ٢٣١)

أبي وقاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «مرَّ رسول الله ﷺ بامرأة من بني دينار، وقد أُصيب زوجها وأخوها وأبوها[١] مع رسول الله ﷺ بأحد، فلما نُعُوا لها، قالت: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيرًا يا أم فلان، هو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرونيه حتى أنظر إليه؟، قال: فأشير لها إليه، حتى إذا رأته، قالت: كل مصيبة بعدك جلل! تريد صغيرة»[٢].

ومن جميل الأخبار لأهل الرضا واليقين خبر جابر وأبيه وزوجه رضي الله عنهم، فقد روى الإمام أحمد بسنده في مسنده[٣] عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: خرج رسول الله ﷺ من المدينة إلى المشركين ليقاتلهم، وقال لي أبي عبد الله: يا جابر، لا عليك أن تكون في نَظَّارِي[٤] أهلِ المدينة، حتى تعلم إلى ما يصير أمرنا، فإني والله لولا أني أترك بنات لي بعدي، لأحببت أن تقتل بين يديّ[٥].

---

(١) أي: قتلوا جميعًا.

(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٩٩) والدلائل للبيهقي (٣/ ٣٠٢)

(٣) المسند (١٥٢٨١) وقال محققوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين غير نبيح العنزي، فقد روى له أصحاب السنن، وهو ثقة.

(٤) قال السندي: قوله: «نَظَّاري أهل المدينة» بفتح نون وتشديد ظاء، أي: في جملة النظّارين لعاقبة الأمر من أهل المدينة.

(٥) أي: ليس المقصود الضَّنُّ بك، وإنما المقصود الشفقة على البنات، بأن تكون لهن بعدِي بعدَ الله تعالى.

قال: فبينما أنا في النظّارين إذ جاءت عمّتي بأبي وخالي، عادِلَتَهُما على ناضح[١]، فدخلَتْ بهما المدينة لتدفنهما في مقابرنا، إذ لحق رجل ينادي: «ألا إنّ النبي ﷺ يأمركم أن ترجعوا بالقتلى، فتدفنوها في مصارعها حيث قُتلت»، فرجعنا بهما فدفنّاهما حيث قُتلا، فبينما أنا في خلافة معاوية بن أبي سفيان؛ إذ جاءني رجل فقال: يا جابر بن عبد الله، والله لقد أثار أباكَ عُمّالُ معاوية[٢]، فبدا فخرج طائفةٌ منه، فأتيتُه فوجدته على النحو الذي دفنته، لم يتغيّر إلا ما لم يدع القتل[٣]، فواريتُه[٤].

---

(١) أي: جعلت كل واحد منهما في جهة من البعير. وفيه عظيم صبر نساء الصحابة، ووفور عقولهن، ورضاهن بالقضاء، وقوة شكيمتهن عند مرارات البلاء.

(٢) أي: خرجت جثة والدك جرّاء عملهم حين أجرى معاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ العين لأهل المدينة.

(٣) أي: إلا ما غيّره القتل.

(٤) أي: دفنته في قبره. وروى البيهقي عن جابر أيضًا، أنه قال: «لمّا أجرى معاوية العين عند قتلى أُحُد بعد أربعين سنة، استصرخناهم إليهم، فأتيناهم فأخرجناهم، فأصابت المسحاة قدم حمزة بن عبد المطلب فانبعث دمًا»، وفي رواية ابن إسحاق: «فأخرجناهم كأنّما دفنوا بالأمس». وفي رواية الواقدي عن جابر أيضًا: «فحفرنا عنهم فوجدتُ أبي في قبره كأنما هو نائم على هيئته، ووجدنا جاره في قبره عمرو بن الجموح ويده على جرحه، فأُزيلت عنه فانبعث جرحُه دمًا»!

وجاء في الاستيعاب لابن عبد البر: أن بعض أهل طلحة بن عبيد الله رآه في المنام يقول: «ألا تريحونني من هذا الماء، فإني قد غرقت». ثلاث مرات يقولها، فنبشوه من قبره أخضر كأنه السلق، فنزفوا عنه الماء، ثم استخرجوه، فإذا ما يلي الأرض من لحيته ووجهه قد أكلته الأرض، فاشتروا دارًا من دور أبي بكرة فدفنوه فيها. وقال ابن إسحاق في =

=

المغازي: حدثني أبي عن أشياخ من الأنصار: «لما ضرب معاوية عينه التي مرّت على قبور الشهداء، انفجرت العين عليهم، فجئنا فأخرجناهما يعني - عمْرًا وعبد الله - وعليهما بُردتان قد غطّي بهما وجوههما، وعلى أقدامهما شيء من نبات الأرض، فأخرجناهما يتثنّيان تثنّيًا كأنهما دفنا بالأمس». وروى ابن الجوزي في صفوة الصفوة عن جابر قال: «لما أراد معاوية أن يُجري عينه التي بأحد، كتبوا إليه: أنا لا نستطيع أن نجريها إلا على قبور الشهداء، فكتب: انبشوهم، قال: فرأيتهم يُحملون كأنهم قوم نيام، وأصابت المسحاة رجل حمزة فانبعثت دمًا».

وروى ابن سعد في الطبقات (٣ / ٥٦٢) عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان عبد الله بن عمرو بن حرام أول قتيل قتل من المسلمين يوم أحد، فصلى عليه رسول الله ﷺ قبل الهزيمة، وقال رسول الله ﷺ: **«ادفنوا عبد الله بن عمرو وعمرو بن الجموح في قبر واحد؛ لما كان بينهما من الصفاء»**، وقال: **«ادفنوا هذين المتحابّين في الدنيا في قبر واحد»**، قال: وكان عبد الله بن عمرو رجلًا أحمر، أصلع، ليس بالطويل، وكان عمرو بن الجموح رجلًا طويلًا مفرقًا، فدُفنا في قبر واحد، وكان قبرهما مما يلي السيل، فدخله السيل فحفر عنهما وعليهما نمرتان، وعبد الله قد أصابه جرح في وجهه، فيده على جرحه، فأميطت يده عن جرحه فانبعث الدم، فرُدّت يدُه إلى مكانها فسكن الدم»، قال جابر: «فرأيت أبي في حفرته كأنه نائم، وما تغير من حاله قليل ولا كثير»، فقيل له: فرأيت أكفانه؟ قال: «إنما كُفّن في نمرة، خمّر بها وجهه، وجعل على رجليه الحرمل، فوجدنا النمرة كما هي والحرمل على رجليه على هيئته، وبين ذلك ست وأربعون سنة»، فشاورهم جابر في أن يطيّب بمسك، فأبى ذلك أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: «لا تُحدِثوا فيهم شيئًا»، وحوّل من ذلك المكان إلى مكان آخر، وذلك أن القناة كانت تمرّ عليهما، وأخرجوا رُطُبًا يتثنّون.

=

=

ومن ذلك ما ذكره الشيخ حمود التويجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قصص العقوبات والعبر والمواعظ، قال: «ومن القصص ما أخبرنا به الشيخ عبد الرحمن بن فارس بن عبد العزيز الفارس، وهو من سكان مدينة الرياض، قال: جاء سيل عظيم في وادي حنيفة، في سنة تسع وخمسين وثلاثمئة وألف من الهجرة، فجرَف الناحية التي تلي قبور الصحابة الذين قُتلوا يوم اليمامة في سنة إحدى عشرة من الهجرة، فحصلت فرجةٌ في أحد القبور مما يلي الوادي، وبدا جسد الميت الذي كان في ذلك القبر.

قال الشيخ عبدالرحمن: فبلغني ذلك وأنا في ناحية الجبيلة، فجئت مسرعًا فإذا موضع القبر مرتفع في جانب الوادي لا يوصل إليه إلا بسلّم. قال: فجئت بأخشاب وأسندتها إلى موضع القبر وصعدت عليها، فرأيت الميت في قبره لم يتغيّر منه شيء، وكأنه نائم، وقد كُفِّن في شَمْلَةٍ بيضاء - والشّمْلة: كساء من صوف أو شعر - ورُبطت الشملة عليه بخوص النخل، وقد بدا وجهه وعيناه وأسنانه ورجلاه، وخرجت عقيصةٌ من عقائص رأسه طولها نحو ذراع، فتدلّت خارج القبر. قال: فرفعتها وأدخلتها في الكفن، ووضعت يدي على صفحة وجهه وكأنّما وضعتها على رجل نائم! قال: ووجهه أبيض يميل إلى السمرة، وما بدا من شعر لحيته فهو أشمط، وعيناه مفتوحتان قليلًا، وقد بقي الخوص الذي رُبِطتْ به الشّملة على لونه أخضر إلّا أنه يابس.

قال: ولما علم به أهل الجبيلة ومن حولهم جعلوا يأتون إليه وينظرون إليه. فذهب إمام أهل الجبيلة ورئيس هيئة الأمر بالمعروف عندهم إلى الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ فأخبراه بذلك، فأمرهما أن يأخذا معهما رجالًا ونعشًا يحملون الميت عليه، وأمرهم أن يحفروا له في الليل قبرًا في وسط القبور ويدفنوه ويعموا موضع قبره، لئلّا يفتتن به الناس، ففعلوا.

قال الشيخ حمود: لا شك أن هذا الميت من الشهداء الذين قتلوا في المعركة التي كانت بين الصحابة وبين أصحاب مسيلمة الكذاب. فيحتمل أنه من الصحابة رضي الله عنهم،

=

=
لأنه قد اشتهر عند الناس أن القبور التي في ذلك الموضع قبور الصحابة. ويحتمل أنه من الذين كانوا يقاتلون مع الصحابة وليس منهم. والاحتمال الأول أقرب، والله أعلم. وقد كان بين معركة اليمامة وبين ظهور هذا الميت ألف وثلاثمئة وثمان وأربعون سنة. ومع هذه المدة الطويلة فقد بقي الشهيد على حاله لم يتغيّر منه شيء، ولم يتغير كفنه، ولا الخوص الذي رُبط به الكفن. وفي هذا عبرة لأولي الألباب والعقول السليمة».

وعن عبادة بن الصامت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال ﷺ: **«لِلشَّهِيدِ عِنْدَ الله سَبْعُ خِصالٍ: يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ مِن دَمِهِ، ويَرى مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ، ويُحَلَّى حُلَّةَ الإيمانِ، ويُزَوَّجُ اثْنَيْنِ وسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الحُورِ العِينِ، ويُجارُ مِن عَذابِ القَبْرِ، ويَأْمَنُ مِنَ الفَزَعِ الأَكْبَرِ، ويُوضَعُ عَلى رَأْسِهِ تاجُ الوَقارِ الياقُوتَةُ مِنهُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيا وما فِيها، ويَشْفَعُ فِي سَبْعِينَ إِنْسانًا مِن أَهْلِ بَيْتِهِ»**. رواه ابن ماجه (٢٧٩٩) وغيره، وصححه الألباني. وعن رجل من أصحاب النبي ﷺ: أنَّ رجلًا قال: يا رسول الله، ما بال المؤمنين يُفتنون في قبورهم إلّا الشهيد؟ قال: **«كَفَى بِبارِقَةِ السُّيوفِ على رأسِهِ فِتْنَةً»**. رواه النسائي (١/ ٢٨٩) وصححه الألباني في أحكام الجنائز، (ص:٥٠) ومعنى «يُفتنون»: أي: بسؤال الملكين وهي فتنة القبر، والله المستعان. وعن مسروق رَحِمَهُٱللَّهُ قال: سَألْنا عبدَ الله بنَ مسعود عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩﴾ [آل عِمرَان: ١٦٩] فقال: أمَا إنَّا قد سألْنا عن ذلك رسولَ الله ﷺ؟ فقال: **«أرواحُهم في جوف طَير خُضر، لها قناديلُ مُعَلَّقَة بالعرش، تَسْرَح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطَّلع إليهم ربُّهم اطِّلاعَة، فقال: هل تَشْتَهُون شيئًا؟ قالوا: أيَّ شيء نَشْتَهي ونحن نَسْرح من الجنة حيث شِئْنا؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأَوْا أنهم لم يُتْرَكوا من أن يُسألُوا، قالوا: يا رب، نُريدُ أن تَرُدَّ علينا أرواحَنا في أجسادنا حتى نُقْتَلَ في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تُرِكوا»**. رواه مسلم (١٨٨٧).
=

=

وبحمد الله تعالى فمن فضله العظيم أن الشهادة ترجى لمن سألها مخلصًا من قلبه، ولو لم يتيسر له الاستشهاد في المعركة، بدليل قوله ﷺ: **«من سأَلَ الله الشَّهادةَ بصدقٍ، بلَّغهُ الله مَنَازل الشهداءِ، وإن مات على فراشه»**. رواه مسلم (٢/ ٤٩).

أيـا مُبْتَغِـي الفـردوس عَجِّـلْ بِصَـارمٍ ... وكُـنْ صـادقَ الإقبـالِ عنـدَ التَّلاقِيـا

فـإن تحـيَ عِشْـتَ العـزّ في كـل لحظـةٍ ... وإن كانـت الأُخـرى سَـتَلْقَى المَرَاقِيَـا

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إغاثة اللهفان (٢ / ١٩٤): «ومن المعلوم أن الخلق كلهم يموتون، وغاية هذا المؤمن أن يستشهد في الله، وتلك أشرف الموتات وأسهلها، فإنه لا يجد الشهيد من الألم إلا مثل أَلَمِ القرصة، فليس في قتل الشهيد مصيبة زائدة على ما هو معتاد لبني آدم، فمن عدّ مصيبة هذا القتل أعظم من مصيبة الموت على الفراش فهو جاهل، بل موت الشهيد من أيسر الميتات وأفضلها وأعلاها، ولكن الفارّ يظنّ أنه بفراره يطول عمره فيتمتّع بالعيش، وقد أكذب الله سبحانه هذا الظن حيث يقول: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ١٦﴾ [الأحزاب: ١٦]. فأخبر الله أن الفرار من الموت بالشهادة لا ينفع، فلا فائدة فيه، وأنه لو نفع لم ينفع إلا قليلًا، إذ لا بد له من الموت، فيفوته بهذا القليل ما هو خير منه وأنفع من حياة الشهيد عند ربه». ومما قلته قديمًا في ثامر السويلم رحمه الله تعالى وتقبّله، المشهور بالقائد خطاب:

وقـد مـاتَ سـيفُ الله بـالأمسِ خالـدٌ ... وقـد خـاض زحْفًـا بل حروبًـا ضَـوَاريا

وقـد قـالَ قـولًا يقـدحُ النـورَ في النُّهـى ... فـلا نـامَ مـن أمسـى جبانًـا وسَـالِيا

فيـا ليـتَ شـعري أيـنَ ميتـة مَـن ثَـوَى ... قتـيلًا شـهيدًا مِـن قتـال البَوَاغِيـا

ومن مـات مثل الكلـبِ مِنْ شبع بطنهِ ... وقـد مـات خـوّارًا جَبَانًـا وَلَاهِيـا

فمـن ذا يبيـعُ المُسْـتَهامَ جَنَانَـه ... فقـد نـادتِ الفـردوسُ مَـن كـانَ سَـامِيا

=

=

فإنْ ماتَ خَطَّابٌ فمَا مات ربُّنا ... فمَنْ أوجَدَ الخَطَّاب إذ كان فَانِيا؟!
لئن فقدَ الإسلامُ للحربِ قائدًا ... فلن تُعْقَمَ النِّسوان إنجابَ ثَانِيا
لئن ماتَ خطّابٌ فقد ماتَ قبلَه ... أُسُودٌ لدى الصَّولات طِبُّ الدَّوَاهِيا
لئن رَحَلَ الخَطّابُ عن دارِ غُرْبَةٍ ... فرُبَّ شهيدٍ في الجنانِ العَوَالِيا
ألَا لا نُزكِّي فتَانَا وإنّما ... تجيشُ شجونٌ في الصُّدورِ القَوَالِيا
عَسى جَدَثٌ يَحوي عِظَامًا لِجبِّنا ... رياضَ جنانٍ مُتْرَعَاتٍ سَوَاقِيا
لقد كانَ خطابٌ كَأَلْفٍ تَكَاتَفُوا ... وَرِئْبَالُ غيلٍ مِنْ أَشَدِّ الضَّوَارِيا
فإن كان خطابٌ شَرَى الموتَ بِالبَقَا ... فَسَاوِمْ بِذاكَ البيعِ إنْ كنتَ شَارِيا
لقدْ أَبْرَدَ الأكبادَ حَقًّا بفِعْلِهِ ... فقد كانَ خطابٌ ثِمَالَ الصَّوادِيا
جَزَى الله شيخًا حَبَّبَ الشِّبْلَ للعُلى ... جِنانَ نعيمٍ لم تُعَبْ بِزَوَاليا
لك الحمدُ يا ربًّا عظيمًا نَوَالُهُ ... بِبَعْثِكَ جُنْدًا في زمانِ التَّهاوِيا
وكم مِنْ وَلِيٍّ للإلهِ قد ارتَوَى ... ثَرَى الأرضِ مِن كَلْمٍ لهُ ويُقَاسِيا
يقومُ فيدعو والأنامُ بغفلةٍ ... ويصبحُ صنديدًا هَصُورًا مُصَالِيا
جَهِلْنَا له اسمًا! ما عرَفْنَا مكانه! ... وقد عَلِمَ المَنّانُ وهو المُكَافِيا
وماتَ وما نعلمْ لهُ مِن علامةٍ ... سوى وَجْهِ بدرٍ مستنيرٍ ودَامِيا
وتُفْتَحُ أبوابُ السماءِ رِضًا به ... ويبكي ترابُ الأرضِ من فَقْدِ دَاعِيا
يطيرُ ويَعلُو في الجَنانِ مُخَلَّدًا ... ويَهْنَا بِحُورٍ مِن حِسانِ الجَوارِيا
لئنْ نَثَرَ الكفّارُ كلَّ سِهامِهم ... فمَا ينصرُ الإسلامَ غيرُ إلهِيا
وماتَ وما نعلمْ لهُ مِن علامةٍ ... سوى وَجْهِ بدرٍ مستنيرٍ ودَامِيا

قال: وترك عليه دينًا من التمر، فاشتدّ عليّ بعض غرمائه في التقاضي، فأتيت نبي الله ﷺ فقلت: يا نبي الله، إن أبي أصيب يوم كذا وكذا، وترك عليه دينًا من التمر، وقد اشتدّ عليّ بعض غرمائه في التقاضي، فأحبُّ أن تعينني عليه لعلّه أن يُنظرني طائفةً من تمره إلى هذا الصِّرام المقبل[١]، فقال: **«نعم، آتيك إن شاء الله قريبًا من وسط النهار»**، وجاء معه حوارِيُّوه[٢]، ثم استأذن، فدخل وقد قلت لامرأتي: إن النبي ﷺ جاءني اليوم وسط النهار، فلا أرينّك، ولا تؤذي رسول الله ﷺ في بيتي بشيء، ولا تكلّميه، فدخل ففرشت له فراشًا ووسادة، فوضع رأسه فنام، قال: وقلت لمولى لي: اذبح هذه العَنَاق[٣]، وهي داجن سمينة، والوَحَا[٤] والعَجَل، افرغ منها قبل أن يستيقظ رسول الله ﷺ، وأنا معك، فلم نزل فيها حتى فرغنا منها، وهو نائم، فقلت له: إن رسول الله ﷺ إذا استيقظ يدعو بالطَّهور[٥]، وإني أخاف إذا فرغ أن يقوم، فلا يفرغنّ من وضوئه حتى تضع العَناق بين يديه، فلما قام قال: **«يا جابر، ائتني بطَهور»**، فلم يفرغ من طهوره حتى وضعت العَناق عنده، فنظر إلي فقال: **«كأنك قد علمت حبّنا للّحم، ادع لي أبا بكر»**، قال: ثم دعا حوارييه

---

(١) أي: يؤخر مطالبتها إلى جذاذ التمر في السنة الآتية.

(٢) أي: خاصةُ أصحابِه وأحِبَّائه.

(٣) وهي أنثى المعزى الصغيرة، وتسمى: الجفرة.

(٤) الوحا: من ألفاظ الحثّ والأمر بالعجلة والإسراع. يُمدّ ويقصر، وهو دومًا منصوب على الإغراء.

(٥) عرفوا عاداته وصفاته وسنّته لـمّا اشتدّ حبهم له واتّباعهم، رضي الله عنهم وأرضاهم.

الذين معه فدخلوا، فضرب رسول الله ﷺ بيديه وقال: **«بسم الله، كلوا»**، فأكلوا حتى شبعوا، وفَضلَ لحم منها كثير قال: والله إن مجلس بني سَلِمَة[١]، لَيَنظرون إليه، وهو أحبّ إليهم من أعينهم[٢]، ما يقربه رجل منهم مخافة أن يؤذوه، فلما فرغوا قام، وقام أصحابه فخرجوا بين يديه، وكان يقول: **«خلّوا ظهري للملائكة»**[٣]، واتبعتهم حتى بلغوا أُسْكُفَّةَ الباب[٤]، قال: وأخرجت امرأتي صدرها[٥]، وكانت مستترة بسَفِيفٍ[٦] في البيت، قالت: يا رسول الله صلِّ عليَّ وعلى زوجي[٧] صلّى الله عليك. فقال: **«صلّى الله عليك وعلى زوجك»**.

ثم قال: **«ادع لي فلانًا»** لغريمي الذي اشتدّ علي في الطلب، قال: فجاء فقال: **«أَيْسِرْ جابر بن عبد الله[٨] طائفةً من دَينك الذي على أبيه إلى هذا الصِّرَام**

---

(١) أي: قبيلته الأدنون منه في مجلسهم وناديهم.

(٢) أي: من قلّة اللحم حينها.

(٣) أي: تتبعه ملائكة الرحمن بأمر الله تعالى فتحفّه وتشيّعه وتحرسه.

(٤) أي: عتبة الباب التي يُوطأُ عليها والجمع: أُسْكُفّاتٌ.

(٥) أي: تقدمت قليلًا للنبي ﷺ لتُسمِعه كلامها.

(٦) السَّفِيف: ما يُنسج من الخوص.

(٧) الصلاة من الله تعالى الثناء، ومن عباده الدعاء، وفيه جواز الصلاة على الشخص بقول: صلى الله عليك، ولكن بلا مداومة، إنما المداومة والالتزام تكون لرسول الله ﷺ.

(٨) أي: أنظره إلى وقت الصرام المقبل.

المقبل»، قال: ما أنا بفاعل، واعتلَّ[١] وقال: إنما هو مال يتامى، فقال: **«أين جابر»؟** فقال: أنا ذا يا رسول الله، قال: **«كِلْ له، فإنّ الله سوف يُوفِّيه»**، فنظرتُ إلى السماء، فإذا الشمس قد دَلَكَت[٢]، قال: **«الصلاة يا أبا بكر»**، فاندفعوا إلى المسجد، فقلت: قرّب أوعيتَك، فكِلتُ له من العَجوة فوفّاه الله، وفَضل لنا من التمر كذا وكذا، فجئتُ أسعى إلى رسول الله ﷺ في مسجده، كأني شرارة[٣]. فوجدتُ رسول الله ﷺ قد صلّى[٤]، فقلت: يا رسول الله ألم تر أني كلت لغريمي تمره، فوفّاه الله، وفضل لنا من التمر كذا وكذا، فقال: **«أين عمر بن الخطاب؟»** فجاء يهرول، فقال: **«سل جابر بن عبد الله عن غريمه، وتمرَه»** فقال: ما أنا بسائله قد علمتُ أن الله سوف يوفّيه، إذ أخبرتَ

---

(١) أي: تعلّل بحجة أن المال مال أيتام.

(٢) أي: زالت، وقت صلاة الظهر، وفي التنزيل: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨].

(٣) أي: من الإسراع والفرح بقضاء دينه، وبإجراء دليل النبوّة على يديه، فقد كان ميزانه يرجح بخرق العادة له ببركة دعاء الرسول ﷺ.

(٤) لأن منازل بني سلِمة بعيدة عن مسجده ﷺ، فهم يصلّون في مسجدهم، ولما أرادوا القرب منه بالمنازل أمرهم بالبقاء في منازلهم حمايةً لثغر المدينة. فعند مسلم (٦٦٤) من حديث جابر قال: أراد بنو سلِمة أن ينتقلوا قرب المسجد، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال لهم: **«إنه قد بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد»**؟ فقالوا: نعم، يا رسول الله، قد أردنا ذلك. فقال: **«بني سلِمة، ديارَكُم، تُكتب آثارُكم، ديارَكم تكتب آثاركم»**. أي: الزموا دياركم لتكتب خطواتكم إلى المسجد.

أنّ الله سوف يوفّيه[١]، فكرر عليه هذه الكلمة ثلاث مرات، كل ذلك يقول: ما أنا بسائله، وكان لا يُراجع بعد المرة الثالثة[٢]، فقال[٣]: يا جابر؛ ما فعل غريمُك وتمرُك؟ قال: قلت: وفّاه الله، وفضل لنا من التمر كذا وكذا. فرجع إلى امرأته، فقال: ألم أكن نهيتك أن تكلّمي رسول الله ﷺ؟ قالت: أكنتَ تظنُّ أنّ الله يوردُ رسولَ الله ﷺ بيتي، ثم يخرج، ولا أسأله الصلاة عليّ وعلى زوجي قبل أن يخرج[٤].

وعن نافع قال: اشتكى ابن لعبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فاشتدّ وجْدُهُ عليه[٥]، حتى قال بعض القوم: لقد خشينا على هذا الشيخ أن يَحدث بهذا الغلام حَدَث، فمات الغلام. فخرج ابن عمر في جنازته، وما رجل أشدّ سرورًا منه، فقيل له في ذلك، فقال ابن عمر: إنما كان رحمةً له، فلما وقع أمر الله رضينا به[٦].

---

(١) ليقينه بالصادقِ في حاله ومنطوقه، المصدوقِ من ربِّه وخليلِه صلى الله عليه وآله وسلم وبارك.

(٢) أي: رسول الله ﷺ.

(٣) أي: عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) وهذا من محبّتها له ﷺ، وتبرّكها باتّباعه ودعائه لهما رضي الله عنهما، واغتنامها فرصة خلوّه ﷺ لهما عن سائر الناس، ونصحها لزوجها بسؤاله ﷺ الدعاء له ولها.

(٥) أي: عظم خوفه وشفقته من شدّة محبته له.

(٦) موسوعة ابن أبي الدنيا (١/ ٤٥٧)

من أخبار رضا التابعين ومن بعدهم بالله تعالى

وخبر عروة بن الزبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ عجيب في شأن الرضا بالله تعالى، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قد ذكر غير واحد أن عروة بن الزبير لما خرج من المدينة متوجّهًا إلى دمشق ليجتمع بالوليد، وقعت الآكلة[١] في رجله في واد قرب المدينة، وكان مبدؤها هناك، فظنّ أنها لا يكون منها ما كان، فذهب في وجهه ذلك، فما وصل إلى دمشق إلّا وهي قد أكلت نصف ساقه! فدخل على الوليد، فجمع له الأطباء العارفين بذلك، فأجمعوا على أنه إن لم يقطعها أكلت رجله كلها إلى وركه، وربما ترقَّت إلى الجسد فأكلته. فطابَتْ نفسُه بنشرِها.

وقالوا له: ألا نَسقيك مُرَقِّدًا حتى يذهب عقلك منه؛ فلا تُحس بألم النشر؟ فقال: لا والله ما كنت أظنّ أن أحدًا يشرب شرابًا أو يأكل شيئًا يُذهِب عقله! ولكن إن كنتم لا بد فاعلين فافعلوا ذلك وأنا في الصلاة، فإني لا أحسّ بذلك، ولا أشعر به[٢].

قال: فنشروا رجله من فوق الآكلة، من المكان الحيّ؛ احتياطًا أنه لا يبقى منها شيء، وهو قائم يصلي، فما تضوّرَ ولا اختلَج، فلما انصرف من الصلاة

---

(١) وهي ما تسمى اليوم بالغرغرينا، وهي موت أنسجة الجسم، إما لنقص تدفق الدم إليها، وإما لإصابتها بعدوى بكتيرية خطيرة. وتصيب الغرغرينا عادةً الأطراف بما فيها أصابع القدمين وأصابع اليدين، ولكنها قد تصيب أيضًا العضلات والأعضاء الداخلية مثل المرارة.

(٢) لاستغراقه في مناجاة ربه تبارك وتعالى. «وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمرٌ صلّى». رواه أبو داود، (١٣٢١) وصححه الألباني.

عزّاه الوليد في رِجله. فقال: اللّٰهم لك الحمد، كان لي أطراف أربعة فأخذت واحدًا، فلئن كنتَ قد أخذتَ فقد أبقيت، وإن كنت قد أبليت فلطالما عافيت، فلك الحمد على ما أخذت، وعلى ما عافيت.

قال: وكان قد صحب معه بعض أولاده من جملتهم ابنه محمد، وكان أحبّهم إليه، فدخل دار الدوابّ فرفسته فرس فمات، فأتوه فعزَّوه فيه، فقال: الحمد لله، كانوا سبعة فأخذتَ منهم واحدًا وأبقيت ستةً، فلئن كنت قد ابتليت فلطالما عافيت، ولئن كنت قد أخذت فلطالما أعطيت.

فلما قضى حاجته من دمشق رجع إلى المدينة. قال: فما سمعناه ذكر رجله ولا ولده، ولا شكا ذلك إلى أحد، حتى دخل وادي القرى، فلما كان في المكان الذي أصابته الآكلة فيه قال: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾ [الكهف: ٦٢]، فلما دخل المدينة أتاه الناس يسلمون عليه، و يُعزُّونه في رجله وولده، فبلغه أن بعض الناس قال: إنما أصابه هذا بذنب عظيم أحدثه. فأنشد عروة في ذلك أبياتًا لمعن بن أوس يقول فيها:

لعمرُك ما أهويتُ كفِّي لريبةٍ ... ولا حَمَلتني نحو فاحشةٍ رجلِي
ولا قادني سمعي ولا بصري لها ... ولا دلّني رأيي عليها ولا عقلي
ولستُ بماشٍ ما حييتُ لمنكرٍ ... من الأمر لا يمشي إلى مثله مثلي
ولا مؤثرٌ نفسي على ذي قرابة ... وأوثر ضيفي ما أقامَ على أهلي

وأعلــــم أنّي لم تصـــبني مصــــيبةٌ من الدهر إلا قد أصابت فتى قبلي»[١]

وعن مغيرة قال: اشتكى ابن أخي الأحنف إلى الأحنف بن قيس رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجَع ضرسه، فقال له الأحنف: لقد ذهبت عيني منذ أربعين سنة ما ذكرتُها لأحد[٢]. وهذا الصنيع العزيز بالكفّ عن الشكوى لغير الله تعالى هو امتثالٌ لقوله تعالى في شأن يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يُوسُف: ٨٦].

ولله تلك العائلة المُعاذيّة الطّيّبة، فعن شهر بن حوشب رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: طُعن عبد الرحمن بن معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ[٣]، فدخل عليه أبوه فقال له: كيف تجدك أي بني؟ قال له: يا أبت: ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١٤٧﴾ [البَقَرَة: ١٤٧] فقال له معاذ: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾ [الصَّافَّات: ١٠٢].[٤]

وعن الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: عاد نفرٌ من الصدر الأول رجلًا، فوجدوه في الموت، فقال له بعض القوم: ما عندك في مصرعك هذا؟ قال: «الرضا»[٥]. وكفى به للمؤمنين من العاديات ملاذًا.

---

(١) البداية والنهاية (٩/ ١٢٠، ١٢١)

(٢) صفة الصفوة (٣/ ١٤٠)

(٣) أي: أصيب بمرض الطاعون.

(٤) موسوعة ابن أبي الدنيا (٥/ ٣٤١)

(٥) عن: حياة السلف بين القول والعمل، أحمد الطيار (١/ ٤٦٠)

وإن رويتُ أحاديثَ الذين مضَوا فعن نسيم الصَّبا والبرقِ إسنادي

هذا؛ ولإمام أهل السنة أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ مواقف عاطرة طاهرة جميلة في رضاه بأقدار مولاه سبحانه، ودورانه مع أمره، والسباحة في بحر الرضا به، والسكون في دار الطمأنينة بإلهه تبارك وتعالى.

ولمّا قضى الله تعالى أمره، وأراد رفعته كتب في اللوح أن يكتويَ مع أصحابه في كَيْرِ فتنة القول بخلق القرآن العظيم، ثم وفّقه بأن ثبته على الحق فيها، فأخرجه منها ذهبًا خالصًا إبريزًا، وجبلًا شامخًا عظيمًا، وعَلَمًا للمُؤتمّين بسنة سيد المرسلين صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، فمن بداية الفتنة، ثبّتَ الله سبحانه قلب الإمام أحمد، وعَصَمَ لسانه من النطق تقيّةً بخلق القرآن، وأصرّ على رفض هذه المقولة، وأعلن السنة: «القرآن غير مخلوق». والدولة من ورائه من سُدَّتِها العليا إلى أخلاف السوء. فهذا ظهور للسنة وأهلها من أول يومها، وكسر للبدعة والضلالة وأهلها.

ولهذا ساق ابن الجوزي بسنده إلى ابن أبي أسامة قال: «حُكِيَ لنا أن أحمد بن حنبل قيل له أيام المحنة: يا أبا عبد الله ألا ترى الحق، كيف ظهر عليه الباطل؟ فقال: كَلّا، إن ظهور الباطل على الحق أن تنتقل القلوب من الهدى إلى الضلالة، وقلوبنا بعْدُ لازمة للحق»[1]. ثم أظهر الله تعالى أحمد السنة على أحمد البدعة، بالبرهان والحجة، وسقوط أحمد البدعة، وتهافت شبهه، واضمحلال

---

(١) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (١/ ٤٢١)

مقالته، وهلك ابن أبي دؤاد ببغداد، ولم يشهد جنازته مخلوق(1). وصدق ابن المديني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله: «أعزَّ الله هذا الدِّين برجلين ليس لهما ثالث: أبو بكر الصديق يوم الردة وأحمد بن حنبل يوم المحنة».(2)

ثم ابتلاه الله تعالى بالمحنة الثانية، وهي مكيدة يديرها الحاقدون بعد ثلاث سنين من إخماد محنة القول بخلق القرآن، فأشعل المفتونون حينها محنة ثانية للإمام أحمد، من باب الكيد له، خلاصتها: أن المتوكل كان يكره العلويّين، ومن يؤويهم، فأعلن أخلافُ السوء أن الإمام أحمد كان يؤوي علويًا من خراسان في داره، واستطاعوا بهذا تحريك المتوكل ضده سنة (٢٣٧ هـ) فبعث له المتوكل بواسطة واليه على بغداد، فريقًا من الرجال والنساء، فكبسوا عليه داره ليلًا، يُفَتّشُون عن وجود ذاك العلوي في داره، فخاب الفاتنون، وظهرت براءة أحمد، فَفَرِحَ المتوكل.

ثم ابتلاه ربه بالمحنة الثالثة وهي محنة الدنيا، فقد بعث المتوكل للإمام أحمد جائزة الظهور بالحجة على ابن أبي دؤاد، وهي عشرة آلاف درهم، مع

---

(١) نقل الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (١٠/٣٧٧) عن يحيى الجَلّاءِ أَنَّهُ رأى كأنّ أحمد بن حنبلٍ في حلْقة بِالمسجِد الجامع وأحمدَ بنَ أبي دُؤادٍ في حَلْقَةٍ أخرى، وكان رسولُ اللَّه ﷺ واقفٌ بين الحلقتين وهو يتلو هذه الآية: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [الأنعام: ٨٩] ويُشِيرُ إلى حَلْقَةِ ابْنِ أَبي دُؤادٍ ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ۝٨٩﴾ [الأنعام: ٨٩] ويشير إلى أحمد بن حنبل وأصحابه.

(٢) رواه الخطيب في تاريخه (٤/ ٤١٨) وابن أبي يعلى في الطبقات (١/١٣) ونحوها عن المزني كما في السير للذهبي (١١/ ٢٠١)

مندوبه، بكتاب رقيق العبارة واعتذار، وإجلال لِلإمام أحمد، وتأكيد عليه بقبول الجائزة، ودعوته للمجيء إليه. فوقف أحمد حيران، ثم فُتح له بقبولها، لكن ما طلع الفجر إلا وقد وزَّع الدراهم كُلَّها على أولاد المهاجرين والأنصار وفقراء عامة المسلمين.

ثم ابتلاه الله تعالى بالمحنة الرابعة، وهي محنة الدنيا الثانية، فقد خرج الإمام أحمد إلى المتوكل إجابة لدعوته، وفي طريقه ـ لما علم المتوكل بخروجه ـ بعث بعشرة آلاف درهم لأولاد الإمام أحمد، ورغب إليهم عدم إخبار أحمد بها. واستقبل قصر المتوكل الإمام أحمد، بما فيه من حَشَمٍ وخَدَمٍ ووزراء، والعيون تنظر إليه بالتقدير والحب والإِجلال، في قصص يطول ذكرها. لكن الإمام أحمد يرى أنه إن كان بالأمس ـ أيام محنة القول بخلق القرآن ـ في سجن البدن، فهو اليوم في سجن الروح، فهو يتمنّى الخلاص والإذن له بالعودة إلى داره في بغداد، والإمام يرفض العطاء، ويرفض السكنى عند المتوكل، ويرفض قبول شراء دار له في بغداد. ويبعث بالكتاب بعد الكتاب لولده في بغداد بعدم قبول الجوائز والصلات، ويوصيه بالحرص على الزهد والقناعة.

وأحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ يصبر ويحتسب ويرضى بقضاء الله تعالى أمام هذه المواجهات والمِحَن والفتن، وما زال في رِفعة وعلو، وجلالة قَدْرٍ مَلأت قلوب الناس، وصار لقلوبهم مثل العافية لأبدانهم. وما أجود ما قاله الذهبي حينما امتحن الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مسألة أَيمانِ البيعة: وهذا ثمرة المحنة المحمودة؛ أنها ترفع العبد عند المؤمنين، وبكل حال فهي بما كسبت أيدينا،

ويعفو الله عن كثير، «**ومن يُرد الله به خيرًا يُصِب منه**»[١]. وقال النبي ﷺ: «**كل قضاء المؤمن خير له**»[٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [مُحَمَّد: ٣١] وأنزل في وقعة أحد قوله: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عِمْرَان: ١٦٥]، وقال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۝٣٠﴾ [الشُّورَى: ٣٠]، فالمؤمن إذا امتُحن؛ صبر واتَّعظ واستغفر ولم يتشاغل بذم من انتقم منه، فالله حَكم مقسط، ثم يحمد الله على سلامة دينه، ويعلم أن عقوبة الدنيا أهون وخير له»[٣].[٤]

وتمعّن شاكرًا حامدًا ربك في مقالة الكاتب الغربي المشهور (ر. ن. س. بودلي) بعنوان: «عشتُ في جنة الله» قال: «في عام ١٩١٨م ولّيتُ ظهري العالم الذي عرفته طيلة حياتي، ويمّمتُ شطر أفريقيا الشمالية الغربية؛ حيث عشت

---

(١) البخاري (١٠ / ٩٤) وأكثر العلماء ضبطوا الصاد بالكسر. قال أبو عبيد الهروي: «معناه: يبتليه بالمصائب ليُثيبه عليها».

(٢) قطعة من حديث أخرجه أحمد في مسنده (٥ / ٢٤) من حديث أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «**عجبًا للمؤمن لا يقضي الله له شيئًا إلا كان خيرًا له**». وسنده جيد. قاله شعيب الأرناؤوط رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٣) السير (٨/٧٣)

(٤) عن المدخل المفصل لمذهب الإمام أحمد لبكر أبو زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١/٤٠٠) باختصار وتصرف يسير.

بين الأعراب في الصحراء، وقضيت هناك سبعة أعوام، أتقنت خلالها لغة البدو، وكنت أرتدي زيهم، وآكل من طعامهم، وأتخذ مظاهرهم في الحياة، وغدوت مثلهم أمتلك أغنامًا، وأنام كما ينامون في الخيام، وقد تعمقت في دراسة الإسلام، حتى إنّني ألفت كتابًا عن محمد عنوانه (الرسول).

وكانت تلك الأعوام السبعة التي قضيتها مع هؤلاء البدو الرُّحَّل من أمتع سنيّ حياتي، وأحفلها بالسلام، والاطمئنان، والرضا بالحياة.

وقد تعلّمتُ من عرب الصحراء كيف أتغلّبُ على القلق؛ فهم بوصفهم مسلمين يؤمنون بالقضاء والقدر، وقد ساعدهم هذا الإيمان على العيش في أمان، وأخذِ الحياة مأخذًا سهلًا هيّنًا، فهم لا يتعجّلون أمرًا، ولا يلقون بأنفسهم بين براثن الهمّ قلقًا على أمر. إنهم يؤمنون أنّ ما قُدِّرَ سيكون، وأن الفرد منهم لن يصيبه إلا ما كتب الله له.

وليس معنى هذا أنهم يتواكلون، أو يقفون في وجه الكارثة مكتوفي الأيدي كلّا. ودعني أضرب لك مثلًا لما أعنيه: هبّتْ ذات يوم عاصفة عاتية حملت رمال الصحراء وعبرت بها البحر الأبيض المتوسط، ورمت بها وادي (الرون) في فرنسا، وكانت العاصفة حارة شديدة الحرارة، حتى أحسست كأن شعر رأسي يتزعزع من منابته؛ لفرط وطأة الحر، وأحسست من فرط القيظ كأنني مدفوع إلى الجنون.

ولكن العرب لم يشكُوا إطلاقًا، فقد هزّوا أكتافهم، وقالوا كلمتهم المأثورة: قضاءٌ مكتوب.

لكنهم ما إن مرّت العاصفة حتى اندفعوا إلى العمل بنشاط كبير، فذبحوا صغار الخراف قبل أن يودِي القيظ بحياتها، ثم ساقوا الماشية إلى الجنوب نحو الماء، فعلوا هذا كله في صمت وهدوء، دون أن تبدو من أحدهم شكوى. قال رئيس القبيلة الشيخ: لم نفقد الشيء الكبير؛ فقد كنا خليقين بأن نفقد كل شيء، ولكن حمدًا لله وشكرًا؛ فإن لدينا نحو أربعين في المئة من ماشيتنا، وفي استطاعتنا أن نبدأ من جديد.

وثمّة حادثة أخرى، فقد كنا نقطع الصحراء بالسيارة يومًا، فانفجر أحد الإطارات، وكان السائق قد نسي استحضار إطار احتياطي، وتولّاني الغضب، وانتابني القلق والهم، وسألت صحبي من الأعراب: ماذا عسى أن نفعل؟ فذكّروني بأنّ الاندفاع إلى الغضب لن يجدي فتيلًا، بل هو خليق أن يدفع الإنسان إلى الطيش والحمق. ومن ثمّ درجت بنا السيارة وهي تجري على ثلاث إطارات ليس إلا، ولكنها ما لبثت أن كفّت عن السير، وعلمت أن البنزين قد نفذ. وهنالك أيضًا لم تثر ثائرة أحد من رفاقي الأعراب، ولا فارقهم هدوؤهم، بل مضوا يذرعون الطريق سيرًا على الأقدام.

وأقنعتني الأعوام السبعة التي قضيتها في الصحراء بين الأعراب الرّحّل أن المُلتاثين ومرضى النفوس والسّكيرين الذين تحفل بهم أمريكا وأوروبا ما هم إلا ضحايا المدنية التي تتخذ السرعة أساسًا لها، إنني لم أعان شيئًا من القلق قطّ وأنا أعيش في الصحراء، بل هنالك في جنة الله وجدت السكينة والقناعة والرضا.

وخلاصة القول: إنني بعد انقضاء سبعة عشرة عامًا على مغادرتي الصحراء ما زلت أتّخذ موقف العرب حيال قضاء الله، فأقبل الحوادث التي لا حيلة لي فيها بالهدوء والامتثال والسكينة.

ولقد أفلحت هذه الطباع التي اكتسبتها من العرب في تهدئة أعصابي أكثر مما تفلح آلاف المسكنات والعقاقير الطبية. فاليوم يصرف أطباء النَّفس المسكنات والعقاقير، ولو يوجد أطباء قلوب يصرفون أشياء تؤدي بهؤلاء إلى الإيمان بعقيدة القضاء والقدر»[1].

والعجيب أنّ من الذي نقل هذا المقال هو ديل كارنيجي في كتابه «دع القلق وابدأ الحياة» وهو أكثر الكتب في الإنسانيات انتشارًا في التاريخ كما يقال، ومع كل هذا فقد هلك كافرًا منتحرًا عياذًا بالله تعالى، فهل يعني هذا أنّه قد ألّف كتابه هذا لنفسه لِتَدَعَ القلقَ وتبدأَ الحياة التي قضى عليها بيده! فمع تأليفه لهذا الكتاب الرائع والذي أَفَادَ منه الشيخ السعدي في رسالته القيمة «الوسائل المفيدة للحياة السعيدة» فمع ذلك لم يصل للسكينة والطمأنينة والأمن والسلام القلبي، بل أعلن فشله بانتحاره، وحاله حال الكثير من الحيارى الذي ضل سعيهم عن سعادة أبد الأبد وهو الإيمان بالله تعالى، والاهتداء بوحيه العظيم الذي يحوي قواعد السلام في القلب عبر بناء الإيمان بالغيب، والوعد الأخروي، والرضا بالقضاء، والمعتقد السليم، والقول الحسن، والعمل الصالح. نسأل الله تعالى حسن الختام.

---

(١) أوردها ديل كارنيجي في كتابه الشهير: دع القلق وابدأ الحياة. ص: (٢٩١_٢٩٥)

والشَّـــيْخُ لا يــتْرِكُ أخلاقَـــهُ حَتّـى يُـوارَى في ثَـرَى رمْسِـهِ
لـن تبلُـغ الأعْـداءُ مِـنْ جاهِـلٍ مـا يبلـغُ الجاهِـلُ مـن نَفسِـهِ

وتأمل معدلات الانتحار اليومي في دولة من أترف دول العالم وأرفهها وأرغدها وهي السويد، فجوهر السعادة هو المعنى لا المادة. هذا وقد نشرت منظمة الصحة العالمية معدل الانتحار في العالم فكانت النسبة مهولة ومروعة، فينتحر شخص كل ٤٠ ثانية، بمعدل ثلاثة أشخاص كل دقيقتين، وقرابة ٧٠٠٠٠٠ كل عام! والجدير بالذكر أن الخمسين دولة من الدول الأولى في نسب الانتحار ليس منها دولة إسلامية واحدة خلا كازخستان ـ ولعلها لأسباب خاصة ـ بحمد الله تعالى ومنته.

كما أن الدول المتقدمة في نسب الانتحار ليست من الدول الفقيرة والمعوزة والجاهلة بالتقنية وأسباب الترف، بل هي ذاتها الدول المتقدمة في أسباب الحضارة المادية، ولك أن تعلم أن دولة صغيرة ككوريا الجنوبية تجاوزت نسبة الانتحار فيها ٤٠ حالة يوميًّا!

ولعل من أسباب انتشار الانتحار عند بعض الشعوب الآسيوية بخصوصها اعتقادهم بالتناسخ، وأنّ الميت سيُبعث من جديد في جسد آخر، فينتحر كيما يهرب من هذه الحياة طمعًا أن يكون أحسن حالًا في غيرها، ولم يعلم المسكين كُنْهَ ضلاله، ولا ما هو قادم إليه متوجه له، ولا حول ولا قوة ولا هدى ولا فلاح إلا بالله العلي العظيم.

حتى وإن كانت بعض عقائدهم في هذا تمنع من تقمّص شخصية أفضل إن اختار صاحبها الانتحار في حياته السابقة المزعومة. والقول بالتناسخ قد انبنت عليه عقائد ومفاهيم وأعمال في الغاية القصوى من الضلال.

لذلك فلا تعجب من انكسار، بل انهيار من لا يؤمنون، فعلى قدر نسبة الإلحاد في بقعة تتصاعد معها نسبيًّا نسبةُ الانتحار. فالإيمان سعادة وأمان، والكفر وحشة وخوف وضلال.

لَـوْلَا التَّعَلُّـلُ بِالرَّجَـاءِ لَقُطِّعَـتْ نَفْسُ المُحِبِّ صَبَابَةً وَتَشَوُّقَا
وَلَقَـدْ يَكَـادُ يَـذُوبُ مِنْـهُ قَلْبُـهُ مِمَّـا يُقَـاسِي حَسْـرَةً وَتَحَرُّقَـا
حَتَّـى إِذَا رَوْحُ الرَّجَـاءِ أَصَـابَهُ سَـكَنَ الحَرِيـقُ إِذَا تَعَلَّـلَ بِاللِّقَـا

وأقول بتعجّب وأسف: كيف يطيب عيش من لم يؤمن بالله، واليوم الآخر، والقدر؟!

نعم؛ فبضدها تتميّز الأشياء، فتخيل شخصًا خلوًا من ذلك النعيم والأمان، فالإيمان سلوى وعزاء وانتظار لموعود رب العالمين، فالإيمان بالله تعالى، أمان تامٌّ، وسعادة غامرة، وراحة مؤكدة، وحبور مبين، أما الإيمان باليوم الآخر فهو بلسم عزاء بلقاء الأحبة الذين مضوا، بل بلقاء رسول الهدى ﷺ وصحابته والسابقين والملائكة الطاهرين النورانيين، بل بلقاء الله تعالى الجميل الجليل الكريم رب العالمين، وكذلك بتحصيل أجر المُصاب الصابر الراضي الحامد الشاكر، أما الإيمان بالقضاء والقدر فلكي يصرف عنه وساوس

الشيطان بحسرات فوائت الرغائب، أو حلول شديدات المصائب، والحمد لله أوّلًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، والحمد لله على كل حال.

فالحمد لله كثيرًا على نعمة الإسلام والإيمان والقرآن والعلم والبصيرة في دين الله تعالى، والإيمان بالقضاء والقدر، والرضا بالتدبير الرباني، فهو حقًّا سرّ صمود المؤمن تجاه بلاءات الدنيا ولأواها وشديداتها. فلا إله إلا الله وحده، والحمد له وحده، والمنة له وحده، والشكر له وحده، والدين له وحده، والحمد لله كثيرًا كثيرًا على نعمة الإسلام، وصدق الله ومن أصدق من الله قيلًا: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١٢٤ - ١٢٦]. وما أعظم واجب أهل الإسلام في دعوة غيرهم إليه، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فُصِّلَت: ٣٣].

رأيـتُ القناعـةَ كنـز الغِنَـى ... فصـرْتُ بأذيالهـا مُمْتَسِـك
فـلا ذا يـراني عـلى بَابِـهِ ... ولا ذا يـراني بـه مُنْهَمِـك
وصرتُ غنيًّـا بـلا درهـمٍ ... أمـرُّ عـلى النـاس شِـبه المَلِـك

وههنا موقف معاصر في الغاية من الجمال لمن كان بالله راضيًا، يقول الشيخ حسن حبنّكه الميداني ـ وهو والد شيخنا عبد الرحمن رحمهما الله تعالى ـ: «كنتُ عائدًا إلى بيتي قبل المغرب بساعة في يوم من أيّام رمضان، فاستوقفني رجلٌ فقيرٌ من الذين يتردّدون على درسي في المسجد تردُّدَ الزائر، فسلّم عليّ

بلهفةٍ أدمَعَتْ عينيَّ، وقال لي: أستحلفك بوجه الله أن تفطر عندي اليوم! يقول الشيخ: عقدتْ لساني لهفته، وطوّقت عنُقي رغبتُه، فقلتُ له: يا أخي، الأهل بانتظاري وظروفي لا تسمح، ولكن!

يقول الشيخ: وجدتُ نفسي أتبعه إلى بيته الذي لا أعرف مكانه، ولا أعرف ظرفه في هذا الوقت الحرج من موعد الإفطار. يقول: وصلنا إلى بيته، فإذا هو غرفةٌ ومطبخٌ وفناءٌ صغير مكشوفٌ على سطحٍ اشتراه من أصحابه، وله مدخلٌ ودرجٌ خاص من الخشب لا يحتمل صعود شخصين، فخشباته تستغيثُ من وهَنٍ خلَّفَهُ بها الفقر والقِدَم. كانت السعادة تملأ قلب الرجل، وعبارات الشكر والامتنان تتدفّق من شفتيه وهو يقول: هذا البيت ملكي (والملك لله) لا أحد في الدنيا له عندي قرش، انظر يا سيدي، الشمس تشرق على غرفتي الصبح، وتغرُب من الجهة الثانية، وهنا أقرأ القرآن عند الفجر وقبل المغيب، والله يا سيدي كأني أسكن في الجنّة(١).

يتابع الشيخ: كل هذا يجري على مسامعي وأنا أصعد على الدرج بحذر. وصلنا الغرفة، وذهب الرجل إلى زوجته، وسمعته يقول لزوجته بصوت خافت: جهزي الفطور، الشيخ سيفطر عندي اليوم، وصوت زوجته تقول له: والله ما عندنا غير فول، ولم يبق على أذان المغرب إلّا نصف ساعة، ولا شيء عندنا نطبخه.

---

(١) ذلك أن الغنى غنى القلب، والقناعة كنز لا يفنى، قال ﷺ: **«ليس الغنى عن كثرة العَرَض ولكن الغنى غنى النفس»**. رواه البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١).

يقول الشيخ: سمعت هذا الحوار كله، فلما جاء صاحب الدار قلت له: يا أخي، لي عندك شرط؟ أنا أفطر مع أذان المغرب على ماء ومعي التمر، ولا آكل إلّا بعد نصف ساعة من الأذان، بعد ما أهضم التمر والماء، وأصلّي وأُنهي وِرْدي اليومي، ولا آكل إلّا فول مدمّس وبطاطس. فقال الرجل: أمرك.

يقول الشيخ: لقد اخترت البطاطس لأنها زادُ الفقراء، وأحسبها عندهم، وقد خرجتُ وكلّي سعادةٌ وبهجة، وقد أحببتُ الدنيا من لسان هذا الرجل الذي خرجت من فمه عباراتُ الثناء والحمد على نِعم الله بهذا البيت الذي ملّكَهُ الله إيّاه، وهذه الحياة الجميلة التي يتغنّى بها.

لا بارك الله في الدنيا إذا انقطعتْ أسباب دنياك عن أسباب دنيانا

يقول الشيخ: ثم دُعيت بعد أيام مع مجموعةٍ من الوجهاء على الإفطار عند أحد التجّار، وكان ممن أنعم الله عليهم بالمال، والجاه، والأولاد، والحسب، والنسب. وكانت الدعوة في مزرعةٍ فخمة فيها مما لذّ وطاب، يتوسّطها منزل أقرب ما يكون للقصر، يطلُّ على مسبحٍ ومرْبَط خيل فيه نوادر الخيل الأصيلة. أفطرنا عند الرجل، وأثناء المغادرة انفرد بي، وشكى لي من ضيق الحياة، وهموم التجارة، وسوء طباع زوجته، وطمع من حوله، وكثرة المصاريف لإرضاء الجميع، وسأَمِه من هذه الحياة، ورغبته بالموت!

يقول الشيخ: من باب المنزل إلى باب سيارتي، سوَّد هذا الرجل الدنيا في عيوني، وأطبق عليَّ صدري وأنفاسي. فنظرتُ إلى السماء بعد أن ركبتُ بسيّارتي وأنا أقول في قلبي: الحمد لله على نعمةِ الرضا، فليست السعادة بكثيرٍ ندفع

ثمنه، ولكن السعادة حُسنُ صِلَةٍ بالله، ورضًا بما قسم لنا عزّ وجل». أهـ. ومن عيون شعر الحطيئة:

ولستُ أرى السعادةَ جمعَ مالٍ ... ولكنَّ التقي هو السعيدُ
وتقوى اللهِ خيرُ الزادِ ذُخرًا ... وعندَ اللهِ للأتقى مزيدُ
وما لا بدَّ أن يأتي قريبٌ ... ولكنَّ الذي يمضي بعيدُ

قال علي الوردي: «يتوهّم الإنسان أن الوظيفة ستجعله سعيدًا، ثم يتوهّم أن الزواج سيجعله سعيدًا، ثم يتوهم أن الأطفال سيجعلونه سعيدًا، وسيظل يتوهم ويتوهم حتى يموت». قلت: هذا وهم من لم يوفق لحلاوة الإيمان، أما من ذاقها بلسان قلبه، وهشّت له روحه، واستضاء منها قلبه؛ فهو في جنّة من الآخرة عُجّلت له، نسأل الله الكريم من فضله، أرأيتكَ[1] يا صاحبي ترى السعادة في المال وتوابعه أم في الإيمان والتقوى؟ قال أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ويعني بهدي الأئمة: أئمة الدين:

فَإن كُنتَ فِي هَدي الأَئِمَّةِ رَاغِبًا ... فَوَطِّن عَلَى أَن تَنتَحِيكَ الوَقَائِعُ
بِنَفسٍ وَقَدرٍ عِندَ كُلِّ ملمَّة ... وَقَلبٍ صَبُورٍ وَهُوَ فِي الصّورِ مَانعُ
لِسَانُكَ مَخزُونٌ وَطَرفُكَ مُلجَمٌ ... وَسِرُّكَ مَكتُومٌ لَدى الرَّبِّ ذَائعُ

---

(١) أرأيتك بمعنى: أخبرني، تبقى تاؤه على حالها في الإفراد والتثنية والجمع، ويسلّط التغيير على الكاف: أرأيتك، أرأيتكما، أرأيتكم.

وَذِكـرُكَ مَغمُـورٌ وَبَالُـكَ مُغلَـقٌ ... وَثَغـرُكَ بَسّـامٌ وَبَطنُـكَ جَـائِعُ
وَقَلبُـكَ مَجـروحٌ وَسُـوقكَ كَاسِـدٌ ... وَفَضـلُكَ مَـدفُونٌ وَطَيفُـكَ شَـائِعُ
وَفِي كُـلِّ نَـومٍ أنـتَ جَـارِعُ غصَّـةً ... مِنَ الدَّهرِ وَالإخوَانِ وَالقَلب طَائِعُ
نَهَارُكَ شُغلٌ وَالنَّاسُ مِن غَيرِ مِنَّةٍ ... وَلَيلُـكَ شَـوقٌ غَـابَ عَنـهُ الطَّلائِـعُ
فَـدُونَكَ هَـذَا اللَّيـلُ خُـذهُ ذَرِيعَـةً ... لِيَـومٍ عَبُـوسٍ عَـزَّ فِيـهِ الـذَّرائِعُ

ومن النساء الراضيات بالله تعالى الصابرات على البلاء الشاكرات على النعماء مزنة المحمد البسام رحمها الله تعالى، فقد كانت رحمها الله تعالى قدوة في الرضا بالله تعالى والحمد والشكر. وهي مزنة بنت محمد بن حمد البسام، فجدها حمد قد نزل عنيزة قادمًا من بلدة حَرْمَة، اما والدها فهو صاحب ثراء واسع وصاحب إحسان، وقد توفي والدها حاجًّا عام ١٢٤٦هـ بمكة المكرمة. زوَّجها والدها في حياته ابن أخيه حمد سليمان البسام، وكان يعلم أنه ليس صاحب مال، ولكنه لم يبلغه ولم يتحقق أن الحاجة بلغت معه الواقع الذي هو عليه.

فلما رحلت اليه في منزله وعلمت حاله كتمت ذلك حتى عن أمها وأبيها، وصارت تنفق ما عندها من أبيها حتى نفد. وكان منزلهما خاليًا من كل شيء ذي بال، فصارت تخفي أمرها عن الناس، ولا تمكّن أحدًا من دخول وسط المنزل حتى لا تُحرج زوجها بفاقته. وجعلت لها مكانًا من مقدّمة البيت تستقبل

به من يزورها من نساء أقاربها، ولا تمكّنهم من رؤية المنزل والاطلاع على ما فيه حتى والدتها.

وقد كانت هي الشابة الناعمة المترفة، التي عاشت حياتها في بيت والدها صاحب الثراء الواسع، فزارتها والدتها في ساعة لم تكن تزورها فيها في عادتها مما مكّنها من دخول وسط المنزل. وإذا به خالٍ من كل شيء من مقومات الحياة، فلامتها على هذا التستّر، وعلى هذا الصبر الطويل، وقالت لها: إنّ والدك بخير كبير، وأنت ابنته، وزوجك ابن أخيه، وإحسانه شامل للبعيدين، فكيف بكما وأنتما ولداه؟! فأجابتها بأنه لم يقصّر عليها بشيء، وقالت: لا داعي لإظهار أمرنا إلّا لله تعالى.

إذا المرءُ لم يَأْخُذ من الصَّبْر حَظَّهُ   تَقَطَّعَ مِن أسبَابِه كُلَّ مُبْرَمِ

فلما علم والدها محمد البسام بالأمر طلب ابن أخيه ولامه وعاتبه، وأعطاه مبلغًا جيدًا من النقود ليعمل به مضاربة مع عمه حمد السليمان، يتّجر بجلب البضائع من سوق الشيوخ في أطراف العراق إلى القصيم، ففعل حتى نمّى الله تعالى المال بيده، فصار صاحب رأس مال كبير. وصار من بعض أعماله التجارية أن يشتري ثمار النخيل من الفلاحين بطريق بيع السَّلَم، فإذا استلمه منهم في حينه أيام الجذاذ يكنزه في حياض كبار تسمى (الصوبة) ثم يبيعه في أوان بيعه، وهكذا.

وفي إحدى السنين سافر للتجارة إلى الخميسية وسوق الشيوخ، وكان هذا السوق هو ميناء أهل نجد في ذلك الزمان، وطالت سفرته، فلما عاد إلى وطنه عنيزة قابله في الطريق بعض التجار والمورّدون فصار يسأله عن أخبار البلاد.

فكان مما أخبروه أن نجدًا أصابتها مجاعة شديدة، وأن الناس أصابهم ضرر بالغ فيها. فقال: عسى لنا فيها حظّ ونصيب؟ فأجابه رجل منهم: بأن لك يا أبا سليمان أكبر الحظ والنصيب، فزوجتك تصدّقت بجميع ما ادخرْتَه من حياض التمر. فسُرَّ بذلك، وحمد الله عليه، وسأله القبول.

فلما قدم عنيزة واستراح من وعثاء السفر، جاءته زوجته مزنة بزنبيل مليء بالريالات الفرنسية التي قيل إنها تبلغ ستة آلاف ريال، وهو مبلغ كبير جدًّا في ذلك الزمان، وقالت له: هذا قيمة التمر، وبسبب الحاجة زادت قيمته زيادة كبيرة، فبعناه وهذه قيمته تفضل بقبضها.

فقال: أخبريني بالحقيقة. وبعد إلحاح أخبرته أنها تصدقت به كلّه في هذه المسغبة، وأن هذه النقود هي ثمن مصاغها، باعته لأنّها تصدّقت محتسبة ذلك منها. فقال لها: الأجر الذي تريدينه إن شاء الله تعالى أنه صدقة مقبولة مني. فقالت له: وأنا شريكة في الأجر معك؟ فقال: وأنتِ شريكة إن شاء الله تعالى[(١)].

والبرّ لا يبلى، والإحسانُ لا يُنسى، والمعروف لا يُنكر، والله شكور حميد كريم برٌّ لطيف، سبحانه وبحمده.

---

(١) الخزانة النجدية (٣/ ٥١)

وبين أيدينا في هذا الباب الحنون وصيةٌ رائعة نفيسة، خطتها يراعة الأستاذ فهد بن إبراهيم العمرو رحمه الله تعالى، كتبها قبيل وفاته بأمريكا، وقد نشرت بعد وفاته رحمه الله تعالى، وفيها من نسائم الرضا، وأنوار التسليم، ومنائح السكينة، ومفائض الفرح، ومفاتح التوفيق، ومكارم الإيمان شيئًا كثيرًا، فضلًا من الله ونعمة، والله ذو الفضل العظيم، وهذا نصها: «الحمد لله الذي ينعم بلطفه كيفما شاء، والصلاة والسلام على أفضل الأنبياء، وبعد:

الموت، تلك المحطة التي ستنتهي عندها مسيرة الجميع، دون موعد مسبق، ولا موقع محدد، ولا ترتيب عمري، ولأسباب متنوعة، غير أن الله وأجزم أنه أحب لي الخير ابتلاني باشدّ الأمراض فتكًا بأقوى الأجساد، لكنه أنعم علي بالبصيرة أن الله إذا أحب عبدًا ابتلاه، ثم زاد فضله علي أن ألبسني لباس الرضا والتسليم، وأحلّ علي صبرًا وتجلدًا لست أبالغ حين أقول: أنني معه أعيش أجمل أشهر حياتي، وأكثرها شعورًا بحلاوة الإيمان.

تحولت معها أنّات الوجع لتسبيح خاشع، ومرارة الصبر لتسليم ماتع، وحلكة الغربة لنور ساطع، أبصرت بها أكثر الطرق المؤدية للقرب من اللطيف، تلذذت بمناجاته بصورة أشعرتني أن الله منحني فرصة أكبر لتصحيح مساري، والانكسار بين يديه، ليغفر زلاتي، ويضاعف حسناتي، وأن يلهمني رشدي، لأقف عند محطتي في خاتمة حسنة.

كان طول المرض وتنامي شدته ساعة بعد ساعة ملهمًا لي أن الحياة الدنيا فانية، لا تستحق أن أبذر ما تبقى لي فيها من أيام في مزيد غفلة، فأعانني مولاي على طول القيام، وأجرى لساني يلهج بذكره وشكره على ما أنعم به علي من

فرصة تقويم واستدراك، استعد به لما أمامي من رحيل له ما بعده من حساب ومفارقة أحباب.

تأملت ما جرى للكثير من الراحلين الذين تخطّفهم الموت فجأة، وقد كانوا صحاح الأبدان في ريعان أعمارهم؛ فأيقنت أن مرضي هدية من ربي لأقدم عليه تائبًا راضيًا، وتدبرت حال الغافلين عن صالح الأعمال، اللاهثين خلف سراب السعادة الدنيا، المنشغلين أحيانًا بتوافه الأمور عن عظيم ما أمامهم يوم لا ينفع مال ولا بنون؛ فأيقنت أن اشتداد ما أصابني، وتنامي انتشاره في جسدي حتى أنهكه؛ إنما أيقظ قلبي، وأنار طريقي، وأذاقني لذة الصبر على أقدار الله، والتسليم لما قضاه، والرضا بحكمته، بل والفرح بها.

عشت أشهري الأخيرة في نعيم روحي لا أملك له وصفًا، كلما أشعرني الفريق الطبي بانتشار المرض في جزء جديد في جسدي؛ هتف بي إيماني أنني نجحت في تجاوز مرحلة من المصابرة، فترقّيت لمنزلة أعلى، حتى هان عليّ كل خبر يصلني منهم، وغدت عينا فكري لا تتطلع إلا ليوم لقاء ربي الذي أحبني فابتلاني، وباعدني عن وطني وأسرتي ليقربني إليه أكثر، ولا أدري متى أودعكم لألقاه، لكنني على يقين أن أجلي قد اقترب، وساعتي أوشكت أن تحين لتتوقف عقاربها، وأعود إليكم لتروني ولا أراكم، وتودعوني ولا أودعكم، وتقبّلوني ولا أقبّلكم، رغم شوقي العظيم لكل واحد منكم، وخاصة والدي الذي يتراءى لي في كل لحظة غربة، وكلّ أنّة وجع، غير أن ما يسكن معه قلبي، ويطمئن إليه وجدي: أنني على ثقة برسوخ إيمانه، ومعرفته بالله، ويقينه بلطفه.

ولأنّي قد لا أتمكّن من محادثتكم على الصورة التي آملها مع هجمة الأوجاع حتى على أحرفي التي أشعر أنها بدأت تتمنّع عن قلمي ولساني، ولأنّ رسالتي لن تبلغكم إلا بعد رحيلي، أوصيكم وصية مودع محب، هي رجع صدى لوصية الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم: الصلاة الصلاة، ولأنّ كلّ منّا يتناوشه التقصير؛ فاحرصوا على النوافل، وتلذّذوا بمناجاة اللطيف حين يناديكم في الثلث الآخر من الليل: هل من تائب فأتوب عليه، هل من مستغفر فأغفر له، هل من سائل فأعطيه. فقد تُلاقِي باب إجابة مفتوح، فوالله إنها السعادة التي لم أجدها في كل أبواب الدنيا، فالموت أمرٌ محتوم لا شك في هجمته، ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان:٣٤]، وأختم كلماتي: بالتماسٍ منكم جميعًا أن تصفحوا عنّي، وتشملوني بعفوكم عن كل زلل أو خطأ أو تقصير في حق أيٍّ منكم، ثم أشهدكم جميعا أنني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا رسول الله صلى الله عليه وسلم. والحمد لله على ما مضى وما هو آت.

محبكم: أبو عبد الله فهد بن إبراهيم العمرو – بوسطن».

وَأَذكُـرُ أَيّـامَ الحِمَـى ثُـمَّ أَنثَنِـي ... عَلَى كَبِدِي مِن خَشيَةٍ أَن تَصَدَّعَا

وَلَيسَت عَشِيّاتُ الحِمَى بِرَواجِعٍ ... عَلَيكَ وَلَكِن خَلِّ عَينَيكَ تَدمَعَا

بَكَت عَينِي اليُمنَى فَلَمّا زَجَرتُها ... عَنِ الجَهلِ بَعدَ الحِلمِ أَسبَلَتا مَعا

اللّهم رضاك والجنة، إله الحق.

قالوا عن الرِّضَا بالله تعالى

إن المؤمن يصبح ويمسي وهو يقول بقلبه وقالبه: رضيت بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًّا، فلا غرو أن يكون الرضا للمؤمن ملء السمع والبصر والفؤاد.

وإن أمرًا بهذه العظمة والجمال غير مُستغرَب أن يُشارك في ذكره ووصفه والترغيب فيه أولو الحِجَى وأربابُ الهمم وسادةُ السُّلوك. وآثارُ سيرهم على هذه الجادّة الرسولية شهيرة، وأقوالهم في هذا الباب كثيرة، وإشاراتهم لمن خلفهم غزيرة، ولكن نكتفي ببعض الإلماحات، ونورد شيئًا من تلك الإشارات، علّ الله تعالى أن يقدح بها في قلوبنا أزندة الاعتبار والادّكار، ويُشيد بها في نفوسنا أبنية الموعظة والافتكار، فالسعيد من اهتبل فرص النصح، وقبض براحته على ما اسطاع من مفاتح المأثور، المُستقى من ينبوع الوحي وضيائه السَّنِيّ، واستبق به أبواب العمل، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم، سبحانه وبحمده. فجميل أن يكون لحياتك معنى وهدف تسعى لتحقيقه، والأجمل أن يكون الهدف مرضاة الله تعالى، فلتحي بالله ولله. ويا أيها الراضي: واجِهِ البلاءَ بابتسامٍ.

قال لقمان لابنه: «أوصيك بخصال تقرّبك من الله وتباعدك من سخطه: أن تعبد الله لا تشرك به شيئًا، وأن ترضى بقدر الله فيما أحببت وكرهت»[1].

---

(١) نقله عنه ابن القيم في مدارج السالكين (٢/ ٢٢٩)

وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى رضي الله عنهما: «أما بعد، فإن الخير كله في الرضا، فإن استطعت أن ترضى وإلا فاصبر»[١]. وقال أيضًا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «ما أبالي على أي حال أصبحت وأمسيت من شدة أو رخاء».

وقال ميمون بن مهران رَحِمَهُٱللَّهُ: «من لم يرض بالقضاء فليس لحمقه دواء»[٢].

إن كـان لا يُغنيـكَ مـا يكفيكـا فكـلّ مـا في الأرضِ لا يُغنِيكـا

وقال الربيع بن أنس رَحِمَهُٱللَّهُ: «علامة حب الله كثرة ذكره، فإنك لا تحب شيئًا إلا أكثرت من ذكره، وعلامة الدين: الإخلاص لله في السرِّ والعلانية، وعلامة الشكر: الرضا بقدر الله والتسليم لقضائه»[٣].

وفي المقارنة بين الغني الشاكر والفقير الصابر فقد رجّح ابن باز رَحِمَهُٱللَّهُ في شرح بلوغ المرام منزلة الغني الشاكر على الفقير الصابر بناء على حديث: **«ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى»**.. الحديث، وفيه: فقال: **«ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»**[٤]. وأظنه قصد إن استويا في التقوى، فلدى الشاكر أبواب

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٧٥)

(٢) الإحياء، للغزالي (٣/ ٣٤٦)

(٣) مدارج السالكين (٢/ ٢٢٧)

(٤) وهو حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى، والنعيم المقيم، فقال: **«وما ذاك؟»** فقالوا: يُصلّون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدّقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق، فقال

=

للخير ليست عند الفقير الصابر. أما مذهب ابن تيمية فهو أن أفضلهما أتقاهما على كل حال.

قلت: وليس بينهما اختلاف على الحقيقة، لأن الأتقى هو الأفضل مطلقًا، لكن إن استويا في التقوى فمَن عنده تقوى مع فُرَصٍ خير فهو الأفضل؛ لأنّه لن يدّخر جهدًا في حصد أجور الآخرة لتحصيل مراضي ربه تعالى، كما أنه محتاج لصبر كذلك، وقد يكون صبر الغني أشقّ في أحوال كثيرة من صبر الفقير الذي كثيرٌ من صبره اضطرار، وليس الاختيار كالاضطرار، وإن كان الفقر في الأغلب أسلم من الآفات. وقد ابتلى الله تعالى أيوب الصابر وسليمان الشاكر عليهما السلام، وقد أثنى عليهما بنفس الثناء فقال عن كلٍّ منهما: ﴿نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص: ٤٤].

وعلى كل حال فالرضا هو حال المؤمن الذي يرضى تدبير مولاه له، ويفرح به، ويعيش عليه، ويأطر نفسه على ذلك إن أوشكت أن يزعزعها عن

=
رسول الله ﷺ: **«أفلا أعلّمكم شيئًا تدركون به من سبقكم، وتسبقون به من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم»؟** قالوا: بلى يا رسول الله، قال: **«تسبّحون وتكبّرون وتحمدون دُبُرَ كل صلاة ثلاثًا وثلاثين مرة»**. فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثله. فقال رسول الله ﷺ: **«ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»**. رواه البخاري ١/ ٢١٣-٢١٤ (٨٤٣)، ومسلم ٢/ ٩٧ (٥٩٥) (١٤٢) وهذا لفظ مسلم، والدثور: الأموال الكثيرة.

منزل الرضا العالي المنيف عارضُ ضعفٍ، أو هبوبُ هلعٍ، أو واردُ طمعٍ، أو حَطْمُ جزعٍ، والمحفوظ من حفظه مولاه.

وعن مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: بلغني أن رجلًا من بعض الفقهاء كتب إلى ابن الزبير رضي الله عنهما يقول: «ألا إنّ لأهل التقوى علامات يعرفون بها، ويعرفونها من أنفسهم: من رضي بالقضاء، وصبر على البلاء، وشكر على النعماء، وصدق باللسان، ووفى بالوعد والعهد، وذُلٍّ لأحكام القرآن. وإنما الإمام سوق من الأسواق، فإن كان من أهل الحق حمل إليه أهل الحق حقهم، وإن كان من أهل الباطل حمل إليه أهل الباطل باطلهم»(١).

وقال عبد الله بن المبارك: قال داود لابنه سليمان عليهما السلام: «يا بني، إنما تستدل على تقوى الرجل بثلاثة أشياء: لحسن توكله على الله فيما نابه، ولحسن رضاه فيما آتاه، ولحسن زهده فيما فاته»(٢).

وقال الفيروز آبادي: «رضا العبد عن الله على ألا يكره ما يجري به قضاؤه، والرضوان الرضا الكبير. ولما كان أعظم الرضا رضا الله؛ خصّ لفظ الرضوان في القرآن بما كان من الله تعالى»(٣).

---

(١) جامع الأصول (١١/ ٧٠٣، ٧٠٤)

(٢) الدر المنثور، للسيوطي (١/ ٦٢)

(٣) بصائر ذوي التمييز، للفيروز آبادي (٣/ ٧٧)

والراضي بربه سعيد مسرور بعطائه، ساكنٌ رخيّ البال في ابتلائه، يرى المنع عطاء، لأنه في الحقيقة كذلك، لكن لا تبصرها نون العين، بل نون البصيرة، وقد قال المتنبي في عيوب الناس فكيف بكمال تدبير الإله:

وعينُ الرّضا عن كلّ عيب كليلة   كما أن عين السُّخط تُبدي المساويا

والموفق الرشيد هو من رضي بربه ولم يرض نفسه لربه، كما قال كشاجم:

لم أرض عن نفسي مخافةَ سُخْطَها   ورضا الفتى عن نفسه إغضابُها
ولو أنني عنها رضيتُ لقصّرتْ   عما تزيد بمثله آدابُها
وتبيّنتْ آثارَ ذاك فأكثرَتْ   عذلي عليه فطال فيه عتابُها
ولو أنني عنها رضيتُ لقصّرتْ   عما تزيد بمثله آدابُها
وتبيّنتْ آثارَ ذاك فأكثرَتْ   عذلي عليه فطال فيه عتابُها

وقال الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال عمر بن عبد العزيز: «ما بقي لي سرور إلا في مواقع القدر، وقيل له: ما تشتهي؟ فقال: ما يقضي الله».

وقال الفضيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن لم تصبر على تقدير الله؛ لم تصبر على تقدير نفسك».

وقال عبد العزيز بن أبي روّاد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس الشأن في أكل خبز الشعير والخلّ، ولا في لبس الصوف والشَّعر، ولكن الشأن في الرضا عن الله عز وجل».

وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «لأن ألحَسَ جمرة أحرقت ما أحرقت وأبقت ما أبقت؛ أحبّ إلي من أن أقول لشيء كان: ليته لم يكن، أو لشيء لم يكن: ليته كان».

ونظر رجل إلى قرحة في رجل محمد بن واسع رَحِمَهُٱللَّهُ. فقال: «إني لأرحمك من هذه القرحة»، فقال: «إني لأشكر الله منذ خرجت، إذ لم تخرج في عيني».

وروي في الإسرائيليات: أن عابدًا عبد الله دهرًا طويلًا فأري في المنام فلانة الراعية رفيقتك في الجنة؛ فسأل عنها إلى أن وجدها، فسألها فلم تذكر كثير عمل، ولكنها قالت: «خُصيلة واحدة هي فيَّ؛ إن كنتُ في شدّة لم أتمنّ أن أكون في رخاء، وإن كنت في مرض لم أتمنّ أن أكون في صحة، وإن كنت في الشمس لم أتمنّ أن أكون في الظل». فوضع العابد يده على رأسه وقال: «أهذه خُصَيلَة؟ هذه والله خَصْلَة عظيمة يعجز عنها العباد». علمًا أنّ الرضا التام لا يمنع دفع القدر المؤلم بالقدر المشروع كما أسلفنا. ولعلها قصدت إن لم تقدر على دفعه، أو لما يترتب على مدافعته من فوات مصلحة شرعيّة أرجى، فهذا حال الموفّقين، والله أعلم.

إذا ما الخيام البيض لاحتْ لدى مِنًى فعـــرّجْ فإنّـــا بعـــدها بقليـــلِ

وعن بعض السلف: «إن الله تعالى إذا قضى في السماء قضاء أحب من أهل الأرض أن يرضوا بقضائه». وقال أبو الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «ذروة الإيمان: الصبر للحكم والرضا بالقدر». وقال سهل بن عبد الله رَحِمَهُٱللَّهُ: «حظّ العبيد من

اليقين على قدر حظهم من الرضا، وحظهم من الرضا على قدر عيشهم مع الله عز وجل»[(١)]. أي: بأحوال قلوبهم مع ربهم تبارك وتعالى.

وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «ما أُبالي إذا رجعتُ إلى أهلي على أيّ حال أراهم بخيرٍ أو بشرّ، وما أصبحت على حالة فتمنّيت أنّي على سواها»[(٢)].

وقيل للحسن بن علي رضي الله عنهما: «إن أبا ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يقول: الفقر أحبُّ إلي من الغنى، والسّقم أحبُّ إليّ من الصحة. فقال: رحم الله أبا ذر، أما أنا فأقول: من اتّكل على حسن اختيار الله له؛ لم يتمنّ أن يكون في غير الحالة التي اختار الله له. وهذا حدُّ الوقوف على الرضا بما تصرف به القضاء»[(٣)].

وقال عبد الواحد بن زيدٍ رَحِمَهُٱللَّهُ: «الرضا باب الله الأعظم، وجَنّة الدنيا، ومُستراح العابدين». وربما رضي المُبتلى حتى لم يَعُدْ يشعر بالألم، كما أنشدوا:

عذابُه فيك عذبٌ وبُعْدُه فيكَ قربٌ

أي: بُعدُه عن أحبابه من الناس بسبب قيامه في دين الله تعالى هو في حقيقته قربٌ من الله تعالى، وزلفى لديه، ومدرج رضًا بين يديه له، ومن كان في الله تَلَفُهُ كان على الله خَلَفُه، والنعيم لا يُدرك بالنعيم، ومن كانت بداياته

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٤٣٨-٤٣٩) باختصار.

(٢) صفة الصفوة (١/ ١٨٦)

(٣) البداية والنهاية (٨/ ٢٠٤، ٢٠٥)، وابن عساكر (١٣/ ٢٥٣)

مُحرقة كانت نهاياته مشرقة، والعبرة بكمال النهايات لا بنقص البدايات، والله المستعان تبارك وتعالى.

ونقل عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله: «يا بنيّ؛ إنما تستدلّ على تقوى الرجل بثلاثة أشياءٍ: حُسْن توكله على الله فيما نابَه، وحُسْن رضاه فيما آتاه، وحُسْن زهده فيما فاته»(١).

وقال سعد بن أبي وقّاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لابنه عمر: «يا بنيّ، إذا طلبت الغِنى فاطلبْه بالقناعةِ، فإن لم تكن لك قناعةٌ فليس يُغنيك مالٌ»(٢).

والـــنفسُ راغبــةٌ إذا رغَّبتَهــا ... وإذا تُـــرَدُّ إلى قليـــل تَقْنَـــعُ

وقيل لبعض العُبّاد: قد نلت الغِنى؟ قال: «إنّما نال الغنى من أُعتق من رقّ الدنيا»(٣).

وقال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القناعة أوّل الرضا»(٤).

وقال بكر المزني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يكفيك من الدنيا ما قنعت به ولو كفّ تمر، وشربة ماء، وظلّ خباء. وكلّما انفتح لك من الدنيا شيء، ازدادت نفسك به تعبًا»(٥). وقال أعرابي في الرِّضا والقناعة:

---

(١) الدر المنثور (١/ ٦٢)
(٢) عيون الأخبار (٣/ ١٨٧)
(٣) موسوعة ابن أبي الدنيا (٥/ ١٣٢)
(٤) تهذيب الحلية (٣/ ١٨٣)
(٥) موسوعة ابن أبي الدنيا (٤/ ١١٩)

عــلامَ سـؤال النــاس والــرزقُ … وأنت صحيحٌ لم تخنك الأصابعُ
وللعـــيش أوكـــارٌ وفي الأرض … عريضٌ وباب الرزق في الأرض
فكــن طالبًــا للــرزق مــن رازق … وخَلِّ سؤال الناس فالله صانعُ

وقال مسلم بن الوليد:

أقـــولُ لمـــأفونِ البديهـــةِ طـــائرٍ … مـــع الحـــرص لم يغـــنم ولم يتمـــوَّلِ
سـل النـاس إني سـائلُ اللهَ وحـده … وصائنُ عرضي عن فلان وعن فُلِ[1]

قال أبو ذؤيب الهذلي وقد أجاد وأحسن أيّما إحسان في بيان طبع النفس:

والـــنفسُ راغبـــةٌ إذا رغّبتَهـــا … وإذا تُـــرَدُّ إلى قليـــلٍ تقنـــعُ

وعن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «إن من رأس التواضع أن ترضى بالدون من شَرَفِ المجلس، وأن تبدأ بالسلام من لقيت، وأن تكره من المدحة

(١) ديوان مسلم بن الوليد (٢٦) والعقد الفريد (٥/ ٣٥٥) وقوله: «وعن فُلِ» ترخيم جميل أملته القافية، ولا يكون إلا عند النداء خلا ما أملته الحاجة كالوزن والقافية، وهذا كثير عند العرب، كعائش من عائشة، وفاطم من فاطمة، ومال من مالك، وسُعا من سُعاد، وحار من حارث ونحو هذا، ولا يجوز الترخيم في المنادى إلا إذا كان مؤنثًا بالهاء علَمًا أو غير علم، أما إذا كان غير مؤنث بالهاء فلا يُرخَّم إلا إذا كان رباعيًا فأكثر. ويشابه الترخيمُ النحتَ في الاختزال، والنحت هو نزع كلمة من كلمتين أو أكثر، فهو نوع من الاختزال قد يكون نحتًا للكلمتين، وقد يكون لأكثر، كالبسملة من بسم الله الرحمن الرحيم، والحمدله من الحمد لله، والحوقلة والاسترجاع ونحو ذلك.

والسمعة والرياء بالبر». وجاء في كتب أهل الكتاب، في وصف أمة أحمد ﷺ: «علماء، حكماء، أبرار، أتقياء، كأنهم من الفقه أنبياء. يرضون من الله باليسير من الرزق، ويرضى الله منهم اليسير من العمل. يدخلهم الجَنَّة بشهادة أن لا إله إلا الله»(١).

واعلم ـ رحمني الله وإياك ـ أن لجثمانك حدٌّ ينتهي منه للموت، ولا يعود صالحًا في هذه الدنيا لحمل الروح، وهذا هو عمرك، ومستودع حياتك في ميدان الابتلاء ودار الفناء، وقد قال ﷺ: **«أعمارُ أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلّهم من يجوز ذلك»**(٢).

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم (٦/ ٣٢٠). واعلم أن لمفتاح الجنة شروطًا لا بدّ من اجتماعها، وهي علم ينافي الجهل، ويقين ينافي الشك، وقبول ينافي الردّ، وإخلاص ينافي الشرك، وانقياد ينافي الشرك، وصدق ينافي الكذب، ومحبة تنافي البغض. وقد نظمها بعضهم بقوله:

علمٌ يقينٌ وإخلاصٌ وصدقك مع ... محبةٍ وانقيادٍ والقبولِ لها

وقد نظمها الشيخ حافظ الحكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله:

العلم واليَقِين والقَبُولُ ... والانقيادُ فادْرِ ما أقُولُ

والصدقُ والإخْلاص والمحبة ... وفّقك الله لما أَحبَّه

(٢) الترمذي (٢٤٤٧)، وابن ماجه (٤٢٣٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني.

فعُمرك الافتراضي هو ما بين الستين إلى السبعين، وثلثه قرابة الإثنين وعشرين عامًا، والثاني إلى أربع وأربعين، وما بعده فهو الثلث الأخير، وقد تزيد سنيًّا فوقها، وقد يخترمك المنون قبلها، فالسعيد من هيَّأ داره بالصالحات قبل النُّقلة إليها، وألَان فراشه بالقربات قبل طول الرقدة في القبر، وأثقل ميزانه بالباقيات قبل تطاير الصحائف واشتداد المخاوف وطيش كِفَاف الموازين، والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا به.

وأبشر يا عبد الله بأمانِ الله لك في قبرك إن أطعته، فلا فزع ولا خوف ولا وحشة حين يُدبِرُ عنك أحبّ الناس إليك، فعملُك أنيسُك، وشوقُك للجنة ضجيعُك، ومنشورُ نجاتك بين يديك، فضلًا من الله وإحسانًا، فأحسن الظن به فإنه عند ظنك به، وثِقْ برحمته ولطفه وبره ولطفه، وارجه رجاء العاملين التوابين الصادقين، فإنه لا يُخيّب من رجاه، ولا يردّ من دعاه، ولا يُخسِّر من عامله، فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنَّ المَيِّتَ يَصِيرُ إلى القَبْرِ، فَيَجْلِسُ الرَّجُلُ الصّالحُ في قَبْرِهِ غَيْرَ فَزِعٍ ولاَ مَشْعُوف، ثُمَّ يُقالُ لَه: فِيمَ كُنْت؟ فَيَقُول: كُنْتُ في الإسلام، فيُقالُ له: ما هذا الرَّجُل؟ فَيَقُول: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ﷺ، جاءنا بِالبَيِّناتِ مِن عِنْدِ اللهِ فَصَدَّقْناه، فيقالُ له: هَل رَأَيْتَ الله؟ فَيَقُول: ما يَنْبَغِي لأَحَدٍ أن يرى الله، فَيُفْرَجُ لَهُ فُرْجَةٌ قِبَلَ النّارِ فَيَنْظُرُ إلَيْها يَحْطِمُ بَعْضُها بَعْضًا، فَيُقالُ لَه: انظُرْ إلى ما وقاكَ الله. ثُمَّ يُفْرَجُ لَهُ قِبَلَ الجَنَّةِ فَيَنْظُرُ إلى زَهْرَتِها**

وما فِيها، فَيُقالُ لَه: هَذا مَقْعَدُك، ويُقالُ لَهُ: عَلى اليَقِينِ كُنْت، وعَلَيْهِ مُتّ، وعَلَيْهِ تُبْعَثُ إنْ شاءَ الله..»[١].

وعن ابن الصلاح رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أنه قال: أخبرني الشيخ الصالح علي بن الرّواس، قدّس الله روحه، قال: «أُلهمتُ في النوم هذه الكلمات: ادفع المسألة ما وجدتَّ التجمّل يمكنك، فإن لكل يوم رزقًا جديدًا، والإلحاحُ في الطلب يذهب البهاء، وما أحسن الصنيع إلى الملهوف، وربما كانت الغِيَرُ نوعًا من أدب الله تعالى، والحظوظُ مراتب فلا تعجل على ثمرةٍ قبل أن تُدرَك، فإنك ستنالها في أوانها، ولا تعجل في حوائجك فتضيق بها ذرعًا ويغشاك القنوط»[٢].

وما أبلغ ما قال الرافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما أشبه النكبة بالبيضة، تُحسَبُ سجنًا لما فيها، وهي تحوطه وتربّيه وتعينه على تمامه، وليس عليه إلا الصبر إلى مدة، والرضا إلى غاية، ثم تفقس البيضة، فيخرج خلقًا آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين، وما المؤمن في دنياه إلا كالفرخ في بيضته»[٣].

أمَّا السَّفينةُ، وأمَّا الغُلامُ، وأمَّا الجِدَارُ.. اللّهمَّ صبرًا على ما لم نُحِطْ به خُبرًا، ورضًا يبلغ بنا رضوانك، وشكرًا يجبننا إليك، وحمدًا تباهي بنا

(١) ابن ماجه (٤٢٦٨) وصححه الألباني.
(٢) وفيات الأعيان، لابن خلّكان (٣/ ٢٤٥)
(٣) وحي القلم، للرافعي (٢/ ٩٧)

ملائكتك، ودينًا واصِبًا وعبوديةً لك حتى يأتينا اليقين، وفرحًا تامًّا كاملًا بك، إله الحق.

أيا غافرَ الذنبِ العظيم وساترَهُ ... ويا مَن له ذَلّتْ رقابُ الجبابرة

فَعَلْتَ بنا من أوّلِ الأمرِ كلَّه ... جميلًا فأَتْبعْ أوّلَ الأمرِ آخره

اللّهم يا واسع الفضل، يا عظيم المنِّ، يا كبير المعروف، يا قديم الإحسان، يا ربَّنا يا الله، نحن عبيدك وإماؤك، الفقراءُ إليك، المنكسرون بين يديك، الوَجِلُونَ المُشفِقُون الرّاغبون الرّاهِبونَ عَظَمَتَكَ، المُكَبِّرُون لكِبَرِكَ وكِبرِيائك، المُنطرِحُون لسطوة جلالك، المشتاقون لرؤية جمالك، المكتفون بكمالك، المُحِبُّونَكَ، الواثقون بكرمك، المؤمّلون مغفرتك، المتطلّعون لعفوك، الراجون رحمتك، الموقنون المؤمنون الشاهدون بِحَقِّكَ، المُتوكِّلُون عليك، المُسَبِّحُون الذّاكرون الأوّابُون الراكعون الساجدون الحامدون لك.

إلهنا؛ عبيدُكَ سوانا كثير، وليس لنا ربٌّ سواك ندعوه، ولا إلهٌ نصمدُ إليه، ولا ملجأٌ نعتصم به، فررنا منك إليك، وعُذْنَا برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك، وابتهلنا إليك من ذنوبنا وخطايانا وسيئاتنا وعجزنا وقصورنا وكسلنا وتقصيرنا وضعفنا وانقطاعنا، وما عبَدنَاك حقَّ عبادتك، ولا قدَرْناك حقّ قدْرِك، ولا شكرْنَاكَ حقَّ شُكرك. هذه نواصينا الخاطئة وجباهنا الظالمة وقلوبنا التائبة خاضعة بين يديك، عزَّ جارُك، وجلَّ ثناؤكَ، ولا إلهَ غيرُكَ.

اللّٰهم نسألك بوجهك الأكرم واسمك الأعظم وأسمائك الحسنى وصفاتك العلى العفوَ والمغفرة والرحمة والرضوان والفردوس الأعلى من الجنة بلا حساب ولا عذاب، ووالدينا ووالدِيهم وأهلينا وذرارينا وأقاربنا وجيراننا ومشايخنا وأحبابنا، إله الحق آمين، وصل اللّٰهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

فإن تماديتُ فاغفر إنني بَشَرٌ   وإن غفرتَ فاجزلْ إنك اللهُ

وكلنا عابرون، وإلى الآخرة راحلون، وإلى الله راجعون، اللّٰهم حُسْنَ العاقبةِ، ومجاورةً لنبيّك ﷺ في دار النعيم، وجِوَارًا مِن خِزْيِ الدّنيا وعذاب الآخرة، إله الحق.

هذا؛ وخلاصة الكتاب ـ فاعلم ـ: **لا تستبدِلْ أحَدًا بالله الأحد.**

وانتهى الأمر ربنا بحمدك كما ابتدأ بحمدك، ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٣٦ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ٣٧﴾ [الجاثية: ٣٦ - ٣٧].

وَصَلِّ إِلَهُنَا فِي كُلِّ حِينٍ   عَلَى مَنْ كَانَ لِلْمِسْكِ الخِتَامَا

حمدٌ وتسبيحٌ وابتهال

مَنْ ثَوَّرَ عَجَائِبَ القرآن العظيم بعلوِّ همّةٍ، وقوّة نيّة، وخُلُوصُ قصدٍ، وصفاءِ ذهنٍ، وحُسْنِ استقبالِ وافِدِ الهُدى، ورافِدِ التّدَبُّرِ لمباشرة كلام الرحمن بالعينِ والفمِ والإذنِ والجَنَانِ؛ لم يشبعْ مِن علومِه، ولم يرغَبْ عن فوائده، إذْ فطمته فرائده، فقد حَوَى علومَ الأوّلينَ والآخِرين، وهِداياتِ جميع المرسلين، وخَوَاصَّ ذخائرِ الخيرِ لجميع المؤمنين، فأصولُ الهدى والعلم والنور والسعادة بأزمّتها بين دِفَّتَيْهِ، فهو منهلٌ لا يَنْفَدُ عطاؤُهُ، ومنجمٌ لا تفنى كنوزُهُ، وبحرٌ لا ساحلَ لنهايات مَكَارِمه، وغيثٌ لا منتهى لبركاتِهِ، والناس في شأنه ما بين مُعْرِضٍ عنه أو مستقلٍّ منه أو مستكثرٍ.

فهو غنيمةُ الغنائمِ بحقٍّ لكلِّ راغبٍ إلى الهدى، صادقٍ في الطلب، مفتقرٍ للمولى الحقِّ المبين، فما من مسألةٍ علميّة، أو إشكاليّة فقهيّة، أو حيرةٍ فكريّة، أو همٍّ قلبيٍّ، أو غمٍّ رُوحِيٍّ، أو خوفٍ، أو قلقٍ، أو قسوةٍ، أو غفلةٍ، أو ضياعٍ، أو حيرة، أو قلق، أو جهلٍ، أو عَطَشِ رُوحٍ، أو جَوْعَةِ قلبٍ، أو نَفْثَةِ صدرٍ، إلا وفي القرآن شِفَاؤه وغَنَاؤه وغِذَاؤه ودَوَاؤه وكِفَايته، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النّحل: ٨٩].

وقبل الرحيل لنا وقفة على ساحل تدبر الكتاب العزيز، فتدبَّرْ ـ أسعدكَ الله ـ خوفَ الملائكةِ ربَّهم العظيم، مع أنّهم لا يعصونه طَرْفَةَ عينٍ ولا أقلّ من ذلك، فليست فيهم غريزة العصيان أصلًا، إذْ عصمهم الله تبارك وتعالى، وهم على الدوام مستغرقون في عبادته وتسبيحه وتحميده وتعظيمه سبحانه

وبحمده، ومع هذا كله فقد وصفهم الله تعالى بالخوفِ منه جلّ جلاله، وهو خوف الخشية لعلمهم بالله جل جلاله، قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٤٩ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ۝٥٠﴾ [النَّحل: ٤٩ - ٥٠] أي: يسجدون خائفين وَجِلِينَ من الربِّ عزّ وجل، مع أنهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التَّحريم: ٦]، ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾ [الأنبياء: ٢٠]، فهم مثابرون على طاعة الله تعالى، وامتثال أوامره، واجتناب مناهيه؛ فما سِرُّ تلك الخشية الملائكية؟!

إنّه العلم بالله تعالى، فمن كان بالله أعلم كان منه أخوف، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فَاطِر: ٢٨].

ونبينا ﷺ كان أتقى الناس وأخشاهم لله تعالى، وأشدهم خوفًا منه مع أنه كان مغفور الذنوب متقدّمها ومتأخّرها؛ لأنه كان أعلمهم بالله تعالى، فلله صفات الجلال والجمال وكمال الأفعال، وكلّ ما لله كمال، تبارك وتعالى وجلّ وعزّ وتقدّس، فلئن كانت الملائكة تخشى الله وهي الطائعة العابدة القانتة؛ فكيف بالإنسان العاصي المذنب الخطّاء الغافل، اللّهم رحماك رحماك، وسترك، ومغفرتك إله الحق.

روى الإمامُ مُسلم(١) بسنده عَن عَمْرو بن الشريد عَن أَبيه قَال: أردفني رَسُول الله ﷺ فَقَالَ: **«هَل مَعَك من شعر أُميَّة بن أبي الصَّلْت شَيْء»**؟ قَالَ:

(١) مسلم (٢٢٥٥)

نعم. قَالَ: «**هيه**». قَالَ: فَأَنْشَدته بَيْتا فَقَالَ: «**هيه**». قَالَ: فَأَنْشَدته حَتَّى بلغت مئَة بَيت. وَفِي رِوَايَة أنشدت النَّبِي ﷺ مائَة قافية من قَول أُميَّة بن أبي الصَّلْت كل ذَلِك يَقُول: «**هيه، هيه**». ثمَّ قَالَ: «**إِن كَاد فِي شعره ليُسْلِم**». ومما يُنسب لأمية بن أبي الصلت:

لَـكَ الحَـمـدُ وَالـنَعماءُ وَالمُـلـكُ رَبَّنـا ... فَـلا شَيءَ أَعـلى مِنـكَ مَجـدًا وَأَمجَـدُ
مَليـكٌ عَـلى عَـرشِ السَـماءِ مُهـيمِنٌ ... لِعِزَّتِـهِ تَعنــو الوجــوهُ وَتَسـجُدُ
عَلَيـهِ حِجابُ النـورِ وَالنـورُ حَولَـهُ ... وأَنهــارُ نــورٍ حولَــهُ تَتَوَقَّــدُ
فَلا بَصَــرٌ يَســمو إِلَيهِ بِطَرفِهِ ... وَدونَ حِجابِ النـورِ خَلـقٌ مُؤَيَّـدُ
مَلائِكَــةٌ أَقــدامُهُم تَحــتَ عَرشِــهِ ... ولــولا إلهُ الخَلْــقِ كَلّــوا وَأَبلَــدوا
قيــامٌ عَـلى الأَقـدامِ عـانينَ تَحتَـهُ ... فَرائِصُـهُم مِـن شِـدَّةِ الخَوفِ تُرعَـدُ
وَسِـبطٌ صُـفوفٌ يَنظُـرونَ قَضـاءَهُ ... يُصيخونَ بِالإِسماعِ لِلـوَحيِ رُكَّـدُ
أَمـينٌ لِـوَحي القُـدسِ جِبريـلُ فيهِم ... وَميكـالُ ذو الـروحِ القَـوِيُّ المُسَدَّدُ
وَحُـرّاسُ أَبـوابِ السَـمَواتِ دونَهُـم ... قيــامٌ عَلــيهِم بِالمَقاليــدِ رُصَّــدُ
فَـنِعمَ العِبـادُ المُصـطَفَونَ لِأَمـرِهِ ... وَمِــن دونِهِــم جنــدٌ كَثيـفٌ مُجَنَّـدُ
مَلائِكَــــةٌ لا يَفــــتَرونَ عِبــــادَةً ... كَروبِيَّــةٌ مِــنهُم رُكــوعٌ وَسُــجَّدُ
فَسـاجِدُهُم لا يَرفَـعُ الـدَهرَ رَأسَـهُ ... يُعَظِّـــمُ رَبًّـــا فَوقَـــهُ وَيُمَجِّـــدُ
وَراكِعُهُــم يَعنـو لَـهُ الـدَهرَ خاشِـعًا ... يُــــرَدِّدُ آلاءَ الإِلَــــهِ وَيَحمَــــدُ

وَمِـنهُمْ مُلِـفٌّ في الجَنـاحينِ رَأسَـهُ يَكـــادُ لِـــذِكرى رَبِّـــهِ يَتَفَصَّـــدُ
مِـنَ الخَـوفِ لا ذو سـأمَةٍ بِعبـادَةٍ وَلا هـوَ مِـن طـولِ التَعَبُّـدِ يَجهَـدُ
وَدونَ كَثيفِ المـاءِ في غـامِضِ الهَوا ملائِكَـــةٌ تَـــنحَطُّ فيـــهِ وَتَصـــعَدُ
وَبَـينَ طِبـاقِ الأَرضِ تَحتَ بُطونِها مَلائِكَـــةٌ بِـــالأَمرِ فيهـــا تَـــرَدَّدُ
فَسُبحانَ مَن لا يَعرِفُ الخَلقُ قَدرَهُ وَمَن هـوَ فوقَ العَرشِ فَردٌ مُوَحَّدُ
وَمَـــن لَم تُنازِعـــهُ الخَلائِـــقُ مُلكَـــهُ وَإِن لَم تُفَـــرِّدهُ العِبـــادُ فَمُفَـــرَدُ
مَليكُ السَـمَواتِ الشِـدادِ وَأَرضِـها وَلَيس بِشَيءٍ عَن قَضـــاهُ تَأَوُّدُ
هو اللهُ باري الخَلقِ وَالخَلقُ كُلُّهُم إِمـــاءٌ لَـــهُ طَوعًـــا جَميعًـــا وَأَعبُـــدُ
وَأَنّى يَكونُ الخَلقُ كَالخالِقِ الَّذي يَـــدومُ وَيَبقـــى وَالخَليقَـــةُ تَنفَـــدُ
وَلَـيسَ لِمَخلـوقٍ مِـنَ الـدَهرِ جِـدَّةٌ وَمَـن ذا عَـلى مَـرِّ الحَـوادِثِ يَخلُـدُ
وَتَفنـى وَلا يَبقـى سِـوى الواحِـدُ يُميـتُ وَيُحيِـي دائِبًـا لَـيسَ يَهمَـدُ
تُسَـبِّحُهُ الطَـيرُ الجَـوانِحُ في الخَفـى وَإِذ هِـيَ في جَـوِّ السَـماءِ تُصَـعَّدُ
وَمِن خَوفِ رَبّي سَبَّحَ الرَعدُ فَوقَنا وَسَـبَّحَهُ الأَشـجارُ وَالـوَحشُ أَبَّـدُ
وَسَـبَّحَهُ النينـانُ وَالبَحـرُ زاخِـرًا وَمـا طَـمَّ مِـن شَيءٍ وَمـا هُـوَ مُقَلِـدُ
أَلا أَيُّهـا القَلـبُ المُقيـمُ عَلى الهَـوى إِلى أَيِّ حـينٍ مِنـكَ هَـذا التَصَـدُّدُ
عَـنِ الحَـقِّ كَـالأَعمى المُـميطِ عَـنِ وَلَـــيسَ يَـــرُدُّ الحَـــقَّ إِلاّ مُفَنِّـــدُ
وَحـالاتِ دُنيـا لا تَـدومُ لِأَهلِهـا فَبَينـا الفَتـى فيهـا مَهيـبٌ مُسَـوَّدُ

إِذِ انقلَبَـــت عَنـــهُ وَزالَ نَعيمُهـــا ... وَأَصبَحَ مِـن تَـربِ القُبـورِ يُوَسَّـدُ
وَفـارَقَ روحًـا كـانَ بَـينَ جَنانِـهِ ... وَجـاوَرَ مَـوتى مـا لَهُـم مُـتَرَدَّدُ
فـأَيّ فَتــىً قَــبلي رأَيــتَ مُخَلَّــدًا ... لَـهُ في قَـديمِ الـدَهرِ مـا يَتَـوَدَّدُ
وَمَــن يَبتَليــهِ اللهُ مِنــهُ بِعَثــرَةٍ ... سَــيَكبو لَهَــا وَالنائِبــاتِ تَــرَدَّدُ
فَلَـم تَسـلَمِ الـدُنيا وَإِن ظَـنَّ أَهلُهـا ... بِصِـــحَّتِها وَالـــدَهرُ قَـــد يَتَجَـــرَّدُ
أَلَستَ تَـرى فيما مَضـى لَـك عِـبرَةً ... فَمَـهْ لا تَكُـن يـا قَلـبُ أَعمـى يُلَـدَّدُ
فَكُـن خائِفًـا لِلمَـوتِ وَالبَعثِ بَعدَهُ ... وَلا تَـكُ مِمَّــن غَــرَّهُ اليَــومُ أَو غَـدُ
فَإِنَّــكَ في دُنيــا غُــرورٍ لِأَهلِهــا ... وَفيهـا عَـدوٌّ كاشِـحُ الصَـدرِ يُوقِـدُ
وسـاكِنُ أَقطـارِ الرَقيـعِ عَـلى الهَـوا ... وَمِـن دونِ عِلـمِ الغَيـبِ كُـلٌّ مُسَـهَّدُ
وَلـولا وِثـاقُ اللهِ ضَـلَّ ضَـلالُنا ... وَقَـد سَرَّنــا أَنّــا نُتَـلُّ فَنُــوأَدُ
تَرى فيهِ أَخبارَ القُرونِ الَّتي مَضَت ... وَأَخبــارَ غَيــبٍ في القِيامَــةِ تَنجُــدُ
وَلَــيسَ بِهــا إِلا الــرَقيمُ مُجـاوِرًا ... وَصِيدُهُمُ وَالقَومُ في الكَهفِ هُمَّدُ

تمّ بحمد الله

مؤلفات إبراهيم بن عبد الرحمن الدميجي

موسوعة

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

١- مقدّمات في أقوال وأعمال القلوب.
٢- الإخلاص والتوحيد.
٣- العبودية.
٤- الصّدق والتّصديق.
٥- محبّةُ الله تعال.
٦- الشّوقُ إلى لقاء الله تعالى.
٧- الأُنسُ بالله تعالى.
٨- الإرادة.
٩- العزم.
١٠- الرّجاء.
١١- الرّغبة.
١٢- التّوكّلُ على الله تعالى.
١٣- حُسنُ الظّنّ بالله تعالى.
١٤- الثقةُ بالله تعالى.
١٥- الافتقارُ إلى الله تعالى.
١٦- الاستغناءُ بالله تعالى.
١٧- التعلُّقُ بالله تعالى.
١٨- الالتجاءُ إلى الله تعالى.
١٩- الاعتصامُ بالله تعالى.
٢٠- سلامةُ الصّدر.
٢١- العفاف.
٢٢- الصَّبر.
٢٣- الرّضا بالله تعالى.
٢٤- شكر الله تعالى.
٢٥- حمد الله تعالى.
٢٦- الفرح بالله تعالى.
٢٧- ...

سلسلة: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾

١- محمد رسول الله ﷺ.
٢- هل انتشر الإسلام بالسيف؟
٣- كشف شبه أهل الكتاب عن الإسلام (١٣) شبهة.
٤- النصرانية من التوحيد إلى الوثنية.
٥- أخلاق الكنيسة وأخلاق الإسلام.
٦- يا سائلًا عن بني إسرائيل.
٧- المسجد الحرام والحج في صحف أهل الكتاب.
٨- سبع بشارات توراتية برسول الله ﷺ.
٩- أشهر بشارات العهد الجديد برسول الله ﷺ.
١٠- نظرة فاحصة في الكتاب المقدّس (البيبل).
١١- العقائد النصرانية في الميزان.
١٢- ربحت محمدًا ولم أخسر المسيح عليهما السلام.

كتب منوّعة

١- (ولا تفرّقوا) معالم وتأصيلات.
٢- حديث الإفك (عَبرات وعِبر).
٣- لله درّك يا كعب.
٤- إذا ذُكر الصالحون فحيهلًا بعمر.
٥- كفاءة النسب وزيوف الجاهلية.
٦- صفحة مطوية من تاريخ الجزيرة العربية (إخوان من طاع الله).
٧- (ويكون الدين كله لله).
٨- نافذة على قصة الحضارة لديورانت.
٩- المُدهشات. (منتخبات من المدهش).
١٠- تهافت الليبرالية، أركون أنموذجًا.
١١- متى يشرع البحث في تفاصيل القدر.
١٢- وقد يجمع الله الشتيتين.
١٣- دموع على سفح الفؤاد.
١٤- نَظَرَاتٌ في أعماق النفس الإنسانية.
١٥- أزمة الفكر المادي.
١٦- السَّلفيّة محضُ الإسلام العتيق.
١٧- إضاءة الجنان من أضواء البيان (في حجاب الوجه).
١٨- رقائق المتقين.
١٩- شعاعُ الفكر (١) مقالات شرعية.
٢٠- شعاعُ الفكر (٢) مقالات فكرية وأدبيّة.
٢١- مختارات من البداية والنهاية، للشيخ محمد الدميجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (تحقيق).
٢٢- من رسائل وقصائد العلماء، للشيخ محمد الدميجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (تحقيق).
٢٣- الحنيفيّةُ، مِلّةُ إبراهيم عليه السلام.
٢٤- مِن سِيَرِ الرَّاحِلين.
٢٥- انفساخُ العَزَائِم وانتقاضُ الدَّعَائِم.
٢٦- مقدِّمةُ الحَمويّةِ، طلعَ الصَّباحُ فَأَطْفِؤُا القِنديلَا.

٢٧- صَقِيعُ الفلاسفة (كيف تؤذي الفلسفة غير الرشيدة طمأنينة النفوس).
٢٨- مسائل مُلِحَّةٌ في القَدَر.
٢٩- من هو الماهر بالقرآن.
٣٠- مباحث فقهية.
٣١- معالم التوحيد والحنيفيّة في سيرة خير البرية ﷺ.
٣٢- إرشاد الحفّاظ في متشابه الألفاظ للقرآن الكريم.
٣٣- الإعجاز الربَّاني في اليهود.
٣٤- مَعْدِنُ الشَّجَاعَةِ والكَرَمِ.
٣٥- تعقيباتٌ على كتب شريفاتٍ، (على شرحي الإمامين النووي وابن حجر للصحيحين).

- ولمن شاء تحميل جميع كتبي مجّانًا بصيغة pdf: اكتب في قوقل: (حمّل مجّانًا مؤلفات إبراهيم الدميجي). وستجدها كذلك في مدونتي الشخصية بإذن الله تعالى.

الصف والتنسيق: لميس الغديري
@ Lamees_Majeed
٠٠٩٠٥٣٩٤٣٩٧١٩٩